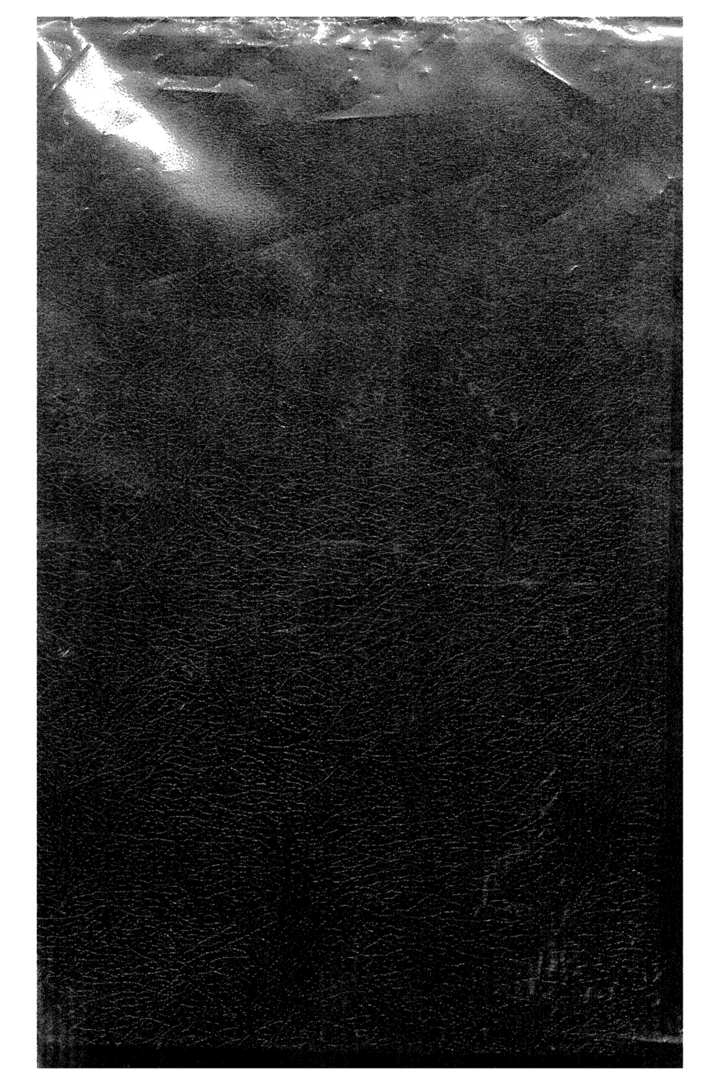




المجلد العشرون - العدد الثالث - أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٨٩





"مجلة عالم الفكر"
قواعد النشر بالمجلة

(١) « عالم الفكر » مجلة ثقافية فكرية محكمة ، تخاطب خاصة المثقفين وتهتم بنشر الدراسات والبحوث الثقافية والعلمية ذات المستوى الرفيع .

(٢) ترحب المجلة بمشاركة الكتاب المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات - والبحوث المتعمقة وفقا للقواعد التالية :-

(أ) أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره .

(ب) أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بالتوثيق والمصادر مع الحاق كشف المصادر والمراجع في نهاية البحث وتزويده بالصور والخرائط والرسوم اللازمة .

(جـ) يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين ١٢,٠٠٠ الف كلمة ، ١٦,٠٠٠ ألف كلمة .

(د) تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الالة الطابعة ولا ترد الأصول الى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .

(هـ) تخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمي على نحو سرى .

(و) البحوث والدراسات التى يقترح المحكمون اجراء تعديلات أو اضافات اليها تعاد الى أصحابها لاجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها .

(٣) تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التى تقبل للنشر ، وذلك وفقا لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة كما تقدم للمؤلف عشرين مستلة من البحث المنشور .

ترسل البحوث والدراسات باسم :

وكيل الوزارة المساعد لشئون الثقافة والصحافة
وزارة الاعلام - الكويت - ص ب ١٩٣
الرمز البريدي 13002

عالم الفكر

رئيس التحرير: محمد يوسف الرومي
مستشارة التحرير: دكتورة نورية صالح الرومي

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * اكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٨٩ م
المراسلات باسم الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة - وزارة الاعلام - الكويت ص . ب ١٩٣ الرمز 13002

المحتويات

الألسنية

•••

مطالعات

•••

من الشرق والغرب

•••

صدر حديث

المحرر الضيف لمحور العدد

الأستاذ الدكتور أحمد مختار عمر

المحرر الضيف لعدد
(الألسنية)

هو الأستاذ الدكتور/ أحمد مختار عمر

أستاذ علم اللغة بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة والمعار حالياً لقسم اللغة العربية بكلية الآداب ـ جامعة الكويت والحائز على جائزة ووسام صدام للدراسات اللغوية ١٩٨٩م .

المصطلح الألسني العربي وضبط المنهجية

أحمد مختار عمر
الأستاذ بكلية الآداب ـ قسم اللغة العربية

التمهيد

إذا كانت كتابة العلوم باللغة العربية تعاني من مشكلة نقص المعروض من مصطلحات عربية ، ومن تفضيل كثير من المؤلفين الكتابة بغير العربية ـ فإن الكتابة الألسنية باللغة العربية تعاني من مشكلتين حادتين هما :

أولا : كثرة ما تقذفه المطابع كل عام من كتابات باللغة العربية ، وما يصحبها من إدخال مصطلحات جديدة كل يوم دون أن تتوافر لها شروط المصطلح ، مما خلق مجالات كثيرة للتعارض والتصادم بين هذه المصطلحات ومستخدميها بعضهم مع بعض .

ثانيا : تشابك الفترة الزمنية للدراسات القديمة والحديثة وامتدادها عبر مئات السنين ، مما أدى الى اشتداد الصراع بين أنصار المصطلح القديم والمصطلح الجديد واختلاط المفاهيم ، ونشوء نوع من الاحتكاك بين من يسمون بالتراثيين ، ومن يسمون بالتجديديين .

فإذا كانت مصطلحات العلوم تعاني من مشكلة التعريب ، فإن مصطلحات الألسنية تعاني من مشكلة التوحيد . وإذا كان العلميون يشكون من اتخاذ لغة غير العربية أداة للتعبير ، فإن الألسنيين يشكون من استخدام لغة عربية لم ترق في تعبيراتها المتخصصة إلى مستوى « المصطلح » . ولولا أن كثيرين ممن يقدمون المفاهيم الأجنبية في لفظ عربي يقرنون المصطلح العربي بنظيره الأوربي لغمض فهم المصطلح العربي على الكثيرين ، ولكان هذا المصطلح عامل تفريق لا تجميع ، وما كان هناك حد أدنى من الاتصال بين ألسنيِّ قطر عربي وألسنيِّ قطر عربي آخر ، بل ألسني وآخر في داخل القطر الواحد .

وإذا كان صحيحا ما يقال عن ولادة علم جديد أو اتجاه جديد ، في الستينيات ، في حقل الدراسات اللغوية العربية استحق أن يميز باسم خاص به وهو « الألسنية » فإن التسليم بهذا القول يقتضي أولا بيان حدود العلم وإنشاء شبكة من المصطلحات له تساعد على ضبط مفاهيمه وتصنيف ظواهره .

وإذا كان أول مظهر من مظاهر اكتمال العلوم واستقلالها وتكامل رصيدها الفني ـ كما يقول المسدى ـ هو إفرازها لثبتها الاصطلاحي الخاص بها ، فإن الدراسة الألسنية العربية ما تزال بعيدة عن تحقيق هذه الغاية ، وما يزال التأليف المعجمي في مصطلحاتها الحديثة في طور التكوين مقارنا بما صدر ويصدر من معاجم وموسوعات بغير اللغة العربية[١] .

والحديث عن مشكلات المصطلح الألسني العربي حديث متعدد الجوانب متشعب الأطراف ، ولذا لا يستطيع كاتب أن يلم بها في عجالة كهذه ، وإنما عليه أن يختار ما يراه أهم جوانبها .

وقد رأيت في هذا التمهيد أن أركز على جوانب أربعة هي :

١ ـ مصطلح « الألسنية » .
٢ ـ واقع المصطلح الألسني العربي .
٣ ـ الاتجاهات السائدة لصوغ المصطلح .
٤ ـ وسائل ضبط المنهجية وتوحيد المصطلح .

مصطلح الألسنية :

راجت في الأعوام الأخيرة مصطلحات ثلاثة تنافست للظفر بحق الإطلاق على حقل الدراسات اللغوية الحديثة وهي : « علم اللغة » ، و « اللسانيات » ، و « الألسنية » . وقد اخترنا مصطلح « الألسنية » لنطلقه على هذا العدد الخاص من « عالم الفكر » رغم أنه ليس أكثر الألفاظ الثلاثة[٢] شيوعا لجملة أسباب منها :

---

(١) قارن ما صدر من معاجم باللغة العربية ـ على سبيل المثال ـ بعملين رائدين صدرا باللغة الإنجليزية أحدهما : A Grand Dictionary of Phonetics الذي أصدرته الجمعية الصوتية اليابانية عام ١٩٨١ بعد أن أصدرت معجما مماثلا باليابانية عام ١٩٧٦ . وقد أنفقت الجمعية عشرين سنة في جمع مصطلحات المعجم واختارت من بين مادته التي جمعتها نحوا من اثنين وعشرين ألف مصطلح ضمنتها هذا المعجم .

أما العمل الآخر فهو : The Cambridge Encyclopedia of Language تأليف David Crystal الذي هدف من تأليفه ـ كما قال في تمهيده ـ إلى الكشف عن سحر الألسنية ودورها اللذي قامت به سواء في مجال تركيب اللغة وتطورها واستعمالها أو في المجالات التطبيقية الأخرى المتصلة بمشكلات الأفراد والمجتمعات .

(٢) مازال مصطلح « علم اللغة » هو أكثر الألفاظ الثلاثة شيوعا رغم محاولات الترويج لأحد المصطلحين الآخرين .

فبتحليل القائمة البيليوجرافية التي حصرت الدراسات الألسنية التي تتناول اللغة العربية ، الواردة بمجلة « الفكر العربي » (العدد الخاص بالألسنية ١٩٧٩) والتي اشتملت على بضعة وخمسين بحثا وكتابا نشر معظمها في السنوات العشرين السابقة لصدور هذا العدد نجد كلمة « لغة » قد ترددت ثلاثا وثلاثين مرة ، في حين ترددت كلمتا : « لسان » و « ألسنية » خمس مرات فقط .

وبتحليل عناوين الكتب والأبحاث العربية في ميدان علم اللغة الحديث ـ التي وقفت عليها ـ ويصل عددها إلى نحو خمسين كتابا وبحثا نجد النتيجة كما يأتي :

علم اللغة : ٢٥ عنوانا .
ألسنية : ١٠ عناوين .
لسانيات : ٥ عناوين .

وجاء أقل من ذلك عناوين أخرى مثل : علم اللسان ـ الدراسات اللغوية ـ البحث اللغوي .

أولا : أن مصطلح « علم اللغة » قد مرَّ بمراحل كثيرة ، وتقلبت عليه مناهج متعددة قديمة وحديثة ، فصار في حاجة إلى وصف توضيحي لتحديد مجاله أو منهجه ، كأن يقال : علم اللغة الحديث ، علم اللغة العام . .

كذلك يختلط مصطلح « علم اللغة » كثيرا ، وبخاصه في مجال الاصطلاح الجامعي بمصطلح آخر هـو « فقه اللغة » ، مع الفارق الكبير بينهما .

ثانيا : أن مصطلح « علم اللغة » يلتبس في ذهن الكثيرين بتعليم اللغة ، وأن مصـطلح « اللغوي » يلتبس بالمفهوم العام للفظ ، وهو الشخص الذي يتقن عدة لغات أجنبية . وقد حدث هذا الالتباس حتى بالنسبة لمقـابله الإنجليزي Linguist الذي يفهمه الكثيرون على أنه من يتقن عدة لغات ، ولهذا ظهر المصطلح الجديد Linguistician ليكون خاصا بعالم اللغة ، وإن لم يكتب لهذا المصطلح الرواج بعد .

ثالثا : أن كلمة « لغة » لم تكن تستخدم في الاستعمال القديم بمعناها المعروف الآن ، وإنما كانت تستخدم بمعنى اللهجة . ولم ترد كلمة « لغة » في القرآن الكريم إطلاقا ، وإنما وردت كلمة « لسان » (وجمعها ألسنة) للدلالة على جملة معان منها :

١ ـ آلة الكلام : « ألم نجعل له عينين ، ولسانا وشفتين » (البلد ٩) .

٢ ـ اللغة ، بمعنى رصيد الكلمات والقواعد الذي تملكه الجماعات اللغوية : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » (إبراهيم ٤) .

٣ ـ الكلام ، بمعنى الاستعمال الفردي للغة : « لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم » (المائدة ٧٨) .

٤ ـ الأسلوب ، بمعنى الخاصة الفردية للمتكلم : « وأخي هارون هو أفصح مني لسانا ، فأرسله معي رِدْءا » (القصص ٣٤) .

ومعنى هذا أن كلمة « لسان » أكثر شمولية واستيعابا من كلمة « لغة » .

رابعا : أن كلمة « لسان » تعد من المعجم الأساسي المشترك في اللغات السامية . وقد ترددت في فهرست ابن النديم بمعنى لغة في مثل قوله : اللسان العربي ، اللسان السرياني ، اللسان اليوناني . . في حين أن كلمة « لغة » يونانية الأصل . (علم اللغة العربية لحجازي ص ٣١٠ وما بعدها) .

خامسا : أن إطلاق اسم على الدراسات اللغوية مشتمل على كلمة « لسان » إطلاق قديم ، عكس ما يتوهمه الكثيرون . فقد أطلق الفارابي في « إحصاء العلوم » على العلوم اللغوية اسم « علوم اللسان » . وأطلق أبـو حيان النحوي على علوم اللغة مصطلح « علوم اللسان العربي » . وتابعه ابن خلدون في هذا فعقد في مقدمته فصلا بعنوان « في علوم اللسان العربي » .

وحتى في العصر الحديث كان استخدام « علم اللسان » ، و « الألسنية » أسبق في الوجود من مصطلح « علم اللغة » .

وقد نشر الأب مرمرجي الدومينيكي عدة أبحاث حملت اسم « الألسنية » نشر أولها في مدينة القدس عام ١٩٣٧ باسم « المعجمية العربية في ضوء الثنائية والألسنية السامية » . وترجم الدكتور محمد مندور بحثا لأنطوان مايبه تحت اسم « علم اللسان » ، ونشر ذلك عام ١٩٤٦ كفصل في كتاب بعنوان « منهج البحث في اللغة والأدب » .

وهكذا حسمنا الأمر بالنسبة للاختيار بين مصطلحي « لغة » و « لسان » ، ولكن بقي حسم الأمر بالنسبة لمصطلحي « اللسانيات » و « الألسنية » .

من الواضح ـ بادىء ذي بدء ـ أن كلا من المصطلحين قد كتبت له السيادة في منطقة عربية دون أخرى . فإذا كان مصطلح « علم اللغة » قد شاع في معظم بلدان المشرق العربي ، فإن مصطلح « الألسنية » قد شاع في لبنان[3] بالذات ، ومصطلح « اللسانيات » أصبح هو الشائع الآن في بلدان المغرب العربي ، وبخاصة بعد أن اتخذت ندوة « اللسانيات واللغة العربية » (الملتقى الثالث للسانيات ـ تونس ١٩٧٨) توصية باستخدام مصطلح « اللسانيات » اسما لهذا العلم ، بدلا من مصطلح « الألسنية » . وأخذ اللغويون التونسيون والمغاربة يلتزمونه في معظم ما ينشرونه أو يقيمونه من ندوات[4] ، كما روج له بعض اللغويين السوريين[5] .

فلماذا فضلنا مصطلح « الألسنية » على « اللسانيات » ؟ واخترناه عنوانا لهذا العدد الخاص ؟

هناك جملة اعتبارات كانت في الذهن عند اختيار هذا المصطلح ، أهمها :

أولا : ان علم اللغة الحديث لا يختص بلغة معينة ، وإنما يدرس أي لغة ، ويحلل أي مستوى داخل اللغة الواحدة . فمعنى الجمعية ملحوظ في وظيفة هذا العلم ، ولذا يناسبه لفظ الجمع « ألسن » لا المفرد « لسان » .

---

(٣) مما ظهر من ذلك : الألسنية ولغة الطفل لجورج كلاس ، والألسنية العربية (جزءان) لريمون طحان ، والألسنية (ثلاثة أجزاء) لميشال زكريا ، والألسنية والنقد الأدبي لموريس أبو ناضر ، ورواد الألسنية الحديثة لمتري بولس

(٤) مما ظهر من ذلك في المغرب : البنيوية في اللسانيات ، والندوة الدولية الأولى لجمعية اللسانيات ، ومجلة تكامل المعرفة ، عدد خاص عن اللسانيات . وفي الجزائر : مجلة اللسانيات ، ومحاضرات في اللسانيات الحديثة . وفي تونس . قاموس اللسانيات ، والملتقى الثالث للسانيات ، واللسانيات واللغة العربية ، واللسانيات من خلال النصوص . ومع ذلك تذبذب الكتاب المغاربة بين أكثر من مصطلح ، فاستعملوا إلى جانب « اللسانيات » : « الألسنية » مثل « مفاتيح الألسنية » (تونس ١٩٨١) ، و « دروس في الألسنية العامة » (تونس ١٩٨٥) . ولهذا فلا صحة لما يقوله المسدي من أن مصطلح الألسنية لم يعد يستعمل عند التونسيين بعد عام ١٩٧٨ (قاموس اللسانيات ، ص ٧٠) . كما استخدموا كذلك علم اللسان ، والتفكير اللساني ، والمصطلحات اللغوية (الأخير في كتاب صدر ١٩٨٧) ، وعلم اللغة (في كتابين صدرا عام ١٩٧٧ ، ١٩٨٥) . والمسدي نفسه في مقاله : الفكر العربي والألسنية (١٩٧٨) استخدم مصطلحات : علوم اللسان ، الألسنية ، البحث الألسني ، علوم اللغة ، الدراسة اللغوية ، الدراسات الألسنية . الخ .

(٥) انظر : مازن الوعر . قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث ، (١٩٨٨) .

ثانيا : أنه لم يعد هناك حرج في النسب إلى جمع التكسير على لفظه بعد أن أقر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ذلك ، وبخاصة حين يكون الجمع اسما لعلم من العلوم . وقديما نسب إلى علم الأصول ، فقيل « أصولي » ، وإلى الأخبار فقيل « أخباري » .

ثالثا : أن التصرف في لفظ « ألسنية » أسهل من التصرف في لفظ « لسانيات » فحين نأخذ الصفة من الأول نقول : دراسات ألسنية ، وحين نتحدث عن المشتغل بهذا العلم نقول : ألسني ، بإبقاء الجمع على حاله . ولكن إذا أردنا أن نأخذ الوصف من « اللسانيات » فلا نقول ـ وليس من المستساغ أن نقول ـ « دراسات لسانياتية » ، ولا « لسانياتي » ، ولذا يردّ الجمع الى مفرده عادة فيقال « لسانية » ، و « لساني » .

رابعا : أن اللبس الذي يحدث عند استخدام المصطلح « لغوي » وعدم القطع ما إذا كان نسبة إلى « اللغة » أو « علم اللغة » ، والذي فضلنا ـ من أجله ـ ترك هذا المصطلح ، يحدث نفسه إذا استخدمنا لفظ « لسانيات » . فحين النسبة سنقول : « لساني » فلا يدري أهي نسبة إلى « اللسان » أم إلى « اللسانيات » .

ولكن هذا المحظور يزول باستخدام كلمة « ألسنية » اسما للعلم . فحين النسبة إلى الجمع « ألسني » يكون المراد النسبة إلى العلم . أما إذا نسبنا الى المفرد فقلنا « لساني » فتكون النسبة إلى « اللسان » بمعنى « اللغة » لا بمعنى العلم الذي يدرس اللغة[٦] .

واقع المصطلح الألسني العربي :

هناك نوعان اثنان من المصادر يمكن من خلالها دراسة واقع المصطلح الألسني العربي :

أولها الكتب المؤلفة في بعض مباحث العلم ، وبخاصة تلك التي تتعامل مع مفاهيم غربية جديدة ، لها في لغتها مصطلحاتها الخاصة التي يراد التعبير عنها بمصطلح عربي .

وثانيها ما ألف من معاجم أو مسارد لهذه المصطلحات ، وهي في معظمها تتخذ المصطلح الأجنبي أو المفهوم الأجنبي منطلقا للبحث عن مقابل عربي . وليس العكس

---

(٦) من الغريب أن يكون أشد المدافعين عن المصطلح « لسانيات » هو أشد الرافضين للمصطلح « لغويات » على أساس أن اللفظ الأخير حين احتوى في تركيبته على صيغة النسبة « لغوي » ، أصبح من المتعذر أو كالمتعذر استعماله مصطلحا للعلم ، تنعت به وينسب إليه إذ من غير المستساغ اشتقاق « لغوياتي » أو « لغوياتية »
(المسدي قاموس اللسانيات ص ٦٩)

وفاته أن ما انتقد به المصطلح « لغويات » ينسحب بالضرورة على المصطلح « لسانيات » إذ من غير المستساغ أن يقال « لسانياتي » أو « لسانياتية » . وإذا كان المسدي قد تخلص من هذا المحظور عن طريق النسب وأخذ الصفة من المفرد فقال « لساني » و « لسانية » فقد كان يمكن أن يفعل نفس الشيء مع « لغويات » .

وإذا كان محمد رشاد الحمزاوي قد جمع بين المصدرين في عمل واحد هو كتابه « المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية » فإن عمله هذا يعد ـ من ناحية ـ قطرة في بحر ، كما يعد ـ من ناحية أخرى ـ عملاً تراثيا دخل ذمة التاريخ . فقد ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٧٧ ، واعتمد على مؤلفات يعود بعضها إلى الخمسينيات ، ومعظمها إلى الستينيات ، مسقطا بذلك عشر سنوات هامة من تاريخ الألسنية . ولم يدخل المؤلف ـ مع الأسف ـ على كتابه أي إضافة أو تعديل أو تصويب في طبعته الثانية عام ١٩٨٧ في حين أن البحث الألسني العالمي يقفز كل يوم قفزات هائلة ، ويقدم تصورات ومفاهيم جديدة تجعل أي بحث أو عمل مسحيّ في الألسنية متخلفا خلال بضع سنوات .

ولعل أهم معاجم المصطلحات الألسنية المتعددة اللغة التي صدرت في الثلاثين سنة الأخيرة ـ إلى جانب معجم الحمزاوي هي :

١ ـ مجموعة المصطلحات اللغوية ، التي بدأ مجمع اللغة العربية بالقاهرة في وضعها عام ١٩٦٢ ، ووردت ضمن مجموعات المصطلحات العلمية والفنية في أجزاء كثيرة متتابعة . وهو المعجم الوحيد الذي ظهر بجهود هيئة علمية حتى الآن . ولكنه ـ مع الأسف ـ شديد القصور ، وواضح الجمود بعد هجره لعدة سنوات ، وعدم تزويده بالمصطلحات المستجدة أولا فأولا .

٢ ـ معجم علوم اللغة ، الذي أعده عبد الرسول شاني ونشرته مجلة اللسان العربي عام ١٩٧٧ في المجلد الخامس عشر ـ الجزء الثاني .

٣ ـ معجم علم اللغة النظري ، من إعداد محمد علي الخولي . وقد صدر عام ١٩٨٢ .

٤ ـ معجم مصطلحات علم اللغة الحديث ، من إعداد نخبة من اللغويين العرب ، وقد صدر عام ١٩٨٣ .

٥ ـ قاموس اللسانيات ، من إعداد عبد السلام المسدي ، وقد صدر عام ١٩٨٤ .

٦ ـ معجم علم اللغة التطبيقي ، من إعداد محمد علي الخولي . وقد صدر عام ١٩٨٦ .

ويعيب معظم هذه المعاجم اكتفاؤها بمجرد ذكر المصطلح الأجنبي ومقابله العربي ، دون تعرضها لشرح المصطلح وتحديد مفهومه ، كما يعيبها جميعها أنها قاصرة غير مستوعبة ، وأنها تمثل اجتهادات شخصية لأصحابها ، ولا تخضع لمنهجية مضبوطة ، وأنها ينقصها التجديد من آن لآخر .

ولنبدأ بمصطلحات عبد القادر الفاسي الفهري في أبحاثه وكتبه فنلاحظ عليها أنها تتسم بالابتكار ، والتوسع في التعريب ، وإدخال صيغ ومشتقات غير مألوفة في لغة « الألسنية » ، ومن ذلك :

- استخدامه مصطلح « التأسيم » في مقابل : nominalisation
- و « المكون الصّواتي » في مقابل phonological Component
- « والمَوضَعة » في مقابل : topicalisation
- و « النفس لسانيات »
- و « السيكولسانيات » ـ في مقابل psycholinguistics
- و « التبئير » في مقابل focalisation
- و « تركيب مُبَأّر » في مقابل focused construction
- و « ميتا متغير » في مقابل metavariable

أما رشاد الحمزاوى فهو أكثر جرأة من الفهرى من ناحية ، وأكثر ذاتية في صك المصطلح من ناحية ثانية ، وأقل اطرادا مع نفسه في استخدامه للمصطلح من ناحية ثالثة مع أنه يعتبر نفسه من المنظِّرين في مجال المصطلح بعامة ، والمصطلح اللغوى بخاصة :

- فهو يطلق على علم الدلالة : السيميّة .
- ويستخدم « علم اللغة النفسانى » ، بدلا من « النفسى » .
- ويبقى المصطلح الأجنبى كما هو ـ دون حتى محاولة تعريبه وإخضاعه للصياغة العربية ـ فيستخدم مصطلحات مثل : « إبستمولوجيا » ، و « أبلاتيف » ، و « أكوستيكى » ، و « جراماطيقا » ، و « دياكرونى » ، و « فوناتيك » ، و « برادجماتى » ، و « سنتجماتى » و « ساميولوجيا » . . وغير ذلك .
- ولا يلتزم بمقابل واحد للمصطلح الأجنبى فكلمة accent يقابلها « بالنبر » ، و « النبرة » ، و « الضغط » . وكلمة synchronic يقابلها مرة بكلمة « متزامن » ، ومرة « أفقى » . و bilabial عنده : « شفوى » ، و « شفتانى » ، و « بين الشفتين » و phoneme عنده مرة « صوتم » ، ومرة « فونم » .
- وهو في معظم حالاته لايربط الألفاظ المترادفة ، ولا يستخدم نظام الإحالة .
- وقد يجانبه التوفيق في المقابل العربي الذى يستخدمه . فمصطلح affricate قابله بلفظ « شديد » والصواب مقابلته بأحد مصطلحات ثلاثة يستخدمها الألسنيون وهى « مزجى » ، « مركب » ، « شديد رخو » . ومصطلح assimilation يقابله مرة بلفظ « إدغام » ، ومرة بلفظ « تماثل » . والصحيح مقابلته بلفظ « مماثلة » .

ونعرض الآن بعض المصطلحات اللغوية متتبعين إياها في عدد من المصادر العربية لنرى مدى الاضطراب في صوغها ، والتباين في عرضها :

١ ـ المصطلح Phoneme ويرتبط به مصطلحان آخران هما allophone و phone تباينت فيها المقابلات العربية على النحو التالى :

phoneme	allophone	Phone	المصدر
١ ـ فونيم	ألوفون	فون	دراسة الصوت اللغوى
٢ ـ صوتم	صوتم تعاملى	صوت	قاموس اللسانيات
٣ ـ صوت/ صوتم	—	—	دروس في علم أصوات العربية
٤ ـ فونيم/ فونيمية/ صوتيم/ صوت مجرد	ألوفون/ متغير صوتى	صوت لغوى / صوت كلامى	معجم علم اللغة النظرى
٥ ـ فونيم	ألوفون	صوت كلامى	معجم مصطلحات علم اللغة الحديث
٦ ـ صوتية	بد صوتية	—	المصطلح اللسانى
٧ ـ صوتم	—	—	مفاتيح الألسنية
٨ ـ مستصوت/ فونيم/ لافظ	—	—	مجلة الفكر العربى

وأقترح الاكتفاء بمصطلحات المصدر الأول لوضوح العلاقة اللفظية بينها ، ولسهولة تصريفها ، ولأنها أصبحت مصطلحات عالية تستخدمها اللغات الأوربية . أما إطلاق « صوت » على الفونيم فيعيبه التباسه بمصطلحين آخرين هما Sound, Phone . أما فونيمية وصوتية فيلتبسان بصيغة النسب الوصفية ، فضلاً عن صعوبة تصريفهما . أما المصطلح « صوت مجرد » فيعيبه كونه ثنائيا .

٢ ـ المصطلح morpheme ، ويرتبط به مصطلحان آخران ، هما allomorph و morph تباينت فيها المقابلات العربية على النحو التالى :

morpheme	allomorph	morph	المصدر
١ ـ مورفيم	ألومورف	مورف	أسس علم اللغة
٢ ـ صيغم	شكلم	تشكل	قاموس اللسانيات
٣ ـ مورفيم / وحدة صرفية	ألومورف	مورف	معجم مصطلحات علم اللغة الحديث
٤ ـ مورفيم / مورفيمة / صرفية مجردة / صرفيم	ألومورف متغير دلالى	مورف	معجم علم اللغة النظرى
٥ ـ صرفية	بد صرفية	ـ	المصطلح اللسانى

وأفضل هذه المصطلحات المجموعة الأولى لأنه يمكن ربطها بعضها ببعض ، ولسهولة تصريفها .

والمسدّى الذى استعمل « صيغم » في مقابل المورفيم جاء الى المورف والألومورف واستخدم لفظين من مادة أخرى .

٣ ـ المصطلح bilabial ويعنى الصوت الذى تشترك في نطقه الشفتان وضعت له المقابلات العربية الآتية :

شفتانى ـ شفوى ـ من بين الشفتين ـ شفوى ثنائى ـ شفوى مزدوج . والمصطلح الأول أدقّها ، وبخاصة بعد أن أجاز مجمع اللغة العربية النسب الى المثنى على لفظه . أما الثانى فينبغى أن يخصص لمقابلة المصطلح Labial وأما المصطلحات الباقية فيعيبها تعدد ألفاظها .

٤ ـ المصطلح Lexeme وضعت له المقابلات العربية : وحدة معجمية ـ لكسيم ـ مفزدة ـ مفردة مجردة ـ مُأصّل ـ معجمية . وأفضلها اللفظ المعرّب .

٥ ـ المصطلح synchronic وضعت له المقابلات العربية : متزامن ـ تزامنى ـ وصفى ـ متعاصر ـ متواقت ـ آنّ ـ ثابت ـ سنكرونى ـ مستقر ـ أفقى . وأفضلها المصطلحان الأولان ، لغرابة اللفظ المعرّب .

٦ ـ المصطلح diachronic ويستعمل عادة في مقابل المصطلح السابق للدلالة على تعدد الأزمنة . وقد استعمل له المصطلحات : تطورى ـ تعاقبى ـ متعاقب ـ تاريخى ـ زمانى . وأفضلها التعاقبى الذى يتلاءم مع تزامنى من ناحية ، ولا يلتبس بغيره من ناحية أخرى .

الاتجاهات السائدة لصوغ المصطلح :

إذا أردنا أن نرصد هذه الاتجاهات وجدناها محوطة بالارتجالية من ناحية ، والتحكم من ناحية ثانية ، وعدم الانضباط من ناحية ثالثة . وهي سمات أدت الى خلق كثير من المشكلات أمام المصطلح الألسني وكادت توصله الى حال يفقد فيها هويته ، ويتخلى عن أخص خصائصه ، وهو ضرورة بنائه على الاتفاق أو الاصطلاح بين المشتغلين باللغة وعلومها . وأهم هذه المشكلات مايأتي :

أولا : ما انحدر الى المصطلحات الألسنية الحديثة من مشكلات عن المصطلحات القديمة التي لم يراع في وضعها المواصفات الضرورية ، فجاءت مختلة من عدة جهات مثل :

أ ـ استعمال المصطلح في أكثر من مفهوم ، كإطلاق « الناقص » على الفعل الذى لا يكتفى بمرفوعه ، وعلى المعتل الآخر ، وإطلاق « ذوات الثلاثة » على الأجوف ، وعلى الكلمة المكونة من ثلاثة أحرف أصول .

ب ـ إطلاق أكثر من مصطلح على المفهوم الواحد مثل « الواقع » على « المتعدى » ، و « الخفض » على « الجر » ، و « النعت » على « الصفة » ، و « العماد » على « ضمير الفصل » .

ج ـ طول المصطلح وتكونه من عدة كلمات ، ويظهر هذا بوضوح في كتب التراث الأولى .

ثانيا : مايتحمله المصطلح الألسنى العربي الحديث من مشكلات تتعلق بالمصطلح العلمى بوجه عام مثل :

أ ـ تعدد جهات وضع المصطلح (المجامع والهيئات) دون تنسيق حقيقى بينها (رغم وجود ما يسمى بمكتب تنسيق التعريب في العالم العربي بالرباط) ، واختلاف مشارب الأفراد الذين يساهمون في وضع المصطلح ، وميل معظمهم الى الفردية .

فمجمع اللغة العربية بالقاهرة بعد أن يحدد وسائل وضع المصطلح يعطى أفضلية لوسيلتين اثنتين هما :

١ ـ اللفظ العربي على المعرب القديم إلا إذا اشتهر المعرب .

٢ ـ المصطلح العربى القديم على الجديد إلا إذا اشاع الجديد .

وكلتا الوسيلتين يمكن تحقيقهما عن طريق الاشتقاق أو المجاز . ثم نجده يعطى كذلك أفضلية للترجمة الحرفية حين لايمكن وضع المصطلح الجديد في كلمة واحدة . وبذا يساوي بين الوسيلتين الداخلية والخارجية في الأفضلية .

ولكنه يعد من باب الضرورة العلمية الالتجاء الى الوسيلتين الآتيتين :

١ ـ إدخال ألفاظ أعجمية على طريقة العرب في تعريبهم .

٢ ـ اللجوء الى النحت .

(مجموعة القرارات العلمية في خمسين عاما ص ١٧٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٣٥ ، وشوقى ضيف : مجمع اللغة العربية في خمسين عام ص ١٢٨) .

والمجمع العلمى العراقى يتعصب للفظ العربى لدرجة أنه كان يختار اللفظ الغامض ويفضله على الواضح كاطلاقه الجابية على الخزان ، والوسق على الحموله ، والإرقال على السرعة ، والكظام على الحشو ، والواجنة على المكبس ، والسدام على القداحة ، والواجئة على آلة التخريم ، والجسوءة على الصلابة (أحمد مطلوب : جهود المجمع العلمى العراقى في وضع المصطلحات ص ٨) .

ولكنه رغم سلوكه هذا ، وتفضيله اللفظ العربى على الأجنبى (مطلوب ص ٥ ، ٩) ، ودعوته الى تجنب النحت والتعريب ما أمكن (مطلوب ص ١٠) ، نجده يلجأ الى التعريب كثيراً ، والى اللصق أحيانا كما في اللانهائى ، واللاتحدّدي ، واللاخطى ، واللامنطقى ، واللاشكلي (مطلوب ص ٦ ، ٧) . ورغم نصحه باختيار المصطلح ذي اللفظ الواحد كان يستعمل بعض السوابق على وزن فَعْل كالفَرْط ، والحط ، والسبق ، واللحق ، والبعد . . (مطلوب ص ٩) .

ولكن في نفس الوقت هناك ألسنيون ممن يشاركون بجهودهم في وضع المصطلح يسلكون طرقا مخالفة :

١ ـ فنرى عبد السلام المسدّى يهاجم إحياء الألفاظ القديمة وإطلاقها على متصور مستحدث قائلا : « وكثيرا ما يتجاذب الميراث الاصطلاحى ذوى النظر فينزعون صوب إحياء اللفظ واستخدامه في غير معناه الدقيق . . فإذا بالمدلول اللسانى يتوارى حينا خلف المفهوم النحوي ، ويتسلل أحيانا أخرى وعليه مسحة من الضباب تعتم صورته الاصطلاحية ، فتتلابس القضايا ، ويعسر حسم الجدل بين المختصين » (قاموس اللسانيات ص ٥٥ ، ٥٦) .

٢ ـ ونرى عبد القادر الفهرى كذلك يحذر من استخدام المقابلات العربية الواردة في التراث لأن هذا يخلق توهما بصدق المصطلح العربي « على مايصدق عليه المصطلح الغربى نتيجة إسقاطات ظرفية أو ذاتية يقوم بها المترجم ، وينتهى الى إيجاد مناسبات غير قائمة » (المصطلح اللسانى ص ١٤٤) . ويلح على فكرته هذه حين يقول في توضيح منهجه : « تجنبنا ـ بقدر الامكان ـ استعمال المصطلح المتوفر القديم للتعبير عن المصطلح الداخل ، لأن توظيف المصطلح القديم لنقل مفاهيم جديدة قد يفسد تمثل المفهوم الجديد والمحليّ على السواء . ولا يمكن إعادة توظيف المصطلح القديم وتخصيصه إذا كان موظفا ، لأن هذا يؤدي الى مشترك لفظى غير مرغوب فيه ، بالإضافة الى سوء الفهم » (السابق ص ١٤٥) .

وعلى عكس المجامع اللغوية نراه يشجع التعريب « لصعوبة الانتقال من لغة الى لغة باستخدام الرصيد المصطلحى الداخلى فقط . فتعريب الثقافة العلمية يقتضى اللجوء الى ما أسميناه المصطلح الخارجى » (السابق ص ١٤١ ، ١٤٢) ، وهو لهذا يدعو الى تطويع اللغة العربية مبنى ومعنى لاحتضان مقابلات الصيغ والمفاهيم (السابق ص ١٤٢) .

٣ ـ وعلى نسق ما قال الفهري نجد محمد رشاد الحمزاوي يهاجم اللجوء الى الترجمة قائلا : « وتزداد القضية تشعبا عندما ننظر الى الأساليب الفنية التى ترجمت بها هذه المصطلحات . . ولابد أن نشير في هذا الصدد الى أن كل الترجمات لا تعى فنياتها وعيا علميا مركزا » . كما أن اللجوء الى الترجمة ـ في نظره ـ يثير قضية المطابقة بين المصطلح اللغوى والواقع ، وقضية الترادف بين اللغات . (مشاكل وضع المصطلحات اللغوية ص ٢٦٤ ، ٢٦٥) . ويرى أن اللجوء الى الترجمة لن يؤ تى أكله « إلا إذا استقلت اللغة المترجم إليها بنظرياتها ، وأصبح لها من الزاد الاصطلاحى الذى يوفر لها التكثيف والتحوير والإسقاط » (السابق ص ٢٦٧) .

ب ـ عدم الدقة عند وضع المصطلح نتيجة عدم الدقة في فهم ما يعبر عنه . ومن ذلك عدم التفرقة بين المصطلحين الإنجليزيين nasality nasalization مع أن الأول يعني تسرب الهواء كليا من خلال فتحة الأنف ، والثاني يعني تسرب الهواء من الأنف مع استمرار تسربه من الفم (وذلك كما يحدث في نطق بعض العلل). وقد استخدم المدققون للأول مصطلح الأنفية ، وللثانى مصطلح التأنيف (دراسة الصوت اللغوى ص ١٠٢ ـ ١٠٣) . ومثل هذا يقال عن الفرق بين الغاريّ palatal والمغوّر palatalized . فالأول ينطق عن طريق نطق منفرد في منطقة الغار ، والثانى ينطق باجتماع النطق الغاري مع نطق آخر معين . ويمكن ـ على ضوء هذا ـ التفريق كذلك بين الصوت الطبقى velar والمُطْبَق velarized والصوت المهموس والمُهْمَس ، والصوت المجهور والمُجْهَر .

جـ ـ ترك حرية وضع المصطلحات للأفراد كل بحسب اجتهاده ، وعلى قدر قربه أو بعده من التراث العربي . وخير مثال لذلك المصطلح phoneme الذى وضع له في العربية المقابلات الآتية : فونيم صوتيم ـ صوتم ـ فونيمية ـ صوت مجرد ـ مستصوت ـ لفظ ـ لافظ . ويلاحظ في هذه المصطلحات تنوع طريقة وضعها بين التعريب الكامل والتعريب الناقص والترجمة الحرفية والترجمة الواسعة والتفسير (انظر المسدى : قاموس اللسانيات ص ٧٦ ، ٨٣ ، ومعجم علم اللغة النظري ، ومعجم مصطلحات علم اللغة الحديث) .

د ـ الخلط بين المصطلح ، والشرح أو التفسير كإطلاق بعضهم « الوحدة الصوتية » على الفونيم ، و« الوحدة الصرفية » على المورفيم ، وبعضهم « علم تأصيل الكلمات » أو « علم تاريخ الكلمات » على ما يقابل المصطلح الانجليزى etymology . وأفضل من هذا إما تعريب الكلمة أو استخدام مصطلح « التأثيل » (المسدي ص ٨٤ و ٢٢٣ ، ومعجم مصطلحات علم اللغة الحديث ص ٢٤) .

ثالثا : ما ينتقل الى اللغة العربية من مشكلات تتعلق باللغة أو اللغات المنقول عنها المصطلح . ومن أمثلة ذلك المصطلحان الانجليزيان phonetics ، phonology . فعلى الرغم من كثرة ترددهما في علم اللغة الانجليزي فإننا نجد لهما عددا من التفسيرات التى توقع الباحث في حيرة وارتباك :

أ ـ فقد استعمل دي سوسير اللفظ phonetics للدلالة على ذلك الفرع من العلم التاريخى الذي يحلل الأحداث والتغيرات والتطورات عبر السنين ، وعده من أجل ذلك جزءا أساسيا من الألسنية في حين حدد مجال الـ phonology بدراسة العملية الميكانيكية للنطق ، وعده من أجل ذلك علما مساعدا للألسنية .

ب ـ أما مدرسة براغ فتستعمل مصطلح phonology في عكس ما استعمله فيه دي سوسير ، إذ تريد به ذلك الفرع من الألسنية الذي يعالج الظواهر الصوتية من ناحية وظيفتها اللغوية . ولذلك نجدها تعتبر الفونولوجى فرعا من الألسنية . أما الفوناتكس فقد أخرجه معظم رجالها من الألسنية ، واعتبروه علما خالصا من علوم الطبيعة يقدم يد المساعدة للألسنية .

جـ ـ واستعملت الألسنية الأمريكية والانجليزية مصطلح فونولوجى لعشرات السنين في معنى « تاريخ الأصوات » ودراسة التغيرات والتحولات التى تحدث في أصوات اللغة نتيجة تطورها . وهو حينئذ يكون مرادفا لما يسمى historical phonetics أو diachronic phonetics أما المصطلح فونتكس فقد استعمل في معنى العلم الذي يدرس الأصوات الكلامية ويصنفها ويحللها من غير إشارة الى تطورها التاريخى . وإنما فقط بالإشارة الى كيفية إنتاجها ، وانتقالها ، واستقبالها .

وعلى هذا فالفرعان يعدان من صميم الألسنية ، وإن دخل الأول تحت فروع الألسنية التاريخية ، والثانى تحت فروع الألسنية الوصفية .

د ـ ومن الألسنيين من رفض الفصل بين ما يسمى فونتكس وما يسمى فونولوجى لأن أبحاث كل منهما تعتمد على الأخرى ، ووضع الاثنتين تحت المصطلح فونتكس أو تحت المصطلح فونولوجى .

هـ ـ ومن أجل هذا اللبس ظهر المصطلحان الجديدان phonematics و phonemics ، كبديلين للمصطلح فونولوجى .

و ـ ومعظم الألسنيين الآن على تخصيص الفونولوجي للدراسة التى تصف وتصنف النظام الصوتى للغة معينة . أما المصطلح فونتكس فيقصرونه على دراسة أصوات الكلام مستقلة عن تقابلات نماذجها ، وعن تجمعاتها في لغة معيّنة ، ودون نظر الى وظائفها اللغوية ، أوحتى معرفة اللغة التى تنتمى إليها . وهم قليلا ما يستعملون الآن المصطلح فونيمكس ونادرا ما يستعملون المصطلح فونيماتكس .

وقد انتقل الخلاف في مفهوم المصطلحين الى اللغة العربية فاستعملها الألسنيون العرب كل حسب دراسته ومدرسته الألسنية . كما امتد الخلاف ليشمل كيفية التعبير عن مفهوم كل باللغة العربية فمنهم من أبقى المصطلح فوناتكس وعربه الى « فوناتيك » ، ومنهم من عبر عنه بالمصطلح « الصوتيات » ، أو « علم الأصوات » أو « علم الأصوات اللغوية » أو « علم الأصوات العام » . وحدث نفس الشيء بالنسبة للمصطلح فونولوجى ، فمنهم من أبقاه وعرّبه الى « فونولوجيا » ، ومنهم من عبر عنه بالمصطلح « علم الفونيمات » ، أو « علم الأصوات » ، أو « علم الأصوات التاريخى » ، أو « علم الأصوات التنظيمى » ، أو « علم وظائف الأصوات » ، أو « علم التشكيل الصوتى » ، أو « علم الأصوات التشكيلى » أو « الصوتمية » (دراسة الصوت اللغوي ص ٤٥ ـ ٤٨ ، وقاموس اللسانيات ، ومعجم علم اللغة النظرى ، ومعجم مصطلحات علم اللغة الحديث) .

رابعا : كثرة ما تقذف به المطبعة كل يوم من أبحاث ودراسات ألسنية متعددة المنابع والمشارب ، وامتلاء الساحة الألسنية العالمية بالمفاهيم والمصطلحات التى تتزاحم وتتدابر . وقد أدى توافر النظريات الألسنية ، ومـا أنشأتـه من مصطلحات ، وما استحدثته من مفاهيم جديدة تحتاج الى مصطلحات للتعبير عنها ـ أدى الى حدوث تـراكمات في المفاهيم والمصطلحات التى يتعين نقلها الى اللغة العربية ، مما أظهر المصطلح الألسنى العربى بمظهر العاجز عن مواكبة النشاط الألسنى العالمى ، واستدعى العجلة في تدارك ما فات ، مما سبب كثيرا من الإربـاكات وأدى الى عـدد من السلبيات من أبرزها :

أ ـ اعتماد كثير من المصطلحات الألسنية العربية الحديثة على التعريب أو الترجمة الحرفية ، وبذا انتقلت مشكلات التعريب والترجمة الى دائرة المصطلح الألسنى .

فتصنيف المفاهيم يختلف من لغة الى لغة ، ومن ثقافة الى أخرى . ومن الصعب الحصول على لفظ مطابق في لغةٍ ما للفظ آخر ، مما يضع العراقيل أمام الترجمة الدقيقة . والترجمة تقتضى تطويع اللغة مبنى ومعنى لاحتضان مقابلات الصيغ والمفاهيم ، وهو مالا يتوفر بسهولة في لغتنا . وترجمة المصطلح الى العربية تقتضى وضع مقابل عربى للمصطلح الأجنبى ، وهو ماقد يتعذر الحصول عليه في شكل كلمة واحدة إذا كان المصطلح الأجنبى يكتسب جزءا من معناه عن طريق ما التصق به من سوابق أو لواحق ، وقد يضطر هذا المترجم الى استخدام لفظين مما يجعـل المصطلح صعب التصريف ، ثقيلا في الاستعمال .

أما التعريب فيقودنا الى القذف بمحيط غريب نوعا ما داخل محيطنا ، وبمفاهيم مجسدة في ألفاظ لغات أخرى ضمن مفاهيمنا ، وهو ما قد ينفر عنه الذوق العربي . وإن كان مما يخفف من هذا النفور إعطاء اللفظ المعرب الصبغة العربية ، والنطق به على مناهج العرب .

والتعريب يقتضى كذلك تماثلا أو تشابها بين اللغتين في الأنساق الصوتية والصرفية وهو ما لا يكاد يتوفر بالنسبة للغتنا . فالانجليزية مثلا تشتمل على أصوات ليست في العربية ، وكذا العكس . والانجليزية تؤلف بين جذر ولاحقة أو سابقة للحصول على مفردة جديدة دون تغيير يذكر في البنية الداخلية للجذر في حين أن العربية لغة اشتقاقية تحدث غالبا تغييرا في صيغة الجذر أو أصل الاشتقاق للحصول على صيغة جديدة (الفهرى : المصطلح اللسانى ص ١٤٢) .

ويقترح عبد القادر الفهري لاقتحام مشكلة الترجمة البدء بمعاينة الحقول الدلالية في كل من اللغتين ، وإقامة ما يمكن إقامته من مناسبات ، وفرز ما ليس له مقابل في اللغة الهدف ويحتاج الى الوضع والتوليد . ويرى أن تتبّع الحقولَ الدلالية في اللغتين قد يساعد على تلافى اضطراب الترجمة ، ويضرب لذلك مثلا بالمصطلح Sign الذي يترجم الى رمز ، علامة ، إشارة ، دليل . فلو نظرنا الى أسرة Sign لوجدنا Symbol من جهة ، و signifier و signified من جهة أخرى . وحين تحدث دي سوسير عن الـ sign بيّن أنه اعتباطي في حين أن الـ Symbol توجد فيه العلاقة بين الدال والمدلول . فالأقرب أن يترجم Symbol إلى « رمز » وأن يترجم Sign إلى « دليل » باستعمال نفس المادة المعجمية التي اشتق منها

الدالّ Signifier ، والمدلول Signified والدلالة signification . أما « علامة » فالأقرب أن تكون ترجمة لكلمة mark .
وأما إشارة فتقابل demonstrative (السابق ص ١٤٣) .

ومع الاعتراف بمشروعية التعريب كوسيلة من وسائل وضع المصطلح العربي ، فإن كثيرا من اللغويين يهربون منه ، وخصوصا إذا كان اللفظ المعرَّب مما تنفر منه الأذن العربية مثل استعمال المصطلحات polysomy و homonymy و paradigmatic و Syntagmatic وغيرها (انظر الحمزاوى : مشاكل وضع المصطلحات اللغوية ص ٢٦٣ ، ٢٦٤) .

كما أن منهم من ينظر الى التعريب كوسيلة مرحلية ينبغي أن تعقبها وسيلة أخرى كالترجمة أو التعريب الجزئى ، كما حدث لمصطلح فونيم الذى فضل بعضهم عليه فيها بعد « الصوتم » أو « الصوتيم » ، وفضل بعضهم « الصوت المجرد » ، أو « الوحدة الصوتية » أو « المستصوت » .

ب ـ عدم وضع ترتيب لطرق صوغ المصطلح ، وترك الحبل على الغارب لكل مجتهد يسلك الطريق الذي يريد ، ويفضل الوسيلة التي يميل إليها . فالى جانب الترجمة والتعريب اللذين سبق الحديث عنهما نجد طرقا أخرى مثل :

* النحت الذي يتم عن طريق مزج عنصرين أوليين على الأقل ، أو نتيجة لصق أو تركيب خارجى . وطبيعى أن يؤدى استعمال النحت الى ظهور صيغ جديدة لا تنضوى تحت أي من الموازين الصرفية أو الاشتقاقية ، ولا يقف طولها عند حد .

* الاشتقاق الذي يعد من أكبر خصائص اللغة العربية ، والذى يكسبها طواعية داخلية تمكنها من تلبية كثير من الحاجات الدلالية والمتطلبات المصطلحية . وطاقة الاشتقاق في صوغ المصطلحات لا تنتهى ، لأن الاستعمال قلما يستفرغ كل الاحتمالات الممكنة .

* المجاز ، وهو إحدى طاقات الحركة الذاتية في كل اللغات ، وهو خير معين على استيعاب المدلولات الجديدة دون إدخال أجسام غريبة في اللغة العربية ، ودون إقحام بعض الوسائل التى لا تتلاءم مع طبيعتها . ويستطيع المجاز أن يمد أمام ألفاظ اللغة جسورا وقتية تتحول عليها من دلالة الوضع الأول ، الى دلالة الوضع الطارىء (انظر : المسدي : قاموس اللسانيات ص ٢٩ ـ ٤٥) .

وسائل ضبط المنهجية وتوحيد المصطلح :

ربما كان من أكثر المشتغلين بتأصيل المصطلح الألسني ورسم حدوده اثنان ، هما عبدالقادر الفاسي الفهري ، ومحمد رشاد الحمزاوي . ولكن ما قدماه في النهاية لا يعدو أن يكون خطوة على الطريق ، وبعضه قد أثبت الواقع العملي عدم ملاءمته .

ومن أهم ما وضعه الفهري من أسس :

١ ـ اللجوء إلى وسائل التوليد المختلفة سواء منها ما يخص المعنى فقط (المجاز والتضمين) ، أو ما يخص المبنى فقط (المعرَّب) ، أو ما يخص المبنى والمعنى (الاشتقاق والنحت والتركيب والترجمة والتعريب الجزئي . . .) .

٢ - البدء بالاشتقاق والاستفادة من معاني الصيغ والأوزان .

٣ - استخدام النحت قليلا مثل نقل السابقة allo إلى « بَدْ » مختصرة من « بديلة » كما في allophone التي اقترح لها : بَدْ صوت (= بديلة صوتية) و allomorph التي اقترح لها : بَدْ صرفية (= بديلة صرفية) .

٤ - اللجوء إلى المعرَّب حين يستعصى إيجاد مقابل عربي مقنع كما في كلمة acoustics التي اقترح لها : أكوستيات .

٥ - تفضيل التعريب الجزئي على التعريب الكلي ، لأنه أخف على اللسان من النحت والتركيب أحيانا مثل : metalanguage التي اقترح لها : ميتالغة ، و psycholinguistics التي اقترح لها : سيكولسانيات .

٦ - إجازة النسب إلى المثنى والجمع مثل bilabial التي استعمل مقابلا لها : شفتاني ، و bilateral التي استعمل مقابلا لها : جانِباني ، و dental التي استعمل مقابلا لها : أسناني . وعلى هذا يقاس في bilingual : لُغَتَاني .

٧ - الابتعاد عن المصطلح القديم ما أمكن .
(المصطلح اللساني ص ١٤٤ ، ١٤٥) .

وأما الحمزاوي فقد طرح تصوره من خلال كتاب له بعنوان « المنهجية العامة لترجمة المصطلحات وتوحيدها وتنميطها » نشره عام ١٩٨٦ . وإذا كان الكتاب هاما في تاريخ المصطلح العلمي ، وفي تناوله لقرارات المجامع والهيئات والمؤتمرات حول منهجيات المصطلحات العلمية ، فهو لم يبلور رأيا نهائيا يمكن أن يكون مرشدا لكل من يشتغلون بوضع المصطلح ، ولم ينته إلى مبادىء تصلح قانونا يلتزم به الجميع . ومع ذلك فإن ما وضعه من قواعد سماها « مبادىء التنميط » يعد جديدا ومفيدا . وسنشير إلى بعض آرائه حول التنميط فيما بعد .

وفي تصوري أن ضبط العلم عن طريق ضبط مصطلحاته يمكن أن يتم باتباع الخطوات الآتية :

أولا : إنشاء مركز للمصطلحات الألسنية مزود بأحدث الأجهزة التي تساعد على التخزين والتصنيف والاستدعاء .

ويتبع المركز فريق عمل يجيد كل عضو فيه إحدى اللغات الأوربية إلى جانب العربية ، ويتم عن طريقه مسح المصطلحات الألسنية المستعملة خلال العشرين سنة الأخيرة في اللغات الأربع : العربية والانجليزية والفرنسية والألمانية ، مع تحديد مفهوم كل مصطلح تحديدا دقيقا . وتتم عملية المسح من طريقين :

أ - المؤلفات ، من خلال قوائم المصطلحات الملحقة بها .
ب - معاجم المصطلحات والموسوعات الألسنية .

ويواكب هذه العملية عملية أخرى في التراث الألسني العربي بهدف حصر المصطلحات الألسنية التراثية ، وتحديد مفاهيمها ، وترتيب هذه المصطلحات في قوائم تارة ، وحسب مجالاتها اللغوية تارة أخرى حتى يسهل الرجوع إليها عند وضع مقابل عربي للمصطلح الأجنبي .

وما أظن أن هذه الغاية يمكن تحقيقها في ظل المجامع اللغوية القائمة التي يتوزع مجهودها المصطلحي بين مختلف

العلوم والفنون ، والتي ينقص معظمها الكفاءات اللغوية المتنوعة التخصص سواء على مستوى أجهزة التحضير أو الإعداد أو المتابعة ، أو على مستوى البتّ وإصدار القرار . كما يعيب أمثال هذه المجامع إيقاعها البطيء ، وحركتها المتئدة ، وعجزها عن متابعة سيل المصطلحات والمفاهيم التي ينهمر علينا في كل يوم دون رصد أو متابعة ، فضلا عن دراسته ووضع المقابلات العربية له . وقد كان بطء المجامع الشديد هو السبب الأساسي في فتح الباب على مصراعيه أمام الاجتهادات الشخصية ، وإفساح المجال أمام الأفراد ليصولوا في الميدان ويجولوا ، ثم تدخلت بواعث السبق ، وحب الريادة فأفسدت أي محاولة للتنسيق . ولم يكن من المعقول أن نطلب من الباحثين أن يكفوا عن القراءة والبحث والتأليف والتعريب حتى يتلقوا الإذن من المجمع اللغوي (أو المجامع اللغوية) . ولهذا تواردت الاجتهادات دون ضابط أو رابط ، ولم تنجح القرارات التي تصدرها المجامع في توحيد المصطلح ، مثل القرار الذي أصدره المجمع العلمي العراقي عام ١٩٧٧ أن يكون هو المرجع الوحيد في وضع المصطلحات (أحمد مطلوب : جهود المجمع العلمي العراقي في وضع المصطلحات ص ١٥) فظل هذا القرار صرخة في واد أو نفخة في رماد .

ثانيا : أن يدعي جميع المشتغلين بالألسنية الحديثة ، والمتصلين بمنابعها الأجنبية إلى تزويد المركز بكل ما يصادفهم من مفاهيم جديدة ومصطلحات ، ومناشدة المؤلفين والباحثين منهم التزام وضع المصطلح الأجنبي إلى جوار ما يستعملونه من مقابل عربي ، وإعداد قوائم في آخر بحوثهم تضم المصطلح الأجنبي ، ومقابله العربي حتى تسهل متابعة هذه المصطلحات ودراستها .

ثالثا : احتفاظ المركز بقائمة بأسماء وعناوين الألسنيين العرب ، وإيجاد جسور اتصال معهم ، بدلا من ترك الأمور لمجرد الصدفة . وسيحقق هذا الاقتراح غاية أخرى وهي عقد ما أنبتّ من صلات بين الأجيال المتتابعة ، وبين علماء الأقطار العربية ، مما سيقلل من الفجوة الموجودة بينهم ويزيل الجفوة التي تحكم علاقاتهم العلمية بعضهم مع بعض .

رابعا : العمل على تأليف معاجم متنوعة للمصطلحات الألسنية تبنى على منهجية واضحة وبتعاون جميع الألسنيين العرب . وفي تصوري أننا في هذه المرحلة ـ نحتاج الى ثلاثة أنواع من المعاجم :

١ ـ معجم أحادي اللغة يجمع بين المصطلح العربي والتعريف به .

٢ ـ معجم ثنائي أو ثلاثي اللغة ، يبدأ بالمصطلح الأجنبي ، ويضع مقابله مصطلحا عربيا واحدا يختاره الألسنيون بناء على منهجية المعجم ، ومن بين المفاهيم والمصطلحات التي ثبتت واستقرت .

٣ ـ معجم كالسابق ، ولكنه لا يكتفي بمصطلح عربي واحد ، وإنما يحشد أمام المصطلح الأجنبي كل ما ورد في مؤلفات الألسنيين من مقابلات .

وسيكون المعجم الثاني بمثابة المرشد أو الدستور لجميع المؤلفين في الألسنية ، على أمل أن يلتزموا بمصطلحاته في كل ما يكتبون . أما المعجم الثالث فسيكون بمثابة الدليل للقراء الذين قد يصادفهم في قراءاتهم مصطلحات متعددة ، ولا يفطنون إلى ترادفها أو تقاربها ، ولا يتنبهون إلى الرابطة التي تجمع بينها .

خامسا : اتخاذ المعجم الثاني الذي سبق اقتراحه معيارا للاستخدام ، بعد وضع الأسس والأولويات التي سيتم بمقتضاها اختيار مصطلح واحد من بين جميع مرادفاته ، أو وضع مصطلح بـديل في حـال عدم وفـاء المصطلحـات المستخدمة بالغرض .

سادسا : يجب أن يتم فرز المصطلحات الألسنية على مراحل ثلاث ، على النحو التالي :

١ ـ استبقاء المصطلحات التي تحقق الشروط الآتية :

أ ـ ألا يكون للفظ معنى آخر في ميدان الألسنية بمعنى ألا يكون من المشترك اللفظي .

ب ـ أن يكون اللفظ قليل الحروف سهل النطق به .

جـ ـ أن يكون اللفظ سهل التصريف ، طيّعا في التوليد والاشتقاق . واستبعاد ما سوى ذلك .

٢ ـ ويتم في المرحلة الثانية فرز المصطلحات التي حققت الشروط السابقة بناء على الأولويـات التاليـة (وهي مستمدة من قرارات ندوة توحيد منهجيات وضع المصطلحات العلمية الجديدة ـ الرباط ١٩٨١) :

أ ـ وجود مناسبة أو مشابهة بين مدلول المصطلح اللغوي ومدلوله الاصطلاحي .

ب ـ استخدام المصطلح في التراث العلمي العربي ، وإلا فيتم توليده عن أحد الطرق الآتية بالتـرتيب : الاشتقاق ـ المجاز ـ النحت ـ التعريب .

جـ ـ الألفاظ غير العربية يبدأ منها بما عُرّب أي خضع للنمط العربي ، ووافق شكله الصيغة العربية .

٣ ـ فاذا أفرز تطبيق المعايير السابقة أكثر من مصطلح للمفهوم الواحد أخضعنا المصطلحات المترادفة لمبادىء التنميط الآتية (وهي مأخـوذة من كتاب المنهجيـة العامـة لترجمـة المصطلحـات وتوحيـدها وتنميـطها لمحمـد رشاد الحمزاوي) :

أ ـ رواج المصطلح بين المستعملين له من المتخصصين . ويتم ذلك عن طريق الإحصاء وترتيب الألفـاظ حسب شيوع استعمالها ترتيبا تنازليا . وهو ما يفترض أن يكون قد سبق إعداده من خلال عمليات المسح المشار إليها في بند أولا .

ب ـ ملاءمة المصطلح ، فيفضل ما قلّت ميادين استعماله على ما توزع على ميادين كثيرة .

جـ ـ توفر الحافزية ، أي ما يحفز المستعمل على اختياره ، إما لصيغته البسيطة أو لتركيبه الصرفي الواضح ، أو لعدم غرابته ، أو لموافقته لأنماط التجمعات الصوتية العربية .

وبعد : فإذا كان من العسير فرض منهجية إجبارية على العلماء فإن من الممكن البدء بالاتفـاق على الخـطوط الرئيسية ، والدعوة إلى التأني قبل طرح المصطلح للاستعمال . ولعل قرار المجمع العلمي العراقي بعدم تثبيت مصطلح إلا بعد ستة أشهر على تاريخ نشره يفيدنا في هذا الخصوص .

ويجب ألا ننسى أن أهم معيار لقياس نجاح المصطلح هو مدى شيوعه وتقبله بين أبناء المهنة الواحدة . فلا فائدة من مصطلح يظل حبيس الأدراج . وكم رأينا من مصطلحات تقرها المجامع دون أن يكتب لها الرواج أو الاستحسان عند أهل الاختصاص .

مراجع البحث

١ ـ باي (ماريو) :

أسس علم اللغة ـ ترجمة أحمد مختار عمر . عالم الكتب ط ثالثة ١٩٨٧م .

٢ ـ حجازي (محمود فهمي) :

علم اللغة العربية ـ وكالة المطبوعات بالكويت د . ت .

٣ ـ الحمزاوي (محمد رشاد) :

مشاكل وضع المصطلحات اللغوية ـ ندوة اللسانيات واللغة العربية ـ نشر المطبعة الثقافية بتونس ١٩٨١م .

٤ ـ الحمزاوي (محمد رشاد) :

المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية .

أ ـ ط أولى ـ حوليات الجامعة التونسية ١٩٧٧م .

ب ـ ط ثانية ـ الدار التونسية للنشر ١٩٨٧م .

٥ ـ الحمراوي (محمود رشاد) :

المنهجية العامة لترجمة المصطلحات وتوحيدها وتنميطها ـ دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٨٦م .

٦ ـ الخولي (محمد علي) :

معجم علم اللغة التطبيقي ـ مكتبة لبنان ١٩٨٦م .

٧ ـ الخولي (محمد علي) :

معجم علم اللغة النظري ـ مكتبة لبنان ١٩٨٢م .

٨ ـ شاني (عبدالرسول) :

معجم علوم اللغة ـ مجلة اللسان العربي ـ مجلد ١٥ جزء ٢ عام ١٩٧٧م .

٩ ـ ضيف (شوقي) :

مجمع اللغة العربية في خمسين عاما ـ أولى ١٩٨٤ .

١٠ ـ عمر (أحمد مختار) :

دراسة الصوت اللغوي ـ عالم الكتب ـ ط ثالثة ١٩٨٥م .

١١ ـ الفهري (عبدالقادر الفاسي) :

المصطلح اللساني ـ الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات ـ سلسلة اللسانيات عدد ٦ عام ١٩٨٦م .

١٢ ـ كانتينو (جان) :

دروس في علم أصوات العربية ـ ترجمة صالح القرمادي ـ تونس ١٩٦٦م .

١٣ ـ مجمع اللغة العربية بالقاهرة :

مجموعة القرارات العلمية في خمسين عاما ـ القاهرة ١٩٨٤م .

١٤ ـ المسدي (عبدالسلام) :

قاموس اللسانيات ـ الدار العربية للكتاب ١٩٨٤م .

١٥ ـ مطلوب (أحمد) :

جهود المجمع العلمي العراقي في وضع المصطلحات ـ الملتقى الدولي الثالث للسانيات تونس ١٩٨٥م .

١٦ ـ معهد الإنماء العربي :

مجلة الفكر العربي (عدد خاص عن الألسنية) ـ بيروت ١٩٧٩م .

١٧ ـ الملتقى الثالث للسانيات :

اللسانيات واللغة العربية ـ تونس ١٩٧٨م .

١٨ ـ مونان (جورج) :

مفاتيح الألسنية ـ ترجمة الطيب البكوش ـ تونس ١٩٨١م .

١٩ ـ نخبة من اللغويين العرب :

معجم مصطلحات علم اللغة الحديث ـ مكتبة لبنان ١٩٨٣م .

٢٠ - Crystal (David) :

The Cambridge Encyclopedia of language, Cambridge, 1988.

٢١ - The Phonetic Society of Japan : A Grand Dictionary of Phonetics, Japan, 1981

* * *

تحليل عملية التكلم وبعض نتائجه التطبيقية

عبدالرحمن أيوب
أستاذ في قسم اللغة العربية ـ جامعة الكويت سابقا .

التفاهم اللغوي عملية متعددة المراحل تشمل الإنتاج ، والانتقال والاستقبال . والإنتاج والاستقبال عمليتان فسيولوجيتان يساهم في الأولى المخ وجهاز النطق وفي الثانية المخ وجهاز السماع . أما عملية النقل فعملية فيزيائية تعتمد على الوسط الذي ينتقل فيه الكلام وهل هو الهواء مثلا أو سلك التليفون .

أولا .. الإنتاج

عمل المخ :

يقوم المخ بعمله بواسطة الجهاز العصبي ، وهو يتكون من عدد كبير من الخلايا العصبية التي يسمى كل منها باسم النيورون neoron إلى جانب عدد كبير من الخيوط العصبية التي تربط بين المخ والعضلات المحركة للأعضاء الكلامية . وفي داخل الخلية العصبية يحدث تفاعل كيميائي بين العناصر المكونة لها ينتج تيارا كهربائيا ـ كالذي يحدث في بطارية السيارة بين الحامض والعمود الموجب ـ وتحمل الخيوط العصبية التيار إلى العضلات فتسبب حركة أعضاء الكلام . ولابد لإنتاج تيار كهربائي كاف لتحريك عضلة ما من تعاون عدد كبير من الخلايا المتجاورة ، يطلق عليها اسم (وحدة تحريك) motor unit وتنتج فيما بينها تيارا يساوي ضغطه ١/. فولت أي جزءا من ١٢٠٠ جزء من ضغط التيار الذي يمر بالمصباح الكهربائي .

التخطيط والأتوماتية :

يخطط المخ للعملية الكلامية باعتبارها كلا لا يتجزأ . وهذه العملية معقدة تتطلب توجيه ، ومراقبة ، عدد كبير جدا من العضلات وتصحيح سلوكها . وبفضل القدرة المسماة بالأتوماتية ، يمكن للمخ السيطرة عليها . ونحن نعتبر عملية تناول الشاي عملية واحدة مع أنها في الواقع عمليات متعددة من فتح الأصابع وتحريك اليد في اتجاه الكوب

والقبض عليه ورفعه وتحريك اليد في اتجاه الفم وشفط الشاي . . الخ . وبفضل كثرة المزاولة ينفذ المخ كل هذه الأعمال ويراقبها في نفس الوقت الذي يشرف فيه على عملية المحادثة[1] كما أننا نشاهد أن المتدرب على الكتابة بالآلة الكاتبة ينظر إلى موضع كل حرف ويحرك إصبعه نحوه ويضغط على المفتاح بنسبة معينة من القوة ولكنه بعد أن يتم تدريبه يقوم بهذه الأعمال دون نظر إلى موضع الحرف . وترجع هذه الكفاءة إلى التدرب الطويل الذي يحقق ما يسمى بأتوماتية الأداء .

وعندما يحاول شخص نطق العبارة (التلميذة تقرأ في كتاب) فإن على المخ القيام بالعمليات الآتية :

أ ـ التحليل التركيبي (النحوي والصرفي) للعبارة .
ب ـ توجيه العضلات لتحريك كل من الأعضاء الصوتية على نحو معين .
ج ـ مراقبة حركة كل عضو وتصحيحها إذا ما وقع في خطأ .

أ ـ التحليل التركيبي :

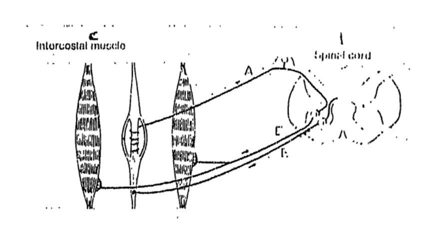
تعتبر القواعد النحوية والصرفية المدونة في الكتب صورة خارجية لنظام سيكولوجي إدراكي عند أبناء اللغة ، يسميه تشومسكي بالقدرة اللغوية competence[2] وقد يكون من المسلم به أن الطفل الصغير لا يستطيع تمييز الحال من التمييز ، ولكنه يستطيع ولا شك إدراك الخطأ الذي يقع فيه أجنبي يتعلم العربية . وبفضل القدرة اللغوية الكامنة في المتكلم ، يستطيع المخ أن يخطط لتركيب الكلمات من سواكن وحركات معينة وأن يكون الجملة من كلمات ترتب على نحو معين[3]. وقبل نطق العبارة المذكورة يتحتم على المخ الوصول إلى الأحكام التالية التركيبية :

١ ـ التلميذة تقرأ في كتاب = جملة إسنادية خبرية .
٢ ـ الجملة = مسند إليه + مسند .
= (تعريف + اسم + تأنيث) + مسند
= (تعريف + اسم + تأنيث) + (فعل + تأنيث) + مكمل
= (تعريف + اسم + تأنيث) + (فعل + تأنيث) + حرف + (اسم + تذكير + تنكير)
= التلميذة + فعل + تأنيث + حرف + (اسم + تنكير + تذكير)
= التلميذة + تقرأ + حرف + (اسم + تذكير + تنكير)
= التلميذة + تقرأ + في + (اسم + تنكير + تذكير)
= التلميذة + تقرأ + في + كتاب .

(١) المقال عن مرجع ٥ ص ٧٢
(٢) مرجع ٣
(٣) مرجع ٥ ص ٧٠ ـ ٧٤

ب ـ التوجيه والمتابعة :

ينتقل المخ بعد هذا إلى توجيه العضلات للقيام بحركات معينة ، ومراقبة أدائها في نفس الوقت بواسطة عملية الإرجاع feed back[٤] ، فيصدر المخ تعليماته إلى العضلات بالتحرك في ضوء الرصيد المختزن فيه من خبرات كلامية سابقة موزعة في الآلاف بل والملايين من خلاياه . وفي نفس الوقت تتم عملية الإرجاع بواسطة مستشعرات sensors موزعة في بنية العضلات المتحركة . وتتصل هذه المستشعرات بدورها بالمخ بواسطة خيوط الاستشعار العصبية فتنقل إليه صورة لما يحدث فيها .



شــكل (١)

الرسم يمثل (١)
١ ـ قطاعا من النخاع الشوكى .
٢ ـ عضلة في الحجاب الحاجز ، الجزء الأوسط يقوم بعملية الإرجاع والجزءان الأيمن والأيسر يقومان بالحركة .
E الخيوط العصبيه الحاملة للشحنه الكهربائية .
A الخيوط العصبية التى تقوم بإرسال رسالة الإرجاع

ويصدر المخ أمره لكل عضلة من عضلات العضو بتحريكه على نحو يحدث العملية الأدائية الخاصة بالعضو من أول العبارة إلى آخرها ، ويلائم بين حركته وحركات الأعضاء الأخرى لإنتاج الأثر الإدراكي الذي يمكن السامع والمتكلم من تقسيم العبارة إلى أجزاء يطلق عليها الأصوات (أ ، ت ، ل ، الخ) .

وقد شبهنا في مكان آخر الحدث اللغوي بفطيرة مكونة من رقائق يرص بعضها فوق بعض ، ثم تقسم إلى قطع تتكون كل منها من جزء من الرقيقة العليا وجزء من التي تحتها والتي تحتها وهكذا .

(٤) المرجع السابق ص٦٠ ـ ٦١

الأعضاء / الأصوات	ا	ت ت	ى	ل	م	ى ى	ذ	صفات الصوت
الشفتان	فتح	استمرار	انفراج	استمرار	تلامس	انفراج	أستمرار	
اللسان	انخفاض	لمس اللثة	ارتفاع للأمام	لمس اللثة	استمرار	ارتفاع للأمام	لمس الأسنان	
الأوتار الصوتية	ذبذبة	عدم ذبذبة	ذبذبة	استمرار	استمرار	استمرار	استمرار	
اللهاة	فتح ممر الفم	استمرار	استمرار	استمرار	فتح ممر الأنف	استمرار ثم فتح ممر الفم	استمرار	
حركة العضو ←								

شــكل (٢)

الفتحة= فتح الشفتين + انخفاض اللسان + ذبذبه الأوتار الصوتيه + فتح ممر الفم .

ت = فتح الشفتين + لمس اللسان اللثة + توقف الذبذبة + استمرار فتح ممر الفم .

الكسرة = انفراج الشفتين + ارتفاع اللسان للأمام + ذبذبة الأوتار + استمرار فتح ممر الفم .

اللام = استمرار فتح الشفتين + استمرار لمس اللثة + استمرار الذبذبة + استمرار فتح ممر الفم .

الميم = تلامس الشفتين + استمرار لمس اللثة + استمرار الذبذبة + فتح ممر الأنف .

الكسرة = انفراج الشفتين + ارتفاع اللسان للأمام + استمرار الذبذبة + استمرار فتح ممر الفم .

الذال = استمرار انفراج الشفتين + لمس اللسان الأسنان + استمرار الذبذبة + استمرار فتح ممر الفم .

شكل (٢) يمثل حركات الأعضاء الشكلية ـــ وصفات الأصوات

ويجب أن نلاحظ أن الصوت ينتج من عمليات بعضها أساسي يوجد فيه في كل موقع ، مثل فتح ممر الأنف عند النطق بالميم ولمس اللسان الأسنان مع الذال ، وبعضها مجرد استمرار لحركة العضو الذي قام بها لنطق الصوت السابق ، وليس من الضروري أن توجد في كل موقع ، وذلك كالتقاء اللسان مع اللثة عند النطق بالميم لمجاورتها للام ، وتلك الصفة لا توجد عند نطق الميم بعد فتحة مثلا في مثل (لام) .

وتتطلب هذه العمليات المتوالية والمتعددة تحريك عدد كبير من العضلات . وبفضل الأوتوماتية ، وهي قدرة نحصل عليها بالتدريب في مرحلة الطفولة ، يقوم المخ بهذه العمليات المعقدة بآلية فورية مع مراقبة كل عضلة وتصحيح عملها إذا لزم هذا ، كما يراقب مركز المراقبة سفن الفضاء ويصحح مدارها[٥].

انظر الشــكل (٣)

عمل الأعضاء الصوتية :

نتيجة للنشاط العصبي الذي يقوم به المخ تتحرك الأعضاء الصوتية لإنتاج العبارة ، وتتلخص عملياتها فيما يأتي :

١ ـ إنتاج الزفير بضغط الحجاب الحاجز على الرئتين وطرده إلى خارج الجسم عن طريق الممرات والفراغات النطقية .

٢ ـ تدخل الحنجرة بقفل ممر الهواء قفلا تاماً لإنتاج الهمزة أو بالانفتاح الجزئي لإنتاج الهمس أو الانفتاح القليل مع التوتر لإنتاج الجهر .

٣ ـ تدخل المريء بالانقباض والتراخي فوق منطقة الحنجرة لإنتاج العين والحاء والهاء .

٤ ـ تدخل اللهاة لفتح ممر الفم لإنتاج الأصوات الفموية أو ممر الأنف لإنتاج الأصوات الأنفية .

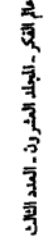
٥ ـ حركات اللسان وموقعه من الفم وقربه من بعض أجزاء سقف الفم لإنتاج الحركات أو التلامس معها لإنتاج بعض السواكن .

٦ ـ حركة الشفتين بالتلامس أو الانفراج أو الاستدارة لإنتاج الميم والباء والواو أو المساهمة في إنتاج الحركات . . الخ .

وقد كان الوصف الصوتي قديما ، منذ عهد الهنود وسيبويه ، وحتى منتصف هذا القرن يعتمد على وصف الحركات العضوية عند إنتاج كل صوت . ثم حدث تطور في معارف اللغويين ، بعد أن ساهم الفيزيائيون وعلماء الأعصاب والتشريح في دراسة الكلام فدخل إلى الوصف العضوي للأصوات الوصف الفيزيائي لما يحدث أثناء انتقال الصوت إلى السامع . واستفاد اللغويون كذلك من الأجهزة التي يستعملها الفيزيائيون وعلماء التشريح والأعصاب .

---

(٥) السابق ص ٥٨ ـ ٥٩



التخطيط

التحليل التركيبي
الجملة خبرية

التخطيط لعمليات :

مسند إليه

مسند

تحريك الشفتين

تحريك اللسان

تشكيل الفراغات
الأنفية والفموية
والبلعومية

ذبذبة الحنجرة
وعدم ذبذبتها

اسم

تأنيث

تعريف

التلميذة

فعل

مكمل

مضارع للغائب

تأنيث

إفراد

تقرأ

فعل

جار ومجرور

حرف جر
في

مجرور

اسم

مفرد
كتاب

نكرة

شكل (٣)

ضغط الهواء وقياسه[٦] :

يعتبر ضغط الهواء من العناصر الهامة في إنتاج الصوت . ولا يكون الضغط ثابتا خلال العملية الصوتية كلها بل إنه يتفاوت قوة وضعفا ، كما يحدث في البالون المطاطي الذي ينتهي بزمارة يمر الهواء بها فتحدث الصوت . ولو فرض أن ضغطنا على جسم البالون ضغطات متوالية فإننا نسمع دفعات متوالية مختلفة القوة . وهذا ما يحدث عند خروج الهواء من الرئة ، حيث يقوم الحجاب الحاجز بإحداث اختلافات في مدى الضغط الواقع على الرئة . ويتفاوت الضغط بين نوع من الأصوات ونوع آخر ، فيكون قويا مع الأصوات الانحباسية والاحتكاكية المهموسة ، وقليلا مع الأصوات الانحباسية والاحتكاكية المجهورة وأقل في بقية الأصوات . كما يقسم الضغط ـ بواسطة النبضات التي أشرنا إليها ـ الحدث اللغوي إلى مقاطع يتفاوت ضغطها ويطلق على هذه الظاهرة اسم (النبر) .

وتعتمد قوة الضغط على عنصرين : كمية الهواء وكيفية انسيابه ـ أما كمية الهواء في عملية الزفير فإنها تبلغ خمسة لترات تحتفظ منها الرئتان بمقدار ٢/١١ لتر حتى لا تلتصق جدرانها . أما الكمية الباقية فيكون ضغطها عادة ١٦٠ جراما تستهلك منها العملية الكلامية مابين ٣ ، ١٥ جراما . ومنها تستهلك ذبذبة الأوتار الصوتية ما يعادل جرامين . أما الانسياب فإنه يزيد أو يقل حسب اتساع أو ضيق الممر الذي يسير فيه الهواء وما يحدث فيه من تدخلات . وهناك قوانين رياضية يمكن بواسطتها الوصول إلى مقدار الضغط بواسطة حجم الهواء وانسيابه كماً وشكلاً . ويمكن قياس ضغط الصوت اللغوي باستعمال جهاز يسمى راسم الانسياب pneamotachograph يوصل بحاسوب يتصل في نهايته الأخرى براسم ذبذبات oscilloscope فتظهر على شاشته الخطوط البيانية الممثلة لحجم الهواء وانسيابه وضغطه . ويوجد إلى جانب هذا الجهاز مقاييس أخرى لمعرفة مقدار الضغط في الفم والأنف .

انظر شكل (٤)

وقد وجد بالتجربة أن ضغط الهواء المستعمل في النطق يختلف تبعاً للجنس والسن .

انظر شكل (٥)

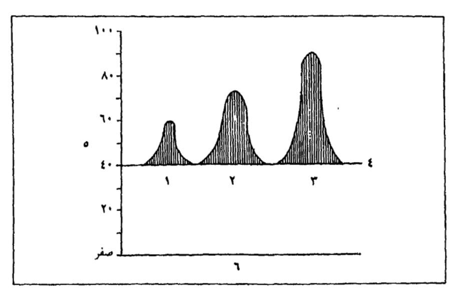
سقف الحنك :

يرتفع اللسان بمختلف أجزائه في اتجاه سقف الحنك لإنتاج أنواع من الأصوات هي اللهوية والرخوة (أي التي يتلامس منها اللسان مع الجزء الرخو من سقف الحنك) والصلبة واللثوية . وقد كان موضع اللسان يحدد من قبل بواسطة صناعة سقف حنك صناعي للمتكلم يغطى بطبقة من مسحوق الطباشير ويوضع منطبقاً على سقف الحنك ثم ينطق المتكلم بكلمة فيها صوت واحد يلمس فيه اللسان السقف ، فتنطبع صورة التقائهما بمسح الطباشير . وقد تطورت هذه الوسيلة البدائية أخيراً إلى جهاز دقيق يسمى (الراسم الكهربائي لسقف الحنك) electropalatograph وهذا الجهاز يتكون من سقف حنك صناعي مثبت فيه عدد من الرؤوس الألكترونية الموصلة بأسلاك إلى شاشة عرض بها عدد من المصابيح يتصل كل منها بأحد الرؤوس . وعندما يلمس اللسان جزءا من سقف الحنك تضيء المصابيح المتصلة بالأجزاء التي يلتقي بها . ويقوم الجهاز برسم صور متوالية لتلامس اللسان مع السقف ، وبذلك يمكن الحصول على سلسلة من الصور تمثل ما يحدث في العبارة كلها لا في صوت واحد فقط ويمكن اختزان هذه الصور في ذاكرة حاسب متصل بالجهاز واستدعاؤها لدراستها عند الحاجة ، كما يمكن طبع هذه الصور متوالية حسب حركات اللسان .

انظر الشكل (٦)

---

(٦) ص ٤ الى ٨ من البحث ملخص عن مرجع ١ ص ٣٥ - ٧١



شــكل (٤)

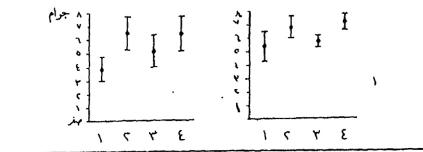
كمية الهواء اللازمة عند التنفس والمحادثة والصياح

١ ـ الكمية عند التنفس. ٣ ـ الكمية عند الصياح.

٢ ـ الكمية عند المحادثة. ٤ ـ مستوى وضع الراحة.

٥ ـ الخط البياني الممثل للكمية الكلية التي يمكن أن توجد في الرئة (الخط الرأسي).

٦ ـ الخط المبين لنوع النشاط الرئوي.



شــكل (٥)

مقارنة بين نطق الرجال والنساء

الشكل (١) على اليمين يمثل نطق النساء والشكل (٢) على اليسار يمثل نطق الرجال والخط الرأسي في الشكلين (١) و(٢) لقياس ضغط الهواء داخل الفم بالجرام. والخط الأفقي فيهما لبيان نوع الصوت كما يلي:

١ ـ انفجاري مجهور.

٢ ـ انفجاري مهموس.

٣ ـ احتكاكي مجهور.

٤ ـ احتكاكي مهموس.

في المصرية ـ بيع (فعل أمر)

في المصرية ـ بيع (مصدر)

شـكل (٦)

مقارنة بين وضع اللسان عند النطق بالحركة (ى ى) والحركة (ــَى ــَى :) وذلك في الكلمتين المصريتين بيع (فعل أمر) وبيع (مصدر).

لاحظ الفرق بين عدد الدوائر وموضعها في الرسم

ويستفاد من هذا الجهاز في علاج عيوب الكلام ، وخاصة عيوب تكوين سقف الفم .

مشاهدة العمليات العضلية لأعضاء النطق :

لا يكتفي علماء الأصوات المعاصرون بوصف النشاط الظاهري للعضو ، بل إنهم يتجاوزون ذلك إلى وصف حركات العضلات التي تكونه أو التي تتحكم في حركته . وهم يستفيدون في ذلك بعدد من الأجهزة أهمها :

أولا : المجهر الخيطي :

وهو جهاز مصنوع من خيوط زجاجية شفافة ومرنة ، من حزمتينْ إحداهما تنقل الضوء إلى جزء معين من فراغات النطق الداخلية من مصدر خارجي (كالبطارية) والأخرى تنقل الصورة الممثلة لحركة الأعضاء داخل الفراغات إلى الخارج . وسمك الأولى ٩/٦٠, ملليمتر والثانية ١/٥ ملليمتر ، أي أن سمك الجزأين معاً يعادل ثلاثة أجزاء من ألف جزء من السنتيمتر . وتنتهي حزمة الضوء بمصباح وحزمة الصور بعدسة تنقل الصورة إلى مرآة خارجية . وتزج الحزمتان من خلال الفراغ الأنفي حتى تصلا إلى مقربة من اللهاة مثلا ، أو إلى مسافة أكبر حتى تصل إلى البلعوم أو إلى منطقة الحنجرة . ومن هذه الأوضاع الثلاثة يمكن مشاهدة حركات اللهاة عند إنتاج الأصوات الأنفية والفموية ونشاط البلعوم عند النطق بالحاء والعين والهاء ونشاط الحنجرة عند النطق بالهمزة أو عند إحداث صفة الجهر . ومن الممكن توصيل الجهاز بآلة تصوير سينمائية وجهاز تسجيل صوت حتى يمكن تسجيل أداء العضو أو الأعضاء صوتياً وحركياً للرجوع له عند الحاجة .

ثانيا ـ جهاز التصوير بأشعة اكس :

ويستعمل هذا الجهاز لتصوير حركات الأعضاء الداخلية من خارج الجسم . والجهاز من ثلاثة أجزاء : مولد أشعة اكس ، ومستقبل للأشعة ، وحاسوب يجمع بين المعلومات الصادرة من المستقبل وأية أجهزة أخرى كأجهزة قياس الضغط مثلا . واستعدادا لعملية التصوير نقوم بالعمليات الآتية :

أ ـ يثبت عدد من الرؤوس المشعة محيط كل منها ٣ ميلليميتر تقريباً ، اثنتان على كل من اللسان والفك الأسفل والشفتين ، وهذه هي الأجزاء المتحركة في الفم وواحدة بين الشفتين الأماميتين في الفك الأعلى أو على عظمة الفم وهما جزءان ثابتان .

ب ـ تصور منطقة الفم والأسنان والشفتين قبل النطق وستظهر الرؤوس المشعة كلها بما فيها التي فوق الأجزاء الثابتة والتي فوق الأجزاء المتحركة .

ج ـ تصور حركات الأعضاء خلال الكلام بسرعة قدرها ١٤٠ إطارا في الثانية لفترة ست ثوان فتتحرك الرؤوس المشعة المثبتة على الأعضاء المتحركة .

د ـ تنقل الصور المتوالية إلى شاشة راسم الذبذبات كما تنقل الصور الثابتة (ب) لمقارنة مقدار حركة الأعضاء كما يمكن طبع فيلم إيجابي من الفيلم السلبي للرجوع إليه عند الحاجة . ويستفاد من هذا الجهاز فيما يلي :

أ ـ بيان حركات اللسان بالنسبة لسقف الفم في نطق الحركات البسيطة والمركبة .

ب ـ بيان المواقع الدقيقة لالتقاء اللسان بمختلف مناطق سقف الحنك عند إنتاج السواكن اللهوية كالكاف والخاء والعين والصلبة كالياء والجيم والشين، واللثوية كالنون واللام، والأسنانية والشفوية كالباء والفاء والواو .

ج ـ بيان تأثر الحركات والسواكن المتجاورة بعضها ببعض من حيث تعديل مخارجها نتيجة للتجاور .

ثالثا ـ الراسم الكهروعضلي electromyograph :

يتكون هذا الجهاز من عدد من الرؤوس الألكترونية تلصق على عضلات العضو المتحرك ، وتتصل هذه الرؤوس بواسطة أسلاك دقيقة بجهاز تضخيم amplifier وظيفته تقوية التيار الكهربائي الصادر عن الخليات العصبية . ويوصل جهاز التضخيم بسن stylus يتذبذب بتأثير الذبذبات ويرسمها على ورقة حساسة للاحتفاظ بسجل لشكل الذبذبات وقوتها . ويمكن الاكتفاء بمشاهدة الذبذبات دون تسجيل بنقل صورة الذبذبات إلى راسم الذبذبات لرؤيتها على شاشته .

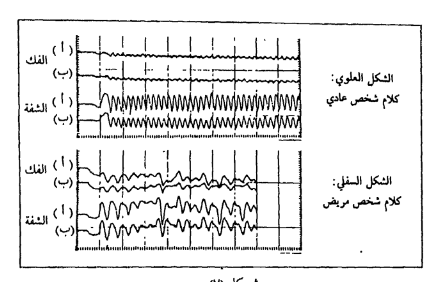
ولما كانت النتائج التي نحصل عليها بواسطة هذا الجهاز تبين عمل العضلات المكونة للعضو لا حركة العضو كله ، فإنه لابد أن تربط حركة العضلة (لا العضو) بالإيماءات cues الكلامية عند حركة العضلة نفسها . وهذا العمل يتطلب ملاحظة إشارات الكترونية لا حصر لها ، ولهذا يتحتم استعمال حاسوب للقيام بهذا العمل واختزان النتائج التي نصل إليها . ومن الممكن الاستفادة من هذا الجهاز في بيان الفروق الدقيقة في عملية نطق العبارات المتشابهة .

رصد عيوب الكلام :

لعل الفائدة العظمى من هذه الأجهزة وخاصة الأخير منها هي استعمالها في الكشف عن أسباب عيوب الكلام ، وهل هي راجعة إلى عدم قيام العضو بعمله كما ينبغي أو لمرض في إحدى عضلاته أو إلى اختلال في إنتاج الطاقة الكهربائية من وحدات التحريك في المخ . وفيما يلي صورة تبين الفرق بين كلام شخص عادي وبين كلام شخص مريض بمرض الأتاكسيا ، وهو مرض يصيب بعض مناطق المخ وينتج عنه عجز المريض عن تحريك العضلات المناسبة لتحريك الشفتين واللسان إلى مواضعها اللازمة للنطق بالأصوات . ولهذا فإن هذا المريض ينطق الباء ميماً فيقول (ناب) عندما يريد أن يقول (نام) ، كما يسبب هذا المرض العجز عند استعمال الأصابع في كتابة هذه الحروف بدقة .

انظر الشكل (٧)

كل ما سبق وسائل مساعدة للوصول إلى وصف مخرجي وأدائي دقيق للأصوات وعدم الاكتفاء بما كان يحدث من قبل من وصفها بالمشاهدة أو الإحساس بمكان التدخل وكيفيته إلى جانب صفة الجهر أو الهمس .



شــكل (٧)

يظهر الشكل اضطراب حركات عضلات الفك والشفتين عند كلام الشخص المريض (الشكل السفلي) بمقارنتها بكلام الشخص السليم

التحليل الصوتيمي للكلام Phonemic Analysis :

قد يظن أن الوصف الدقيق للعمليات العضوية عند الكلام أمر كاف في دراسة الصوت اللغوي . ولكن هذا غير صحيح . والسبب في هذا أن أحكام المخ لا تتطابق تماماً مع نتائج هذه العمليات العضوية . وقد يعتبر المخ صوتين مختلفين من ناحية الأداء والخصائص السماعية أمرا واحدا كما قد يعتبر أمرا واحدا من هاتين الناحيتين أمرين مختلفين وذلك بسبب وقوعهما في محيطين لغويين مختلفين . وما نقوله هنا طريقة أخرى للتعبير عما يسمى في علم طرق البحث بالتجريد وهو تجاهل لبعض الصفات الواقعة للشيء حتى يمكن وضعه مع سواه تحت نفس النوع . ونحن ندرك أن لفظ رجل ، يعني نوعاً من المخلوقات . . يشمل أفراداً يختلفون في الواقع الخارجي ، منهم القصير والطويل والأبيض والأسود والصحيح والسقيم . وحتى يمكن جمع هذه الأنواع المختلفة مادياً في مفهوم واحد يختار المخ بعض الصفات المميزة المشتركة بينهم وسيلة للتصنيف ويتجاهل الصفات الفردية الأخرى . وتعتبر عملية التجريد ضرورة للتفاهم الإنساني ، حيث لا يمكن أن يخصص (اسم) لكل فرد من أفراد الرجال لاختلافه من ناحية أو أخرى عن الآخرين . والذي يحدث في هذا المثال يحدث بالنسبة للأصوات اللغوية . ولهذا تحتم أن نقوم بتحليل سلوك الأصوات إلى جانب تحليل صفاتها المادية . وتحليل سلوكها هو ما يسمى بعلم الصوتيميات أو النظم السلوكية الصوتية .

لنأخذ مثلا الوحدة التي نسميها النون ، وسنجد من أفرادها الصوت الأخير في (إن) في العبارة (إن أنت) أو في العبارة (إن بات) أو في العبارة (إن وعد) أو في العبارة (إن يكن) وفي العبارة الأولى تكون النون صوتاً لثوياً أنفياً . أما في الثانيه فإنها صوت أنفي شفوي ثنائي (كالميم) وفي الثالثة صوت أنفي شفوي مستدير (واو أنفية) وفي الرابعة

صوت أنفي صلب (ياء أنفية) وهكذا . ورغم هذا الاختلاف المادي بين كل حالة وأخرى فإننا نضع هذه الأصوات كلها تحت وحدة نوعية نسميها النون . وهذه الوحدة تسمى الصوتيم Phoneme .

ويشمل التحليل الصوتيمي أو الوظيفي الصوتي ، حصر المجموعات الصوتية الممكنة وغير الممكنة . ففي العربية يمكن أن تلي الهاء العين في مثل « أعهد » ولكن لا يمكن أن تلي العين الهاء أو الحاء دون توسط حركة . كما يشمل الآثار الصوتية الناتجة عن الانفعال كالرضا أو الغضب . والتحليل الصوتيمي.كما نرى لا يعتمد على الأجهزة بل هو تحليل يعتمد على اعتبارات سلوكية غير مادية . ويرى البعض أن ما يكشف عنه التحليل الصوتيمي هو الصورة الداخلية للموهبة اللغوية Competence التي توجد لدى أبناء لغة ما ، والتي هي الأساس الذي يعتمد عليه إنتاج الكلام وإدراكه .

ثانيا ـ الانتقال

كان علماء الفيزياء . . يحللون الصوت الإنساني وغير الإنساني بتطبيق نظرية فوريير ، وهو عالم عاش في القرن التاسع عشر . وكان ذلك يقتضي إجراء قياسات وحسابات تستغرق بعض الوقت .

وأثناء الحرب العالمية الثانية احتاج الحلفاء إلى طريقة سريعة لتحليل الأصوات التي يحملها الجو والبحر للتعرف على مواقع أسلحة العدو . وقد تم ذلك بفضل جهود الفيزيائيين في سلاح البحرية الأمريكي ، الذين اخترعوا جهازا أطلقوا عليه اسم جهاز التحليل الطيفى Spectrograph . وقد تطور هذا الجهاز خلال نصف القرن الحالي وأصبح أهم وسيلة للبحث العلمي في مجال الدراسات الصوتية الطبيعية والإنسانية . وكان على رأس المهتمين بهذه الدراسات شركات التليفونات ، وخاصة شركة بيل الأمريكية ، وذلك لتحسين الاتصالات الهاتفية . وتعتبر أبحاثها من أول الأبحاث الرائدة في هذا المجال . وقد وجد الفيزيائيون أن دراسة الصوت الإنساني تختلف عن دراسة الصوت الطبيعي من ناحيتين ، أولاهما أن الأصوات الانسانية تخضع في إنتاجها وإدراكها للعادات الفعلية للمتكلم والسامع ، وبالتالي فإن الإنجليزي مثلا يسمع العين العربية فيظنها من الحركات ، وقد يخلط بين الهمزة والعين والحاء والهاء ، والطاء والتاء . وأما الناحية الثانية فهي أن الأذن الإنسانية لا تسمع الأصوات بالطريقة التي تستقبلها بها الأجهزة ، بل إنها قد تنتهي إلى الحكم بأن صوتين مختلفين فيزيائياً صوت لغوي واحد ، وأنها قد تحكم على وجود فرق بين صوتين ، دون أن يؤيد وجود هذا الفرق الواقع المادي الذي تبينه الأجهزة . ولهذا فقد كان على الفيزيائيين دراسة علم الأصوات اللغوية واتخاذه من وسائل البحث في دراسة الصوت اللغوي ، وقد أضافوا بذلك إلى دراسة الأصوات اللغوية خبرة جديدة لم يكن علماء اللغة قد استفادوا منها . وكان أهم هذه الإضافات الاهتمام بدراسة مرحلة انتقال الصوت بعد إنتاجه وقبل أن يصل إلى أذن السامع .

الموجات الصوتية :

ينتج الصوت الإنساني وغير الإنساني نتيجة اهتزاز ذرات جسم ما بتأثير قوة ما . وتنقل هذه الاهتزازات أو الذبذبات من ذرات الجسم المهتز إلى ذرات الهواء أو ذرات سلك التليفون أو طبقات الجو الأثيرية فتهتز بدورها .

وتشبه حركة الذرات حركة كرة البليارد تتدحرج بتأثير ضربة اللاعب حتى تصل إلى نهاية الطاولة فتصدم حافتها فترتد في الاتجاه الآخر . ولو فرض أنها قد صدمت في طريقها كرة أخرى . فإنها تحركها في نفس الاتجاه حتى تصدم الثانية كرة أخرى فتغير اتجاهها وهكذا . وتعتبر الدحرجة الواحدة نظيرا للذبذبة ، أما الدحرجات المتوالية فإنها تناظر الموجة الصوتية .

وتوصف الذبذبة بتحديد أمرين ، الزمن الذي تستغرقه ويسمى (الفترة period) والبعد بين نقطة بدء الحركة ونقطة ارتدادها ويسمى اتساع الذبذبة amplitude وتوصف الموجة بعدد الذبذبات التي تكونها في الثانية ويسمى بدرجة الموجة frequency وبمتوسط اتساع ذبذباتها وهو يسمى اتساع الموجة .

التوزيع المنتظم والتوزيع العشوائي[٧] :

لو سلطنا قوة ما على تحريك عدد من الكرات الصغيرة الملساء على سطح أملس ، وكانت الكرات بنفس الشكل والوزن ، فإنها تتحرك في نفس الاتجاه وبنفس السرعة ، أي أنها تنتج دحرجات متماثلة . ولو سلطنا القوة على تحريك كرات مختلفة الشكل بعضها كامل الاستدارة وبعضها منحرف ، أو مختلفة الوزن لاختلاف مادتها مع تساوي أحجامها ، أو مختلفة الحجم مع اتحاد المادة ، فإن حركات الكرات ستختلف في السرعة والاتجاه . وستكون النتيجة في الحالة الأولى حدوث دحرجات منتظمة أما في الحالة الثانية فان الدحرجات لن تكون منتظمة . وذلك لأن الكرة الثقيلة تستهلك قدراً من الطاقة يزيد على ما تستهلكه الكرة الخفيفة . ويوصف توزيع الطاقة بالتساوي بأنه توزيع منتظم ويوصف التوزيع غير المتساوي بأنه عشوائي . وما يحدث في هذا المثال يحدث عند إنتاج الصوت ، فعندما توزع الطاقة بين الموجات المنتجة للصوت توزيعا متساويا ، يكون الصوت على شكل نغمة . أما إذا كان التوزيع عشوائيا فإن الصوت الناتج يكون ضجيجا أبيض white noise . ومثاله الصوت الناتج عن فرك اليدين أو حفيف الأشجار .

النغمات التوافقية وغير التوافقية :

من خبراتنا السماعية ما نلاحظه أحياناً عندما نسمع مجموعة من دق الطبول . ويكون بين الدقات دقات صادرة عن طبل كبير تتوالى على أبعاد زمنية متساوية وطويلة نسبياً ، ودقات صادرة عن طبل أصغر تتوالى على أزمان متساوية ولكن كل دقتين منه تحدثان في نفس الوقت الذي تحدث فيه دقة واحدة من الطبل الأكبر ، ودقات صادرة عن طبل ثالث بمعدل أربع دقات في الزمن الذي تحدث فيه دقة واحدة من الطبل الأكبر . يطلق على الطبل الأكبر في اللهجة المصرية (ماسك الوحدة) ووظيفته تقسيم زمن العزف إلى وحدات متساوية تحدث مرة كل ١/٢ ثانية مثلا . وفي خلال الوحدة يدق الطبل الثاني دقتين والطبل الثالث أربع دقات . وتكون النتيجة وجود تداخل زمني من دقات الطبول الثلاثة بحيث تحدث الدقة الثانية من الطبل الأول والدقة الثالثة من الطبل الثاني والدقة الخامسة من الطبل الثالث في نفس اللحظة .

(٧) ص ١١ الى ١٤ من البحث ملخص عن مرجع ١ ص ٢١٥ الى ٢٣٦

يحدث مثل هذا في حركات الذبذبات المكونة للموجة الصوتية ، وتسمى الموجة في هذه الحالة موجة مركبة ، على نقيض الموجة البسيطة التي تحتل دقة طبل واحدة وتوصف هذه الموجة أيضاً بأنها توافقية لأنها تحدث من عدد من الموجات التي تتداخل ذبذباتها زمنياً كما رأيت .

ولو حدث أن اختلفت دقات الطبول فلم تنسجم زمنياً فإنها توصف بالنشاز أو عدم التوافق . والموجات الصوتية المركبة قد توصف كذلك بالنشاز إذا لم تنسجم أو لم تتوافق ذبذباتها .

والأصوات الإنسانية تنتج عن موجات متوافقة وعن موجات غير متوافقة من النوع الذي أطلقنا عليه من قبل اسم الضجة البيضاء . وعملية التحليل الفيزيائي للصوت تقوم بوصف الموجات التوافقية وغير التوافقية التي تحدث الشعور الوجداني المسمى بالسماع . ويستعان على هذا الوصف بتطبيق بعض الخصائص الطبيعية المشاهدة . ومن هـذه :

الرنين resonance :

الرنين ظاهرة نصادفها كثيرا في حياتنا اليومية ، كما لو أنتجنا صوتاً ما وقربنا مصدر الصوت من فراغ مقفول فإننا نلاحظ اختلافاً في شعورنا بالصوت ، كما يحدث عندما نغني في وسط طلق أو في فراغ صغير مقفول . وقد كشفت التجربة عن أن شكل الفراغ وحجمه بالإضافة إلى المادة التي يتكون منها تؤثر في نوع الصوت ، ولهذا تبنى صالات العزف الموسيقي على شكل معين وتغطى بطبقات من مواد معينة تسمى بالمواد العازلة أي التي تمنع رنين الصوت غير المنتظم .

وقد كشفت التجارب عن أن لكل جسم طاقة رنينية معينة ، وأن الجسم الرنان يمكن أن يكتسب الصوت من جسم آخر يماثله في طاقته الرنينية كما في التجربة الآتية :

١ ـ نطرق شوكة رنانة ترددها ١٠٠ ذبذبة في الثانية وسنسمع صوتا ناتجا عن هذه الذبذبات .

٢ ـ نقرب شوكة رنانة أخرى طاقتها الرنينية ١٠٠ ذبذبة في الثانية كذلك ـ نقربها من الشوكة الأخرى التي تصدر النغمة ، وسنجد أن الشوكة الثانية تبدأ في الذبذبة وإصدار الصوت دون أن تطرق .

معنى هذا أن الشوكة التي لم تطرق إكتسبت الرنين من الشوكة المطروقة لأنها تماثلها في الطاقة الرنينية .

الترشيح Filtering :

لو فرض أن طرقنا شوكة تصدر نغمة توافقية مكونة من موجات تردد إحداها ١٠٠ والثانية ٢٠٠ والثالثة ٣٠٠ ذ/ث وقربنا منها شوكة تصدر نغمة بسيطة ترددها ١٠٠ ذ/ث ، فإننا سنلاحظ أن الشوكة الثانية ستردد ولو فرض أن أوقفنا الشوكة الأولى باللمس أو أبعدناها من الغرفة ، فإننا سنلاحظ أن الشوكة الثانية ستستمر في الاهتزاز محدثة نغمة ترددها ١٠٠ ذ/ث وهي نغمة اكتسبتها من الموجة المركبة التي أصدرتها الشوكة الأولى .

يقال في هذه الحالة بأننا قد رشحنا من الموجة المركبة إحدى موجاتها التوافقية وهي التي تصدرها الشوكة الثانية .

ولو فرض أننا أتينا بثلاث شوك رنانة درجات ترددها ١٠٠ ، ٢٠٠ ، ٣٠٠ ذ/ث وعرضناها للتردد الناتج عن الشوكة الأولى فإن كلا من هذه الشوكات ستحدث موجة مناسبة لدرجتها أي أننا سنحصل على ثلاث موجات إحداها ١٠٠ والثانية ٢٠٠ والثالثة ٣٠٠ ذ/ث . أي أننا قد وصلنا إلى تحليل الموجة المركبة الصادرة عن الشوكة الأولى إلى النغمات التوافقية التي تكونها . وهذا النوع من الترشيح يسمى بالترشيح المركب على العكس من النوع الأول الذي يسمى بالترشيح البسيط .

التقوية والاستهلاك :

لو فرض أن أصدرنا نغمة من آلة موسيقية ولتكن كماناً مثلا فإن هذه النغمة ستكون ذات قوة خاصة . ولو فرض أن عزفنا آلتين أو ثلاث آلات لإصدار نفس النغمة في نفس الوقت فإننا لن نسمع ثلاث نغمات منفصلة بل سنسمع نغمة واحدة قوتها ضعف أو ثلاثة أمثال النغمة الأولى . ويقال في هذه الحالة بأننا قمنا بتقوية النغمة الأولى .

وكما يمكن تقوية النغمات يمكن استهلاكها كما يتضح من التجربة الآتية :

١ ـ أصدر صفيرا من بين شفتيك بالنفخ .

٢ ـ قرب وعاء كبيرا نسبيا من شفتيك .

٣ ـ ستلاحظ عند وصول الوعاء إلى بعد معين من شفتيك أن الصفير ينعدم .

السبب في هذا أن الوعاء قد كون غرفة رنين لا تتناسب مع الصفير في الدرجة . ويقال في هذه الحالة بأن الموجة الصوتية أو الصفير قد استهلك .

الصوت الانساني :

هذه الظواهر الطبيعية تلعب دورها في إنتاج الصوت الإنساني ، فعندما يمر الهواء المندفع من الرئتين خلال الأوتار الصوتية يحدث ترددات أو ذبذبات عديدة ، ومختلفة في الفترة والاتساع ، وبالتالي تحدث مجموعة لا تحصى من الموجات الصوتية ، تندفع إلى الفراغات العليا فيما فوق الحنجرة . وخلال مرورها بكل فراغ تنعدم الموجات التي لا تتوافق مع تردد الغرفة ، وتتقوى بواسطة الرنين تلك التي يتوافق بعضها وبعض مكونة نغمات حنجرية تعرف بالجهر . وللنغمات المركبة الحنجرية خصائص معينة تتعلق بتوزيع الطاقة بين مكوناتها ودرجاتها واتساعاتها ، كما ترى في الجدول التالي الذي يبين هذه الأمور بالنسبة لنغمة غنائية .

الموجة التوافقية	درجتها	اتساعها	طاقتها
الموجة الأولى (الأساس)	١٠٠	١,١٠٠	١,٠٠٠
الموجة ٥	٥٠٠	,٩٧٣	,٩٦٧
١٠	١٠٠٠	,٩٣٥	,٨٧٦
١٥	١٥٠٠	,٨٥٨	,٧٣٧
٢٠	٢٠٠٠	,٧٥٧	,٥٧٣
٢٢	٢٢٠٠	,٧١١	,٥٠٦
٢٥	٢٥٠٠	,٦٣٦	,٤٠٥
٣٠	٣٠٠٠	,٥٠٥	,٢٥٥
٣٥	٣٥٠٠	,٣٦٨	,١٣٥
٤٠	٤٠٠٠	,٢٣٤	,٠٥٥
٤٥	٤٥٠٠	,١٠٣	,٠١٢
٥٠	٥٠٠٠	—	—
٥٥	٥٥٠٠	,٠٨٩	,٠٠٨
		إلخ[٨]	

ونلاحظ أن الموجة الخمسين قد استهلكت ، أي أنها كانت موجودة بعد فراغ الحنجرة مباشرة ولكنها انعدمت عند مرورها بأحد الفراغات الذي لا تتوافق معه في التردد .

ويستمر توزيع الطاقة بعد الموجة المنعدمة ويزيد بالتدريج ثم يقل ثانية حتى ينعدم مع موجة أخرى ثم يبدأ في الزيادة التدريجية ثم النقص التدريجي حتى تنعدم وهكذا .

وإلى جانب هذه الصفة الإنتاجية الخاصة بالصوت الحنجري الإنساني فان هناك صفة سماعية أخرى لهذا الصوت ، تتعلق بإحساس الأذن به . ولو فرض أننا أنتجنا نغمة بواسطة ضغط مقداره ١٠ وحدات ثم ضاعفنا هذا الضغط إلى مرتين ثم ثلاث مرات ثم أربع مرات وهكذا ، فإن جهاز الاستقبال الآلي ، سيسجل أصواتاً قواتها متضاعفة بنسبة تضاعف الضغط أما الأذن الإنسانية فانها لا تشعر باختلاف قوة الأصوات بنسبة مضاعفات الضغط بل بنسبة لوغارتيمية كما ترى فيما يلي :

(٨) عن ٢ ص ١٦٩

١ ـ التسجيل الآلي :

مقدار الضـغط	قوة الصوت
١٠ وحدات	١٠ وحدات
٢٠ وحدة	٢٠ وحدة (١٠ + ١٠)
٣٠ وحدة	٣٠ وحدة (١٠ + ١٠ + ١٠)
٤٠ وحدة	٤٠ وحدة (١٠ + ١٠ + ١٠ + ١٠)
	الـخ

٢ ـ الإحساس السمعي :

مقدار الضـغط	قوة الإحساس بالصوت
١٠ وحدات	١٠ وحدات
٢٠ وحدة	١٠٠ وحدة (١٠ × ١٠)
٣٠ وحدة	١٠٠٠ وحدة (١٠ × ١٠ × ١٠)
٤٠ وحدة	١٠٠٠٠ وحدة (١٠ × ١٠ × ١٠ × ١٠)
	الـخ

ولهذا تحتم على علماء الفيزياء ابتكار مقياس للإحساس السمعي بالصوت يختلف عن المقياس الآلي لقوة الصوت سموه بالديسيبل Decibel .

باجيت والتحليل الطيفي للحركات :

تتكون الحركة من عنصرين ، الجهر وهو ناتج عن ذبذبة الأوتار الصوتية ، واندفاع الهواء في الممرات العليا من أعضاء النطق وما يحدثه ذلك من رنين في هذه الممرات . ومن الطبيعي أن يكون هدف التحليل الفيزيائي للحركات شاملا لهذين العنصرين . ولعل من أولى محاولات هذا التحليل دراسة قام بها العالم الانجليزي ر. س. باجيت R.S. Paget[٩] الذي كان يتمتع بجانب معارفه الصوتية بقدرة على الغناء ودقة السمع .

وقد فصل باجيت بين عنصر الجهر وعنصر الرنين الناتج في فراغات الممر العلوي أي ما فوق الحنجرة إلى الشفتين ، عند نطق الحركات في الإنجليزية البريطانية دون جهر . وقد لاحظ أن كل حركة تتكون من جزمتين من الموجات المتوافقة إحداهما مرتفعة الدرجة تتراوح ذبذبات الموجات التي تكونها بين ٦٠٨ ، ٢٥٩٠ ذ/ث ، والثانية منخفضة الدرجة وتتراوح ذبذبات الموجات المكونة لها بين ٣٠٤ ، ٩١٢ ذ/ث . وكانت الحزمة المرتفعة الدرجة أكثر وضوحا في السمع من الثانية ، كما كانت الحزمة المنخفضة أشبه بمحاولة الصفير بالفم مع الفشل في إنتاجه . ولاحظ كذلك أن الحزمة العليا لا تتأثر بمدى فتح الفم بل بحركة اللسان إلى أعلى أو إلى أسفل ، إلى الأمام أو إلى الخلف . ومن

(٩) تلخيص للمرجع رقم ٧ ، وانظر أيضا مرجع ٥ ص ١٣١

هذا استنتج أن الحزمة العليا تتأثر بغرف الرنين الأمامية ، أي الغرف الفموية التي تشكلها حركات اللسان ، ولذا أسماها بالحزمة الأمامية . أما الحزمة السفلى ، فقد انتهى إلى أنها ناتجة عن رنين الغرفة الممتدة من منطقة ما فوق الحنجرة حتى الشفتين ، ولذا فإنها تتأثر بفتح الفم ضيقاً واتساعاً وقد سمى هذه بالحزمة الخلفية وقد سجل نتائج بحثه في الجدول التالي .

2579 · 2434 · 2298 · 2169 · 2048 · 1932 · 1824 · 1722 · 1625 · 1534 · 1448 · 1366 · 1290 · 1217 · 1149 · 1084 · 1024 · 966 · 912 · 861 · 812 · 767 · 724 · 683 · 645 · 608 · 574 · 541 · 512 · 483 · 456 · 430 · 406 · 383 · 362 · 342 · 322 · 304

· eat · it · hay · men · hat · earth · sofa · up · calm · not · all · no · who · put ·

شـــكل (٨)

الشكل يمثل

١ ـ الأحزمه الترددية للحزمة التكوينية الأولى في ١٤ حركه إنجليزيه ـ المجموعه السفلى .

٢ ـ الأحزمه الترددية للحزمة التكوينيه الثانية في نفس الحركات في ١ ـ المجموعة العليا .

ونعيد هنا أن باجيت يتحدث عن حزمتين من الموجات تتكون كل منها من مجموعة من الموجات المتوافقة ، كما يلاحظ وجود فراغ يفصل بين الحزمة الدنيا والحزمة العليا . وهذا الفراغ يزيد أو يقل حسب نوع الحركة . وسيمر بك صورة لتحليل طيفي استعمل فيه الراسم الطيفي يوضح هذه النقطة الأخيرة (انظر الشكل رقم ١٠ ص ٤٦) .

بعد هذا نطق باجيت بنفس الحركات مجهورة ، وبذا أضاف عنصر النغمة الحنجرية إلى أثر غرفتي الرنين الأمامية والخلفية . وقد وجد أن إضافة النغمة الحنجرية تؤثر على درجة حزم بعض الحركات دون الأخرى . مثال ذلك الحركة /e/ التي ظلت درجة حزمتها العليا ١٥٤٢ ذ/ث وحزمتها السفلى ٤٠٦ ذ/ث عند الجهر كما كانت عند الهمس . وذلك على العكس من الحركة /a/ في calm التي تغيرت درجة كل من حزمتيها عند الجهر عما كانت عليه عند الهمس . بعد هذا صنع باجيت غرفة من طين الصلصال مفتوحة الطرفين رنينها ١٠٢٤ ذ/ث ووضع هذه الغرفة ملاصقة لشفتيه ونطق بنفس الحركات فوجد أن وجودها يؤثر على نوع الحركات بالنحو التالي :

١ ـ الحركة الطويلة في الكلمة calm (مثل صار في العربية) سمعت كما لو كانت الحركة الطويلة في الكلمة awe (مثل طور في المصرية) .

٢ ـ الحركة في hat (مثل بات) سميعت كما لو كانت حركة calm (صار) .

٣ ـ الحركة في up سمعت كما لو كانت الحركة في get .

الخ

معنى هذا أن من الحركات ما يتأثر بوجود غرفة الرنين الثالثة أي أنها تتكون من ثلاث حزم ومنها مالا يتأثر أي أنها تتكون من حزمتين .

جهاز الراسم الطيفي Spectrograph[10] :

يتكون هذا الجهاز من :

١ ـ وحدة تسجيل الصوت ، وهي أسطوانة معدنية محيطها ممغنط يسجل عليها نص وفي مركزها يثبت عمود يديره بقوة موتور عند التسجيل أو السماع .

٢ ـ ميكروفون للتسجيل وآلة لمحو النص إذا أريد ذلك .

٣ ـ وحدة تحليل الصوت وهي مجموعة من المرشحات تمر بها الموجات المكونة للرسالة .

٤ ـ أسطوانة أخرى تلف عليها ورقة حساسة وهي مثبتة في نفس العمود الذي ثبتت فيها أسطوانة التسجيل بحيث تدوران معاً .

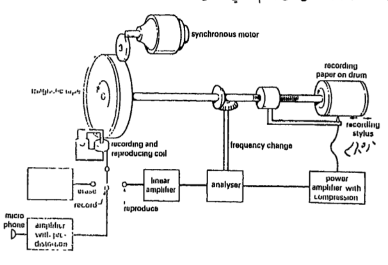
(١٠) الرسم عن :

W. Keonig "The Sound Spectrograph."
Acc. oc.of America Vol 18 (196) PP 318-22

٥ ـ حامل إبره تسجيل Stylus يتحرك بواسطة حلزون محفور في العمود وهذه الإبرة متصلة بتيار كهربائي يحدث شرارة عند ملامستها ورقة التسجيل أثناء دورانها فترسم عليها خطوطاً متوالية .

بعد تسجيل النص يدور الموتور فيحرك الأسطوانتين وحلزون الإبرة ويمر الصوت بالمرشحات فيعزل أحدها الموجة السفلى وينقلها إلى الإبرة فتتذبذب بنفس شكل ذبذبات الموجة .

وبسبب الشرارات الناتجة من التيار تحدث الإبرة خطاً على ورقة التسجيل يمثل الموجة المرشحة . وتدور الأسطوانة مرة ثانية وثالثة ورابعة ويتم ترشيح الموجات واحدة واحدة وترتسم على الورقة الحساسة . وبعد وصول الإبرة إلى نهاية الحلزون يتوقف الجهاز ونحصل على رسم طيفي للنص .



شكل (٩)
رسم تخطيطي لجهاز الراسم الطيفي

أود قبل أن استمر في الحديث أن أوضح مفهوم عدد من المصطلحات قد وردت أو سترد خلال الحديث عن الرسوم الطيفية .

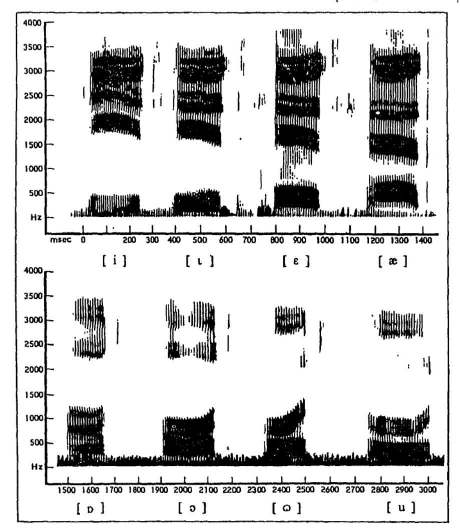
١ ـ موجة الأساس ، وهي موجة بسيطة من مكونات موجة مركبة وهي أقل المكونات درجة ، وإن كانت أكثرها استهلاكاً للطاقة (انظر الجدول ص ٤١) . وتكون درجة كل من المكونات الأخرى من مضاعفات درجتها . وفي الجدول المشار إليه رأيت أن درجة موجة الأساس ١٠٠ ذ/ث ودرجات المكونات من مضاعفات هذا العدد (٥٠٠ ، ١٠٠٠ ، ١٥٠٠ الخ) .

٢ ـ الحزمة التكوينية Formant ، وقد يطلق عليها اختصارا لفظ الحزمة ، وهي مجموعة من الموجات التوافقية ، ذات درجات متقاربة في عدد الذبذبات ، وتظهر في الرسم الطيفي كما لو كانت خطاً عريضاً (انظر الشكل ١٠) . ويفصل كل حزمة عن التي تليها فراغ يظهر في صورة بياض في الرسم الطيفي . وتوجد الحزم التكوينية واضحة في

الرسوم الطيفية للحركات ، والسواكن الانطلاقية المجهورة كاللام والنون ، أما السواكن الانحباسية المجهورة فلا يظهر منها إلا موجة الأساس وبعض الموجات القليلة المجاورة لها .

٣ ـ حزام التردد ، ويقصد به المنطقة ، بين أدنى درجة وأعلى درجة للحزمة التكوينية أو للترددات العشوائية التي تنتج السواكن الاحتكاكية .

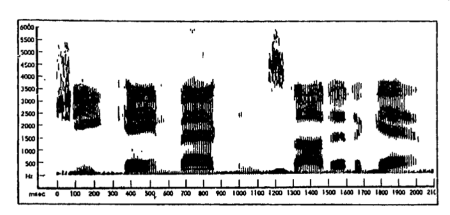
٤ ـ الحزام الضيق والحزام الواسع ، وهما نوعان من الرسوم الطيفية ينتجها جهاز الراسم الطيفي .
وإليك أمثلة لبعض الرسوم الطيفية .



شكل (١٠)

رسم طيفي لكل من الكلمات الإنجليزية (heed, hid, had,head,hod,hawed,hood,and who'd)
لاحظ الفرق بين الرسوم الطيفية للحركات

في الشكل ثمانية رسوم طيفية لحركات في كلمات إنجليزية بريطانية تتكون من مقطع واحد يبدأ بالصوت /h/ وينتهي بالصوت /d/ وهي who'd hood, hawed , hod, head, had, hid, head . وهي في الرسم من اليسار لليمين والرسوم الممثلة للكلمات الأربع الأولى في أعلى الشكل والممثلة للأربع التالية في أسفله . ويلاحظ أن بعد الحزم بعضها عن بعض (الناتج عن اختلاف درجاتها) يختلف من حركة إلى أخرى وسنرى ذلك بمقارنة الرسوم الطيفية في الشكل السابق .



شـكل (١١)

رسم طيفي للعبارة الانجليزية (She came back and started again)

يظهر في الشكل الحزام الطيفي للساكن في she (ش) على اليسار بين درجة ٢٥٠٠ ، ٥٣٠٠ ذ/ث والحزام الطيفي للسين /s/ في started وهو بين ٣٥٠٠ ، ٥٥٠٠ ذ/ث[١١].

انظر الشـكل (١٢)

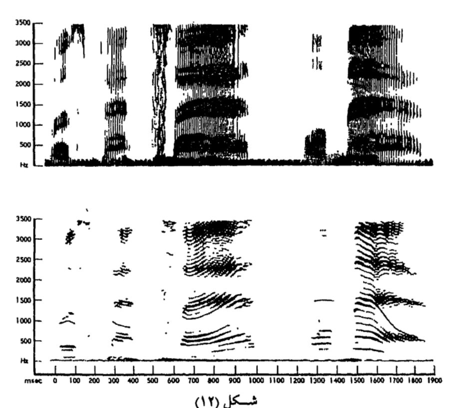
يمثل تحليلا طيفيا للجملة الانجليزية is Pat sad or mad رسم مرة بالحزام الواسع[١٢] وهو يظهر الحزم بوضوح ومرة أخرى بالحزام الضيق وهو يظهر مكونات الحزم .

دلالات الحزم التكوينية :

تساعدنا الحزم التكوينية في عدد من الأمور :

١ ـ التمييز بين الحركات بعضها وبعض ، وذلك بملاحظة عدد الحزم وبعد بعضها عن بعض ودرجة الحزام الترددي لكل منها . انظر شكل ١١ ص ٤٧ وبمقارنة الرسم الطيفي للحركة /i/ وهو الأول من اليسار في الجزء العلوي بالرسم الطيفي للحركة /u/ وهو الأخير إلى اليمين في الجزء السفلي ، نلاحظ الفرق في البعد بين الحزمتين في الحركتين ، كما نلاحظ أن درجة الحزام في /i/ بين ١٧٠٠ ، ٢٠٠٠ ذ/ث أما في /u/ فانه بين ٤٥٠ ، ٩٠٠ ذ/ث .

(١١) مرجع ١ ص ٢٧٢
(١٢) المرجع السابق ص ٢٧٩



شــكل (١٢)

تحليل طيفي للعبارة الانجليزية (Is Pat sad or mad?) باستعمال الحزام الواسع (الجزء العلوي) والحزام الضيق (الجزء السفلي)

٢ ـ التمييز بين المتكلمين في الجنس والسن :

ثبت من اختبار السماع الذي أجراه بيترسون وبارني وجود فرق واضح بين حزمتي التكوين في نفس الحركة عندما ينطقها رجل عنها عندما ينطقها صبي أو امرأة . وسنلخص فيما يلي الفرق الذي يلاحظ بينهم في نطق الحركة /i/ .

	موجة الأساس	الحزمة الأولى	الثانية	الثالثة
نطق الرجل	١٣٥	٣٩٠	١٩٩٠	٣٠١٠
نطق المرأة	٢٣٢	٤٣٠	٢٤٨	٣٠٧٠
نطق الصبي	٢٦٩	٥٣٠	٢٧٣٠	٣٦٠٠

٣ ـ المساعدة على التعرف على نوع الساكن المجاور للحركة ، وهو ما نعرضه هنا بالتفصيل :

مخرج الساكن وأثره في الحركة المجاورة :

يؤثر مخرج الساكن في غرفة الرنين التي تمر بها الحركة المجاورة له وذلك لأنها تنتقل من الوضع الذي كانت عليه مع الساكن إلى الوضع المطلوب للحركة ، على ثلاث مراحل .

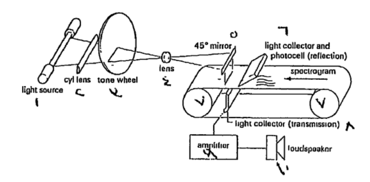
١ ـ مرحلة الاستقرار عند النطق بالساكن .

٢ ـ مرحلة الانتقال من شكلها مع الساكن إلى شكلها مع الحركة .

٣ ـ مرحلة الاستقرار في شكلها مع الحركة .

تجربة كوبر وزملائه(١٣) :

استعمل في هذه التجربة جهاز إعادة النطق :



شـكل (١٣)

ويتكون الجهاز كما يظهر في الرسم من اليسار إلى اليمين مما يأتي :

١ ـ مصدر ضوئي .

٢ ـ عدسة ضوئية طويلة ومستديرة .

٣ ـ عجلة نغمية .

٤ ـ عدسة .

٥ ـ مرآة مثبتة بزاوية قدرها ٤٥° .

٦ ـ جامع للضوء وخلية ضوئية عاكسة photocell .

٧ ـ أسطوانتين متباعدتين تلف حولها ورقة مرسوم عليها طيف .

٨ ـ جامع ضوئي ناقل .

٩ ـ مضخم صوتي .

١٠ ـ سـماعة .

---

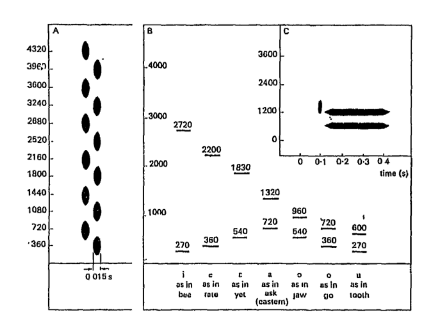
(١٣) تلخيص ٩ ـ أ

وعند عمل الجهاز تلف ورقة الرسم الطيفي على شكل حزام يصل بين الأسطوانتين (رقم ٧) . وبدوران الأسطوانتين تنعكس الصورة الطيفية بفضل الضوء الصادر من المصدر (رقم ١) وتمر بجامع الصوت والخلية الضوئية (٦) فتقوم بتحليل الصورة الطيفية إلى موجات ضوئية وترسلها إلى العجلة النغمية (٣) فتحول الموجات الضوئية إلى موجات صوتية ترسلها للمضخم (٩) والسماعة (١٠) فتصدر الصوت .

الآثار الطيفية للسواكن الانفجارية :

أ ـ الانفجارية المهموسة

المعروف أن الساكن الانفجاري المهموس يتكون من انحباس وانفجار دون جهر . وبالتالي فإنه لا يظهر في الرسم الطيفي إلا بعد الانفجار الذي يليه ضجة بيضاء وبعدها الحزمتان التكوينيتان لكل حركة كما ترى في الشكل :



شـكل (١٤)

يتكون الشكل من ثلاثة أجزاء C , B , A .

الجزء الأيسر A وفيه خط رأسي على اليسار مرقم عليه عدد الذبذبات في الثانية من صفر إلى ٤٣٢٠ وقد وزعت من أسفل إلى أعلى ، على أبعاد متساوية يفصل بين كل منها والتي تليها ٣٦٠ درجة . وعلى يمين هذا الخط توجد ١٢ نقطة سوداء ستة إلى اليسار وستة إلى اليمين وضعت على شكل عمودين لسهولة تمييز بعضها عن بعض . وهذه تمثل حزام انفجار الساكن .

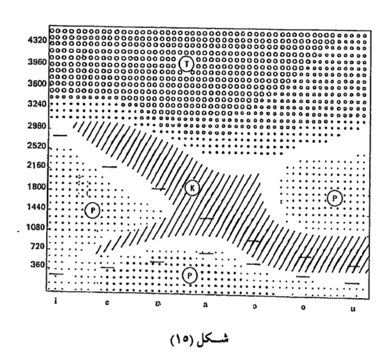
والجزء الأيمن B ويتكون من خط رأسي على اليسار لقياس عدد الذبذبات وخط أفقي سفلي كتبت تحته الحركات المعيارية السبع وكتبت تحت كل منها كلمة إنجليزية أمريكية تحتوي على الحركة . وفوق كل حركة بعد الخط الأفقي السفلي يوجد خطان فوق كل منهما رقم يبين الأسفل درجة الحزمة التكوينية الأولى والأعلى درجة الحزمة الثانية للحركة (مثلا u ٢٧٠ ، ٦٠٠ ـ O ٣٦٠ ، ٧٢٠ الخ) .

والجزء C ، عبارة عن مربع في الركن العلوي من اليمين ويتكون من خط رأسي لقياس عدد الذبذبات وخط أفقي لقياس الزمن . وداخل المربع يوجد خطان أفقيان الأسفل يمثل الحزمة الأولى والأعلى يمثل الحزمة الثانية . وعلى اليسار من الخطين توجد نقطة سوداء تمثل الانفجار . وهذا الجزء مثال لأحد الرسوم الطيفية التي رسمها يدوياً الباحثون لإجراء التجربة . رسم الباحثون باليد عدداً من الأطياف يتكون كل منها من الحزمتين الأولى والثانية لكل من الحركات المعيارية السبع . ويلاحظ أن هذه الأطياف ليست نتيجة لتحليل نطق واقعي بل مجرد رسوم مبسطة لموضع الحزمتين في كل حركة . ووضعوا كل رسم في جهاز إعادة النطق وأدير الجهاز أمام عدد من السامعين الذين طلب إليهم تدوين ما يسمعون كتابيا . وقد كانت النتيجة كما يلي :

١ ـ سمع انفجار وبعده فترة صمت ثم سمعت بعد ذلك حركة .

٢ ـ وجد أن الذي يحدد نوع الانفجار هو موضع الحزمة الثانية بالنسبة للخط العمودي أي لمقياس عدد الذبذبات .

٣ ـ لخصت نتائج السماع في الشكل التالي :



شكل (١٥)

الشكل على هيئة مربع عموده الأيسر لقياس الذبذبات وهو مدرج من صفر إلى ٤٣٢٠ والخط الأسفل الأفقي كتب تحته رموز الحركات . وفي داخل المربع يوجد خطان فوق كل حركة : الأسفل للحزمة الأولى والأعلى للثانية . وفي المربع توجد ثلاث مناطق إحداها مظللة برسم دوائر صغيرة وقد كتب فيها الرمز (T) وثانيتها مظللة بخطوط مائلة وكتب في وسطها الرمز (K) وثالثتها مظللة بنقط وهي موزعة إلى اليسار واليمين وإلى أسفل منطقة (K) وكتب في كل من مناطق توزيعها الرمز (P) . وإليك بعض الأمثلة لبيان كيفية الاستفادة منه .

١ ـ الحركة /i/ ، حزمتها الأولى في حدود ٣٠٠ ذ/ث فإذا كانت الثانية في المنطقة المحصورة بين ٧٢٠/ ٢٥٢٠ سمع الانفجار /p/ . وإذا كانت بين ٢٥٢٠ ، ٣٠٠٠ سمع الانفجار /K/ وإذا كانت بين ٣٠٠٠ ، ٤٣٢٠ سمع الانفجار /t/ .

٢ ـ الحركة /e/ الحزمة الأولى ٣٦٠ ذ/ث تقريباً ، وإذا كانت الثانية بين ٧٢٠ ، ٢٠٠٠ سمع الانفجار /p/ وإذا كانت بين ٢٥٢٠ ، ٣٠٠٠ سمع /K/ وإذا كانت بين ٣٠٠٠ ، ٤٣٢٠ سمع الانفجار /t/ .

٣ ـ الحركه/ U/ الحزمه الأولى ترددها ٣٤٠ ذ/ ث . وإذا كانت الثانية بين ٤٠٠ ، ٥٠٠ سمع/ K/ واذا كانت بين ١٤٤٠ ، ٢٤٠٠ سمع/ P/ واذا كانت بين ٣٢٤٠ ، ٤٣٢٠ سمع/ t/ .
وهكذا

ونود أن نعيد ملاحظتين سبقت الإشارة إليهما :

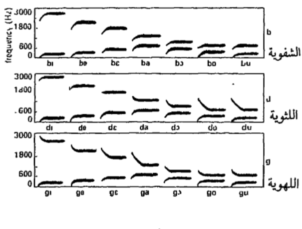
١ ـ ليست هذه الأطياف نتيجة تحليل نطق واقعي بل مجرد رسم يدوى مبسط لصور طيفية .

٢ ـ الانفجار الذى يسمع ليس نتيجة نطق واقعي بل هو ظاهرة طبيعية سمعية لدرجة الحزمة الثانية للحركات .

ب ـ الانفجاريه المجهورة :
في بحث آخر رسم الباحثون الأطياف السابقة مع تعديلين :

١ ـ التخلص من الفراغ الذى يفصل بين الانفجار والحركة .

٢ ـ رسم شكل الانتقال بين درجة الانفجار ودرجة الحركة التالية له . ولما كان الانتقال لايظهر إلا في الحزمة الثانية ، ولما كانت درجة جهر الانفجار أقل من درجة جهر الحركة ، فإنها تظهر في الحزمة الأولى وحدها التى لاتختلف كثيرا عن درجة الحزمة الأولى في الحركة . وهذا الفرق يظهر في انتقال صاعد في كل الحالات . أما الحزمة الثانية للحركة فانها قد تكون مستوية أو صاعدة أو هابطة كما ترى في الشكل التالى :



شكل (١٦)

يعد ذلك وضع كل من الرسوم الطيفية المصطنعة في جهاز إعادة النطق وسمعها عدد من المساعدين وسجلوا ماسمعوه فخرجوا بالأحكام التالية .

١ ـ إذا كان انتقال الحزمة الثانية هابطا سمع الانفجار/ g/ .

٢ ـ إذا كان انتقال الحزمة الثانية صاعدا من درجة ١٩٠٠ إلى درجة ٣٠٠٠ ذ/ ث أو من درجة ١٨٠٠ الى درجة ١٩٠٠ ذ/ ث أو كان مستويا (على الشكل الذى تراه في الصندوق الأوسط من شكل ١٨) ، فإن الذى يسمع هو الانفجار/ d/ .

٣ ـ إذا كان الانتقال صاعدا (على النحو الذى تراه في الصندوق العلوى) كان الانفجار المسموع/ b/ .

ج ـ الأصوات الأنفية والجانبية[١٤]

لوحظ فيما سبق أن درجة الحزمة الثانية تختلف باختلاف مخرج الساكن الذى يشبهه الانفجار أى باختلاف الصفة من شفوية إلى لثوية إلى لهوية . ولما كانت السواكن الأنفيه تتميز بعضها عن بعض بالشفوية/ m/ أو اللثوية/ n/ أو اللهويه/ ŋ / (نج) فقد امتد البحث ليشمل هذه السواكن أيضا . وبالتالى أعادوا الرسوم الطيفية السابقة مع تعديلين :

١ ـ إزاله النقط السوداء الممثله للانفجار لأن السواكن الأنفية ليست انفجارية .

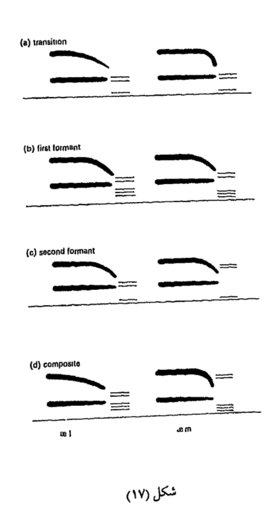
٢ ـ إضافه خطوط أخرى تمثل الحزم التكوينيه في هذه السواكن لأنها مجهورة ، ثم أعادوا اختبارات السماع فانتهوا إلى الحكم التالي :

(١٤) السابق

تظل الحزمتان الأولى والثانيه في كل حركة كما كانت عليه مع الانحباسات المجهوره مع فرق في شكل الانتقال ، ومع وجود حزمتين للسواكن الأنفية تختلف باختلاف الحركة المجاورة .

د ـ السواكن الجانبيه (اللام والراء) :

وجد أنها تشبه السواكن الأنفية في وجود حزمتين إضافيتين يختلف وضعهما مع السواكن الجانبية عنه مع الأنفيات ، وذلك بالنسبه لحزمتي الحركة المجاورة كما ترى في الشكل التالي :



شكل (١٧)

في الشكل مجموعة من الرسوم الطيفية الممثله للحركة المعيارية الرابعة (نوع من الفتحة) : أربعة تلي فيها الميم الحركة ، وهي المجموعة اليمنى وأربعة تلي فيها اللام الحركة وهى المجموعة اليسرى . ويظهر في الشكل مايأتى :

١ ـ الزوج الأعلى (a) . ويكون الرسم الطيفى للام والميم متشابهين مع فرق واحد هو أن الانتقال إلى الميم أشد انحدارا من الانتقال إلى اللام .

٢ ـ الزوج الأوسط (b) ويكون فيه الانحدار مع اللام أكثر من الانحدار إلى الميم مع زيادة عدد موجات الحزمة الأولى عن الثانيه وانخفاضها مع الميم وارتفاعها مع اللام .

٣ ـ الزوج الأوسط (c) ويكون الانحدار متماثلا في حالتي اللام والميم ولكن الحزمه الثانيه مع اللام تكون بين الحزمتين الأولى والثانية للحركه أما مع الميم فإنها تكون فوق الحزمة الثانية للحركة . أما الحزمة الأولى فتكون فيها أقل من الحالة (b) .

٤ ـ الزوج الأسفل (d) عبارة عن مجموع الصفات الموجودة في الانتقال وشكل وعلاقة الحزمة الأولى والثانية للام والميم .

هـ ـ السواكن الاحتكاكية[١٥]

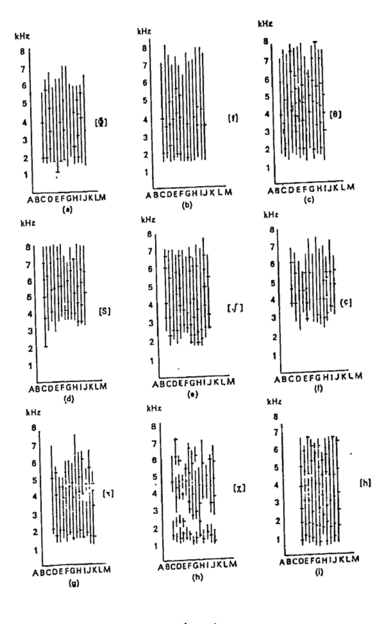
قلنا من قبل إن توزيع الطاقة بين الموجات التى تمثل الاحتكاكات توزيع عشوائى وأنه نتيجة لهذا لاتظهر حزم لهذه السواكن كتلك التى تظهر مع الحركات والسواكن المجهورة . والأمر الوحيد الذى نتعرف به على السواكن الاحتكاكية في الرسوم الطيفيه هو وجود حزام ترددى غير منظم تختلف مدى درجته باختلاف الصوت الاحتكاكى . وللوصول لهذه النتيجة أجرى البحث التالى :

اختار الباحث تسعه من الأصوات الاحتكاكيه هي الفاء الشفويـة الثنائيـه/ Φ / ، /f/ ، الثاء/ θ / ، /s/ والشين/ ʃ/ والكاف الشينية/ C/ والخاء الأمامية/ X/ والخاء الخلفية/ɔc/ ، /h/ . وكلف ١٣٠ من طلاب مدربين على الدراسات الصوتيه بنطق هذه السواكن مع إطالتها ، ثم رسم رسما طيفيا لكل من الأصوات المنطوقه بواسطة الراسم الطيفى فظهرت مناطق التردد الخاصة بهذه الأصوات . ثم رصد الحد الأعلى والحد الأدنى لحزام التردد مع كل صوت ، وسجل نتائج ذلك بالنسبة لكل متكلم وفي الشكل رقم ١١ ص (٢٣) ترى مثالا لحزام التردد في الشين والسين ، في العبارة الإنجليزية She came back and started again . وبمراجعة الشكل المذكور نلاحظ وجود حزام ترددى على اليسار يبدأ من ٢٣٠٠ ذ/ ث وينتهى عند ٥٥٠٠ ذ/ ث . وهو يمثل الشين في she ، كما يلاحظ وجود حزام آخر تردده بين ٣٧٠٠ ، ٥٦٠٠ ذ/ ث وهو الذى يمثل السين في Started .

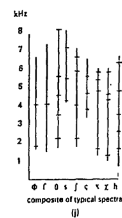
وفيما يلى الرسوم البيانيه التى تبين المجال الترددى لأحزمة هذه السواكن كما نطقها كل من الطلاب .

---

(١٥) تلخيص ٨



شكل (١٨ أولا)



شكل (١٨ ثانيا)

تعليق على الشكل

أولا ـ في هذا الجزء من الرسم توجد تسعة رسوم بيانية يمثل كل منها أحد الأصوات الاحتكاكية التسعة كما نطق بها كل من المساعدين الثلاثة عشر . وقد رمز لكل مساعد بخط رأسي مواز للخط الرأسي في الرسم البياني المبين لعدد الذبذبات في الثانية .

وقد وضع رمز الصوت الاحتكاكي على يمين كل شكل بحرف صوتي دولي (٢) . كما وضع رمز لكل مساعد بحرف كبير من الحروف الإنجليزية (A و B الخ) ، ويشير كل حرف الى أحد الخطوط الرأسية التي تمثل المساعد . وعلى هذا فالشخص « A » يمثله الخط الرأسي الذي على اليسار في الأشكال التسعة والشخص « B » يمثله الخط الرأسي المجاور وهكذا في جميع الأشكال من « a » الى « i » .

ثانيا ـ يمثل الشكل « j » إجمالا لتفاصيل الأشكال التسعة السابقة وتمثل الخطوط الرأسية الأصوات التسعة . وكل من هذه الخطوط عبارة عن متوسط نطق الأشخاص الثلاثة عشر للصوت . وعلى سبيل المثال يمثل الخط الرأسي الثالث على اليسار متوسط الخطوط الرأسية في الشكل « c » (الثالث من اليمين في المجموعة العليا) ، والخط التالي يمثل « f » أي متوسط الخطوط الرأسية في الشكل « b » (الثاني من المجموعة العليا) .

وسنبين فيما يلي مثالا للحزام الترددي للسين والشين والكاف الشينية (مثل ضمير النصب والجر المتصل للمخاطبة المفردة في الكويتية في الكلمة كتابك/ ك ي ت اا ب ي تش/) . وذلك بين شخصين هما A ، M .

A السين من ٢ إلى ٨ والشين من ٢/١ ٢ إلى ٧ والكاف الشينية من ٢/١ ٣ إلى ٧ .

M السين من ٣ إلى ٨ والشين من ٢/١ ٢ إلى ٢/١ ٧ والكاف الشينية من ٣ إلى ٢/١ ٦ .

الأصوات الاحتكاكية المجهورة :

تشبه الرسوم الطيفية لهذه السواكن رسوم الاحتكاكية المهموسة مع إضافة حزم تكوينية كحزم الحركات ولكنها تكون شديدة الضعف .

ز ـ الأصوات الانحباسية الاحتكاكية :

وتتكون من الانحباس يعقبه احتكاك وكما هو متوقع فإنّ الرسم الطيفي لأي منها يتكون من خصائص التوقف والاحتكاك معا وقد سبق بيانها .

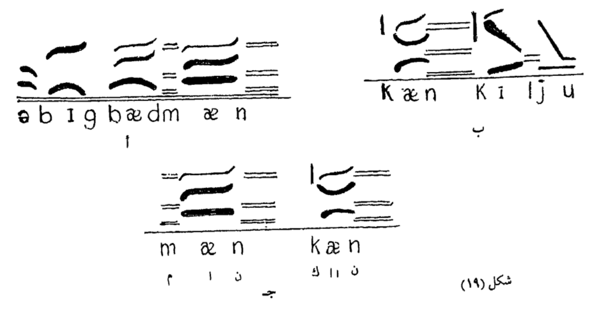
انتهينا من الوصف الطيفى لأنواع الأصوات ، ولكن هذا لايعنى تمام التحليل الطيفى للحدث اللغوى كله ، فهناك العلائم الطيفية للنبر والنغم والصفات الخاصه كالتفخيم العارض للصوت . وليس هنا مجال لشرح كل هذه الأمور .

التحليل والتركيب :

مرت بك أمثله لتحليل العبارات إلى موجات صوتية ، بعضها يمثل حركات وبعضها يمثل انفجاريات مهموسة أو مجهورة أو أنفيات أو احتكاكيات . والرسوم الطيفية التى قدمت إليك في الأشكال ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، تمثل تحليلا لعبارات قد نطقت فعلا ثم حول كل نطق إلى رسم طيفى أما الأشكال ١٤ ـ ١٩ ، فإنها لاتمثل أحداثا لغوية واقعة ، بل منطوقات مصطنعة آليا بواسطة إنتاج موجات تكون رسوما طيفية تماثل الرسوم التى نحصل عليها إذا ماحللنا المنطوقات الفعلية .

وقد تمكن المهندسون من الاستفادة تطبيقيا من عمليتى تحليل الأحداث اللغوية وتركيبها تركيبا اصطناعيا . وقبل أن أقدم للقارىء أمثلة لهذه التطبيقات أود أن أذكره ببعض التعليقات السابقة لتوضيح ما أقول .

لنأخذ مثلا الأبحاث التى لخصناها بالصفحات من (٢٦ الى ٣٣) . وسنلاحظ أن التجارب قد أجريت على رسوم طيفية مصطنعة . وقد كان كل رسم طيفى تمثيلا مبسطا للتحليل الواقعى لأحداث لغوية عرف منها الباحثون أشكال الموجات التى تكون كل صوت ودرجاتها . وعينوا بالاختبارات السمعية الموجات التى يمكن التخلص منها دون تأثير في درجة الإفهام والموجات التى يتحتم المحافظة عليها للاحتفاظ بدرجة مقبولة من الإفهام . ثم صنعوا الرسوم الطيفية محتفظين بالموجات الأساسية ومتخلصين من الموجات ثانوية الأهميه . بعد هذا ، أنتجوا الموجات التى تعينها الرسوم المصطنعه فحصلوا على كلام مصطنع .



شكل (١٩)

أ ـ العبارة الإنجليزية a big bad man [١٦]

ب ـ العبارة الإنجليزية can kill you

ج ـ العبارة العربية « من كان » مكتوبة من اليسار لليمين .

في الجزء العلوى من الشكل رسم طيفى مصطنع للعبارة الإنجليزية التالية : a big bad man ورسم آخر مصطنع للعبارة Can kill you ، وقد اقتطعنا المقطع الأخير من العبارة الأولى ووضعناه قبل المقطع الأول من العبارة الثانية / Can / فحصلنا على رسم طيفى مصطنع يمكن أن يقبل باعتباره ممثلا للعبارة العربية (من كان) . وعلى هذا الفرض تجرى مناقشاتنا التالية .

أولا ـ جهاز القراءة[١٧] :

قبل قيام الحرب العالمية الثانية كانت شركة بيل للتليفونات تجرى أبحاثا لتحسين الاتصالات الهاتفية والإقلال من تكاليفها . ووصل الخبراء إلى أنه من الممكن اختصار الحزم التكوينية للمجهورات والأحزمه الترددية للاحتكاك إلى عدد قليل من الموجات الأساسية الضرورية للإفهام وبالتالى فقد تصوروا أن السلك الذى يحمل رسالة واحدة بكل موجاتها يمكن أن يحمل عشر رسائل ملخصة . وبهذا تقل تكاليف مد الخطوط عبر الأطلنطى إلى العشر . وأبتكروا جهازا سموه Vocoder (وهي كلمة مركبه من Voice ، coder أى مصنف الصوت) .

وكان الجهاز يتكون من جزأين الأول يحلل الصوت والثانى يتخلص من الموجات غير ذات الأهمية ويصنع من الموجات الهامه صورة طيفية للرسالة . ومن هذه الصورة الطيفية يعاد تركيب الرسالة بعد تلخيص موجاتها بإنتاج موجات صوتية مصطنعة تمثل الرسالة الطيفية ونجحت العملية نظريا ، ولكن الرساله التى تم الحصول عليها لم تكن تامة الوضوح فعدل عن المشروع . وخلال الحرب استغل الحلفاء هذا الجهاز للتسمع على المواصلات الهاتفية للعدو . ويقال إن إسرائيل قد حصلت من أمريكا سنة ١٩٦٧ على أحد هذه الأجهزة . واستمعت إلى المحادثات الهاتفية من القادة العرب .

وبعد الحرب استغل هذا الجهاز في تطوير جهاز يقوم بقراءة النصوص المكتوبة للمكفوفين وذلك بإضافة وحدة لتصوير الرسالة المكتوبة وتحويلها لرسالة مسموعة على النحو الآتى .

لنفرض أن العبارة هى : (من كان) في هذه الحالة سيحدث مايأتى :

١ ـ يقوم جهاز التصوير بنقل الشكل الكتابى إلى حاسوب تختزن ذاكرته صورا عديدة هى :

أ ـ الشكل الكتابى ومايعادله من أصوات .

(من) = م + ا + ن كان = ك + اا + ن .

(١٦) تلخيص عن ٩ أ

(١٧) عن مرجع ٥ ص ١٣٩

ب - الأصوات وما تتألف منه من موجات وهى في هذا المثال كما يلى :

م = نغمه مستوية درجتها ٢٥٠ + مستويه درجتها ٢٥٠٠ + مستوية درجتها ٣٣٠٠ .

ا = حزمة مستوية درجتها ٧٥٠ + حزمة مرتفعة درجتها ٢٠٠٠ ثم ترتفع ثانية إلى ٢٣٠٠ .

ن = حزمة مستوية درجتها ٢٥٠+ مستوية درجتها ٢٥٠٠ + مستوية درجتها ٣٣٠٠ .

يلاحظ أن الذى يميز النون عن الميم هو الحزمة الثانية من الحركة (فتحة) حيث إنها تبدأ من نقطة أعلى من الحزمة الثانية للميم وترتفع حتى تستوى في درجة الاستقرار ثم ترتفع إلى اتجاه الحزمة الثالثة للنون (انظر شكل الحزمة الثانية في « من » و « كان ») .

ك = حزام في شكل خط رأسى بعده فراغ .

الفتحة الطويلة = حزمة مستوية درجتها ٧٥٠ + حزمة مرتفعة درجتها ٢٠٠٠ ثم ترتفع ثانية في اتجاه الحزمة الثالثة للنون التى تليها .

النون = حزمة مستوية درجتها ٢٥٠ + حزمة مستوية درجتها ٢٥٠٠ + حزمة مستوية درجتها ٣٣٠٠ .

ج - يصدر الحاسوب أمرا لجهاز إنتاج الموجات الآلى لإنتاج الموجات السابقة على الشكل الذى وصفناه .

د - تنتقل هذه الموجات إلى جهاز تضخيم amplifier.

هـ - تنتقل من جهاز التضخيم إلى سماعة فيسمع المكفوف الجملة المكتوبة .

ثانيا - انتاج الكلام الاصطناعى[١٨]

ليست محاولة إنتاج الكلام الاصطناعى محاولة جديدة ، بل إنها ترجع إلى مايزيد عن قرنين من الزمان ، ففى سنة ١٧٨٠ نال العالم الروسى كراتسينشاين Kratzenstein جائزة أكاديمية العلوم في مدينه سانت بيتر سبوج (ستالينجراد الآن) لأنه كان أول شخص أنتج الحركات /a/ ، /i/ ، /u/ ميكانيكيا . وقد صنع لتحقيق هذا العمل مزمارا من البوص وصله بأنابيب قامت بعملية ترشيح الصوت الناتج عن مزمار البوص . وفي سنة ١٨٤٨ قام يوهانس موللر بمحاولة ثانيه لإنتاج الصوت الاصطناعى ، وذلك بأن أخذ حنجرة شخص ميت وشدها على فوهة أنبوبة وثبت خيوطا في غضاريفها ، بحيث يمكن تحريكها كما تتحرك عند الكلام ثم دفع تيارا هوائيا عبر الأوتار الصوتية فأنتج حركات . وفي سنة ١٩٥٦ قام فان دن برج Van den Berg بمحاولة أخرى مستعملا وسائل تقنية حديثة ، ومستفيدا من النظريات الرياضيه المتعلقه بالحركة والضغط ، فصنع مماثلا للحنجرة من الجبس ، ومرر تيارا هوائيا خلال فتحاتها فأنتج أصواتا تماثل الحركات اللغوية . ومع أن مثل هذه المحاولات لم تنتج عبارات اصطناعية كاملة فإنها قد فتحت الباب أمام محاولات أكثر شمولا ، نذكر فيما يلى عددا منها :

(١٨) مرجع ١ ص ٣٤٦ ومابعدها

لتوضيح هذه النظرية نتحدث عن عمل الإرسال الاذاعى (بالراديو) وسنلاحظ أن أول مايحدث ، (قبل بدء الإذاعة) صدور صفير مستمر ، هذا الصفير يسمى بالموجة الحامل ، وهى التى تعين درجة الموجة التى يتم عليها الإرسال الإذاعى ، ثم يضاف إلى هذه الموجة عزف الكمان مثلا ، وهذا العزف يمثل العنصر الثانى وهو الرسالة . أما العنصر الثالث وهو المنظم فيمثله الميكروفون ، وهو يتلقى الحامل والرسالة ويمزجهما معا وبهذا تتم العملية الإذاعية .

وفي الكلام الطبيعى يحدث عن طرد الزفير إلى الخارج حدوث الموجة الحامل ، ويتدخل الأوتار الصوتية والغرف الرنينية العليا ، أى ما فوق الحنجره تحدث الرسالة أما الجهاز المنظم modulator الذى يمزج الحامل فإنه نفس الجهاز الذى يصدر الرسالة أى الاعضاء الصوتية من الحنجرة إلى فتحتى الفم والأنف .

وقد تمت محاولة لإنتاج الأصوات اللثوية الإنسانيه بإحداث الموجة الحامل والموجات الممثلة للرسالة وإمرارهما بمنظم كالميكروفون لمزجهما . وقد تمت هذه التجربة في إصدار الأصوات الإنسانية بنجاح ما . ولكنها لم تكن وسيلة عملية يمكن تطبيقها بسهولة .

نظرية الأطياف والحزم والأحزمة :

وقد تعرضنا فيما سبق لمفهوم هذه المصطلحات الثلاثة ، وانتهينا إلى أنه من الممكن تعيين الصفات الصوتية العضوية الأدائية بما يقابلها من صفات طيفية على النحو الآتى :

ـ الحركات وتعين كل حركة درجة الحزمة التكوينية الأولى والثانيه والثالثه (انظر المثال ص ٢٤ .)

ـ السواكن الانفجارية ويعينها الحزام الطيفى ودرجته (انظر المثال ص ٢٦ ـ ٢٨)

ـ السواكن الشفوية ويعينها الانتقال الصاعد للحزمة الثانية من الحركة المجاورة لها .

ـ السواكن اللثوية ويعينما صعود طفيف في الحزمة الثانية للحركة التالية لها إذا كانت / i/ أو/ e/ أو استواء في هذه الحزمة إذا كانت الحركة/ ε/ (في مثل ساب العربية) أو هبوط مع بقية الحركات المعيارية الأربع الباقية / a/ ، / ɔ/ ، /o/ ، /u/ .

ـ السواكن اللهوية ويعينها هبوط في الحزمة الثانية من الحركة التالية لها ويظهر كل هذا بمراجعة الشكل ص ٢٩ .

ـ السواكن الأنفية ويعينها وجود ثلاث حزم تكوينية كالتى توجد في الحركات الأولى في نطاق ٢٥٠ والثانية ٢٥٠٠ والثالثه ٣٢٥٠ ذ/ ث

ـ السواكن الجانبية . ويعينها وجود ثلاث حزم تكوينية درجاتها ٢٥٠ ، ١٢٠٠ ، ٢٤٠٠ ذ/ ث

الخ

ومادام من الممكن تحديد الخصائص والصفات الطيفية لكل صوت فإنه من الممكن بالتالى رسم تحليل طيفى يمثل المقطع الذى يوجد فيه الصوت .. وتكون الخطوة التالية القيام برسم طيفى يمثل العبارة كلها .

وقد مر بك وصف عمل جهاز إعاده النطق ، ومن الممكن استغلال هذا الجهاز لنطق العبارة التى يمثلها الرسم الطيفى كما سبق أن رأيت .

وباختراع الحاسوب ، أمكن إنتاج الأصوات من الرسوم الطيفية بسرعة مذهلة ، يسرت عملية إنتاج الكلام الاصطناعى والاستفاده منه في الأجهزة العلمية والمنزلية كالساعة الناطقه والسيارة التى تدار أجهزتها بإصدار الأوامر الكلامية أو التى تنقل إليك بكلام اصطناعى أخبار العوائق التى تكون قد حدثت في الطريق الذى تسلكه عند السفر .

محاولة تجزئة الكلام الطبيعى splicing :

من المحاولات التى جرت لإنتاج الكلام الاصطناعى تسجيل أصوات اللغة منفردة دون إجراء تحليل طيفى لها ، فتسجيل صوت/ م/ وصوت/ ا/ (فتحة) وصوت/ ن/ وصوت/ ك/ وصوت/ ء/ ، فإذا أردنا إنتاج اللفظ (كان) وضعنا في الجهاز تسجيل الكاف ثم الفتحه الطويلة ثم النون ، وإن أردنا إنتاج (كأنْ) وضعنا تسجيل الكاف وبعده تسجيل الفتحة ثم تسجيل الهمزة ثم الفتحة ثم النون ، وهكذا . وكانت النتيجة غير مرضية لأننا لا نسمع كلمات بل أصواتا منفصلة .

وسبب هذا أن الكاف قبل الفتحة لا تماثل الكاف بعد الكسرة ، كما أن الفتحة بعد الميم لا تماثل الفتحة قبل النون وهكذا ، ولهذا جرت محاولة أخرى سجلت فيها عبارات كاملة كثيرة العدد ، ثم قسم الشريط إلى إجزاء (بالقص) بحيث يمثل كل جزء صوتا واحدا في موضع معين ، في الأول أو الآخر أو الوسط قبل كل صوت وبعد كل صوت يمكن أن يجاوره . وبالتالى فإنه لن يكون لدينا تسجيل واحد للكاف بل عدد كبير يمثل جميع مواقعها وتجاوراتها . وقد قدر أننا نحتاج على الأقل إلى ٨٠٠٠ تسجيل دون أن ندخل في الاعتبار ، النبر والنغم الذى يصحب الصوت .

وحتى تتصور صعوبة تحقيق هذه الطريقة سنعرض المثال التالى :

١ ـ إذا كان لدينا الحزفان ب ، م فإن التجمعات الممكنة اثنان هما ب م ، م ب

٢ ـ إذا كان لدينا ثلاثة حروف ، ب ، م ، هـ فإن التجمعات ستكون ، ب م هـ ، م هـ ب ، هـ ب م ، ب هـ م ، م ب هـ ، هـ م ب ، أى ستة تجمعات .

٣ ـ إذا كان لدينا أربعه حروف ، أى ب م هـ د فإن التجمعات ستبلغ ٢٤ تجمعا وهكذا .

هل تتصور العدد الهائل من تجمعات إذا أجرينا هذه العملية بين أصوات تبلغ ٨٠٠٠ صوت .

وهكذا كان من غير الممكن تطبيق هذه الطريقة في إنتاج الكلام المصطنع . ثم اخترع الحاسوب وتطور تقدمه حتى صار من الممكن إجراء ما يبلغ مليون عملية تجميع في الدقيقة ، وبالتالى لم يكن من العسير استعماله في حصر تجمعات الآلاف الثمانية المذكورة . ولهذه الطريقه ميزة أخرى ، حيث إنها لا تحتاج للبحث المعملى الصوتى وهو معقد وطويل . ويكتفى للقيام بعملية التسجيل والتقسيم ، إعداد النصوص الكافية واستعمال الآلات لإجراء تقسيمها بعد تكبير الشريط المسجل وتقسيمه بالقص . ثم اختزان أجزاء النصوص في ذاكرة الحاسوب ، واستدعائها في التجمعات التى نريدها والتى تكون العبارة التى نريد إنتاجها اصطناعيا .

كما أن هذه الطريقه تمتاز على طريقه التحليل والتلخيص الطيفى بأنها لا تتخلص من أية موجات ثانوية بل احتفظت باللفظ كما سجل في الواقع .

ثالثا ـ البصمات الصوتية :

مر بك أثناء المناقشه جدول بعد شكل ١٢ ص (٢٤) وهو يمثل الفرق بين نطق رجل وامرأة وطفل للحركه/ i/ ومر بك أيضا الشكل ١٨ ص (٣٢ ، ٣٣) والتعليق عليه الذى قارنا فيه بين الحزام الترددى للسين والشين كما نطقه شخصان رمزنا لهما بالحرفين (أ) ، (ب) . وبمقارنة هذين الشكلين يتضح لك وجود فروق في الصور الطيفية للصوتيمات عندما ينطقها شخص عنها عندما ينطقها آخر . وليس هذا قاصرا على الحركة/ i/ أو الساكنين س ، ش ، بل هو أمر عام يشمل جميع الأصوات اللغوية التى ينطقها الإنسان .

وعلى أساس هذه النظرية قيل بوجود مايسمى بالبصمات الصوتيه أى الخصائص الطيفيه التى توجد ولا تختلف في نطق شخص ما لأى تعبير لغوى . وعلى المهندس الذى يصمم جهازا يقوم بهذا العمل أن يزود الجهاز بوحدة تحليل طيفى ، تخزن الصور الطيفية للعبارة التى تحللها في ذاكرة حاسوب ، حتى يمكن الرجوع إليها عند الحاجة .

ولنفرض أن لصا دخل مع زميل له إلى أحد البنوك لسرقة خزائنه وكان بالخزانة جهاز تسجيل . وعندما تبادل اللص الحديث مع زميله سجلت إحدى عباراته . وأثناء المحاكمة يسمع القاضى النص المسجل ويدار الجهاز فيحلله

تحليلا طيفيا ، يخزن في الذاكرة ثم يكلف المتهم بنطق العبارة نفسها ويدار الجهاز مرة ثانية فيسجل مانطق به المتهم ويحلله تحليلا طيفيا كذلك ثم تجرى عملية ملاءمة matching يقارن فيها بين الصورتين الطيفيتين ، فإذا كانتا متلائمتين ، فلن يكون هناك مجال للشك في أن المتهم قد ارتكب جريمة السرقة .

تعرضت في الأمثلة السابقة للنظرية الصوتية اللغوية التى يمكن ، بل والتى طبقت فعلا تطبيقا عمليا ، أما كيفية التنفيذ الهندسى للأجهزة فهو أمر ليس لديَّ الكفاءة أو المعرفة الكافية لوصفه .

ثالثا ـ الاستقبال :

يتم التفاهم بين أنواع الحيوان المختلفة بصيحات محدودة العدد كالتعبير عن الخوف أو الجوع أو الرغبة الجنسية . أما التفاهم الإنسانى فانه غنى بالأفكار والانفعالات بفضل تعدد أصوات اللغه في صفاتها وطرق تجميعها في كلمات لا حصر لمفهوماتها .

وقد ذكرنا من قبل أن النغمات عالية الدرجة ، وبصفة خاصة الحزمة التكوينية الثانية والثالثة ، هى التى تعين نوع الحركة وتساعد على تعيين السواكن الانفجارية والأنفية والجانبية، وأن السواكن الاحتكاكية تتميز بوجود حزام ترددي عالى الدرجة . وكل هذا يشير إلى أن الدرجات النغمية العالية ذات قيمة تفاهمية كبرى . وهذا يفسر قدرة الجهاز السمعى الإنسانى على سماع النغمات العالية بأكثر مما عرفناه عن قدرة حيوان كالفيل مثلا ، إذ يبلغ المدى السمعي عند الفيل ما بين ١٧ إلى ١٠,٠٠٠ ذ/ ث بينما يبلغ عند الإنسان من ٣٠ إلى ١٥٠٠٠ ذ/ ث بل وقد يصل لدى بعض الناس إلى ٢٠٠٠٠ ذ/ ث .

ومن المعروف أن النغمات ذات الذبذبات الدنيا يمكن أن تخترق الحواجز أما ذات الذبذبات العليا فإنها تستهلك بامتصاص الحواجز لها . ولهذا زود سكان الغابات وخاصة تلك التى تتعرض للافتراس بوسيلة لإدراك الأصوات ذات الذبذبات السفلى كخطوات الحيوان المفترس الحذرة قبل الهجوم على فريسته . وهذه الوسيلة هى شكل بوق الأذن ، حيث يكون كالأنبوبة الطويلة المفتوحة من طرفها وأحد جوانبها إلى جانب قرب الأذنين إحداهما من الأخرى والقدرة على تحريكهما في اتجاهات معينة مما يمكنها من تكبير الصوت وتحديد مكان مصدره .(١٩)

ورغم هذا الفرق بين كل من وظيفة اللغة ومدى الإدراك السمعى عند الإنسان والحيوان ، فقد وجد الباحثون أن معرفة النشاط الإدراكى الداخلى عند الإنسان لن يتم إلا بدراسة هذا النشاط عند الحيوان . وذلك لأن التجربة المباشرة قد تؤدى إلى الموت أو إلى إصابة المخ بإصابة دائمة لاعلاج لها . وقد لوحظ أن نوعا من الضفادع يسمى بالضفدع الثور Bullfrog يصدر صيحات شبيهة بالحركة/ i/ (الكسرة) وأن هذه الصيحه مركبة من حزمتين تشبهان الحزمة الأولى والثانية في هذه الحركة وأن الموجة الأساسية لهذه الصيحات هى ١٠٠ ذ/ ث تليها موجات توافقيه درجاتها مضاعفات

(١٩) مرجع ٥ ص ١٢٣ ـ ١٢٩

لهذا العدد أى ٢٠٠ ، ٣٠٠ ، ٤٠٠ ، ٥٠٠ الخ وقام الباحثون برسم يدوى للصور الطيفية لهذه الصيحات وأسمعت لأنواع أخرى من الضفادع فلم تستجب لها . ثم عرضت على هذه الضفادع واستجابت لها كما لو كانت صادرة عن فرد حي من أفرادها . وكان على الباحثين أن يعرفوا ما إذا كان مخها يحتوى على مراكز إدراكية لهذه الأصوات فوضعوا رؤ وسا إلكترونية صغيرة على أجزاء من مخها بعد شج رأسها وعرضوها لسماع الأصوات فحدثت ردود فعل كهربائية في بعض خلايا المخ المعينة . وقد وجد أن هذه الخلايا لاتستجيب إلا لموجات توافقية متحدة في عدد الذبذبات مع هذه الصيحات وهكذا انتهوا إلى وجود مراكز عضوية في المخ وظيفتها استقبال الصوت وإدراكه .

النظرية الآلية Motor Theory[٢٠] :

تقول هذه النظرية بأننا ندرك الأصوات بنفس الطريقة التى ننتجها بها ، ونحن نشاهد أن بعض الناس يحركون أعضاءهم النطقية عند قراءة نص ما . ويرى أصحاب هذه النظرية أن هذه الظاهرة تطبيق واضح لنظريتهم ، ويقولون بأننا حين نسمع صوتا ما تقوم اعضاؤ نا الصوتية بنفس العمليات التى تتم لإنتاج هذا الصوت ، بأداء دقيق لايكاد يدرك . ويقارن المخ بين نشاط الأعضاء الصوتيه هذا وبين الصور المختزنة فيه عن صور النشاط العضوى اللغوى المختلفة حتى يلائم بينه وبين واحدة من الصور المختزنة فيتم الإدراك . ومثل هذه العملية هو مايحدث في جهاز الحاسوب عند قيامه باسترجاع المعلومات استعدادا للوصول إلى حكم معين .

ويرفض بعض من يقول بهذه النظرية قيام الأعضاء الصوتيه بأية عمليات تمهيدا لإدراك الصوت المسموع ويرون أن الجهاز الإدراكى الانسانى شبيه بالجهاز الإدراكى عند الثور الضفدع . أما وسيلتهم إلى إثبات هذا الرأى أو ترجيحه على الأقل ، فهى افتراض أن ملكة الإدراك عند الإنسان تمثل تطورا بيولوجيا عن ملكة قديمة كانت عند الأم الأصل للأنواع الثديية . وتدل الدراسات المقارنة التى قام بها نيجوس في كتابه Negus, comparative anatomy of the Larynx ، على أن الحنجرة في الحيوانات الأرضية (فيما عدا الحشرات) من أبسط أنواعها إلى أرقاها أى إلى الحيوانات كانت تستعمل في إنتاج أصوات مركبة الموجات مكوناتها موجة أساسية وحزم تكوينيه وأن الموجه الأساسية تنتج عن تذبذب جهاز نغمى (كالحنجره عند الانسان) وأن المكونات التوافقيه تحدث عن عمليات الترشيح والتقوية ، تماما كما يحدث عند إنتاج الصوت الإنسانى وهم يلفتون النظر إلى أن جميع الحيوانات الثديية كالقطط والكلاب مزودة بجهاز ادراكى مركزه بعض خلايا المخ وظيفته الاستجابة الكهروفيزيائية للموجات الصوتية . وهم يتصورون أن عمل هذا الجهاز يتم بالملاءمة بين الصوت الذى يسمعه والخبرات الصوتية المختزنة في المخ وانه بواسطة هذه الملاءمة يحكم المخ بأن الصوت المسموع من هذا النوع أو ذاك ، تماما كما يحدث في جهاز الحاسوب عندما يراجع المختزن فيه حتى يصل إلى الحكم على نوع شيء ما . ومع هذا فهناك فرق جوهرى بين عمليتى الاختزان والمراجعة عند الانسان والحيوان . وسبب هذا الفرق ، أن صيحات الحيوان محدودة في عددها ودلالاتها ولهذا يمكن اختزانها باعتبارها من نفس النوع مهما كان موطن الحيوان أو ظروفة المعيشية .

(٢٠) السابق ص ١٣٥ - ١٣٦

أما الإنسان فإن الكلام الذى يصدر عنه يحتوى على رموز ودلالات لاتكاد تحصى ، كما أنه يختلف حسب موطن الشخص وطبقته الاجتماعيه ومستواه الثقافى الخ . ولهذا فإن عملية الاختزان والاستدعاء أكثر تعقيداً عند الإنسان منها عند الحيوان ، حتى ولو كانت متحدة في الأصل التطورى .

التصنيف encoding والحكم decoding :

لايختزن الصوت الإنساني في الذاكرة بذاته ، بل بنوعه . ونود أن نذكر القارىء بما قلناه من قبل عن عملية التجريد التى نجريها في الدراسات الصوتيمية . وتقتضى هذه العملية تجاهل الفروق الفردية والتركيز على صفات النوع في كل موقع من المواقع(٢١) وقد مثلنا لذلك بالأصوات المختلفة التى نصنفها تحت وحدة/ ن/ رغم اختلافها من ناحية الأداء بل والتحليل الطيفى .

ويقوم جهاز إدراك المفهومات والرموز وتخزينها بتصنيف الرموز على هذا النحو . والسؤال الهام هو ما إذا كان الجهاز يختزن الأصوات أو المقاطع أو الكلمات .

الثابت أن الأذن حين تتلقى رسالة صوتية تقوم بعملية عكسية لتلك التى تحدث في الحنجرة والفراغات العليا في جهاز النطق . وهذه العملية الأدائيه تتخلص من العديد من الموجات الصادرة عن عمليات الزفير في منطقه أسفل الحنجرة ، وذلك بدفعها الى الفراغات العليا التى تقوم بعمليتى ترشيح وتقوية يحدث عنها الصوت اللغوى المركب من حزم أو أحزمة طيفية . أما الأذن فإنها تقوم بتحليل هذه الحزم إلى الموجات المكونة لها ، حيث تمر كل موجة بالشعيرات السمعية الحساسة في الجزء المسمى بالقوقعة ، فتهتز الشعيرة التى توافق في الدرجة الموجة وينتج عن ذلك تيار كهربائى تنقله الخيوط العصبية إلى خلايا المخ لاختزانه .

ولكن القيام بعملية التحليل هذه لا يعنى أن الأصوات ، أو الموجات التى تكونها تختزن باعتبارها وحدات منفصلة عما يجاورها بل إنها تمثل أفراداً الجنس صوتى (صوتيم) يحدد اختيار الفرد منها المحيط الصوتى المحيط به . ولنأخذ مثالا لتوضيح ما نقول : الفتحه الطويلة التى نسميها بالألف توجد في عدد من مجموعات التجاور منها :

١ - في اللفظ (أمام) يوجد ، ساكن أنفى شفوى + ألف + أنفى شفوى .

في اللفظ (أمان) يوجد ، ساكن أنفى شفوى + ألف + أنفى لثوى .

في اللفظ (لام) يوجد ، ساكن لثوى جانبى + ألف + أنفى شفوى .

---

(٢١) راجع ص ٨ من هذا البحث .

في اللفظ (إيماء) يوجد ساكن أنفى شفوى + ألف + حنجرى انفجارى .

فى اللفظ « حنان » يوجد ساكن أنفى لثوى + ألف + أنفى لثوى .

في اللفظ (نام) يوجد أنفى لثوى + ألف + أنفى شفوى .

في اللفظ (آناء) يوجد أنفى لثوى + ألف + حنجرى انفجارى .

في اللفظ (لأن) يوجد لثوى جانبى + ألف + لثوى أنفى

وفي كل نموذج من النماذج المذكورة توجد في الألف صفات خاصه يفرضها المحيط الصوتى الذى توجد فيه ، وبالتالى فإن تحليلها الطيفى سيختلف في كل نموذج عنه في النموذج الآخر . ولهذا فإن الخيوط العصبية لن تنقل نموذجا طيفيا واحدا ، بل ستنقل في حالة المثال السابق ثمانية أشكال طيفية يختص كل منها بأحد النماذج المذكورة .

وبنفس هذه الطريقه يتم اختزان المعلومات في الحاسوب . وعندما يسمع الشخص لفظ (لام) مثلا فإن الشعيرات العصبية ستنقل إلى المخ صورة طيفية معينة فيراجع المخ مختزناته من الصور الطيفية حتى يجد الصورة المختزنة الملائمة لها في الشكل الطيفى فيحكم بأن هذه الرساله تمثل الكلمة (لام) . المثال السابق يوضح أن عملية الاختزان تتم مع عملية تصنيف مااختزن وأن عملية الإدراك تتم بالوصول إلى الحكم بعد مراجعه النماذج المختزنة وملاءمة الرسالة لواحد منها . ويجب أن نذكر هنا بأن هذه النظرية لاتزال محل الجدل وأن الابحاث لاتزال جارية لكشف هذا السر المحير .

* * *

أ ـ المراجع العربيه :

١ ـ عبد الرحمن أيوب : أصوات اللغة ، القاهرة ١٩٦٨ .

٢ ـ عبد الرحمن أيوب : الكلام : إنتاجه وتحليله . نشر جامعة الكويت ١٩٨٤ .

ب ـ المراجع الانجليزيه :

(3) 'CHOMSKY. N. — The Formal Nature of Language APP. A. in Biological Foundations of Language, U.S.A., 1967.

(4) LENNEBERG E.H. — Biological Foundations of Language, U.S.A., 1978.

(5) LIEBERMAN P. — The Biology and Evolution of Language, U.S.A., 1984.

(6) LURIA. A.R. — The Working Brain, Penguin Books. U.K. 1973.

(7) PAGET. R.S. — Vowel Resonances, International Phonetic Association, 1922.

(8) STEVENS. P. — Spectra of Fricative Noise in Human Speech, Speech and Sound, Vo. 3, 1960, PP 32-49.

.(9) — Journal of the Accoustical Society of America, U.S.A.

(a) P. COOPER F.S. et al. — Some Experiments on the Perception of Synthetic Speech Sounds., Vol. 24, 1952, PP 597-606.

(b) U. DELATTRE. P.C. et al. — Accoustic Loci and Transitional Cues for Consonants, Vol. 27, 1955, PP 769-773.

(c) PETERSON. G.E. and BARNEY. H.L. — Control Methods used in a Study of the Vowels., Vol. 24, 1952, PP 175-84.

❊ ❊ ❊

الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة

يحيى أحمد
قسم اللغة العربية وآدابها جامعة الكويت

مقدمـة :

حينما بـرز الاتجـاه التـوليـدى Transformational Grammar على مسرح الدراسات اللغوية في منتصف الخمسينيات ، فإن ذلك كان إيذاناً بتحـول جذرى في مسرح الدراسات اللغوية . لقد عمل هذا الاتجاه على تأسيس مرتكزات جديـدة في البحث اللغوى . وهـذه المرتكزات على اختلاف تفاصيلها يجمعها إطار فلسفى واحد حاول شومسكى Chomsky (صاحب الاتجاه) ومن بعـده تلاميـذه ومريـدوه تأسيسهـا بعمق . وهذا الإطـار يتناول اللغـة عـلى أنها نشـاط عقـلى . يقـول شومسكى (Chomsky 1965:4) :

« ان النظرية اللغوية نظرية عقلانية ، حيث انها تعنى بـاكتشـاف الحقيقـة العقليـة الكـامنـة تحت السلوك الفعلى » .

لقد تغيرت جوانب كثيرة في نظرية النحو التحويلى ، وغير شومسكى نفسه الكثير من أفكاره ، وطور جـانباً آخـر منها ضمن تفـاصيل تتخـذ سمـات منطقيـة أو سيكولوجية . ولكن الإطار الفلسفى العام للنظرية بقى ثابتاً ، ألا وهو أن طبيعة اللغة هى نفسها طبيعة العقل . ويستتبع ذلك أن هدف الدراسـة اللغويـة ضمن هذا الاتجاه ينحصر في صياغة النماذج الشكلية المعبـرة عن القدرات العقلية لمستعمل اللغة . وهذه المهمة ممكنة في كل حالة لأن المتكلم يستعمل في لغته عددا محددا من التراكيب . وبدراسة هذه التراكيب المستعملة بالفعـل يكون بالامكان التوصل الى مجموعة متناهية من الأحكام التى تصف السلوك اللغـوى الصحيـح للمـتكـلم . والاستعمال المتكرر لهذه القواعد أو التحويلات المنبثقة منها هو الذى يمكن المتكلم من أنتاج جمل لانهاية لها (من النـاحيـة المـنـطقيـة عـلى الأقـل) . وهـذه

القواعد نفسها هى التى تمكن المتكلم من الحكم على الجمل التى يسمعها أو يقرؤها ، فيرفض مالا يتفق منها مع قواعد اللغة . وهى التى تعينه على فهم الجمل الجديدة التى يسمعها أو يقرؤها لأول مرة . وهى التى تساعده على فهم الجمل الغامضة أو المزدوجة المعنى ، وغير ذلك من أمور ترتبط بالعمليات العقلية في تمثل اللغة .

وقد اهتم الاتجاه التحويلى بإبراز العلاقة بين اللغة والعقل في جانبين آخرين : الأول هو ماسمى بالمظاهر العالمية للغة ، ويتمثل هذا الجانب ـ من جملة أمور أخرى ـ في الجهاز الفطرى الكامن في الانسان والذى يمكنه من اكتساب اللغة . ويتمثل الجانب الثانى في فكرة البناء العميق . فما دامت اللغة هى عمل العقل ، فمعنى ذلك أن هناك دائما عوامل تكمن تحتها . هذه العوامل هى عبارة عن الأشكال اللغوية المجردة المختزنة في بعقل الإنسان . ومن المعروف أن هذه الأشكال اللغوية تجمعها قوانين هدفها الربط بين الصوت والمعنى . وقد أعطيت القواعد التحويلية transforma-tional rules مطلق الصلاحيات لاجراء التعديلات المناسبة الكفيلة بتوصيل الجملة الى بنائها السطحى : الشكل المنطوق أو المكتوب .

ان الذى يهمنا من هذه المقدمة هو أن نخلص الى أن نظرية النحو التحويلى قد جعلت النحو عملية ميكانيكية تتحقق عناصره بشكل آلى حينما نتبع القواعد الموضوعة لابتداء تلك العملية . ولم تعط النظرية أى تبرير وظيفى لحدوث التحويلات في مراحل مختلفة من توليد الجملة . لقد أخرجت من الاعتبار الظروف النفسية التى يكون فيها المتكلم ، كما أهملت إهمالاً تاما مسألة السياق الذى يقع فيه الكلام واعتبرت اللغة مجرد نشاط عقلى .

وقد برزت نظريات واتجاهات لغوية متعددة تحاول أن تفسر طبيعة اللغة من زوايا مختلفة . ومن هذه الاتجاهات الاتجاه الوظيفى الذى يقف على الطرف النقيض للاتجاه التحويلى . وسنتولى في هذه الدراسة بيان أسس الاتجاه الوظيفى ونظرته البراغماتية الى اللغة ، مع التركيز على جانب يبدو مهما لنا ألا وهو انعكاس النظرة الوظيفية على كيفية تحليل اللغة . ولذلك فقد حرصت على أن أضمن المقالة الجانب التحليلى حتى لايكون السرد مجرد حديث نظرى . وفي سبيل تحقيق هذه الغاية اضطررت الى استخدام مجموعة مصطلحات عربية هى في أغلبها ترجمات مقترحة منى شخصيا ، ولذلك رأيت من المناسب أن أردف كل مصطلح عربى بمرادفه الأجنبى لكى يكون القارىء المتخصص على بينة بالأفكار التى أتحدث عنها .

والبحث يبدأ بتعريف الاتجاه الوظيفى وبيان خصائصه المميزة ، ثم يعرض للمدارس الوظيفية المعاصرة مبيناً مناهجها وأفكارها من خلال تطبيقها على اللغة العربية في حدود ماتسمح به المساحة . وأخيرا يتوقف عند التطورات الحديثة في الاتجاه الوظيفى .

ما هو المقصود بالاتجاه الوظيفى ؟

الاتجاه الوظيفى مدرسة من مدارس الفكر اللغوى المعاصر ، وهو يعنى بكيفية استخدام اللغة وبالقيمة الاتصالية للغة[١] . فاللغة في نظر هذا الاتجاه عبارة عن وسيلة اتصال يستخدمها أفراد المجتمع للتوصل الى أهداف وغايات . وإذا أردنا أن نبحث عن صياغة منهجية يمثل جوهر اهتمام الاتجاه الوظيفى فإن ذلك يتمثل في السؤال التالى : لماذا نستعمل اللغة ؟ وقد لاحظنا فيما سطرناه في المقدمة أن المد اللغوى الذى اكتسح حقل الدراسات اللغوية في الستينيات والذى يتمثل في نظرية شومسكى العقلانية قد اهتم بمجموعة العلاقات الرياضية المفسرة لميكانيكية اللغة ، وليس بوظيفة اللغة في البيئة اللغوية أو كيفية أدائها للمعانى .

والجانب الوظيفى للغة ليس شيئا منفصلا عن النظام اللغوى نفسه . فتداخل الأدوار roles والمشاركين participants في النظام النحوى حسب نمط معين (كما سيمر بنا) في كل لغة مرتبط ارتباطا مباشرا بالوظيفة التى تؤديها الجمل في السياقات المختلفة . ويزيد هاليدى (Halliday 1973:23) هذه النقطة توضيحا بقوله :

« اذا كان بامكاننا أن نغير مستوى الرسمية formality في كلامنا أو كتابتنا ، أو أن ننتقل بحرية من نمط سياقى معين الى نمط آخر ، فنستعمل اللغة تارة لتخطيط نشاط منظم ، وتارة لإلقاء محاضرة عامة ، وتارة لتدبير شئون الأولاد ، فلأن طبيعة اللغة على شاكلة بحيث إن جميع هذه الوظائف مبنية حسب طاقتها الاستيعابية الكلية » .

وبذلك فإن الاتجاه الوظيفى يربط بين النظام اللغوى وكيفية توظيف هذا النظام لاداء المعانى . ويتمثل هذا الربط في ثلاثة مظاهر .

المظهر الأول الخيارات المتعددة المتاحة للمتكلم والمتمثلة في الأبنية والتراكيب المختلفة الموجودة في لغته . ان كل تركيب يؤدى وظيفة مختلفة لأنه يمكن المتكلم من تنظيم كتل المعلومات طبقا لظروف الكلام . فالجمل التالية مثلا :

١ ـ استقبلت الأوساط الأدبية نبأ حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل ببالغ السرور .
٢ ـ استُقبل نبأ حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل ببالغ السرور .
٣ ـ الأوساط الأدبية استقبلت نبأ حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل ببالغ السرور .
٤ ـ نجيب محفوظ استُقبل نبأ حصوله على جائزة نوبل ببالغ السرور .

تؤدى وظائف مختلفة لأن كل واحدة منها تقترن بسياق مختلف وتستعمل في ظروف مختلفة . وانطلاقا من هذا الفهم ، فإن هذه الجمل الأربع لاتعتبر مترادفة لأن كل واحدة منها تركز على جانب معين من الحدث ، وبذلك فإن لكل

(١) لمزيد من التفاصيل أنظر هاليدي (Halliday (1973: 22

واحدة منها قوة تعبيرية متميزة مستمدة من الدور الذى يؤديه كل أسلوب في الحياة الاجتماعية . ولنتذكر هنا أن الاتجاه التحويلي يعتبر الجمل (٢) و(٣) و(٤) مجرد صياغات تعبيرية متفرعة عن الجملة الرئيسية ، ويمكن التوصل اليها بتطبيق القواعد التحويلية على الجملة رقم (١) . وأما التأويل الدلالى الذى يرتبط بهذه الجمل فهو واحد في جميع الأحوال .

المظهر الثانى هو أن جذور اللغة تمتد الى البنى الاجتماعية بكافة أشكالها . فلا يمكن فصل اللغة عن الثقافة : التراث والعادات والتقاليد . ان الظواهر الاجتماعية التى يرتبط بها الفرد بحكم انتمائه الى مجتمع مافترض عليه سلوكا لغويا معينا . ويظهر ذلك بوضوح في أساليب التخاطب التى ينتقيها الفرد في المواقف المختلفة . فالتحدث الى رئيس الدولة والى زميل في العمل والى فراش في دائرة العمل لايتخذ مجرد أشكال لغوية مختلفة ، وإنما نجد أن الأشكال اللغوية مستمدة من الأعراف الاجتماعية . هذا من جانب ، ومن جانب آخر نجد أن الكلام يعكس الخلفية الاجتماعية والثقافية للفرد . ولذلك فوصفنا لكلام شخص بأنه كلام مؤدب أو كلام وقح يعتبر وصفا جماليا أخلاقيا نابعا من اعتقاداتنا الاجتماعية . ان البنية الاجتماعية تنعكس في التراكيب اللغوية التى نستعملها . ونجد هذا الانعكاس كذلك في المصطلحات الدالة على صلة القرابة وفي مصطلحات الألوان والتعبيرات المشتقة منها . ونجدها فوق كل ذلك في المستويات الأسلوبية registers . واللكنة التى يتحدث بها الشخص تعكس مظهرا اجتماعيا . حينما نسمع لكنة الصعيدى وهو يتحدث باللهجة المصرية ، أو لكنة البدوى وهو يتحدث باللهجة الكويتية نستطيع أن نقرر مباشرة أن هذا الشخص ينتمى الى شريحة اجتماعية معينة . والتنغيم كذلك يرتبط بهذا الجانب ارتباطا واضحا ، بحيث إنه بامكاننا أن نتعرف على الفئة الاجتماعية التى ينتمى اليها الشخص وذلك من خلال طريقة تحدثه .

المظهر الثالث تضافر العناصر ، بمعنى أن عناصر اللغة مجتمعة تساهم في أداء الفكرة التى يريد المتكلم توصيلها . والأمر هنا يشبه عمل السلك الكهربائى . فالسلك الكهربائى الواحد يتكون من مجموعة أسلاك شعيرية دقيقة . ولا نستطيع عندئذ أن نقول ان سلكا بعينه من هذه الأسلاك الدقيقة مسئول عن توصيل الكهرباء . فهذه الوظيفة تقوم بها هذه الأسلاك الدقيقة كلها مجتمعة . وهكذا الأمر بالنسبة للغة . فلا يمكن أن يستقل عنصر أو مستوى لغوى بأداء الوظيفة . فالوحدة الصوتية ـ مثلا ـ تستطيع أن تؤدى وظيفة من خلال وحدات صوتية أخرى تشكل الكلمة ذات الدلالة المفيدة في المعجم ، والكلمة بدورها تؤدى وظيفتها ضمن نظام نحوى .

إذن فالاتجاه الوظيفى يتميز من بين الاتجاهات الأخرى في الدراسات اللغوية بأنه يربط اللغة بالوظيفة التى تؤديها من جانب ، وبالبيئة الاجتماعية وتضافر العناصر من جانب آخر . والتحليل اللغوى الوظيفى يكون من منظور يهدف الى بيان الوظائف التى تؤديها اللغة في البيئة اللغوية . أما الإطار النظرى الذى يتم من خلاله التحليل فهو مصمم لأداء هذا الغرض العام . ولذلك لا يحفل الوظيفيون بجدلية النظرية اللغوية والى أى حد تتمثل فيها الكفاية الوصفية de-scriptive adequacy والكفاية التفسيرية explanatory adequacy فالنظرية ليست هدفا وإنما هى إطار يتم من خلالها الكشف عن الخيارات المتاحة أمام المتكلم . يقول هاليدى في مقدمة كتابه « مقدمة في النحو الوظيفى » (Halliday 1985:19) :

« إننا لسنا بحاجة الى نظرية متخصصة الى حد كبير بحيث يستطيع المرء أن يفعل القليل بها » .

ويقول في الصفحة الثامنة من المقدمة نفسها :

« ان الكلام المنطوق يحتاج الى شكل مرن وليس الى بناء جامد من التمثيل الشكلي » .

ونجد هذا المنحى واضحا عند لغويي مدرسة براغ الذين أجروا تحليلاتهم من خلال « مفاهيم وظيفية » وليس من خلال نظرية بالمعنى الذى نجده عند التحويليين أو البنائيين الأمريكان . ونجده أكثر وضوحا عند المتأخرين من الوظيفيين أمثال دل هايمز Del Hymes الذى نلاحظ على منهجه أنه عبارة عن مقترحات اجرائية أكثر مما هو نظرية .

المدارس الوظيفية المعاصرة :

توجد ضمن الاتجاه الوظيفي العام مدارس متعددة ، تختلف في تناولها للمظاهر المدروسة من حيث عمق التحليل ومن حيث التركيز على التفاصيل المتعلقة بالظاهرة . وعلى الرغم من التباعد الزماني والثقافي بين هذه المدارس الا أنه يجمعها تصور واحد تجاه طبيعة اللغة : فاللغة وسيلة اتصال اجتماعية يستعملها الفرد لأداء وظائف مختلفة وللتأثير على الآخرين .

وسأحاول فيما يلي أن أقدم للقارىء العربي صورة شاملة لمضمون أفكار المدارس الوظيفية . وسيجد القارىء أن بعض الأفكار التى سيرد ذكرها من الممكن تتبع جذورها في الفكر البلاغي العربي أو مقارنتها بأفكار البلاغيين العرب النابهين . ولكن الهدف المرسوم لهذه المقالة يجعلني أتجنب الخوض في هذا الجانب .

مدرسة براغ :

في حوالى سنة ١٩١١ ألقى ماثسيوس Mathesius (١٨٨٢ ـ ١٩٤٥) محاضرة مهمة حول ماسماه بـ (خصيصة اللغة) characterology of language وقد قال ياكبسون عن هذه المحاضرة إنها لو كانت قد ألقيت في مكان آخر غير براغ ، في موسكو مثلا ، لأحدثت ثورة حقيقية في الدراسات اللغوية عندئذ [٢] ولذلك لم تكن أفكار ماثسيوس معروفة لدى الأوساط اللغوية حتى انعقد الاجتماع الأول لمدرسة براغ في اكتوبر ١٩٢٦ ، وكان ذلك بمبادرة من ماثسيوس نفسه . وبعد انتهاء جلسات الاجتماع ، اتفق المجتمعون على الالتقاء بصفة دورية ضمن « حلقة براغ اللغوية » . وابتداء من هذه الفترة تجمع حول ماثسيوس مجموعة من المهتمين بالدراسات اللغوية . وقد عرف هذا التجمع فيما بعد باسم (مدرسة براغ) .

(٢) انظر في ذلك vachek (1966: 5) .

وقد ضم التجمع عددا من اللغويين الأوكرانيين والألمان والروس والسلافيين ممن لم يكونوا يقيمون في تشيكوسلوفاكيا . فالتسمية اذن لا تشير الى المحلية ، ولكنها تستخدم استخداما علميا لتشمل تلك النظرة الخاصة التى تميزت بها هذه المدرسة في التحليل اللغوى ألا وهى النظرة الوظيفية .

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية تأثر نشاط مدرسة براغ تأثرا بالغا ، حيث أغلقت القوات الألمانية التى احتلت تشيكوسلوفاكيا جميع الجامعات فيها . وشهد عام ١٩٣٩ موت أحد أبرز أفراد المجموعة وهو تروبتسكوى[٣] . وفي تلك الفترة ونتيجة لظروف الحرب ، اضطر رومان ياكسبون أن يهرب من الحكم النازى ، فرحل الى الدنمارك ، ثم النرويج وأخيرا حط الرحال في الولايات المتحدة الأمريكية . وقبل نهاية الحرب بفترة قصيرة ، أى في الثانى عشر من أبريل ١٩٤٥ توفى مؤسس المدرسة ورائدها الأول ماثسيوس . وأدت كل هذه الأمور الى تشتت أفراد المدرسة .

وبعد استتباب الأوضاع وفي بداية الخمسينيات حاولت الأوساط الأكاديمية في بعض الجامعات التشيكية إحياء اتجاه مدرسة براغ ولكن من خلال مسميات جديدة مثل (الرابطة اللغوية) Linguistic Association و (جماعة علم اللغة الوظيفى) The Group for Functional Linguistics وقد ضمت هذه التجمعات أفرادا نشيطين واصلوا الكتابة ضمن الاطار الفكرى للمدرسة ، وأعادوا نشر الدورية المشهورة التى كانت تصدر باسم المدرسة والمسماة « Travaux Linguistique de Prague » .

« ان السمة البارزة للغويى مدرسة براغ هى نظرتهم الى اللغة في إطار الوظيفة . وأعنى بذلك ليس فقط أنهم نظروا الى اللغة ككل على أنها تخدم غرضا ، فهذه حقيقة معروفة وهى وحدها لاتميزهم عن غيرهم . بل القصد أيضا أنهم كانوا يحللون اللغة المعينة من خلال وجهة نظر تهدف الى أن تبين لنا الوظائف الخاصة التى تؤديها الأبنية المختلفة في استخدام اللغة ككل . وهذه النظرة ميزت مدرسة براغ تمييزا واضحا عن معاصريهم من البنيويين الأمريكان (وتميزهم بوضوح كذلك عن التحويليين) الذين نظروا الى النحو على أنه يتكون من مجموعة من العناصر » . (Sampson 1980:103) .

من معالم مدرسة براغ المهمة اهتمامها بقضية المعنى . ولكي نعرف أهمية هذا الجانب فإنه من المفيد أن نذكر في هذا السياق أن الاتجاه البنائى المتمثل في كتابات بلومفيلد وغيره من اللغويين الأمريكان ، قد ربط المعنى بعنصرى المثير ورد الفعل . أى أن تحليل المعنى يكون بأن نبين نوع المثير الذى يولد رد فعل معينا والمتمثل في العبارات التى ينطق بها المتكلم ، وأن نبين رد الفعل السلوكى الذى يحدثه المتكلم باعتباره مثيرا . فمستعمل اللغة قد يمثل عنصر الاستجابة أو

---

(٣) نيكولاي تروبتسكوي Trubetzkoy (١٨٩٠ ـ ١٩٣٨) واحد من أعضاء مدرسة براغ الذين لم يكونوا يعيشون في تشيكوسلوفاكيا ، فهو ينتمي الى أسرة من نبلاء روسيا . كان والده أستاذا للفلسفة ، وأصبح مديرا لجامعة موسكو . وقد درس تروبتسكوي اللغات الهندية ـ الأوربية ، وأصبح عضو هيئة تدريس في جامعة موسكو عام ١٩١٦ . وحينما بدأت الثورة البلشفية ، هرب الأمير تروبتسكوي الى روستوف ، ثم بعد ذلك الى فينا حيث أسندت اليه رئاسة قسم الدراسات السلوفاكية في جامعة فينا عام ١٩٢٢ . ثم أصبح بعد ذلك عضوا في مدرسة براغ (تبعد براغ عن فينا مسافة ١٥٠ ميلا) . وبقي تروبتسكوي في فينا حتى توفي في عام ١٩٣٨ أثر أزمة قلبية ، وذلك نتيجة لاستجواب قوات الجشتابو له ، حيث كانْ تروبتسكوي من مناهضي النازية . انظر (Sampson 1980: 107) .

رد الفعل حينما يكون متلقيا ، وقد يمثل عنصر المثير حينما يكون مرسلا . ان اتخاذ الاتجاه البنائى لهذا الإطار النفسى الضيق للتفسير الدلالى كان بسبب تأثره بأفكار مذهب من مذاهب علم النفس يعرف بالسلوكيه Behaviourism ، وهو مذهب يفسر السلوك الإنسانى حسب الأفعال الظاهرية والتى هى عبارة عن استجابات لمثيرات خارجية في البيئة . ويذهب الى أن خصوصيات ومحتويات العقل يمكن النفاذ إليها عن طريق الاستبطان . ولذلك فإن قضية المعنى تشكل نقطة ضعف في الاتجاه البنائى ، ولم تعط حقها من الاهتمام .

والملاحظ أن تحليل مدرسة براغ للمعنى لم يتخذ منحى المنطق الوضعى أو المنحى التجريدى الذى يفصل المعنى عن الاستعمال اللغوى ، وإنما اتخذ منحى وظيفيا . وهذا واضح في أن ماسموه بالمحتوى الدلالى semantic content يرتبط من جانب بمستويات لغوية أخرى كالمستوى النحوى والمستوى الأسلوبى ، ومن جانب آخر بحقائق العالم الخارجى ، بما في ذلك مشاعرنا تجاه هذا العالم . (راجع Vachek 1966:34) فهناك حقيقة مهمة حول عملية الاتصال اللغوى ينبغى أن ندركها ألا وهى أن المتكلم حينما يوجه خطابه الى المستمع فإنه لايريد فقط أن ينقل إليه بعض الحقائق ، ولكنه يريد أيضا أن ينقل إليه مشاعره تجاه الحقائق . إن العبارات المنطوقة تكون دائما مغلفة بمشاعر الفرد . وذلك بحكم انتمائه الى بيئة اجتماعية تموج فيها شتى المعطيات والمتغيرات .،وقد فهم لغويو مدرسة براغ أن ربط محتوى الكلمة بالحقائق الخارجية يمثل وظيفة اللغة في المجتمع . وسنجد أن مدرسة لندن قد وظفت هذه الفكرة توظيفا مثاليا من خلال نظرية سياق الحال .

المنظور الوظيفى للجملة :

سأعرض فيما يلى بتفصيل أكثر للنهج الوظيفى لمدرسة براغ من خلال التحدث عن مجالات الدراسة اللغوية التى ساهمت فيها مدرسة براغ مساهمات مميزة : النحو والدلالة[٤] .

تعتبر مقالات ماثسيوس في تحليل الأبنية التركيبية للانجليزية والتشيكية نقطة البداية لنمط من التحليل سماه ماثسيوس نفسه « المنظور الوظيفى للجملة » .

Functional Sentence Perspective ولكى تتضح لنا طبيعة هذا المصطلح ، فإنه من المفيد أن نذكر هنا أن اللغة في منظور مدرسة براغ لها ثلاثة مستويات هى :

١ ـ المستوى النحوى (ويندرج فيه الصرف كذلك) .
٢ ـ المستوى الدلالى .
٣ ـ المستوى الكلامى Organisation of utterance .

(٤) لن يتسع المجال هنا للتطرق الى الأفكار الوظيفية لمدرسة براغ حول الوحدة الصوتية والملامح الصوتية المميزة . وبامكان القارىء أن يجد تغطية جيدة لبعض تلك الجوانب في كتاب (أحمد مختار عمر . ١٩٧٦) .

والمستوى الأخير يبين كيف يتفاعل المستوى النحوى والمستوى الدلالى في عملية الاتصال اللغوى(٥) . وضمن نطاق هذا المستوى الثالث برزت فكرة المنظور الوظيفى للجملة . ويقوم هذا التحليل على أساس القيمة الاتصالية للغة . ان اللغة تستخدم كوسيلة تعبيرية تأثيرية . وهى ليست شيئا مجردا عن الواقع الذى توجد فيه ، بل ان وظيفتها هى التفاعل مع هذا الواقع . والمنظور الوظيفى للجملة ينظر الى الجملة على أنها تتكون من شقين : الأول ويسمى المسند theme ، والثانى ويسمى المسند إليه(٦) rheme .

والأمثلة التالية توضح كلا من الشقين :

« المال والبنون	زينة الحياة الدنيا »
المسند	المسند اليه

تمكن	أخى	من الدفاع عن المتهم
المسند	المسند اليه	

« يريد	الله	بكم اليسر »
المسند	المسند اليه	

ويأتى االمسند ـ في الغالب ـ أولا ثم يعقبه المسند اليه . هذا هو الترتيب المتبع حينما يكون نسق الجملة محايدا . والنسق المحايد هو الترتيب المألوف لأجزاء الجملة في الاستعمال العادى ، أى الاستعمال الذى يراد به مجرد الاخبار أو الاسناد . أما حينما يريد المتكلم أن يجذب انتباه السامع الى عنصر معين في الجملة ، أو انه يريد التركيز على عنصر معين لأنه يمثل في نظرة زبدة الحدث اللغوى ، فإنه يلجأ عندئذ الى خرق هذا النسق الطبيعى .

« ولله	يدعو الى	دار السلام »
المسند	إليه المسند	

أخوك	أخبرنى	بذلك
المسند	المسند إليه	

(جوابا للسؤال : من أخبرك بذلك ؟) .

---

(٥) راجع في ذلك مقالة دانش (Danes 1966: 225) . وعلى الرغم من تقسيم اللغة الى هذه المستويات فان أي مستوى منها لا يمكن فصله عن بقية المستويات ، لأن اللغة ذات أنظمة متداخلة . ولكن لغويي براغ شعروا بأن تحديد المستويات ضروري للبحث عن حقائق اللغة .

(٦) استخدامي لمصطلحي المسند والمسند اليه منسجم من حيث الاستعمال وليس المعنى مع استعمال سيبويه لهما . ففي الجملة الأسمية يعتبر المبتدأ مسندا والخبر مسندا اليه : « فالمبتدأ مسند والمبني عليه مسند اليه » (الكتاب ٢/٧٨) . وفي الجملة الفعلية يكون الفعل مسندا والفاعل مسندا اليه . وأود أن ألفت نظر القارىء الى أمرين يتعلقان بهذين المصطلحين . الأول أن جمهور النحاة استعملوهما على خلاف ما أشار اليه سيبويه . الثاني أن سيبويه ومن جاء بعده من النحاة قد استعملوا المصطلحين للاشارة الى اعتبارات نحوية ، ولكنني استعملها هنا للاشارة الى شيئين (أ) عنصر المعلومات في الجملة (ب) مدى ما للوحدة من دينامية في الاتصال اللغوي . وسيرد شرح ذلك في نص المقالة . أنظر كذلك الحاشية رقم (٨) .

وفيما يلي مثالان توضيحيان آخران يعبران عن فكرة واحدة ، لكن الفرق بينهما هو في مجال التركيز ، وسنجد أن توزيع المسند ـ المسند اليه يعكس هذا الفرق :

وصل	الوفد الرياضى الصينى	الى البلاد ليلة أمس
المسند	المسند إليه	

(جوابا للسؤال/ ماهى أخبار الوفود الرياضية ؟)

الوفد الرياضى الصينى	وصل	الى البلاد ليلة أمس .
المسند إليه	المسند	

(جوابا للسؤال : أى وفد وصل الى البلاد ليلة أمس ؟)

ان تحديد موضع المسند في الترتيب المحايد ينبع من الحقيقة المعروفة وهى أن المرء يبدأ كلامه بالمعلومات المعروفة لدى المتكلم أو التى سبقت الإشارة إليها أو التمهيد لها في السياق . ثم يضيف بعد ذلك المعلومات الجديدة التى يظن أنها كفيلة باثراء القارىء أو السامع . ولكن مفهوم المسند والمسند إليه لا ينحصر في هذا النطاق من الفهم الابتدائى . فالواقع أن اللغويين الذين جاءوا بعد ماثسيوس قد طوروا هذا المفهوم . ومن أبرز هؤلاء اللغويين جان فرباس Jan Firbas . يتخذ فرباس « المنظور الوظيفى للجملة » أساسا للتحليل ويحدده بوضوح (Firbas 1959:39) على النحو التالى : « المقصود بالمنظور الوظيفى للجملة هو ترتيب عناصر الجملة بالنظر إليها في ضوء السياق الفعلى » . ويقدم مفهوما وظيفيا جديدا يسميه « دينامية الاتصال » Communicative dynamism ، وهى خاصية من خاصيات الاتصال تتجلى في سياق تنمية المعلومات التى يراد التعبير عنها[٧] . ذلك أنه في عملية الاتصال اللغوى تتعدد العناصر التى تدخل في تكوين الجملة ، وهذه العناصر لها امكانية متفاوتة في إثراء معلومات المستمع : فبعضها يحتوى على معلومات يعرفها المستمع بالفعل (أو يمكن استعادتها من خلال السياق) ، وبعضها يحتوى على معلومات جديدة . وحينما ننظر إليها من هذه الزاوية نجد أن قدرتها على تحريك الحدث الكلامى متفاوتة ، وهذا انعكاس للطبيعة الديناميكية لعملية الاتصال اللغوى .

وطبقا لمفهوم « دينامية الاتصال » فإن هناك ثلاث وحدات وظيفية في الجملة : المسند وهو ينقل أقل درجة من دينامية الاتصال . المسند إليه وهو ينقل أعلى درجة من دينامية الاتصال . وبعد هاتين الوحدتين أو قبلهما أو بينهما تأتى الوحدة الانتقالية ، transition وتكون غالبا من العناصر الاضافية (الظرف ، الحال) أو العناصر التى نحتاج إليها

(٧) راجع لمزيد من التفاصيل مقالة فرباس (Firbas 1971) ص ١٣٦ فما بعد .

لاستقامة الجملة نحويا (أدوات النسخ ، أدوات الشرط الخ)[٨] . وهنا نرى أن تحديد المسند ـ المسند إليه يكون على أساس وظيفتها في الاتصال اللغوى ، بينما التحديد السابق كان يربط بينها بشكل ما بعنصر المعلومات . ولكي نتمكن من تحديد هذه الوحدات في الجملة ، فإنه ينبغى أن نأخذ بعين الاعتبار العوامل الثلاثة التالية :

١ ـ نسق الجملة ، أى كيفية ترتيب الأجزاء فيها .
٢ ـ السياق العام للحدث اللغوى .
٣ ـ السياق الدلالى الخاص للجملة (البنية الدلالية) .

وهذا يبين لنا أن دينامية الاتصال ليست نظاما منفصلا ، ولكنها وليدة عدة عوامل مجتمعة . والجمل التالية توضح هذه الوحدات :

السياق : أين رمى الفراش الأوراق ؟

الجملة :	في سلة المهملات	رمى	الفراش	الأوراق
	مسند اليه	وحدة انتقالية	مسند	مسند اليه

السياق : هل جميع الناس ظالمون ؟

الجملة :	والظلم	من شيم النفوس	فان تجد
	مسند	مسند اليه	وحدة انتقالية

ذا عفة	فلعلة	لا يظلم	(المتنبي)
مسند	مسند اليه	وحدة انتقالية	

السياق : هل تصدق أنني نسيت أن أغلق باب شقتي ليلة أمس ؟
ـ وماذا حدث ؟
الجملة : دخلت قطة صغيرة داخل المطبخ .
المسند اليه

(٨) لقد وضحت في الحاشية رقم (٦) أن مصطلحي المسند والمسند إليه سيستخدمان بمفهوم جديد . ولكي لا يكون هناك لبس في ذهن القارىء فانني أحب أن أذكر أن البلاغيين العرب يقسمون الجملة الفعلية الى ركنين أساسيين : المسند (ويمثله الفعل) والمسند اليه (ويمثله الفاعل) . ويقسمون الجملة الأسمية كذلك الى ركنين : المسند اليه (ويمثله المبتدأ) والمسند (ويمثله الخبر) . وقد استخدم البلاغيون العرب مصطلح (متعلقات الاسناد) للتعبير عن كل ما عدا المسند والمسند اليه . أي أن البلاغيين العرب يربطون في الموقعية بين المسند والمسند اليه والترتيب النحوي لعناصر الجملة (بين المسند اليه وكونه يقع فاعلا ، أو بين المسند وكونه يقع فعلا وهكذا) ولكن الواضح من استعمالنا هنا أن هذا الربط غير ممكن ، لأن ترتيب المسند ـ المسند اليه والترتيب النحوي مستويان مختلفان من التحليل في المنظور الوظيفي .

ولو أمعنا النظر في هذه الجمل الثلاث لوجدنا أن تعيين عناصر دينامية الاتصال يتحدد على أساس السياق . فالسياق هو الذي يحدد لنا ما اذا كان أحد عناصر الجملة شيئا معلوما او شيئا جديدا هو عبارة عن الاضافة التي يريد المتكلم أن يوصلها الى السامع . ولو أعدنا قراءة الجملة الأخيرة لوجدنا أنها تشكل بأكملها المعلومة الجديدة التي يريد المتكلم أن يخبر السامع بها . ولذلك فكل العناصر فيها تحمل درجات عالية من دينامية الاتصال . وهنا نجد أن الحقائق الخارجة عن الاطار التركيبي للغة لها دخل في التعرف على المعنى .

وفي الجمل المتعدية نجد أن « المفعول به » يمثل الهدف أو نتيجة الحدث (الذي يعبر عنه فعل الجملة) ، ولذلك فالمفعول به يحمل ـ في الظروف العادية ـ درجة من الدينامية هي أعلى من درجة الفعل . وتعليل ذلك أنه من وجهة النظر الوظيفية فان الهدف (أو النتيجة غير المعروفة) يعتبر أهم من الحدث نفسه .

ومن عناصر السياق الدلالي الخاص للجملة في المنظور الوظيفي استخدام أداة التعريف . فالكلمة المعرفة بأداة التعريف غالبا ما تحمل درجة متدنية من الدينامية وذلك على افتراض أن أداة التعريف تشير الى شيء معهود أو معروف لدى المستمع . فحينها نقول :

وصلت الرسالة أمس
مسند

ونسند الى (الرسالة) وظيفة المسند . فهذا يعني أن المتكلم كان قد أتى على ذكر الرسالة في فترة سابقة ، أي أنها تشير الى شيء معلوم . ولكن هذه ليست وظيفة ثابتة لاداة التعريف ، وأعني أنها لا تستخدم دائما بهذه الكيفية . فمع تضافر العوامل الدلالية والسياقية فان أداة التعريف قد تقترن بالمسند اليه وذلك على نحو ما هو موضح في المثالين التاليين :

السياق : هل جميع الطلبة الذين تدرسهم حاليا ضعاف في اللغة ؟

الجملة : كلا الطالب المستجد — على وجه الخصوص — يعاني من ضعف في اللغة
المسند اليه — المسند — وحدة انتقالية

السياق : أين ضاع قلمك ؟

الجملة : ضاع — قلمي — في المكتبة
وحدة انتقالية — مسند — مسند اليه

فالمسند اليه هنا يقترن بما يشكل المعلومة الجديدة في الرسالة اللغوية وذلك على الرغم من ارتباط هذا المسند اليه بأداة التعريف . على أنه من الواضح ، كما انتبه الى ذلك فرباس (Firbas 1966:248) أن الوظيفة الأساسية لأداة

التعريف هي أن تبين أن الاسم معرف من حيث الاشارة ، وهي لا تستطيع وحدها أن تجعل الاسم اكثر دينامية . واذا وجدنا اسما معرفا يؤدي وظيفة المسند اليه فهذا راجع الى وجود عوامل أخرى والتي يعتبر السياق من أهمها .

لقد رأينا كيف يساهم نسق الجملة من جانب والسياق من جانب آخر في توضيح عناصر دينامية الاتصال . وحينما نتعامل مع الجملة بهذه الكيفية فان بالامكان التعرف على تركيبة المعلومات ومنهجية توالفها بشكل اكثر تفصيلا . من الممكن عندئذ أن نتحدث عن « المسند الصريح » Theme proper، وهو العنصر الذي يحمل أدنى درجة من درجات الدينامية . « والمسند اليه الصريح » reheme proper، وهو يحمل أعلى درجة من درجات الدينامية . (انظر مقالة فرباس Firbas 1971) . وفي الجملة التالية نجد أن الضمير يعود الى شيء معروف قد سبق ذكره في السياق ، ولذلك فقدرته على إثراء معلومات القاريء ضئيلة جدا ، ويصّنف في سلم الدينامية على أنه مسند صريح . .

السياق : أين وجدت المحفظة ؟

الجملة :	وجدتها	في الطريق
	مسند صريح	مسند أليه

أما في الجملة التالية فهناك عنصران يحملان دينامية عالية ، ولكن الواضح أن احدهما اكثر فعالية من حيث أهميته في الحدث اللغوي .

السياق : من الذي أيد صحة تلك الأنباء ؟

الجملة :	(أيد صحة تلك الأنباء)	مصدر دبلوماسي عربي	رفيع المستوى
	مسند	مسند اليه	مسند اليه صريح

ان الصورة التي رسمناها حتى الآن توضح لنا أن توزيع درجات دينامية الاتصال في الجملة هو حصيلة تضافر ثلاثة عوامل هي : السياق ، نسق الجملة ، والبنية الدلالية . أما المجال الذي تتوزع خلاله دينامية الاتصال فهو الحدث الكلامي بأكمله . وقد يقتضي ذلك تقسيم الكلام الى فقرات والفقرات الى جمل وهكذا (راجع : Firbas 1971 138)

وقد يتبادر الى الذهن أن تحليل فرباس تحليل ذوقي انطباعي وليس تحليلا مبنيا على قواعد مقننة . والواقع أن فرباس ، شأنه شأن سائر لغويي مدرسة براغ ، لم يكن يميل الى التقنين الجامد للمظاهر الوظيفية للغة . والواضح في مسلك مدرسة براغ أنها لم تحفل بالتقنين أو بجعل الدراسة اللغوية دراسة علمية ، كما كان الشأن لدى المدرسة الامريكية . فقد كان اهتمام مدرسة براغ منصبا بوجه خاص على الكيفية التي تزود بها اللغة المتكلم بعدد من الأساليب والطرائق التعبيرية مناسبة لظروف اجتماعية مختلفة (راجع Sampson 1980:.27) . والجانب الانطباعي أو

الشخصي أمر لا مفر منه في التعامل مع لغة النص ، أو اللغة التي نستعملها كوسيلة اتصال ، لأنّ مجال التحليل في هذه الحالة أوسع من مجال تحليل الجملة نحويا . ومع ذلك فان فرباس لم يترك الأمر للذوق وحده ، بل انه زودنا بالجوانب النظرية الكفيلة بمساعدتنا في تحديد العناصر التي تساهم في تشكيل الجمل أثناء عملية الاتصال .

مدرسة لندن :

ان الجانب الواضح الذي يميز مدرسة لندن هو تأثير الاعتبارات العملية في سير الدراسات اللغوية في بداياتها الأولى . فقد كانت حدود الامبراطورية البريطانية تشمل مساحات شاسعة من المستعمرات في آسيا وافريقيا . وقد استدعى هذا الوضع التفكير في كيفية وصف أصوات اللغة الانجليزية وقواعدها لكي يسهل على الأجانب تعلمها . هذا من جانب ، ومن جانب آخر فقد كانت لتلك المستعمرات لغاتها المحلية الخاصة بها ، بل ان بعض المستعمرات كانت تسود فيها أكثر من ثلاث لغات رئيسية . وبرزت نتيجة لذلك مسألة ايجاد طرق لكتابة اللغات وشرح قواعدها ، وخاصة اللغات المحلية واللغات غير المدونة على نطاق واسع . ومن اللافت للنظر أن مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية School of Oriental and African Srudies ، وهي كلية من كليات جامعة لندن ، أنشئت عام ١٩١٦ لخدمة الامبراطورية البريطانية في دراسة لغات المستعمرات وثقافاتها وتدريسها لرجال الحكومة . ومن هذا المنطلق فان دراسة اللغويين الانجليز للغات الافريقية والآسيوية تختلف عن دراسة اللغويين الأمريكان للغات الهندية ـ الأمريكية ، وذلك ليس فقط في أسلوب الدراسة والمصطلحات المستعملة ، ولكن أيضا في الهدف العام للدراسة . فاللغات الافريقية والآسيوية لم تكن على وشك الانقراض كما كانت كذلك اللغات الهندية ـ الأمريكية . ولذلك فلم تكن هناك ضغوط تستدعي لأن يفكر اللغويون الانجليز في ابتداع وسائل اجرائية لتدوين اللغات ووصفها قبل أن تنقرض . وذلك يعني ، كما أشار سامبسون (Sampson 1980 :215) ، أنه بينما شعر الوصفيون الأمريكان بالحاجة الى تطوير وسائل استكشاف آلية للغات التي كانوا يصفونها ، فانه كان بمكان فيرث وزملائه أن ينشغلوا ببناء جوانب نظرية .

وفي مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية تطورت الدراسات اللغوية ونمت على يدي فيرث J.R.Firth (١٨٤٥ ـ ١٩١٢) والذين تتلمذوا على يديه أو عملوا معه . وكان فيرث قد عين في عام ١٩٤٤ أستاذا لعلم اللغة العام في تلك الكلية . ويعد بذلك أول أستاذ يعين في هذا المنصب في الجامعات البريطانية . وقد تركزت كتابات فيرث في المعنى والأصوات . أما من جاءوا بعد فيرث ، أو الذين يطلق عليهم « الفيرثيون الجدد » neo Firthians فقد توسعوا في هذين الجانبين وتطرقوا كذلك الى مجال المفردات والنحو ، كما سيمر بنا . وقد اتخذت كتاباتهم المنحى الوظيفي الذي أصبح سمة لمدرسة لندن ، وتجلى ذلك في مظاهر عديدة من التحليل اللغوي . وسنتوقف في البداية عند دراسة المعنى .

المعنى وسياق الحال

نظر فيرث الى المعنى على أنه نتيجة علاقات متشابكة متداخلة ، فهو ليس فقط وليد لحظة معينة بما يصاحبها من صوت وصورة ، ولكنه أيضا حصيلة المواقف الحية التي يمارسها الأشخاص في المجتمع . فالجمل تكتسب دلالالتها في

النهاية من خلال ملابسات الأحداث ، أي من خلال سياق الحال[٩] context of situation . ولذلك فقد اقترح فيرث أن « تدرس اللغة كجزء من المنظومة الاجتماعية » (Firth 1950 : 181) social process . وفي هذا الجانب يبدو تأثر فيرث بأفكار مالينوفسكي واضحا . ولتوضيح هذه النقطة ، يستحسن أن نعرض للأفكار الناضجة التي طرحها مالينوفسكي والتي مهدت السبيل أمام فيرث ليؤصل نظريته في المعنى .

كان مالينوفسكي Malinowsky (البولندي الأصل) أستاذ للأنثروبولوجيا في مدرسة لندن للاقتصاد London School of Economics وقد سافر في أعقاب الحرب العالمية الثانية الى الجزر المحيطة باستراليا في المحيط الباسيفيكي لاجراء بحوث ميدانية عن أهالي جزر تروبرياند Trobriand . وفي أثناء تسجيل ملاحظاته وجد أنه من الصعب ترجمة ما يقوله أهالي تلك الجزيرة من عبارات وجمل ترجمة حرفية الى اللغة الانجليزية . ووجد أن تلك الصعوبة تزداد حينما يصل الأمر الى الحديث عن عادات وتقاليد خاصة بأهالي تلك الجزيرة . وفي محاولته لحل تلك المشكلة خرج بملاحظات نشرها في كتاب يعد من أمتع كتب الرحلات (الحدائق الساحلية وسحرها) Coral Gardens and Their Magic . وهذه الملاحظات هي التي أرست مباديء نظرية سياق الحال في وصف المعنى .

خلاصة كلام مالينوفسكي حول هذا الموضوع أن معنى الجملة يتحدد في السياق المعين الذي ترد فيه . والسياق الذي قصده مالينوفسكي هو البيئة الطبيعية أو الواقع الثقافي للمجتمع ، حيث أنه كان يكتب كأنثروبولوجي . ولكن مالينوفسكي لم يتوسع في الحديث عن السياق وكيف يمكن تناوله ضمن نظرية لتحليل المعنى ، لأن مالينوفسكي لم يكن مهتما بصياغة نظرية لغوية .

اقتبس فيرث من مالينوفسكي فكرة أهمية دراسة اللغة في اطار سياق معين ، وأعطى لهذه الفكرة أبعادا أعمق ، فقد جعلها تخطيطا تنظيميا مجردا abstract construct ، وحصرها في مجال اللغة بعد أن كانت فكرة عامة تمس النواحي الثقافية في المجتمع . وقد مر بنا أن فيرث ينظر الى اللغة على أنها عملية اجتماعية أو نشاط اجتماعي . أي أن نظرية فيرث اللغوية تقوم على أساس ارتباط اللغة بالفرد والمجتمع . ولذلك فان فكرة سياق الحال أصبحت تعنى عند فيرث دراسة اللغة كأداة اجتماعية ، أي كأداة في المجتمع يستعملها الأفراد بقصد تحقيق أهداف وأغراض معينة .

ولكي يتم تحليل معنى الجملة حسب مقتضيات « سياق الحال » ، ينبغي الأخذ بعين الاعتبار العناصر التالية (راجع Firth 1950 :,182) :

١ - الحقائق المتعلقة بالمشاركين في الحدث اللغوي ، كان نذكر مثلا ما اذا كان المشارك طفلا أو رجلا ناضجا ذا مكانة اجتماعية مرموقة ، أو امرأة . ويندرج تحت هذا العنوان الخلفية الثقافية للمتكلمين .

(٩) راجع كذلك (تمام حسان ١٩٧٣ :٣٣٧-٠ فما بعد) حيث عرضت الفكرة مع مقارنتها بنظرة البلاغيين العرب .

٢ ـ الأحداث اللغوية نفسها ، أي العبارات المنطوقة بالفعل وكيفية نطق الجملة أو الجمل من حيث التنغيم والنبر الخلافي ، وما يصاحب هذه الأحداث اللغوية من مظاهر لغوية غير منطوقة ، كحركة اليدين وتعابير الوجه .

٣ ـ الأمور المادية التي لها صلة مباشرة بالحدث اللغوي relevant objects .

٤ ـ أثر العبارت اللغوية المنطوقة فعلا (أي ما يستتبع النطق من سلوك اعتمادا على العبارات المنطوقة) فقد تؤثر جملة ما على أحد السامعين ، ولكن لا تترك نفس الأثر في سامع آخر لاختلاف العادات والتقاليد .

والسؤال الذي يبرز هنا هو : كيف يمكن تحديد ماله صلة بالسياق ، وخاصة الأمور المادية ذات الصلة المباشرة بالحدث اللغوي ؟ هذا السؤال كثيرا ما يطرحه منتقدو نظرية سياق الحال . فمثلا تقول الدكتورة ديدري ولسون (D.Wilson : **op cit**) ، أستاذة علم الدلالة في جامعة لندن (الكلية الجامعية) : ان بامكان المرء أن يعد قوائم عديدة لما يمكن أن يشكل الأمور المادية لجملة من قبيل « أنا أحاضر في هذه الغرفة الآن » . والقوائم ستشمل أمورا مثل ما يلي :

« هذه الغرفة التي تعد جزءا من بناء قديم في الكلية الجامعية .
هذه الغرفة المملوكة لجامعة لندن .
هذه الغرفة التي تقع في لندن . الخ . . . »

والواقع أن نظرية سياق الحال لا تعنى باعداد قوائم عن الظروف المادية ، فاعداد مثل هذه القوائم أمر في غاية الصعوبة . هذا علاوة على أن أية قائمة لن تكون متكاملة في الظروف الطبيعية . ولكن الفكرة ترتكز على مبدأ « الاختيار » Selectivity ، أو الصلة المباشرة ، حيث إنه في كل حدث لغوي تكون هناك عناصر معينة نستطيع أن نختارها على أنها ذات صلة بموضوع الجملة . ولنأخذ كمثال توضيحي الجملة التي أوردتها ولسون ، ونضعها في السياق التالية :

الكهربائي : آسف للمقاطعة . يجب أن نقوم ببعض الاصلاحات الاضطرارية على موزع مكيف هذه الغرفة .

المحاضر : حاول أن تجرب ذلك فيما بعد ، من فضلك . <u>**أنا أحاضر في هذه الغرفة الآن .**</u>

الكهربائي : مع الأسف أن الانتظار غير ممكن ، فقد أخبرني رئيس المهندسين أن المحول الرئيسي في كلية الآداب في الشويخ سينفصل آليا لو لم نقم بالاصلاحات حالا .

من الواضح من خلال هذا السياق أن الأمور المادية التي لها صلة بالجملة هي وجود جهاز تكييف في قاعة المحاضرة يسبب خللا للموزع . أما الأمور المادية الأخرى من قبيل أن الغرفة لها ستائر مصنوعة من قماش وليس من معدن ، وأن فيها مقاعد طولية وليس مقاعد صغيرة منفصلة ، وأن هناك بيوت عنكبوت في زواياها الخ . . فهي لا شك ليست ذات صلة مباشرة بالحدث اللغوي . وكما قال هاليدي (Halliday 1978 : 29) فانه « من المهم أن نقيد فكرة « السياق ، وذلك بأن نضيف لها كلمة « ذات صلة » relevant ، لأن سياق الحال لا يعني كل صغيرة وكبيرة في المحيط المادي ، كتلك التي قد تظهر فيها اذا كنا نسجل بالصوت والصورة حدثا كلاميا مع كل المشاهد والأصوات المحيطة به . انه يعني تلك الملامح التي لها صلة وثيقة بالكلام الحاصل » .

ولنتصور مشهدا آخر . طالب يدخل قاعة المحاضرة متأخرا عن موعد المحاضرة بعشرين دقيقة ولا يبادر أستاذه بالاعتذار بل يتجه مباشرة الى مقعد فارغ فيجلس فيه . يقطع الأستاذ محاضرته ويقول له : « صباح الخير » (بنغمة صاعدة ـ هابطة في النهاية ، مع مد المقطع الطويل في الخير) . ان الظروف المادية المحيطة بهذه العبارة (وصول الطالب متأخراً) والتنغيم المستعمل ، تدل على أن الأستاذ يريد أن يلوم الطالب على التأخير وليس أن يلقي عليه تحية الصباح . أما بقية الأمور المادية ، مثل شكل الطالب ونوع لباسه فلا علاقة لها بهذا الحدث اللغوي .

وقد أثار بعض الباحثين اعتراضا نظريا آخر حول مفهوم سياق الحال في تحليل المعنى ، وذلك على أساس أن عناصر السياق الأربعة (التي ذكرناها فيما مضى) تعطي انطباعا خاطئا بأن تلك الحقائق يمكن استعمالها بشكل منهجي حينما نصف كيف يضفي الأفراد التفسير الدلالي على الجمل (Langendoen 1968 : 50) ويبدو أن هذا النقد يتعامل مع فكرة السياق بعقلية المدرسة التحويلية ـ التوليدية التي تفسر الاستعمال اللغوي على أنه نتيجة مراحل توليدية وتحويلية متتالية . ولكن الاتجاه الوظيفي لا يفصل المعنى عن تركيب الجملة . بمعنى أن المتكلم لا ينطق بالجملة عارية أولا ثم يكسيها ثوب المعنى في مرحلة تالية (كما يرى التحويليون) . ولكن المعنى ينشأ في الظرف المناسب وفي لحظة الخلق اللغوي ، أي في لحظة تفاعل المرء مع الحدث . يقول هاليدي (halliday 1978 . 33) :

« ان السياق جزء من التخطيط الكلي . . . ليس هناك انفصال بين ماذا نقول وكيف نقول ، اللغة انما تكون لغة عن طريق الاستعمال في سياق الحال . وكل ما فيها مرتباط بالسياق » .

ان جزءا كبيرا من معاني المفردات والجمل المستعملة يعتمد على الخبرة المشتركة ما بين المتكلم والمتلقي . ولذلك فنحن نحتاج الى سياق الحال ليس فقط لكي نتمكن من معرفة مدى ملاءمة الكلام أو اللغة المستعملة في هذا الظرف أو ذاك ، ولكن أيضا لكي نستطيع أن نفسر الأساليب اللغوية والمستويات اللغوية register وطبيعة اللغة نفسها .

وقد طور هاليدي فكرة السياق في دراساته عن الترابط اللغوي cohesion وتحليل النصوص text analysis ، فاقترح أسلوبا آخر لتحديد العناصر السياقية التي تلعب دورا في بيان معنى النص . وهذا الأسلوب يوظف ثلاثة مصطلحات على وجه التحديد هي :

الحقل : Field وهو المجال الطبيعي (الاجتماعي) الذي يكون مسرحا للنص ، فيشمل بذلك النشاطات المختلفة ، والأهداف الخاصة التي تستعمل اللغة من أجل تحقيقها .

التوجّهات Tenor ويشمل العلاقات ما بين المشاركين في الحدث اللغوي : وضع كل مشارك والدور الذي يؤديه كل مشارك .

النمط Mode وهو الوسيلة اللغوية المتبعة في النص (أو الحدث اللغوي) . ويشمل الأسلوب اللغوي والوسائل البلاغية .

ويحرص هاليدي على تأكيد فكرة مهمة وهي أن هذه العناصر لا ينبغي أن تعامل على أنها أنواع من الاستعمال اللغوي ، ولكنها اطار نظري لتمثيل السياق الاجتماعي الذي يستطيع المتكلم من خلاله أداء المعاني .

ونحاول فيما يلي أن نوضح هذه المصطلحات وذلك من خلال تحليل النص التالي[١٠] .

حكاية أحمقين

« حكى أن أحمقين اصطحبا في طريق فقال أحدهما للآخر : تعال نتمنّ على الله ، فإنّ الطريق تقطع بالحديث . فقال أحدهما : أنا أتمنى قطائع غنم أنتفع بلبنها ولحمها وصوفها . وقال الآخر : أنا أتمنى قطائع ذئاب أرسلها الى غنمك حتى لا تترك منها شيئا . قال : ويحك ، أهذا من حق الصحبة وحرمة العشرة ؟ فتصايحا وتخاصما ، واشتدت الخصومة بينهما حتى تماسكا بالأطواق . ثم تراضيا على أن أول من يطلع عليهما يكون حكما بينهما . وطلع عليهما شيخ بحمار عليه زقان من عسل فحدثاه بحديثهما . فأنزل الزقين وفتحهما حتى سال العسل على التراب . ثم قال : صب الله دمي مثل هذا العسل ان لم تكونا أحمقين » .

(١٠) هذا التحليل لا يغطي الجانب المتعلق بتساوق المفردات وترابطها ، انه يركز فقط على العناصر السياقية المرتبطة بتفسير النص

(المستطرف في كل فن مستظرف)

	المحتوى السياقي	المحتوى الدلالي
الحقـل	أحمقان يسيران في طريق ينشأ بينهما نزاع وتشابك بالأيدي ببسبب سوء الظن . شيخ معه حمار وعليه جرتان من عسل	توضيح الأدوار وأنواع المشاركين . أشياء مادية لها صلة مباشرة بالقصة .
التوجهات	رغبة أحد الطرفين في تزجية الوقت أثناء السير . تمنيات خيالية بهدف المداعبة تثير تزاعا حقيقيا . التصايح وتبادل الاتهامات التشابك بالأيدي نتيجة لسوء التفسير التوقف عن العراك والموافقة على الاحتكام شيخ يبدي موافقته على حل المشكلة بفتح الجرتين واسالة العسل	فعل أمر ، ثم جملة تقريرية مؤكدة . جملة تقريرية مثبتة . جمل مثبته ، معطوفة (حدث متداخل) جملة استفهامية بنغمة صاعدة جمل ما ضوية مترابطة بأدوات العطف التي تفيد تسلسل الحدث . الصمت أثناء انزال الزقين القيام بفعل غير لغوي قبل التفوه بالجملة وذلك بقصد توضيح معناها .
النمط	تكييف الجمل وفقا للأهداف طريقة التكلم الاستعانة بالقيم الأخلاقية والدينية ترابط النص	تعال نتمن على الله (طلب) أنـا أتمنى . . . (توكيد الذات) ويحك (لوم وتقريع) أهذا من حق الصحبة وحرمة العشرة ؟ (استفهام استنكاري) « صب الله دمي مثل هذا العسل ان لم تكونوا أحمقين » (جملة مركبة ذات وحدتين نغميتين) أدوات الربط والعطف وضمائر التكلم والاشارة .

مستويات التحليل اللغوي

ان النمط الوظيفي الذي نجده عند مدرسة لندن يتعامل مع أربعة مستويات في التحليل اللغوي تمثل الأنظمة المختلفة في اللغة . وقبل أن نتعرف على هذه المستويات ، يستحسن أن نتوقف عند مصطلحين مهمين أوردهما فيرث يمثلان الأساس الفكري لهذا التحليل . يرى فيرث أن للغة محورين : محور النظام system ويمثله العلاقات الرأسية paradi gmatic relations ، أي ثوابت اللغة ، مثل مباني التقسيم في النظام الصرفي . ومحور البناء structure ويمثله العلاقات الأفقية syntagmatic relations التي تتميز بالتجدد ، مثل الجمل المختلفة في اللغة . ومن النظام اللغوي يستمد البناء القيم المختلفة اللازمة لعمل العناصر . فالأبنية اللغوية في شكلها الصحيح ـ هي انعكاس للنظام بما فيه من قواعد مؤسسة . ولا يمكن أن نفهم عنصرا بمنأى عن العنصر الآخر ، فالجانبان مرتبطان ببعضهما أشد ارتباط . ويوضح فيرث هذا الارتباط بالترميز الشكلي لكيفية كتابة المصطلحين باللغة الانجليزية على النحو التالي :

s
y
structure
t
e
m

ويمكن دراسة النظام والبناء على عدد من المستويات نذكرها باختصار فيما يلي :

المستوى الصوتي

لقد اعتبر فيرث أن النظام الصوتي للغة يتألف من عدة أنظمة polysystemic ، وليس من نظام أحادي monosystemic المتمثل في سرد الوحدات الصوتية (الفونيمات) على أساس توزيعها الخطي . ولذلك فالتحليل ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار التشكيلات الصوتية أو التطريزات الصوتية prosodic features التي تبرز في أماكن مختلفة من المقطع أثناء الاستعمال ، كالمظاهر التي نصادفها في حالتي الوقف والوصل مثلا .

وطبقا للتحليل التطريزي prosodic analysis ، فان الوحدات الصوتية والمقاطع المحددة يمكن أن تدخل ضمن العلاقات الرأسية ، أما العلاقات التي قد تتولد ما بين المقاطع والوحدات الصوتية في الكلام المتصل فانها تدخل ضمن العلاقات الأفقية .

مستوى المفردات ، في المستوى المفرداتي نجد أن مفهوم « التساوي » collocation يعكس فكرة البناء[11]. والتساوي في صياغاته المبكرة كان يعني الترابط الأفقي الطبيعي ما بين الكلمات . أي تصاحب الكلمة مع كلمة أو

(١١) « التساوق » ترجمة مقترحة منا للمصطلح الذي استعمله فيرث ومن بعده هاليدي وآخرون . وقد أورد تمام حسان (١٩٧٣) هذا المصطلح وترجمه « بالتضام » . ولكن شرحه « للتضام » (ص ٢١٦) لا يتضمن المعنى الأصلي للمصطلح ، فهو يستعمل « التضام » كمصطلح عام تندرج تحته ظاهرتان : التساوق والانتظام . لمزيد من التفاصيل حول مفهوم التساوق في الاتجاه الوظيفي راجع مقالتنا (أحمد ١٩٨٤) .

كلمات أخرى ، أو رفقة الكلمة أو جيرتها لكلمات أخرى في السياق الطبيعي ، مثل : كذبة ابريل ، حللت أهلا ، صلاة التراويح ، لم ينبس ببنت شفة (بالنفي دائما ، أي أننا لا نقول : نبس ببنت شفة) شاي ثقيل (ولكن لا نقول : شاي قوي) . وقد تطور المفهوم فأصبح يعني الى جانب ذلك : دخول الكلمة في سياق مقبول مع كلمة أو كلمات أخرى . فالفعل (أطلق) مثلا يمكن أن يتساوق مع العناصر التالية :

- أطلق لحيته (جعلها تنمو)
- أطلق ساقيه للريح (ولي هاربا)
- أطلق له الحبل على الغارب (ترك له حرية التصرف)
- أطلق الدواء بطنه (سهله ومشاه)
- أطلق عليه اسما غريبا (سماه باسم غريب)

الى آخر ذلك من تساوقات . ولكن (أطلق) لاتتساوق مع (محاضرة) في قولنا : (أطلق محاضرة) معنى ألقى محاضرة .

والواضح من هذه الأمثلة المحدودة أن التساوق يمكن استخلاصه من العلاقات الأفقية ما بين الكلمات ، وليس من الربط بين الكلمات ومفاهيمها (راجع Firth 1951:1961) .

المستوى النحوي ، ويتضمن تركيب الجملة (النحو وتركيب الكلمة) (الصرف) . في هذا المستوى يعتبر مفهوم « الانتظام » colligation معبرا عن البناء . والانتظام هو التجاور الطبيعي للعناصر النحوية والصرفية بحيث يؤدي هذا التجاور الى تلازمها في الاستعمال . فمثلا أداة النفي (لم) تنتظم مع الفعل الماضي فتنقلب الصيغة الى المضارع . وضمائر النصب المتصلة تنتظم مع الفعل المتعدي دائما . والفعل رغب يجب أن ينتظم اما مع (في) أو مع (عن) . وطبيعي أن هذا النمط من الانتظام يكون مسئولا عن جزء من المعنى النحوي .

المستوى الدلالي ، وقد مر بنا أن فكرة سياق الحال ضرورية لفهم المعنى . ولكن الجانب الواضح في اتجاه مدرسة لندن أن المعنى لا يؤدّى ولا ينبغي قصر تحليله على المستوى الدلالي فحسب ، بل ان جميع المستويات تتضافر لأداء المعنى . فهناك معنى على المستوى النحوي ، وهناك معنى على المستوى اللفظي وهكذا . وحول هذه الفكرة يقول فيرث : (Firth 1951 b: 227)

« الأشكال اللغوية لها معنى على المستوى النحوي واللفظي . وهذا المعنى تحدده أنماط الأنظمة النحوية التي تقام للغة . ان حالة الرفع في لغة ذات أربع حالات اعرابية سيكون لها بهذا المفهوم معنى مختلف عن حالة الرفع في نظام ثنائي أو نظام له أربع عشرة حالة اعرابية مثلا » .

ويستطرد فيرث في توضيح هذه اللفظة قائلا :

« ان المفرد في نظام لغوي ثنائي العدد له معنى نحوي مختلف عن المفرد في نظام ثلاثي العدد (كاللغة العربية . المترجم) . أو رباعي العدد كاللغة الفيجية Fijian التي تفرق رسميا بين المفرد والمثنى والجمع القليل والجمع الكثير » .

ونجد كذلك أن فكرة التحليل الصوتي التطريزي تهدف ، من جملة أشياء ، الى بيان ظلال المعاني في سياق الاستعمال . ولذلك نجد أن فيرث يكرر في مواطن كثيرة من كتاباته أن دراسة اللغة هي بالدرجة الأولى دراسة للمعنى . وهذا التفكير يتخذ منحى واضحا ومحددا عند هاليدي الذي ينظر الى اللغة على أنها نوع من السلوك الدلالي المحتمل meaning potential . والمقصود بالسلوك الدلالي المحتمل هو ما يستطيع المرء أن يؤديه أو يفعله باللغة (Halliday 1973: 51) .

والابداع اللغوي creativity عندئذ لا يكمن ، كما يرى التحويليون في قدرة المتكلم على توليد أو خلق جمل جديدة ، وإنما يكمن في قدرة المتكلم على خلق معان جديدة . وهذا المثال يوضح الاختلاف الجذري بين اتجاه شومسكي العقلاني واتجاه هاليدي الوظيفي . فعلى حين ينظر شومسكي الى اللغة على أنها شيء نعرفه ، ينظر هاليدي الى اللغة على أنها شيء نفعله . ويفسر هاليدي ظاهرة اكتساب الطفل للغة الأم بأنها تنطوي على تعلم لاستعمالات اللغة في الظروف الاجتماعية المختلفة ، وللمعاني المرتبطة بهذه الاستعمالات . والتراكيب والكلمات والأصوات عبارة عن الوسائل والأطر التي تتحقق عن طريقها احتمالات المعاني . (راجع أيضا Halliday op. cit) .

النحو النظامي

يعتبر النحو النظامي systemic grammar من أكثر الاتجاهات النظرية تكاملا عند مدرسة لندن . وقد وضع أسسه النظرية البروفيسور مايكل هاليدي ، ثم توسع أتباعه ومريدوه في التطبيقات والتفريعات .[١٢] والنحو النظامي مبني على أساس تعدد وظائف اللغة multiple function . وهذا المبدأ ينعكس على النظام اللغوي ، فنجد أن كل تركيب أو بناء لغوي يؤدي وظيفة مختلفة . وهذا يعني أن مستعمل اللغة يجد أمامه من الوسائل التعبيرية ما تمكنه من التعبير عن أفكاره ومشاعره . هذه الوسائل ليست في الواقع سوى الاستعمالات الفعلية للنظام اللغوي . ومن ثم فانه من الصحيح أن نقول إن الوسائل التعبيرية المتاحة للمتكلم ، أو الاستعمالات التي من الممكن أن يلجأ اليها مستعمل اللغة تكون في حدود الامكانيات اللغوية الموجودة في اللغة . هذه الامكانيات هي عبارة عن خصوصيات كل لغة .

هذا التركيز على الجانب الوظيفي للغة من قبل النحو النظامي ، يجعل المهمة الرئيسية التي ينبغي الاضطلاع بها منذ البداية هي تصنيف هذه الوظائف الرئيسية ضمن نظام نحوي يعكس بالدرجة الأولى تلك الاستعمالات . والنظام

(١٢) انظر حول هذه التفريعات مقالة بتلر (Butler 1989) .

النحوي الذي قدمه هاليدي عبارة عن شبكة ضخمة من العلاقات المتداخلة لأنه مبني على وظائف اللغة كما تصورها . وليس من الممكن استيعاب النظام بأكمله في هذه المقالة ، ولذلك فسأكتفي بتوضيح الصورة من خلال التطرق لفكرة التعدي واللزوم في اللغة .

ان نمط التعدي واللزوم عند هاليدي يتمثل في العلاقات التي يمكن تأسيسها ما بين «النشاط » process type « والمشاركين » participants .

لنقرأ الجمل التالية :

١ ـ بكى الطفل .
٢ ـ أركض في المساء .
٣ ـ انفجر الوضع الأمني في لبنان .
٤ ـ مرض عميد الكلية في بداية الفصل الدراسي .

تحتوي كل جملة من الجمل السابقة على عنصرين :

(أ) نشاط يمثله الفعل .

(ب) ومشارك واحد هو عبارة عن الاسم سواء أكان عاقلا أم جمادا . وإذا تأملنا الأمثلة السابقة لنتعرف على نوع النشاط فيها ، فسنجد أن المثالين (١) و (٢) يدلان على حركة action ، بينما المثالان (٣) و (٤) يبينان حدثا event . والمشارك الذي يرتبط مع نشاط يدل على حركة يسمى « عامل »[١٣] actor . أما المشارك الذي يرتبط مع نشاط يدل على حدث فنسميه « متأثر » patient .

وحينما يقتصر النشاط على العامل أو المتأثر فهو « نشاط قاصر » عندئذ non-directed action . أما حينما ينطلق النشاط من العامل ولا يتوقف عنده بل يتجاوزه الى عنصر ثان في الجملة فهو نشاط مجاوز directed action ، كما في الأمثلة التالية :

٥ ـ كتبت الطالبة المستجدة بحثا جيدا .
٦ ـ شرح المعلم الدرس .

(١٣) أي القائم بالعمل أو النشاط . وقد تجنبت استخدام المصطلح الشائع (فاعل) وذلك بهدف توضيح المفاهيم الجديدة . وغني عن القول ان هذا المصطلح بمعناه الجديد لا يمت بأية صلة لمصطلح العامل المعروف في النحو العربي ، والذي يقصد به العنصر المعنوي أو الظاهر الذي يتسبب في جلب العلامات الاعرابية الظاهرة أو المقدرة على أواخر الكلمات .

وهذا العنصر الثاني يطلق عليه مصطلح الهدف goal لأنه عبارة عن نتيجة النشاط أو أثر النشاط الذي قام به العامل . ونجد في بعض التراكيب أن ما يمثل نتيجة النشاط هو عبارة عن مشارك نطلق عليه مصطلح الظرف ، كما في الأمثلة التالية :

٧ ـ أشار الاستاذ الى السبورة .
٨ ـ غرد العصفور فوق الشجرة .
٩ ـ جلس التلميذ على الكرسي .

والآن دعونا نقرأ الأمثلة التالية :

١٠ ـ يكلف الكتاب عشرين دينارا .
١١ ـ يشبه زيد أباه .
١٢ ـ يملك علي سيارتين .
١٣ ـ بدت الفتاة سعيدة .

ان الأفعال في هذه الأمثلة تشبه النوع الثاني من أنواع النشاط (أي النشاط المجاوز) والاعراب الشكلي الظاهري يعامل (٥ ـ ٦) و (١٠ ـ ١٣) معاملة واحدة ولكن الأمر بالنسبة للجمل الأخيرة (١٠ ـ ١٣) مختلف . فنحن نرى أن النشاط في تلك الأمثلة (أي الفعل) ليس حركة وليس حدثا ، ولكنه يعبر عن وضع من الأوضاع state ، ولذلك فهو فعل وضع stative verb . أما الاسم المرفوع الذي يأتي بعد أفعال الوضع فلا يقوم بعمل ولا يتأثر به ، ومن ثمّ فلا يصح أن نطلق عليه مصطلح العامل . وبالتمعن في وظيفته نجده عبارة عن شيء يتصف بالحقيقة التي يرد ذكرها في النشاط (المذكور قبله) . ومن ثم فسنختار له دورا نسمّيه « متّصف » . أما الاسم المنصوب في تلك التراكيب فالظاهر من وظيفته العامة أنه يبين الشيء الذي اتصف به المتّصف ، ولذلك فسنسميه وصفا . وقد يكون الوصف عددا وقد يكون اسما صريحا .

ونجد أيضا في اللغة العربية جملا من قبيل ما يلي :

١٤ ـ أعطى ابنه مبلغا من المال .
١٥ ـ منح المدير سكرتيرته أجازة مرضية .
١٦ ـ أهدى زوجته خاتما من الماس .

ان الأفعال في هذه الجمل أفعال حركة ، والنشاط فيها بطبيعة الحال من النوع المجاوز . ولكننا هنا بازاء نوع مختلف من النشاط . فالحركة التي تصدر من العامل ذات بعدين . فهي من جانب تؤثر في شيء (غالبا مـا يكون عاقلا) ، وهي من جانب آخر تبين الأثر الذي ترك في هذا الشيء نتيجة للنشاط . وهذا يعني أن هناك مشاركين اثنين

(غير العامل) في هذا النوع من الجمل . ولو أعدنا قراءة الجمل السابقة (١٤ ـ ١٦) بدقة فسنجد أن المشارك الأول منهما عبارة عن شيء أو عنصر استفاد من العمل الذي صدر من العامل . أما الثاني فهو الشيء المستفاد ، أي أنه مجرد أثر أو نتيجة للنشاط . وتبعا لهذه الوظائف فسنسمي الأول « مستفيد » beneficiary ، وسنسمي الثاني « هدف » ، والتسمية الثانية تعد من الوظائف التي مرت بنا قبل قليل .

منح	المدير	سكرتيرته	أجازة	مرضية
نشاط مجاوز	عامل	مستفيد	هدف	صفة

ونجد في الجدول التالي تلخيصا لأنواع النشاط والمشاركين التي ذكرنا نماذج لها في هذا العرض الموجز .

نوع النشاط	المشـــاركون	
حدث « مرض »	الفاعل = متأثر « عميد الكلية »	
حركة (نشاط قاصر) « أركض »	الفاعل = عامل « أنــا »	
حركة « نشاط مجاوز » « شـرح » « غـرد »	« المعلم » « العصفور » } الفاعل = عامل	المفعول به = هدف « الدرس » المفعول به = ظرف « فوق الشجرة »
وضـع « يكلف » « يشـبه »	« الكتاب » « زيـد » } الفاعل = متصف	المفعول به = وصف (عدد) « عشرين دينارا » المفعـول بـه = وصف (صـريـح) « أباه »
حركة (نشاط مجاوز) « منـح »	الفاعل = عامل « المـدير »	المفعول به = مستفيد « سكرتيرته » المفعول به = هدف « أجازة »

هذه مجموعة محددة من الجمل المستعملة في اللغة العربية ، والقصد منها هو رسم صورة توضيحية لكيفية تداخل الأدوار والمشاركين في النحو النظامي . ولو كان المجال يسمح بالاستطراد لوسّعنا من حجم الأمثلة لنعالج مجاميع أخرى من الأدوار والمشاركين[١٤] . ولكن هذه الأمثلة المحددة تعتبر بحد ذاتها كافية لتوصلنا الى الخلاصة التي نريد التوصل اليها هنا . إن النحو النظامي يلغي ذلك التقسيم الحاسم للأفعال الى لازم ومتعد ، والذي ينبثق من أسس صرفية ، ويعتبر التعدي واللزوم من وظيفة الجملة بأكملها ، لأن الوظائف اللغوية تودّى عن طريق الجملة المتكاملة . ويكون تحديد الأدوار ونوعية المشاركين على أساس وظيفتها الدلالية في الجملة . ولذلك فانه يجب أن نعتبر « العامل » و « الهدف » وغيرهما من الأدوار الوظيفية على أنها وظائف دلالية وليست وظائف نحوية . ومن الواضح بعد ذلك أن نرى هاليدي يحاول أن يقيم نظاما نحويا على أسس دلالية وظيفية ، لأنه يعتقد أن نحو كل لغة مصمم بكيفية معينة لتمكن المستعمل من أداء المعاني المختلفة . والحقيقة الواضحة عندئذ أنه حينما نكتب نحو لغة ما فاننا نبحث عن وسائل أداء تلك اللغة للمعاني .

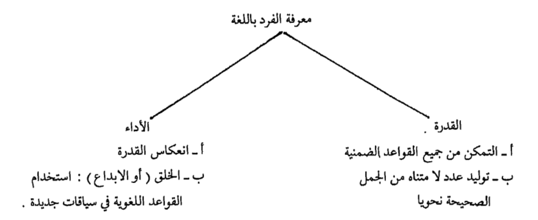
لكن هذا النمط من التحليل الذي يعول على وظيفة الجملة في التعبير تعويلا تاما لا يخلو من صعوبات . وقد صرحت مارغريت بري (Berry 1982: 77) ، وهي من أقطاب هذا الاتجاه ، بأنه من السهل أن نفكر في أمثلة حيث يتداخل ما نظنه نظامين ضمن نظام واحد . وهي تقصد أن تحديد وظيفة المشارك على وجه الدقة قد لا يكون أمرا سهلا في بعض الحالات . فمثلا حينما نقول : « تزوج المدير سكرتيرته » فهل نصنف (المدير) في هذا المثال على أنه « عامل » أو « مستفيد » ؟ هناك من الباحثين المعاصرين (Schlesinger 1989: 193) من اقترح أن يكون تعيين عضوية المشارك في مثل هذه الحالات مسألة درجات . أي أنه علينا أن نقلب الأمر على وجوهه وندخل اعتبارات السياق حتى نستطيع أن نرجح وظيفة على أخرى غيرها .

الوظيفية عند هايمز

ان النمط الوظيفي الذي اقترحه هايمز Hymes يعتبر في جوهره رد فعل للتيار العقلاني الذي نشره شومسكي وأتباعه منذ منتصف الستينات . لقد قصر شومسكي معرفة الفرد بلغته على الملكة الذهنية التي سماها « القدرة » competence ، والجانب التنفيذي الذي سماه « الأداء » performance . والقدرة تتمثل في تمكن الفرد من القواعد الضمنية underlying rules التي يلجأ الى استعمالها أثناء الأداء . أما الأداء فهو الاستعمال الفعلي للغة (Chomsky 1965: 4) ، على نحو ما هو موضح في الشكل التالي :

---

(١٤) أنظر مصطفى لطفي (١٩٧٦) حول الجمل التي تعكس مفهوما ذهنيا .



والأمر اللافت للنظر في هذا التعريف أن شومسكي يرى أن معرفة الفرد بلغته تنحصر في الملكة النحوية التي يتمتع بها هذا الفرد والتي تمكنه من توليد الجمل الجديدة . لقد توقف هايمز عند هذه النقطة على وجه التحديد ، ورأى أن تعريف شومسكي للقدرة اللغوية تعريف ضيق لا يناسب الطبيعة الاجتماعية للغة . ومن ثم فقد اقترح أن تستبدل بفكرة « القدرة على الاتصال » communicative competence ان اللغة وسيلة اتصال في المجتمع ، ومن ثم فإن أي حديث عن قدرة المرء على اللغة ينبغي أن يربط باستعمال اللغة في بيئة ثقافية ـ حضارية معينة . ويرى هايمز (Hymes 1971: 281 ff.) أن قدرة المرء على اللغة لها أربعة مظاهر تنبع كلها من استعمال اللغة :

أ ـ الى أي حد يكون الشيء ممكنا possible (نحويا) . وهذا المظهر يشير الى امكانيات اللغة وانفتاحها .

ب ـ الى أي حد يكون الشيء معقولا feasible استنادا الى وسائل التنفيذ المتاحة . والتركيز هنا على الجوانب النفسية التي نستخدمها في تنفيذنا للغة ، مثل الذاكرة والتخطيط الذهني للكلام ، والفهم الخ .

جـ ـ الى أي حد يكون الشيء مناسبا appropriate وذلك ضمن السياق الذي يستعمل فيه هذا الشيء . وهذا يشير الى فكرة الاستعمالات اللغوية language registers والأساليب اللغوية styles التي يلجأ مستخدم اللغة اليها في الظروف المختلفة متخذا لكل حالة ما يناسبها من مفردات وطريقة تعبير ، مع مراعاة الأعراف والتقاليد الاجتماعية .

د ـ الى أي حد يكون الشيء قد أنجز (من حيث الأداء) . أي ماذا نطق المتكلم من عبارات وجمل وماذا يستتبع هذا النطق من سلوك . وهذا المظهر يتكلم عن محوري المتكلم والمتلقي في آن واحد : ماذا يستطيع أن يقوله الفرد كمتكلم ، وماذا يستطيع أن يتقبله كمتلقي .

والصورة النهائية التي يمكن أن نخرج بها بعد قراءتنا لهذه المظاهر الأربعة هي أن مفهوم « القدرة » لم يعد مقصورا على المعرفة البحتة بقواعد اللغة وتوليد عدد لا متناه مّن الجمل ، وانما أدخلت فيه اعتبارات وظيفية جعلته يشمل أمورا أخرى من بينها .

أولا : أنه يفسح المجال لعنصر النية أو القصد في التعبير . فقد يستعمل المتكلم في موقف ما جملة تبدو من حصيلة مفرداتها أنها جارحة أو تنطوي على اهانة ، ولكن المتكلم يقصد بها المزاح أو الدعابة في ذلك الظرف . وذلك كأن يقول أحدنا لصديق أو زميل له في العمل رآه لتوه قد صعد السلم وهو يتنفس بقوة : « هكذا العجائز ، حينما يصعدون على السلم يلهثون ، ويحتاجون الى ساعة لالتقاط أنفاسهم » . ولذلك فان الأمور ستضطرب لو أن المستمع حمل الكلام محمل الجد .

ثانيا : انه يصرح بوجود مهارات أخرى عديدة يتمتع بها المتكلم والمتلقي بحكم كونهما أفرادا في بيئة اجتماعية - ثقافية معينة ، مثلا مهارة الاستماع واظهار الكياسة والأدب ، والرغبة في الابقاء على مودة زمالة العمل وغيرها .

ثالثا : أنه يؤكد على أهمية التقاليد الاجتماعية والأعراف والموروثات الشعبية في استعمالنا للغة وفهمنا وتحليلنا لها .

والملاحظ في اتجاه هايمز أنه لا يقترح نموذجا لغويا يمكننا من الاستفادة من هذه الملامح الاتصالية في التحليل ، كالذي وجدناه مثلا عند مدرسة براغ ومدرسة لندن . ولذلك فان النموذج الوظيفي الذي يقدمه عبارة عن مقترحات عملية في الجانب الدلالي على وجه الخصوص . ومن الممكن توظيف النموذج في مجال تحليل النصوص text analysis . وفي هذا المجال نجد أن آراء هايمز تلتقي مع آراء هاليدي التقاء واضحا .

التطورات الحديثة في الاتجاه الوظيفي

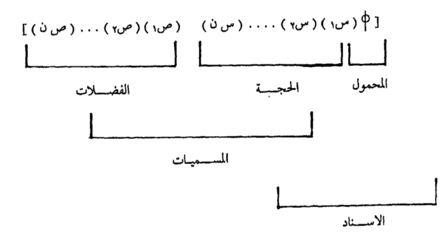
اتخذ الاتجاه الوظيفي منعطفا واضحا عند اللغويين الغربيين في جامعات هولندا وألمانيا وبلجيكا واليابان وغيرها . وهذا الاتجاه الجديد يجمع بين المرتكزات النظرية للاتجاه الوظيفي والتي ذكرناها في بداية بحثنا هذا ، وبين المنطق الصوري . لكن الواضح أن الاتجاه الوظيفي في شكله المطور والذي يسميه أصحابه بالنحو الوظيفي Functional Grammar ، يتعامل مع ثلاثة مستويات في التحليل ، لكل واحد منها مجاله ومصطلحاته . يرى « سايمون دك » (Dik 1978: 13) ، وهو أحد أبرز منظري هذا الاتجاه وكتابه ، أن جملة مثل « أكل محمد التفاحة » يمكن أن تحلل على ثلاثة مستويات مختلفة :

١ - المستوى النحوي	فعل	فاعل	مفعول به
٢ - المستوى الدلالي	فعل	عامل	هدف
٣ - المستوى البراغماتي	مسند (theme)	متمم (tail)	
أو :	موضوع (topic)	بؤرة (focus)	

وهناك من الوظيفيين المعاصرين من يكتفي بمستويين اثنين : مستوى يمثل التمثيل النحوي والدلالي للعناصر rep-resentational level ، ومستوى يمثل العناصر المشاركة في الحديث اللغوي interpersonal level (انظر Hengeveld 1989: 128) .

والجملة في « النحو الوظيفي » عبارة عن إسناد predication ، وهذا الاسناد يتكون من عدد من المسميات Terms التي هي عبارة عن تعبيرات expressions لها خاصية الاشارة ، أي مسميات يمكن أن تستعمل للاشارة الى موجودات في العالم . ونحن نستطيع أن نتوصل الى الاسناد وذلك بأن نملأ ما يمثل خانة المحمول predicate (وهو يبين العلاقة ما بين الموجودات أو خصائص الموجودات) وأن نملأ ما يمثل خانة الحجة argument (التي هي عبارة عن المسميات التي تستبدل بها المتغيرات) . ثم بعد ذلك تأتي الفضلات أو المكملات stelites (أي ما ليس بعمدة مثل الحال والتمييز والصفة . . .) .

ويمكن توضيح المصطلحات بالشكل التالي :



(راجع Dik 1978: 15, 26) .

وفي هذا الشكل يمثل (س١ . . . . س ن) متغيرات يمكن تعيين وظيفتها الدلالية . ولتعيين الوظائف الدلالية فان الجملة تقدم في « النحو الوظيفي » على شكل اطار اسنادي predicate frame . والمثال التالي يوضح هذا الجانب :

وزع (س١ : انسان (س١)) (س٢) (س٣: ذو حياة (س٣))

فعل	عامل	هدف	مستلم
وزع	الاستاذ	الأوراق	على التلاميذ

ولنأخذ فيما يلي مثالا توضيحيا آخر :

اغتال (س١ : انسان (س١)) (س٢ : انسان (س٢))

فعل	عامل	هدف
اغتال	جنود الاحتلال	شابين فلسطينيين

وهكذا فلكل جملة اطار اسنادي مصمم لبيان وظيفتها . وفي هذا الاطار الاسنادي يتم استبدال المتغيرات بمسميات تتفق في خصائصها الاختيارية selectional restriction مع المحمول . أي أن الاطار الاسنادي الثاني لا يصلح لتحليل جملة مثل (اغتال الظلم فكرتي) لأن العامل والهدف كليهما أسماء مجردة . ونجد في بعض الكتابات المعاصرة أن هذه المتغيرات يتم استبدال قيمها برموز منطقية على مستوى التمثيل الشكلي (Hengeveld 1989: 131) .

ولعل القارىء يلاحظ أن هذا النمط الوظيفي في شكله المطور يختلف عما قدمته المدارس الوظيفية السابقة من تحليل غير معقد مستمد من الاستعمال المباشر وليس من تطبيق المنطق . ولم يكن الوظيفيون المتقدمون يقفون عند الوظيفة الذهنية في اللغة إلا بقدر ما تعكس قضية تخطيط المرء للغة . فنقطة الخلاف اذن بين المجموعتين هي أن الوظيفيين يحللون اللغة من خلال مصطلحات دلالية تدل دلالة مباشرة على وظيفة الجملة . بينما الوظيفيون الجدد يرون أن الوظيفة يمكن ابرازها بالاسناد المنطقي . ولكن الجميع يتفقون حول فكرة عامة تجعل الاتجاه الوظيفي متميزا من بين الاتجاهات اللغوية الأخرى ، وهذه الفكرة تتمثل في أن اللغة أداة اتصال في الحياة الاجتماعية ، وأن القواعد الاجتماعية والأعراف والتقاليد تتحكم في اللغة . وحينما نصف اللغة فاننا يجب أن نصفها من خلال وظيفتها في البيئة الاجتماعية التي تؤدي فيها تلك اللغة وظيفتها .

وقد أخذت الدراسات الوظيفية في السنوات الخمس الأخيرة تركز على المجالات المتعلقة بالأسلوب والمستويات اللغوية وأسس الترابط في النص cohesion ، وذلك من خلال تحليل النصوص text analysis وهذا المصطلح يطلق على الدراسة الوظيفية لمكونات النص اللغوي سواء أكان هذا النص عبارة عن عمل أدبي مطبوع written text ، أم كان مجرد نص منطوق oral text . ولكن نظرا لأن اختلاف نوعي النص (المكتوب والمنطوق) يثير قضايا تفصيلية مختلفة ، فقد انفردت اللغة المستعملة في التحاور والمناقشات بمصطلح خاص يدل دلالة مباشرة على نوع الدراسة ، وهذا المصطلح هو « تحليل المحادثة » discourse analysis وفي هذا المجال يكون التركيز على ظواهر تبرز في لغة الكلام خاصة ، مثل النبر والتنغيم ، والتقسيم المقطعي للكلمات ، وايقاع الكلام ، وتقسيم الكلام الى وحدات لغوية حسب المعلومات التي يريد المتكلم التعبير عنها .

***

المراجــع

ـ أحمد مختار عمر (١٩٧٦) « دراسة الصوت اللغوي » . عالم الكتب ، القاهرة .

ـ تمام حسان (١٩٧٣) « اللغة العربية معناها ومبناها » . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .

ـ مصطفى لطفي (١٩٧٦) « اللغة العربية في اطارها الاجتماعي » . معهد الانماء العربي ، بيروت .

ـ يحيى أحمد (١٩٨٤) « المعنى بين الاتجاه التجريدي والاتجاه الوظيفي » . المجلة العربية للعلوم الانسانية ، المجلد الرابع ، ص ص ٥١ ـ ٧٠

— Berry, M (1982) 'Review of Halliday 1978' **Nottingham Linguistic Circular,** No. 11, pp. 64- 94.

— Butler, Chris S. (1989) 'Systemic models: Unity, diversity and change.' **Word** 40 pp. 1-35.

— Chomsky, N. (1965) **'Aspects of the Theory of Syntax'** MIT Press Cambridge, Mass.

— Danes, F. (1966) 'A Three-Level Approach to Syntax' **TLP** 1m pp. 225-240.

— Dikm Simon C. (1978) **'Functional Grammar'** North-Holland Publishing Company, Nether Lands.

— Firbas, J. (1959) 'Thoughts on the Communicative Function of the Verb in English, German and Czech' **BSE** 1, pp. 39-63.

— Firbas, J. (1966) 'Non-Thematic Subjects in Contemporary English' **TLP** 2, pp. 239-254.

— Firbas, J. (1971) 'On the Concept of Communicative Dynamism in the Theory of Functional Sentence Perspective' **Sbornik Praci Filosoficke Fakulty Brnesk University** A 19, pp. 135-144.

— Firth, J.R. (1950) 'Personality and Language in Society' Reprinted in Firth (1957).

— Firth, J.R. (1951a) 'Models of Meaning' Reprinted in Firth (1957).

— Firth, J.R. (1951b) 'General Linguistics and Descriptive Grammar.' Reprinted in Firth (1957).

— Firth, J.R. (1957) **'Papers in Linguistics 1934-1951** 'Oxford University Press.

— Halliday, M.A.K. (1973) **'Exploration in the Functions of Language'** Edward Arnold.

— Halliday, M.A.K. (1978) **'Language as Social Semiotic.'** Edward Arnold.

— Halliday, M.A.K. (1985) **'An Introduction to Functional Grammar'** Edward Arnold.

— Hengeveld, K. (1989) 'Layers and Operators in Functional Grammar,' **JL,** 25, No. 1, pp. 127-157.

— Hymes, D. (1971) 'On Communicative Competence.' in: J.B. Pride and J. Holmes (eds). **Sociolinguistics** Harmondsworth: Penguing Books.

— Langendoen, D.T. (1968) **'The London School of Linguistics.'** Cambridge, Mass; MIT Press.

— Sampson, G. (1980 **'Schools of Linguistics'** Hutchinson; London.

— Schlesinger, I.M. (1989) 'Instruments as Agents: On the Nature of Semantic Relations.' **JL,** 25 No. 1, pp. 189-210.

— Vachek, J. (1966) **'The Linguistic School of Prague.'** Indiana University Press.

— Wilson, D. (1978) 'Introduction to Semantics. Lecture Notes.' Department of Linguistics and Phonetics U.C.

الدراسة الإحصائية للأسلوب
بحث في المفهوم والإجراء الوظيفة

سعد مصلوح
أستاذ مشارك بكلية التربية الأساسية ـ الكويت

فاتحة البحث :

يقول الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٨٤٩ ـ ٩١١هـ) في (الاتقان) : (وقال الهذلي في كامله :) (اعلم أن قوماً جهلوا العدد وما فيه من الفوائد حتى قال الزعفراني : العدد ليس بعلم ، وإنما اشتغل به بعضهم ليروج به سوقه)[١] . وقد سيقت مقالة الزعفراني هذه في حق طائفة من العلماء اشتغلت بتتبع بعض المؤشرات الكمية في الأسلوب القرآني . ولكنها ـ على قِدَمها ـ تكاد تكون تعبيراً عن شكوك مترادفة يطرحها كثير من المعاصرين في جدوى المعالجة الإحصائية للأساليب[٢] . وتستند هذه الشكوك إلى بدهية تبدو ظاهرة الصدق ، فقد لُحظ أن جمهور أئمة النقاد من لدن أرسطو إلى العصر الحديث عالجوا باقتدار أخطر مشكلات النص الأدبي دون أن يحسوا حاجة ملحة تلجئهم إلى اصطناع الطرق الإحصائية والاستدلال بنتائجها . بل إن المقاربة الإحصائية لم تحظ عند عدد من أعلام اللسانيين المحدثين مثل سوسيور وبلومفيلد وتشومسكي بنصيب ملحوظ من العناية . على أن ذلك لم يطعن على هؤلاء الأعلام ، ولم يؤخر منزلتهم بين أهل العلم . وإذا كان الدرس الأدبي واللساني كلاهما قد كان ولم يكن إحصاء فما وجه الضرورة إذن في اصطناعه ضرباً من ضروب المقاربة للظاهرة اللسانية بعامة ، والأسلوبية خاصة ؟

(١) السيوطي : الإتقان في علوم القرآن ، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ج ١ / ٢٤١ .

(٢) انظر : على سبيل المثال لا الحصر · صلاح فضل ، علم الأسلوب : مبادئه وإجراءاته ، كتاب النادي الأدبي الثقافي ـ جدة ، ط ٣ ، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٧ . وشفيع السيد : الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٨٦ ، ص ١٨٧ ـ ١٨٨ .

والحق أن هذا الاعتراض القديم الجديد يعتضد أيضاً بظهور عدد وافر من الإشكالات المعرفية والمنهجية التي أثارتها الظاهرة الأسلوبية نفسها ، وما تزال تتردد في أدبيات هذا العلم دونما جواب حاسم . وحسبنا هنا أن نشير إلى رؤوس من هذه المسائل : فما حد الأسلوب ؟ ، وهل يعرَّف بالإضافة إلى المنشيء بوصفه اختياراً ؟ أم إلى ذات الرسالة بوصفها شفرة لغوية ؟ أم إلى المتلقى بوصفه مجموعة من المثيرات والمنبهات التي تستدعي انفعالات ومواقف وأحكاماً معينة[٣] ؟ وهل ثمة مشروعية معرفية لاختصاص ظاهرة الأسلوب بعلم قائم برأسه بحيث يكون من العلوم المتجاذبة الاختصاص interdiciplinary؟ أم أن دراسة الأسلوب ينبغي أن تكون فرعاً من علم آخر ؟ وإذا صح الفرض الأخير فأي العلوم في هذه العلاقة يكون أصيلاً وأيها يكون تابعاً ؟ وكيف تتحدد العلاقة بين الأصيل والتابع ؟

وينتقل الخلاف حول هذه المسائل المنهجية إلى معسكر اللسانيين مع اتفاق جمهرتهم على اعتبار ظاهرة الأسلوب موضوعاً من موضوعات العلوم اللسانية ، وذلك حين ينظرون في أمر العلاقة بين الدرس الأسلوبي والدرس اللساني ، هل هي علاقة فرع بأصل ؟[٤] أم أن كليهما أصل بنفسه ؟ وما كان المكون الأسلوبي من بنية النص ، أتراه ينتشر على كافة مستويات التحليل الصوتية والصرفية والنحوية على ما يقول شاتمان S. Chatman أم أنه مستوى قائم بنفسه على قول جالبيرين Galperin[٥] ؟ على أن المدارس اللسانية تتفاوت تفاوتاً كبيراً في مدى ما توليه من عناية لدراسة ظاهرة الأسلوب ، وفي تحديد موضع المكون الأسلوبي من ثنائيات كثيرة اشتهرت بين النقاد اللسانيين ، مثل ثنائية الشكل والمضمون ، وثنائية النمط والانحراف (أو الأصل والعدل) ، وثنائية النطق والتدوين ، وثنائية لغة الفكر ولغة اللسان ، وثنائية اللغة والكلام ، وثنائية الجملة وما وراء الجملة . وهو اختلاف ينتج آثاراً بعيدة المدى على المستويات النظرية والتطبيقية وإجراءات التحليل . وثمة أيضاً مسألة تتعلق بالخيار الأسلوبي ، أهو خيار يتم فيه التشكيل الأسلوبي عن وعي واختيار وإرادة من المنشيء أم أنه عملية خاضعة للغة بوصفها من المعطيات التاريخية القاهرة والمهيمنة على عملية الإبداع[٦] .

تلكم السلسلة التي لا نهاية لها من الخلافيات لم تحسم بعد ، ولا نتوقع لها حسماً قريباً . إنها أسئلة تكاد تكون أبدية ،

---

(٣) أدت هذه الثلاثية إلى تقسيم الأسلوبيات الى أسلوبيات تعبيرية ، وأسلوبيات تأثيرية وأسلوبيات موضوعية . وانظر عرضاً مفصلاً لهذه الاتجاهات وغيرها في .

1-H. F. Plett, "**Concepts of style : A Classificatory and a Critical Approach**". **Language and Style**, Vol. no 4, Fall, 1977, PP. 268-9.

2- W. O. Hendricks, "**The Notion of Style**", **Language** and Style, Vol. V111, No. 1, Winter, PP. 35-41.

(٤) حول العلاقة بين الاسلوبيات واللسانيات انظر

Nils Erik Enkvist, "**Linguistic Stylistics**" Mouton, 1973, PP. 16-17.

(٥) نوقش هذان الرأيان بالتفصيل في :

Nils Erik Enkvist "**On the place of Style in Some linguistic theories**" **in Literary style : Asymposium**" ed. S. Chatman, Oxford Univ. Press, 1971, PP. 52-3.

(٦) الرأي الأخير هو لرولان بارت ولمزيد من التفصيل ينظر .

Roland Barthes, "**Style and its Image**", **in Literay Style**, Op. cit, P. 8.

وأيضاً عبد الله صولة : (الأسلوبية الذاتية أو النشوئية) ، مجلة فصول ، مج ٥ ، ع ١ ، ١٩٨٤ ، ص ٨٩ .

وستظل دائماً محاور للحوار والخلاف بين أهل العلم . وكل هذه الخلافات وارد على أصل قضية الأسلوب بما هو ظاهرة ، وعلى قضية الأسلوبيات بما هي علم أو مجال معرفي متعين . ومن البدهي أن قضية المعالجة الإحصائية للأسلوب لن تكون بمنجى من تأثير هذه الخلافيات سواء من جهة المفهوم أو الإجراء أو الوظيفة ، بل من جهة الحاجة إليها أصلاً .

وإذا كان من الصعب أن يُستوفى القول في جميع ما سبق من قضايا ، إذ يفضي بنا ذلك إلى الخروج عن أصل الغاية التي نصبت لهذه الدراسة = وكان من المحالات المنهجية أيضاً أن نُعرض عنها بالكلية في هذا المقام ؛ لوثاقة العلاقة القائمة بينها وبين سلسلة التصورات المنهجية والتحليلية التي تشكل قوام البحث ـ لذلك كان سَوَاءً الأمر هو أن نستفرغ الوسع في استصفاء ما يتصل من هذه المعضلات الخلافية بقضية الدراسة الإحصائية للأسلوب اتصالاً مباشراً ، وفي إرجاء الحديث المفصل حول الفروع والجزئيات ، مع الإشارة إليها في مظانها ، ليستقيم لنا البحث في أمر الإحصاء الأسلوبي من حيث المفهوم والإجراء والوظيفة . وهذه الثلاثة المحاور تقع تحتها منظومة المشكلات النظرية والتطبيقية التي يثيرها الدرس الإحصائي للأسلوب . وتشكل في الوقت نفسه البنية الأساسية لهذا البحث على الوجه التالي :

١ ـ مبحث المفهوم ، ويشمل :

١ ـ ١ ـ الأساس النظري لفكرة الإحصاء الأسلوبي .

١ ـ ٢ ـ ماهية الأسلوب من المنظور الإحصائي .

٢ ـ مبحث الإجراء ، ويشمل :

٢ ـ ١ ـ المتغير الأسلوبي والخاصية الأسلوبية .

٢ ـ ٢ ـ التشكيل الأسلوبي للمتغيرات اللغوية (أسلوبيات المقال) .

٢ ـ ٣ ـ أسلوبيات المقام .

٢ ـ ٤ ـ التشكيل الأسلوبي وثلاثية المقام / المعنى / المقال .

٢ ـ ٥ ـ التشخيص الأسلوبي .

٢ ـ ٦ ـ المعالجة الأسلوبية الإحصائية للنصوص .

٢ ـ ٧ ـ النماذج الرياضية للتشخيص الأسلوبي .

٢ ـ ٨ ـ إطار عمل للتحليل الإحصائي الأسلوبي .

٣ ـ مبحث الوظيفة ، ويشمل :

٣ ـ ١ ـ مفهوم المقياس الأسلوبي الإحصائي .

٣ ـ ٢ ـ مجالات تطبيقه

٣ ـ ٣ ـ أنماط المقاييس الأسلوبية .

٣ ـ ٤ ـ مبدأ شمولية المقياس الأسلوبي .

٤ ـ كلمة خاتمة : عن قضايا العربية ، والمعالجة الإحصائية :

وفي ما يلي يعالج البحث هذه المسائل على الترتيب السابق ذكره .

١ ـ مبحث المفهـــوم

١ ـ ١ ـ الأساس النظري لفكرة الإحصاء الأسلوبي :

لا شك أن ظواهر السلوك اللغوي لدى أي جماعة لغوية إنما تتصف ، في بعض مستوياتها الاتصالية على الأقل وفي بنية شفرتها ، بالوحدة والتجانس ، لأنها لو لم تكن كذلك لاستحال التواصل بين المتكلمين بها . وأول الشروط لتحقيق التفاهم أن يكون المرسل والمستقبل كلاهما على علم بـالشفرة المشتـركة ، وبتحققهـا الفيزيقي من حيث رمـوزها ، وعلاماتها ، وقواعد تأليفها ، ومفاتيح حلها .

بيد أن التنوع في تجليات الشفرة اللغوية الواحدة حقيقة تشهد بها الملاحظة ، ويصدقها العلم ، فالسلوك اللغوي يتباين تبايناً ظاهراً بين أبناء الجماعة اللغوية الواحدة ، حتى إن التجارب المختبرية لتقطع بأن الفرد الواحد لا يكرر كلمة واحدة عند أدائها بجميع خصائصها الأولى في ظرفين مختلفين ، وهكذا تتنازع السلوك اللغوي عوامل جغرافية محلية ، وانتماءات اجتماعية موحدة Group affiliations وانتماءات اجتماعية متعارضة[٧] Cross affiliations في خطوط ودوائر متداخلة ومتقاطعة حتى يبلغ التنوع مداه ، مُشكِّلاً ما اصطلح على تسميته بلهجة الفرد idiolect، وهي مجمـوعة السمات المميزة للسلوك اللغوي عند فرد بعينه في جماعة لغوية بعينها .

هذا التنوع في إطار الوحدة هو ما حاولت النظرية اللسانية الحديثة تفسيره من خلال ثنائية اللغة والكلام Langue/ Parole عند سوسيور ، أو ثنائية الكفاءة والأداء Competence/Performance عند تشومسكي على خلاف بين الثنائيتين في المنطلق الفلسفي ، ومن ثم في الإجراءات التحليلية والغايات[٨] . غير أن النظرية اللسانية الحديثة قامت في الأساس على افتراض الوحدة والتجانس ، وصرفت عنايتها في المقام الأول إلى دراسة ما هو عام ومشترك في إطـار ما سمي باللسانيات التقريرية deterministic linguistics، وشغلت دراسة التنوعات والفروق المحـل الثاني من الاهتمـام ، واضطلعت به مجموعة من العلوم تدخل ضمن ما يسمى باللسانيات الاحتمالية Probablistic linguistics . وإلى هذه

---

(٧) سعد مصلوح : الأسلوب : دراسة لغوية إحصائية ، ط ٢ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ٤٠ ـ ٤١ .

(٨) عن الأصول النفسية والفلسفية لنظرية تشومسكي انظر : جون ليونز : نظرية تشومسكي اللغوية ترجمة حلمي خليل ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٥ ، ص ٢٠٧ ـ ٢١٠ وص ٢٤٧ ـ ٢٥١ . ومحمد محمود غالي : أئمة النحاة في التاريخ ، جدة ، ١٩٧٦ ، ص ٩ ـ ١٦ ، ص ١٧ ـ ٢٢ وجون سيرل : تشومسكي والثورة اللغوية ، مجلة الفكر العربي ، ع ٨/٩ ، ١٩٧٩ ، ص ١٢٤ ـ ١٢٧

المجموعة من العلوم تنتمي الأسلوبيات اللسانية Linguostylistics ويتوزع مباحث الأسلوبيات اللسانية المعاصرة اتجاهان أو مدرستان متنافستان ، هما بحسب تصنيف بيير جيرو Pierre Guiraud : مدرسة الأسلوبيات التقليدية Traditional Stylistics التي وضع أصولها بالي Bally، ومدرسة الأسلوبيات الحديثة new Stylistics التي اشتقها جاكوبسون Jacobson من الاتجاه البنيوي لمدرسة براغ . وتتفق المدرستان على تعريف الأسلوب بأنه الصيغة المميزة للنص . غير أن الطائفة الأولى تبحث عن مصدر تعريفاتها في دراسة الخواص الأسلوبية للنظام (أو الشفرة) The Code على حين تلتمسه الطائفة الثابتة في وصف البُنى الداخلية للرسالة The message[٩] .

ونحن اذا اعتبرنا الصيغة المقترحة للأسلوبيات اللسانية عند بالي ومدرسته من جهة ، ثم عند جاكوبسون ومن نهج نهجه من جهة أخرى ، ثم اعتبرنا كذلك العوامل الاجتماعية والنفسانية الفاعلة في تشكيل الرسالة ـ أدركنا ما عليه موقف الأسلوبيات اللسانية من تعقد ، فهي دراسة تتقاطع مع اللسانيات التقريرية (بوصفها إطاراً مرجعياً لوصف التنوعات حتى داخل النظام نفسه) ، وتكملها في آن معاً . كذلك تتقاطع هذه الدراسة مع اللسانيات الاجتماعية (في مبحث محددات المقام ، وفي تحديد الإطار المرجعي للتنوع الاجتماعي) ، ومع اللسانيات النفسانية (في مبحثي الشخصية والنمو) ، ومع النقد الأدبي (في معالجة النص الأدبي ، الذي هو من أعظم التنوعات اللغوية تميزاً) . ويمتاز الدرس الأسلوبي من كل علم من هذه العلوم جميعاً بخصوصية تحدد له مجال بحثه ، فهو يفارق (اللسانيات التقريرية) باحتفائه بمبدأ التنوع ، وهو لا يلتمس من اللسانيات الاجتماعية الا بعض الأطر المرجعية المعينة على التصنيف ، وهو بإزاء اللسانيات النفسانية يختص بالسلوك اللغوي ـ السوي عادة ـ دون سائر أنواع السلوك البشري الأخرى . وهو بإزاء النقد الأدبي إنما ينصرف إلى السلوك اللغوي في النص ، وإلى التشخيص بالأصالة والتقويم بالتبعية ، وهو إذا عالج في النص جوانب أخرى مما يهم الناقد الخالص فليس إلا من خلال المكون اللغوي وما يتصل ببنيته من قضايا ، وهي ـ لحسن الحظ ـ كثيرة وخطيرة .

وموجز القول أن الدرس الأسلوبي يهتم بدراسة مظهر هام من مظاهر التنوع في السلوك اللغوي ، وينتمي بذلك إلى (اللسانيات الاجتماعية) ، على حين تقوم (اللسانيات التقريرية) على إهمال مبدأ التنوع وافتراض الوحدة والتجانس والمثالية في ظروف التواصل اللغوي . وعن هذا يعبر تشومسكي بأوضح عبارة إذ يقول :

(إن النظرية اللسانية مَعْنِيّة ، أولاً وقبل كل شيء بإنسان مثالي في سلوكه اللغوي ، تكلما وسماعاً ، يعيش في جماعة لغوية متجانسة تمام التجانس . وهو عارف بلغته تمام المعرفة ، ولا يخضع في تطبيقه هذه المعرفة أثناء أدائه اللغوي الفعلي لتلك الظروف التي لا صلة لها بالجانب النحوي ، مثل محدودية الذاكرة ، والارتباك ، والعوارض التي تتوزع اهتمامه وانتباهه ، ولما يمكن ارتكابه من أخطاء عشوائية أو مميزة .

(٩) Pirre Guiraud, "Immanence and Transtivety of Stylistic Critera", in literary style : A symposium", op cit. P. 16.

ذلك هو الموقف ـ كما يبدو لي ـ لدى مؤسسي اللسانيات العامة الحديثة . ولم يطرأ بعد من الأسباب المقنعة ما أدى إلى تعديل هذا الموقف [١٠] .

ذلكم الفرد المثالي في سلوكه اللغوي ، وتلك الجماعة اللغوية المتجانسة التي تمارس التواصل اللغوي في ظروف مثالية ليس إلا فرضاً نظرياً تنطلق منه مباحث النظرية اللسانيات . وإذن فقد كتب على اللسانيات الاحتمالية ، ومن بينها الأسلوبيات اللسانية مواجهة مشكلة التنوع اللغوي ، أو ـ بعبارة أخرى ـ امتحان فروض (اللسانيات التقريرية) ، وتكملة نواقصها ، والإسهام في معالجة أوجه القصور في النظرية اللسانية الحديثة .

من هنا تبرز وثاقة العلاقة بين الدرس الأسلوبي وأهمية المعالجة الاحصائية لظاهرة الأسلوب ، بل بين (اللسانيات الاحتمالية) في مجملها والإحصاء ، فما دام التنوع هو موضوع الدراسة فلا بد من رواة لغويين informants يتم اختيارهم من الجماعة اللغوية ويتحقق في سلوكهم ألتنوع ، ولا بد من اختيار عينات من النصوص تمثل المجتمع الإحصائي Statistical Population إذا لم يتيسر دراسة المجتمع نفسه . وهو الأمر الغالب دائماً ، ولم يكن بُدٌّ كذلك من إقامة الاختيار ، سواء للعينات أو الرواة ، على أساس يضمن دقة النتائج وسلامة الأحكام ، ومن وسائل علمية يمتحن بها ثبات هذه الأحكام وصدقها . فماذا كان موقف الدراسات اللسانية بنوعيها حيال الاستعانة بالمعالجة الإحصائية للمادة اللغوية الحافلة بمظاهر التنوع والاختلاف ؟

يقرر فرانك آنشين Frank Anshen أن الدراسات اللسانية قد سلكت حيال اعتبار التنوع ومعالجته إحصائياً واحداً من مسالك ثلاثة :

أما المسلك الأول فهو تجاهل التنوع ، والاعتراف بأن كل عضو من أعضاء الجماعة اللغوية المعينة هو متكلم مثالي بالضرورة ، ومن ثم له الحق في أن يكون المتحدث الوحيد باسم جماعته في هذا المجال ، إذ هي بدورها جماعة مثالية متجانسة في سلوكها اللغوي ولما كان هذا التجانس لا وجود له على الحقيقة = وكانت دراسة التنوع اللغوي مرادة في ذاتها لأهميتها النظرية ، ولأنها قوام علوم لسانية بأسرها ـ وجدنا آنشين يطلق على هذا الاتجاه تسمية لا تخلو من سخرية ، إذ يسميه اتجاه (عَدِّ عن ذا) (! ignore it) .

وأما ثانيها فقد توسط بين الأمور ، وطالب بتقييد المادة المدروسة بالبيئة والمقام . وإن كان ذلك قد جرى على نحو غامض لا يمكن الاطمئنان إلى أسسه وإجراءاته ونتائجه .

---

(١٠) N. Chomskey, "**Aspects of the Theory of Syntex**" Mass., 1965, PP. 3-4.

وأما ثالثها فقد آثر اللجوء إلى المعالجة الإحصائية ليضبط طرق اختيار الرواة والعينات ضبطاً علمياً ، ويحول البيانات غير الرقمية الى بيانات رقمية ، ويختبر الصدق والثبات في النتائج ، ويستكنه الدلالات الإحصائية للأرقام[١١] .

ولا شك أن المسلك الأخير هو الحل العلمي المنهجي لمعالجة ظاهرة التنوع اللغوي على نحو علمي منضبط ، بل إن أهمية الإحصاء قد ثبتت لكثير من علوم اللسانيات التقريرية مثل اللسانيات التاريخية على سبيل المثال[١٢] . أما في الأسلوبيات اللسانية فالحاجة إليه أشد إلحاحاً ، لأنها لا تقارب السلوك اللغوي بما هو ظاهرة متنوعة فحسب ، بل تقاربه أيضاً بما هو استعمال لغوي متميز بالقياس إلى غيره . وبذلك يتجاوز اللجوء إلى الإحصاء هنا دائرة الجواز الى دائرة الندب ، بل إلى دائرة الوجوب إذا أريد للتشخيص الأسلوبي وللأحكام النقدية الناتجة عنه أن تناط جميعها بأوصاف ظاهرة منضبطة .

١ ـ ٢ ـ ماهية الأسلوب من المنظور الإحصائي

ثمة مفاهيم تكتسب بشيوعها في الاستعمال العام وضوحاً زائفاً ، حتى إذا ما رازها العلماء واختبروها ، وتناوشتها المدارس العلمية على اختلاف أصولها ومناهجها وإجراءاتها البحثية تكشف أمرها عن قدر لا يستهان به من الغموض والتعقيد . وإلى هذا الصنف من المفاهيم ينتمي مصطلح (الأسلوب) ، سواء في مصنفات اللسانيين أو النقاد[١٣] . وتحرير هذا المفهوم جدير بأن يكون مطلباً علمياً لذاته بيد أن التزام البحث بقضية المعالجة الإحصائية للأسلوب سوف يضطرنا إلى أن نقبل نوعاً من الحد هو إلى التفسير أقرب منه إلى التعريف ، فعلماء اللسان والنقاد ـ على وجه الإجمال ـ يرون في الأسلوب واحداً من تجليات التنوع في السلوك القولي . إلا أن ماصدقات هذا التنوع من اللساني أوسع منها عند الناقد . وفرق ما بين الرجلين هو فرق في الغاية تتبعه سلسلة من الفروق ، فغاية اللساني هو الكشف عن أسرار الظاهرة اللسانية ، وما سوى ذلك من غايات هو عنده تَالٍ وتَبَع . وغاية الناقد هو قراءة العمل الأدبي وتفسيره وتقويمه ، وما سوى ذلك عنده من الغايات تَالٍ وتَبَع وينشأ من ذلك أن النص الأدبي هو واحد من مظاهر استخدام اللغة التي يوليها اللساني عنايته في بحث الأسلوب من منظوره الخاص . أما الناقد فالنص الأدبي هو كل بضاعته ، والموضع الوحيد لتأمله ونظره . وبدهي أن المكون الأسلوبي اللساني هو بالنسبة إليه واحد من مكونات أخرى ، لا يكمل عمله إلا بالوقوف

---

(١١) Frank Ansnen, "Statistics for Linguists", Newbury House publishers, U.S.A., 1978, PP. 2-3.

(١٢) عن الإحصائيات المعجمية في اللسانيات التاريخية انظر .

-Milka Ivic, "Trends in Linguistics" Trans. by Muriel Heppell, 2nd Printing, Mouton, 1970 PP. 219-220.

-D. L. Omisted, "Lexicostatistics as" Prooc "of Genetic Relationship", Anthropological Linguistics", Vol. 3, No. 4, PP. 9-14.

-H. A. Gleason, Jr, "Counting and Calculating for Historical Reconstruction", Anth. Linguistics, Vol. 1, No. 2, PP. 11-32.

(١٣) عن مفهوم الأسلوب انظر : سعد مصلوح ، المرجع السابق ذكره ، ص ٢٣ ـ ٢٩ .

عليه ، وينقص عمله بالوقوف عنده . تلك هي المنطقة التي يتقاطع عندها عمل اللساني والناقد ، ثم يتجاوزها كل منهما ماضياً إلى غايته ، إنها منطقة الوصف والتشخيص ، وسنعود إلى هذه القضية بفضل بيان في فقرة قادمة . وحسبنا هنا أن نشير إلى سعة ماصدقات مفهوم (الأسلوب) في البحث اللساني ، فهو إذا أضيف إلى فرد كان أسلوباً فردياً ، وإذا أضيف إلى فئة من فئات المجتمع كان أسلوباً فئوياً ، وإذا أضيف إلى عصر بعينه كان أسلوباً مميزاً لحقبة من حقب تاريخ اللغة ، وإذا أضيف إلى جنس من أجناس القول كان أسلوباً نثرياً أو شعرياً أو قصصياً أو مسرحياً ، وإذا أضيف إلى الواسطة الناقلة كان أسلوباً صحفياً أو إذاعياً أو مكتوبياً أو مقروءاً . وإن القارئ لواجد في هذا العرض المختصر أمرين : سعة ماصدقات المفهوم عند اللساني وبالقياس إليه عند الناقد ، وتقاطع الاهتمامات بين اللساني والناقد على اختلاف الوسائل والغايات بينهما .

ويمكن أن نتلمس مجال المعالجة الإحصائية بين تعريفين شهيرين من تعاريف (الأسلوب) .

الأول : تعريف يحد الأسلوب بأنه مفارقة departure (أو انحراف deviation)[١٤] عن أنموذج آخر من القول ينظر إليه على أنه معيار norm. وبالمقارنة بينهما يقع التمييز بين (النص المفارق) و (النص ـ النمط) . ويشترط لجواز المقارنة تماثل المقام بينهما .

والثاني : تعريف يحد الأسلوب بأنه اختيار Choice أو انتقاء Selection يقوم به المنشيء لسمات لغوية معينة من بين قائمة الاحتمالات المتاحة في اللغة .

إن هذين التعريفين ـ وإن كان لهما من طابع البساطة ما يكاد يبلغ مبلغ البداهة ـ يثيران من الإشكالات النظرية أو المنهجية أكثر مما يحلان ، فأولهما يقتضي معرفة بخصائص التعبير الأصيل (أو النمطي) (أو المعتاد) ليكون في الامكان قياس التعبير المعدول deviant إليه . وهو أمر لا يمكن أن يكون موضع اتفاق أو إجتماع ، كما أن السبيل إليه صعبة متوعرة المسالك . وثانيهما يلزمنا بمعرفة قائمة الأبدال المتاحة ، تلك التي يُعمِل المنشيء فيها فكره بالاختيار والاستبعاد . والأسئلة التي يطرحها هذا التعريف كثيرة متشعبة ، لعل من أهمها : هل لمثل هذه القائمة وجود بالفعل ؟ وهل من الميسور التوصل إلى صياغتها ولو على وجه التقريب ؟ . ثم ماذا عن طبيعة هذا الاختيار : أتراه يتم من المنشيء عن وعي وقصد ؟ أم أنه يتم بطريقة جبرية لا سيطرة حقيقية عليها للمنشيء ؟[١٥]

---

(١٤) انظر مناقشة بارت لهذا المفهوم في المرجع السابق ذكره P. 7 وأيضاً نقد تسفيتان تودورف في دراسة له بعنوان :

"The Place of Style in the Structure of the Text", in Literary style : A Symposium" Op. Cit, PP. 30-1.

(١٥) ثمة دراستان هامتان في مقولة (الاختيار) هما :

-Louis T. Milic, "Rhetorical Choice and stylistic option", in literarry Style, Op. cit, PP. 77-88.

-Jane R. Walpole, "Style as Option" in Callege Composition and Communication", Vol. XXXI, No. 2, 1980, PP. 205-212.

بيد أن من المثير حقاً أن هذه الإشكالات هي التي تفتح الباب لتدخل المعالجة الإحصائية للأسلوب على نحو يمكن أن يفيد في تحرير كثير من التصورات النظرية والإجراءات البحثية . وهو ما سيعرض له هذا البحث فيما بعد . ونبادر هنا إلى تأكيد أن ما بين التعريفين من وجوه التكامل هو أوسع من وجوه الاختلاف أو التناقض . ويرجح التعريف الثاني نظيره من الوجهة العملية ـ فيما نرى ـ لأمور ، منها أولاً : أن الاختيار أمر تصدقه تجربة الأدباء فيما يكتبون . وثانياً : لأن القول بأن الأسلوب هو تعبير معدول عن أصل معتاد يمكن أن يؤدي إلى القول بأن كل تعبير جاء على الأصل دون عدول هو خلو من الجمال . وليس ذلك صحيحاً على إطلاقه . وثالثاً : لأن الانحراف عن النمط ومفارقته يمكن أن يعد شكلاً من أشكال الاختيار ومحصلة له . ورابعاً : لأن مفهوم الاختيار يفتح المجال لتجميع مفردات الظاهرة الأسلوبية وضم شتاتها في منظومة بحثية واحدة ، ذلك أن الاختيار امر يفترض أن يقوم به المنشيء على كافة مستويات التواصل بدرجات متفارقة . ومن ثم فهو ليس محض اختيار لغوي وحسب ، بل هو محكوم من جهة بامكانات المقال ، ومن جهة أخرى بمقتضيات المقام Context of situation . وتشمل مقتضيات المقام عوامل كثيرة ، منها مصدر الخطاب ، والمقصود بالخطاب ، وموضوعه ، والوسيلة المعتمدة في الإبلاغ ، وجنس الخطاب ، والعلاقة بين مصدر الخطاب والمقصود به ، والحضور الذهني أو العيني للمخاطب ، والمسرح الذي تجري عليه وقائع الخطاب ، وغير ذلك كثير مما سنعرض له في حينه .

وأياً ما كان المفهوم الذي يعتمد أساساً للتحليل ، فثمة أمران نحسبهما موضع اتفاق بين الدارسين :

أولهما : أن الأسلوب مفهوم احتمالي في جوهره . وهو بهذه الصفة مستحق لأن يكون موضوعاً للمعالجة الإحصائية إذا شئنا إحكام الوصف والتشخيص .

وثانيهما : أن الأسلوب بماصدقاته المختلفة لا يمكن تحليله تحليلاً شافياً إلا في ضوء التحليل الشامل للغة المعنية ، ذلك أن هذا التحليل الشامل هو بمثابة تحديد لخلفية الصورة (أو الأرضية) The background التي تبرز بالقياس إليها الشكل The foreground، فلا بد من قياس المتنوع إلى المتجانس ، والخاص إلى العام ، يقول هاليداي Halliday : (إذا كان لعالم اللسان أن يأمل في الإسهام في تحليل الأدب الإنجليزي ، فإن عليه أولاً أن ينجز وصفاً شاملاً لإنجليزية العصر على كل المستويات)[١٦] .

وإذا كان الوصف الشامل للغة هو الأساس المعتبر لفحص الظاهرة الأسلوبية فإن التشخيص الإحصائي للأسلوب لا يمكن أن يستغني فيه أو به عن التشخيص الإحصائي لمباني اللغة ، وذلك في إطار الظاهرة المدروسة على أقل

(١٦) M-A. K. Halliday, "The Linguistic Study of Literary Texts", Proceedings of the Ninth International Congress of Linguists, ed. Huracede Lunt, The Hangue, 1964, P. 302.

تقدير . ومن هنا تنشأ علاقة وثيقة بين اللسانيات الإحصائية والأسلوبيات الإحصائية ، بحيث تتولى الأولى بيان الخصائص المشتركة في الاستعمالات اللغوية وتقوم الأخرى بالدراسة الدالة للخصوصيات والفروق . أما حين يتعذر وجود الوصف أو الإحصاء الشامل ـ كما هو الحال في العربية ـ فإن قصارانا أن نقيس انحرافاً إلى انحراف ، أو اختيارا الى اختيار . وسبيلنا إلى ذلك هي المقارنة بين الخصائص الأسلوبيةلأكثر من نص عند منشيء واحد ، أو عند أكثر من منشيء ، أو في نوع بعينه من النصوص عند عدد من المنشئين ، أو في جزء من أجزاء نص بعينه إلى غيره من أجزاء النص ، أو في مدونة كاملة .

٢ ـ مبحث الإجــــراء

٢ ـ ١ ـ المتغير الأسلوبي والخاصية الأسلوبية :

٢ ـ ١ ـ ١ ـ تعريف : تعني بالمتغيرات الأسلوبية Stylistic Variables مجموعة السمات اللغوية (بالمفهوم الأوسع لهذا المصطلح) ، التي يعمل فيها المنشيء بالاختيار أو الاستبعاد ، وبالتكثيف أو الخلخلة ، وباتباع طرق مختلفة في التوزيع ليشكـل بها النص ، وحيئـنـذ تصبح المتغيـرات الأسلوبية خصـائص مميزة Stylistic features أو مـوائز Dis Criminators، ومن ثم ينبغي التمييـز بين مفهـوم المتغير الأسلوبي والخـاصية الأسلوبيـة ، من حيث إن المتغيرات الأسلوبية هي مادة غفل متاحة من جهة الإمكان العقلي على الأقل أمام جميع المنشئين ، ليعمل فيها كل منهم بما سبق بيانه من طرق لتكون في النص خصائص أسلوبية . وإذن يكون المتغير خاصية أسلوبية بالقوة ، تتحول في النص الى خاصية أسلوبية بالفعل .

٢ ـ ١ ـ ٢ ـ أنواع المتغيرات الأسلوبية

المدخل الأساسي لتصنيف المتغيرات الأسلوبية هو الواسطة الناقلة المستخدمة في الرسالة اللغوية (أو النص) ، فللإلقاء والأداء الشفهي أسلوبيات تفارق أسلوبيات النص المسطر على الأوراق . ويمكن تصنيف المتغيرات الأسلوبية إجرائياً وتبعاً لذلك إلى متغيرات شكلية وصوتية وصرفية وتركيبية ودلالية . ونود هنا أن نورد ملاحظ ثلاثة :

أولها : أن المتغيرات الشكلية ينصرف معظمها الى النص المدون ، وتعالج الصورة الطباعية أو التدوينية التي يظهر بها النص على الورق ، ومظاهر التشكيل الجمالي للحروف بما هي كم فيزيقي يدرك بالبصر . ولا ينفي ذلك أن يكون لهذه التشكيلات الجمالية أبعاد أخرى على المستوى الصوتي أو الصرفي أو التركيبي أو الدلالي .

ثانيها : أن المتغيرات الأسلوبية بمختلف أنواعها يمكن اعتبارها على مستويين : مستوى الجملة في ما نطلق عليه مصطلح (نحو الجملة) Sentence Grammer ومستوى النص في ما اصطلح على تسميته (نحو النص)[١٧] . Text Grammar.

(١٧) لبيان المقصود من هذين المصطلحين انظر :

Teun A. Von Dijk, "Some Aspects of Text Grammar : A Study in Theoritical Linguistics and Poetics", Mouton, The Hague, 1972, PP. 10-12.

-Wilbur Pickering, "A Frame Work for Discourse Analysis", Summer Institute of Linguistics, Publication No. 64, 1980, P. 5

ثالثها : أن ما ذكر من أنواع المتغيرات هنا إنما ذكر على سبيل التمثيل لا على جهة الاستقصاء والحصر . وقد سوغ ذكرها أنها من أكثر المتغيرات سيرورة في البحث الأسلوبي ، وهي أطوعها للمعالجة الإحصائية ، وفي ما يلي قائمة بالمتغيرات الأسلوبية المختارة :

أولاً : من المتغيرات الشكلية :

(١) الشكليات التي تميز الشعر من النثر (قسمة البيت إلى شطرين) .

(٢) توزيع الأبيات (الأسطر) على الصفحة .

(٣) الأشكال الهندسية البديعية .

(٤) نظام الفراغات على الصفحة .

(٥) فنون البديع القائمة على التصحيف والتحريف .

(٦) طول الكلمة (مقيسا بعدد الحروف) .

(٧) طول الجملة (مقيسا بعدد الكلمات بحسبان الكلمة كما فيزيقيا متصلا مسبوقاً وملحوقاً بفراغ)[١٨] .

(٨) أنواع من الجناس (المركب والمتشابه) .

(٩) علامات الترقيم[١٩] .

ثانياً : من المتغيرات الصوتية :

(١) التوزيع النسبي لفئات الفونيمات[٢٠] .

(٢) أنواع المقاطع (المفتوحة / المغلقة)[٢١] .

(٣) التشاكل المقطعي isosyllabism[٢٢] .

(٤) الكلمات الموحية onomatopoetic.

---

(١٨) هذا المعيار لتحديد الكلمة هو المعيار المعترف به إحصائياً بالنسبة للنصوص المدونة . وقد عول عليه كاتب هذا البحث في دراسة لخاصية تنوع المفردات (انظر حاشية رقم ٢٤) . وأيضاً :

-Jan Helbich, **"Statistical Methods on Evoluating Words for Indexing Purposes"** in Prague Studies in Mathematical Linguistics Academia, Prague, 1972, No. 4, P. 66.

(١٩) علامات الترقيم هي أحد المتغيرات التي يمكن استخدامها في قياس أسلوبية طول الجملة ونوعها . انظر :

George A. Miller, **Language and Communication"**, New york, Torento, London, 1963, PP. 126-7.

(٢٠) قامت بعض الباحثات باستخدام مقياس كاي ٢ في دراسة توزيع فونيمات الصوائت في خمس معلقات جاهلية انظر :

Mary C. Bateson, **"Stuctural Continuity in Poetry"**, Mouton. 1970, PP. 60-67.

(٢١) يرى بعض العلماء ارتباطاً بين حسن الجرس في الشعر وشيوع المقاطع المفتوحة انظر : إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر ، القاهرة ، الانجلو المصرية ، ١٩٦٥ ، ط ٣ ، ص ٣٢٥ - ٣٢٧ .

(٢٢) عن التشاكل المقطعي انظر :

A. W. DeGroot, **"Phonetics in its Relation to Aesthetics"**, **in Manual of Phonetics**, ed. B. Malemberg, Amestrdam, 1968, P. 538.

(٥) أنساق نبر الكلمات Word-Streess (أو أشكال الوزن العروضي) .

(٦) قافية الصدارة alliteration .

(٧) الجناس بأنواعه (التام والناقص) .

(٨) السجع .

(٩) نظم التقفية ومنها :

(أ) القافية التامة True rhyme (ويراعى فيها التطابق التام) .

(ب) لزوم ما لا يلزم .

(ج) القافية البصرية eye rhyme (وتقوم على التطابق في الرسم الكتابي دون النطق) .

(د) القافية الناقصة half rhyme (وتقوم على التشابه لا التطابق في النطق ، ومنها ما يسمى بمصطلح العروضيين الإكفاء والإجازة والسناد بأنواعه)[٢٣] .

(هـ) القافية السمعية ear rhyme (ويراعى فيها تطابق الانطباع السمعي دون الرسم الكتابي) .

(١٠) القلب .

(١١) تشاكل البدايات anaphora .

(١٢) التشريع .

(١٣) طول الكلمة (مقيسا بعدد المقاطع أو الفونيمات) .

(١٤) تماثل الصوائت assonance .

(١٥) تماثل الصوامت Consonance .

(١٦) انسجام الصوائت Vowel harmony .

(١٧) حسن الوقع euphony . (وترتبط بالشيوع النسبي لفئات معينة من الأصوات وهي الصوائت ، والصوامت الرنانة resonants الأنفية والجانبية والترددية وأنصاف الصوائب في مقابل الفئات الأخرى : الاحتباسيات والاحتكاكيات . كذلك يرتبط حسن الوقع ـ كما أسلفنا بالشيوع النسبي للمقاطع المفتوحة في مقابل المقاطع المغلقة) .

(١٨) تقابل السمات الفارقة distinctive features .

(١٩) التخالف الصوتي dissonance .

ثالثاً : من المتغيرات الصرفية :

(١) أقسام الكلم ؛ (الاسم ، الفعل ، الصفة ، الظرف .

---

(٢٣) عولجت ظاهرة القافية التامة والناقصة باستفاضة في :

س. موريه : الشعر العربي الحديث ١٨٠٠ ـ ١٩٧٠ : تطور أشكاله وموضوعاته بتأثير الأدب الغربي ، ترجمة شفيع السيد وسعد مصلوح ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص ١٨٥ ـ ٢٢٦ .

(٢) الصيغ الصرفية . (الأفعال ، الجموع ، المصادر ، المشتقات) .

(٣) مبتكرات الصيغ .

رابعاً : من المتغيرات التركيبية :

(١) المركبات النحوية : (المركب الجري / الظرفي / النعتي / البدلي / العطفي) .

(٢) أنواع الجمل : (اسمية / فعلية ، بسيطة / مركبة / معقدة ، إنشائية / ، خبرية) .

(٣) التنافر والتعقيد التركيبي .

(٤) جميع مباحث علم المعاني في البلاغة العربية .

(٥) المجاز بالحذف (من مباحث علم البيان) .

(٦) البعد التركيبي من المقابلة .

(٧) البعد التركيبي من التشبيه والاستعارة والمجاز المرسل (بالمصطلح البلاغي) .

(٨) فنون بلاغية من مباحث علم البيان والبديع مثل :

(التفويف ، والعكس ، واللف والنشر ، والابتداء والتخلص والانتهاء ، والجمع والتفريق والتقسيم ، ورد الأعجاز على الصدور ، وغير ذلك)

(٩) الصحة النحوية grammaticality.

(١٠) الجواز النحوي acceptability.

خامساً : من المتغيرات الدلالية :

(١) الوحدات المعجمية lexemes.

(٢) السجل المعجمي register.

(٣) المفردات القديمة archaism.

(٤) المفردات الدخيلة .

(٥) التركيز والتشتت في توزيع المفردات .

(٦) المولد .

(٧) تنوع المفردات[٢٤] .

(٨) الثروة اللفظية[٢٥] .

---

(٢٤) انظر : سعد مصلوح : قياس خاصية تنوع المفردات في الأسلوب . دراسة تطبيقية على نماذج من كتابات العقاد والرافعي وطه حسين ، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية ، جامعة الملك عبد العزيز ، مج ١ ، ١٩٨١ ، ص ١٤٩ - ١٦٩ .

(٢٥) صاغ المعادلة الخاصة بقياس الثروة اللفظية بيرجيرو . وانظر نقداً لهذه المعادلة وتطبيقاتها في :

Marie Tesitelova **"On The SO-Calld Vocabulary Richness", in Prague Studies in Mathematical Linguistics,** Academia, Prague, 1972, No. 3, PP. 104-115.

(٩) البعد الدلالي للاستعارة (بأنواعها : التجريدية / الإحيائية animation التشخيصية Personification) .

(١٠) البعد الدلالي للتشبيه والمجاز المرسل والكناية .

(١١) فنون بديعة في التراث البلاغي مثل : الطباق ، والتدبيج ، ومراعاة النظير ، وإيهام التناسب ، والإرصاد ، والمشاكلة ، والرجوع ، والتورية ، والاستخدام ، والتجريد ، والمبالغة ، والتبليغ ، والإغراق والغلو ، والتفويف والعكس . . الخ) .

سادسا : من متغيرات ما فوق الجملة[٢٦]

(١) طول الفقرات وتوزيعها .

(٢) هرمية البنية المنطقية للنص .

(٣) انفتاح النص أو انغلاقه[٢٧].

(٤) هرمية البنية النحوية : (الكلمة ← المركب ← العبارة ← الجملة ← الفقرة) .

(٥) الربط بين الجمل .

(٦) التوافق والتخالف في مباني الجمل .

(٧) وسائل السبك Cohesion (صوتية/ حرفية/ تركيبية/ معجمية) .

(٨) المعلومات المقدمة given informqtion[٢٨].

(٩) معدل ورود المعلومات rate of information[٢٨].

(١٠) الالتفات (على مستوى النص) pronominalisation .

تلكم الأنواع من المتغيرات الأسلوبية ذكرت هنا لا قصدا إلى الحصر . ويمكن القول ـ على وجه الإجمال ـ إن أي خاصية لغوية مائزة distinctive أو فائضة redundant[٢٩] هي متغير أسلوبي بالفعل وخاصية أسلوبية بالقوة . وهي بذلك قابلة لأن تكون موضوعا للمعالجة الإحصائية الأسلوبية بهدف التشخيص الأسلوبي للنص ، أو للكشف عن أنواع التشكيل الأسلوبي الذي خضعت له من قبل المنشىء .

---

(٢٦) ثمة خلاف في تحديد الوحدة الحاملة للأسلوب : أهي الجملة أم ما فوق الجملة . ومن القائلين بالأول ريتشاردز وأوهمان انظر :
R. Ohmann, "**Literature as Sentences**" in **Essays on the Language of Literature**, eds. S. Chatman and S. Levin, Boston. 1967, PP. 232-3.

على حين يرى أ. هيل اللسانيات تختص بمستوى الجملة وتنفرد الأسلوبيات بمستوى ما فوق الجملة . انظر :
A. Hill, "**Essays in Literary Analysis**", Austin, Texas, 1965, P. 69.

(٢٧) انفتاح النص أو انغلاقه ، إحدى الخصائص الأسلوبية التي يعول عليها بعض الباحثين لتشخيص الفرق ما بين لغة النساء ولغة الرجال . انظر :
Thomas J. Farrell, "**The Female and Male Modes of Rhetoric**", College English, Vol. 40, No.-8, *April, 1979*, PP. 909-910.

(٢٨) W. Longacre, **Op. Cit**, PP. 71-74 and 79-81.

(٢٩) للتمييز بين الخواص المائزة والفائضة ودورهما في التشكيل الأسلوبي انظر :
A. W. Degroot, OP. Cit, PP. 537-8.

٢ ـ ١ ـ ٣ : المتغيرات الأسلوبية والطراز النحوي :

تشتمل قائمة المتغيرات الأسلوبية على تصورات ومصطلحات لسانية ، وعلى مفاهيم يكثر استخدامها في البلاغة المدرسية . ومعلوم أن التعاريف التي تساق لأكثر هذه التصورات ، وتوظيف ماهو معروف منها في التحليل الأسلوبي إنما يختلف باختلاف المدارس والاتجاهات اللسانية ، فكثير منها ليس موضع اتفاق وإجماع ؛ ضرورة أن هذه المدارس يخالف بعضها عن بعض في المنطلق الفلسفي والغاية ومناهج التحليل وإجراءاته .

وتطرح هذه الحقيقة البدهية على القائم بالتحليل الأسلوبي ضرورة تحديد الطراز النحوي grammatical model الذي يعتمده أساسا لتحديد مفهوماته ، ومن ثم لتحديد المنهج وإجراءات التحليل وطرق القياس . وقد جهل فضيلة هذا الأمر ـ على أهميته البالغة ـ كثير من الذين عالجوا بعض مسائل تاريخ العربية أو بنيتها أو ظواهرها الأسلوبية ، حين استخدموا هذه المصطلحات ملقين إياها مُلْقى المسلمات ، على توهم وضوح مفاهيمها واستقرارها وثباتها . وليس هذا الظن صوابا بإطلاق . ولا يتسع المجال هنا لتتبع أشهر الطرز النحوية واستعراض علاقتها بالدراسة الأسلوبية بعامة والإحصائية منها بخاصة . بيد أننا هنا نعيد ما سبق أن أشرنا إليه في موضع آخر من أن (الطرز النحوية جميعها ـ بما في ذلك الطراز التقليدي ـ كلها قابل من حيث المبدأ لأن تشكل أساسا منهجيا للبحث الأسلوبي)[٣٠]. هذا وإن كان من الطبيعي أن تتفاوت الطرز في مدى كفاءتها ووفائها بمتطلبات الوصف الدقيق للخصائص الأسلوبية .

٢ ـ ٢ : أسلوبيات المقال :

يقصد بأسلوبيات المقال التشكيل الأسلوبي للمتغيرات اللغوية Stylization أو بعبارة أخرى ـ تنظيم السمات اللغوية في النص على نحو تتحول به من مجرد كونها بنودا في قائمة المتغيزات إلى خصائص أسلوبية مائزة للنص .

وينبغي هنا إيراد عدد من الملاحظ الهامة :

<u>الأول</u> : أن قائمة المتغيرات الأسلوبية التي سبق إيرادها هي محصلة رصد وتأمل لعدد غير قليل من الدراسات الأسلوبية . وقد يكتسب بعضها الصفة الجامعة Universal بحيث يمكن أن تصادفه في اللغات على اختلافها ، وقد يكون لبعضها طابع من الخصوصية يجعله وقفا على لغة بعينها . كما أن أهمية بعضها قد يتفاوت من لغة إلى لغة بحسب خصائص بنيتها وقوانينها .

<u>الثاني</u> : أن هذه القائمة ليست جامعة ولا مانعة ، ولا يبعد أن يجتهد مجتهد فيضيف إليها ، أو ينقص منها ، أو يعدل من العلاقات بين وحداتها بما يؤديه إليه تأمله للنصوص واجتهاده في رصد خصائصها .

<u>الثالث</u> : من المحال أن يستخدم منشىء واحد لا في نص واحد ولا في مجموعة من النصوص جميع المتغيرات الأسلوبية التي سبق ذكرها . وإنما يتحقق التشكيل الأسلوبي باختيار عدد منها يتم باستخدامه تمايز الأساليب[٣١].

---

(٣٠) سعد مصلوح . الأسلوب . . ، ص ٣٢ ـ ٣٣ .

(٣١) هذا خلافاً لما يتصوره بعض الباحثين من إمكان ذلك بل وجوبه . يقول صلاح فضل : (لا يمكن الوصول إلى نتائج هامة دون حصر شامل لكل الخواص في جملة النص) (علم الأسلوب ، ص ٣٠٦) . وانظر رداً على هذه المقولة في :
سعد مصلوح · دراسات نقدية في اللسانيات العربية المعاصرة ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٨٩م ، ص ٦٥ ـ ٦٦ .

الرابع : إن التشكيل الأسلوبي عملية مركبة تتم في نسيج متشابك معقد على جميع المستويات الصوتية والصرفية والتركيبية والمعجمية في آن معاً .

الخامس : أن تعقد عملية التشكيل الأسلوبي يقابلها صعوبة مماثلة من جانب الباحث عند محاولته فك تداخلات النسيج . وتشخيص الخصائص المائزة ، واستكناه دلالاتها .

السادس : أن المستويات السابق ذكرها تتفاوت في مدى طواعيتها للتشكيل الأسلوبي . وتحتل المتغيرات الدلالية قمة القابلية للتشكيل ، يليها المتغيرات الصرفية والتركيبية . أما المتغيرات الصوتية فهي أكثر خضوعا لنظام اللغة ، ومن هنا تبدو مهمة الشاعر في التشكيل الأسلوبي صعبة بالقياس إلى غيره من المنشئين ، وبها يتفاوت الشعراء في قدراتهم وخصائص شاعريتهم .

السابع : أن القول بقيام نص ما على متغيرات أسلوبية معينة لا ينفي إمكان وقوع أبدالها أو نقائضها من المتغيرات في النص نفسه ، أو في غيره من نصوص المنشىء الواحد . وإنما الفيصل في تقويم دورها في التشكيل الأسلوبي هو لدرجة الشيوع وطرق التوزيع .

الثامن : أن الاختيار ، والشيوع ، والتوزيع ، هي العوامل الثلاثة التي تحدد متضافرةً التشكيل النهائي لأسلوب النص . وبها تتحقق مفارقة النص للمعيار المعتاد .

هذه الملاحظ الثمانية هي أهم ما ينبغي اعتباره عند النظر في شأن المتغيرات الأسلوبية والطريقة التي تتحول بها من مجرد قائمة صماء إلى خصائص أسلوبية فاعلة في التشكيل الأسلوبي للنص . بقي أن نقرر أن جميع ما سبق إيراده مما هو واقع تحت تسمية المتغيرات الأسلوبية إنما يمثل القسيم الأول في عملية التشكيل الأسلوبي ، ونعني به القسيم المقالي . وهذه الحقيقة تفتتح باب القول في أمر القسيم الثاني وهو القسيم المقامي . وكلا القسيمين يرتبط بالآخر أوثق ارتباط في هذا الصدد . ومن ثم كان لابد أن نتخذ من مفهوم المقام ومحدداته context parameters موضوعا للفقرة التالية .

٢ - ٣ : أسلوبيات المقام :

من جوامع الكلم التي تتردد في كتب السلف مقولتان ، أولاهما : (لكل مقام مقال) والأخرى : (البلاغة هي موافقة الكلام لمقتضى الحال) . وقد اكتسبت هاتان المقولتان في القديم والحديث طابعا تعليميا . ولكنهما تقرران من الوجهة العلمية مبدأ تطبق على صحته جميع الاتجاهات والمدارس في العلوم اللسانية خاصة والإنسانية عامة ، ألا وهو وجود علاقة لا يمكن تجاوزها - تنظيرا أو تحليلا - بين المقال وما يكتنفه من ظروف ومواقف وسياق اجتماعي . ولأمر ما جعل المفسرون والأصوليون من المعرفة بأسباب النزول أصلا من أصول تفسير القرآن الكريم واستنباط الأحكام لا يقومان إلا به . وما المعرفة بأسباب النزول إلا استحياء للمقام لا مندوحة عنه لفهم المقال[٣٢].

---

(٣٢) انظر : السيوطي : المرجع السابق ذكره ، ج ١ / ص ١٠٧ - ١١٠ . وقد ناقش هذه المسألة أيضاً : تمام حسان . انظر : العربية معناها ومبناها ، الهيئة المصرية للكاتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٣٤٨ - ٣٥٠ .

وإذا كان تحليل المقال في سياقه المقامي واجبا في اللسانيات الاجتماعية والتاريخية والنفسانية فإنه في مجال التحليل الأسلوبي أوجب . ولقد سبقت الإشارة إلى أن الاختيارات الأسلوبية لا تحكمها ظواهر اللغة الخالصة فحسب ، بل تحكمها كذلك محددات المقام . ونعني بها الخصائص التي تحدد الظرف الاجتماعي ـ المادي الذي سيق في إطاره الكلام ؛ سواء أكان منطوقا أم مكتوبا Socio-physical envelope .

والعلاقة بين المقام والمقال تسير في اتجاهين على نحو مستمر ، فكما أن المقال دليل على المقام ، فكذلك نجد المعرفة بالمقام جوهرية في فهم المقال . وتظل العلاقة الجَدْلِيَّة قائمة بينهما طوال عملية الممارسة اللغوية ، (فحين يتكلم زيد إلى عمرو يكون عمرو متهيئا لاستنباط الطريقة التي صنف بها زيد مقام الكلام ، أي أنه ـ على سبيل المثال ـ سيلحظ نظرة زيد إلى مستوى الألفة بينهما أو إلى ما ألزم زيد نفسه باتباعه أثناء الكلام من التأدب اللائق . وسيؤدي ذلك إلى تأثير مرتد ، أي أن الأفكار التي كونها زيد حول ما استنبطه عمرو من أفكار عنه تؤثر على نظرة عمرو إليه ، كما تؤثر أيضا على تصنيفه هو ـ أي زيد ـ لمقام الكلام مع عمرو ، ومن ثم تؤثر على أسلوبه[٣٣] .

وهكذا يتبين لنا أن العلاقة التي تحكم المقام والمقال ـ في الموقف الحي ـ ليست بالبساطة التي تبدو بها بادي النظر .

على أن ثمة جانبا آخر يزيد من تعقد تلك العلاقة ، ذلك أن ثمة فنونا من القول والكتابة كالمعاريض والتوبيخ والسخرية وغيرها تعتمد في تشكلاتها الأسلوبية وفي بلوغ غايتها من التأثير والإبلاغ على المفارقة القائمة بين أجزاء المقال[٣٤]، أو المفارقة القائمة بين المقال والمقام[٣٥]. وما ينشأ عن هذه المفارقات من خذلان للتوقع يتحقق به التأثير الأسلوبي المراد . ومن ثم فإن العلاقة بينهما في هذا الصدد يراد لها أن تخالف قصدا عن المألوف والمتوقع ، على نحو لا يتحقق الغرض من المقال إلا به ، وهو نمط من العلاقة العكسية غير المباشرة لا يقل أهمية في هذا المجال عن العلاقة الإيجابية المباشرة بين المقولتين .

وبالنظر إلى ما تتمتع به فكرة المقام من أهمية محورية في عملية التشكيل الأسلوبي ـ على النحو الذي سلف بيانه ـ وبالنظر إلى أن اعتبار محددات المقام وإدخالها في المعادلة الإحصائية لتشخيص الأساليب يواجه الأسلوبيات الإحصائية بتحدٍّ حقيقي يندر مثيله في التشخيص الإحصائي لأسلوبيات المقال ـ نقول : نظرا لما تقدم كان لزاما أن نعرض بالبيان لهذه المحددات وللكيفية التي يمكن أن تكون بها موضوعا للمعالجة الإحصائية الأسلوبية .

ثمة محاولات مختلفة بذلها مشتغلون بعلوم اللسان وبالدراسات الاجتماعية لوضع صيغة جامعة لمحددات المقام تكون لها القابلية للتطبيق عند تصنيف المقامات والمقالات في مختلف اللغات . ولا شك أن الفروق الثقافية بين الجماعات الكبرى والجماعات الصغرى واختلاف المقامات في تفاصيلها الدقيقة ذات التأثير المحتمل على تشكيل الأسلوب ـ كل أولئك يجعل مهمة وضع التصنيف الجامع لمحددات المقام أمرا لا ينقاد للباحثين في يسر . ومن ثم ، لا

---

(٣٣) N. Enkvist, Linguistic Stylistics, P. 63.

(٣٤) مثاله قوله تعالى : « فبشرهم بعذاب أليم » آل عمران : ٢١ (إذا ما قورن بقوله تعالى : « وبشر الصابرين » (البقرة : ١٥٥) .

(٣٥) مثاله قوله تعالى : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » (الدخان ٠ ٤٩) إذا ما قورن بقوله تعالى : « فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا » (النبأ ٣٠) .

وجود لصيغة نهائية أو مثالية من هذا النوع . وعلى من يستخدم أيا من هذه الصيغ المقترحة أن يعيد النظر فيها لاستيفاء ما يراه ناقصا ، واستبعاد العناصر غير ذات التأثير على الظاهرة موضوع الدراسة .

ولعل النموذج الذي اقترحه دافيد كريستال D.Crystal وديرك دافي D.Davy من أكثر نماذج محددات المقام بساطة وشمولا وقابلية للتطبيق في مجال تشخيص الأساليب ، ويتخذ هذا النموذج الشكل التالي[٣٦] :

(أ) محددات التفرد individuality
- اللهجة
- العصر
(ب) محددات الخطاب
- واسطة الاتصال medium
(كتابة ، كلام شفهي)
(واسطة بسيطة/ واسطة مركبة)
- المشاركة participation
- (أداء فردي ، حوار)
(مشاركة بسيطة/ مشاركة مركبة)
(ج) محددات المجال province
مثال : لغة العبادة ، الإعلان ، القانون . . . الخ .
(د) محددات الموقف الاجتماعي

وتتصل بالمكانة الاجتماعية النسبية للمشاركين في عملية الاتصال من حيث الرسمية ، والتأدب ، والقرابة ، وعلاقات العمل .

(هـ) المحددات الشكلية modality

وتشمل ما يوجد من فروق في صيغة الاتصال كالرسائل ، وبطاقات البريد ، والملاحظات والبرقيات ، والتقارير والمقالات العلمية ، والمتون الدراسية .

(و) العوارض الشخصية singularity

وتختلف عما يندرج تحت عوامل التفرد من جهة كونها عوارض مؤقتة وطارئة ويمكن استخدامها في التلاعب أو المناورة . ويتم إقحامها في الموقف لإحداث تقابل لغوي محدد (ومثالها أن يلوي أحدهم لسانه بصيغة لغوية يقلد بها الطبقة الراقية أو لكنة أعجمية) . أما عوامل التفرد فتمتاز بالدوام والثبات .

---

(٣٦) N. Enkvist, Op. Cit. PP. 60-61.

٢ ـ ٤ : التشكيل الأسلوبي وثلاثية المقام/ المعنى/ المقال :

عالج هذا البحث فيما مضى من فقرات جانب المتغيرات الأسلوبية المقالية ، وجانب محددات المقام ، مقترحا أحد النماذج التي أثبتت كفاءتها في هذا الصدد ، ونعني به نموذج كريستال ودافي على ما سبق بيانه .

بيد أن عملية التشكيل الأسلوبي لا يمكن حصرها في ثنائية المقال والمقام ، ذلك أن هذا الحصر إنما يغفل الضلع الثالث من مثلث التشكل الأسلوبي وهو جانب (المعنى) أو (المكون الدلالي) ، كما يغفل الإشارة إلى الآلية mechanism التي تتحول بها المعاني الى (نظم نحوية) ثم إلى (مبان نحوية) و (أحداث مقالية) وتتمثل تلك الآلية في وظائف اللغة Language Functions ، وقد تولى هاليداي تحديد دور (المكون الدلالي) و (وظائف اللغة) في تشكيل الخصائص المائزة للمقال ، وقدم صيغة لهذه العلاقة تستحق التوقف عندها بشيء من البيان[٣٧].

يميز هاليداي ما بين وظائف اللغة عند الطفل في مرحلة ما قبل المدرسة ، وما يطرأ على هذه الوظائف من تطور بنمو الطفل وانتقاله إلى مرحلة النضج . ويرى هاليداي أن الوظائف اللغوية عند الطفل مرتبطة بحاجاته ارتباطا مباشرا . ومن ثم نرى لديه شكلا لغويا واحدا يتكرر كلما أراد التعبير عن حاجة بعينها دون اعتبار للأبدال الأخرى المتاحة . وبذلك يمكن القول إن النظام اللغوي عند الطفل في طفولته الباكرة يتشكل من مجموعة من التنوعات المشروطة والمقيدة تقييدا مباشرا بالمواقف والمقامات ، أي أن ما يريد الطفل أن يعبر عنه هو الذي يحدد التركيب اللغوي تحديدا مباشرا .

وخلال المسار الذي يقطعه الطفل نحو النضوج تتوارى الوظائف المتعددة تدريجيا ليحل محلها نظام وظيفي هو أمعن في الرمزية والتجريد وإن كان أبسط في التركيب من سابقه . ويتشكل هذا النظام من ثلاث وظائف كبرى macrofunctions هي : الوظيفة التصورية ideational ، أو الوظيفة التعاملية interpersonal والوظيفة النصية textual .

يتمثل جوهر (الوظيفة التصورية) في التعبير عن التجربة وعما يتضمنه الموقف من تقويم للأحداث والأشخاص والأفكار ، ومن جوانب عاطفية تأثيرية . ويؤخذ من ذلك أن هذه الوظيفة معنية بالتعبير عن التجربة تعبيرا يشمل العمليات التي تجري داخل نفس الإنسان وخارجها ، أي يشمل الظواهر القائمة في العالم الخارجي وظواهر الوعي البشري ، كما يشمل العلاقات المنطقية التي يمكن استنباطها من هذه الظواهر .

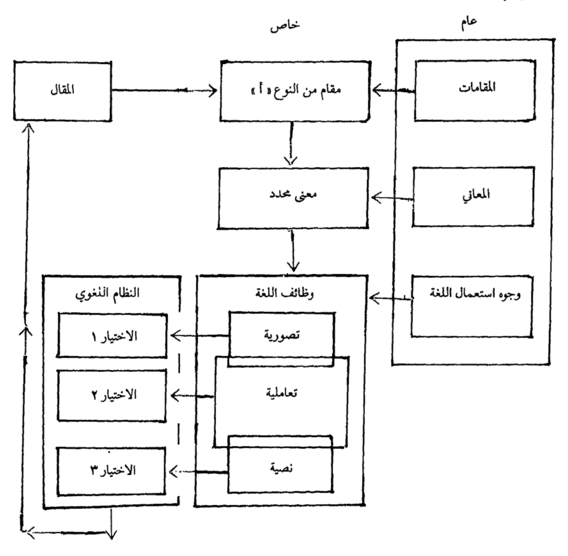
وتعبر (الوظيفة التعاملية) عن دور المتكلم في مقام الكلام ، وما يلزم به نفسه من قيم وأعراف في تعامله مع الآخرين . وهذه الوظيفة من وظائف اللغة هي التي تعين على تأسيس العلاقات الاجتماعية وترسخها ، وهي التي من خلالها تتحدد الفئات الاجتماعية ، وتتشكل وتتقوى شخصية الفرد ، إذ إن تمكينه من الاتصال بالآخرين والتعامل معهم يعينه على التعبير عن ذات نفسه وعلى تطويرها .

---

(٣٧) أخذنا هذا العرض المفصل للنظرية هاليداي عن :
roger T. Bell, "Sociolinguistics, Goals, Approaches, and Problems", London, 1976, PP. 84-7.

أما (الوظيفة النصية) فتختص ببناء الحدث اللغوي أي (المقال) ، وذلك باختيار الجمل المناسبة للمقام ، ولقوانين النحو ، ولتنظيم المحتوى بطريقة منطقية مترابطة تتسق مع عملية الاتصال في مجموعها .

وتتكامل هذه الوظائف الثلاث الكبرى لتقوم ، من خلال نظرية نحوية قائمة للغة معينة ، بإقامة علاقات مفصلية بين (المكون الدلالي) من جهة ، وكل من المكونين (الاجتماعي) و (اللغوي) من جهة أخرى . ويرى هاليداي أن (الدلالة) تمثل مستوى تركيبيا وسيطا بين أوجه الاستعمال الاجتماعية للغة والأشكال اللغوية ، أي أنه إذا غاب هذا العنصر الدلالي الحاسم فإن أي شكل لغوي يمكن أن يعبر به عن أي وجه من وجوه استعمال اللغة . ومن ثم تكون الوظائف الكبرى للغة - كما سبق البيان - آلية تتحول بها المعاني إلى (نظم نحوية) ، ثم في نهاية الأمر إلى (مبان نحوية) و (أحداث مقالية) . وفي الشكل التالي تمثيل للعلاقة بين العناصر المكونة لثلاثية التشكيل الأسلوبي : المقام والمعنى والمقال .



ونحاول الآن أن نلتمس في الشكل السابق توضيحا للآليات والعلاقات المتضمنة في عملية التشكيل الأسلوبي .
ولنبدأ قراءة الشكل من اليمين :

يبدأ الشكل في أقصى اليمين بما هو عام من مقامات ومعان واستعمالات للغة . ويعمد المتكلم أو المنشىء إلى هذا العامّ فيقوم بعزل عدد محدود من مجموع المقامات الممكنة (وقد اكتفى الرسم بالاشارة إلى مقام واحد منها على سبيل التمثيل وأطلق عليه تسمية المقام «أ») . ثم يقوم باختيار ما يناسب المقام المختار من المعاني ، وكذلك باختيار وجه واحد من وجوه الاستعمالات اللغوية الممكنة يناسب ما وقع عليه اختياره من مقام ومعنى . وبهذه الاختيارات الثلاثة تتحدد الوظائف اللغوية ودورها . ويدخل جميع ما وقع عليه اختيار المنشىء في دائرة ماهو « خاص » ، ثم إن كل وظيفة من الوظائف الثلاث تتطلب إجراء اختيارات معينة من مجموع النظام اللغوي للغة المعنية . ومن مجموع ذلك كله يتشكل المقال الذي يتم تشكيله وصياغته للتعبير عن مقام بعينه .

ونعود الآن إلى نموذج كريستال ودافي لنتعرف ـ من خلال استطلاع الشكل السابق ـ تلك العلاقة القائمة بينه وبين نموذج هاليداي . وحينئذ سيتبين لنا أن نموذج كريستال ودافي وما شاكله يحتل في شكل هاليداي المربع الأول مما هو « عامّ » ، وأن إعمال محدداته في تشكل مقام بعينه ومقال بعينه يحتل المربع الأول مما هو « خاص » . وأنه باستخدام كلا النموذجين تتكامل العناصر اللازمة لوصف عملية التشكيل الأسلوبي بعناصرها الثلاثة : المقام والمعنى والمقال .

بقيت كلمة أخيرة تتعلق بإعمال نموذج كريستال ودافي في تحديد المقامات ؛ فبعض أوصاف المقام قد تتلازم بحيث يمكن بالنص على وجود أحدها حجب أوصاف أخرى بطريق التضمن ، أو استبعاد أوصاف أخرى بطريق التنافي ، أي أن بعض الأوصاف قد يتضمن ـ أو قد ينفي ـ بالضرورة أوصافا أخرى . ويوجب هذا على الباحث أن يقوم بتنظيم محددات المقام بحيث يقتصر على المحددات الأساسية دون حشو ، وفضول . فلا يضيف إليها ماهو معلوم وجوده بالضرورة ، أو ماهو معلوم غيابه بالضرورة . هكذا يرتبط المقام بالمقال على نحو يتحدد فيه المقال بالمقام ، ويستكشف فيه المقام من خلال المقال[٣٨] . ولعل حاجتنا إلى هذين الأمرين جد ملحة لاسيما عند الدراسة الدلالية والأسلوبية للنصوص المدونة في تراثنا القديم .

٢ ـ ٥ : التشخيص الأسلوبي :

فرق ما بين التشكيل الأسلوبي Stylization ـ وهو ما سبق الحديث عنه ـ والتشخيص الأسلوبي Stylistic diagnosis الذي هو موضوع هذا المطلب هو أن الأول عمل تركيبي يقوم به المُنشىء ، أما الثاني فنشاط تحليلي يقوم به الباحث . وهدف الأول إنتاج النص أما هدف الثاني فهو الكشف عن الهوية الأسلوبية للنص . ومادة الأول هي المتغيرات الأسلوبية أما مادة الثاني فالتصورات والإجراءات المنهجية . وكما يقوم التشكيل الأسلوبي على محاور الاختيار والتوزيع والشيوع فلابد أن يقابل ذلك من جهة الباحث عمل يكشف به عن أجدر المتغيرات الأسلوبية بأن تكون

(٣٨) انظر نموذجاً لاستكشاف المقام من خلال المقال في :
Deborah Schiffin, **"Discovering the Context of an Utterance"**, Linguistics, Vol. 25. 1987, PP. 11-32.

خصائص أسلوبية مائزة للنص ، أي تلك التي يمكن أن توصف بأنها اختيارات للمنشىء ، وعن درجات شيوع هذه الاختيارات وأنماط توزيعها .

وإذا كانت تقنيات المعالجة الإحصائية من الكفاءة بحيث تعين الباحث على الكشف عن درجات الشيوع وأنماط التوزيع فإن القطع باختيارات معينة للمنشىء أمر هو من الصعوبة بمكان . وثمة حالات نادرة ـ بالنسبة لأدباء العربية ـ يصرح فيها المنشىء باختياره قولا أو كتابة . كما أن من الممكن في حالات أخرى الاستدلال بمسودات النصوص التي أعمل فيها المنشىء قلمه بالاستبقاء والاستبعاد(٣٩) . على أن الباحث في غيبة مسودات النصوص ـ وهو الظرف الغالب ـ لا يمكنه أن يعثر على دليل مباشر يحدد الخصائص المستبعدة ، علما بأن الاستبعاد له في ميزان التشخيص الأسلوبي ماللاستبقاء من أهمية . وإذن فليس أمام الباحث إلا طريق افتراض الفروض واختبارها على ما سيأتي بيانه .

ويهدف التشخيص الأسلوبي الإحصائي إلى تحقيق غايات ثلاث تتدرج هرميا على النحو التالي :

(١) الوصف الإحصائي الأسلوبي للنص للكشف عن الخصائص الأسلوبية المائزة فيه .
(٢) التحليل الإحصائي للنص .
(٣) الحكم التقويمي ، أو ما يمكن الاصطلاح على تسميته (نعوت الأسلوب) .

وترجع خاصية التدرج والهرمية بين هذه الغايات إلى أن الوصف أساس لا غنى عنه في التحليل ، وأن كليهما أساس لا غنى عنه في الحكم والتقويم . ولدارس الأسلوب دراسة إحصائية أن يستبعد الغاية التقويمية بالكلية وأن يقنع في عمله بالوصف والتحليل ، إما لأن الحكم والتقويم خارجان عن مهمة البحث (كما في البحوث الهادفة إلى الكشف عن المؤلف المجهول(٤٠) ، أو ترجيح نسبة نص ما إلى منشىء بعينه من بين عدد من الاحتمالات البديلة) . وإما لأن الوصف والتحليل قد لا يؤديان إلى حكم تقويمي يطمئن الباحث إليه . ويحصل من ذلك أن الغايتين الأوليين متلازمتان غالبا . أما الغاية الثالثة فغير لازمة على وجه الضرورة . أما الأبحاث التي تتغيا تمييز نعوت الأساليب فلا مندوحة لها من التوغل في مجال الحكم التقويمي شريطة أن تسلم مقدمات الوصف والتحليل إلى حكم موضوعي منوط بأوصاف ظاهرة منضبطة .

وتنتظم إجراءات التشخيص الأسلوبي في مراحل ثلاث :

الأولى : مرحلة الفرض وفيها يحدد الباحث المتغيرات الأسلوبية التي يرجح مسئوليتها عن التميز الأسلوبي للنص المدروس اعتمادا على خبرته واطلاعه على ما سبق من دراسات ، أو على وضع استجابات عدد من المتلقين موضع الاختبار .

---

(٣٩) انظر :

ـ مصطفى سويف : الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٩ ، ص ٢٥١ ـ ٢٧٧ .

ـ حسين عيسى : الابداع في الفن والعلم ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٧٩م ، ص ١٢٨ ـ ١٣٢ .

(٤٠) انظر :

سعد مصلوح : تحقيق نسبة النص إلى المؤلف : دراسة أسلوبية إحصائية في الثابت والمنسوب من شعر شوقي ، مجلة فصول ، حج ٣ ، ع ١ ، ١٩٨٢ ، ص ١٢٨ ـ ١٣٢ .

الثانية : مرحلة اختبار الفروض . وتقوم على معالجة النص المدروس إحصائيا بهدف إثبات صحة الفروض أو بطلانها . وتشتمل هذه المرحلة على جانبين : أولها جانب الوصف الإحصائي ، والثاني جانب التحليل الإحصائي وسنخص هذه المرحلة ببيان فيه شيء من التفصيل ، إذ هي الغاية الأساسية من هذا البحث .

الثالثة : مرحلة الاستنتاج . وهي الثمرة المرجوة من وضع الفروض واختبارها .

٢ ـ ٦ ـ المعالجة الأسلوبية الإحصائية للنصوص

أشرنا في غير هذا البحث إلى أن كثيراً من الدراسات والرسائل الجامعية التي اعتمدت الوسيلة الإحصائية لمعالجة النصوص ، ولاسيما نصوص الأدب لم تأخذ من الإحصاء إلا وظيفته البدائية الأولى ، ونعني بها وظيفة العد ، أو الحصر Counting[٤١] . وهذه الوظيفة ـ وإن كانت من أساسيات العمل الإحصائي ـ ليست إحصاء Statistics بالمفهوم العلمي المنتج ، فلقد تجاوزت وظيفة الإحصاء عملية الحصر والعد لإجمالي المفردات وأقسام الكلام وأنواع الجمل وغير ذلك ، لتعطي مزيدا من البيانات القابلة للتوظيف في مجال الكشف عن أدق خواص النص على كافة المستويات التحليلية المختلفة . ليست الغاية إذن هي الحصول على أرقام مطلقة عارية من الدلالة ، ولكنها الوصول إلى الأرقام والبيانات النسبية القادرة على إنتاج مقارنات دالة .

وإذا كانت مرحلة اختبار الفروض هي المرحلة التي يتجلى فيها دور المعالجة الإحصائية للنصوص فإن ذلك لا ينبغي أن يحجب عنا حقيقة هامة ، وهي أن التدخل الإحصائي يبدأ مع مرحلة وضع الفروض وربما قبلها . إننا في الدرس الإحصائي أمام أحد خيارين : فإما أن نخضع للفحص مادة تمثل مجتمعا إحصائيا كاملا Statistical population ، كديوان شعر ، أو عمل أدبي برمته ، أو مدونة كاملة . وإما أن نستغني عن ذلك ـ مختارين أو مجبرين ـ باختيار عينات Samples يشترط بها أن تكون جيدة التمثيل للمجتمع الإحصائي المطلوب دراسته . واختيار العينات ـ وهو الظرف السائد ـ مطلب له ضوابطه وقواعده في مبحث العينات والاحتمالات ؛ حيث تتحدد خصائص العينة وحجمها بالنسبة للمدونة أو المجتمع الإحصائي . ومن هنا فإن الإحصاء يبدأ غالبا قبل مرحلة الوصف والتحليل ، أي عند اختيار العينات المدروسة . وعلى الباحث الذي تلجئه ظروف بحثه إلى اصطناع المعالجة الإحصائية وليس له بها سابق خبرة كافية ـ أن يناقش مع بعض المتخصصين في الإحصاء مسألتين مبدئيتين :

أولاهما : تحديد نوع العينة وحجمها ، فالحل العلمي الدقيق لهذه المسألة يوفر على الباحث وقتا طويلا وجهدا مضنيا قد يضيعهما بلا جدوى ، كما يستنقذ الباحث من متاهات أخرى به أن يتجنبها من أول الطريق .

الثانية : هي اختيار أساليب المعالجة الإحصائية المناسبة لاختبار فروضه ولنوع العينة وحجمها .

---

(٤١) سعد مصلوح : (الأسلوب . .) ، ص ٧ ، وأيضاً :
مختار محمود الهانسي : مقدمة في طرق الإحصاء الاجتماعي ، الاسكندرية ، بدون تاريخ ، ص ٢ ـ ٤ .

ويتصل بما سبق أوهام تشيع في بعض الدراسات الإنسانية التي تستخدم المعالجة الإحصائية ؛ منها ما سبق أن ذكرنا من الخلط البين بين العد والإحصاء ، ومنها : الاعتقاد بأن الخطأ في اختيار نوع العينة الجيدة التمثيل يعوضه زيادة حجم العينة . والحق أن الأمر على النقيض تماما ، فزيادة حجم العينة إذا بني على خطأ في اختيار نوعها يزيد من فرص فساد النتائج . ومنها : الاعتقاد بأن هذا النوع من الدراسات إنما يتفاضل بحسب ما تمتاز به الطرق الإحصائية المختارة من دقة . والحق أن مقياس التفاضل هو موافقة الطرق المستخدمة لطبيعة البيانات العددية الخاضعة للمعالجة(٤٢).

وليس ينتظر من مثل هذا البحث تقديم تعريف مفصل بالطرق الإحصائية الممكن استخدامها في دراسة الأسلوب ، فمكان ذلك هو متون الإحصاء . لكن ذلك لا يعفي من محاولة لإضاءة هذه الطرق على نحو يزيل الوحشة القائمة بين كثير من النقاد واللسانيين وهذا الأسلوب المنضبط في معالجة النصوص .

ومادام مفهوم الدرس الإحصائي للأسلوب يتضمن بالضرورة مفهوم المقارنة بين أكثر من متغير أسلوبي في نص واحد ، أو بين متغير واحد في أكثر من نص ، أو بين أكثر من متغير في أكثر من نص ـ فإن هذا المفهوم يستدعي طرقا إحصائية معينة تفيد في تحقيق التشخيص الأسلوبي سواء على مستوى وصف النص أو على مستوى تحليله .

نبدأ الآن أولا بتحديد لأهم الطرق الإحصائية المستخدمة في الوصف . ثم نثني بما يستخدم منها في التحليل أو (الاستدلال) الإحصائي . وتشمل طرق الوصف إمكانات كثيرة أهمها وأكثرها شيوعا في الإحصاء الأسلوبي (واللساني) ما يلي :

أولا : مقاييس الوصف الإحصائي :

(١) قياس كثافة المتغير الأسلوبي density

ومثاله قياس كثافة نوع معين من أنواع الجمل (الاسمي/ الفعلي/ البسيط المركب/ المعقد/ الإنشائي/ الخبري) . ويتحقق بقسمة عدد الجمل من النوع المراد قياسه على المجموع الكلي لعدد الجمل المكونة النص(٤٣). ومن ذلك في العربية قياس كثافة المجاز density of metaphor بقسمة عدد المركبات المجازية على العدد الكلي للمركبات اللفظية المجازية وغير المجازية collocations في النص(٤٤).

(٢) قياس النسبة بين متغيرين أسلوبيين ratio

وذلك بقسمة تكرارات أحدهما على تكرارات الآخر . ومن ذلك قياس نسبة الأفعال إلى الصفات (معامل بوزيمان)(٤٥)، أو نسبة الجمل البسيطة إلى المركبة ، أو نسبة المركبات المجازية إلى الحقيقية .

---

(٤٢) فؤاد البهي السيد : علم النفس الإحصائي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٧٩ ، ص ٦٤ .

(٤٣) انظر : Curtis W-Hayes, "A study in Prose Style, Edward Gibbon and Ernst Hemingwaye", in Statistics and Stylistics. ed. L. Dolezel and R.W. Baily. New York, 1969, PP. 80-81.

(٤٤) انظر : سعد مصلوح . في التشخيص الأسلوبي الإحصائي للاستعارة : دراسة تطبيقية لقصائد من أشعار البارودي وشوقي والشابي ، مجلة الحياة الثقافية ، تونس ، ٤٦ ، ١٩٨٧ ، ص ٣٦ ، وما بعدها .

(٤٥) سعد مصلوح : (الأسلوب . .) ، ص ٦١ - ٦٢ .

(٣) قياس النزعة المركزية للمتغيرات Centeral tendencies

(وبيان ذلك أن تميز نص أو منشىء ما باستخدام جمل طويلة مثلا لا يعنى انعدام الجمل القصيرة ، بل كل مايعنيه أن ثمة نزعة مركزية غالبة الى استخدام الجمل الطويلة مع وجود إمكان محتمل لورود الجمل القصيرة بتكرارات أقل . وهكذا الأمر في رصد الخواص الأسلوبية الأخرى) وأهم مقاييس النزعة المركزية . الوسط الحسابى arithmatic mean ، والوسيط median ، والمنوال mode والوسط الهندسى geometrical mean (٤٦)

(٤) قياس تشتت بيانات المتغيرات dispersion

حين تتفق النصوص في نزعة مركزية واحدة فإن ثمة احتمالات لإمكان التمييز بينها باستخدام مقاييس التشتت ، أى قياس الدرجة التى تتجه بها البيانات الرقمية للانتشار حول قيمة وسطى . ومن أهم مقاييس التشتت : المدى range ، والتباين variance والانحراف المعيارى standard deviation (٤٧).

(٥) قياس التوزيع الاحتمالى للمتغيرات probilistic distribution

ويقصد به قياس تكرارات متغير أسلوبي ما (وليكن المتغير (أ) بوصفه واحدا من أبدال متاحة (ولتكن أ ، ب ، ج . . . ن) في ارتباطه بمقام معين . وسيأتى مناقشة النموذج الرياضى الذى يمكن الاحتكام إليه في وصف الأسلوب عند تعدد الاحتمالات .

(٦) قياس معامل الارتباط بين المتغيرات .

ومثاله قياس ارتباط الحدوث بين متغيرين أسلوبيين (كالارتباط بين طول الجملة والبساطة أو التركيب فيها) ، أو بين متغيرات أسلوبية معينة ومتغيرات المقام (كالارتباط بين طول الجملة واختلاف الوسط الناقل media ، أو بينه وبين اختلاف شكل النص بين البرقية والرسالة البريدية) ، أو بين المتغيرات الأسلوبية والأحكام النقدية التقويمية (كالارتباط بين طول الجملة أو تنوع المفردات والحكم بصعوبة الأسلوب) (٤٨) .

ثانيا : طرق الاستدلال الإحصائى .

بينا ـ فيما سلف ـ أهم طرق الوصف الإحصائى وأكثرها شيوعا في الدراسة الإحصائية للأسلوب . وقد يكون الوصف كافيا بذاته ليشكل أساسا مقنعا لاختبار المتغير الأسلوبى أو العلاقة بين المتغيرات ، وتحديد أهميتها في التشخيص الأسلوبى لنص ما ، إما بالاعتراف بها سمة مائزة للنص ، وإما باستبعادها واعتبارها من السمات الفائضة redundant features . وأمثل الحالات التى يكتفى فيها بالوصف الإحصائى هى تلك التى يجرى فيها الوصف على المجتمع

---

(٤٦) المرجع السابق : ٤٥ .

(٤٧) F. Anshen, Op. Cit, PP. 17-18.

(٤٨) استخدم ل : دوليجيل معامل الارتباط في التشخيص الأسلوبي للعلاقة بين طول الجملة وطول الكلمة في نصوص اللغة التشيكية . وقد ثبت وجود معامل ارتباط عال بينها إلا في الشعر . انظر :

I. Dolezel, "A Framework of Statistical Analysis of Style", in "Statitics and Stylistics", Op. Cit, PP. 19-20.

الإحصائى . أما عند اللجوء الى فحص عينات من المجتمع الإحصائى فقد تنشأ الحاجة الى استجلاء الدلالة الإحصائية للبيانات المستخرجة من العينات بغية استنتاج المميزات الرئيسة للأصل (أو المجتمع الإحصائى) ، وحينئذ ينحو الباحث (نحو التعميم العلمى للظاهرة التى يبحثها ، ويهدف الى استنتاج خواصها الإحصائية في صورتها العامة . ولذا يسمى هذا النحو الاستدلال الإحصائى ، لأنه يستدل على الخواص الإحصائية للأصل من الخواص الإحصائية لإحدى عيناته أو بعضها ، أى أنه يستنبط صفات الكل من الجزء أو الأجزاء التى تنطوى تحت إطاره . . . والمشكلة لاتقف عند هذا الحد ، بل تمتد في جوهرها الى الكشف عن مدى صحة ذلك الاستنتاج ودلالته الإحصائية ، فنستطيع أن ندرك مدى ثقتنا في تعميم نتائج الأبحاث المختلفة التى نقوم بإجرائها) (٤٩) .

وجدير بالذكر هنا أن بعض ما سلف بيانه من طرق الوصف الإحصائى صالح للاستخدام في مجال الاستدلال الإحصائى . ومن أهمها قياس التباين والانحراف المعيارى ومعامل الارتباط . ويقى أن نعرض لمقياس يعتمد عليه اعتمادا كبيرا في اختبار الدلالة الإحصائية أسلوبيا ولغويا ، وهو مقياس كاى^2

(١) مقياس كاى^2 : Chi - Square (٥٠).

يعتبر مقياس كاى^2 من مقاييس التوزيعات الحرة التى لاتعتمد على شكل التوزيع التكرارى ، ويكثر استخدامه في البحوث الأسلوبية واللغوية الإحصائية لاختبار دلالة التكرارات على المستوى الفونيمى ، وإن كانت إمكانات استخدامه أوسع من ذلك بكثير . وتقوم فكرة المقياس على اختبار دلالة الارتباط بين ظاهرة ما والبيانات العددية المتعلقة بتوزيعها . (مثال ذلك : الارتباط بين جنس المتكلم ذكرا أو أنثى واشتمال الكلام على ظواهر صوتية أو تركيبية أو أسلوبية معينة) . ونحن ـ في هذه المسألة بين فرضين : إما أن الارتباط بين جنس المتكلم وهذه الظواهر هو ارتباط منعدم ويسمى هذا الفرض : فرض العدم أو الفرض الصفري null hypothesis وإما أن يكون ثمة ارتباط دال بين الأمرين . ويقوم المقياس باختبار فرض العدم . وينشأ عن رفض فرض العدم . قبول الفرض البديل (أى إثبات وجود العلاقة) ، كما أن عكس ذلك أيضا صحيح . ويتم الاختبار بإدخال التوزيع الفعلى (أو التوزيع المشاهَد) للظواهر مع التوزيع المتوقع لها في معادلة وهى : إيجاد ناتج طرح رقم التوزيع الفعلى من رقم التوزيع المتوقع ، ثم تربيع ناتج الطرح وقسمته على الرقم المتوقع . وتتم هذه العلمية بالنسبة لكل خانة من خانات الجدول ، ثم نقوم بإيجاد المجموع الكلى لنواتج هذه العملية في جميع خانات الجدول .

وتقدم لنا المعادلة السابقة طريقة حساب مقياس كاى^2 . أما حساب دلالة المقياس (أى حساب المستوى الذى يمكن عنده رفض فرض العدم) فيلزم له حساب درجة الحرية degree of freedom . (وهى حاصل ضرب عدد الصفوف الأفقية في جدول التوزيع المعنىٌ باستثناء الصف الخاص بالمجموع الكلى مطروحا منه واحد صحيح × عدد

(٤٩) فؤاد البهي السيد : المرجع السابق ذكره ، ص ٤١٢ ـ ٤١٣ .

(٥٠) انظر : F. Anshen, Op. Cit, PP. 23-25.

ومن تطبيقاته في العربية انظر :

ـ احمد طلعت سليمان : علاقة الهمس والجهر بالمعاني في المتضادات العربية : دراسة إحصائية ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، مج ٩ ، ع ٣٤ ، ربيع ١٩٨٩م ، ص ٢٦ .

الأعمدة الرأسية للجدول باستثناء عمود المجموع الكلى ، مطروحا منه واحد صحيح . وثمة جداول إحصائية جاهزة تحدد المستوى الذى يمكن عنده رفض فرض العدم (أى إثبات العلاقة) مع كل درجة من درجات الحرية .

(٢) مقياس النسبة الحرجة z - score (٥١)

يفيد هذا المقياس في إجراء حساب مباشر لدلالة فرق المتوسطات ، أى لتحديد ما إذا كان الفرق بين متوسطى مجموعتين من القيم كافيا لاعتباره دالا من الوجهة الإحصائية أم لا . ويتطلب هذا المقياس معرفة مايأتى :

(أ) متوسط القيم في المجموعتين المعنيتين .
(ب) عدد المشاهَدات في كل مجموعة .
(ج) حساب درجة التباين Variance لكل مجموعة (مربع الانحراف المعيارى) .

أما المعادلة الخاصة به فتتكون بإيجاد : الفرق بين متوسطى قيم المجموعتين ثم قسمته على الجذر التربيعى لحاصل جمع (درجة تباين المجموعة الأولى مقسوما على عدد المشاهدات الخاصة بها + درجة تباين المجموعة الثانية مقسوما على عدد المشاهدات الخاصة بها) .

تلكم هى أهم الطرق الإحصائية المعتبرة عند اللسانيين والأسلوبيين في معالجة النصوص اللغوية . وننتقل الآن الى التعريف بمفهوم النموذج الرياضى في التشخيص الأسلوبى وأنواعه .

٢ ـ ٧ . النماذج الرياضية للتشخيص الأسلوبى :

يكثر ظهور المعادلات الرياضية في الدراسات الإحصائية للأسلوب ، مما يشكل حاجـزا نفسيا بـين كثير من المهتمين بأمر النص اللغوى ـ والأدبى خاصة ـ وهذا النوع من الدرس العلمى ، وربما كان للألفة في ذلك دخل كبير . وقد أُمحضتْ هذه الفقرة لمناقشة فكرة النماذج الرياضية المستخدمة في التشخيص الأسلوبى mathematical models وأنواعها ، وكيفيات استخدامها في فحص الأساليب .

يقصد بالنموذج الرياضى الصياغة التجريدية للعلاقة القائمة بين المتغيرات الأسلوبية على النحو الذى تشكل به خاصية أسلوبية مائزة . بذلك يكون النموذج الرياضى صياغة للمقياس الأسلوبى في شكل معادلة رياضية تلخص العلاقة بين المتغيرات الاسلوبية في المقياس . وينشأ مما سبق توقع اختلاف النماذج الرياضية الأسلوبية بحسب حظها من التجريد أو البساطة ، فأبسط النماذج هو ما كان خاصا بالكشف عن خاصية أسلوبية واحدة . أما حين يضبط النموذج العلاقة بين أكثر من خاصية أسلوبية فمن المتوقع أن تكون المعادلة أشدّ تركيبا حتى إذا افترضنا وحدة المقام . أما إذا اختلفت مواصفات المقام ، واختلفت ، تبعا لذلك ، عدد الخصائص المفحوصة وعلاقتها بعضها ببعض من جهة ، وعلاقتها بالمقام من جهة أخرى ، فحينئذ يكون على النموذج ان يخطو في سلم التركيب درجة أعلى من سابقيه .

(٥١) انظر .
F. Anshen, Op. Cit, PP. 25-26.
ـ سعد جلال : االقياس النفسي : المقاييس والاختبارات ، دار الفكر العربي ، ١٩٨٥ ، ص ٣٢٨ ـ ٣٣١ .

وتتنوع النماذج الرياضية المستخدمة في فحص الأسلوب باعتبار آخر ، ونعنى به تعدد فروع الرياضيات نفسها . وقد حددها هـ . ب . ادموندسون H . P.Edmundson فسلكها في نوعين رئيسين هما : النماذج الحتمية -determinis tic models ، والنماذج الاختيارية stochastic models . وتشمل النماذج الحتمية بحسب تصنيف ادموندسون : (٥٢)

(١) النماذج الهندسية geometric models وتمثلها بحوث هيردان Herdan (٥٣).

(٢) النماذج التحليلية analytic models وتمثلها بحوث زيف Zipf (٥٤)

(٣) النماذج المنطقية Logical models ومن دعاتها لويس ميليك Louis Milic (٥٥) .

(٤) النماذج الجبرية algebraic models ومنها دراسات هايس Hayes (٥٦)

أما النماذج الاختيارية فتشمل :

(١) النماذج الاحتمالية probabilistic models

(٢) النماذج الإحصائية Statistic Models

ويمثل هذين الاتجاهين أودنى يول O. Yule ولوبوموار دوليجيل L . Dolezel .

ويرى د . د . تالنتير D.R. Tallentire أنه لابأس باعتبار هذا التصنيف أساسا للنظر . بيد أنه أورد عليه ملحظين :

<u>أولهما</u> : (أن هذه الأنواع ليست منقطعة الصلة بعضها ببعض كما يوحى بذلك الرسم التوضيحى الذى قدمه ادموندسون ، فالمنطق والتحليل أساسيان لنماذج الاحتمالات والنماذج الإحصائية ، كما أن هذين النوعين يعتبران فرعا واحدا من فروع الرياضيات) .

---

(٥٢)

D. R. Tallentire, "Mathematical Modelling in Stylistics, its extent and General Limitations", in : Computer in Literary and Linguistic Research, ed. R. A. Wisbey, Univ. of Cambridge, 1971, P. 118.

(٥٣) ينتمي المنظور الذي يقترحه هيردان إلى الهندسة الإسقاطية Projective Geometry وهي فرع من فروع الهندسة التي جاءت لتخرج الهندسة الإقليدية من المجال الذي حصرت نفسها فيه ، وهو دراسة السطوح المستوية ، ودراسة الأشياء في أبعادها الثلاثة الصارمة : الطول والعرض والارتفاع ، وهو ما يعرف بهندسة المجسمات . ويرى هيردان أن الثنائية الهندسية المتمثلة في (النقطة) و (الخط) يمكن ربطها على الترتيب بثنائية (النمط) و (المفرد) Type-Token في دراسة اللغة . أما تالنتير فيرى أن النموذج الهندسي يبدو أقل النماذج الرياضية اتصالاً بالأسلوبيات . انظر :

D. R. Tallentire, Op. Cit. PP. 120-121.

وانظر تطبيقاً لهذه الثنائية الرياضية في دراسة لكاتب هذا البحث عن تنوع المفردات عند الرافعي والعقاد وطه حسين لكاتب هذا البحث (مرجع سبق ذكره الحاشية ٢٤) .

(٥٤) عن جهود زيف في اللسانيات الرياضية انظر :

Milka Ivic, Op. Cit, PP. 217-218.

(٥٥) يتحقق النموذج المنطقي ـ كما يتصوره لويس ميليك بإجراء عملية اختصار افتراضي للجملة يتوصل به الباحث إلى أبسط صيغة تكون عارية من كل ما يمكن أن يعد حلية أسلوبية . ثم تجري مقارنة هذه الصورة المبسطة بالجمل الواردة فعلاً في النص . وبذا تكون الصورة المبسطة بنية افتراضية أعيدت صياغتها صياغة منطقية وتسمى بالجملة ـ النواة Kernal Sentence أو جملة ما قبل التأسلب Pre-Stylized وانظر لمزيد من التفصيل :

سعد مصلوح : (الأسلوب . .) ، ص ٦٨ ـ ٦٩ .

(٥٦) من أوضح الدراسات دلالة على اتجاه هايس دراسته للأساليب النثرية عند جيبون وهمنجواي (انظر حاشية رقم ٤٣) .

والملحظ الثاني فحواه أن كل فرع من الفروع الستة يمد الدراسات الأسلوبية بنموذج محدد . وهذا لاينفى إمكان استخدام توليفات من هذه النماذج الأساسية في دراسة المشكلة الواحدة . وقد أنجزت دراسات ناجحة باستخدام مزيج من هذه النماذج (٥٧) .

وتتفاوت النماذج الحتمية بأنواعها المختلفة : الهندسية والتحليلية والمنطقية والجبرية في قدرتها على استيعاب العلاقات في التشخيص الأسلوبي ، فأقلها عطاء وشيوعا النموذجان الهندسي والتحليلي ، ولا كذلك المنطقي والجبري ، فهما ـ بهذا الترتيب ـ أكثرها شيوعا . ويستفاد مما سبق أمور :

أولها : أن مفهوم النموذج الرياضي في التشخيص الأسلوبي أعم من مفهوم النموذج الإحصائي الاحتمالي ، أو أن التشخيص الإحصائي الاحتمالي هو واحد من عدة نماذج رياضية ممكنة التطبيق في مجال التشخيص الأسلوبي . (ويلحظ هنا أننا اعتبرنا النموذجين الإحصائي والاحتمالي بحسب تصنيف ادموندسون نموذجا واحدا) .

ثانيها : أن موضوع هذا البحث يوجب علينا أن نصرف اهتمامنا الأصيل الى معالجة النموذج الرياضي الاختياري . أما النماذج الرياضية الحتمية فمجالها هو دراسة التشخيص الأسلوبي بإطلاق ، وليس خصوص التشخيص الأسلوبي الإحصائي .

ثالثها : أن الملحظ السابق ـ وإن كان صحيحا بوجه عام ـ يرد عليه استثناء في مايتصل بالنموذج الجبرى ، لأسباب : منها قدرته على حصر التنوعات اللغوية التى تشكل قائمة الاختيار ، أو تحدد مجال الاحتمالات التى يمكن تصنيفها الى : (تعبير ـ نمط) و (تنوعات انحراف) . كما أن ثمة صلة نحوية بين النموذج الجبرى والأنحاء الجبرية ، ولاسيما النحو التوليدى التحويلي . وسنرى حين نعرض لمشروع دوليجيل في التشخيص الأسلوبي الإحصائى احتفاءه الشديد بمقولات النحو التحويلي ، وإيمانه بقدرتها على تزويد النظرية الأسلوبية الإحصائية بما يمكنها من أداء مهمتها على الوجه المأمول . لذلك كان من المفيد ـ فيما نرى ـ أن نعرض بشيء من التفصيل للنموذج الرياضى الجبرى من بين النماذج الحتمية وبتفصيل أشد للنموذج الإحصائى الاحتمالى إذ هو المقصود بالأصالة .

أولا النموذج الجبرى .

الأنحاء الجبرية ـ ومن بينها الطراز التوليدى التحويلي ـ وثيقة الصلة بالرياضيات من جهة ، وبالمنطق من جهة أخرى ، إذ إن قوامه هو استخدام نماذج شكلية (أوصورية) في اللسانيات النظرية وفي الوصف التحليلى لتراكيب اللغة . وعلى الرغم من أن استخدام الصياغة الشكلية ينحى غالبا قضية التنوعات الراجعة الى تمايز الأفراد واختلاف المقامات ـ فقد أثبت النحو التوليدى قدرة على استيعاب التنوعات من خلال استخدامه لمقولتى التوليد والتحويل . وترجع أهميته في هذا المجال الى اهتمامه بالمستوى التركيبي (أى مستوى النظم) Syntactic level ، وهو مستوى يحظى بعناية الأسلوبيين الذين يقدمون الايثارات التركيبية على الخيارات المعجمية في تشخيص الاساليب . وقد وجد هؤلاء

(٥٧) D. R. Tallentire, Op. Cit. P. 119.

ضالتهم . في كثير من مقولات التحويليين مثل مقولة الكفاءة والأداء/ Competence performance ، ومقولة البنية الباطنة والبنية الظاهرة deep/ surfaçe structure بالإضافة الى الإجراء التحليلي المتمثل في قواعد التحويل transforma- tionl rules . وكان في ذلك عون لهم على تمييز الفروق بين الأساليب بطريقة علمية منضبطة .

ولقد دفعت الحاجة الى تطويع قواعد التحويل للدرس الأسلوبي بعض العلماء مثل وليام لابوف W . labov الى القول بوجوب التمييز بين نوعين من القواعد ، أولهما القواعد الملزمة (أو مانؤثر تسميته قواعد الوجوب Categorical rules) والقواعد الاختيارية (ونسميها قواعد الجواز Variable rules) ورأى أن الحاجة ماسة الى نوع من التحليل النحوى تعمل فيه القواعد في نسبة مئوية معينة من الحالات وتتخلف عن العمل في الحالات الباقية . ويلحظ اينكيفست Enkvist أن اقتراح لابوف قد أطلع الباحثين على مثال للكيفية التى يمكن بها تزويد النحو التحويلى بقواعد تقيس الاحتمالات قياسا كميا . وهاهوذا تلخيص للمعادلة الرياضية الإحصائية التى اقترحها لابوف .

يبدأ لابوف فيلحظ أن القواعد السائدة في النحو التحويلى تتخذ صيغة عامة هى :

X ——> Y/A-B

وتفسير ذلك أنه حيثما ترد × في الوسط A-B فإن كتابتها تعاد لتصبح Y . ولاتعمل القاعدة إلا إذا توافر هذا الشرط وتسمى مثل هذه القواعد بالتعليمات الوجوبية Categorical instructsns نبيد أننا إذا أدخلنا في التحليل قواعد جوازية optional rules ـ على نحو مافعل تشومسكى في تصوره الأول الذى نشره عام ١٩٥٧ ـ أمكننا أن نتجنب الوقوع في تلك المشكلة العويصة ، مشكلة تحديد ظروف الإعمال والإهمال بالنسبة للقاعدة . ويرى لابوف أن الحل الأمثل هو إدخال قواعد للتنوع Variable rules تتضمن كمية محددة يرمز إليها بالرمز ⱷ وتشير هذه الكمية الى التمثيل النسبى للحالات التى تنطبق عليها القاعدة ، بحيث تكون هذه الحالات جزءا من تركيب القاعدة نفسها . وهذا التمثيل النسبى هو نسبة الحالات التى تنطبق عليها القاعدة بالفعل بالنسبة الى المجموع الكلى للجمل أو الأحداث الكلامية التى يمكن أن تنطبق عليها القاعدة بالشروط التى حددتها للوسط ، اذا افترضنا أنها من القواعد الوجوبية .

وتتدرج قيمة K_0 في قواعد التنوع بين الصفر والواحد الصحيح . أما في القواعد الوجوبية فليس لها إلا قيمة ثابتة هى الواحد الصحيح . وتأخذ قاعدة التنوع الاحتمالى شكل المعادلة الآتية :

ⱷ = 1 - ٢ ،

حيث تمثل K_0 المدخلات المتغيرة التى تتضمنها المعادلة ، تلك التى ترسم حدود تطبيقها . وكلما زادت قيمة K_0 ضاق مجال العمل بالنسبة للقاعدة ، أو ـ بعبارة أخرى ـ قلت نسبة الحالات التى تنطبق عليها القاعدة . وحين تتعدد عوامل المدخلات يتعدد الرمز المقابل لها في المعادلة على هذا النحو

($K_0 - X K_1 - \beta\ _2 \cdots \gamma K_r$)

وتمثل $K_0 \ldots K$ ثوابت يجرى تحديدها بالاختبار الامبريقى .

أما الرمزان ⁓ ـ X فيمثلان أوزان هذه العوامل .

وقد صممت المعادلة بحيث إذا اشتملت بعض تفرعات الجمل المدروسة على أحد الثوابت الموجبة أدى ذلك الى نقص قيمة K_o . وهكذا يتسع مجال تطبيق القاعدة بتناقض قيود تطبيقها وزيادة قيمة φ .

وحين نعطى الثوابت المختلفة قيما تتحدد في ضوء اختبار المادة ودراستها ينبغى ترتيب الثوابت في تسلسل هرمى . ويقوم معيار الترتيب على أساس البدء بالقيد (أى العامل الثابت) الذى يحوز الوزن الأكبر ، ثم الذى يليه . . . وهكذا .

وخلاصة القول أن استخدام النماذج الجبرية التى تمدنا بها قواعد التحويل يمكن أن تتم بطريقتين تختلفان بساطة وتركيبا ، في الأولى يجرى إحصاء تكرارات استخدام المنشىء لقاعدة معينة أو المجموعة من القواعد . ومن المتوقع أن يتفاوت المنشئون في إيثارهم قواعد معينة على غيرها ، مما يشكل سمة أسلوبية نحوية يمكن اعتمادها في المقاربة الأسلوبية . أما الطريقة الثانية فهو مركبة نسبيا ، إذ تقوم على تزويد النحو نفسه بنوع من قواعد التنوع يختلف عن قواعد الوجوب والجواز في النحو التحويلى التقليدى .

ثانيا : النموذج الإحصائى الاحتمالى .

هذا النوع من النماذج الرياضية هو أقدرها فيما نرى على تقديم النموذج الموفق الذى يمكن الباحث من التعبير الصورى عن تميز الأساليب باعتبارات مختلفة . وتكاد ترقى هذه المقولة الى أن تكون موضع اتفاق بين أكثر الدارسين لظاهرة الأسلوب ، إذ هو أكثرها انسجاما مع طبيعة هذه الظاهرة . ولعل في ماسلف من حديث عن الأساس النظرى للإحصاء الأسلوبى ومفاهيم الأسلوب مايعزز صحة هذا الرأى ويثبت صوابه .

وحين تذكر النماذج الإحصائية الاحتمالية في الدرس الأسلوبى تبرز جهود عالمين من أعلام هذا الاتجاه هما اودنى يول ولوبوموار دوليجيل . وقد صاغ أولهما واحدا من أهم المقاييس وأكثرها حساسية في مجال تمييز البصمة الأسلوبية ، وهو ما أصبح يعرف بخاصية يول Yule,s Characteristic [٥٨] . أما ثانى الرجلين فكان من بين جهوده دراسة مفصلة أرادها أن تكون (إطار عمل للتحليل الإحصائى الأسلوبى) A Framework of Statistical Analysis of Style ، وقد توافرت لهذه الدراسة ميزة الدقة والشمول على نحو يجعل منها مشروعا بحثيا يمكن - في حالة استيعابه - أن يكون منطلقا للبحث في كافة مجالات الإحصاء الأسلوبى ، ولمناقشة ما يثيره من قضايا ومشكلات . وفي مايلى عرض لمشروع دوليجيل حاولنا أن نستوفى فيه الدقة والتبسيط في آن معا .

---

(٥٨) تلك الخاصية التي استخدمها كاتب هذا البحث في دراسته للشوقيات المجهولة (انظر حاشية ٤٠) . وتوجد مناقشة مفصلة لخاصية يول في مقال بافال فاشاك (بالروسية) ، واستخدام لها في تحقيق نسبة نص من نصوص القرن التاسع عشر .
Paval Vasak : **"Metodi ustanovlenyia Spornogo avtorstva"** (Methods of Determination of Disputed Authorship), in Prague Studies in Mathematical Linguistics, Academia, Prague, No. 3, 1972, PP. 143-161.

٢ ـ ٨ إطار عمل للتحليل الإحصائي الأسلوبي (مشروع دوليجيل) [٥٩]

٢ ـ ٨ ـ ١ . الأسلوب مفهوم احتمالي

تقوم النظرية الإحصائية للأسلوب ـ عند دوليجيل ـ على أساس مقولة بسيطة هي أن (الأسلوب مفهوم احتمالي) . ويمتاز المفهوم الاحتمالي بسمتين أساسيتين :

الأولى : أنه في عالم الاحتمالات لايتوقف وقوع الظاهرة (أ) على وجود الشرط (س) ، بحيث توجد بوجوده وتنعدم بانعدامه . لكن الذي يقال هو أن الظاهرة (أ) تقع في وجود الشرط (س) باحتمال معين ، أي أن وجود الشرط (س) لايمتنع معه وقوع الظواهر (أ) أو (ب) أو (جـ) . . الخ . ولكن تختلف درجات الاحتمال . وهذا هو الأمر القابل للقياس الإحصائي ، ويسمى بالتوزيع الاحتمالي Probability distribution .

والسمة الثانية للمفهوم الاحتمالي هي أن التوزيع الاحتمالي يصف توقع حدوث الظاهرة في مجتمع إحصائي مثالي . لكننا نستطيع ـ عمليا ـ أن نكتفي بملاحظة وقوع الظاهرة بعينات ممثلة للمجتمع الإحصائي . ولا ينبغي لنا أن نتوقع من جميع العينات أن تتجانس تجانسا تاما في توزيع الظاهرة المدروسة . فالمشاهد بالتجربة أن قيم الاحتمالات تتأرجح حول قيمة معينة تأرجحا غير ذي دلالة من الناحية الإحصائية . وهنا يتجلى التوزيع الاحتمالي (الذي سبقت الإشارة إليه في السمة الأولى) في شكل آخر يسمى بالتوزيع التكراري للعينة Sample frequency disteibution .

ويرى دوليجيل أن ثمة براهين قوية على أن كلتا هاتين السمتين تتجلى في الخواص الأسلوبية للنصوص . وينشأ عن تقرير الصفة الاحتمالية للظواهر الأسلوبية وجوب تحديد الصفة العامة للأسلوب على أساس من درجة الحضور (أو الغياب) لأشكال معينة من التعبير ، لأن هذه الأشكال هي نتيجة لإيثارات المنشيء أكثر من كونها نتيجة عادات ثابتة . إن العادات الثابتة تؤدي إما الى الاستعمال المطلق وإما الى الكبت المطلق لبعض أشكال التعبير . وهذا الأمر غير وارد في الأسلوب . ولذلك كان من الأرجح أن ننظر الى الأسلوب على أنه نتاج إيثار واختيار لا أنه نتيجة عادات ثوابت . وإذن فالسمات الأسلوبية هي اتجاهات وليست عادات .

على أن القياس الإحصائي قادر على تحديد الدلالة الإحصائية لتأرجح قيم العينات حول القيمة الاحتمالية ، أي أنه قادر على التوصل الى القرار الصحيح : إما بإهمال التأرجح واعتباره غير ذي قيمة وإما بالاعتداد به . من ثم يمكن بالقياس الإحصائي الكشف عن الاتجاهات الأسلوبية المستقرة Stylistic Stability المختفية وراء التأرجحات الظاهرة . ونستظهر مما سبق أمرين هامين :

أولهما : اعتبار الخواص الأسلوبية اتجاهات لاعادات .

---

(٥٩) هذا عرض لإطار العمل الذي اقترحه دوليجيل للكيفية التي تصاغ بها معادلة رياضية لتشخيص الخصائص الأسلوبية للنص في علاقتها بعضها ببعض ، وفي علاقاتها بالمقام ، مع إعطاء كل خاصية وزنها الحقيقي في المعادلة انظر :

L. Dolezel, "A Framework for the Statistical Analysis of Style", in Statistics and Stylistics, OP.Cit, PP. 57-65.

والثاني أنها اتجاهات مستقرة تختفي وراء مايبدو من تأرجح لقيمها في العينات . والتسليم بهذين الأمرين ـ عند دوليجيل ـ يمكن أن يجعل من المعالجة الإحصائية نظرية أسلوبية تمتاز بالكفاءة ، وليس مجرد مظهر ثانوى من مظاهر النظرية الأسلوبية لكنه يقرر أن الطريق الى تحقيق ذلك مايزال طويلا ، وأن مشروعه هذا ليس إلا خطوة على الطريق .

ويبرز دوليجيل في مشروعه أهمية ثنائية الكفاءة/ الأداء في إمداد النظرية الأسلوبية بالخلفية العامة المناسبة لتفسير التنوع الأسلوبى . وهو يعد عمليات التشكيل الأسلوبى مكونا أساسيا من مكونات مقولة (الأداء) . أما مقولة (الكفاءة) فإنها تشكل خلفية ضرورية لأى نظرية أسلوبية . ومن خلال بعض الملاحظ النقدية التى يبديها على نظرية (الأداء) يحدد لنا الشروط المتوقعة في أى مخطط كامل للأداء ، فيرى أن على هذا المخطط :

(١) أن يفسر السمات البراجماتية للسلوك اللغوى .

(٢) أن يفسر الفروق الجوهرية بين النصوص .

إن على هذا المخطط ـ بعبارة أخرى ـ أن يعطى وصفا لعملية التشكيل الأسلوبى Style - Formation Process التى يتجلى فيها تأثير السمات البراجماتية من جهة ، كما أنه مسئول ـ من جهة أخرى ـ عن كشف الفروق الأسلوبية بين النصوص .

٢ ـ ٨ ـ ٢ ـ عملية الاختيار .

عملية الاختيار هى مكون أساسى من مكونات عملية التشكيل الأسلوبى . وهى في جوهرها ، اختيار شكل تعبيرى واحد من بين مجموعة ابدال متاحة ويكون الاختيار في أبسط حالاته بين بديلين . أما في الحالات المعقدة فيكون الاختيار بين عدد كبير من الأبدال .

ويحكم عملية الاختيار عوامل براجماتية يمكن تصنيفها الى نوعين :

(١) عامل ذاتى : subjective ويشمل الإيثارات اللغوية للمتكلم ، وطابع تفكيره ، ومهاراته الأسلوبية .

(٢) عامل موضوعى : Objective ويشكله المقام Context (بأوسع مفهومات هذا المصطلح) . وهذا العامل مستقل عن المتكلم ، وإن كان يمارس تأثيره من خلاله . ويشمل العوامل المتعلقة بالاتصال اللغوى . مثل شكل اللغة : منطوقة أو مكتوبة ، وشكل الخطاب : فردى أم حوارى ، وجنس القول . . الى غير ذلك من العوامل وكلا هذين النوعين من العوامل البراجماتية حاضر دائما أثناء إنتاج النص . ويمكن ـ نظريا ـ استنباط ثلاثة احتمالات للعلاقة بين العوامل الذاتية والموضوعية في تشكيل الأسلوب .

الاحتمال الأول : قد يخضع الاختيار عند المنشىء لإيثاراته الخاصة ، وينحى تماما اثر المقام (العامل الموضوعى) . ويمكن التمثيل لهذا النمط بشاعر تسيطر خواصه الأسلوبية المميزة على جميع قصائده في جميع

الموضوعات . ويعنى هذا هيمنة العامل الذاتى عنده وتنحية العامل الموضوعى . ويسمى هذا النمط من المنشئين : (المنشىء المتحرر من المقام) Context - -Free Speaker .

الاحتمال الثانى : أن يكبت المنشىء إيثاراته الفردية كبتا تاما ، ويخضع تمام الخضوع لما يمليه المقام . ويمكن التمثيل لذلك بكتابات الأجهزة الإدارية وكتاب الدواوين ، حيث يسود العامل الموضوعى وينحى العامل الذاتى تنحية تامة . ويسمى مثل هذا (المنشىء الخاضع للمقام) Context - Bound Speaker

الاحتمال الثالث : أن يضبط المنشىء اختياراته تبعا لما يتطلبه المقام . وهو العامل الموضوعى الذى يتجاوز الفرد Supra U indivduai context ولكنه يحتفظ فى الوقت نفسه بتفرده . وخصوصيته التى تميزه عن غيره من المنشئين ومثل هذا المنشىء يسمى المنشىء الحساس للمقام context u Sensitive Speaker إذ هو يخضع اختياراته . . . الخ

والنمط الثالث هو أكثر الأنماط شيوعا ، ومثاله المنشىء الذى يحتفظ بخصوصياته الأسلوبية ، وهو ـ مع ذلك ـ ينوع مابين أسلوبه منطوقا ومكتوبا . والملاحظ أن المنشىء الواحد لا يلزم نمطا واحدا من الأنماط الثلاثة بل قد يراوح في أسلوبه بينها جميعا ويمكن القول بأن هذا النوع من الأسلوب هو حصيلة تدافع قوتين : العوامل الذاتية والعوامل الموضوعية . وهما تعملان في اتجاهين متضادين ، وتحاولان السيطرة على المسافة الاتصالية في لغات البشر .

٢ ـ ٨ ـ ٣ . البنية الإحصائية للنص

تتحدد البنية الإحصائية للنص بمجموع الخواص الذى تثبت له بالقياس . ويمكن أن تصاغ المعادلة العامة للبنية الإحصائية للنص كما يلى . ص = { خ١ ، خ٢ . . . خو }

حيث ص = نص ، خ = خاصية ، (. . . . وتشير الى جميع خواص النص التى تم فحصها . ويطلق على هذه المعادلة :

المعادلة المبدئية للنص Elementary - Text Formula وهى معادلة معيبة نظرا لما نتوقعه من عدم تجانس القياسات الإحصائية للخواص المختلفة ، وهو مايجعل من جمعها في معادلة واحدة مشكلة إحصائية تتطلب حلا . وحين ندخل في الاعتبار التصنيف المقامى القائم على أساس ماهو موجود من العوامل البراجماتية المؤثرة في انتاج النص يتحصل لنا أن مجموع نصوص لغة ما (ويرمز لها بالرمز : ص (ل) ، حيث ل = لغة ، ص = نص) يمكن تصنيفها باعتبارين :

- الأول : أن تصنف تبعا للعوامل الذاتية . وينتج لنا هذا التصنيف ص (كى) .

حيث ص = نص ، و (كى) = منشىء أو متكلم بعينه مع تنوع المقامات . ويصبح مدلول ص (كى) هو مجموعة النصوص التى ينتجها منشىء بعينه بقطع النظر عن اختلاف المقامات .

الاعتبار الثانى : أن تصنف تبعا للعوامل الموضوعية . وينتج لنا هذا التصنيف ص (قج) ، حيث (قج) = مقام بعينه . ويصبح مدلول الرمز ص (قج) هو مجموعة النصوص التى تنتج في مقام معين بقطع النظر عن اختلاف المنشئين .

ولما كانت الجهة منفكة بين التصنيفين فإنه يحصل لنا باجتماعهما ص (كى قج) ، أى مجموعة النصوص التى ينتجها منشىء معين في مقام معين . ومن الطبيعى أن نتوقع خلو بعض المجموعات من هذا النوع ، ضرورة أن المنشىء المعين لا يتوقع منه أن يكتب في جميع المقامات .

وقد نتساءل : كيف يحدد الباحث العوامل الذاتية والموضوعية التى يتم على اساسها تصنيف مجموع نصوص اللغة : ص (ل) . والجواب ان هذه العوامل يمكن تحديدها امبريقيا ، فالتصنيف البراجماتى هو إطار تجريبى امبريقى للتحليل الإحصائى يمكن تحديده دون أن نعرف شيئا عن البنية الإحصائية للنصوص . وتتحول النصوص بعد تحديدها على هذا الأساس البراجماتى الى مجتمعات إحصائية . وبذلك يمكن استخدامها لتحديد الخصائص الإحصائية للنصوص .

ولقد سبق لنا الحديث عن المعادلة المبدئية للنص ، ووصفناها بأنها معينة مع بيان لحيثيات هذا الحكم . ومن ثم لم يكن بد من تهذيب هذه المعادلة . وأول مراحل هذا التهذيب أن نحذف منها بعض الخصائص التى تعوق عملية التشخيص الإحصائى للنص . ولدينا ـ عادة ـ نوعان من هذه الخصائص :

الأول : خصائص مافوق الأسلوب Supra - Stylistic Features

ويقصد بها بعض الخصائص التى تتجاوز الخيار الأسلوبى ، وتفرض نفسها على جميع المنشئين فلا تنقاد للتشكيل الأسلوبى . وليس لهذا النوع من الخصائص اللغوية ما يؤهله ليشكل سمات مائزة بين الأساليب . وسنرمز له بالرمز (خ ـ ل) ، حيث خ = خاصية و ل = لغة .

ومثل هذه الخصائص ـ وإن لم تكن مادة للتشكيل الأسلوبى ـ هى خلفية ضرورية لإدراك الفروق الأسلوبية بين النصوص . والى هذا النوع تعزى الفونيمات والجرافيمات (أى وحدات نظام الهجاء) .

والثانى : خصائص ما دون الأسلوب Sub - Stylistic Features

ويندرج تحت هذا المفهوم خصائص يثبت من فحص ص (كى قج) أنها تتسم بعدم الثبات non-stationary ، أو أنها تتأرجح تأرجحا ذا دلالة إحصائية . وتمثل هذه الخصائص تحديا حقيقيا للنظرية الإحصائية في دراسة الأسلوب . ولامفر أمام الباحث من عزل هذا النوع واستبعاده ، لكى تستقيم البنية الإحصائية للنص .

وحين يتم عزل هذين النوعين من الخصائص غير الأسلوبية يصبح من الممكن إجراء أولى خطوات تهذيب المعادلة المبدئية للنص ، حيث تحصل لنا : المعادلة المبدئية لأسلوب النص elementary text - Style formula . ولا يسمح

بدخول المعادلة إلا للمتغيرات الأسلوبية التى يثبت بالفحص الإحصائى أنها سمات أسلوبية . وصيغة هذه المعادلة هي :

ص = (خ س١، خ . س٢ . . خ سر) . حيث خ س = خاصية أسلوبية ، أما ١ ، ٢ . . ر. فهى مجموع الخواص الأسلوبية بما فيها الخواص التى ترتبط بخواص سبق ورودها ارتباطا على وجه اللزوم .

وتتجه الخطوة التالية في تهذيب المعادلة الى استبعاد الخواص التابعة ، أى المتضمنة في خواص أخرى على وجه التلازم ، واستبقاء الخواص الأسلوبية الأساسية والمستقلة دون غيرها . وتنتج هذه الخطوة : **المعادلة المخفضة لأسلوب النص** reduced text - style Formula ، وهى :

ص = (خ١ ، خ٢ . . . خن) ، حيث تساوى خى في هذه المعادلة خاصية أسلوبية مستقلة (وحيث يكون عدد الخواص المستقلة ن أصغر من مجموع الخواص المستقلة والتابعة) .

٢ ـ ٨ ـ ٤ . مادة الفحص والفروض

على الباحث أن يجرى فحصه الإحصائى على فئات النصوص من النوع ص (كى قجـ) ، أى نصوص منشىء معين في مقام محدد . ويرمز الى المجموع الكلى للنصوص ص.(كى قجـ) بالرمز ص (قجـ) ، ويعنى مجموع فئات النصوص في مقام محدد بقطع النظر عن اختلاف المنشئين . وتشكل ص (قجـ) المدونة الأساسية للمادة التى تخضع للفحص بهدف تحديد البنية الإحصائية للنصوص . وثمة احتمالان متعارضان يمكن أن يؤدى الى أحدهما فحص التجانس في (خى) (أى الخواص الأسلوبية المستقلة) . ولكل منهما تفسيره :

أولهما : أن تتأرجح قيم (خى) في المجتمعات الإحصائية المختلفة ص (كى قجـ) من المدونة ص (قجـ) تأرجحا ذا دلالة إحصائية . وحينئذ يمكن اعتبارها خواص مستقرة في نصوص منشىء بعينه بحيث تميزه تمييزا واضحا عن غيره من المنشئين ، أى أنها خاصية أسلوبية ذاتية . وسنرمز لهذه الخواص بالرمز (ش ـ خى) حيث ش = شخصية .

ثانيهما : أن تتأرجح قيم (خى) في المجتمعات الإحصائية المختلفة ص (كى قجـ) من المدونة ص (قجـ) تأرجحا غير ذى دلالة إحصائية ، أى أن (خى) تبدو متجانسة في جميع المدونة . وحينئذ ينبغى أن تعزى (خى) الى **الخواص الأسلوبية الموضوعية** objective stylistic characteristics لأنها خواص تتجاوز الفرد ـ Supra-individual وسيكون رمزها (ض ـ خى) ، حيث ض = موضوعية :

على أن ثمة احتمالا ثالثا هو أن تتجانس (خى) في أسلوب بعض المنشئين دون بعض ، مع افتراض وحدة المقام (قجـ) . ويفسر دوليجيل هذا الاحتمال بأنه تشابه فيأسلوب الأفراد أكثر من كونه خواص أسلوبية موضوعية .

ونعود الى فحص الخواص الأسلوبية الذاتية (ش ـ خى) من جديد لكى نحدد ماكان منها ذاتيا خالصا ، وما كان ذاتيا موضوعيا (ش ض ـ خى) ، وذلك بتعريضها للاختبارين التاليين :

الأول : يقارن الباحث فيه بين مدونتين على الأقل تنتميان الى مقامين مختلفين ، ولنرمز لهما بالرمز ص (قى) والرمز ص (قد) . وعليه أن يفحص في مقارنته الخواص الأسلوبية الذاتية (ش ـ خى) . ثم يرى الباحث هل تختلف المسافة التى تتأرجح فيها قيم (ش ـ خى) بين المدونتين ص (قى) و ص (قد) ؟

الثانى : يحسب الباحث متوسط قيمة (ش ـ خى) في المدونتين ص (قن) و ص (قد) ثم يرى هل تختلف القيمتان اختلافا دالا ؟ وإذا كان الجواب عن السؤالين السابقين بالإيجاب فإن الخواص الذاتية المميزة لاتكون ذاتية خالصة ، بل هى خواص ذاتية موضوعية (ش ص ـ خش) في آن معا . فهى ذاتية باعتبار تأرجح قيمها الدال خلال المدونة ، مما يعنى ثباتها لدى المنشىء الواحد واختلافها عند سائر المنشئين . وهى موضوعية بحكم اختلاف مسافة تأرجح قيمها أو اختلاف متوسط قيمة التأرجح باختلاف المقام . أما الخواص التى لاتلبى متطلبات الاختيارين السابقين فتكون ذاتية خالصة (ش ـ خ) . وهكذا يتحصل لنا مما سبق ثلاثة أنواع من الخواص الأسلوبية هى :

(١) خواص أسلوبية ذاتية خالصة (ش ـ خى) .

(٢) خواص أسلوبية ذاتية موضوعية (ش ض ـ خى)

(٣) خواص أسلوبية موضوعية خالصة (ض ـ خى) .

ومن هذه الأنواع تتشكل الصورة الأخيرة لمعادلة التشخيص الإحصائى للأسلوب ، ونعنى بها :

المعادلة المحددة لأسلوب النص Specified text - Style Formula

وتتخذ الصيغة الآتية :

ص = (ش ـ خ١ ، ش ـ خ٢ . . . ش خك ، ش ض ـ خك+١ ، ش ض ـ خك+٢ . . . ش ض ـ خم ، ض ـ خم+١ ، ض ـ خم+٢ . . . ض ـ خن)

وتعنى هذه المعادلة ببساطة أن الخواص المحددة لأسلوب النص (ص) تساوى مجموع الخواص الأسلوبية المستقلة (لا التابعة) بأنواعها الثلاثة : الذاتى (ش ـ خ١ . . . ش ـ خك) والذاتى الموضوعى (ش ض ـ خك+١ . . . ش ض ـ م) ، والموضوعى (ض ـ خم+١ . . . ض ـ خن)

وتتميز المعادلة المحددة لأسلوب النص بأنها تمثل النص تمثيلا شكليا باستخدام منظومات من مكوناته المستقلة المتنوعة . كما أنها تعبر عن الدرجة التى تسهم بها المكونات الذاتية والموضوعية في تشكيل النص ، وما يتمتع بها كل منها من وزن خاص . كذلكم تظهر لنا هذه المعادلة أسلوب النص في هيئة بنية إحصائية مركبة . وهكذا يمكن تشخيص أسلوب النص إحصائيا بتجزئته الى عدد محدد من المكونات الأسلوبية الموصفة القابلة للقياس الدقيق . ويمثل هذا

الإنجاز في رأى دوليجيل أهم إسهام يقدمه المفهوم الإحصائى لنظرية الأسلوب . وجدير بالذكر أن صفة الذاتية والموضوعية في المعادلة لاتحددها الخواص اللغوية ، بل العوامل البراجماتية المتحكمة في توليدها .

٢ ـ ٨ ـ ٥ . خلاصة

يخلص لنا مما سبق :

أولا : أن التوصل الى المعادلة القادرة على تشخيص البنية الإحصائية لأسلوب النص قد مر بالمراحل الآتية :

(١) المعادلة المبدئية للنص .

(٢) المعادلة المبدئية لأسلوب النص .

(٣) المعادلة المختصرة لأسلوب النص .

(٤) المعادلة المحدِّدةُ لأسلوب النص .

ثانيا : أن المعادلة المحدِّدة لأسلوب النص تتنوع بحسب العوامل الذاتية والموضوعية التى تحكم الاختيار من البدائل .

ثالثا : أن الاختيار من بين مجموعة الابدال المتاحة إذا كان محكوما بالعوامل الذاتية الخالصة كانت صيغة المعادلة هى :

$$ص = (ش - خ_{١} ، ش - خ_{٢} . . . . ش - خ_{ن})$$

رابعا : اذا كان الاختيار محكوما بالعوامل الموضوعية الخالصة فإن المعادلة تكون كما يلى :

$$ص = (ض - خ_{١} ، ض - خ_{٢} . . . ض - خ_{ن})$$

خامسا : إذا كان الاختيار محكوما بعوامل ذاتية موضوعية كانت صيغة المعادلة :

$$ص = (ش ض - خ_{١} ، ش ض - خ_{٢} . . . ش ض - خ_{ن})$$

سادسا : أن الحالات الثلاثة السابقة تفترض وجود نصوص متجانسة تجانسا تاما . وهذا استثناء . أما الغالب فهو أن تتألف النصوص من الأنواع الثلاثة السابقة وتعبر عن ذلك المعادلة المركبة التى سبق إيرادها .

سابعا : ينبهنا دوليجيل ـ في ختام مشروعه ـ الى مشكلة هامة فحواها أن الخواص الأسلوبية المتطابقة لغويا قد تختلف طبيعتها الإحصائية باختلاف النصوص أو باختلاف أنواع النصوص ، فقد يكون طول الجملة خاصية ذاتية في نص ، وموضوعية في نص آخر ، وذاتية موضوعية في نص ثالث . وينشأ عن ذلك اختلاف وظيفة الخاصية في عملية التشخيص . إنها في النص الأول صالحة لأن تكون مميزا لأسلوب المنشىء الفرد ، وفي الثانى لا تصلح ألبتة لهذه الوظيفة . أما حين تكون الخاصية ذاتية ـ موضوعية فإن صلاحيتها لتمييز فردية الأسلوب تكون مقيدة بمنطقة معينة ، أى أنها لا تكون مميزا إلا في حدود مقام واحد ثابت . وهذه المشكلة ـ عند دوليجيل ـ من أكبر المشكلات التى تواجه النظرية الإحصائية في التحليل الأسلوبى صعوبة وخطرا ، ولم تلق حتى الآن ماهى جديرة به من اهتمام .

ثامنا : قد يتخذ من هذا التعارض المثير للدهشة في التفسيرات المتنوعة للخواص الأسلوبية دليل على وجود نقص في النظرية . غير أن النقص في النظرية ليس هو وحده المسئول عما يشيع في نتائج الأسلوبيات الإحصائية من مظاهر التردد والتناقض . ذلك أن التفسيرات ذات طابع افتراضي ظاهر . كما أن الحساب الدقيق لهذه المادة صعب بسبب العلاقة المعقدة بين (النص ـ العينة) و (النص ـ المجتمع) .

يضاف الى ذلك أن وضع حدود مرضية للمجتمع الإحصائى للنص (أو المجتمعات) هو مهمة معقدة ، لأن المجتمعات الإحصائية هى بالنسبة لدراسة النصوص مجموعات مفتوحة ، أى لايمكن وقوعها تحت حصر .

وأخيرا : يقرر دوليجيل أن الأمل معقود على استخدام الحاسوب للتوسع في معالجة مجموعات كبيرة ومتكاملة ـ وبها نتمكن من الاختبار العلمى للفروض الأساسية في نظرية الأسلوبيات الإحصائية . ولابد من تضافر الجهود في هذا الاتجاه ليكتسب هذا الدرس صفة المنهج العلمى الحديث عن جدارة .

٣ ـ مبحث الوظيفة

٣ ـ ١ . المقياس الأسلوبي الإحصائى

نحاول بهذا المبحث الثالث أن نستوفى أنحاء التقسيم المقترح لهذه الدراسة ببيان للكيفيات والمجالات التى يمكن بها وفيها توظيف الإحصاء في دراسة الظاهرة الأسلوبية . ونحسب أن أول ما ينبغى البدء به هنا هو بيان مفهوم المقياس الأسلوبي الإحصائى ، واستخداماته ، ومجالات تطبيقه .

المقياس الأسلوبي الإحصائى هو : (صيغة شكلية تؤسس علاقة بين المتغيرات أو الخصائص ومايمتاز به النص من غيره من النصوص ، أو مايستدعيه من أحكام ونعوت) .

٣ ـ ٢ . مجالات تطبيقه .

وينشأ مما سبق وجود وجهين لاستخدام المقياس الأسلوبي :

أولهما : تأسيس علاقة بين المتغيرات الأسلوبية بهدف الكشف عن الخصائص الأسلوبية المائزة ، (وهو الهدف الوصفى)

ثانيهما : تأسيس علاقة بين الخصائص الأسلوبية المائزة بهدف الكشف عن نعوت الأسلوب . (وهو الهدف التقويمى) ، كلا الهدفين واقع في مجال التشخيص الأسلوبي ، إلا ان أولهما ينصرف الى تشخيص الأساليب ، وثانيهما ينصرف الى تشخيص نعوت الأساليب .

ويشكل كلا هذين الاستخدامين بابا واسعا يدلف منه الباحثون الى ميدان عريض ، ويستشرفون فيها آفاقا رحبة للبحث الأسلوبي . وتتسع مجالات التطبيق والإفادة من المقاييس الأسلوبية الإحصائية لتشمل :

(١) في اللسانيات الاجتماعية : Sociolinguistics : قضايا الاستعمال الاجتماعى للغة ، والسجل اللغوى register ، وتحليل الخطاب discourse Analysis ، ومقاميات اللغة Pragmatics of langyage

(٢) وفي اللسانيات التاريخية historical linguistics : قضايا تمايز الأساليب باعتبار العصر ، والتغير التاريخى للأساليب dynamic Stylistics وفحص الوثائق التاريخية اللغوية .

(٣) وفي اللسانيات النفسانية قضايا اللغة والفكر ، واللغة والشخصية ، والعقلانية والانفعالية ، ومبحث الإبداع .

(٤) وفي اللسانيات الأدبية : قضايا تمايز أساليب الأفراد ، والكشف عن المؤلف المجهول ، وتصحيح نسبة النصوص ، وتحقيق قضايا الانتحال والوضع والتقليد ، وتمييز نعوت الأساليب ، وتشخيص العلاقة بين المنشىء وشخصياته الروائية أو المسرحية ، وأنماط اللغة الأدبية ، والترتيب التاريخى لأعمال المنشئين ، وبحث الأنواع الأدبية ، وجماليات التشكيل اللغوى للنص الأدبى .

(٥) وفي الدراسات التربوية : قضايا المعجم الأساسى ، والثروة اللفظية ، وقابلية النصوص للقراءة readability ، والتشويق والإثارة في تشكيل لغة النصوص التعليمية .

هذا الى مجالات أخرى كثيرة في علم الاجتماع ، وعلم الثقافات ، وعلم المعلومات ، والسيميائيات ، وعلوم الإعلام نوردها لا على وجه الحصر وإنما لنشير بها الى ما ينتظر الأسلوبيات الإحصائية من مهمات جسام في جميع ميادين الدراسات الإنسانية على تنوعها ورحابتها .

٣ ـ ٢ . أنماط المقاييس الأسلوبية .

تتعدد أنماط المقاييس الأسلوبية بحسب المبدأ الذى تستند إليه . ومن الأهمية بمكان أن تحدد هذه الأنماط ، فذلك أنسب المداخل لمناقشة قضية كثر حولها الجدال واختلطت فيها الأوراق ، ونعنى بها مبدأ شمولية المقياس الأسلوبى ، ومدى شرعية افتراض المقاييس وتجاوزها حدود اللغة التى استنبطت فيها الى غيرها من لغات البشر . وسنعود الى ذلك في مايلى من حديث .

ويمكن أن نستظهر مبادىء أربعة تقوم على أساسها الاستدلال بالمقاييس الأسلوبية الإحصائية .

(١) **مبدأ رياضي** : وإليه تنتمى المقاييس الأسلوبية التى تقوم على حساب العلاقة بين الكميات في صيغة معادلة رياضية ، ومنها حساب التباين ، والانحراف المعيارى ، والارتباط ، وكاى[٢] ، والنسبة الحرجة وسائر طرق الاستدلال الإحصائى .

(٢) **مبدأ لغوي** : يقوم على الكشف عن الدلالة اللغوية للعلاقة بين المتغيرات الأسلوبية المقالية ، ومنه مقاييس طول الجملة ، وأنواعها ، والمفاتيح المعجمية وغير ذلك مما يقيس الشيوع والتوزيع لمتغيرات المقال .

(٣) **مبدأ منطقى** : وهو حساب رياضى للمتغيرات الأسلوبية يستمد حجيته من موافقته لبدهيات المنطق . ومن هذه المقاييس قياس تنوع المفردات Vocabulary diversification الذى استنبطه ت . م . جونستون T.M. Joneston . وقد أقامه على أساس من رد مجموع مفردات الكلمات التى يتشكل منها النص Tokens الى الأنماط الأساسية بعد حذف جميع تكراراتها Types ، ثم قياس التنوع بطرق ذات دلالات مختلفة بحساب النسبة بين المجموع الكلى للكلمات وأنماطها .

(٤) مبدأ نفسانى : وأكثر المقاييس التى تقوم على مبدأ نفسانى تستمد أساسها من الفروض العلمية فى الدراسات النفسانية . والى هذا النمط ينتمى معامل بوزيمان Busemann,s Coefficient لقياس درجات الانفعالية والعقلانية فى الأسلوب عن طريق حساب النسبة بين الأفعال والصفات ، وقد أوحى بفكرة المقياس له ما لاحظه من دراساته فى اللسانيات النفسانية للغة الأطفال ، إذ لاحظ غلبة الأفعال على الصفات فيما يحكونه من قصص ، وتغير هذه النسبة باتجاهها نحو الانخفاض بنمو الطفل ونضوج قدراته وملكاته الفكرية والإدراكية . وهكذا تشكل هذا الفرض العلمى فى إطار البحوث النفسانية . وجرى اختباره فأسفر عن إمكانات طيبة فى قياس درجة الاستقرار العاطفى ، وقياس أنماط الشخصيه ، وحظها من الانفعالية والعقلانية .

ولقد كانت هذه الملاحظة العلمية منطلق بوزيمان لوضـع هذا المقيـاس الأسلوبى ، ومنطلق من جـاءوا بعده لتطويره . وأصبح ممكنا به اختبار الفوارق الأسلوبية بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة وبين الأسلوب العلمى والأدبى ، وبين الشعرية والنثرية ، وبين لغة الفرد ولغة الحوار ، وبين لغة الرجال ولغة النساء ، وبين لغة الصغار ولغة الكبار ، ولغة الأنواع الأدبية ، وقياس الخط الدرامى فى القصة والمسرحية والرواية [٦٠] .

٣ ـ ٣ . مبدأ شمولية المقياس الأسلوبى :

نعود هنا ـ فى ضوء ماتقدم ـ لمناقشة مبدأ شمولية المقياس الأسلوبى بمحاولة للإجابة عن هذا السؤال الهام : الى أى مدى يجوز للغات أن تتقارض المقاييس الأسلوبية فيما بينها ، وأى حجية تكون للمقياس إذا جاوزنا به حدود اللغة التى استنبط فيها الى غيرها من لغات البشر ؟ (ومن الضامن لتلك المقاييس أن تتحول الى كليات معرفية مهما اختلفت الألسنة التى تجرى عليها ؟ أفليس من الطبيعى أن نختبر الجهاز الإجرائى أولا ؟ بل أليس بديهيا أن نعمل على استنباط هذا الجهاز من صلب المدونة التى نتخذها مناطا لبحثنا التطبيقى ؟) [٦١] .

ولأن هذه التساؤلات تتردد فى غير موضوع ومن غير باحث فإنها ـ ولا شك ـ مستحقة لأن تكون موضع اعتبار . وعلينا ـ لدى مناقشتها ـ أن ننبه الى أنها لاترد إلا على النمط الأخير من المقاييس ، إذ إن حجية المقاييس القائمة على المبدأ الرياضى أو المنطقى ثابتة فى كل لسان ، كما أن حجية المقياس القائم على مبدأ لغوى فى إطار اللغة الواحدة ليست موضع خلاف . من هنا كان حظ المحاولة التى بذلت لإعمال معامل بوزيمان وتطبيقه على المادة العربية من النقد والمناقشة موفورا . وقد كان من كاتب هذه السطور رد مفصل فى غير هذا المكان على ما أثير من ملاحظات وحسبنا هنا أن نقول : إن مثل هذا المقياس إذا كان قد استنبط من لغة بعينها فإن ذلك يمنحه شرعية الفرض العلمى الذى يبقى قابلا للإثبات أو النفى بحسب ما يؤدى إليه الجهد التطبيقى . وقد أثبتت الدراسات التى أجريت عليه فى الألمانية والانجليزية والفرنسية

---

(٦٠) انظر : سعد مصلوح : (الأسلوب . .) ، ص ٥٩ ـ ٦٢ و١٢٣ ـ ١٢٥ .

(٦١) من رسالة كريمة تلقاها كاتب هذا البحث من الدكتور عبد السلام المسدي مؤرخه فى ١٩٨٤/٤/١٠م . يعلق على استخدامنا لمعامل بوزيمان فى التشخيص الأسلوبى ، وقريب من ذلك ما ورد فى :
صلاح فضل : علم الأسلوب : مبادئه وإجراءاته ، ص ٣٢٦ . وانظر ردا لنا عليه فى : دراسات نقدية فى اللسانيات العربية المعاصرة ، ص ٧٦ ـ ٧٨ .
أما اللسانيون فقد مال كثير منهم إلى تزكية هذه التجربة وتأكيد أهميتها . وانظر فى ذلك عرضاً ناقداً وافياً للكتاب فى : مازن الوعر : دراسات لسانية تطبيقية ، دمشق ، دار طلاس ، ط ١ ، ١٩٨٩ ، ص ١٦٣ ـ ٢٠٠ وقد ضمنه المؤلف وجهة نظره فى إيجابيات التجربة وسلبياتها .

صدقه وقدرته على أن يكون مؤشرا كاشفا لأنواع الأساليب . ولم تكن درجة صدقه على العربية بأقل منها في غيرها من اللغات .

بيد أن الاحتراز الأساسي - في هذا المقام - إنما ينصرف الى المتغيرات اللغوية الأسلوبية الداخلة في الكميات المقيسة ، إذ ينبغي تحديدها تحديداً قاطعا ونافيا لكل لبس . ومن ثم كان لابد من تكييف المقاييس من هذه الوجهة لتكون صالحة للتطبيق ومحققة للغاية المنوطة بها . إن هذه المتغيرات . وإن اتفقت في طبيعتها اللسانية العامة (صوتية كانت أو صرفية أو تركيبية أو دلالية) هي تصورات ذات ماصدقات مختلفة باختلاف النظم اللغوية المعينة ، ومن ثم نتوقع اختلاف حدود الفونيمات وأنواع المورفيمات والجمل والحقول الدلالية من لغة الى لغة ، كما نتوقع أيضا اختلاف التبويب والتقعيد وإجراءات الوصف باختلاف الطرز النحوية . ومن هنا كان تحرير مفاهيمها وتحديد ماصدقاتها وعلاقاتها النظامية ضرورة منهجية لاترخص فيها . بيد أن اختلاف هذه المفاهيم ، وخصوصية المباني والاستعمالات الأسلوبية في لغة ما لاينفي ما للظاهرة الأسلوبية من طبيعة لسانية عامة ، وهي بذلك إحدى الجوامع اللسانية Linguis-tic Universals التي لا تخلو منها لغة ، ولا تختص بها إحداها دون سائرها .

٤ - كلمة خاتمة : عن قضايا العربية والمعالجة الإحصائية

لعل استبصار الآفاق الرحبة التي تعد بها المعالجة الإحصائية ، بله الحاسوبية [٦٢] ، لنصوص اللغة تفضي بنا الى ضرورة وضعها في حاقّ موضعها من الهموم العلمية للباحث العربي المعاصر . ولاشك أن رصد ماتم إنجازه في هذا المقام ربما كان أيسر منالا من تعداد المجالات التي تتطلع العربية الى اقتحامها والإفادة منها . [٦٣].

بيد أننا نشير هنا الى عدة مجالات تمثل بالنسبة لجمهرة الباحثين أحلاما تستعصي على التحقيق إلا باستنفار الجهود وتضافر المؤسسات العلمية القادرة على التخطيط والمتابعة والإنجاز .

أولها : إنجاز وصف دقيق للعربية المعاصرة على اختلاف تنوعاتها الإقليمية ، والاجتماعية .

وثانيها : إنجاز المعجم التاريخي للعربية .

وثالثها : إنجاز الأطلس اللساني العربي .

ورابعها : الإسهام الجاد من اللسانيين في صياغة نظرية نقدية تستوفي أشراط العلمية والموضوعية في دراسة النص الأدبي بأجناسه المختلفة .

وفي كل ماتقدم نحسب أن إعمال المعالجة الإحصائية والحاسوبية في دراسة نصوص العربية قديمها وحديثها هو أمر لايمكن تجاوزه بحال .

---

(٦٢) لا يفوتنا أن ننوه هنا بكتاب نبيل علي : اللغة العربية والحاسوب ، (القاهرة ، دار تعريب ١٩٨٨) - وهو دراسة تحتاج الى متابعة لسانية جادة . وقد أورد المؤلف في ختامه قائمة ثرية ببحوث مقترحة في مجال اللسانيات الحاسوبية مطبقة على اللغة العربية (ص ٥٣٦ - ٥٥٠) .

(٦٣) قطع معهد الخرطوم الدولي للغة العربية (التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) شوطاً في إنجاز مشروع الدراسات الاحصائية على اللغة العربية . وكان لكاتب البحث شرف الإشراف على بعض مراحله . ولكن ضعف الإمكانات وضخامة المشروع تقف عائقاً دون إتمامه . وانظر لكاتب البحث . (مؤشرات لغوية إحصائية في عناوين الصحافة العربية : مصر - ليبيا - السودان) ، في (دراسات إحصائية استطلاعية في العربية المعاصرة) ، الخرطوم ، ١٩٨٥ ، ص ١ - ٣٣ .

الاقتضاء في التداول اللساني

عادل فاخوري

الاستاذ بقسم الفلسفة ـ جامعة الكويت

مثلما ان اللزوم المنطقي logical implication هو محور علم المعاني، كذلك الاقتضاء implicature هو من أهم المفاهيم التي يقوم عليها علم التداول Pragmatics. وبالرغم من التقارب بين هاتين العمليتين، إلا أن ثمة فوارق حاسمة دعت غرايس Grice ، واضع هذا المفهوم، الى اشتقاق مصطلح جديد من المصدر « implicate » ذاته وتخصيص عملية الاستدلال التي تجري في التداول اللفظي باسم الـ implicature تمييزا لها عن الـ implication المتعارف عليها.

في التراث العربي، أي في كتب المنطق والأصول والبلاغة، تستعمل نفس لفظة « اللزوم » أو « الاستلزام » للدلالة بنوع عام على أية واحدة من عمليتي الاستدلال المذكورتين، دون تفرقة[1] . انما، نظرا للاختلاف الجوهري بينهما، أخذنا بمصطلح « الاقتضاء » المستعمل في أصول الفقه بمعنى شبيه بمفهوم غرايس، للدلالة على الاستدلال التداولي، وحصرنا لفظة «اللزوم» بالاستدلال المنطقي وحده.

خلافا للزوم، يستند الاقتضاء إلى مباديء عامة تقع خارج تنظيم اللغة وتهدف الى الاتصال القائم على التعاون. ومع ذلك فللاقتضاء تأثير فعال على بنية اللغة ذاتها.

من أهم ميزات الاقتضاء، انه يقدم تفسيرا صريحا لمقدرة المتكلم على ان يعني أكثر مما يقول بالفعل، أي أكثر مما يعبر عنه بالمعنى الحقيقي للألفاظ المستعملة. فبالنسبة للمثل :

أ : كم الساعة ؟

ب : لقد أذّن العصر .

(١) هكذا يقال مثلا «يلزم عن كل غراب أسود أن بعض الغربان سود» بمعنى اللزوم او الاستنتاج المنطقي . وكذلك يقال مثلا أن قولي «رأيتك البارحة في المطار» هو لازم قائله قولي «كنت البارحة في المطار» ، بمعنى اللزوم التداولي .

لا يستطيع علم المعاني وحده أن يمدنا إلا بالتوضيح الآتي على الأكثر :

أ : أنا أرغب أن تقول لي (كم الساعة ؟)

ب : لقد (أذّن العصر) في وقت سابق لاستفسارك .

لكن من الظاهر، لكل من يتكلم العربية ، ان المراد بهذا التخاطب يتجاوز بكثير المنطوق الحرفي. فالحوار يقصد بالتفصيل :

أ : أرغب أن تقول لي (كم الساعة) بحسب التوقيت المحلي المتعارف عليه دوليا ، في اللحظة التي أتكلم فيها معك الآن ، إذا كان باستطاعتك ذلك .

ب : بالحقيقة انا لا أعرف الوقت الدقيق الآن ، لكني استطيع أن أفيدك بخبر يمكّنك من أن تستنتج الوقت على وجه التقريب وهو (ان أذان العصر قد مضى) منذ فترة وجيزة .

ولا ريب ان هذا المقصود التفصيلي بالذات ، أي الاستخبار عن الوقت الدقيق ومحاولة إفادة المعلومات على قدر المستطاع ، لا يمكن الوصول اليه كليا بواسطة علم المعاني ، بل لابد من اللجوء الى الاقتضاء التخاطبي لسد الثغرة الحاصلة بين المقول حرفيا وبين ما يُبْلَغ المستمع .

ومن فوائد الاقتضاء كذلك انه قادر على إحداث تبسيط في بنية الأوصاف الدلالية semantic description ، كما في مضمون هذه الأوصاف . فاذا ما قارنا بين المثلين الآتيين .

١ ـ فتح سمير قنينة البيبسي وشربها دفعة واحدة .
٢ ـ بيروت عاصمة لبنان والقاهرة عاصمة مصر .

نجد أن معنى واو العطف في المثل الأول يغاير جزئيا معناها في المثل الثاني . فالواو في (١) تدل على التعقيب بحيث انه من الصعب تصور عكس الترتيب الزماني ، إذ قولنا :

شرب سمير قنينة البيبسي دفعة واحدة وفتحها :

يبدو غير معقول : بينما في (٢) لا تفيد الواو أكثر من مطلق الاشتراك والجمع ، أي تماما المعنى الذي يحدد جدول الصدق لرابط الوصل (٨) ، وهو صدق المركب فقط عند صدق الطرفين :

ب	ج	ب ٨ ج
ص	ص	ص
ص	ك	ك
ك	ص	ك
ك	ك	ك

وبالتالي، فإن عكس ترتيب الطرفين لا يغير شيئا في المعنى. فقولنا:

القاهرة عاصمة مصر وبيروت عاصمة لبنان

لا يختلف مع قولنا في المثل (٢). لأن تقييم (ج ٨ ب) هو مرادف لتقييم (ب ٨ ج) كما يستبان من الجدول الآتي:

ب	ج	ج ٨ ب
ص	ص	ص
ص	ك	ك
ك	ص	ك
ك	ك	ك

أمام هذه الاشكالات، لا يجد علم المعاني من حل سوى الادعاء بأن الواو يشوبها الالتباس، إذ تحتمل عدة معانٍ مختلفة، أو الزعم أن معاني الكلمات هي بنوع عام غامضة ومضطربة تتقلب مع تغيير السياق والتركيب. لكن في الحالة الأولى، يلزمه تشعب المعاني حتى بالنسبة لأبسط الكلمات. فمثلا عند اعتبار الجملتين:

العَلَم أبيض
العَلَم أبيض وأحمر وأزرق

يضطر علم المعاني لأن يضفي كل مرة على كلمة « أبيض » معنى مختلفا فهي في الجملة الاولى تعني «كليا أبيض» وفي الثانية «جزئيا أبيض».

وفي الحالة الأخرى، أي عند الزعم أن المعاني في اللغات الطبيعية غير مستقرة، يعجز هذا العلم عن كيفية تحديد معنى الكلمة المتغير، عند كل وقوع لها.

أما مفهوم الاقتضاء فهو بلاشك يقدم الحل الأنسب، إذ يقرر ان الفاظ اللغة الطبيعية انها تنزع الى المعاني الموحدة الثابتة، لكن من طبيعة هذا الكنه الدلالي ان تتعلق به غالبا لواحق متغيرة يقتضيها السياق وفقا لقواعد معينة.

وأخيرا، من ميزات الاقتضاء، بالاضافة الى ما سبق، انه استنادا الى عدد قليل من المبادىء، قادر على تفسير كثير من الامور التي تبدو في غاية التفاوت والتباعد.

المعنى غير الطبيعي

من الواضح انه عند تلفظ ما، غالبا ما نستطيع أن نستدل على توابع مختلفة، لكن هذه التوابع ليست واقعة جميعا تحت المعنى المقصود إبلاغه، اي المعنى المقصود به أن يُدرك انه مقصود، وهو ما يسميه غرايس « المعنى غير الطبيعي» non-natural meaning. وحْدَها تلك الاستدلالات التي أطلقنا عليها اسم «المقتضيات» implicature هي

من المعاني التي يراد إبلاغها على النحو المذكور، وهي بالتالي، الى جانب المقول what is said أو المنطوق، تشكل القسيم الثاني للمعنى غير الطبيعي. لذلك كان لابد من ربط نظرية الاقتضاء بنظرية المعنى غير الطبيعي.

تتمحور نظرية الاتصال[2] عند غرايس H.P.Grice حول ما يخصه باسم « المعنى غير الطبيعي » أو « الدلالة غير الطبيعية »[3] non - natural meaning. وبالاختصار « المعنى غ ط » أو « الدلالة غ ط » meaning nn . لتعيين هذا المفهوم وتمييزه مما عداه يستعرض غرايس مختلف الاستعمالات التي تتقبلها لفظة « meaning » في التداول العادي.

فالتمييز العام الذي ينطلق منه هو التفرقة بين الاستعمال الذي يحتمل القصد والاستعمال الذي لا يحتمله.

هكذا مثلا في العبارات الآتية :

الغيوم تعني أو تدل على المطر
الاحمرار يعني أو يدل على الخجل
تقطيب الحاجبين يعني أو يدل على الاستياء

تكون الدلالة طبيعية، من حيث أن الأمور الدالة، اي الغيوم والاحمرار وتقطيب الحاجبين، لم تحدث قصداً من قبل شخص ما، للدلالة على المطر والخجل والاستياء على التوالي، بل إن دلالتها تعوذ لمجرد علاقة علية بين الدال والمدلول. ومن الواضح أنه في هذا الاستعمال لا تنطوي كلمة « معنى » أو كلمة «دلالة» على القصد البتة.

بينما في أمثلة أخرى، كأن يتكلف احدهم تقطيب حاجبيه ليدل على استيائه، أو يلوح بيده لالقاء التحية على صديق، أو في أثناء التخاطب المعهود، لاشك ان الدلالة مقصودة من قبل المرْسِل. فالتلويح مثلا هو فعل قام به المرسل قصدا لإبلاغ صديقه التحية.

بين الدلالات التي تحتمل القصد يميز غرايس عدة أنواع تختلف ما بينها باختلاف موقف المتلقيّ من القصد الدلالي بالذات.

ففي بعض الحالات، كما في حال ترك احدهم بيته مضاءً عند غيابه لإيهام السارق بوجوده فيه، أو كما في حال تعمد تقطيب الحاجبين لأظهار الاستياء، لابد لقصد المرسل حتى يتحقق، أن يبقى خفيا عن المتلقي. فدراية المتلقيّ بقصد المرسِل تتضارب ولاشك مع تحقيق هذا القصد. فلكي يعني البيت المضاء للسارق أنه ليس خاليا، من الضروري ان يكون السارق جاهلا بأن صاحب البيت انما تركه مضاء ليقصد بذلك عدم خلو البيت. فإن عرف

(٢) هذه النظرية معروضة في عده مقالات نشرها غرايس خلال فترة من الزمن تزيد على عشر سنوات.
راجع :

Meaning, philosophical Review, Vol. 66. 1957
Utterer' Meaning, sentence – Meaning and Word Meaning, Foundations of Language, Vol 4, 1968.
Utterer's Meaning and intentions, philosophical Review, Vol. 78, 1969.

(٣) كلمة «meaning» الانكليزية قد تؤدى بالعربية بكلمة «معنى» أو بكلمة «دلالة»، دون فرق لكن. الاستعمال الشامل لكلمة «meaning» يقربها بالأحرى من كلمة «دلالة» ذات المفهوم العام. بينما لفظة «معنى» تميل إلى الاستعمال ذي الطابع القصدي.

السارق قصد صاحب البيت فشل تحقيق القصد. وكذلك بالنسبة لتقطيب الحاجبين، إذ متى أدرك المتلقي قصد المُرسِل بَطُلَ ان يدل التقطيب على المعنى الطبيعي اي الإستياء.

إلى جانب هذا النمط من الدلالة القصدية، ثمة نمط آخر حيث الدراية بالقصد لا تتنافى مع تحقق الدلالة. لنفترض مثلا اني ناولت صديقاً لي صورة فوتوغرافية تمثل إمرأته في أحضان رجل ما، قاصدا بذلك الدلالة على أن امرأته تخونه، فلاشك ان قصدي يتحقق إذا ما أدرك الصديق أن هذه الصورة تعني ان امرأته تخونه، وهو يتحقق حتى وإن دَرى الصديق قصدي أن أعني له ذلك بعرض الصورة عليه. انها، في هذا المثل، مع أن دراية المتلقي بقصد المرسِل لا تتنافى مع تحقق القصد، إلا أنها غير منوطة به: فدراية القصد ليست شرطا ضروريا لتحققه. فلو وقع صديقي صدفة على الصورة دون علمي، أو لو أني تصرفت بشكل يستطيع معه ملاحظتها، دون ان أظهر له قصدي بالدلالة على خيانة امرأته، فإنه سيدرك بلا ريب الرسالة التي تحملها الصورة[٤].

بالنسبة لفئة من الدلالة القصدية لا يكفي حتى تصح، ان لا تتنافى دراية المتلقي بقصد المرسِل مع تحقق قصد الدلالة، بل لابد من الدراية لتحقق القصد المذكور. فلا يستطيع المرسل أن يُبْلِغ شيئا الى المتلقي إلا اذا استطاع ان يبلغه قصده بالدلالة على ذلك. هذه الفئة من الدلالة القصدية هي ما يخصها غرايس باسم « الدلالة غير الطبيعية ». هكذا مثلا، إذا التقيت بشخص ما في الشارع ولوحت له بيدي أو قلت له « مرحبا » فإني بذلك أقصد إلقاء التحية عليه. لكن قصدي هذا لن يتحقق إلا إذا درى الشخص به. فحالما يدرك المتلقى قصدي يتحقق هذا القصد، وبالعكس أي أنه إن لم يدر به فلن يتحقق. إذ ان دراية قصد الدلالة غير الطبيعية هو شرط لابد منه لتحقيق القصد. بهذا الصدد يقول سورل « إن للاتصال بين الناس خصائص عجيبة ينفرد بها عن سائر أنماط السلوك الإنساني. ومن عجيب تلك الخصائص انه إذا حاولت أن أقول شيئا لشخص ما، فحالما يدري أني أحاول أن أقول له شيئا، ويدري ما أحاول أن أقوله له بالضبط، أكون « عند توفر بعض الشروط » قد نجحت في إبلاغه ذلك. بل إنه طالما يدري أني أحاول أن أقول له شيئا، ولم يدر ما أحاول أن أقوله له، فاني أكون لم أنجح كليا بإبلاغه ذلك »[٥]. أو وفقا لتعبير غرايس: أن تدل على شيء ما دلالة غير طبيعية هو أن تدل عليه بواسطة دراية المتلقي لقصد الدلالة عليه. فقصد الدلالة عليه إنما هو قصد الدلالة عليه بواسطة دراية القصد.

من هذا التحليل يتبين لنا أن خصوصية الانعكاس هي خصوصية جوهرية للاتصال القصدي. فحتى يحصل الاتصال القصدي بالمعنى الحصري للكلمة، لا يكفي ان يتم توصيل المحتوى بشكل قصدي، بل لابد بالإضافة الى ذلك ان يُقصد توصيل أن هذا المحتوى قد أريد توصيله بشكل قصدي. ففعل التوصيل ينعكس على ذاته ويشكل جزءا مما يجري توصيله[٦].

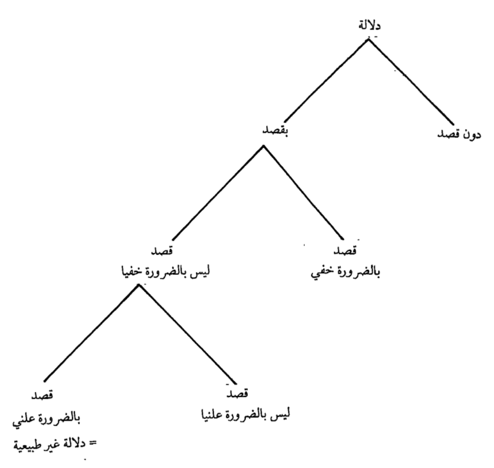
---

(٤) أغلب الدلالات الاجتماعية هي عادة من هذا النمط، مثل ارتداء الأزياء الدالة على المكانة أو الرتبة (بزة الجنرال) أو على نشاط أو عمل ما (ثياب السهرة أو الرياضة)، ومثل اقتناء واستعمال بعض الأشياء الخاصة بطبقة اجتماعية (قيادة سيارة رولز رويس).

(٥) Speech Acts, P. 47

(٦) لكن هذا لايعني ان توصيل المحتوى وتوصيل هذا التوصيل هما فعلان متغايران. وإلا وجب في كل فعل دلالي غير طبيعي ان يكون عند المرسل قصد أول للدلالة على المحتوى للمتلقي، وقصد ثان للدلالة على القصد الأول، وقصد ثالث للدلالة على الثاني، وهكذا إلى مالا نهاية له. وبالتالي تعذر توصيل أي شيء.

كل انواع الدلالات السابقة التي أتينا على ذكرها، يمكن إجمالها بالمشجر الآتي :



مع الاخذ بعين الاعتبار ان : خفي = غير علني .

قواعد التخاطب

يقوم مفهوم الاقتضاء أصلا على نظرية خاصة في كيفية استعمال اللغة. فالممارسة اللغوية، بحسب غرايس، نشاط عقلاني يهدف إلى التعاون مابين المتخاطبين. لذلك كان لابد من افتراض توجيهات أو قواعد، صادرة عن اعتبارات عقلية، تتدبر السلوك التخاطبي وتجعله فعالا وناجحا. هذه التوجيهات أو القواعد تسير بهدي مبدأ شامل يطلق عليه غرايس اسم « مبدأ التعاون » the co — operative principle الذي ينص على مايلي :

مبدأ التعاون : إجعل مشاركتك على النحو الذي يتطلبه، في مرحلة حصولها، الغرض أو المآل المُسَلَّم به من التخاطب المعقود.

أما القواعد، أو كما يسميها غرايس « الحِكَم » maxim ، التي تندرج تحت هذا المبدأ الشامل ، فيجري تصنيفها إلى أربع مقولات، مقتبسة عن كانط، هي : مقولات الكمية والكيفية والإضافة والجهة .

١ ـ **مقولة الكمية** : وهي تخص كمية المعلومات التي يجب توفيرها . وتؤدى بالقاعدتين :

I. اجعل مشاركتك تفيد على قدر ما هو مطلوب ، من أجل تحقيق أغراض التخاطب الحالية .
II. لا تجعل مشاركتك تفيد أكثر مما هو مطلوب .

٢ ـ **مقولة الكيفية** : وتتعلق بالقاعدة العامة « حاول أن تكون مشاركتك صادقة true » التي تتخصص بقاعدتين هما :

I. لا تقل ما تعتقد انه كاذب .False
II. لا تقل ما تفتقر الى دليل واضح عليه .

٣ ـ **مقولة الاضافة** : وتنفرد بقاعدة واحدة هي : إجعل مشاركتك ملائمة .
هذه المقولة المجملة تخفي ولاشك كثيرا من المشاكل العويصة، كمعرفة طرق افتتاح الكلام، وأنواع التدخل المناسب، وتغيير موضوع المحادثة ، وحسن التخلص واختتام التخاطب الخ . . .

وأخيرا :

٤ ـ **مقولة الجهة** : وهي لا تهتم كسائر القواعد بما هو مقول أو منطوق، بل بكيفية قوله أو النطق به . قاعدتها العامة هي : كن واضحا . وعنها تتفرع القواعد :

I. احترز من الغموض obscurity .
II. احترز من الالتباس .ambiguity
III. تحرَّ الايجاز .
IV. تحرَّ الترتيب .

وبالاختصار ، هذه القواعد ترسم للمشاركين ما يجب عليهم أن يقوموا به، لكي يتم التخاطب بالطريقة المثلى من التعاون والعقلانية والفعالية . بالطبع هذا لا يعني أن عليهم ان يتبعوا القواعد المذكورة حرفيا في كل الأحوال والأوقات . إذ، قلما يستمر التخاطب العادي على هذا المنوال . بل المقصود من ذلك انه، حتى عندما لا يجاري التخاطب ما ترسمه القواعد المذكورة، يظل السامع يفترض، خلافا للظاهر، ان المتكلم مازال يأخذ بهذه القواعد، ولو على مستوى أعمق، حتى يتسنى له التوصل الى معنى ما . فمن دون تقدير هذه القواعد يستحيل التواصل بين الناس .

توضيحا لذلك، إليك المثل الآتي :

أ : اين سمير ؟

ب : هناك « فيات » حمراءِ أمام بيت سعاد.

فجواب (ب) ، إذا أخذ حرفيا، لا يفي بسؤال (أ) . فهو يبدو، على الأقل أنه يخالف مقولتي الكمية والاضافة. لكن مع ذلك، لا نعتبر أن (ب)، بجوابه، لا يعير اهتماما لما قاله (أ)، وبالتالي يرفض مبدأ التعاون، بل تقديرا منا بأن هذا المبدأ مازال ساريا، نحاول أن نجد العلاقة بين مكان سمير ومكان الفيات الحمراء. فإذا افترضنا كما يعرف (أ) و (ب) أن سميراً يملك فيات حمراء، اقتضى الجواب ان سمير هو في بيت سعاد.

إن أهمية القواعد والحِكم المذكورة بالنسبة إلى اللغة تعود إلى انها تسمح باستدلالات تتجاوز المحتوى الدلالي للعبارات التي يُتلفظ بها. ولذلك يَخُصّ غرايس هذه الاستدلالات باسم « الاقتضاء التخاطبي »Conversational implicature ، تمييزا لها عن اللزوم أو الاستلزام المنطقي entailment, logical implication ، أو أيضا الاستنتاج المنطقي logical consequence ، الذي ينحصر بالاستدلالات المبنية على المضمون الدلالي فقط. فالاقتضاء يعتمد، بالإضافة إلى المضمون، على مطالب معينة تتعلق بطبيعة التخاطب القائمة أساسا على التعاون.

هذا الاقتضاء التخاطبي يجري بطريقتين مختلفتين على الأقل، وذلك طبقا للموقف الذي يتخذه المتكلم من القواعد. فقد يراعي المتكلم القواعد والحِكَم بشكل صريح الى حدٍّ ما ، تاركا للمخاطب مهمة توسيع وتظهير ما قيل باللجوء الى استدلالات مباشرة انطلاقا من مراعاة المتكلم للقواعد. ففي الاستخبار الآتي :

أ : نفد البنزين من سيارتي !

ب : هناك محطة عند زاوية الشارع.

لابد للسائل أن يستدل من جواب (ب) أن هذا يعلم ان المحطة مفتوحة وأن فيها بنزينا، وإلا لما كان متعاونا. هذا النوع من الاقتضاء التخاطبي الذي يقوم على مراعاة القواعد، نريد أن نطلق عليه مع لفنسن Levinson اسم « الاقتضاء المتعارف » أو « النموذجي » standard implicature .

أما الاقتضاء على الطريقة الأخرى، فيحصل عندما يُخِل المتكلم، عن قصد وعلانية، بحكم التخاطب وقواعده، أو كما يعبر عن ذلك غرايس عندما يستخف Flout المتكلم بهذه القواعد. فعندما يعلن مثلا أحد الأشخاص امام حضور نسائي ان :

فلانا مات بذلك المرض

أو أن :

فلانا أجريت له عملية في أحد المواضع .

خارقا بذلك قاعدة الجهة التي تفرض الوضوح، فمن الواضح ان كلامه يقتضي انه يتجنب خدش مشاعر الآخرين .

نظرا لأهمية كل من الاقتضاء المتعارف والاقتضاء الذي ينجم عن خرق القواعد، ينبغي لنا ان نعرض بالتفصيل أمثلة على كل منهما وذلك وفق علاقتها بالقواعد.

الاقتضاء التخاطبي المتعارف

الكيفية

إذا قلت مثلا :

الجامعة مغلقة

فقولي يقتضي أني اعتقد ذلك، بحُكم قواعد الكيفية. هذا ما نشير إليه بالرمز « + > » على النحو الآتي :

الجامعة مغلقة + > أنا أعتقد أنها مغلقة وعندي دليل واضح على ذلك.

إن الاقتضاء المذكور هو الذي يعطي تفسيرا لما يسمى بإشكال مور Moore's Paradox ، أي للتلفظ الذي يجمع بين الاثبات وعدم الاعتقاد كادعائي بأن :

الجامعة مغلقة ولكني لا اعتقد ذلك.

إذ، من الواضح، أن أمثال هذه العبارة غير مقبولة في التداول فهي تحتمل نوعا من التناقض. لكن تناقضها ليس من النوع المنطقي ، لان كون الجامعة مغلقة وكوني لا اعتقد ذلك لا يتنافيان، بل قد يتفقان. بينما إذا استلزمنا منطقيا، استنادا إلى التعريف أو قاعدة المحمولات، من القول « الجامعة مغلقة » أن « الجامعة غير مفتوحة » وركبنا من هذين القولين عبارة شبيهة بالسابقة، أي عبارة تجمع بين الملزوم وسلب اللازم، كان قولنا :

الجامعة مغلقة ومفتوحة

مستحيلا منطقيا. إذ كون الجامعة مغلقة وكونها مفتوحة هما حدثان لا يمكن أن يجتمعا البتة[٧].

هذا النوع من الاقتضاء التداولي، الذي يصح على الجمل الخبرية، ينطبق أيضا على الجمل الانشائية كالوعد والأمر والاستفهام. يكفي لذلك أن نعمم قواعد الكيفية المقصورة على الصدق بالنسبة للجمل الخبرية، بحيث أنها تتطلب الصراحة في كل أنواع الجمل. فعندها يقتضي السؤال مثلا :

هل عندك سيارة ؟

جهل السائل لذلك، ووجود الرغبة في معرفة الأمر. إذن :

هل عندك سيارة ؟ + > أنا لا أعرف ذلك وأريد معرفته.

الكميـــة

مجاراة هذه المقولة تقدم بعضا من أهم نماذج الاقتضاء المتعارف standard لنفترض أن أحداً قال :

لأحمد خمسة عشر ولدا

فذلك يقتضي أن لاحمد خمسة عشر ولدا فحسب، بالرغم من أنه لا يتنافى مع حقيقة هذا القول ان يكون عدد أولاد أحمد عشرين. لكن اقتضاء القول لكون أحمد عنده فقط خمسة عشر ولدا، يعود الى أنه لو كان لأحمد عشرون

(٧) علاوه على ذلك ، ثمة فرق آخر بين الاقتضاء الذى نحن بصدده واللزوم المنطقى ـ وهو ان اللازم المنطقى ينجم عما هو مقول ، بينما ينجم المقتضى التداولى عن فعل القول ذاته .

ولدا لكان على المتكلم بحُكم قاعدة الكمية التي تفرض الإخبار بقدر ما هو مطلوب، أن يقول ذلك. فبما أنه لم يفعل، كان بالتالي يريد إبلاغ المستمع ان لأحمد فقط خمسة عشر ولدا.

مثل آخر: عندما يصرح المتكلم بأن:

العَلَم أحْمَـر

فبما أنه لم يُضف نعوتا أخرى تخبر عن الألوان التي يمكن أن يحتويها العلم، كأن يقول مثلا « العلمَ أحمر وأزرق وأبيض »، يقتضي قوله ان يكون « كل العَلَم أحمر » أو « العلم فقط أحمر ».

كذلك إذا قرع سمعنا هذا الحوار :

أ : كيف كانت مباراة الفريق الوطني أمس في كرة القدم ؟

ب : لقد سجَّل الفريق إصابات رائعة.

وعلمنا فيما بعد أن الفريق الوطني قد خسر مع ذلك المباراة، فسوف نعتبر أن جواب (ب) كان يدفع الى التضليل، إذ أن (ب) لم يقدم كل المعلومات التي تتطلبها ظروف السؤال.

من هذه الأمثلة يتضح أن القاعدة الفرعية الأولى من مقولة الكمية التي توصي بإعطاء المعلومات التامة التي تتطلبها الحال، هي القاعدة الأساسية التي يُعتمد عليها لمثل هذا النوع من الاقتضاء. فبتطبيق القاعدة، يرتبط التلفظ utterance عادة باقتضاء تداولي يجعل من الحكم المقصود أقوى الاحكام التي يمكن إطلاقها في الظرف الحالي وأكثرها إفادة.

الإضافة

إلى هذه المقولة يعود الفضل في تقديم أوسع لائحة من المقتضيات . بل إن البعض يذهب إلى أن مقولة الإضافة هي عامة لدرجة أنها تستوعب سائر المقولات . من قبيل المقتضيات المتعلقة بالاضافة ، اقتضاء الأوامر الصادرة من أجل تعاون راهن ، وفوري . وعليه :

ناول الملح !

+ > ناول الملح الآن !

إن قاعدة الإضافة هي التي تتيح ، أكثر من أية قاعدة أخرى ، الايجاز في التخاطب والتخلي عن ذكر أمور مفروغ منها . فعندما يشير عابر سبيل لسائق نفد البنزين من سيارته ، إلى أن :

هنالك محطة عند زاوية الشارع

من الواضح أن قوله يقتضي أن تكون المحطة مفتوحة وان يوجد فيها بنزين . وأحيانا ما يكون الاقتضاء على درجة أكبر من الخفاء مما يستوجب بعض التفكير . ففي الحوار :

أ : يبدو أن سميرا منقطع عن النساء هذه الأيام .

ب : لكنه كثيرا ما يتردد إلى العاصمة .

لا بد ، حتى يتم لنا فهم استدراك (ب) ، أن نفترض وجود تناسب ما بين ردّ (ب) وملاحظة (أ) . لكن ذلك لا يستقيم لنا إلا عند تقدير عدة معلومات مشتركة بين (أ) و (ب) . منها مثلا أن سميرا نادرا ما يأتي إلى العاصمة ، وأنه يسكن في منطقة لا تتيح له الاختلاط بالنساء ، وأن لا داعٍ يجعله يتردد الآن إلى العاصمة سوى حاجته إلى الجنس اللطيف . إلى ما هنالك .

لا شك أن مثل هذه التقديرات هي التي تسد الثغرات التي تظهر أحيانا بين ردود المتخاطبين ، وتبرر بالتالي وجود القاعدة التي تعتمد عليها ، أعني قاعدة الإضافة .

الجهة

أخيرا ، ثمة أنواع أخرى من الاقتضاء تحصل عن مراعاة قاعدة الجهة . هكذا مثلا : اذا لجأ المتكلم إلى الإطناب وقال للمستمع :

أدر مقبض الباب باتجاه عقارب الساعة حتى نهاية الحركة ، ثم اجذبه برفق نحوك .

فطلب المستمع ، في سياق ما ، يقتضي ، وفقا للقاعدة الفرعية الثالثة التي تنص على الايجاز ، ان يكون المخاطب جاهلا بتفاصيل فتح الباب المذكور وأن يكون المستمع راغبا في عدم إحداث تشويش .

من بين قواعد الجهة ، قد تكون القاعدة الفرعية الرابعة ، التي تتوخى مراعاة الترتيب ، هي الأهم . ففي مثل العبارات الآتية :

١ ـ وصلت الطائرة ونزل الركاب .
٢ ـ صرخ بصوت عظيم ومات .
٣ ـ ذهب فوزي إلى الدكان واشترى قنينة عصير .
٤ ـ أمطرت السماء وارتوى العشب .

تقتضي الواو ، بسبب قرائن خارجية متنوعة ، الترتيب الزماني . وهذا ما يفسر غرابة العبارات المذكورة إذا ما قلبنا المتعاطفين وقلنا :

١ ـ نزل الركاب ووصلت الطائرة .
٢ ـ مات وصرخ بصوت عظيم .
٣ ـ اشترى فوزي قنينة عصير وذهب إلى الدكان .
٤ ـ ارتوى العشب وأمطرت السماء .

بينما ذلك لا يضير في عبارات أخرى حيث الواو مستعملة بالمعنى المطلق . فقولنا :

بيروت عاصمة لبنان ودمشق عاصمة سوريا

لا يختلف بتاتا عن قولنا :

دمشق عاصمة سوريا وبيروت عاصمة لبنان .

من هذا التفسير بواسطة الاقتضاء ، يتبين لنا كيف أنه يمكن التخلص من الاحراج الناجم عن إسناد أكثر من معنى معجمي لحرف الواو . فلسنا بحاجة إلى ادعاء وجود لفظتي «و» أو أكثر : واحدة تدل على مجرد الاشتراك في الصدق ، وأخرى تدل ، بالإضافة إلى ذلك ، على الترتيب الزماني . إذ ان الترتيب الزماني ، وغيره من المفاهيم الاضافية ، ليست سوى مقتضيات تنجم عن القرائن الخارجية عند مراعاة القاعدة الفراعية الرابعة لمقولة الجهة .[8]

الاقتضاء التخاطبي الحاصل عن خرق القواعد

النوع الثاني من الاقتضاء يحصل عند خرق إحدى القواعد بشكل صريح وسافر ، أو كما يعبر عن ذلك غرايس ، عند الاستخفاف Flouting بالقواعد أو استغلالها exploitation . هذا بالطبع مع احترام مبدأ التعاون العام ، لأن المتكلم إذا انحرف عن استعمال موافق للحِكَم والقواعد ، احتاج المستمع على الأقل إلى تقدير مبدأ التعاون ، حتى يتوصّل عبر استدلالات متتابعة إلى المقتضى الذي يقصد المتكلم إبلاغه . أما البُغية من هذا الخرق فهي توليد الصور البيانية .

إليك عرضا مسهباً للصور التى تنجم عن خرق قواعد التخاطب :

الكمية

١ ـ خرق القاعدة الأولى .

إذا سُئِلَ أستاذ فلسفة عن رأيه بأحد طلابه في هذه المادة واكتفى بالجواب بأن « الطالب لا يتوانى عن متابعة المحاضرات ، وهو يجيد تماما اللغة الانكليزية » ، فهو يكون بذلك قد أخلَّ بالقاعدة الأولى لمقولة الكمية لأنه لم يقدم المعلومات اللازمة . وبما أن الإخلال لا يمكن إرجاعه إلى قصور في معرفة الاستاذ ، إذ مَن أدرى منه بمقدرة تلميذه ، فالمفترض إذن أنه تجنب التصريح بالافادة المطلوبة خوفا من الاحراج . أما داعى الإحراج في هذا السياق فلا يمكن أن يكون سوى اعتقاده بأن الطالب فاشل في الفلسفة . لا ريب أنه كان بمستطاع الاستاذ أن يرفض اللعبة ويمتنع بالتالي عن الإجابة ، لكن بمجرد أنه فعل ذلك فقد أظهر حسن نيته في التعاون . إذن ، بالرد قَصَدَ الاستاذ أن يُبلغ مراده للمخاطب بشكل غير صريح ، متوسلا طريقة بيانية تعرف باسم التعريض أو التلويح .

---

(٨) هذه النظرة التداولية الحديثة تطابق موقف قدماء النحاة العرب . فعند هؤلاء ان الواو لاتفيد سوى مطلق الاشتراك والجمع ، أى انها بحد ذاتها لاتدل على أكثر من التشريك في المعنى العام . فإن أفادت غير ذلك من ترتيب زمني ، ومصاحبة وتعقيب أو مهلة ، وخسة أو شرف . الخ .. فذلك يكون بمقتضى القرائن الخارجية .

من باب العبارات التى تُخل بالقاعدة الأولى ، يمكن اعتبار كحد أقصى الهيهيات tautology البّينة ، كقولنا مثلا :

الحرب هي الحرب !

إما أن تجيء سعاد أو لا تجيء !

ان فعل الأمر فقد فعله !

فؤاد فيه ما فيه !

فهذه العبارات لا تُبلغ ، على صعيد المقول أو المنطوق ، شيئا على الإطلاق . ولا فرق بين بعضها البعض من حيث شروط الصدق ، إذ أنها كلها تعود إلى صور منطقية صحيحة هي على التوالى :

∧س (حا (س) ـــ> حا (س))

ب ٧ ~ ب

ب ـــ> ب

في (سَ في (س ، فؤاد) ، فؤاد)

لكن مع ذلك ، فالتلفظ بمثل هذه الأقوال يحمل ، بمقتضى التداول ، مدلولات أخرى مختلفة عن المنطوق . إذ أنه لما كانت الهيهيات قاصرة عن إفادة المرام ، كان لا بد للمستمع ، إذا صح تقديره ان المخاطب راغب في التعاون معه ، ان يصل إلى اقتضاء مفيد . ففي حال قول « الحرب هي الحرب ! » ، قد يكون المقتضى مثلا أن من طبيعة الحرب جلب الهول والدمار والتهجير ، إلى ما هنالك . وفي العبارة الثانية ، أي « إما أن تجيء سعاد أو لا تجيء ! » ، فقد يفهم المستمع في سياقٍ ما أن المراد هو : هدّىء روعك فالاضطراب لا يؤدى إلا إلى مضرتك في كلا الاحتمالين . في الثالثة ، فالفحوى الذي يقتضيه الكلام هو ان الأمر لا يعنينا والشخص المقصود هو الذي يتحمل مسئوليته . وأما أخيرا قولنا « فؤاد فيه ما فيه » فهو دليل على ما في هذا الفؤاد من هموم ومعاناة . من الواضح أن أمثال هذه العبارات تُستعمل عادة إما للتخلص من موقع حرج أو لاختتام الكلام . لذلك يتعلق إدراك تفاصيل مقتضياتها بسياق ومقام التلفظ .

٢ ـ خرق القاعدة الثانية للكمية أي « لا تجعل مشاركتك تفيد أكثر مما هو مطلوب » .

اذا أراد شخصٌ مجرد الاستفسار عن صحة خبرٍ ما ، ولم يكتف المجيب بالتصديق على الخبر ، بل راح يتكلف الإدلاء برأي وراء الاخر لا يترك شاردة ولا واردة ، مُصرا على صحة كلامه بشكل لا يقبل النقض ، فمن المتوقع ان يلفت مثلُ هذا الهذر ، إن كان مقصودا ، انتباه السامع إلى أن المجيب يلمّح بذلك إلى أنه غير موقن من صحة الخبر .

الكيفية

ان الاخلال بقواعد وحِكم مقولة الكيفية يوفّر لنا أكثر أنواع الصور البيانية .

١ ـ خرق القاعدة الأولى أي « لا تَقُل ما تعتقد أنه كاذب » .

١ ، ١ . التهكّم : شخص ما ، بعد أن بَلَغَهُ أن أحد الأصحاب سرّب بعض أسراره إلى أحد منافسيه في العمل ، يعلن ، أمام حضور على علم بذلك : « فلان هو من الأصدقاء الذين يمكن الوثوق بهم » . لا ريب أن كذب هذا التصريح ظاهر لأي مستمع ، لأن ما صرح به الشخص المذكور لا يطابق ما يفكر به . فإذا افترض المستمع ان المتكلم لم يرفض مع ذلك التعاون في الحديث بل أراد ان يوصل أمراً ما ، فلا بد له ان يبحث عن قضية لها علاقة بما قيل . والأرجح أن القضية المقصودة هي ، في هذا السياق ، نقيض ما صرح به المتكلم .

٢ ، ١ . الاستعارة : اقتضاء المعنى المستعار له يجرى في أغلب الأحيان بطريقة مشابهة لفهم التهكم . فالمنطوق الحرفي للاستعارات هو لغو ساقط . هكذا مثلا ، هتاف المتيم لعشيقته :

أنت القمر

لا يمكن أن يعني به أنها ذلك الجرم الذي يدور حول الأرض ، بل إنه يريد أن يصفها بأمر له علاقة ما بالقمر . وبما أن الأمر في مثل هذا المقام يستحيل أن يكون النقيض ، فعلى الأرجح أنه يريد أن يُسند إليها صفة شبيهة بتلك للقمر ، كالبياض والحسن الخ . . .

بالنسبة إلى نفس الاستعارة ، قد يختلف المعنى المستعار له وفقاً للظروف والأحوال . فالعبارة :

رئيسة وزراء بريطانيا تاتشر من فولاذ

تعني ، لدى المعجبين بتاتشر ، فضائل الحزم والقدرة . أما إذا قيلت من أحد الخصوم الذين يريدون الحط من سمعة تاتشر ، فإنها تدل على رذائل الخشونة وعدم المرونة وفقدان الأنوثة ، بالرغم من ان كل هذه الصفات تشترك في القوة .

من الممكن ، كما يشير إلى ذلك غرايس ، جمع الاستعارة مع التهكم ، بحيث يترتب على ذلك مستويات من الاقتضاء . مثلا ، إن قال أحدهم عن امرأة قبيحة :

أطلّ القمر

فالانتقال يكون أولا من القمر إلى الحسناء ، ومن ثم إلى نقيضها أي إلى المرأة القبيحة . هذا النوع من التراكيب البيانية المتعددة لا يقتصر فقط على الاستعارة والتهكم ، بل يشمل سائر الصور كما سنفصل ذلك في بحث مستقل .

٣ ، ١ التعريض أو التلويح : ثمة إخلال لقاعدة الكيفية يقع حين التلفظ بخطأ صارخ كما في هذا الحوار :

أ ـ أليست بيروت في ليبيا ؟

ب ـ وكذلك دمشق في أرمينيا .

حيث (ب) ، برده الظاهر الكذب ، يلوح إلى خطأ (أ) .

٤ ، ١ التفريط litote : ومثاله ان يقال عن رجل حطم كل شيء بأنه « شرب قليلا » أو « تناول كأسا » .

٥ ، ١ الإفراط أو المبالغة hyperbole : كل فتاة تحلم بضابط .

الإضافة

من الصعب ايجاد أمثلة يحصل فيها الاقتضاء عن خرق حقيقي لقواعد هذه المقولة . إذ أنه من النادر إعطاء جواب لا يمكن إلّا اعتباره غير ملائم بالنسبة إلى سياق ما . ففي الحوار التالي :

: ألا تعتقد يا صاحبي ان فلانة عجوز قحباء !

ج : (باضطراب) الطقس جميل جدا اليوم . أليس كذلك ؟

يمكن تفسير الجواب ، على أنه إنكار لاقتراح (أ) وبلميح له بأنه ارتكب هفوة أو زلة لسان . ولكن ، في ظرف آخر ، قد يقتضى الجواب أيضا لفت نظر (أ) مثلا الى وجود ابن أخ فلانة بالقرب منه .

مثل آخر حيث الاقتضاء هو شبه مألوف :

الابن : لنذهب إلى السينما يا أبي !

الاب : ماذا عن الفروض المدرسية ؟

حيث الأب يريد أن يذكّر ابنه بأنه ليس حرا بعد للذهاب إلى السينما .

الجهة

يمكن ايجاد أمثلة على الإخلال بالوضوح بالنسبة لكل قاعدة فرعية من هذه المقولة .

١ ـ الالتباس : يعني غرايس هنا الالتباس القصدى الذي يريد المتكلم أن يُبلغّه إلى السامع على أنه كذلك . وهذا يقع حينها تحتمل العبارة معنيين أو أكثر ، دونَ أن توجد قرينة تمنع من ذلك . أما المعاني المرادة ، فقد تكون كلها حقيقية على سبيل الاشتراك في اللفظ ، أو بعضها حقيقيا وبعضها مجازيا ، أو كلها مجازية . من الالتباس المبنى على الاشتراك قول [٩] أحد العراقيين يهجو رجلا كان على مذهب أحمد بن حنبل ، ثم انتقل إلى مذهب أبى حنيفة ، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي :

تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل وفارقْتَه إذ أعوزتك المآكلُ
وما اخترت رأى الشافعي تديُّنا ولكنّما تهوى الذي منه حاصلُ
وعما قليلٍ أنت لا شك صائرٌ إلى مالكٍ ، فافطَن لما أنا قائلُ .

فما لك ههنا يصلح ان يكون مالك بن انس صاحب المذهب ، ويصلح ان يكون مالكا خازن النار .

ومن باب الاشتراك في اللفظ هذا السؤال الطريف من مقامات الحريرى « أيحل للصائم أن يأكل نهارا » ، اذ أن النهار اسم مشترك بين « ضد الليل » و « فرخ الحبارى » .

(٩) راجع : ابن الاثير ، المثل السائر ، القسم الثالث ، صص ٧٧ - ٧٨ .

في بعض الالتباسات ، قد يرجح معنى على آخر ولو كان بعيدا . من أمثلة ذلك ما يحكيه غرايس عن الجنرال البريطاني الذي بعث عند احتلاله مدينة السِنْد Sind رسالة يقول فيها باللاتينية « Pcccavi » . فترجمة هذه الكلمة تعنى حرفيا بالانكليزية I have sinned أي أني أخطأت . لكن من حيث اللفظ ، واضح أن الترجمة الانكليزية مجانسة للعبارة I have Sind ، التى تعني « أني أملك السند » . بالطبع ، لا تحتمل الرسالة بحد ذاتها أي لبس . انها ، لما كانت اللغة المكتوبة بها غريبة عن المرسِل والمتلقى ، كان لا بد من الترجمة . ولا شك أنه عند التلفظ بالترجمة يظهر الالتباس . فالمعنى الحقيقي للعبارة اللاتينية محتمل ، إذ قد يكون الجنرال البريطاني ، مثلا ، خالف الأوامر ليحتل السِند . لكن معنى اللفظ المجانس هو المقصود على الأرجح .

٢ - الغموض . ما يدفع المتكلم للإخلال بالوضوح هو أنه ، يريد حين إبلاغ المخاطب أمرا ما ، إخفاء ذلك الأمر عن أشخاص آخرين حاضرين ، تفاديا لالتزام أو إحراج أو جرح شعور . هكذا مثلا إذا أحب رجل أن يدعو امرأته إلى المسرح دون إشعار أولاده المتواجدين حولها بذلك فقد يتوجه إليها بالقول : ما رأيك بالميم سين راء حاء ؟ كذلك مثلا ، إذا أراد رجل استعمال عبارات تتضمن كلمات نابية وبذيئة ، أمام حضور نسائي ، فقد يكتفى بالإلماح أو بكلمات مجزوءه . كقوله فقط « المنحوس منحوس »[١٠] دون أن يكمل .

٣ - التطويل والإطناب . لنفترض ورود المقطع الآتي في مقال ناقد موسيقى :

أصدرت السيدة فلانة سلسلة من الأصوات تشبه أغنية « إنت عمرى »

بدلا من قوله : غنت السيدة فلانة أغنية « أنت عمرى »

فلا شك أن التطويل المقصود يقتضى ان إداء المرأة كان بعيدا كل البعد عن مفهوم الغناء الحقيقي .

خصائص الاقتضاء التخاطبي

لتعيين الاقتضاء التخاطبي ، لا يكفى الاعتماد على الحدس والحزر ، بل لا بد للمخاطب أولا أن يأخذ بعين الاعتبار المعطيات الآتية :

I المدلول الحقيقي للألفاظ المستعملة .
II مبدأ التعاون والقواعد المندرجة تحته .
III سياق العبارة اللفظي والحالي .
IV المعلومات الخلفية السابقة .
V كون المعطيات I - V مشتركة بينه وبين المتكلم .

(١٠) تكملة المثل هي : ولو علقوا على قفاه فانوس

ومن ثم عليه أن يتبع الطريقة العامة الآتية حتى يتوصل إلى المقتضى المطلوب :

I قال المتكلم إنّ : ب

II لا داعي للتفكير بأن المتكلم لا يراعى القواعد ، أو على الأقل مبدأ التعاون .

III لكي يقول المتكلم إنّ ب ، ويراعى حقا القواعد ومبدأ التعاون لا بد له أن يفكر بـ ج .

IV على المتكلم ، إن صح أنه متعاون ، أن يعرف ان ثمة معرفة مشتركة[11] بيني وبينه بأنه لا بد من افتراض ج .

V لم يقم المتكلم بأي عمل يمنعنى من التفكير بأن ج .

VI فالمتكلم إذن يريدني أن أفكر بأن ج ، وأنه ، عند قوله ب ، أراد اقتضاء ج .

من الطريقة التى يجرى بها الأقتضاء ، يمكن تبيان الخصائص الأساسية التى تتمتع بها هذه العملية . غرايس يستخلص الميزات الآتية :

١ ـ قابلية النسخ **cancellability** ، أو قابلية الإلغاء **defeasibility** .

ان قابلية النسخ هي من المفاهيم الحاسمة في علم التداول ، إذ أن معظم أنواع الاقتضاء تتمتع بهذه الخاصية . فالاقتضاء القابل للنسخ هو الذي يمكن إبطاله بإضافة مقدمة أو أكثر إلى المقدمات الأصلية . وهو بذلك يشبه الاستقراء ويخالف الاستنباط واللزوم المنطقي . ففي الحجج المنطقية يستحيل إلغاء الاستنتاج في أي حال من الأحوال . مثلا ، في القياس الآتي :

كل إنسان حيوان
كل حيوان فان
كل إنسان فان

تلزم النتيجة بالضرورة ، مهما زدنا على المقدمات من قضايا صادقة أو كاذبة حتى لو كانت هذه القضايا مناقضة للنتيجة . أما في الاستقراء ، فكما هو معروف قد تُبطِل قضيةٌ جديدة النتيجه السابقة . مثلا ، من سبق له ان استدل من مشاهدة ألف خروف وملاحظة ان كل واحد منها أبيض أن كل الخراف بيض ، ثم وقع بصره على خروف أسود ، فلا بد له أن يتخلى عن استنتاجه السابق ، إذ أن المقدمة المستجدة تجعل النتيجة السابقة غير صحيحة . فالقياس الآتي :

(١١) بالمعرفة المشتركة بين المتكلم والمخاطب لـ «ج» ، نعنى على وجه التدقيق أن : المتكلم يعرف ج ، والمخاطب يعرف ج ، والمتكلم يعرف ان المخاطب يعرف ج ، والمخاطب يعرف ان المتكلم يعرف ج ، والمتكلم يعرف ان المخاطب يعرف ان المتكلم يعرف ج . . . إلى مالا نهاية له .

شاهدت ألف خروف

كل واحد من الألف خروف هو أبيض

الخروف الواحد بعد الألف هو أسود

كل الخراف بيض

هو بالطبع عقيم .

كذلك حال الاقتضاء ، إذ ليس من العسير ابطال مفعوله . لنعتبر هذا الاقتضاء المباشر بالنسبة لمقولة الكمية :

لأحمد ثلاثة مؤلفات

+ > لأحمد ثلاثة مؤلفات فحسب .

فإنه يكفي لإبطال المقتضى ، إضافة جملة اعتراضية من النوع الآتي :

لأحمد ثلاثة مؤلفات ، إن لم يكن أكثر .

بل إنه ممكن إنكار الاقتضاء بشكل صريح دون الوقوع في التناقض ، فيقال مثلا :

لأحمد ثلاثة مؤلفات ، بل عشرة

لأحمد ثلاثة مؤلفات ، وربما أكثر .

علاوة على ذلك ، قد ينعدم الاقتضاء ، إذا ما اتضح من سياق التلفظ ان المقتضى المحتمل لم يكن من مراد المتكلم . فلو سأل مثلا رئيس اتحاد الكتاب ، الذي يشترط على الكاتب للانتماء إليه ان يكون له ثلاثة مؤلفات ، أحد زملاء أحمد مستفسرا :

هل لأحمد العدد المطلوب من الكتب ؟

فالجواب بأن :

لأحمد ثلاثة مؤلفات

لا يقتضي بالطبع قصر عدد الكتب على ثلاثة ، كما اقتضى الأمر في المثل الأول . اذ أنه يتضح من السياق ان الاستخبار هو عن استيفاء أحمد شروط الانتماء في التأليف وليس عن العدد المضبوط لكتبه .

بسبب ميزة قابلية النسخ هذه ، يستحيل تأدية الاقتضاء بعلاقة معينة بين المعاني الحقيقية للألفاظ على غرار اللزوم المنطقي .[١٢]

(١٢) لرأي مخالف ، راجع : Lakoff, G., 1975

٢ ـ عدم الانفكاك non – detachability .

بعدم الانفكاك يقصد غرايس ان الاقتضاء يتعلق بالمضمون الدلالي لما هو مقول ، وليس بالصورة اللغوية . وبالتالي ، يستحيل انفكاك المقتضيات عن التلفظ Utterance بمجرد إبدال الألفاظ بمرادفات لها . هذه الخاصية تعود إلى كل اقتضاءات التخاطب ، باستثناء الاقتضاءات التى تنجم عن قواعد الجهة modality ، لكون الاقتضاءات الأخيرة ترتبط بصورة التلفظ . لنأخذ مثلا عبارة تهكمية تقتضى عكس المنطوق ، كقولنا :

زيد عبقري

حيث المقصود هو ان :

زيد أبله .

فإذا ما استعملنا مكان العبارة الأولى ، في السياق ذاته ، أية جملة من الجمل الآتية :

زيد نابغة
زيد دماغ كبير
زيد إنسان خارق

فلا شك أنها سوف تشارك العبارة السابقة في مقتضى التهكم ذاته .

على وجه التحديد ، إن تعلق الاقتضاء بما هو مقول يقع على مستوى التمثيل الدلالي semantic representation بما في ذلك بعض خصائص الصورة المنطقية ، وهذا لا يمكن ان يحصل لا عن البنية السطحية غير المفسرة للعبارة ولا عن مجرد شروطها الصدقية .

أما عن امتناع تعلق الاقتضاء بالبنية السطحية غير المفسرة ، فلأن البنية السطحية قد تحتمل عدة تفسيرات ، يتبع عن أحدها مقتضى ما ولا يتبع عن الآخر . لنتأمل في معنى العبارات الملتبسة من النوع الآتي :

لم تُصب كل الرصاصات الهدف

فهذه تتقبل تفسيرين ، الأول يؤدى بالصيغة المنطقية :

$\bigwedge_{س}$ (رصاصة (س) ← ~ أصابت ((س ، الهدف))

أي بالقضية الكلية السالبة ومعناها :

لا رصاصة أصابت الهدف

والثاني بالصيغة :

~ ⋀ (رصاصة (س) ⟵ اصابت ((س ، الهدف))

أي بسلب القضية الكلية ومعناها :

ليس كل الرصاصات أصابت الهدف .

فالتفسير الثاني فقط يقتضى كون : (١٣)

بعض الرصاصات أصابت الهدف

بينما لايجري هذا الاقتضاء على التفسير الأول .

وأما عن عدم الاكتفاء بشروط الصدق لتعيين الاقتضاء ، فلأنه غالبا مايستحيل تقدير المقتضيات انطلاقا من هذه الشروط وحدها . هكذا مثلا اذا اخذنا عبارتين على الصيغتين الآتيتين :

ب

ب ٨ (ب ⟵ ب)

فلا ريب انهما تشتركان بشروط الصدق ذاتها ، إذ انه كلما صدقت ب كانت ب ٨ (ب ⟵ ب) صادقة أيضا ، وبالعكس . لكن ، إذا قارنا بين العينتين الآتيتين للصيغتين المذكورتين :

لقد وقع الامر

لقد وقع الامر ، واذا ماوقع فقد وقع (اى قد وقع ما وقع)

يبدو ان الثانية فقط تختص بالاقتضاء :

لاجدوى من التحسر على ماقد حدث .

وعليه ، بعض المقتضيات على الاقل ينجم عن البنية الدلالية أو المنطقية لما هو مقول وليس عن شروط الصدق بالذات . إذن ، بوجه عام ، لايكفى اعتبار شروط الصدق لحسبان المقتضيات بل لابد من الرجوع إلى التمثيل الدلالي أو الصوره المنطقية للعبارات .

ان استتباع مقتضيات مختلفة لتلفظات متساوية في شروط الصدق لكنها متباينة في الصور المنطقية ، هو الذي يسمح بالتمييز بين عدة تلفظات تكاد تكون مترادفة ، وذلك بتبيان الفروق الدلالية القائمة على اختلاف في

(١٣) لاحظ انه يوجد اقتضاء تداولى ولكن لالزوم منطقى ، إذ قد يصدق سلب القضية الكلية ويكون المقتضى كاذبا .

المقتضيات ، وهو بالتالي يتيح تفسير التباين في الأسلوب ، أى في اختيار العبارات التى تتمتع بشروط الصدق نفسها .

بهذه الخاصية الموسومة بعدم الانفكاك ، يتم فصل الاقتضاء التخاطبى عن غيره من أنواع الاقتضاء التداولى كالاقتضاء العرفي والافتراض presupposition . فبالنسبة إلى الافتراض يظهر ان الاقتضاء يرتبط بالصوره اللغوية وليس بالمعنى ، إذ ان قولنا مثلا :

لم يفلح زياد في الوصول إلى القمة ،

يفترض أن :

زيادا حاول الوصل إلى القمة .

بينما قولنا :

لم يصل زياد إلى القمة

وهو قول مرادف للأول ، لايبدو أنه يفترض ذلك .

٣ ـ قابلية الحسبان Calculability

هذه الميزه تعنى أنه بالامكان إقامة دليل أو حجة على أى مقتضى من المقتضيات بالطريقة التى سبق تفصيلها ، وذلك بالانتقال من المعنى الحرفى للتلفظ إلى المقتضى المطلوب ، إستنادا إلى مبدأ التعاون والقواعد .

٤ ـ اللاعرفية non – Conventional

أخيرا ، يتميز الاقتضاء التخاطبى بكونه لاعرفيا ، أى بكونه لايشكل جزءا من المعنى العرفى للألفاظ . إذ أن الوصول إلى المقتضى لايتم إلا من بعد معرفة المعنى الحرفى ، وكذلك من بعد اعتبار السياق وتطبيق قواعد التخاطب . ومما يؤكد لاعرفية الاقتضاء هو ان التلفظ قد يصدق بينما يكون المقتضى كاذبا ، وبالعكس فقول المتكلم :

ضرب عادل زيدا

يقتضى وفقا لقاعدة الكمية ان :

عادل لم يقتل زيدا بضربه

وإلا يكون المتكلم قد رفض التعاون وذلك بإعطاء معلومات غير وافية بالمطلوب . مع ذلك ، لايمنع ان يتلفظ المتكلم بالجملة المذكوره في مقام تصدق فيه ويكذب مقتضاها ، وذلك بغية تضليل المخاطب . أما العكس ، أى أن يكذب التلفظ ويصدق المقتضى ، فيحصل في المجازات الكنائية ، كقولنا مثلا :

يجلس الأسد على عرش الغابة

الذى هو دون شك كاذب ، بينما مقتضاه وهو كون الأسد يسود على الغابة صادق .

وأيضا مما يثبت لاعرفية الاقتضاء هو أن عبارة ما ذات معنى واحد قد تستتبع مقتضيات تختلف باختلاف المواقف والمقامات . بل إنه في مقام معين يستحيل احيانا تحديد مجموعة المقتضيات التى تصدر عن تلك العباره . فالقول :

عادل آلة

قد يقصد به أن عادلا بارد ، أو انه لايتوقف عن العمل ، أو أنه لايتبصر في الأمور الخ . .

انوع الاقتضاء

في تناولنا للاقتضاء التخاطبى ، تطرقنا إلى تقسيم هذا الاقتضاء إلى نوعين : اقتضاء خصصناه باسم «المتعارف» أو «النموذجي» standard وهو الاقتضاء الناجم عند مراعاه المتكلم للقواعد والحكم ، واقتضاء أكثر تعقيدا يحصل في حال استخفاف Flouting المتكلم بالقواعد المذكوره .

لكن يمكن ، من منظور آخر ، تفريع الاقتضاء التخاطبى ، كما فعل غرايس ، إلى قسمين مختلفين هما : الاقتضاء العام generalized ، وهو الذى يحصل دون أن يوجد بالضروره سياق حالي معين ، واقتضاء خاص يتطلب وجود مثل هذا السياق : مثال الاقتضاء الخاص الاستدلال من القول :

تبدو القطة في غاية الانشراح

على ان :

القطة أكلت الجبنة .

لأن هذا الاقتضاء لايجوز إلا إذا وردت العباره الأولى في مجرى حديث معين كالآتى :

ـ أين اختفت قطعة الجبنة ؟
ـ تبدو القطة في غاية الانشراح .

وكذلك اقتضاؤنا لـ :

سمير هو السارق

من الخبر أن :

سمير اشترى شقة .

لايصح إلا استنادا لمعرفتنا بظروف وأحوال مخصوصة ، كحصول سرقة بنك ، وعدم تواجد سمير في هذه الفتره ، وكون سمير معدوم الحال الخ . . ومن شواهد الاقتضاء العام اقتضاء الاسم النكره أن لايمت مسماه بصلة قريبة إلى المتكلم . فقولى مثلا :

دخلت بيتا واسعا

يقتضى أن

البيت ليس لى .

إذا ما قارنا بين تفريع الاقتضاء التخاطبى السابق إلى اقتضاء متعارف يراعى الحِكَم واقتضاء مجازي يستغلها ، وبين التفريع الثنائى الجديد إلى اقتضاء عام واقتضاء خاص ، نجد أنهما يتقاطعان بدرجات متفاوتة من التوزيع :

	اقتضاء متعارف	اقتضاء مجازى
اقتضاء عام		
اقتضاء خاص		

فمعظم التلفظات utterance التى تستغل الحكم تندرج تحت الاقتضاء الخاص . هكذا مثلا لايمكن تفسير التهكم دون الرجوع إلى مزاعم وافتراضات assumption خلفية . بينما يبدو أن ثمة استعارات كقولنا :

الهلال منجل

وهيهيات مثل :

فؤاد فيه مافيه

الحرب هى الحرب

تفيد المطلوب بشكل مستقل نسبيا عن السياق .

بين أصناف المقتضيات التخاطبية المذكوره ، تكتسب المقتضيات العامة أهمية خاصة بالنسبة للنظرية اللسانية . ذلك انه من العسير تمييز هذه المقتضيات عن المضمون الدلالى semantical للألفاظ ، فاقترانها بالألفاظ الملائمة هو أمر مألوف في كل السياقات العادية .

من قبيل هذا الصنف المقتضيات المنوطة بمقولة الكمية ، والتى تحصل بين العبارات التى تتدرج على نحو سُلَّمي scalar من الاكثر إلى الأقل بحيث ان السابق يستلزم اللاحق . ففى هذه الحال يقتضى الاقل سلب الأكثر . فمثلا بالنسبة للزوج المرتَّب بحسب الكثره : (كل ، بعض) يقتضى اثبات البعض سلب الكل . فقول المتكلم :

بعض الأساتذه حضروا الندوة

يقتضى : لم يحضر كل الاساتذة الندوة.

والاستدلال التداولى على ذلك هو أنه :

لو كان المتكلم في حالة تسمح له بأن يثبت العباره الأقوى ، أى إن كل الاساتذة حضروا الندوة، لكان خالف القاعدة الأولى من قواعد الكمية حين قضى بأن بعض الاساتذة حضروا الندوة ، لكن بما أن المخاطب يفترض تعاون المتكلم معه وبالتالى عدم رغبته بخرق قاعدة الكمية دون تنبيهه إلى ذلك ، فهو يعتبر ان المتكلم يريد إبلاغه ، أنه ليس في حالة تجيز له إثبات العباره الأقوى ، بل انه يعرف ان ذلك الاثبات غير صادق .

من أمثلة هذه المقتضيات السُلَّمية المجموعات المرتبة التالية :

< ممتاز ، جيد >

< دائما ، غالبا ، أحيانا >

< واجب ، حلال >

< بالضروره ، بالواقع ، بالامكان >

< و ، أو >

< ن ، ... ، ٣ ، ٢ ، ١ >

حيث اللاحق يقتضى نفي السابق .

اقتصرنا حتى الآن على استعمال كلمة «اقتضاء» لما أسميناه بالاقتضاء التخاطبى . لكن الاقتضاء ، بمفهوم غرايس ، هو مصطلح عام يشمل كل أنواع الاستدلالات التداولية التى يمكن الوقوف عليها . فالمقتضى عامة هو القسيم من المعنى غير الطبيعى meaning – nn الذى يقابل المنطوق أو المقول What is said المحدد بشروط صدق العبارات .

بالإضافة إلى الاقتضاء التخاطبى ، وهو الاقتضاء الذى يرتكز على الحكم والقواعد التى سبق تصنيفها ، يتطرق غرايس إلى نوع من الاستدلال غير المشروط بالصدق ، مباين للاقتضاء التخاطبى ، يخصه باسم الاقتضاء

العرفى conventional implicature . فالاقتضاء العرفى لاينجم عن مبادىء تداولية عليا كحكم وقواعد التخاطب ، بل انه يعود إلى المفردات المعجمية بالعرف أو بالاتفاق by convention.

من أمثلة الاقتضاء العرفى :

فلان ذكي لكنه كسول

فلفظة «لكن» لها نفس المضمون المشروط بالصدق الذى لحرف العطف «و» ، إذ أن الجملة المركبة بواسطة «لكن» تصدق في حال صدق الجملتين الفرعيتين معا وهما في مثلنا «فلان ذكى» و«فلان كسول» . إنما بالاضافة إلى ذلك تقتضى لفظة «لكن» تنافرا بين طرفى القضية المركبة . فقولنا السابق يستدعى عرفا ان أحد المتخاطبين لم يكن يتوقع ان يكون فلان كسولا . ومن الواضح ان هذا النوع من الاقتضاء لايتعلق ، كماهو الحال مع المقتضيات غير العرفية ، بحكم أو بقواعد إضافية ، بل فقط بالمفردات نفسها .

كذلك ، من باب الاقتضاء العرفى الدلالةعلى المنزلة الاجتماعية المنوطة ببعض الألفاظ فعندما تقول بالإفرنسية :

tu es le directeur (أنت المدير)

Vous etes le directeur (أنتم المدير)

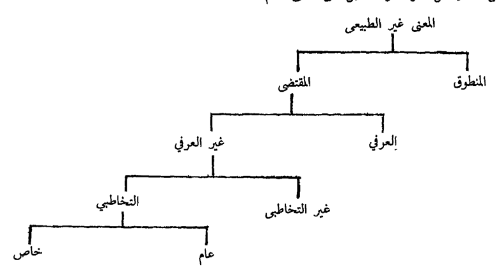
لايوجد فرق بين الضمير « Vous » (أنتم) حين استعماله لمخاطب مفرد والضمير « tu» (أنت) من حيث شروط الصدق . انما الاختلاف بينهما يرجع إلى المقتضى العرفى اللاحق بالضمير (Vous) والدال على علو منزلة المخاطب .

خلافا للاقتضاء التخاطبى ، لايتصف الاقتضاء العرفى بأى من الخصائص التى يتميز بها الأول . وبالفعل ، فالمقتضيات العرفية هى غير قابلة للنسخ non - cancellable، إذ أنها لاتعتمد على افتراضات assumption حول طبيعة السياق يمكن إلغاؤها . وهى كذلك قابلة للانفكاك detachable لأنها لاتتعلق إلا بمفردات لفظية مخصوصة ، وهى بالتالى تزول عند ابدال المفردات بألفاظ مرادفة لها . فهكذا مثلا ، عند إحلال واو العطف محل «لكن» يبطل مقتضى التنافر بالرغم من بقاء شروط الصدق ذاتها .

وأخيرا فالمقتضيات العرفية لايمكن حسبانها Calculated بالاستعانة بقواعد تداولية ومعلومات سياقية، لأنها حاصلة بالعرف والاتفاق . فهكذا مثلا ليس من طريقة تخولنا الاستدلال على تنافر وتعاند بين القضيتين المعطوفتين بـ «لكن» انطلاقا من معرفة شروط صدق هذه الأداه . لذلك ، فإنه من المتوقع ان يكون مضمون المقتضيات العرفية محدودا نسبيا .

علاوة على أنواع المقتضيات التى سلف ذكرها ، توجد أنواع أخرى غير عرفية ، تنجم عن قواعد ومبادىء مختلفة . فثمة قواعد آداب principles of politeness تنتج مقتضيات معقدة جدا . وعلى العموم كل ضوابط يؤخذ بها في استعمال اللغة ، يقابلها مقتضيات تنجم إما عن اتباع هذه الضوابط أو عن استغلالها .

من هذا التشعب لأنواع المقتضيات يظهر لنا ان المضمون المشروط بالصدق لتلفظ ما ، أى المنطوق باصطلاح غرايس ، لايشكل سوء جزء ضئيل من المعنى التام لهذا التلفظ :



المراجع

فاخوري ، عادل ، اللسانية التوليدية والتحويلية ، الطبعة الثانية ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨٨ .

Brown, P. and Levinson, S,. **Universals in language usage: Politeness. Phenomena.** in E. Goody, Questions and politeness, Cambridge, 1978.

Ducrot, O., **Les echelles argumentatives,** paris, Minuit, 1980

Grice, H.P. **Meaning, philosophical Review,** 67, 1957

————, **Logic and Conversation,** Harvard Univ. 1967. Halvossen. P., **the Syntax and Semantics of. Cleft Construction, Austin: Univ of texas, 1978**

Horn, L.R., On the Semantic Properties of the Logical Operators in English. Indiana Univ. 1972.

Jacques, F., **Dialogiques,** Paris, PUF, 1979

Karttunen, L.& Peters, S. **Conventional Implicature,** 1979

Keenan, E.O. **The Universality of conversational Implicature.** In: **language in Society,** 5, 67–80, 1976.

Levinson, S., C. **Pragmatics,** Cambridge, 1983

Mc Cawley. J., **Conversational Implicature and the lexicon, 1978**

Recanati, F., **Les enonces performatifs,** Paris, minuit, 1981

Sadock. J., M., **On Testing for Conversational Implicature,** 1978

Schiffer, S.R., **Meaning,** Oxford, 1972

Sperber, D.,& Wilson, D. **Irony and the use,** 1981

Wunderlich, D. **Linguistiche Pragmatik, frankfurt,** 1972

محاولة ألسنية في الأعلال

أحمد الحمو
أستاذ في جامعة تلمسان في الجزائر .

أولا : مقدمة في اللسانيـــات

تمتاز الألسنية الحديثة على علم القواعد التقليدي في أن الأولى تقوم على مراقبة الوقائع اللغوية دون أن تفضل بعضها على حساب بعض باسم بعض المبادىء الجمالية أو التربوية، اذ أن علم اللسان يعتمد على الرؤية العلمية وليس على الرؤية الافتراضية التي كثيرا ما لجأت اليها علوم القواعد القديمة انطلاقا من معيار الخطأ والصواب. لذلك تقف الألسنية الحديثة ذات الرؤية العلمية المجردة على النقيض من علم القواعد التقليدي ذي الرؤية المعيارية الافتراضية، وهي رؤية لم تنج منها قواعد لغة من اللغات بما في ذلك علم النحو العربي ـ كما سيتضح لنا في سياق هذه الدراسة ـ على الرغم من اعترافنا بالمجهودات الهائلة التي بذلها علماء النحو والصرف العرب مما يندر لها نظير في اللغات الأخرى .

كذلك تمتاز الألسنية الحديثة على علم القواعد التقليدي في نظرتها الى اللغة باعتبارها في المقام الأول أصواتا لغوية تألفت ضمن نسق معين، وهذه الصفة الصوتية للغة هي التي تحظى باهتمام الباحثين الألسنيين. أما الكتابة فهي امر طارىء على اللغة وحديث العهد نسبيا. لقد وجدت اللغة البشرية بصيغتها الصوتية منذ مئات آلاف السنين، ومازال معظم البشر حتى اليوم يتكلمون دون أن يستطيعوا القراءة والكتابة. ثم إن المرء يتعلم كيف يتكلم قبل أن يتعلم كيف يقرأ، واستعمال الكتابة أمر لاحق على استعمال اللغة وليس العكس. ومن المدهش حقا أن نجد بهذا الخصوص واحدا من علماء العربية القدامى قد توصل الى هذه الحقيقة الهامة في دراسة اللغة، وهو ابو الفتح بن جني، حيث ذكر في كتاب «الخصائص» : « باب القول على اللغة وما هي : اما حدها فانها

أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم »[1]. وقوله إنها «أصوات» يعني أنه يستبعد جانب الكتابة في دراسة اللغة، تماما كما يفعل الدرس اللغوي الحديث. لكن هذا الاكتشاف المثير لابن جني لم يترك أثرا في الدرس اللغوي عند علماء العربية القدامى، ربما لأنه جاء متأخراً زمنياً، حيث عاش ابن جني في القرن الرابع الهجري، اي بعد ان كان علم النحو العربي قد اختط طريقه وتصلب عوده. وعلى العموم سوف نرى ان ابن جني قد توصل بمجهود فردي ذ الى عدد من الحقائق العلمية التي تطابق الى حد بعيد ما يقرره الدرس اللغوي الحديث والتي خالف بها علماء عصره ومن سبقه دون أن يستطيع مع ذلك تعديل مسار الدرس اللغوي عند علماء العربية.

هناك نقطة أخرى أبرزتها اللسانيات الحديثة، وتنطلق من سابقتها، هي ان اللغة مجموعة من الدلائل. إن كل لفظة أو عبارة هي دليل لغوي، ولهذا الدليل اللغوي وجهان: وجه صوتي ويسمى الدال، ووجه قيمي هو المدلول، أي قيمة الدليل ومعناه. فاذا تغير الدال أو جزء منه استتبع ذلك تغير في المدلول. وعلى سبيل المثال ليس الفرق بين (كَتَبَ) و (كَاتَبَ) هو فقط في الصورة الكتابية من حيث زيادة حرف الألف في الثانية، بل هو فرق صوتي قبل كل شيء أي أنه اختلاف الدال في الأولى عن الدال في الثانية. ويشتمل الدال في الأولى على ألف قصيرة (الفتحة) تلي فاء الفعل، بينما يشتمل الدال في الثانية على ألف طويلة تلي فاء الفعل، أي أن الفرق هو في طول المصوت الداخلي الذي يلي فاء الفعل، فهو صوت قصير في الأولى وطويل في الثانية، وهو فرق طفيف كما نرى. لكن هذا التغير الطفيف في الدال أدى الى تغير في المدلول، اذ أن مدلول (كَتَبَ) غير مدلول (كَاتَبَ). لكن علم النحو العربي لم ينظر الى المسألة من جانبها الصوتي ليبحث عن الأثر الذي يحدثه تغير الدال في المدلول، بل اكتفى بمحاولة استنباط القواعد التي تضبط تغير المصوت. ولذلك نظر إليها من جانبها الكتابي فقط[2].

هذا الموقف الذي اتخذه علماء النحو والصرف في وضع قواعد العربية، أي الرؤية المعيارية الافتراضية والوقوع تحت تأثير خداع الكتابة، هو ما سوف يطبع الدرس اللغوي عندهم وهو الذي سوف يؤدي الى التعقيد الذي تعرفه اليوم قواعد اللغة العربية.

ثانيا : الاعلال من منظور لساني

ولايضاح هذا الواقع اخترنا مسألة في علم الصرف ما زالت تثير حتى اليوم كثيرا من اللغط حولها وتسبب للدارسين صعوبات جمة، وهي مسألة الاعلال. وقد سمي الاعلال كذلك نسبة الى حروف العلة، وهي الواو والياء والألف ثم يلحقون بها الهمزة. أما أنها حروف علة فلأنها كما يقول الاستراباذي «لا تسلم ولا تصح، أي لا تبقى على حالها في كثير من المواضع عند مجاورتها لما يخالفها من الحركة والحرف، فهي كالعليل المنحرف المزاج المتغير حالا بحال »[3]. وواضح من هذا التعريف أنه لا يستجيب لطبيعة اللغة، وهي طبيعة فيزيائية قبل كل شيء، فكأن

---

(١) ابوالفتح عثمان بن جني : الخصائص . تحقيق محمد علي النجار (دار الكتاب العربي بيروت (بلا تاريخ) ، ج ١ ص ٣٣

(٢) للمزيد من المعلومات حول هذه القضايا اللسانية ، انظر : اندريه مارتينيه : مبادىء اللسانيات العامة ـ ترجمة د . أحمد الحمو (منشورات وزارة التعليم العالي ، دمشق ١٩٨٥) ، ص ـ ١١ و ص ١٩ .

(٣) رضي الدين الاستراباذي : شرح الكافية . نقلا عن د . عصام نور الدين : أبنية الفصل في شافية ابن الحاجب . (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٨٢) ، ص ٢٠٨ .

أصوات اللغة أشخاص آدميون يصيبهم الاعتلال والمرض وتعتري أمزجتهم انحرافات وتقلبات. لذلك ترفض اللسانيات الحديثة مثل هذه النظرة وترى اصوات الواو والياء والألف وكذا الحركات على أنها مصوِّتات بخلاف بقية أصوات اللغة كالسين والميم التي تعتبرها من الصوامت. كذلك لا تميِّز النظرة الحديثة بين الواو والياء والألف من جهة وبين الضمة والكسرة والفتحة من جهة أخرى الا في طول المدة الزمنية، فتعتبرُ الأولى مصوتات طويلة وتعتبر الثانية مصوتات قصيرة. أما الهمزة التي ألحقها النحاة العرب بحروف العلة في مسألة الاعلال فسوف نرى لاحقا أنها لا تدخل في عداد المصوتات. بل هي من الصوامت.

ومما يجدر ذكره هنا أن ابن جني قد تنبه الى الطبيعة الواحدة لكل من حروف المد (حروف العلة) والحركات، حيث ذكر في «باب مضارعة الحروف للحركات، والحركات للحروف» من كتاب الخصائص: «أن الحركة حرف صغير، ألا ترى أن من متقدمي القوم من كان يسمى الضمة الواو الصغيرة، والكسرة الياء الصغيرة، والفتحة الالف الصغيرة». ثم يقرر: «فاذا ثبت أن هذه الحركات أبعاض للحروف ومن جنسها، وكانت متى أشبعت ومطلت تمت ووفت جرت مجرى الحروف»[٤].

لكن النحاة العرب اعتبروا ان الحركات خارجة عن الكلمة وذات قيمة ثانوية، فعاملوها غير معاملتهم لحروف المد. وسوف نرى لاحقا انهم أخطأوا في ذلك مما أدى بهم الى استنباط قواعد غير دقيقة. كذلك سيتضح لنا في سياق هذا البحث أن الحركات تقوم بوظيفة مطابقة لوظيفة حروف المد، فكلها من المصوتات. وقد تنبه الشيخ الرئيس ابن سينا بدوره في «رسالة أسباب حدوث الحروف» الى الطبيعة الواحدة لحروف المد والحركات، بل ذكر أيضا نسبة الأولى الى الثانية من حيث طول المدة الزمنية في النطق، حيث قال: «ولكني أعلم يقينا ان الألف الممدودة المصوتة تقع في ضعف أو أضعاف زمان الفتحة وأن الفتحة تقع في أصغر الأزمنة التي يصح فيها الانتقال من حرف الى حرف. وكذلك نسبة الواو المصوتة الى الضمة، والياء المصوتة الى الكسرة»[٥]. واذا كان ابن سينا لم يقرر بشكل نهائي نسبة المصوت الطويل الى المصوت القصير من حيث المدة الزمنية، أهي ضعف أم أضعاف، فإن الرأي قد استقر حاليا على أن المصوت الطويل يعادل ضعف المصوت القصير وأن الحركة تعادل من حيث زمنها نصف زمن حرف المدّ. لكن ما يلفت النظر أن ابن سينا قد استعمل مصطلح «مصوت» في وصفه لحروف المد والحركات. والحقيقة أنه استعمل ايضا مصطلح «صامت»، مما يعني ان الألسنية الحديثة لا تنفرد بهذا الاكتشاف، أي تقسيم أصوات اللغة الى صامت ومصوت، بل ان من علماء اللغة العرب من عرف هذا التقسيم ولكن دون ان يترك أثرا في مسار علم النحو والصرف. وهكذا ميز ابن سينا بين الواو الصامتة والواو المصوتة، وبين الياء الصامتة والياء المصوتة. أما الألف فلا تكون الا مصوتة. وقد وجد أن الواو الصامتة قريبة من الفاء في مخرجها وأن الياء الصامتة قريبة من السين والزاي.[٦] كذلك عرف ابن جني مصطلح «مصوت» واستعمله في كتاب «الخصائص»، حيث ذكر في «باب في مطل الحروف» مايلي: «والحروف الممطولة هي الحروف الثلاثة اللينة المصوتة. وهي الألف والياء والواو»[٧].

---

(٤) الخصائص ٢/٣١٥ - ٣١٦

(٥) الشيخ الرئيس ابي علي الحسين بن عبدالله بن سينا: رسالة اسباب حدوث الحروف، تحقيق محمد حسان الطيان ويحيى علم. (مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق - ١٩٨٣)، ص ٨٥

(٦) المرجع نفسه، ص ٨٣ - ٨٥

(٧) الخصائص، ٣/١٢٤

ولنبدأ الآن في مسألة الاعلال. يعرف علماء الصرف الاعلال بأنه «ما تتعرض له أصوات العلة من تغييرات، بحلول بعضها محل بعض، وهو ما يسمونه (الاعلال بالقلب)، أو بسقوط أصوات العلة بكاملها، ويسمونه (الاعلال بالحذف)، أو بسقوط بعض عناصر صوت العلة، وهو ما يسمونه (الاعلال بالنقل أو التسكين)»[٨]. فيما يلي سوف نعالج الحالة الأولى، أي الاعلال بالقلب. وسوف نستشهد على ذلك بمثال ما يسميه الصرفيون «الفعل الأجوف»، أي ماكانت عينه (الحرف الثاني) حرف علة، مثل (قالَ) و (باعَ). يقول الصرفيون أن أصل (قالَ) هو (قَوَلَ) وأن أصل (باعَ) هو (بَيَعَ) وأنه لما تحركت الواو أو الياء وانفتح ما قبلها انقلبت ألفا، فصارت (قَوَلَ : قالَ) و (بَيَعَ : باعَ). لكنَّ الصرفيين لم يُوضحوا لنا لماذا تنقلب كل من الواو والياء الى ألف اذا تحركتا وانفتح ما قبلهما. علما بأن مخرج كل مصوت من هذه المصوتات الثلاثة ـ الواو والياء والالف ـ مختلف عن مخرج الآخر. ثم ان تغير المصوت في الدليل اللغوي يعني تغير الدال، وتغير الدال يؤدي الى تغير المدلول ـ كما أسلفنا ـ ، أي أن (قَوَلَ) لا يمكن أن تكون (قالَ) لما بينهما من فروق في المصوتات. والأمر الثاني ـ وهو الأهم ـ أن الصرفيين لم يخبرونا من أين جاؤوا بهذا الأصل المزعوم (قَوَلَ وبَيَعَ) الذي بنوا عليه نظريتهم. إن لغة العرب لم تعرف هذا النوع من الألفاظ ولم ترد لها أشباه في أخواتها الساميات، علما بأن النحاة والصرفيين القدمى لم يلتفتوا الى اللغات السامية الأخرى، شقيقات العربية ـ في محاولة تقعيد اللغة العربية. وبديهي أن الألسنية الحديثة ترفض أن تبني على ما هو خارج اللغة أو ليس منها، فكيف إذا كان قائما على مجرد وهم او افتراض. ومع ذلك لابد للمرء أن يتساءل من اين جاء الصرفيون بهذا الأصل المزعوم، ولماذا افترضوه دون سواه. الجواب يكمن فيما يسمى عندهم «الميزان الصرفي». لقد وجدوا أن أكثر ألفاظ العربية يمكن ردها الى أُصول ثلاثية، أي ذات ثلاثة صوامت، فوضعوا وزن (فَعَلَ) ليشتقوا منه بقية الأوزان. ولذلك سموا الصامت الأول فاء الفعل والثاني عينه والثالث لامه نسبة الى صوامت الوزن (فَعَلَ).

وواضح من ذلك انهم اولوا اهتمامهم للصوامت دون المصوتات التي اعتبروها معتلة لا تثبت على حال ولا يصح الركون اليها. وهكذا راحوا يزنون الافعال والاسماء من مجردة ومزيدة. ولكن عندما وصلوا الى ما يسمى بالفعل المعتل، اي ماكان فيه حرف علة، لم يستجب الوزن الذي وضعوه لهذه الحالة، اذ ان وزن (قالَ) لا يمكن ان يكون (فَعَلَ)، لذلك كان لابد من الزعم والافتراض. لقد وجدوا ان الصوت الثاني في الصيغ الاخرى المشتقة من الفعل الاجوف إما أن يكون واوا كما في (قال يقول قولا)، واما ان يكون ياء، كما في (باع يبيع بيعا). ومن هنا تفتقت أذهانهم عن هذا الاصل المزعوم (قَوَل وبَيَع). ولقد اكد لنا ابن جنبي توهّم النحاة لذلك الاصل، حيث ذكر في الخصائص :

«هذا الموضع كثير الايهام لاكثر من يسمعه، لاحقيقة تحته، وذلك كقولنا: الاصل في قام قَوَم وفي باع بيع. . وليس الامر كذلك، بل بضده، وذلك انه لم يكن قط مع اللفظ به الا على ما تراه وتسمعه.

وانما معنى قولنا : انه كان اصله كذا : انه لوجاء مجيء الصحيح ولم يُعَلل لوجب ان يكون مجيئه على ما

---

(٨) د عبدالصبور شاهين : المنهج الصوتي للبنية العربية (مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٠) ، ص١٦٧ . وانظر أيضا الشيخ أحمد الحملاوي : شذا العرف في فن الصرف (القاهرة ١٩٦٩) ص٢٨ وص١٦٢

ذكرنا. فأما ان يكون استُعمل وقتا من الزمان، ثم انصرف فيها بعد الى هذا اللفظ فخطأ لا يعتقده احد من اهل النظر»[٩].

الا ان هذا الاصل المزعوم قد أوقعهم في تعقيدات لا حصر لها، حيث واجهوا من الكلمات ما تحققت فيه شروطهم دون ان تنقلب الواو او الياء الى الف. لذلك راحوا يحصون الالفاظ ويضعون الشروط والقيود حتى بلغ عددها عشرة شروط [١٠] مما جعل مسألة الاعلال من اعقد مسائل الصرف العربي.

وقد جرت في العصر الحاضر محاولات شتى لتبسيط مسألة الاعلال على يد دارسين عرب وأجانب وفيما يلي سوف نستعرض بايجازاتهم هذه المحاولات قبل ان نعرض لرأينا في هذه المسألة محاولين وضعها في اطارها الصحيح.

رأي فريق من علماء الساميات ان الافعال المعتلة ذات أصول ثنائية وليست ثلاثية وأن اصل (قال) هو (قَلَ) واصل (يقول) هو (يقُل) وانما جاءت الالف في (قال) والواو في (يقول) من اطالة الصوت الداخلي القصير - اي حركة القاف - مما جعل هذه الافعال تدخل في نظام الفعل الثلاثي.

والرأي الثاني الذي قال به بعض علماء الساميات لا يبتعد كثيرا عن موقف علماء الصرف العرب.

لقد رأى هذا الفريق أن الأفعال المذكورة كانت منذ البدء ثلاثية وان المصوتات الطويلة (حروف العلة) فيها جاءت نتيجة القلب أو الحذف : إن أصل (قالَ) هو (قَوَلَ) وأصل (قيلَ) هو (قُوِلَ) وأصل (يَقُولُ) [١١]. وواضح أن كلا الفريقين قد اعتمد على الظن والتخمين وأن نظرياتهم لم تخرج عن كونها محض افتراض قد يصح وقد لا يصح، ولذلك لا يمكن الركون الى أقوالهم مهما اظهرت من الحذق والاتساق المنطقي. أخيراً جرت محاولة ثالثة على يد الدكتور عبدالصبور شاهين جمع فيها بين الرأيين السابقين واقترب بذلك كثيرا من الحقيقة. لقد وجد أن أصل (قال) هو (قول) وإنما سقطت الواو في الأصل مما أدى الى التحام المصوتين القصيرين - الفتحة التي على القاف والفتحة التي على الواو - في مصوت طويل واحد هو الألف باعتبار أن المصوت الطويل يعادل مصوتين قصيرين، أي أن حرف المدّ يعادل حركتين قصيرتين. وقد مثل ذلك من خلال استعمال الحرف اللاتيني أو الكتابة الصوتية: إن (قَوَلَ) هي qa|u|ala ، فإذا سقطت الواو (u) اتصلت الفتحتان القصيرتان قبلها وبعدها فصارت الكلمة (قال): q a a l a ، وكل ما حدث هو اسقاط الواو للتخلص من ثلاثية المقطع في (قَوَلَ) واستبدال مصوت طويل بذلك هو الألف[١٢] . لقد حاول د. شاهين في هذا التفسير أن يستفيد من بعض معطيات اللسانيات الحديثة، لاسيما ما يتعلق منها بنسبة المصوتات القصيرة الى الطويلة، الا انه وقع مع ذلك في الخطأ نفسه الذي وقع فيه الصرفيون القدامى عندما انطلق من اصل مفترض غير موجود، هو (قَوَلَ). ولقد رأينا أن هذا الأصل المزعوم لم تعرفه اللغة العربية وأن النحاة قد ابتدعوه من لدن أنفسهم لمطابقة الميزان الصرفي (فَعَلَ) الذي كان أيضا من وضعهم. وفي رأينا أن الحل الأمثل ينبغي أن ينطلق مما هو موجود في اللغة فعلا دون اللجوء الى افتراضات ومزاعم لا أساس لها.

---

(٩) الخصائص ج ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧

(١٠) انظر شذا العرف ص ١٦٢

(١١) انظر هنري فليش : العربية الفصحى . تعريب الدكتور عبدالصبور شاهين . (دار المشرق ، بيروت ١٩٨٣) ، ص ٢٠١ .

(١٢) انظر د عبدالصبور شاهين . المنهج الصوتي للبنية العربية ، ص ٨٢ - ٨٥ و ص ١٩٢ - ١٩٥

وفي سبيل ذلك سوف نستعرض أولا اسناد الفعل الأجوف الى ضمائر الرفع في الماضي والمضارع ثم نحاول استنباط القواعد التي تضبط عملية التحول التي تطرأ على هذا النوع من الأفعال :

الماضــي

الشخص / جنس		المتكلم	المخاطب	الغائب
مذكر	مفرد	قُلْ ـ تُ بِعْ ـ تُ	قُلْ ـ تِ بِعْ ـ تَ	قالَ باعَ
	مثنى		قُلْ ـ تما بِعْ ـ تما	قال ـ ا باع ـ ا
	جمع	قُلْ ـ نا بِعْ ـ نا	قُلْ ـ تم بِعْ ـ تم	قال ـ و باع ـ و
مؤنث	مفرد		قُلْ ـ تِ بِعْ ـ تِ	قَالَ ـ تْ باعَ ـ تْ
	مثنى		قُلْ ـ تما بِعْ ـ تما	قالَ ـ تا باعَ ـ تا
	جمع		قُلْ ـ تنَّ بِعْ ـ تنَّ	قُلْ ـ نَ بِعْ ـ نَ

المضــــارع

الشخص / جنس		المتكلم	المخاطب	الغائب
مذكر	مفرد	أ ـ قولُ أ ـ بيعُ	تَ ـ قولُ تَ ـ بيعُ	يَ ـ قولُ يَ ـ بيعُ
	مثنى		تَ ـ قول ـ ان تَ ـ بيع ـ ان	يَ ـ قول ـ ان يَ ـ بيع ـ ان
	جمع	دَ ـ قول نَ ـ بيعُ	تَ ـ قول ـ ون تَ ـ بيع ـ ون	يَ ـ قول ـ ون يَ ـ بيع ـ ون
مؤنث	مفرد		تَ ـ قول ـ ين تَ ـ بيع ـ ين	تَ ـ قولُ تَ ـ بيعُ
	مثنى		تَ ـ قول ـ ان تَ ـ بيع ـ ان	تَ ـ قول ـ ان تَ ـ بيع ـ ان
	جمع		تَ ـ قُلْ ـ نَ تَ ـ بِعْ ـ نَ	يَ ـ قُلْ ـ نَ يَ ـ بِعْ ـ نَ

ان نظرة فاحصة على صيغ الفعل الماضي سوف تكشف لنا بوضوح تام أنها تشترك في الأعم الأغلب بجذر واحد هو (قُلْ . . qul) ، ولا يشذ عن هذه القاعدة سوى صيغ الفعل الماضي عند اسناده الى الشخص الغائب، حيث يبدو أن جذره هو (قال qal) باستثناء جمع الاناث، حيث يعود الجذر الى حالته الأصلية (قُل . .). لنلق الآن نظرة ثانية على صيغ الفعل المضارع وسوف نرى أنها تشترك جميعا بجذر واحد هو (. . قُول . . qul) باستثناء جمع الاناث في المخاطب والغائب، حيث أن جذرها هو جذر الماضي (قُلْ . .) . إذا استثنينا الآن ـ وبصورة مؤقتة ـ مسألة تصرف الفعل الماضي مع الشخص الغائب لتبين لنا أن للفعل الأجوف جذرين، واحداً للماضي هو (قُلْ . .) وآخر للمضارع هو (. . قول . .) وأنه لا فرق بينهما إلا في طول المصوت الداخلي، فهو قصير في جذر الماضي وطويل في جذر المضارع. ثم إن هذين المصوتين من جنس واحد : حركة الضمة في جذر الماضي وحرف المد الواو في جذر المضارع. وتبعا لذلك نستطيع أن نقرر الآن أن جذر المضارع قد نتج عن إطالة الصوت الداخلي القصير في جذر الماضي :.

قُلْ ← قُول ، مما يعني أن الواو أو الياء اللتين قامت من أجلهما أكثر قواعد الاعلال ليستا أصليتين في
qal qul

الكلمة ، بل نشأتا عن إطالة المصوت القصير في الجذر الأصلي . وسوف يتأكد لنا ذلك لاحقا من خلال استعراض بقية المشتقات .

لنعد الآن إلى جذر الماضي مع الشخص الغائب (قال)، الذي يمتاز عن مثيله مع المتكلم والمخاطب بوجود حرف ألف في وسطه، فما هي هذه الألف ومن أين جاءت ؟

لكي نقرر في أمر هذه الألف ينبغي أن نقارن بين صيغة الماضي عند اسناد الفعل الى الشخص الغائب وبين صيغته عند اسناده الى المتكلم والمخاطب.

وهنا نلاحظ أن صيغته في الحالة الثانية تتألف من الجذر (قُلْ . .) مضافا إليها لاحقة تتغير حسب الشخص والعدد والجنس. فاللاحقة (. . نا) في (قُلنا) مشتقة من ضمير الرفع المنفصل (نحن)، واللاحقة (. . تَ) في (قلتَ) مشتقة من (أنتَ) أو أنها صيغة مختصرة من هذا الضمير. وكذلك فإن اللاحقة (. . تما) في (قُلتما) مشتقة من الضمير (أنتما)، واللاحقة (. . تُم) في (قُلتم) من الضمير (أنتم)، و(. . تِ) في (قُلتِ) من الضمير (أنتِ) و (. . تنَّ) في (قُلتنَّ) من الضمير (أنتنَّ).

هذا يعني أن اللواحق المذكورة هي صيغ مختصرة من ضمائر الرفع المنفصلة وأنها تدل على الشخص والعدد والجنس. أما في حالة اسناد الفعل الماضي الى الشخص الغائب فإن اللواحق أمرها مختلف. وباستثناء (نَ) أي نون النسوة في (قُلنَ) ـ وهي صيغة مختصرة من (هنَّ) فإن بقية اللواحق لا تدل على الشخص بل على الجنس والعدد فقط. ان (. . تا) في (قالَتا) تدل على التأنيث والتثنية، لكنها لا تدل على الغيبة. وكذلك (. . تْ) تاء التأنيث في (قالَتْ) تدل على التأنيث والافراد ولا تدل على الشخص الغائب ولا علاقة لها بضمير الرفع (هي) مثلما لا علاقة للاحقة (. . تا) في (قالتا) بضمير الرفع (هما).

أما اللاحقة (. . و) في (قالوا) فإنها ليست أكثر من علامة لجمع الذكور سواء في الأفعال أو في الأسماء. وإذا كانت تقترن في الأسماء مع النون إلا أنها قد تفقدها في حالات معينة معروفة. ثم إنها تقترن بالنون في الفعل المضارع (يقولونَ).

هذا يعني أو وجود النون أو عدمه لا يغير شيئا من مدلول (. . و) والتي تدل على الجنس والعدد دون الشخص. ويكفي أن نشير الى أنها تدل في المضارع على جمع الذكور للشخص الغائب وللشخص المخاطب، أي أنها لا تختص بشخص دون شخص مما يؤكد أنها لا تحمل دلالة على الشخص. والشيء نفسه يمكن أن يقال عن اللاحقة (. . ا) في (قالا) التي تدل على التثنية، ولذلك سماها القدامى (ألف الاثنين). وهي تدل على التذكير لخلوها من تاء التأنيث مقارنة مع اللاحقة (. . تا) في (قالتا). أخيرا بقيت لدينا الصيغة (قالَ)، وهي صيغة قد خلت ظاهريا من لاحقة تضاف اليها لتدل على مادلت عليه اللواحق الأخرى عند اسناد الفعل إلى الشخص الغائب.

لكن الحقيقة أن صيغة (قالَ) ليست خالية تماما من اللواحق، إذ إن الفتحة التي في آخر الفعل هي لاحقة حقيقية تدل على مادلت عليه زميلاتها من اللواحق الأخرى. فإذا كانت الألف ـ وهي مصوت طويل ـ تدل على التثنية فلماذا لاتدل الفتحة ـ وهي مصوت قصير ـ على الافراد، علما بأن الفتحة تعادل نصف الألف وهي من جنسها كما رأينا. وإذا كان المرء يجد صعوبة في قبول هذه الفكرة فلأن علم الرسم العربي يبرز المصوتات الطويلة دون القصيرة، أي أننا نكتب الألف دون الفتحة وكذلك الواو دون الضمة ومثلها الياء دون الكسرة. أما من حيث النطق فلا تقلّ الوظائف الطويلة التي تؤديها المصوتات القصيرة في شيء عن الوظائف التي تؤديها مثيلاتها من المصوتات الطويلة. وبالتالي لا مناص لنا أن نقرر بأن الفتحة في (قالَ) هي لاحقة حقيقية تدل على ما دلت عليه بقية اللواحق مع الشخص الغائب، أي على الجنس والعدد. وهنا لابد أن يرتسم في ذهننا السؤال المشروع التالي: إذا كانت هذه اللواحق الخمسة ـ باستثناء نون النسوة ـ تدل على الجنس والعدد فقط، فما الذي يدل على الشخص الغائب إذن؟ إذ لابد من دالّ يدل عليه. وجوابنا أن الألف التي في وسط الفعل (قالَ) هي الدال الممكن الوحيد على الشخص الغائب. ونستطيع أن نبرهن على ذلك بأنه حيث دَلت اللواحق على الشخص لم تظهر هذه الألف. فهي لم تظهر عند اسناد الفعل إلى الشخص المتكلم لأن لواحق الفعل تدل عليه بالمثل، بل لم تظهر عند اسناد الفعل إلى الشخص الغائب في جمع الاناث لأن نون النسوة قد دلت عليه.

ماذا يعني ذلك؟ يعني أن الالف دخيلة على الفعل مثلما أن اللواحق دخيلة عليه أيضا. أي أن الالف لم تنشأ عن انقلاب الواو في (قَوَلَ) ولا عن انقلاب الياء في (بَيَعَ)، بل أضيفت هذه الألف إلى الفعل من خارجه، وهذا يلغي فكرة (الاعلال بالقلب) من الأساس. وقد رأينا سابقا أن الواو بحدّ ذاتها ليست أصيلة في الفعل بل هي ناشئة عن اطالة المصوت الداخلي القصير ـ أي الضمة في (. . قُلْ) ـ لتصبح مصوتا طويلا في جذر المضارع، أي واوا في (. . قُول . .)، وبالتالي ليس من شأنها أن تنقلب أو تتحول بل هي خاصة بجذر المضارع وحده.

لقد توصلنا حتى الآن إلى فكرتين أساسيتين جديدتين بشأن الاعلال، تقوم الأولى على أن حرف المدّ في جذر المضارع قد نشأ عن إطالة المصوت الداخلي القصير في جذر الماضي، وليس عن أصل مزعوم مثل (قَوَلَ) و (بَيَعَ).

وتقوم الفكرة الثانية على أن ـ الألف في (قالَ) و (باعَ) دخيلة على جذر الفعل وتؤدي وظيفة محددة هي الدلالة على الشخص الغائب لخلوّ اللواحق من هذا المدلول . فيما يلي سوف نتوسع قليلا في شرح هاتين الفكرتين : بخصوص مبدأ استخلاص بعض صيغ العربية من بعض عن طريق إطالة المصوتات الداخلية القصيرة استطاع هنري فليش [١٣] أن يحصر الصياغة الأسمية في اللغة العربية في سبع صيغ أساسية خالية تماما من المصوتات الطويلة وبين كيف أن اللغة العربية قد طورت من هذه الصيغ السبع أخرى كثيرة بلغ عددها سبعا وعشرين صيغة ، وذلك عن طريق ما أسماه «التحول الداخلي» أي من خلال اشباع المصوت الداخلي القصير ليصبح طويلا . كما بيّن أن الأمر نفسه شائع في صيغ الأفعال وأن بعض الصيغ قد انشقت من بعض بواسطة إطالة المصوت الداخلي القصير ، مثل : فَعَلَ . فاعَلَ ، تفعَّل . تفاعَل [١٤] ، مما يشير الى أن الظاهرة شائعة جدا في اللغة العربية وأننا لم نأت ببدعة في اللغة حينما نسبنا أصل جذر المضارع إلى جذر الماضي . ثم إن العربية قد اتبعت هذا المنهاج مع الصوامت مثلما اتبعته مع المصوتات .

أليست صيغة (قتَّل) مشتقة من صيغة (قَتَلَ) وذلك من خلال تضعيف الصامت الأوسط في الفعل ، أي من خلال ما يسمى تشديد الحرف ؟ وقياسا على ذلك فإن إطالة المصوت الداخلي القصير ليصبح طويلاً هي ظاهرة مشابهة ، وما ينطبق إذن على الصامت ينطبق أيضا على المصوت . لقد اشتقت (قَاتَلَ) مِن (قَتَلَ) بواسطة اشباع الفتحة التي تلي الصامت الأول فانقلبت إلى ألف ، وكذلك اشتقت (قتّل) من (قَتَلَ) بواسطة مضاعفة الصامت الثاني ، أي أن اشباع الفتحة في (قاتَل) يشبه تشديد التاء في (قتَّل) ، فهي تؤدي كلها في نهاية المطاف إلى مضاعفة عنصر صوتي داخل النسج ، سواء أكان صامتا أم مصوتا . وما يقال هنا عن التضعيف ينطبق بالطريقة نفسها على قُل . . ← قُول . . أو بِع . . ← بيع . . ، مما يعني أن جذر المضارع قد نتج عن جذر الماضي بواسطة اطالة أو مضاعفة المصوت الداخلي القصير . ونستطيع بطريقة معكوسة أن نبرهن على أن المصوت الطويل يعادل مصوتين قصيرين . لقد عرف عن بعض العرب أنهم يعمدون في حالة المقطع المديد (صامت + مصوت طويل + صامت مضعف) إلى تقسيم المصوت الطويل الى مصوتين قصيرين منفصلين بواسطة همزة ، فبدلا من قراءة (ولا الضالّين) يقرؤون (ولا الضَألّين) حسب رواية ابن جنّي [١٥] . هذا يعني أننا نستطيع تجزئة المصوت الطويل إلى مصوتين قصيرين مثلما نستطيع تجزئة الصامت المضعف إلى صامتين متماثلين .

أما بخصوص المبدأ الثاني في أن الألف في (قالَ) و (باعَ) دخيلة على جذر الفعل وليست ناشئة عن انقلاب الواو أو الياء ، فهناك أكثر من شاهد على ذلك . إن الألف التي في اسم الفاعل ، مثل : قائل وبائع ، هي الألف نفسها التي في الفعل الماضي (قال) و(باع) ، أي أن تلك الألف تدل على الفاعل ولا شيء غيره . وقد تنبه قديماً إلى ذلك ابن مضاء الأندلسي في كتابه «الرد على النحاة» عندما ذكر أن النحاة يقولون في مثل (زيد ضارب عمرا) ، أن في (ضارب) ضميرا مستترا تقديره هو فاعل ، لكن ابن مضاء يرى أن (ضارب) تدل على الصفة وصاحبها فلا داعي للتأويل [١٦] .

---

(١٣) هنرى فليش : العربية الفصحى ، ص ٧٢ وما يليها .

(١٤) المرجع نفسه ، ص ١٤١ وما يليها .

(١٥) الخصائص ج ٣ ، ص ١٤٧

(١٦) ابن مضاء القرطبي : الرد على النحاة ، تحقيق شوقي ضيف (القاهرة : دار الفكر العربي ١٩٤٧) ، ص ١٠٠

وصاحب الصفة هو الفاعل . وإذا كان ابن مضاء لم يحصر الدالّ على الفاعل في الألف وتركه بلا تحديد ، إلا أنه أقترب كثيرا من الصواب عندما رأى أن شيئاً ما في اسم الفاعل يدل عليه وأنه لا حاجة بالتالي إلى تقدير ذلك الفاعل تقديراً . أما الصرفيون فيقولون بأن أصل (قائل) هو (قاوِل) وأصل (بائع) هو (بايع) وأن الهمزة قد انقلبت عن الواو في (قاول) وعن الياء في (بايع) ، وكانوا قبل ذلك قرروا بأن الألف في (قال) قد انقلبت عن الواو في (قَوَلَ) كما انقلبت في (باع) عن الياء في (بيع) ، مع أن الواو في (قاول) هي الواو نفسها في (قَوَلَ) والياء في (بايع) هي الياء نفسها في (بَيَعَ) .

كيف اذن انقلبتا الى ألف في (قال) و (باع) بينما انقلبتا إلى همزة في (قائل) و (بائع) ، علماً بأن الألف لم تزل قائمة في هاتين الصيغتين الأخيرتين ؟ ان اطراد القاعدة يقتضي أن تكون الألف في اسم الفاعل قد انقلبت عن الواو والياء وليس الهمزة . لكن الحقيقة أنه لا الألف ولا الهمزة قد انقلبتا عن الواو أو الياء المفترضتين . ويبدو أن هناك من الصرفيين من تنبه إلى ذلك فابتدع تفسيرا مختلفا ، وهو أن الهمزة في (قائل) و (بائع) قد انقلبت عن الألف في (قال) و (باع) وليس عن الواو في الصيغة المفترضة (قاول) أو عن الياء في الصيغة المفترضة (بايع) [١٧] . ان هذا الافتراض يعني أننا هنا أمام سلسلة لا منتهية من الانقلابات التي لا تخضع لقانون ، حيث أن الواو في (قَوَلَ) والياء في (بَيَعَ) قد انقلبتا الى الالف في (قال) و (باع) ثم انقلبت الألف الجديدة نفسها إلى همزة في (قائل) و (بائع) . لكن هذا الفريق من الصرفيين لا يخبرنا من أين جاءت الألف في صيغة اسم الفاعل ، مع أنها تقع في الموقع نفسه الذي تقع فيه الألف في الفعل الأجوف ، مما يؤكد أن هذه الألف التي في اسم الفاعل هي الألف في الفعل الأجوف وأنها لن تنقلب بالتالي إلى همزة .

ان هذا الاختلاف في التفسير ناتج عن عدم توصل علماء الصرف إلى حقيقة التغيرات التي تطرأ على المصوتات وإلى عدم فهمهم للطبيعة الفيزيائية لهذه المصوتات . وسوف نعود إلى مسألة أصل الهمزة في سياق هذا البحث . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الألف في الفعل المنقوص هي الألف نفسها التي رأيناها في الفعل الأجوف وفي اسم الفاعل . وسواء أوردت هنا مقصورة أم ممدودة فإن هذا لا يغير شيئا من واقع الأمر ، لأنه شأن من شؤون علم الرسم العربي . ان الألف لاترد في الناقص الواوي أو اليائي إلا في صيغة الماضي عند اسناده إلى الشخص الغائب ، مثل : (قضى) و (بكى) و (دعا) ، باستثناء حالات قليلة تظهر فيها الألف في المضارع أيضا ، مثل : (سعى ـ يسعى) . هذا يعني أن الألف في الفعل المنقوص تسلك السلوك ذاته الذي رأيناه في الفعل الأجوف . لكنها لا تظهر هنا إلا مع المفرد المذكر ، بينما تختفي مع المثنى والجمع والمؤنث بسبب دخول لواحق العدد والجنس على الفعل . أما مع المفرد المذكر فإن اللاحقة التي تدل على العدد والجنس ، أي الفتحة ، هي ذات طبيعة واحدة كالألف بحيث تندمج معها وتختفي ، لأنه لا يمكن تحريك الألف بالفتحة . فالألف في الفعل المنقوص دخيلة على جذر الفعل وتدل على الشخص الغائب وليست منقلبة عن واو أو ياء .

وكما رأينا في الفعل الأجوف فإن الواو والياء في مضارع الفعل الناقص ليستا أصليتين بل نتجتا عن إطالة المصوت القصير في صيغة الماضي . إلا أنهما تظهران في ماضي الفعل الأجوف في هيئة مصوت قصير ، بينما تظهران في

(١٧) انظر عبده الراجحي : التطبيق الصرفي (بيروت : دار النهضة العربية ١٩٨٤) ، ص ٧٦ .

ماضي الفعل المنقوص في هيئة حرف صامت . وسوف نرى لاحقا أن الواو الصامتة تعادل الضمة وأن الياء الصامتة تعادل الكسرة ، مما يجعل المبدأ الذي استنبطناه في حالة الفعل الأجوف يصح أيضا في حالة الفعل المنقوص ، أي أن جذر المضارع قد نشأ عن جذر الماضي من خلال اطالة المصوت القصير .

اذا كان المصوت الطويل في جذر المضارع قد نتج عن إطالة المصوت القصير في جذر الماضي ، فما هو أصل الواو والياء الصامتتين في المصدر (قَوْل) و (بَيْع) ؟ ان ما درج علماء الصرف على تسميته بالمصدر ليس مصدراً في حقيقة الأمر بل هو مشتق من جذر المضارع ، مثلما أن جذر المضارع قد اشتق بدوره من جذور الماضي ، أي أن - (قَوْل) قداشتقت من (. . قُول . .) وأن (بَيْع) قد اشتقت من (. . بِيع . .) ، مما يعني أننا أمام متوالية اشتقاقية :

جذر الماضي ← جذر المضارع ← الإسم

أو : قُلْ ← قُول ← قَوْل

وتفصيل ذلك كما يلي :

ذكرنا أن جذر المضارع (. . قُول . .) و (. . بِيع . .) قد نتج عن جذر الماضي (قُل . .) و (بِع . .) وذلك بواسطة اطالة المصوت الداخلي القصير في هذا الاخير . كما ذكرنا أيضا أن المصوت الطويل يعادل ضعفي المصوت القصير ، أي أن المصوت الطويل يتألف من مصوتين قصيرين :

فتحة + فتحة = ألف طويلة

ضمة + ضمة = واو طويلة

كسرة + كسرة = ياء طويلة

ولو نظرنا الآن الى جذر المضارع (. . قُول . .) و (. . بِيع . .) لوجدنا أنه يشتمل على مصوت طويل نتج عن اندماج مصوتين قصيرين . وبمقارنة بالاسم (قَوْل) و (بَيْع) سوف يتضح لنا أن النصف الاول من المصوت الطويل في جذر المضارع قد سقط وحل محله مصوت قصير من نوع آخر هو الفتحة ، ولذلك تحركت القاف في (قَوْل) والباء في (بَيْع) بالفتحة . لكنّ النصف الثاني من المصوت الطويل الذي كان في جذر المضارع قد بقى على حاله وظهر في هيئة واو صامتة في الاسم وياء صامتة في الاسم الثاني .

ويمكننا تمثيل ذلك على الشكل التالي :

ان جذر المضارع (. . قُول . .) عبارة عن ق + ـُ + ـُ + ل

وكذلك جذر المضارع (. . بِيع . .) عبارة عن ب + ـِ + ـِ + ع

وعندما حلّت الفتحة في الاسم محلّ المصوت القصير الأول من جذر المضارع صارت على الشكل التالي :

ق ـَ + ـُ + ل

ب ـَ + ـِ ع

هذا يعني أن الواو الصامتة في (قَوْل) والياء الصامتة في (بَيْع) ليستا سوى النصف الثاني من المصوت الطويل الذي كان في جذر المضارع ، وأن الواو الصامتة تعادل الضمة وأن الياء الصامتة تعادل الكسرة ، فكأن (قَوْل) هي في أصلها (قَ ـُ ل) وأن (بَيْع) هي في أصلها (بَ ـِ ع) . ولو جربنا نطقها على هذا الشكل ، أي نطق الضمة دون صامت قبلها ونطق الكسرة دون صامت قبلها أيضا لوجدنا أنه لا يختلف كثيرا عن نطق الواو الصامتة في (قَوْل) والياء الصامتة في (بَيْع) مع فارق واحد ، هو أننا ننطق في أول الضمة وكذا في أول الكسرة بصوت الهمزة ، وبتسهيل الهمزة نحصل على التوالي على واو صامتة وعلى ياء صامتة ، مما يؤكد أن كلا من الواو الصامتة والياء الصامتة ليستا في الأصل سوى مصوت قصير ، أي ضمة في حالة الواو وكسرة في حالة الياء بعد تسهيل الهمزة التي في أول كل منهما . أما من أين جاءت الهمزة ولماذا ، فهذا ما سوف نشرحه بعد قليل في مبحث الهمزة . ولو أردنا التعبير عن ذلك بلغة اللسانيات الحديثه لقلنا بأن جذر المضارع في (. . قُول . .) و (. . بِيع . .) يشتمل على مصوت طويل بينما يشتمل الاسم (قَوْل) و (بَيْع) على مصوت مزدوج مؤلف من مصوتين قصيرين متعارضين : فتحة وضمة في (قَوْل) وفتحة وكسرة في (بَيْع) . وما قلناه عن المتوالية الاشتقاقية :

جذر الماضي ← جذر المضارع ← الاسم

يمكن التعبير عنه على الشكل التالي :

مصوت قصير ← مصوت طويل ← مصوت مزدوج

بقي أن نشير إلى أن تحول مصوت طويل إلى مصوت مزدوج لا يقتصر في اللغة العربية على الحالة التي نحن بصددها ، بل هنالك حالات أخرى أيضا يحدث فيها مثل هذا التحول . وحالة النصب في الفعل المضارع المعتل الاخر اذا كان منتهيا بالواو أو الياء هي حالة مماثلة يتحول فيها المصوت الطويل إلى مصوت مزدوج . ان فعل (يدعو) ينتهي بمصوت طويل في حالة الرفع ، لكنه ينتهي في حالة النصب (لن يدعوَ) بمصوت مزدوج هو الواو الصامتة والفتحة . وكذلك فعل (يرمي) في حالة الرفع و (لن يرميَ) في حالة النصب . والفرق بين حالتنا السابقة وهذه الحالة هو أنه في حالة الاسم (قَوْل) و (بَيْع) حلّت الفتحة محل النصف الأول من المصوت الطويل في جذر المضارع ، بينما حلّت الفتحة في حالة الفعل المضارع المنصوب (لن يدعوَ) و (لن يرميَ) محلّ النصف الثاني من المصوت الطويل ، أي أن الواو الطويلة والياء الطويلة في الحالة الأولى قد تحولتا إلى فتحة متبوعة بضمة والى فتحة متبوعة بكسرة في (قَوْل) و (بَيْع) ، بينما تحولتا في الحالة الثانية إلى ضمة متبوعة بفتحة وإلى كسرة متبوعة بفتحة في (يدعوَ و يرميَ) . وهكذا نتج في الحالتين مصوت مزدوج .

ثالثا : حقيقة الهمزة

أوضحنا حتى الآن أن فكرة انقلاب المصوتات بعضها عن بعض فكرة غير صحيحة وأنها قد قامت على افتراض وجود أصول متوهمة اخترعها النحاة من بنات أفكارهم لمطابقة الميزان الصرفي الذي وضعوه . كذلك بيّنا أن أقصى ما يمكن أن يحدث للمصوت هو أن يتحول إلى مصوت من جنسه أو إلى مصوت مزدوج ـ كما رأينا آنفا . أما ما خلا ذلك فوهم لا أساس له . ولكن ماذا عن انقلاب المصوتات إلى همزة حسب ادعاء الصرفيين ؟ انهم يقولون بانقلاب

الواو في (قاول) إلى همزة في (قائل) وانقلاب الياء في (بايع) إلى همزة في (بائع) ، أي أنهم يفترضون أصل (قائل) : قاول وأصل (بائع) : بايع انطلاقاً من الأصول المفترضة (قَوَلَ) و (بَيَعَ) . وواضح أن الصرفيين هنا قد لجأوا مرة ثانية إلى الافتراض والظن ، مما ترفضه اللسانيات الحديثة . والأمر الثاني أن الهمزة ليست من جنس المصوتات بل هي من الصوامت ، وهذا مالم ينكره القدماء . لكنهم مع ذلك أخطأوا في فهم الهمزة . وقبل أن نبحث عن أصل الهمزة في أسماء الفاعل (قائل) و (بائع) سوف نستعرض بايجاز موقف القدماء من الهمزة لنتبين الأسباب التي جعلتهم يقعون في الخطأ .

لقد أجمع القدماء تقريبا على أن الهمزة من الأصوات المجهورة ، مع أن الدراسات الصوتية الحديثة لم تترك مجالا للشك في أن الهمزة لا تدخل في عداد المجهورات . ويرى فريق من الدارسين اليوم أن الهمزة صوت مهموس ويفضّل فريق آخر أن يعتبرها لا مجهورة ولا مهموسة [١٨] .

ويبدوا أن من أسباب وقوع القدماء في الخطأ أنهم قد أخذوا بما أورده سيبويه في «الكتاب» حول الهمزة دون تمحيص . لقد ذكر سيبويه أن الهمزة واحدة من الأصوات التسعة عشر التي عدّها مجهورة وعدّ من بينها أيضا المصوتات الطويلة الثلاثة : الألف والواو والياء [١٩] ، مما سوغ له ولمن بعده القول بامكانية انقلاب المصوتات إلى همزة .

ماهي حقيقة الهمزة إذن ؟

ينبغي التأكيد قبل كل شيء أن الهمزة ليست من حروف المباني وأن وجودها أو عدمه لا يغير شيئا من مدلول الكلمة بخلاف بقية أصوات اللغة التي يؤدي استبدال واحد منها بغيره أو سقوطه إلى ظهور نَسْج صوتي جديد يحمل مدلولا مختلفاً . وعلى سبيل المثال ، ان قولنا (يومنون) دون همزة لا يدل على غير ما يدل عليه قولنا (يؤمنون) بنطق الهمزة .

وفي المقابل لو أسقطنا من كلمة (يومنون) حرف النون مثلا لظهر لدينا نَسْج صوتي جديد بمدلول جديد هو (يومون) * . ولو أبدلنا من الميم قاف لظهر لدينا أيضا نسج صوتي جديد بمدلول جديد هو (يوقنون) . وهذا ما ندعوه في اللسانيات الحديثة «الوظيفة التمييزية» . وتعني هذه الوظيفة أن غياب صوت لغوي من أصوات النسج الصوتي أو حلول صوت لغوي آخر مكانه يؤدي إلى ظهور نسج صوتي جديد بمدلول جديد ، لأن كل صوت لغوي يميز من خلال وجوده أو عدمه وكذلك من خلال موقعه أيضا بين نسج صوتي وآخر . ولذلك سمّيت وظيفته بالوظيفة التمييزيه . أما غياب الهمزة في النسج الصوتي فلا يؤدي الى ظهور نسج صوتي جديد ولا الى تغير في المدلول الذي يحمله النسج ، لأن وظيفة الهمزة ليست تمييزية بل هي «وظيفة تباينيّة» قبل كُلّ شيء . ومعنى الوظيفة التباينية أن الصوت اللغوي يساعد في أن يسهلَ على السامع عملية تحليل الكلام الى وحدات متعاقبة [٢٠] . ان وظيفة التباين

---

(١٨) انظر كمال محمد بشر : علم اللغة العام ـ الاصوات (القاهرة : دار المعارف بمصر ١٩٨٠) ص ١١٣ .

(١٩) سيبويه . الكتاب (القاهرة : مطبعة بولاق ١٣١٦ هـ) ، ج ٢ ص ٤٠٥

(٢٠) انظر : اندريه مرتينيه ، مبادىء اللسانيات العامة ، ص ٥١ .

* والأصح «يومئون»

هذه غالبا ما تكون منوطة بالنبر في أكثر اللغات المعروفة . لكن الهمز في حقيقته ليس الا نوعا من أنواع النبر . وكانت العرب تنبر بأشكال مختلفة منها الهمز والمدّ .

ثم ان تعريف ابن سينا للهمز في «رسالة أسباب حدوث الحروف» يؤكّد هذه الحقيقة فالهمزة عنده «حفز قوي من الحجاب وعضل الصدر لهواء كثير» [٢١]

كذلك فالهمز لغة هو الضغط أو النبر ، لذلك لا عجب ان العرب كانت تسقط الهمز من كلامها في مناسبات كثيرة ، ومنها قولهم [٢٢] «وَيْلِمِّه» بمعنى ويل لأمّه ، وحكاية أحمد بن يحيى قول المرأة لبناتها وقد خلا الأعرابي بهنّ «أفي السَوَ تَبْتَنِيَّه» (تريد : أفي السوءة أنتنّه) . كما ورد في القراءات اسقاط الهمزة في مواضع عديدة ، منها قراءة الكسائي «بما أنزلِّيك» (البقرة ٤) وقراءة ابن كثير «انها لَحْدى الكبر» (المدثر ٣٥) . أخيرا ذكر ابنُ جني أن أصل لفظ الجلالة (الله) هو «الاه» فحذفت الهمزة وأضيفت (ال) التعريف ، وكذلك كلمة (الناس) فأن أصلها «أناس» [٢٣]

الا انه تواجهنا في اللغة العربية ألفاظ تبدو فيها الهمزة أصلية لأوّل وهلة بحيث لا يمكن اسقاطها أو تسهيلها او ابدالها . ويتجلى هذا الامر على نحو خاص عندما تكون الهمزة متحرّكة ، كما في مطلع الالفاظ التالية : أحوال ، أسرى أو اذا وردت في موقع العين مثل : سأل وسئل وسؤال أو في موقع اللام مثل : بدأ ودرأ وما فتيء .

لنتأمّل نطقنا للاسماء المبدوءة بأداة التعريف (ال) اذا وقعت في أول الكلام ، كقولنا : ’الرجل ، الباب الخ . . . انه لا يخطر ببالنا أننا نبدأ هنا بنطق الهمزة مع أننا لا نملك نطق صوت الالف في مطلع هذه الالفاظ دون نطق الهمزة في أولها . ذلك ان الهمزة تشكل جزءاً لا يتجزأ من مطلع (ال) التعريف مثلما لا يعمد على الرسم في اللغات الاخرى الى كتابة همزة في مطلع هذا النوع من المصوتات مع ان الهمزة موجودة . ومثال ذلك في الالمانية Achten (احترم) و Essen (أكل) و Irdisch (دنيوي) ، وفي الانجليزية After (بعد) و Us (حالة المفعول من ضمير المتكلم الجمع) و Increase (زيادة) ، وفي الفرنسية Amour (حُبّ) و Eau (ماء) و homour (دعابة) ، وفي الفارسية «است» (يكون) و «ايشان» (هم) و «اسب» (حصان) و «آب» (ماء) . و «اطاق» (غرفة) .

وفي كلّ هذه الامثلة توجد همزة في مطلعها لانها مبدوءة بمصوت . لكن اللغات الاخرى لا تكتب الهمزة بل تكتب المصوت فقط لان الهمزة ليست الا جزءاِ من المصوت اذا ورد غير مسبوق بصامت . ودليل ذلك ان صوت الهمزة يختفي من مطلع هذه الامثلة جميعا حالما يصبح مصوت المطلع مسبوقا بحرف صامت ، ومثال ذلك في الالمانية ان كلمة Essen (أكل) تصبح Messen (قاس ، كال) اذا دخل عليها الصامت (m) في اولها ولا يبقى فيها اثر للهمزة ، ومثلها في الانكليزية كلمة Increase اذا دخلت عليها an (اداة التنكير) ، وفي الفرنسية تختفي الهمزة من مطلع Amour اذا دخلت عليها أداة التعريف فتصبح l'amour ، وفي الفارسية تختفي الهمزة ايضا من مطلع

---

(٢١) رسالة اسباب حدوث الحروف ، ص ٧٢
(٢٢) انظر الخصائص ج ٣ ، ص ١٥٠ - ١٥١
(٢٣) المرجع نفسه .

«است» اذا دخلت عليها الهاء فتصبح «هست» (بمعنى موجود) ، مما يشير الى ان ما كان في مطلع تلك الكلمات ليس همزة بل مصوتا وأن الصوامت التي ادخلت عليه تحركت به فاختفى صوت الهمزة .

وقياسا على ذلك فان ما يتوهمه المرء من وجود همزة في (سأل) ومشتقاتها ليس الا مصوّتا داخليا ، اي ان الهمزة في (سأل) هي في حقيقة امرها ذلك المصوت القصير الذي نسميه فتحة والهمزة في (سئل) هي كسرة ، والهمزة في (سؤال) هي ألف ممدودة ليس الاّ .

ولو كتبنا كلمة (سؤال) هكذا «سُآل» بلا همزة فسوف ننطقها بلفظها الاصلي نفسه ، لان الهمزة ليست الا من خداع الكتابة . ويمكننا هكذا تطبيق المبدأ المذكور على بقية الامثلة .

يبقى اخيرا نوع واحد من انواع الهمز اذا ورد في آخر الكلمة بعد الالف ، مثل : ماء ، هواء وغير ذلك ، وقد شرح ابن جني هذا النوع من الهمز بما يقترب كثيرا مما قلناه عن وظيفتها التباينية بالمفهوم اللساني الحديث. لقد ورد في «الخصائص» تحت «باب في مطل الحروف» ما يلي : « والحروف الممطولة هي الحروف الثلاثة اللّينة المصوتّة . وهي الالف والياء والواو . اعلم ان هذه الحروف اين وقعت وكيف وجدت ففيها امتداد ولين الا ان الاماكن التي يطول فيها صوتها ، وتتمكن مدتها ، ثلاثة . وهي أن تقع بعدها الهمزة ، أو الحرف المشدد ، أو أن يوقف عليها عند التذكر . فالهمزة نحو كساء ، ورداء ، وخطيئة ، ورزيئة ، ومقروءة ، ومخبوءة . وانما تمكن المد فيهن مع الهمز أن الهمزة حرف نأي منشؤه ، وتراخى مخرجه ، فاذا أنت نطقت بهذه الاحرف المصوتة قبله ، ثم تماديت بهن نحوه طلن ، وشعن في الصوت ، فوفين له ، وزدن في بيانه ومكانه ، وليس كذلك اذا وقع بعدهن غيرها وغير المشدد ، ألا تراك اذا قلت : كتاب ، وحساب ، وسعيد ، وعمود ، وضروب وركوب ، لم تجدهن لدنات ، ولا ناعمات ، ولا وافيات مستطيلات ، كما تجدهن كذلك اذا تلاهن الهمز أو الحرف المشدد» [٢٤] . ويستفاد من قول ابن جني ما يلي :

١ ـ ان الهمزة تختلف عن بقية الصوامت في الوظيفة التي تؤديها داخل النسج الصوتي .

٢ ـ ان وظيفتها هي اطالة المصوت الذي يقع قبلها وابرازه أكثر من سواه .

وهذه الوظيفة يؤديها النبر عادة ، وبالتالي فان ابن جني قد أشار هنا بخصوص الهمزة الى ما نعنيه في اللسانيات الحديثة بالوظيفة التباينية . فإذا فهمنا الهمز على أنه نوع من أنواع النبر اتضح لنا لماذا كان الهمز شائعا في بعض لهجات العرب دون بعضها الآخر ، ولماذا رفض الرسول (ﷺ) أن يخاطبه أعرابي «يانبيء الله» لأن الهمز لم يكن شائعا في لهجة قريش [٢٥] . وبما أن هذا هو حال الهمزة ، فما حقيقة وجودها في أسماء الفاعل مثل (قائل) و (بائع) ؟

من المعلوم أن عين اسم الفاعل تكون متبوعة دائما بكسرة ، أي بمصوت قصير اصطلح على تسميته بالكسرة ، مثل (قاتِل ، مانع ، طالع ، الخ . . .) . الا أن أسماء الفاعل التي اشتقت من أصل ثنائي أو معتل لا يوجد فيها في مكان العين سوى المصوت القصير ، أي الكسرة . وبما أن الألف في اسم الفاعل قد باعدت بين فائه وبين تلك الكسرة ، صرنا ننطق بالكسرة عارية عن أي صامت قبلها .

---

(٢٤) الخصائص ، ١٢٤/٣ - ١٢٥
(٢٥) انظر الخصائص ، ٣٨٣/١ .

وبناء عليه فإن ما يوجد في مكان العين من اسم الفاعل (قائل) و (بائع) هو الكسرة فقط ولا شيء سواها . ونستطيع أن نكتب اسماء الفاعل هذه على الشكل التالي : (قا ـِـ ل) بدلا من (قائل) و (با ـِـ ع) بدلا من (بائع) . لكن هذا لا يعني أنه لا يوجد هنا همزة ، إلا أن وجودها ليس ناشئا عن انقلاب الواو في (قاوِل) أو انقلاب الياء في (بايِع) ، بل يرتبط بما ذكرناه سابقا عن خصائص الهمز فالهمزة تقوم هنا بوظيفة الفصل بين مصوتين متتابعين : الألف الطويلة والكسرة القصيرة . والسبب الثاني لوجود الهمزة هنا هو أن المرء لا يستطيع لأسباب فيزيولوجية أن ينطق بالمصوت لوحده عاريا عن أي صامت قبله دون أن يبدأ بنطق الهمزة . فلا نستطيع نطق ألف قصيرة (فتحة) ولا طويلة لوحدها دون أن نبدأ بنطق همزة في أولها ، والشيء نفسه ينطبق على الواو والياء سواء أكانتا حرف مدّ أو حركة قصيرة . هذا يفسر ما قلناه آنفا عند الحديث عن أصل الواو الصامتة في (قَوْل) والياء الصامتة في (بَيْع) ، إذ أن هذين الصوتين ليسا سوى ضمة بعد تسهيل الهمزة الالزامية التي في أولها بالنسبة للواو ، وكسرة بعد تسهيل الهمزة الالزامية التي في أولها بالنسبة للياء . لذلك نستنتج أن الهمزة التي توهمها الصرفيون في عين اسم الفاعل ليست في حقيقة الأمر سوى المصوت القصير غير المسبوق بحرف صامت ، ووجود الهمزة تابع لوجود ذلك المصوت وليس نتيجة انقلاب عن واو أو ياء لا وجود لهما أصلاً . ولتوضيح هذه الفكرة أكثر سوف نقوم بالتجربة البسيطة التالية :

نأخذ اسم الفاعل (قاتِل) ونحلله إلى الوحدات الصوتية التي يتألف منها نسجه الصوتي : قاتل = صامت (قاف)+ مصوت طويل (ألف) + صامت (تاء) + مصوت قصير (كسرة) + صامت (لام) ولو أسقطنا الآن من هذا النسج الحرف الصامت الذي في موقع العين ، أي التاء ، فإن مايتبقى هو تماما اسم الفاعل (قائل) :

صامت (قاف) + مصوت طويل (ألف) + مصوت قصير (كسرة) + صامت (لام) = قا ـِ ل = قائل .

ونستطيع اجراء مثل هذه التجربة على كلمات أخرى ، مثل : (قابل) باسقاط الباء أو (قاحل) باسقاط الحاء ، وسوف نحصل على نتيجة مماثلة .

والأمر نفسه يصح في اسم الفاعل (بائع) . فلو أخذنا اسم الفاعل (بارع) وأسقطنا حرف الراء من موقع العين مع الابقاء على الكسرة التي لحقت بالراء ، فإن مايتبقى هو بالضبط اسم الفاعل (بائع) ، أي (با ـِـ ع) . وهكذا يتضح بكل جلاء أن أسماء الفاعل (قائل) و (بائع) هي نُسُج صوتية خلا موقع العين فيها من حرف صامت وبقيت الكسرة لوحدها في موقع العين ، وهي الكسرة التي تلحق عادة عين اسم الفاعل في غير المعتل .

ذكرنا آنفا بأن الهمزة صوت مهموس عند بعض علماء الأصوات في العصر الحاضر وغير مجهور ولامهموس عند فريق آخر ، لكنها على أي حال ليست مجهورة . لماذا إذن وقع علماء الصرف العرب في الخطأ حين عدوها مجهورة ؟ أغلب الظن أن سبب ذلك يعود الى ماذكرناه عن طبيعة الهمزة التي يرتبط نطقها غالبا بنطق المصوتات . وبما أن المصوتات مجهورة ، فان نطقها قد أثر في نطق الهمزة فبدت لهم هي الأخرى مجهورة . وهذا ماسهل عليهم القول بإمكانية انقلابها عن المصوتات كما رأينا . ويستطيع كل انسان أن يتفحص بنفسه الجهر والهمس في أي صوت لغوي يشاء . اذ يكفي أن يضع المرء ابهامه وسبابته على عنقه حول منطقة الأوتار الصوتية ، فإذا شعر باهتزاز الوترين كان الصوت مجهورا ، وإلا كان مهموسا . ولو جرب أن ينطق باحدى كلمتي (قائل) و (بائع) لشعر بكل وضوح باهتزاز

الوترين الصوتيين في موقع العين ، مما يقدم دليلا اضافيا على أن عين (قائل) و (بائع) عبارة عن مصوت قصير مجهور هو الكسرة .

رابعا : استنتاجات

لقد تطرقنا في سياق هذا البحث إلى أمور عديدة ومختلفة . وفيما يلي سوف نرى مايترتب عليها بالنسبة لعلم النحو العربي :

أولا : ذكرنا بأن الفتحة التي تلحق بنهاية الفعل الماضي في (قالَ) و (باعَ) ليست حركة اعراب أو بناء ، بل هي دال على مدلول هو الافراد والتذكير ، مثلما أن ألف التثنية هي دال بدورها ، ومدلولها التثنية والتذكير . ويترتب على ذلك بأن قول النحاة في إعراب (قالَ) : «فِعل ماض مبنى على الفتح» قول لا سند له ، لأن هذه الفتحة في نهاية الفعل غير الفتحة التي تلحق بآخر الاسم . وما يصدق على الفتحة هنا يصدق على جميع الحركات التي تلحق بآخر الفعل في اللغة العربية . ان فكرة البناء والاعراب في الأفعال لاتشير إلى أي وظيفة ، اذ مامعنى أن نقول بأن الفعل الماضي مبني على الفتح أو السكون أو أن الفعل المضارع مرفوع بالضمة أو منصوب بالفتحة ؟ ان مثل هذا الكلام لايقود إلى شيء مادام لايشير إلى الوظيفة التي تؤديها الضمة أو الفتحة ولا إلى الوظيفة التي قد يضطلع بها الاعراب أو البناء في الأفعال . كذلك فإن قول النحاة أن الفعل المضارع فعل معرب قول غير صحيح ، لأن الاعراب يعني الرفع والنصب والجر . لكن الفعل المضارع لايكون مجرورا بالكسرة أبدا وكذلك لايكون منونا ، وبالتالي إن الاعراب والبناء صفتان تختصان بالأسماء دون الأفعال ، ولابد إذن من البحث عن المدلولات التي تحملها الحركات عندما تلحق بأواخر الأفعال .

فأما الفعل الماضي فلا تلحق به الفتحة إلا عند اسناده إلى الشخص الغائب ، وقد تعرفنا على المدلول الذي تحمله تلك الفتحة . وفيما عدا ذلك فإن السكون هو الصفة المميزة لآخر الفعل الماضي عند اسناده إلى الشخص المتكلم أو الشخص المخاطب .

وأما الفعل المضارع فيكون على حالات ثلاث : فإما أن تلحق الضمة بآخره ، كقولنا (يقولُ) و (يضربُ) ، وإما أن تلحق الفتحة بآخره ، كقولنا (أن يقولَ) و (أن يضربَ) ، أو أن يكون آخره ساكنا كما في حالة الجزم (لم يقلْ) و (لم يضربْ) .

يقول النحاة بأن الفعل المضارع يكون مرفوعا إذا تجرد عن الناصب والجازم . ويترتب على هذا الكلام أن الحالة الطبيعية للفعل المضارع هي الرفع ، وأن النصب والجزم هما حالتان طارئتان على الفعل المضارع . لكن مثل هذا التعليل يسقط من حسابه أي وظيفة يمكن لهذه الحركات أن تشير اليها أو أن تؤديها . والأولى بنا أن نبحث عن هذه الوظائف وتلك المدلولات التي تحملها كل حركة ، فهذه الحركات ليست في حقيقتها إلا داولّ تدل على مدلولات محددة . ولو أمعنا النظر قليلا في حالة المضارع المرفوع لوجدنا أنه يدل باستمرار على «التقرير والاثبات» شرط ألا تلحق به (قد) التي تفيد التوقع . فقولنا «رأيت محمدا يذهبُ إلى السوق» فيه تقرير واثبات لحدث معين دون ربطه بأي شيء آخر . أما في قولنا : «قلت لمحمد أن يذهبَ إلى السوق» فهذا يعني أن الفعل لم يقع بعد ، وليس هناك

مايؤكد وقوعه مستقبلا ، أي أنه مازال معلقا بظروف مستقبلية . ولذلك نقترح اطلاق صفة «التعليق والاستقبال» على حالة الفعل المضارع المنصوب . وتنطبق هذه الصفة على المضارع المنصوب بأن أوبلن أو باللام سواء أكانت للتعليل أم للجحود .

فكل هذه الحالات تفيد معنى التعليق والاستقبال لحدث معين . أخيرا فإن السكون الذي يلحق آخر المضارع يفيد معنى عدم وقوع الفعل أو الحدث الذي يدل عليه الفعل . وسواء جاء الفعل بعد أدوات النفي أو بعد لا الناهية فإن السكون يشير هنا إلى امتناع حدوث الفعل . ولذلك نقترح اطلاق صفة «الامتناع» على الفعل المضارع اذا لحق بآخره السكون .

ويترتب على هذه النظرة إلى الحركات التي تلحق بالفعل المضارع أمران هاما : أولهما أن النصب والجزم في الفعل المضارع ليسا ناشئين عن أدوات يسمونها أدوات النصب والجزم ، بل عن الوظيفة التي يراد للفعل أن يؤديها في الجملة . فالضمة في آخر الفعل هي دال ومدلوله التقرير والاثبات ، والفتحة هي دال ومدلوله التعليق والاستقبال ، والسكون هو أيضا دال ومدلوله الامتناع . وإذا كنا قد توصلنا إلى ذلك مستعينين بالمعطيات التي وفرتها اللسانيات الحديثة ، فإن بعض القدماء قد توصل إلى ذلك ولكن دون تمكنهم من تقديم برهان على ذلك . ففي معرض حديث ابن جني عن نظرية العامل شكك بالعوامل اللفظية والمعنوية وانتهى إلى القول : «فأما في الحقيقة ومحصول الحديث ، فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم إنما هو للمتكلم نفسه لالشيء غيره»[٢٦] . والفرق بين ماقرره - ابن جني وبين ماقررناه أن ابن جني قد نسب ظهور الحركات الاعرابية إلى المتكلم ونسبناها نحن إلى الوظيفة التي تؤديها في القول . أما النتيجة فواحدة .

وعندما جاء ابن مضاء القرطبي بعد ذلك بقرنين استند الى كلام أبي الفتح ابن جني واتخذ موقفا مماثلا في كتاب «الرد على النحاة» فقال :

«قصدى من هذا الكتاب أن أحذف من النحو مايستغني النحوى عنه ، وأنبه على ماأجمع على الخطأ فيه ، فمن ذلك ادعاؤهم أن النصب والخفض والجزم لاتكون الا بعامل لفظي وذلك بيِّن الفساد . وقد صرح بخلاف ذلك ابن جني وغيره»[٢٧] . لكن ابن مضاء اكتفى بأن نفى فكرة العامل بادلة عقلية ومنطقية دون أن يشرح الوظيفة التي تؤديها تلك الحركات . والأمر الثاني أن تسمية الفعل المضارع لاتشير الى الوظيفة أو الوظائف المنوطة بهذا الفعل في الجملة ، علاوة على كونها غير صحيحة . ان تسمية الفعل الماضي تشير إلى الزمن الذي يقع فيه الفعل ، لكن تسمية المضارع لاعلاقة لها بمسألة زمن الفعل لا من قريب ولا من بعيد ، أي أنها لاتعبر عن الوظيفة المنوطة بهذا الفعل . ثم انها تسمية غير صحيحة لأن المضارع لايضارع غيره في شيء . لقد أطلق النحاة على الفعل المضارع هذه التسمية لاعتقادهم أنه يضارع الاسم - وربما اسم الفاعل بالذات - في حركات الاعراب . وقد رأينا آنفا أن الحركات التي تلحق بأخر الفعل ليست حركات اعرابية كالحركات التي تلحق بآخر الاسم . مثل (كتابٌ وكتاباً وكتابٍ) ، بل هي دوال على مدلولات وظيفية محددة . وبالتالي فإن تسمية هذا الفعل بالمضارع أمر يحتاج لاعادة النظر فيه . لكن هذه التسمية تشير إلى الأساس غير الوظيفي الذي قام عليه النحو العربي منذ بدايته ، وكنا قد أشرنا اليه في بحث سابق[٢٨] . وهو أن النحو العربي قد قام في الأساس لضبط حركة أواخر الكَلِم عندما بدأ اللحن يتفشى على ألسنة

(٢٦) الخصائص ١/١٠٩ - ١٠١

(٢٧) ابن مضاء : الرد على النحاة ، ص ٨٥ .

(٢٨) انظر مجلة «المستقبل العربي» ، العدد رقم ١٠٦ تاريخ ١٢/١٩٨٧ بعنوان : «حول واقعنا اللغوى» ، ص ٦٧ ومايليها .

الموالي من غير العرب في البلاد التي خضعت للحكم الاسلامي ، وذلك خوفا من ضياع اللغة العربية في تلك الاقطار وخشية من وقوع القرآن الكريم تحت طائلة التحريف والتزوير . ولقد نزل القرآن بلغة معربة يرتبط فيها مدلول الكلمة داخل الجملة بحركتها الاعرابية . فاذا تغيرت الحركة تغير المدلول . واذا كان ذلك الحافز لحركة تقعيد اللغة العربية أمرا مقبولا في البداية ، الا أنه شكل فيما بعد عائقا أمام فهم صحيح لطرائق وآليات عمل هذه اللغة ، وهو أمر مازلنا نعاني منه حتى اليوم .

ثانيا : ذكرنا أن مصوت الألف يدل في الفعل الأجوف والناقص وكذا في اسم الفاعل على الشخص الغائب ، أي أن مصوت الألف هنا هو بمثابة دال على الفاعل . لكن هذا يتعارض مع فكرة أساسية في النحو العربي هي فكرة الضمير المستتر . لقد دأب النحاة على أن يعربوا (قالَ) بأنه «فعل ماض مبني على الفتح ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو في محل رفع فاعل» . ومادام لدينا دال بارز ومنطوق على الفاعل هو مصوت الألف بالإضافة إلى لواحق الفعل ، فما حاجتنا إلى دال لانراه ولا نلمسه وإنما نفترض وجوده افتراضا . لكن نفي فكرة الضمير المستتر يفرض علينا الاجابة عن بعض الأسئلة المتعلقة بمواضع الضمير المستتر الأخرى :

١ ـ كان مصوت الألف بالاضافة إلى لواحق الفعل هو الدال على الفاعل في الفعل الأجوف والناقص ، فما هو الدال على الفاعل في الفعل الماضي الصحيح اذا أسند إلى ضمير الغائب ؟

٢ ـ ماهو الدال على الفاعل في بعض مواضع الفعل المضارع حيث يقول النحاة بوجود ضمير مستتر ؟

بخصوص الفعل الصحيح مثل (صعدَ وضربَ) يبدو للوهلة الأولى أن لادال على الشخص الغائب لأن لواحق الفعل عند اسناده إلى الشخص الغائب لاتدل الا على العدد والجنس . فما هو الدالّ على الشخص إذن ؟ والجواب هو «الدالّ صفر» . والدال صفر بالمفهوم اللساني الحديث يعني خلو إحدى الصيغ من دال منطوق بالمقارنة مع صيغ أخرى تشتمل على دالّ خاص بها . فإذا كانت صيغ الفعل الماضي تشتمل على دالّ على الشخص عند إسناده إلى ضمائر المتكلم والمخاطب ، وهو الدال المتمثل باللواحق ، فإن خلو صيغة الفعل الماضي من دال خاص بها عند إسناده إلى الشخص الغائب هو دالّ بحد ذاته ، وهذا مايسمى بالدال صفر . وهنا قد يرد إلى الذهن الاعتراض التالي : ماالفرق إذن بين أن نقول بالدال صفر أو بالضمير المستتر ، مادام الدال على الشخص الغائب غير موجود في الحالتين . والجواب على ذلك أنه اختلاف من حيث المبدأ . فالقول بالضمير المستتر يعني القول بوجود شيء غير موجود أصلا ، أما القول بالدال صفر فهو إقرار بعدم الوجود ، ومن ثم اعتبار عدم الوجود هذا دالاً بحد ذاته .

أما بخصوص الفعل المضارع فإن النحاة حددوا مواضع الضمير المستتر كما يلي :

١ ـ عند اسناد الفعل إلى ضمير المتكلم .
٢ ـ عند اسناده إلى ضمير المخاطب المفرد المذكر .
٣ ـ عند اسناده إلى ضمير الغائب المفرد . وواضح من هذا التحديد أن النحاة ينظرون إلى مانعتبره لواحق الفعل على أنها دوال على الفاعل ، ولذلك أطلقوا عليها اسم ضمائر الرفع المتصلة . وعند خلو الفعل من هذه اللواحق ، افترضوا وجود ضمائر اسندوا إليها وظيفة الدلالة على الفاعل . أما بوادىء الفعل التي جمعوها في «أنيت»

أو «نأيت» فإنهم اعتبروها من علامات الفعل المضارع واطلقوا عليها لذلك اسم «حروف المضارعة» (كذا !) . لكننا سنرى بعد قليل أن حروف «أنيت» هذه هي دوال حقيقية على الفاعل في الفعل المضارع ، وأن لواحق الفعل التي اعتبروها ضمائر رفع ليست في الواقع أكثر من دوالّ على العدد والجنس ، أي أنها تشارك البوادىء في الدلالة على الفاعل .

لنعد إلى إسناد الفعل إلى ضمائر الرفع الذي وضعناه في القسم الأول من هذا البحث ، وسوف نسجل الملاحظات التالية :

١ ـ يمتاز الفعل المضارع على الفعل الماضي باشتماله على بوادىء ولواحق ، بينما خلا الفعل الماضي من البوادىء .

٢ ـ أن بعض صيغ تصريف الفعل المضارع تخلو من اللواحق وتكتفي بالبوادىء ، مثل : تـَ/ضرب بالمقارنة مع تَ/ضرب/ين ،

٣ ـ أن اللواحق تلحق بالفعل المضارع لمنع اللبس عندما تتشابه البوادىء بحيث لاتستطيع الدلالة على العدد والجنس ، مثل تصريف المضارع مع ضمائر المخاطب .

إن البادئة (أَ . .) في (أقولُ) و (أضربُ) هي اختصار واضح وصريح من ضمير الرفع (أنا) ، وهي تدل على الشخص والعدد ولاتحتاج بالتالي إلى لاحقة إضافية . والشيء نفسه يمكن أن يقال عن البادئة (نـَ . .) في (نَقولُ) و (نضربُ) ، إذا أنها صيغة مختصرة من ضمير الرفع (نحن) . أما عند اسناد الفعل المضارع الى الشخص المخاطب فيلاحظ أن جميع صيغ تصريف الفعل هنا تشترك ببادئة واحدة هي (تَ . .) مما استوجب وجود لواحق تدل على العدد والجنس ، أي أن البادئة (تَ . .) تدل على الشخص المخاطب بينما تدل اللواحق على العدد والجنس . وقد شذت عن هذه القاعدة صيغة واحدة من صيغ المخاطب هي صيغة المفرد المذكر ، حيث خلت من لاحقة تدل على العدد والجنس . وهنا يمكن القول أن الدال صفر يدل على العدد والجنس بالمقارنة مع بقية الصيغ التي اشتملت على لواحق خاصة تدل عليهما . ولاحاجة للتذكير أن اللاحقتين (. . ان) و (. . و ن) تدلان بالترتيب على الثنية والجمع ليس فقط في الفعل المضارع وانما في الأسماء أيضا ، مثل (كاتبان) و (كاتبون) . كذلك يدل المصوت الطويل ، أي الياء في اللاحقة (. . ين) على المونث المفرد ، مثل (تضربين) ، وهي موجودة أيضا في الضمير المنفصل (أنتِ) وفي الضمير المتصل (كِ) وفي الضمير الاشاري للمؤنث (اسم الاشارة) ، أي ـ (هذي) و (هذه) . ويرى هنرى فليش أن الضمير (أنتِ) كان قديما (أنتي) والضمير (كِ) كان قديماً (كي) وأن الكسرة الطويلة (الياء) هنا هي بالتالي من مخلفات اللغة القديمة[٢٩] .

عند اسناد المضارع إلى الشخص الغائب نلاحظ وجود نوعين من البوادىء ؛

(يـَ . .) تدل الغائب المذكر و (تَ . .) تدل على الغائب المؤنث :

وعند أمن اللبس أمكن استعمال البادئة (يـَ . .) لجمع الاناث ، مثل (يضربن) و (يأتين) ، وأيضا بهدف التفريق بين الغائب والمخاطب .

---

(٢٩) هنرى فليش : العربية الفصحى ، ص ٧٠ و ص ١٣١ .

بقي أن نشير إلى أن التشابه الثانوي بين صيغة المخاطب المفرد المذكر وبين صيغة الغائب المفرد المؤنث وكذلك بين صيغة المخاطب المثنى المذكر وبين صيغة الغائب المفرد المؤنث وكذلك بين صيغة المخاطب المثنى المذكر وبين صيغة الغائب المثنى المؤنث يعود الى المنشأ المختلف للبادئة (تـ . .) في كل حالة . ففي حالة المخاطب يبدو أن التاء مشتقة من ضمائر الرفع للمخاطب التي لايخلو واحد منها من حرف التاء . أما في حالة الغائب فهي علامة للتأنيث ، لاسيما أن دلالة التاء على التأنيث أمر شائع ومعروف في اللغة العربية .

نستنتج مما تقدم أن بوادىء المضارع ليست علامات للمضارع ، لانه لايحتاج إلى مثل هذه العلامات . ويكفي المرء أن يقارن النسج الصوتي لجذر المضارع مع النسج الصوتي لجذر الماضي حتى يميز الأول عن الثاني . فجذر الماضي من فعل (ضربَ) هو (ضَرَبْ) بعد حذف البوادىء واللواحق .

ويستطيع المرء بنظرة واحدة أن يدرك اختلاف المصوتات بين الجذرين ، مما يكفي معه للتعرف على جذر كل منهما . وقد أشار ابن جني إلى ذلك في «الخصائص» اذ اعتبر أن اختلاف المصوتات بين صيغتي الماضي والمضارع هو بمثابة تعبير عن زمن كل منهما :

«وذلك أنه قد دلت الدلالة على وجوب مخالفة صيغة الماضي لصيغة المضارع ، اذ الغرض في صيغ هذه المثل إنما هو لافادة الأزمنة ، فجعل لكل زمن مثال مخالف لصاحبه ، وكلما ازداد الخلاف كانت في ذلك قوة الدلالة على الزمان .

فمن ذلك أن جعلوا بازاء حركة فاء الماضي سكون فاء المضارع ، وخالفوا بين عينيهما .

فقالوا : ضرب يضرِب ، وقتل يقتُل ، وعلم يعلَم»[٣٠] .

لكن النحاة اعتمدوا الشكل المكتوب في تقرير ذلك ، وهو الشكل الذي لاتظهر فيه المصوتات القصيرة (الحركات) ، لذلك راحوا يفتشون عن علامات تدركها العين لاالسمع ووجدوهم في بوادىء الفعل لعدم ورودها في صيغة الماضي واعتبروها من علامات المضارعة . ولو أنهم اعتمدوا الشكل المنطوق لادركوا اختلاف المصوتات بين صيغة الماضي وصيغة المضارع . وأغلب الظن أنهم لم يأخذوا بفكرة جذر الفعل للسبب نفسه ، أي لاعتمادهم الشكل المكتوب دون المنطوق ، حيث أنه لافرق في الكتابة بين الجذرين في الفعل الصحيح . ولو أنهم فعلوا ذلك لفتشوا لبوادىء الفعل المضارع ـ عن وظيفة غير التي ظنوها ، أي وظيفة الدلالة على الفعل المضارع . كما أن هذا الاعتبار أوقعهم في التناقض . فبما أنهم اعتبروا البوادىء مجرد علامات للمضارع أصبحوا مضطرين للتفتيش عن الدوال على الفاعل في اللواحق ، ولم يفطنوا إلى أن بعض هذه اللواحق موجودة في الأسماء أيضا ، مثل (. . ان) التي تدل على التثنية و (. . و ن) التي تدل على جمع المذكر . وبدلا من أن ينسبوها إلى وظيفتها الأصلية ، وهي وظيفة الدلالة على العدد ، نسبوا اليها وظيفة جديدة هي الدلالة على الفاعل .

وهكذا اعتبروها في الأسماء مجرد حروف ، بينما اعتبروها في الأفعال ضمائر رفع متصلة .

وتلخيصا لما تقدم نستطيع أن نقول أن بوادىء الفعل المضارع تشترك مع لواحقه في الدلالة على الفاعل . والدال على الفاعل في قولنا (يكتبون) هو البادئة (يَـ . .) بالاشتراك مع اللاحقة (. . و ن) . ولو أردنا تجريد هذا الدال

---

(٣٠) الخصائص ١ / ٣٧٥ .

عن جذر الفعل لحصلنا على دال مركب من جزأين منفصلين : (يـَ . . و ن) . وتسمي اللسانيات الحديثة هذا النوع من الدوال «الدال المنقطع» ، أي أن (يـَ . .) تمثلان الدال المنقطع للمدلول «غائب جمع مذكر»[٣١] . وإذا نظرنا الى بوادىء الفعل ولواحقه على هذه الصورة أي باعتبارها دوال على الفاعل ، انتفت حاجتنا إلى افتراض وجود ضمائر مستترة مقدرة تقديرا ، مما يخرج بالنحو العربي من دائرة الغيبيات إلى دائرة الموجودات .

ثالثا : ذكرنا بأن هناك متوالية-اشتقاقية هي :-

جذر الماضي ←── جذر المضارع ←── الاسم

وتعني هذه المتوالية أن جذر المضارع قد اشتق من جذر الماضي وأن الاسم قد اشتق بدوره من جذر المضارع ، هذا يعني أن الماضي أسبق من المضارع وأن الفعل أسبق من الاسم . إلا أن مثل هذه النتيجة تخالف ماهو شائع لدى أكثر علماء العربية الذين رأوا أن الاسم سابق على الفعل في الزمان وسموه لذلك مصدرا وأن المضارع سابق على الماضي .

ولا شك أن بعض الأسس غير الصحيحة التي بنوا عليها آراءهم قد قادت الى تلك النتائج الغريبة . ان التعرف على حقيقة الأسبقيات في اللغة يغني اكتشاف الآليات الصحيحة التي تعمل اللغة بموجبها .

ولقد كشفنا بما لايدع مجالا للشك كيف اشتق جذر المضارع من جذر الماضي وكيف اشتق الاسم بدوره من جذر المضارع . ويؤكد هذا الاكتشاف من جديد أن علماء العربية القدامى قد جانبوا الصواب في بعض ماذهبوا اليه ولم يتوصلوا دائما إلى الآليات الحقيقية التي تعمل داخل اللغة . على أننا نجد سندا قويا لدى ابن جني فيما ذهبنا اليه ، اذ توصل أبو الفتح الى النتائج نفسها التي توصلنا اليها ، وان كان عن طريق مختلف ، وذلك بفضل ماكان يتمتع به هذا الرجل من نظر ثاقب في شؤون اللغة ونظرة علمية تقترب كثيرا من نظرة اللسانيات الحديثة إلى اللغة . لقد ذكر في «الخصائص» تحت عنوان «باب في هذه اللغة : أفي وقت واحد وضعت أم تلاحق تابع منها بفارط ؟» مايلي :

«فإن قلت :

هلا ذهبت إلى أن الاسماء أسبق رتبة من الأفعال في الزمان ، كما «أنها أسبق رتبة منها في الاعتقاد ، واستدللت على ذلك بأن الحكمة قادت اليه ، اذ كان الواجب أن يبدؤوا بالأسماء ، لأنها عبارات عن الأشياء ، ثم يأتوا بعدها بالأفعال التي بها تدخل الأسماء في المعاني والأحوال . . . ؟ قيل يمنع من هذا أشياء :

منها وجود أسماء من الأفعال ، نحو قائم من قام ، ومنطلق من انطلق ، ألا تراه يصح لصحته ويعتل لاعتلاله ، نحو ضرب فهو ضارب ، وقام فهو قائم . . فاذا رأيت بعض الأسماء مشتقا من الفعل فكيف يجوز ان يعتقد سبق الاسم للفعل في الزمان ، وقد رأيت الاسم مشتقا منه ورتبة المشتق منه أن يكون أسبق من المشتق نفسه . . وأيضا فان المضارع يعتل لاعتلال الماضي ، وان كان أكثر الناس على أن المضارع أسبق من الماضي»[٣٢] . ومما يؤسف له حقا أن كثيرا من آراء ابن جني التي خالف بها علماء اللغة ممن سبقوه لم يأخذ بها المتأخرون ممن جاءوا بعده ، مع أنه أصاب بها كبد الحقيقة . ولو أن المتأخرين فعلوا ذلك لوفروا علينا عناء كثيرا وحالوا دون تقهقر اللغة الفصحى أمام العاميات في العصور التالية .

(٣١) مبادىء اللسانيات العامة ، ص ١٠٠

(٣٢) الخصائص ٢/ ٣٣ ـ ٣٤

مطالعات

صور من تطور لغة الشعر العربي الحديث عن طريق المجاز

أحمد محمد قدور

تمهيد :

يتجه البحث في هذا المقال إلى المجاز والاستعارة ، بوصفهما عنصرين من عناصر التطور الدلالى ، وطرق تحول المعانى . ولابد هنا من تأكيد ماذهبنا إليه في بحوث سابقة من التفريق بين نوعين من الاستعمال المجازى ، أحدهما فنى يثير في المتلقى هزة انفعالية ، ويبعث إيحاء ولذة شعورية ، والآخر ، بعضه كان من النوع الأول ، لكنه لطول الاستعمال والتكرار على مدى زمنى طويل فقد تألقه الفنى ، وانضم إلى رصيد اللغة المعجمى ، وفارق المعجم الشعرى الحى ، وغدا بذلك مجازا زاويا ، وبعضه الآخر لم يهدف مستعملوه إلى تحقيق ذلك التأثير الفنى أصلا ، إنما وضع أساسا بوصفه نقلا غير تصويرى ، وذلك للوفاء بمتطلبات التسمية المعرفية La nomination Cognitive نحو قولنا (رجل الكرسى) ، و(عنق الزجاجة) ، و(الخرطوم) دلالة على الانبوب المطاطى المستعمل في نقل المياه ، و(عين الباب) و(رأس الجبل) وغير ذلك . والأمثلة على هذا النحو الأخير كثيرة ، وهى تمثل مبدأ من مبادىء التطور اللغوى في معظم اللغات الحية . وقد تنبه إلى هذا كثير من الدراسين في القديم والحديث ، في لغتنا وفي غيرها من اللغات المعروفة .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا المقال مخصص لرصد ذلك الجزء من التحول المجازى من النوع الذى كان فنيا ، ثم غدا أسلوبا لغويا ، لأن بين هذين الحدين ضروبا شتى من تطور اللغة عبر المجاز . أما الأمثلة التى كانت مدار البحث والتحليل فهى مستمدة من مجموعة مختارة من الشعر العربي الحديث الذى يمثل مدرسة الإحياء والتراث وامتدادها ، ولاسيما فى مصر والشام ، ولا شك في أن النظر المتعمق في (مستوى) الشعر العربى الحديث اللغوى يصحح كثيرا من

المقولات التى غدت (جاهزة) يتداولها الدارسون من غير تمحيص . وإن الطريق إلى تجاوز تلك المقولات لابد أن يكون عن طريق الدرس المتأني لأهم الظواهر الدلالية في الدلالة الحقيقية ، والمجازية والثقافية ـ الرمزية ، وهو ماتتجه إليه أنظار الدارسين المحدثين من النقاد واللغويين .

• • •

١ ـ التطور الدلالى عن طريق المجاز الرمزى :

نقف في هذا البحث عند قسم من أقسام البحث المجازى(*) ، هو «المجاز الرمزى» ، والتطور الذى سعى إلى تبينه ـ ههنا ـ يتخذ اتجاهين : الأول منها مختص بطبيعة المجاز وتحوله إلى رمز . فالصورة يمكن استثارتها مرة على سبيل المجاز ، لكنها إذا عاودت الظهور بإلحاح فإنها تغدو رمزا لدى شاعر معين[١] .

ويشكل الاستعمال المتكرر للمجاز لدى الشاعر منظومة رمزية خاصة ، فالصور المجازية التي نشعر بجدتها وابتكارها لدى شاعر مافي عمل من أعماله تغدو بعد ظهورها في أعمال تالية خصائص فنية خاصة . . تتخذ شكل المجاز الرمزى .

غير أن هذه المنظومة قد تكون مجالا لاشتراك عدد من الشعراء في زمن معين أو ضمن اتجاه فني ، فتغدو عندئذ منظومة عامة تخص جيلا أو اتجاها لدى مجموعة من الشعراء .

وقد ارتبطت صور كثيرة من هذا المجاز بالمراحل القديمة من حياة البشر ، وغدت ـ على الرغم من التقدم الحضارى ـ عالقة في الأذهان ، وشائعة في الاستعمال إلى درجة يمكن أن توصف بأنها محل اشتراك عدد من اللغات . نحو : «الأسد ، والذئب ، والثعلب ، والشمس ، والبدر» .

وقد تنبه كثير من الدراسين إلى هذا النوع من الرمز المجرد لمعان مشتركة لايشكل العدول عنها إلى غيرها جدة أو طرافة . فالمساحة الدلالية لهذه الرموز أضحت واسعة وعامة[٢] .

وفي الفصحى المعاصرة يجد الدارس عددا من هذه المجازات الرمزية التي انحدرت من صور بلاغية قديمة ، فقدت بسبب كثرة التكرار قيمتها الإيحائية الفنية ، وغدت قريبة من الأساليب اللغوية .

ويمكن أن نعد في هذا الجانب عددا من المجازات الشائعة ، نحو : الأسد ، والنجم والشبل ، والسيف ، والبدر ، والذئب ، والثعلب ، والنسر . . ويلاحظ ـ ههنا ـ كثرة الأساليب المجازية الدائرة حول أمثال هذه الكلمات .

والصور البلاغية الذاوية والاستعمالات المرتبطة بالمراحل القديمة للحياة ، ليست المصدر الوحيد لهذا المجاز الرمزى ، فالمذاهب الأدبية الحديثة أذاعت بين الشعراء رموزا وأشكالا فنية ذات دلالة . ولا يخفى ماللاتجاه الرمزى من أثر في شيوع عدد من الرموز

(١) وارين وويليك ، نظرية الأدب ، ص ١٩٧

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩٧ ، وهيغل ، الفن الرمزى ، ص ١٤

* انظر مقالتنا حول «الدلالة في المجاز والاستعارة» في : الموقف الأدبي ، العدد /١٦٥/ كانون الثاني ١٩٨٥ م اتحاد الكتاب العرب ، دمشق .
ومقالتنا حول «التطور الدلالي في العربية الفصحى» في : عالم الفكر ، العدد الرابع ، المجلد السادس عشر ، ١٩٨٦ م ، وزارة الإعلام ، الكويت

المجازية ، كالبلبل «الشاعر» ، والوتر «الشعر والفن» ، والنسر «الشاعر» . . .

أما الاتجاه الثاني ـ من اتجاهات التطور ههنا ـ فمختص بالتطور اللغوى الدلالي «الحقيقي» وفيه تفقد المجازات معظم قدراتها الإيحائية ، وتغدو دلالات لغوية تضاف إلى رصيد المعجم .

وتتسع العربية لضروب من الاشتقاقات المنحدرة من كلمات شاعت دلالتها المجازية . ونضرب أمثلة قليلة ـ ههنا ـ على أن تتخذ مواضعها في الأجزاء التطبيقية لاحقا ، فالشبل : ولد الأسد إذا أدرك الصيد[٣] ، وتتولى أمه اللبؤة رعايته والدفاع عنه ، ومن هنا جاء تشبيه المرأة التي تعطف على أولادها ، وتصبر على تنشئتهم بعد فقد الأب باللبؤة التي ترعى أشبالها وتدافع عنهم . وقد رافق هذه الدلالة المجازية تطور اشتقاقي (من اسم الى فعل) ، فقيل : أشبلت فلانة بعد بعلها : صبرت على أولادها . . .[٤]

ونعرض مثالا آخر هو كلمة «ذئب» التي تدل على حيوان له صفات مشهورة نحو : الخسة والغدر والخبث . ومن المجاز الشائع تشبيه الإنسان بالذئب إذا خبث ، وقد رافق التطور المجازى ظهور اشتقاقات من الاسم «ذئب» إلى الفعل مجردا ومزيدا . فيقال : ذؤب فلان ذآبة : خبث كالذئب ، وتذأبته الريح : أتته من كل جانب فعل الذئب .[٥]

وهناك ضرب من الاشتقاق في دلالة «السيف» المجازية ، يتجلى في صوغ الصفة «سيفان» للدلالة على الرجل الممشوق كالسيف[٦] . إضافة إلى الاشتقاقات الفعلية الأخرى .

وإن استمداد كثير من الصور المجازية القديمة ، وتوظيفها في الشعر الحديث ، كان موضع نقد ، إذ اتجه النظر إليها لدى بعض الدارسين بحسب معايير الجدة والتقليد ، لتسويغ الهجوم على كل قديم إلى درجة الامتهان والابتذال[٧] .

واتخذ البحث لدى بعضهم الآخر صورة الانتقاد الساخر ، فمارون عبود يقف عند بناء الصورة في شعر الأخطل الصغير ، ويتناول بعض الدلالات المجازية ، نحو : «الليث والنسر والسيف» ، ويعيب الشاعر على استعمال الأساليب العربية القديمة والمجازات العامية المبتذلة[٨] .

وقد فات هؤلاء التفريق بين المجاز الذى يعد في الأساليب المجازية للغة والمجاز الفني الذى يدرس في نطاق الصورة ، ويقوّم على أساس الجدة والابتكار أو الاحتذاء والتقليد .

والأجدى عندنا هو تحليل المجاز من خلال العلاقة بين الشعر الحديث والشعر القديم ، وخصوصية الشعر من جهة ، ومن خلال التجربة الإنسانية الضاربة في القدم من جهة أخرى .

---

(٣) لسان العرب ، ٣٥٢/١١
(٤) أساس البلاغة ، ص ٢٢٨
(٥) المصدر السابق ، ص ١٤٠
(٦) لسان العرب ، ١٦٦/٩ ـ ١٦٧ ، وأساس البلاغة ، ص ٢٢٧
(٧) جبران خليل جبران ، البدائع والطرائف ، ص ٤٩
(٨) عبود ، مارون ، على المحك ، دار الثقافة ودار مارون عبود ، بيروت ، ط . رابعة ، ١٩٧٠ ، ص ٤٠ ـ ٤٥ ، ٨٩

فالمجازات التى عابها مارون عبود وإيليا حاوى وعصبة الشعرة[٩] وغيرهم على الأخطل الصغير[١٠] لايمكن أن تقتصر على المدلول الضيق للكلمة ، وعلى الرغم من أنها مستمدة من عصر سالف غير عصرنا فقد أصبحت تعني معنى عاما ، هو بمثابة الرمز لمعان متعددة ، مثل القوة والعنف والبأس ، وإن استعمال الشاعر كلمة «قنبلة» أو «مدفع» عوضا من السيف أو الرمح في هذا المجال لايغير من حقيقة المعنى شيئا ، وبالتالي لايضفي عليه صفة الجدة والطرافة إن لم يسىء إليه . وكذلك الشأن بالنسبة إلى الأسد ، وهو التشبيه القديم ، فالأسد مازال رمزا للبأس في ذهن البشر برغم تقدمهم المادى في وسائل الفتك[١١] .

وقد تنبه عدد من الدارسين والنقاد إلى صيرورة عدد من الصور القديمة رموزا ومجازات لغوية ، وتشبيهات سائدة . فالفيلسوف «هيغل» يميز بين التطور الدلالي والاستعمال المجازى ، والرمزى . يقول : «... وشيء آخر أمر الدلالة المستخدمة كرمز ، فالأسد على سبيل المثال يعتبر رمز الشجاعة ، والثعلب رمز المكر ، والدائرة رمز الأبدية ...»[١٢] و«صورة الأسد لاتستحضر فينا فقط المعنى الذى لها من حيث هي رمز - البطل - بل تقدم كذلك الموضوع نفسه في وجوده الحسي .»[١٣] .

ويرصد صاحبا نظرية الأدب - وارين وويليك - عددا من المجازات التي تتحول إلى رموز دينية وصوفية ، نحو الشمس ، والأسد والصخرة ، والنمر ...[١٤]

وفي الجوانب الدلالية للدكتور فايز الداية مواضع متعددة حللت فيها مجازات وتشبيهات سائدة تصلح دليلا على اشتراك العربية واللغات الأجنبية في كثير من الأساليب المجازية ، نحو : الكلب ، والثعلب ، والذئب ، والخنزير .[١٥]

ويجد شيوع هذه المجازات لدى الشعراء المعاصرين تفسيرا يربط الشعر العربي ، حديثه بقديمه ، ويبدو أن الصلة بين الشعر الحديث والقديم هي التي كانت تزيد في اعتماد الشعراء على محفوظهم ، واستمداد الصورة القديمة ، واعتمادهم عليها اعتمادا كبيرا .

فالشعر يعتمد إلى حد بعيد على التعلم ، وعلى شعر سابق ، كما أنه يمتد تاريخيا في ثقافات متنوعة ، وغالبا ماتستعمل الكلمات في الشعر لتستدعي استعمالاتها الشعرية السابقة ، ومن الطبيعي أن يؤلف شعر حضارة من الحضارات نظاما دلاليا ومجازيا متماسكا[١٦] .

إن لغة الشعر - باختصار - نمط من اللغة الأدبية يعتمد الدلالة المجازية ، والعلاقات السياقية ، ويشكل التاريخ الثقافي عامة ، والاستعمال الشعرى خاصة أساسا للغة الشعر الرمزية .

---

(٩) قميحة ، د . مفيد محمد ، الأخطل الصغير ، حياته وشعره ، ص ٣٢٠ - ٣٢٥

(١٠) تجدر الاشارة إلى أننا اعتمدنا شعر الاخطل الصغير أساسا للتطبيق ، وقد أحصينا جميع المواضع المتعلقة بهذا الجانب في شعره إضافة إلى أمثلة اخرى اخترناها من الدواوين والكتب الأدبية والنقدية .

(١١) الدقاق ، د . عمر . نقد الشعر القومي ، ص ١٧٢ - ١٧٥

(١٢) ، (١٣) هيغل ، الفن الرمزي ، ص ١٢ - ١٤

(١٤) وارين وويليك ، نظرية الأدب ، ص ٢٠٥ ، ٢١٤

(١٥) الداية ، د . فايز ، الجوانب الدلالية ص ، ٣٨٤ - ٣٨٥

(١٦) هو ، غراهام ، مقالة في النقد ، ترحمة محيي الدين صبحي ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، دمشق ، ١٣٩٣ هـ ، ١٩٧٣ م ، ص ١٣٤

ولا يعني استعمال المجاز القديم أن الشاعر «تقليدى» غير مجدد ، فالمعول عليه ـ ههنا ـ لايكون في استعمال هذه المجازات أو تلك ـ بل في سياقها ، وارتباطها بتجربة الشاعر من غير أن تبدو منبتة عنها .

• • •

ونختار أمثلة محدودة لرصد الظاهرة المدروسة ، لأن البحث يسعى إلى تقديم مادة صالحة لأن تكون أساسا لبناء أحكام صحيحة ، ولتفهم التطور اللغوى عن طريق المجاز ، دون أن يدعي الإحاطة بالجوانب الدرسية للمجاز عامة .

ولا يخفى مالغياب الدرس التأصيلي للمجاز من أثر سلبي في دراسة الخصائص الفنية . والحاجة ماتزال ماسة إلى تكاتف الجهود لإنشاء معجم شعرى «صورى» يتقرى الصور المجازية من خلال تطورها التاريخي ، ويميز الحديث منها من القديم .

وتماثل خطتنا في هذه الفقرة ماترسمناه في الفصل الأول ، وخاصة في تقصي الأصول الحسية للدلالة ، وتمييز الحقيقة من المجاز . وعمدتنا في هَذا الجانب معجم أساس البلاغة للزمخشرى مع مراجعات متعددة للأصول الأخرى من معاجم وكتب لغوية وبلاغية . ويوثق الجانب الحديث من خلال المعاجم الحديثة والدواوين القريبة زمنا من الأخطل الصغير ، إضافة إلى اجتهادات مصدرها السماع .

ويسلك بحث المجاز ـ ههنا ـ خطين متعاكسين ، الأول : من الحقيقة إلى المجاز ، والثاني : من المجاز إلى الحقيقة . ويكون ذلك بتتبع الأصل الحقيقي الذي تطور إلى مجاز ، وبتتبع المجاز الشائع الذى تطور إلى استعمال حقيقي أو معرفي .

* العلم ، العلم أصلا : الراية أو الجبل ، ثم أطلقت على الرجال عن طريق المشابَهة . وقد شاع استعمالها إلى درجة غدت تعد في الاستعمال اللغوى . وفي أساس البلاغة مثالان ينبئان بالأصل الحسي . يقول : «هو من أعلام العلم الخافقة ، ومن أعلام الدين الشاهقة»[17] فالأعلام الأولى مأخوذة من دلالة الأعلام على «الرايات» ، والأعلام الثانية مأخوذة من دلالة الأعلام على «الجبال» بدليل ورود الصفتين : الخافقة والشاهقة .

واستعمال كلمة الأعلام للدلالة على الرجال الأفذاذ والمشهورين شائع في العربية على مدى عصور متتابعة . وغدت هذه الدلالة متداولة في كتب التراجم والسير قديما وحديثا[18] .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «علم» للدلالة على الشاعر عروة صاحب عفراء : «علم الهوى من آل عذرة عروة .»[19] . وترد أيضا للدلالة على أحد زعماء الكفاح الوطني الحديث : «ياله من علم في علم . .»[20] ، وقد جمع الشاعر ـ ههنا ـ بين دلالتي : علم «الرجل» ، وعلم «الراية» في نمط يدعى في البلاغة العربية بالمجاز اللغوى .

---

(١٧) الزمخشرى ، أساس البلاغة ، ص ٣١٢

(١٨) من كتب التراجم مثلا+ : «الدرر الكامنة في أعلام المئة الثامنة «لابن حجر العقلاني ، و «سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي ، ومن الكتب الحديثة «الأعلام» لخير الدين الزركلي ، وسلسلة «أعلام العرب» في مصر . . .

(١٩) شعره ، ص ٢٨٨

(٢٠) شعره ، ص ٣١٢

* الشبل ، الشبل ولد الأسد إذا أدرك الصيد[٢١] . وفي أساس البلاغة دلالة مجازية من هذه المادة . يقول الزمخشري : «أشبلت فلانة بعد بعلها : صبرت على أولادها ولم تتزوج ، ومنه أشبلت عليه إذا عطفت ، وتقول : هي في إشبالها كاللبؤة على أشبالها»[٢٢] .

والدلالة المجازية ـ ههنا ـ واضحة وقد رافقها تطور اشتقاقي (من اسم إلى فعل) . ودلالة الشبل على ولد الأسد مخصصة أصلا ، ثم انتقلت إلى الدلالة على الصغير المرجوّ خيره وبأسه تشبيها له بأشبال الأسد .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «الأشبال» بدلالتها المجازية في حقل يضم دلالات أخرى كالأسد والعرين والفيل . . ففي الحديث عن بني حمدان ترد كلمة «الأشبال» في السياق التالي :[٢٣]

ملاعب الصيد من حمدان مانسلوا
إلا الأهلة والأشبال والقضبا

وفي الحديث عن فتيان الأمة حديثا يرد قوله «ليست من الأشبال فتية أمة . .»[٢٤]

وقوله أيضا : «أشبال ذا الوطن الجريح . .»[٢٥]

* الأسد ، الأسد معروف ، وهو في عرف العرب مثال للشجاعة ، وقد عدّ الإمام عبدالقاهر أمثلة من هذا المجاز في الاستعارة والتمثيل العامي لشيوعه[٢٦] .

وقد مر بنا في تضاعيف هذا الفصل مايدل على صيرورة هذا المجاز رمزا شائعا يرتبط في أذهان البشر بمعاني القوة والبأس والاستبسال .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «أسد» في موضعين ، ففي الحديث عن شباب لبنان يرد قوله : «قضى على الأسد دهر لاذمام له . .»[٢٧] ، وفي الحديث عن كفاح العراق الحديث يرد قوله : «أُسد العراق . .»[٢٨]

ويلحق بالدلالة المجازية الرمزية ـ ههنا ـ مايتعلق بالأصل الحقيقي ، فالأسد له أماكن سكن مخصصة الدلالة ، نحو «العرين» و«الغيل»[٢٩] . وقد غدت شائعة الاستعمال بدلالتها المجازية على «الوطن» لارتباطها بأصل المجاز «الأسد» . ولا يخفى على الدارس أن هذا الاستعمال يركز على خصيصة بارزة يشخصها أناس في مجتمع كلامي خاص بوصفها تشبيهات سائدة . ففي «الأسد» تكون السمة البارزة : الشجاعة والإقدام وجها لوجه ، وفي «العرين» تكون السمة البارزة : المنعة والحمى المصون من الاعتداء . .[٣٠]

والمواضع التي وقفنا عندها في شعر الأخطل الصغير

---

(٢١) لسان العرب ، ١١ ، ٣٥٢
(٢٢) الزمخشري ، أساس البلاغة ، ص٢٢٨
(٢٣) شعر الأخطل الصغير ، ص ١٢١
(٢٤) ، (٢٥) المصدر السابق ، ص ٢٩٨
(٢٦) الجرجاني ، عبدالقاهر ، دلائل الإعجاز ، تحقيق د . محمد رضوان الداية ود فايز الداية ، ص ١٣٧
(٢٧) شعره ، ص ١٣٧
(٢٨) المصدر السابق ، ص ١٦٣
(٢٩) الثعالبي ، أبو منصور ، فقه اللغة وسر العربية ، دار الكتب العلمية ، بيروت د . ت ، ص ٣٠٢
(٣٠) الجوانب الدلالية ، ص ٣٨٥

تستعمل فيها كلمتا «العرين والغيل» للدلالة على الوطن . ففي حديثه عن «مصرع النسر» ـ المقصود ههنا أحد الزعماء ـ ترد كلمة العرين في قوله «ورمى الذعر في العرين الضراغم»[٣١] وفي الحديث عن كفاح لبنان يرد قوله : «إيه لبنان .. أين العرين ؟ ..»[٣٢] ، وفي رثاء أحد الزعماء يرد قوله : «دخل الغيل على رئباله قدر ..»[٣٣]

* الذئب ، الذئب معروف بالافتراس والخسة والغدر ، وفي الأمثلة والآراء المنقولة عن عدد من النقاد والدارسين ـ في هذه الفقرة ـ مايدل على شيوع الدلالة المجازية الرمزية لكلمة «ذئب» ، وقد تنبه «يوجين نيدا» إلى هذا المجاز بوصفه من التشبيهات السائدة[٣٤] .

وفي أساس البلاغة مايؤكد ذيوع الاستعمال المجازى وتطوره إلى الدلالة الحقيقية ، يقول الزمخشرى : «من المجاز : هو ذئب في ثلة ، وهم أذؤب ، وذئاب ، وهم من ذؤبان العرب : من صعاليكهم وشطارهم ، وقد ذؤب ذآبة : خبث كالذئب . وأكلهم الذئب أى السنة . وتذأبته الريح : فزعته . وتذأبته الريح : أتته من كل جانب فعل الذئب»[٣٥]

ويتسع التطور ـ ههنا ـ لضروب من الاستعمالات المجازية التي رافقها تطور اشتقاقي «من الاسم إلى الفعل مجردا ومزيدا» . ويبدو من خلال ماقدمنا فهم الزمخشرى للتطور اللغوى ، وكشفه عن طرقه : المشابهة ، وانتقاء عنصر أساسي من دلالة الكلمة «حركة الذئب ودورانه .. ، خبثه ، افتراسه»

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «الذئاب» بدلالتها المجازية في موضع واحد . ففي الحديث عن تحكم المستعمر وأذنابه في الوطن يرد قوله : «ياأمة غدت الذئاب تسوسها ..»[٣٦]

* النسر ، النسر طائر من الجوارح ، حاد البصر ، قوي ، من رتبة الصقريات ، وهو أكبر الجوارح حجما[٣٧] ، ويمثل النسر في العربية رمزا للقوة والشمم ، والرفعة . وقد ذهب الأستاذ العقاد إلى «أن هناك اشتباها بين النسر والعقاب في استعمال العرب ، جاء من وصف النسر بالصفات التي تنفرد بها العقاب ، فالنسر ليس من عتاق الطير .. ويقع على الجيف ، وقلما يصيد ولا مخالب له ...»[٣٨]

وفي هذا العصر غدا النسر شعارا لكثير من الأقطار العربية[٣٩] ، وفي مجال الطيران تطلق كلمة «نسر» على الطيار امتداحا . وقد وردت بهذه الدلالة في شعر أحمد شوقي .[٤٠]

---

(٣١) شعره ، ص ٢٤١
(٣٢) شعره ، ص ٢٨٣
(٣٣) المصدر السابق ، ص ٣١٣
(٣٤) الجوانب الدلالية ، ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥
(٣٥) اساس البلاغة ، ص ١٤٠
(٣٦) شعره ، ص ٢٩٧
(٣٧) المعجم الوسيط ، ٩١٧/٢
(٣٨) العقاد ، عباس محمود ، أشتات مجتمعات ، ص ١٤٧ ـ ١٤٨
(٣٩) المعجم الوسيط ، ٩١٧/٢
(٤٠) الشوقيات ، ١٥٥/٢ ، الحاشية رقم (٢)

وترد في شعر الأخطل الصغير كلمة «نسر» بدلالتها المجازية على البطل والمقاتل الباسل ، ففي حديثه عن جبل لبنان يرد قوله : «قل لوكر النسور قدست وكرا . .»[٤١] ، وفي الحديث عن استغلال الغرب لبنان وجوع أهله يرد قوله : «لبنان مالفراخ النسر جائعة والأرض أرضك . .»[٤٢] وفي رثاء أحد الأعلام يرد قوله : «النسر ذا نزق على هضباته . .»[٤٣] ، وفي قصيدة يرثي فيها «فيصل بن الحسين» ، ـ وهي بعنوان مصرع النسر ـ يرد قوله : «ذلك النسر كيف حلق وانقض . .»[٤٤] ، وفيها أيضا : «هكذا مصرع النسور . .»[٤٥] ، وفي موضعين آخرين ترد كلمة «النسر» متضامة مع كلمة «وكر»[٤٦] .

ونشير إشارة موجزة إلى قصيدة شهيرة لعمر أبي ريشة ، هي قصيدة «نسر»[٤٧] وقد ذهب أحد الدارسين إلى أن نسر أبي ريشة صورة رمزية دلت على اضطرابه وترجحه بين عالم الفن ، والواقع ، وشقائه في حياته على الأرض . .»[٤٨] وفي فخر بدوى الجبل بإباء المناضلين يرد قوله : «نحن النسور ومن نعمى جوانحنا . .»[٤٩]

ويمكن أن نتبع كلمة «نسر» كلمة أخرى ملازمة لها ، هي كلمة «الوكر» ، والوكر أصلا مكان الطير على شجر[٥٠] ، ثم استعملت للدلالة على المنزل ، يقول الزمخشرى : «وكر الرجل : اتخذ طعاما عند بناء وكره أو شرائه . . ومن المجاز : مادار في فكرى نزولك في وكرى»[٥١]

وتمثل دلالة «وكر» على المنزل الذى يتخذه الإنسان تطورا ضمن المحسوسات ـ من التخصيص إلى التعميم ـ وقد وردت بهذه الدلالة في أساس البلاغة من غير أن ينص على أنها من المجاز .

غير أن هناك تطورا آخر في الفصحى المعاصره ـ مصدره السماع ـ يتجلى في إطلاق كلمة «وكر» على المكان الذى يتخذ منطلقا للجريمة ، وللدلالة على مختبأ الخارجين على القانون .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «وكر» للدلالة على «الوطن» و «المنزل» ، ففي الحديث عن جبل لبنان يرد قوله : «إيه وكر النسور . .» ، والقصيدة تحمل عنوان «وكر النسور»[٥٢] وفي الحديث عن كفاح لبنان الوطني يرد قوله «أيام وكرك في النسور مقدس»[٥٣] ، وفي الحديث عن أبي الطيب وإخفاق طموحه في إدراك الإمارة ، يرد قوله : «إذن لاثكلت أم الشعر . .

---

(٤١) شعر الأخطل الصغير ، ص ٤٦
(٤٢) المصدر السابق ، ص ٥٩
(٤٣) المصدر السابق ، ص ١٧٧
(٤٤) المصدر السابق ، ص ٢٤١
(٤٥) المصدر السابق ، ص ٢٤٢
(٤٦) المصدر السابق ، ص ٤٦ ، ٨٦
(٤٧) ديوان أبي ريشة ، ١٥٨/١
(٤٨) الأشتر ، د . محمد صبرى ، الشعر في سورية ، ص ١٢٤
(٤٩) بدوى الجبل ، ديوانه ، ص ٢٧٠
(٥٠) الثعالبي ، فقه اللغة ، ص ٣٠٣ ، واللسان ، ٢٩٣/٥
(٥١) أساس البلاغة ، ص ٥٠٧ ـ ٥٠٨
(٥٢) شعر الأخطل الصغير ، ص ٤٦
(٥٣) المصدر السابق ، ص ٨٦

وعطل الوكر . .»[٥٤] وفي وصف الهجرة ، والتفاف الصغار حول أمهم ، يرد قوله : «تجمعوا في الوكر حول حمامة جللها الأسى»[٥٥]

* السيف ، السيف : نوع من السلاح وقد شاع استخدامه في القتال في عصور سابقة ، وبلغت أسماؤه أو صفاته خمسين اسما أو صفة[٥٦] ، ومن السيف اشتقوا أفعالا متعددة نحو : سافه : ضربه بالسيف ، واستاف القوم وتسايفوا : تضاربوا بالسيوف ، وأساف وسايف وسيّف وتسيّف . .[٥٧]

ويبدو أن تشبيه الإنسان بالسيف قديم وشائع ، ويدل على ذلك اشتقاق الصفة «سيفان وسيفانة» للدلالة على الرجل والمرأة إذا كانا ممشوقين كالسيف[٥٨] . وفي دلائل الإعجاز للإمام عبدالقاهر استعمالات مجازية لمادة «سيف» عدها المؤلف في التمثيل العامي[٥٩] .

ويلاحظ الدارس عددا من التسميات المعرفية المتطورة عن طريق المشابهة ، نحو : السيف الساحل الممتد في البحر ، والسمك الذى يشبه السيف ، والليف من السعف . .[٦٠]

ويبدو أن الاستعمال المجازى لكلمة «السيف» تطور قديما إلى الدلالة على الرجل الذى يشبه السيف أو يتقلده ، وقد عرف لهذا الاستعمال صور متعددة كالتشبيه ، والاستعارة والمجاز المرسل - بإطلاق الجزء على الكل - وفي الفصحى المعاصرة يشيع استعمال كلمة «السيف» للدلالة على المحارب والمناضل في مقام المدح . ومن هذه الدلالة مواضع متعدّدة في شعر أحمد شوقي وأنور العطار وعمر أبي ريشة وبدوى الجبل . .[٦١]

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «السيف» بدلالتها المجازية في عدد من المواضع ، ففي حديثه عن تاريخ الشام وعراقة أهلها يرد قوله :[٦٢]

نسلتهم أمضى السيوف فهذه
لابن الوليد وتلك للجراح

وفي رثاء هنانو يرد قوله : «سقط السيف بعد طول الضراب من يد المجد . .»[٦٣] وفي قصيدة «الجابي» ترد كلمة «السيف» في السياق التالي :[٦٤]

ألا سيف من الإيمان
يبرى السيف مسنونا
يجلي عن سما الأوطان
هذا الذل والهونا

---

(٥٤) المصدر السابق ، ص ١٢٣
(٥٥) المصدر السابق ، ص ١٧٧
(٥٦) السيوطي ، المزهر ، ١/٤٠٥ - ٤٠٩
(٥٧) لسان العرب ، ٩/١٦٦ - ١٦٧ ، والمعجم الوسيط ، ١/٤٦٨
(٥٨) اللسان ، ٩/١٦٦
(٥٩) الجرجاني ، عبدالقاهر ، دلائل الاعجاز ، ص ٢٠٥
(٦٠) لسان العرب ، ٩/١٦٧ ، والمعجم الوسيط ، ١/٤٦٨
(٦١) الشوقيات ، ٣/١٧ ، وظلال الأيام للعطار ، ص ٩٨ ، وديوان أبي ريشة ، ١/٥٨ ، وديوان بدوى الجبل ، ص ٢٣٤
(٦٢) شعر الأخطل الصغير ، ص ٢٣٤
(٦٣) المصدر السابق ، ص ٢٦٦
(٦٤) المصدر السابق ، ص ٢٧٤

وفي قصيدة «رائد عربي» ترد كلمة «السيف» في السياق التالي:[٦٥]

يصرع السيف في غمار من المجد
فلا يرتضي سوى الدم غمدا
أنت أغنية السيوف إذا ثا
رت لتبني مجدا وتهدم مجدا

وعن سيف الدولة وأبي الطيب يرد قوله: «سيفان في قبضة الشهباء..»[٦٦]

ويتخذ المجاز ـ في الموضع الأخير ـ شكلا من مجاز الجذور اللغوية الذى يتعمق في معنى الأسماء والألقاب، ليثير عددا من المدلولات[٦٧]، فعلي بن حمدان عرف بلقب «سيف الدولة» حتى طغى على اسمه، والأخطل الصغير يثير في المتلقي بذكر كلمة «سيفان» ثلاثة معان، هي: معنى السيف السلاح، ولقب سيف الدولة، ومجاز: السيف الرجل العلم أى «علي والمتنبي».

* الشمس، الشمس: النجم الرئيس الذى ينشر الضياء، وقد لوحظ معنى «التحول وعدم الاستقرار» في عدد من الدلالات المتطورة قديما، نحو «شمس فلان إذا ند، ولم يستقر تشبيها بالشمس في عدم استقرارها.»[٦٨]، ومنه: «شمس: أظهر العداوة، ورجل شموس»[٦٩] وقد عدّها الزمخشرى في المجاز، وهي من الدلالات المتطورة التي غدت تدخل في مجال الحقيقة.

ويبدو للدارس من خلال الأمثلة المتداولة في كتب البلاغة[٧٠] أن تشبيه الإنسان رجلا كان أم امرأة بالشمس شائع متداول، وقد لوحظ فيه معاني الرفعة، والظهور، والنور الموجودة في دلالة الشمس الحقيقية، ويماثل هذا التشبيه، تشبيه الإنسان بالقمر والبدر والهلال والكوكب والنجم والمصباح.

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «شمس» في نوعين من الاستعمال المجازى، أحدها: المجاز الذى يتعلق بوصف الرجل أو المرأة بالرفعة والبهاء والجمال. ومنه قوله في رثاء أحد الزعماء:[٧١]

كفنوا الشمس بريحان وورس
يا لشمس آذنت من عبد شمس

وقوله أيضا: «عربي يصدع الشمس بشمس» وقوله في رثاء فيصل: «أطلعت شمس فيصل منك مصابيح..»[٧٢]، وقوله في وصف «سلمى» رفيقة الصبا: «وأرتنا إذ غابت الشمس شمسا.»[٧٣]

ويماثل هذا الاستعمال ماورد في شعر بدوى الجبل، ففي رثاء «غازى» يرد قوله: «مصرع

(٦٥) المصدر السابق، ص ٣٣٦
(٦٦) المصدر السابق، ص ١٢١
(٦٧) رثفن، ك، ك، المجاز الذهني، ترجمة عبدالواحد لؤلؤة، منشورات وزارة الثقافة والفنون، بغداد، ١٩٧٨ م، ص ٥٤
(٦٨) الأصفهاني، المفردات، ص ٢٦٧
(٦٩) الزمخشرى، أساس البلاغة، ص ٢٤١
(٧٠) ابن الأثير، المثل السائر، تحقيق، محمد محيي الدين عبدالحميد، البابي الحلبي بمصر، ١٩٣٩ م، ٥٩/١
(٧١) شعره، ص ٣١٢
(٧٢) شعره، ص ٢٤٠
(٧٣) شعره، ص ٨٢

الشمس . . »[٧٤] ، وفي رثاء «هنانو» يرد قوله : «ووريث الشموس من عبد شمس . . »[٧٥]

ثانيها : مجاز يقترب من الاستعمال الحقيقي في إطلاق كلمة «شموس» على المصابيح الكهربائية الحديثة . وقد ورد منه مثالان ، ففي حديثه عن حياة المدن الحديثة يرد قوله :[٧٦]

والكهرباء هنا تشع شموسها
وسراج أكثر من هناك الأنجم

وفي وصف قصر الحاكم ـ متصرف لبنان ـ يرد قوله : [٧٧]

لمن القصر بدت فيه الشموس
فعلى وجه الدجى منها نهار

* المصباح ، المصباح : السراج الذى يستضاء به ، وأصله متطور عن طريق المجاز المرسل ، لأن المصباح هو قرط السراج ، ثم أطلق على السراج والقنديل[٧٨] . ويلاحظ تطور دلالة «صبح» إذا أشرق الصبح إلى الصباحة والجمال والبهاء والنور في الوجه خاصة ، ومنه مارواه الزمخشرى : «من المجاز : رأيت المصابيح تزهر في وجهه . . »[٧٩]

ويبدو أن دلالة «الصباحة» غدت من التطور الدلالي الذى يعد في باب الحقيقة . أما الدلالة المجازية فتتجلى في تشبيه الإنسان بالمصباح أو استعارته له دلالة على العلم الذى يستضاء بعلمه أو قيادته ، وعلى الإنسان الموصوف بالصباحة والوضاءة رجلا كان أم امرأة . ويظهر في هذين الاستعمالين تطور ضمن المحسوسات : نور الصبح ، وإشراق الوجه ، وتطور من الحسي إلى المجرد : نور الصبح ، ونور العلم والهداية .

وفي التطور عن طريق التسمية المعرفية ـ لتطور الأدوات المستعملة ـ عرفت كلمة « مصباح » الدالة على المصباح الكهربائي Lampe electrique[٨٠]، وتنافسها في مستويات أخرى من الفصحى المعاصرة كلمات أخرى نحو : « النور » و « الضوّ » و « لمبة » المعرّبة[٨١] .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «مصباح» بدلالتها المجازية في موضعين ، ففي حديثه عن امرأة هجرها يقول :[٨٢]

مهلا فمصباحك لم يأتلق
إلا بما من شعلتي تقبسين

وفي رثاء فيصل يرد قوله :[٨٣]

أطلعت شمس فيصل منك للعر
ب مصابيح من شقوق الغمائم

ويرد الاستعمال الأول إلى الدلالة على النضارة والتألق ، وفي الثاني ، يرد إلى الدلالة على الآمال

(٧٤) ديوان ، بدوى الجبل ، ص ٢٠٩
(٧٥) ديوانه ، ص ٢٣٢
(٧٦) شعر الأخطل الصغير ، ص ٩٢
(٧٧) شعره ، ص ٢٠٢
(٧٨) لسان العرب ، ٥٠٦/٢
(٧٩) أساس البلاغة ، ص ٢٤٧
(٨٠) المعجم الوسيط ، ٩٠٤/٢ «مادة نجف» ، والمصطلحات العلمية والفنية ، ٨٦/٢
(٨١) المصطلحات العلمية والفنية ، ٨٦/٢ ، وشاهين ، د . عبدالصبور ، في علم اللغة العام ، جامعة حلب ٨١ ـ ١٩٨٢ م ، ص ٢٥
(٨٢) شعره ، ص ٨٤
(٨٣) شعره ، ص ٢٤٠

والأحلام التي أطلعها شمس فيصل للعرب من خلال الظلام .

وهناك استعمال مجازى آخر يمكن أن يفرد في جانب متميز ، وهو استعارة المصباح للدلالة على نور العلم والهدى دون أن يشير إلى علم أو الى امرأة موصوفة بالجمال .

ويمثل هذا الاستعمال تطورا من الحسي ـ دلالة المصباح بأنواعه ـ إلى المجرد أى النور الذهني والإشراق الفكرى .

ويرد من هذا النوع مثال واحد في شعر الأخطل الصغير ، ففي حديثه عن الفن ، يقول :[٨٤]

إني سكبت بها البيان على الطلا
في عزلتي وجعلتها مصباحي

وأمثلة هذا الاستعمال كثيرة ، ومنها القديم والحديث ، «فالفيومي» صاحب «المصباح المنير» جعل كلمة «مصباح» عنوانا لمعجمه مثلا . وهناك أمثلة أخرى من الاستعمال الحديث ، منها ماورد في الشعر نحو قول أنور العطار : «ياسنا الفن أنت مصباحي . .»[٨٥] وما ورد في الدراسات الأدبية ، نحو قول أحمد الشايب في تاريخ النقد : «نتخذه مقياسا . . ومصباحا نهتدى به في إنشاء . .»[٨٦]

* النجم ، النجم : اسم لكل واحد من كواكب السماء ، وهو بالثريا أخص[٨٧] ، ويلاحظ الدارس تطورا ضمن المحسوسات من التخصيص إلى التعميم ، فقد خرجت دلالة «النجم» الذى يطلع في السماء إلى كل مايطلع ويظهر[٨٨] ، وهناك تطور دلالي آخر يتمثل في دلالة نجم «على الجزء» ، لأن الدَّيْن كان يؤدى «نجوما» أى لدى كل نجم . ومنه : «أنزل القرآن نجوما . .»[٨٩]

وفي تطور آخر من الحسي إلى الذهني نجد دلالة التنجيم وهي النظر في النجوم تطورت إلى معنى التفكير والتبصر . «ويقال للإنسان إذا تفكر في أمر لينظر كيف يدبره : نظر في النجوم . .»[٩٠]

وقد أشرنا في تضاعيف هذا الفصل إلى أن دلالة «نجمة» ـ واحدة نجم السماء ـ محدثة ، فالنجمة قديما هي شجرة ممتدة على وجه الأرض .[٩١]

والتطور المجازى يتجلى في دلالة «نجم» قديما و«نجم ونجمة» حديثا على الإنسان العلم أو الرجل الشهير أو الفنان والفنانة .

وفي الأصول القديمة وكتب السيرة والحديث إشارات لامعة إلى هذا الاستعمال ، منها : تشبيه

(٨٤) شعره ، ص ١١٧
(٨٥) العطار ، أنور ، ظلال الأيام ، ص ٥٨
(٨٦) ابراهيم ، طه أحمد ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الحكمة ، بيروت د . ت ، من مقدمة أحمد الشايب ، ص(و)
(٨٧) لسان العرب ، ٥٧٠/١٢
(٨٨) المفردات ، ص ٤٨٣ ، وأساس البلاغة ، ص ٤٤٨ ، واللسان ، ٥٦٨/١٢ ، والكليات للكفوى ، ٣٣٠/٤
(٨٩) أساس البلاغة ، ص٤٤٨
(٩٠) لسان العرب ، ٥٧١/١٢
(٩١) المعجم الوسيط ، ٩٠٥/٢

العلماء بالنجوم في حديث نبوى[٩٢] ، وتشبيه أصحاب النبي (ص) بالنجوم في حديث آخر .[٩٣]

ويستفاد من بعض المرويات أن هناك ارتباطا في بعض المعتقدات بين ولادة الإنسان ، وظهور نجم جديد يدل عليه .[٩٤]

والتطور الحديث غدا أكثر شيوعا في إطلاق كلمة «نجم ونجمة» على الفنان والفنانة وكل من يوصف بالتألق في مجالات الحياة كالسياسة والاجتماع والفن . . وهذا التطور مماثل لما في اللغات الأجنبية ومتأثر به على مايبدو ، ففي الفرنسية «Astre» فنان شهير و«Etoile» أيضا نجم ، كوكب أى فنان وراقص عالمي ورجل شهير .[٩٥]

وقد وقفت في أحد امتدادات البحث التوثيقية على عدد من المواضع التي استعملت فيها كلمة «نجم» بدلالتها المجازي في شعر أحمد شوقي .[٩٦]

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «نجم ونجمة» بدلالتها المجازية على العلم من الرجال ، والموصوفة بالجمال من النساء . ففي حديثه عن جبران خليل جبران يرد قوله :[٩٧]

ويــح لبنــان كـلمـا ذر نجــم
فـيــه ولــى عـن أفـقـه وانهــارا

وفي تحية شعرية يزجيها إلى أحد أمراء آل سعود ، يرد قوله : «أيها النجم من سعود رعاك الله . . »[٩٨] وفي قصيدة يصف فيها جمال سلمى الكورانية يرد قوله :[٩٩]

وتمـتـمت نـجـمـة في أذن جـارتهـا
لمـا رأتهــا وجنّـت عـنـد مــرآهـا
قصت نـجـيمتنـا الحسنـاء بـدعتهـا
عن نجمــة الشط والآذان تــرعــاهـا

* الكوكب والكوكبة : أحد كواكب السماء والنجم[١٠٠] ، ويبدو أن معنى الإشراق والبريق في دلالة الكوكب تطور إلى تسمية كل مايظهر فيه ذلك كوكبا[١٠١] ، وهو تطور ضمن المحسوسات .

أما وصف الرجل بأنه كوكب ، فقد جاء في اللسان : «غلام كوكب : إذا ترعرع وحسن وجهه . . وهذا كقولهم له بدر . . » ، وفي موضع آخر : «الكوكب : سيد القوم»

ويستفاد من ذلك أن القدماء تنبهوا إلى التطور الذى جاء من كثرة التشبيه بكل ذى نور ، نحو الشمس والقمر والبدر والمصباح والنجم والكوكب .

---

(٩٢) المنذرى ، الترغيب والترهيب ، تحقيق مصطفى عمارة ، البابي الحلبي بمصر ، ط ثانية ، ١٩٥٤ م ، ١٠٠/١
(٩٣) الكاند هلوى ، حياة الصحابة ، تحقيق محمد علي دولة ، دار القلم ، دمشق ، ٢٧/١
(٩٤) ابن كثير ، السيرة ، تحقيق مصطفى عبدالواحد ، البابي الحلبي بمصر ، ١٣٨٤ هـ ، ١٩٦٤ م ، ٢١٣/١
(٩٥) المنهل الوسيط ، ص ٧٢ ، ٣٤٧
(٩٦) الشوقيات ، ١٣٨/١ «نجم سورية» ، ٤٥/١ «نجوم الملك» ، ١٥٠/٢ «نجم البيان»
(٩٧) شعره ، ص ١٠٠
(٩٨) الهوى والشباب ، ص ٣٢
(٩٩) شعره ، ص ٥٤ ـ ٥٥
(١٠٠) تختلف دلالة «نجم» عن الكوكب» في الاصطلاح الحديث . فالنجم : جرم سماوي مضيء بذاته ، أما الكوكب فهو جرم يستضيء بضوء الشمس ويدور حولها المعجم الوسيط ، ٧٩٣/٢ ، ٩٠٥
(١٠١) لسان العرب ، ٧٢٠/١ ـ ٧٢١

وفي التطور المجازى نميل إلى أن تطور كلمة «كوكب» مماثل لتطور كلمة «نجم» ، فالكوكب : الفنان والزعيم والبارع الجمال[١٠٢] .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «الكوكب» بدلالتها المجازية على الرجل الشهير أو الزعيم العلم . ففي حديثه عن عراقة الشام يرد قوله :[١٠٣]

هـو منبـت لمكـارم هـو مطلـع
لكـواكـب هـو مـلعـب لجيـاد

وفي موضع مماثل يرد قوله :[١٠٤]

الشـام منبـتهـم وكـم من كـوكـب
هـــاد وكـــم مـــن بلبـل صدّاح

وفي معجم المسرحيات العربية والمعرَّبة ترد كلمة «كواكب» للدلالة على الممثلين والممثلات ، وقد وردت في العنوان التالي : «فهرس كواكب المسارح التمثيلية من ممثلين ، وممثلات»[١٠٥]

● ● ●

٢ - التزامن الحسي :

وينفرد التزامن الحسي «synesthesie» بجانب من المجاز الحديث في الفصحى المعاصرة ، وهو واحد من سبل التطور الدلالي في الصورة الفنية .

والتزامن هو تعبير يدل على وصف المدرك الحسيّ الخاص بحاسة معينة بلغة حاسة أخرى أى بالمفردات الدالة عليها ، نحو وصف الصوف بأنه مخملي أو دافيء ، أو ثقيل أو حلو ، ووصف دوى النفير بأنه قرمزيم[١٠٦] .

ويبدو أن هذا المصطلح حديث النشأة ، فقد جاء في معجم المصطلحات العربية أنه ظهر عام ١٨٩١ م في «قاموس القرن»[١٠٧] . ويذهب الدارسون إلى أن «بودلير» هو صاحب الفضل في انتشار المصطلح وتداوله[١٠٨] .

غير أن مايهمنا في هذا الجانب هو دراسة التزامن من وجهة لغوية - دلالية تقوم على تحليل الاستعمالات اللغوية المتزامنة على أساس البحث المجازى .

ففي نظرية الأدب «لوارين وويليك» يعدّ المؤلفان التزامن شكلا من أشكال التحول المجازى ، «وهناك خاصة أخرى تعزى في بعض الأحيان للأديب والشاعر بخاصة وهي التزامن «synaesthesia» أو ربط الإدراكات الحسية الناشئة من إحساسين أو أكثر . وأشيعها بين الأدباء ربط السمع بالبصر ، السمع الملون ، واعتبار صوت البوق قرمزيا ، وغالبا مايكون التزامن الحسي تقنية أدبية وشكلا من التحول المجازي .»[١٠٩]

(١٠٢) المنهل الوسيط ، ص ٧٢ ، ٣٤٧
(١٠٣) شعره ، ص ١٤٠
(١٠٤) شعره ، ص ٢٣٤
(١٠٥) داغر ، يوسف أسعد ، معجم المسرحيات العربية والمعربة» ١٨٤٨ - ١٩٧٥ م» ، وزاة الثقافة ، بغداد ، ١٩٧٨ م ، ص٦٩٨
(١٠٦) وهبة ، مجدى ، ومهندس ، كامل ، المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، ص ٨٤
(١٠٧) المصدر السابق ، الموضع نفسه
(١٠٨) هورتيك ، لويس ، الفن والأدب ، ص ١٧ - ١٨ ، ومندور ، د . محمد ، الأدب ومذاهبه ، ص ١١٠
(١٠٩) وارين وويليك ، نظرية الأدب ، ص ٨٥ - ٨٦ ، ١٩٤ ، ٢٠٦

وفي الجوانب الدلالية ينقل الدكتور فايز الداية تصنيفا للتطور يقوم على نقل الأسماء للمشابهة بين المعاني ، ويعدّ أولمان ـ وهو صاحب التصنيف ـ التزامن واحدا من أقسام نقل الأسماء . «ومشابهة المعاني إنّما تكون :

أ ـ ذات جوهرية : في مشابهة الشكل بين ورقة الكتابة ، والورقة الطبيعية ، وفي المشابهة الوظيفية والمشابهة الموقعية .

ب ـ متزامنة حسيًّا : وذلك بتشبيه الصوت باللون «يعزف بطريقة أكثر زرقة» ، واللون بالرائحة «الأبيض المنعش» .

ج ـ انفعالية : عندما يشبه إحساس مابشيء مادى رابطة بينهما بعض الخواص «صداقة دافئة» ، و«خلق حلو ، طيب»[١١٠]

ولعل أقدم تفسير للتزامن ، واتجاه الدرس اللغوى فيه ماأورده الدكتور محمد مندور في الأدب ومذاهبه ، فقد عدّ «التبادل أو التعادل» Correspondance اتجاها لغويا خاصا بالبحث في وظيفة اللغة ، وإمكاناتها ، ومدى تقيدها بعمل الحواس ، وتبادل تلك الحواس ، على نحو يفسح أمام الكاتب أو الشاعر مجال اللغة ، وتسخيرها لتأدية وظائف الأدب .[١١١]

ويعدّ محمد مبارك التزامن ـ من غير أن يسميه ـ نوعا من النقل من الحسي إلى الحسي نحو وصفنا للصوت بالنعومة ، والخشونة ، والوضوح مع أنّ الوضوح للمرئيات لا للمسموعات ، والصفات الأخرى للملموسات .[١١٢]

ويدخل التزامن لدى بعض الدارسين في المجاز الشائع في لغة الخطاب ، وفي الأدب ، على حين ألتمس له آخرون أمثلة ترجع إلى الكتاب المقدس والإلياذة والأوديسة[١١٣] .

ويمكن أن ننتهى من هذا الدرس إلى أننا ننظر إلى التزامن على أنه تطور ضمن المحسوسات ، وأنه يخضع لما تخضع له بقية الأنماط المجازية من ابتذال وبلى بسبب كثرة التداول حتى تغدو بعض أمثلته أقرب إلى التعبير الحرفي منها إلى المجاز الفني أو الصورة المؤثرة انفعاليا . ويظهر هذا التحول من المجاز الفني إلى الاستعمال اللغوى «الحرفي» في بعض الأمثلة التي نقلها صاحبا نظرية الأدب ، نحو «صوت جميل» وصفة «حلو» التي تخص الذوق ثم استعملت لوصف الروائح ، والأنغام ، والمناظر[١١٤] .

ويبدو من خلال المواضع التي وردت في شعر الأخطل الصغير من هذا النوع «التزامن» أنه يمكن أن تجعل في قسمين استنادا إلى تصنيف «أولمان» وقياسا على أمثلته . ويكون التطور في الأول من حاسة إلى أخرى ، ويكون في الثاني بتطور معطيات حاسة معينة إلى المادى ، والمجرد الذهني ، وهو خروج على الحقل الدلالي للحواس .

---

(١١٠) الداية . فايز ، الجوانب الدلالية ، ص ٣٨٠ و Guiraud. la sem– antique. p.49–51

(١١١) مندور ، د . محمد ، الأدب ومذاهبه ، ص ١١٠ ـ ١١١

(١١٢) المبارك ، محمد ، فقه اللغة وخصائص العربية ، ص ٢٢٢

(١١٣) وهبة ومهندس ، المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، ص ، ٨٤ ، هيكل ، د . أحمد ، الآداب ، بيروت ، عدد/١١/سنة/١٩/تشرين الثاني ، ١٩٧١ م ، ص ٢٣

(١١٤) وارين وويليك ، نظرية الأدب ، ص ٢٠٦

ويضمّ القسم الأول الدلالات المتعلقة بالحواس ، وما ينتج عن تزامنها وتبادلها المواقع التعبيرية من أشكال مجازية ، على حين يضمّ الثاني مجموعة من الدلالات المجازية الذاوية التي تخرج فيها معطيات حاسة معينة من حقلها الدلالي لتغدو استعمالا لغويا متطورا من المجاز .

آ ـ نقف في هذا القسم عند عدد من الدلالات اللغوية المتطورة عن طريق التزامن : من الحسي إلى الحسي ، أى من حاسة إلى أخرى .

ففي قصيدة بعنوان «الشام منبتهم» يقول الشاعر :(١١٥)

في كـل رابيـة ، وكـل حنيـة
عصـاء تـسـطع بـالشـذا الفـوّاح

ودلالة : سطع الشذا مماثلة لما عدّه الزمخشرى من المجاز ، يقول : «من المجاز : سطعت رائحة المسك ، وأعجبني سطوع رائحته»(١١٦) ويبدو من خلال مراجعة أصول مادة «سطع» أنها مرتبطة أصلا بسطوع الصبح لإضاءته وانتشاره . «يقال للصبح إذا طلع ضوؤه في السماء قد سطع .. أولَ ماينشق مستطيلا ، وفي حديث السحور : كلوا واشربوا لايهيدنكم الساطع المصعد .. وأشار بيده . يعني الصبح الأول المستطيل .. فلذلك قيل للعمود من أعمدة الخباء سطاع ، ومنه عنق سطعاء إذا طالت وانتصبت(١١٧)

ومن الواضح أن دلالة «سطع» مرتبطة بحاسة البصر التي تدرك المحسوسات المرئية ثم تطورت دلالة الانتشار والانبعاث في ضوء الصبح إلى الدلالة على كل منتشر أو منبعث ، نحو : سطع الغبار ، وسطعت الرائحة : فاحت وعلت وانتشرت ، وسطع السحاب ، وسطع البرق . . .

وتُصوِّر في دلالات أخرى معنى الارتفاع والاستطالة الموجود في دلالة «سطع الصبح» فقيل : سطاع : عمود الخباء ، وعنق سطعاء ، طويلة ومنتصبة ، ويصح أن يعد في هذا التطور معنى سطع بيديه : رفعهما مصفقا(١١٨) .

وفي قصيدة بعنوان «وردة من دمنا» يقول الشاعر :(١١٩)

عـرس الأحـرار أن تسقي العـدى
أكـؤسـا حـمـرا وأنـغـامـا حـزانى

إن دلالة «تسقي العدى أكؤسا» تعد من المجاز القديم ، ففي «أساس البلاغة : «من المجاز : تساقوا كأس الموت ، وساقيته إياها . .»(١٢٠) أى حارب بعضهم بعضا . أما دلالة «الأنغام» فهي مرتبطة بحاسة السمع التي تدرك الأصوات . غير أن الشاعر عمد إلى تجسيد الأنغام وجعلها مما يدرك بالذوق الحسي : الشرب . ويبدو أن دلالة «سقى» متطورة قديما إلى دلالات ذهنية خارجة على الحواس ، نحو :

(١١٥) شعر الأخطل الصغير ، ص ٢٣٣
(١١٦) الزمخشرى ، أساس البلاغة ، ص ٢١٠
(١١٧) ابن منظور ، لسان العرب ، ٨/١٥٤ ـ ١٥٥
(١١٨) المصدر السابق ، ٨/١٥٥/
(١١٩) شعره ، ص ١٨٠
(١٢٠) أساس البلاغة ، ص ٢١٥

استقى الأخبار والمعارف أى أخذها وتلقاها من مصادرها.

وفي موضع آخر نجد الشاعر قد عمد إلى تجسيد «الغناء» ، وهو مما يدرك بالسمع وجعله مما يتناول أو يتذوق عن طريق الفم . ففي قصيدة بعنوان «بأبي أنت وأمي» يقول :[١٢١]

غنِّني واسكب غناكْ ولماكْ
في فمي فدّيت فاكْ ، هل أراكْ
وعلى قلبي يداكْ ورضاكْ

وفي جانب آخر نجد أمثلة للتزامن بين حاستي اللمس والشم ، ففي قصيدة بعنوان «ملعب الأحلام» ، يقول الشاعر :[١٢٢]

ملعب الأحلام ما أحـ
ـلاك حلو المبتسم
وإذا مسّك عطر
في أهازيج النسم
تنبرى الريشة والأو
تار والحبّ النغم

ويدل أصل «مسّ» على اللمس باليد[١٢٣] ، ثم تطورت الدلالة إلى كل مايلامس الجسد أو يقع أثره عليه أو يصيبه ، نحو مس الماء والسوط والمرض .. وغيرها من المحسوسات .

وقد نبه الأصفهاني إلى أصل الدلالة ، وما تطور منها من دلالات مجازية ، يقول : «والمس يقال فيما يكون معه إدراك بحاسة اللمس ، وكني به عن النكاح ، فقيل : مسها .. وكني بالمس عن الجنون ، قال : «كالذى يتخطبه الشيطان من المس» ، والمس يقال في كل ماينال الإنسان من أذى ...»[١٢٤]

ويمكن أن نعد دلالة «مس العطر» من التطور ضمن المحسوسات عن طريق التعميم . وفي مواضع كثيرة ترد مفردات تدل على العطر والشذا والأريج في سياقات تقوم على التجسيد المتزامن .

ففي قصيدة بعنوان «الفردوسي» يقول الشاعر :[١٢٥]

هل للأزاهر عن أماتها خبر
عن شاعر سكب الأطياب في فيها

وفي قصيدة بعنوان «عيد الحبيب» يقول :[١٢٦]

النور والعطر رقراقان في أفق
من المباسم مدّ الظن والنظر

وفي قصيدة بعنوان «الصبا والجمال» يعمد الشاعر إلى تجسيد «العبير» في قوله :[١٢٧]

سكر الروض سكرة صرعته
عند مجرى العبير من نهديك

---

(١٢١) شعره ، ص ٢٦٣
(١٢٢) شعره ، ص ٣٣٥
(١٢٣) لسان العرب ، ٢١٨/٦
(١٢٤) الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ، ص٤٦٧
(١٢٥) شعر الأخطل الصغير ، ص ٧٣
(١٢٦) المصدر السابق ، ص ٣١٨
(١٢٧) المصدر السابق ، ص٤٥

وفي قصيدة بعنوان «مرحبا مصر» يجسد «الأريج» وينقله من الشم إلى اللمس والبصر . يقول :(١٢٨)

ليس تـألـو الـريـاض أن تـوقظ الـزهـ
ـر وأن تجـمـع الـشـذا لـيس تـألـو
لـتريـق الأريـج سـكـبـا وتهـتـا
نـا عـلى وجـه مصـر حيـن يطـل

وفي قصيدة بعنوان «ثم إن قلبي» يجسّد «الشذا» ويجعله ماء . يقول :(١٢٩)

وإذا النسيم وأنت في بحـر الـشـذا
غـرق دنـا مـن وجـنـتـيـك لـيـلـثـما

وفي موضع واحد من قصيدة بعنوان «وردة من دمنا» اجتمع ضربان من التزامن أحدهما من السمع إلى البصر ، والآخر من اللمس إلى البصر . فقد عمد الشاعر إلى تجسيد «الأنين» وجعله مما يرشف بالعين . يقول :(١٣٠)

وأنينـا بـاحـت الـنجـوى بـه
عـربـيـا رشـفـتـه مـقـلـتـانـا

ب ـ ونقف في القسم الثاني عند عدد من معطيات الحواس التي توسعت دلالاتها ، وخرجت من خصوصية التزامن . وسوف يبدو من خلال الأمثلة أن هذه المعطيات تعرّضت لجوانب متعددة من التطور ، حتى عد معظمها في الاستعمال اللغوى ، ولم نعد نشعر إجمالا على أنها مجازية ولو عن طريق الحساسية الأدبية واللغوية .

وهناك «بعض العبارات ـ وهي طبعا أكثرها ابتذالا ـ قد قبلها الجمهور ، وتفهمها كصفة الحلاوة التي تطلق قبل كل شيء على الطعم ثم على الصوت واللون واللمس ، بل وأخيرا على السجية الخلقية .»(١٣١)

وترتبط الدلالة اللغوية لمادة «حلا» بحاسة الذوق : حلا الشيء صار حلوا وحلّى الطعام : جعله حلوا . . غير أن الدلالة خرجت إلى مجموعة من المعاني المجازية . ففي أساس البلاغة : «من المجاز : حلي فلان في عيني . . وحليّت الشيء في عين صاحبه ، وهو حلو اللقاء ، وحلو الكلام ، واستحليت هذه الجارية ، واحلولت لي . . وجارية حلوة العينين ، وتحالت المرأة : أظهرت حلاوتها . .»(١٣٢)

ويظهر التطور ـ ههنا ـ في توسع الدلالة وخروجها من التخصيص بحاسة الذوق الحسية إلى الدلالة على كل مايروق ويحسن من منظر ، وسلوك ، وخلق وكلام . . إضافة إلى دلالاتها في وصف معطيات الحواس الأخرى كالشم والسمع . وفي نظرية الأدب ينقل المؤلفان عن «كامبل» صاحب فلسفة البلاغة قوله : إن صفة «حلو» وهي في الأصل تخص الذوق يمكن أن تستعمل الآن للروائح والأنغام والمناظر .»(١٣٣)

---

(١٢٨) المصدر السابق ، ص ٦١
(١٢٩) المصدر السابق ، ص ٧١
(١٣٠) المصدر السابق ، ص ١٨١
(١٣١) هورتيت ، الفن والأدب ، ص ١٦
(١٣٢) الزمخشري ، أساس البلاغة ، ص ٩٤
(١٣٣) وارين وويليك ، نظرية الأدب ، ص ٢٠٦

وفي شعر الأخطل الصغير ترد مادة «حلا» في مواضع متعددة ، ففي قصيدة بعنوان «وداد» يصف جمال ابنته ، ويقول :(١٣٤)

حـــلاوة مهـــما يـــزد
يـــوم عـليهـــا تـــزد

وفي قصيدة بعنوان «أحلى الحب» يرد قوله :(١٣٥) «إن كان أحلى الحب أول قبلة . . » ، وفي قصيدة بعنوان «عروة وعفراء» ، يقول :(١٣٦)

يمشي لمنـــزله بنفـس مـغـالـب
مرّ الـشــقـا بـحلاوة الـوجـدان

وفي قصيـــدة بعنـوان «ملعب الأحــلام» ، ويقول :(١٣٧)

ملعـــب الأحـلام مـــا أحـ
ـلاك حلـــو المبتـســم

ففي الموضع الأول ترد كلمة «حلاوة» لوصف الجمال الحسي ، وفي الموضع الثاني ترد كلمة «أحلى» لوصف اللذة الحسية في القبلة ، وفي الموضع الثالث ترد عبارة «حلاوة الوجدان» للدلالة على راحة الضمير ، ودلالة «الوجدان» للدلالة على راحة الضمير ، ودلالة «الوجدان» متطورة في الفصحى المعاصرة إلى معان متعددة ، منها دلالتها على حالات نفسية من حيث تأثرها باللذة أو الألم ، وما يتعلق بالإحساس الداخلي Affectivite(١٣٨) ، وقد ذهب بعض المحدثين إلى عد هذا التطور من التطور غير المحمود الذى لامسوغ له .(١٣٩) وفي الموضع الرابع ترد «ماأحلاك» للدلالة على جمال الطبيعة ، وترد عبارة «حلو المبتسم» للدلالة على جمال الإشراقة . وتوظف الدلالة ـ ههنا ـ لوصف جمال لبنان ومظاهر الطبيعة فيه

وتماثل دلالة «مرّ» صار مرّا التطور الذى تبينّاه في مادة «حلا» ، فدلالة «مرّ الشيء صارا مرّا ، وأمرّ الشيء . .» مرتبطة بحاسة الذوق التي تميز الطعوم . غير أن هذه الدلالة توسعت إلى وصف كل مستكره من منظر وكلام وأمر . . . وفي أساس البلاغة «من المجاز نزل به الأمران : الهرم والمرض ، ولقيت منه الأمرّين ، ومّر عليه العيش وأمّر ، وما أمرّ فلان وما أحلى . .»(١٤٠)

وفي شعر الأخطل الصغير ترد مادة «مرّ» في موضعين ، ففي قصيدة بعنوان «سلي الليل» يرد قوله :(١٤١)

سقيـنـت مـــرارات الحيـــاة فلـــم أجـد
كمثـل الذى يسقيـه من كفـك الهجـر

وفي قصيدة «عروة وعفراء» مرّ بنا موضع وردت فيه كلمة مرّ في قوله : «مر الشقا بحلاوة الوجدان»(١٤٢)

---

(١٣٤) شعره ، ص ١٠١
(١٣٥) شعره ، ص ٢٧٧
(١٣٦) شعره ، ص ٢٩١
(١٣٧) شعره ، ص ٣٣٥
(١٣٨) عبدالنور ، د . جبور ، المعجم الأدبي ، ص ٢٨٩
(١٣٩) المبارك ، محمد ، فقه اللغة وخصائص العربية ، ص ٣٣٣
(١٤٠) أساس البلاغة ، ص ٤٢٦
(١٤١) شعره ، ص ٧٢
(١٤٢) شعره ، ص ٢٩١

ونقف في ختام البحث في تطور المواد المتعلقة بالذوق عند تطور الكلمة الدالة على الحاسة نفسها «ذاق» . والذوق حاسة تُميِّز بها خواص الطعوم بوساطة الجهاز الحسي في الفم ومركزه - اللسان .(١٤٣)

غير أن التذوق لم يعد مقتصرا على الذوق الحسي بل تطوّر إلى معنى «التعرّف» أو الملامسة الحسية ، وتطور إلى الدلالة على مد النظر إلى النساء وتفحص مواطن الجمال فيهن .

وفي الأدب والفن تدلّ مادة «الذوق» على حاسة معنوية ، أو ملكة الإحساس بالجمال ، والتمييز بين حسنات الأثر الفني وعيوبه(١٤٤) . وتطورت دلالة «الذوق» أيضا إلى شؤون الحياة والمجتمع كالذوق في اختيار الملابس ، والذوق في المعاملة والمجاملة ، والذوق في ترتيب المنزل . . .

وفي أساس البلاغة يعدّ الزمخشرى دلالة «ذقت الطعام» الأصل الحسي ثم يعدّ الدلالات المتطورة جميعا من المجاز . يقول : «من المجاز : ذقت فلانا ، وذقت ماعنده . . وهو حسن الذوق للشعر إذا كان مطبوعا عليه ، وما ذقت اليوم في عيني نوما ، وذاق القوس : تعرّفها ينظر مامقدار إعطائها ، وذق قوسي لتعرف لينها من شدتها ، وقد ذاقتها يدى ، وتذاوق التجار السلعة ، وذاقت كفي فلانة إذا مستها . وفي الحديث «إن الله يبغض الذواقين والذواقات كلما تزوج أو تزوجت مدّ عينه أو مدت عينها إلى أخرى ، أو آخر .»(١٤٥)

ويمكن أن تردّ أمثلة الزمخشرى إلى ثلاثة أضرب ، الأول : اللمس «ذاقتها يدى» والثاني : البصر «الذواقون والذواقات» ، والثالث : الحس المعنوى الفني «حسن الذوق للشعر» ، إضافة إلى الأمثلة التي تدل على التعرف ، نحو : ذاق القوس ، تذاوق التجار السلعة . . .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد مادة «الذوق» في عدد من المواضع . ففي قصيدة بعنوان «المسلول» ، يقول :(١٤٦)

لا لا أنـــام ولا أذوق كـــرى
أنـا لست من يحيا لفجـر غـد

وإنّ دلالة «أذوق كرى» من المجاز القديم الذى ذكره الزمخشرى ، وقد غدت هذه الدلالة استعمالا لغويا لايثير في المتلقّي هزة انفعالية .

وفي قصيدة بعنوان «هند وأمها» يقول :(١٤٧)

عـرفتهـم واحـــدا واحـــدا
وذقت الــذى ذقتـه مـرتـين

وتقترب دلالة «ذقت الذى ذقته» من معنى التعرّف ، ومعاناة الشيء . وفي قصيدة بعنوان «سلمى الكورانية» يقول الشاعر :(١٤٨)

---

(١٤٣) المعجم الوسيط ، ٣١٨/١
(١٤٤) عبدالنور ، د . جبور ، المعجم الأدبي ، ص ١١٨
(١٤٥) الزمخشرى ، أساس البلاغة ، ص ١٤٧
(١٤٦) شعره ، ص ٢٥٤
(١٤٧) شعره ، ص ٢١٩
(١٤٨) شعره ، ص ٥٥

إذا أرتــك الجبـال الغيــد كـاسيــة
فـالـشط أذوق منها حيـن عـرّاهـا

وعلى الرغم من أن دلالة «أذوق منها» عامة غير مخصصة ، فإنه من الممكن أن تعد في الذوق الفني الذى يختص بالجمال الحسي .

وفي قصيدة بعنوان «شاعر النيل» يقول :[١٤٩]

أنــت والـنيــل ضـفـتـان لمـصـر
تـنـبـتــــان الأذواق والأرزاقـــا

وإنّ إنبات الأذواق ـ ههنا ـ دلالة مجازية يمكن أن تسلك في الذوق الفني الذى يدل على ملكة الإحساس بالجمال في جميع مناحي الفكر والأدب والفن .

● ● ●

٣ ـ أثر التطور الدلالي الحديث في تراكيب مجازية شائعة :

ويخصص القول في هذه الفقرة لدرس عدد من التراكيب المجازية «الصور الفنية» ضمن سياقها النظمي syntagmatique . وتعزى جدة الصورة ـ ههنا ـ إلى ورود كلمة متطورة دلاليا فيها ، أو قيامها عليها ، ويلاحظ أثر الترجمة في حداثة عدد من الصور ، إضافة إلى ارتباط بعضها بالسياق الاجتماعي والحضارى الحديث .

وتجدر الإشارة إلى أننا وقفنا عند عدد من الصور المجازية ضمن المواد المحلّلة في القسم الأول ، غير أن اهتمامنا كان موجها إلى رصد التطور الدلالي الحقيقي دون غيره من جوانب التطور ومجالاته .

آ ـ ففي جانب من جوانب الدرس المجازى ـ ههنا ـ نقف عند عدد من الصور المتطورة بتأثير الترجمة ، وما ينشأ عنها من إشراب الكلمة العربية دلالة الكلمة الأجنبية ، فتغدو أكثر ارتباطا بالعصر ومعطياته .

وأول مانقف عنده تركيب وصفي هو «ابتسامة صفراء» ، وتقوم الصورة ـ ههنا ـ على تجسيد الابتسامة وإعطائها صفة لونية «الصفرة» ، وتختص هذه الصفة في نظام الألوان «السيميولوجي» بالدلالة على القلق وعدم الاستقرار والذبول ، وشحوب الحياة .

وقد ذهب الدكتور إبراهيم السامرائي إلى عدّ هذا التركيب الصورى المجازى من التعابير الأوروبية المترجمة . يقول : «ضحكة صفراء أو ابتسامة صفراء ، وهو في الفرنسية Rile jaune»[١٥٠]

ودل السياق الذى وردت فيه هذه الصورة في شعر الأخطل الصغير على ارتباطها بجو المرض والشحوب ، فالحديث كان عن مرض أحمد شوقي في لبنان .[١٥١]

والتركيب الثاني هو «وجهك المستعار» ، ونميل إلى عدّه تعبيرا مترجما ، أو متأثرا بالعادات الأوروبية الحديثة في وضع الأقنعة المستعارة في الحفلات التنكرية . ويبدو ـ ههنا ـ تطور الدلالة الحسي إلى الدلالة على المظهر الكاذب والرياء والخداع .

---

(١٤٩) شعره ، ص ٢١٤
(١٥٠) السامرائي ، د . إبراهيم ، فقه اللغة المقارن ، ص ٢٨٩
(١٥١) شعر الأخطل الصغير ، ص ١٠٩

وفي الفرنسية Masque قناع ، وجه مستعار ، ومظهر كاذب ، ورياء . وbal Masque حفلة راقصة تنكرية .(١٥٢)

وفي شعر الأخطل الصغير ترد عبارة «وجهك المستعار» في موضع واحد . يقول :(١٥٣)

فانهب العيش لا أبا لك نهبا
واطّرح عنك وجهك المستعارا

وفي أحد أعداد مجلة «الآداب» وقفت على التركيب نفسه واردا في شعر لخليل حاوى ، وفي افتتاحية العدد .(١٥٤)

والتركيب المجازى الثالث ، هو «لبس الغار عليه الأرجوان» ، ودلالة «إكليل الغار» مستمدة من الفرنسية على مايبدو ، فالغار Laurier إكليل ، وانتصار وتكلل بالمجد .(١٥٥)

وفي المعجم الوسيط «الغار : كان الرومان يتخذون منه إكليلا يتوجون به القائد المظفر أو الشاعر المغلق رمز لمجده .»(١٥٦)

وقد أضفت كلمة «الغار» المتطورة عن طريق إشرابها معنى الكلمة الفرنسية وما تحمله من دلالة ثقافية ، جدة وحداثة في التركيب المجازى الصورى .

ودل السياق على استعمالها للدلالة على المجد والنصر والتضحية . يقول :(١٥٧)

ياجهاداً صفق المجد له
لبس الغار عليه الأرجوانا

وفي سياق صورة فنية ترد عبارة «قوس من النور» للدلالة على شاهنامة الفردوسي ، ويبدو أن هذا التركيب المجازى مستمد من دلالة «قوس النصر» ، وهو عقد من خشب أو نحوه يقام فوق الطريق العام في شكل قوس ويزين بالمصابيح والأعلام ونحوها . .(١٥٨) وتماثل هذه الدلالة التعبير الفرنسي Arc de triomphe

يقول الأخطل الصغير :(١٥٩)

قوس من النور ماجت تحته أمم
وغابة من ظبى غنى الردى فيها

ب - وفي قسم آخر من التراكيب المجازية الحديثة ، ترد مجموعة مستمدة من السياق الاجتماعي والحضارى الحديث .

ونقف عند تركيب وصفي هو «الليالي الحمر» ، وهو تركيب مجازى يدل على انتهاب الملذات في النوادى الليلية ، أو السعي إلى تهيئة الشراب والملذات في مكان آخر .

ودل السياق الذى وردت فيه هذه العبارة على

---

(١٥٢) عبدالنور ، د . جبور ، وإيدريس ، د . سهيل ، المنهل الوسيط ، ص ٥٠٤
(١٥٣) شعره ، ص ٩٧
(١٥٤) مجلة الآداب ، بيروت ، عدد/٧/ ، سنة/٩/ ، تموز ، ١٩٦١ م ، ص ٢-٣
(١٥٥) المنهل الوسيط ، ص ٤٧٧
(١٥٦) المعجم الوسيط ، ٢ /٦٦٦
(١٥٧) شعره ، ص ١٨١ .
(١٥٨) المعجم الوسيط ، ٢ /٧٦٦ ، المصطلحات العلمية والفنية ، ٣ /٤٦
(١٥٩) شعره ، ص ٧٦

ارتباطها بالجو الاجتماعي الحديث . ولا يخفى - ههنا - أثر الصفة اللونية «الحمرة» ، فالحمرة من الألوان المهيجة وترمز غالبا إلى اللذة والمتعة الحسية . يقول الأخطل الصغير :(١٦٠)

غنّني يابلبلي ، واسقني ياجدولي
الليالي الحمر لي والشراب

كذب الواشي وخابْ
من رأى الشاعر تابْ
عمره فجر من الحب
وليل من شرابْ

وترد تراكيب متعددة مستمدّة من دلالة «تاج» ، و«عرش» غير أن مايهمنا ههنا هو ارتباط التعابير المجازية بالسياق الاجتماعي والحضاري الحديث .

ففي مناسبة تتويج «ملكة الجمال» ، ترد كلمتا «تاج» و«عرش» في السياق التالي :(١٦١)

الصبا والجمال ملك يديك
أيّ تاج أعزّ من تاجيك
نصبجالحسن عرشه فسألنا
من تراها له فدل عليك

ويلاحظ - ههنا - توسع في الاستعمال المجازي في عبارات غدت شائعة الاستعمال ، نحو «عرش الشهرة» و«عرش العلم» و«عرش البطولة» . ونقف عند تركيب «عرش الحسن» فالعرش في هذا السياق مرتبط بجو عصرى هو تتويج ملكة الجمال في حفل ذى رسوم معلومة .

ويبدو أثر التقليد الحديث «تتويج ملكة الجمال» في السياق كله ، فدلالة «التاج» غدت رمزا للتكريم ، ويبدو أنها مستمدة من ضفر التاج لدى الرومان ووضعه على رؤوس الملوك والشعراء والعظماء .

وقد وردت عبارة «ضفر الغار» للدلالة على التكريم في شعر الأخطل الصغير ،(١٦٢) كذلك وردت عبارة «ترى تاجا يضفر» للدلالة على مكانة عمر بن أبي ربيعة وسبقه .(١٦٣)

ونميل إلى عد هذه التراكيب من التراكيب الحديثة دلاليا ، ومجازيا ، ولايخفى أثر التقاليد الاجتماعية الحديثة في تطورها .

ج - ونلمح مواقع التطور الدلالي في تراكيب مجازية شائعة . وسوف نقف عند ثلاث مواد استمدت منها الصور المجازية .

فالإكليل كلمة معروفة قديما بدلالتها على التاج المزين بالجوهر ، وقد وردت كلمة «التاج» مرادفة كلمة «الإكليل» ، في موضعين من لسان العرب .(١٦٤)

ويبدو التطور الحديث في دلالة «الإكليل» على طاقة من الورد والزهر ، وقد تعددت أغراض الأكاليل في عصرنا ، وأهمها مايقدم في مناسبات الزواج والأفراح ،

---

(١٦٠) شعره ، ص ٦٩
(١٦١) شعره ، ص ٤٥
(١٦٢) الهوى والشباب ، ص ١٧٦ - ١٧٧
(١٦٣) شعره ، ص ١٥١
(١٦٤) لسان العرب ، ٢١٩/٢ ، ٥٩٥/١١ - ٥٩٦

والأتراح ، وقد ذهب المعجم الوسيط إلى النص على حداثة هذه الدلالة .[(١٦٥)]

وترد في شعر الأخطل الصغير كلمة «إكليل» في عدد من التراكيب المجازية المتطورة من دلالة الإكليل الحسية . ففي الحديث عن «الزهاوى» ترد عبارة «إكليل الأديب»[(١٦٦)] ، وفي الحديث عن«شاعر النيل» ترد عبارة «أكاليل من زنود وأجياد»[(١٦٧)] . . وفي الحديث «مصرع النسر» ، ترد عبارة «الأكاليل من ذؤابة هاشم»[(١٦٨)] ، وفي حديث الشاعر عن شعره يرد قوله : «صغت الأكاليل من نور ومن أرج للعيد . .»[(١٦٩)] .

وتشير المواضع المذكورة إلى تطور دلالة «الإكليل» المجازية إلى رمز للرفعة والمكانة السامية ، وترد في الموضع الأخير إشارة إلى أكاليل الفرح في الأعياد . فقصائد الشاعر أكاليل توّج بها الأعياد ، ومجال الطرب والشعر .

وهناك دلالة مجازية مستمدّة من دلالة «الإكليل» في طقوس الزواج المسيحي ، والإكليل ـ ههنا ـ غدا رمزا للقاء الحبيبين في يوم الزواج . وترد كلمة «الإكليل» للدلالة على الزواج عن طريق المجاز المرسل في قوله :[(١٧٠)]

وأنـه سـوف يسعـى سعي مجتـهـد
حتـى يـوطـىء للإكـليـل مسراهـا

وفي شعر عمر أبي ريشة دلالة مماثلة ، يقول :[(١٧١)]

ودعـتـنـا إلـى لـقـاهـا قـينّـا الـ
ـحـب والـثـلـج حـامـل إكـلـيلـه

وهناك كلمة أخرى دارت على ألسنة أكثر الشعراء المعاصرين ، وهي «الملاك» ويلاحظ أن هذه الكلمة غدت رمزا للجمال والطهر والبراءة . وقد فارقت هذه الدلالة أصلها الحسي الذي يدل على الرسول الذي يحمل رسالة ، والملك المرسل إلى الأنبياء ، وغدت من المجاز الحديث .

ودلالة «الملاك» محدثة ، وتدل على ملك نوراني يتشكل بأشكال مختلفة .[(١٧٢)] وقد استعملت هذه الكلمة في ترجمة الكتاب المقدس إلى العربية . وهي واردة في عهده القديم للدلالة على «رسول الرب» أى «ملاك» .[(١٧٣)]

وفي موضعين من مواضع كثيرة يظهر التطور المجازى . ففي قصيدة بعنوان «عشت فالعب بشعرها» يقول :[(١٧٤)]

مـن مـلاك فـي بردتيها مقيم
جسـد طـاهـر وروح كريـم

وحيا فيه ترى الحسن حيا

(١٦٥) المعجم الوسيط ٢ ٧٩٦
(١٦٦) شعره ، ص ١٦٦
(١٦٧) شعره ، ص ٢١٣
(١٦٨) شعره ، ص ٢٣٨
(١٦٩) شعره ، ص ٣١٨
(١٧٠) الهوى والشباب ، ص ١٢١
(١٧١) ديوان أبي ريشة ، ١ ٢٤٣
(١٧٢) المعجم الوسيط ، ٢ ٨٨٦
(١٧٣) سفر التكوين ، الإصحاح ١٦ ، الآية ٧ ـ ١١
(١٧٤) شعره ، ص ١٥٣

وفي قصيدة بعنوان «أترى يذكرونه» ، يقول :[١٧٥]

قلت أهـواك يامـلاكـي فـردت
مـقلتـاه . لـكـن تلعثـم فـوه

ويبدو استعمال كلمة «ملاك» في كلا الموضعين دالا على جمال المحبوب ، وبراءته وطهره . وهي صفات ملحوظة في دلالة «الملك النوراني» . ويمكن أن تعد كلمة «ملاك» رمزا من الرموز الدينية في الشعر الحديث .

وفي مواضع أخرى ، ترد كلمتا «ملاك» و «ملك» للدلالة على المحبوب أو الملك النوراني في سياقات مجازية .[١٧٦]

والهيكل هو بناء البيعة برمته أو صحنها ، وموضع في صدر الكنسية يقرب فيه القربان . وقد نص الوسيط في طبعته الأولى على حداثة هذه الدلالة .[١٧٧]

ويبدو للدارس تطور دلالة «هيكل» في الشعر الحديث عن طريق المجاز إلى معنى مستحدث يدل على بيت الشاعر ، وملاذه ، ومكان ذكرياته ، وأشواقه . ومن الواضح أن هذه الدلالة المجازية متطورة من دلالة «الهيكل» على بيت العبادة وما يحدث فيه من مناجاة وبوح ودعاء .

وفي الشعر الحديث ترد كلمة «هيكل» بدلالتها المجازية في مواضع كثيرة ، ففي ديوان الشوقيات «هيكل الحرية»[١٧٨] و «هيكل الاسجاح»[١٧٩] ، وفي ديوان أبي ريشة «هو ذا هيكلي . .»[١٨٠] و «ليس في هيكلي مجال لشمشوم»[١٨١] ، وفي الشعر المعاصر للطاهر مكي يرد قول فدوى طوقان «أنا هنا وحدى بهيكل ذكرياتي . .»[١٨٢] ، ومن قصائد الشابي المشهورة قصيدة بعنوان «صلوات في هيكل الحب»[١٨٣]

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «هيكل» للدلالة على موضع الذكرى ، والقداسة . ففي وقوفه أمام الصحراء العربية يرد قوله عن نفسه : «إحدى الشموع أمام هيكلك الرهيب»[١٨٤] وفي تحية موجهة إلى نضال فلسطين يرد قـولـه : «فلسـطين يـاهيكـل الذكريات . .»[١٨٥] ، وفي سياق الحديث عن اكتشاف الكهرباء ، يقول على لسانها : «لتحجبت . . ولّما دنس هيكلي» .[١٨٦]

وتشير المواضع الثلاثة إلى استعارة دلالة «هيكل» : بيت العبادة ، وتوظيفها في سياقات مجازية .

ويسوِّغ اتجاه الدرس وقوفنا عند جانب آخر من الدلالة ، «فالهيكل» : الضخم من كل شيء ، والفرس ، والبناء المشرف . وتشير الأصول إلى دلالة

---

(١٧٥) شعره ، ص ٢٦٤
(١٧٦) شعره ، ص ٤٨ ، ١٤٩ ، ٢٠٣ ، ٣٢٢ ، «ملاك» ، وص ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٨٧ ، «ملك»
(١٧٧) المعجم الوسيط ، ١٠٠١/٢ ، ط . أولى ، تصوير ، د . ت
(١٧٨) الشوقيات ، ١٥٢/٢
(١٧٩) المصدر السابق ، ١٥٣/٢
(١٨٠) ديوان ابي ريشة ، ١٨٩/١
(١٨١) المصدر السابق ، ٢٤٩/١
(١٨٢) مكي ، د . الطاهر أحمد ، الشعر العربي المعاصر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط . أولى ، ١٩٨٠ ، ص ٢٢٥
(١٨٣) الشابي ، أبو القاسم ، أغاني الحياة ، دار مصر ، القاهرة ، ط . ١٩٥٥ م ، ص ١٢١
(١٨٤) شعره ، ص ١٦٥
(١٨٥) شعره ، ص ٢٩٩
(١٨٦) شعره ، ص ٣٥٣

«هيكل» على أنماط ضخمة من الشجر ، ثم انتقلت إلى الخيل تشبيها ، وفي مرحلة تالية تحولت إلى شكل جديد طارىء على أهل الجزيرة العربية هو «بيت النصارى» ، وفي دلالة «الهيكل» تتضح قدرة العربية على التكيف مع المستحدثات .[١٨٧]

والتطور الحديث في هذا الجانب مستمد من دلالة «البناء» ، ففي الفصحى المعاصرة غدت كلمة «هيكل» تدل على بناء أساسي في المصطلحات الأدبية والفنية والصناعية .

ففي المجال الأدبي النقدي ، يقال مثلا «هيكل القصيدة» و«هيكل القصة» . ويلاحظ أيضا ظهور المصدر الصناعي الجديد «الهيكلية» ، وهو ترجمة للمصطلح الفرنسي structuralisme ، وقد ترجم إلى «بنيوية» ، و«بنائية» ، و«بنيانية» أيضا[١٨٨] .

د ـ وفي مواد أخرى يلاحظ الدارس أثر المجاز في شيوع الدلالة ، ويعد المجاز في هذا الجانب سببا من أسباب التطور باتجاه التعميم .

فالعرس : الزفاف ، والتزويج ، ووليمتها ، غير أنّ هذه الدلالة توسعت عن طريق المجاز في تراكيب شائعة في الفصحى المعاصرة ، نحو : عرس المجد ، وعرس البطولة ، وعرس الأحرار . .

ويلاحظ الدارس إطلاق كلمة «عرس» على الأفراح والمناسبات التي استجدت في حياتنا ، نحو إطلاق كلمة «عرس» على فرحة الاستقلال ، والنصر ، أو الشهادة ، وترتبط الشهادة بدلالة العرس من جانب اجتماعي ووطني ، فقد غدا سماع نبأ الاستشهاد مدعاة لإطلاق الزغاريد ، ومن هنا جاء وصف الشهادة بأنها عرس .

ويمكن أن ننتهي إلى أنّ كلمة «عرس» غدت تطلق على كل فرح مهما كان نوعه ويشكل الاستعمال المجازي في الشعر أساسا لهذا التطور .

وفي شعر الأخطل الصغير ترد كلمة «عرس» في مواضع كثيرة ، وسوف نقف عند أهم التراكيب المجازية ، ونحيل إلى الباقي . ففي قصيدة بعنوان «ليالي الجهاد» ، ترد عبارة «عرس البطولة» في السياق التالي[١٨٩] :

أو كقيثارة علاها غبار الـ
مجد غنت عرس البطولة قبلا

وفي قصيدة بعنوان «وردة من دمنا» ، ترد عبارة «عرس الأحرار» ، في قوله[١٩٠] :

عرس الأحرار أن تسقي العدى
أكؤسا حمرا ، وأنغاما حزاني

وفي مواضع أخرى ، ترد كلمة «عرس» للدلالة على الفرح عامة . نحو «نحن عرسان للغناء والشعر»[١٩١]

---

(١٨٧) الداية ، د . فايز ، الجوانب الدلالية في نقد الشعر ، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣

(١٨٨) المسدى ، د . عبدالسلام ، الأسلوبية والأسلوب ، ص ٢٠٤ ، وهورتيك ، الفن والأدب ، ص ٢٧٣ ومندور ، د . محمد ، الأدب ومذاهبه ، ص ١٢٤ ، والموقف الأدبي ، عدد ١٣٥ ـ ١٣٦ ، تموز ـ آب ١٩٨٢ م ، ص ٢٠٠ والفكر العربي المعاصر ، عدد ١٨/ ١٩ ، شباط ـ آذار ١٩٨٢ م ، ص ٩٧

(١٨٩) شعر الأخطل الصغير ، ص ١٠٣

(١٩٠) المصدر السابق ، ص ١٨٠

(١٩١) المصدر السابق ، ص ٣١

و«حنّت لعرسك عرس الشعر ..»[١٩٢] ، و«عرس ماجت البشائر فيه»[١٩٣] في وصف استقبال روح حافظ ابراهيم في جنة الخلد . و«عرس أهازيجه حمر ..» في وصف ذكرى الاستقلال[١٩٤] ، و«عاد العرس مأساة» ، في وصف نكبة لبنان بحكامه بعد فرحة الاستقلال .[١٩٥] ، و«إسلام فارس أعراس»[١٩٦] في وصف فرحة الفرس بالدين الجديد . وترد أيضا في مواضع أخرى في سياق صور فنيسة تقوم غالبا على المشابهة .[١٩٧]

وتماثل ماوقفنا عنده مواضع متعددة في الشعر الحديث ، ففي شعر أبي ريشة «عرس المجد» و«عروس المجد»[١٩٨] ، وفي شعر بدوى الجبل «حملت زغردة العرس لكم» في وصف فرحة الاستقلال[١٩٩] ، وفي مختارات الشعر العربي المعاصر ، يرد قول سليمان العيسى «العرس عرس المجد لم تر أمتي أشهى وأحلى» وقوله : «أنا من عرينك في الشمال تمرّ بي الأعراس عجلي» ، وقوله : «عرس العروبة ..»[٢٠٠]

وفي أثرين نثريين : «وإذا هو رأى الأعراس والأفراح أيام فيصل ..»[٢٠١] ، «ولكن النكسة حلت والناس في عرس ، فيبست الزغاريد في الحلوق ودالت دولة ووئد استقلال ..»[٢٠٢]

والأحلام هي عبارة عما يراه النائم في نومه من الأشياء ، ولكن غلبت «الرؤيا» على مايراه من الخير والشيء الحسن ، وغلب «الحلم» على مايراه من الشر والقبيح ، ومنه قوله تعالى : «أضغاث أحلام»[٢٠٣] ، ويستعمل كل واحد منهما موضع الآخر .[٢٠٤]

وفي أساس البلاغة «من المجاز : أحلام نائم للأماني الكاذبة[٢٠٥]. ويبدو أثر الاستعمال المجازى في تطور دلالة «الأحلام» إلى كل مايدل على الرغبة ، والأمل ، والأمنية والطموح ، إضافة إلى الدلالة على مفهوم «الأحلام» في التحليل النفسي الحديث ، وما استحدث له من مصطلحات ، نحو «أحلام اليقظة» ، وهو ضرب من التخيل يرخي الفرد فيه العنان لنفسه فيهيم بين صور خيالية لذيذة مشبعا رغبات لم تشبع في الحياة الواقعية .[٢٠٦]

ويبدو أنّ هناك علاقة مابين مايراه النائم في نومه ، وما يتمناه في صحوه وحياته ، وقد شغل تحليل الأحلام نفسيا كثيرا من مدارس التحليل النفسي الحديثة .

---

(١٩٢) المصدر السابق ، ص ٧٥
(١٩٣) المصدر السابق ، ص ٢١٢
(١٩٤) المصدر السابق ، ص ٢٣١
(١٩٥) المصدر السابق ، ص ٣٣٨
(١٩٦) المصدر السابق ، ص ٧٤
(١٩٧) المصدر السابق ، ص ٨٢ ، ١٠٧ ، ١٢١ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣٢١
(١٩٨) ديوان عمر أبي ريشة ، ٤٣٧/١
(١٩٩) ديوان بدوى الجبل ، ص ٩٥
(٢٠٠) (٥) ، (٦) مكي ، د . الطاهر أحمد ، الشعر العربي المعاصر ، ص ٢٣٦ - ٢٣٩
(٢٠١) العطار ، أنور ، ظلال الأيام ، المقدمة ، ص (ن)
(٢٠٢) الدقاق ، د . عمر ، فنون الأدب المعاصر ، ص ١٤
(٢٠٣) (٩) يوسف ، آية /٤٤/
(٢٠٤) لسان العرب ، ١٤٥/١٢
(٢٠٥) أساس البلاغة ، ص ٩٤
(٢٠٦) المصطلحات العلمية والفنية ، ١٧٢/١

وفي شعر الأخطل الصغير ترد تراكيب مجازية كثيرة ، ويبدو أن المجاز ـ ههنا ـ تحول إلى حقيقة ، ويؤيد ذلك شيوع الاستعمال في الفصحى المعاصرة .

ونكتفي بالإشارة إلى أهم التراكيب المجازية ، ونحيل بعدئذ إلى الباقي ، ففي مواضع متعددة ترد كلمة «حلم» للدلالة على الأمنية ، نحو «حلم عربي»[٢٠٧] ، وللدلالة على الرغائب «حلم اللهو والشراب . .»[٢٠٨] ، وللدلالة على الآمال «أنشدت أحلامي على فارغ من خشب القلب»[٢٠٩] و«ياقصور المنى على شفق الأحلام . . أطلعت شمس فيصل للعرب مصابيح»[٢١٠] و«أعيادك البيض أحلام مجنحة . .»[٢١١] . ومواضع أخرى كثيرة .[٢١٢]

وفي مواضع مماثلة ترد كلمة «الأحلام» في شعر أبي ريشة «مابلغنا بعد من أحلامنا ذلك الحلم الكريم . . »[٢١٣]، و« يشرح لي أحلامه »[٢١٤]، و« سرت وملء الدرب أحلامي »[٢١٥]، ومواضع أخرى[٢١٦] .

وفي مختارات «الشعر العربي المعاصر» ، يرد قول سليمان العيسى «ويجسد الحلم الكبير على شفاه الحاضر . .» و«أهلا فتى العرب وحلمهم . .»[٢١٧] . وفي مقدمة «ظلال الأيام» : «أيام سعدنا بأحلام الشباب» و«وقف شعره على تقديس الألم العبقرى فبكى الأحلام الضائعة . .»[٢١٨]

* * *

(٢٠٧) شعر الأخطل الصغير ، ص ٢٤٩
(٢٠٨) المصدر السابق ، ص ٣٠٩
(٢٠٩) المصدر السابق ، ص ٨٥
(٢١٠) المصدر السابق ، ص ٢٤٠
(٢١١) المصدر السابق ، ص ٣١٨
(٢١٢) المصدر السابق ، ص ، ٣٧ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ١٠١ ، ١٢٣ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٩١ ، ٢١٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤٨ ، ٢٦١ ، ٢٧٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣٢٨ ، ٣٣٥ ، ٣٤٤ .
(٢١٣) ديوان أبي ريشة ، ٤٤٤/١ ـ ٤٤٥ ،
(٢١٤) المصدر السابق ، ٣٩٥/١
(٢١٥) المصدر السابق ، ٣٥٦/١
(٢١٦) المصدر السابق ، ٩٣/١ ، ٨٤ ، ١١٩ ، ١٩٥ ، ٣٦٥
(٢١٧) مكي ، الطاهر أحمد ، الشعر العربي المعاصر ، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٧
(٢١٨) العطار ، أنور ، ظلال الأيام ، المقدمة ، ص (م ، ي)

المصادر والمراجع

إبراهيم ، طه أحمد تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الحكمة ، بيروت ، د . ت
ابن الأثير ، ضياء الدين المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد . البابي الحلبي بمصر ، ١٩٣٩م
ابن كثير السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى عبدالواحد ، البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٣٨٤ هـ ، ١٩٦٤ م
ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، «تصوير» ، د . ت
أبو ريشة ، عمر ديوانه ، دار العودة ، بيروت ، ط رابعة ، ١٩٨١ م
الأشتر ، د . محمد صبري الشعر في سورية بين الحربين ، أملية مستنسخة في كلية الآداب بجامعة حلب ، ١٩٧١ م - ١٩٧٢ م
الأصفهاني ، الراغب المفردات في غريب القرآن ، دار المعرفة - بيروت ، د . ت
بدوي الجبل (محمد سليمان الأحمد) ديوانه ، دار العودة ، بيروت ، ط أولى ، ١٩٧٨ م
الثعالبي فقه اللغة وسر العربية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د . ت
جبران ، جبران خليل البدائع والطرائف ، مكتبة كرم ، دمشق ، د ت
الجرجاني ، عبدالقاهر دلائل الإعجاز ، تحقيق د محمد رضوان الداية ، دار قتيبة ، دمشق ، ط أولى ، ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م
الخوري ، بشارة (الأخطل الصغير) الهوى والشباب ، دار المعارف ، ١٩٥٣ م
شعر الأخطل الصغير ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط . ثالثة ، د ت
خياطة يوسف ، ومرعشلي ، نديم المصطلحات العلمية والفنية ، دار لسان العرب ، بيروت ، ١٩٧٠ م
داغر ، يوسف أسعد معجم المسرحيات العربية والمعربة ، وزارة الثقافة ، بغداد ، ١٩٧٨ م
الداية ، د . فايز الجوانب الدلالية في نقد الشعر في القرن الرابع الهجري ،
دار الملاح ، دمشق ، ط أولى ، ١٩٧٨ م
الدقاق ، د . عمر . فنون الأدب المعاصر في سورية ، دار الشرق ، حلب ، ط أولى ، ١٩٧١ م
نقد الشعر القومي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٧٨ م
رثفن ، ك ، ك المجاز الذهني ، ترجمة د . عبدالواحد لؤلؤة ، وزارة الثقافة والفنون ، بغداد ، ١٩٧٨ م
الزمخشري (محمود بن عمر) أساس البلاغة ، تحقيق عبدالرحيم محمود ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م
السامرائي ، د . إبراهيم . فقه اللغة المقارن ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط . ثانية ، ١٩٧٨ م
السيوطي المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، البابي الحلبي ، القاهرة ، د ت
الشابي ، أبو القاسم أغاني الحياة ، دار مصر ، القاهرة ، ط أولى ، ١٩٥٥ م
شاهين ، د . عبدالصبور في علم اللغة العام ، مديرية الكتب والمطبوعات بجامعة حلب ، ١٩٨١ - ١٩٨٢ م
الشهابي ، مصطفى المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٥ م
شوقي ، أحمد الشوقيات ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ١٩٥٣ م
عبود ، مارون . على المحك ، دار الثقافه ، ودار مارون عبود ، بيروت ، ط . رابعة ، ١٩٧٠ م
عبدالنور ، د . جبور المعجم الأدبي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط أولى ، ١٩٧٩ م
عبدالنور ، د . جبور ، المنهل الوسيط (فرنسي) ، دار العلم للملايين ودار الآداب ،
وادريس ، د سهيل بيروت ، ط . أولى ، ١٩٧٢ م
العطار ، أنور . ظلال الأيام ، مطبعة الترقي ، دمشق ، ١٩٤٨ م
العقاد ، عباس محمود أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ، دار المعارف بمصر . ط ثانية ، د ت
قميحة ، د مفيد محمد الأخطل الصغير ، حياته وشعره ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط . أولى ، ١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م
الكاندهلوي ، حياة الصحابة ، تحقيق محمد علي دولة ، دار القلم ، دمشق
الكفوي ، أبو البقاء الكليات ، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ط . ثانية ، ١٩٨١ م ، ١٩٨٢ م
المبارك ، محمد . فقه اللغة وخصائص العربية ، دار الفكر ، بيروت ، ط سابعة ، ١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م
مجمع اللغة العربية بالقاهرة المعجم الوسيط ، دار الفكر ، ط . ثانية ، د . ت
المسدي ، د . عبدالسلام الأسلوبية والأسلوب ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ط . ثانية ، ١٩٨٢ م
مكي ، د . الطاهر أحمد الشعر العربي المعاصر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط . أولى ، ١٩٨٠ م
مندور ، د . محمد الأدب ومذاهبه ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، د . ت
المنذري الترغيب والترهيب ، تحقيق مصطفى عمارة ، البابي الحلبي بمصر ، ط ثانية ١٩٥٤ م
هو ، غراهام مقالة في النقد ، ترجمة محيي الدين صبحي ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، دمشق ، ١٣٩٣ هـ ، ١٩٧٣ م
هورنيك ، لويس الفن والأدب ، ترجمة د . بدر الدين قاسم الرفاعي ، مراجعة د . عمر شخاشيرو ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٦٥ م
هيغل ، الفن الرمزي ، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٩ م
وهبة ، مجدي والمهندس ، كامل معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٩ م
ويليك ، رينيه ، ووارين ، أوستن نظرية الأدب ، ترجمة محيي الدين صبحي ، مراجعة د . حسام الخطيب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط . ثانية ، ١٩٨١ م

الدوريات

مجلة الآداب ، بيروت ، العدد /٦/ ، حزيران (يونيو) ، السنة التاسعة ، ١٩٦١ م
محلة الآداب ، بيروت ، العدد /٧/ ، تموز (يوليو) ، السنة التاسعة ، ١٩٦١ م
مجلة الفكر العربي المعاصر ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، العدد (١٨ ـ ١٩) ، شباط ـ آدار ، ١٩٨٢ م
محلة الموقف الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، العدد / ١٢٠/ ، نيسان ، ١٩٨١ م
محلة الموقف الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، العدد /١٢٢/ ، حزيران ، ١٩٨١ م
مجلة الموقف الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق العدد /١٣٥ ـ ١٣٦/ تموز ـ آب ، ١٩٨٢ م
محلة الموقف الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، العدد /١٣٨ ـ ١٣٩/ ت ١ ، ت ٢ ، ١٩٨٢ م

المراجع باللغة الفرنسية

Dubois (j.), Giacomo (M,), Guespin (L.) Marcellesi (j.B.),
Mevel (J P.).
Dictionnaire de linguistique, Larousse, Paris 1973.
Guiraud (P.)
La semantique, Oue sais-je? presses universitaires de France 8e edition, Paris 1975.

* * *

السياق التاريخي والثقافي للشعر الزنوجي الإفريقي - الأمريكي

بنعيسى بوحمالة

عندما خصصنا المبحث الرابع للنزعة الزنوجية في الشعر السوداني المعاصر ، ضمن سياقها التاريخي والثقافي ، عللنا هذا المسلك بأهمية دمج المستوى الدلالي للمتن ورؤية الشاعر للعالم في بنية شعرية أشمل ، تربطها بالمتن علاقة مرجعية دالة ، وذلك بمقتضى إجرائية المنهج الذي اخترناه وحاولنا الإفادة من طرائقه . فحتى تستوفي بنية المتن تماسكها دلاليا ورؤيويا كان من اللازم أن نلحقها ، وفق ما فعلنا ، بالحقل الشعري الذي أنتجها وحدد لها ملامحها التكوينية ، وعلى ضوء هذا أليس من الوارد والحتمي القيام بنفس المسلك إزاء الحقل الشعري السوداني الموسوم بنزعته الزنوجية ؟ نقصد أليس في الإمكان دمج هذا الحقل الشعري ، المرجعي مبدئيا ، في بنية شعرية تشمله هو الآخر ، وتتيح لنا فهمه بشكل أوسع مما رأينا ؟ وبالتالي ألا يجوز أن ينتقل المرجع من وظيفته التفسيرية للمتن إلى وظيفة أخرى تجعل منه بنية قابلة لأن تُفسَّرَ هي في حد ذاتها ، اعتمادا على بنية أكبر ، أو على مرجع المرجع ؟ كل ما تساءلنا حوله ممكن وجائز ، بل وضروري أيضا ، نظرا إلى (أن دراسة هذه البنية الأوسع تستلزم بدورها القيام بدمجها في بنية أخرى تتعالق معها ، وتحتويها)[1] .

هذا إذن ما سنلجأ إليه في المبحث الراهن ، بحيث ستنصب مقاربتنا على بنية شعرية ، تحوز ، بالقوة وبالفعل ، أواصر مرجعية مع ما حددناه كنزعة زنوجية في الشعر السوداني المعاصر ، وهذه البنية الشعرية المقصودة هي الشعر الزنوجي الإفريقي - الأمريكي ، مؤطرا بإطاره التاريخي والثقافي .

وتجنبا لأي تماهٍ مفرط ، قد يجرنا إليه هذا المسلك ، نبادر إلى القول إن ما سنقوم به لا يتعلق ببحث ما في

(١) Lucien Goldmann : (Marxisme et sciences humaines) p. 19

احتمالات التأثير التي من الجائز أن تكون للشعراء الزنوج الأفارقة ـ الأمريكيين على الشعراء السودانيين ، أو استكشاف قرائن ما لانعكاس شعر أولئك على شعر هؤلاء ، فنحن لا يهمنا لا هذا ولا ذاك ، وإنما الذي يعنينا في الأساس هو محاولة التقاط ما يمكن أن نعتبره نقاطا للتشابه والتشارك بين الشعرين ، أو ما يمكن عده ، باللغة الغولدمانية ، عناصر تماثل بنيوي ، لا تنحصر في تناظرية المكون الدلالي ـ الرؤيوي في كليهما ، بل وتمس سياقهما التاريخي والثقافي . لكن قبل أن نشرع في تحليل مختلف جوانب الشعر الزنوجي الإفريقي ـ الأمريكي ، أليس من المجدي أولا تناول الكلمة ـ المفتاح ، الزنوجة ، وتفكيك مدلولها ، وما رافق هذا المدلول من حيثيات ، وصولا إلى تبيان مضاعفاتها المتعددة ، جماليا ودلاليا ورؤيويا ، على كامل الفعاليات الثقافية لدى زنوج إفريقيا وأمريكا والأنتيل .

يقول ليوبولد سيدار سنغور في استجواب سئل خلاله عن مفهوم الزنوجة : (للكلمة معنى مركب : موضوعي وذاتي ، موضوعيا تعني الزنوجة ، مثلما حددت ذلك ، « مجموع القيم الحضارية للعالم الأسود » ، أما ذاتيا فإنها تعني الطريقة التي يتخذها أي زنجي أو أية مجموعة سوداء في ممارسة القيم الآيلة إلى حضارتها)[٢]. هذا هو التعريف الذي سطره سنغور للزنوجة ، وسواء أخذنا من هذا التعريف المعنى الموضوعي ، أو أخذنا المعنى الذاتي ، ففي المحصلة نكون حيال رؤية وجودية خاصة تشترط ممارسة الفرد الأسود ، كما تشمل سائر العالم الذي يحيا به السود . لكن هناك شيء يجب أن نثبته وهو أن كلمة الزنوجة ، كصيغة لغوية ، لم تكن من وضع سنغور ، إذ أن (أول من صاغ مصطلح الزنوجة هو شاعر الهند الغربية إيمي سيزير عام ١٩٣٩ ، وتبناه على الفور ليوبولد سيدار سنغور)[٣]، وقد وردت الكلمة لأول مرة ضمن ديوان سيزير المشهور (مذكرة عودة إلى بلدي) الذي نشر في العام نفسه .

هذا ما يتعلق بمفهوم الزنوجة وبولادتها ، وريثما نفصل الحديث في جل ما يرتبط بالزنوجة ، من حيث تدرجها المفهومي ، ومن حيث ردود الفعل التي خلقتها ، نرى لزاما أن نعود إلى فترة ما قبل ولادة الكلمة ، إلى الممهدات التي سبقتها ، وبالتالي إلى الأفكار والطروحات التي راجت في العالم الأسود قبل أن تترسم الزنوجة كحركة فكرية على يد الثلاثي المعروف ليوبولد سيدار سنغور ، وإيمي سيزير ، وليون داماس . فهل يعقل مثلا أن تكون الزنوجة قد نهضت ، كمشروع حضاري في انقطاع عن إرهاصات مبكرة ؟؟ طبعا لا ، وحتى مع عدم حيازة تلك الإرهاصات لنفس المدلول الذي التصق بالزنوجة ، فهي ترشح بتحليل مقارب للتحليل الذي أعطته الزنوجة لمختلف إشكاليات العالم الأسود . إن تلك الإرهاصات تبقى ذات وزن كبير أثناء أي تناول للزنوجة ، لأنها تدلنا على الانشغالات التي استبدت بالفكر الزنوجي ، في ظل التجربة التاريخية المريرة التي مر بها السود وهم يواجهون مشروع تدمير هويتهم . إننا نقصد بهذه الانشغالات مواقف ووجهات نظر لا تخلو من تماسك ، مظانها كتابات ثلة من المثقفين السود ، ممن سبقوا جيل سنغور وسيزير وداماس .

وربما أمكن إرجاع يقظة الوعي الزنوجي إلى القرن الثامن عشر ، إلى أحد الفلاسفة الأفارقة ، إنه آمو غينيا

---

(٢) (Pour la negritude) propos recueillis par michel pierre. in (Magazine litteraire) no. 195-Mai 1983-P. 31.

(٣) ب. س. لويد : (إفريقيا في عصر التحول الاجتماعي) ترجمة : شوقي جلال ، ص ٢٩٦ .

آفير أو آمو فينيا الإفريقي ، أحد المسكوت عنهم في تاريخ الفلسفة الإنسانية . فلقد كان لإحساس هذا الفيلسوف بمأزقه العبودي ـ بحيث أخذ من إفريقيا إلى أوربا كعبد في بداية الأمر ـ تأثير كبير في تفتح وعيه على هويته المغايرة ، وفي إدراكه لحيوية التسلح بالمعرفة الغربية ، الفلسفية خاصة ، لكي يتمكن من التنظير لمأزقه العبودي ولمغايرة هويته ، باعتبارهما مأزقا ومغايرة يهمان ملايين من إخوانه السود . وهكذا كان حرصه على التكوين الفكري لشخصيته ، وعلى النهل من نفس الثقافة الغربية التي تسوغ استعباده واستعباد أبناء جنسه ، فكان نبوغه الفلسفي في ألمانيا مثار انتباه الأوساط الفلسفية وقتئذ ، بل ولقد أوصلته ألمعيته الفكرية ، وهو الأسود المستعبد ، إلى التربع على كرسي التدريس الجامعي في جامعات « هال » و« يتنبرغ » و« إينا » خلال العقد الرابع من القرن الثامن عشر . ومن هنا كان ضروريا أن تفضي هذه التجربة المتفردة ، أي قدرة أسود على امتلاك الثقافة الغربية ، إلى نشوء وعي لدى آمو بجدارته الإنسانية ، وبأحقية السود في وضع حقوقي يعيد إليهم الاعتبار ، فكتب مقالا باللاتينية تحت عنوان « حقوق الأفارقة بأوربا » ، ومما لا ريب فيه أن (هذا المقال ذو أهمية ، ذلك أنه يؤكد إلى أي حد كان آمو على وعي بوضعيته كإفريقي ، وإلى أي حد كان أيضا منشغلا بمشكلة الاسترقاق وبالشرط الاجتماعي للسود في أوربا)[٤].

فالمقال بمعالجته الريادية لمشكلة الاسترقاق ، ولاصطدام السود المنقلين إلى أوربا بمناخ اجتماعي مغاير ، يبقى في نظرنا محطة أساسية في سيرورة الفكر الزنوجي ، ومعلمة مضيئة تكشف عن إدراك للخصوصية السوداء ـ قبل فترة الثلاثينات التي شهدت تضخما في الحديث عن هذه الخصوصية ، هي فترة الميلاد الرسمي للزنوجة . فالجوهري في استحضارنا لآمو هو هذا المقال بالذات ، فهو وثيقة تضيف إلى قيمتها التاريخية ، التي لا جدال فيها ، قيمة أولية تتضح في تعبير آمو عن وعي بالدونية وبالاختلاف ، وأيضا عن وعي بأهمية تجاوز هذه الدونية القسرية ، ثم التنظير لاختلاف الهوية الزنوجية عن الهوية البيضاء ، مع العلم أن الإحساس بالدونية والاختلاف هو الذي حرك كل الأوعاء الزنوجية التي سبقت ميلاد الزنجية أو تولدت من صلبها . لقد كان آمو رجل لاهوت ومنطق وميتافيزيقا ، بيد أن ما تكتسبه الوثيقة الآنفة من وزن يفوق وزن كل ما خلفه من تراث نظري ، ولعل الفضل في اكتشاف تلك الوثيقة يعود إلى الزعيم الإفريقي قوامي نكروما . هذا من جانب ومن جانب آخر فإن اختيار آمو ـ بعد استعادته لحريته ـ العودة إلى مسقط رأسه له دلالته القصوى في رأينا ، إذ فضل الرجوع إلى إفريقيا بالرغم من الإغراءات الكثيرة التي أتاحتها له إقامته في أوربا . إن العودة من لدن فيلسوف ، لن يجد حتما في قارته مناخا علميا مواتيا ، تأخذ بعدا عميقا ، فهي اختيار وجودي دال ، ووعي بضرورة الانشداد إلى فضاء وثقافة ذاتيين ، داخلهما يجب أن يتأمل ويبدع بدل المكوث في فضاء وثقافة غربيين .

وإذا ما انتقلنا إلى القرن التاسع عشر فسوف تواجه علما آخر كان لآرائه ، ولا شك ، أثر ملموس في مفهوم « الشخصية الإفريقية » ذي الصلة الوثقى بمفهوم الزنوجة ، إنه إيدوارد ويلمت بلايدن ، المفكر الزنوجي الذائع الصيت ، خصوصا في أوساط المثقفين السود الناطقين بالإنجليزية وكما كان للثقافة الغربية فعلها في تململ وعي الفيلسوف آمو ، يقدم بلايدن مثالا إضافيا

(٤) Paulin J. Hountondji : (Sur la "philosophie africaine") P. 149.

لما أسهمت به هذه الثقافة ، بشكل غير مباشر ، في تحسس مثقف أسود لإشكالية علاقته بتاريخه الخاص ، وبالثقافة البيضاء التي لا تتوانى عن تحطيم تاريخه ذاك ، ومن لب هذه الثقافة المعادية صنع بلايدن منظوره النقدي لأوضاع العالم الأسود ، ويبحث في احتمالات تجاوز السود لما يطبع أوضاعهم من انفصام واختلال على أكثر من وجه .

لكن إذا كان آمو قد نهل من معين الثقافة اللاتينية السائدة آنئذ في أوربا ، فإن بلايدن قد متح من مصادر ثقافية أنجلو ساكسونية ، بفضل استقراره لفترة في الولايات المتحدة ، وعلى شاكلة آمو فقد تقلد هو الآخر منصب الأستاذية بجامعة « ليبيريا » ج كما أفادته زيارته لأوربا في الاطلاع على ثقافتها .

إن بلايدن ينتمي إلى تلك الفئة من المثقفين الزنوج التي رجعت ، ضمن من رجعوا ، إلى إفريقيا بعد صدور قانون العودة الأمريكي الذي خول للعبيد المحررين تأسيس كيان وطني في ليبيريا وسييراليون ، فتولد لدى هذا المفكر شعور بعمق الفوارق بينه وبين أبناء جلدته على المستويين الثقافي والاجتماعي . فهو القادم من أمريكا ، والمتفتح على الفكر الغربي ، والقادر على استيعابه ، في حين يرزح إخوانه السود تحت نير الجهل ، مع عجزهم عن تحليل إشكالية علاقتهم بالعالم الأبيض المسؤول عن أوضاعهم . وهو المثقف الزنوجي المشحون بالقيم وبالتقاليد الغربية ، بينما يعيش هؤلاء الذين ظلوا في إفريقيا في بؤس فظيع ، وهذا ما دفعه إلى أن يصب جماع تفكيره على تأسيس خطاب يكفل تفسير هذه المفارقة العميقة ، ويقدر على تحليل عناصرها ، بحثا عن تأصيل مغايرة سوداء عن الثقافة البيضاء ، هذه الثقافة التي كان بلايدن على وعي بمضاعفاتها على شخصيته الوجودية والفكرية . وبهذا يعد (أول مثقف أسود فكر تفكيرا زنوجيا خالصا وجعل من إفريقيا وحدة أصيلة متميزة عن سواها)[٥]، فإليه يرجع (مفهوم « الشخصية الإفريقية » وهو ما كانوا يردونه إلى نكروما ، فقد كان من مفاهيمه التي تردد فيها يخطب ويقول)[٦]، وعلى ذكر نكروما لابد أن نشير إلى التأثير الذي كان لأفكار بلايدن على أطروحاته ، بل إن ذلك التأثير لم يقتصر على نكروما وإنما تعداه إلى أغلب مثقفي إفريقيا الناطقة بالإنجليزية ، وكذا قطاع واسع من مثقفي إفريقيا الناطقة بالفرنسية . وعلى أي فقد (يطول شرح النظرية التي انتهى إليها بلايدن ، فهي تذكر من عدة وجوه بالنظرية التي استنبطها ليوبولد سيدار سنغور ودعاها الزنجية)[٧].

وفي نفس القرن يمكن أن نذكر دائما إسما آخر اقترن بدوره بنفس المنظور الفكري للمسألة الزنوجية ، ويتعلق الأمر هذه المرة بالمفكر الزنوجي الأمريكي ويليام دي بوا الذي شرع ابتداء من عام ١٨٩٠ في الدفاع عن أصولية الشخصية السوداء في المجتمع الأمريكي . لقد عرف ديبوا كرجل فلسفة ، درس في جامعتي « هارفارد » و « برلين » ، واختتم مساره التعليمي بالحصول على شهادة الدكتوراة في الفلسفة ، لكن بموازاة اهتماماته الفلسفية كانت له اهتمامات أخرى بقضايا العالم الأسود والشخصية السوداء . وعلى الرغم مما طبع أفكار ديبوا من تجزيئية ، مردها إلى اقتناعه بالفوارق الواردة بين السود الأفارقة وسود الشتات على مستوى الأولويات

---

(٥) قاسم الزهيري : (نظرات في الفكر الزنجي) مجلة « الثقافة المغربية) العدد السادس ١٩٧٢ ، ص ٤٩
(٦) جمال محمد أحمد : (وجدان إفريقيا) ص ٦٧ .
(٧) قاسم الزهيري : (نظرات في الفكر الزنجي) مجلة « الثقافة المغربية » العدد السادس ١٩٧٢ ، ص ٥٠ .

النضالية بحيث كان (يدافع عن حقوق سود أمريكا ناظرا إليهم كأمريكيين ، ويثير في الإفريقيين حمية إنجاز تحررهم على أرضهم)(٨)، قلنا على الرغم من هذه التجزيئية فإننا لا يمكن أن نتغاضى عن جهده في تحليل بعض مآزق السود السياسية والاجتماعية على وجه الخصوص . إن خطاب دي بوا ينشد إلى ما هو (إيديولوجي أكثر من انشداده إلى ما هو حضاري في كليته وشموليته ، ومع ذلك فإن الزاوية الأكثر مردودية في هذا الخطاب تتجلى أولا في تأثيره القوي على أفكار وأطروحات كل من جورج بادمور ، وقوامي نكروما ، وجومو كينياتا ، الذين هم أقطاب ما يعرف بمفهوم « الشخصية الإفريقية » ، وثانيا في تحول الخطاب المذكور إلى ما يشبه الإنجيل لدى مجموعة من المبدعين الزنوج الأمريكيين التأم شملهم حول تيار زنوجي أمريكي يدعى « اليقظة الزنوجية » ، إذ استمد هذا التيار الكثير من مرتكزاته الفكرية مما سطره دي بوا حول الشرط اللاإنساني للسود في مجتمع أبيض واضطهادي كالمجتمع الأمريكي ، وكان من بين أعضاء هذا التيار لانغستون هيوز ، وكلود ماك كي ، وكونتي كولن ، وستير لينغ براون ، وجان تومير . . . الذين أصدروا بيانا مشهورا حددوا ضمنه بعضا من مواقفهم وتصوراتهم حيال المسألة الزنوجية ، ومما جاء في هذا البيان : (نحن بناة الجيل الزنجي الجديد نريد التعبير عن شخصيتنا وأصالتنا الزنجية دون أي شعور بالخجل أو الخوف . فإذا كان ذلك يروق للبيض فسنكون سعداء كثيرا . وإذا كان لا يروقهم فلا نبالي بذلك أبدا . نحن نعلم علم اليقين أننا على جانب كبير من الجمال ومن القبح في الوقت نفسه . إن الطبلة تنوح وتضحك ، إذا كان يحلو لهم سماعها فذلك يسبب لنا فرحا عظيما . أما إذا كانوا لا يحبون سماعها فلا يهمنا ذلك أبدا . نحن نبني معابدنا كما يحلو لنا ، ونقف بأنفة وإباء وقد تحررنا من الذل والعبودية)(٩).

ولا ريب أن البيان يكشف ، بكثير من الوضوح ، عن البرنامج النظري لتيار « اليقظة الزنوجية » ، وهو برنامج يخدم مشروع التعبير عن الشخصية الزنوجية داخل محيط إثني وثقافي أبيض ، كما يبين عن جرأة فكرية في الإفصاح عن وعي أسود أمريكي ، متحرر من ثقل المركبات التاريخية التي راكمتها عقود من المحاصرة والاضطهاد .

وإجمالا فقد شكل مشروع « اليقظة الزنوجية » بوتقة انصهرت فيها روافد فكرية عديدة ، بحيث يحضر التراث الزنوجي والمسيحية ، مثلما تحضر الشيوعية السوفياتية وفلسفة اللاعنف الغاندية . ولا شك أن طبيعة هذه الروافد تبين نوعية الاختيارات الفكرية والإيديولوجية لتلك الجماعة من المثقفين الزنوج الأمريكيين ، فبقدر ما أولوا للتراث الزنوجي أهمية كبيرة جذبتهم إلى المسيحية قيمها الإنسانية كالعدالة والإخاء . . وكما انتقوا من الشيوعية معاداتها للاستغلال الرأسمالي أثارهم في الغاندية تجسيدها لقدرة التقاليد الروحية الشرقية على مغالبة الجبروت والاضطهاد الأبيضين . وهكذا عملوا على استثمار كل هذه الروافد لتحليل مجمل المآزق العلائقية مع العالم الأبيض ، مع تركيزهم على ضرورة التخلي عن (وضعية التسول

---

(٨) — Lylian kesteloot : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des prosateurs, poetes et dramaturqes noirs du xx e siecle) P. 15.

(٩) خليل شطا : (الأدب الزنجي الإفريقي الحديث) مجلة « المعرفة » س ٢٠ العدد ٢٣٥ ـ سبتمبر ١٩٨١ ، ص ٧٧ ـ ٧٨ .

الثقافي التي كان عليها الأمريكي الأسود)[١٠]، وعلى ضرورة (امتلاك وعي بالهوية)[١١].

لقد ساد هذا التيار لفترة امتدت من عام ١٩١٨ إلى عام ١٩٢٨ ، الشيء الذي يؤكد سبقه التاريخي على نشوء الحلقة الباريسية التي اقترن ذكرها بمفهوم الزنوجة ، بل إن تماسك التصورات وتشبع النصوص الإبداعية بروح زنوجية أصيلة ، وهما ما ميزا كتابات أعضاء « اليقظة الزنوجية » ، صنعا شهرة هذه الأخيرة (فوصل تأثيرها شيئا فشيئا إلى جزر الأنتيل الفرنسية ، وكوبا ، وهايتي ، ثم فرنسا حيث كانت تتبلور النخبة الفتية للمستعمرات الإفريقية)[١٢]، وهذا يفيد وصول أصداء معينة من وراء المحيط إلى مقهى « مونمارتر » الباريسي حيث كان يجتمع سنغور وسيزير وداماس ، زيادة على ما كان لزيارات لانغستون هيوز وكلود ماك كي لباريس من آثار لا تنكر على توجهات الثلاثي الناطق بالفرنسية .

إن استعراضنا للمحطات الفكرية التي سبقت الولادة الرسمية لمفهوم الزنوجة يهدف إذن إلى تجلية المسار الذي سلكه الوعي الزنوجي قبل فترة الثلاثينات ، فالمفهوم لم ينبلج من فراغ ، ولم ينهض في أرض يباب ، وإنما ولد في نطاق تراث مهد له وغذاه حتى استوى يافعا على يدي كل من سنغور وسيزير وداماس . وإذا كان لنا أن نسمي ما استعرضناه بالوسائط الفكرية الممهدة للزنوجة ، يمكن ، بالمقابل ، أن نستعرض الوسائط الإعلامية التي احتضنت أقلاما عرفت بإسهامها في تأسيس الزنوجة ، وذلك من خلال الكتابة في مجلات وصحف اصبح تاريخها جزءا من تاريخ الحركة الزنوجية . (ففي عام ١٩٣٢ ، ظهرت بباريس مجلة صغيرة طبعت رسميا ، وبمعنى من المعاني ، بداية الأدب الزنوجي المكتوب بالفرنسية)[١٣]، وقد تأسست على يد مجموعة من الطلبة المارتينيكيين الذين كانوا يدرسون بباريس ، أشهرهم سيزير ، ثم انضم إليهم السينغالي سنغور والغوياني داماس . كان اسم المجلة هو « الدفاع المشروع » ، ولعل في هذه التسمية ما يدل على نمط التحليل الذي ارتآه هؤلاء الطلبة ، فالمسألة تتعلق إذن بموقف دفاعي : دفاع عن الهوية ، ورد الاعتبار لمجموعة إثنية خضعت لعنف متعدد مورس عليها ، عنف عبودي وعنف استعماري وعنف ثقافي . . . وبموازاة هذا الدفاع أعلنت المجلة عن انحيازها إلى القوى المناهضة لكل تلك الأشكال من العنف ، فكان تضامنها مع الأممية الثالثة ومع المثل التي اعتنقها الحزب الشيوعي الفرنسي .

ومادام الحقل الإبداعي الذي ألف بين هؤلاء الطلبة هو الحقل الشعري فقد نزعوا إلى إبداع كتابة شعرية متحررة من نفوذ الجمالية الكلاسيكية والرومانسية الفرنسية ، ومنفتحة على التقنية الشعرية للبرناسيين والسرياليين ، إلى جانب تأثرهم بشعراء تيار « اليقظة الزنوجية » . ومع إدراك هؤلاء الطلبة لضيق أفق الاختيار على مستوى لغة الكتابة ، فإنهم حاولوا تطويع

(١٠) —Jean marie lemogodeuc : (Reflexions sur le concept de negritude) in :
مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس ـ لسنتي ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ ، العددان الثاني والثالث ، ص ٥٣٤ .

(١١) —Ibid, P. 534

(١٢) —Lylian kesteloot : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des prosateurs, poetes et dramaturges noirs du xx e siecle) P. 21.

(١٣) —Lylian kesteloot : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des prosateurs, poetes et dramaturge noirs du XXe siecle) P. 75.

بنية اللغة الفرنسية حتى تستوعب أقساطا من الثقافة السوداء ، مما يعني عزوفهم عن كثير من القيم التعبيرية في اللغة الوسيطة الإجبارية ، و(ضمن هذا العزوف الذي هو تطلع إلى تحرير الأسلوب ، كان تطلع المجلة إلى تحرير الخيال والشخصية الزنوجيين)[١٤]. ونظرا للضغوط التي اعترضت « الدفاع المشروع » سواء من طرف غلاة الفرنسيين ، أم من طرف البورجوازية السوداء في الأنتيل لم تتمكن إلا من إصدار عدد واحد (يونيو ١٩٣٢) . ثم جاءت بعدها صحيفة « الطالب الأسود » التي طالت مدة صدورها بالمقارنة مع « الدفاع المشروع » ، إذا انطلقت في عام ١٩٣٤ لتتوقف عام ١٩٤٠ . ومرة أخرى نواجه تسمية لا تخلو من دلالة ، ففي الوقت الذي كان في الإمكان صوغ عناوين ذات إيحاء أدبي تعمد أصحابها تسميتها بـ « الطالب الأسود » كنوع من الإفصاح عن خطاب أدبي قادم إلى باريس من وراء البحار ، أبدعه مبدعون ينتمون إلى ثقافة تتحفز للأخذ بمصيرها . لقد تركزت جهود الصحيفة على إنضاج وعي أسود جماعي يوحد بين سود إفريقيا وسود الأنتيل داعية إلى التخلص من الأفكار القَبَلية والإقليمية ، وإلى تجنب الذوبان في الحضارة البيضاء ، وفي نفس الاتجاه (طالبت « الطالب الأسود » بالحرية الإبداعية للزنجي خارج كل تقليد غربي ، إلا أنها ذهبت بعيدا فعينت الوسيلة التي سيتمكن بها الأسود من تحقيق تحرره من أي احتواء : هذه الوسيلة تكمن في العودة إلى الينابيع الإفريقية)[١٥]، أي الرفض المطلق لأية رابطة مع الغرب من غير رابطة اللغة ، والتحرر من القيم والتقاليد الغربية فكان (من الحتمي أن يؤسس هذا الموقف القاعدة لثورة ثقافية أصيلة ، ومن هنا كان ميلاد حركة الزنوجة[١٦]، أما المبدعون الذين كانوا يسيرون الصحيفة فهم سنغور ، وسيزير ، وداماس ، ثم التحق بهم كل من ليونار سانت فيل ، وأرسطوتيد موجي ، وبيراجوديوب ، وأوسمان سوس ، والأخوين أشيل .

ولما اندلعت الحرب العالمية الثانية توقفت الصحيفة ، بسبب تشتت الملتفين حولها ، فقد انضم سنغور إلى الجيش الفرنسي والتحق بالجبهة ، أما سيزير فقد عاد إلى المارتينيك ليصدر مجلة باسم « مدارات » ، بحيث ستفرز هذه المجلة بعض الأسماء الثقافية اللامعة ومنها فرانزفانون ، وإدوار كليسان ، وروني دوبيستر ، وجورج ديسبورت بينما اختار داماس الصمت والانسحاب نتيجة متاعب سياسية . لكن الإحباطات التي تولدت عن اختفاء الصحيفة كمنبر حيوي للنخبة الثقافية الزنوجية بباريس سرعان ما تبددت ، وذلك إثر ظهور مجلة جديدة حملت إسما بليغا هو الآخر وهي مجلة « الحضور الإفريقي » التي ظهرت بفعل جهد ومثابرة رعيل آخر من المثقفين السود المتواجدين بباريس كالسينغالي أليون ديوب ، والغوادولوبيين بول نيجير ، وكي تيروليان ، والعاجي برنار داديي ، والداهوميين آبيثي وبيهانزان ، وأخيرا الملغاشي رابيمانانجرا .

وقد صدر العدد الأول من « الحضور الإفريقي » في يناير ١٩٤٧ ، بكل من باريس وداكار ، ثم تلته أعداد

---

(١٤) — **Abdallah Bensmain : (La notion d'engagement dans la nouvelle poesie negro-africaine) in**
مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس لسنتي ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ ، العددان الثاني والثالث ص ٤٧٨ .

(١٥) — **Lylian kesteloot : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des prosateurs, poetes et dramaturges noirs du XXe siecle) P. 79.**

(١٦) — **Abdallah Bensmain : (La notion d'engagement dans la nouvelle poesie negro-africaine). in**
مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس ـ لسنتي ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ العددان الثاني والثالث ، ص ٤٦٧ .

منتظمة تضمنت مواد ونصوصا تدور حول قضايا العالم الأسود وخاصة الثقافية منها ، وهكذا عالجت قضايا الآداب الشفوية ، والموسيقى الزنوجية الإفريقية - الأمريكية ، كالجاز مثلا ، كما لم تغفل إضاءة جوانب من الفلسفات الإفريقية ، وجوانب من المعتقدات لدى زنوج الأنتيل كالفودو الهايتي . ولم تكتف المجلة بإصدار أعدادها المنتظمة ، بل وازت ذلك بإصدار منشورات في مختلف الحقول الثقافية عرفت بـ (منشورات الحضور الإفريقي) . ومما لا شك فيه أن انضمام أسماء وازنة ، سواء من العالم الأسود ، أو من فرنسا ، إلى الأعضاء المؤسسين قد خدم تطور المجلة وذيوعها وسمعتها العالمية ، ومن بين هذه الأسماء سنغور ، وسيزير ، والأمريكي ريتشارد رايت ، والداهومي بول هازومي ، وسارتر ، وجيد ، ومونيي ، وبالانديي . كانت هذه إذن نظرة على ما دعوناه بالوسائط الفكرية والإعلامية التي اعتمدتها الحلقة الباريسية في إطلاق صيحة الزنوجة كعقيدة تتوخى توحيد العالم الأسود ، فآمو ، وبلايدن ، ودي بوا ، وأعضاء تيار « اليقظة الزنوجية » هم الذين أرسوا المقدمات الفكرية الأساسية لولادة الزنوجة ، في حين مثلت منابر « الدفاع المشروع » و « الطالب الأسود » و « الحضور الإفريقي » المجال الإعلامي الذي رعى الزنوجة ودعم حضورها وأمدها بأسماء مبدعة إضافية . ولنعد الآن إلى المفهوم في حد ذاته ، فقد قلنا سابقا إن الفضل في ابتكار كلمة الزنوجة يعود في المقام الأول إلى إيمي سيزير الذي أوردها في ديوانه (مذكرة عودة إلى بلدي) (١٩٣٩) ، ومن ثم شاع تداولها بين المثقفين السود ، وفي حلقات وكتابات المثقفين البيض ، (ووجدت جمهورها شيئا فشيئا خلال السنوات القليلة التي تلت ذلك التاريخ ، وخلقت حركة أدبية جديدة بين الزنوج الناطقين بالفرنسية)[١٧]، إن سيزير (« سيكتشف مهانته » حين كان بفرنسا يهيء شهادة الإجازة في الآداب)[١٨]، وإثر ذلك خاطب سنغور قائلا : (يجب علينا أن نثبت زنوجيتنا)[١٩].

كذا بدأت قصة الزنوجية ، لكن ماذا يعني أن يثبت سيزير وسنغور زنوجيتهما ؟ يعني أن يتشبثا بحضارتهما ، وأن يعكفا على تاريخهما ، وأن يتركا مسافة كافية بينهما وبين الحضارة البيضاء ، على أن ترك المسافة لا يشير إلى قطيعة نهائية بقدر ما يشير إلى ضمان تماسك الذات السوداء ، وتزويدها بالثقة في حضارتها وفي تاريخها ، ثم شحنها بروحيتها الجماعية لأن (البحث عن روح جماعية يعد أمرا معقولا ومقبولا عندما نتذكر بأن كلا من سنجور وسيزير وداماس لهم خلفياتهم المتباينة ، أتوا من جهات متفرقة من العالم ، وتتباين ظروفهم الاجتماعية ، لا يؤلف بينهم سوى لون جلودهم ويأسهم ، وربما الأصول المشتركة البعيدة ، ونظرا لأن حالتهم النفسية أو روحهم غير مستريحة فليس هناك أفضل من البحث عن روح جماعية)[٢٠]. وعليه فقد (تأمل ثالوث الزنوجة ذلك كله ثم انتهوا إلى أنهم رسل لبلادهم ، وأن عليهم إثبات حقهم في الحياة أولا ، ثم تحطيم خرافة « التفوق الأبيض » ثانيا ، ثم إنشاء أدب يحمل الحب والأمل للعالم ، ولو أدى ذلك إلى الاشتداد في استرداد وجههم المفقود الذي حاول المستعمرون طلاءه باللون الأبيض وتزييف أصالته)[٢١].

---

(١٧) جيرالدمور · (سبعة أدباء من إفريقيا) ترجمة : علي شلش ، ص ١٩ .

(١٨) —Frantz Fanon : (peau noire, masquesblancs) P. 156.

(١٩) —Stanislas Adolevi : (Negritude et negrologues) P. 16.

(٢٠) الدكتور محمد عبد الغني سعودي : (قضايا إفريقية) ص ٢١٢ .

(٢١) علي شلش (ألوان من الأدب الإفريقي) ، ص ١٣ .

بهذا يتجلى نوع التحليل الذي اتخذه الثلاثي المؤسس للزنوجة ، فهناك الإيمان بجدارة العالم الأسود وبجدارة حضارته وتاريخه ، وهناك أيضا إزماع ضمني على تفكيك إيديولوجيا الاسترقاق والاستعمار والميز العنصري ، التي اغتالت ثقة السود في جدارتهم بين الأمم والأجناس . إن الزنوجة أقرب إلى صرخة الوليد الذي يطل معلنا عن حياته بعد تعاقب ألوان من الموت المادي والنفسي ، حملتها عهود الاضطهاد الأبيض ، وهي أيضا سلاح واق من الاستتباع الحضاري ، ومن الإحساس بالدونية أمام النموذج الحضاري الغربي ، ولذلك التف الثلاثة حول أهمية تحويل الزنوجة إلى عقيدة لحماية الشخصية السوداء ، وتلافي الاختلافات الجغرافية والاجتماعية ، إذ أن ما يوجد بين السود هو لونهم وهويتهم المشتركة . ولنستمع إلى سيزير متحدثا عما يجمعه مع سنغور (إن ما يجمعنا هو الرفض المتصلب لأن نكون مستلبين ، لأن نفقد روابطنا ببلداننا ، وبشعوبنا ، وبلغاتنا)(٢٢)، إذن فقد أتى أوان تحطيم سلطة اللون ، من حيث كونها حاجزا أمام ملاقاة الشخصية السوداء لهويتها الحقيقية ، فاللون في نظر سنغور (أشبه بالسجن الذي يحجب حقيقة الشخصية)(٢٣)، أو كما يقول الكاتب الهايتي روني دوبيستر (لقد صُيِّرَ اللون حاجزا منيعا بين جنسي الأسود وما حققه في التاريخ)(٢٤).

لأول مرة عمت ، بفضل الزنوجة ، حساسية مشتركة بين المثقفين السود بباريس ، فاندثرت تلك الدعوات الإقليمية التي زكاها الاستعمار ، من مثال هذا سينغالي والآخر عاجي ، وهذا كاميروني والآخر ملغاشي ، وهذا أمريكي والآخر مارتينيكي ، لأول مرة توطدت عقيدة الانتماء الواحد والمصير الواحد . وتعد هذه العقيدة أحد أهم مكاسب الزنوجة ، إذ يسرت وحدة الصف إمكانية تأسيس خطاب فكري يهم جماع العالم الأسود ، في قضاياه المادية والروحية ، بقطع النظر عن عوامل اختلافه المصطنعة . وقبل الحديث عن مختلف المدارس الشعرية الزنوجية يخلق بنا أن نبسط القول في أبرز جوانب هذا الخطاب ، وأن نتناول أهم الإشكاليات التي استقطبت بال أصحابه ، إلا أننا سنركز أكثر ما يمكن على آراء سنغور باعتباره الناطق الرسمي باسم الزنوجة ، ويشفع له في هذه الحُظوة ألمعيته وغزارة كتاباته النظرية بالمقارنة مع رفاقه .

وربما اعتبرنا العلاقة مع الغرب أسخن جبهة واجهت الزنوجة ، سواء على مستوى المكتوب النظري أم على مستوى الإبداع الشعري ، لماذا هي أسخن جبهة على الإطلاق ؟ الغرب هو معقل أزمات الذات السوداء ، فالاصطدام بالغرب هو الذي أنشأ السؤال المركزي حول مصداقية الكلام عن حضارة سوداء لها القدرة على صيانة العالم الأسود من خطورة الهيمنة الثقافية البيضاء ، كما تستطيع إفحام أساليب التشكيك المنهجي للبيض في تاريخ السود وثقافتهم ، لذا انكبت الزنوجة على تحليل هذه الزاوية لأنها المدخل الرئيسي لمشروع الهوية الزنوجية وتصليب منطقه البنائي .

وهكذا شرعت الزنوجة في الحديث عن وجود حضارة سوداء ، وعن تلادة هذه الحضارة ، وعبقريتها ، بل وإخصابها لكثير من الحضارات الإنسانية ، وإن كان هناك شيء جدير بالذكر فهو الدور الذي مارسته كتابات

---

(٢٢) Aime cesaire, Negre rebelle) in (Le Monde de dimanche) No. 11463-dimanche 6 december 1981-P. 1. —

(٢٣) الدكتور محمد عبد الغني سعودي : (قضايا إفريقية) ص ٢١٢ .

(٢٤) روني دوبيستر : (الأسس الاجتماعية الثقافية لشخصيتنا) ، (الثقافة الإفريقية) ص ٣٠٠ .

بعض المثقفين الغربيين المتنورين فيما يخص إعادة تقييم الحضارة السوداء ، الأمر الذي فتح المجال أمام الاعتراف بتعددية حضارية ، بدلا من الفكرة القائلة بألا وجود لحضارات من غير حضارة الغرب . وإذن غدا من المشروع أن يشار ، وبشيء من الزهو ، إلى ما حققته الأمبراطوريات والممالك الإفريقية من إنجازات حضارية ، وذلك على أكثر من صعيد ، وفي هذا الإطار (نخرج بحقيقة وجود قديم جدا ، على بيدر متفرقات ، يمتد من النيل الأبيض حتى بحيرة تشاد ، هو وجود عناصر نموذجية ، من الحضارات العائدة إلى العصر الثاني الصحراوي وما يقابله قدما في مصر . وهذا ما يفسر ، على الأقل ، المشابهات المدهشة بين بعض مؤسسات مصر القديمة والعوائد الجارية عند سكان ضفاف النيل الأزرق اليوم)[٢٥]، ولعل هذا يذكرنا بالتشابه الكبير الذي كان بين الحضارة المروية[٢٦] والحضارة المصرية القديمة ، والأكثر من هذا يجوز أن نؤكد (أن المعركة الأكثر أهمية لعلم التاريخ الإفريقي المعاصر كانت ولا تزال هي معركة مصر القديمة ، التي اقترنت باسم السينغالي الشيخ أنتاديوب ، إذ تتعلق القضية بإسهام فائق في مجال المصريات ، والكيمياء ، والفيزياء النووية ، مثلما تتعلق بتحديد الصبغة « الزنوجية » لمصر الفرعونية[٢٧]) .

أما في القرون الوسطى فيمكن أن يشار إلى أمبراطوريات غانا والداهومي ومالي والكونغو . . . وإلى حضاراتها الباذخة ، وهو ما يدل على عبقرية العقل الزنوجي ، وقدرته على خلق أنماط عقائدية ، وسياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ، وفنية حملت سمات متميزة .

فقد عرفت المجتمعات الإفريقية فكرة الألوهية فأبدعت طقوسها التعبدية الخاصة ، بينما قام نظام الحكم لديها على قواعد وأصول تكشف عن غير قليل من الضبط والتنظيم ، وعلى صعيد الاقتصاد توصلت تلك المجتمعات إلى تحقيق حاجاتها الحيوية ، أما الفائض فكان يُسوَّق إن بالنقد أو بالمقايضة ، في حين لم تعرف المجتمعات المذكورة التفاوت الطبقي ، مادامت الحياة تقوم على أساس التعاضد والتكافل ، وهو ما دفع سنغور إلى الحديث عن اشتراكية إفريقية أصيلة . وعندما نتكلم عن الفنون فلا نعتقد أنه يمكن القفز على ما خلفه الفنانون السود من تحف وروائع ، خاصة في المعمار والنحت ، و (أقدم إنتاج فني إفريقي يصل إلى القرن الخامس قبل الميلاد (ثقافة نوك) ، ومع بداية العصر الميلادي يمكن معرفة الثقافة الزيمبابوية في القرن السادس الميلادي ، وكذلك ثقافة ساو SAO في القرن التاسع . وفي القرن الثالث عشر ظهرت الإمبراطوريات الإفريقية الكبيرة (اليوروبا وبنين) واعتبارا من القرن الخامس عشر ظهرت امبراطوريات الكونغو وداهومي . . . الخ وقد أنتجت هذه الممالك أعمالا فنية عديدة وهامة حتى القرن التاسع عشر أي عندما وصل الأوربيون ، ومنذ ذلك التاريخ بدأ الفن الإفريقي عملية التراجع)[٢٨]. والواقع أن (الفن الإفريقي يؤلف « حكمة مكتوبة »

---

(٢٥) دنيز يولم : (الحضارات الإفريقية) ترجمة : نسيم نصر ، ص ١٩٥ .

(٢٦) هي الحضارة التي كان يطلق عليها قدماء المصريين حضارة « تانهسو » التي تعني حضارة أرض السود ، والمروية نسبة إلى مروي مستقر تلك الحضارة في أقصى الجنوب من مصر ، وقد كشف المؤرخون عن تطابقات عدة بينها وبين الحضارة المصرية القديمة سواء على صعيد المعتقدات وبنيات الحكم أو على صعيد التقاليد والعمارة . . .

(٢٧) — **Elikia M'Bokolo : (L'histoire de l'afrique revue et corrigee par les africains) in (Magazine litteraire) No. 195-Mai 1983, P. 40.**

(٢٨) محمد عدنان مراد · (القارة الإفريقية أصولها وتاريخها وحضارتها) مجلة (الآداب الأجنبية) س ١١ العددان ٣٨ ـ ٣٩ شتاء ربيع ١٩٨٤ ص ٤١ ـ ٤٢

حقيقية ، تاريخا دون حوادث ، ذلك أننا نستطيع أن « نقرأ » عبر هذه الآثار تنظيم مجتمعاتها ، وتسلسلها ، وبنياتها السياسية ، لا نقرأ المعارك ، ولكن النظام السياسي ، ونظام النقود وما ينطوي عليه الاقتصاد من قيم أخلاقية عبر الكتل المنحوتة[٢٩]، التقنيات الزراعية ، الأعمال والأيام ، والألعاب ، والصيد والرقص) .

وعلى ضوء هذا فليس من المثير حقا أن ينبهر الفنانون الغربيون أمام القطع الفنية التي أبدعها الفنانون السود الفطريون ، وأن يعجبوا بالإمكانات الجمالية الهائلة التي ترشح بها الصور والمنحوتات الإفريقية (وهكذا قام الفنانون الأوربيون المعاصرون بكسر طوق التحديدات التي طالما وجهت الحركة الفنية في الرسم خلال العصور الماضية ليعتمدوا حرية التحرك والتعبير تماما كما فعل الفنان الإفريقي منذ آلاف السنين[٣٠]. وبدون مبالغة نستطيع القول بأن التكعيبية ، كاتجاه تشكيلي طليعي ، تدين بشكل أو بآخر ، للثروة الفنية الزنوجية ، ويظهر ذلك جليا في أعمال بابلو بيكاسو (١٨٨١ ـ ١٩٧٣م) ، وجورج براك (١٨٨٢ ـ ١٩٦٣م) ، وهنري ماتيس (١٨٦٩ ـ ١٩٥٤م) الذين افتتنوا (بالطبيعة المباشرة والمستقلة لهذه الأعمال وجنوحها نحو تبسيط الشكل)[٣١]، وفي ذات المنحى (نشر أبولينير بالاشتراك مع بول غليوم عام ١٩١٧ « المجموعة الأولى من التماثيل الزنجية » الأمر الذي دعم الحركة الرامية إلى الاعتراف بالفن الإفريقي الغريب ، المعروف « بفن البنتو »)[٣٢].

وعلى صعيد آخر استطاعت المخيلة السوداء أن تبدع في المجال الموسيقي ، وأن تبتكر آلاتها الموسيقية الخاصة التي أصبحت لها شهرة عالمية كالكورا والبلافون والطبل الإفريقي . ومما يلاحظ أن الموسيقى الزنوجية لم تكن تؤلف لمحض الطرب والترفيه بقدر ما كانت تتصل بالتقاليد والطقوس فهي (تقيم صلة على الصعيد الاجتماعي وتخاطبا بين الرجال والنساء في المجتمع الذي تمارس فيه . وعلى صعيد أرفع فإنها تقيم تخاطبا وصلة مع الآلهه وقوى الطبيعة)[٣٣]، ولعل الشاهد على أصالة وعمق وتعبيرية هذه الموسيقى ذيوعها العالمي ، عبر الجاز والراجتايم والبلوز والريكي ، وكذلك تأثيرها القوي على الصرعات الموسيقية الغربية كالروك والبوب .

وما ذكرناه بصدد هذه المجالات يمكن ذكره بصدد الملاحم ، والأساطير ، والحكايات الشعبية ، والأشعار الشفوية ، والمسرح البدائي ، وشخصية الراوي الجوال . . . وكمثال فقد (أصدر بليز ساندرارز عام ١٩٢١ « المختارات الزنجية » التي تضم بعض الأساطير المتعلقة بنشأة الكون وعددا من الحكايات العصرية)[٣٤].

كل هذا يفحم المقولة الأنثروبولوجية حول فقر الحضارة السوداء ، إن لم نقل النفي المطلق لوجودها ،

(٢٩) روجيه غارودي : (حوار الحضارات) ترجمة : الدكتور عادل العوا ، ص ١٥٤

(٣٠) (أثر الفن الإفريقي على الحركة التكعيبية الأوربية) ترجمة : ميسون أبو الحب ـ مجلة (آفاق عربية) س ٤ ، العدد ١١ ، تموز ١٩٧٩ ، ص ١٢٤ .

(٣١) حسين هداوي : (فن النحت الإفريقي) مجلة (فنون عربية) السنة الثانية ١٩٨٢ ، المجلد الثاني ، العدد ٦ ، ص ٤٠ .

(٣٢) خليل شطا . (الأدب الزنجي الإفريقي الحديث) مجلة (المعرفة) ـ س ٢٠ العدد ٢٣٥ ـ سبتمبر ١٩٨١ ، ص ٧٥ .

(٣٣) أولاولوا ميدايي : (مكانة الموسيقى التقليدية في المجتمع الإفريقي خصوصاً في نيجيريا) مجلة (الثقافة العربية) س ٩ ع ٨ ، أغسطس آب ١٩٨٢ ، ص ١٥٧ .

(٣٤) خليل شطا (الأدب الزنجي الإفريقي الحديث) مجلة (المعرفة) ـ س ٢٠ العدد ٢٣٥ ، سبتمبر ١٩٨١ ، ص ٧٥ .

ومادام الأمر كذلك فقد اقتنع المثقفون الزنوج بأهمية العودة إلى ماضيهم الحضاري وقراءته قراءة جديدة حتى تتاح لهم المباهاة بخصوصيتهم ، دونما مركبات ، وبهذا شعروا بأنهم يجرون من ورائهم تاريخا طمسته أو شوهته عهود من الهيمنة والاضطهاد . إن المطلوب هو بناء موقف جديد من النموذج الحضاري الغربي ، والتحرر من جاذبيته ، وبالتالي من مطلقيته ، أي تخليص الذات السوداء من انمساخها ومن ذوبانها الشائه في حضارة البيض . وبالمناسبة لابد أن نشير إلى عمق الأزمات النفسية التي استفحلت أعراضها في أنحاء كثيرة من العالم الأسود ، من جراء الانتقال من النمط الحياتي التقليدي إلى النمط الحياتي الحديث ، وعلى سبيل المثال جرى خلال عام ١٩٦١ بحث ميداني حول الأعراض النفسية بمنطقة أبيوكوتا بنيجيريا من قبل نفسانيين وأنثروبولوجيين من جامعة « كورنيل » فتوصلوا إلى أن (عدد الأعراض النفسية الفسيولوجية والأعراض العصابية التي وجدت بين سكان يوروبا أكثر من التي وجدت ين سكان شمال أمريكا)[٣٥].

ويعد هذا الانفصام من بين ما حفز الزنوجة على التنبيه إلى غنى الحضارة السوداء ، وإلى التمسك بقيمها ، وعدم الارتماء كليّة في حضارة البيض بما هي حضارة مفارقة للبيئة السوداء . وفي إطار إعادة التقييم الحضاري انساقت الزنوجة إلى مواقف استعلائية أحيانا ، صدرت عنها أفكار تؤيد تفوق الحضارة السوداء على نظيرتها البيضاء ، وتدعو البيض إلى الاستفادة من التراث الأسود ، (وعندما بدأت نظريات الزنوجة لأول مرة تأخذ شكلها في باريس في تلك الفترة كانت لها خصائص ثورية أول الأمر ، ثم اقتربت من كونها مذهبا للاستعلاء العنصري قد يتخذ موقفا مضادا ويمنع الاتصال والتكيف مع الفرنسيين . ولكن سرعان ما تعدلت هذه العوامل ، وعندما نشبت الحرب أو قبلها تحولت إلى مذهب يصلح للحوار مع الإدارة الاستعمارية)[٣٦]. وقد جاءت هذه الليونة مع التدرج الفكري والإيديولوجي الذي عرفته الزنوجة ، وبخاصة سنغور ، إذ سيبدأ الحديث عن نوع من الانفتاح على الحضارة الغربية ، والدعوة إلى تشييد حضارة ثنائية في تجاوز لكل عصبوية ولكل استعلاء حضاري ، (ويرجع فضل سنجور فيما كتبه وأخذ به دائما في أنه يعيد الرجل الأسود على كل المستويات إلى الجماعة الأساسية التي ينتمي إليها ثم يعطيه فرصة التفتح الكامل تجاه الحضارات المختلفة وخصوصا حضارة الرجل الأبيض الذي كان العدو الأول والذي أصبح أهم صديق)[٣٧].

أما الإشكالية الثانية التي عكفت عليها الزنوجة فهي الموقف من العقيدتين المسيحية والإسلامية ، والموقف في حد ذاته يعني المفاضلة بين العقائد الوثنية الزنوجية وبين ديانتين سماويتين ، وفي هذا الموضوع ترى الزنوجة بأن عقائد الأسلاف ليست بذلك الشكل الذي توجد عليه في الأدبيات الاستعمارية والكنسية والأنثروبولوجية ، أي كونها عقائد لا إيمانية يتبعها قوم يجب انتشالهم من كفرهم الفطري ، بل العكس ، لأن الزنوج يرون بأنهم مكتشفو فكرة الرب للإنسانية ، وعنهم أخذتها مصر القديمة ، لتنتقل إلى حضارات أخرى . فما يلوح مجرد ممارسة عقائدية وثنية يضمر تصورا يرى بأن هناك قوة إلهية مفارقة للبشر ، وبأنها تملك قدرات معجزة ، هذه القوة هي ما يعرف بـ « مونتو » ، وإن اتخذ أسماء متعددة

(٣٥) ب. س. لويد (إفريقيا في عصر التحول الاجتماعي) ترجمة : شوقي جلال ، ص ٢٧٠ .

(٣٦) الدكتور محمد عبد الغني سعودي : (قضايا إفريقية) ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٣٧) الدكتورة جوزين جودت عثمان : (مالرو ، سنجور وحضارة الإنسان) مجلة (عالم الفكر) المجلد الثامن - ع ٣ - أكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر ١٩٧٧ ، ص ٩٠ - ٩١

اختلفت باختلاف الجهات والمجتمعات الإفريقية ، فهو « الورمنو » عند اليوروبا بنيجيريا ، و« فارو » عند البامبارا بمالي ، و« منقو » في إفريقيا الشرقية ، وهو « أكزير » عند الإثيوبيين ، و« لقبا » في الداهومي ، و« اورمانكوما » عند الاكان في غانا .

ويقتضي الاعتقاد في فكرة الإله تلبية أوامره ، كالتقرب والتقوى وتكريم الموتى والتعاون والمحبة . . . ثم تجنب نواهيه التي هي نقائض هذه الأمور . ولا شك أن هذا ما تتضمنه الديانات السماوية ، مع مراعاة الاختلافات الواردة عند كل مقارنة ومن ثم (قبل الافريقيون المحدثون تعاليم محمد والمسيح لأنهم لم يروا في الذي سمعوه من أهل الديانتين جديدا جديرا بخلاف)[٣٨] . ومع ذلك (لم تدخل الديانتان الكبيرتان النفس الإفريقية بالسرعة التي يقول بها بعض الباحثين ، عشرة قرون الآن والإسلام يلتقط طريقه بالتجارة واللقاء المسالم أحيانا والحرب بعض الأحايين ، قرنان أو أكثر منذ جاءت المسيحية القارة ، ولكن قرابة سبعين مليون من الناس مازالوا على دين آبائهم[٣٩] .

فحسب الزنوجة ليس بوسع العالم الأسود أن يسقط من ذاكرته مختلف العذابات والمكابدات التي ابتلى بها بتزكية من الكنيسة ، وفي المقابل لا يمكن نسيان الدور الذي قام به المسلمون في تدشين عهد الاسترقاق بإفريقيا ، فالمسيحية (استعملت في كثير من الأحيان لتخديرهم وتعليمهم إدارة الخد الأيسر إذا ما صفع أحدهم على الخد الأيمن)[٤٠] ، بينما اقترن الإسلام بـ (كبرى المصائب . انه من التشاد حتى النيل كان صيد العبيد يجتاح كل السودان الأوسط)[٤١] ، وهي نفس الفكرة التي كان يرددها النخاسون البيض ، من كون المسلمين هم أول من استعبد السود . بعد هذا لنا أن نتصور إذن رد الفعل الذي سيكون للزنوجة من الديانتين معا ، قد نرجح لا محالة رد فعل يدعو إلى معاداة الديانتين والحذر من تعاليمهما ، بيد أن الأمر الواقع كان أكثر من أي رد فعل حاسم ، ونقصد بالأمر الواقع تغلغل المسيحية والإسلام في وجدان كثير من السود ، وهذا ما صبغ حضورهما بشيء غير قليل من المفارقة .

ففي حين يدعو بعض المثقفين الزنوج إلى استثمار قيمتي الأخوة والعدالة المسيحيتين وإدماجها في التراث العقائدي الزنوجي (لنلاحظ مدى المصداقية التي تغلف إيمان الزنوج المسيحيين في إفريقيا وأمريكا والأنتيل كموقف من تحريف المثل المسيحية ومن الاضطهاد الأبيض) ، نجد فئة أخرى منهم تناصر الإسلام كعقيدة مضادة لإيديولوجيا الاسترقاق والاستعمار والميز العنصري . وينبني هذا الطرح على وضعية الزنوج المسلمين بالولايات المتحدة ، فجماعة المسلمين أتباع الإيجا محمد تعطي للإسلام بعدا انتقاميا ، مما يجعله عقيدة ثأرية من مسيحية الأبيض المضطهد ، وبهذا اكتسى الإسلام (صبغة عنصرية غريبة عنه منافية لروحه ونصوصه . وقد أدرك الزعيم الزنجي الشهير

---

(٣٨) جمال محمد أحمد : (وجدان إفريقيا) ص ٢١ .

(٣٩) نفسه ، ص ٢٥ .

(٤٠) مدثر عبد الرحيم : (بين الأصالة والتبعية : تجربة الاستعمار وأنماط التحرر الثقافي في البلاد الأسيوية والإفريقية) ص ١٧ .

(٤١) دنيز بولم : (الحضارات الإفريقية) ترجمة : نسيم نصر ، ص ٨٣ ـ إشارة :

(أ) من المعلوم أن اليهودية لم تحقق انتشارا كبيراً كالذي حققته المسيحية والإسلام ، بحيث يعتبر معتنقوها قلة ، ويتمركزون في إثيوبيا ويعرفون بالفلاشا .

(ب) بصدد دور المسلمين في استبعاد الأفارقة نوضح أن إيرادنا لهذه الوجهة من النظر لا يعني تبنينا لها ، وإذا كان المسلمون قد اتخذوا بعض السود كعبيد فإنهم لم يسيئوا معاملتهم ، بل لقد وصل الكثير منهم ، في ظل الإسلام ، إلى مراتب سياسية سامية (كافور ، لؤلؤ ، المماليك . . .) وإلى مراتب علمية هامة (ياقوت) .

مالكم إكس خطأ ذلك الاتجاه وخطره فجاهد جهادا كبيرا لتصحيحه حتى استشهد مجاهدا في سبيل ذلك وفي سبيل تحرير الزنوج عامة)(٤٢).

لقد اعتبر قوامي نكروما التعددية العقائدية إحدى أزمات العالم الأسود باعتبارها معوقا حضاريا وعبثا تاريخيا ، (ولكي يبين جيدا فداحة هذه الأزمة قارنها نكروما بـ (الشيزوفرينا) ، فالتعددية إجمالا هي العدو)(٤٣). أما الكاتب السينيغالي مامادو ترور ديوب فقد عبر عن رفضه لما عده ديانات طارئة فقال (يمارس الأفارقة حاليا ديانات مستوردة وكل آلهة الأجداد ماتت تقريبا . أما أنا ، فإني أجاهر هنا معلنا : إن إلهي لا يزال أسود)(٤٤). لكن خارج هذين الموقفين اتخذت الزنوجة موقفا منفتحا لا يقفز على الأمر الواقع كما قلنا قبل قليل ، موقفا يرى أنه لا محيد عن التعددية العقائدية ، بعيدا عن أي تجاهل مجاني ، أو تنكر للتأثيرات الثقافية للمسيحية والإسلام في مناحٍ كثيرة من حياة السود .

فالمسيحية متواجدة في الممارسة السوداء كمعتقد وكثقافة ، وكذلك يحضر الإسلام ، سواء كسلوك إيماني أو كتجل ثقافي ، (وتشير بعض الأبحاث التي أجريت مؤخرا في الساحل الإفريقي الشرقي وبعض بلدان غرب إفريقيا كغانا وساحل العاج والسنغال وغيرها إلى أهمية الثقافة العربية الإسلامية)(٤٥).

لذلك وجدنا سنغور ، فضلا عن اعتناقه الكاثوليكية ، يدافع عن أطروحة تركيب التيارات العقائدية الثلاثة : التراث العقائدي الزنوجي والمسيحية والإسلام ، ضمن أخلاقية انفتاحية وتسامحية ، لما في هذا التركيب من نتائج إيجابية سيغتني بها المشروع الحضاري الأسود .

ويبقى أن نلفت الأنظار إلى أن هذه الأطروحة تستنسخ نفس الأطروحة السنغورية حول ضرورة الانفتاح على الحضارة الغربية لصالح تأسيس حضارة كونية جديدة .

إذا كان هذا ما طرحته الزنوجة بخصوص الإشكاليتين السالفتين فماذا يتعلق بمعالجتها للفكر الماركسي ؟ وهل كان للمثقفين الزنوج موقف تجاه نظرية علمية في تحليل التاريخ والاقتصاد والثقافة ؟ الحقيقة أن الماركسية استأثرت بحيز لا يستهان به من مساحة الفكر الزنوجي ، بحيث نوقشت جوانب عديدة من هذه النظرية ، مثلما نوقشت احتمالات إخضاعها لمهام محاربة الاسترقاق والاستعمار وتجاوز وضعية الاستيلاب ، وبالتالي لاستعادة الهوية الزنوجية .

إن ما تردد من أفكار ماركسية في إفريقيا الناطقة بالإنجليزية يعود في الأصل إلى المفكر الأنتيلي جورج بادمور الذي كان قد زار الاتحاد السوفياتي واطلع على التجربة السوفياتية في تطبيق أفكار ماركس وإنجلزولينين ، وقد أعجب بادمور بهذه التجربة فنتج عن ذلك تحمسه للماركسية ، وهو ما يعرب عنه قائلا (فمن الجوهري بالنسبة إلينا في إفريقيا أن نفهم أساليب الفلسفة الماركسية وأهدافها حتى نعرف ما قد نتمكن من

---

(٤٢) مدثر عبد الرحيم : (بين الأصالة والتبعية) تجربة الاستعمار وأنماط التحرر الثقافي في البلاد الأسيوية الإفريقية) ص١٨ .

(٤٣) Paulin J. Hountondji : (Sur la "philosophie africaine") P. 204.

(٤٤) ململدو ترورديوب : (الزنوج والعرب في مواجهة المستقبل) ترجمة : خليل فريجات ـ مجلة (الكاتب العربي) س ٢ ـ ع ٦ ـ ١٩٨٣ ، ص ٣٩ .

(٤٥) الدكتور ابراهيم الزين صغيرون : (لمحات تاريخية عن دور السودان والسودانيين في انتشار الإسلام في أوغندا) مجلة (آداب) كلية الآداب ـ جامعة الخرطوم ـ ع ٤ ـ ١٩٨١ ، ص ١٢٥ .

أن نقتبسه منها ونجعله يتلاءم مع حاجياتنا الاقتصادية والاجتماعية ، دون أن نقبله جملة كعقيدة)[٤٦].

إن بادمور باعتناقه الواعي للماركسية سيفتح الباب أمام مجموعة من المثقفين الزنوج الناطقين بالإنجليزية ، الذين أسعفهم تكوينهم الإنجليزي على الاطلاع على أفكاره للأخذ بها كأداة لتحليل بنيات المجتمعات التقليدية الإفريقية ، ومن هؤلاء قوامي نكروما ، وجوليوس نيريري . فكلاهما ينفي توفر تراكمات مادية ضخمة في المجتمعات التقليدية الإفريقية ، وكلاهما ينفي حصول أي شكل من أشكال الصراع الطبقي في تلك المجتمعات ، إذ طبعتها البساطة على المستوى الاقتصادي ، والتكافل على المستوى الاجتماعي ، ثم يؤكدان على تداخل البنيتين التحتية والفوقية في أنماط الحياة الإفريقية الأمر الذي يساعد على القول بتوصل السود إلى اشتراكية فطرية نتيجة أحوالهم الخاصة .

أما الناطقون بالفرنسية فقد تم تعرفهم على الماركسية في سياق احتكاكهم بالتيارات الفكرية المتعاقبة في فرنسا ، بحيث (وجد الإفريقيون المتحدثون بالفرنسية الفرصة لمعرفة الأفكار الماركسية عن كثب خلال أيام دراستهم في باريس)[٤٧]. وهكذا تحمس الشاعر إيتيين ليرو ، وهو أحد أعضاء جريدة « الطالب الأسود » للماركسية ومبادئها ، مدافعا عن استرفاد قيمها الفكرية والجمالية في الكتابة الشعرية الزنوجية ، في حين عارض تيار معين داخل هيئة « الطالب الأسود » هذا الحماس بدعوى أن الماركسية لا تبرح كونها جزءا من الثقافة البيضاء التي هي ثقافة هيمنية واضطهادية . فيما يخص إيمي سيزير فقد كان رأيه أن يؤخذ لا من الماركسية فقط ، وإنما من السريالية أيضا ، وذلك بمقدار ما يخدم قضية استعادة الهوية الزنوجية ، فهما في نظره تياران فكريان طليعيان يرفضان ، كالزنوجة ، منظومة القيم الاضطهادية في الثقافة البيضاء ، ويلتقيان معها في مناهضة الاستعماروالرأسمالية . . وسيصل الأمر بسيزير إلى أن يصبح عضوا قياديا بارزا في الفرع المارتينيكي للحزب الشيوعي الفرنسي . وإذا كان هذا شأن سيزير فإن زميله سنغور سيهتم هو الآخر بالماركسية ، على أن اهتمامه هذا أتى ضمن بحثه عن إمكانيات الأخذ من جميع التيارات الفكرية التي يمكن أن تخصب المشروع الحضاري الزنوجي ، لذا (ازداد تقييمه الدراسي لماركس عمقا من خلال نشاطه السياسي . بيد أن ما يجذبه من فكر ماركس هو الأفكار والقضايا الإنسانية التي طرحها ماركس قبل ١٨٤٨ ونعني بها القضايا الأخلاقية والتحرر الاقتصادي)[٤٨].

والخلاصة هي أن الزنوجة لم ترفض رفضا قاطعا الحوار مع النظرية الماركسية ، لأن كل المعطيات كانت تحث على هذا الحوار ، فمن جهة لقي كل من سنغور وسيزير وداماس وليرو في الحزب الشيوعي الفرنسي مساندا قويا لقضايا وتطلعات العالم الأسود ، كما وجدوا فيه خير مناصر لأحقية السود في الذود عن هويتهم ، ومن جهة أخرى لاحظ هؤلاء المثقفون أن الاتحاد السوفياتي يبقى أكثر انسجاما ، بالمقارنة مع الدول الغربية ، فيما يخص الموقف من المسألة الاستعمارية ، فلم يتورط السوفيات مثلا في احتلال إفريقيا ، ولم يتوانوا عن المطالبة باستقلال الأقطار الإفريقية ، وهذا ما زاد في

---

(٤٦) جورج بادمور : (دليل للاشتراكية الإفريقية) مجلة (الهلال) السنة ٧٣ ، العدد ٧ ـ ١ يوليه ١٩٦٥ ، ص ٩٢ .

(٤٧) ب س. لويد : إفريقيا في عصر التحول الاجتماعي) ترجمة : شوقي جلال ، ص ٣٠٠

(٤٨) ب. س. لويد : (أفريقيا في عصر التحول الاجتماعي) ترجمة : شوقي جلال ، ص ٣١٠ ، ٣١١ .

تلميع صورة الماركسية في الكتابات الزنوجية . وعلى صعيد آخر أبانت دراسات بادمور ونكروما ، التي وصلت أصداؤها حتما إلى الحلقة الباريسية ، عن تقارب ما بين الطابع المشاعي والمساواتي للحياة الإفريقية والمجتمع اللاتفاوتي في التصور الماركسي ، ومن هنا إلحاح الزنوجة على توافر تجسيدات اشتراكية في بنية المجتمعات الإفريقية التقليدية ، الأمر الذي يجعل من الاشتراكية أحد مكونات الحضارة السوداء ، ومن ثم فإن سنغور (جعل الاشتراكية الإفريقية القضية الرئيسية في كتاباته)[٤٩] طوال فترة الخمسينات .

إلا أن المعضلة الكبرى التي انتصبت أمام دعاة الزنوجة هي معضلة اللغة[٥٠]، فالمفترض أن يصل الفكر والإبداع الزنوجيان إلى الإنسان الأسود ، نظرا إلى أنه معني قبل غيره بهذا الفكر وبذلك الإبداع ، أي بخطاب يحمل رسالة البحث عن هوية مشتركة لعموم السود ، لكن الواقع شيء آخر ، بل مفارق ، فالمفكرون والمبدعون الزنوج إما يكتبون بالفرنسية ، أو بالإنجليزية ، أو بالإسبانية ، أو بالبرتغالية . فنحن إذن بإزاء وضع انفصامي مأزوم ، إذ يتم ذم الاسترقاق والاستعمار والميز العنصري ، كما يتم نقد الثقافة البيضاء ، وفي نفس الوقت تتم الكتابة عن هذه الأمور بلغات البيض ، وهي لغات لا يجوز ، بأي حال من الأحوال ، تنقية ذمتها من تورطها التاريخي في تدمير الهوية الزنوجية . إنه مأزق وأي مأزق ، ولو أن سارتر يحاول التأكيد على إيجابيته ، ففي رأيه تعتبر الكتابة بلغات المضطهِد نوعا من الانتقام التاريخي ، تمارسه الزنوجة داخل اللغات الغربية ، بحيث يعمد المفكرون والمبدعون الزنوج إلى تكسير قواعد هذه اللغات وتلويث صفائها ، مما ينتج لغات هجينة يتداخل في أحشائها المعجم الغربي والمعجم الزنوجي .

وإذا ما تجاوزنا هذا الرأي وجدنا قرائن عدة كلها تثبت بأن المعضلة اللغوية هي من الجذرية بمكان ، ولذلك كانت بالفعل مثار جدالات عميقة وصلت إلى حد التشكيك في مصداقية الحركة الزنوجية بنفسها ، (إذ يتوجه الأدباء الزنوج إلى جمهور ينتمي إلى حضارة سماعية ، مستخدمين كتابة يجهلها هذا الجمهور نفسه . ويبدو لأول وهلة أن الكتابة ليست هي التي كان ينبغي على الأدباء أن يستخدموها من أجل الوصول إلى جمهورهم الأمي ، وإنما الكلمة المنطوقة)[٥١]، وهذا يعني (أن الأدب الإفريقي في شكله المكتوب هو نتاج للحضارة الصناعية والبورجوازية ، وهو يجر خلفه فرضيات وحجج ولغة وإيديولوجيا الحضارة الثقافية الغربية[٥٢]. لذلك لا نبالغ إذا قلنا إن (مشكلة اللغة هي أخطر مشكلة تواجه هذا الأدب)[٥٣]، ومادام الأمر بهذه الكيفية نتساءل : أفللتغلب على هذا الإشكال يتحتم على الكتابة الزنوجية أن تكون باللغات الإفريقية

---

(٤٩) نفسه ، ص ٢٩٩ .

(٥٠) حقا إن من أعوص مشاكل الزنوجية كونها تتوجه بخطابها الأدبي خاصة إلى جمهور ذي ثقافة شفوية في الأصل ، وباستثناء المهمة اليسيرة التي يواجهها الشعراء والروائيون الزنوج الأمريكيون ، بسبب وجود جمهور قارئ ، يتمركز قراء الأدب الزنوجي في العواصم السياسية والاقتصادية للإفريقيا والأنتيل ، في حين تبقى أغلبية المعنيين بهذا الأدب كما مهملاً . لكن الأمية ليست وحدها المسؤولة عن هذا المأزق ، إذ هناك عوامل أخرى تحد من انتشار ما يكتبه الأدباء السود ، ومنها ضعف حركة النشر ، وإذا أخذنا الأدب الفرانكوفوني كمثال فسوف نجد بأن نسبة مهمة منه تطبع في داكار أو في باريس .
وقد ظهرت في الأعوام الأخيرة مراكز أخرى للطبع منها : ياوندي (المطبوعات الرئيسية) ، والزائير (المطبوعات الجامعية) ، وباماكو (المطبوعات الشعبية) ، وداكار (المطبوعات الإفريقية الجديدة) .

(٥١) ليلي كيموني : (الأدب والثقافة في إفريقيا) ترجمة : الطيب الرياحي ، مجلة (الأقلام) س ١٢ ـ ع ١٠ تموز ١٩٧٧ ، ص ٤٦ .

(٥٢) نفسه ، ص ٤٦ .

(٥٣) علي شلش : (في الأدب الإفريقي ومشكلاته) مجلة : (الأقلام) س ١٥ ـ ع ١ ـ تشرين الثاني ١٩٨٠ ، ص ١٢٣ .

العديدة ، مع ما يطرحه هذا الاختيار من مصاعب جمة ؟ وحتى تتضح جسامة هذا الاختيار يجب أن نعلم ، على سبيل التدليل ، مدى اختلاف العلماء (في تقدير عدد لغات القارة ، فمنهم من أحصاها بأكثر من ٧٠٠ لغة كسيتولي ، ومنهم من أضاف إلى الرقم ١٠٠ لغة أخرى كسليجمان ، ومنهم من خفضه إلى ٥٠٠ لغة كتيبل)(٥٤).

ثم نتساءل ثانية : كيف يجوز للنص الشعري مثلا أن يصون إبداعيته المحتومة في حالة ما إذا كتب بلغة محلية ؟؟ ألن يضطرنا إلى ترتيبه في خانة الأدب الشعبي ؟ وبالإضافة إلى هذا ألا يحق للقارىء الغربي أن يطلع على الإبداع الزنوجي ؟ وفي هذه الحالة كيف نبلغ إلى فهمه شعرا مكتوبا بإحدى اللغات الإفريقية ؟ هل يجب أن يكتب هذا الإبداع باللغات الغربية والإفريقية حتى يستجاب للجمهورين معا ؟ لكن ما جدوى الحديث ، ضمن هذه الثنائية اللغوية ، عن هوية زنوجية متماسكة ومقنعة ؟

من المحقق (أن آداب اللغات الإفريقية (الأمحاري ، السواحلي ، مالاكاشي ، والزولو وغيرها) تمتلك إمكانيات هائلة وآفاق إبداعية واسعة المدى ، لكن تطورها في أغلبية البلدان الإفريقية يجري في ظروف المعايشة مع الأدب القومي الذي ظهر سابقا باللغات الأوربية)(٥٥)، وكأمثلة في هذا الصدد (حدثت محاولات مختلفة لتدوين الأدب الإفريقي ، في شرق إفريقيا ، وأخذ بعض الأدباء يكتبون بلغاتهم المحلية ، كما فعل توماس مافولو الذي كتب بلغة السوتو ملحمة بعنوان « شاكا »)(٥٦)، وفي نفس الاتجاه (ترجم نيريري منذ أعوام يوليوس قيصر ، ويدير بالسواحلية الآن حكومة ودولة)(٥٧)، و (هناك كتاب سنغاليون ، منهم الروائي ، والشاعر ، وكاتب مسرحيات يصدر إنتاجهم في لغاتنا الست المحلية المختلفة)(٥٨).

وعلاوة على هذا هناك إبداعات لا تحصى كتبت بـ « الولوف » ، و « البامبارا » ، و « الكيكونغو » ، و « الايويندو » ، و « الباميليك » ، و « البُولو » . . . بل حتى قطب الزنوجية سنغور كتب بعض أشعاره « بالولوف » ، و « السيرير » ، وهما لغتان محليتان في السينغال ، وبالرغم من هذه الإنجازات تظل المعضلة قائمة مثلما يظل طموح تعميم هذا المسلك بعيدا عن التحقيق للعوائق التي أسلفناها .

لهذا استقر سنغور وأصحابه عند الاختيار الذي لا مناص منه مرحليا ألا وهو الكتابة باللغات الغربية ، في انتظار توفر إمكانية الكتابة باللغات الإفريقية لأن (الأدب الإفريقي بمقدوره أن يزدهر باستناده إلى اللغات الإفريقية المتعددة بوصفها لغات وطنية حقة)(٥٩). إن سنغور على وعي بضرورة هذا الاستناد (ويتمنى فقط أن يولد إلى جانب الأدب الإفريقي المكتوب بالفرنسية أدب باللغات الزنوجية ـ الإفريقية ، مثلما هو الشأن بالنسبة

---

(٥٤) نفسه ، ص ١٢٠ .

(٥٥) ميخائيل كودكا تتسيف : (الشعر الإفريقي دعوة إلى الإنسان) ترجمة : عقيل يحيى حسن ـ مجلة . (الأقلام) س ١٥ ـ ع ٩ ـ حزيران ١٩٨٠ ، ص ٩٤ .

(٥٦) خليل شطا : (الأدب الزنجي الإفريقي الحديث) مجلة (المعرفة) ، س ٢٠ ـ ع ٢٣٥ ـ سبتمبر ١٩٨١ ، ص ٧٦ .

(٥٧) جمال محمد أحمد : (وجدان إفريقيا) ، ص ٥٦ .

(٥٨) أمادولامين سال : (حول الهوية الثقافية ومشاكلها) ترجمة : خليل فريجات ، مجلة (الكاتب العربي) س ٢ ـ ع ٦ ، ١٩٨٣ ، ص ٤٤ .

(٥٩) ميشال سليمان : (أدب يلتهب في القارة السوداء) مجلة : (الطريق) س ١٩ ـ ع ٤ ـ حزيران ١٩٦٠ ، ص ١٣ .

للعربية في إفريقيا الشمالية)(٦٠). على أن شاعرا ينتمي إلى الجيل الموالي لجيل سنغور ، وهو الكونغولي تشيكايا أوتامسي يقدم تحليلا منطقيا للمعضلة اللغوية ، وهو تحليل يختزل مناحي الجدال الذي دار بين دعاة الزنوجية . فبالنسبة إليه (إن الفرنسية تغدو بذلك الأداة المثلى للتعبير عن المتخيل ، والحلم أو المعيش)(٦١)، وقبل هذا (فأن أكتب بالفرنسية لم يكن بالنسبة لي ناتجا عن اختيار داخلي)(٦٢)، ثم إن القضية مفتعلة في جوهرها ، فليس المهم هو اللغة الوسيطة ، وإنما المهم هو (أن أحتفظ بثورتي لتراجيديات أخرى)(٦٣)، أي لقضايا ومشاغل أكثر جوهرية . إذن سواء أخذنا بهذه الوجهة أو تلك فإن (على الكتاب الزنوج أن يدونوا أعمالهم باللغة الفرنسية وتنشر في فرنسا ، وإلا فأين المعجبون بأعمال سيزير في جزر المارتينيك ؟ ومن الذي كان سنجور سيخاطبه في السنيغال ؟)(٦٤)، ونفس الشيء يصدق على من يكتبون باللغات الإنجليزية والإسبانية والبرتغالية ، إذ عليهم أن يدونوا مرحليا أعمالهم بهذه اللغات ، وإلا فأين يُعثر على قارئهم في نيجيريا وكوبا وأنغولا ؟ هذه أهم الإشكاليات التي تمحور حولها الخطاب الزنوجي ، هذا الخطاب الذي تبلور ضمن ملابسات تاريخية وثقافية شكلت السياق العام الذي أبدع داخله الشعراء الزنوج الأفارقة ـ الأمريكيون شعرهم ، ولنا الآن أن نروم هذا الشعر لنستعرض ألمع رموزه وأبرز قضاياه وموضوعاته .

ومقدما نسطر توضيحا مفاده أنه يلزم تجنب الاعتقاد بأن الشعر الزنوجي يمثل تجربة شعرية واحدة ، فهو على العكس من هذا ، إنه مجموعة تجارب أو تيارات أو مدارس . فهناك الشعر الزنوجي الإفريقي ، وهناك الشعر الزنوجي الأمريكي ، ثم هناك الشعر الزنوجي الأنتيلي ، هذا إذا ما اتخذنا المعيار الجغرافي في التصنيف والتمييز ، أما إذا ما أخذنا بالمعيار اللغوي فإننا نجد أنفسنا حيال شعر مكتوب بالفرنسية ، وشعر زنوجي مكتوب بالإنجليزية ، وشعر زنوجي مكتوب بالإسبانية والبرتغالية ، مما يفيد وجود معيارين في التعامل مع الشعر الزنوجي وكلاهما معمول به من لدن الباحثين في هذا الشعر ، وإن كنا نلحظ رجحان المعيار اللغوي ، لذلك نقترح التوسط بالمعيار الأخير في تناولنا هذا عملا بما درجت عليه معظم الدراسات الزنوجية .

سوف نستهل حديثنا إذن بالشعر الزنوجي المكتوب بالفرنسية ، باعتباره الشعر الأكثر ذيوعا بالمقارنة مع ما كتب بالإنجليزية والإسبانية والبرتغالية ، إضافة إلى أن الشعراء الزنوج الذين يكتبون بالفرنسية تميزوا بخصوبة إبداعية ملفتة ، كما اقترن شعرهم بولادة الحركة الزنوجية ، إذ هم المؤسسون لركائزها ، لكن قبل أن نتناول مواصفات هذه المدرسة نورد ثلاث ملاحظات :

أ ـ يتركز هذا الشعر في منطقتين هما إفريقيا وجزر الأنتيل (المارتينيك ، هايتي ، الغواد ولوب)(٦٥)، وإذا كنا نلمس توازنا في الكم الإنتاجي بين شعراء إفريقيا وشعراء الأنتيل ، فإن ما نلمسه بخصوص إفريقيا يدل على تفاوت كبير بين الأقطار الإفريقية الناطقة

---

(٦٠) —(Pour la negritude) propos recueillis par michel pierre-in (Magazine litteraire) No. 195-Mai 1983 P. 31.

(٦١) —Michel pierre : (Ecrire envers et contre tout) in (Magazine litteraire) No. 195-Mai 1983-P. 16.

(٦٢) —Michel pierre : (Ecrire envers et contro tout) in (Magazine litteraire) No. 195-Mai 1983-P. 17.

(٦٣) —Ibd, P. 17.

(٦٤) الدكتور محمد عبد الغني سعودي : (قضايا إفريقية) ص ٢٠٢ .

(٦٥) على الرغم من أن غويانا الفرنسية لا تنتمي جغرافياً الى الأنتيل ، بحكم وقوعها في الجزء القاري من أمريكا الجنوبية ، فإننا لا نرى مانعاً في إلحاق شعرائها بالشعر الأنتيلي ، إذ أن عامل اللغة (الفرنسية) يجعل شعراءها أقرب إلى شعراء الأنتيل منهم إلى شعراء البرازيل أو الولايات المتحدة .

بالفرنسية . فالأقطار المعروفة بغزارة الإنتاج الشعري هي السينغال ، وساحل العاج ، والكونغو ، ومدغشقر ، بينما الأقطار الموسومة بشحها وقلة شعرائها فهي غينيا ، وجزيرة موريس ، أما الأقطار التي تبدو وكأنها تعاني نوعا من العقم الشعري فهي الغابون ، وفولتا العليا ، والتشاد . .

ب ـ لقد عرف هذا الشعر بدايته خلال الثلاثينات عبر نصوص أو مجموعات شعرية ، لكنه سيبلغ ومعه الزنوجية (أوجه إثر صدور أنطولوجيا الشعر الزنوجي والملغاشي الجديد المكتوب بالفرنسية لصاحبها سنغور عام ١٩٤٨)(٦٦)، والتي يمكن عدها (إعلانا رسميا لميلاد أدب زنوجي ـ إفريقي باللغة الفرنسية ، أدب راديكالي في مغايرته للأدب الفرنسي ، وبالتالي إعلانا لطلاق مع أوربا)(٦٧). هذه الأنطولوجيا سيكتب مقدمتها جان بول سارتر ، وإذا كنا على علم بتحرز سارتر من التقديم لأي مؤلف كان أمكننا إدراك قيمة هذه الالتفاتة من صاحب « الوجود والعدم » باعتباره أحد أعلام الثقافة الغربية . فهي تشكل ، بدون مواربة ، تعميدا للشعر الزنوجي وتعاطفا مع الزنوجية وضمانا لرواج الخطاب الزنوجي في المحافل الثقافية الغربية والعالمية .

جـ ـ لقد لقي هذا الشعر قبولا وتعاطفا دالين من طرف كتاب وشعراء فرنسيين فدافعوا عنه واعتبروه تيارا أساسيا في الشعر العالمي ، ومن هؤلاء كامو ، ومونيي ، وبروتون ، وأراغون . . .

وإذا ما حاولنا ضبط الدلالات المشتغلة في النصوص الشعرية للذين يكتبون بالفرنسية وجدناها لا تكاد تختلف في شيء عما مر بنا في شعر الفيتوري ، إذ تجثم دلالة الاسترقاق راسخة في جل النصوص ، وتستحوذ على مساحة وافية منها . فكلهم صوروا فصولا من مأساة العبودية التي ما انفكت ذيولها مترسبة في ذاكرة السود ، فتخيلوا مشاهد اصطياد أسلافهم ، واقتيادهم من الصحاري والسهوب والغابات الإفريقية ، ليشحنوا مغلولين إلى العالم الجديد ، تحملهم سفن النخاسين البيض ، وتخيلوا أيضا مشاهد ما بعد الوصول إلى العالم الجديد ، لما كان يوزع أسلافهم على مزارع البيض المتغطرسين ، وعلى مصانعهم ومرافقهم المختلفة ، فهم من صنع رفاهية أمريكا ، ومن ثم لا غرابة أن يربط هؤلاء الشعراء المعجزة المادية الأمريكية بمعاناة السود وبعذابهم التاريخي الرهيب .

ومن ناحية أخرى تزاوجت دلالة الاستعمار في شعرهم بنغمة من الإدانة والاحتجاج ، فأدانوا بشاعة الاستعمار واحتجوا على الممارسات الاستغلالية للبيض في إفريقيا والأنتيل ، أما دلالة الميز العنصري فإنها لم تتمظهر في شعرهم بنفس إلحاح الدلالتين السابقتين نظرا لخفة الميز العنصري في المستعمرات الفرنسية قياسا إلى وطأته في الولايات المتحدة وجنوب إفريقيا ، حقا إن هذه الدلالة ليست غائبة تماما من الشعر المكتوب بالفرنسية إلا أنها لا تحقق نفس الزخم التعبيري الذي نجدها عليه في الشعر المكتوب بالإنجليزية .

وفي موازاة هذه الدلالات نحتوا دلالات مضادة استطاعت أن تصوغ تلك الرجة التاريخية التي عرفها العالم الأسود وهو يتوخى استعادة هويته . وهكذا أصبحت دلالة الحرية ثابتا مركزيا في شعرهم ، وصارت

---

(٦٦) — Almut Nordmann : (La litterature Neo-africaines) P. 24.

(٦٧) — Lylian kesteloot : (Anthologie negro-africaine, panorama critique des prosateurs, poetes et dramaturges noirs du XXe siecle) P. 133.

الروح الثورية ملازمة لأكثر من نص ، فتغنوا بثوريين سود في هايتي كـ « توسان لوفيرتور » ، و« الملك كريستوف » ، وأشادوا بنضالات ثوريين أفارقة كـ « لومومبا » و« كينياتا » . . . . كما حرضوا الجموع السوداء على أن تثور على العبودية والاستعمار . أما الإنسان فإنه ارتسم في مخيلتهم كائنا أسود ذا ملامح متجذرة في تاريخ وهوية جديرين بالاعتبار ، أي في الحقيقة الإنسانية السوداء التي حجبتها مختلف أطوار العنف التاريخي الأبيض .

هكذا مجدوا الجسد الأسود وأعادوا إليه جدارته الجمالية والأخلاقية ، فـ (سنغور يؤكد دائما في شعره على الجمال الأسود)[٦٨] ، وفي معظم النصوص الشعرية يلوح الجسد الرجولي كبؤرة لطاقة ذكورية أسطورية هي مصدر قوة السود واحتمالهم ، أما الأنثى الزنجية فقد صارت أفروديت أو عشتار ، لها نفس بهائها وفتنتها .

لقد صاغوا الإنسان الأسود مزارعا لا يَكلّ ، وصيادا يغالب الضواري ، ومحاربا فحلا ونبيلا يحمي عشيرته ويستبسل من أجلها ، أي أنهم صاغوه إنسانا فعالا في محيطه الطبيعي والاجتماعي ، تأخذ تموضعاته المجالية بعدا جنسيا تمويهيا دالا يصب في الطقوسية الزنوجية ، فـ (الحرث ، والغرس ، والأكل ، معناه ممارسة الجنس مع الطبيعة)[٦٩] ، و(في أسطورة دوغون جعل الإله الواحد الأرض أنثى لما خلقها ، ثم تزوج بها لتوه)[٧٠] .

وصوروا الطقوس والأعراف ، فاستحضروا الكهان والعرافات والحكاة الجوالين بالتواريخ والحِكم وسير المشاهير من السود ، ونقلوا صخب الرقص الزنوجي وشعائرية الجذبة ، كما ألغوا الفواصل بين الأحياء والموتى انسجاما مع الفلسفة الزنوجية التي لا تفرق بين الحياة والموت ، إذ يستمر حضور الموتى عبر سلالتهم ، يشعون روحا إلهية قدسية ، (فهؤلاء الشعراء لا يميزون بين « الموتى » و« الأحياء » ، بين « الحياة » و« الوجود » . وبالنسبة إليهم فإن الموتى يحيون)[٧١] .

ثم غاصوا في أغوار الماضي فابتعثوا ذكريات الدول السوداء العظمى والجماعات العرقية ذات المآثر ، فقد نفضوا الغبار عن عظمة الممالك النوبية ، وإثيوبيا القديمة ، وأضاؤوا صفحات من أمجاد شعوب الزولو والبامبارا ، متحدثين عن شهامتها وعن نقائها الأخلاقي .

وعلى مستوى الفضاء جعلوا أشعارهم منطبعة بلونية الطبيعتين الإفريقية والأنتيلية ، في سحرهما البدائي ، وفي تلقائيتها البكر ، فخالطوا بين الكثافة التخييلية للنصوص وبين كثافة غابات الأبنوس ، ثم جعلوا هذه النصوص تهدر بهدير الشلالات الجبارة ، وتتشامخ بجلال الجبال المتطاولة ، وتنسرح انسراح الامتدادات الصحراوية ، حركوا في نسيجها أنهار إفريقيا والأنتيل ونضّروها بأعشاب السفانا ، وملأوها بأشكال ولغات الوحوش والطيور الاستوائية . . . هذا دون أن يغفلوا امتداح تلك الحميمية التي تشد الأسود إلى فضائه ، أو

---

(٦٨) الدكتور محمد عبد الغني سعودي : (قضايا إفريقية) ، ص ٢١٢ .

(٦٩) — Jean paul Sartre : (orphee noir) in (Anthologie de la nouvelle poesie negre et malgache de langue francaise) de leopold seder Senghor, P. 31.

(٧٠) — Janheinz jahn : (Muntu : l'homme africain et la culture neo-africaine) P. 116.

(٧١) — Ibd, P. 124.

يغفلوا التعبير عن مشاعر الحنين إلى إفريقيا الحالمة والوديعة ، وهو ما جعل سارتر يشبّه هذه المشاعر بتعلق « أورفيوس » « بيوريديسي » كما في الأسطورة الإغريقية . وإذا كانت نصوص كثيرة قد طغى عليها حس نرجسي حيال الذات السوداء وحيال فضائها وحضارتها فعادت الأبيض.وفضاءه وحضارته فإن نصوصا أخرى قد سيطر عليها حس غيري تحول معه الموقف الاستعدائي إلى موقف إنساني انفتاحي ليس نحو الأبيض فحسب ، بل ونحو الإنسان ككل .

تلك هي المشاغل الأساسية في الشعر الزنوجي المكتوب بالفرنسية ، وبذلك استطاع هذا الشعر أن يقنع بصدق انخراطه في التجربة التاريخية لعالم في طريقه إلى استرداد هويته ، وللإشارة فإن هذا الشعر بالذات هو الذي أرغم سارتر على تبديل رأيه في الشعر عموما . فنحن نعلم بأن سارتر سبق له أن نزع عن الشعر وظيفته الإلتزامية ، بدعوى أنه أحد أنماط الكتابة المجازية التي لا تسعف ، لتمويهيتها ، على تَبَيُّن مقصديتها الإنسانية والاجتماعية في حين يكشف الفن الروائي ، ككتابة انسيابية أو خطية ، عن التزامه بقضايا الإنسان والمجتمع ، إلا أن سارتر سيتخلص من هذا التحليل بعد أن توصل إلى أن الرؤية الأورفية وجه من وجوه الالتزام .

وعلى المستوى الشكلي نلاحظ بأن تبعية هذا الشعر للقواعد الشكلية في الشعر الفرنسي الكلاسيكي ، والرومانسي ، والبرناسي ، والسريالي ، لم تمنع الشعراء الزنوج الذين يكتبون بالفرنسية من تطعيم هذه القواعد بل وتطعيم اللغة الفرنسية بجمالية مستقاة من مختلف أنماط الثقافة الشفوية الزنوجية ، فوظفوا الملاحم والأساطير والأغاني والحكايات الشعبية ، وزاوجوا بين الموسيقى الشعرية الغربية وإيقاعية الموسيقى الزنوجية ، كما استعملوا التكرار ، بحيث تكثر الصيغ التكرارية ، حروفا وكلمات وتراكيب ، مما يخلق مضاعفات صوتية في النصوص . ولعل ما يميز الشعر الزنوجي عموما عن الشعر الغربي (أن الأول يجب أن يغنى أو بالأحرى أن يتلى بمصاحبة الموسيقى)[٧٢]، وبالرغم من الدرامية المجنحة لبعض النصوص ، فإن الغنائية هي الطابع الجوهري لأكثريتها ، وهذا يدل على استمرار نفس الروح التي طبعت الشعر الزنوجي الشفوي ، وإجمالا فإنه (شعر يتميز بالمكر والحيلة في استعمال الألفاظ والصور والأخيلة كما أن الموسيقى الإفريقية ذات الإيقاع الخاص قد أثرت في عروضه وفي أنغامه)[٧٣].

لكن هذه الجمالية سوف تجر مجموعة من الانتقادات والاعتراضات ، فقد نظر إليها البعض من زاوية (أنها الوسيلة الأكثر أمانا لفبركة شعر « فولكلوري » لن تستطيبه سوى المحافل التي يناقش فيها « الفن الزنوجي »[٧٤]، بينما يرى آخرون بـ (أن جمالية الزنوجة هي قبل كل شيء جمالية غرائبية)[٧٥].

وفيما يتعلق بالأسماء الشعرية البارزة في هذه المدرسة فهناك في الحقيقة أسماء كثيرة إلا أن أبرزها ، على الإطلاق ، اسمان هما سنغور وسيزير .

فسنغور شاعر قبل أن يكون رجل سياسة (رئيس للسينغال من عام ١٩٦٠ إلى عام ١٩٨٠ حيث استقال

---

(٧٢) —Almut Nordmann : (La litterature neo-africaine) P. 21.

(٧٣) لويس عوض : (الثورة والأدب) ، ص ٤٥٠ .

(٧٤) —Michle pierre : (Deux generations pour une litterature) in (Magazine litteraire) No. 195-Mai 1983-P. 29.

(٧٥) —Stanislas Adotevi : (Negritude et Negrologues) P. 17.

بمحض إرادته) ، ولعله أجدر الشعراء الزنوج الذين يكتبون بالفرنسية بالإمارة الشعرية ، عرف عنه أنه مكثر[٧٦]، إذ أصدر (أغاني الظل) ١٩٤٥ ، (القرابين السوداء) ١٩٤٨ ، (أغاني من أجل نابيت) ١٩٤٩ ، (إثيوبيات) ١٩٥٦ ، (ليليات) ١٩٦١ .

وشعر سنغور يمكن عده نوعا من التكريم للذات السوداء ولتاريخها ، إلا أنه يجسد في نفس الوقت منزعا تصالحيا مع الفكر المسيحي ومع الحضارة الغربية ، بمعنى أنه غير موقعه (من معارضة وعداء شديدين إلى هدوء وتقبل تام)[٧٧]. على أن ما يلفت في شعر الرجل هو إحساسه الكبير بالنبات وبالليل ، الأمر الذي صيرهما رمزين دالين في نصوصه ، فهو (يقرن دائما النبات بالمرأة وبتربة إفريقيا عامة في فكرة الخصوبة والإنجاب والتفتح)[٧٨]، مثلما (يجعل من الليل هيكلا وقاعدة لأشعاره ويؤكد ذلك مجموعته الشعرية التي تعرف بـ « ليليات »)[٧٩]. ومن حيث التقنية الشعرية يتراوح سنغور بين كلاسيكية كلوديل وسريالية سان جون بيرس ، ولو أنه أكثر إخلاصا للكلاسيكية ، وقد عمل على استرفاد الجمالية الزنوجية فتدثر شعره من جراء هذا بكثافة شفوية ملموسة أمده بها الشعر الشعبي الزنوجي .

ويقدم سيزير ، مثله مثل سنغور ، صورة للمبدع والسياسي كتقاطعين في شخصيته ، فهو معروف كشاعر وأيضا كمناضل في سبيل قضية الزنوج بجزيرة المارتينيك أحد الأقاليم الفرنسية فيما وراء البحار . إنه بحق الضمير الحي لإخوته والصوت الناطق بآلامهم ومطالبهم ، ومن دواوينه (مذكرة عودة إلى بلدي) ١٩٣٩ ، (الأسلحة الخارقة) ١٩٤٦ ، (شمس مبتورة الجيد) ١٩٤٨ ، (أغلال) ١٩٦٠ ، (مسح) ١٩٦١ ، (أنا الرقائقي) ١٩٨٢ ، هذا عدا كتبه ومقالاته الكثيرة[٨٠].

وتدور أشعار سيزير حول معاداة الاستعمار ، والاستغلال ، وتحقير السود ، كما تصور ماضي إفريقيا وصنائع إنسانها ، وتتغنى بالأماني التاريخية للسود في التحرر والانعتاق . فـ (بالنسبة إلى سيزير يجب على الشاعر أن يجد موهبة النبي الذي لا يقول ما هو كائن فقط ، بل وما يتحتم أن يكون)[٨١]، ويوضح انحيازه إلى جنسه قائلا عن نفسه وعن سنغور (إننا ناطقون بالفرنسية قبلتنا الثقافة الفرنسية ، لكن الأسلحة الخارقة نريد أن نضعها في خدمة شعوبنا)[٨٢]. لقد أدان الرأسمالية البيضاء ونظر إلى نضالية السود كجزء من الكفاح الأمم ضد الأجهزة الرأسمالية ، وبذلك فهو يلتقي مع أطروحة سارتر المعروفة في هذا الصدد ، وبموازاة ذلك أبان سيزير عن تعلقه القوي بالقيم الزنوجية رابطا إياها بالقيم الإنسانية التي يتوجب الدفاع عنها . ولا ريب أن قصيدته المطولة (مذكرة عودة إلى بلدي) هي النموذج الذي يستوفي جماع منازعه

(٧٦) من كتاباته النظرية : (ماذا يحمل الإنسان الأسود) ١٩٣٩ ، (روح الحضارة أو أوليات الثقافة الزنوجية ـ الإفريقية) ضمن مجلة (الحضور الإفريقي) يونيو ، نوفمبر ١٩٥٦ .

(٧٧) الدكتور محمد عبد الغني سعودي : (قضايا إفريقية) ص ٢٢١ .

(٧٨) الدكتورة جوزين جودت عثمان (مالرو) سنجور وحضارة الإنسان) مجلة (عالم الفكر) المجلد الثامن ، ع ٣ ، أكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر ١٩٧٧ ، ص ٧٨ .

(٧٩) حسن المنيعي · (الخرافة في الأدب الشعبي السنغالي ، « سنغور » و « ديوب ») مجلة (آفاق) س ١ ، ع ٣ ، جويي ، أوت ، سبتمبر ١٩٦٣ ، ص ٤٦ .

(٨٠) من بين ما كتب : (توسان لوفيرتور) ١٩٦٠ ، واراجيديات (وتكست الكلاب) ١٩٥٦ ، (الملك كريستوف) ١٩٦٤ ، (فصل في الكونغو) ١٩٦٥ ، (عاصفة) ١٩٦٩ .

(٨١) — Almut Nordmann : (La litterature neo-africaine) P. 18.

(٨٢) — (Aime cesaire, Negre rebelle) in (Le monde de dimanche) No. 11463-Dimanche 6 decembre 1981, P. 1.

وتصوراته ؛ وقد (أجمع النقاد على أن هذه القصيدة رئيسية بالنسبة إلى كل الأفارقة ورأوا فيها الظاهرة الثورية لقسم من العالم الثالث وهم الزنوج)[٨٣].

لقد قرأ سيزير لوتريامون ، ونوفاليس ، ورامبو ، وبروتون ، وأقام لغته الشعرية على تعقيد فني متطرف ، الشيء الذي جعل شعره الأكثر شائكية مقارنة مع باقي الشعر الزنوجي المكتوب بالفرنسية . فشعره يزاوج ، بذكاء ، بين التقنية الشعرية والحكائية في تراثه الزنوجي وبين التقنية الشعرية السريالية ، ومع (أن سيزير يرفض دائما الانتساب رسميا إلى جماعة بروتون)[٨٤]، فإن هذا الأخير عده في تقديمه لديوان (مذكرة عودة إلى بلدي) (طبعة بورداس ١٩٤٣) أكبر شاعر سريالي أسود[٨٥]، إذ أن هذا الديوان هو في الحقيقة قصيدة طويلة (فيها بدأ تجربته الطويلة التي قامت على التكنيك السريالي من أجل تشكيل اللغة الفرنسية تشكيلا جديدا)[٨٦]. وبصفة عامة يمكن أن نقول بأن شعر سيزير يتضمن (كل هاتيك العناصر الموجودة في كتابات الزنوج الكاريبيين ويغمسها في مفهوم الزنوجة المتفرد)[٨٧].

ومن غير سنغور أعطت السينغال شاعرين آخرين هما دافيد ديوب ، وبيراجو ديوب ، مثلما أعطت مدغشقر الشاعرين الكبيرين جان جوزيف رابير يفيلو ، وجاك رابيما ناجار ، اللذين بصما الشعر الزنوجي المكتوب بالفرنسية بكثير من موهبتهما وبكثير من الطوابع الفنية المستمدة من التراث الملغاشي ، وخاصة جانبه الأسطوري ، وهناك شاعر ملغاشي آخر هو فيلافيان رانيفو ، بيد أنه لا يرقى إلى شهرة الأولين . أما غويانا الفرنسية فإنها أهدت الشاعر ليون داماس[٨٨] الذي ارتبط اسمه بالزنوجة هو وزميلاه سنغور وسيزير . وفضلاً عن سيزير ظهرت في المارتنيك أسماء أخرى منها جيلبير كراتيان ، وإيتين ليرو ، بينما عرفت الغوادولوب بشاعريها كي تيروليان ، وبول نيجير . ومن هايتي نذكر أسماء كل من ليون لالو ، وجاك رومان ، وجان فرانسوا بريير ، وروني بيلانص ، وجان بابتيست ، وهي الأسماء التي اختطت للشعر الهايتي ملامحه الخاصة داخل المدرسة التي تكتب بالفرنسية . فقد أرفق هؤلاء الشعراء الذاتي بالموضوعي بحيث (إذا كان الشعر الهايتي يزخر بأغاني الحب ، فإنه وقف في جانبين أساسيين : أولهما معانقة الشاعر للوطن الأم . وثانيهما فضح التمييز العنصري)[٨٩]، ومن جهة ثانية فإنهم واظبوا على إحياء وتوظيف الطقوس الزنوجية ، كديانة القودو ، والتبشير بها كمعتقد بديل لمسيحية الأبيض .

هذه إذن نظرة عن الشعر الزنوجي المكتوب بالفرنسية وعن رموز الجيل الأول ، ذلك الجيل الذي أطلق صيحة الزنوجة وأرسى لها مرتكزاتها النظرية والإبداعية . وفي الستينات ستظهر أسماء من غير الأسماء التي ذكرنا ، وسيتشكل جيل جديد لم يعش نفس التجربة التاريخية التي عاشها الرواد ، وهذا يعني اختلاف المناظير بين

---

(٨٣) أحمد الطويلي : (إيمي سيزير شاعر الأصالة الزنجية والتحرر الإفريقي) مجلة : (الأقلام) س ١٣ ، ع ٧ ، نيسان ١٩٧٨ ، ص ٢٣ .

(٨٤) — Jerome garcin : (Aime Cesaire, le soleil du pays natal) in (les nouvelles litteraires) semaine du 25 Novembre au 1er Decembre 1981. No. 2863, P. 42.

(٨٥) وبعد مدة سيجعل بروتون هذه الإشادة مقتسمة بين سيزير والشاعر الزنوجي الأمريكي المعاصر تيد جونس .

(٨٦) جير الدمور : (سبعة أدباء من إفريقيا) ترجمة : علي شلش ، ص ٣١ .

(٨٧) نفسه ، ص ٣٠ .

(٨٨) من أهم أعماله الشعرية ديوان (الأصباغ) الصادر عن دار جاليمار عام ١٩٣٧ ، إلا أن السلطات الفرنسية كانت قد صادرته بدعوى معاداته للغرب .

(٨٩) حسن المنيعي : (نفحة من الشعر الهايتي) مجلة : (آفاق) س ٢ ، ع ٣ ، جويي ، أوت ، سبتمبر ١٩٦٤ ـ ص ٤٦ .

الجيلين ، كما يعني تباعدا ملموسا بينهما على مستوى مضامين وأشكال الكتابة الشعرية . لقد كان الجيل الأول مثلا مشغولا بالتعبير عن قضايا الاسترقاق والاستعمار والميز العنصري ، وبتمثل ثورات السود ونضالاتهم من أجل حريتهم وجدارتهم الإنسانية ، أما الجيل الثاني فإنه عايش قضايا وانشغالات طرحتها سنوات الاستقلال ، قضايا وانشغالات من قبيل البناء المجتمعي ، والصراع الطبقي ، والتقليد والحداثة . إن هذا التحول لا يدل في نظرنا على قطيعة ما ، ولكنه يشير إلى ما يمكن اعتباره إغناء وتنويعا لموضوعات الشعر الزنوجي ، ومن أبرز أسماء الجيل الثاني روني دوبيستر ، لامين دياكاتي ، إدوار كليسان ، تشيكايا أوتامسي ، إدوار مونيك ، (هؤلاء الشباب الذين سيأتون لإغناء الدم الجديد والفتي للزنوجة)(٩٠).

أما المدرسة التي يكتب أصحابها بالإنجليزية فهي تشمل شعراء الولايات المتحدة ، وشعراء جنوب إفريقيا ، سواء الذين يكتبون بالإنجليزية أو بالأفريكانية (لغة متصدرة عن الهولاندية) ، ثم شعراء المستعمرات البريطانية في إفريقيا .

ومن الأسماء الأساسية في الشعر الزنوجي الأمريكي الشاعر لانغستون هيوز ، فهو الأكثر شهرة بين رفاقه الأمريكيين بما كان له من نفوذ عليهم ، (إنه أحد الكبار بين الشعراء السود ، لأنه مبدع حقا سواء على صعيد الأسلوب أو على صعيد الموضوعات)(٩١). وقد ربطته مع سنغور وداماس علاقة حميمة ، فتعرفا على تصورات تيار « اليقظة الزنوجية » الذي أسهبنا القول فيه سابقا .

وإلى جانب لانغستون هيوز نجد الشاعر كونتي كولن الذي يعد الأكثر تعلقا بإفريقيا قياسا إلى الشعراء الزنوج الأمريكيين ، ثم هناك الشاعران ستير لنغ براون ، وجيمس ويلدرون . إن الشعر الزنوجي الأمريكي لا يكاد يختلف دلاليا في شيء عن نظيره المكتوب بالفرنسية ، ما عدا في تركيزه على دلالتي الاسترقاق والميز العنصري ، بالنظر إلى خصوصية الوضع الزنوجي في الولايات المتحدة ، ولعل هذه الخصوصية هي التي جعلت (أهم الموضوعات التي يتعرض لها الشعراء الزنوج هي فقدان الحرية ، وعار الرق ، والجوع ، ومحاولات الثورة ، وبؤس الرقيق ، وتمجيد العهد الثائر ، والكفاح من أجل تحرير العبيد ، وهي موضوعات جوهرها سياسي(٩٢). فالذاكرة السوداء الأمريكية لا يمكنها أن تنسى عذابات العبيد في الجنوب الأمريكي ، ومذلة الأحياء الهامشية في نيويورك وشيكاغو ، أو منع لوسي الطالبة الزنجية عن الالتحاق بجامعة ألاباما ، ومقتل القس الزنجي مارتن لوثر كينغ ، الذي تزعم حركة الدفاع عن الحقوق المدنية للزنوج الأمريكيين . ولذلك سيطرت على الشعر الزنوجي الأمريكي دلالتا الاسترقاق والميز العنصري ، كما امتلأ هذا الشعر بإدانة الشعراء الزنوج الأمريكيين لهاتين الممارستين من حيث كونهما تعبيرا عن أخلاقية همجية وتدميرية ، على أنهم لم يصلوا ، رغم الجروح والمهانات ، إلى حد الحقد على البيض ، (بل لقد بلغ ببعضهم الإنصاف درجة الاعتراف بما للجنس الأبيض من فضل عليهم)(٩٣). لكنهم جنحوا في المقابل إلى .

---

(٩٠) — Abdallah Bensmain : (La notion d'engagement dans la nouvelle poesio negro-africaine) in
مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس ـ ع الثاني والثالث لسنتي ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ ، ص ٤٧٣ .

(٩١) — Lylian kesteloot : (Anthologie negro-africaine, panarama critique des prosateurs, poetes et dramaturges noirs du XXe siecle) PP 21-22.

(٩٢) لويس عوض : (الثورة والأدب) ص ٤٥٤ .

الإعلاء من قدر الـذات السوداء ، فتسـاموا بـوسامـة الجسد الأسود ، وامتدحوا الشعر المجعد والمنفـوش . ومن زاويـة الشكل تـركوا عـلامات إرثهم الـزنـوجي منتصبة في بنية اللغـة الإنجليزيـة ، بحيث عملوا على تعنيفها بل تَزْنيجِهَا بما استوحوه من الأهازيج والمأثورات الـزنوجيـة ، وبما اقتـرضوه من مـوسيقى الجاز والبلوز والراجتايم ، الشيء الذي أعطى شعرهم مذاقا شائقا بين المدارس الشعرية الزنوجيـة . (إن شعر الـزنجية ينشر الفرح ولقد قال لوركا « وإن زنوج أمريكا يمثلون هناك أكبر حساسية ودقة لأنهم يأملون ، لأنهم يغنـون وكان بإمكانه أن يختصر وهو أمير الشعراء » إن الزنوج بعــاطفيتهم وحســاسيتهـم هم الـلذة الشــاعــريــة لأمريكا)[٩٤].

هذا وأعقب جيل « اليقظة الزنوجية » جيل جديد ، كالذي حدث في الشعر الزنوجي المكتوب بالفرنسية ، وقد ساوق هذا الجيل تطور مشاغـل وهموم السـود في الولايات المتحـدة ، فانتقـل الشعر من مسايرة شعـار الحقوق المدنية إلى التعبير عن تحسس الجماعة السوداء والهوية المفارقة ، أي من مـرحلة الشعور بـالانتماء إلى المجتمـع الأمـريكي إلى مـرحلة الانتـماء إلى الكليــة السوداء ، ومن بين ممثلي هذا الجيل راب براون ، كارل كارتر ، جاي رايت ، لاري نيل ، ماري إيفانز . .

وعلى أي ، ومهما يكن من تباين بين الشعراء الزنوج الذين يكتبون بالفرنسيـة ونظرائهم الأمـريكيين فـإنهم يلتقون على أكثر من صعيد ، مادام (الشيء الذي يربط بين هؤلاء الشعراء هو ذلك الوعي المذهل بأن الناس السود قصائد ، وأن كل الناس السود إفريقيون ، وأن القصيدة المطلقة هي التجلي الأدبي لإفـريقيا وشعـوبها اجتماعيا وسياسيا وأخلاقيا وروحيا)[٩٥].

وكالشعر الزنوجي الأمريكي يواجهنا الشعر الزنوجي في جنوب إفريقيا بلهجة الإدانة للميز العنصري ، لأننا لما نذكر جنوب إفريقيا فإننا نذكر إحدى قلاع البربرية المتبقية من عهود الظلام ، فضراوة حيـاة السود هنـاك تفوق كل التصورات الممكنة ، بحيث يحرمون ، وهم الأغلبية ، من حقوقهم الإنسانية ، ويمنعون ، وهم في وطنهم ، من حق الانتقـال والتجول وإلى جـانب هذا العـامل المشتـرك ـ نسبيا ، بـين الواقعـين الأمـريكي والجنـوب إفريقي ، هنـاك عامـل الاحتكـاك المبـاشـر بـالحضارة الغـربية في واجهتهـا الانفصـاميـة ، أي في مستـواها التكنـولوجي المتقـدم ومنظورهـا التحقيـري للإنسان المغاير ، ففي الولايات المتحدة أمكن لشعرائها الـزنوج أن يعـاينوا مـا تعنيه الحضـارة البيضـاء ، كـما استطاعوا استيعاب آليتها التدميرية عن قرب ، (وفي دولة متطورة صناعيا كجمهورية إفريقيا الجنوبية تركت عمليات التمدين المكثفة آثارهـا العميقة عـلى الإدراك السياسي للأفارقة وهذا بالتـالي حدد خـواص التفكير الفني حيث تضافرت وتفاعلت بشكل متبـادل المشكلة الإفريقية النموذجية مع وسائل كشفها الآتية من حضارة أخرى)[٩٦].

وهكذا تمحورت كل الأعمال الشعرية الزنوجية في جنوب إفريقيا ، المكتوبة بالإنجليزية والأفـريكانيـة ، حول الميز العنصري ومعاناة السود لمضاعفاته الجسدية

---

(٩٣) قاسم الزهيري : (نظرات في الفكر الزنجي) مجلة : (الثقافة المغربية) ع ٦ ـ ١٩٧٢ ، ص ٤٥ .

(٩٤) لأمين نيانغ : (الثقافة والشعر الزنجي الإفريقي عناصر بقاء حضارتنا) (الثقافة الإفريقية) ، ص ٣٥٨ .

(٩٥) أحمد مرسي : (مدخل إلى الشعر الأسود الأمريكي) ص ٥٧

(٩٦) د. أنشير يومين : (الأدب والصراع السياسي في جنوب إفريقيا) ترجمة ، وليد قارصلي ـ مجلة (الآداب الأجنبية) س ١١ ، العددان ٣٨ ـ ٣٩ ، شتاء وربيع ١٩٨٤ ، ص ١٢٢

والنفسية ، كما تمحورت أيضا حول معاداة الحضارة البيضاء وأخلاقيتها التدميرية ، وفي نفس الوقت طفحت هذه الأعمال بتطلعات السود إلى بناء جنوب إفريقيا متحررة من ربقة الميز والتهميش . وإذا علمنا مقدار القمع الذي يتعرض له الشعراء من قبل السلطات البيضاء أمكننا تقدير الوضعية الخانقة التي يكتب داخلها هؤلاء ، بحيث غالبا ما يكونون عرضة للاعتقال أو النفي أو الإعدام(٩٧)، ويعتبر الشعراء دنيس بروتوس ، ومازيسي كونيني ، وكوسموبيترس ، وبريتين بريتنباك(٩٨) أهم وجوه الشعر الزنوجي بجنوب إفريقيا .

أما من نيجيريا فيمكن أن نذكر مجموعة من الشعراء منهم دنيس أوسادباي ، وغابرييل أوكارا ، وجون بيبير كلارك ، وجوزيف كاريوكي ، ومن غانا نذكر الشاعرين ميكاييل ديانانج ، وكايبر منسا . وبالطبع فإن ما يصدق على الشعر الزنوجي الأمريكي وعلى الشعر الزنوجي الجنوب إفريقي يصدق كذلك على ما أبدعه الشعراء الزنوج النيجيريون والغانيون بشرط احتسابنا للحيثيات الخاصة بكل تجربة شعرية قطرية .

وفيما يتعلق بالشعر الزنوجي المكتوب بالإسبانية والبرتغالية فإنه يتمثل في النصوص الشعرية المنسوبة إلى الشعراء الزنوج في كوبا ، وفي المستعمرات البرتغالية بإفريقيا (أنغولا ، الموزمبيق ، غينيا بيساو) . وتندمج هذه المدرسة هي الأخرى في نفس الإطار العام للشعر الزنوجي الافريقي ـ الأمريكي سواء من الناحية الشكلية ، أو من الناحية الدلالية ، ولا يبعدها عن هذا الإطار سوى ما تعلق بالاعتبارات القطرية ، وبمقتضيات الأداة اللغوية . فلقد عرفت كوبا ، كجزر الأنتيل الأخرى ، استقدام جماعات من السود سخرت للعمل الشاق في مزارع قصب السكر التي تمتلكها الكمبرادورية الإسبانية ، وظل الاسترقاق قائما بكوبا إلى نهاية القرن الماضي . فانشحنت نفسية الزنوج الكوبيين بمرارات وجدت تجسيدها التعبيري في نصوص الشعراء الزنوج في كوبا ، وفي مقدمتهم الشاعر جوزيه زاكارياس طاليت والشاعر نيكولاكيين . وبخصوص هذا الأخير فقد عرفت عنه ميوله الشيوعية بالرغم من انتمائه إلى وسط بورجوازي ، وفي الوقت الذي انجرت فيه البورجوازية السوداء الكوبية إلى التقليد البئيس لنموذج الحياة الغربية رجع كيين إلى جذوره السوداء . ويدور شعره حول تصوير ظلامية عهد الاسترقاق ، وحول محن السود وآلامهم ، وحول شقاوتهم في مزارع قصب السكر ، كما يكشف شعره عن تمزق قاس للهوية ، إذ يجعلنا نشعر بالبعد الاسْتِعَارِي لهوية زنوج كوبا الذين انتزعوا من تاريخهم وثقافتهم الحقيقيين وأقحموا في مناخ تغريبي ، ومن الزاوية الشكلية ضَمَّن كيين نصوصه كثيرا من الأخيلة الزنوجية ، وطبع بأسلوبه الشخصي اللغة الشعرية الإسبانية ، إلا أن الشاعرية الكبيرة لكيين لم تعثر على من يطورها ويغنيها ، بالنظر إلى ندرة الشعراء الزنوج الكوبيين المبدعين باللغة الإسبانية .

وعلى العكس من هذه الندرة استطاعت اللغة البرتغالية أن تفرز عددا كبيرا من الشعراء الزنوج ، ممن أصبح لهم صيت داخل الشعر الزنوجي الإفريقي ـ الأمريكي ، ومن البديهي أن نستحضر في هذا المجال اسم الشاعرين الأنغوليين ، الرئيس الأنغولي الراحل أغوستينونيتو ، وأنطونيوجاستو ، والشعراء الموزمبيقيين المعروفين كالرئيس الموزمبيقي الراحل سامورا ماخيل ،

---

(٩٧) تلفت إلى مثال الشاعر بنيامين مولويزي الذي أعدمته سلطات بريتوريا يوم ١٨ أكتوبر ١٩٨٥ .

(٩٨) حوكم هذا الشاعر بتسع سنوات سجناً بسبب أشعاره ، وله ديوان (النار البادرة) الذي يعد من أبدع ما كتب في الشعر الزنوجي الجنوب الإفريقي .

وفالينتا جانغالانا ، ونعيمة ديسوزا ، ومارسيلينو دوس سانتوس ، بينما اشتهر من شعراء جزر الرأس الأخضر الشاعر أونيسيمو سيلفيرا .

ومن خلال قراءتنا لنصوص شعراء المستعمرات البرتغالية نلمس مدى الأولوية التي أعطاها هؤلاء للمسألة التحررية ، مما جعل شعرهم أقرب ما يكون إلى الشعر السياسي بمعناه النقدي ، ولعل هذا التميز راجع إلى تأخر استقلال بلدانهم بالنسبة إلى الأقطار الإفريقية الأخرى ، هذا إضافة إلى أن بلدانهم حصلت على حريتها توسلا بالكفاح المسلح ، بخلاف دول كالسنيغال وساحل العاج إذ حققتا استقلالهما سلميا . وإذن كان لابد أن يجد العنف الثوري صداه الطبيعي في نصوص شعراء المستعمرات البرتغالية وأن يقترن الإبداعي بالإيديولوجي في هذه النصوص ، وفي شخصية بعض الشعراء (مثال الرئيسين أغوستينونيتو وسامورا ماخيل) ، وبالتالي فـ (ليس من باب الصدف أن تصبح قصائد أغستينونيتو « نحن عائدون » و « البناء » أغاني حربية لفصائل تحرير أنغولا)[٩٩]. لكن خارج دلالتي الحرية والثورة التزم شعراء هذه المدرسة بتصوير بؤس السود ، وفضح آلية الاضطهاد الأبيض ، كما استعادوا ذكريات العبودية ، وإن كان الموزمبيقيون قد ركزوا أكثر على تصوير الطبيعة الخلابة لوطنهم ، وعلى معاناة المهاجرين من أبناء بلدهم إلى جنوب إفريقيا ، حيث يعملون في مناجم الذهب في ظروف لا إنسانية ، ملؤها الاستغلال والعنصرية .

إن الزنوجة كخطاب فكري شمولي كان لابد وأن تمتد آثارها إلى فعاليات ثقافية أخرى ، وأن تستحكم في بنياتها الشكلية والدلالية وفي بنيتها الرؤيوية . فالزنوجة لم تنحصر إذن في الحقل الشعري ، بل كان لها حضور وكانت لها تجليات في حقول أخرى كالرواية ، والقصة القصيره ، والمقالة ، والكتابة النظرية ، والمسرح ، والنحت ، والموسيقى والسينما . . . وإذا أخذنا الكتابة الروائية فسنلاحظ بأنها خلفت الهيمنة التي كانت للشعر على امتداد الثلاثينات والأربعينات والخمسينات ، وابتداء من الستينات سيصبح للروائيين الزنوج نفس النفوذ الذي كان للشعراء فيما قبل ، وبذلك صارت الرواية الزنوجية الحقل الأدبي الأكثر تمثيلا للخطاب الزنوجي ، والواقع أن الأسماء أكثر من أن تحصر ، ولذلك يمكن الاقتصار على بعضها على سبيل التدليل[١٠٠]. فمن الروائيين السينغاليين نذكر عبدولاي سادجي ، وسمبين عثمان ، والشيخ حاميدو كانْ ، ونذكر من ساحل العاج برنار داديي ، ومن الكونغو جان مالونغا ، ومن غينيا كامارا لاي ، ومن مالي سيدو باديان كويات ، ومن الداهومي أولمب بهيلي ، ومن جنوب إفريقيا بيتير أبراهامز ، وهوت شينستون . أما الروائيون المارتينيكيون فمنهم جوزيف زوبيل ، وإدوار كليسان ، ومن الهايتيين جاك ستيفن أليكسي ، ونبغ من غويانا الفرنسية الروائي الكبير روني ماران الذي حصل على جائزة كونكور الأدبية عام ١٩٢١ إثر صدور روايته (باتوالا) ، وقد بررت اللجنة منحه الجائزة بكونه أول روائي زنجي يتمكن من إنجاز رواية تعكس بوفاء الروح الزنوجية . وبخصوص الرواية الأمريكية نستعرض أسماء كل من شيستيرهايمز ، وريشارد رايت ، وجيمس بالدوين الذي تتميز أعماله بكتابة عنيفة متأججة ، أسلوبيا ومضمونيا ، ومنها رواية (النار في المرة القادمة) .

---

(٩٩) ميخائيل كود كانتسيف : (الشعر الإفريقي دعوة إلى الإنسان) ترجمة : عقيل يحيى حسن - مجلة (الأقلام) ، س ١٥ - ع ٩ - حزيران ١٩٨٠ ، ص ٩٨ .

(١٠٠) معظم هؤلاء الروائيين يمارس كتابة القصة القصيرة أيضاً .

وفي مجال المقالة والكتابة النظرية ، سبق أن أثبتنا بعض أعمال سنغور وسيزير ، إلا أننا نضيف أسماء أخرى كالمؤرخ السنيغالي أنتاديوب صاحب أكثر من مقال وكتاب حول التاريخ والحضارة الإفريقيين ، وكذلك الكاتب النيجيري آموس توتوولا ، والكاتب والسياسي الكيني جوموكينياتا الذي ألف كتاب (عند سفح جبل كينيا) ، الذي نشرت دارماسبيرو ترجمته الفرنسية ، وقد ساهم هذا الكتاب في تأسيس وعي زنوجي في إفريقيا الناطقة بالإنجليزية ، نظرا لما تضمنه من تحاليل لمسألة الاستعمار وليمكانيزم البنية القبلية في إفريقيا . وعلى غرار جوموكينياتا انشغل الرئيس الغاني الراحل قوامي نكروما بالقضايا الإفريقية ، فألف كتبا عديدة منها (الوعيوية) و (يجب على إفريقيا أن تتوحد) . على أن ألمع الكتاب الزنوج قاطبة هو المارتينيكي فرانز فانون ، ومن المعلوم أنه بدأ حياته العملية كطبيب نفساني ثم انتقل من المارتينيك إلى الجزائر كطبيب متطوع في جبهة التحرير الجزائرية قبيل الاستقلال ، وبعد هذه المرحلة عمل مستشارا للزعيم الكونغولي الراحل باتريس لومومبا . ومن مؤلفاته المعروفة (جلد أسود ، أقنعة بيضاء) الذي حلل فيه أصناف المركبات النفسية لدى زنوج المارتينيك كالانفصام والعصاب ، و (المعذبون في الأرض) الذي تناول فيه قضايا الاستعمار والثقافة والهوية في العالم الأسود وفي العالم الثالث عموماً .

وفي نفس السياق عمل المسرحيون الزنوج على أن يكون مسرحهم من صميم الثقافة الزنوجية ، أولا عن طريق كتابة نصوص تنصب على موضوعات لها علاقة ببيئتهم ، وثانيا عن طريق الاستناد على ما تتيحه هذه الثقافة من تقنيات وطرائق فرجوية ، ومن هنا استلهموا تقنية الراوي في الأدب الشعبي الإفريقي ، كما وظفوا الأشكال ما قبل المسرحية في تراثهم كـ « اليابيك » وغنائيات « مفت » و « ساتيريات » اليوروبا والزولو وامبونجي ، وبموازاة ذلك استثمروا طقوسية القناع والرقص والإيقاع ، وجعلوا الجمهور مندمجا في الفعل المسرحي . ومن المسرحيين الزنوج المعاصرين الكاتب الجنوب إفريقي أثول فوغارد ، صاحب مسرحية (عقدة الدم) التي تعالج إشكالية الهوية في مجتمعه ، والكاتبة الغانية إيفواتيودورا. سوثرلند ، صاحبة المسرحيتين (أنانس غورو) و (سوف تؤدي اليمين) ، وهما عملان ينمان عن ثقافة أسطورية واسعة لمؤلفتهما ، ثم الكاتب النيجيري وول سوينكا الذي ألف مسرحيات مغرقة في زنوجيتها ، ومنها (النسل القوي) و (سكان المستنقع) ، هذا دون أن ننسى إيمي سيزير في مسرحياته (مأساة الملك كريستوف) و (فصل في الكونغو) و (عاصفة) ، والمسرحي العاجي برنار داديي صاحب مسرحية (أسيميان دوثيل) .

ورغما من أن السينما الإفريقية فتية كسينما العالم الثالث فقد حاول السينمائيون الأفارقة وضعها في نفس الإطار الفكري والإبداعي الذي أطرت به الزنوجة مختلف الفعاليات الثقافية في العالم الأسود . فعلا إن السينما نتاج للحضارة البيضاء ، بيد أن هذه الحقيقة لم تعق توظيف تقنياتها وجماهيريتها بغاية تأسيس خطاب سينمائي زنوجي يوثق ويستقرىء الواقع الأسود ، في قضاياه وتحولاته وأسئلته ، لذا تحول مهرجان « أوغادوغو » السينمائي ، الذي ينعقد موسميا ببوركينا فاسو إلى فرصة للوقوف على إنجازات السينما الإفريقية ، وعلى مدى قدرتها التعبيرية عن نفس المشاغل الوجودية التي تضغط بثقلها على الشعراء والروائيين والمسرحيين الزنوج ، وإذا كان لنا أن نعين بعض أسماء السينما الإفريقية فلنذكر السينغالي سمبين

عثمان ، والمالي سليمان سيسي ، والنيجيري عمرو كندا ، والكاميروني ديكونغي بيبا .

وانخرطت الموسيقى الزنوجية هي الأخرى في ذات الهم الثقافي الشمولي ، فعكف الفنانون السود على صياغة أصوات وإيقاعات تعكس تلادة تلك الموسيقى وصميميتها ، كما تعكس خلفيتها الطقوسية ، وملازمتها للسلوك اليومي في حياة الأسود ، ومن هنا جاءت فرادة الإبداع الموسيقي الزنوجي واحتكاره للذوق العالمي . لقد ألمحنا فيما سلف إلى موسيقى الجاز والبلوز والراجتايم والريكي ، لكن علينا أن نلمح إلى بعض مشاهير هذه الموسيقى كمجموعة توري كوندا السينغالية ، والمغنية الجنوب إفريقية مريام ماكيبا ، والفنانين الزنوج الأمريكيين من أمثال جوناه جونز ، ولويس أرمسترونغ ، وراي براون ، ونيناسيمون .

وإذا كان هذا شأن الحقول الثقافية التي مرت بنا فيكفينا ، فيما يخص النحت ، أن نشير إلى أن أصالة ما يبدعه النحاتون الزنوج هي التي أتاحت ، مثلا ، لمنحوتات النحات الملاوي وَازِي بأن تتصدر أروقة متحف الفن الحديث في نيويورك .

إن الزنوجة كحركة فكرية وإبداعية لم تكن لتكتفي بالإعلان عن نفسها عبر المكتوب النظري أو عبر الفعل الثقافي ، بل إنها سنت لنفسها تقاليد ، وخلقت قنوات ووسائل ما كان لها إلا أن تُرسِّم شرعيتها وأن تجذر حضورها كميثاق يجمع بين مثقفي العالم الأسود .

وهكذا ارتبطت الزنوجة بالمواسم الثقافية وبالمهرجانات والملتقيات التي كانت مناسبات للتداول في شؤون العالم الأسود ، واستعراض ما يزخر به العالم المذكور من أفكار وإبداعات وبالتالي مناسبات لإلفات العالم إلى الصوت الزنوجي ، إلى صوت هوية تمارس احتفالها الثقافي . كذا تركزت الأنظار على داكار عام ١٩٦٦ وهي تحتضن المهرجان الأول للثقافة السوداء ، وعلى الجزائر عام ١٩٦٩ وهي تؤم المهرجان الثاني ، وعلى لاجوس عام ١٩٧٧ وهي تستقبل المهرجان الثالث ، وبموازاة هذه الملتقيات انعقدت ملتقيات أخرى خاصة بالأدباء الأفارقة ، كملتقى باريس عام ١٩٥٦ وملتقى روما ١٩٥٩ .

وككل حركة فكرية وإبداعية مستجدة وطليعية لم يكن في وسع الزنوجة أن تمر في صمت ، وأن تضمن موقعها بين الحركات الفكرية العالمية دون إثارة ردود فعل مواكبة تتوزع بين التحمس لمبادئها وبين الاعتراض على هذه المبادىء تأسيسا على منطلقات وقناعات معينة ، لذلك نرى من المجدي التعرض لردود الفعل التي اعترضت على الزنوجة ورفضت تصوراتها المختلفة .

طبعا (لا أحد يستطيع أن ينكر الدور الهام الذي قامت به « الزنجية » كحركة أدبية منذ الثلاثينات الأولى من هذا القرن لتحقيق الذات الإفريقية ، والتعبير عن إرادة الوحدة لدى الزنوج)(١٠١)، على أن تحليلها لإشكاليات العالم الأسود أنتج أطروحات مضادة حاولت أن تجد في الكتابات النظرية لسنغور التي تبنتها الحلقة الباريسية وقطاع عريض من المثقفين السود ثغرات بغاية الكشف عن تناقضات الخطاب الزنوجي وتفككه بل وميتافيزيقيته ! فسنغور يرى مثلا (بأنه يصعب تصور كاتب زنوجي ـ إفريقي قد تساوره فكرة تجاهل الزنوجة أو التخلي عنها ، إذ ما قولنا في كاتب فرنسي قد يتخذ نفس الموقف من فرنسيته ؟ وفي كاتب إسباني أو أمريكي

---

(١٠١) حسن المنيعي : (نداء : نعيمة دي سوزا) (العلم الأسبوعي) س ٤ ـ ع ١٤٩ ـ الجمعة ٩ يونيو ١٩٧٢ ، ص ٣ .

ـ لاتيني بـإزاء إسبـانيتـه ؟ لا شـك أنكـم ستزدرونه ؟؟)[١٠٢].

هذا الطرح ربما تبدى تعميميا ومطلقيا ، لأنه يقفز على مجموعة عناصر ومعطيات تجعل من الخطاب الزنوجي خطابا نسبيا لا يجوز إمكانية انسحابه على كافة الزنوج . إن الزنوجة برأي المعترضين عليها قد ارتكبت أحد أخطائها الكبرى عندما تعاملت مع العالم الأسود ككتلة متجانسة لا تشوبها فوارق أو اختلافات ، بينما واقع الأمور يؤيد لا تجانس العالم الأسود ، فحقائق الجغرافيا والتاريخ والثقافة تتضمن تباعدات ، جوهرية أحيانا ، بين أجزاء هذا العالم ، وإذن فهو عالم ميتافيزيقي أكثر منه عالما معيشا وملموسا ، إذ (لا وجود لروح جوهرية سوداء . نعم إن العالم الأسود يبدي خصائص أصيلة جد ناشئة عن تاريخه وعن محيطه . إن العالم الأسود ينبع من الواقع أكثر من القياس والأخلاق ولا من الميتافيزيقا)[١٠٣].

فهل الخصائص التي تخص الأسود الذي يعيش في مجتمع متقدم تكنولوجيا كالولايات المتحدة فتشرب كيانه بفظاعات إيديولوجيا الاسترقاق والميز العنصري ، هذه الخصائص هل هي نفس ما ينطبق على الأسود الأنغولي الذي يعيش في مجتمع متخلف ، لكنه استطاع أن يخبر عمقيا ما يعنيه الاستعمار ، هل الأسود الكوبي أو المارتينيكي هو عين الأسود السينغالي أو الملغاشي ؟ إن الزنوجة (تجعل من الزنوج كائنات متماثلة في أي مكان وأي زمان)[١٠٤]، وهي بذلك تغض الطرف عن فوارق واختلافات ، تتلبس بأكثر من صعيد ، بين سود إفريقيا وسود الشتات من جهة ، وحتى فيما بين السود الأفارقة ، وفيما بين سود الشتات من جهة أخرى .

أما بصدد الأطروحة السنغورية حول الانفتاح على الغرب وإنشاء حضارة ثنائية (سوداء ـ بيضاء) ، فإن المعترضين على الزنوجة يرون في هذه الأطروحة دليلا على انفصام ثقافي محقق ، بحيث كيف تتكلم الزنوجة عن أصالة العالم الأسود كبديل لشرور المجتمع الغربي وتسعى في نفس الوقت إلى عقد صفقة حضارية مع البيض ، وخلق تعاقد مستحيل مع قيمهم المادية ، ومن ثم فإن (حلم سنغور في تشكيل ثقافة إفريقية لاتينية مثلا لا يعبر إلا عن الواقع الملموس للتبعية السياسية والاقتصادية والمفروض حسب تعبير « فانون » هو « طلاق » الغرب)[١٠٥].

فهذا الانفتاح إن هو إلا غطاء لتعالق تبعي مع الغرب قد تكون له عواقب أوخم حتى من الاستعمار الكلاسيكي . إن الفائدة التي ستجنيها الحضارة الغربية ستكون أكثر من فائدة الحضارة السوداء ، بفعل الطابع الهيمني للأولى ، ولهذا يبدو أن الزنوجة قد انجزت إلى نوع من التمركز الغريب في جاذبية النموذج الحضاري الغربي دونما وعي لنتائج هذا التمركز ، ومعنى هذا أننا حين نجردها من لونيتها السوداء تظهر قريبة من الصَّرْعَات الفكرية التوفيقية ، لأنها ضمن هذا الموقف الانفتاحي ، تتراءى مجرد خطاب إنساني مضبب سرعان ما تتكشف توفيقيته المهزورة لما نتبين تنابذ الروحية الزنوجية مع المادية الغربية .

---

(١٠٢) — (pour la negritude) propos recueillis par Michel pierre-in (Magazine litteraire) No. 195 Mai 1983-P. 31.

(١٠٣) جوزيف كيرزا ربو : (مواقف واقتراحات لثقافة إفريقية حديثة) (الثقافة الإفريقية) ص٤٠٨ .

(١٠٤) — Stanislas Adotevi : (Negritude et Negrologues) P. 45.

(١٠٥) من مداخلة عبد اللطيف اللعبي ضمن ندوة (الفكر في القرن العشرين) التي نظمها اتحاد كتاب المغرب ـ (العلم الأسبوعي) س ٢ ـ ع ٥٨ ـ الجمعة ١٣ مارس ١٩٧٠ ، ص٨ .

فهل يجوز ، والحالة هذه ، الإبقاء على البعد التحرري للحركة الزنوجية ، من حيث كونها حركة استهدفت تخليص العالم الأسود من مختلف أنماط تبعيته للغرب ؟ هنا يتكفل بالإجابة أحد المعترضين وهو الشاعر الكونغولي تشيكايا أوتامسي فيقول (كثيرا ما وضع علي السؤال التالي : « هل ترون بأن كتاب الزنوجة قد ساهموا في تحرر إفريقيا ؟ » وإذ يفاجئني هذا السؤال أجيب : « من المحقق أنهم أخفقوا لأن تحرر إفريقيا تم بشكل سيء »)[١٠٦].

لكن إذا كان البعض قد انتقد في الزنوجة موقفها الانفتاحي ، فإن آخرين قد ركزوا على الوجه الآخر من الزنوجة ، على مناداتها بالخصوصية والأصالة ، فاعتبروا هذه المناداة شوفينية صريحة تتنافى مع واقع القرن العشرين ، بل إن الزنوجة قد انحرفت عن الخط الذي كان عليها أن تتبعه ، وذلك عندما تحولت من مستوى رد الفعل المشروع تجاه إيديولوجيا الاسترقاق والاستعمار والميز العنصري ، إلى مستوى الموقف العصبوي المتطرف ، ومن الذين آخذوا عليها هذا الموقف الشاعر الملغاشي جاك رابيما نانجارا ، بحيث رفض ذلك الاقتران الميكانيكي بين الزنوجة واللون الأسود ، لأن الشرط اللوني قد يفضي إلى قطيعة مع المجموعات الإنسانية الأخرى .

وإضافة إلى ما سطرناه من اعتراضات ينطرح اعتراض آخر يمس هذه المرة الطابع النخبوي والثقافي للحركة الزنوجية ، فسنغور وسيزير وداماس أقرب إلى الأوساط الثقافية الغربية منهم إلى ملايين السود المعنيين بخطابهم الفكري والإبداعي لأنهم قبل أي شيء نتاج للمشروع التنخيبي الثقافي للاستعمار ، فـ (المثقف الإفريقي المتكون في باريس أو لندن ينتمي - بعض الأحيان - إلى وسطه الثقافي بروابط خفية أكثر منه إلى مسقط رأسه)[١٠٧]، وماداموا يمثلون الشريحة المتنورة من البورجوازية الصغرى السوداء ، التي أفرزها المسلسل الاستعماري ، فإن النتيجة هي أن يتوزع ولاؤهم الإيديولوجي والفكري بين الغرب وبين العالم الأسود ، وحين كان المزارعون السود في إفريقيا والأنتيل يقاسون شظف العيش ووطأة الاستغلال في حقول الموز وقصب السكر (لم يكن هؤلاء الطلبة في السينغال أو في فولتا العليا ، لم يكونوا في فورفرانس ، وإنما كانوا في باريس ، على ضفاف السين)[١٠٨].

تلك إذن أهم الاعتراضات التي ووجهت بها الزنوجة ، أما إذا وددنا تحديد الجهة التي كانت أكثر مناهضة لمبادئها ، فإنها مثقفو إفريقيا الناطقة بالإنجليزية الذين كانوا (يرون فيها دعوة للرجوع إلى الوراء لا دعوة للبعث)[١٠٩]، لكن قبل بسط مرتكزات هذا الموقف يجدر بنا أن نشير مسبقا إلى أن أفكار سنغور لم تصل بسرعة إلى أولئك المثقفين بسبب العائق اللغوي ، وإذا أضفنا ازدراء الناطقين بالإنجليزية عموما لكل ما يتصل بالثقافة الفرنسية ، اتضحت لنا الملابسات التي رافقت المناهضة المتحدث عنها . فهذان العاملان وقفا حائلا بين سنغور وبين (تغلغل آرائه عن الشخصية الإفريقية في إفريقية البريطانية . ولم تصبح تعاليم سنغور مألوفة

---

(١٠٦) — (Tchicaya U Tam'si) propos recueillis par Denyse de saivre-in (Recherche, pedagogie et culture) paris AV-Juin 1982, P. 25.

(١٠٧) مالك بن نبي : (حول الثقافة) (الثقافة الإفريقية) ص ٣٩٧ .

(١٠٨) —Stanislas Adotaevi : (Negritude et Negrologues) P. 18.

(١٠٩) الدكتور محمد عبد الغني سعودي · (قضايا إفريقية) ص ٢٢٤

لدى الدول الناطقة باللغة الإنجليزية إلا الآن فقط ، بعد تنويه سيكوتوري المتكرر بأهمية الإفريقي كإنسان[١١٠] ويتصدر قائمة المناهضين للزنوجة في أفريقيا الناطقة بالإنجليزية الكاتب الجنوب إفريقي حزقيال مفاليل ، بحيث يتهمها بالتبسيطية ، والانتقاء ، والانفصام ، وبالبعد عن القضايا الجوهرية للسود ، فهي ـ في نظره ـ لم تفعل شيئا من غير أسطرة التاريخ الزنوجي والاتجار ببلاغة فولكلورية لا تعدم زبناء مغرضين في عواصم المتروبول ، بينما السود هم أحوج ما يكونون إلى خطاب واقعي كفيل باستيعاب أسئلتهم الواقعية .

إن المهمة الأكثر إلحاحا وراهنية عند حزقيال مفاليل كمواطن من جنوب إفريقيا ، وهي غير السنيغال ، هي مواجهة الميز العنصري مثلا ، ومساعدة السود على استرداد إنسانيتهم ، أما التلفع بخطاب مغرق في رومانسيته ويتعامل مع الأسود ككائن هلامي أو اغترابي فلا يتعدى كونه بذخا فكريا ممجوجا . والأكثر من هذا فإن حزقيال مفاليل يرى بأن الزنوجة تلتقي ، بصيغة أو بأخرى ، مع شعار صيانة الثقافة السوداء المرفوع من طرف بيض جنوب إفريقيا ، هذا الشعار الذي يستهدف إدامة وتثبيت النمط الحضاري الماضوي ، مما يسهل على البيض تأمين سيطرتهم على الجسد والعقل الأسودين ، و (من خلال هذا الوضع يبدو ذلك الشعار حاملا نفس المعنى الذي سيحمله « التعصب الزنجي » . ولهذا السبب بالذات أظهر أدباء جنوب إفريقيا ذوو الميول التقدمية ، أظهروا بشكل محدود عدم تأييدهم « للتعصب الزنجي » الذي يعزل الكتاب السود عن بقية العالم)[١١١]، على أن المثير في موقف حزقيال مفاليل من الزنجية هو أنه (رفضها في زمان كانت الزنجية تيارا يخيف من لا يسبح معه)[١١٢].

أما من نيجيريا فقد عارضها كل من الشاعر دنيس أوسادباي والكاتب المسرحي وول سوينكا ، إذ رفضا في الزنوجة ، كأغلب الناطقين بالإنجليزية ، انشدادها إلى (رؤى غزلية للمجتمعات ما قبل الاستعمارية . بينما هما يفضلان نظرة أكثر موضوعية ، وأكثر صفاء ، وأكثر بساطة إلى ذلك الماضي)[١١٣]، وفي هذا الإطار نظم أوسادباي قصائد تقدح في النزوع الماضوي للزنوجة ، وتستهجن نظرتها الأنثروبولوجية إلى ماضي السود ، ومن ذلك قوله :

فلنطرح بعيدا تلك التقاليد ولا نبق عليها
حتى لا نكون خير أطروفة
تلائم ذوق مؤرخ أبيض[١١٤].

وفي المقابل يقول وول سوينكا (لا أظن أن النمر يتجول معلنا نمورته)[١١٥] وهو يقصد أن الزنوجة ، كذات وروح وممارسة ورؤية ، ليست بحاجة إلى من يُنظِّر لها ، ويُقعِّد لتجسيداتها ، لأنها ببساطة معطى قائم في العالم الأسود ، وبالتالي فلا معنى لإثارة كل ذلك الضجيج النظري الذي أحدثته الحركة الزنوجية .

---

(١١٠) ك. مادهو بانيكار : (الثورة في أفريقية) ترجمة : روفائيل جريس مراجعة : محمد محمود الصياد ، ص ٧٥ .

(١١١) د. أ. تشير يومين : (الأدب والصراع السياسي في جنوب إفريقيا) ترجمة : وليد قارصلي ـ مجلة (الآداب الأجنبية) س ١١ ـ ع ٣٨ ـ ٣٩ ـ شتاء ربيع ١٩٨٤ ، ص ١٢١ .

(١١٢) جمال محمد أحمد : (وجدان إفريقيا) ص ٧٠ .

(١١٣) — (Impressions d'afrique) propos recueillis par Michel pierre in (Magazine litteraire) No. 195-Mai 1983-P. 36.

(١١٤) الدكتور محمد عبد الغني سعودي : (قضايا إفريقية) ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ ٧

(١١٥) نفسه ، ص ٢٢٨ .

ومهما كان حجم الاعتراضات التي طالت الزنوجة وأقطابها ، فإن الموضوعية تحتم علينا القول بأن سنغور لم يكن قط مؤمنا بكمال المبادىء والأفكار التي ضمنها كتاباته النظرية ، أي أنه لم يستبعد إمكانية الاجتهاد والإضافة والتطوير ، مما سيقي الزنوجة من الوقوع في الثبات والانغلاق والوثوقية . وقد قاسمه هذا الرأي عدد من المفكرين والمبدعين الزنوج من أمثال إيمي سيزير ، وفرانز فانون ، وسمبين عثمان ، ممن اقتنعوا (بأن الزنوجة محكومة بالتطور ، بحيث تمتلك بعدا تاريخيا لا تكتفي بتجليته ولكنها واعية به)(١١٦) .

ولعل الوعي بتاريخية الزنوجة هو الذي حدا بالجيل الثاني من المثقفين الزنوج إلى تجاوز ما اعتبر ثغرات داخل أطروحات سنغور ، إذ أن سنغور ركز ، في المقام الأول ، على إفريقيا في ظل الهيمنة الاستعمارية ، لكن (بازدياد موجة الحرية في إفريقيا قوة واندفاعا أخذت تتضح متناقضات مذهب الزنجية يوما بعد يوم)(١١٧) ، وأجلى هذه التناقضات عجز الزنوجة عن استيعاب قضايا ما بعد التحرر ، هذا ما يستدعي تطويرها والانتقال بها من نظرية سلفية إلى أداة فكرية قادرة على الانخراط في قضايا الساعة بالعالم الأسود . لذا ستتبلور زنوجة جديدة اختار لها دعاتها المقابل الفرنسي Negrisme بدلا من Negritude وستكون ولادتها في الكاميرون وليس في باريس ، أما (مبدعها فهو ج.م. أباندا الذي طرحها وأذاعها عام ١٩٦٦ وذلك لأول مرة)(١١٨) ، وتتحدد مرتكزات هذه النزعة في تفتح إنساني أكثر حيوية ، يستمد مصداقيته من المثل والتصورات الحقيقية في الثقافة الزنوجية ، وأيضا في خلق رؤية متحررة للإنسان وللحياة وللكون ، وفي تأسيس علائق إنسانية أكثر تنظيما .

لقد كان مرادنا من استعراض مختلف ردود الفعل التي ولدتها الزنوجة الإحاطة بالآثار والمضاعفات التي تركتها لدى الإنتلجنسيا الزنوجية ، والاطلاع على ما أفرزته من جدالات ساخنة في غالب الأحيان ، غير متوخين من وراء هذا الاستعراض إعلان انحيازنا إلى جهة من الجهات ، بيد أن الحياد إزاء مختلف الأطراف المعنية بالخطاب الزنوجي ، لا يمنعنا من صوغ أسئلتنا الخاصة ومن تعقب أجوبة مناسبة لها : (هل الزنوجة إذن حركة زائفة ومصطنعة ؟)(١١٩) ، هل هي منزع ثقافي استبد بالطليعة السوداء ؟ هل هي مجرد فولكلور بئيس لا علاقة له بالإشكاليات المطروحة في العالم الأسود ؟ قد تتوالد أسئلة كثيرة من هذا القبيل إلا أن الموضوعية تجنح بنا إلى القول بأن (هذا المنهج في التفكير أسهم ـ وما يزال ـ بنصيب لا يستهان به في التراث البشري)(١٢٠) ، كيف ذلك ؟ هنا يجب أن نعود إلى مبدأ نشوء الحركة . فالزنوجة أول ما ظهرت ظهرت كحساسية مشتركة بين كافة السود ، فهي الوليد الشرعي لمجمل المخاضات التي عاشها العالم الأسود ، مرورا بتجارب الاسترقاق ، والاستعمار والميز العنصري ووصولا إلى عهد الحرية وما طرحه من إعادة تقييم ، سواء للماضي الزنوجي ، أو للعلاقة مع

---

(١١٦) — Jean marie lemogodeuc : (Reflexions sur le concept de Negritude) in :
مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس ـ العددان الثاني والثالث لسنتي ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ ، ص ٥٣١ .

(١١٧) جير الدمور ـ أولي بيير : (الشعر الحديث في أفريقيا) ترجمة : عبد الرحمن صالح ـ مجلة : (الشعراء) ع ١٣ ـ س ٢ ـ يناير ١٩٦٥ ، ص ٣٨ .

(١١٨) — Jean marie Lemogodeuc : (Reflexions sur le concept de Negritude) in :
مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس ، ع ٢ و ٣ لسنتي ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ .

(١١٩) جير الدمور : (سبعة أدباء من إفريقيا) ترجمة ٠ علي شلش ، ص ٣٩ .

(١٢٠) قاسم الزهيري : (نظرات في الفكر الزنجي) مجلة : (الثقافة المغربية) ع ٦ ، ١٩٧٢ ، ص ٣٧ .

الأبيض ، أو للعلاقة مع الإنسان ككل . إنها بهذا خطاب للهوية ، للمغايرة ، ولأنها كذلك فلابد وأن تكتنفها تناقضات ومزالق من السهل التقاطها وترتيبها .
إن الزنوجة ، قبل أن تكون فعالية أدبية نشطت في الحقل الشعري أساسا ، هي صوت وصدى ، ومقاربة لإشكالية المصير المادي والروحي لجميع السود ، أو لنقل إنها رؤية الإنتلجنسيا الزنوجية للعالم . صحيح (أن عصرها الذهبي كان في الأربعينات والخمسينات ، أما بعد ذلك ، ومع دخول القارة عصر حريتها ، فقد بدأت في الانحسار شيئا فشيئا)[١٢١]، مما أفقدها الكثير من حرارتها وطليعيتها ، لكن مع ذلك فهي تجاوزت كونها ملكية ثقافية للسود وحدهم وأصبحت جزءا من الثقافة الإنسانية ، بل ومن التاريخ الإنساني . فنحن حين نذكر سنغور ، ونكروما ، وفانون ، فإننا نذكر شخصيات كونية أكثر منها زنوجية ، وعندما نستحضر واقعة دخول سنغور للأكاديمية الفرنسية[١٢٢]، فإننا نستحضر ضمنيا تحية تخص بها إحدى المؤسسات الثقافية العالمية العالم الأسود قاطبة ، وهذا شبيه ما حصل لما منح روني ماران جائزة كونكور عام ١٩٢١ عن روايته (باتوالا) ، فذلك تكريم للزنوجة قبل أن يكون تكريما لشخص الكاتب . هل لنا أن نعرف بأن الأدب الزنوجي ، المكتوب بالفرنسية خاصة ، أصبح في السنوات الأخيرة أحد فروع الدراسة في الجامعات الأوربية والأمريكية ؟ هل لنا أن نذكر بالنفوذ الإعلامي الضخم الذي كان للمسلسل التليفزيوني (الجذور) ، المأخوذ من رواية تحمل نفس الإسم للروائي الزنوجي الأمريكي أليكس هيلي ؟ هل لنا أن ننسى التسمية التي تحملها إحدى الجامعات السوفياتية ، ألا وهي « جامعة » لومومبا للعالم الثالث » ؟ ثم هل لنا أن نتغافل عن حظوة علميين زنوجيين بجائزة نوبل للسلام ، أولهما الزعيم الزنوجي الأمريكي مارتن لوثر كينغ عام ١٩٦٤ ، وثانيهما القس الزنوجي الجنوب إفريقي ديسموندتوتو عام ١٩٨٤ ، إضافة إلى حصول المناضل الزنوجي الجنوب إفريقي نلسون مانديلا على جائزة العالم الثالث لعام ١٩٨٥ .

جميع ما أوردناه يدل على المكانة التي صار يحتلها العالم الأسود في الوجدان العالمي ، وبدون الحركة الزنوجية ، ما كان لهذا العالم أن يحقق سمعته الكونية . وإذا كانت هذه الحركة قد بدأت على شكل ثرثرة ثقافية بين سنغور وسيزير وداماس خلال مقامهم الطلابي بباريس الثلاثينات ، إذا كانت هذه بدايتها فإنها غدت مع مرور السنين خطابا متماسكا يقود مسار السود ويفرض على الآخرين التأمل الجدي في إيقاع هذا المسار ووجهة أصحابه .

***

(١٢١) علي شلش : (ألوان من الأدب الإفريقي) ص ١٣ ـ ١٤ .

(١٢٢) التحق سنغور بالأكاديمية الفرنسية يوم ٢ يونيو ١٩٨٣ ، إذ احتل مقعد المؤرخ دول فسيست هيريبوا ، وبذلك يعد أول زنوجي تستقبله هذه المؤسسة .

أشارات :

ـ هذه الدراسة تمثل فصلاً من رسالة جامعية عنوانها (النزعة الزنوجية في الشعر السوداني المعاصر : محمد مفتاح الفيتوري نموذجاً) تقدمنا بها لنيل دبلوم الدراسات العليا في الأدب الحديث ، أشرف عليها الدكتور محمد السرغيني ونوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس يوم ٢٠ ديسمبر ١٩٨٦ .
ـ رغماً من انتماء بريتين بريتنباك إلى عنصر الأفريكاتر يعده الباحثون واحدا من الشعراء الزنوج .
ـ لم نذكر حصول وول سوينكا على جائزة نوبل للآداب لعام ١٩٨٦ لأننا أنجزنا هذه الدراسة قبل حصوله عليها .

المراجع العربية :

ـ دنيز بولم . الحضارات الإفريقية ، ترجمة : نسيم نصر ، منشورات عويدات بيروت ـ باريس ، الطبعة الثانية ، غشت ١٩٧٨ .
ـ روجيه، غارودي : حوار الحضارات ، ترجمة : الدكتور عادل العوا ، منشورات عويدات ، بيروت ـ باريس ، الطبعة الأولى ، ابريل ١٩٧٨ .
ـ د. مادهو بانيكار : الثورة في إفريقية ، ترجمة : روفائيل جرجس ، مراجعة : محمد محمود الصياد ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ، ابريل ١٩٦٤ .
ـ جمال محمد أحمد : وجدان إفريقيا ، دار التأليف والترجمة والنشر ، جامعة الخرطوم ، الخرطوم ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٤ .
ـ مدثر عبد الرحيم : بين الأصالة والتبعية : تجربة الاستعمار وأنماط التحرر الثقافي في البلاد الأسيوية والإفريقية ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، الخرطوم ، الطبعة الأولى ١٩٧٨ .
ـ الدكتور محمد عبد الغني سعودي : إفريقية ، سلسلة عالم المعرفة ، ع ٣٤ ، الكويت ، أكتوبر ١٩٨٠ .
ـ ب. س. لويد : إفريقيا في عصر التحول الاجتماعي ، ترجمة : شوقي جلال سلسلة عالم المعرفة ، ع ٢٨ ، الكويت ، ابريل ١٩٨٠ .
ـ جماعة من الكتاب : الثقافة الإفريقية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ١٩٦٩ .
ـ جيرالد مور : سبعة أدباء من إفريقيا ، ترجمة : علي شلش ، كتاب الهلال ، ع ٣٢٨ ، يونيه ١٩٧٧ .
ـ علي شلش : ألوان من الأدب الإفريقي ، المكتبة الثقافية ، ع ٣٠٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤ .
ـ أحمد مرسي : مدخل إلى الشعر الأسود الأمريكي ، الموسوعة الصغيرة ، ع ٩٠ ، بغداد ، آذار ١٩٨١ .
ـ لويس عوض : الثورة والأدب ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ .
ـ مجلة (الثقافة المغربية) ، ع ٦ ، ١٩٧٢ .
ـ مجلة (كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس) ، ع ٢ ـ ٣ ، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ .
ـ مجلة (آفاق) س ١ ، ع ٣ ، جويي ـ أوت ـ سبتمبر ١٩٦٣ .
ـ مجلة (آفاق) س ٢ ، ع ٣ ، جويي ـ أوت ـ سبتمبر ١٩٦٤ .
ـ مجلة (عالم الفكر) م ٨ ، ع ٣ ، أكتوبر ـ نوفمبر ـ دجنبر ١٩٧٧ .
ـ مجلة (آداب) ع ٤ ، ١٩٨١ .
ـ مجلة (الكاتب العربي) ص ٢ ، ع ٦ ، ١٩٨٣ .
ـ مجلة (الهلال) س ٧٣ ، ع ٧ ، ١ يوليه ١٩٦٥ .
ـ مجلة (الطريق) س ١٩ ، ع ٤ ، حزيران ١٩٦٠ .
ـ مجلة (الشعر) س ٢ ، ع ١٣ ، يناير ١٩٦٥ .
ـ مجلة (الآداب الأجنبية) س ١١ ، ع ٣٨ ـ ٣٩ ، شتاء ـ ربيع ١٩٨٤ .
ـ مجلة (الثقافة العربية) س ٩ ، ع ٨ ، أغسطس ١٩٨٢ .
ـ مجلة (فنون عربية) م ٢ ، س ٢ ، ع ٦ ، ١٩٨٢ .
ـ مجلة آفاق عربية) س ٤ ، ع ١١ ، تموز ١٩٧٩ .
ـ مجلة (الأقلام) س ١٢ ، ع ١٠ ، تموز ١٩٧٧ .

- مجلة (الأقلام) س ١٣ ، ع ٧ ، نيسان ١٩٧٨ .
- مجلة (الأقلام) س ١٥ ، ع ١ ، تشرين الثاني ١٩٨٠ .
- مجلة (الأقلام) س ١٥ ، ع ٩ ، حزيران ١٩٨٠ .
- مجلة (المعرفة) س ٢٠ ، ع ٢٣٥ ، سبتمبر ١٩٨١ .
- جريدة (العلم) - الملحق الثقافي - س ٢ ، ع ٥٨ ، الرباط ، الجمعة ١٣ مارس ١٩٧٠ .
- جريدة (العلم) - الملحق الثقافي - س ٤ ، ع ١٤٩ ، الرباط ، الجمعة ٩ يونيو ١٩٧٢ .

المراجع الأجنبية :

— LUCIEN GOLDMANN : **marxisme et sciences humaines ed gallimard,** PARIS 1970.
— JANHEINZ JAHN : **muntu ; l'homme africain et la culture neo-africaine, traduit de l'allemand par brian de martinor,** ED DU SEUIL, PARIS 1961.
— PAULIN J. HOUN TON DJI : SUR LA "PHILOSOPHIE AFRICAINE" ED MASPERO, 1977.
— STANISLAS ADOTEVI : **negritude et negrologues,** COLL 10/18, PARIS 1972.
— FRANTZ FANON : **peau noir, masques** BLANCS, ED DU SEUIL, PARIS 1952.
— LEOPOLD SEDAR SENGHOR : **anthologie de la nouvelle poesie negre et malgache de langue francaise,** ED P.U.F, PARIS 1969.
— LYLIAN KESTELOOT : **anthologie negro-africaine :** PANORAMA CRITIQUE DES PROSATEURS, POETES ET DRAMATURGES NOIRS DU X X E SIECLE, ED MARABOUT UNIVERSITE, VERVIERS 1967.
— ALMUT NORDMANN-SEILER : **la litterature neo/africaine,** COLL QUE SAIS-JE ? NO. 1651, ED P.U. F, PARIS 1976.
— **magazine litteraire,** NO. 195, MAI 1983.
— **les nouvelles litteraires,** NO. 2863, DU 25 NOVEMBRE AU 1ER DECEMBRE 1981.
— **recherche, pedagogie et culture,** AV-JUIN 1982.
— **le monde de dimanche,** NO. 11463, 6 DECEMBRE 1981.

* * *

صَدر حَديثًا

اللغة العربية والحاسوب

تأليف : نبيل علي
عرض وتحليل : علي صبري فرغلي
الجامعة الأمريكية بالقاهرة

أهمية الموضوع :

لا يختلف المتتبعون للتطورات العلمية والتقنية والاقتصادية في النصف الثاني من القرن العشرين على أن العالم يشهد منذ سنوات قليلة ثورة علمية واقتصادية (فرغلي ١٩٨٨) لها أبعاد هائلة في شتى صور الحياة قد تقسم العالم الى مجموعتين : مجموعة منتجة فاعلة ومجموعة أو مجموعات هامشية تابعة (منصور ١٩٨٨) . واذا استمرت الأمور تسير بشكلها الذي تسير عليه ، فسنصل حتما الى الدور المخطط لنا وهو أن نكون من أبرز أعضاء المجموعة الهامشية التابعة . والبديل الوحيد لذلك هو أن يأخذ علماؤ نا وخبراؤ نا وقادتنا السياسيون والاجتماعيون المبادرة لاستيعاب المتغيرات الجديدة وأن نشترك في اثراء الثورة العلمية المعاصرة ، وأن نلونها ، اذا استطعنا ، بنظرتنا وإسهاماتنا

واللغة والحاسوب أحد المحاور الأساسية ، ان لم يكن المحور الأساسي ، للثورة العلمية المعاصرة . وقد تزامنت ثورة تشومسكي في علم اللغة (تشومسكي ١٩٥٧ ، ١٩٦٥) مع تطور الحاسوب في الخمسينيات والستينيات . وقد كان لعلم اللغة التوليدي انعكاسات بعيدة المدى في باقي العلوم الطبيعية والانسانية بما في ذلك علم الحاسوب .

وتمثل المعلومات المحور الاقتصادي في الثورة المعاصرة فقد تحولت السلع الاستراتيجية من المواد الخام والمصنعة الى السلع المعلوماتية (فرغلي ١٩٨٨) ، لا لقيمتها العلمية فحسب ، بل لكونها أداة الحصول على الثروة والقوة . وبدأت صناعة الأموال والاتصالات ، وتحول جزء كبير من الرأسمالية الصناعية الى الرأسمالية المعلوماتية .

واللغة هي الشكل الطبيعي الذي يستخدمه الانسان للتعبير عن الأفكار والمعلومات وهي أيضا وسيلة الانسان لاستمرار الحضارة فهي تمكنه من نقل المعلومات وحفظها وتوارثها جيلا بعد جيل . ولهذا اعتمد التقدم في عصر المعلومات بشكل أساسي على التحام اللغة بالحاسوب . وهذا هو موضوع الكتاب الذي قدمه الى المكتبة العربية نبيل علي ، وفيه دعوة جادة مخلصة لعلماء اللغة وعلماء الحاسوب العرب أن يضعوا أيديهم معا من أجل وضع الحاسوب في خدمة الناطقين بالضاد ليتمكنوا من الاستفادة من هذه التقنية أسوة بمتكلمي اللغة الانجليزية واللغات الأخرى .

أهمية الكتاب :

وقد بدأ ظهور الكتب باللغة الانجليزية التي تعالج العلاقة بين اللغة والحاسوب في أوائل الخمسينيات (Weaver 1955) ، وظل الإسهام في قضية المعالجة الآلية للغة حجرا على الباحثين في الولايات المتحدة الأمريكية واليابان وغيرهما من الدول المتقدمة ، وتركزت أبحاثهم في تطويع الحاسوب لاستخدامه في جميع مجالات الحياة ليصبح أداة طيعة تضاعف من قدرات الانسان شأنه شأن الانجازات التقنية المختلفة في الفضاء والاتصالات والطب . . . الخ .

ويأتي كتاب اللغة العربية والحاسوب للدكتور نبيل علي أول محاولة جادة لمعالجة هذا الموضوع معالجة شاملة يطرح فيها قضية العلاقة بين اللغة العربية والحاسوب ويضعها في الاطار الصحيح في ظل ثورة المعلومات المعاصرة . وللدكتور نبيل علي فضل السبق والزيادة في هذا الموضوع .

المؤلف :

يتميز نبيل علي بأن له خبرة عملية وعلمية في مجال اللغة والحاسوب . فقد بدأ من الواقع أي من التجربة العملية لبناء البرامج ، ولما كانت له أهداف طموحة لتطوير برامج متقدمة للتحليل اللغوي ، فسرعان ما أدرك أن تحقيق ذلك يستحيل دون دراسة علم اللغة التوليدي دراسة جادة ، فترك عمله وتفرغ لمدة عام كامل بالولايات المتحدة الأمريكية ، لدراسة أحدث نظريات علم اللغة على أيدي منظريها . ويشهد هذا له بالجدية والقدرة على الدخول في أغوار علم جديد وتمثل تطبيقاته الأمر الذي قد ينقص بعض علماء اللغة عندنا للأسف الشديد . كما أنه أقام أكبر مركز لأبحاث اللسانيات الحاسوبية في الوطن العربي ، واستطاع أن يكوّن كفاءات عربية شابه ويؤهلها علميا وعمليا لتكون طليعة المتخصصين في مجال الحاسوب واللغة العربية على وجه الخصوص .

وتمكن هذه الخلفية نبيل علي من المساهمة الابداعية في حقل علم اللغة الحاسبي . يقول نبيل علي في مقدمة كتابه :

« تعكس الدراسة تجربة المؤلف الشخصية على مدى عشرين عاما في مجال العمل التطبيقي والنظري في حقل المعلوماتيات ، ادارة ، وتصميما وبحثا » .

الكتاب :

يقع الكتاب في ٥٩١ صفحة شاملا تسعة فصول بما في ذلك المقدمة والخاتمة ، وأربعة ملاحق . ويحدد المؤلف في المقدمة الدوافع الملحة التي تقف وراء البحث في اللغة العربية والحاسوب ، ويقسمها الى ظوافع تقنية كظهور الجيل الخامس من الحاسوب واختراع القارئة البصرية والتقدم التكنولوجي الهائل في السنوات الأخيرة ، ودوافع لغوية كقصور الدراسات اللغوية

الحديثة ومشاكل تعليم وتعلم اللغة العربية ودخول تطبيقات الحاسوب في مجالات العلوم الانسانية والاجتماعية ، ودوافع عامة وهي حث اللغويين والحاسوبيين العرب على بدء حوار يقضي الى تعاون ملح وضروري لمعالجة اللغة العربية آليا ، كما يطرح نبيل علي الأسس والمبادىء المنهجية في تناول الموضوع وهي مفهوم المنظمة لكل من اللغة والحاسوب ، اخضاع الحاسوب للغة لا العكس ، الأنحاء الكلية universal grammar وخصوصية اللغة العربية ، مقارنة العربية بالانجليزية وثنائية التحليل والتركيب من منظور التداخل بين اللغة والحاسوب والتركيز على الجانب التطبيقي .

ونعرض فيما يلي تلخيصا لكل فصل من الفصول السبعة الأساسية :

الفصل الأول : اللغة العربية من منظور الحاسوب (صفحة ٢١ - ٨٥)

يؤكد نبيل علي في هذا الفصل أن اللغة منظومة متسقة ، تقيدها الضوابط وتحكمها القواعد وتخضع للتنظير والتقعيد الدقيق وفي داخل منظومة اللغة هناك منظومات فرعية لها قوانينها الخاصة كما لها علاقات التأثير والتأثر بالمنظومات الأخرى لنفس اللغة . وهذه المنظومات تمثل للغويين مستويات التحليل المختلفة ، فاللغة يمكن تحليلها على مستويات عدة كالمستوى الصوتي أو الصرفي أو التراكيبي أو النحوي أو الدلالي أو المقامي ، وهناك علاقة تأثير وتأثر بين هذه المستويات المختلفة ، فالكثير من القواعد الصوتية مثلا تؤثر في الصرف ، كما أن الصرف يتأثر بالتراكيب ، ولا يمكن دراسة الدلالة بمعزل عن التراكيب وهكذا ، كما يبرز نبيل علي علاقة اللغة بالعلوم الأخرى تحت ما يسميه بالعلاقات الخارجية لمنظومة اللغة ، مثل علاقة اللغة بعلم وظائف الأعضاء وبالمخ البشري وعلاقة الأصوات وذبذباتها وانتقالها وتمثيلها بعلم الطبيعة ، وعلاقة اللغة بعلم النفس وعلاقتها بالثقافة .

ويعرض نبيل علي بعض الخصائص الكلية الموجودة في جميع اللغات كالخاصية الابداعية وما يسميه الاتساق والتماسك ويضع جدولا (جدول ١ : ٣ صفحة ٤٦ - ٤٧) يمثل عمومية بعض الظواهر اللغوية كالحذف والابدال والقلب . . . الخ ، وتطور اللغات بمرور الزمن ، فاللغة كائن حي ينمو ويتطور ويشيخ ويمكن أن يموت كاللغة اللاتينية والعبرية القديمة ولغات السكان الأصليين لأمريكا .

وينطلق نبيل علي من هذا الوصف العام لمستويات البحث اللغوي والخصائص العامة للغة الانسانية الى اللغة العربية ويحدد تصوره لمنظومة اللغة العربية ويعرض السمات المميزة للغة العربية كالتوسط بين لغات العالم في نظام الكتابة والنظام الصوتي وفي الحالات الاعرابية والصرف . كما تتسم اللغة العربية بحدة الخاصية الصرفية فالمعنى الدلالي للكلمات يرتبط في اللغة العربية بالسواكن الأصلية ، وهي السواكن المكونة للجذر ، ويشتق منها مئات الكلمات . كما تتميز العربية بالحرية النسبية لترتيب الكلمات فيمكن للفاعل أن يتقدم على الفعل ، كما يمكن للمفعول أيضا أن يتقدم على الفعل . . . وهكذا . وللعربية نظامها الصوتي الخاص كعدم السماح بصامتين متتالين في أول الكلمة وعدم السماح بأكثر من صامتين متتالين في المواقع الأخرى . وللكتابة العربية عدة نظم : كالكتابة المشكلة والمشكلة جزئيا وغير المشكلة . كما يعرض نبيل علي لمشكلة ثنائية الفصحى والعامية ويصفها بأنها وصلت الى درجة مفزعة . ثم يعرض لمسار تطور العلوم بشكل

عام ، وينطلق من ذلك الى تطور اللسانيات ويحدد لها سبع مراحل يضعها في شكل (١ : ٣) صفحة ٧٢ .

ويطرح المؤلف في هذا الفصل أيضا مشاكل تنظير اللغة العربية ومن أهمها غياب النظرة الشاملة للغة العربية ككل ، وفقر العربية في الدراسات المقارنة والتقابلية وإغفال الفكر العربي للنظرية التوليدية وطغيان الكتابة عن الجانب الصوتي ، وقصور النظرة الى المعجم رغم أهميته القصوى في علم اللغة الحديث . وينتهي الفصل ببعض التصورات والاقتراحات التي يقدمها المؤلف لتحديث النظرة الى منظومة اللغة العربية ، من أهمها تحليل اللغة العربية في إطار النظريات اللغوية المعاصرة وتحديث أساليب تعليم وتعلم اللغة العربية والتركيز على دراسة الدلالة واستخدام الحاسوب لخدمة اللغة العربية .

الفصل الثاني : منظومة الحاسوب من منظور اللغة العربية (صفحة ٨٧ - ١١١)

يعدد المؤلف في هذا الفصل السمات الأساسية التي تميز تطور الحاسوب في السنوات الأخيرة منها عمومية الاستخدام ، فقد دخل الحاسوب ومازال يدخل جميع مجالات الحياة وساعد على هذا مرونته الواضحة التي تسمح بتشكله كي يفي بالمطالب المختلفة للحياة العصرية فهو في البنوك مثلا يتابع حركة الأموال الداخلة والمنصرفة بدقة بالغة ، وفي شركات الطيران يسجل أسماء المسافرين وينظم كافة المعلومات الخاصة بالرحلات والمسافرين وجهات السفر . . . الخ ، وفي الفصول الدراسية يساعد الطلاب في استيعاب ومراجعة المادة العلمية ، وفي سفن الفضاء يقوم بالعمليات الحسابية البالغة التعقيد وينسق بين كافة الأجهزة العاملة في السفينة ، ومن هذه السمات أيضا أن تطور الحاسوب يسير في اتجاه الصغر المتناهي في الحجم مع النمو المتزايد في القدرة الحاسوبية والتخزينية للمعلومات . وينبه المؤلف الى أن الثورة الألكترونية والمعلوماتية المعاصرة تشكل تحديا قاسيا لدول العالم الثالث ، فهي تطرح إمكانات هائلة لحل مشاكل هذه الدول ، إلا أنها تهدد أيضا باتساع الفجوة القائمة فعلا بين العالم الصناعي والعالم الثالث .

ويحدد المؤلف العناصر الأربعة الأساسية في منظومة الحاسوب وهي العتاد hardware والبرمجيات software والتطبيقات applications والعنصر البشري . ويشرح بالتفصيل مكونات كل عنصر من هذه العناصر ، ثم يوضح اتجاهات تطور نظم الحاسوب والمعلومات ومن أهمها الانتقال من المعالجة المتلاحقة sequential processing الى المعالجة المتوازية parallel processing ولا شك أن عمل المخ الانساني أقرب للمعالجة المتوازية التي تسمح بمعالجة أنواع مختلفة من المعلومات في آن واحد مع امكانية الاستفادة من نتائج معالجة المعلومات الأخرى في نفس الوقت . وهناك أيضا الاتجاه الى التعامل بالرمز بدلا من الأرقام symbolic programming وتطوير لغات برمجة تقترب كثيرا من اللغات الطبيعية والتوجه لاستخدام تقنية الذكاء الاصطناعي بعد الاعتماد الكلي على البرمجة الخوارزمية algorithmic programming ، كما يشير المؤلف الى التطور في وسائل تخزين المعلومات واستحداث الأقراص الضوئية بقدرتها الهائلة على تخزين المعلومات .

ثم ينتقل المؤلف الى استعراض البعد العربي للحاسوب وينتقد الفكرة القائلة بوجوب تصميم حاسوب عربي على مستوى العتاد hardware ، وذلك لأن العتاد يمكن أن يلبي احتياجات أي مجتمع وأي

لغة ، وقد أمكن للمجتمع الياباني والروسي وغيرهما تطويع العتاد الموجود حاليا لكافة الاستخدامات الممكنة . ويرى المؤلف أن يتركز جهد العلماء العرب في تعريب ملحقات الحاسوب من طابعات وشاشات مرئية ولوحات مفاتيح ووحدات توليد وتحليل الكلام . كما يقترح تطوير نظم تشغيل ثنائية اللغة ويعدد الطرق المختلفة المستخدمة في تعريب الحاسوب سواء بالاعتماد على البرمجيات أو العتاد ، كما ينادي بقوة بضرورة تعريب لغات البرمجة ونظم قواعد المعلومات ، كما يرى المؤلف ضرورة الاستفادة من الكم الهائل من التطبيقات المتطورة الموجودة باللغة الانجليزية وتعريب بعضها ليكون متاحا للمستخدم العربي ، وتطوير وسائل الترجمة الآلية ، كما يرى ضرورة الاهتمام بالنظم الخبيرة وينتهي الفصل بعدد من التوصيات الهامة منها ادخال اللسانيات الحاسوبية في أقسام اللغات وعلوم الحاسوب وهندسته ، وانشاء معهد متخصص في بحوث تعريب المعلوماتيات ، واستغلال شبكة القمر الصناعي العربي لنشر وعي الحاسوب والمعلومات في الوطن العربي . وينبه المؤلف الى ضرورة التنسيق على مستوى الوطن العربية في إنشاء صناعة عربية للعناصر الأساسية في عتاد الحاسوب ومتابعة مشروع الجيل الخامس للحاسوب وتشجيع جهود الترجمة الآلية .

الفصل الثالث : المعالجة الآلية لمنظومة اللغة العربية (صفحة ١١٣ ـ ١٩٥)

يتحدث المؤلف في بداية هذا الفصل عن حتمية اللقاء بين اللغة والحاسوب نتيجة للالتقاء بين الثالوث المكون من نظرية المعلومات بأسسها الرياضية لقياس كمية المعلومات واستحداث أساليب متطورة لترميز وضغط المعلومات وزيادة فاعلية استرجاعها ، وعلم اللغة الحديث بتركيزه على استحداث نماذج رياضية للتحليل اللغوي والاهتمام الشديد بصورنة الأنحاء formalization ، وعلم الحاسوب وتطور الحواسيب السريع سواء من ناحية العتاد أو البرامج ولغات الترجمة ، كما يعرض المؤلف لجوانب الوفاق والخلاف بين اللغة والحاسوب ، فيستعرض أوجه التشابه البنيوي بين اللغة والحاسوب .

ويستعرض المؤلف مجالات استخدام الحاسوب كأداة اللغة وهي الاحصاء اللغوي والتحليل والتركيب اللغويان ، والفهم الاوتوماتيكي للسياق ، وتحليل النصوص ، وميكنة المعاجم ، والترجمة الآلية وتعلم اللغة بواسطة الحاسوب ، وينتهي ذلك الجزء بجدول (جدول ٣ : ٥ صفحة ١٤٨ ـ ١٥٢) لعلاقات الترابط المتبادل بين هذه الاستخدامات المختلفة للحاسوب كأداة للغة . ثم يحدد المؤلف أيضا مجالات استخدام اللغة كأداة للحاسوب وهي : نظم استرجاع المعلومات ، ونظم قواعد المعارف (النظم الخبيرة) ولغات البرمجة الواقية ونظم التعامل باللغة الطبيعية ومعمارية الجيل الخامس وتطبيقات الذكاء الاصطناعي . وكما فعل المؤلف في استخدامات الحاسوب كأداة للغة ، أنهى الجزء الخاص باستخدامات اللغة كأداة للحاسوب بجدول (جدول ٣ : ٦ صفحة ١٦٧ ـ ١٦٨) لعلاقات الترابط بين استخدامات اللغة المختلفة كأداة للحاسوب .

ويتناول المؤلف في باقي الفصل خصائص اللغة العربية وعلاقتها بالحاسوب ويعرض للمشكلة الحقيقية التي يعاني منها كل من يستخدم الحاسوب في التطبيقات العربية وهي أن الحاسوب لا يقدم لمستخدمي اللغة العربية نفس الامكانات التي يقدمها لمستخدمي اللغات الأوروبية .

ويرى المؤلف « أن الموقف يحتاج منا ، بل يوجب علينا ، اللجوء الى الاقتراض والتطويع العلميين والتقنين الى أقصى حد ممكن ، وعلى أسس من وعينا الدقيق بخصائص لغتنا ، وفي ظل أهداف تنميتنا الاجتماعية ، وكل ما ذكرناه عن قيود الأساس الانجليزي ، ومحاولات التخلص منه ، لا يمكن أن يكون القصد من ورائه هو أن نقذف في البحر الحصاد الهائل للانجازات العلمية والتقنية في مجال « الانجليزية » بل قصدنا به تأكيد أهمية ترشيد عمليات الاقتراض والتطويع ، وإبراز الجوانب التي يتحتم فيها البحث عن حلول جذرية لبعض مشكلات معالجة العربية آليا » (صفحة ١٧٢) .

ثم يستعرض المؤلف أوجه الوفاق والاختلاف بين اللغة العربية والحاسوب ، ويقصد هنا سهولة المعالجة الآلية للغة العربية ، فيذكر من أوجه الاتفاق (أي ما يسهل المعالجة الآلية للغة العربية) ما يلي :

١ ـ شدة انتظام كثيرمن خواصها الصرفية والاعرابية والصوتية .

٢ ـ صغر حجم المعجم لتكون نواته من الجذور والصيغ الصرفية .

٣ ـ الفائض اللغوي الذي يسمح بضغط النصوص العربية .

٤ ـ شدة التماسك بين عناصر منظومة اللغة العربية .

٥ ـ الانتظام الصوتي في اللغة العربية والصلة الوثيقة بين كتابتها ونطقها .

ثم ينتقل الى مواضع الخلاف بين اللغة العربية والحاسوب ويذكر منها :

١ ـ تعقد الحساسية السياقية .

٢ ـ المرونة النحوية التي تتسم بها الجمل العربية .

٣ ـ ثنائية الفصحى والعامية .

٤ ـ تعدد نظم الكتابة العربية .

٥ ـ قصور وصف اللغة العربية .

٦ ـ قصور أساليب تعليم اللغة العربية وجمودها .

٧ ـ قصور المعاجم العربية من حيث طرق تنظيمها وتبويبها .

وعن الموقف الحاضر لتعريب الحاسوب ونظم المعلومات ينتقد المؤلف إمكانية استيعاب اللغة العربية في نطاق التقنيات المصممة أصلا للغة الانجليزية لأن اللغتين تمثلان طرفي نقيض سواء من الناحية اللغوية أو الحاسوبية ولصعوبة العربية مقارنة بالانجليزية . ويرى المؤلف أن عمليات التعريب بشكل عام تميزت بالسطحية ، فقد ركزت على كيفية طباعة النصوص العربية وإظهارها على الشاشة ، كما تميزت بغياب الأبحاث الأساسية في علم اللغة وعدم الشمولية في تعريب المعلوماتيات .

وعدد المؤلف أوجه استخدامات الحاسوب كأداة للغة العربية ، فهو أداة احصائية ممتازة يمكن استخدامها لاحصاء الجذور العربية ، ولتكرار الكلمات والحروف والحركات والجذور الثلاثية والرباعية ، وبيان التوزيع النسبي للصيغ الصرفية والاعرابية ، ولقياس الانتظامية

الصرفية للأفعال في اللغة العربية ، كما يمكن استخدام الحاسوب في تحليل وتوليد النصوص ، وبناء المعاجم الالكترونية وفي الترجمة الآلية وفي الفهم الآلي للنصوص اللغوية ، وتعليم اللغة العربية بمعاونة الحاسوب .

ويحدد المؤلف الاطار العام لمعالجة اللغة آليا بأنه يستند الى وظيفتين أساسيتين : هما التوليد والتحليل .

ويعتقد المؤلف ـ خلافا لما هو سائد ـ أن عملية التمييز أعقد من عملية التوليد ، وسنعود لهذه النقطة في تحليلنا للكتاب .

وحول نظم معالجة المعارف والمعلومات ، يحدد المؤلف أربع نقاط أساسية يختلف فيها الاطار العام لمعالجة المعرفة بالعربية عن إطار معالجتها بالانجليزية وهي :

١ ـ إضافة معالج التشكيل الآلي .

٢ ـ استخدام عمليتي التحليل الصرفي والنحوي في إزالة اللبس الناتج عن غياب التشكيل .

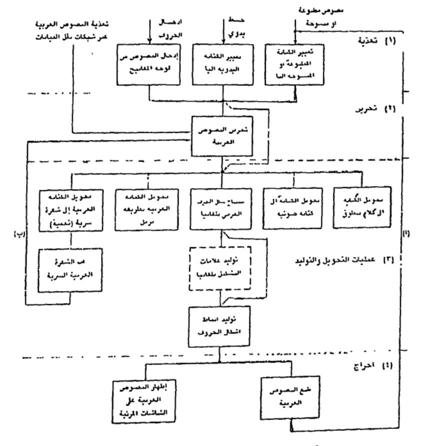
٣ ـ استخدام معجم الجذور والصيغ الصرفية بدلا من معجم الكلمات .

٤ ـ استخدام عنصر الدلالة الصرفية .

الفصل الرابع : المعالجة الآلية لمنظومة الكتابة العربية (١٩٧ ـ ٢٤٦)

تتكون عناصر منظومة الكتابة بشكل عام من خمسة عناصر هي : الأبجدية ، وعلامات الاملاء والترقيم ، ووسائل تمييز النصوص وإبرازها ، وعناصر تنظيم كتابة النصوص ، ووسائل الاختصار . كما يقول نبيل علي أن منظومة الكتابة العربية ترتبط ارتباطا وثيقا بالفونولجي ، فكل ما يكتب ينطق عادة . وهو بالتأكيد يقصد هنا الكتابة المشكّلة ، لأن الحركات العربية القصار لا تمثل في الكتابة العادية على صفحات الجرائد والمجلات ، والكتب والمطبوعات بشكل عام . وتختلف العربية عن الانجليزية في استخدامها لعلامات التشكيل للدلالة على الحركات القصار وأحرف اللين للدلالة عن الحركات الطوال . كما تكتب العربية على مستويات مختلفة ، فهي إما كاملة التشكيل ، أوجزئية التشكيل ، كما يمكن أن تكتب بدون أي تشكيل على الاطلاق . وتتشابك الحروف وتتعدد أشكالها حسب نوعية الحروف السابقة واللاحقة ، ولهذا تتميز العربية بحساسية سياقية شديدة ، كما أنها تكتب من اليمين الى اليسار بينما تدخل الأرقام من اليسار الى اليمين . وتمثل كل هذه الاختلافات تحديات بالنسبة الى المعالجة الآلية للغة العربية . وبعد أن يعرض نبيل علي لظاهرة التشكيل بالتفصيل ، يطرح السؤال الهام التالي : هل تفترض نظم المعالجة الآلية وجود التشكيل سلفا ، أم يجب أن تسعى لتوليده ؟

ويؤكد نبيل علي أهمية عمليات التقييس والمعايرة standardization ، ويتحقق ذلك بالاتفاق على شفرة عربية موحدة لرموز الكتابة العربية ، وتوحيد مخططات لوحات المفاتيح العربية ، وتقييس الأشكال المختلفة للحروف العربية ، وتوحيد أساليب تحويل الكتابة العربية الى كتابة صوتية ، ويضع نبيل علي تصوره للاطار العام لمعالجة الكتابة العربية في شكل (٤ : ٧) والذي نورده أدناه .



شكل (٤-٧) الإطار العام لمعالجة الكتابة العربية آليا

الفصل الخامس : المعالجة الآلية لمنظومة الصرف العربي (٢٤٧ : ٣٣٢)

يعد هذا الفصل من أهم فصول الكتاب لأهمية الموضوع الذي يعالجه ، ويعّرف نبيل علي الصرف بأنه « فرع اللسانيات الذي يتعامل مع البنية الداخلية للكلمات » ، ويتفق هذا التعريف مع سيلكيرك (Selkirk ١٩٨٢) التي تنظر الى الصرف باعتباره نحو الكلمة ، ويعرض المؤلف لعلاقة الصرف بكل من النحو والفونولوجي والدلالة ويشير أيضا الى علاقته بالمعجم ، كما يعرض لخصائص منظومة الصرف العربي وهي : حدة الخاصية الاشتقاقية ، واطراد التصريف ، والصلة القوية بين مباني الكلمات ومعانيها ، وميل الصرف لتركيب الكلمات بالاضافة ، وانتظام بنية الكلمة العربية ، وشدة التداخل بين الصرف والفونولوجي ، كذلك الصلة القوية بين الصرف العربي والمعجم . ثم يتناول المؤلف جوانب الصرف العربي ذات الأهمية للمعالجة الآلية للغة العربية ومنها الخاصية الثلاثية حيث تمثل الجذور الثلاثية نسبة عالية من جذور اللغة العربية ، وكذلك أصل الاشتقاق الذي يقول عنه « فان محورية الفعل المضارع في العربية ، وفي الساميات عموما لايحتاج الى مزيد من التأكيد » (صفحة ٢٧٦) ، كما يوضح المؤلف أنه « يميل الى اعتبار الكلمة دون غيرها أساسا للاشتقاق » (صفحة ٢٧٧) ، ويقترح صيغة رياضية للأنماط العربية في اشتقاق الكلمات من أصولها فيوضح الشكل التالي مثلا أن كلمة استعمار تشتق من أسفل لأعلى كما هو مبين بالشكل التالي :

فلكي تكون الكلمة صحيحة هناك شرطان لابد من توافرهما وهما :

<u>أولا :</u> أن يكون هناك تتابع من الصوامت مساو لأحد الجذور العربية

<u>ثانيا :</u> أن تكون صيغة الكلمة مساوية لاحدى الصيغ السليمة لهذا الجذر .

ويشير المؤلف الى امكانية تغير الصورة السطحية للصيغة الصرفية نتيجة للعمليات الفونولوجية المختلفة كالحذف والاضافة والتضعيف والقلب المكاني ، كما ناقش الانتاجية الصرفية والعوامل التي تحكمها في اللغة العربية ومنها عوامل معجمية ، وصوتية ، ونحوية ، ودلالية ، وصرفية مما يؤكد ماذكره المؤلف سابقا عن تداخل المنظومة الصرفية مع باقي المنظومات الأخرى في اللغة ، وتوصل الى عدة عوامل يعتمد عليها اطراد الانتاجية الاشتقاقية وهي :

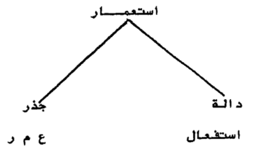
١ ـ التجرد والزيادة : تزداد انتاجية الصيغ الصرفية مع الصيغ المزيدة .

٢ ـ طول الصيغة : تزداد إنتاجية الصيغة الصرفية مع زيادة طولها .

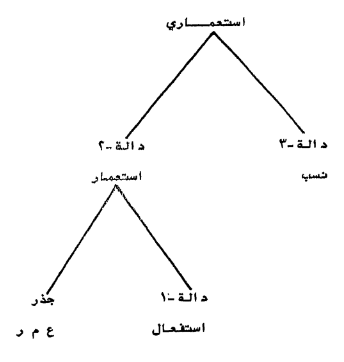
٣ ـ طول الجذر : يزيد الاطراد الاشتقاقي كلما زاد طول الجذر .

وأوضح أن تباين الانتاجية الصرفية له أبعاد هامة في تحديد وتنظيم مواد المعجم . وهناك وجهة نظر تفترض الاطراد العام وترى تجنيب ما لا ينطبق ، وهناك من يفترض الشذوذ التام ويرى وضع جميع الكلمات في المعجم ، وهناك من يتخذ موقفا وسطا بين الاطراد والشذوذ فيحيل الى المعجم الشاذ فقط أما المطرد فيجري اشتقاقه بواسطة القواعد الصرفية (فرغلي ١٩٨٧) .

ثم يتناول المؤلف ظاهرة اللبس الصرفي الذي يؤدي بدوره الى أنواع من اللبس النحوي والدلالي ، ويرجع نبيل علي اللبس الصرفي الى الآتي :



بينما يجري اشتقاق كلمة استعماري كالآتي



شكل (١) قيود الاشتقاق

١ ـ تعدد العلاقة بين المباني الصرفية ومعانيها .

٢ ـ تعدد العلاقة بين المباني الصرفية ووظائفها النحوية .

٣ ـ تعدد العلاقة بين الصيغ الصرفية وموازينها الصرفية .

٤ ـ اللبس الصرفي نتيجة غياب التشكيل .

وكمثال على حدة ظاهرة اللبس في اللغة العربية ، يورد نبيل علي اثني عشر احتمالا لكلمة « افهم » حين ترد بدون تشكيل .

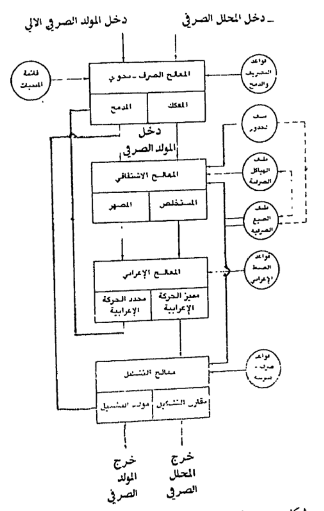
ثم يتناول الكتاب مشاكل المعالجة الآلية للصرف العربي ومنها تعقد وتداخل عمليات الابدال والاعلال ، وحدة اللبس الصرفي ، وعدم تأثر عناصر الكلمة بما يجاورها من عناصر فقط بل تأثرها بالعناصر التي تتقدمها أيضا ، وعدم وجود صياغة دقيقة رسمية ومتكاملة لقواعد الصرف العربي ، وعدم توفر بيانات معجمية منهجية عن الانتاجية الصرفية ، وعدم كفاية الاحصائيات عن معدلات استخدام الجذور والصيغ الصرفية والحالات التصريفية والاعرابية . ويتقدم المؤلف باقتراحات هامة لمعالجة الصرف آليا وأهمها : أن يكون التعامل مع النصوص العربية بأشكالها المختلفة (أي بالنصوص المشكلة وغير المشكلة) ، وأن يكون تصميم البرنامج بحيث يكون تجزئيا modular ، فيتكون من عدة آليات متخصصة تعكس الوظائف الأساسية للمنظومة الصرفية لا الخطوات الاجرائية للبرنامج ، ومراعاة التكامل بين المعالجة الصرفية والنحوية ، وأن يكون البرنامج قادرا على العمل في اتجاهي التحليل والتوليد .

ويشرح نبيل علي المقصود بعملية التحليل الصرفي آليا ، ويعرض لبعض نماذج التحليل الصرفي الآلي كنموذج كوسكينيمي (Koskoniemi 1983) ذي المستويين ، ونموذج مارتن كي (Kay 1987) ، ثم يعرض نموذج التحليل الذي وضعه المؤلف لشركة العالمية للاكترونيات ويوضح المؤلف مكونات هذا المعالج الصرفي في الشكل التالي .

يستطيع القارىء أن يرى أن هذا المعالج الصرفي يتكون من أربع معالجات فرعية متخصصة لكل منها وظيفة محددة وهي : المعالج الصرف ـ نحوي ، والمعالج الاشتقاقي ، والمعالج الاعرابي ، ومعالج التشكيل . كما يلاحظ أن كلا من هذه المعالجات له جانبان جانب التوليد والآخر للتحليل . وأن المكون اللغوي للبرنامج منفصل عن المعالج ؛ وهذه ميزة كبيرة تمكن من تطوير المكون اللغوي دون الحاجة لتغيير البرنامج نفسه كما أنه يسهل من هذه المهمة .

والمكون اللغوي يتكون بدوره من عدة ملفات منفصلة تحتوي على قواعد التصريف والدمج ، وجذور اللغة العربية ، والهياكل الصرفية ، والصيغ الصرفية ، وقواعد الضبط الاعرابي ، والقواعد الصرف ـ صوتية morphophonemic rules .

وبعد أن يعرض المؤلف طريقة عمل المعالج الصرفي ، يحدد استخدامات هذا المعالج وهي : ضغط النصوص العربية بالأسلوب الصرفي وعلى مستوى ازدواج الحروف ، واسترجاع النصوص ، وتصحيح الأخطاء الاملائية ، وتحليل النصوص صرفيا ، واستخدام قواعد بيانات النصوص الكاملة وميكنة المعجم .



شكل (٥ ـ ٥) الإطار العام للمعالج الصرفي الآلي متعدد الأطوار

الفصل السادس : المعالجة الآلية لمنظومة النحو العربي (٣٣٣ - ٤١٩)

يتميز هذا الفصل بأنـه يعرض لمنظومة النحـو من منطلق النظريات اللغوية المعاصرة (Chomsky 1981, 1982, 1986) ، (Bresnan 1982) ، (Gazdar et al 1985) ، ويبدأ الفصل بشرح لبعض المفاهيم النحوية الأسـاسية والتي يبني عليهـا المؤلف فيها بعـد مناقشتـه وعرضه التفصيلي ، ومن بين هـذه المفاهيم فكـرة لغة وصف اللغـة meta language ، وأقـسـام الكـلام وتوصيفها باستخدام السمات (Jackendoff 1977) ، ثم ينتقل الى العلاقات النحوية المختلفة كعلاقة الرتبة وهي التي تحكم ترتيب الكلام كسبق الجار للمجرور أو الموصوف للصفة في العربية ، والعلاقة الوظيفية النحوية كعلاقة الفاعل والمفعول ، والعلاقة الوظيفية الدلاليـة التي تفصل بين الفاعل النحوي والفاعل المنطقي ، ثم انتقل الى شرح النمـوذج الريـاضي للغة والمكـون من الرباعية (رمز الجملة ، المقولات النحويـة ، مفردات اللغة ، قواعـد الاحلال المتحـررة من السياق) . ثم ينتقل الى المكونات الداخلية لمنظومة النحو ويري بحثها على ثلاثة مستويات :

أولا : عمليات التكوينات النحويـة الأساسيـة وتضم قواعد تكوين الجمل المعقدة والبسيطة وأشباه الجمل .

ثانيا : عمليـات التحويـر والاحلال النحـوي وتشمل قواعد الحذف والاضافة والتقديم والتأخير والاضمار .

ثالثا : عمليات الضبط النحوي وتشمل قواعد المطابقة كاتفاق الفعل مع فاعله والصفة مع الموصوف وقواعـد الضبط الاعرابي .

وبعد عرض مكونات منظومة النحو يبدأ نبيل علي في مناقشة خصائص منظومة النحو العربي ، ويحددهـا في ست سمات :

١ ـ العلاقة العضوية بين النحو والصرف ويرى في ذلك أن الصرف العربي يطغى على النحو . فـالكلمة العربية قادرة على حمل السمات النحوية تصريفا واعرابا وتعريفاً وتنكيرا علاوة على ما يمكن أن يـدمج بهـا من أدوات الربط والعطف والضمائر .

٢ ـ رتبة الكلمات في الجملة العربية ، ويرى الأخذ بـالرأي القـائل بتـأصل الجملة الفعليـة (فعل فـاعل مفعول) وأن الجملة الاسمية قد تكون جملة فعليـة في أصلها .

٣ ـ المرونة النحوية ، فالجملة العربية تتميز بمـرونة ترتيب الكلمات التي تسمح بتقديم الفـاعل والمفعـول وباسقاط بعض حروف الجر الملحقة بالأفعال .

٤ ـ التوسط النحوي ، يرى نبيل علي أن خصائص اللغة العربية تجعلها لغة وسطى بين لغات العالم ؛ فهي لا تتبع انضباط اللغة الانجليزية مثلا في ترتيب الكلام ، ولكنها في نفس الوقت لا تسمح بالمرونة المطلقة كما في اليابانية والهنغاريـة ، وهي تمثل حـالة وسـطى في رتبة الكلمات فهي تجمع بين الجملة الاسمية والفعلية ، كما أن المطابقة فيهـا ليست محدودة كـالانجليزيـة ولا هي مفرطة كالألمانية مثلا .

٥ ـ ضحالة البنية العميقة ، يرى المؤلف أن العربية تتميز بضحالة بنيتها العميقة اذا ما قورنت بالانجليزية ويبرر اعتقاده بوضوح العـلاقات النحـوية في العـربية بسبب وجود سمات ظاهرة للاعراب وكذلك لاستخدام

الضمير العائد في حالات التقديم والجمل الموصولة ، وللصلة الوثيقة بين المباني الصرفية ومعانيها ، واستخدام الجملة الاسمية .

ثم يعرض الكتاب للثورة النحوية الحديثة ويستعرض انجازات النحو التوليدي والنظريات النحوية التي تفرعت عنه وشرح منطلقات النظريات النحوية المعاصرة .

ثم ينتقل الكتاب الى مناقشة النحو العربي وأزمته ويقدم اقتراحات عديدة لتحديثه منها الانطلاق من مبدأ النحو العام والتحليل المنهجي لعلاقة النحو بالصرف والدلالة ، ودراسة النحو كمنظومة متكاملة وضرورة تنوع مناهج التنظير النحوي للعربية ، واستخدام الحاسوب في إقامة النماذج النحوية للاسراع في حركة تحديث النحو ، وإدخال مناهج اللسانيات الرياضية والحاسوبية والاحصائية في الجامعات والمعاهد العربية .

ويتناول باقي الفصل المعالجة الآلية للنحو العربي ويتعرض للتحديات التي تواجهها ومنها غياب صياغة رسمية formalism للنحو العربي ، واسقاط علامات التشكيل في النصوص المعاصرة ، وتعدد حالات اللبس النحوي ، وحدة ظاهرة الحذف ، وعدم توفر الاحصائيات النحوية . ولمعالجة هذه التحديات يقدم الكتاب المقترحات التالية :

١ ـ استغلال مظاهر المطابقة والاعراب والتضام والرتبة للمساعدة في فك اللبس الناجم عن غياب التشكيل .

٢ ـ فصل قاعدة المعرفة اللغوية عن البرمجة الاجرائية . وقد أصبح ذلك مبدأ في جميع أنظمة المعالجة اللغوية الحديثة ، بل حتى في برامج النظم الخبيرة expert systems .

٣ ـ « تعاون » الصرف والنحو لفك اللبس الناتج عن غياب التشكيل .

٤ ـ استخدام الاحصائيات النحوية والصرفية في ترشيد عمل المعالج الآلي النحوي .

٥ ـ التركيز على اللغة العربية الفصحى الحديثة .

٦ ـ توفير وسائل التعامل مع الاخطاء واقتفاء أثر tracing المحلل الاعرابي .

وهناك ثلاث خطوات رئيسة يجب اتباعها عند بناء المعالج النحوي وهي :

أ ـ تحديد الشريحة اللغوية التي يغطيها المعالج ؛ أي تحديد أنواع التركيبات اللغوية التي سيتعامل معها ، وقائمة المفردات ، والصيغ الصرفية .

ب ـ تحديد نظام التقعيد وذلك باختيار نوع الصياغة الرسمية للقواعد النحوية ، ويكون الاختيار هنا من بين القواعد التحويلية ، الوظيفية ، المتحررة من السياق ، حساسة السياق ، التوحيدية unification Grammar ... الخ .

ج ـ اختيار خوارزمية البرمجة ويمكن هنا الاختيار من شبكات الانتقال transition network ، شبكات الانتقال المعززة ، شبكات الانتقال المتكررة ، الاعراب من أسفل لأعلى أو من أعلى لأسفل ، ... الخ .

ثم يصف المؤلف المعالج النحوي الذي يقوم بتطويره حاليا والذي يتكون من المعجم ، وقاعدة المعرفة

النحوية ، وروتينات البرمجة ، ثم يشرح بايجاز الخطوات الرئيسة للنظام النحوي المقترح للغة العربية ، فهو يبدأ من التحليل الصرفي والمعجمي لكلمات الجملة الداخلة ، ثم يبدأ في تطبيق قواعد البدائل المستحيلة وذلك للتخلص من حالات اللبس الزائفة والواضحة في وقت مبكر ، يلي ذلك تطبيق قواعد النحو التكوينية لأشباه الجمل وما يعلوها من مكونات نحوية ، ثم يطبق قواعد الضبط النحوي والاعرابي ، ويربط الضمائر بما تعود اليه وذلك بمطابقة السمات النحوية والدلالية للضمير مع سمات الأسماء وأشباه الجمل الاسمية الواردة ، ثم يقوم بتطبيق قيود الانتقاء الدلالي selectional restriction rules لاستبعاد البنى النحوية التي تتنافس مع منطق دلالات الألفاظ ، وأخيرا توليد التشكيل آليا باضافة علامات التشكيل على ساق الكلمة وعلامات الضبط الاعرابي على أواخرها .

وينتهي الفصل بعرض سريع للتطبيقات العملية لمثل هذا المعالج النحوي ومنها التصحيح الآلي للأخطاء النحوية ، والتخاطب مع قواعد البيانات باللغة العربية ، والترجمة الآلية وتعليم النحو بواسطة الحاسوب .

الفصل السابع : المعالجة الآلية للكلام العربي
(٤٢١ - ٤٥٦)

الكلام فعل حي دينامي وهو الأساس في الحدث اللغوي ، والكتابة ماهي في الواقع سوى أحد أشكال تمثيل الكلام ، فالكتابة اذن تابع للكلام وليس العكس . ويمكن دراسة الكلام على مستويين : مستوى الفونيتيك phonetic level وهنا نتعامل مع طبيعة الأصوات اللغوية من حيث مخارجها وطرق نطقها articulatory phenetics ومن حيث خصائصها الطبيعية وما تحدثه من ذبذبات في الهواء acoustic phonetics ومن حيث آثارها السمعية وما يحدث لدى السامع ابتداء من طبلة الأذن الى تمثل معنى الاشارة الصوتية في الدماغ auditory phonetics ؛ كما يمكن دراسة الكلام على مستوى الفونولوجي حيث نتعامل مع القواعد المجردة التي تحكم تتابع الأصوات والتي تحدد أي تتابع من الأصوات يكون قانونيا في اللغة المعنية وأيها غير قانوني ؛ فمن المعروف مثلا أن العربية الفصحى لا تسمح بالتقاء ساكنين في أول الكلام ولا تسمح في أي مكان بأكثر من ساكنين متتاليين ، أما الانجليزية فتسمح بثلاث سواكن في أول الكلمة وأربع سواكن في آخرها ، ومع ذلك فهناك قيود فونولوجية على نوعية السواكن التي يمكن أن تتتابع . كما يبحث الفونولوجي العلاقات التي تنشأ بين الأصوات المجاورة وبينها وبين العناصر اللغوية الأخرى .

والفونيم ، في رأي نبيل علي ، هو العنصر الذري للظاهرة الصوتية ، ويناظر الحرف في الكتابة الا أن التناظر غير تام بين الحروف والفونيمات . وتتكون منظومة الفونولوجي من ثلاث آليات :

١ ـ تنويع الفونيمات . فالأصوات اللغوية تتأثر بما يسبقها ويلحقها من أصوات وينتج عن هذا التأثير والتأثر عدة عمليات فونولوجية كالادغام والامالة والتفخيم والترقيق والحذف والاضافة والاطالة والتقصير . . . الخ .

٢ ـ التقطيع الصوتي . وهو تقسيم الكلمة الطويلة الى مقطعين أو أكثر فمثلا كلمة « كتاب » تتكون من مقطعين وكلمة « كتبنا » تتكون من ثلاث مقاطع ، ولكل لغة نظامها المقطعي الذي يحدد التراكيب

المسموحة في تكوين المقطع ، وتتميز العربيـة ببساطـة واطراد نظامها المقطعي .

٣ ـ النبر والتنغيم . ويقصد بالنبر تشديد النطق على مقـاطع معينـة في الكلمـة ، ويـوضـح التنغيم قصـد المتحدث وحالته الانفعالية ، فباختـلاف التنغيم يمكن لنفس الجملة أن تعبر عن الفرح أو الدهشة أو الاستنكار أو السخرية . . . الخ .

ويتناول الجزء الثاني من هذا الفصل معالجة الكلام آليا ، وهو موضوع يمثل تحديا هائلا لعدم نقاء الاشارة الكلامية واختلاط الأصوات فيها بالضجيج ، كما أنها تتغير وفقا لانفعالات وطبيعة صوت المتحدث وتأثير وتأثر كل صوت فيها بما قبله وبعده . ولمعالجة الكلام آليـا لابد من توافر العناصر التالية :

١ ـ تكويد coding الاشارة الكلاميـة وذلك بضبط معطيات الاشارة وإبراز خصـائصها المميـزة ، وتمثيلها بعدة بارامترات ليسهل مقارنتها ومطابقتها برمجيا .

٢ ـ برامج معالجة اللغة المختلفة كالمعالـج الصرفي والنحوي والدلالي .

والمقصود بمعالجة الكلام آليا هو امـا توليـد الكلام speech synthesis أو تمـييـزه speech recognition . ويمكن تـوليد الكـلام المستمـر بتكـوين الكلمـات من وحدات أصغر كالفونيمات أو المقاطـع الصوتيـة ، ثم صهـر عناصـر الكلمة الصـوتية مـع مراعـاة القواعـد الفونولوجية الخاصة باللغة . وبالنسبة للعربية ، يلخص الكتاب خطوات توليد الكلمة المنطوقة فيما يلي :

١ ـ ادخال النص المكتوب المراد نطقه آليا .

٢ ـ رد حروف الكتابة الى أصلها (فمثلا رد كافـة أشكال العين الى العين) .

٣ ـ فك الحروف العربية ذات الطابع الثنـائي مثل « لا » الى عناصرها المفردة .

٤ ـ تحـويل سلسلة الحـروف المكتـوبـة الى سلسـة فونيمات مناظرة .

٥ ـ تمثيل سلسلة الفونيمات في هيئة مقاطع .

٦ ـ تحديد مواضع النبر بتطبيق قواعد اللغة العربية واستخدام المعالج الصرفي ، وتحديد التنغيم المنـاسب للجملة بعد تحليل الجملة نحـويا لمعـرفة مـا اذا كانت استفهامية أم خبرية . . الخ .

٧ ـ تطبيق القواعـد الفونـولوجيـة ومعطيـات النبر والتنغيم .

٨ ـ توليد الاشارة الصوتية الرقميـة بالحصـول على البارامترات .

٩ ـ تحويل البـارامترات الـرقمية بعـد تعديلهـا الى الاشارة الصوتية المقابلة لها .

ويمثل تمييز الكلام العملية المعاكسة أي استخلاص الفونيمات من الاشارة الكلامية وتحويلهـا الى مقابلهـا المكتوب . ويعتبر التمييز أصعب بكثير من التوليد نظرا لفيض المعـطيـات الضخم الـذي تحـمله الاشـارة الكلامية ، وللتداخل الشديد بين الفونيمات المتتالية ، وتغير سرعة الكلام ونمط تنغيمه من وقت لآخر لنفس المتحدث ومن متحدث لآخر . ولهذا لا تحقق برامج تمييز الكلام حاليا نجاحا الا في مجال الكلمات المنعزلة ولعدد قليل من المتكلمين .

ويرى المؤلف أن العربية تمثل حالة لغوية ملائمة للفهم الأوتوماتي للكلام المستمر والذي له تطبيقات عملية عديدة في بناء الآلات السامعة القارئة وتمييز المتكلمين والبريد الصوتي .

الفصل الثامن : ميكنة المعجم العربي (٤٥٧ - ٥٢٩)

المعجم هو القاسم المشترك لجميع مستويات التحليل اللغوي ، وقد اكتسب أهمية كبرى متزايدة في النظريات اللغوية المعاصرة (Bresnan 1982) ، (Gazdar et al 1985) و (Chomsky 1981, 1982, 1984, 1986) فكثير من الظواهر اللغوية التي كان يظن أنها جزء من التراكيب أمكن تفسيرها بطريقة أفضل من خلال معطيات المعجم ومن ذلك مثلا ظاهرة المبني للمجهول .

وتحتوي كل مادة معجمية على معطيات فونولوجية تحدد النطق الصحيح والكتابة السليمة لهذه المادة ، كما تحدد المعطيات الصرفية مقولة الكلمة وصيغتها التصريفية ونوع الاشتقاق وخصائص التصريف ، وتعطي المعلومات النحوية معلومات عن القواعد التي تحكم وجود اللفظ في الجملة وعلاقته بما يسبقه ويتلوه من الألفاظ . فإذا كان اللفظ فعلا تبين اذا كان لازما أو متعديا ، واذا كان متعديا توضح اذا كان متعديا لمفعول واحد أو لمفعولين ، وكذلك أنواع المكملات والملحقات ؛ وتصف المعطيات الدلالية المحملات predicates كما تحدد الأدوار الوظيفية والسمات الدلالية لموضوعات الفعل ومكملاته وموصوف الصفة وملحقاتها ؛ كما يعطي المعجم تعريفا لمعنى الكلمة باستخدام المترادفات اللفظية أو شرح المعنى . وليس المعجم مجرد قائمة من الكلمات المنعزلة التي لا رابط بينها ، بل انها تتشابك فيما بينها مكونة شبكة هائلة من المفاهيم والعلاقات الأساسية على كافة مستويات التحليل اللغوي ، فالمعجم اذن هو منظومة ذات كيان شبكي ، يرتبط بعلاقات خارجية متعددة ويموج داخله بشبكة كثيفة من العلاقات المتداخلة (الفهري ١٩٨٥) . ويعاني المعجم العربي من أزمة حادة تتلخص مظاهرها في القصور الحاد في المصطلحات العلمية ، وجمود النظرة الى تكوين الكلمات الجديدة ، والاكتفاء بتنظيم مواد المعجم على أساس الجذور والذي يفترض معرفة المستخدم بتفاصيل التحليل الصرفي والقواعد الفونولوجية الخاصة بالابدال والاعلال والحذف وغيرها ، واهمال العلاقات المعجمية التي تربط بين الكلمات ، وعدم توافر معاجم خاصة للترادف والتضاد ، وشبه إغفال الكلمات المركبة ، وإغفال البعد التاريخي في رصد الكلمات وتطور معانيها عبر الأجيال .

ولمعالجة أزمة المعجم العربي يضع نبيل علي إطارا عاما « لمنظومة المعجم الموسعة » نلخصه فيما يلي :

١ - تحديث المعجم باضافة المفردات والتعابير الاصطلاحية الجديدة وحذف المهجور منها ، وتحديث العلاقات بين مفردات المعجم ، وتجميع الاحصائيات عن معدلات استخدام المفردات والتعابير الاصطلاحية داخل النصوص .

٢ - صك الألفاظ الجديدة من خلال آليات مختلفة لتكوين الكلمات كالاشتقاق والتركيب والمزج والاقتراض ، أمغ توسيع الاشتقاق وتخفيف القيود على اقتراض المصطلحات الأجنبية واستغلال الرصيد الكبير من مفردات العربية السحيقة .

٣ - الاهتمام بدراسة عمليات الازاحة الدلالية للكشف عن أسرار تغير معاني الألفاظ سواء على مستوى الجذور أو الصيغ الصرفية .

٤ ـ جمع التعابير الاصطلاحية في العربية الحديثة وترتيبها وتحليل العلاقات البنيوية والدلالية بينها ، والتوصل الى القيود النحوية على استخدامها ودراسة ظاهرة الاستعارة في العربية .

٥ ـ ترك المهجور من الجذور مثل « أ ب أ » ، والصيغ غير المستساغة مثل « مفعولاء » واستبعاد المفردات والتعابير الاصطلاحية المهجورة .

٦ ـ يواجه تنظيم المعجم على أساس الجذر عدة مشاكل : فهو لا يلائم غير المتخصصين من العامة والصغار لأنه يفترض الالمام بالقواعد الصرفية ، ولا يسهل تحديد مصدر الاشتقاق في حالة التعدد ، ويعتمد على قدرة المستخدم على استنتاج خصائص المفردات الصرفية والنحوية ، ولهذا لا بد من اعادة تنظيم المعجم باضافة بيانات عن معدلات استخدام الجذور والصيغ الصرفية ، وإعطاء تصنيف أدق لأنواع المشتقات لاجلاء اللبس ، وتوضيح خصائص التعدية واللزوم للأفعال . ويجب أن يراعى في تنظيم المعجم امكانية استخدامه على أربعة مستويات على الأقل : كقائمة مفردات للغة ، وكمصفوفة علاقات صرفية ونحوية ودلالية ، وكقاعدة بيانات ، وكقاعدة معرفة متكاملة .

٧ ـ بناء قاعدة نصوص لغوية ضخمة من مصادر مختلفة كالوثائق والصحف والتقارير والكتب والمسرحيات والاعلانات . . . الخ ليستخرج منها مؤشرات كمية وأمثلة واقعية للاستخدام الفعلي للمفردات ، واحصائيات عن طول الجمل وتنوع أساليبها ، ويضمن ذلك أن تكون المعلومات الواردة في المعجم حقيقية تعبر عن الاستخدام الفعلي للجماعة اللغوية وبذلك لا ينعزل المعجم عن متكلمي اللغة .

وينتهي الفصل بعدد من التوصيات لتطوير وميكنة المعجم العربي من أهمها : ربط تطوير المعجم بتحديث نظام التقعيد للغة ، والفصل بين العربية الحديثة والعربية القديمة ، ومراعاة العامل الجغرافي في الاستخدام اللغوي ، وتلبية احتياجات جميع مستخدمي المعجم ، والانطلاق من منظور دلالي ، ووضع الأسس للتصنيف المعجمي الدقيق بوضع سمات قياسية صرفية ونحوية ودلالية للألفاظ العربية ، والاهتمام بالعلاقات بين الكلمات ، وأخيراً ينتهي الكاتب بذكر عدد من المؤسسات العربية التي تقوم بأبحاث لميكنة المعجم العربي .

الخاتمة (٥٣١ ـ ٥٥٠)

تناقش الخاتمة ثلاث قضايا : أولها تفسير خلو الكتاب من فصل عن المعالجة الآلية للدلالة في اللغة العربية ، وأرجع المؤلف ذلك للوضع الحالي للمعالجة الآلية للدلالة اذ أنه ما زال في مراحله الأولى ، ولقصور الدراسات الدلالية في اللغة العربية ، وحاجة المعالجة الآلية للدلالة الى خلفية نظرية في المنطق والرياضيات وأساليب الذكاء الاصطناعي . والقضية الثانية هي العلاقة بين اللسانيات الحاسوبية وتعريب المعلومات ، ويرى هنا أولوية المعالجة اللغوية فهي التي ستقام عليها تطبيقات النظم المختلفة للمعلوماتيات . وتنتهي الخاتمة بقائمة قيمة لسبعة وتسعين بحثاً مقترحاً في كافة مجالات اللسانيات الحاسوبية ، وهي لا شك دعوة مفتوحة

لعلمائنا الشبان من المتخصصين في اللسانيات أو علوم الحاسوب كي يسهموا في معالجة التحدي الذي يواجه الأمة العربية في ظل الثورة المعلوماتية المعاصرة .

تحليل وتعليق

هذا الكتاب اثراء قيم للمكتبة العربية ، فهو أول كتاب عربي في اللسانيات الحاسوبية ، ويجب النظر اليه في هذا الاطار . وقد قدم المؤلف فيه عرضاً شاملاً للجوانب المختلفة في هذا المجال .

الا أن الكتابة في موضوع تخصصي كهذا أمر شائك ، فاذا وجه المؤلف حديثه الى المتخصصين فقد جمهورا عريضا من المثقفين التواقين الى معرفة هذا العلم الجديد والمستعدين لبذل الجهد الذهني اللازم لذلك ، واذا وجه حديثه الى المثقفين فقد العمق والالتزام العلمي وانزلق الى الضحالة والعمومية . يتخذ المؤلف قراره باختيار القاريء الذي يخاطبه قبل البدء في الكتابة حتى يحدد مستوى العرض وتناول الموضوع . ولا شك أن نبيل علي قد اختار أن يوجه كتابه للمثقفين العرب وليس الى المتخصصين ، فقد خلا الكتاب من تفصيلات النواحي الفنية المعقدة والتحليلات النظرية في علم اللغة وأساليب اللسانيات الحاسوبية . وأصبح الكتاب متعة ذهنية للقاريء المثقف ينهل منه دون صعوبة أو ملل ، ورحلة بلا عائد للمتخصصين في اللسانيات الحاسوبية . ويجب أن نقر بأنه ربما كان يستحيل أن تجمع المعالجة بين الشمول الذي قدم به الموضوع ودرجة أعمق في تناول موضوعات الكتاب ، فقليلة هي الكتب المتخصصة التي يجد فيها المتخصص متعة ذهنية وأفكاراً جديدة بينما لا يجد القاريء العادي صعوبة في فهمها واستيعابها .

أولاً : منهجية العرض

تميز الكتاب بمنهجية العرض والالتزام بها في عرض كافة القضايا . وانعكس محور الكتاب وهو الثنائية « اللغة العربية والحاسوب » في كل فصل من فصول الكتاب ، حيث لكل فصل شقان : شق لغوي وشق حاسوبي . والتزم أيضاً بالبدء بالشق اللغوي في كل فصل ، منتقلاً بذلك من السهل - باعتبار اللغة موضوعاً عاماً - الى الصعب . وفي تناوله للشق اللغوي ، يبدأ من المفاهيم العامة ثم ينتقل الى الخصوصيات وينتهي باللغة العربية ، وهو بهذا يضمن أن يكوّن لدى القاريء الخلفية العامة في اللسانيات التي تمكنه من استيعاب وتقدير مشكلات اللغة العربية ، وبالاضافة الى هذا فهو ينحو نحواً منهجياً سليماً يتفق مع النظريات اللغوية الحديثة التي تهتم بالأنحاء الكلية universal grammar وتنظر الى اللغات المختلفة كحالات خاصة من اللغة الانسانية التي تتوافر خصائصها العامة في جميع اللغات الطبيعية . ويبدأ الشق الحاسوبي في كل فصل بتحديد المنطلقات الأساسية للمعالجة الآلية ، كما يعرض في كل فصل إطارا عاماً للمعالجة الآلية للمستوى اللغوي المطروح والتطبيقات العملية المختلفة التي تنبثق منها . وكان لهذه المنهجية والالتزام بها في كافة فصول الكتاب أثر كبير في جعل الكتاب سلس القراءة ، سهل الاستيعاب ، فهو يتدرج بالقاريء بطريقة منطقية سليمة وينتقل باستمرار من العام الى الخاص ويربط النتائج بمقدماتها .

مضمون الكتــاب

يرى القارىء عنوان الفصل الأول وهـو « منظومـة اللغة العربية من منظور الحاسوب » ، ويتوقع أن يرى عرضاً للغة العربية من منظور غير لغوي ، ولكنه يجد عرضاً جيداً للغة العربية ، من منظور لغوي ، فيجـد عـرضاً لكـافة مستـويات التحليـل اللغوي كـالتحليل الصـوتي ، والصرفي والنحـوي . . الـخ كمكـونـات لمنظومة اللغـة ، كما يجـد عرضـاً للعلاقـات الخارجيـة لمنظومة اللغة كعلاقتها بالمنظومة النفسيـة والاجتماعيـة والـطبيعية . . الـخ ، ثم يعرض الكتـاب لخصـائص المنظومة اللغوية (أي خصـائص النحو الكـلي) ، ثم ينتقل الى خصائص اللغة العربيـة ، ثم يتناول تـطور اللسانيات وأخيراً يعرض لبعض مشاكل التنـظير للغة العربية . والسؤال الملح هنا « أين هي منظومـة اللغة العربية من منظور الحاسوب في هذا ؟ » ان ما في هذا الفصل لا يخرج عما ندرّسه لطلبتنا في المقرر التمهيدي لعلم اللغة وهو يمثل نظرة علماء اللغة في البحث اللغوي وفي اللغـة الانسانيـة كظاهـرة طبيعية . وقـد كان من الأوفق لنبيل علي أن يكون عنوان الفصل « منظومة اللغة العربية » فقط .

إلا أن طرح اللغة من منظور الحاسوب هو أمر هام في كتاب كهذا ، وإذا أردنا معالجة هذا الموضوع فيجب أن نذكر أن الحاسوب ينظر الى اللغة بعدة طرق منها :

١ ـ نـظرية اللغـة الصـوريـة Formal language theory

اللغة عبارة عن مجموعة لا متناهية من الجمل an in-finite set of sentences، ويمكن للحـاسـوب أن يتعرف على أعضاء هذه المجموعة اذا أعطي له وصف دقيق لما يجب أن تكون عليـه الجملة . وهذا الـوصف الدقيق الذي يتطلبه الحـاسوب هـو النحو . ومن هنـا جاءت الرباعية التي تحدث عنها نبيل علي تحت عنوان النموذج الرياضي للنحو في صفحـة ٣٤١ . ويتطلب الحاسوب نحواً واضحاً لا لبس فيه ولا غموض ، مما يفرض على عالم اللغة أن يبتعد عن العموميات في تحليله وأن يضع كافة التفصيلات التي تحكم صحة الجملة . ولكي يستـطيع الحـاسـوب أن يبني شجـرة الأعـراب للجملة فينبغي أن يتكون من مجموعـة من المقولات ، ورمز الجملة وعدد محدود من قواعد الانتاج produc-tion rules ومفردات اللغة . وبدون كتابة نحو اللغة بهذه الطريقة لا يستطيع الحاسوب معالجة اللغة آلياً .

٢ ـ اللغــة كهيكــل مـعلومــات information structure. ينظر الحاسوب الى قواعد اللغة ومفرداتها كبنية معلوماتية ، فتمثل كل كلمة من كلمات اللغة في شكل شجرة معلومات تحتوي على المعلومات الصـوتية والصرفية والنحوية والـدلالية المتعلقـة بهذه الكلمـة ، وتحدد شجرة المعلومات هذه الكلمات والبنيان الـذي يمكن لهذه الكلمة أن تتحد معه مكونة شجرة معلومات على مستوى أعـلى . . وهكذا حتى نصـل الى مستوى الجملة . وتتـطلب هذه النـظرة وضع كـل المعلومـات اللغـوية في المعجم اللغـوي الآلي بما في ذلـك القيـود الخاصة بتكوين العبارات والجمل .

٣ ـ اللغة كمنظومة رياضية . يجيد الحاسوب اختبار صحة المعادلات الرياضية ، بمعنى أنه اذا أعطي مقولتين

يستطيع أن يحدد اذا كانتا متساويتين أم لا . وبالتالي فهو ينظر الى اللغة كشبكة من علاقات المساواة . وبناء على هذا المنهج يستطيع الحاسوب تحويل جميع شجرات الاعراب الى شكل معادلات المساواة . فاذا أردنا للحاسوب أن يحلل الجملة التالية :

شاهدت سعاد علياً في الحديقة .

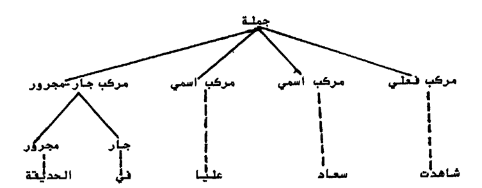
وكانت شجرة الاعراب لهذه الجملة ما يلي :

فان قواعد هذه الجملة تكتب في شكل المعادلات التالية :

جملة = (س - صفر س - ٢ س - ٣)
(س - صفر مقولة) = فعل .
(س - صفر جنس) = (س - ١ جنس) .
(س - صفر عدد) = (س - ١ عدد)
(س - صفر مكملات) = مركب أسمي .
(س - صفر فاعل) = س - ١ .
(س - صفر مفعول) = س - ٢ .
. . . . . الخ .

والفكرة هنا أن جميع القواعد موجودة في شكل معادلات equations، وهي تقول بأن الجملة تتكون من أربعة مكونات : فعل ومركب اسمي (الفاعل) ، ومركب اسمي آخر (المفعول به) بشرط أن يكون الفعل من النوع الذي يتطلب مركباً اسميا من مكملاته ، وان هناك جارا ومجرورا أيضاً ، وتقول المعادلات التالية ان الفعل والفاعل يجب أن يتفقا في الجنس وأن فاعل الجملة هو المركب الاسمي الذي يلي الفعل ، بينما المفعول به هو المركب الاسمي الثاني . . ويمكن قول كل شيء عن الجملة وشروط صحتها النحوية من خلال هذه المعادلات . وهكذا ينظر الحاسوب الى اللغة كمنظومة من المعادلات .

وفي الحقيقة هذا ما يهم عالم اللسانيات أن يعرفه ، هو يريد أن يعرف صورة النحو الذي يمكن أن يقبله الحاسوب لأن هذه الصورة تختلف عما تعود اللساني أن يكتبه وعما يقرؤه في كتب النحو العام . وكان هذا ما يجب أن يكون عليه التركيز بافاضة وبكثير من الأمثلة التوضيحية باعادة كتابة كثير من القواعد التقليدية بالصورة التي تتطلبها المعالجة الآلية .



ولنا نفس التعليق على الفصل الثاني من الكتاب والذي عنوانه « منظومة الحاسوب من منظور اللغة العربية » . فهو يحدد الاطار العام لمنظومة الحاسوب في رباعية ، هي : العتاد hardware والبرمجيات software والتطبيقات applications والعنصر البشري . وليس هذا الاطار هو منظور اللغة الى الحاسوب ، بل هو اطار هذه المنظومة من منظور الحاسوب ، ثم يتناول البعد العربي لكل من هذه العناصر وهو يعني تطويع هذا العنصر ليلبي احتياجات المستخدم العربي ، وهذا بالتأكيد شيء جيد . ولكن يبدو لي ـ وقد أكون مخطئاً ـ أنه قد يكون من المناسب عندما نتحدث عن الحاسوب من منظور اللغة أن نذكر كيف يمكن للغة استخدام الحاسوب لخدمة البحث اللغوي ، فالمعروف أن علماء الحاسوب واللسانيات الحاسوبية في البلدان المتقدمة استطاعوا بناء أدوات للبحث اللغوي computational tools for linguistic analysis ، وأن استخدام هذه الأدوات قد مكّن علماء اللغة من اختبار صحة نظرياتهم مما كان له أثر في اندثار بعض النظريات والتحليلات اللغوية وقيام غيرها . فقد كان للسانيات الرياضية والحاسوبية الفضل في إظهار أن النحو التحويلي لا يزيد في قوته عن آلة تورينج (ريتشي وبيترز ١٩٧٣) ، وانه لا يمكن التوصل الى البنية العميقة من خلال البنية السطحية . وأدى هذا الى ظهور نظريات لغوية توليدية غير تحويلية ولا تعترف الا بالبنية السطحية ومن ذلك نظرية « نحو البنية العامة للجملة "Generalized Phrase Structure Grammar (GPSG) » والنظرية الوظيفية المعجمية "Lexical Functional Grammar (LFG) . ولكل من النظريتين برامج حاسوبية لكتابة الأنحاء في الصياغة الصورية لكل منهما . وقد كان للحاسوب ولا يزال أثر كبير في ظهور وتطور هذه النظريات . فما يهم عالم اللغة اذن أنه يريد أن ينظر الى الحاسوب من خلال ما يستطيع أن يقدمه للغة وللبحث اللغوي ، ولا شك أن الحاسوب يقدم إمكانات هائلة للبحث اللغوي سواء على مستوى تقديم أدوات تقنية عالية تضاعف من فعالية عالم اللغة أو كاختبار لصحة النظريات والتحاليل اللغوية ، أو كمتطلبات عملية تفرض على عالم اللغة معالجتها وحلها ، وأبسط مثال على ذلك الاهتمام الشديد هذه الأيام بعلم الدلالة لأن التقدم في هذا الفرع من اللسانيات شرط ضروري للتقدم في فهم ومعالجة اللغات الطبيعية .

توجد الى جانب ذلك بعض الأحكام غير الصحيحة في أماكن متفرقة من الكتاب مثل :

١ ـ يقول في حديثه عن ثنائية التحليل والتركيب « تعد عمليات التمييز بشكل عام أعقد من عمليات التوليد ، اذ تتعامل الأولى مع دخل متغير لا يمكن تحديده سلفاً ، ولا يفترض وجوب صحته لغوياً » (صفحة ١٨٧) ، والذي يتتبع أدبيات اللسانيات الحاسوبية يجد أن برامج تحليل اللغات قد سبقت بكثير البرامج التوليدية ، ربما كان ذلك لأننا في التوليد نبدأ من المعنى وننتهي الى النص ، ولما كانت الأبحاث عن طرق تمثيل المعنى في بدايتها الأولى ، فقد أثّر ذلك على البرامج التوليدية . والفكرة السائدة الآن هو أنه يجب استخدام نفس التحليل اللغوي في كلا الاتجاهين ، التحليل والتوليد ، غير أن البرامج التطبيقية تتطلب أن تسمح للمستخدم بعمل أخطاء لغوية الا أن الحاسوب في رده لا

يجوز أن يأتي بجملة خاطئة نحوياً ، ومن هنا كان لا بد من أحد أمرين : إما أن يختلف النحو المستخدم في التوليد عن النحو المستخدم في التحليل ، أو أن يقوم البرنامج بارخاء بعض القواعد عند التحليل ليتجاوز الأخطاء التي يقع فيها المستخدم . والحالة الوحيدة التي تصح فيها مقولة المؤلف هذه هي حالة التعامل مع الكلام المنطوق .

٢ ـ وفي صفحة ٢٠١ يقول نبيل علي « هناك لغات فونيمية ، كاللغات الانجليزية والروسية والأسبانية ، يمثل كل حرف فيها فونيما واحدا في أغلب الأمور » وهذا مخالف للواقع ؛ فلم يقل أحد عن اللغة الانجليزية اطلاقاً أنها لغة فونيمية ، خذ مثلاً حرف s بالانجليزية فهو مرة ينطق « س » في كلمة sam ومرة ش كما في كلمة sure ومرة « ز » كما في كلمة dogs ومرة ج كما في كلمة pleasure . والحقيقة أن اللغة الانجليزية غير فونيمية على الاطلاق وقد كان هناك تفكير في أوائل هذا القرن لتعديل طريقة كتابتها حتى تصبح منطقية أكثر ولكن استبعد هذا الرأي لعدة أسباب .

٣ ـ ويقول نبيل علي في فصل المعالجة الآلية للكلام العربي ما يلي : « الكلام ، أو الصوت اللغوي ، هو بلا شك ، أكثر الظواهر اللغوية تأصلاً وتجلياً ، وهو في نفس الوقت أقلها حظاً من حيث الدراسة والبحث » ، وهذا الحكم ينافي الحقيقة ، فقد كان لعلماء اللغة العرب القدامى فضل دراسة الكلام دراسة وافية وتوصلوا الى وصف دقيق لمخارج اللفاظ ولبعض السمات الصوتية ، فقد ميزوا بين المجهور وغير المجهور . كما توصلوا لعدد من القواعد الصوتية المختلفة كالابدال والاعلال ، والحذف ، والاضافة ، والادغام ، وغيرها . كما كانت الصوتيات من أول فروع علم اللغة الحديث ، وقد حققت تقدماً هائلاً ، واذا جاز لنا أن نتحدث عن أقل الظواهر اللغوية حظاً من حيث الدراسة والبحث ، فلا شك أن أول ما يخطر ببال اللغوي هي الدلالة .

٤ ـ يقول المؤلف « يمكن القول أن الجمل العربية تتسم بضحالة بنيتها العميقة وذلك اذا ما قورنت بلغات أخرى مثل الانجليزية مثلاً » (صفحة ٣٥٧) . ومن الصعب تقبل فكرة ضحالة أو عمق البنية العميقة للغة ما ، فالبنية العميقة ما هي الا افتراض نظري مجرد من خلق عالم اللغة عن الدلالة التي يتوصل اليها الانسان من البنية السطحية للجملة . وتتجه معظم النظريات اللغوية المعاصرة الى نبذ فكرة البنية العميقة لأنها تعتمد بشكل رئيسي على النحو التحويلي الذي تقوم فيه القواعد التحويلية بتمثيل العلاقة بين البنية السطحية للجملة وبنيتها العميقة .

لا يمكن لهذه الملاحظات البسيطة أن تقلل من قيمة وأهمية الكتاب ، فقد حفل بكم هائل من المعلومات القيمة ، وأود أن أذكر نبيل علي بما قاله في صفحة ١٣ « فان بحثنا هذا لا يعدو أن يكون مجرد بداية ستحتاج حتماً الى التفريع والتفصيل والتعميق » ونحن في انتظار العمل القادم لنبيل علي ليكون إثراءه الثاني في علم اللسانيات الحاسوبية .

***

المراجـــع

١ - الفهري ، عبد القادر الفاسي . المعجم العربي : نماذج تحليلية جديدة ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٨٥ .

٢ - فرغلي ، علي . "Three Level Morphology"، بحث ألقي في ورشة عمل عن الصرف العربي ، جامعة ستانفورد ، كاليفورنيا ، ١٩٨٧ .

٣ - فرغلي ، علي . « الحاسب الآلي والعلوم الانسانية » في مناهج البحث في العلوم الاجتماعية والانسانية » ، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع ، الكويت ، ١٩٨٨ .

٤ - منصور ، فوزي . « استراتيجية اشباع الحاجات الأساسية كاستراتيجية تنموية » ، الحلقة النقاشية الثانية عشرة ، المعهد العربي للتخطيط بالكويت ، ١٩٨٨ .

5 — Bresnan, J. (ed.) 1982. **The Mental Representation of Grammatical Relations.** Cambridge, Massachusetts, MIT Press.

6 — Chomsky, N. (1957). **Syntactic Strucure.** The Hague.

7 — .... (1965). **Aspects of the Theory of Syntax.** Cambridge, Massachusetts, MIT Press.

8 — Chomsky, N. 1981. **Lectures on Government and Binding.** Foris, Dordrecht.

9 — .... 1982. **Some Concepts and Consequences of the Theory of Government and Binding.** Cambridge, Massachusetts, MIT Press.

10 — .... 1984. **Knowledge of Language : Its Nature, Origin and Use.** New York, Praeger.

11 — ..... 1986. **Barriers.** Cambridge, Massachusetts, MIT Press.

12 — Gazdar, G. et al. 1985. **Generalized Phrase Structure Grammar.** Cambridge, Massachusetts. MIT Press.

13 — Jackendoff, R. 1977. **X-Bar Syntax : A Study of Phrase Structure.** Cambridge, Massachusetts, MIT Press.

14 — Kay, M. 1987. Nonconcatenative Finite-State Morphology. Presented at the **Workshop on Arabic Morphology, Stanford University.**

15 — Koskenniemi, K. 1983. **Two Level Morphology : A General Computational Model for Word-Form Recognition and Production.** Doctoral Dissertation, University of Helisinky.

16 — Selkirk, E. 1982. **The Syntax of Words.** Cambridge, Massachusetts, MIT Press.

17 — Weaver, W. 1955. "Translation", in Locke & Booth (eds.) **Machine Translation of Languages,** New York, Technology Press of MIT and Wiley.

* * *

بيروقراطية الخدمات الجماهيرية

تأليف : ميشيل ليبسكي
عرض وتحليل : فهد الناصر
مدرس علم الاجتماع

يعد كتاب « ليبسكي » المعنون « بيرقراطية الخدمات الجماهيرية » أول كتاب رئيسي حول البيرقراطيين المتصلين بالخدمات الجماهيرية ينشر وسط اهتمام أكاديمي متنام بهذا المجال .

وتدور الدراسة حول مكان الفرد في سياق الخدمات العامة ، ويخلص المؤلف ، من دراسته ، الى أن فهما أفضل للسياسة العامة يمكن أن يتحقق ليس من خلال دراسة أنشطة وأعمال المستويات الادارية العليا ، بل عن طريق دراسة العلاقة بين من يقدم الخدمة مباشرة ومن يتلقاها .

وتستند الدراسة الراهنة الى ملاحظات جرى تسجيلها عن السلوك الجماعي لتنظيمات الخدمة العامة ، وتسعى الدراسة كذلك الى تطوير نظرية حول نشاطات بيروقراطيات الخدمات الجماهيرية كما يمارسها العاملون في تلك التنظيمات والمؤسسات .

ويرى المؤلف أن موظفي تلك المؤسسات التي تتعامل مع الجماهير ، يشغلون مركزاً دقيقاً في المجتمع الأمريكي في الوقت الراهن . وهو يعرّف الموظف الذي يتعامل مباشرة مع الجمهور بأنه « بيرقراطي مستوى الشارع » على حد تعبيره ، وذلك مثل المدرسّين وضباط الشرطة والاخصائيين الاجتماعيين والقضاة والمحامين وموظفي مؤسسات الخدمات العامة ، ومن ثم فهو يشير الى الهيئات التي ينتمي اليها أعداد كبيرة من هؤلاء بوصفها « مؤسسات بيرقراطية على مستوى الشارع » على حد تعبيره ، أي مؤسسات بيرقراطية تتعامل مباشرة مع الجماهير .

ان الأساليب التي يقوّم من خلالها أولئك الموظفون العاملون بتلك المؤسسات ، الخدمات والجزاءات ،

ويحددون بواسطتها ضروب حياة الناس وفرصهم ، تشكل السياق الاجتماعي والسياسي الذي يعمل الناس من خلاله ، وتوجهه .

ويتحكم هؤلاء البيروقراطيون المتعاملون مع الجماهير في الجدل السياسي أو الخلافات السياسية التي تدور حول الخدمات العامة وذلك لسببين عامين ، يرجع أولهما الى أن الجدل والخلافات حول مجال الخدمات الحكومية انما تدور أساساً حول هؤلاء الموظفين العموميين من حيث مجال عملهم ووظائفهم . أما السبب الثاني فيكمن في أثرهم الملموس على حياة الناس فهم على سبيل المثال الذين يشكلون ـ اجتماعيا ـ توقعات المواطن للخدمات الحكومية ، كما يصوغون على نفس المستوى أيضاً مكانه في المجتمع السياسي ، انهم على حد تعبير ليبسكي « يمسكون بمفاتيح بعد من أبعاد المواطنة » وهو مقتنع تماماً بضرورة النظر الى موظفي المستويات البيروقراطية الدنيا هؤلاء ، ليس بوصفهم منفذي سياسة فقط ، بل بوصفهم صناع سياسة المنظمات التي يعملون بها .

ويتسق منطق ليبسكي ، الذي يضفي أهمية بالغة على بيروقراطيي الخدمات الجماهيرية ، أو كما يطلق عليهم في بعض الأحيان موظفي خط المواجهة الأمامية في مؤسسات الخدمات العامة ـ يتسق ـ مع أغلبية البحوث والدراسات في هذا المجال ، أي مجال المؤسسات البيروقراطية .

وقد حدد بيتر بلاو (Blau, 1956) ثلاث خصائص تشترك فيها تلك المؤسسات بوصفها خصائص ضرورية لأدائها واستمرارها ، وهي التخصص في الأدوار والأعمال والمهام ، ووجود قواعد موضوعية مستقلة ذاتياً عن الأشخاص ، ووجود توجه عام لانجاز أهداف وغايات محددة بكفاءة وفاعلية .

ويَعتمد مدى قدرة التنظيم البيروقراطي على المحافظة على تلك الخصائص واستمراريتها على التوازن الدينامي الذي تحرص على استمراره بالنظر الى علاقته بالبيئة والوسط العام الذي يوجد التنظيم في اطاره . وتحتفظ البيرقراطية باستقلاليتها وتميزها وقدرتها على تحقيق أهدافها طالما ظلت الرقابة التنظيمية والاشراف وصنع السياسة ، ووضعها في أيدي أصحاب الحق الشرعي في ممارسة تلك المهام . وقد تتعارض هذه النتيجة مع حالة التمركز البيروقراطي "Bureacratization" التي تعني تكريس الأنشطة والقوة البيرقراطية لخدمة مصالح المؤسسة البيروقراطية ، أو لخدمة مصالح الصفوة أو النخبة العليا في التنظيم .

ان آثار التمركز البيروقراطي ، كما يذهب أيزنشتات (Eisenstad) يمكن أن تحتوي على تطوير وتنظيم صارم متعاظم regimentation لبعض مجالات الحياة الاجتماعية ، ووضع أهداف وخدمات ـ المؤسسة لصالح مصالح قوى وتوجهات مختلفة (P. 306) .

ويضرب أيزنشتات مثلاً بالحزب السياسي الذي يمارس ضغوطاً على من يتوقع تأييدهم له ، وذلك في محاولة لاحتكار حياتهم الخاصة والمهنية والانفراد بها حتى يجعلهم تابعين للحزب تماماً ومعتمدين عليه .

وبذلك يكون لدى الجهاز الوظيفي للحزب القوة والنفوذ الذي يمكنهم من تغير مسار الحزب ورسالته الحقيقية وذلك بحكم كونهم في خط المواجهة ، فهم على صلة مباشرة بالمؤيدين المحتملين في دائرة الحزب .

ويحتل بيرقراطيو مستوى الشارع الوضع نفسه تقريباً فمنهم صانعو القرار الذين يحتكون احتكاكاً يومياً مباشراً مع عملاء التنظيمات والمؤسسات ، وهم يستطيعون ، من هذا الموقع ، كما يوضح ليبسكي ، أن يغيروا من المجال الشرعي والوظائف الشرعية للتنظيم وذلك من خلال تقديم « منافع وخدمات أقل » وتوقيع « جزاءات أكبر » على العملاء ، خدمات أقل مما تحدده اللوائح والتشريعات التنظيمية ، وجزاءات أكبر مما تحدده تلك اللوائح أيضاً . وهكذا فان تأثيرهم يمتد الى بعض مجالات الحياة الاجتماعية بتغييرهم بعضاً من أهداف الخدمة وقد يتم توجيهها لصالح البيروقراطية على حساب مصالح العملاء والمصالح العامة .

وفي ضوء الخصائص الثلاث المشتركة للتنظيمات البيروقراطية التي حددها بيتر بلاو يمكن القول إن بيرقراطيي مستوى الخدمات الجماهيرية الذين يتجاوزون سلطاتهم يخاطرون ويتجاوزون خاصية التوازن الدينامي من خلال فشلهم في المحافظة على خاصيتي التخصص في الأدوار والقواعد الموضوعية المستقلة .

وخلال تحديد ليبسكي وتحليله لمشكلات هؤلاء الموظفين وظروف عملهم ، يناقش الصراع بين انفلات العاملين وتصرفهم على هواهم وبين الاتساق والتنظيم الاجرائي الضروري في ضوء اعتبارات المساواة ، كما يناقش الصراع بين استقلالية العامل أو المُظَف وبين المتطلبات التنظيمية للرقابة الاشرافية . لقد أعطي هؤلاء الموظفون صلاحيات واسعة للتصرف مع العملاء ومعاملاتهم وفقاً لظروف كل منهم ، في نفس الوقت الذي يُتوقع منهم أن ينفذوا الاجراءات التي تتطلب شكلاً من أشكال التقنين التي عادة ما تتجاهل الاعتبارات الانسانية للعملاء . إن ظروف العمل في هذه المؤسسات غالباً ما تضع العاملين بها في مواقف متناقضة على نحو ما يذهب اليه ليبسكي .

إن المهمة المشتركة التي تواجه بيرقراطيي الخدمات الجماهيرية تتمثل في التوفيق بين مسئولياتهم غير المحدودة في اتخاذ قرارات تتعلق بمشكلات العملاء ، وقدرتهم المحدودة على حل تلك المشكلات فعلاً . ومن شأن هذا التوفيق أن يؤدي الى ممارسات تضر بمصالح العملاء ، كأن تقلل من طلبهم للخدمات في حالة تطبيق إجراءات روتينية غير ضرورية ، ووضع العقبات أمامهم لدى طلبهم لتلك الخدمات .

وينتقل ليبسكي لمناقشة الفروق بين موظفي الخدمات الجماهيرية والمديرين فيذهب الى القول بأن « العاملين في المستوى الأدنى يتميزون بممارسات متعلقة بأعمالهم تختلف عن تلك الممارسات التي يتسم بها المديرون ، فمن مصلحة العاملين أن يقللوا من الأخطار التي يتعرضون لها وأن يقللوا من المتاعب التي يتعرضون لها في العمل وأن يزيدوا من دخلهم واشباعهم الشخصي . ان اولويات العاملين لا تهم الادارة في جانبها الأعظم الا بمقدار ارتباطها بالانتاجية والفاعلية . اذ يهتم المديرون بتحقيق النتائج التي تتفق مع أهداف مؤسساتهم » (P. 18) .

ويركز ليبسكي على ندرة المصادر في وسط يتطلع الى خدمات غير محدودة ، كما يركز على الافتقار الى التحديد الدقيق للمسئولية Accountability في مؤسسات وهيئات وتنظيمات تتسم بوسائل تكنولوجية تفتقر الى

الدقة ، كما تتميز بأهداف غامضة وغير محددة . كما يهتم أيضاً بالعوامل التي تسهم في خلق هوّة بين العاملين والعملاء . ثم يستكشف آنئذ نتائج تلك العناصر وآثارها ، فالمحصلة سلبية بالنسبة للعملاء ، وأشكالية فيما يتصل بالرقابة التنظيمية ، أما بالنسبة لرضا العاملين عن العمل فهو محدود في أحسن الأحوال .

ويذهب ليبسكي الى أن موظفي الخدمات الجماهيرية ـ في تلك الظروف يفتقدون الوقت والتدريب والمعلومات التي تمكنهم من الوفاء بزخم الاحتياجات والمطالب المنوط بهم تحقيقها ، واذا أضفنا الى ذلك غموض أهداف التنظيم وتضاربها بما تعكسه من خلاف سياسي ، فان قياس أداء العاملين ونتائج الخدمات تصبح مسألة نادرة ، أما العملاء فلا حول لهم ولا قوة في التحكم في الموقف ، ومن ثم تقل المنافع التي سيحصلون عليها وتكثر الجزاءات التي يقعون تحت طائلتها .

ويسعى ليبسكي الى اختيار نظريته عن التحكم في ظروف العمل ، وهو يضع في اعتباره أن موظفي الخدمات الجماهيرية يعملون في ظروف تنطوي على درجة عالية نسبياً من عدم اليقين وذلك بسبب تعقد موضوع عملهم وهو التعامل مع الناس ، والسرعة التي تتطلبها عملية اتخاذ القرارات ، وكثرة تلك القرارات ذاتها .

وينطوي اختبار هذه النظرية على تحديد ما اذا كانت النتائج السلوكية المشتركة تحدث عبر مهن جماهيرية مختلفة ومتباينة ، يمر العاملون فيها بظروف عمل متشابهة .

وقد كشف عن أن كافة موظفي الخدمات الجماهيرية يميلون الى تضييق نطاق الخدمات وتحديدها ، كما يميلون الى التحكم في العملاء وفي ظروف العمل ، ويطورون وسائل سيكلوجية لاختزال التفاوت بين الأداء الذي يتوقعونه من أنفسهم وبين حصيلة الخدمة الفعلية التي يحصل عليها عملاؤهم .

ويعتمد ليبسكي على مجموعة من المصادر التي تمكنه من تقديم وصف وتحليل ممتاز لما يجري في ظروف العمل فهو يفسر ـ بأسلوب متعاطف مع كل من العاملين والعملاء ـ الدوافع البرقراطية الكامنة وراء مثل تلك الممارسات ، مثل توزيع الخدمات على أفضل العملاء الذين قد لا يكونون في حاجة ماسة اليها (كما هو الحال حينما تلاحق برامج الارشاد الوظيفي أولئك العملاء الذين من الممكن أن يجدوا فرص عمل دون تدخل تلك البرامج) والاقتصاد في الموارد التي يمكن تحقيق أقصى كفاءة من خلالها وذلك بممارسات مثل تحويل سلطة اتخاذ القرار للآخرين وهلم جرا ، حيث تصبح كل ممارسة من تلك الممارسات بمثابة ميكانزم بقاء فردي وتنظيمي .

لقد أشرنا من قبل الى تعريف ليبسكي لموظفي الخدمات الجماهيرية (مستوى الشارع) بوصفهم أولئك الذين يحتكون بالجمهور بصورة مباشرة أثناء قيامهم بأعمالهم والذين يتمتعون بخبرة في تلك الأعمال . وإن أردنا المقارنة فقد يكون مفيداً أن نتمعن في تعريف داونز (Downs, 1967) للبيرقراطي وذلك في دراسته المعنونة « في داخل البيرقراطية » ، فهو يعرّف

البيرقراطي بوصفه شخصاً يتسم عمله بأربع سمات أساسية على النحو التالي :

١ ـ أنه يعمل في تنظيم كبير .

٢ ـ وهو متفرغ لعمله في هذا التنظيم ويحصل من عمله هذا على النصيب الأعظم من الدخل .

٣ ـ تنبني السياسة التي يتبناها التنظيم ازاء العاملين بها على معيار الانجاز أو الاداء الوظيفي .

٤ ـ ان تقييم انتاجية أي فرد من العاملين لا يمكن أن يتم بصورة مباشرة أو غير مباشرة وعلى أسس سوقية وتجارية من خلال العمليات التبادلية الاختيارية ، دون أن يجري تقييم أداء التنظيم وفقاً للأسس ذاتها .

وبينما يفي بيرقراطيو الخدمات الجماهيرية كما يعرفهم ليبسكي بمتطلبات المعيارين الأولين اللذين حددهما « داونز » ، فان نقطة أساسية من نقاط أطروحة ليبسكي تظل متمثلة في أنه من الصعوبة بمكان إجراء تقييم وأداء هذا المستوى من العاملين ، وهو يسوق أسباب هذه الصعوبة على النحو التالي :

١ ـ غموض الأهداف ، وذلك مثل توفير السلامة العامة أو تأهيل المواطنين تأهيلاً جيداً .

٢ ـ ثمة متغيرات عديدة في السلوك الانساني ، وثمة استحالة لتعيين ما يمكن أن يحدث للعملاء في حالة غياب التدخل والاعتراض ، وميل موظفي الخدمات العامة الى أداء أعمال يصعب تدقيقها ومراجعتها اذا ما قورنت بمعظم الأعمال التنظيمية الأخرى ، وكون هذه الأعمال تجري في إطار معايير للعمل (مثل ثقة العميل) مما يقلل من الدقة في التقييم الى حد كبير .

وينطبق على موظفي الخدمات العامة ، السمة أو الخاصية الأخيرة التي طرحها « داونز » أيضاً ، والتي يذهب منها الى استحالة قياس انتاجية الموظف بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، إذ يذهب « ليبسكي » الى أن هؤلاء الموظفين يضعون معايير يقيمون أداء العاملين وفقاً لها ، فعلى رجال الشرطة أن يقبضوا على عدد معين من المطلوبين شهرياً ، وعلى الاخصائيين الاجتماعيين أن يدرسوا عدداً معيناً من الحالات لكن كفاءة تلك المعايير فيما يتصل بالسلامة العامة أو قدرة العميل عند الاخصائيين الاجتماعيين على التغلب على المشكلات تظل منطوية على إشكاليات مثيرة للجدل .

ويكشف ليبسكي ويمزيد من التوضيح « عن التعقيد الذي يكتنف تفسير مثل تلك المقاييس الأدائية والانتاجية حين يثير تساؤلات حول ما اذا كانت زيادة معدلات المقبوض عليهم تعني أداء جيداً للشرطة فيما يتصل بمجال القبض على المطلوبين أم أن ذلك هو العكس بمعنى أن ذلك يشير أيضاً الى تزايد معدلات الجريمة ومن ثم تزايد أعداد المطلوب القبض عليهم .

ويحلل ليبسكي أيضاً ، التطبيقات الراهنة للمقاييس الادارية التي صممت لتأمين وتوفير وضمان المساءلة والمحاسبة بين بيرقراطي الخدمات العامة ، لكنه ينتهي الى استحالة تلك المحاسبة والمساءلة البيرقراطية بين

المستويات الأولى من العاملين الذين يتمتعون بدرجة عالية من حرية التصرف فيما يتصل بالجوانب النوعية (أي التي لا يمكن قياسها كمياً) من أعمالهم .

ويناقش « ليبسكي » . . كذلك الأزمة المالية وانعكاسها على بيرقراطيي الخدمات العامة ، ويخلص من هذه المناقشة الى تحليل الامكانات والوسائل الكفيلة بزيادة فاعلية الخدمات الحيوية التي يقوم بها العاملون في هذا المستوى « أي مستوى الشارع والجماهير » .

وثمة نتيجة هامة تترتب على تكيف العاملين في مجال الخدمات مع المواقف المتناقضة والمتصارعة التي يجدون أنفسهم فيها ، تتمثل في تحول ما يقومون به بالفعل في اتصالهم بعملائهم واحتكاكهم بهم ، الى سياسة تنفيذية . إن ذلك هو ما يجري في مكاتب الرعاية العامة وفي الفصول الدراسية ، وفي الخدمات الجماهيرية الأخرى . ويذهب ليبسكي الى أن تلك السياسة المنفذة فعلاً ، تعكس أشكال عدم المساواة ، وغياب العدالة والتعصب القائمة في هذا المجتمع . وبخاصة ما يتعلق بالفقراء والأقليات .

ليس ثمة شك في أن تحليل بيرقراطية الخدمات العامة يساعدنا في الكشف عن الملامح الشائعة والمشتركة للتعامل مع الناس ، كما أن من شأنه أن يكشف أيضاً عن السمات الفريدة والخاصة ، في الأوساط المهنية المختلفة التي تظهر فيها تلك السمات والملامح .

أن المنهج المقارن ـ في أساسه ـ الذي ينهجه ليبسكي خليق بأن يثير تساؤلات علمية هامة تدور حول الفروق والاختلافات الملموسة في مجالات الخدمات المختلفة . انه يؤلف تأليفاً ذكياً بين نظرية التنظيم وعلم النفس الاجتماعي والمنظور السياسي الراديكالي في كلٍّ مترابط ومتماسك .

وهو لا يقدم أعذاراً عن قصور أعمال موظفي الخدمات العامة ، ولا يحث على مساندتهم بل يضع مشكلة بيروقراطيي الخدمات العامة في موقعها من بنية عملهم في محاولة للكشف عن الظروف التي يمكن أن تطور القطاع العام الذي يهدف الى الخدمات العامة بحيث يستطيع أن يقدم خدمات أفضل لعملائه علاوة على احترامهم وتقدير ظروفهم من ناحية ، والتعرف على الظروف التي يمكن في ظلها توفير عناصر من العاملين أكثر كفاءة وقدرة على تقديم الخدمات بصورة فعالة .

ورغم ذلك يخفق « ليبسكي » في سد الفجوة بين التشخيص الذي يطرحه للمشكلة والعلاج الذي يقترحه لها ، إذ يبدو أن الفلسفة السياسية التي يتبناها وينطلق منها هي ذلك النوع الذي ينشد تغيرات اجتماعية واسعة وشاملة حتى يمكن التغلب على المشكلات الهائلة التي تحوي مجالات الخدمات العامة بوضعها الراهن . إن تشخيصه ببساطة وفي هذا الضوء ـ لا يوحي بعلاج جذري على المدى القريب مع اعترافه بالمجازفات والمخاطرات الفكرية التي تنطوي عليها محاولة صياغة طرق واتجاهات جديدة لرؤية تلك المشكلة .

ان أبرز ما يميز دراسة ليبسكي يكمن في تطلعه الى الربط بين ضربين منفصلين من التراث الفكري

والعلمي ، ألا وهما السياسة العامة وعلم الاجتماع المهني والتنظيمات ، كما تتميز هذه الدراسة أيضاً باحتوائها على تفاصيل مشوقة حول المشكلة التي يتصدى لها ، ومع ذلك فقد أخفقت الدراسة في طرح المشكلات والقضايا وتناولها من وجهة نظر العاملين أنفسهم كتفسيرهم للعمل وما يعنيه بالنسبة لهم على سبيل المثال . أما ما تفتقر اليه تلك الدراسة فهو بعض الاقتراحات حول التأهيل التعليمي للطلبة في المؤسسات التعليمية للنهوض بمثل تلك الأعمال المرتبطة بالخدمات العامة والاتصال اليومي المباشر بالجماهير بما يكتنفها من ظروف معينة .

وفي الختام أرى أنه عمل ممتاز في مجال التنظيم الاجتماعي والادارة وعلم الاجتماع المهني ، وأرى أيضاً أنه لن نعطي الكتاب حقه ما لم يقرأ بتفاصيل فصوله الستة من قبل المتخصصين ، وهو عمل جدير بالقراءة .

***

References

Blau, P. M. (1956). **Bureaucracy in Modern Society.** New York.

Downs, A. (1967). **Inside Bureaucracy.** Boston : Little Brown.

Eisenstadt. S. N. (1969). Bureaucracy, bureaucratization, and debureaucratization. In A. Etzioni, **Sociological reader on complex organizations.** New York : Holt, Rinehart and Winston.

Lipsky, M. (1980). **Street/ Level bureaucracy.** New York : Russell Sage Foundation.

* * *

العدد التالي من المجلة

العدد الرابع - المجلد العشرون

يناير - فبراير - مارس

قسم خاص عن

العلوم الطبيعية والانسانية والاجتماعية

ترحب المجلة باسهام المتخصصين فى الموضوعات التالية :

(أ) العلوم الطبيعية والإنسانية والإجتماعية

(ب) الطاقة النوويـــة

(ج) الإعلام المعاصـر

(د) الفكر العربى المعاصر

دائرة الحوار (دعوة لاضافة باب جديد في « عالم الفكر »)

إن الطبيعةِ الجـادة للدراسات والبحـوث التي تنشر في « عـالم الفكر » تعني ، بحكم التعريف في حالات كثيرة ، أنها لاتمثل فصل الخطاب أو جّماع القول في الموضوع الذي تتناوله . وفي سعي « عالم الفكر » الحثيث لتحقيق المزيد من التواصل مع قرائها ، فإنها تنظر في أمر إضافة باب جديد فيها بعنوان « دائرة الحوار » ، تنشر فيه ما تتلقاه من تعليقات مركزة وجادة ومتعمقة ، وملتزمة بالمنهج العلمي وأدب الحوار في التعليق ، مع ردود كتـاب الدراسـات الأصلية عـلى هذه التعليقات . وتتطلع « عالم الفكر » إلى أن يصبـح هذا البـاب منبرا لتبادل ثريّ ومفيد للآراء يمثل إضافـة مجديـة لما تنشـره من دراسات وأبحاث ، وبما يحقق تفاعلا فكريا مطلوبا ومحمودا بين قرائها وكتابها .

و « عالم الفكر » تفتح الباب ، على سبيل التجربة ، لقـرائها لرفدها بتعليقاتهم فيما بين ٥٠٠ ـ ١٠٠٠ كلمة ، حول ماينشر فيها . فـإذا مـا وضحت استجـابـة القـراء والكتّـاب للفكـرة ، وأدركت الاسهامات حجما معقولا ومستوى لائقا يبرر إضافة مثل هذا الباب ، بشكل غير دوري ، فسوف تبادر إلى ذلك ، شاكرة لقرائها وكتّابهـا حرصهم على التفاعل البناء معها وفيما بينهم لزيادة عطائها الفكري .

مجلس الادارة

ولة الإمارات	٧	دراهم
سعودية	٦	ريالات
طر	٤	ريالات
بحرين	٥٠٠	فلس
يمن الشمالية	٥,٥	ريال
يمن الجنوبية	٤٠٠	فلس
راق	٤٠٠	فلس
بنان	٥٠	ليرة
ردن	٣٠٠	فلسا

سوريا	٥	ليرات
القاهرة	٤٠	قرشا
السودان	٣٠٠	مليما
ليبيا	٥٠	قرشا
مسقط	٥٠٠	بيسة
الجزائر	٦	دنانير
تونس	٦٠٠	مليم
المغرب	٧	دراهم

شتراكات :

بلاد العربيّة ٥ دنانير

بلاد الاجنبيّة ٦ دنانير

ل قيمة الاشتراك بالدينار الكويتي لحساب وزارة الاعلام بموجب حوالة مصرفية خالصة المصاريف
ى بنك الكويت المركزي ، وترسل صورة عن الحوالة مع إسم وعنوان المشترك إلى :

ارة الاعلام - الاعلام الخارجي - ص.ب ١٩٣ الرمز البريدي 13002 الكويت

الثمن
٤٠٠ فلس

مطبعة حكومة الكويت

عالم الفكر

٤

المجلد العشرون - العدد الرابع - يناير - فبراير - مارس ١٩٩٠م

العلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية

- دور المؤسسات العلمية في العلوم الطبيعية والانسانية.
- العلم والقيم الأخلاقية.
- إنهيار اليقين.



"مجلة عالم الفكر"
قواعد النشر بالمجلة

(١) « عالم الفكر » مجلة ثقافية فكرية محكمة ، تخاطب خاصة المثقفين وتهتم بنشر الدراسات والبحوث الثقافية والعلمية ذات المستوى الرفيع .

(٢) ترحب المجلة بمشاركة الكتاب المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات ـ والبحوث المتعمقة وفقا للقواعد التالية :ـ

(أ) أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره .

(ب) أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بالتوثيق والمصادر مع الحاق كشف المصادر والمراجع في نهاية البحث وتزوده بالصور والخرائط والرسوم اللازمة .

(جـ) يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين . . . ,١٢ ألف كلمة ، ١٦,٠٠٠ ألف كلمة .

(د) تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الآلة الطابعة ولا ترد الأصول الى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .

(هـ) تخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمى على نحو سرى .

(و) البحوث والدراسات التى يقترح المحكمون اجراء تعديلات أو اضافات اليها تعاد الى أصحابها لاجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها .

(٣) تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التى تقبل للنشر ، وذلك وفقا لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة كما تقدم للمؤلف عشرين مستلة من البحث المنشور .

ترسل البحوث والدراسات باسم :

وكيل الوزارة المساعد لشئون الثقافة والصحافة
وزارة الاعلام ـ الكويت ـ ص . ب ١٩٣
الرمز البريدي 13002

عالم الفكر

رئيس التحرير: حمد يوسف الرومي
مستشارة التحرير: دكتورة نورية صالح الرومي

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * يناير - فبراير - مارس ١٩٩٠م
المراسلات باسم الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة - وزارة الاعلام - الكويت ص. ب ١٩٣ الرمز 13002

المحتويات

العلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية

•••

شخصيات وآراء

•••

مطالعات

•••

من الشرق والغرب

•••

صدر حديثا

مجلس الإدارة

المحرر الضيف لمحور العدد

الأستاذ الدكتور عبدالمالك التميمي

المحرر الضيف لعدد (العلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية) هو الأستاذ الدكتور عبدالمالك التميمي أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في قسم التاريخ بجامعة الكويت ورئيس قسم التاريخ فيها. له عدة كتب وأبحاث وشارك في عدة مؤتمرات عربية ودولية.

العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية

عبدالمالك التميمي
قسم التاريخ ـ جامعة الكويت

التمهيد

تعريف :

في البداية لا بد من تعريف عام لمفهوم العلم ثم العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية حتى نتمكن من بناء الموضوعات الأخرى ونحدد مسارها . هناك عدة تعريفات أطلقت على العلم بيد أنها لم تستقر على تعريف واحد ، وأهم تعريف يمكننا الاعتماد عليه والمفترض أن يكون جامعا مانعا هو : إن العلم هو مجموعة المعارف والحقائق والخبرات الإنسانية ، وتشمل العلوم كلها الطبيعية والإنسانية والاجتماعية . فالعلوم الطبيعية تعنى أساسا بالمادة وتتناول العلم الطبيعي المحيط بنا بشكل عام .[١] وتنقسم الى قسمين علوم أساسية وعلوم تطبيقية ، فالعلوم الأساسية هي جميع العلوم الطبيعية ما عدا الهندسة ، والعلوم التطبيقية هي الهندسة بتطبيقاتها المختلفة[٢] .

أما العلوم الإنسانية والاجتماعية فهي معنية بالإنسان والتأثيرات البيئية والاجتماعية المؤثرة عليه ، وتستعين بالفكر والحقائق ، ولها مناهجها الخاصة بها .

فاذا كان تعريف العلم بمفهومه الواسع يشمل العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية فان الحياة لا تستقيم على أحدهما ذلك يعني أنهما معا جناحا الحياة ومرتبطان ببعضهما ارتباطا عضويا .

الهدف :

يهدف هذا التمهيد والدراسات المطروحة في هذا العدد من المجلة إلى إيجاد خطاب مشترك ، أو أرضية

(١) أحمد سليم سعيدان ، مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، نوفمبر ١٩٨٨ ، ص ١٢ ، ١٥ .

(٢) د . جاسم الحسن و د . أسامة الخولي ، ندوة العلوم الطبيعية والإنسانية ، المجلة العربية للعلوم الانسانية ، ربيع ١٩٨٩ ، جامعة الكويت ، ص ١٥٢ .

مشتركة يقف عليها اصحاب العلوم الطبيعية وأصحاب العلوم الانسانية والاجتماعية تنهي النزاع المفتعل بين العلمين لخير الانسان وتطوره الحضاري في الحياة .

إن تحقيق هذا الهدف أصبح مطلبا ملحا في وقتنا الحاضر لأن الانجازات الهائلة التي تحققها التطبيقات التكنولوجية المعاصرة قد خلقت جوا من الخوف على مصير البشرية من جهة وربما أوجدت انطابعا واعتقادا بانتهاء دور العلوم الإنسانية والاجتماعية من جهة أخرى . الأخطر هو جموح بعض جوانب الإنجازات التكنولوجية التي تجعل التفكير جديا بأهمية الدور الذي يجب أن تلعبه العلوم الإنسانية والاجتماعية ، وأن الوقت قد حان لردم الهوة بين هذه العلوم ، وما هذه الدراسات الا معالجات جادة لقضايا تهم العلاقة بين نوعي العلوم ، والبحث في طبيعتها وفي تفاعلها لخير الإنسان والبناء على الأرض .

البعد التاريخي :

إن كثافة المعلومات وتطور البحث العلمي قد أوجدا تباعدا بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية إلى حد الانفصال بينهما ، وهذه الظاهرة حديثة . لقد كان الفيلسوف والعالم والأديب يكاد يكون شخصا واحدا[٣] ، وفي تاريخنا العربي الإسلامي شواهد عديدة على ذلك ، أما ما يحدث في ميادين وفروع العلوم المختلفة من ظواهر التجزئة والتخصص الدقيق فإنها رغم إيجابياتها ـ لأنه من الصعب على العقل البشري أن يلم بكل هذه المعارف والمعلومات والتخصصات ـ قد تؤدي الى نتائج سلبية على المعرفة العلمية من جهة وعلى الإنسان وحياته من جهة أخرى .

إن هذا التطور الهائل في العلم والتطبيقات التكنولوجية قد حدث في فترة زمنية وجيزة ، وإننا نسمع ونرى إنجازات تحدث كل يوم لم تكن لتتحقق في قرون سابقة .

ففي العشرينيات من هذا القرن كانت صلتنا نحن العرب بالتكنولوجيا ضئيلة : مصابيح كهربائية نسمع عنها ولا نراها ، وأجهزة هاتف في مكاتب حكام المحافظات ، وسيارات بطيئة الحركة ، وطائرات تبعث الخوف أكثر من الدهشة . وفي الثلاثينيات طغى المذياع على الحاكي ، وعمت المصابيح الكهربائية ، وأنشئت دور السينما ، ويكاد هذا يكون كل عهدنا بالتكنولوجيا في حينها .[٤]

ودخلنا في الاربعينيات من هذا القرن في عصر تزايد فيه العلم والتقنيات حتى بلغ أضعاف ما بناه الانسان على مر العصور ، وفيه انفصل العلم عن الفلسفة التي كانت بالأمس القريب تضم كل المعارف الإنسانية حتى لو ظهر شخص مثل برنارد راسل ليجمع بين الرياضيات والفلسفة في عصرنا . إن ما نعرفه عن علم العصر الحاضر يحمل جوانب لا أخلاقية بعيدة عن مبادىء فلسفية وإنسانية توجهه السياسة وهنا مكمن الخطر على الحضارة الإنسانية .

(٣) د . أسامة الخولي ، ندوة العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ، المصدر السابق ، ص ١٦٠ .

(٤) أحمد سليم سعيدان ، المصدر السابق ص ١٥٣

الآثار السلبية للتطور الصناعي :

إن اعتقاد عدد من الدول المتقدمه بأن تطوير صناعة السلاح مثلا هو الذي يوفر الأمن وحماية مصالحها قد أفضى إلى تطوير خطير في أنواع معينة من الاسلحة تهدد مصير البشرية جمعاء بما فيها شعوب تلك الدول الصانعه لذلك السلاح .

ثم إن تطور التقانه في عصرنا بهذه الكيفية والكمية والسرعة له آثار جانبيه خطيرة على صحة الانسان ومستقبله على الأرض فقد أصبح تلوث البيئة وتطور الصناعه أحد المشكلات الأساسية التي تواجه الانسان في عصرنا ففي الوقت الذي تتطور فيه الصناعه تبذل الجهود والأموال الكبيرة للحد من التلوث البيئي الذي أصبح مشكلة أساسية مستجدة في حياتنا ، ومصدرا لكثير من المتاعب والامراض للبشر .

لقد شهد العالم المتقدم في النصف الثاني من القرن العشرين أمرين أفضيا الى تغيير جوهري في الحياة . الاول ، تفجر المعرفة العلمية والقدرة التكنولوجية ، والثاني ، تفجر التكاثر السكاني*(٥) . لكن السؤال الهام هو : كيف تطور العالم المتقدم ؟ من دراسة التاريخ وتأمل تجاربه نجد أن الغرب قد تطور بسبب اعتماده على العلم والتفكير العلمي ، ولم نتطور نحن لأننا لم نفعل كما فعل ، بل لم نفعل كما فعل أسلافنا .

الروابط بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية :

يتميز كل من العلمين بالتراكمية المعرفية ، فهذا التطور الذي نراه اليوم سواء في العلوم الطبيعية أو في العلوم الانسانية والاجتماعية ليس وليد اليوم ، وانما هو نتاج جهد بشري إستمر مئات السنين .

وفيما يتعلق بالمنهج فمن الخطأ الاعتقاد بأن هناك منهجا واحدا في أي نوع من العلوم ، كما أنه ليس هناك علم بدون منهج ، المهم هو التفاعل والتقارب في المناهج المتبعة في العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية أو بعض فروعها .

وتحرص العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية على عدم تأثر نتائج البحث العلمي بمواقف ومعتقدات الشخص الباحث ، ولكن لا تخلو المسألة على أي حال من موقف الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية .

إن الكثير من العلوم الطبيعية يعتمد على التجربة وتكرارها للحصول على النتيجة نفسها أو نتائج أخرى ، لكن ذلك غير ممكن في العلوم الإنسانية والاجتماعية ، فلكل علم طبيعته وخصوصيته ، وهذا لا يعني أن كلا منهما لا علاقة

---

(٥) أحمد سليم سعيدان ، المصدر نفسه ص ١٤٣ - ١٤٤ .

(*) هناك أمور أخرى في غاية الأهمية بالاضافة الى تفجر المعرفة العلمية والقدرة التكنولوجية وتفجر التكاثر السكاني ، مثل تطور البحث العلمي ، وتلوث البيئة وغيرها .

له بالآخر لأن هدفهما معا خدمة الانسان والحضارة الإنسانية ولأن العلم بفروعه المختلفة يسعى لمواجهة احتياجات الإنسان الأساسية والعمل على حل المشكلات التي تواجهه سواء أكان العلم طبيعيا أم إنسانيا .(٦)

ومهما كان اعتقاد أصحاب العلوم الطبيعية أو بعضهم بأن العلوم الانسانية والاجتماعية تقع في نطاق الأدب وهي ثقافة عامة وليست علوما ، وأيضا مهما كان اعتقاد أصحاب العلوم الانسانية والاجتماعية أو بعضهم بأن العلوم الطبيعية تتعامل مع المادة وليس مع الانسان ولم تصل الى ما وصلت لولا تطور العلوم الإنسانية فإن الحقيقة التي لا مفر منها هي وجود خطاب مشترك وأرضية مشتركة بين العلمين وبين المجتمع العلمي الطبيعي والمجتمع العلمي الإنساني والاجتماعي محورها مواجهة احتياجات الإنسان وحل مشكلاته .

إن التطبيقات العلمية يجب أن ترتبط بأوضاع المجتمع وهذا يتطلب تضافر الجهود في هذا الميدان مع جهود العلوم الإنسانية والاجتماعية ، واذا سلمنا بأن ما يصنع من المعرفة العلمية وناتجها قضية مجتمعية إنسانية فكيف نستطيع الفصل بين التطبيقات التكنولوجية والعلوم الإنسانية ؟ إن العلم ليس كيانا مطلقا دوافعه ذاتية بل يرتبط عضويا بأوضاع المجتمع ، ومهما كانت الرؤ ية الداخلية للإنجاز العلمي فان الرؤ ية الخارجية تؤكد أن التكنولوجيا نتاج تطور البحث العلمي ، وأن البحث العلمي في جميع العلوم يرتبط باحتياجات المجتمع .

التكنولوجيا المعاصرة :

إن التكنولوجيا هي الأساليب والخبرات والمعارف والتطبيقات العلمية التي يحقق بها المجتمع على مر العصور احتياجاته وهي أقدم من العلم(٧) .

لقد وضع التطور التكنولوجي الهائل الذي جاء بعد الثورة الصناعية العالم أمام تطور جديد ، وخطر جديد ، فهناك تحول نوعي في علم إلالكترونات الدقيقة ، وتطور هائل في أبحاث الفضاء وتطبيقاتها وأخطر من ذلك ما يجري في هندسة الجينات أو الهندسة الوراثية . فتقف أخطار الهندسة الوراثية على قدم المساواة مع فوائدها ، ويجري استخدام الأساليب الهندسية الوراثية في خلق أنواع مختلفة من البكتريا لإنتاج الهورمونات مثل الانسولين البشري ، وهورمون النحو النخامي لدى الانسان ، والانترنرون البشري وكذلك البروتينات الفيروسية لاستخدامها في إنتاج إللقاحات فيما بعد(٨) .

(٦) د . اسامة الخولي ، د عبد الله العمر ، د . عبد المالك التميمي ، د . سليمان الشطي ، ندوة العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية ، المصدر السابق ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٧) د أسامة الخولي ، ندوة العلوم الطبيعية والعلوم الأساسية ، المصدر السابق ص ١٦٥

(٨) د . جون ب ديكسون ، ترجمة شعبة الترجمة باليونسكو ، العلم والمشتغلون بالبحث في المجتمع الحديث ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ابريل ١٩٨٧ ، ص ٢٢٨ انظر أيضا ٠ د عبد المحسن صالح ، التنبؤ العلمي ومستقبل الانسان ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ديسمبر ١٩٨٤ الطبعة الثانية ص ٢٣٦ .

وهناك استخدامات أخرى لنتائج التطور التكنولوجي ، فهناك تحويل لمصانع المبيدات الحشرية إلى مصانع لإنتاج الغازات السامة ، وهناك فساد البيئة الذي يهدد البشر ، فقد بدأ الحديث عن ثقب طبقة الاوزون في الفضاء ، وانتشار سرطان الجلد ، وتأثير ارتفاع درجة الحرارة على الأرض ، وصناعة الأسلحة وغيره مما يهدد البشرية بالفناء وهو أمر في غاية الخطورة . لكن المسئولية لا تقع على التكنولوجيا بل على استخدام نتائج التطور التكنولوجي ، كما يجب ألا ننسى الجوانب الإيجابية لتلك الاستخدامات في مواجهة الأمراض وفي تطور نواحي الحياة المختلفة(٩) .

إن العلم وتطبيقاته التكنولوجية هو العامل الأساسي والأول الذي أعطى العالم المعاصر ما يتيمز به من تغييرات سريعة ، لكن التطبيقات العسكرية للعالم هي التي فاقت كل ما عداها الى درجة جعلت عددا متزايدا من الناس يفكرون في الأمر من مختلف الاتجاهات يتساءلون هل سيكون للنوع البشري مستقبل على كوكب الأرض إذا استمر في استخدام قدراته العلمية دون التزام بضوابطه الأخلاقية وأصبح القلق يتملك عددا كبيرا من العلماء والمفكرين(١٠)

هذه التكنولوجيا لها سمات وسرعة تطور لم تشهدها البشرية من قبل ولنقل قد بدأت منذ الحرب العالمية الثانية . وتنسجم هذه التكنولوجيا بالتئام شديد بين العلم النظري والعلم التطبيقي ، وهذا التوجه سيؤدي الى مزيد من التبعية لأن البون شاسع بيننا وبين الدول المتقدمة في هذا المجال .

صحيح أن العلم والتكنولوجيا يؤديان الى إنتاج ثروات الانسانية وتعزيزها كأحد إنجازاتها لكن ذلك الجانب الايجابي لا يلغي مخاوف المفكرين والعلماء من الشطط في استخدام نتائج التطور العلمي والتكنولوجي . يقول الدكتور عبد الله العمر في هذا الصدد : « ان المسار الخاطىء الذي يسير فيه العلم ناجم عن افتقار كثير من السياسيين والعلماء للابعاد الأخلاقية والإنسانية ، فالمسألة اليوم لم تعد مسألة إنجازات علمية أو تطورات تكنولوجية نستطيع أن نحققها في هذا الميدان أو ذاك من ميادين الحياة ، وانما المسألة اليوم ترجع في الاساس إلى النتائج والعواقب الوخيمة التي يمكن أن تترتب على استخداماتنا للعلم وتطبيقاتنا للتكنولوجيا »(١١) .

إن القلق يسود عامة المفكرين والمثقفين حول نتائج هذه الثورة التكنولوجية المعاصرة ، فهل هي في صالح الانسان أم ستكون سببا في فنائه وتدمير حضارته ؟ ، لقد كانت الشعوب في الماضي تشعر بالسعادة عندما يكتشف علماؤها إنجازا علميا أو يبدعون في مجال من مجالات حياتها ، وكان ذلك يحدث بين فترة زمنية وأخرى قد تمتد عشرات السنين ،

---

(٩) د . أسامة الخولي ، ندوة العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ، المصدر السابق ، ص ١٧٤

(١٠) توماس اودهيامبو ، ترجمة سعد رهران ، العلم كجزء من الثقافة الإفريقية ، مجلة الثقافة العالمية ، العدد ٢٤٦ ، السنة الثامنة ، مايو ١٩٨٩ ، ص ٧ ـ ٨ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت .

(١١) د . عبد الله العمر ، أرض في مهب الريح ، جريدة القبس ، الكويت ١٥ / ٦ / ١٩٨٩ م العدد ٦١٤٢ .

انظر أيضا : مجموعة من الباحثين ، استراتيجية تطور العلوم والثقافة في الوطن العربي ، إصدار مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، أغسطس ١٩٨٩ م ، ص ٤٦ ـ ٤٧ .

لكننا اليوم نجد أنفسنا غير قادرين على استيعاب ومواكبه هذا الكم والنوع الهائل من نتاج التطور العلمي والتطبيقات التكنولوجية ، ويزداد خوفنا وقلقنا مع كل اكتشاف واختراع لأن الجوانب السلبية توازي الجوانب الإيجابية في استخدام منتجات الثورة التكنولوجية التي نعيشها ، هذا الوضع يفرض أن يكون هناك دور فعال للعلوم الانسانية والاجتماعية في التفاعل مع العلوم الطبيعية من جهة وفي التوعية لتجنب سلبيات التطبيقات التكنولوجية من جهة أخرى .

التطور العلمي والقرار السياسي :

يلعب القرار السياسي دورا مهما في التطور العلمي لأن أي مجال من مجالات التنمية لا يمكن أن يشهد تغييرا أساسيا الا بقرار سياسي لكن القرار السياسي وحده لا يحقق حلم المجتمعات في النهضة لأن شروطا اخرى يجب توفرها إلى جانبه مثل الإمكانات المتاحة والظروف الموضوعية .

لقد حرصت الدول المتقدمة أو حرصت الدول الغربية ـ حتى تحقق تقدمها ـ على إقامة المؤسسات العلمية بقرار سياسي لانها أدركت بوعي النتائج الايجابية لمثل تلك المؤسسات في المستقبل . والطريق الصحيح في هذه المسألة هو اختيار المنهج العلمي والتخطيط من قبل السلطة السياسية وحماية ذلك الاختيار ، وتتوقف حماية هذا القرار على أصحاب العلوم الانسانية فمهمتهم التمهيد له والدعوة له وتنمية وعي الناس بأهميته ، ومن ثم الدفاع عنه .

إن وجود المؤسسات العلمية المنتجة أساس لحماية القرار السياسي في مسألة التطور العلمي ، وان تأسيس القيم وإيجاد الفكر الفلسفي والسياسي والجمالي عنصر هام للدفاع عن المؤسسات العلمية وتأكيد وجودها ويرى البعض بأنّ وجود الديمقراطية شرط أساسي في التطور العلمي ، فهي تشكل ضمانة أكيدة لتوجيه التطور العلمي لخدمة المجتمع ولكنها ليست شرطا حاسما في التقدم العلمي[١٢] .

كيف لا يساهم القرار السياسي في مسألة التطور العلمي ، ومسئولية أصحاب القرار أساسية في وضع الاستراتيجية لتطور المجتمع ومن ضمنها التطور العلمي ؟ إن حركة المجتمع لا يجب أن تتوقف لتحقيق ذلك الهدف اذا لم يكن للقرار السياسي دور في مرحلة من مراحل التاريخ . وهنا لا بد لقوى المجتمع التي تنشد التقدم من أن تلعب دورا يساعد على خلق القرار السياسي الذي يخدم عملية التطور العلمي . ويتطلب توجه القرار السياسي لصالح هذا التطور الى جانب ذلك كله وعي وإدراك صاحب القرار بأهمية العلم والثقافة في حياة المجتمع .

الخاتمة :

هناك علماء نظريون يستكشفون ويتقصون ، فيكتشفون وينظرون ويسهمون في إغناء الفكر العالمي ، وهناك

(١٢) ندوة العلوم الطبيعية والعلم الإنسانية ، المصدر السابق ، ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .

علماء تطبيقيون يبتكرون ويبدعون ، أو يحسنون ويطورون ، وإلى جانب هؤلاء فلاسفة وكتاب يلمون بالعلوم والاتجاهات الفكرية القائمة إلماما يتميزون به عن ذوي التخصص المحدود ، وكلهم أصحاب رسالة(١٣) .

لا يمكن لأي مجتمع يطمح الى النهوض أن يستغني عن الذين يرصدون الحركات العلمية والتكنولوجية ، ويساهمون فيها ، ولا عن المفكرين والمصلحين الاجتماعيين الذين يضعون أيديهم على مواطن الضعف في المجتمع يحللون وينتقدون ويستنتجون ويقترحون ، وشعراء وفنانين يتحدثون عن الجمال واللغة ويمدون الناس بروائع نتاجهم وإبداعهم ، ومترجمين يقدمون لنا روائع الفكر العالمي . إن النهضة هي حصيلة عمل كل هؤلاء وأولئك البسطاء والناس العاديين كذلك الذين ليسوا من المفكرين ولا من العلماء ولكنهم يساهمون في صنع تاريخ البشرية ، ولهم دورهم الهام ولولاهم لما استطاع العلماء المفكرون التوصل إلى ما توصلوا إليه من إنجازات علمية .

والحقيقة أننا بحاجة الى ثقافة علمية واسعة تعطينا من المنهجية ما يتيح لنا فرصة اللحاق بركب الحضارة المعاصرة فهذا يقتضي التخلي عن تقسيم الصفوف في المدارس إلى علمية وأدبية وإلى إشاعة مبادىء العلوم الحديثة موضوعا اجباريا على مراحل الثقافة العامة(١٤) .

سيعتمد مستقبل التطور العلمي على مدى تطور البحث العلمي وعلى الإنجازات العلمية في الحاضر ، لكن ذلك لا يعني ان ذلك التطور لا يحمل المفاجآت والمستجدات التي قد تشكل إضافة حقيقية إلى الانجازات العلمية والتكنولوجية في الماضي والحاضر . المهم ، ونحن نفكر بالمستقبل ، أن نخطط للاستفادة من تطور التكنولوجيا من جهة وأن نعطي اهتماما خاصا للإنسان . ثم حتى تكون نتائج وآثار التطور العلمي والتكنولوجي إيجابية ينبغي مد الجسور بين العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية وردم الفجوة بينهما .

ونستخلص من مناقشتنا لهذا الموضوع ومن الدراسات المنشورة في هذا العدد من المجلة حول العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية النتائج التالية :

ـ إن العلم شامل للعلوم المختلفة سواء أكانت طبيعية أم إنسانية واجتماعية .

وإن ظاهرة التباعد بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية جاءت بفعل كثافة المعلومات والتعمق في التخصص ، وأن الازمة بينهما مفتعلة لأن عملية التطور في المجتمع لا يمكن ان تستغني عن أي منهما .

ـ إن سبب تخلفنا الأساسي يرجع إلى عدم الاعتماد على العلم والتفكير العلمي في حياتنا ، وتطور الآخرون لأنهم اعتمدوا على العلم والتفكير العلمي .

---

(١٣) أحمد سليم سعيدان ، المصدر السابق ، ص ٢٠١ .

(١٤) المصدر نفسه ، ص ١٥٦ .

ـ إن الروابط متينة بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية وليست وليدة اليوم ، وإنما هي حصيلة التجربة التاريخية الإنسانية عبر قرون من الزمان ، ويجب ألا يحـول تطور العلوم والثقـافة دون تقـارب هذه العلوم وتفاعلها .

ـ إن للتطبيقات التكنولوجية جوانب إيجابية وأخرى سلبية ، وإن مهمة العلوم الإنسانية هامة في خلق الوعي لدى الشعوب لتجنب سلبيات التطبيقات التكنولوجية .

ـ ان الآثار المدمرة لبعض تطبيقات التكنولوجيا ترجع الى البعد اللاأخلاقي المصاحب لها . وإن للقرار السياسي دورا أساسيا في مسألة التطور العلمي كما أن المؤسسات العلمية تعتمد على القرار السياسي في دعمها وتعزيز مكانتها ، لكن الوعي المجتمعي مهم في ترشيد القرار السياسي وتوجيهه لصالح التطور العلمي .

هذه هي النتائج بصورة عامة التي يمكن استخلاصها من دراسة هذا الموضوع ، ومن الدراسات التي احتواها هذا العدد من مجلة عالم الفكر .

❊ ❊ ❊

العلوم الطبيعية والإنسانية ودور المؤسسات العلمية في التفاعل بينها

أحمد سعيدان
عمان ـ الأردن

١ ـ توطئـــة :

إن عبارة (العلوم الطبيعية) إنما هي ترجمة للعبارة الإنجليـزيـة (Natural Sciences) أو (Sciences of Nature) ، ويعنى بهـا العلوم التي تختص بـدراســة الطبيعة التي تحيط بالإنسان من أحياء وجمادات وكل ما يتعلق بالأرض والجو والأجرام السماوية . وهذه تشمل ما يسمى العلوم الأساسية من رياضيات وفيزياء وكيمياء وعلوم أحيـاء (حيوانـات ونبـاتـات ، الـدقيقـة منهـا والظاهرة للعيان) ، وتشمل أيضـاً الجيولـوجيا وعلوم الفلك والأرصاد الجوية . وذلك مـا تعني به الكليـات العلمية اليوم ، أعني كليات العلوم والهندسـة والطب والصيدلة والزراعة ، وما يتفرع عنهـا ويرتبط بهـا من تكنولوجيا صناعية وزراعية ، وأدوات سلم وحرب .

إنها بـاختصـار مـا يعنيـه المصـطلح الإنكليـزي (Science) ، وهـذا لا يـطابق تمـام المـطابقـة لفـظة (علم) العربية ، فهذه كلمة عامة تعني كل ما يعلمه الانسان أو يعرفه ، فالعلم في العربية يرادف المعرفة ، ويشمـل فيها يشمـل (العلوم الإنسانيـة) والشرعيـة ، ولكن (العلم) الذي نعنيه في السطور التالية هو ما تعنيه كلمة (Science) .

وعبـارة (العلوم الإنسـانيـة) هي تـرجمـة لكلمـة (Humanities) أي (الإنسانيات) ، وهي ما تركـز عـلى دراسته كليـات الآداب والفنون ، ويشمـل عدا اللغات وآدابها : التاريخ ، وهو على الغالب ، التاريخ السياسي ، والاقتصاد ، والفلسفة والحقوق ، وينضم اليها كليات التجارة والشريعة واللاهوت .

والرياضيات ، وهي من العلوم الأساسية إنما هي فرع من فروع الكليات العلمية ، ولكن في الجامعات التي ليس فيها كليات علوم نجد الريـاضيات تـدرس ضمن الإنسانيات .

وترجمة (Humanities) بعبارة « العلوم الإنسانية » إنما هي دليل على أن لفظة « علم » العربية لا تطابق لفظة Science التي تختص بعلوم الطبيعة ، بمعزل عن الإنسانيات .

ولكن لماذا سميت الدراسات التي تختص بها كليات الآداب بالإنسانيات ؟ إذا كانت هذه التسمية تعني ما هو من صنع الانسان وحده أو اهتمامه ـ بمعزل عن الحيوان ـ فان العلوم الطبيعية إنما هي انسانية أكثر من الإنسانيات ، فإذا كان الحيوان ليس له دين ولا آداب ولا لغة متقدمة ، وليس له أيضاً علم ، وإذا كانت « الإنسانيات » تعني استعراض طبائع الانسان وسلوكه وشؤونه وآماله وآلامه ، وإبداعاته الجمالية ـ بمعزل عن الحيوان ـ فمجال الاعتراض هنا أضيق ، ذلك أن العلوم الطبيعية تعني عرض مقدرة الانسان ـ بمعزل عن الحيوان ـ على دراسة الطبيعة واستكناه ظواهرها وقوانينها ، ومغالبتها .

في تقديري أن كلمتي إنسانيات و Humanities مصطلحان غير موفقين ربما كان أفضل منهما عبارة « الآداب والفنون » العربية وكلمة « Arts» الانكليزية . ولعل خير بديل عن عبارة « العلوم الإنسانية » عبارة « الآداب والفنون » .

فالمسألة المطروحة على بساط البحث في هذه الصفحات هي : مادور المؤسسات العلمية في إقامة تفاعل بين العلم من ناحية وبين الآداب والفنون من ناحية أخرى ؟

ولكن هل ثمة هذا التفاعل ؟ أما في العالم المتقدم فهو قائم ، وأما في العالم الثالث ، بل في العالم العربي بخاصة ، فثمة برزخ بين العلم والأدب لا يبغيان . وغاية هذا البحث التخطيط لإزالة هذا البرزخ كيما يتم التفاعل المنشود ويؤتي ثماره المرجوة .

٢ ـ التفاعل القائم في العالم المتقدم :

غني عن القول أن علوم اليوم هي صناعة غربية . صحيح أن جذورها عربية وهندية وإغريقية وبابلية وفرعونية . ولكن جذوعها وفروعها وأغصانها وأوراقها وثمارها كلها غربية . وهي متطورة آخذة في العلو والنماء ، ومفاتيح تطورها بيد الغرب ، وهي كلما ازدادت تطوراً زادت بعداً عن جذورها ، كشجرة تركب على فروعها شتى أنواع التفاح ، فتؤتي ثماراً غير تفاحها الأصيل .

وعندما كان الغرب يتلقى علومه من الكتب العربية ، كانت لغة العلم فيه لاتينية ، وكان المتعلمون فيه هم القلة التي تتقن اللاتينية ، وأكثر هؤلاء ، بل كلهم ، رجال دين . ثم هو تنبه إلى ضرورة إحياء لغاته البيتية ، وجعلها لغات علم ، وفي غضون ذلك كان إبداعه الفكري الذاتي قد بدأت بواكيره ، فقامت نهضته الفكرية ، ثقافية كانت أم اجتماعية أم أدبية أم سياسية ، والعلم ركن هام من أركانها ، ولذا بنيت لغته المكتوبة بنية علمية ، ومضى تطورها مع تطور العلم .

ثم تنبه الغرب إلى الحاجة إلى وضع مصطلحات علمية خاصة مميزة عن لغة الأدب والحديث ، فاختار لهذه المصطلحات ألفاظاً لاتينية لينأى بلغة العلم الدقيقة عن أفاعيل الطباق والجناس والكناية والتشبيه وغيرها من المحسنات اللفظية التي تزخر بها لغات الأدب والحديث . ومع ذلك ظل العلم يتطور وظلت اللغات الغربية تجاريه في تطوره ، حتى صارت الآداب الغربية الحديثة مجبولة بالعلم ، وغدا العلم الركن الرئيسي من أركانها والملهم الأكبر في تنويع نتاجها ، شعراً كان أم قصة أم فنون رسم أم موسيقى . العلم في الغرب طابع الحياة اليومية ، يرضعه الطفل مع حليب أمه ، ويتلقاه في البيت والشارع والملعب والملهى والصحافة اليومية ، بله المدرسة . في الغرب نجد رجال القلم والأدب والصحافة والسياسة والتاجر في متجره ، والصانع في مصنعه ، والفلاح في مزرعته ، وسائق التكسي ، وربة البيت ـ نجد كلاً من هؤلاء له من العلم المعاصر نصيب ، يتلقاه في الكتب المبسطة ، والنشرات ، والصحف ، وفي الإذاعة والتلفزة بلغات خبراء عارفين يفهمون ما يقولون . أحدث الابتكارات العلمية والتكنولوجية نجد الحديث عنها ، وعما ينتظر من أثر لها ، على لسان الخاص والعام .

وليس هذا كله من أجل أن العلم نشأ مع اللغات الغربية وتطورت اللغات الغربية معه ، حتى صارت لغات علم ، بل يضاف إلى ذلك أن من قيم الحياة في العالم المتقدم أن المرء المثقف ينبغي أن يكون ملماً بما يجري في حقول العلم من مستجدات نظرية وتطبيقية ، وأهم من ذلك أن العالم المتقدم يعيش عصر صراع هو حرب حياة وموت ، أداته النافذة ، صاحبة الغلبة المطلقة ، هي العلم .

من أجل ذلك صرنا منذ الأربعينات من هذا القرن نعيش عصر تفجر علمي رهيب ، المخفي فيه أشد هولاً من الظاهر المرئي ، ولكن العيون يقظة والأذهان متفتحة ، لا تلبث أن تكشف كل خفي وتحاربه بما هو أكثر خفاء . ليس العلم في الغرب من الكماليات ، وإنما هو كالماء والهواء والغذاء : ضرورة من ضرورات الحياة ، وركن من أركانها الهامة ، وسلاح من أسلحتها الماضية .

وبالرغم من أن العلم الغربي نما مع اللغة حتى صار من قيم الحياة الغربية الهامة ـ أقول بالرغم من ذلك فإن الدول الغربية المتقدمة تعمل على إقامة تفاعل أقوى بين العلم والناس والعلم والأدب والعلم والإنسانيات : فعلى الصعيد الشعبي ما إن يتم إنجاز علمي هام مما قد يكون له أثر في حياة الناس ، مثل كشف طبي أو صناعي أو زراعي ، أو ما يحسن أن تعلم به الجماهير ، حتى تنبري وسائل الإعلام لنشره ، بأقلام خبراء علميين تربويين ، في الصحافة والإذاعة والتلفاز ، والندوات والجامعات المفتوحة ، حتى يصبح حديث الخاص والعام . ثم تصدر الكتب العلمية المبسطة تزيد البحث فيه تفصيلاً ، بطبعات شعبية رخيصة الثمن .

وفي هذه الأيام التي تضاعفت فيها كلفة الطباعة وأثمان الكتب ، حتى الشعبية منها ، فإن المكتبات العامة المنتشرة في كل مدينة تقتني منه بضع نسخ ، وتتغاضى عن قيام القراء بتصوير نسخ من المكتبات بالأفست بسعر زهيد . فالغاية هي الفائدة وليست الربح .

حتى الكتب التعليمية قد تتغافل المكتبات العامة عن قيام الطلاب باستنساخها بالأفست ، بل إن بعض الجامعات تنسخ الكتب التعليمية فصلاً فصلاً ، وتبيعها للطلاب فصولاً متتابعة ، فإذا اكتملت فصول الكتاب لدى الطالب ، أمكنه إذا شاء أن يجلده كما يريد .

واذا ظهر كتاب قيم بلغة أجنبية ، وتبين أنه قد يفيد الجماهير أو الطلاب أو المتخصصين ، فإنه لا يلبث أن يترجم بطبعات رخيصة وطبعات متميزة ليختار منها القارىء ما يشاء .

وقد يكون النشر سلاحاً ذا حدين ، فتظهر النشرات العلمية المفيدة إلى جانب كتب اللهو وكتب الخلاعة . فالنشر في البلاد المتقدمة حر ، والقارىء هو الذي يقرر ما يفيده وما يضره . والمربون يعرفون أن بعض الكتب قد تضر ولا تنفع ، ولكن يفضلون أن يترك الخيار للقارىء على أن يقتصر الأمر على الكتب الموجهة ، كيما تبقى الكتب ذات جاذبية خاصة لدى القارىء ، فذلك خير من أن تجعل القراءة نصائح مملة مكررة ، أو أن يؤدي تحريم بعض الكتب أو حجبها عن القراء ، إلى قراءتها خلسة ، لأن كل ممنوع متبوع .

وعلى الصعيد العلمي المتخصص نجد في كل قسم من أقسام الكلية العلمية مختبر بحث يخصص كل ركن من أركانه لفرع من فروع البحث في القسم ، ويشغل كل ركن أستاذ ، وفريق من الأساتذة أصحاب التخصص الواحد أو التخصصات المتقاربة ، فيعملون بعد الفراغ من محاضرات اليوم في إيجاد حلول لمشكلات تعرضها المؤسسات الصناعية أو الزراعية أو التجارية القائمة في البلد أو القطر ، وتعتمد هذه المؤسسات لهم مبالغ سخية من المال يتقاضون منها أجورهم ويشترون بها ما يلزم من معدات ، ويشغلون بها من يحتاجون إليهم من عمال أو مساعدي بحث .

حتى إن ممن لا يعملون في الجامعات من المتخصصين نفراً يعملون في أوقات فراغهم خبراء أو مستشارين لدى الفعاليات القائمة . تعرفت ذات مرة على رجل يحمل درجة الدكتوراه في هندسة السيارات : كان الرجل مفتشاً في وزارة التربية والتعليم في بلده ، مهمته أن يراقب المدارس الخاصة ، ليضمن أنها تشغل أصحاب الكفاءة من المعلمين ، وتؤدي لهم رواتب مجزية ، وأن هؤلاء المعلمين يتبعون مناهج ومستويات تتفق مع ما رسمته الوزارة . ويعمل الرجل الى جانب ذلك خبيراً مستشاراً عند شركة تصنع سيارات من ماركة معينة : فكلما صدر عن الشركة موديل جديد قدمت إليه سيارة يقودها ستة أشهر يجوب بها القطر طولاً وعرضاً ، وقودها وإصلاحها على حساب الشركة ، وهو مطالب بأن يقدم للشركة في أواخر المدة تقريراً ينطوي على ملاحظاته واعتراضاته على الموديل الجديد ، وعلى اقتراحاته التي يراها لإصلاحه . فتضم الشركة ذلك إلى ما يأتيها من الزبائن المقيمين في البلد من اقتراحات أو اعتراضات ، وتدفع بها الى مهندسين تنفيذيين ، فيعملون ما يمكن عمله في وقت قريب بسيارة صاحبنا ثم يعيدونها إليه ليستعملها بقية الحول إلى أن يصدر الموديل الجديد من السيارات .

ولكن ماذا عن المتخصصين الذين لم يحظوا بالحصول على اعتمادات من الشركات أو وظائف لديها ؟ إن المتخصصين بشر ، فمنهم من يغريه حب المال بالانغماس في أعمال إضافية كالطبيب الذي يعمل في عيادة خاصة بعد

الفراغ من عمله الرسمي ، أو المهندس الذي ما إن يفرغ من محاضراته الجامعية حتى يذهب إلى مكتب هندسي خاص ، هؤلاء جميعاً قد يجنون أرباحاً مجزية ، ولكنهم في آخر المطاف يذهبون مع الريح ، ينساهم الناس ، وقلما يذكرهم أحد .

ولكن من المتخصصين من يهوون البحث والاستكشاف ـ فيعملون أفراداً وجماعات ، لا لمطمع ولكن بغية تأدية رسالة ما . وقد يقضون العمر كله فلا ينجزون شيئاً ، سوى إرضاء نزعاتهم الخاصة ، وقد يحصلون على اكتشاف أو اختراع يدر عليهم ما يرضيهم من سمعة ، وقد يدر عليهم أو لا يدر ، ما يرضيهم من مال . هؤلاء هم الذين يتحقق على أيديهم مجد البلد وتقدم الحضارة الإنسانية . ولكن على أيديهم أيضاً يتحقق صنع السلاح المدمر الذي يقضي في لحظة جنون على كل ماصنعه الفكر الإنساني في قرون طويلة .

ما تقدم إنما هو صورة موجزة للخلفية العلمية للحياة في العالم المتقدم . تلك هي الخلفية التي بني عليها العلم المعاصر المتفجر ، وعليها تبنى الآداب المعاصرة ، وما فيها من تنوع وإبداع يتمثل بما تنتج المطابع الغربية من آداب وفنون ، وما تنتج دور السينما والتلفزة من روايات ومسرحيات ومسلسلات وأشرطة فيديو ، مما نراه ونستمتع به ، ثم تنقلب الى مسارحنا ومسلسلاتنا لترى قصص الثأر والغيرة والعنف ، وما أبعد الفرق بين المستوى الحضاري المتقدم والمستوى الجاهلي المتأخر .

إن العلم الغربي يلهم الأدباء بقدر ما يلهم العلماء ، فينوعون إنجازهم ، ويزيدونه جاذبية ، مستندين إلى خلفية علمية صلبة . وهو قد يلهم غير المتخصصين بأكثر مما يلهم المتخصصين ، فمن قبل أن يبتكر العلماء سفن الفضاء وينزلوا أرض القمر ، وضع الأدباء قصصاً تصف مثل هذه السفن وتتكلم عن إنسان القمر أو المريخ باعتبارهما محض خيال . إن خيال أدباء اليوم سيجعله علم الغد حقيقة ، ويبقى خيال الأدباء في العالم المتقدم يسبق إنجاز العلماء ويلهم المتفوقين منهم . العلم هو طابع الحياة الحضارية المعاصرة .

والمواطن في العالم المتقدم يعتز بحاضره الذي يمده بالثقة بالنفس ، ويدفعه إلى صدق الانتماء ، فيعمل على تحقيق أمجاد تضاف إلى ما حقق الماضون ويحقق المعاصرون . أما ماضيه فينظر إليه باعتباره صفحات مطوية في سجل حياته ، إن يكن فيها بدائية قاتمة وسطور معتمة ، فتلك مراحل تجاوزها ، ويبقى الماضي ، بخيره وشره ، تراثاً يحافظ عليه لأن فيه جذوره ومسببات حاضره وأمجاده . إن الفرق الحضاري بين ماضيه وحاضره يزيده ثقة بالنفس وأملاً بمستقبل أفضل وتطلعاً إلى تحقيق أمجاد تضيف اسمه إلى قائمة الخالدين .

ما أكبر الفرق بين فكر المواطن في العالم المتقدم ، وفكر نظيره في العالم الثالث : هذا يتطلع إلى مستقبل أكثر إشراقاً ، وهذا يحن إلى الماضي ويتبرم بالحاضر ويخشى المستقبل المجهول .

٣ ـ حول وضع العلم في العالم العربي :

أخشى إذا أنا أفضت في وصف الصورة الهزيلة لمستوى العلم في العالم العربي ، أن أُشعر بالإحباط تلك الفئة القليلة من العلماء العرب المعاصرين ، الذين حققوا إنجازات محلية قيمة في مجال الابتكار أو الاكتشاف أو التطوير . ولكن مهما يكن عدد هؤلاء ـ وهم قد لا يزيدون على عشرة ـ فإن عالماً عدد أبنائه مئة مليون نسمة ، لا يكون حاله مرضياً إن لم يكن منهم مليون عالم ، منهم ألف على الأقل يساهمون في صنع الحضارة الإنسانية ، على مستوى عالمي ، ويمدون جسوراً في دنيا العرب بين العلم والإنسانيات .

إن تربتنا وأجواءنا الفكرية بحاجة إلى تطوير كبير كي تصبح صالحة لنمو العلم فيها وانتشاره .

لقد هممت بأن اقترح أن نقوم بتقليد ما يعمل في العالم المتقدم من نشر العلوم المبسطة ، وتيسير تناول الكتب ، لولا أني تذكرت أن هذا إن يُفِدْ في بلاد تطورت لغاتها مع تطور العلم ، ونمت معه ونما معها متلازمين ، حتى صارت تربته الفكرية العامة مهيأة لقبول العلم وخلق العلماء وتشجيعهم ، فإن فائدته ستبقى محدودة لا تكفي في العالم العربي الذي قامت الحضارة المعاصرة ، وهو يغط في سبات عميق . صحيح أن النهضة الغربية قامت أول الأمر بهدي من الفكر العربي الذي بناه أجدادنا العلماء في رحاب الحضارة الإسلامية التي نسيناها ونسيناه ، وأما نحن فعندما شرعنا ننهض من سباتنا الفكري ، ألفينا أننا غرباء على العالم المعاصر ، من حيث الحضارة والفكر والأجواء الفكرية ، وأما العلم المعاصر فلا نحن ساهمنا في صنعه ، ولا تربتنا الحاضرة تصلح له ، ولا لغتنا الموروثة تتسع لاستيعابه .

أكاد أتخيل قراءً يصدمهم قولي هذا وهم في جو يتغنى بلغتنا الجميلة ويعتز بما أنجز الأجداد ، من غير أن يتعمقوا بالدراسة حدود اللغة ولا حدود ما أنجز الأجداد . يكفي أن أذكر ، تدليلاً على ما أقول : حادثتين : أولاهما أن الغرب ما إن وجد المطبعة ذات الحروف المتحركة (سنة ١٤٩٢) ، حتى شرع يطبع بها الكتب ، وينشرها في الناس ، ومنها الكتب العربية التي كان يستعملها في تعلمه وتعليمه ، أما العالم العربي فقد ظل ينسخ باليد إلى أن دخلت المطبعة العربية إلى مصر ، هدية من نابليون في حملته على مصر ، في أواخر القرن الثامن عشر ، ودخلت إلى بيروت في الوقت نفسه على يد المبشرين الغربيين . لقد طبع الغرب الكتب العربية قبل العالم العربي بثلاثمئة سنة . أليس هذا من قبيل سبات أهل الكهف ! .

الحادثة الثانية عن طالب لي ، ليس وحيداً فيما أصابه وما عاناه . ذهب للتخصص في أميركا في حقل علمي صناعي ، فأثبت وهو في مرحلة الدراسة أن له فكراً قادراً على الابتكار مما حدا بالمؤسسات الصناعية المحلية أن تعهد اليه بحل مشاكل صغيرة تجابهها وبخاصة في حلولها جعل المشاكل تتزايد عدداً وتعقيداً ، والحلول تزداد جودة واستحساناً ، حتى إذا هو تخرج من الجامعة وجد المؤسسات تغريه بالعمل معها . فقضى هناك بعد التخرج ما يربو على سنتين ، وكل الدلائل تشير إلى أنه ، عاجلاً أو آجلاً ، سيحقق إنجازاً يجلب له سمعة عالمية ، أو دخلاً يرضيه . ولكن حنين الفتى إلى وطنه وأهله جعله يتغافل عن هذا الأمل ويؤثر أن يجعل فكره وجهده في خدمة بلده ، وعاد الفتى إلى بلده وأهله .

وبحث عن عمل في مجال تخصصه ، فلم يجد سوى وظيفة ثانوية في مؤسسة يعمل فيها كل شيء ذي بال ، ولكن في ظل رئيس أجنبي أقل منه خبرة وتحصيلاً . ولكن إليه يعزى كل ما ينجزه الفتى من عمل . وصبر الفتى إلى أن عيل صبره . فدفعه ميله إلى تحقيق الذات إلى سؤال الإدارة لماذا لا يعزى إليه فضل ما يصنعه بفكره ويديه ، فكان جواب الإدارة أنها تدرك أنه أكثر من رئيسه خبرة وتحصيلاً وعملاً ، ولكن رئيسه الأجنبي يأتي للدولة بدعم أجنبي كبير . وأحبط بيد الفتى فاستقال من عمله ، وانصرف يعمل معلماً في غير تخصصه . وقضى سبع سنوات يعلم ويتلمس عملاً يفيد به بلده بقدراته وتحصيله ، ويرضي نفسه ، سنوات في أثنائها تزوج ورزق بأولاد ، وصار مسؤولاً عن إعالتهم ، وكاد ينسى ما كان في أمريكا يؤمل ويؤمل له ، ثم هو لقي عملاً جامعياً في حقل تخصصه ففرح به ، وباشره مؤملاً أن يكوّن لنفسه وعلى حسابه ، في كنف الجامعة ، مختبراً صغيراً يستعيد فيه بحوثه ونشاطه الفكري . ولكن كأن الفرحة بالعمل كان وقعها عليه أشد مما يحتمل ، فما لبث أن مات بالسكتة القلبية ، وهو بين أطفاله يتسابقون للركوب على كتفيه . لقد برز الفتى في غير تربته ، ولما عاد الى منبته مات كما تموت في عالمنا كل المواهب والقدرات .

إن عالمنا ، بحاله الماثل أمامنا ، ليس تربة صالحة لنمو العلم ، ولاجوا صالحاً ليعيش فيه العلماء .

وما السبب ؟ قصة ذلك طويلة نجملها فيما يلي :

ظهر الإسلام في غضون العصور الوسطى ، وانتهت العصور الإسلامية الزاهرة في أواخرها وأوائل العصور الحديثة . وكان العلم طوال العصور القديمة والوسطى في مرتبة ثانوية ، كأنه واحة يانعة في قلب صحراء واسعة . في العصور القديمة أينع العلم في مصر الفرعونية وبابل ، وزاد انتعاشاً وعمقاً في بلاد اليونان التي بنت على ما تعلمته من الحضارات المصرية والبابلية صروحاً سامقة في الفلسفة والرياضيات والفلك ، وزادت عليها صروحاً في الطب والمنهج العلمي . لقد كان ما صنعه الإغريق بحق معجزة .

وفي أوائل العصور الوسطى انتقلت واحة العلم إلى بلاد الهند . ثم جاء الاسلام ، ومنذ العصور الإسلامية الأولى أخذت عيون المسلمين تتفتح على العلم ، ذلك أن القرآن الكريم جاء بآيات كثيرة تحض على التفكير والبحث والتدبر باعتبار أن ذلك استكشاف لقدرة الخالق وبديع نظامه في خلقه ، ومن ثم فهو عبادة .

وقد أخذ علماء المسلمين ما استطاعوا أن يأخذوه من علوم الإغريق والهنود ، وعليه بنوا ما أقاموه من صروح علمية خطت بالرياضيات والفلك والطب والفلاحة والفلسفة والملاحة وعلم الاجتماع خطوات واسعة أفادت منها أوربا في بناء الحضارة العالمية الحديثة .

رغم هذا كله ظل العلم في العصور القديمة والوسطى في مرتبة ثانوية ، بالنسبة إلى الآداب والفنون وشؤون الحياة الأخرى ، وظل المتعلمون قلة ، والعلماء ندرة ، وكانت الكتب تنسخ باليد ، بالرغم من أن الطباعة عرفت في الصين قبل أن تبتكرها أوربا ، وطبعت بها الكتب .

وكان الطابع الغالب في العصور الوسطى في الشرق والغرب دينياً ، وكان التفكير يقوم على منطق جدلي سماه العرب بحق علم الكلام ، وعلى صياغات لغوية أدبية قد تسفُّ حتى تصل الى حد ما سماه العرب جدلاً بيزنطياً إذ يختلف فيه المتجادلون كم عفريتاً يستطيع أن يقف على رأس دبوس ! ! كان رجال الدين هم المتعلمين ، وكان منهم المعلمون ؛ وكان تعليمهم تلقيناً يلبس مسوح القداسة ويقبل بلا نقاش .

من مظاهر المعجزة الإغريقية أن الإغريق حاولوا أن ينأوا بالعلم عن مجال الدين ، فأقاموا أسس المنهج العلمي الرصين ، القائم على الاستنتاج المنطقي الرياضي والموضوعية والأمانة العلمية .

وفي العصور الإسلامية الأولى ، أعلى علماء المسلمين صرح المنهج العلمي بأن جعلوا الاختبار والمشاهدة ركناً آخر من أركانه . وقد أدركوا أن العلم صنع إنساني متطور ، شأنه شأن تفسير الآيات الدينية ، فنادوا بألا رأي لميت ، لأن الماضين ، مهما أبدعوا ، فهم رجال ونحن رجال ، وكل زمان له أحواله ودولته ورجاله ، ومن ثم فتفسير الآيات القرآنية فتحوا له باب الاجتهاد : قالوا إن نص الآيات منزل ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أما تفسيرها فينبغي أن يتغير حسب تغير المفاهيم وأحوال المجتمع ، كيما يبقى الإسلام ملائمة أحكامه لكل زمان ومكان . ولذا أوصوا بأن يقوم على رأس كل مئة سنة مجتهد يجدد هذه الأحكام حسب مفاهيم العصر ومقتضياته ، فإن لم يقم هذا المجتهد ، وجب على المجتمعات الإسلامية أن تعمل على إيجاده بالتربية الهادفة والرعاية الحكيمة .

أقول لو امتثل اللاحقون لهذه التوصيات والآراء لتغير مسار التاريخ الاسلامي ، وربما التاريخ العالمي بأسره ، ولكن تجري الريـاح بغير مـا تشتهي السفن ، فقد حـدث ما غـير مواقف أهـل الرأي في الإسـلام من هذه الآراء والتوصيات . وكان من أوائل ما جرى تسييس الدين ، فقام الخوارج بشبه تمرد على العالم الاسلامي ، لأسباب ظاهرها اختلاف في الرأي ، وباطنها محاولة للانفصال عن المجتمع الإسلامي ، وتعددت المذاهب فقـامت المذاهب السنيـة الأربعة وقام إلى جانبها المذهب الجعفري ومذهب الأوزاعي ، وممن قام بدعوة العودة الى الإسلام في صفائه ونقائه الإباضية ، واعتزل واصل بن عطاء حلقة الحسن البصري بدعوة الحفاظ على حرية الرأي والاستقلال الفكري ، وتبع ابن عطاء جماعة تتابعت جيلاً بعد جيل ، وسموا المعتزلة ، حتى صار كل من يبحث في فلسفة يعد معتزلياً ، وصار المعتزلة يحاربون بدعوى مخالفة الدين ، وصار رجال الدين يتباهون بأن تقييد الحريات الفردية يعد حفاظاً على الدين ، وأن البحث في العلم والفلسفة معرض للشبهات خشية مخالفة الدين .

في خضم هذه الدعوات أعلن المسلمون إقفال باب الاجتهاد ، خشية تعدد المذاهب ، وعمل بذلك أهل السنة في الشام ومصر ، فاحتفظوا بالمذاهب الأربعة المعروفة ومذهب الأوزاعي ، ثم انطوى هذا المذهب لأسباب سياسية ، وفي شرقي العالم الاسلامي ، وفي فارس بخاصة ، والشرق الأقصى ، بقي الشيعة على المذهب الجعفري ، ونادوا بإبقاء باب الاجتهاد مفتوحاً ، ولكن قلما قام مجتهد يجدد أحكام الدين حسب مقتضيات العصر ، وإنما أوائل المسلمين على هذا المذهب ، وأظنهم ما زالوا ، يتنكرون للعلم والفلسفة باسم الدين ، وهم اليوم يقتلون ويتخطفون باسم الدين ، والدين من هذا وذاك براء .

فباسم الدين قيدت الحرية الفكرية في الإسلام ، وباسمه أعلن الفقهاء الحرب على العلماء وعلى العلم الذي كان الإسلام أقوى دعوة اليه . وكما أحرق الغلو بعض علماء أوربا ، أحرقت في العالم الإسلامي كتب فلسفية وعلمية وحورب علماء ، وأعدم فقهاء أصحاب رأي ، بدعوى ظاهرها الحفاظ على الدين ، وباطنها التنافس على موائد الحكام والولاة .

كان هذا أحد الأسباب الداخلية لانتقال القيادة الفكرية والسياسية من العالم الإسلامي الى العالم الغربي . الرشدية التي حاربها الفقهاء وأحرقوا كتبها ، ظل الغرب ثلاثمئة سنة يتدارسها ، حتى أخرجته من وهدة الجهل والتعصب والتخلف ونير محاكم التفتيش ، إلى نور العلم والمعرفة وحرية الفكر والرأي . الغرب الذي كان المسلمون يرونه متخلفاً جاء إلى العالم الإسلامي غازياً مستعمراً ، انصاع له العالم الإسلامي ، كما انصاع إلى الحكم التركي من قبل ، واستكان ينعم بسبات عميق .

ولتخلف العالم الاسلامي أسباب داخلية أخرى لعل أبرزها أن المسلمين الذين ورثوا عن سابقيهم علماً غزيراً ، لم يرثوا فكرة الديمقراطية ولا نظام الحكم المتماسك مهما تباعدت الأطراف . الواقع المر الذي قد يصعب الجهر به أن مبدأ الشورى الديمقراطي لم يحسن تطبيقه المسلمون ، ولم يقيموا نظام حكم رصيناً يحفظ للدولة تماسكها ، وللمسلمين ولاءهم . وإن يكن بعض الخلفاء والولاة قد أحسنوا الحكم والولاية ، فقد كان ذلك أمراً فردياً عابراً ، لا تقليداً متوارثاً . وفي غضون القرن التاسع عشر بدأ العالم العربي ينهض من سباته ، يغالب الاستعمار وهو متخلف فكرياً وعلمياً واجتماعياً . واقتصادياً ، بالقياس إلى العالم الغربي ، وكانت ولا تزال ماثلة في ذهنه ذكريات عصور ماجدة مضت ، وحاول أن يستعيد تلك الأمجاد ، ولكن الاستعمار الغربي كان له بالمرصاد ،يستنفد طاقاته وإمكاناته وثروات أرضه ، ويعوق انطلاقه . وبعد جهد وحروب دامية ، راح ضحيتها شهداء ، وانهارت قوى ، وتبددت آمال ، وضاعت أمصار ، استطاع أكثر العالم العربي أن يظفر باستقلاله . ولكنه كان منهوك القوى ، يكتفي بالتغني بأمجاد سابقة ، من غير أن يعمل على تحقيق أمجاد جديدة ، في عالم يتطور بسرعة خاطفة ويتفجر فيه العلم تفجراً يسبق كل تصور ، وها هو العالم العربي اليوم يحن إلى الماضي ويتبرم بالحاضر ويخشى المستقبل ، يعتمد على الغرب ، يستورد منه ما يحتاج اليه من ملبس ومأكل وأدوات لهو وجدّ وسلم وحرب ، وينظر اليه في الوقت نفسه نظرة ريبة وخوف ، يتحاشى أن يفيد من تجربته ، أو أن يتعمق النظر في أسباب نجاحه وقوته ، وفي قصة تطوره ، وهو بدل أن يتخذ من هذه القصة عبرة ومثلاً ، ينادي بألا يصلح هذا الأمر إلا بما صلح به أوله ، ولكنه حتى هذا الأول يتخيله مجرد شعارات تردد ومطامع تغلف بغلاف ديني صفيق ، وتنجلي أحياناً عن لعب بالنار وعنف يضر ولا ينفع . إن الاسلام لم يكن في يوم من الأيام داعية قتل واغتيال ولا سبيل تهديد وابتزاز . والطريق لاستعادة الأمجاد الماضية هو غير طريق التظاهر أو التسلق إلى الحكم بثورة أو انقلاب .

غني عن البيان أنني ، رغم تبرمي بالحاضر ، لأعتز كل الاعتزاز بما حققت أقطار عربية من انتصارات عسكرية ، وسياسية ، ومن خطوات موفقة نحو الوحدة العربية ، أمل كل مواطن شريف . إن تبرمي بالحاضر لا يستقل بحال من

الأحوال هذه الإنجازات ، ولكنه يقرع الأذن صدى لمقارنة حاضرنا الهزيل بماضينا المجيد يوم كنا خير أمة أخرجت للناس . إنه تبرم باعتمادنا على الغرب في كل شيء ، حتى في السلاح الذي به ندافع عن بلادنا ونحرس استقلالنا ؛ ومن ندافع ، ومن نحرس ، إن لم يكن عن مطامع يغذيها لغرب ويدعمها ؟

ولكن كأننا خرجنا أو كدنا نخرج عما نحن بصدده ، وهو وضع العلم والإنسانيات في العالم العربي اليوم . فرجال الإنسانيات ما يزالون يعيشون في الماضي القريب ، يوم صار الفكر والأدب مجرد شكليات جوفاء ومحسنات لفظية يحليها سجع وجرس ، ولا يدعمها فكر ، وصار الشعر مديح نفاق وارتزاق وهجاء سخف وادعاء . إن عالم الإنسانيات في العالم العربي اليوم يعيش في أزمة فكرية وخواء .

وليس حال العلم بأحسن من حال الإنسانيات ، أعني الآداب والفنون . فمناهج التعليم العلمي ما تزال هي هي التي رسمها الاستعمار ، وما طرأ عليها من تغيير إنما هو هامشي لم يمس الجذور ولم يصل إلى حد المجاراة للعلم المعاصر في تطوره ، ذلك أن أصحاب القرار ما يزالون هم رجال الإنسانيات الذين يخشون العلم وقد يعدونه كفراً ، والمرء عدو ما يجهل . لقد جعلوا بين العلم والأدب برزخاً ، يبعد كلاً منهما عن الآخر .

ولو وقف الأمر عند هذا الحد فربما كان يمضي العلم في طريق التطور والنماء ، ويمضي الأدب في طريقه القديم . ولكن ما جرى أن الجو والتربة بقيا في العالم الإسلامي بعامة ، والعالم العربي بخاصة ، على مثل ما كانا عليه في أواخر العصور الوسطى ، تفكير تقليدي مكرر معاد ، وأقوال وشعارات جوفاء لا يسندها واقع ولا دليل ، وتربة تقبل الكلام المزوق الشكلي ، وترفض المنطق العلمي ، فصار الكلام في العالم العربي أغلبه نفاق وادعاءات وشكليات ، وبقي العلم على هامش الحياة ، وبقي أصحاب القرار هم أهل النفاق والشكليات والكلام المبهرج المعسول . أما العلماء فمكانهم في غير التربة العربية ، وجوهم غير الجو العربي .

٤ ـ وما العمل ؟

أقول إن علينا ، بالإضافة إلى تيسير نشر العلم بمثل مايجرى في العالم المتقدم ، خلق الجو المناسب والتربة المناسبة لأن ينمو العلم ويشيع ، ويصبح طابع حياتنا والموجه الفعال لتفكيرنا وتصرفاتنا .

وأقول أجل ! لا يصلح آخر الأمر إلا بما صلح به أوله ، ولقد كان أوله الدعوة إلى العلم مذ نزلت أول آية على النبي الأمي تقول « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » . ذلك أن العلم يفضي إلى التعرف على آلاء الله ، بالتعرف على القوانين التي تنتظم الكون ، وغاية المسلم المتعلم هي أن يعمل على تطوير الحياة والمفاهيم بحيث تجاري معارف العصر وأحوال الحياة الجارية ، ومن ثم فلا رأى لميت مهما يكن مبدعا ، لإن ابداعه يناسب زمانا غير زمان الأحياء .

والفهم الفعال لأول آية أنزلت يقتضى أن يتعلم المسلم لكي يدرك بديع صنع الله الذى خلق الكون وأبدع نظامه . وهذا يقتضي ألا يبقى مسلم أميا ولا جاهلا ، والجهل هو جهل العلم الذى به تعرف آلاء الله . ولكي يكون الحي حرا في تفكيره ، صادقا وصريحا في إبداء رأيه ، بموضوعية لاتعرف النفاق ولا تخشى من ضغط أو إحراج ، ينبغى أن يعيش الحي في جو ديمقراطي يحترم كرامته ويتحاشى تقييد حريته .

وهذه كلها مبادىء تنبثق من تعاليم الإسلام ، أيام صفائه ونقائه ، والالتزام بها التزام بالإسلام ، ومجافاتها مجافاة له . ومراعاة هذه المبادىء تضمن خلق الجو والتربة اللذين ينمو بها العلم ويثمر ، ونضمن أن نعود كما كنا خير أمة أخرجت للناس .

فما العمل كي يقوم عندئذ تفاعل بين العلوم والإنسانيات ؟ وما الدور الذى ينبغى أن تقوم به المؤسسات التعليمية كي يتم هذا التفاعل ؟

هذا الدور ينطوي في نظري وتقديري على أمور عامة تتعلق بالتعليم بمجمله كي نضمن بقاء الجو العلمي والتربة العلمية ونقاءهما ، وعلى أمور خاصة تتعلق بموضوعات محددة ، كالعلوم والآداب والتاريخ ودروس الشريعة والدين ، ومناهج تدريسها وأهدافها .

أ ـ الأمور العامة

ثمة مبادىء وحقائق وأفكار ينبغي أن تشيع بيننا وتجرى في حياتنا كما يجري الدم في عروقنا ، كي نحقق الجو والتربة المناسبين لترسيخ العلم في العالم العربي ، من أجل ان نساير تيار الحياة المعاصرة ونمضي مع ركب المتقدمين بثقة بالنفس وعزة وكرامة ، فعالين لامنفعلين . خلاقين لا مقلدين ولا متطفلين . من هذه المبادىء والحقائق والأفكار :

١ ـ أن العلم هو باني الحياة المعاصرة يمدها بسلاح السلم والحرب والجد واللهو ، وهو ملهم الشعراء والكتاب والأدباء ، يمدهم بالغذاء الفكري ويعينهم على الابتكار والإبداع ، وعلى فهم الحاضر ومشاركة المستقبل ، وعلى التخطيط السليم لتحقيق ما يريدون وما يأملون ، بل هو الذي يعرفنا كيف نعبد الله حق عبادته ، في عالم يتراوح كالمجنون بين تقى الزاهد المتصوف وضلال الأحمق المفتون .

٢ ـ أن التطور هو سنة الله في هذا الكون ، كي تمضي الحياة دائما إلى الأحسن ، ويشارف الفكر ماهو أرقى وأشرف . الأفراد يولدون ويكبرون ويموتون ، وقد ينتاب الفرد أو المجموعة أو الأمة بأسرها ما ينتاب الأفراد من عجز أو هرم أو تحطم وانهيار ، ولكن الحياة ، بوجه عام ، في هذا الكون الرحيب سائرة بفضل الله إلى الأحسن .

العالم المجنون يشن الحرب ، بعض على بعض ، ولكن العلم يهدي إلى وسائل للعلاج . ومقاومة الأمراض تزيد من عمر الأحياء ، وتمكنهم من العيش بمأمن من الأمراض والأوبئة .

والعالم المجنون يهدم ويحطم ، ولكن العلم يزيد من وسائل المواصلات والاتصالات ، فيجعل البعيد قريبا ، حتى ليتخاطب الأخوان من أقصى المعمورة إلى أقصاها ، وإذا احتاج الأمر فقد يهرع أحدهما لملاقاة أخيه في غضون ساعات معدودة ، وفي غد قريب سيتخاطبان وكل منهما يرى الآخر كأنه أمامه .

التطور قائم منذ الأزل ، وماض إلى الأبد ، وقد كان هذا التطور في الماضي يجرى بطيئا ، وهو اليوم يغذّ السرعة بفضل العلم ، ويفضي إلى التطوير ، أي عمل البشر في تسريع التطور ، والتطوير ضرب من العمل بإرادة الله ، إنه تطبيق العلم في سبيل العمل بإرادة الله ، فهو إذن عبادة . ونجاح عملية التطوير يفضي إلى مزيد من الثقة بالنفس ، ثقة العالم الذى طور ، والأمة التي إليها ينتمى هذا العالم ، والإنسانية جمعاء .

. . وليس التطوير شغل العلماء وحدهم ، فكل مواطن في عمله مكلف بتطوير عمله إلى الأفضل : المزارع في حقله يمكن أن يطور سنابل القمح كي تجود بعطاء أغزر وأجود ، والصانع في مصنعه يمكن أن يطور إنتاجه كي يصبح أفضل وأكثر ، حتى الشاعر والأديب والكاتب يمكن أن يعمدوا إلى تجديد في مايصدرون ، حتى العمال ، ناهيك عن المعلمين ، يمكن أن يحسنوا عطاءهم مرة بعد مرة . إن التطوير هو نتاج التفكير العملي الموضوعي السليم ، المنزه عن الأثرة والطمع ، الهادف إلى تحسين العمل بحيث يغدو أكثر فائدة للمجتمع ، ومجاراة لأحوال الحياة السريعة التغير على الدوام . فكر بثقة وتصميم ، وستجد أن التطوير يواتيك من حيث لا تحتسب .

٣ ـ تفجر العلوم والمعارف : قدرُنا أننا نعيش في عصر تتفجر فيه العلوم والمعارف بسرعة مذهلة ، وما إن تبتدع عملية جديدة ، أو تعرض فكرة جديدة ، حتى يهرع التكنولوجيون إلى استغلالها بابتكار جديد . اليوم أمكن استخراج الطاقة على درجة حرارة عادية ، وفي غد قريب ، ربما قبل أن تصل هذه الكلمات إلى القارىء ، ستقوم التكنولوجيا بابتكارات تيسر سبل الحصول على الطاقة ، على نحو قد يحدث في الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، بل والسياسية تطورات غير متوقعة .

وليس مايحدثه العلم والتكنولوجيا قاصرا على مستويات التخصص العلمى ، بل هو يمتد إلى الحياة اليومية ويدهم الناس في بيوتهم ومطابخهم ، حتى ومجالي جدهم ولهوهم ، الحاسوب الذي كان قبل سنوات معدودة موضوعا يتكلم عنه الجامعيون ، صار اليوم الشغل الشاغل للعمال في المصانع والمتاجر والمصارف والدوائر الحكومية . وماذا نقول عن وسائل الطباعة والتصوير والاتصالات ؟ وماذا نقول عن هذا العالم الذي غدا صغيرا يرى فيه الفتى العربى على شاشة التلفاز فتيان الشرق والغرب يتعاملون بعضهم مع بعض على غير ما يألف ؟ كأن قيم الحياة عندهم على غير ماعلمه آباؤه وأجداده . المواصلات والأقمار الصناعية تعمل على توحيد العالم ، سلوكا وعادات ، شئنا أم أبينا .

كل هذا يضعنا أمام تحد كبير لابد من مواجهته . ومواجهته لا تتم بمجرد كره العلم والتكنولوجيا ، بل بالانصياع لهما والتكيف حسب مقتضاهما ، لأنهما أمر محتوم .

والانصياع للتفجر العلمى ، والتكنولوجى ، والتكيف حسب مقتضاهما يفترضان تغيرا جذريا في مفاهيم التعلم والتعليم وواجبات القائمين عليه من معلمين وإداريين .

فالتعلم لم يعد وسيلة للحصول على عمل ينتهى عندما يبدأ العمل ، إنما هو اليوم عملية تمتد من المهد إلى اللحد . في الماضي قال فيلسوف : أنا أفكر إذن أنا موجود ، واليوم نقول : أنا أتعلم إذن أنا موجود . ولافرق بين القولين فالتعلم يفضي إلى تطوير التفكير ، والتفكير يفضي إلى التعلم .

والتعليم لم يعد يعنى إنهاء منهاج تعليمى مقرر ، إنما هو اليوم يعلم المرء كيف يتعلم وكيف يبقى على صلة مستمرة بما يجد من ابتكارات ، كى يبقى مواكبا لتيار الحياة المتدفق .

والمعلم لم يعد الموظف الذي تخرج بشهادة تثبت أنه شدا من العلم قدرا ما ، فهو يعطيه إلى المتعلمين ، إنما هو كالمتعلم ماتزال معلوماته تتزايد يوما بعد يوم ، وماتزال خبراته تتسع . وهو بالإضافة الى ذلك صاحب مهنة وصاحب رسالة ، يكرس حياته لتبليغها ، ومن ثم فمن واجب المجتمع أن يكرمه على قدر ما يستحق . ولأنه صاحب مهنة ، فينبغى أن يعد إعدادا سليما متكاملا للقيام بمهنته ، ومن ذلك الإعداد إطلاعه على أحدث وسائل التربية وأحدث مايستجد في علم النفس ، وإمداده السريع بالمعلومات . وهذا يقتضي ان يتوفر في المؤسسات التعليمية كل الوسائل المعلوماتية ، ماهو موجود منها ومايستجد . وهو يقتضي من المعلم أن يبقى على الدوام متعلما يعرف ما استجد ويشارف مايجد ، ويكيف برامجه وتعليمه حسب ذلك . هذه تحديات قاسية تفرضها علينا الحياة الحضارية المعاصرة ، معلمين وإداريين . والإداريون ليسوا بمعزل عما يجد ويستجد . إنهم على الغالب أصحاب القرارات . وإذا كنا في الماضي قد رضينا أن يكون أصحاب القرارات في الشؤون العلمية من غير العلميين ، فليس يمكن أن يبقى الأمر على هذا المنوال ، وقد صار العلم طابع الحياة المعاصرة ، يمد الأدباء والشعراء ، كما يمد العلميين ، بالطريف والجديد والممتع والحيوي .

ويزيد التحديات صعوبة أن التفجر العلمي يرافقه تفجر في عدد السكان ، ومن ثم تزايد مستمر في أعداد الطلاب ، في المراحل الإلزامية والمراحل المتقدمة على السواء .

وإذا كنا نخطط بجد لنكون في صفوف الأمم والمجموعات المتقدمة ، فينبغى أن نتدارك مافاتنا في أيام سباتنا من عناصر الحضارة المتطورة . وهذا يقتضي مزيدا عن تعويد الطلاب والطالبات على الحياة الرياضية ، وعلى متع الحياة من إبداعات موسيقية وفنية ، وعلى المصارعة في سبيل العيش الكريم بابتكار سبل جديدة للعمل المجدي الذي ينفع الفرد والمجتمع .

فاستيعاب العلوم المتطورة المتغيرة على الدوام ، والقيام بما ينبغى من ألعاب رياضية ، ونشاطات موسيقية وفنية ، والتخطيط لابتكار الجديد المفيد ليكون عمل المتعلم ، كل هذا يتطلب برامج تعليمية غير ما جرينا على اتباعه ، وغير ما ألفنا .

إن برامجنا الحاضرة ، مهما أجرينا عليها من تعديلات ، تبقى في أساسها مافرضه علينا المستعمر ، وهو في أحسنه تقليد أو نسخ لبرامجه المحلية حيث الجو غير الجو والتربة غير التربة ، على أن فيه ما ينص صراحه بأنه يستهدف تخريج أيدٍ عاملة ثانوية تساعد المستعمر في الأعمال التى يقتضيها حكمه للبلاد المستعمرة .

والبرامج التي يقتضيها الانتقال إلى المرحلة الحضارية المتقدمة التي ننشدها لايمكن أن تنهض بها المدرسة وحدها . إن المدرسة والبيت والمجتمع ، وكل وسائل الإعلام ينبغى أن يأخذ كل منها نصيبا موفورا لتحقيق مانصبو إليه من خلق جو وتربة يلائمان الحياة الحضارية المعاصرة ، وأجيال قادرة على التعلم والتعليم مدى الحياة .

٤ ـ برامج المستقبل التعليمية ، وطرق التدريس : إن تفجر المعرفة قد جعل أكثر الموضوعات العلمية التقليدية معلومات بدائية تجاوزها التطور العلمى ، أو مغلوطة أثبت أنها ليست على صواب ، ومن ثم فما تعلمه أدباؤ نا من مبادىء العلوم الأساسية قد تجاوزها العصر الحاضر وجعلهم أكثر جهلا مما يظنون .

ومن المعلومات المحدثة مالابد لكل مثقف أن يعرف شيئا عنه ، علميا كان هذا المثقف أو لغويا أو مهنيا . من هذه المعلومات مبادىء الحاسوب والرابوط والرادار ، ووسائل الاتصال الحديثة المتجددة . ومنها نظام المعلوماتية الذي هو مورد وطني للتنمية يضاف إلى الموارد الطبيعية . ومنها الأسس الجديدة للزراعة وماتضم من وسائل تهجين تحول البلد إلى مايربو على الإكتفاء الذاتي .

هذا بعض مما ينبغي أن يجعلنا نفكر في إجراء تعديلات جذرية على مناهج التعليم عندنا وبرامجها ، ابتداء من مراحل الحضانة وانتهاء بالتعليم العالي .

وفي صفحات تالية سنتناول أهم موضوعات التعليم ، وعندها سنتعرض لبرامجها وماينبغى ان تشتمل عليه . فلننظر الآن في طرق التدريس الحديثة وكيف ينبغى أن تكون .

فإذا اتفقنا على أن هدف التعليم ليس تهيئة الطالب إلى وظيفة وإنما تعليمه كيف يتعلم ودفعه لأن يمضى في تعلمه إلى نهاية الطريق ، إذا اتفقنا على ذلك ، عندها ينتفى مبدأ الحفظ ومبدأ الدروس الخصوصية ، وينتفى أيضا مبدأ الإلقاء بمهمة التفهيم على كاهل الأم والأب في البيت . إن التعليم الحديث ينبغي أن يجرى على مبدأ التعلم الذاتى ، حيث يقوم المعلم بالتوجيه ويشاركه في ذلك البيت ، وفي تقديرى أن التلفاز وشريط التسجيل والفيديو ، إذا أحسن استخدامها ، تعطى نتائج أفضل مما يعطيه كثير من المعلمين ، لاسيا إذا كان المتحدث في التلفاز أو شريط التسجيل حسن الصوت واضح العبارة حسن الأداء . أقول ذلك وأنا أعلم مايمكن أن يثار من اعتراضات على مبدأ التلفزة التربوية بحجة جهل المخرج والمنفذ وصانع الديكور وما إلى ذلك . إذا عمدنا إلى التلفزة التربوية وسيلة من وسائل التعليم ، فينبغى أن نحسن استخدام جميع الجنود المجهولين في هذه العملية ، أعنى المخرج ورفاقه أجمعين .

وبالإضافة الى التعليم الذاتى الفردي ، ينبغي أن يعمد المعلم إلى تشجيع العمل الجماعي ، كأن يعمل الطلاب كفريق متكامل لتحقيق غرض ما ، كجمع شتى الحشرات أو شتى الأزهار وأوراق النبات في دراسة العلوم ، أو بناء بيت ريفي أو حديقة ذات أزهار وأشجار .

والعمل في المختبر أمر ينبغى أن يتعود عليه الطالب والمعلم على السواء . وليس العمل في المختبر تعليميا فحسب ،

بل هو استكشاف حقيقي يستهدف استخدام المواد الخام المتوافرة لاكتشاف حقائق جديدة تساعد على التنمية وزيادة

الإنتاج ، بحيث يستفاد من التكنولوجيا الحديثة في حدود الإمكانات المحلية . إننا بحاجة إلى توفير الكوادر المدربة على استعمال المواد المحلية على نحو ناجح فعال . وهذا يحتاج إلى تدريب يبدأ من أول مراحل التعليم ، ويساعد على تحقيق هذه الأهداف ، بل يضمن تحقيقها قيام نظام فعال للتقييم .

والتقييم لفظة درج على استعمالها العلميون ، بمعنى تقدير القيمة ، ويعارضها بعض اللغويين بحجة أن اللفظة القاموسية هي (التقويم) وأنا أستعمل (التقييم) هنا وأعنى تقدير ميول الطالب ومواهبه الطبيعية . وأتمنى لو تجعل عملية التقييم هذه الشغل الشاغل للمعلم والمعلمة منذ مرحلة الحضانة ، بحيث يجعل لكل طالب وطالبة ملف خاص يسجل فيه كل مايلاحظ على الطالب من ظواهر قوة وضعف وحالات صحة واعتلال ، وينتقل هذا الملف مع الطالب إلى جميع مراحل دراسته .

والتقييم في العالم المتقدم اليوم عمل تخصصي كثير الفروع والتشعبات ، وأتمنى لو يجعل التقييم موضوعا من المواضيع الهامة التى يتدرب عليها المعلمون والمعلمات الذين يختارون التعليم مهنة أو يُختارون إليه .

وغاية التقييم هى الكشف عن الطلاب الموهوبين ، لافي العلوم أو الآداب فحسب ، بل أيضا في الفنون من موسيقى أو رسم أو نحت أو تمثيل ، وفي الرياضة من جمباز أو تفوق في لعب الكرة أو ركض أو قفز . فإن لم يكن الطالب موهوبا في هذه الناحية أو تلك ، فيكفي أن يكشف التقييم في أي قطاع ينبغي ان يوضع هذا الطالب : أفي القطاع الأدبي أم العلمي ، وفي التعليم الجامعي أم المهني ، أم هل ينبغى أن ينتهى تعليمه النظامي بالمرحلة الإلزامية ثم يتجه الى حرفة أو عمالة .

وإذا كان في القطاع الأدبي ، أيكون كاتبا أم مؤرخا أم جغرافيا ، أم يكون في شعبة أخرى من شعب كلية الآداب والفنون ، أم في كلية التجارة أم الحقوق ، أم في فرع من فروع الدراسات الدينية .

وإذا كان في القطاع العلمي ، أيكون في الشعبة النظرية من رياضيات أو فلك ، أم في إحدى الشعب العملية من علوم تجريبية أو هندسة أو طب أو صيدلة أو بيطرة .

وخير مايمكن للتعليم أن يعطيه للطالب هو الكشف عن ميوله ومواهبه . فكم من مواهب وميول ضاعت هباء لأنه لم يقدر لصاحبها أن يكتشفها . إن المواهب التى دفنت من قبل أن تكتشف أكثر بكثير مما اكتشف .

وإذا أحسن التقييم ونفذ ، وجرى توجيه الطلاب بمقتضاه ، وشاع لدى المعلمين والطلاب والآباء أن التعليم للتثقيف ، لا للبحث عن وظيفة ، عندها لايبقى للامتحانات الشاملة هذه الأهمية التى تجعل منها غولا رهيبا يقصم الظهر ، وتفصل الطلاب والطالبات فريقا في الجنة وفريقا في النار .

وإذا جرى التدريب على نحو جماعي ، وعمل الطلاب فريقا ، حتى من اثنين ، لإنجاز أمر ما ، فيمكن أن يجعل التقدير بحسب ماتم إنجازه ، أو إبداعه أو ابتكاره . فالعمل الجماعى لايجري على إعادة ماقد أنجز ، بل أيضا على اكتشاف أو ابتكار أو تطوير أو إبداع .

ولتجعل الامتحانات دورية لقياس مدى ما أنجز المعلم مع طلابه ، ومدى ماحصّل الطلاب ، لا من المدرسة فحسب ، بل أيضا من المعلومات العامة التى تبثها وسائل الإعلام المختلفة بقنواتها التعليمية من كتب ونشرات وإذاعات تلفزة أو مسجلات فيديو . فإذا اكتشف تقصير في ناحية ما ، وجب المبادرة إلى إصلاحه ، فقنوات التعليم الإعلامية والصحفية ينبغى أن تبقى فعالة كالتدريس ، والمعلم الذي اختار التعليم مهنة ورسالة ينبغى أن يحاسب ويحاسب نفسه على الدوام ، هل أخلص لمهنته وهل بلغ رسالته ، فإن وجد تقصيرا لزم أن يتلافاه .

وينطبق هذا على المعلم الجامعي كما ينطبق على مراحل ماقبل الجامعة ومابعد الشهادة الجامعية الأولى . ففى المراحل الجامعية ليس التعليم مجرد محاضرات تلقى ، إنما هو تعلم واستكشاف وبحث يقوم بها المعلمون والطلاب على السواء ، جماعات أو أفرادا .

إن عصر التفجر العلمى الذي نعيش فيه يفرض على الجامعات ، أساتذة وطلابا ، أن تقوم بالقسط الأوفى من تشغيل التكنولوجيا الحديثة ، وتعديلها بحيث تلائم الحاجات المحلية ، وتستخدم فيها المواد الخام المحلية المتوافرة . إن استغلالنا للتكنولوجيا لايكون مجديا إن لم تعدل هذه التكنولوجيا بحيث تستخدم فيها المواد المحلية ، وتقوم بتنمية قدراتنا وزيادة إنتاجنا . بغير ذلك تغدو التكنولوجيا عندنا ظواهر مستوردة إن تملأ بعض الأفراد زهوا وخيلاء ، فهي على الأمة بأسرها بلاء .

فعلى الجامعات بخاصة والمؤسسات التعليمية بعامة أن تضع برامج تعليم ومناهج تفضي إلى الاستفـادة من التكنولوجيا المستوردة . ولأننا في عالم سريع التطور يكاد يشهد في كل يوم تطورا علميا وتقنيا جديدا ، ينبغى أن يتوافر في الجامعات والمؤسسات التعليمية والإعلامية وسائل فعالة للحصول على المعلومات ونشرها . إن تحديات العصر تفرض على هذه الجامعات والمؤسسات أن يكون لديها كوادر مدربة قادرة على استيعاب كل جديد والتكيف معه وتكييفه بحيث يكون في خدمة مصالحنا المحلية وتنمية مواردنا . إن علينا أن نواكب التطور العلمى ، وهذا يقتضي أن تتوافر مرونة في مناهج التعليم ، وسهولة في الحصول على المعلومات .

إن في العالم المتقدم قدرات يخيل إليّ أنه لم يبلغنا خبرها ، أو لعلنا لم نعرها ماينبغى من اهتمام . فثمة أسس متطورة للزراعة والاستثمار قد تحول الصحارى إلى واحات خضراء . وهناك تقنيات تنتج مواد مستحدثة كالألياف البصرية والإلكترونات الدقيقة والليزر ، والتربة الهامشية ، وهناك علوم المواد وهندسة الوراثة ، وما أفضت إليه هذه رائع ، وما قد تفضي إليه قد يكون أروع من الخيال .

إن لم نسهم في تطوير هذا العالم المعاصر ، فلا أقل من أن نتفاعل معه على نحو يخدم مصالحنا وإن لم نفعل فأغلب ظني أن العالم المعاصر سيخلفنا وراءه ويمضي قدما لايلوي على شيء ولاينتظر المتقاعسين ، فالفجوة بين البلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة تزداد كل يوم سعة ، حتى ليبدو أحيانا أن سد الثغرة لن يتم ، لولا أن مجموعات صغيرة قد استطاعت ، بالثقة بالنفس والعزم ، أن تسد ما بينها وبين الدول المتقدمة ، في غضون جيل أو جيلين ، ثم تقف بزهو واعتزاز في صفوف المتقدمين على قدم المساواة في الصناعة والإنتاج والتصدير .

٥ ـ تعريب التعليم : وأعني بذلك أن يكون التعليم باللغة العربية في جميع المؤسسات التعليمية والإعلامية ، وفي جميع مراحل الدراسة ، ولنذكر أن الدراسة والتعلم عملية مستمرة تبدأ من المهد وتنتهي باللحد . بدون ذلك لاتشيع العلوم والمعارف في العالم العربي ، ولايتم التفاعل المنشود بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ، وبدونه لايكون إبداع ، ولايتم تعاون العاملين والمنظرين في تكييف التكنولوجيا الزراعية والصناعية والمهنية لتلائم أوضاعنا المحلية بحيث نستخدم المواد المتوافرة لدينا في سبيل التنمية وزيادة الإنتاج والانتقال من حال المستورد المعتمد على غيره إلى حال المنتج المستثمر المعتمد على قدراته ومهاراته .

وتكاد المشكلة تنحصر في التعليم الجامعي ، ذلك أن المؤسسات التعليمية في العالم العربي تعلم باللغة العربية ، ماعدا مؤسسات قليلة ذات صبغة أجنبية . وفي التعليم الجامعي تنحصر المشكلة في الكليات العلمية ، وهي وحدها التي تعلم بالإنكليزية (أو الفرنسية) وتعريب التعليم في الكليات العلمية مسألة ينقسم ذوو العلاقة في أمرها فريقين : واحد يلح على إبقاء التعليم بالإنكليزية (أو الفرنسية في البلاد المغربية) ، وواحد يدعو بحرارة إلى التعريب . ودعوى أنصار الإنكليزية والفرنسية أن كتب العلوم والنشرات والدوريات العلمية كلها بالإنكليزية (أو الفرنسية) ، وكذلك المصطلحات العلمية في حين أن العربية ليس فيها كتب علمية ولادوريات ولا مصطلحات . ودعوى أنصار التعريب أن العربية هي لغتنا ، وأن الضرورة القومية تقضي أن يقوم العاملون في التعليم على وضع الكتب والدوريات والمصطلحات تأليفا أو ترجمة .

ولعل لكل من الفريقين وجها من الحق ، إلا أننا في معرض الحديث عن مد (الجسور بين العلوم والآداب ، والحديث عن خلق الجو والتربية اللازمين لنمو العلم بيننا لا نملك إلا أن ننادي بالتعريب ، وبأعلى صوت ، لأن تغريب التعليم جريمة تحكم على العلم أن يبقى في العالم العربي كطير غريب نفور .

فالتعريب لاندعو إليه لأسباب قومية فحسب ، ولكن لأسباب تربوية يبدو أن أنصار التغريب يجهلونها . وأول الأسباب التربوية أن كثيرين ممن يقومون بالتعليم في بلادنا ، وبخاصة الأطباء ، لم يتعلموا بالإنكليزية فهم يجهلونها أكثر من الطلاب ، ويخفون جهلهم هذا عن الناس لأن التعليم الجامعي عندنا لايرافقه إشراف تربوي ولو جرى بعض من الإشراف التربوي لرأينا عجبا ، لا لأن بعض المعلمين تخرجوا من جامعات تعلم بغير الإنكليزية ، بل أيضا لأن الذين تخرجوا من الجامعات الإنكليزية جهلوا أو نسوا اللغة التي تعلموا ويعلمون بها ، لأنهم في جامعاتنا لايستعملونها إلا في غرفة الدرس . واللغة ، إن لم تكن لغة البيت ، ما أسرع ما تنسى لقلة الاستعمال ، خطأ أن يقال إنهم يعلمون بالإنكليزية ، فما عندهم إنما هو رطانة فيها من العربية العامية شيء كثير .

وجهل المعلمين بالإنكليزية يربو عليه جهل الطلاب بها ، فهم في مراحل الدراسة السابقة لم يتعلموا لغة المعلم ومن ثم فالحديث بينهم وبين أساتذتهم يجري على مايكاد يكون حوار طرشان . والأدهى والأمر أن فريقا من المعلمين لايستوعبون المادة التى يدرسونها ، فهم يجدون في جهل الطلاب لما يقولون واقيا يحميهم من اكتشاف أمرهم ، ولذا فهم يعارضون تعريب التعليم حماية لجهلهم .

ليس ماأقوله اتهاما مبنيا على سوء الظن ، ولكنه حقائق أتيح لى اكتشافها لاسيما في مرحلة عهد فيها إلى طائفة من معلمي العلوم بترجمة كتب علمية معينة ، وعهد إلى بالإشراف على تنفيذ الترجمة . ولقد لقيت عجبا : معلمين لايفهمون مايحاضرون به الطلاب . مشكلتهم لم تكن أنهم لم يتقنوا التعبير عنه بالعربية ، ولكن أنهم لايعرفونه بالإنكليزية ذاتها . ولقد حدا بي ذلك إلى طلب ملفات هؤلاء المعلمين الرسمية ، فاكتشفت أن بعضهم درس في جامعات تعلم بغير الانكليزية ، وبعضا وضع في غير موضعه ، فهو درس الزراعة ويعلم البيولوجيا ، أو درس الإحصاء ويعلم علم الحاسوب ، والمسؤول عن ذلك أصحاب القرارات من الأدباء الذين يجهلون العلم بقدر مايجهلون الصينية أو اليابانية .

وليس ما أقوله منصبا على جامعة بذاتها ، ففي كل جامعاتنا أدعياء ومتسلقون وضعوا في غير مواضعهم وحماهم أن الإشراف على الإنتاج العلمي أو التعليمى ممنوع إلا حيث تلجأ الجامعة إلى محكمين ، وما أكثر ماينقص المحكمين الموضوعية أو الإلمام بجوانب مايحكمون فيه . وقد نجد مثل هذا في جامعات الدول المتقدمة ، ولكن هناك نجد إلى جانب الأدعياء والمتسلقين نفرا ينتجون ويبدعون ويكتشفون ويخترعون ويكسبون جامعاتهم سمعة طيبة وشهرة ، ومن هؤلاء المبدعين من هم من أبناء العالم الثالث ، ولكنهم آثروا أن يتابعوا بحوثهم في جو وتربة تحسن استقبالها ، على أن يغمرهم في بلادهم تيار جهالة جهلاء .

أرى أن عليّ أن استميح عذرا ذلك النفر من علمائنا الصامتين الذين آثروا أن يبقوا في أوطانهم غرباء على أن يعملوا في بلاد غريبة تستأثر بجهودهم . إنهم قلة بين كثرة من الأدعياء .

إن تعليم العلوم في أكثر جامعات العالم العربي إنما هو كذبة كبيرة ، فإن يكن في المتخرجين من شدا شيئا من العلم الصحيح ، فإنما ذلك بجهده ، لابفضل أحد عليه .

ولكن بدأنا القول بأنه قد يكون لدعاة التغريب وجه من الحق ، فما الحق فيما يدعون ؟

وجه الحق لدى دعاة التغريب أننا مهما ترجمنا ومهما عربنا ، سنبقى بحاجة إلى معرفة جيدة بالإنكليزية بخاصة ، كي يتسنى لنا الاطلاع على الدوريات العلمية وعلى مااستجد من اكتشافات واختراعات ، وكى يتسنى لنا أيضا أن ننشر بحوثنا المتواضعة في دوريات إنكليزية تبقينا على صلة بأهل العلم .

وهذا حق ، ولكن الوضع القائم في جامعاتنا لا يحقق هذا الغرض ، ومايحققه هو أن يعطى طلاب العلوم في

أواخر مرحلة الدراسة الثانوية وفي المرحلة الجامعية دروسا مكثفة بلغة العلم الإنكليزية وفي المنهجية العلمية وأساليب نشر البحوث . بل قد يكون أفضل لخريج الكليات العلمية أن يعرف الإنكليزية معرفة جيدة وأن يلم إلماما بلغة حية أخرى كالفرنسية أو الألمانية أو الروسية ، كى يتسنى له الاستفادة مما يظهر في اللغات الغربية من كتب ودوريات . ومافائدة الكتب والدوريات إن لم يكن القارىء قد استوعب مبادىء العلم الذى يقرأ بلغته التي يفهم ! .

وأما أساتذة الكليات العلمية فلن يكون بإمكانهم أن يخفوا جهلهم عن الناس ، إذا هم ألقوا محاضراتهم بالعربية . وهنا تبرز أمامنا مشكلة المصطلحات العلمية . هذه مشكلة ستتضاءل بالتدريج كلما مضينا في تدريسنا بالعربية ، وفي أول مراحل التدريس لا غضاضة من استعمال المصطلح الإنكليزي أو الفرنسي أو سواهما ، وتفسيره بالعربية ، مع محاولة وضع مصطلح عربى مؤقت يقابله ريثما يتفق على المصطلح المناسب .

تبقى كلمة لابد من ذكرها عن دعاة تعريب العلوم من غير العلميين ، وأعنى بهم رجالات الآداب ، إنهم ينادون بأن ولاءنا لعروبتنا يقتضى أن يكون التعليم بالعربية ، وبخاصة أنه ما من أمة تعلم في بلدها بغير لغتها إلا الأمة العربية . فالفهم الأكيد لايتم إلا إذا جرى التعلم والتعليم بلغة البيت ، والإبداع لا يتم إلا إذا جرى الفهم والكلم بلغة البيت ، ألسنا قضينا نصف قرن أو أكثر نتعلم بلغات أجنبية ، فماذا صنعنا أكثر من تغريب العلم والعلماء ! .

قول سليم ولكن دعاة التغريب يردون عليه بأن ولاءنا القومى يقتضى أن نفتح جميع النوافذ للعلم الغربي ، وأن مشكلتنا الكبرى لنا تعيين عامية وفصحى ذات حدود وقيود تجعلنا إذا تكلمنا بها نفكر بقواعدها وحدودها وقيودها قبل أن نفكر بما نريد أن نقول ، وإذا تكلمنا بالعامية نكون قد جنحنا إلى إقليمية تفرق بيننا ، ذلك ان لكل قطر عربي عاميته ، بل لعل لكل عربي عاميته ، ناهيك عن المصطلحات العلمية التي لانجدها بالعربية . ولانملك أن نضع مقابلات لها ، ذلك أنها تتزايد على الدوام في عصرنا هذا الذي يتزايد فيه العلم بسرعة مذهلة ، ولذا فإن مجامع اللغة العربية التى تعنى بوضع مصطلحات عربية مقابل بعض المصطلحات العلمية إنما تخوض معركة خاسرة . بل لقد ذهب علمي فاشل إلى ان أعمال المجامع العربية في تعريب العلوم والمصطلحات دونكشوطية .

وفي حديثنا القادم عن تطوير اللغة العربية وتطوير تعليمها سنجد مجالا واسعا للحديث عن مجامع اللغة ، فيكفينا هنا أن نتكلم عن علاقة هذه المجامع بالعلماء والعلميين والمصطلحات العلمية :

لاجدال في أن حسن النية ونبل الهدف متوافران لدى مجامعنا اللغوية ، فهى تريد أن تجعل العربية تستوعب المصطلحات العلمية ، ماوضع منها واستقر وما سيوضع ويستقر ، من أجل ان تعود العربية كما كانت في العصور الوسطى ، لغة علم . النية والهدف واضحان ، ولكن ماذا عن خطة التنفيذ ؟

يعمل في كل مجمع لجان معينة من أعضاء المجمع ومن علميين ينتدبهم باسم خبراء ، وأعضاء المجمع في اللجان منهم العلميون ومنهم اللغويون والأدباء . ويعقد هؤلاء اجتماعاتهم فيتناولون مصطلحات في مجالهم المحدد فيأخذون

بترجمتها في حدود معرفتهم ، بالاستعانة بقاموس وقواميس . ثم تجمع هذه الترجمات وتعرض على مركز تنسيق التعريب بغية اختيار ترجمة موحدة يتفق عليها المجتمعون ، ثم تنشر على المؤسسات التعليمية والجامعات ، حيث يحفظ أكثرها حبراً على ورق . أما الجامعات التى تدرس بغير العربية فلا يعنيها الأمر في كثير ولا في قليل . وأما الجامعات والمؤسسات التي تدرس بالعربية فيرى من يعنيهم الأمر منها ان يحتفظوا بما تواضعوا عليه من مصطلحات أولا لأن المنتدبين لتوحيد هذه المصطلحات ليسوا كلهم موضع ثقة ، وليسوا كلهم ممن تمرسوا بوضع المصطلحات العلمية وربما كان أكثرهم من غير العلميين ، وثانيا لأن أعضاء المجامع أنفسهم الذين وضعوا المصطلحات ليسوا في نظر المختصين خيرة من يتصدى إلى هذا العمل ، لا العلميين منهم ولاغير العلميين .

ولعل هؤلاء الذين قلنا إنه يعنيهم الأمر على حق ، أولا لأن توحيد المصطلحات ينبغي أن يسبقه توحيد التعليم بحيث تنتشر كتب التعليم في أرجاء العالم العربي ، ويستعملها المعلمون والمتعلمون على السواء .

وثانيا لأن أكثر أعضاء المجامع من غير العلميين ، وهؤلاء مايزالون فكريا يعيشون في أواخر العصور الوسطى ، يعارضون التطور والتطوير ويتشبثون بما في معجمات وضعت قبل عشرة قرون ، ويجهلون مبادىء العلوم التي عمدوا إلى وضع مصطلحاتها ، فيعمدون إلى ترجمة المصطلحات الإنكليزية ، رغم شعور مكبوت بالنقص يمنعهم من قبول التعريب في بعض المصطلحات . ثم هم يجهلون أو يتجاهلون أن المصطلح العلمي سمي مصطلحا لأن العلميين تواضعوا عليه ليعطي دلالة غير دلالته القاموسية ، حتى إنهم ليحاولون تغيير مصطلحات تراثية ، فتجدهم يفضلون (مدورة) على (دائرة) ـ مثلا ، وهم يرفضون مصطلحات تواضع عليها العمال بحجة أنها عامية ، حتى ليكادون يقيدون العمال والعلماء على السواء .

لقد قبل الناس بكلمة حاسوب مقابلة لكلمة كمبيوتر الانكليزية ولكن مايزال بعض المجمعيين يبدي عدم رضاه عن وزن (فاعول) ، وبعض يفضل (كميوطر) (كمطر يكمطر كمطرة) . ولو أنهم عمدوا إلى تعريب عمليات الحاسوب وأجزائه لكان أجدى بهم وأحرى . ولعل أجدى وأحرى ألا يخوض امرؤ فيها لا يعرف .

ومشكلة المجمعيين أنهم نصبوا أنفسهم بأنفسهم حماة على لغة يرى العلميون أنهم يقيدونها بقيود عصور بائدة ، فلا العلميون المتمرسون بتعريب المصطلحات يرضون عما يصنعون ، ولاهم يرعوون . ولذا تثار عليهم بين حين وحين تشنيعات هم منها براء .

إن تعريب المصطلحات العلمية أمر لابد منه ، ولكن ينبغي أن يمضي مع تعريب التعليم ، فعندما تأمر الأمة أو الدولة بذلك ، عندها ستزول كل المعوقات ، وسينزوي أولئك الذين يتخذون من التغريب درعا يسترون به جهلهم .

وفي معرض الحديث عن التغريب ومآسيه ، ترد على خاطري أحداث شهدتها ، ومواهب رأيتها تدفن في غياهب الجهل ، ولكنى أحاذر الكتابة عنها كيلا يظن قارىء أنني أبني أحكامي على حوادث فردية . إلا أن حادثة أرى أن أنهي بها

حديثي عن التغريب لأنها تبين كيف يبقى العلم غريبا في عقول المتعلمين . والحديث عن عربي هو اليوم أستاذ بارز في قطر أجنبي . كان تلميذا في مدرسة ثانوية تعلم العلوم بالإنكليزية . قال لي : ذات يوم فتحت كتاب الكيمياء لأطالع الموضوع الذي سيحدثنا عنه الأستاذ ، فجابهني عنوان لم أره من قبل ، هو The Atmosphere . قلت في نفسي وماهي الأتموسفير هذه ، لاشك أنها كرة أتمو وماعساه يكون هذا الأتمو؟ لا أدرى ولكن أمرها سيبين من خلال البحث . ومضيت أقرأ فعلمت أن في داخل هذه الكرة أكسجين ونيتروجين وثانى أكسيد الكربون وغازات أخرى بنسب محددة ، وأن فيها بخار ماء يزيد وينقص . ثم فاجأني atmospheric pressure فتساءلت كيف تضغط كرة الأتمو هذه ؟ وخيل إليّ أنها كرة يلعب بها السباحون في الماء . وجاء الدرس ، وتكلم المعلم بطلاقته ، وخيل إليّ أن كل شيء قاله كان مفهوما عندى ، وكل سؤال سأله كان جوابه جاهزا لديّ . وفي الامتحان الأسبوعي حصلت على علامة كاملة عن كرة الأتمو . ثم انتقلنا إلى دراسة غازاتها وطرق تحضيرها ومركباتها ، وأنا أحسب أنني بلغت من العلم مبلغا عظيما . قال محدثى : إلى أن جاء يوم ماطر قابلتك فيه فحدثتنى عن الجو ورطوبته وضغطه ، وعلاقة ذلك بالمطر ويومها عرفت منك ، من حيث لاتدري ، ان الأتموسفير هو الغلاف الجوي المحيط بالأرض ، وأن ضغطه هو الضغط الجوي ، فكأنني استيقظت من حلم عميق .

ترى كم من شبابنا من يغادر المدرسة أو الجامعة . وهو في حلمه هذا العميق يحسب أنه عرف كل شيء ! .

ب ـ الأمور الخاصة :

١ ـ تعليم العلوم : من أجل أن يجري التفاعل المنشود بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ، لابد من تعليم العلوم للجميع ، وفي كل مراحل الدراسة . وتعليم العلوم لايكون تلقينا وإنما استكشافا واكتشافا :

ففي المراحل الأولية يشجع الطلاب على المشاهدة والاستقراء ، كتجميع أوراق الأشجار والأزهار والتمييز بينها ، وتجميع الحشرات ومشاهدة أجزائها بالمجهر . ولايستطيع كل طالب أن يحصل في بيته على مجهر ، ولكن قد تجعل المدرسة جوائزها التشجيعية مجاهر ، وقد يشجع الصناعيون على صنع مجاهر محلية تباع بأثمان رخيصة . ومما يمكن تجميعه ودراسة الفروق المميزة له صور الحيوانات المحلية المختلفة ، المستأنسة منها والبرية ، وأنواع الحجارة المحلية : الرملية منها والكلسية والكبريتية ، والحجر الجيرى والجرافيت والصوان . . .

ومما يجدر التنبيه إليه أحوال الجو وتقلباتها ، والتمييز بين الأصوات ، والألوان ، ومايمكن أن يحدث من مزج الألوان بعضها ببعض ، ومايستجد من مبتكرات التكنولوجيا وتطويرها ، . .

وفي هذا كله يتنبه المعلم والمقيِّم إلى مايبدو من ميل خاص لدى بعض الطلاب وتسجيله في ملفاتهم . وينبغي أن يرافق هذا كله ماينشر ويبث ويعرض من قصص للأطفال ، فهذه ينبغي أن تكون رافدا للتعليم ولعل التعليم عن طريق اللعب واللهو يكون أدعى للبقاء في الذاكرة وأجدى من التعليم المباشر .

وبانتقال الطلاب إلى المرحلة الثانوية ينتقل معهم هذا المنهاج متطورا بحيث يشمل مبدأ سير السيارة والطائرة ، وسفن الفضاء ومبادىء علم الكمبيوتر ، والأقمار الاصطناعية ومايجدّ ويستجد من مبتكرات .

وفي أواخر المرحلة الثانوية يعلم الطلاب المنهج العلمي وطريقتي الاستنتاج والاستقراء ، وطرق البحث وتوثيق الأفكار بالمراجع والمصادر ، وطرق عرض البحث ، وخواص الموضوعية والأمانة العلمية .

وبدهي أن يرفد هذا كله ماتنشره وتبثه وتعرضه وسائل الإعلام ، مع نشر الكتب والقصص الأجنبية ذات الخلفية العلمية مترجمة أو غير مترجمة ، بأسعار زهيدة لكيلا يكون شراؤ ها عبئا كبيرا على القارىء .

وبدهي أيضا أن ينبه إلى تحرى الصدق فيما يقال أو ينشر في الصحف ، وألا يصدق الشائعات إلا إذا لقي دليلا يثبت صحتها ، أو سندا موثوقا يؤ يدها . لا الشائعات ولا الأمثال المأثورة مبرأة من الخطأ .

وليس غريبا ولا مستهجنا أن نطلب من معلم العلوم المتخصص ، في المدرسة الثانوية ، أن يكون له ، كنظيره الغربي ، مختبر خاص يجرى به تجاربه ، وعلى الأخص لابتكار أجهزة محلية تصلح لأن تكون وسائل تعليمية ناجحة . وليذكر معلمو العلوم في المدارس الثانوية أن المخترعين والمكتشفين والتربويين الكبار ومؤلفى الكتب في الغرب ليسوا كلهم جامعيين بل إن منهم من لم يحصل على شهادة جامعية متميزة . وإننا نتطلع إلى يوم يشار فيه بالبنان إلى معلمين في المدارس الثانوية وكليات المجتمع ابتكروا أو طوروا وسائل تعليمية ناجحة ، أو كتبوا عن مبادىء تربوية أو نفسية حديثة مبنية على خبراتهم المحلية ، أو وضعوا كتبا تعليمية متميزة .

وإذا كنا نتوقع من معلمى المدارس الثانوية وطلابها أن يبتكروا ويجددوا ، فينبغى أن نفتح لهم النوافذ على ينابيع العلم : أولا بإطلاعهم على لغة العلم (الإنكليزية) عن طريق دراسة كتب مخصصة لذلك ، وثانيا بتزويدهم بدوريات تعطى أحدث المستجدات في العلم ، وأحدث العمليات ، وربما كانت معرفة قراءة بلغة أجنبية ثانية ذات فائدة كبيرة .

إن من الواجب أن يقر في ذهن الطالب والمعلم أن التطوير والابتكار والإبداع أمور سهلة المنال إذا صح العزم والعزيمة وكان الذهن متفتحا ، والفرد واثقا من نفسه بلا زهو ولا غرور .

وما عرفنا وألفنا في حياتنا طلابا ومعلمين ، كان وما يزال يجري على أساس فردي ، يطلب من كل فرد أن ينجز عملا ، فيعمله بمفرده ، وقد يستعين بغيره ، ولكن تبقى طبيعة العمل فردية ، وهذا وضع تجاوزه الزمن ، ذلك أن أكثر مبتكرات العصر التكنولوجية ، حتى والنظرية ، إنما هي أعمال فريق من اثنين أو أكثر ، ومن المنجزات الضخمة المعقدة ما يقوم بها عشرات أو مئات أو ألوف ، فريقا متكاملا يحترم الرأي والرأي المعارض ويزن الآراء بموضوعية وبلا تعنت ولا مكابرة ، وعمل الفريق أمر ينقصنا . نحتاج إلى أن نعود أبناءنا وطلابنا عليه ، من أول مراحل الدراسة . وينبغي أن يسجل في التقييم مدى استعداد الطالب للعمل التعاوني مع فريق كبير أو صغير .

وإذا جئنا إلى المرحلة الجامعية نكون قد جئنا إلى المصانع التي تخرج العلماء والأدباء والمهندسين والحقوقيين والمحاسبين والأطباء . هنا ينبغي أن تجري دراسة الأساسيات بمحاضرات تلقى بلغة عربية سليمة ، غير متكلفة ، يعود بعدها الطلبة إلى عدة مراجع ، عربية أو غير عربية ، الأساسيات التي ينبغي أن يستوعبها كل طالب تعطى بلغته العربية

التي يفهمها ، يتبعها توسع في الموضوع ، بالرجوع إلى المراجع . ذلك أن الجامعة هي المكان الذي يتابع فيه الطالب ما تمليه عليه ميوله وتدفعه إليه مواهبه . الطالب العادي يكتفي بالأساسيات ليأخذ درجة مقبول ، والطالب الطموح الموهوب أمامه مجال مفتوح للتزود من العلم والمعرفة ، وإشباع ميوله وإظهار مواهبه .

وفي أوائل مراحل الدراسة الجامعية ينبغي أن يكون من موضوعات الدراسة الإجبارية في جميع الكليات دراسة المنهجية العلمية وأساليب البحث وطرق توثيق المعلومات والتمييز بين المراجع الموثوقة والمراجع غير الموثوقة . ومن موضوعات الدراسة الإجبارية في الكليات العلمية دراسة لغة العلم (الإنكليزية أو الفرنسية أو كلتيهما) لتمكين الطالب من استعمال المراجع الأجنبية بمعرفة وثقة بالنفس .

إني أحلم بأن تكون جامعات العالم العربي كأفضل الجامعات الإنكليزية والأمريكية فيها المخترعون والمبتدعون والمبدعون ، منهم من يجري تجارب زراعية لتحسين الإنتاج وزيادة المحصول ، ومنهم من يعمل في ابتكار الطاقة وترشيدها ، ومنهم الحقوقيون العالميون ، والكتاب والأدباء الذين يشارفون آفاق المستقبل ، والاقتصاديون الذين يخططون لكي يكون المستقبل أكثر رفاهية من الحاضر ، أحلم بعالم جامعي يكون فيه لكل فرد أو فريق مختبره وأجهزة بحثه ، يبحث عن حلول لمسائل ألقتها عليه المؤسسات الخاصة أو العامة ، عالم يكون من أفراده المعلمين والطلاب حملة جوائز عالمية ، تقديرية أو تشجيعية ، أصحاب إنجازات ذات سمعة عالمية ، تحسِّن الحاضر وتمهد لمستقبل عالمي أفضل .

أحلام سيقول قارئي إنها بعيدة المنال ، ولكن لماذا ؟ إذا نحن عملنا على وضع الفرد المناسب في المكان المناسب ، وعقدنا العزم على تكريس الوقت والجهد والمال من أجل صالح المجموع وصالح الإنسانية ، مع الحدِّ من الاستثناءات ، وتضييق الخناق على المتسلقين الأدعياء واستبعادهم ، علميين كانوا أو عمالا أو إداريين ، إذا نحن عملنا ذلك بجرأة وإخلاص ، فلن تكون أحلامي بعيدة المنال ، إنها تحتاج إلى جيل أو جيلين بعدهما تبدأ ثمار ما نعمل بالنضوج .

٢ ـ <u>تعليم اللغة العربية وآدابها</u> : إذا كنا نجد أن وصول العلميين العرب إلى مستوى الأمم المتقدمة في الإنتاج العلمي والتكنولوجي مطمح بعيد المنال ، فإن وصول رجال اللغة والأدب إلى هذا المستوى في الإنتاج اللغوي والأدبي أبعد منالاً ، ذلك أن العلميين والأدباء عندنا ما يزالون ، من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، يعيشون فكرياً في العصور الوسطى ويتشبثون بمواصفاتها ، إلا أن العلميين قد يكونون أحسن حالاً لأنهم اطلعوا على بعض من نتاج العصر الحاضر الفكري اطلاعاً قد يكون أرضية صالحة لقبول التطور والتطوير اللذين هما سمتا الفكر المعاصر وتيارات الحياة المعاصرة .

إن في طليعة ما ينبغي أن يرسخ في الذهن العربي ، علمياً كان أو أدبياً ، أن سنة الحياة أن كل حي يتطور ، واللغة كائن حي ، فهي تتطور ، ومن ثم ، فعربية اليوم ، ليست هي هي عربية الأمس ، ومعجمات الأمس لا ينبغي أن تكون قيوداً على لغة اليوم . وينبغي أن يرسخ في الذهن العربي أن التطوير نحو الأحسن والأنسب لتقلبات الحياة

وتغيراتها هو مجاراة لسنة الحياة ، وكما قال علماؤنا السابقون أن لا رأي لميت ، ينبغي أن نقول نحن اليوم إن من واجبنا تطوير لغتنا وقواعدها كما طورها أسلافنا من قبل . ذلك أن اللغة ليست تراثاً نصونه وليس لها قداسة نحافظ عليها ، إنما هي كيان حي يعيش معنا فينبغي أن تتسع آفاقها باتساع آفاق معارفنا ، وإلا فستضيق اللغة عن استيعاب هذه المعارف ، وستتحجر ، ونكون نحن الملومين . وينبغي أن يكون لغويو اليوم بمعرفتهم للسانيات وقواعد لغات أخرى ، أقدر من لغويي الأمس على وضع قواعد مبسطة للعربية .

التطورات العلمية جعلت العالم الواسع صغيراً ، بضغطة زر يستطيع الشاب العربي أن يرى زميله الأوربي أو الأمريكي ينعم بحياة حرة ويتكلم بلغة واضحة سهلة ، فإن لم نبادر نحن لتطوير لغتنا بحيث يتكلم بها الشاب العربي بمثل طلاقة زميله ووضوح عبارته ، فلن يجدي نداؤنا بالتعريب ولا دعوانا بأنه ضرورة قومية .

وأعني بتطوير اللغة أولا تطوير معاني بعض مفرداتها الحاضرة بإكسابها دلالات جديدة ليست في معجمات اللغة القديمة ، وثانيا اشتقاق صيغ جديدة ذات دلالات جديدة ، من ألفاظ قاموسية ، ثالثا اقتباس ألفاظ جديدة من لغات شرقية أو غربية ، بلا خجل ولا حرج ولا عقد نفسية ، فكل لغة تقتبس من غيرها ، وقديما قيل إن أي لفظ غير عربي إذا استعمله العرب صار عربيا ، وما نقتبسه اليوم قد نبدله غدا ونستغني عنه ، فإن بقي واستقر فهو ذخيرة جديدة تضاف إلى ذخائر لغتنا المحبوبة ، ومما ينبغي ألا نتحرج من اقتباسه ألفاظ شاعت على ألسنة العامة وليس لها بالفصحى مقابل .

وإلى جانب تطوير اللغة ، يجب أن يمضي تطوير في عرض قواعدها ، ذلك أن قواعد اللغة ليست هدفاً بذاتها إلا في مرحلة التخصص الجامعي ، وهي قبل ذلك وسيلة للفهم الصحيح ، وينبغي ألا تعطى إلا بقصد الفهم والتمييز .

ففي المرحلة الابتدائية لا يستهدف تدريس العربية سوى القراءة والفهم ، ولا ينبغي أن يعطى من قواعد اللغة إلا ما يساعد على الفهم . ويضاف إلى القراءة والفهم ، في هذه المرحلة ، حفظ بعض من الآيات القرآنية وبعض من الأشعار والأناشيد . ومن المؤسف أن بعض الأشعار والأناشيد التي يرددها أطفالنا وأحفادنا اليوم هي هي ما كنا نردده في أوائل هذا القرن . وموضع الأسف أن قرناً كاملا من الزمن لم ينجب شعراء يزودون الأطفال بأشعار وأناشيد جميلة بلغة عربية فصيحة ـ نقول هذا ونحن نعرف أن بلداً مثل فرنسا مثلا فيها عشرات من الشعراء والمغنين والموسيقيين ممن تخصصوا بوضع أناشيد للأطفال . أليس من شعرائنا من يحب أطفاله إلى حد وضع قصائد وأناشيد لهم ، بدل قصائد النفاق والهجاء !

وإذا كانت غاية قواعد اللغة ، في هذه المرحلة ، هي الفهم ، فقد لا يحتاج فيها إلا إلى معرفة الفاعل والمفعول ، وحالات الرفع والنصب والجر ، وربما الجزم ، دون الحاجة إلى تعداد أنواع المنصوبات إلا حيث تقتضي القراءة أو يقتضي الحفظ وينبغي أن يرفد القراءة والفهم في المرحلة الابتدائية مطالعة لقصص عربية مصورة نحاول أن نجعلها أكثر جاذبية وإثارة من قصص الكرتون التلفزيونية . وغني عن القول أن هذه القصص ينبغي أن تكتب بلغة مبسطة ، وبسجع أو أراجيز يسهل حفظها وتكرارها ، ولا حرج من أن يداخلها ، في هذه المرحلة ، قليل من الألفاظ العامية المستساغة .

وهنا أتخيل قارئاً يثور على ما أقول ، كأني نطقت كفراً إذ حللت أن نستعمل ألفاظاً عامية فيما يطالعه الطلاب . أليس لغويونا وأدباؤنا يثورون على العامية وعلى الازدواجية في محيطنا اللغوي بدعوى أن لكل بلد عاميته ، فالعامية تفرق بيننا والفصحى توحد . جوابي على ذلك أن في كل قطر من أقطار العالم لغة كتابة (فصيحة) ولغة حديث (عامية) بل لغات حديث ، لأن لكل بلد من بلاد القطر عاميته ، حتى العربية الجاهلية كان فيها لغة خطابة ولغة حديث . وفي ألفاظ لغات الحديث العربية ماهو من صنعنا ، عاش معنا في أيام يسرنا وعسرنا ، وهناءتنا وشقائنا ، وجدّنا ولهونا ، فلا ينبغي أن نحرم استعماله على أولادنا ، وهم قد عرفوه وألفوه ، خشية أن يفرق بيننا . فوسائل التعليم والإعلام اليوم من سينما وراديو وتلفزيون وصحافة ، تنقل لغات الحديث العربية إلى شتى أنحاء العالم العربي ، فما استسيغ يشيع ، وما استهجن يهجر ، ولا ينبغي أن ننسى أن العربية العامية تقارب الفصحى كلما زاد التعلم وقلت الأمية ، فليست المبالغة في التخويف من العامية إلا من قبيل جعل الحبة قبة . أزيلوا الأمية تزل العامية وكفى الله المؤمنين القتال .

وفي المرحلة الثانوية ينبغي أن تستهدف دروس اللغة العربية : ١ - القراءة الصامتة السريعة مع الفهم . ٢ - التفكير . ٣ - التعبير عن الأفكار بلغة سليمة ودقيقة . هذا بالإضافة إلى تاريخ الأدب العربي ، مع الاطلاع على عيون القصائد والكتب ، القديمة والحديثة ، الأصلية والمترجمة . وقواعد اللغة ما تزال وسيلة للفهم الصحيح ، لا هدفاً .

وربما كانت الأهداف الثلاثة الأولى جديدة على الفكر العربي ، فالقراءة في مدارسنا ما تزال ضرباً من الخطابة ، والتفكير والتعبير عن الأفكار ما يزال يطغى عليهما ضرب من الشكلية يهتم بالمحسنات اللفظية ، وبرنة العبارة أكثر من المضمون . ألا ترى أن مواضيع (الإنشاء) ما تزال هي هي منذ أوائل هذا القرن ؟ ألا ترى أن التفكير والابتكار والتجديد قد يحاربه المعلم ويعاقب عليه ؟

إن تعويد الطالب على الفهم عن طريق قراءة صامته سريعة يعينه على فهم ما يقابله من قراءات مستقبلية بوقت قصير . هذا ما ينقص طلابنا ، وما نلمسه من فرق بينهم وبين زملائهم من الطلاب الأجانب ، وربما كان المعلمون أنفسهم لا يحسنون الفهم عن طريق قراءة صامتة . فلابد من إعداد ما ينبغي من تدريب على ذلك سواء للمعلمين وللطلاب .

والتفكير والتعبير عن الفكر بعبارات واضحة أمر غير ما يجري عليه تعليم العربية ، لو كانوا يعلمون . وما يجري عليه تعليم العربية هو التعبير عن أفكار سطحية مكرورة مبتذلة بعبارات فيها محسنات لفظية على مبدأ (لبس البوصة تصبح عروسة) . تلك هي الشكلية وذلك هو السوس الذي ينخر في عظام تفكيرنا وتقديرنا للأدب ، وهو السبب فيما نعانيه من أزمة فكرية وخواء ذهني .

إن التفكير يعني مجابهة مشكلة وإعطاء حل لها أو حلول ، وذلك من قبيل تكليف طالب ، أو فريق من الطلبة ، باختيار مكان يقضون فيه رحلة مدرسية ، وتقديم مخطط يبين فيه سبب تفضيل هذا المكان على غيره ، مع ما ينبغي أخذه من معدات ، والطريق الذي ينبغي أن يسلك في كل من رحلتي الذهاب والإياب . إن التفكير يعني البحث عن حل جديد أو حلول جديدة ، لمشكلة قائمة . وهذا ما يجدر أن نعود طلابنا عليه . أما التعبير السليم ففي تقديري أن المعلمين في غمرة ما يمارسون من محسنات لفظية وعبارات شكلية ، لا يعرفون قواعده وأصوله . وأول قواعد الكتابة وأصولها هي فائدة القارىء ، وليست إظهار براعة الكاتب . وفائدة القارىء تقتضي إعطاءه أفكارا جديدة بتعبيرات واضحة وألفاظ معروفة محدودة المعنى ، لا عقد فيها ولا تعقيدات فإذا كان لابد من ذكر لفظ جديد أو غير مألوف ، وليس في اللغة ما يفيد معناه ، عندها لابد من تعريف اللفظ تعريفاً واضحاً . والكتابة أنواع ، نذكر منها ما يلي :

أ ـ الكتابة العلمية وتشمل البحوث والدراسات العلمية ، سواء أكانت بحوثاً أم دراسات في حقول العلوم الطبيعية ، أم بحوثاً أم دراسات في حقول العلوم الإنسانية ، كالتاريخ واللسانيات واللغويات . والبحث يعني طرح فكرة جديدة وحل أو حلول جديدة لها مبنية على اكتشاف أو ابتكار قام به الباحث . وهنا تقتضي الأمانة العلمية أن يبين الباحث بوضوح تام ما قام به غيره وما جدَّده هو أو أجراه من تعديل أو تصحيح . أما الدراسة فلا تتضمن تجديدا ولا تعديلا ولا تصحيحا لبحوث سابقة ، إنما تعني استقصاء بحوث متفرقة والتأليف بينها ، أعني جمعها في سياق متكامل .

وسواء أكانت الكتابة العلمية بحثا أم دراسة فينبغي أن تكون سهلة العبارة ، لا التواء فيها ولا تلميح ولا مجاز ولا كناية . تلك هي العبارة العلمية . فإن كانت تنطوي على ألفاظ مستجدة أو مستحدثة فينبغي البدء بتعريف هذه الألفاظ تعريفات واضحة .

إن الكتابة العلمية تفترض أن تعني ما تقول وأن تقول ما تعني ، بعبارات سهلة واضحة ، بلا مبالغة ، ولا تظاهر . إن الكتابة العلمية إنما هي لفائدة القارىء وحده . أما الكاتب فنصيبه من الفائدة ، الاعتراف بأنه بحث وابتكر ، أو استقصى وجمع ودرس .

ومن خصائص الكتابة العلمية الموضوعية ، وهي تعني البحث عن الحقيقة وإظهارها كاملة بصدق وأمانة ، بلا تحيز ولا تجنٍّ على التاريخ أو على أحد أو شيء ، أنها تعني تقبل الحقيقة مهما تكن مرة .

ب ـ الكتابة التعليمية وتشمل ما يقدم للطلاب أو للناس من معلومات متفق عليها . وهي كالكتابة العلمية من حيث إنها تستهدف فائدة القارىء . ومن ثم فهي تكتب بلغة واضحة سهلة ، لا التواء فيها ولا مبالغة ولا تلميح ولا تظاهر . وهي تختلف عن الكتابة العلمية في أنها دراسة انتقائية تهتم بأن تعطي للقارىء المبتدىء ، وبخاصة الطالب ، ما يحفظ له ولاءه وانتماءه لأمته ووطنه واعتزازه بها .

ج ـ **الكتابة الصحفية** وهذه لا تنطوي على بحوث ولا دراسات مستقصاة ، إنما هي إخبارية في معظمها ، يخالطها دراسات غير جامعة وغير مستحصفة ، وهي تستهدف القراء على اختلاف مستوياتهم العلمية والثقافية . وهنا أيضا ينبغي أن تكون الكتابة بعبارات سهلة واضحة . ولكن حيث يكون ثمة رقابة صارمة على الكتابة الصحفية ، قد يلجأ الكاتب إلى التلميح بدل التصريح أو إلى إعطاء بعض الحقيقة وترك بعضها ليستنتجه القارىء بفطنته . لذا تعتبر الكتابة الصحفية دون مستوى الكتابتين العلمية والتعليمية من حيث الأداء والموثوقية .

د ـ **الكتابة الفنية** وهذه تشمل الشعر والروايات والقصص . والحكم في كل من هذه هو القارىء ، يمدح ما يعجبه ويغضي عما لا يعجبه أو يدير له ظهره ، وإنما هنا يمكن للكاتب أن يظهر براعته في المحسنات اللفظية من تشبيه أو مجاز أو تلميح ، أو معرفة بالألفاظ اللغوية المعقدة ، يذكرها ويفسرها للقارىء ، إذا هو شاء . والذين يتصدون للكتابة الفنية مثلهم كمثل الشعراء الذين قيل فيهم : الشعراء في الزمان أربعة ، فواحد يجري ولا يجري معه ، وواحد يخوض وسط المعمعة ، وواحد لا تشتهي أن تسمعه ، وواحد لا تستحي أن تصفعه . إلا أن أصحاب الكتابة الفنية في زماننا قد يسطون على ميدان الصحافة يشيعون فيه تظاهراتهم وادعاءاتهم ويتباهون بما يصنعون .

وليت المعلمين والطلاب على السواء يدركون أن الكتابة الفنية إنما هي للموهوبين ، عسى الأدعياء والمتظاهرون يختفون أو يختشون . وفي المرحلة الثانوية ينبغي أن يكون التقييم قد ساعد الطالب على اكتشاف مواهبه وتحديد ميوله .

وفي التعليم الثانوي ينبغي تعريف الطلاب بأنواع الكتابة ومميزاتها ، ومطالعة كل نوع منها ، ثم يختار كل طالب ما يراه أقرب إلى ميوله ومواهبه ، كتبا وقصائد وقصصا مؤلفة أو مترجمة أو كتبا علمية أو تعليمية مبسطة ، أو كتابات صحفية .

وفي التعليم الثانوي ينبغي إعطاء الطلاب مزيداً من الآيات القرآنية والأمثال والحكم العربية للحفظ والاستشهاد ، ومزيداً من الكتب العلمية المبسطة والكتب الفنية الأدبية للمطالعة ، ويراعى اختيار ما يناسب أذواقهم في مرحلة المراهقة ويحببهم بلغتهم . لنذكر أننا في صراع مع ما يبثه التلفزيون من برامج أجنبية ، فلنحسن اختيار ما نقدمه لأبنائنا وطلابنا كي نكون في هذا الصراع غالبين منتصرين . ولا شك أن الغزل العذري أدعى للنصر في هذه المرحلة من شعر المدح الكاذب والهجاء ونقائض جرير والفرزدق .

وفي العصور الإسلامية لم يقم الشعراء بتمجيد أبطال الإسلام وتخليد فتوحاتهم . ولذلك أسباب بينة . فمعركة القادسية مثلا كانت انتصارا على قوم دخلوا في الإسلام ، فتمجيد أبطالها يثير ما في نفوس الذين غلبوا فيها من غل وأحقاد ناهيك عن أن بعض شعراء العصر العباسي هم من أبناء هؤلاء المغلوبين .

تلك أيام وظروف مضت . وليت شعراء اليوم يضعون من الملاحم الشعرية ما يذكرنا بأمجادنا السابقة واللاحقة ويرسخ في النفس العربية ما فيها من عزة وكرامة ، وفي الأمة العربية ما يحفظ وحدتها وتماسكها ، مهما اختلفت السياسات والأهواء . عندها ستكون ملاحم هؤلاء في طليعة ما يعني به أبناؤنا وأحفادنا مما يبث العزة في النفوس ، ويزيد الولاء للأمة والوطن رسوخاً ، والاحتفاظ بالأخلاق والقيم العربية ثباتاً .

أكتب هذا كله ، وفي بالي مثل يقول : فاقد الشيء لا يعطيه ، ومعلمو العربية فاقدون لكثير من هذا الذي نتطلبه من أبنائنا . فهل يعطون ما هم فاقدون . أم هل نحيلهم إلى الاستيداع وتبدأ الكرة من جديد !

ومنذ أواسط المرحلة الثانوية نرجو أن يأخذ التقييم الموضوعي النزيه مجراه الطبيعي بلا استثناءات ، فيصنف الطلاب علميين وتكنولوجيين أو أدباء وحقوقيين أو اقتصاديين وسياسيين أو حرفيين وعمالا ، ثم يوجه هؤلاء الوجهة التي تناسبهم وتتمشى مع ما يجري في عصرنا من تجديدات تكنولوجية .

ومهما يكن من أمر ، فعلماء الغد العرب ينبغي أن يكونوا أكثر اطلاعاً على الأدب العربي واللغة العربية من علميي اليوم ، وأدباء الغد العرب وشعراؤه وفنانوه ينبغي أن يكونوا أكثر إلماماً بعلوم العصر وتغيراتها ، وأقل جهلا لها ونفورا منها من أمثالهم المعاصرين .

وتاريخ الأدب العربي أتمنى لو يتخذ ، في العهد الجديد الذي نتطلع إليه ، مسارا آخر يتتبع الشعر الوجداني والغنائي أكثر مما يتتبع شعر النفاق والارتزاق ، ويضع مقاييس لتقدير جودة الشعر على قدر ما فيه من شعر إنساني ، أو وصف لنزعات النفس البشرية ، أو اعتزاز بالقيم العربية ، بدل المقاييس الشكلية المجمدة التي تشتمل على براعة الاستهلاك وما يسمى (المعاني الكثيرة في البيت الواحد) وما إلى ذلك مما يمكن أن يوصف به كل بيت من الشعر وكل قصيدة ، ولعل تتبع الوجدانيات والغنائيات ينقلنا من وحدة البيت الشعري إلى وحدة الفكرة أو القصيدة ، ومن المقاييس الشكلية إلى المقاييس الفكرية والشعورية . فذلك أجدى وأحرى .

أما قواعد اللغة ، التي قلنا إنها ما تزال وسيلة للفهم والتمييز والتعبير السليم ، لا هدفاً بذاتها ، فليت لغويي العهد القادم يكونون بما عرفوه من لسانيات ولغويات ، أقدر من سيبويه والكسائي على فهم عربية اليوم وعربية المستقبل . فإذا سلمنا أن اللغة قابلة للتطور فلماذا لا نسلم أيضاً بأن قواعدها أيضا تتطور ، ويمكن أن تطور ، أو أن تطور طريقة عرض هذه القواعد ، بحيث تبقى أداة للفهم السليم والتعبير السليم ، هدفا غير ذي مردود ؟

إني أعلم أن رجال الإنسانيات العرب الذين نموا وترعرعوا على الشكلية حتى ألفوها ستثور ثائرتهم على كثير مما قلت وكثير مما سأقول . ولكنها كلمة ان لم تقل اليوم ونحن أمام الآداب العالمية في موقف التحدي والصراع ، ستقال غدا

بلهجة أقسى وأشد ونحن في موقف المنهزم ، ولغتنا تندحر أمام أعيننا إذ يفضل أبناؤ نا وأحفادنا عليها لغات أخرى أجنبية أيسر تناولا وأكثر ملاءمة للعصر الذي يعيشون فيه .

وإذا نجحنا في تطوير تعليم العربية في المرحلتين الابتدائية والثانوية بحيث تمضي مع العلوم والتكنولوجيا على وئام وانسجام ، فلا شك في أن موضوعات الكليات الإنسانية سيلحق بها التطور في المراحل الجامعية ، إذا كان الأساس صلبا متينا فلا شك أن ما يبنى عليه سيكون آمنا سليما .

تبقى كلمة لابد من قولها مهما تكن قاسية على التقليديين الذين يرون في كل ما ورثنا عن آبائنا قداسة ينبغي أن نصونها . كلمتي هذه هي أننا في عصر الحاسوب وما سيليه من مفاجآت في وسائل الكتابة والطباعة ، لابد من أن نطور كتابتنا بحيث تكون بحروف منفصلة ، صائتة وساكنة ، ومعها حروف مستجدة تقوم مقام الحركات من ضم وفتح وكسر وتنوين وتسكين . أكُفر ما أقول ؟ هل كفر الحجاج بن يوسف الثقفي عندما قضى بإدخال النقط والحركات على الحروف العربية التي كتب بها أصحاب رسول الله ﷺ ؟ مرة أخرى أقول إن التطوير هو سنة كل ذي حياة وقدرة ، وما لا يتطور فسيموت .

٣ ـ تعليم الجغرافيا والتاريخ

أليس عجيباً بأننا نتباهى بأننا دعاة وحدة ، ومع ذلك ما نزال نعمل في تعليم الجغرافيا والتاريخ حسب مناهج وبرامج وضعها الاستعمار . والتاريخ والجغرافيا يقعان على الحدود الفاصلة بين الطبيعيات والإنسانيات ، فعن طريقهما يجري بعض التفاعل المنشود .

لقد قسم الاستعمار العالم العربي إلى أقطار وجعل كل قطر يدرس جغرافيته الخاصة ، في خضم دراسته لجغرافية العالم ، حتى ليخرج الطالب العراقي ، مثلا ، من المدرسة الثانوية وهو يكاد يعرف عن جغرافية إنكلترا أكثر مما يعرف عن جغرافية العراق ، ويكاد يعرف عن جغرافية أمريكا اللاتينية أكثر مما يعرف عن جغرافية العالم العربي .

إن واجبنا في العهد الجديد الذي نتطلع إليه أن نبني برامجنا الجغرافية على أساس أن المطلوب في المدرسة هو جغرافية العالم العربي ، ابتداء بالدراسة القطرية ، على أن تكون الدراسة تعليمية وميدانية تعتمد على زيارات موسعة للعالم العربي ، تعرف طلابه بعضهم ببعض ، وتعرف طلاب كل قطر بالأقطار العربية الأخرى .

أما جغرافية باقي العالم فيبنى تعليمها على أساس من معرفة موسعة بالعالم العربي ، وقد يشترك التلفزيون ووسائل الإعلام الأخرى مع المدرسة في نقل العلوم الجغرافية إلى جماهير الشعب العربي .

وغني عن البيان أن في برامج دراسة الجغرافيا موضوعات فلكية ومناخية وتجارية ، وهذه تقوم بها المدرسة على أساس من المعرفة الموسعة بجغرافية العالم العربي وإمكانية تكامله الاقتصادي .

إن برامج الجغرافية الاقليمية في أي قطر عربي يجب أن تبدأ بجغرافية ذلك القطر ، تليها جغرافية الأقطار العربية المجاورة ، فجغرافية العالم العربي بأسره ، فالعالم الإسلامي ، فالبلاد الأخرى ذات العلاقات الاقتصادية مع الأقطار العربية ، فسائر العالم .

والجغرافيا من الموضوعات التي يمكن أن تعتمد على إنجازات الطلاب الفردية ، كأن يقال لكل طالب أو مجموعة من الطلاب تنوي زيارة بلد ما أن تقدم تقريراً عن طبيعة هذا البلد ، وأهله ، ومناخه ، وصادراته ، وما فيه من مزايا خاصة . والجغرافيا يمكن أن تعاون في تعليمها كتب المطالعة التي تعطى للطلاب وللأهلين .

ومشكلة التاريخ الإسلامي والعربي أعقد وأجدر بالمبادرة ، فقد كاد الاستعمار يحذفه من برامج التاريخ العالمي إذ أعطاه قسطا صغيرا من الوقت في خضم التاريخ القديم وتاريخ ما سماه بالعصور المظلمة ، ويعني به التاريخ الوسيط الذي فيه بزغ فجر الاسلام وانبعثت الحضارة العربية الإسلامية التي صارت فيما بعد الدافع الأقوى والمثال والنموذج لبدء الحضارة الأوربية وما يسمى بالعصور الحديثة .

وفي غضون تساؤلنا : هل نحن عرب أولا أم مسلمون ؟ وتساؤلنا : أندرس تاريخ العالم العربي أم العالم الإسلامي ، يقوم المسلمون الذين انشقوا عن العالم العربي بكتابة التاريخ العربي الإسلامي باعتباره بعضا من تاريخهم . فمن الروس من ادعوا أنهم هم حفظة الإسلام بدليل أن البخاري صاحب الصحيح هو من أهل بخاري السوفييتية ، وإيران تقوم بوضع تاريخ للحضارة الإسلامية ، باعتبار أن أكثر علماء الإسلام إيرانيون ، ومثلها تركيا التي تدعي أن علماء الإسلام ، سواء منهم من ظهر في إيران أو في بلد هو اليوم سوفييتي ، كلهم أتراك لأن الفرس ماهم إلا بطن من بطون العنصر التركي .

ففي خضم هذه الاتجاهات والادعاءات أين نقف نحن العرب ، مسلمين وغير مسلمين ؟ الجواب نحن كلنا عرب ، في اليسر والعسر ، في اللغة والأرض ، في الآمال والآلام ، في التاريخ الماضي والحاضر والمستقبل ، فواجبنا أن نقف بحزم لهذه التحديات ، ولنكتب تاريخ الإسلام باعتباره تاريخاً بدأ بالعرب وبهم نهض ، وتاريخ العرب باعتباره تاريخاً جعله الإسلام عالمياً وأكسبه صفة الحضارة الإنسانية .

من هذا المنطلق لابد من أن نرسم برامج التاريخ في مدارسنا باعتبارها تاريخ العرب والإسلام ، ولنجعله النواة لدراسة تاريخ العالم . وفي رأيي أننا ينبغي أن نجعل القسم السياسي منه عاماً إجمالياً موجزاً وأن نركز على ناحيتين ما

نزال لا نوليهما ما ينبغي من اهتمام : أولاهما تاريخ الفتوح الإسلامية وحياة قادتها ومعاملاتهم لجنودهم وللأمم التي تستسلم لهم . والثانية هي تاريخ الحضارة الإسلامية ، بدءاً بالعلوم والفنون وانتهاء بما أعطته هذه الحضارة للغرب مما جعله يقوم بنهضته ويبدأ فجر العصور الحديثة .

ولنجعل تاريخ العرب والإسلام في المراحل الابتدائية والثانوية مدعاة لاعتزاز العرب ، مسلمين وغير مسلمين ، بأمتهم وتاريخهم وحضارتهم ، وضماناً لزيادة ولائهم لوطنهم وتعلقهم به والتضحية من أجله ، وجماعاً لأعز القيم والمثل والأخلاق العربية التي تجمع بيننا وتعمل على توحيدنا .

فإذا جئنا إلى ما بعد المرحلة الثانوية فينبغي أن نستعرض تاريخنا ، وعلى الأخص السياسي والعقائدي ، بموضوعية الطبيب الذي يبحث في تاريخ مريضه الصحي للكشف عن أسباب مرضه وعوارضه وسبل علاجه . وفي تاريخنا السياسي أخطاء كثيرة نشأنا على تقبلها والتغاضي عنها ، رغم أنها لم تعالج في الماضي ، وما تزال آثارها باقية إلى اليوم . ومنها أحكام وإجراءات كان الذوق العام في الماضي يقبلها ، وهي اليوم مرفوضة مستهجنة ، يرفضها الذوق العام ويستنكرها قانون حقوق الإنسان ، ولكننا ، جرياً على عادة موروثة متواترة ، ما نزال نرددها باعتزاز ومباهاة ، ولعلها سبب في تفشي عادة الثأر بيننا ، والميل إلى العنف والانتقام والشماتة في صفوفنا ، بدل العفو عند المقدرة والتراحم . فإذا بانت أخطاء الماضي فينبغي مناقشتها بصراحة وموضوعية وإعداد ما ينبغي من عدة لمحو آثارها من نفوسنا . من أمثلة ذلك قتل الحاكم لخصمه بدسِّ السم له ، وإجبار الناس على مبايعة شخص يعينه ، ثم خلعه ومبايعة آخر ، ومنها ترداد خطب فيها إذلال للعرب واستهانة بهم ، كخطبة الحجاج في أهل العراق ، وخطبة زياد ابن أبيه . وثمة أخطاء أخرى كثيرة ليس أقلها كشف ابن ماجد لفاسكو دي جاما عن أسرار الملاحة العربية التي كانت سبيلا لبدء الغلبة الغربية على العالمين الإسلامي والشرقي .

٤ ـ الدروس الدينية

وأعني بها دروس الديانة الإسلامية والديانة المسيحية . ففي معرض البحث عن إقامة تفاعل بين الطبيعيات والإنسانيات ، لابد من حديث عن تطوير المفاهيم الدينية بمثل ما تقدم من تطوير المفاهيم الأدبية واللغوية . فالواقع الذي لا يجوز أن تخطئه العين ، أن مفاهيمنا الدينية ، مسلمين ومسيحيين ، ما تزال كما كانت عليه في العصور الوسطى ، بدليل ما نشاهد من طائفية يعاني منها لبنان الجريح اليوم ، وتعاني منها أقطار عربية أخرى أحياناً . إن الطائفية لا تتمشى مع تيارات الحياة المعاصرة التي تترك لكل فرد حقه في العبادة على طريقته ، وتجعل قيمة الفرد بقدر ما يقدم للمجموع من جهد ، سواء أكان هذا المجموع على دينه أم لم يكن . في العالم المتقدم الذي يحيا الحياة المعاصرة قلما يسأل المرء إلى أي دين أو أي طائفة دينية ينتمي .

والتحدث في الدين وتطوير مفاهيمه أمر حساس كثير المحاذير ، وإذ أدعو إلى تطوير المفاهيم الدينية لدى العرب المسلمين والمسيحيين بحيث تجاري علوم العصر وتجاربه ، أفضل أن أحصر تفاصيل دعوتي في العالم العربي الإسلامي أولا لأنني على صلة أوثق به ، وثانيا لأن العالم العربي المسيحي يجد الدليل والنموذج والمثال في الغرب المسيحي الذي طلّق الطائفية من وقت بعيد ، ونادى ، كما ينادي البابا في الفاتيكان اليوم ، بأن الدين لله والوطن للجميع .

وإذ أتكلم عن تطوير المفاهيم الدينية لدى العرب المسلمين ، أؤكد للمتشددين أنني ، إن شاء الله ، مؤمن صادق الإيمان ، أدعو الله سراً وجهراً صباح ومساء ، أن يعينني على أن أعبده حق عبادته ، وإني أعتز كل الاعتزاز بأنني مسلم وأدعو الله أن يميتني على الإسلام . ولكنني أعلم أن العلم الذي جعله الله فريضة لكي نهتدي إلى آلائه ونقف جيلا بعد جيل على بديع خلقه ـ هذا العلم قد طور ويطور حياة اليوم على نحو يبدو معه الدين الإسلامي الحنيف اليوم كأنه ، كاللغة العربية ، متجمد لا يستطيع أن يلحق بتيار الحياة الصاخب . والمسؤول عن ذلك ليس الدين الإسلامي الذي كان وما يزال أقوى دعوة لمتابعة العلم ، وإنما المسؤول أولئك الذين قضوا بمنع الاجتهاد في الماضي ، وأحفادهم اليوم الذين يقضون بمعارضة التطوير بحجة أن أحكام الله منزلة خالدة . نعم إن أحكام الله منزلة خالدة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، ولكن مفاهيم الناس ، والناس بشر . هذه الأحكام تتغير بتغير أحكام الزمان والمكان . وما أدعو إليه هو القبول بتطوير المفاهيم الدينية ، برحابة صدر ، بحيث تتلاءم مع تطور الحياة الإنسانية التي يحكمها اليوم ويتحكم بها العلم والتكنولوجيا . وها أنا أقدم مثلين لا أرى المجال يتسع لأكثر منهما .

أولا : تحريم الرق

كان الرق سنة الحياة في العالمين القديم والوسيط . وعندما دعا الإسلام لتحريمه كانت تلك أول دعوة لذلك ، وقد سبقت أوانها بقرون . ولأن الرق كان في أيام الدعوة الإسلامية سنة متبعة ، فقد ظهر في الناس من عارضها حتى قال الفاروق عمر رضي الله عنه متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ وأراد الإسلام أن يأخذ بتحريم الرق على مراحل ، بدءاً بمنع استرقاق المسلمين . إلا أن المسلمين ما لبثوا أن تغاضوا عن الدعوة الإسلامية ، مجارين بذلك تيار الحياة العارم ، فاسترقوا الناس مسلمين وغير مسلمين . ولقد حكم في مصر ، زهاء مئتي سنة ، مماليك بدأوا حياتهم أرقاء يحرسون جنوداً وضباطاً محاربين . ولقد عاشوا وماتوا أرقاء بالرغم من أنهم خدموا الإسلام والمسلمين خدمة كبرى إذ صدوا عن ديار الإسلام الحملات الصليبية من الغرب وحملات المغول من الشرق ، حينما لم تقدر حتى الخلافة الإسلامية في بغداد أن تصمد لهذه الحملات . من هؤلاء المماليك الذين حكموا مصر ، كافور الإخشيدي الذي قال فيه المتنبي ما قال مما هو معروف مشهور يردده الخاص والعام دون أن يرعوا حرمة أو يراعوا حصانة .

وفي أواخر العصور الإسلامية قامت في أوربا دعوة لتحريم الرق ، عارضتها الكنيسة أول الأمر ، ثم كانت الكنيسة أكثر حكمة من العالم الإسلامي فقبلت بالدعوة ، في حين بقي العالم الإسلامي يبيح الرق ويسترق الناس ليبيعهم للغربيين الذين أخذوهم لتعمير العالم الجديد .

ولقد لقي المستعمر الغربي في ذلك سبيلا لغزو افريقيا واستعمارها بدعوى تخليصها من المسلمين الذين يسترقون أهلها . وعندما نال السودان استقلاله في أواسط هذا القرن كان في الكتب التي يستعملها المبشرون في جنوب السودان كتاب يبدأ بصورة لجنوبي وقد ربطه شمالي مسلم من عرقوبه ليستعبده .

والآن وقد غدا الرق أمراً مستنكراً ، ألم يحن الوقت لأن نقول إن الإسلام أطلق أول دعوة لمنع الرق ، وأن ملك اليمين (أي الرقيق إنما يعني ما كان قائماً ، وقد زال الآن ، فزال كل ما يتعلق بملك اليمين ؟) .

ألا ترى كيف تتغير القيم والمفاهيم ! ألا تعلم أن نظام السراري هدم البيت الإسلامي السعيد وفرق بين الإخوة والأشقاء وبعثر الدم العربي شرقاً وغرباً وفي جميع الأرجاء !

ثانيا : وضع المرأة

لا جدال في أن الإسلام أطلق دعوة صارخة لتحسين وضع المرأة . صحيح أنه أباح الزواج حتى بأربع عند الضرورة وحسب شروط ، لا سيا وأن المرأة كانت في وضع تحتاج فيه إلى عائل يعولها ويحميها . وإذا ذكرنا أن القانون الفرنسي كان حتى القرن الثامن عشر يقضي بأنه إذا اعتدت امرأة على جارتها فألحقت بها أذى ، يحاكم ولي أمرها ولا تحاكم هي لأنها قاصر لا تميز الصالح من الطالح ، شأنها في ذلك شأن الدابة إذا عاثت في أرض فساداً يغرم صاحبها ولا تغرم الدابة ـ إذا ذكرنا ذلك أدركنا أن ما عمله الإسلام إنما كان رفعاً لشأن المرأة قبل الأوان . لذا ما لبث المسلمون أن حولوا الأمر إلى إذلال للمرأة واستهانة بكرامتها تتمثل اليوم في أمر بيت الطاعة ، وفي منع المرأة من السفر إلا بموافقة الزوج ، حتى وإن كان غائباً أو هجر ، وفي أمر يمين الطلاق ، وأن يطلق رجل زوجة ليتزوج بأخرى ، إذ لا يباح له أكثر من أربع زوجات في وقت واحد ، وأن يطلق رجل زوجة لأمر لا ناقة لها فيه ولا جمل ، ذلك أنه حلف أن يطلقها إن خسر الرهان ، وقد خسر .

إن وضع المرأة المسلمة في العالم الإسلامي مشين ، والمتشددون يتشبثون به ويخلقون له المبررات بحجة أن فتاوي قديمة أباحته . فإذا قلنا كما قال المسلمون الأولون ألا رأي لميت ، وجب أن نقدم نحن الأحياء رأينا بأن الحياة الزوجية إنما هي اتفاقية شركة بين طرفين لكل منهما حقوق وعليه واجبات فإن أخل أيٌ من الطرفين بواجباته أو تجاوز حقوقه ، لزم تغريمه ، وقد يقتضي الأمر فض الشركة وإلغاء الإتفاقية ، حسب شروط يقضي بها قاضٍ .

بمثل هذا يتحسن وضع المرأة المسلمة ، وقد يقتضي الأمر أن يجعل أمر الزوجية تابعاً للأحوال الشخصية ولا علاقة له بالمحاكم الشرعية .

كلمة أخيرة أنهي بها كلامي بأن أخاطب الأدباء الذين يستنكرون العلم ويكفرون العلماء فأقول إن علم اليوم يقيم على وجود الله أدلة لم تخطر لهم على بال . المسيحية تقول : في البدء كانت الكلمة ، والإسلام يقول : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾ . وقبل أن يكون ثمة مكان ولا زمان أراد الله لهذا الكون أن يكون فقال له كن فكان وحدث انفجار عظيم . وعلماء اليوم يسمعون بأجهزتهم الحديثة الحساسة أصواتاً . . . وراء عالم الأجرام السماوية فيفسرونها بأنها ما انطلق من الكون وهو يتكون ويقدرون أن ذلك كان قبل اثني عشر ألف مليون سنة . ﴿ **وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدّون** ﴾ صدق الله العظيم .

* * *

العلم والقيم الأخلاقية

عبدالله العمر

السؤال الذي ماانفك يتواتر على أذهان الناس في العقود الأخيرة من هذا القرن يتعلق بمسؤوليات العلماء والباحثين تجاه المجتمع والحياة بصورة عامة . فهل تترك الحرية التامة للعلماء لإجراء تجاربهم وأبحاثهم دونما قيد أم أن طريق العلم بات يحتاج إلى قواعد تضبط مساره وتحدد وجهته ؟ ثم ما هي مسؤولية العلماء والباحثين تجاه مجتمعاتهم بصورة خاصة وتجاه البشرية ومستقبل الحياة بصورة عامة ؟

لقد تباينت الأجوبة عن هذا السؤال وتعددت حوله على نحو يؤكد خطورة المنعطف الهام الذي أشرفت الإنسانية على اجتيازه بفضل الاكتشافات العلمية والابتكارات التكنولوجية المتطورة . فهناك من يقول إن الحرية عنصر هام من عناصر الابتكار ، وإن العلم لم يبلغ مرحلة متطورة جدا كالتى نعيشها اليوم إلا بفضل الحرية التى اتسم بها البحث العلمي وتطبيقاته . وهناك في جانب آخر من يقول إنه إذا كان من المسلم به ضمان حرية البحث والابتكار للعلماء والباحثين فإن ذلك يجب أن يقترن بمسؤولية أكبر من جانب العلماء والمبتكرين أنفسهم ، إذ شتان بين باحث أو عالم يجرى أبحاثه وتطبيقاته كيفما شاء أو بايعاز من جهات رسمية لا تضع في اعتبارها مصلحة الانسان وبين باحث آخر يلتزم أبعادا أخلاقية في إجراء تجاربه وتطبيق نظرياته . والفرق بين عالم لا مسؤول وعالم ملتزم ومسؤول كالفرق بين آلة ميكانيكية تؤدى عملها بلا إحساس أو شعور وإنسان يؤدى واجبه بوحي من الاخلاق الرفيعة والمسؤولية تجاه الآخرين .

لنأخذ الانجازات الهندسية والتطبيقات العملية التى يقوم بها المهندسون engineers كمثل من الأمثلة نضربه هنا لعلنا نحيط أكثر وأكثر بجوانب الموضوع الذي نعالجه ، فهناك من العاملين في هذا الميدان من

يرى بأن مهمة الهندسة يجب أن تنحصر في الجوانب التقنية المحضة وفي الغايات التى نضعها ابتداء لأجل التوصل إلى أهداف واضحة ومحددة في ميدان التطبيق ذاته . وفي طرف آخر نرى جماعة أخرى من المهندسين يرون أهمية توسيع ميادين البحث في الهندسة ومجالات تطبيقاتها العملية على نحو تظهر فيه ملامح المسؤولية والالتزام في كافة مراحل البحث والتطبيق ، وإنْ كان الخلاف ما يزال قائما حول كيفية تحقيق هذا الاتساع المأمول وأي الأدوات التى يمكن استخدامها فى هذا السبيل .

وعلى الرغم من التطورات والنجاحات العظيمة التى حققتها التطبيقات الهندسية في ميادين كثيرة ، وهي التى تم بفضلها إعادة تشكيل العالم المعاصر ، فإن عقول الأفراد ما فتئت تقيم حواجز شكلية أو تتصور وجود اختلافات بين الأهداف التى يسعى اليها العلماء من جهة وبين نظيراتها عند المهندسين التطبيقيين من جهة ثانية . فمهمة العلماء ـ من الناحية الشكلية المحضة وبحسب التصور التقليدي للفواصل بين النظرية والتطبيق ـ مهمة نظرية في الأساس في حين أن مهمة المهندسين تطبيقية في الأصل . أو بعبارة أخرى نقول بأن التصور التقليدى للمسألة يرى بأن :

« وظيفة العالم هي البحث في الظاهرات الطبيعية والسعي وراء فهمها وجمع معلومات علمية في حد ذاتها ، بينما عمل المهندس هو استخدام تلك المعلومات ـ بأكثر الطرق فاعلية وتأثيرا ـ في ابتكار أجهزة وأنظمة لازمة لرفاهية الانسان . . . وتقدمه »[1]

بيد أن التطورات التى جدت على علم الهندسة في الآونة الأخيرة وعلى ميادين التطبيق قلبت المفهوم التقليدى للعلم باعتباره نظريا وللهندسة باعتبارها تطبيقية محضة . فالنمو المطرد الذي طرأ في العقود الأخيرة على ميادين البحوث والصناعة والمؤسسات التعليمية عمل على تقريب مهمة المهندسين من وظائف العلماء ، وأزال كثيرا من الغموض الذي كان عالقا في الأذهان حول أهدافهم المشتركة في حياتنا الحديثة . فلقد صار المهندس يعتمد على نظريات العلماء المحدثين في تصوره وتنفيذه لآلة بالغة الدقة والتعقيد ، بل صار المهندس نفسه يجرى دراسات وأبحاثا مستفيضة ، يقوم بها مختارا وبإرادة ذاتية خالصة ، وذلك بفضل نظريات بسيطة وتصورات محددة يستمدها من زملائه العلماء . فليس غريبا ـ إذن ـ أن نشهد في الآونة الأخيرة منجزات تكنولوجية عظيمة جاءت نتيجة تعاون مشترك جمع بين المهندسين والعلماء في عمل مثمر ومفيد .

ولكن على الرغم من أن الفجوة التقليدية بين العلم والهندسة ضاقت إلى حد كبير فإن هناك فجوة من نوع آخر ظلت قائمة . فليست المشكلة اليوم في ابتعاد كل من العلم والهندسة عن بعضهما ، كلا وليست المشكلة تكمن في انعدام قنوات اتصال تربط بين العلماء والمهندسين من جهة وبقية قطاعات المجتمع من جهة ثانية ، وإنما المشكلة تظهر في انعدام التناسب بين الآمال الإنسانية العظيمة والواقع المرير الذي يعيشه الأفراد بالفعل . إن المشكلة ـ بمعنى

---

(١) Eric A. Walker., Engineers and the Nation's Future, in Approaching the Benign Environment Ed. by: Taylor Littleton, Frderick Muller Limited, London, 1973, P. 82.

آخر ـ تكمن في الفجوة القائمة بين ما يمكن للتطبيقات الهندسية أن توفره للإنسانية من ناحية وبين ما يجنيه أفراد المجتمع من فوائد نتيجة تقدم هذا العلم من جهة ثانية . فلقد استطاع الغرب أن يصنع المعجزات على صعيد العلم والتكنولوجيا ، ولكن هل واكب كل ذلك التطور العلمي تطور مماثل على صعيد الأخلاق وسعي الى توطيد العلاقات بين البشر ؟ وهل كانت كل تلك الإنجازات خلوا من المنغصات ، وهل استطاع العلم نفسه أن يقضي على بعض المشاكل الناجمة عن استغلاله من قبل الإنسان ؟ فما أكثر ما يشعر الانسان بالفخر والثقة العظيمة عندما يكتشف جديدا أو حين يبتكر أداة متطورة ولكنه غالبا ما يشيح بوجهه عن بعض المعضلات الهامة التى تنجم عن كل ذلك . فما إن تلفت انتباهنا بين حين وآخر مشكلة الاختناقات المرورية عبر الطرق السريعة مثلا ، أو استنشاق بعض الأبخرة الضارة أو الهواء الملوث بالغازات السامة حتى يسارع بعض العلماء إلى التقليل من خطر كل ذلك ويحاولون تبرير المخاطر بحجة أنها الضريبة التى يجب أن ندفعها في سبيل التقدم .

ولكن الحقيقة هي أن الكثيرين كانوا عاجزين عن فعل أي شيء من شأنه أن يقضي ـ أو على الأقل يخفف ـ من المشاكل الناجمة عن الاستغلال البشع للعلم . فماذا فعل الناس إزاء بعض المشاكل الخطيرة التى تنجم عن الاندفاع السريع نحو التصنيع من غير اعتبار للمخاطر التى قد تنشأ عن ذلك ؟ ثم ماذا فعل الناس إزاء مقولة خاطئة تحثهم على طلب العلم لأجل الشهرة أو المال أو سيطرة الإنسان على أخيه الإنسان ؟ وهل يمكن أن يكون هناك بالفعل علم مفيد لا يأخذ في اعتباره أبعادا إنسانية وأخلاقية هامة ؟ إذْ ما فائدة علم لا يجد طريقه الى التطبيق لأجل سعادة الانسان أو التخفيف من معاناة البشر ؟ وهل كان لكثير من المخاطر والمآسي أن تحدث لولا أن كثيرا من العلماء حصروا أنشطتهم في النتائج العملية للعلم دون اعتبار لأية أبعاد أخلاقية أو إنسانية ؟

انظر الى موقف بعض العلماء الأمريكيين ومدى ابتعادهم عن مجريات الأحداث المصيرية في عالمنا المعاصر . ذلك أنه ما إن جاءت الحرب العالمية الثانية وظن بعض العلماء الأمريكيين أن الحرب يمكن كسبها حتى سرت بينهم فكرة مفادها أن حياة الولايات المتحدة مرهونة بصناعة السلاح وتطويره . فتمت بناء على ذلك ـ وعلى نحو لم يسبق له مثيل ـ تعبئة الموارد الطبيعية والمواهب البشرية من أجل هذا الغرض ، وصارت المؤسسات العلمية تتبارى في هذا الميدان وأضحى العلماء يتسابقون في مضمار الأسلحة والدمار . غير أن الاستخدام الواسع للأسلحة المتطورة ، وعلى رأسها القنبلة النووية ، أعطى الناس دروسا هامة لا يمكن تناسيها . فلم يعد إدراكنا واضحا للصلة الوثيقة التى تربط بين النظرية والتطبيق فحسب ، وانما تعدى الأمر ذلك الى إدراك للتقصير الخطير في ميادين هامة من دراسة وبحث الجوانب الإنسانية في مسيرة العلم والتكنولوجيا . إذ لما كانت الدولة هي الممول الرئيسي لأنشطة البحث العلمي إبان الحرب العالمية الثانية ، ونظرا لما شاع بين الناس من أن بقاء الولايات المتحدة مرتبط بالإبقاء على أنماط الصناعة وأشكال الإنتاج التى كانت سائدة آنذاك ، فإن الدولة نفسها ظلت ـ بعد الحرب ـ تقوم بالدور نفسه الذي كانت تقوم به أثناءها . بعبارة أخرى نقول إن المهمة التى كانت تقوم بها حكومة الولايات المتحدة في ميدان البحث والتطوير العلمي في زمن الحرب ظلت هي ذاتها مهمة الدولة في زمن السلم .

ولقد بلغ الاستحسان لهذا التوجه في مسيرة العلم أقصى مداه عندما وجد صدى محببا في نفوس الرأى العام

أيضا . فلقد انساق الناس ـ ولو لفترة قصيرة نسبيا ـ وراء وهم يصور لهم ازدهار الصناعة والاقتصاد بمعزل عن الاعتبارات الإنسانية والأخلاقية . ومن الأمور التى عملت على تعزيز هذا الوهم في نفوس الأمريكيين أن حكومة الولايات المتحدة رصدت في فترة من الفترات ميزانية ضخمة للبحث العلمي تفوق ما رصدته مجتمعات الأرض كلها لهذا الغرض . والتفاتة إلى البحوث التى أجريت في ميدان العلم تظهر كيف أن عددها ارتفع بشكل مذهل وكيف أن هناك ارتفاعا في عدد الحاصلين على جوائز نوبل في ميادين البحث العلمي الدقيق . ففي الفترة ما بين ١٩٥١ ـ ١٩٦٩ نجد أن الأمريكيين الحاصلين على جوائز نوبل في ميادين العلم الدقيق بلغ عددهم أربعين ، وهذا العدد يفوق عدد الحاصلين عليها من أية دولة أخرى . بل إن الولايات المتحدة استأثرت في عام ١٩٦٨ بكافة جوائز نوبل في ميادين الفيزياء والكيمياء والطب والفسيولوجيا .

أما النتيجة التى نجمت عن ذاك المسار الذي اختطته الولايات المتحدة للعلم فهي أنها احتلت ـ إبان العقود الأخيرة من هذا القرن ـ مكان الصدارة في ميادين البحث العلمي والتطور التكنولوجي . كذلك سعت بعض المؤسسات الصناعية إلى إنشاء مختبرات ومراكز أبحاث تستهدف تقديم خدمات للحكومة وذلك إلى جانب سعيها إلى إنتاج مصنوعات ترضى المستهلك . بيد أنه اذا كان من المؤكد أن بعض المؤسسات الصناعية قد ربحت كثيرا من وراء التوجه الذي ارتأته الحكومة الأميركية للعلم فانه من الأهمية بمكان أيضا التشديد على المخاطر والتحديات التى حتمت على الناس ـ فيما بعد ـ أن ينظروا باهتمام بالغ إلى بعض النتائج السلبية للبحث العلمي .

« فكثير من رجال الكونغرس وغيرهم من المسئولين المدنيين بدأوا يتساءلون ما اذا كانت المبالغ الهائلة من الأموال العامة التى يتم ضخها للأبحاث الأساسية تعطي أكلها بالفعل في ميادين التقدم . . . ففي كثير من الحالات يبدو أن العلم يتراكم بسرعة والى حد لا يمكن الاستفادة منه بفعالية من غير جهد حصيف يستهدف توظيفه في صالح الإنسانية » .[٢]

من هنا جاء تساؤل البعض عن أهمية كل البحوث والدراسات العلمية التى تملأ المكتبات ما لم ينتفع الناس جميعا بجهود العلماء والباحثين . ويبدو أن جزءا كبيرا من اللوم يقع على عاتق العلماء والمتخصصين الذين انصرفوا عن الحاجات الحقيقية للناس وأغمضوا أعينهم عن المشكلات الخطيرة التى تنجم عن ممارسة العلم دون أي اعتبار آخر على الاطلاق .

واذا كان من المؤكد أن العلماء حققوا في يومنا هذا نجاحات كبيرة في ميادين العلم الدقيق فان الإخفاق كان كبيرا أيضا عندما اندفع العلماء في مسيرة العلم التقليدية من غير اعتبار لاختلاف الظروف وتغير الزمان وتباين الحاجات .

---

(٢) ibid, p.86

ثورة في البيولوجيا :

انظر الى الارتباط القائم بين الأخلاق والتطورات البيولوجية المعاصرة تجد فيه دليلا على ما قلناه آنفا . . . فالتقدم الهائل الذي نشهده في أبحاث الجينات « وتصنيع الكائنات » - إن صح هذا التعبير - يجعلنا في حيرة من أمرنا . ففي كل يوم نكتشف جديدا ، بل إن النجاحات العظيمة التى يحققها العلم في هذا الميدان بسرعة عجيبة أسقطت الحد الفاصل بين ما يمكن أن نفعله اليوم ونقدر عليه في لحظتنا الحاضرة وبين ما نأمل أن نفعله في الغد . خذ مسألة الانجاب مثلا تجد أن القضايا التى كانت تقلق البيولوجيين بالأمس لم تعد تستأثر بانتباههم أو ربما أصبحوا لا يعطونها أولوية في أبحاثهم الحاضرة ، اذ شتان بين وسائل كان يستحدثها العلم لتحديد النسل والحد من الانجاب عند منتصف القرن الحالي - على سبيل المثال - وبين تكنولوجيا متطورة تمكننا من التحكم بالخصائص الوراثية للجنين في يومنا هذا .

ثم إن الانجازات العظيمة في ميدان البيولوجيا والهندسة الوراثية لم يعد أثرها مقتصرا على « تصنيع الكائنات » أو تشكيل الخصائص الوراثية للبشر وإنما تعدى الأمر ذلك ليشمل أحاسيسنا الذاتية وجوانب فطرتنا التى جبلنا عليها[٣] . فما قولك مثلا في أن قضايا الحمل والانجاب لم تعد مرهونة بعمليات التلقيح التقليدية وذلك لأن التقنيات الحديثة في حفظ البويضة مثلا أو نقلها وزرعها في أرحام من تشاء من النساء قد يسرت لنا خيارات كثيرة وفتحت لنا الباب على مصراعيه أمام بدائل لم تخطر على بال أحد حتى عهد قريب . قد يتمكن الانسان في المستقبل القريب من أن يخلق « نسخا » تماثله تماما بفضل تقنية متطورة تتيح له تلقيح بويضة الأنثى بخلية جسدية وليست جنسية . أما التشوهات الفطرية والأمراض والعاهات فانه بالامكان القضاء عليها - أو التخفيف من أثرها السيء على الأقل - وذلك عن طريق التحكم بالجينات . إذْ لما كانت الأمراض الوراثية أو العاهات تنجم عن خلل يصيب الجينات نفسها فإن إصلاح الخلل في الجينات قبل ولادة الجنين من شأنه القضاء على تلك الأمراض والعاهات[٤] .

غير أن العلم والتكنولوجيا المتطورين صارا يطرحان على الساحة في العقود الأخيرة مشكلات أخلاقية تثير الاهتمام وتستحق التمعن . فعلى قدر ما يضيفان إلى حصيلة المعرفة عندنا ويزيدان من قدرتنا على التحكم بالأشياء ويتيحان لنا خيارات جديدة على الدوام نجدهما يثيران أيضا قضايا جديدة تدور حول ما هو صواب وما هو خطأ ، ما هو خير وما هو شر وهكذا . . . أما المعايير التى تحدد صواب الأمور أو خطأها ، خيرها أم شرها ، فانها صارت تنبع من حاجات الإنسان الفعلية لا من مصادر تقليدية بالضرورة . ففي عصر العلم المتفجر هذا وفي زمن التكنولوجيا المتطورة والمعقدة صار محك الأخلاق يقترب شيئا فشيئا من واقع الحال القائم بالفعل وليس من مثاليات مفارقة ، أو قل إن المحك صار يدور حول ما هو إنساني ومعقول بدلا مما هو مثالي ومأثور .

---

(٣) . Joseph Fletcher, The Ethics of Genetic Control, Anchor Books, New York, 1974, PP. XIII-XIV.

(٤) من افضل الكتب التى تتناول الثورة البيولوجية وابعادها بأسلوب سهل وبسيط كتاب للدكتور عبدالمحسن صالح بعنوان «التنبؤ العلمي ومستقبل الانسان» ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٤٨ ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت .

والحق أنه ما كان لمفاهيمنا الأخلاقية أن تتغير وتتحول لولا أننا نعيش بالفعل عصرا متغيرا يتسم إيقاع التحول فيه بالسرعة الكبيرة . حقا إن الانسانية عاشت منذ عهد قريب ولا تزال تعيش ثورات في ميادين العلم المختلفة كالثورة التى حققها الانسان في ميادين الذّرة والالكترونات وغزو الفضاء ولكن البيولوجيا هي طابع الثورة العلمية في يومنا هذا . ولا يعني ذلك ـ بطبيعة الحال ـ أن إنجازات علمية هامة في ميادين العلم المختلفة قد توقفت أو قلت وانما الذي نعنيه هو أن ميدان الثورة البيولوجية اليوم أصبح يستقطب اهتمام العلماء والباحثين والمثقفين ورجال الدين أكثر من غيره . فبعد الحرب العالمية الأولى وما صاحبها من ثورات في العشرينات ، كان محور الاهتمام في قضايا الأخلاق يدور في ميدان العلوم الاجتماعية ، ثم حدث بعد ذلك تحول في الاهتمام دار حول العلوم السلوكية وقضايا علم النفس . وما إن جاءت الحرب العالمية الثانية وما تبعها من استخدام للذّرة حتى صار هناك تحول جديد في قضايا الأخلاق حتمه العلم الفيزيائي ، وأما اليوم فاننا نواجه تحولا جديدا في الاهتمام بقضايا الأخلاق تفرضه علينا إنجازات الثورة البيولوجية . بل الأكثر من ذلك هو أن كشفنا لأسرار النواة في الذّرة ـ بالرغم من كونه حدثا عظيما بكل المقاييس ـ لم يطرح أسئلة أخلاقية ملحة ولم يثر معضلات حادة في ميدان القيم كالتى نعايشها اليوم في ضوء اكتشافاتنا العظيمة لأسرار الخلية الحية .

ولكن انظر ـ بشكل أدق وأكثر تفصيلا ـ الى رأى ث . دوبجانسكي حول الأبعاد الأخلاقية والإنسانية للثورة البيولوجية حين يقول : إن الانجازات العظيمة في مجال العلوم البيولوجية عملت بالفعل على تعميق فهمنا للعوامل التى تتحكم بمسيرة التطور وخاصة تلك العمليات التى لها أثرها الهام في تطور الجنس البشرى . فالناس يعلمون الآن أن بعض أشكال التكنولوجيا المتطورة في مجال الطب والعلوم البيولوجية متوافرة بالفعل ويمكن استغلالها في التحكم بالجينات ، كما أن هناك الكثير من الآلات والتكنولوجيا المعقدة التى سيجلبها لنا المستقبل مما يتيح لنا مجالا أكبر للتحكم بالجينات على نطاق أوسع . ناهيك بعد هذا عن أن الوسائل التى بين أيدينا الآن يمكن تطويرها إلى حد بعيد . فاذا ما كتب للانسان أن يفتتح مجالات جديدة أوسع في علم البيولوجيا ويقع على سر التطور فإنه يستطيع بعد ذلك أن يزيد من سرعة العملية التطورية أو أن يعدل فيها كيفما شاء . ومن هنا رأىٰ دوبجانسكي أن المسألة لا تقتصر على كونها مسألة بيولوجية بحتة بل هي الى جانب ذلك مسألة اجتماعية وأخلاقية على حد سواء . وليس أدل على أن للقضية جوانب أخرى من أن نستعيد بذاكرتنا ما حدث لعلم تحسين السلالات eugenics من فشل ذريع أبّان الربع الأخير من القرن التاسع عشر وطلائع القرن العشرين عندما ركز العلماء على الجانب البيولوجي وأهملوا كل ما عداه من جوانب أخرى لها أهميتها . وهل يخفى على المرء أن العملية كلها كانت تستهدف الارتفاع بشأن الانسان أولا وقبل كل شيء ، ومن هنا تتضح ـ بكلّ جلاء ـ أهمية معرفة العوامل التى تجعل من إنسان المستقبل إنسانا أفضل . فمادامت المسألة تتعلق بتحسين الانسان والارتفاع بشأنه ، فأية غرابة في أن تكون للمسألة جوانب أخلاقية واجتماعية وفلسفية ؟ إن الغرابة ـ بمعنى آخر ـ تكمن في حصرنا أنفسنا في نطاق ضيّق كما في قولنا مثلا إن المسألة بيولوجية محضة . ومن هنا يرى كثير من المفكرين أن على بعض علماء البيولوجيا مراجعة أنفسهم مرارا وتكرارا وأن لاينُصّبوا أنفسهم حكاما يتحكمون بكل شيء أو يظنون أنهم قد عرفوا كل الجوانب التى تنفع البشر وترفع من شأنهم . ويحق للانسان اليوم أن يعتز بقيام مجموعة من الأفراد والمؤسسات الأهلية والحكومية التى تستهدف بحث أخلاقيات العلم

ومحاولة كشف الجوانب الاجتماعية التى طالما أهملها العلماء عن قصد أو ربما عن جهل بها وبأهميتها في هذا الشأن . ولعله من قبيل الحديث المعاد ان نقول بأن السؤال الهام الذي يطرحه بعض العلماء المهتمين والمؤسسات المسؤولة عن المضامين الاجتماعية والأخلاقية للعلم هو : ماذا ستكون عليه حياة الانسان في ضوء التطور البيولوجي المعاصر ، أو الثورة البيولوجية على وجه أصح ، وهل ستجلب له حياة المستقبل مزيدا من القوة والسعادة أم عكس ذلك ؟ وإن تكن الاهتمامات الاجتماعية والأخلاقية والفلسفية التى نوليها للانجازات البيولوجية في مجال الوراثة حديثة العهد نسبيا الّا أن التيار ما انفك يزداد شدة حتى بات المرء يرى نفسه إزاء صراعات فكرية ومذاهب مختلفة تتصل بالبحث العلمي ومضامينه . فهناك تيار يدعو أصحابه إلى رفع كل قيد على العلم وأبحاثه ونتائجه ، وهناك في الطرف الآخر تيار ثان يدعو إلى فرض قيود على العلم بل وتحريم كل أبحاث تتعلق بتطوير أو تعديل الخصائص الوراثية للبشر ، وهناك إلى جانب هذين التيارين المتطرفين تيّارات أخرى تتراوح درجات تأييدها أو معارضتها لهذا الطرف أو ذاك .

وبما أننا لا نهدف من وراء البحث في هذا الميدان إلى تقصي كل صغيرة وكبيرة في التيارات الفكرية المتصارعة حول الثورة البيولوجية وجوانبها الأخلاقية فلا أقل والحالة هذه من ذكر شيء حول هذا الأمر ورسم معالم الطريق الرئيسية على أقل تقدير .

نقول باديء ذي بدء إن حياة الانسان أمر مقدس لدى الغالبية العظمى من فلاسفة الأخلاق . غير أن وجهات نظرهم تظل متباينة حول أي مرحلة من مراحل التطور في حياة الانسان تتجسد تلك القداسة كاملة . هل تراها تظهر عند ولادة الانسان مثلا ، أم عندما يقوم بحركات حيوية إرادية ، أم أن القداسة لحياته تبدأ بمجرد تلقيح الحيوانات المنوية للبويضة ، أم غير ذلك من مراحل التطور التى تعقب الولادة وهكذا ؟ والحق أنه من الضروري أن نسأل أسئلة كهذه ونحاول تحديد مفاهيمنا للأفكار إذا عرفنا أن كل ذلك يتصل اتصالا مباشرا بمشكلات اجتماعية وأخلاقية كثيرة كمشكلة إجراء التجارب على بويضات المرأة أو على الجنين . فبعض الناس مثلا يرون أن الحياة تبدأ لحظة إخصاب الحيوانات المنوية للبويضة zygot وهذه نظرة يؤيدها علم البيولوجيا بوجه خاص باعتبار أن الخصائص الوراثية للفرد genetic endowment تتحدد منذ تلك اللحظة . ومن هنا ترانا نطرح السؤال التالي مثلا : هل الإجهاض أمر مسوغ أم جريمة ؟ بل ترانا نسأل من جديد إذا ما سرنا على هذا المنوال عمّا اذا كان التلقيح الخارجي in vitro ـ أي تلقيح الحيوانات المنوية للبويضة من غير اتصال جنسي بين ذكر وانثى ـ أمراً مباحاً أم محظوراً ، أو ربما نسأل عمّا اذا كان ذلك يمكن تبريره أخلاقيا أم أنه فعل ممجوج ومكروه . ذلك أنه لما كانت الأجنة الصغيرة التى نجرى عليها تجاربنا قد يكون مصيرها مجارى الأوساخ ، شأنها في ذلك شأن القاذورات والنفايات ، فإن الاختلاف في وجهات النظر قد طرأ أو تفاعل لدرجة أن الأمر لم يعد محصورا في إطار علم البيولوجيا ـ كما قلنا ـ بل إن علم الأخلاق وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلوم القانون وربما غيرها من العلوم دخلت حلبة الصراع وصار كل منها يدلي بدلوه في تلك الأمور العسيرة . ولعل هذا هو السبب في أن التقدم العلمي والانجازات التكنولوجية العظيمة ، سواء تلك التى نعمل على تطويرها أم تلك التى نأمل تحقيقها في المستقبل ، لم تعد مناطة بالعلم وحده بل إن هناك من الضغوط الخارجية والأمور الهامة ما يجب أخذها بعين الاعتبار في هذا الشأن . فهل نعجب بعد هذا أن يشك بفعالية تجارب تصنيع الحياة cloning من خلايا جسدية ، لا لأن العلم أثبت فشلها ، ولا لأن العلم لم يعد يحمل في طيّاته

جديدا في المستقبل ، وإنما لأنه يستحيل إهمال العوامل والجوانب الأخرى التى لا نشك بأن لها دخلا كبيرا في إباحة تجاربنا أو تحريمها .

فما قولك مثلا إنه متى نجحت تجارب تصنيع الانسان من خلايا جسدية فإن ذلك من شأنه أن يعطينا أفرادا متطابقين كل التطابق في كل شيء ، وهذا بدوره يطرح تساؤلا خطيرا حول هوية الانسان وشخصيته . فكل فرد يتمتع من بين البشر جميعا بهوية خاصة تميزه وحده ، ولكن ماذا يبقى من هويته اذا كان هناك من بين البشر آلاف يماثلونه في كل شيء ؟ غير أن بعض علماء البيولوجيا لا يعتقدون بأهمية هذا الاعتراض الأخير على صنع بشر متطابقين ، فهم يرون أن الطبيعة كثيرا ما فعلت ذلك في حالة التوائم المتماثلة وهم التوائم الذين ينحدرون من بويضة واحدة . بل الأكثر من هذا هو أنهم يرون مثل هذا التطابق بين مجموعة من البشر مبعثَ فخر واعتزاز لكل من يتم تصنيعه بهذه الوسيلة المتطورة وذلك لأن الخلايا الجسدية التى يتم بها تصنيع الحياة تستخلص من أفراد يتميزون بصفات وراثية مرغوبة . ولما كان الأمر كذلك ، فإنه من الأولى بالناس الذين ينشأون عن هذا الطريق أن يكونوا فرحين نظرا لأنهم بالفعل من أصحاب الحظ السعيد بفضل الخصائص الوراثية التى يملكونها . بل لقد رأى بعض العلماء المؤيدين لتجارب تصنيع البشر بأن هوية الأفراد لا تحددها عوامل بيولوجية محضة . نعم ان الوراثة تلعب دورا هاما ـ في نظرهم ـ ولكن أثر البيئة ، أيّا كانت ، لا يقل عن أثر العوامل البيولوجية أبدا ، فلا سبيل الى قيام تطابق تام بين أفراد أو عائلة البشر المصنعين clone الاّ في أضيق الحدود ـ كما يرون ـ وذلك لأن كلاّ منهم سيخبر في حياته مواقف محددة خاصة به وستحيط به ظروف تختلف إلى حد بعيد عن ظروف أي فرد آخر من أفراد عائلته ، وعلى ذلك فإن هويته ستكون على أرجح احتمال هوية فريدة خاصة به وحده .

أما عن المشكلة التى تدور حول قيام هوية خاصة بالإنسان ومتى تظهر تلك الهوية فإن اختيار مرحلة محددة يعتمدها الناس على أنها هي المرحلة الحاسمة في هذا الموضوع يرجع في الأساس الى الناس أنفسهم والمشرعين . ومن هنا كان اختلاف الرأى بين المجتمعات حول هذا الرأى ، وما يتعلق بقضية الإجهاض ومشروعيته مثلا . ففي استطاعة العلماء تقسيم مسيرة الحمل والولادة وما بعدها الى مراحل مختلفة ، فنقول مثلا بأن هناك مرحلة للانقسامات الميوتيكية meiotic divisions ومرحلة للاخصاب fertilization ومرحلة الزرع أو البذر implantation ومرحلة الإنعاش أو الإحياء animation ومرحلة الولادة ثم مرحلة نطق الكلام الى آخره ولكن من الصعب أن نقول في اى المراحل تلك تقوم هوية الانسان على وجه التحديد . . وعلى ذلك فانه من المتعذر ـ إن لم يكن من المستحيل ـ القول بأن للمرء في مراحل تطوره الجنيني المبكر حقوقا معينة أو أن هناك تشريعات ـ أيا كانت طبيعتها ـ تختص به آنذاك . ولعل رغبة بعض الناس في تحديد مرحلة مبكرة من تطور الجنين يكسبونه فيها شرعية محددة وحقوقا خاصة ترجع الى إيمانهم ـ بحكم عقيدتهم الدينية ـ بأن الروح تنزل في الجسد ، فإذا الذى لم يكن من قبل حياة قد أضحى بالروح حياة بالفعل ، أو قل بأن الذى لم يكن قبل هبوط الروح إنسانا قد أمسى بعد هبوطها إنسانا يجب على القانون أن يحميه ويحفظه . ومهما يكن الأمر فان هذه معتقدات لادخل للعلم فيها ، بل كل مايمكن أن يطرح في العلم هو أن تطور الجنين لايحدث فجأة وانما يتم على مراحل . فالبويضة ـ ملقحة كانت أو غير ملقحة ـ تنطوى على امكانية أو

قدرة على اظهار انسان لنا في آخر الأمر متى توافرت ظروف محددة . بعبارة فلسفية اخرى نقول بأن ماكان انسانا بالقوة يصبح على مر الزمن وبتوالي المراحل انسانا بالفعل ، وتطور المراحل على هذا النحو أشبه مايكون بسيرة تاريخية أو بقطعة موسيقية . فكما أننا لا نقدر أن نقول بأن مقطعا منها هو القطعة الموسيقية بعينها ، كذلك لانقدر ان نقول بأن هوية الانسان أصبحت قائمة في هذه اللحظة أو تلك . ويجب أن لايسرح بنا الخيال فنظن انه طالما كان للقطعة الموسيقية بداية فان هوية الانسان تكون مع بداية تكونه مثلا إذ أننا بذلك نعود من جديد الى السؤال الذى انطلقنا منه أصلا وهو : لماذا نصرُّ مثلا أن تكون هوية الانسان قائمة في هذه المرحلة دون تلك ؟ وما ان نرجع من جديد الى موضوع حديثنا عن الإجهاض حتى نرى بأن المشكلة لم تزل معقدة الى حد بعيد . فتقسيمنا لعملية الحمل الى مراحل وإباحتنا لعمليات الاجهاض في المرحلة الاولى منها ، مثلا ، لايعنى بالضرورة اننا قد تخطينا كل مايعترض سبيلنا من عقبات كبار . اذ قد يعترض معترض هنا بأنه مادامت المرحلة الاولى من الحمل مرحلة نعتز بها ونقر بقيامها ، كاعترافنا بالمرحلة الثانية والثالثة وإقرارنا بها ، فما الذى يسوغ إجراء الاجهاض في المرحلة الاولى وتحريمه في المرحلة الثانية أو الثالثة مثلا ؟ بل على افتراض اننا أبحنا عمليات الاجهاض في المرحلة الاولى مثلا فما الذى يمنع تحت ظروف معينة من إجراء الاجهاض في المرحلة الثالثة ، وهل يعتبر امر كهذا سلوكا يعاقب عليه القانون ؟

الاعتدال مطلوب والحكمة واجبة

الواضح اذن هو أن من ابرز الصفات التى اتصفت بها المعرفة عموما أنها تحرر الانسان وتجعله مسؤولا على حد سواء . والواضح ايضا إنه في الوقت الذى يشعر الانسان فيه بغبطة عظيمة كلما تقدمت وسائل المعرفة والبحث العلمي نراه في الآن نفسه في حيرة وقلق متزايدين . وما اكتشاف نظرية التطور الا شاهد واحد على مانقول . إذ أن مرد الحيرة هنا هو السؤال التالي : هل يساير الناس مسيرة التطور كيفما شاء لها أن تشكلنا أم أن الانسان ملزم بتحديد مسار التطور وتشكيل المسيرة نفسها كيفما شاء هو؟

نعم لربما أقام الانسان بنوكا للحيوانات المنوية لأجل أن يستغلها متى أراد وعلى النحو الذى يبغي ، بل ربما يستطيع الانسان أن يخطو بعد ذلك خطوة أبعد حين يعمل على تطبيق برنامج الحياة المصنعة cloning والهندسة البشرية بالفعل . نقول إنه ربما استطاع العلماء تحقيق كل ذلك ظنا منهم أنهم يعرفون ماينفع البشر على وجه التحديد ويتصورون أن النتائج لن تكون خطرة أو مخيبة للآمال . ولكن يجب أن نعلم بأن العلماء طرف واحد فقط في حلبة الصراع الكبير ، وان هناك في طرف آخر من يرفض إخضاع البشر «وتصنيعهم» كما لو كانوا مادة جامدة . فهناك طائفة من الناس وجماعة من العلماء وكذلك بعض المؤسسات العلمية ترى أن صنع إنسان في المعمل والعبث بخصائصه الوراثية إنما هي أعمال أقل مايقال فيها إنها لا أخلاقية . ومهما يكن الأمر حول معضلات كهذه واختلاف الرأى حولها فان الأمر الهام الذى يجب استبعاده هنا هو أن نظن بأن احكامنا كلية ومطلقة أو أن آراءنا غير قابلة للنقاش أو التعديل(*) .

(*) Theodosius Dobzhansky., Living With the Biological Evolution, in **Man and the Biological Revolution** Ed. by: Robert H. Haynes, Canada, 1976, PP. 39–44

هل هناك حياد مطلق في العلم ؟

هناك ، الى جانب ماعرضنا له آنفا ، جانب آخر لمشكلة ارتباط العلم بالأخلاق يتعلق بحياد العلم . ولقد بدأ التعديل يطرأ على هذا التصور للعلم بمحاولات من جانب الاتحاد السوفيتي لتوجيهه وجهة خاصة به . فبعد الثورة الروسية بعشر سنوات جرت محاولات لاكساب العلم طابع الايديولوجيا السائدة والحاكمة هناك وذلك على نحو تكون لنا فيه «فيزياء اشتراكية» و«بيولوجيا اشتراكية» وما الى ذلك . فلم يكن مهما عند رواد هذا التوجه الجديد للعلم في الاتحاد السوفيتي ماينطوى عليه العلم نفسه من منطق داخلي خاص به بقدر ماكان يهمهم أن يصبح العلم اشتراكيا ومختلفا عن العلم الذى يشيع في الدول الرأسمالية . ويبدو أن الاختلاف في وجهات النظر حول حياد العلم إبان الثلاثينات والاربعينات لهذا القرن قد انتهى بالفعل بمجيء ت . د . ليسنكو الى مركز المسؤولية في الاتحاد السوفيتي ومحاولاته توجيه الأبحاث العلمية في طريق يخدم الايديولوجية السياسية ويخضع لها . فمن الجدير بالذكر أن العلم في الاتحاد السوفيتي اصيب بنكسة عظيمة بسبب التحكم والتوجيه اللذين مارسهما الحزب الشيوعي في ميادين العلم والأبحاث وخاصة في حقل البيولوجيا[٦] .

ونخطيء اذ نظن أن الحياد في العلم كان هدفا للنقد العنيف من جانب تيار الفكر السياسي اليسارى فقط وانما كان للتيار اليمينى ايضا نصيبه في النقد والهجوم على ذاك الحياد . فلقد بدأ الحديث يتردد ، منذ النشأة الاولى للايديولوجية النازية في المانيا ، عن «علم آري» رفيع وآخر لا آري وضيع . ولقد كان من نتيجة هذا التوجه اليمينى المتطرف في السياسة أن أصبحت نظرية النسبية محل هجوم لمجرد أن صاحبها «اليهودى» لاينتمي بالطبع الى «الجنس الآرى» الرفيع . وهناك ايضا نظريات علمية أخرى كانت هدفا للنقد والتسفيه والتشكيك من جانب اليمين واليسار معا نظرا لعدم مسايرتها للمفهوم الآرى عند النازيين أو للتوجه الايديولوجي عند الاشتراكيين .

على أن حدة النقد أو الهجوم على النظريات العلمية من جانب كل من النازيين والاشتراكيين كانت مختلفة في النتائج على الاقل . ففي الوقت الذى اتخذت فيه معارضة النازيين للعلم منحى عنيفا تمثل في طرد جماعة من العلماء اليهود من الجامعات أو اضطهادهم في مراكز البحث العلمي أو في قتل السجناء في معسكرات الاعتقال نجد أن المعارضة في الاتحاد السوفيتى كانت اقل حدة بعض الشيء . ذلك أن الاثر السيء لتوجيه العلم من جانب الماركسيين المتشددين قد اقتصر ـ في الغالب ـ على تخلف عام وخطير أصاب علم الجينات بصورة خاصة .

أما في بريطانيا ، فقد ظهرت في الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية أصوات تطالب بتسخير العلم لصالح الانسان وذلك بفضل تعاطف بعض العلماء والمفكرين هناك مع التوجهات الاشتراكية . ولعله من المفيد هنا أن نذكر

---

(٦) Steven Rose and Hilary Rose, The Myth of the Neutrality of Science, in **The Biological Revolution** Ed. by: Watson Fuller, Anchor Books, U.S.A., 1971, PP. 283-287.

حول المحاولات التى قام بها الاتحاد السوفيتى من أجل توجيه العلم والبحث العلمي وجهة خاصة تتناسب مع الايديولوجية الاشتراكية راجع كتاب :
Science At the Cross Roads, Frank Cass and Co. Ltd., Second edition, London, 1971.

بأن أفكار المصلحين والعلماء الماركسيين كانت تحمل في ثناياها تفاؤلا وبشريات توحي بإمكانية استغلال العلم لخدمة الانسان وتحرير البشر من كثير من المنغصات اذا ماأمكن التخطيط للعلم تخطيطا عقلانيا . ولكن كانت هناك ايضا جماعة أخرى من العلماء البريطانيين تنادى بالحرية المطلقة للعلم وتطالب بالإبقاء على المنطق الداخلي له .

على انه ما ان اشتعلت نار الحرب العالمية الثانية وتم تجنيد العلماء وتسخيرهم في ميادين البحث التى تخدم ظروف الحرب ومتطلباتها حتى أصبح الحوار حول وجهة العلم عقيما . فحتى أكثر العلماء الالمان انسانية وتعقلا وحكمة في توجهه وجد نفسه فجأة ينساق وراء تيار الحرب أو يستسلم لظرف فرض عليه فرضا . ولقد حدث مثل ذلك في بريطانيا ايضا حيث تم تجنيد العلماء والباحثين لخدمة الحرب ومن اجل البحث في الاغراض العسكرية . أما في الولايات المتحدة فإن اضخم تسخير للطاقات البشرية والمادية في الميدان العسكرى تمثل فيما يعرف بـ «مشروع مانهاتن» ، وهو المشروع الذى أسفر في النهاية عن صنع القنابل النووية .

صحيح أن العاملين في ذلك المشروع ، ومن بينهم اينشتين نفسه وروبرت أبنهايمر ، كانوا يتمتعون بأخلاق رفيعة وبتطلعات انسانية ، ولكن الذى يهمنا هنا هو أن الرئيس الاميركي روزفلت هو الذي وافق على المشروع الخطير وأن العمل في المشروع قد تم بتمويل من الحكومة الاميركية ، وهذا مايطيح أساسا بفكرة الحياد في العلم . اما النتيجة فانها واضحة تماما في المأساة التى لحقت باليابان حين ضربت هيروشيما ونجازاكي بقنبلتين ذريتين .

اما لماذا سعى علماء كبار الى العمل في ذلك المشروع فان السبب يرجع الى اعتقادهم بأن هتلر كان ماضيا في طريقه لانتاج قنبلة نووية ، ولما كان هناك تخوف ـ عند اينشتين وغيره من الفيزيائيين ـ من امتلاك طاغية كهتلر لقنبلة ذرية سارع أولئك العلماء الى الطلب من الولايات المتحدة بالسماح لهم بإجراء التجارب لاجل التوصل الى صنع قنبلة نووية قبل أن يتوصل اليها هتلر . ولما اتضح فيما بعد أن هتلر لم يكن في طريقه للحصول على القنبلة ، وكذلك لما ظهر ان القنبلتين اللتين ألقيتا على هيروشيما ونجازاكي كانتا من صنع اميركي شعر الفيزيائيون العاملون في «مشروع مانهاتن» بتأنيب الضمير وأدركوا الأبعاد الخطيرة للابحاث والتجارب التى قاموا بها في ذلك المشروع الرهيب .

أما وقد حدثت المأساة اليابانية فان العلماء سعوا الى تبنى فكرة من شأنها ضمان حرية البحث وتقدم العلم في الفيزياء من جهة وتخليص ضمائرهم من الذنب الذى شعروا به نتيجة المأساة من جهة أخرى . فما كان منهم الا أن راحوا يفرقون بين الفيزياء ونتائجها ، أي بين العلم الفيزيائي من حيث هو علم محايد ، كما تصوروا آنذاك ، وبين النتائج أو حصيلة التطبيقات الخاصة بذلك العلم . ولقد ازداد التمسك بهذه التفرقة في ضوء المسار الذى فرض على العلم في كثير من الاحيان . ذلك انه كلما جد جديد على مسرح العلم وثبت أنه لايخدم الانسان ازداد العلماء تمسكا بالتفريق الذي أقاموه بين العلم ونتائجه .

وماذا عسى أن يفعل العلماء غير اصطناع مثل ذلك التفريق ومحاولة التخلص من المأزق الذى وجدوا أنفسهم

فيه ؟ لقد دأبوا على التأكيد بأن تقدم البشرية مرهون بتقدم العلم بإطلاق يد البحث فيه ولكنهم سرعان مالاذوا بالفرار الى مختبراتهم وابتدعوا لنا تفرقة مصطنعة بين العلم ونتائجه وذلك بعدما ظهر للعيان خطر المسار الذى فرض على العلم ومساوىء التطبيقات التى نجمت عنه .

أما أكبر دليل على ضعف سمة الحياد في العلم المعاصر فانه يتمثل في الضغوط التى تحيط به في يومنا هذا . فالمسار الذى يتخذه العلم يعنى ـ في الاصل ـ أن الخيار كان متاحا للسير به في هذا الطريق دون ذاك ، ولكن جعل العلم يتخذ طريقا محددا يعنى أن هناك جهة ماأرادت للعلم أن يسير في وجهة دون أخرى . فالمسألة اذن ليست في أن مسار العلم حتمي أو انه يستحيل وضع حد له وذلك لان هذا أمر ممكن تماما من خلال رصد ميزانية للبحث العلمي أو حجبها عنه ، ولكن المسألة هنا هي أن من يسخرّ ميزانية مالية لاجل العلم لايمكن أن يكون خاليا من الاعتبارات الايديولوجية مثلا أو القيم الخاصة أو التفضيلات الذاتية التى يريد للعلم أن يحققها مقابل المال الذى ينفق . ومن الواضح ايضا أن اختيار شيء دون آخر يعنى تفضيلنا للشيء الذى نختاره على كل ماسواه . وعلى ذلك فان العلم الذى يسعى ايضا الى تحقيق ماننحاز اليه يعتبر منحازا بدوره .

فاذا سأل سائل هنا عن السر وراء قبول المختبرات العلمية ومراكز الابحاث تمويلات من الخارج فان الجواب هو أن الابحاث العلمية باهظة التكاليف وأن استمرارية العمل العلمي لايكتب لها النجاح مالم يتوفر المال اللازم لها أصلا .

وايا ماكان الامر فان عامل التمويل والانفاق على البحث العلمي هو جانب واحد فقط من الموضوع ـ أى من موضوع الحياد في العلم ـ وهو عامل خارجي يتمثل في الضغوط التى تفرض على وجهة العلم وطبيعته من الخارج . ولكن هناك الى جانب ذلك عامل آخر داخلى يتمثل في مسؤولية العلماء والباحثين إزاء التطورات المستقبلية في ميادين العلم وأثرها على تقدم الإنسان أو تأخره .

يتناول الدكتور فؤاد زكريا هذا الجانب بالبحث في كتاب له بعنوان «التفكير العلمي» فيرى اولا أن أهمية العلم منذ مطلع القرن العشرين فاقت أهمية جوانب كثيرة في حياتنا منذ القديم وحتى يومنا هذا . ولا تقتصر أهمية العلم ـ في نظره ـ على تجاوزه روعة المنجزات الانسانية في الفنون والآداب وذلك الى الحد الذى أصبح فيه محور الحياة في هذا العصر وفي كل عصر ، بل إن أهميته تكمن ايضا في كونه مصيريا ويعتمد عليه بقاء البشرية وازدهارها أو تردى الانسان وفناؤه .

ولما كانت الامال المعقودة على العلم كبيرة في القضاء على بعض المشكلات الهامة التى تواجه الإنسان في حياتنا المعاصرة مثل نقص الغذاء وتزايد عدد السكان ، وتلوث البيئة ، ونقص الموارد الطبيعية ، وخطر التحكم بخصائص الانسان الوراثية فيما يضر الإنسان نفسه ، ومشكلة التسلح ، فان العلماء يتحملون جانبا من المسؤولية في تسخير العلم لخدمة البشر . وتتمثل مسؤولية العالم في جملة من العناصر الأخلاقية التى تعسكها شخصيته مثل الموضوعية

وماتتضمنه من روح نقدية ونزاهة وحياد . ولكن يجب أن نتنبه الى أن حياد العالم في تقييمه للامور يجب ألا يعنى ابتعادا من جانبه عن مشكلات الحياة ، وذلك لان عدم اتخاذ موقف من الاحداث تترتب عليه مساوىء كثيرة وخطيرة .

«ذلك لأن صفة الحياد هذه يمكن ، من زاوية معينة ، أن تكون موضوعا للاتهام والإدانة ، ولاتكون على الدوام صفة مرغوبة في العلم . ويحدث ذلك حين يعنى الحياد عدم الاكتراث أو تبلد الفكر والمشاعر ، بحيث يستمر العالم في عمله بغض النظر عما يمكن أن يترتب عليه من خير أو شر . وفي هذه الحالة يكون كل مايهدف اليه العالم هو مواصلة البحث العلمي ، والتغلب على التحدي الذى تواجهه به صعوبة ما ، والسعي الى بلوغ اقصى النتائج الممكنة للعمل الذى بدأ يشتغل به ، أى أن المضي في البحث العلمي يصبح غاية في ذاتها ، بغض النظر عن أية غاية أخلاقية أو لاأخلاقية يمكن أن يخدمها هذا البحث . مثل هذا الموقف يعد بدوره «حيادا» ، ولكنه حياد يتضمن في داخله نتائج خطيرة من الوجهة الاخلاقية .»[٧]

ليس بالعلم وحده يحيا الإنسان :

الخلاصة ـ إذن ـ هي أن أكبر دليل على أهمية العلم في حياتنا المعاصرة وعلى ضرورة اكتسابه أبعاداً أخلاقية وإنسانية هو هذا الاهتمام المتزايد ـ على المستوى الرسمي والشعبي ، وكذلك عند المتخصصين والمثقفين ـ بالعلم ونتائجه . فهناك اهتمام من جانب الناس العاديين بقضايا العلم ومشكلاته وهم الذين لم يكن يهمهم شيء من هذا في الماضي ، وهناك ايضا اهتمام من بعض العلماء بقضايا الإنسان والأبعاد الاخلاقية للعلم الذى يمارسونه وهم الذين لم يكن لهم ايضا اهتمام بكل هذا منذ مدة طويلة .

فمشكلات الإنسان وقضايا العلم في عالمنا المعاصر لايمكن أن تترك دونما بحث دقيق أو حلول أكيدة نظرا لأن حياة البشر أنفسهم صارت اليوم في كفة الميزان . نعم ، لعل هناك من يقول بأن العلم كفيل بحل مشاكله الخاصة به والناجمة عنه وذلك من خلال دعم أكبر له وإنفاق أكثر عليه ، لكن هؤلاء ينسون أن المشكلات المترتبة على الممارسة اللامسؤولة للبحث العلمي أمر قائم بالفعل وهي بمثابة كابوس مرعب ينكد على الانسان حياته ويعكر عليه صفو تفكيره . اما الآمال التى يعلقها الباحثون ـ الذين يطالبون بالمزيد من الحرية والدعم للبحث العلمي ـ على العلم فانها مازالت مجرد أحلام ووعود لايمكن الجزم بحتمية تحققها في المستقبل القريب أو البعيد .

هذا من ناحية ، وأما من ناحية ثانية فان المبدأ الذى يجب أن يقوم عليه العلم والبحث العلمي هو إمكانية استفادة البشر كلهم دونما استثناء من هذا الجهد الانساني ومن غير ما أعراض جانبية أو نتائج عكسية تستدعي جهودا

(٧) د. فؤاد زكريا: التفكير العلمي، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٣، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص. ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

علمية أكبر من أجل حلها . فمن غير المعقول أن نترك مسيرة البحث العلمي تمضي في سبيلها دونما حكمة أو روية أو تخطيط ودراسة لكافة الاحتمالات السلبية ثم نجد أنفسنا بعد حين متورطين في مشكلات لم نحسب لها حسابا . وهل حقا هناك مايبرر إتلاف مساحات شاسعة من النباتات الخضراء والغابات التى تعمل على امتصاص ثاني اوكسيد الكربون من الجو وتزويدنا بالاوكسجين في المقابل ، أقول هل هناك مايبرر كل ذلك من أجل إقامة مشاريع اقتصادية تستهدف الربح التجاري بالدرجة الاولى ؟ وهل يغيب عن بالنا أن إتلاف النباتات والغابات الخضراء من شأنه زيادة نسبة ثاني اوكسيد الكربون في الجو ومن ثم ارتفاع درجة حرارة الارض نظرا لان هذا الغاز يحول دون ارتداد الحرارة الأرضية الى طبقات الجو العليا ، الامر الذى يتسبب في إحداث ظاهرة «البيت الزجاجي» لبيئة الارض . ومن المعروف أن خطر ظاهرة «البيت الزجاجي» هذه لايقتصر على تهديده لحياة الانسان نتيجة الحرارة المرتفعة التى لن يتحملها الجسم بمرور الزمن ، ولا في تغيير نمط البيئة الايكولوجية أو دورات المناخ الاعتيادية وانما يمتد الاثر السيىء لهذه الظاهرة الى إذابة جبال هائلة من الجليد في القطب الشمالي مثلا مما يؤدى الى ارتفاع منسوب البحار والمحيطات والانهار ومن ثم غرق مدن بكاملها واختفائها من على وجه الارض .

وماذا عسى أن نقول غير ذلك في خطر ظاهرة أخرى نجمت عن استخداماتنا اللامسؤولة للمواد الفلوروكاربونية التى تلتهم طبقة الاوزون في الجو ـ وهي غلاف فضائي ـ يحمي الحياة على الارض من الإشعاعات الكونية الضارة للبيئة والإنسان ومن أهمها الاشعة فوق البنفسجية قصيرة المدى ومتوسطة المدى المسببة للعديد من أشكال سرطان الجلد[٨] .

ونحن لانريد هنا ايضا أن نأخذ بما يدعو اليه المتشائمون الذين يحثون على استبعاد العلم من حياتنا أو الذين يقللون من أهميته ويشككون في قدرته على إسعاد البشر ، وانما يجب أن نصر على استمرارية العلم ، والبحث العلمي بشرط أن يقترن كل ذلك بأبعاد أخلاقية وإنسانية في المقام الأول والأخير .

* * *

---

(٨) تحت رعاية الامم المتحدة ، تم في السادس عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٨٧ التوقيع ، في مونتريال بكندا ، على اول معاهدة دولية تستهدف التخفيف من نسبة التلوث . وهذا حدث هام في حد ذاته رحب به الباحثون المهتمون بشؤون البيئة وهلل له المطالبون بالمحافظة عليها . فلأول مرة يشهد عالمنا المعاصر اهتماما كبيرا من جانب السياسيين بقضايا البيئة وبمشكلات التلوث التى تهدد الحياة على وجه الأرض .

أما المشكلة المحورية التى أثارت انتباه العلماء والسياسيين والمثقفين وغيرهم الى الحد الذى دفع بالمسؤولين الى الاجتماع في مونتريال والتوقيع على تلك المعاهدة التاريخية فانها لم تكن مشكلة خاصة بالأمطار الحمضية التى تدمر الغابات مثلا ولا مشكلة تتعلق باستنشاق الانسان للهواء المشبع بالرصاص المنبعث من عوادم السيارات أو غير ذلك من مشكلات خطرة على بيئة الانسان وحياته ، أقول إن المشكلة المحورية في ذلك الاجتماع لم تكن تدور حول مثل هذه المشكلات وانما كانت تدور حول المحافظة على طبقة الاوزون في الجو .

حول هذه المشكلة المركبة ذات الخطورة البالغة ، راجع كتاب :

John Gribbin **The Hole in the Sky,** Corgi Books, Great Britain, 1988.

كذلك راجع الكتاب الذى اعدته اللجنة العالمية للبيئة والتنمية وهو بعنوان :

مستقبلنا المشترك : ترجمة . محمد كامل عارف ، مراجعة د . على حسين حجاج ، سلسلة عالم المعرفة (١٤٢) ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٨٩ .

انهيار اليقين *
هل يمكن ميكنة الحقائق؟

محمد عامر

مقـــدمة :

يرى بعض المشتغلين بالعلوم الإنسانية أو فلسفتها أن على هذه العلوم أن تنسج على منوال العلوم الطبيعية ، أو ما يسمى بالعلوم المنضبطة . وهم يربطون هذا بقضية استخدام الرياضيات كأداة ، كما يربطونه بقضية اليقين .

ولما كان من المتعارف عليه أن الرياضيات هي قلعة اليقين ، فقد يكون من المفيد أن يتعرف المشتغلون بالعلوم الإنسانية على ما آلت إليه قضية اليقين في الرياضيات ، حتى يقرروا لأنفسهم ما إذا كان من المجدي أن يجعلوا (أو يستمروا في جعل) بلوغ اليقين أحد أهدافهم .

وهذا المقال يركز على عرض وشرح النتائج التي نشرها كورت جودل Kurt Godel عام ١٩٣١ والتي تبين ـ فيما تبين ـ أنه لا يمكن (ولن يمكن) الاطمئنان إلى خلو كثير من النظريات الأساسية في الرياضيات من التناقضات المنطقية . ويربط المقال بين هذه النتائج وقضايا ميكنة الحقائق ، ثم يقدم ويناقش بعض الأفكار الفلسفية المتعلقة بهذه الأمور .

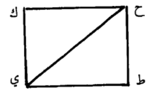
نظرة تاريخيـــة :

مرت الرياضيات في تاريخها بأزمات استوجبت إعادة النظر في الأسس التي تقوم عليها ، ولعل أولى هذه الأزمات تلك التي شهدتها الهندسة في عصر الفيثاغوريين منذ حوالي أربعة وعشرين قرناً .

كان الفيثاغوريون يأخذون بـ « المسلّمة » التالية ، ويقيمون براهين هندستهم عليها . لكل قطعتين مستقيمتين $\overline{\text{أب}}$ ، $\overline{\text{حـد}}$ توجد قطعة مستقيمة هـو

(*) هذا المقال مهدى إلى السيد الاستاذ الدكتور/ مصطفى سويف تحية لجهوده في ضبط العلوم الإنسانية ، وبمناسبة تجاوز سيادته سن الستين .

بحيث تكون كل من أب ، حـ د من مضاعفات هـ و . أي أننا إذا أخذنا هـ و كوحدة لقياس الطول ، كان كل من طول أب وطول حـ د عدداً صحيحاً . وكانت هذه « المسلمة » متفقة مع عقيدة الفيثاغوريين الكونية التي تجعل الأعداد الصحيحة أساس كل شيء . لكنهم - لبالغ أسفهم - اكتشفوا أن هذه « المسلمة » غير صحيحة . فقد استطاعوا إثبات أنه إذا كان ح ط ي ك مربعاً وكانت القطعة أب هي الضلع ح ط ، والقطعة حـ د هي القطر ح ي ، لما وجدت قطعة هـ و تحقق الشروط المطلوبة . فزعزع هذا عقيدتهم كلها وليس هندستهم فقط .



وقد ظلت الهندسة في أزمة إلى أن وضع يودوكسس (٤٠٨ - ٣٥٥ ق.م) تعريفه للتناسب . فدخلت بذلك الهندسة عصراً جديداً ، هو العصر الذي تسمى هندسته بالهندسة الأقليدية ، إذ أنها قد انتقلت إلينا من خلال كتاب أقليدس الشهير « المبادىء » .

لنقفز الآن ٢٣٠٠ سنة من الزمان لنصل إلى الأزمة التي شهدتها الرياضيات مع دورة القرن التاسع عشر ، والتي كانت نتائج جودل من تداعياتها . ولنوفر على القارىء مؤونة الدخول في تفصيلات فنية قد لا يستسيغها ، نكتفي بالقول بأن هذه الأزمة بلغت من العنف حداً استوجب إعادة النظر ليس في الرياضيات ذاتها فقط ، بل أيضاً في المنطق الذي تقوم عليه الرياضيات ، وفي اللغة التي تصاغ من خلالها الرياضيات .

وكتمهيد لعرض نتائج جودل سنناقش فيما يلي بعض المشكلات المنطقية ، ومن خلالها سنتعرض لبعض القضايا اللغوية . وسنحاول تجنب أو تبسيط الأمور الفنية قدر الإمكان . وعلى كل فنحن ندعو القارىء إلى عدم التهيب من هذه الأمور الفنية ، كما ندعوه إلى عدم التهيب من التعامل مع الرموز القليلة التي سنضطر إلى استخدامها .

الصدق :

الصدق عكس الكذب ، وكل منهما صفة من صفات الجُمَل ، أو بالأحرى بعض الجمل ، فالجمل الإنشائية لا توصف بالصدق ولا بالكذب . لكننا نود أن يكون بالإمكان وصف كل جملة خبرية (ذات معنى) بالصدق أو بالكذب ، وليس بالاثنين معاً . هنا تقابلنا عقبة كأداء ، يمكن تجسيدها في الجملة التالية :

هذه الجملة كاذبة

فإذا ما افترضنا أن الجملة المكتوبة على السطر السابق صادقة خلصنا إلى أنها كاذبة ، والعكس بالعكس .

لأسباب كهذه اصطنع المناطقة لغات رمزية تبلغ من الضعف حداً لا يسمح بأن نصوغ فيها جملة تكذب نفسها . وفي نفس الوقت تكون على قدر من القوة يكفي لأن نصوغ فيها نظريات رياضية (أو علمية ، بصفة عامة) هامة .

كيف نتعامل مع اللغات الرمزية من حيث الصدق والكذب ؟ لننظر في المثال التالي ، الذي سنصوغه صياغة نصف رمزية تخفيفاً على القارىء .

لكل س ، توجد ص ، بحيث (س = ص + ص)

هل الجملة السابقة صادقة ؟ الجواب يتوقف على الإطار الذي نفسرها فيه . فإذا كان الإطار هو الأعداد الطبيعية : صفر ، ١ ، ٢ ، ٣ ، . . . معرفاً عليها الجمع ، كان الجواب بالنفي لأننا لو أخذنا ٣ كقيمة س ، لما وجدنا عدداً طبيعياً ص بحيث (٣ = ص + ص) . أما إذا كان الإطار هو الأعداد الكسرية معرفاً عليها الجمع ، فإن الجواب يكون بالإيجاب . لأنه إذا كانت س عدداً كسرياً ، فإن $\frac{س}{٢}$ عدد كسري أيضاً . ولذا فما علينا إلا أن نأخذ $\frac{س}{٢}$ كقيمة ص لنجد (س = $\frac{س}{٢}$ + $\frac{س}{٢}$ = ص + ص) .

وعلى هذا فصدق الجملة أو كذبها لا يتوقف عليها وحدها ، وإنما يتوقف ـ بصفة عامة ـ على إطار التفسير أيضاً . والجمل الصادقة في جميع الأطر تسمى جملا صادقة منطقيا ، وتلك الكاذبة في جميع الأطر تسمى جملا كاذبة منطقيا .

البرهـــان :

فكرة إقامة البراهين على مسلمات فكرة قديمة ، ترجع إلى عصر إقليدس ، على الأقل . أما الجديد فهو ألا ننتقل من خطوة في البرهان إلى خطوة أخرى إلا على أساس قواعد محددة سلفاً تسمى قواعد الاستنتاج . هذه القواعد ليست اختيارية تماماً ، بل يراعى في اختيارها أن تسمح بانسياب الصدق . أي أنه إذا كانت إحدى القواعد تنقلنا من عدة جمل (تسمى المقدمات) إلى جملة (تسمى التالية) ، فإن التالية تكون صادقة في كل إطار تصدق فيه جميع المقدمات . أيضاً يراعى في اختيار قواعد الاستنتاج أن تكون واضحة ، بحيث يسهل تبين مواضع تطبيقها ، كما يسهل تطبيقها نفسه ، بل إن كلا من هذا وذاك يجب أن يكون بالامكان إجراؤه بطريقة ميكانيكية .

وكمثال على قاعدة استنتاج يسهل أن نرى أنها تتمتع بكل الصفات السابقة ، نذكر قاعدة الفصل وهي :

من (أ ← ب) ، أ ينتج ب

حيث كل من أ ، ب جملة ، أما السهم « ← » فهو يعني الاستلزام . المقدمات هنا هي أ ، (أ ← ب) ، أما التالية فهي ب .

بالاستعانة بقواعد الاستنتاج ، يمكن أن نعرف البرهان على أنه متتابعة منتهية[1] من الجمل ، كل منها مسلمة ، أو يمكن استنتاجها ـ من جمل سابقة عليها في المتتابعة ـ بإحدى قواعد الاستنتاج . الجملة الأخيرة في المتتابعة تسمى مبرهنة ، والمتتابعة تسمى برهانها .

---

(١) في هذا المقال سنستخدم الكلمتين « منتهي » و« محدود » بمعنى واحد ، هو ليس لانهائيا .

هل ثمة شروط على المسلمات ؟ بصفة عامة لا ، لكننا نود في كثير من الأحيان أن يكون من السهل التعرف عليها ، بل أن يكون بالامكان أن نتعرف عليها بطريقة ميكانيكية . أي نريد أن تكون هناك ماكينة (كمبيوتر مثلا) إذا ما أعطيناها أية جملة من جمل لغتنا الرمزية قالت لنا ـ خلال فترة محدودة من الزمن ـ ما إذا كانت هذه الجملة مسلمة أم لا . وواضح أن هذا الشرط يكون مستوفى دائماً إذا ما كان عدد المسلمات منتهيا . لأنه ما على الماكينة في هذه الحال إلا أن تقارن الجملة المعطاة بالمسلمة الأولى ، فإن كانت هي ، وقفت مجيبة بالايجاب وإن لم تكن هي ، انتقلت إلى المقارنة بالمسلمة الثانية ، وهكذا . فإن لم تكن الجملة أياً من المسلمات ، توقفت الماكينة مجيبة بالنفي .

سنقول لمجموعة من المسلمات إنها فعالة إذا كان ،بالإمكان التعرف عليها ميكانيكيا . وبناء على الفقرة السابقة تكون كل مجموعة منتهية من المسلمات فعالة . هل توجد مجموعة من المسلمات لانهائية وفعالة في ذات الوقت ؟ نعم ، ببساطة خذ مجموعة المسلمات على أنها المجموعة المكونة من كل الجمل . لكن هل توجد مجموعة غير فعالة ؟ هذا ما سنعود إليه فيما بعد .

واضح أنه إذا ما اخترنا مسلماتنا بحيث تكون جميعها صادقة منطقيا ، كانت مبرهناتنا جميعها صادقة منطقياً كذلك . ماذا عن العكس ؟ هل يمكن اختيار مسلمات وقواعد استنتاج بحيث تكون كل الجمل الصادقة منطقياً مبرهنات ؟ نعم ، ببساطة اعتبر كل جملة صادقة منطقياً مسلمة ، وفي هذه الحال يمكن حتى الاستغناء عن قواعد الاستنتاج تماماً ، ويصير كل برهان مكوناً من جملة واحدة . لكن ماذا إذا ما اشترطنا في مسلماتنا أن تكون فعالة ؟

نالت هذه المشكلة قدراً كبيراً من اهتمام المناطقة . ويمكن القول بأنها قد حلت حلا إيجابياً بالنسبة للغات الرمزية التي تعنينا هنا . أي أمكن التوصل إلى مسلمات فعالة (سنسميها المسلمات المنطقية) وقواعد استنتاج بحيث تكون كل المبرهنات جملا صادقة منطقياً ، والعكس بالعكس .

النظـريات :

بالاستعانة بالمفاهيم والتعريفات السابقه ، يمكن إزالة كثير من الغموض الذي يكتنف مفهوم « النظرية » . فكلما ألحقنا بالمسلمات المنطقية مجموعة من المسلمات (سنسميها مسلمات إضافية) نتجت لنا مجموعة من المبرهنات التي تختلف ـ بصفة عامة ـ باختلاف المسلمات الإضافية الملحقة . مجموعة المبرهنات هذه تسمى نظرية ، على وجه التحديد النظرية المولدة بالمسلمات الإضافية .

قد يكون من المفيد أن نذكر على سبيل المثال ، نظرية الهندسة الاقليدية . من مبرهنات هذه النظرية الجملة القائلة بأن مجموع زوايا المثلث مائة وثمانون درجة . نحتاج لبرهان هذه الجملة المسلمات الإضافية الخاصة بالهندسة الاقليدية ، فهي لا يمكن برهنتها انطلاقاً من المسلمات المنطقية فقط . بل إننا إذا استبدلنا بمسلمات الهندسة الاقليدية مسلمات إحدى الهندسات اللاإقليدية ، أمكننا البرهان على أن مجموع زوايا المثلث تختلف عن مائة وثمانين درجة . بالرغم من أن الأساس المنطقي هو هو ، أي نفس المسلمات المنطقية ونفس قواعد الاستنتاج .

وحتى لا يحدث أي لبس ، نود أن نوضح أن أية جملة يمكن أن تختار كمسلمة إضافية . أي أننا لا نشترط في المسلمات الاضافية أن تكون واضحة بذاتها أو أي شيء من هذا القبيل . فالمسلمات الإضافية هي إذن أقرب إلى الفروض منها إلى المفهوم القديم للمسلمات .

هذا لا يعني أن المسلمات تختار اعتباطاً . فهناك عوامل علمية وتاريخية وجمالية وغير ذلك تؤثر في الاختيار . وليس هنا مجال تفصيل هذا الأمر . ولذا فإننا سنكتفي بالحديث الموجز عن اعتبارين نحاول عادة أن نراعيهما في اختيار المسلمات الاضافية هما : الاتساق والفعالية .

يقال لنظرية (أو لمجموعة المسلمات الإضافية التي تولدها) انها متسقة إذا لم يكن من بين مبرهناتها جملتان إحداهما تتنافى مع الأخرى . ويمكننا إدراك خطورةُ قضية الاتساق إذا ما عرفنا أن المناطقة قد أثبتوا (الاثبات سهل ، لكننا لن نثقل به على القارىء هنا) أن النظرية غير المتسقة تشمل مبرهناتها جميع الجمل . أي أنه في حال عدم الاتساق يمكن برهان كل جملة كما يمكن برهان نفي كل جملة ، وبذا تفقد النظرية جدواها .

الفعالية ، عرفناها من قبل . وأهمية أن تكون النظرية ذات مسلمات إضافية فعالة تكمن في أنه إن لم يكن الأمر كذلك فسيتعذر التعرف على هذه المسلمات . بمعنى أننا إذا أعطينا جملة فقد لا نتمكن من الحكم على ما إذا كانت هذه الجملة إحدى المسلمات الإضافية أم لا .

هناك أيضاً ميزة هامة أخرى . لنفرض أن لدينا مجموعة فعالة من المسلمات الاءضافية . إذا أعطينا أية متتابعة منتهية من الجمل فإنه سيكون بإمكاننا أن نعرف بالنسبة إلى كل جملة منها ما إذا كانت مسلمة (منطقية أو إضافية) ، أو يمكن استنتاجها ـ من جمل سابقة عليها في المتتابعة . بإحدى قواعد الاستنتاج ، أو لا هذا ولا ذاك . ويمكن أن يجري كل هذا بطريقة ميكانيكية .

وعلى هذا فبالنسبة إلى أية نظرية ذات مجموعة فعالة من المسلمات الإضافية ، تتحول عملية الحكم على ما إذا كانت متتابعة منتهية ما من الجمل برهاناً أم لا إلى عملية ميكانيكية بسيطة ، بعد أن كانت عملية ذات أبعاد عقلية ونفسية عميقة .

الاسـئلة :

مادام الاتساق وتوافر مسلمات إضافية فعالة ، من الصفات الهامة للنظريات ، فمن الطبيعي أن نسأل بالنسبة إلى نظرية رياضية ما ، إذا ما كانت تتمتع بهاتين الصفتين .

وهذا ما فعله جودل بالنسبة إلى نظرية الأعداد . والمقصود بالأعداد هنا هي الأعداد الطبيعية : صفر ، ١ ، ٢ ، ٣ ، . . . . والذي أهّل هذه النظرية لأن تكون موضع عناية جودل هو أنها نظرية محورية في الرياضيات وفي المعرفة البشرية بصفة عامة ، وأن لها أهمية تاريخية فائقة ، وأنها بسيطة بالمقارنة بكثير غيرها من النظريات .

ما المقصود بالضبط بنظرية الأعداد ؟ اتخذ جودل لنفسه لغة رمزية (لن نثقل على القارىء بتفصيلاتها) يمكنه أن يتحدث بها عن الأعداد وجمعها وضربها . وكما بينا في حديثنا عن الصدق (انظر عاليه) ، فإن صدق أو كذب جمل هذه اللغة يتوقف على الاطار الذي نفسرها فيه . والاطار الطبيعي للتفسير في حالنا هذه هو الأعداد الطبيعية معرفاً عليها الجمع والضرب . سنسمي هذا الإطار ، الإطار الطبيعي .

مجموعة الجمل الصادقة في الإطار الطبيعي تكون نظرية ، سنرمز إليها بالرمز ن ، وهي ما سنعتبره ـ في هذا المقال ـ نظرية الأعداد ، وأيضاً مجموعة الحقائق المتعلقة بالأعداد .

هل يمكن توليد ن من مجموعة من المسلمات الإضافية ؟ نعم ، ببساطة اجعل ن كلها مجموعة المسلمات الاضافية . لكن ماذا عن الفعالية ؟ هل توجد مجموعة فعالة من المسلمات الاضافية بحيث تكون ن هي النظرية المولدة بها ؟ هذا هو السؤال الأول الذي طرحه جودل(٢) .

لم يبدأ جودل محاولة الاجابة من فراغ . فقد كان لديه بالفعل مسلمات نظرية الأعداد التي تنسب إلى الرياضي الايطالي بيانو (يقال أن الأصوب أن تنسب إلى الرياضي الألماني ديديكند) . أعاد جودل صياغة هذه المسلمات في لغته الرمزية ، وانطلق منها كمجموعة من المسلمات الاضافية . سنرمز إلى هذه المجموعة من المسلمات الإضافية بالرمز م ، وإلى النظرية المولدة بها بالرمز ب .

يمكن بسهولة إثبات أن كل مسلمة في المجموعة م صادقة في الإطار الطبيعي ، وبالتالي فإن كل مبرهنة في ب صادقة بدورها في الإطار الطبيعي . وعلى هذا فالنظرية ب هي جزء من النظرية ن .

يمكن بسهولة أيضاً إثبات أن المجموعة م فعالة . ومن ثم فـإن النظريـة ب مولـدة بمجموعـة فعالـة من المسلمات . وعلى هذا فإذا كانت (ن = ب) فإن الاجابة عن سؤال جودل الأول ستكون بالايجاب .

هل (ن = ب) ؟ هذا هو سؤال جودل الثاني . أما سؤال جودل الثالث فهو : ماذا عن اتساق ب ؟

إذا كانت الاجابة عن السؤال الثاني بالإيجاب ، فإن قضية اتساق ن ستكون هي نفسها قضية اتساق ب . أما إذا كانت الإجابة بالنفي ، فإن اتساق ن يستلزم اتساق ب والعكس قد لا يكون صحيحاً . أما لماذا اهتم جودل باتساق ب دون ن ، فهذا ما سيتضح فيما بعد .

(٢) ما نفعله هنا ليس بالضبط ما فعله جودل ، فسنسمح لأنفسنا بالاستفادة من التطورات التي جرت بعد عام ١٩٣١ ، كما أننا نبسط الأمور كثيراً ، بعدا بالقارىء عن التعقيدات الفنية .

الجمل والاعــداد :

من قديم طوّر الناس ما يسمى بحساب الجمل . وهو ـ عند العرب المشارقة ـ عقد تناظر بين حروف الهجاء تبعاً لترتيبها الوارد في أبجد هوز . . . وبين الأعداد . فالأحرف التسعة الأولى للآحاد ، والتي تليها للعشرات ، والتي تليها للمئات ، والحرف الأخير « غ » ، للألف . وبذا تدل كل كلمة على عدد ، هو مجموع الأعداد التي تناظر حروفها . وتدل كل جملة على عدد ، هو مجموع الأعداد التي تدل عليها كلماتها . فمثلا « في المشمش » تدل على ٨٠١ . ولذا فعندما سئل أحد الظرفاء عن تاريخ موت السلطان برقوق ، أجاب : في المشمش (انظر المعجم الكبير ـ حرف الهمزة ـ إصدار مجمع اللغة العربية عام ١٩٧٠ ـ ص ٢٣) .

ويبدو أن جودل قد استفاد من هذه الأفكار ، فناظر بين رموز لغته وبين بعض الأعداد ، بطريقة ليس هنا مجال شرح تفصيلاتها . سمحت هذه الطريقة لجودل أن يناظر أيضاً بين الجمل وبين بعض الأعداد ، وأيضاً بين المتتابعات المنتهية من الجمل وبين بعض الأعداد . لكن تركيز جودل لم يكن على أن الجمل تدل على أعداد ، بل على أن بعض الأعداد تدل على رموز ، أو على جمل ، أو على متتابعات منتهية من الجمل . وبذا صار بإمكانه أن يخبر عن الجمل ، بأن يخبر عن الأعداد التي تدل عليها . فمثلا نجح جودل في أن يصوغ في لغته الرمزية جملة تقول « أ ، ك كذا وكذا وكذا » ، بحيث يكون تفسير هذه الجملة في الاطار الطبيعي هو أن أ عدد يدل على جملة ، وك عدد يدل على متتابعة منتهية من الجمل ، هي برهان للجملة التي يدل عليها العدد أ ، انطلاقاً من مجموعة المسلمات الاضافية م̊ .

أكثر من ذلك ، استطاع جودل أن يصوغ جملة حـ تفسيرها في الإطار الطبيعي هو :

لا يوجد برهان للجملة جـ انطلاقا
من مجموعة المسلمات الاضافية م̊

أي أن الجملة حـ تتحدث عن نفسها بطريقة تذكرنا بالجملة التي تكذب نفسها ، التي تحدثنا عنها من قبل .

النتــائج :

هل الجملة حـ صادقة في الإطار الطبيعي ، وهل هي بالتالي إحدى مبرهنات النظرية ن̊ ؟ هل هي إحدى مبرهنات النظرية بَ̊ ؟

لنبحث الأمر . لنفرض أن حـ إحدى مبرهنات ب̊ . إذن حـ إحدى مبرهنات ن̊ ، لأن ب̊ جزء من ن̊ . أيضاً ، فرضنا أن حـ إحدى مبرهنات ب̊ ، يعني أنه يوجد برهان للجملة حـ انطلاقاً من مجموعة المسلمات الاضافية م̊ . من هذا نرى أن حـ كاذبة في الإطار الطبيعي . ومن ثم فإن حـَ (التي سنرمز بها إلى نفي حـ) صادقة في الإطار الطبيعي ، وبالتالي فإن حـَ إحدى مبرهنات ن̊ . وعلى هذا فإن النظرية ن̊ غير متسقة لأن كلا من حـ ، ونفيها حـَ ، من بين مبرهنات ن̊ .

ملخص ما سبق هو :

إذا كانت حـ إحدى مبرهنات ب8 ، فإن ن8 غير متسقة .

وبأخذ عكس النقيض ـ كما يقول المناطقة ـ نخلص إلى أن :

إذا كانت ن8 متسقة ، فإن حـ ليست إحدى مبرهنات ب8 .

لنفرض الآن أن ن8 متسقة . إذن حـ ليست إحدى مبرهنات ب8 . وهذا يعني أنه لا يوجد برهان للجملة حـ انطلاقاً من مجموعة المسلمات الاضافية م8 . من هذا نرى أن حـ صادقة في الاطار الطبيعي ، وبالتالي فإن حـ إحدى مبرهنات ن8 . بإضافة هذا إلى النتيجة السابقة نصل إلى أنه :

إذا كانت ن8 متسقة ، فإن حـ إحدى
مبرهنات ن8 ، لكنها ليست إحدى مبرهنات ب8 .

وعلى هذا فإن ن8 تختلف عن ب8 . وبذا نكون قد أجبنا عن سؤال جودل الثاني بالنفي ، بفرض أن ن8 متسقة .

.ما سبق لا يكفي للاجابة عن السؤال الأول بالنفي هو الآخر . حقاً إننا نعرف الآن أن م8 لا تولد ن8 (بفرض أن الأخيرة متسقة) ، لكن أليس من الممكن تقوية م8 ، بإضافة حـ أو غيرها إليها ، بحيث يكفي الناتج لتوليد ن8 ؟ لاحظ أننا هنا لا نبحث عن أية مجموعة مولدة للنظرية ن8 ، وإنما نبحث عن مجموعة فعالة تفي بالغرض . لكننا نستطيع أن نفعل مع أية مجموعة فعالة ـ تشمل م8 ، وتشتمل عليها ن8 ـ ما فعلناه مع م8 ، لنثبت أنها لا تولد ن8 (بفرض أن الأخيرة متسقة) . ومن هذا يمكن أن نستنتج :

إذا كانت ن8 متسقة ، فإنه لا يمكن توليدها
بأية مجموعة فعالة من المسلمات الاضافية .

وبذا نكون قد أجبنا عن سؤال جودل الأول بالنفي هو الآخر ! (بفرض أن ن8 متسقة) .

●●●

هذه النتيجة الخطيرة ، التي تعني أننا لا نستطيع ـ عمليا ـ أن نقيم النظرية ن8 على مسلمات ، جديرة بأن نتوقف عندها قليلا . هل المشكلة في المنطق ، أي في المسلمات المنطقية وقواعد الاستنتاج ، وبالتالي فإذا قوينا المنطق فقد تحل المشكلة أم أن المشكلة في اللغة الرمزية التي اختارها جودل ، وبالتالي فحل المشكلة قد يكمن في تغيير اللغة ؟ أم ماذا ؟

للإجابة عن هذه الأسئلة ، علينا أن نتعامل مع مفهوم جديد ، هو « فعالية التولد » . سنقول لمجموعة من الجمل إنها فعالة التولد ، إذا كان بالامكان توليدها بطريقة ميكانيكية . أي إذا كانت هناك آلة (كمبيوتر مثلا) تولدها واحدة فواحدة . وبالرغم من أن عملية التوليد قد تستمر إلى مالا نهاية ، فإن كل جملة يجب أن تظهر بعد فترة زمنية محدودة ،

طالت أم قصرت . وذلك مثل عملية العد ، فهي لا تنتهي أبداً ، لكن كل عدد سيأتي دوره في الظهور بعد فترة زمنية محدودة .

من السهل أن نرى أن كل مجموعة فعالة ، لابد وأن تكون فعالة التولد ، ذلك لأنه يمكن التعرف عليها ميكانيكياً ، والآلة التي تتعرف عليها ، يمكنها بتعديل بسيط ـ أن تولدها فما علينا إلا أن ندخل جمل اللغة كلها إلى الآلة واحدة فواحدة . ونجعل للآلة فتحتين تخرج من أولاهما الجمل التي تتعرف عليها الآلة على أنها من مجموعتنا ، وتخرج من الثانية بقية الجمل . وبذا تولد الآلة ـ بما يخرج من فتحتها الأولى ـ جمل المجموعة واحدة واحدة .

بالمثل يمكن إثبات أن أية نظرية مولدة بمجموعة فعالة من المسلمات الإضافية ، لابد أن تكون فعالة التولد . ذلك لأنه توجد ـ في هذه الحال ـ آلة بامكانها التعرف على البراهين . فما عليك إذن إلا أن تدخل إلى هذه الآلة جميع المتتابعات المنتهية من الجمل ، واحدة فواحدة . اجعل للآلة فتحتين ، واطلب منها ، إذا ما تعرفت على متتابعة على أنها برهان ، أن تخرج الجملة الأخيرة (أي المبرهنة) من أولى الفتحتين . أما بقية الجمل فتخرج من الفتحة الثانية . بذا تولد الآلة ـ بما يخرج من فتحتها الأولى ـ مبرهنات النظرية واحدة واحدة .

يمكن أيضاً إثبات أن عكس المقولة السابقة صحيح ، أي أن أية نظرية فعالة التولد ، لابد وأن يكون بالامكان توليدها بمجموعة فعالة من المسلمات الإضافية . وعلى هذا فيمكننا إعادة صياغة سؤال جودل الأول كالتالي :

هل ن^{8} فعالة التولـــد ؟

هذا السؤال المعدل يكافيء السؤال الأول ، لكنه سؤال في « ميكنة » الحقائق ، وليس ـ كالسؤال الأول ـ في المنطق .

إعادة الصياغة لن تؤثر في الإجابة . وبالتالي فالاجابة عن السؤال المعدل هي أيضاً بالنفي (بفرض أن ن^{8} متسقة) . لكن الصياغة المعدلة تساعدنا على التعرف على أبعاد الموقف بطريقة أفضل . لقد سألنا آنفاً إذا ما كانت المشكلة في المنطق ، أم في اللغة ، أم ماذا ؟ لنفرض أن اللغة باقية كما هي ، وأن ن^{8} متسقة . تغيير المنطق (المسلمات المنطقية وقواعد الاستنتاج) لن يغير من ن^{8} شيئا ، لأن الذي يحدد جمل ن^{8} ليس البرهان الذي يتوقف على المنطق ، وإنما الصدق الذي لا يتوقف إلا على اللغة وإطار التفسير ، وعلى هذا فإن ن^{8} ستبقى كما هي ، وعلى وجه التحديد ستبقى غير فعالة التولد ، مهما غيرنا المنطق . ومن ثم فالحل الوحيد للمشكلة هو أن نغير المنطق بما يسمح لمجموعة فعالة من المسلمات الاضافية أن تولد نظرية غير فعالة التولد . وهذا ممكن إذا ما تنازلنا عن شرط الفعالية في مجموعة المسلمات المنطقية أو عن شرط إمكان التعامل مع قواعد الاستنتاج بطريقة ميكانيكية . لكن لا هذا ولا ذاك مرغوب فيه . فالتنازل عن الشرط الأول يعني أننا قد لا نتمكن من التعرف على مسلماتنا المنطقية ، والتنازل عن الشرط الثاني يعني أننا قد لا نعرف متى أو كيف نطبق قواعد الاستنتاج .

بقي أن ننظر في تغيير اللغة . وهذا طبعاً ممكن ، وسيأتي بنتيجة سريعة ، إذ أن ن تتغير بتغير اللغة . غير أنه إذا كانت اللغة الجديدة على نفس مستوى اللغة القديمة ، أو أقوى (أي أقدر على التعبير) ، فإن ن الجديدة لن تكون فعالة التولد ، وبالتالي ستبقى المشكلة كما هي ، إن لم تزدد تعقيداً . أما إذا كانت اللغة الجديدة أضعف من اللغة القديمة ، فإن ن قد تصير فعالة التولد ، أو حتى فعالة ، وبذا تكون مشكلتنا محلولة بالنسبة إلى هذه اللغات الضعيفة . فعلى سبيل المثال إذا ما أضعفنا لغتنا بما لا يسمح لها بالحديث عن ضرب الأعداد ، أي أن اللغة الجديدة ستكون قادرة على الحديث عن الأعداد وجمعها ، لكن ليس ضربها ، فإن ن ستصير فعالة ، وليست فقط فعالة التولد .

القارىء اليقظ لابد وأن يكون قد لاحظ أننا في طيات تحليلنا السابق قد عالجنا سؤالا كنا قد تركناه مفتوحا حين طرحناه . ألا وهو : هل توجد مجموعة غير فعالة ؟ إذ أن ن (في اللغة الأصلية) ليست فقط غير فعالة ، وإنما أيضاً غير فعالة التولد (بفرض أنها متسقة) .

●●●

كتمهيد لبحث قضية اتساق ب (السؤال الثالث) نود أن نوضح أن التحليل الذي أجراه جودل في معرض معالجته لسؤاله الثاني كان أعمق من تحليلنا ، وأنه بتعامله مع التركيب الداخلي الدقيق للجملة حـ قد استطاع أن يصل إلى النتيجة الأقوى التالية :

إذا كانت ب متسقة ، فإن حـ ليست إحدى مبرهناتها (*) .

بطريقة مشابهة لتلك التي جرت بها صياغة الجملة حـ ، يمكن صياغة جملة د تفسيرها في الإطار الطبيعي هو :

ب متسـقة .

وبذا يكون تفسير الجملة (د ← حـ) في الاطار الطبيعي هو (*) على وجه التحديد . وقد أوضح جودل أن اثبات (*) يمكن تقليده في اللغة الرمزية لنصل إلى أن :

(د ← حـ) إحدى مبرهنات ب .

فإذا كانت :

د إحدى مبرهنات ب .

فإننا نصل بقاعدة الفصل إلى أن :

حـ إحدى مبرهنات ب .

وهذا يتعارض مع اتساق ب ، كما تبين (*) . من هذا نخلص إلى النتيجة الهامة الآتية :

إذا كانت ب متسقة ، فإن د ليست إحدى مبرهناتها .

وبالنظر إلى تفسير د في الإطار الطبيعي ، فإن هذا يعني أنه إذا كانت $\overset{8}{ب}$ متسقة ، فإنه لا يمكن إثبات ذلك بالطرق المستخدمة لإثبات مبرهنات $\overset{8}{ب}$.

من الطبيعي أن نسأل ماذا يحدث إذا ما أضفنا د إلى $\overset{8}{ب}$ ؟ نحصل على نظرية أقوى ، يمكننا فيها إثبات أن $\overset{8}{ب}$ متسقة . لكن ما فعلناه مع $\overset{8}{ب}$ يمكن تكراره مع النظرية الجديدة ، وبالتالي لا يمكن إثبات أن النظرية الجديدة متسقة (بفرض أنها كذلك) بالطرق المستخدمة لاثبات مبرهناتها . وهكذا فالمشكلة تطل علينا برأسها من جديد ، ولكن في ظروف أعقد . ونفس الشيء يسري على أية تقوية للنظرية $\overset{8}{ب}$ ، مادام يمكن توليدها بمجموعة فعالة من المسلمات الإضافية .

وعلى هذا فلا يمكننا الاطمئنان إلى اتساق $\overset{8}{ب}$ ، ولا إلى اتساق كثير غيرها من النظريات الأساسية في الرياضيات ، إذ أن اثبات هذا الاتساق يتطلب نظرية لا يقل شكنا في اتساقها عن شكنا في اتساق النظرية الأصلية نفسها .

أرجو أن يكون قد اتضح الآن لماذا اهتم جودل بقضية اتساق $\overset{8}{ب}$. أما عن لماذا لم يعر قضية اتساق $\overset{8}{ن}$ نفس الاهتمام ، فلعل ذلك لأنه كان مهتماً بالنتائج السلبية ، أي بتوضيح أن قضية الاتساق تنطوي على مشكلة وبالتالي فمن الأوجب أن يتعامل مع النظرية الأضعف ، أي $\overset{8}{ب}$. ومادمنا غير متيقنين من اتساق $\overset{8}{ب}$ ، فإننا ـ من باب أولى ـ لن نكون متيقنين من اتساق $\overset{8}{ن}$.

خاتمـــة :

تبين لنا النتائج السابقة بعض حدود المعرفة . وقضية حدود المعرفة مبحث فلسفي قديم . والجديد هو أن يسهم العلم في علاجها ، وإن كان اسهامه في تبيان بعض الحدود الأخرى ، التي شغل بأمرها الفلاسفة منذ زمن طويل ، ليس بنفس القدر من الجدة .

فبتطور النظرية الذرية على أسس علمية مقبولة خلال القرن التاسع عشر ، أسهم العلم في الاجابة عن سؤال فلسفي قديم متعلق بحدود إمكان تقسيم المادة . وقد تجدد هذا الاسهام ـ الذي لم يكن أبدا كلمة أخيرة ـ خلال القرن العشرين بفعل نظريات تركيب الذرة من جسيمات أولية ، ونظريات تركيب بعض الجسيمات الأولية مما يسمى بالكوارك ، ونظريات تحول المادة إلى طاقة ، وظهور الأخيرة على شكل كمات . .

وقد بينت لنا نظرية النسبية (عام ١٩٠٥) حداً آخر ، هو حد السرعة . فإذا كانت سرعة أحد جسمين بالنسبة للآخر أقل من سرعة الضوء في الفراغ في لحظة ما ، فلا يمكن أن تزيد عليها أبدا ، أي أن سرعة الضوء في الفراغ (حوالي ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية) هي حد السرعة .

أما ميكانيكا الكم فقد أتتنا (عام ١٩٢٧) بمبدأ عدم التحدد ، القائل بأن مقدار عدم التحدد في موضع جسيم ما ، مضروبا في مقدار عدم التحدد في زخمه (أي كمية حركته) لا يقل عن مقدار ثابت (لا يتوقف على الجسيم . وقد ذهب المشتغلون بالفيزياء وفلسفتها في تفسير هذا المبدأ مذهبين . يقول الأول إن عدم التحدد خاصة موضوعية من خواص موضوع المعرفة ، وبالتالي فهو لا يضع قيدا على المعرفة . وعلى هذا تكون نتائج جودل أول نتائج علمية متعلقة بحدود المعرفة . ويرجع المذهب الثاني عدم التحدد إلى الذات العارفة والأجهزة التي تستخدمها ، وبالتالي فهو يعتبره قيداً على المعرفة . وعلى هذا يكون مبدأ عدم التحدد هو أول النتائج العلمية المتعلقة بحدود المعرفة ، ونتائج جودل هي الثانية .

●●●

وسواء أكانت نتائج جودل هي الأولى أم الثانية ، فعلينا أن نتفهم أبعادها . ولنبدأ بالنتيجة القائلة بأن $ن^{8}$ ليست فعالة التولد . هذه النتيجة تعني أنه لا يمكننا معرفة كل الحقائق المتعلقة بالأعداد . وَرُبَّ قائل : أما كان يكفي إثبات أن $ن^{8}$ لا نهائية ؟ فمعرفتنا ـ مهما زادت ـ ستظل محدودة ، وبالتالي لا يمكننا معرفة كل الحقائق المتعلقة بالأعداد ، إذا كانت لانهائية . الجواب : نعم ، ما كان يكفي . فنحن قادرون ـ بمعنى معقول جدا ـ على معرفة عدد لانهائي من الحقائق . ألسنا نعرف أن ١ + ١ = ٢ ، ١ + ٢ = ٣ ، . . . ، ١ + ٨ = ٩ ، ١ + ٩ = ١٠ ، . . . ، ١ + ٨٤ = ٨٥ ، . . . وهكذا إلى مالا نهاية ؟ أكثر من هذا ، نستطيع أن نقول إننا نعرف أية مجموعة فعالة ، متى توصلنا إلى آلة قادرة على التعرف عليها . لأننا ـ في هذه الحال ـ ما علينا إذا ما أعطينا جملة من الجمل إلا أن نضعها في الآلة التي ستقف بعد فترة محدودة من الزمن قائلة لنا إذا ما كانت الجملة في مجموعتنا أم لا . يرد هنا اعتراض على القيمة العملية لهذه المعرفة . إذ أن الآلة قد تستمر في العمل مليون سنة قبل أن تصدر حكمها على جملة ما . بالرغم من وجاهة هذا الاعتراض ، فسيظل بإمكاننا أن نقول إننا نعرف ، على الأقل نظرياً ، على الأقل من حيث المبدأ .

يصير الأمر أكثر تعقيداً إذا كانت لدينا نظرية فعالة التولد ، لكنها ليست فعالة . في هذه الحال لا توجد آلة قادرة على التعرف على جمل النظرية ، وإنما توجد آلات قادرة على توليدها فقط . لنفرض أن لدينا إحدى هذه الآلات ، وأن لدينا جملة ما ، لا نعرف إذا ما كانت في النظرية أم لا . إذا كانت الجملة في النظرية ، فإنها ستخرج من الآلة بعد وقت طال أم قصر . وبالتالي فسنعرف أنها في النظرية . أما إذا لم تكن في النظرية ، فإنها لن تخرج من الآلـة مهما طـال انتظارنا ، وفي نفس الوقت لن تصدر الماكينة حكما بأنها لن تخرج أبدا . الآلة إذن لن تحسم الأمر ، وبالتالي فإن فائدتها ـ مهما عظمت ـ ستكون جزئية فقط .

يمكننا أن ننظر إلى الأمر بشكل آخر . فلكل نظرية فعالة التولد توجد مجموعة فعالة من المسلمات الإضافية المولدة . فإذا ما وضعنا يدنا على مجموعة فعالة مولدة ، فإننا سنعرف الكثير عن النظرية . ذلك لأنه سيوجد لكل جملة في النظرية برهان انطلاقاً من هذه المجموعة الفعالة ، ومن ثم فإن مفهوم البرهان سيصير أوضح وأبسط كما بينا آنفاً . وهذا سيسهل التعامل مع البراهين ، سواء أكنا نحاول برهنة جملة ما ، أم نحاول إثبات عدم وجود برهان لها ، وإن كان لا يوجد ما يضمن نجاح هذه المحاولات . على كل هذه النظرة تكافىء النظرة السابقة ، كما أشرنا من قبل .

هل لنا إذن أن نقول إننا نعرف النظرية فعالة التولد ، إذا ما عرفنا آلة تولدها ؟ هذه مسألة فيها نظر . ويبدو أنه مما يساعد على حلها أن نأخذ بأن المعرفة مفهوم مركب ، وبدلا من أن نسأل ، هل نعرف ؟ أو ، هل يمكن أن نعرف ؟ نسأل إلى أية درجة نعرف ؟ أو ، إلى أية درجة يمكن أن نعرف ؟ إذا ما قبلنا هذا ، فإن التحليل السابق (وهو الآن يحتاج إلى شيء من التعديل الذي سنتركه للقارىء) يجيز لنا أن نقول إنه ليس بإمكاننا أن نعرف النظريات فعالة التولد (التي ليست فعالة) بنفس الدرجة التي يمكننا أن نعرف بها النظريات الفعالة . أي أن هناك حدوداً للمعرفة !

لكن هل توجد نظرية فعالة التولد ، لكنها ليست فعالة ؟ نعم ، وأول نظرية عرف عنها هذا هي النظرية ب^{8} (بفرض أنها متسقة) . وعلى هذا فالمشكلة تبدأ من ب^{8} ، لكن مشكلة ن^{8} أكبر ، لأن ن^{8} (بفرض اتساقها) ليست حتى فعالة التولد . ولذا فإن درجة معرفتنا بالنظرية ن^{8} لا يمكن أن تصل حتى إلى الدرجة التي يمكن أن تصل إليها معرفتنا بالنظرية ب^{8} . فمثلا نحن نعرف للنظرية ب^{8} مجموعة (فعالة) من المسلمات الإضافية التي تولدها ، وهذا مالا يمكننا أن نعرفه للنظرية ن^{8} .

وكما أسلفنا فإن من أوجه قصور معرفتنا بالنظرية ب^{8} ، أننا لن نعرف طريقة عامة (أي لن نتوصل إلى آلة) نستطيع عن طريقها أن نحكم على كل جملة إذا ما كانت في ب^{8} أم لا . إنَّ وجه القصور هذا قائم (بل انه أكثر شدة ، إنْ جاز التعبير) بالنسبة للنظرية ن^{8} . وبهذا المعنى نقول إننا لا يمكننا معرفة كل الحقائق المتعلقة بالأعداد (أي كل الجمل الواقعة في ن^{8}) .

أصابت هذه النتيجة البعض بشيء من خيبة الأمل . لكنها لا تخلو من جانب مشوق . فهي تزيد من التحدي ، وبالتالي تزيد من استثارة الهمم . فالنتيجة لا تقول إن هناك جملة بعينها غير قابلة لأن نحكم عليها . إنها تقول فقط إنه لا توجد طريقة واحدة صالحة للحكم على كل الجمل . وبالتالي علينا دائماً أن نبتكر طرقاً جديدة . وهذا خليق بأن يرضي غرور الرياضيين ، إذ أن الحاجة إلى ابتكاراتهم لن تنتهي ، ولن يمكن الاستعاضة عنهم بآلة ، أو بكمبيوتر أبدا .

لقد راود الرياضيين أمل بأن تكون مسلمات بيانو (المشار إليها آنفاً) كافية لبرهنة كل الحقائق المتعلقة بالأعداد . فبدد جودل هذا الأمل بنتيجته العبقرية . لكنه لم يتركنا حائرين بعد أن أخرجنا من نعيم الجهل (وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم !) . إذ أنه بإثباته أن حـ تقع في ن^{8} ولا تقع في ب^{8} ، فتح لنا الطريق كي نحصل على نظرية أقوى باضافة حـ (أو غيرها من الجمل التي تقع في ن^{8} ولا تقع في ب^{8}) إلى المسلمات الاضافية التي تقوم عليها ب^{8} . وهكذا يمكننا أن نحصل على نظريات أقوى وأقوى (تقوم كل منها على مجموعة فعالة من المسلمات الإضافية) دون أن نصل إلى ن^{8} أبداً . أي أن دائرة الضوء تتسع وتتسع ، لكنها لن تضيء كل الحقائق أبدا . أيضاً ، فتح لنا جودل بنتيجته هذه طرقاً أخرى ، لكن المجال لا يسمح لنا باصطحاب القارىء إلى جولة فيها .

●●●

لننتقل الآن إلى نتيجة جودل الثانية القائلة بأنه إذا كانت ب8 متسقة ، فإنه لا يمكن إثبات ذلك بالطرق المستخدمة لاثبات مبرهنات ب8 . هذه النتيجة لا تعني أن ب8 ليست متسقة ، كما أنها لا تعني أن ب8 متسقة . فهي تترك الباب مفتوحا لهذا وذاك . كل ما نستطيع أن نبتيه عليها هو أنه إذا كانت ب8 متسقة ، فإننا لن نستطيع معرفة هذا بطريقة نطمئن إليها .

زادت هذه النتيجة من شكوك أصحاب الاتجاهين الحدسي والبنائي (وهما اتجاهان في الرياضيات وفلسفتها ازدهرا في بدايات هذا القرن استجابة للأزمة التي شهدتها الرياضيات مع دورة القرن التاسع عشر) في سلامة الرياضيات التقليدية . وشجعتهم على الاستمرار في جهودهم لإقامة رياضيات جديدة أكثر جدارة بالثقة ، لكنها ـ حتى الآن ـ أقل فائدة في التطبيق .

أما الغالبية الساحقة من الرياضيين ومستخدمي الرياضيات ، فتسير أمورهم سيراً عادياً فهم ليسوا بحاجة إلى اليقين حتى يستمروا في بحثهم ودرسهم وتدريسهم وتطبيقاتهم . والتعامل مع النظرية ب8 مستمر ، والبحث فيها وحولها جار . لكن أحداً لن يذهل إذا ما اكتشف فيها تناقضاً غدا . حقاً إن هذا سيكون حدثاً عظيماً ، وسيدخل الرياضيات في أزمة جديدة . لكن المأمول أن تكون ـ كسابقاتها ـ أزمة نمو ، لا أزمة انهيار .

●●●

هل نتيجة جودل ، التي زعزعت اليقين في الرياضيات ، نتيجة يقينية ؟ لقد توصل إليها جودل بنفس الأساليب ، وعلى نفس الأسس ، التي هي الآن موضع شك . إذن فالنتيجة نفسها موضع شك . أي أن الشك الذي توصلنا إليه هو في حد ذاته أمر مشكوك فيه . ولذا فاستعادة اليقين أمر وارد ، وإن كان ليس متوقعاً إلا من خلال تغير جذري في مفاهيمنا الرياضية . والمقصود هنا ، هو استعادة اليقين بمعظم الرياضيات التقليدية ، وليس بالرياضيات الحدسية أو البنائية (انظر عاليه) ، التي لم يدّع أحد ـ حتى الآن ـ بأنها موضع شك .

●●●

ما شأن كل هذا بمعرفة الكون ؟ لعل هذا هو أكثر ما يعني المشتغلين بالعلوم الطبيعية والبيولوجية والإنسانية ، وفلسفاتها . لنلاحظ أولا أن كون الاطار الطبيعي (الذي يضم كل الأعداد الطبيعية) لانهائي قد لعب دوراً لا غنى عنه في ظهور المشكلات السابقة . ولو لم يكن الأمر كذلك ، أي لو كان الإطار الطبيعي محدودا ، ما نشأت هذه المشكلات ، بل وما كان هناك فرق بين الرياضيات التقليدية والرياضيات الحدسية والبنائية . وعلى هذا فعلاقة نتائج جودل بمعرفة الكون تتوقف على ما إذا كان الكون لانهائياً . وفي نقاشنا التالي لعلاقة المواقف الثلاثة الممكنة من قضية لانهائية الكون بنتائج جودل ومشكلة المعرفة ، سنفهم « الكون » بالمعنى الواسع الذي يسمح باعتبار الظواهر الإنسانية ظواهر كونية . أيضاً ، ما نقوله عن الكون يمكن أن يقال عن أي جزء من أجزائه ، أو أي جانب من جوانبه .

(١) الكون لا نهائي :

إذا كان الكون لانهائياً ، في أي وجه من وجوهه ، فالمتوقع أن يكون أعقد من الإطار الطبيعي (أي الأعداد

الطبيعية مع الجمع والضرب) ، وبالتالي فمن المتوقع أن تسري عليه نتائج جودل . أي أن مجموعة الحقائق الكونية لا يمكن استنتاجها من مجموعة فعالة من المسلمات ، وأنه لا يمكن الاطمئنان إلى اتساق أية نظرية كونية قوية .

(٢) الكون محدود :

المقصود هنا أن يكون الكون محدوداً من جميع الوجوه . أي أن يكون مكوناً من عدد محدود من الأشياء ، لكل منها عدد محدود من الصفات ، وتدخل في بعضها البعض في عدد محدود من العلاقات الثنائية ، كما تدخل مع بعضها البعض في عدد محدود من العلاقات الثلاثية ، وهكذا ، على أن يكون عدد كل العلاقات محدودا . وأيضاً أن يكون محدوداً في الزمان ، بمعنى أنه لا يمر إلا بعدد محدود من الأطوار ، ثم يثبت أو ينتهي أو يعيد الكرّة .

في هذه الحال نتائج جودل غير واردة بالنسبة إلى الكون . ومجموعة الحقائق الكونية لن يكون من الممكن فقط استنتاجها من مجموعة فعالة من المسلمات ، بل ستكون هي نفسها مجموعة فعالة . ولن تكون هناك مشكلة في إثبات اتساق النظرية المكونة من الحقائق الكونية كلها . والتوصل إلى هذه النظرية أمر وارد نظرياً ، غير أن هذا شيء ، والتوصل إليها فعلا شيء آخر . وحتى إذا توصلنا إليها فعلا ، فقد يتعذر علينا التأكد من هذا .

ورغم أن المجال لا يسمح بالخوض في مزيد من التفصيلات ، فقد يكون من المفيد أن نذكر هنا أن مشكلة الاستقراء التي أثارها ديفيد هيوم سيكون من السهل حلها في حالنا هذه . إذ أن عدد كل ما لدينا من أشياء محدود ، وبالتالي فمن الممكن أن يكون الاستقراء دائماً استقراء كاملا .

(٣) الكون آخذ في الاتساع :

المقصود أن يكون الكون ـ حتى كل لحظة ـ محدودا بالمعنى الوارد في (٢) ، لكن الحدود متحركة ، كلها أو بعضها . كأن يكون عدد الأشياء التي يتكون منها الكون اليوم مليوناً ، ويصير غداً مليوناً وألفاً ، وهكذا .

وفي هذه الحال ، يبدو أن الرياضيات الحدسية أو البنائية ستكون كافية لدراسة الكون ، ويكون استخدامنا الحالي للرياضيات التقليدية نوعاً من الاستسهال . أي أن لنا أن نختار بين رياضيات أصعب في التعامل ، لكنها أجدر بالثقة ، وبين رياضيات أسهل في التعامل ، لكنها تعاني من كل المشكلات التي أوضحها جودل(*).

***

(*) لكن ما رأى علماء الكون في قضية لانهائيته ؟ الإجابة عن هذا السؤال خارج نطاق هذا المقال ، ويمكن للقارىء أن يرجع فيها إلى المرجع رقم (٦) ، حيث سيجد المزيد من المراجع .

المراجـــع

(1) Godel Kurt; **On Formally Undecidable Propositions of Principia Mathematica and Related Systems;** Basic Books Inc. New York, 1962.

(2) Hofstadter, Douglas R.; Godel, Escher, Bach: **An Eternal Golden Braid,** Vintage Books, New York, 1980.

(3) Kleene, Stephen Cole; **Mathematical Logic;** John Wiley and Sons, Inc. New York, 1967.

(4) Mendelson, Elliott; **Introduction to Mathematical Logic;** D. Van Nostrand Company, Inc. Princeton, New Jersey, 1964.

(5) Nagel, Ernest and Newman, James R.; **Godel's Proof;** New York University Press, 1964.

(6) Sagan, Carl; **Cosmos; Random House,** New York, 1980.

(7) Taraki, Alfred; The Concept of Truth In Formalized Languages; In; **Logic, Semantics, Metamathematics;** By the same author, Oxford At The Clarandon Press, 1956.

(8) ————; Truth and Proof; **Scientific American, June 1969.** Also, republished in: **Fundamental Problems In Philosophy;** Edited by Oswald Hanfling; Basil Black-well In Associations with The Open University Press, 1972.

المرجع (١) ترجمة للبحث الأصلي لجودل ، مصحوبة بمقدمة مبسطة .

المراجع (٣) ، (٤) ، (٧) مكتوبة للمتخصصين . المرجع (٧) بحث له أهمية تاريخية فيما يتعلق بقضية الصدق . والمرجعان (٣) ، (٤) كتابان جامعيان يغطي كل منهما : اللغات الرمزية ، البرهان ، الصدق ، نتائج جودل.

المراجع (٢) ، (٥) ، (٦) ، (٨) مكتوبة لغير المتخصصين . وكلها ـ عدا (٦) ـ تستعرض وتناقش نتائج جودل . المرجع (٢) يربطها بالرسم والموسيقى ، والمرجع (٨) يركز أكثر على قضيتي الصدق والبرهان . أما المرجع (٦) فيبحث في الكون وفهمنا له .

* * *

لمحات تاريخية من الفكر التربوي في مقدمة ابن خلدون

سوادي عبد محمد
أستاذ مساعد - جامعة البصرة

تناول كثير من الكتاب والمؤلفين، تراث ابن خلدون، بالدراسة والتحليل، منذ مطلع القرن التاسع عشر، حتى اليوم. وقد انصبت أغلب دراساتهم، حول ما جاء في «مقدمته» التي ضمّنها، خلاصة أفكاره وتجاربه في التاريخ[٢] ومظاهر العمران والاجتماع[٣] والفلسفة[٤] والاقتصاد والسياسة[٥] والأخلاق والعدالة وفلسفة الحكم والقضاء[٦]، إلى جانب مظاهر التحضر والبداوة والعلوم الدينية[٧] وعلوم القرآن والحديث والسنة والفقه والشريعة والتفسير والتصوف وعلم الكلام والمنطق وعلوم اللغة العربية، الأدب والنظم والنثر[٨]، فضلاً عن العلوم العقلية أو النظرية (الدخيلة). فكتب عنه المؤرخون، وعدّوه واضعاً لأسس كتابة التاريخ في الإسلام، فقد أفاض في تفصيل الأحداث التاريخية في مختلف الفترات والعصور وذلك في كتابه الموسوم «العبر وديوان المبتدأ والخبر»[٩] الذي يُعدّ من التراث الخالد في تسجيل أحداث التاريخ الإسلامي، والظاهر أن ابن خلدون استهدف من كتابه هذا أن يكون ميداناً لتطبيق الأسس والأفكار التي جاء بها في مقدمته، فيما يتعلق بكتابة التاريخ وتدوينه.

(١) وهو كتاب وضعه في موضوعات في التاريخ والاجتماع والفلسفة والعلوم والصنائع وغيرها بصورة تحليلية ونقدية، وقد هدف أن يكون «مقدمة» لكتابه العام في التاريخ «العبر وديوان المبتدأ والخبر».

(٢) انظر للاستزادة، بارتولد شبولر B.Spuler، بحثه، «ابن خلدون المؤرخ»، «Ibn Khaldoun The Historian» بالانكليزية، المنشور في كتاب «اعمال مهرجان ابن خلدون» القاهرة ١٩٦٣، ص ٣٤٩ - ٣٥٦.

(٣) راجع بحوث «أعمال مهرجان ابن خلدون» عن ابن خلدون، مؤسس علم الاجتماع» ص ٢٩ - ١١٩.

(٤) م. ن. «ابن خلدون الفيلسوف» ص ١٢٣ - ١٦٢

(٥) م. ن. عن آراء ابن خلدون في الاقتصاد والسياسة، ص ١٦٥ - ٢٥٢.

(٦) ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا «وشرقا» (دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، ١٩٧٩) ص ٢٧٣، ٣٨٣.

(٧) كتاب «أعمال مهرجان ابن خلدون» عن «ابن خلدون والدين» ص ٣٥٩ - ٤٢١

(٨) م. ن «عن ابن خلدون والأدب» ص ٤٧٣ - ٤٨٧.

(٩) كتاب في التاريخ العام، مرتب حسب السنين، استعرض فيه الاحداث منذ قيام الخليقة حتى عصره، وهنالك اختلاف بين المؤرخين والكتاب فيما إذا كانت الآراء التي جاء بها في «مقدمته» وخصوصا» فيما يتعلق بكتابة التاريخ، قد طبقها بصورة مثالية في كتابه !! ؟

ومهما يكن من أمر ، فقد اختطَّ ابن خلدون في مقدمته ، طريق الأصالة وأبان في تحليل العوارض التي تعترض الطبيعة البشرية في اجتماعها خلال مسيرتها التاريخية ، وربط بين أحداث المجتمع وخصائصه ومظاهره ، كما لم يغفل القول ، باعتبار التاريخ من أهم العلوم التي يلزم أن يدرسّها الناس فقال « إن فن التاريخ الذي تتداوله الأمم والأجيال وتشدّ إليه الركائب والرحال وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال وتتنافس فيه الملوك والأقيال ويتساوى في فهمه العلماء والجهال »[١٠].

على أن بعض نقاد التاريخ ومحلليه أوضحوا أن ابن خلدون لم يكن موفقاً كثيراً « في التطبيق العملي للأسس التي وضعها في كتابة التاريخ وخصوصاً فيما يتعلق بتعريفه للتاريخ بأنه « علم من علوم الفلسفة موضوعه الاجتماع الانساني » ولذلك ينبغي للمؤرخ أن يعلل الحوادث ويربط بعضها ببعض وأن يميّز الأخبار الصادقة من غيرها وأن يعمد إلى الترجيح بين الأسباب ، إلى جانب ذلك حرص ابن خلدون ، أن يتناول التاريخ ، فوصف التطور في البيئة الاجتماعية سياسياً من حيث العلاقات والأحوال السياسية ، وعسكرياً من حيث تنظيم الجيوش وإثارة الحروب ، واقتصادياً فيما يتعلق بالتجارة والزراعة والصنائع ، وعلمياً فيما يخص الحركة الفكرية والعلمية ، وفضلاً عن ذلك ينبغي أن يضمّ التاريخ أحداث الحركات الاجتماعية العامة أو الدينية أو الاقتصادية أو الفكرية . ويخلص ابن خلدون إلى القول ، إنه من أجل ذلك ، وجب أن يكون المؤرخ ملمّاً بعلوم كثيرة ، فإذا كان لا يعرف إلا رواية الأخبار كان هذا قاصاً وليس مؤرخاً ، وفي كتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » لم يكن ابن خلدون إلا راوية للأخبار ، على حد زعم هؤلاء المؤرخين والاختصاصيين وكتاب التاريخ .

ووضع عنه علماء الاجتماع المحدثون دراسات مستفيضة ، وجعلوه رائداً لعلم الاجتماع ، وقرروا ما جاء في مقدمته وهو على قدر عظيم من الأهمية للبحوث والدراسات في حقل علم الاجتماع ، وخصوصاً في موضوعات العمران البشري وتفسير الظواهر الاجتماعية المتجانسة في طبيعتها ، لاحتوائه على بحوث في « المورفولوجيا الاجتماعية » أو علم البنية الاجتماعية ، التي تتصل بدراسة البيئة والجنس والظواهر الجغرافية ، ويلقي ضوءاً على ذلك بقوله « ونحن الان نبيّن في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانية يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة »[١١] كما احتوى هذا الكتاب على بحوث في أصول المدنيات القديمة وبحوث في السكان ومسائل الهجرة وما تتطلبه من تخطيط المدن وقيام الأمصار ، إلى جانب الدراسات في النظم العمرانية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفلسفية والظواهر التربوية والأخلاقية والجمالية واللغوية والدينية وشؤون المعرفة والعلوم وأصنافها والتعليم وطرقه . لقد تناول أثناء دراسته لهذه الظواهر ، شرحاً مستفيضاً مما يسهل علينا الاستنتاج أن ابن خلدون ، « كان له فضل السبق في الوصول إلى ما اصطلح العلماء المحدثون على تسميته بعلم الوظائف الاجتماعية »[١٢].

---

(١٠) المقدمة (طبعة البيان) ص ٧

(١١) المقدمة ، ص ٢٧٠

(١٢) د . مصطفى الخشاب ، المدخل الى علم الاجتماع (القاهرة ـ ١٩٦٥) جـ ٢ ، ص . ٣٠ ـ ٣١ ، ويقول إن ابن خلدون لم يقتصر في دراسته لهذه الظواهر من الناحية الوظيفية ، ولكنه كان يدرس مراحل تطورها ، اي انه كان يجمع في دراسته بين الناحيتين « الاستاتيكية والديناميكية » .

ويصح القول إن ابن خلدون ليس فيلسوفاً اجتماعياً فحسب ، وإنما هو « عالم اجتماعي وواضع علم الاجتماع على أسسه الذي لم يسبقه إليه أحد ، ويذهب الدكتور عمر فروخ إلى القول إن ابن خلدون ، سبق علماء الاجتماع الغربيين المحدثين والمعاصرين في وضع بعض النظريات الاجتماعية وعدد من قوانين العمران التي استخرجها في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ويخلص إلى القول إنه لما أطلّ القرن التاسع عشر الميلادي واستبحر علم الاجتماع في أوروبا وأمريكا ، أدرك علماء العصر الحديث قيمة الآراء الصائبة وطرافة القوانين الشاملة وبعد النظر الثاقب فيما بسطه ابن خلدون في مقدمته[١٣].

غير أن الظواهر التربوية ، احتلت مكاناً مهّماً في كتابه « المقدمة » فهو لم يهمل الكلام عن ضروراتها وأسسها ومشكلاتها ، بل أكد على أن « العلم والتعليم من ضرورات العمران البشري ووجودها فيه أمر طبيعي »[١٤] و « أن تعليم العلم صناعة ، تختلف طرق المعلمين فيها باختلاف زمنهم وبلادهم »[١٥] والظاهر أن تأكيده على أن تربية الأطفال والكبار في الأمصار الإسلامية خلال عصره تختلف باختلاف كل مصر منها ، يجعل من هذه الظواهر التربوية ، أعرافاً تتخذ شكل أنظمة قائمة ومحددة بذاتها ، ولعل هذا التأكيد جاء نتيجة لمشاهداته في البلدان التي عرفها وعاش فيها . كما استعان في كل ما كتب عن النواحي التربوية بضرب أمثلة حيّة وملموسة عن واقعها مما لا يجعل لآرائه أن تتخذ أسلوب نظرية مبنيّة على الخيال ، بل نتيجة سعيه وتجاربه ، وهي على وجه العموم سليمة ومعقولة وخصوصاً فيما يتعلق بالربط الذي أحكمه بين التربية والحضارة ، فهذا يدل على شدة ملاحظته وعمق تفكيره[١٦].

إن التقويم الذي بدأ به ابن خلدون في تحليل الإطار التربوي في العالم الإسلامي ، كان ينطلق من تعاليم القرآن الكريم ، باعتباره الأساس الذي تبنى عليه المعارف التي يكتسبها الكبار والصغار وخصوصاً العلوم الدينية وعلوم العربية ، وهو يؤكد بهذا المعنى ، على تعليم الصغار ، إذ يعزو ذلك إلى أن التعليم في الصغر هو أشدُّ رسوخاً في الذهن « وهو أصل لما بعده ، لأنه السابق للقلب كالأساس للملكات ، وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال من يبنى عليه »[١٧].

وخصص ابن خلدون فصلاً عن امتهان التعليم بجعله من جملة الصنائع التي تتطلب الحذق والإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله ، ولهذا جعل السند في التعليم في كل علم أو صناعة إلى مشاهير المعلمين في جميع البلدان وفي كل الأوقات فلكل معلم من هؤلاء المعلمين ، طرقه وأساليبه الخاصة به في تدريس كل علم من العلوم وتعليمه ، ولذلك فإن هذه الطرق ، بحسب رأيه ، لا تدخل ضمن العلوم التي يراد تدريسها ، وإلا فسوف تكون لهم طريقة واحدة يجرون عليها ، وهذا غير ممكن ، ويضرب ابن خلدون مثلاً عن تعليم علم الكلام وأصول الفقه وعلوم العربية فيبيّن الاختلافات في تعليمها[١٨].

---

(١٣) تاريخ الفكر العربي حتى ايام ابن خلدون (دار العلم للملايين ، بيروت - ١٩٨٣) ص ٦٩٥

(١٤) المقدمة ، ص ٤٣٠

(١٥) م . ن . ، ص ٤٣٠

(١٦) فتحية سليمان ، بحوث أعمال مهرجان ابن خلدون ، بحثها « الاتجاهات التربوية في مقدمة ابن خلدون » ، ص ٤٦٩

(١٧) المقدمة ، ص ٥٣٧

(١٨) م . ن . ، ص ٤٣٠

ويربط صاحب المقدمة بين مظاهر العمران والتحضر وقوة الكيانات السياسية من جهة ، وبين سند التعليم للعلوم والفنون من جهة ثانية ، فيذكر أن ذلك له من التأثير بحيث كاد ينقطع ، في عصره ، سند التعليم عن أهل المغرب وذلك باختلال عمرانه وتناقص دوله ، فنقصت الصنائع وأحس الناس بفقدانها ، أما القيروان وقرطبة اللتان كانتا حاضرتي المغرب والأندلس ، فقد استبحر عمرانها ، وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة وبحور زاخرة ، مما أدى إلى رسوخ التعليم فيهما لامتداد عصورهما وما كان فيهما من الحضارة ، فلما خربتا وزالت دولتاهما ، انقطع التعليم من المغرب إلا قليلاً « في عهد دولة الموحدين وخصوصاً « في بداية قيامها في مراكش » ، ولكن مع ذلك لم ترسخ الحضارة في مراكش وذلك لبداوة الموحدين وخشونتهم مما تسبب في ارتحال عدد من العلماء والفقهاء والمدرسين والمعلمين إلى المشرق الإسلامي ، فحذقوا علوماً وتلقوا تعليماً حسناً ، كما ارتحل عدد منهم إلى مصر ، ولدى رجوعهم إلى تونس تركوا تأثيراتهم بحسب أساليبهم وطرقهم في التعليم(١٩).

ويتحدث ابن خلدون عن ظهور التعليم في الأمصار الإسلامية ، بنظمه وأساليبه التي كانت تقوم على العلم والتنظيم الصحيح ، ويستنتج أنه لما كان التعليم « صناعياً » فلا نجده في القرى والأمصار غير المتمدنة لفقدان الصنائع في أهل البدو ، ولابد لذلك من الرحلة في طلبه إلى « الأمصار المستبحرة » في تعليم العلم ، مثل بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة ، فقد زخرت فيها بحار العلم وتفننت في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون ، حتى أربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين . ويمضي هذا المؤرخ ليؤكد قوله إن مصر على عهده استبحرت فيها العلوم والتعليم وأصبحت القاهرة مركزاً علمياً مشعاً لاستحكام حضارتها منذ مئات السنين ، فظهرت فيها الصنائع وتعليم العلم ، ويرجع ذلك على حد قوله إلى عامل تاريخي ، هو سعي الملوك والأمراء منذ أكثر من مائتي سنة وتحديداً من أيام صلاح الدين الأيوبي ، إلى الاستكثار من بناء المدارس والزوايا والرُبط وجعل الأوقاف المُغلّة عليها ، فكثر طلبة العلم والمعلمون بارتفاع أجورهم وجراياتهم وارتحل اليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها ، ويؤكد أن في هذا المسعى الذي تبذله الدولة يكمن ترسيخها وتوطدها وتدعم أسس بنائها السياسي والاجتماعي وذلك « أن الملوك والأمراء ، كانوا يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق أو الولاء ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته »(٢٠).

والظاهر أنه ، خلال الفترة التي عاش فيها ابن خلدون أو التي سبقت عصره بقليل ، كانت طرق تعليم الأطفال وتربيتهم المتعلقة بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية ، ليست متشابهة في جميع بلدان العالم الإسلامي ، بل تختلف من بلاد إلى أخرى وذلك تبعاً لنزعة المربين والمعلمين واتجاهاتهم وميولهم ، وقد ظهرت من جراء هذه الطرق المختلفة ، ملكات غير متشابهة . ونفهم من معرض كلامه ذلك « واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات »(٢١)، ففي بلاد المغرب العربي الإسلامي كانوا يقتصرون على القرآن الكريم

(١٩) المقدمة ، ص ٤٣٠ ـ ٤٣١ .

(٢٠) المقدمة، ص ٤٣٤ ـ ٤٣٥

(٢١) م . ن . ، ص ٥٣٨

فيأخذون في كتابته ورسم حروفه أثناء دراسته ، واستعراض جميع ما يحتويه من كلام الله تعالى بحسب ما يكتبه أو يقرأه حملته ، أي حفاظه ، وبعبارة أوضح ، تجري دراسته قراءة وكتابة ، فتقوم التربية على أساس آياته ومضمونها واستبعاد الحديث أو الفقه أو الشعر أو أيّ من كلام العرب ، كما يجري الاجتهاد بعدم الخلط في التقويم بسواه في شيء ، من مجالس التعليم ، وهذا على حد قوله « غالباً ما يؤدي الانصراف إلى حذق القرآن وإتقانه إلى الانقطاع عن العلوم الأخرى والابتعاد عن معرفتها والإلمام بها » ، كما يوضح أن هذا هو مذهب أهل الأمصار في المغرب ومن تبعهم من القرى في تربية أبنائهم وتعليمهم منذ صغرهم حتى بلوغهم سن الشيخوخة ، ويضيف أنه حتى الكبار يرجعون بعد فترة من أعمارهم إلى دراسة القرآن فيصبحون أحسن من سواهم في كتابته ورسم حروفه وقراءته وحفظه والإلمام به[٢٢] .

أما الأندلسيون فيقول عنهم ابن خلدون ، إن النظام التربوي الذي كانوا يسيرون عليه ، هو تعليم الأطفال منذ نعومة أظفارهم ، القرآن كما هو بدون استنباط أو استنتاج أو تفسير ، غير أنه يستدرك فيقول إنهم جعلوا القرآن الأصل في التعليم والتربية ومنبعاً للعلوم ، فيجمعون إلى جانب دراسته في الغالب رواية الشعر وإنشاء الرسائل والأخذ بعلوم العربية وقوانينها وحفظها وإجادة الخط والكتابة ، ويجري ذلك على الأطفال حتى بلوغهم سن الرشد والشيخوخة فيكون المتعلم قد وقف على علوم العربية والشعر ومعرفة الخط وأصوله كما يتعلق بأذيال العلوم المتصلة بالقرآن مثل علم القراءات والتفسير فضلاً عن الحديث والفقه والسنة ، وربما الفلسفة والمنطق ، فيما إذا كان هناك سند للأخذ بهذه العلوم ومقدرة واستعداد على تعليمها وفهمها من قبل المعلمين ، لكنهم ينقطعون عن ذلك لانقطاع سند التعليم في آفاقهم ولا يحصل بأيديهم إلا ما حصل من ذلك التعليم الأول وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى واستعداد إذا وجد المعلم[٢٣] .

ويذهب ابن خلدون إلى القول ، إن طريقة الأفارقة وخصوصاً في تونس أقرب إلى طريقة الأندلسيين في تعليم أطفالهم وتربيتهم التي كانت تقوم على القرآن الكريم ، وغالباً ما كانوا يجمعون معه الحديث ، فقد درس أصوله وتلقن بعض قوانين العلوم وأفكارها ثم يمضي في قوله « إن عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان إياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه »[٢٤] . ويتبع تعلم القرآن والحديث ، على حد قوله ، تعلم الخط ورسم حروف القرآن .

وينقل ابن خلدون ، عما كان يستخدم في المشرق الإسلامي ، من طرق تربوية وكيف أن المشارقة ، كانوا يجمعون في تعليم مختلف أصناف المعرفة ، فقد بلغه أن عنايتهم كانت تتجه إلى دراسة القرآن وصحف العلم ، وهي الكتب والمصنفات والرسائل الخاصة بالعلوم النقلية والعقلية ، وما تنطوي عليها من أسس وقوانين وخصوصاً ما يتعلق بالأشخاص الكبار ، ويحتمل جداً أن تكون دراسة القرآن الكريم فقط للأطفال والناشئين والشباب .

والظاهر أن تعليم الخط والكتابة وضبط أساليبها وأصنافها في بلاد المشرق الإسلامي كانت مفصولة عن تعليم القرآن الكريم والعلوم الأخرى ، فيشير ابن خلدون إلى أنهم كانوا « لا يخلطون بتعليم الخط ، بل لتعليم الخط

---

(٢٢) م . ن . ، ص٥٣٨

(٢٣) المقدمة ، ص٥٣٨

(٢٤) م . ن . ، ص٥٣٨

عندهم ، قانون ومعلمون له على انفراده »[٢٥] . لذلك فانهم كانوا يكتبون في الألواح لمتعلمي سائر الصنائع من الصبيان في مكاتبهم بخط « قاصر عن الإجادة »[٢٦] ومن أراد تعلم الخط وإجادته ، سواء من الأطفال أو ممن في سن الرشد أو من الكبار ، فعليه أن ينصرف بعد إتقان صنعته أو علومه إلى ذلك فيطلبه من أهل صنعته[٢٧] . أما في مصر التي وصفها المؤرخ بأنها ، مهد للحضارة لرسو المدنية فيها من قديم الأزل ولاهتمام أهلها بالعلم والتعليم ، فيلاحظ تقدم العلوم فيها لأنها « موفورة وعمرانها متصل » وسند التعليم بها قائم[٢٨] و « ان التقدم في العلوم وسائر الصنائع فيها بالغ »[٢٩] .

ويعود هذا المؤرخ إلى القول فيما أفاد هؤلاء جميعاً من هذه الطرق والأساليب التربوية في التعليم والدراسة أو فيما كان سبباً في قصورهم عن علوم ومعارف أخرى ، فيذكر أن اقتصار أهل افريقية والمغرب عموماً على القرآن نشأ عنه قصور في اللغة وعلومها ، ويعزو ابن خلدون السبب في ذلك إلى أن دراسة القرآن لا تنشأ عنها في الغالب ملكة لغوية لأن البشر على حد قوله « مصروفون عن الإتيان بمثل آيات القرآن ، لذلك فهم مصروفون عن الاستعمال على أساليبه والاقتداء به أو الحذو على منواله مما يجعلهم يفتقدون أية ملكة من غير أساليبه ، كما يحصل حتى لأولئك من أصحاب الملكات في اللغة العربية ، الجمود في العبارات وقلّة التصرف في الكلام لانصرافهم التام إلى القرآن وأساليبه[٣٠] .

ولا يصح مجاراة ابن خلدون فيما ذهب إليه بهذا الصدد ، من أن دراسة القرآن ، ينشأ عنها قصور في ملكات اللغة فالمعروف أن القرآن يقوّم لغة الدارس ويزيدها بياناً وفصاحة في استعمال المفردات اللغوية واستخداماتها المختلفة ويهذّب العبارات ويمنحها قوة في التعبير ويغنيها بفيض من التركيبات اللغوية المفيدة لما يحتويه من استعمالات مختلفة من الأساليب والطرق البيانية ، فيكسبها الأصالة .

غير أن صاحب المقدمة يميل إلى الاعتقاد أن أهل افريقية « أخف من أهل المغرب » أي انهم أكثر ملكة في اللغة ومعرفة بقوانينها وأصولها وذلك لأنهم كانوا يجمعون في تعليمهم للقرآن ، عبارات العلوم التي كانوا يتعلمونها معه ، مثل الحديث والفقه ، فتنشأ لديهم قدرات (أي ملكات) على شيء من التصرف[٣١] والإتيان بعبارات وأساليب مشابهة لعباراتها وأساليبها ، ولكن مع ذلك فإنهم ، كما يقول ، كانوا يقصرون في ملكاتهم البلاغية .

ومن ناحية أخرى ذكر ابن خلدون ، أن تفنن الأندلسيين وابتداعهم طرقاً في التعليم تقوم على الإكثار من رواية الشعر والاشتغال فيه ، ومن أدب الرسائل والإنشاء ودراسة العربية وعلومها وفنونها منذ الصغر ، جعلهم يقصرون في

---

(٢٥) م . ن . ، ص ٥٣٩

(٢٦) المقدمة ، ص ٥٣٨ ـ ٥٣٩

(٢٧) م . ن . ، ص ٥٣٩

(٢٨) م . ن . ، ص ٥٣٩

(٢٩) ٣٠٣ ـ م . ن ، ص ٣٠٣

(٣٠) ربما يتصور ابن خلدون ، الملكات ، انها قوى مستقلة بعضها عن البعض الآخر يمكن ان تشحذ بالتدريب والإفادة منها في كل مجال .

(٣١) المقدمة ، ص ٥٣٩ .

العلوم الدينية المتصلة بدراسة القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها[٣٢] . ويستشهد المؤرخ برأي القاضي أبي بكر بن عربي[٣٣] في وجوب تقديم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو الحال بالنسبة إلى اتجاه الأندلسيين ، لأن الشعر ، ديوان العرب فينبغي تقديمه ، ثم ينتقل إلى الحساب فيتمرّن على تحليل تمارينه وقوانينه ومسائله وبعد ذلك يعرج على درس القرآن والعلوم المتصلة به ، ومن ثمّ تؤخذ علوم أصول الدين والفقه والجدل والحديث . وقد استحسن ابن خلدون طريقة أبي بكر بن عربي التي ختمها بالنهي عن تعليم الناشئة علمين سوية إلا إذا كان المتعلم يمتلك قدرات على تعلمهما ، وأظهر بعض النشاط والرغبة فيهما[٣٤] غير أنه أبدى تحفظه من النتيجة التي قد تؤدي إلى حرمان الناشئة من دراسة القرآن لغرض التبرك والثواب واعتقاد البعض من خشية تعرض الأطفال الذين يحرمون من دراسته إلى إصابتهم بالجنون وأن أمر الأطفال مرهون بأوليائهم الذين كانوا يتولون رعايتهم منهم فينقادون لحكمهم ، لذلك فإن أغلب الأطفال يصرفون إلى دراسة القرآن فيحرمون من تلقي العلمين اللذين يرغبانهما ، ولكن لو أن الأطفال استمروا فعلا في تلقيهما لتحقق مبدأ القاضي أبي بكر بن عربي ولأصبح من الضروري أن يطبق في بلاد المغرب والمشرق على السواء[٣٥] .

ويعقد ابن خلدون فصلا « مهّما » عن واحدة من المسائل التربوية المهمّة في مقدمته ، ليس فقط في الفترة التي عاشها بل تبرز أهميتها في الوقت الحاضر ، وتتعلق باستعمال الشدة في تعليم الناشئة من الأطفال ، فيقرر أن الطرق التربوية والتعليمية التي تتسم بالشدة والقسوة تجاه المتعلمين مضرة بهم ، ويعلل ذلك بسبب أن التطرف في التعليم وجعله وسيلة للقطع من قبل المعلمين الذين يفتقرون إلى طرق وأساليب مرنة تقوم على التفهم والإدراك الصحيح لمتطلبات تربية الأطفال وتعليمهم . إن ذلك بالتأكيد يلحق ضرراً بعملية التعليم ، لأن من كانت تربيته ، كما يقول ، بالعسف والقهر من المتعلمين أطفالاً أو غيرهم لا يستطيع الاستجابة لتلقي العلم ويفتقد النشاط ويخيّم عليه الكسل الأمر الذي يؤدي به إلى سلوك طريق الكذب والخبث والتظاهر بغير ما في ضميره خوفاً مما يلحق به من الأذى على أيدي هؤلاء المعلمين وكذلك يتعلم المكر والخديعة ، فتصبح لديه عادة وخلقاً ، وبذلك تفسد المعاني الإنسانية من حيث علاقاته بالمجتمع ومدى استجابته لاكتساب عادات جيدة مثل الحمية وإمكانية الدفاع عن نفسه ومنزلته ليصبح عيالاً على غيره فتقصر همته عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل التي تتحدد غاياتها ومدى إنسانيتها فيعود في أسفل السافلين[٣٦] .

ويحدد هذا المؤرخ ما يجب على المعلم في صدد استعمال الشدة تجاه المتعلمين من الأطفال والناشئة ، أنه ينبغي على المعلم في متعلمه والوالد في ولده أن لا يستبدا عليهما في التأديب ، وقد نقل من كتاب محمد بن أبي زيد الذي كان قد

---

(٣٢) م . ن . ، ص ٥٤٠

(٣٣) وهو محيي الدين ابن بكر محمد بن علي بن عربي المتوفي ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م قرأ القرآن والحديث ودرس الفقه على يد أحد تلاميذ ابن حزم الاندلسي ثم انصرف الى دراسة كتب التصوف بعد أن اتجه هذا الاتجاه . انظر ترجمته في : النباهي ، تاريخ قضاة الاندلس ، ص ١٠٥ ـ ١٠٧ .

(٣٤) المقدمة ، ص ٥٤٠

(٣٥) م . ن . ، ص ٥٤١

(٣٦) المقدمة ، ص ٥٤١

صنّفه في حكم المعلمين والمتعلمين[٣٧]، أنه لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم « إلا إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئا »[٣٨].

ولعل من المفيد أن نستعرض ما جاء به ابن خلدون حول وصايا الخليفة هارون الرشيد لمعلم ولده محمد الأمين ، فقد استحسنها كأفضل مذاهب التعليم فخاطبه « يا أحمر إن الخليفة دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصيّر يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة ، وأن تقف منه كما أوصاك الخليفة به ، بتدريسه القرآن وتعريفه بالتاريخ والسنين ورواية الشعر ، وأرشده إلى الكلام وضروراته وكيف يبدأ به وامنعه من الضحك إلا في أوقاته ، وخذه بتعظيم الرجال والقواد من العلماء والساسة إذا دخلوا مجلسه ، كما أوصاه بإفادته في كل ساعة تمرّ عليه ، فائدة لا تحزنه فتميت ذهنه ، وأن لا يمعن في مسامحته ليترك لديه فراغاً من الوقت يلهيه عن واجباته « وأخيراً » طلب منه أن يقوّمه ما استطاع إلى ذلك بالقرب والملاينة « فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة »[٣٩].

ويكتب ابن خلدون بشيء من التوضيح عن مسألة تربوية وتعليمية أخرى لها أهميتها في الفكر التربوي المعاصر ، وهي اختصار الطرق والأساليب التعليمية في العلوم وأبواب المعرفة بتدوين البرامج المختصرة في كل علم ، فقد يشمل الاختصار على حصر القوانين والأدلة بألفاظ قليلة وبمعانٍ كثيرة . وقد أظهر المؤرخ أن هذا التضييق في الكلام عن العلم أو الفن أو الأدب مخلّ بالبلاغة أولاً وعسر على الفهم أيضاً ، كما أنه يفسد التعليم ، وفيه إخلال بالتحصيل ، ويستدل عليه بسوء التعليم ، فالمتعلم عليه أن يتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتراجم المعاني وصعوبة استخراج المسائل من بينها ، ويخلص ابن خلدون إلى القول ، إنَّ المختصرات في العلوم المعدّة للناشئة وللمتعلمين تفقدهم الملكات النافعة وتقطعهم عن تحصيلها[٤٠].

وأفضل الطرق لتلقين العلوم والمعارف للناشئة الذين يتجاوزون المراحل الأولى على رأي ابن خلدون ، هي ما كانت تقدم لهم تدريجياً شيئاً فشيئاً ، وأن يراعي فيها استعدادات الطلبة لقبول ما يرد عليهم . والظاهر أن هذه الطرق التي يشير إليها تتلخص في ثلاث مراحل أو « تكرارات » ففي البداية تقدم لهم مسائل عامة من كل باب من أبواب العلم تتعلق بأصوله وأسسه ، ويعنى في شرحها على سبيل الإجمال ، وفي هذه المرحلة يكتسب المتعلم ملكة جزئية وضعيفة في ذلك العلم ، غير أنها تعمل على تهيئته لفهم العلم وإدراك قوانينه ، وفي المرحلة الثانية ، تقدم الشروح الواضحة بصورة مفصلة ، وتذكر أوجه التشابه والاختلاف فتتحسن ملكته . أما المرحلة الأخيرة فتقوم على التفتيش عن المسائل والقوانين

---

(٣٧) لم يتيسر لنا العثور على هذا الكتاب في الوقت الحاضر ، كما اننا لم نجد معلومات عن مصنفه محمد بن ابي زيد في المصادر المتوفرة الآن ، ويبدو أن هذا الكتاب الذي نقل عنه ابن خلدون معلوماته المتعلقة بحكايات مؤدبي الصبيان ومعلميهم ومقرئيهم وشيوخهم كان قد صنفه محمد بن ابي زيد خصيصاً لهذا الغرض شرح فيه طرقهم وأساليبهم وللأسف فإن هذا المصنف مفقود الآن

(٣٨) المقدمة ، ص ٥٤١

(٣٩) م . ن ، ص ٥٤١

(٤٠) المقدمة ، ص ٥٣٢ ـ ٥٣٣

المعقـدة والمهمة والمغلقـة ، فتوضـح بشيء من التفصيـل والاهتمـام حتى ينتهي المتعلم من استيعـاب هـذا العلم ومتطلباته(٤١) .

وهناك بعض الطلبة والمتعلمين ، كما أفاد ابن خلدون ، الذين يختصرون هذه المراحل في أقل من ذلك أي للفترة المستغرقة في أخذ العلوم ، للحصول على ملكات في بعض العلوم ، بحسب ما يتيسر لهم من إمكانات وما تقدم لهم من تسهيلات(٤٢)، والمقصود بالإمكانات هنا على الأرجح ، القدرة على الاستيعاب لأفكار العلوم المطروحة ، كما يرمي بالتسهيلات تناولها بطرق تعليمية مبسطة ومفهومة وواضحة تساعد على هذا الاستيعاب وتفتح له الأبواب مشرّعة .

ويُلقي ابن خلدون اللوم على كثير من المعلمين في عصره بجهلهم الطرق التربوية في التعليم ، إذ يقدمون للطلبة كثيراً من المسائل والقوانين المعقدّة والمقفلة ويطالبونهم في حلّها ويحسبون ذلك مراناً لهم متجاهلين استعداداتهم للتقبل والفهم ، لذلك ينبغي على المعلمين أن لا يزيدوا على طلابهم ومتعلميهم ويثقلوا عليهم بمواد العلم إلا بحسب طاقاتهم وعلى نسبة قبولهم سواء أكانوا مبتدئين أم في المراحل المنتهية وأن لا يجمعوا لهم بين مسائل وقوانين مختلفة وأن يقتصروا لهم على علم من العلوم حتى يتقنوه ، ثم يخلص إلى القول إن من المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمان معاً ، فإنه حينئذ قلَّ أن يظفر بواحد منهما ، لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر فيستغلقان معاً ويستصعبان(٤٣).

وعلى أية حال فالتعليم عند ابن خلدون صناعة خاصة غايتها إثبات ملكة العلم في نفوس المتعلمين وليس من واجبها ، بهذا المعنى ، حمل المتعلمين على حفظ فروع العلم ودفعهم إليه ، ولذلك فهو يسعى لكي يضـع للتعليم منهجين ، على المعلمين والمتعلمين أن يطبقاه في وقت واحد وهما منهج التوسع في العلوم والمعرفة ، نظرياً وعملياً ، والآخر منهج التدرج من الأسهل الى الأقل سهولةً فتلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدرج شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلاً(٤٤) .

ويوجه ابن خلدون الأنظار الى مسألة تربوية مهمة في تلقي العلم فيشير الى دور المحاورة والمناظرة والمفاوضة في التعليم ، فيذكر أن الطرق التربوية الصحيحة لا تقوم على أساس التأكيد على كثرة حفظ مباحث العلم واستظهارها لأن « الملكة العلمّية » لا تحصل إلا « بالمحاورة والمناظرة والمفاوضة » في موضوعات العلم « لأنها ستولد ملكة التصرف » و « ملكة استنباط الفروع من الأصول » ويقدم هذا المؤرخ آراءه عن أيسر الطرق التربوية للحصول على « ملكة العلم »

---

(٤١) م . ن . ، ص٥٣٣ - ٥٣٦

(٤٢) المقدمة ، ص٥٣٣

(٤٣) م . ن ، ص٥٣٤

(٤٤) م . ن . ، ص٥٣٣

وذلك من خلال إطلاق اللسان بالحوار والمناقشة في المسائل العلمية لأن « فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية يقّرب شأنها ويحصل مرامها »[٤٥] . ولا ريب أنـك ستجد في طلبـة العلم الذين يتهيبـون من الاشتراك في النقاشات التي تجري في المناظرات العلمية ويفضلون السكوت وينصرفون الى الحفظ والاستظهار جموداً في أفكارهم وضيقاً في أفقهم ، وينطبق ذلك حتى على أولئك الذين يحسبون أنهم وضعوا أساساً لملكاتهم العلمية ، الاطلاع والقراءة والحفظ فإنك ستجد أن لديهم قصوراً في علمهم ، ويظهـر ذلك واضحـاً أثناء حـواراتهم أو مناظـراتهم أو قيامهم بالتعليم ، ويعزو ابن خلدون هذا القصور إلى « رداءة طريقة التعليم وانقطاع سنده » على الرغم من أن حفظهم هو أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به[٤٦] .

نخلص من هذا الرأي الذي يقدمه ابن خلدون ، أنه ينبغي على المعلمين والمدرسين ، أن يدركوا حقيقة تتعلق بجوهر عملهم التربوي التعليمي ، وهو القدرة على مناقشة المسائل العلمية والفكرية واستيعاب الأفكار والآراء التي تقوم عليها المناظرات العلمية والأدبية والفنية ، وكذلك معرفة إدارة هذه المناقشات وتوجيهها توجيهاً يخـدم العملية التعليمية ، والمعلم سيواجه طلبة متبايني الاتجاهات والمنطلقات الفكرية والثقافية والعلمية فعليه أن يتدّبر طروحاتهم ويناقشها ويفاوضها بكثير من السداد والعمق .

ولدى ابن خلدون تفسير عن تعدد المناهج وكثرتها وتشعب مفرداتها مما يؤدي الى التيه وعدم الدقة في ضبطها ، والمقصود على رأي ابن خلدون بعبارة « أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم ، اختلاف الاصطلاحات في التعاليم »[٤٧] هو تعدد المناهج وتشعب اصطلاحاتها ، والظاهر أنه لاحظ في عصره ، طرقاً عدة لتعليم الفقه والشروحات الفقهية مثلاً . منها : الطريقة القيروانية والطريقة القرطبية والطريقة البغدادية والطريقة المصْرية وطرق المتأخرين وهذه يتبعها الكثير من التفرعات والأساليب والأنماط في تلقي الأصول والفروع في الفقه وشروحاته وتفسيراته ، لذلك فإن المتعلم مطالب باستحضارها جميعاً وتمييز ما بينها ، ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الأمر دون ذلك بكثير ، وكان التعليم سهلاً ومأخذه قريباً . ويواصل صاحب المقدمة ضارباً المثل من علم العربية وخصوصاً من كتاب سيبويه وجميع ما كتب عليه وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين وجميع ما كتب في ذلك ثم يتساءل كيف يطالب به المتعلم[٤٨] .

أما مسألة التحصيل العلمي وما ينطوي عليه من طرق وأساليب تربوية فيفصلها بقوله ، إن العلوم المتعارفة على صنفين ، العلوم المقصودة بالذات مثل التفسير والحديث وعلم الكلام وعلوم الطبيعيات والفلسفة ، والعلوم المساعدة

---

(٤٥) المقدمة ، ص ٤٣١
(٤٦) م . ن . ، ص ٤٣٢
(٤٧) المقدمة ، ص ٥٣١
(٤٨) م . ن . ، ص ٥٣٢

التي تشكل وسيلة آلية للعلوم الأولى مثل علوم العربية والحساب والمنطق ، فاذا أريد تحصيل العلوم المقصودة فينبغي دراستها والتوسع فيها واستكشاف الأدلة والبراهين في أصولها وتفريعاتها واستبعاد العلوم المساعدة عن التمحيص الدقيق والدراسة المستوعبة وذلك « لأنها آلة للعلوم المقصودة بذاتها ، فكلما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود وصار الاشتغال بها لغواً » مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها وربما يكون ذلك عائقاً عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها(٤٩) . ويذهب المؤرخ بعيداً في التفصيلات حول صناعة النحو وصناعة المنطق وأصول الفقه فيقول ، إن المتأخرين أوسعوا دائرة الكلام فيها وأكثروا من التفاريع والاستدلالات بما أخرجها عن كونها آلة وصيّرها من المقاصد ، فهي مضرّة على حد قوله بالمتعلمين على الإطلاق لأن اهتمام المتعلمين بالعلوم المقصودة أكثر من اهتمامهم بوسائلها ، لهذا يجب على المعلمين كما يقول ، أن لا يستبحروا بشأن العلوم الآلية (المساعدة) وينبهوا المتعلم على الغرض منها ويقضوا به عنده(٥٠) .

ويمكن القول ، باطمئنان ، إن ما ذهب اليه ابن خلدون في هذا الصدد ، يجعل مسألة التحصيل العلمي وحيدة الجانب ، فالعلوم ينبغي أن تؤخذ بصورة متوازنة ومتكافئة ، فاذا أريد تحصيل العلوم التاريخية مثلاً فلا بّد حينئذ من تعلّم وسيلتها وهي اللغة ، وإتقانها وضبطها من حيث التوصل الى تحليلات دقيقة (توضحها اللغة توضيحاً) « كافياً » ، وكذلك إذا فعلنا مع العلوم الطبيعية والفلسفة فإن اللغة تظل تعين على ترسّم الطريق الصحيح لإتقان هذه العلوم وتطبع صورة جليّة في ذهن المتعلم عنها ، ويبدو ذلك واضحاً في جهود كثير من طلبة العلم الذين أصبحوا فيما بعد علماء ومفكرين في الحقول العلمية التي تخصصوا فيها على أيام ابن خلدون أو على أيام المتقدمين عليه أو المتأخرين عنه .

ولعل ابن خلدون وهو المحلل لبعض أفكار عصره ، يشير الى ما كان يجري من فصل غير مقصود بين علوم الشرعيات والطبيعيات والفلسفة وبين علوم العربية والحساب والمنطق عند ما يراد السعي للتحصيل العلمي في صنف من أصناف العلوم الأولى ، وهو الأسلوب التقليدي المتبع في تلك الفترة ، غير أن هذا المحلل لا يدرك صواباً حين يقرر أن علوم العربية والمنطق وما سواها من العلوم المساعدة « لا حاجة بها في العلوم المقصودة ، فهي من نوع اللغو »(٥١) .

ولم تكن المدارس على عهد ابن خلدون هي المراكز الوحيدة للتعليم والتعلم بل إن المعلم أو المدرس الذي يجد في نفسه الكفاءة لمزاولة المهنة ، يستطيع أن يزاولها بحرية في المكان الذي يختاره وعلى الطريقة التي يرتئيها من غير أن يتقيّد بقيد حكومي أو سلطاني ، غير القيود التي يقررها ويفرضها العرف والعادة(٥٢) . وكان له أن يفعل ذلك في المساجد أيضاً . « وللمدرس الانتصاب لتعليم العلم وبثّه والجلوس لذلك في المساجد »(٥٣) . ويبيّن أن المساجد صنفان ،

---

(٤٩) م . ن . ، ص ٥٣٦ - ٥٣٧

(٥٠) المقدمة ، ص ٥٣٧

(٥١) م . ن . ، ص ٥٣٧

(٥٢) ساطع الحصري ، دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٧٣

(٥٣) المقدمة ، ص ٢٢٠

المساجد العظيمة الكثيرة الغاشية والمعّدة للصلوات العامة المشهودة وأخرى خاصة بقوم أو بمحلة وليست للصلوات العامة ، الأولى ترجع الى الخليفة أو الوزير أو القاضي ، والمساجد الخاصة ترجع الى الناس المجاورين لها ، فاذا أراد المدرس أن يزاول مهنته في المساجد العظيمة ، فلا بّد من استئذان الخليفة أو الوزير أو القاضي ، اما إذا أراد أن يزاولها في الصنف الثاني « فلا يتوقف ذلك على إذن »(٥٤) . ويقرر ابن خلدون أن المدرسين في العالم الاسلامي لا يتصدون للمسائل التي لا تدخل في اختصاصاتهم أو التي لا يستطيعون الإيفاء بموضوعاتها أو ما يدخل في تفصيلاتها ودقائقها ، فيشير الى أنه « ينبغي أن يكون لكل أحد من المفتين والمدرسين زاجر من نفسه يمنعه عن التصدي لما ليس له بأهل(٥٥) .

غير أن ابن خلدون يذكر أن مهنة التعليم تدخل في نطاق المصالح العامة فهي تخضع لمراقبة المحتسب الذي تقوم وظيفته على موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقد يأخذ « على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين »(٥٦) كما أن أصحاب الخير من الأغنياء من السلاطين والأمراء والتجار وغيرهم ، كـانوا يشيّدون بعض البنايات المختصة للتدريس ويربطون لها الأوقاف المغلّة للجراية على معلميها ومتعلميها ، فيقول إنهم كانوا « يستكثرون من بناء المدارس والإعانة لطالب العلم بالجراية من الأوقاف التي اتسعت بها أرزاقهم »(٥٧) ويبدو أن صلاحية التعليم وتحديده في تلك المدارس كانت تتعيّن وفق الشروط التي يضعها الواقفون من أولئك الأغنياء .

ويعكس لنا ابن خلدون صورة فيها بعض الوضوح عن طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي كان يعيشها المعلمون والمدرسون في عصره وأن مهنة التعليم كانت ضمن مهن الضعفاء ، فقد ذهب الى القول « إن التعليم لهذا العهد من جملة الصنائع المعاشية البعيدة من اعتزاز أهل العصبية ، والمعلم مستضعف مسكين منقطع الجذم »(٥٨) .

أما أثر المشرق الإسلامي في نشر العلم في بلاد المغرب والأندلس فيوضحه بقوله ، إن أغلب الذين تلقوا تعليمهم على يد المعلمين المشارقة كانوا يهتمون « بالحفظ » ويعجزون عن التصرف في المعرفة مع أن الهدف هو الحصول على الملكة العلمية ، أي فهم روحه العامة والوقوف على دقائقه والمقدرة على إبداء الرأي فيه(٥٩) ، ثم يقدم لنا معلومات تفيد في الاطلاع على تاريخ التربية في بعض البلاد الإسلامية والمدد التي كان يقضيها الطلبة والمتعلمون في الحصول على العلوم ودراستها وإتقانها ، فيشير الى أن المدة المعينّة لسكنى طلبة العلم بالمدارس في المغرب لإتمام دراستهم ، هي ست عشرة سنة ، فيما هي في تونس خمس سنين . ويقول إن هذه المدة التي يقضيها الطلبة في المدارس هي أقل ما يتأتى لطالب العلم للحصول على مبتغاه من الملكة العلمية ، ويعلل طول المدة في المغرب عنها في البلاد الإسـلامية الأخـرى ، بسبب

(٥٤) م ن . ، ص ٢٢٠

(٥٥) م ن . ، ص ٢٢٠

(٥٦) م ن . ، ص ٢٢٥

(٥٧) المقدمة ، ص ٤٣٥ ، ٤٣٧

(٥٨) م ن . ، ص ٢٩

(٥٩) د عبد اللطيف الطيباوي ، محاضرات في تاريخ العرب والاسلام . ج . ١ (دار الاندلس بيروت ـ ١٩٦٣)ص ١٠٣

صعوبتها ، نتيجة لقلة الجودة في التعليم وانعدام الطرق والوسائل التعليمية القائمة على أساس صحيح ومفيد ، كما يعزو هذا المؤرخ ، انقطاع سند التعليم في « الأمصار العظيمة » التي هي بغداد والبصرة والكوفة ـ وكانت معادن العلم ـ الى الخراب الذي شاع فيها وعدم اتصال العمران الموفور واتصال السند فيه . هذا الخراب الذي تعرض له العراق في الفترات التي يشير اليها(٦٠) .

وفي موضوع تنّوع الثقافات في بلدان إسلامية مختلفة وما يجنيه طلبة العلم من هذا التنوع يذكر ابن خلدون أن « الرحلة في طلب العلوم مزيد كمال في التعليم(٦١) وأن الارتحال في أرجاء العالم الإسلامي وخصوصاً المشرق الإسلامي ينوّر العقل ويكسب العلم ، ويرجع السبب في ذلك إلى أن الناس يكتسبون معارفهم وعلومهم بطرق مختلفة بين بلاد

وأخرى فمنهم من يحصلها علماً وتعليماً وإلقاءً ومنهم عن طريق المحاكاة والتلقين بالمباشرة ، فالمتعلمون يختلفون في التلقي الا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين ، أشد استحكاماً « وأقوى رسوخاً » ، فلقاء أهل العلم في بلاد متباينة ، يفيد في تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيه ، فالرحلة على حد قوله لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المعلمين وأرباب العلم ومباشرة الرجال(٦٢) .

كما يتطرق صاحب المقدمة إلى الطريقة المثلى ، بل يعدّها الفضلى في تعلم اللغة العربية وإتقانها ، بكثرة الحفظ وجودة المحفوظ ، فمن كان يروم تعلم اللسان العربي فلا بد له من أن ينتقي ما يحفظه ، وعندئذ تكون ملكته أجود وأعلى مقاماً ورتبة في البلاغة ، ويقول إنه على مقدار جودة المحفوظ أو المسموع تكون جودة الاستعمال من بعده ثم إجادة الملكة من بعدهما . والسبب في ارتقاء الملكة الحاصلة في العربية ، يعود الى ارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام ، لأن المرء يحاول أن ينسج على منوالها فتنمو ملكاته بتغذيتها وذلك لأن النفس البشرية ، وإن كانت في نوعيتها واحدة ، تختلف في البشر من حيث قوة الإدراكات وضعفها أو اختلافها(٦٣) وهي تتأثر الى حد كبير بما يرد عليها من الإدراكات والملكات والألوان التي تكيفّها من الخارج إذ يتم وجودها فتخرج صورتها من القوة إلى الفعل . ويزعم ابن خلدون أن هذه الملكات التي تحصل عليها النفس فيما يتعلق باللغة العربية ، إنما تأتي بالتدريج ، فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر وملكة الكتابة تتم بالإسجاع والترسيل ، والعلمية بمخالطة العلوم ، والإدراكات والأبحاث والمناظرات ، والفقهية بمخالطة الفقه وتنظير المسائل وتفريعها وتخريج الفروع على الأصول(٦٤) ، ولعل ابن خلدون لا يؤكد هنا على الشاعرية

---

(٦٠) المقدمة ، ص ٤٣٢

(٦١) المقدمة ، ص ٥٤١

(٦٢) م . ن . ، ص ٥٤١

(٦٣) وقد اصبح ذلك مبدأ من مباديء التربية الحديثة يقوم على معرفة مدى الاستعداد في اكتساب المهارات والمعارف (انظر للاستزادة حول ما يسميه العلماء الآن (القدرات والقابليات والعوامل العقلية) وهي ما تعرف بالملكات والادراكات ، تشحذ بالتدريب والافادة وبتنويع البيئات . د . فاخر عاقل ، أصول علم النفس وتطبيقاته (دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٣ ـ ١٩٧٨) ص ٣٢٣ ـ ٣٣٣ .

(٦٤) المقدمة ، ص ٥٧٨ .

الفطرية التي تصنع الشعراء ، بل يبرر القول إن الملكة الشعرية التي تحصل بحفظ الشعر ، تخلق النظّامين وكذلك الحال بالنسبة للكتاب والعلماء والفقهاء .

ويزيدنا ابن خلدون بياناً عن إمكان فهم اللغة التي كان يستخدمها الفقهاء فيما يأتي على ألسنتهم من أساليب خاصة تميِّزهم ، فقال إنها ليست من أساليب كلام العرب(٦٥) ، أما الكتاب والشعراء فليسوا كذلك ، أي أنهم اتخذوا ما درج عليه العرب في لغتهم ، وذلك لأنهم اختاروا ما يحفظونه ، وأنهم يخالطون كلام العرب وأساليبهم في الترسل وانتقاءهم الجيد من الكلام(٦٦) . وابن خلدون في هذا الصدد يبتغي القول ، في أن لغة العلم ليست كلغة الأدب والشعر ، فمفردة الفقيه وعباراته التى يسوقها وهو في علومه الفقهيه او في الكتابة أو الشعر هي نفسها وتتمّيز عن لغة

الأديب والشاعر . ولذلك يرى ابن خلدون فيما يبدو ، أن المتعلمين ينبغي أن يتفهموا الأساليب التي يتميز بها الفقيه أو الأديب بغية إدراك المعنى وإتقان التعلم .

وعلّل ابن خلدون انصراف طلبة العلم الى دراسة الفقه(٦٧) والتبحر فيه والتعمق في التخصص بأنه يفقد هؤلاء المتعلمين السيطرة على أساليب كلام العرب ، بسبب أن الفقيه ينحو إلى استخراج الأحكام من الأدلة على اختلاف النصوص ، فبعضها ظاهر وبعضها يحتاج إلى الترجيح ، فيبعد المتعلمين ، الذين أصبحوا فقهاء ، عن ملكات اللغة بأساليب الكتاب والشعراء الذين اختاروا ما يجب عليهم حفظه مما درج عليه العرب في لغتهم ، وهذه المخالطة لكلام العرب وأساليبهم في الكتابة والترسل إلى جانب الانتقاء الجيد من الكلام ، يجعلهم يختلفون في أسلوبهم اذ تتشبع فيهم روح البلاغة .

ويعقد ابن خلدون فصلاً مهماً آخر عن تعلم العلوم العقلية وتكوين الملكات فيها ، فيقول ، إن هذه العلوم موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمران الخليقة ، وقد أطلق عليها علوم الفلسفة والحكمة وهي تشتمل على أربعة علوم ، الأول ، علم المنطق ، وهو علم يعصم الذهن عن الخطأ ، فائدته تمييز الخطأ من الصواب فيما يلتمسه الناظر في الموجودات وعوارضها ليقف على تحقيق الحق من الكائنات بمنتهى فكره . والثاني : العلم الطبيعي ، وهو يهتم في النظر بالمحسوسات من الأجسام التي تتكون من عناصر المعادن أو النبات أو الحيوان أو الأجسام الفلكية والحركات الطبيعية والنفس التي تنبعث عنها الحركات . أما الثالث فيسمى العلم الإلهي ، وهو فلسفة ما وراء الطبيعة ، يهتم في النظر في

---

(٦٥) قال خلدون ، أخبرني صاحبنا الفاضل ابو القاسم بن رضوان وهو كاتب في دولة بني مرين ، وهي إحدى الدول التي خلفت دولة الموحدين في المغرب ، قال ذكرت يوماً صاحبنا أبا العباس بن شعيب كاتب السلطان أبي الحسن ، وكان المقدم في البصر باللسان لعهده فأنشدته مطلع قصيدة ابن النحوي ولم أنسبها له .

لم أدر حين وقفت بالأطلال ... ما الفرق بين جديدها والبالي

فقال لي على البديهة هذا شعر فقيه ، فقلت له . ومن اين لك ذلك ؟ فقال . من قوله ما الفرق ، إذ هى من عبارات الفقهاء . (المقدمة ٢ ص ٥٧٩) .

(٦٦) المقدمة ، ص ٥٧٨ .

(٦٧) الفقه هو معرفة الاحكام المتلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفة الأدلة من العال المكلفين بالوجوب والحذر والندب والكراهية والاباحة (م ن . ، ص ٤٤٥)

الأمور التي وراء الطبيعة من الروحانيات ، كما ينظر في الوجود المطلق . والرابع ويشتمل على أربعة علوم وتسمى « التعاليم » أولها علم الهندسة وهو النظر في المقادير على الإطلاق ، وعلم الإرتماطيقي ، وهو ما يعرض للكّم المنفصل الذي هو العدد ومعرفة خواصه من حيث التأليف إما على التوالي أو بالتضعيف ، وثالثها علم الموسيقى ، وهو معرفة نسب الأصوات والنغم بعضها من بعض وتقديرها بالعدد وثمرته معرفة تلاحين الغناء ، أما رابعها فهو علم الهيئة ، وهو تعيين الأشكال للأفلاك ، وحصر أوضاعها وتعددها لكل كوكب من النجوم السيّارة والقيام على معرفة ذلك من قبل الحركات السماوية المشاهدة الموجودة لكل واحد منها سواء الثابتة منها أو المتحركة أو المتحيّرة . ومن فروع العلوم الطبيعية علم الطب ، ومن فروع علم العدد علم الحساب والفرائض والمعاملات ، ومن فروع علم الهيئة علم الأزياج وهي قوانين لحساب حركات الكواكب وتعديلها للوقوف على مواضعها متى قصد ذلك[٦٨] .

ويخلص ابن خلدون إلى القول إن المسلمين بدأوا يتشوّقون إلى الاطلاع على هذه العلوم ويدرسونها ويتفننون فيها[٦٩] وخصوصاً العلوم الحكمية ، فقد ازدادوا حرصاً على الظفر بها وانتساخها بالخط العربي وعكف عليها النظّار من

المسلمين وحذقوا فنونها وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها وخالفوا كثيراً من آراء علماء اليونان ، فنبغ من طلبة المسلمين من شهر في جميع البلاد الإسلامية ، إذ اختص هؤلاء بالشهرة في علومهم وذكرهم وكانت لكل عالم إسلامي متبحر في الفلسفة والعلوم من هؤلاء العلماء ، طرقه وأساليبه في الاطلاع والأخذ والاستخراج والتفنن ، وكذلك في إبلاغها ونشرها وتدريسها لتلاميذهم وللطلبة من أهل العلم الذين يفدون من البلاد التي يذكرها مثل العراق وخراسان ومصر والمغرب والأندلس ، حتى ينتهي إلى القول . « إن هذه العلوم أسواقها نافقة ورسومها هناك متوفرة وطلبتها متكثّرة »[٧٠] .

وأخيراً يلقي ابن خلدون الضوء على مسألة أكثر أهمية في الفكر التربوي العربي الإسلامي ، وذلك منذ عصر النهضة في الإسلام (القرن الرابع الهجري) حتى أيامه بداية القرن التاسع الهجري وربما تنسحب أهميتها في الوقت الحاضر ، وهي استخدام العربية في تلقين العلوم والمعارف والانصراف اليها وتعلّمها ، فالعربية لها اصطلاحاتها ومسّمياتها ، وهي تختلف عما جاء عن هذه العلوم في لغات الأقوام الأخرى وخصوصاً اليونانية . ان العربية تحكم التعبير في أفكار العلوم العقلية وتعطيها صورة الحبك والتثبيت والتفتيح[٧١] . ويوضح ابن خلدون بهذا الخصوص ، أن أهل صناعة العربية ومعلميها الأندلسيين في العلوم أقرب الى تحصيل القدرات والإمكانات على هذا الحبك والتثبيت والتفتيح من سواهم معلمي العلوم من أهل صناعة العربية في البلاد الإسلامية الأخرى ، وذلك لقيامهم بها على شواهد العرب في تراكيب طرق تعليمهم وأساليبهم ، فيسبق الى المبتدىء والمتعلم لهذه العلوم والفنون ، كثير من الملكة العلمية أثناء

---

(٦٨) المقدمة ، ص ٤٧٩
(٦٩) م . ن . ، ص ٤٨٠
(٧٠) م . ن . ، ص ٥٦٠
(٧١) م . ن . ، ص ٥٦١

تلقيهم التعليم فتنقطع النفس لها وتستعد الى تحصيلها وقبولها . وأما من سواهم من أهل المغرب وإفريقية وغيرهم من أهل المشرق ، فأجروا صناعة العربية مجرى العلوم بحثاً وقطعوا النظر في تراكيب كلام العرب في العلوم . والمتعلم على حد قوله ، أحسن ما تفيده الملكة العلمية في اللسان هو المران منذ الصغر وأن يأخذ ، بعد أن يشب ، تلك القوانين التي هي وسائل للتعليم المتخذة لإتقان العلوم والتوفر على اصطلاحاتها ، وليس كما يفعل بعض المتعلمين لإدراك العلوم ، بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه ويتنزل بذلك من نشأ معهم وخالط عباراتهم في كلامهم ولكن ليس في لغتهم وأساليبهم ، ويقول كذلك ، إن تلك القوانين إنما هي وسائل للتعليم ، لكنهم أجروها على غير ما قصد بها وأصاروها علماً بحتاً وبعدوا عن ثمرتها وتعلّمها[٧٢] .

وهكذا يقدم ابن خلدون ، عرضاً مهّماً في تاريخ التربية والتعليم في العالم الإسلامي خلال عصره ، وفي طرق التعليم وأساليب التلقي للعلوم الدينية ، والعقلية ، يدعمه بآرائه في كثير من المسائل التربوية ويوضح معالجتها بسداد وإدراك ، حتى اننا يمكن أن نعّد الكثير مما أدلى به في هذا الخصوص ، فانه اتجاهات تربوية متميّزة تحظى باهتمام علماء التربية والنفس في الوقت الحاضر وتستجيب للنظريات والقوانين والأسس والأفكار التربوية والتعليمية الحديثة والمعاصرة .

***

٧٢- المقدمة ، ص ٥٦١

بعض الكتب التي يمكن الرجوع اليها في معرفة ابن خلدون

أ ـ اللغة العربية :

١ ـ مقدمة ابن خلدون ، مطبعة الكشاف ، بيروت (وعنها نقلت النصوص المذكورة في هذا البحث) .

٢ ـ أعمال مهرجان ابن خلدون ، القاهرة ، ١٩٦٢ (منشورات المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية . بحوث نخبة من الاختصاصيين والمهتمين في التاريخ والاجتماع والفلسفة) .

٣ ـ ابن خلدون ، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا « وشرقا » ، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، ١٩٧٩ .

٤ ـ ساطع الحصري ، دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، مكتبة الخانجي ، مصر ١٩٦١ .

٥ ـ محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون ، حياته وتراثه الفكري ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

٦ ـ د . علي عبد الواحد وافي ، ابن خلدون ، مكتبة نهضة مصر .

٧ ـ د . علي الوردي ، منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته ، معهد الدراسات العربية العالمية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

٨ ـ مهرجان ابن خلدون ، الرياض ، دار الكتاب ، دار البيضاء ، ١٩٦٢ .

٩ ـ د . علي عبد الواحد وافي ، مقدمة ابن خلدون ، الطبعة الاولى ، لجنة البيان العربي ، ١٩٥٧ .

١٠ ـ ابن خلدون ، قائمة بمؤلفاته وبعض المراجع التي كتبت عنه لمناسبة المهرجان العلمي الذي نظمه المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

١١ ـ د . علي عبد الواحد وافي ، ابن خلدون منشيء علم الاجتماع ، القاهرة ـ مكتبة نهضة مصر .

١٢ ـ د . احمد محمد الوفي ، مع ابن خلدون ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٢ .

١٣ ـ محمود الملاح ، دقائق وحقائق من مقدمة ابن خلدون ، بغداد ، ١٩٥٥ .

١٤ ـ د . طه حسين ، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٢٥ .

١٥ ـ د . عمر فروخ ، كلمة في ابن خلدون ومقدمته ، بيروت ، ١٩٥١ .

١٦ ـ ابن خلدون ، لباب المحصل في اصول الدين (نشره الاب لوسيانو روبيو ، تطوان ، دار الطباعة المغربية ، ١٩٥٢) .

١٧ ـ ابن خلدون ، شفاء السائل لتهذيب المسائل . عارضه باصوله محمد بن تاويت الطنجي ، استنبول، منشورات كلية الآداب، ١٩٥٧ ، نشره الاب اغناطيوس خليفة ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٥٦ .

١٨ ـ مهرجان ابن خلدون . (أيار ١٩٦٢) نظمته كلية الآداب بجامعة محمد الخامس ـ الدار البيضاء (دار الكتاب) .

١٩ ـ الاب يوحنا قمير ، مقدمة ابن خلدون ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٤٧ .

٢٠ ـ رضوان ابراهيم ، المختار من كتاب مقدمة ابن خلدون ، من منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

٢١ ـ د . عبد الرحمن بدوي ، مؤلفات ابن خلدون ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

٢٢ ـ د . عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربي الى ايام ابن خلدون ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨١ .

٢٣ ـ د . محمد جابر العابدي ، فكر ابن خلدون ، العصبية والدولة في التاريخ الإسلامي ، دار الطليعة ، بيروت ط ٢ ، ١٩٨٢ .

٢٤ ـ محمود عبد المولى ، ابن خلدون وعلوم المجتمع ، تونس ، الدار العربية للكتاب ، ١٩٧٦ .

٢٥ ـ جوشون بوتول ، ابن خلدون ، فلسفة اجتماعية ، القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف ، ١٩٦٤ .

٢٦ ـ عمارة بن علي اليمني ، ابن خلدون . (المختصر المنقول من كتاب العبر لابن خلدون وهو كتاب تاريخ اليمن) باللغتين العربية والانجليزية ، لندن ، مطبعة كلبرت ـ ١٣٠٩ هـ .

ب ـ الاجنبية

1. Berque (Jacques) : La Connaissance au temps d'Ibn Khaldoun. (Contributions a la sociologie de la connaissance) : Chaiers du Laboratoire de sociologie de la Connaissance. 1st ed., anthropas Paris, 1967.

2. Bouthoul (G) : Ibn Khaldoun, Sa Philosophie Sociale Paris, 1930.

3. Hussein (T) : Etude analytique et critique de la philosophie sociale d'bn Khaldoun. Paris, 1917.

4. Lacoste (Y) : Ibn Khaldoun, naissace de l'historie, Passe da tiers-monde. F. Maspero, Paris, 1960.

5. LaHbabi (M.A.) : Ibn Khaldoun. ed. sechers, Paris, 1968.

6. Nassar (N) : La pensee vealiste d'ibn Khaldoun, P.U.P. Paris, 1967.

7. Schemidt, Nahaniel, Ibn Khaldoun Historian, Sociologist, and philosophen (New York : Columbia University Press, 1930).

* * *

شخصيات وآراء

الفلسفة الثنائية عند زكي نجيب محمود

إمام عبد الفتاح إمام
كلية الآداب - جامعة الكويت

تمهيد :

في ظني أن معظم الأخطاء التي وقع فيها كل من أراد أن يقيّم فكر زكي نجيب محمود ، إنما يرجع إلى سبب رئيسي واحد هو عدم متابعة تطوره الفكري والاكتفاء بالنظر إليه من خلال الوضعية المنطقية وحدها ، ومن ثم اعتباره : « صاحب مدرسة فلسفية يثابر على إشرائها وتدعيمها منذ سنوات في إخلاص ودأب وأناة . . »[1]. وما دمنا قد حكمنا عليه بأنه صاحب مدرسة فمن الطبيعي أن تعارضه « المدارس الأخرى » سواء أكانت يسارية كالماركسية أو يمينية كالسلفية المتزمتة - وأن ينظر إليه أصحاب اليمين وأصحاب اليسار جميعاً ، وكأنه لم يفعل شيئاً سوى نشر الدعوة التي يقوم عليها مذهبه ، وتثبيت دعائمها ، على نحو ما يفعلون هم أنفسهم : « حتى استطاع أن ينمّي حوله تياراً فكرياً مستمداً من أصول هذه الفلسفة وأن يدعمه بالمقالات والمحاضرات والكتب »[2]. ومن هنا كان نقد الوضعية المنطقية يعني ، في الحال ، نقداً لزكي نجيب محمود ، حتى وإنْ اعترف فريق من أصحاب هذا النقد أنه أنشأ مدرسة خاصة في داخل المدرسة الوضعية المنطقية »[3]. أو اعترف غيرهم أن الدور الذي لعبه زكي نجيب محمود في ثقافتنا يختلف عما تقوم به الوضعية المنطقية في بلاد أخرى كانجلترا أو أمريكا وغيرهما من البلدان المتقدمة التي لا يمكن أن نقول إن هذه الفلسفة تقوم فيها بعملية تنويرية . أما عندنا . . « فقد كان التصدي للخرافات الغيبية بالنقد شرطاً لكل نقد في بلادنا فيما بدأت علاقات العالم القديم تسير في الاضمحلال (وقام فيها زكي نجيب محمود بدور بارز) فألحقت سهام نقده ضرراً فادحاً بالقيم الرجعية . . فضلاً عن أنه لم يتهاون طوال

(١) محمود أمين العالم « معارك فكرية » ص ١٤ دار الهلال عام ١٩٧٠ ط ٢

(٢) المرجع نفسه ، في الصفحة نفسها .

(٣) د . يحيى هويدى ، الفلسفة الوضعية المنطقية في الميزان ص ٣٠ - ٣١ - مكتبة النهضة ١٩٧٢ .

فترة ليست بالقصيرة مع الكهانة الجاهلة في الكثير من المسائل العلمية ، ووجهت إليه أحجار الاتهامات الطائشة ، بخلاف الحال مع ممثلي الوضعية المنطقية في شروط اجتماعية مختلفة . . »[٤].

ومع ذلك كله فقد أصبح من المألوف أن تصادفك في مجال الدراسات التي تتصدى لبحث الفلسفة في العالم العربي « كليشيهات » أقرب إلى المسلمات بأن الرجل يحمل لواء الوضعية المنطقية فحسب ، وأنه أكبر داعية لها ، وهذا هو كل دوره في حياتنا الثقافية . . « من المؤكد أن زكي نجيب محمود هو أبرز ممثل لهذا التيار في الوطن العربي . . »[٥]. وكأن المسألة أصبحت بديهية لا تحتاج إلى شرح أو تفسير فقد صدر الحكم وانتهى الأمر بأنه ممثل الوضعية المنطقية وحامل أختامها ووكيل أعمالها لا أكثر ولا أقل ! فإذا ما كُتبت عنه أطروحة أكاديمية فانها تستهدف دراسة « الوضعية المحدثة وفلسفة زكي نجيب محمود »[٦]. إذ أنه : « إلى هذا الاتجاه الفكري تقدم الدكتور زكي نجيب محمود بطلب انتساب ، وأصبح ممثله في الفكر العربي . . »[٧] وعلى هذا النحو يسير معظم الكتاب على اختلاف مذاهبهم ، واتجاهاتهم الفكرية ، لا نستثني من ذلك أولئك الذين لم يدركوا الفرق بين الوضعية المنطقية والمذهب الوضعي الفرنسي الذي وضعه أوجست كونت (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) في منتصف القرن الماضي فخلطوا بينهما على نحو ينمّ عن جهل فاضح ثم اتهموا مفكرنا بأنه على صلة « بالاستعمار الغربي » مثله مثل طه حسين وعلي عبدالرزاق ومن لفَّ لفهما[٨].

والخلاصة أن كل ما يعلمه نقادنا ـ للأسف الشديد عن زكي نجيب محمود عندما يرد ذكر اسمه ـ أنه صاحب « خرافة الميتافيزيقا » التي صدرت عام ١٩٥٣ أي منذ ما يقرب من نصف قرن ـ أما زكي نجيب محمود الميتافيزيقي الذي كتب في بداية الأربعينيات بحثاً عن حرية الارادة أخذ فيه بنظرية الجبر الذاتي Self-Determination وهي نظرية ميتافيزيقية في صميمها[٩] ـ فهم لا يعلمون عنه شيئا ، لأنهم لم يشغلوا أنفسهم بدراسة الجوانب المختلفة لتطوره الروحي ـ إنهم يعرفون جيداً زكي نجيب محمود « صاحب المنطق الوضعي » الذي صدر عام ١٩٥١ ـ أما زكي نجيب محمود المفكر التنويري الذي كتب منذ « الشرق الفنان » عام ١٩٦٠ ما يقرب من عشرين كتاباً تدور كلها حول بعث الفكر العربي وتجديده فإنهم لا يعلمون عنه شيئا ـ وما حاجاتهم إلى مثل هذه المعرفة ، وقد حبسوا فكره في قوالب محددة واضحة وسهلة هي قوالب الوضعية المنطقية على نحو ما يفهمها أصحابها في انجلترا والولايات المتحدة ؟! وفي استطاعتهم بعد ذلك أن

---

(٤) ابراهيم فتحي في تقديمه القيم لكتاب « نقد العقل الوضعي » ص ١٨ من تأليف د . عاطف أحمد أصدرته دار الطليعة في بيروت عام ١٩٨٠ .

(٥) د . أحمد ماضي « الوضعية المحدثة والتحليل المنطقي في الفكر الفلسفي العربي المعاصر » ص ١٧١ بحث في « الفلسفة في الوطن العربي المعاصر » بحوث المؤتمر الفلسفي العربي الأول أصدرها مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت عام ١٩٨٥ .

(٦) رسالة ماجستير للدكتور أحمد ماضي ـ وانظر فصلا بنفس العنوان في رسالته لدرجة الدكتوراه ـ وقارن بحثه السالف الذكر ص ١٧٢ .

(٧) الدكتور عاطف أحمد « نقد العقل الوضعي : دراسة في الأزمة المنهجية لفكر زكي نجيب محمود » ص ٣ ع دار الطليعة بيروت ١٩٨٠ ـ وعنوان الكتاب يدل في الحال على منظور الكاتب ـ رغم وجود ومضات جميلة في تقديم الاستاذ ابراهيم فتحي لهذا الكتاب .

(٨) الدكتور محمد البهي « الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي » وقد خصص فيه فصلا لمناقشة الدكتور زكي بعنوان « الدين خرافة » ص ٢٩١ دار الفكر بيروت ١٩٧٠ .

(٩) قارن مثلا ما يقوله هرمان راند (من أن هذا الحل لمشكلة حرية الارادة الذي يوحد بين الارادة وبين الجبر الذاتي في هوية واحدة هو الحل الكلاسيكي الذي يقول به المثاليون ويرفضه الطبيعيون .

j.H.Randall: Philosophy: An Introduction P. 237, Barnes & Noble,N. Y. 1942

وتوجد جذوره عند اسبنوزا

ينهالوا عليها نقداً وتجريحاً مستخدمين انتقاد الماركسيين الانجليز على وجه الخصوص ! وكأنه لا فارق بين ما فعله مفكرنا وما فعله كارنب آير وغيرهما !

ولو أن الرجل أراد أن يكوّن مدرسة ، كما يزعم هؤلاء النقاد ، تنشر مبادىء الوضعية المنطقية ، وتترجم نصوصها وتروّج أفكارها لوجد عشرات من تلاميذه على استعداد تام للقيام بمثل هذا الدور منذ زمن بعيد(١٠) لا سيما وأن كل من تتلمذ على يديه لم يستطع أن يفلت من سيطرته القوية على عقول الشباب منذ اللحظة التي بدأ فيها التدريس بالجامعة . فهذا واحد من ألمع مفكرينا يصف تأثيره عليه عندما كان تلميذاً له في أواخر الأربعينات فيقول : « الحق أن أصدق وصف ينطبق على التأثير العميق الذي تركه أستاذنا في تلاميذه هو ذلك الذي أطلقه الفيلسوف الألماني ايمانويل كانط على التغيير الذي أحدثته في عقله كتابات فيلسوف انجلترا الأكبر : ديفيد هيوم وذلك حين قال : لقد أيقظني هيوم من سبات اليقين الجازم الذي لا يتشكك في شيء . ولقد كان هذا بعينه هو ما أحدثته محاضرات الدكتور زكي في عقولنا ، ونحن في منتصف تعليمنا الجامعي . . »(١١). معنى ذلك أن أثره في تلاميذه كان قوياً وعارماً : « فمن وراء مظهره الهادىء وصوته الخفيض إعصار مدمر . . ! »(١٢) وتلك شهادة يعلنها تلاميذه في كل مكان فلو أنه أراد أن يكوّن مدرسة ، كما يقول أصحاب النقد المتسرع ، لوجد من تلاميذه مَنْ يؤلف ومَنْ يترجم ، ومَنْ ينقل الوضعية المنطقية بشتى زواياها وأبعادها إلى الثقافة العربية ـ لكنه لم يفعل بل كانت معظم الرسائل الأكاديمية التي أشرف عليها إبان أستاذيته بالجامعة ـ تدور حول موضوعات فكرية لا علاقة لها بالوضعية المنطقية(١٣) ! . وهذا يدل على أن اهتمامه بهذا المذهب كان لأسباب تنويرية في المقام الأول ، فهو من المذاهب التي شنت حرباً لا هوادة فيها على الخرافة ، وهو من أقرب المذاهب إلى العلم والتفكير العلمي ، وهو في النهاية منهج ـ لا يتقيد ، بمضمون معين .

ولعل سوء الفهم الواسع لفكر هذا الرجل ـ وما ترتب عليه من نظرات ضيقة بَعدتْ تماماً عن تقديره تقديراً سلبياً ـ هو الذي اضطره إلى أن يعلن أكثر من مرة توضيحاً لموقفه للذين لم يفهموا الدور الذي يريد للوضعية المنطقية أن تقوم به فيقول : « لقد كنتُ لسنوات طوال مخطئاً بين مخطئين لأنني كنتُ بدوري أتعصبُ لتيار فلسفي معينّ على ظن مني بأن الأخذ به يقتضي رفض التيارات الأخرى ، لكني اليوم ـ مع إيماني السابق بأولوية فلسفة التحليل على ما عداها من فلسفات عصرنا ـ أومن كذلك بأن الأمر بين هذه الاتجاهات الفلسفية إنما هو أمر تكامل في نهاية الشوط »(١٤). لم يقرأ أصحاب الأحكام المبتسرة السابقة عبارة كهذه ، وهي ليست بالقطع تبرؤاً من المذهب الوضعي المنطقي ـ أو التجريبية العلمية كما يحلو له أن يسميها ـ أو تنصلاً منه وإنما هو إعلان بأن المسألة ليست تعصباً لمذهب ، إنه تصريح ضمني بأنه استفاد من هذا المذهب ، وأنه وظّفه « لصالح الفكر التنويري »(١٥)،

---

(١٠) قارن مثلا « مقالنا : « زكي نجيب محمود كما عرفته » ـ في الكتاب التذكارى الذى أصدره قسم الفلسفة بجامعة الكويت ص ٥٧ .

(١١) د . فؤاد زكريا في تقديمه للكتاب التذكارى الذى أصدره قسم الفلسفة بآداب الكويت تحية للدكتور زكى في عيد ميلاده الثمانين ـ انظر ص ٣ .

(١٢) المرجع السابق .

(١٣) كانت رسالة كاتب هذه السطور عن « المنهج الجدلى عند هيجل » ـ رسالة د . محمود زيدان عن « وليم جيمس » ـ ورسالة فرحات عمر عن « القانون العلمى » ، والمرحوم الدكتور عزمى إسلام عن « جون لوك » ، ود . أحمد فؤاد كامل عن « ليبنز » . . الخ الخ

(١٤) « هموم المثقفين » ـ ص ٤٥ ـ ٤٦ (صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام ١٩٨١) .

(١٥) قارن « قصة عقل » ـ ص ٩٢ و ص ٩٤ . . الخ .

وأنه تجاوزه بعد أن تطور فكره وصقلته التجارب : « علمتني خبرة السنين ـ بين ما علمتني ـ أن من أخطر مزالق الفكر أن أقيّد نفسي في حدود إطار مذهبي ، تقييداً يجعلني أرجع في كل أموري إلى مبادىء مذهب معين ، فما وجدته متفقاً مع تلك المبادىء قبلته ، ومالم يتفق معها رفضته ، وذلك لأن الخبرة علمتني أن تيار الحياة أغزر جداً من أن يُلّم به مذهب واحد بعدد قليل من المبادىء والقواعد ، ولذلك كان من التطور الطبيعي في حياتي الفكرية ـ دون أن أتعمد شيئاً عن تخطيط وتدبير ـ أن أجدني قد اتخذتُ لنفسي في اتجاهات الفلسفة المعاصرة إتجاهاً هو في حقيقته « منهج للتفكير » ، لا « مذهب » يورط نفسه في مضمون فكري بذاته ، فكنتُ كمن وضع في يده ميزاناً يزن به ما يشاء ، دون أن يملأ يديه بمادة معينة لابد أن تكون هي وحدها موضع الوزن والتقدير . . »(١٦).

لم تكن الوضعية المنطقية ، إذن ، سوى مرحلة في فكر زكي نجيب محمود ، توقف عندها قليلا ، وتأملها طويلا ، ودرسها بعمق كيما يستفيد منها في هدف أعلى هو المهمة التنويرية التي يقوم بها(١٧). ومن ثمَّ فإننا نسيء فهمه أولا ، ونظلمه ثانيا ، ونغفل الدور الكبير الذي قام به ثالثا ، إذا ما توقفنا عند هذه المرحلة ، أو حكمنا على دوره من خلالها فحسب ، بل إن على الباحث الجاد ، إذا أراد أن يكون منصفا لهذا المفكر ، أن يتتبع تطوره الروحي محاولاً أن يضعه في مكانه الصحيح من خارطة النهضة الثقافية العربية ، وبين كبار مفكرينا التنويريين الذين قاموا بهذه النهضة منذ أوائل القرن الماضي وحتى يومنا الراهن . . ! ومن ثمَّ فلا مندوحة لنا عن القيام بعرض سريع لمسار نهضتنا التي بدأت مع الحملة الفرنسية الى أن نصل إلى « زكي نجيب محمود » المفكر والأديب لنتعرف على إسهاماته في هذه النهضة .

مسار النهضة :

إذا كان المؤرخون الغربيون يحددون النهضة الأوربية بسقوط القسطنطينية عام ١٩٥٣ على يد الأتراك العثمانيين ، بعد أن فتحها محمد الثاني الملقب بمحمد الفتح ـ فإننا نستطيع أن نحدد « نهضتنا العربية » بغزو الغرب ـ هذه المرة للشرق على يد نابليون بونابرت وسقوط الاسكندرية عام ١٧٩٨ أو قبيل فاتحة القرن التاسع عشر بسنتين(١٨). منذ ذلك التاريخ بدأ عصر نهضتنا الذي لازلنا نعيشه حتى يومنا الراهن دون أن نتجاوزه إلى ما يمكن أن نسميه في تاريخنا « بالعصر الحديث » . غير أن هذه الفترة الطويلة ـ التي طالت أكثر مما كان ينبغي لها ، لم تكن كلها مسطحاً واحداً متصلاً ـ بل كانت متدرجة في مستويات ثلاثة كل منها يرتفع على سابقه بدرجة ، كالعمارة الاسلامية حين كانت تجعل الطابق الثاني من البناء أوسع رقعة من الطابق الأول ، ثم تجعل الطابق الثالث أوسع رقعة بدوره من الطابق الثاني ، فبرغم ما بين الطوابق الثلاثة المتعاقبة من استمرارية تجعلها عمارة واحدة كانت بينها فروق في السعة كل منها أوسع منْ سابقه(١٩).

---

(١٦) مجتمع جديد أو الكارثة ص ٢٤٦ ،

(١٧) وفي جميع الحالات يصعب أن نقول عنه انه « كان داعية الى الوضعية المنطقية التى نذر نفسه لشرحها وتفصيلها وتبسيطها . وأنه أمضى معظم حياته داعيا الى الوضعية المنطقية والى عقلانية عربية جديدة ، وأنه نجح في تأسيس مدرسة وضعية منطقية عربية واسعة الانتشار . . » الموسوعة الفلسفية العربية ـ المجلد الثاني ص ١٣ بيروت عام ١٩٨٩ .

(١٨) لاحظ أن هذه النهضة العربية لم تبدأ في الوطن العربي كله دفعة واحدة وفي وقت واحد ـ وتلك كانت الحال أيضا في النهضة الأوربية ، اذ بدأت أولا في ايطاليا ، ومنها انتشرت الى فرنسا وأسبانيا وألمانيا ـ الخ ـ بل ربما كان في استطاعتنا أن نقول إن بعض الأقطار العربية لم تبدأ في الخروج من العصور الوسطى الا منذ سنوات قليلة ! .

(١٩) مجتمع حديد أو الكارثة ص ٦٢

وكان كل مستوى من تلك المستويات الثلاثة في مسار نهضتنا ينتهي بثورة تنقلنا إلى المستوى الأعلى ، لكن تلك الثورة كانت تجيء نتيجة لازمة للمخاض الفكري السابق عليها ، فثورة عرابي هي نهاية المرحلة الاولى ، وثورة ١٩١٩ هي نهاية المرحلة الثانية ، وثورة ١٩٥٢ هي نهاية المرحلة الثالثة .

فما هي هذه المستويات الثلاثة ؟ وكيف كان مسار نهضتنا منذ بدأت حتى الآن ؟! وأين يوضع فكر زكي نجيب محمود في هذا المسار ؟!

المستوى الأول :

عندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر كان العالم الإسلامي عامة ، والوطن العربي خاصة يعيش : « ظلمة حالكة ومحنة شاملة وجهل مطبق وظلم فادح وفقر مدقع » على حد تعبير أحمد أمين[٢٠] . ولقد وصف مسيو « قولني Volney » السائح الفرنسي الذي زار مصر والشام ـ هذه البلاد في آخر القرن الثامن عشر بقوله : « إنَّ الجهل في هذه البلاد عام وشامل مثلها مثل سائر البلاد التركية يشمل الجهل كل طبقاتها ، ويتجلى في كل جوانبها الثقافية من أدب وعلم وفن ، والصناعات فيها في أبسط حالاتها ، حتى إذا فسدت ساعتك لم تجد مَنْ يصلحها إلا أن يكون أجنبياً »[٢١] . . ويتحدث غيره عن الذين بلغوا من العلم مرتبة القراءة والكتابة فيقول : « إنَّ مصر حين وليها محمد علي لم يكن بها أكثر من مائتين يعرفون القراءة والكتابة ، باستثناء الكتبة من القبط . . »[٢٢]! وقل مثل ذلك بالنسبة لبلاد الشام ، إذ يذكر « بورنج » أنه لم يكن في دمشق أو حلب بائع كتب واحد[٢٣]! . حتى إن الحكومة المصرية تخشى تعليم الرياضة والطبيعة وتستفتي شيخ الأزهر « هل يجوز تعليم المسلمين العلوم الرياضية كالحساب والهندسة » ؟! فيجيب الشيخ في حذر « يجوز مع بيان النفع من تعلمها » كأن هذه العلوم لم يكن للمسلمين عهد بها ولم يكونوا من مخترعيها وذوي التفوق فيها »[٢٤] . على هذا النحو كان الوطن العربي منعزلا منغلقاً على علوم العصور الوسطى يحفظ بعض الكتب ويجبرها ويكتفي بتقديم شرح على متن أو حاشية على شرح ! ولم يكن بينه وبين الشعوب الأوربية اتصال في جوانب الثقافة أو الصناعة أو نظم الحكم ـ الخ حتى جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر تحمل معها صوراً جديدة وأفكاراً وقيماً جديدة ، فأسهمت في كسر الحاجز الذي بناه العثمانيون من الخرافات والشعوذة حول عقول الشرقيين[٢٥] . ومن المصادفات الغريبة أن ينسحب الجيش الفرنسي في ١٥ أكتوبر عام ١٨٠١ ـ وهو نفس اليوم الذي ولد فيه رفاعة الطهطاوي رائد النهضة الحديثة !

كان رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ ـ ١٨٧٣) هو باذر البذور في المرحلة الاولى ، وهي البذور التي أخذت تنبت نباتها حتى استنفدت طاقاتها فجاءت خاتمتها ثورة عرابية ـ والبذور التي بذرها إنما هي فكرة الحرية في صورة الجنينية الاولى ، وهذه الفكرة هي المعيار الدقيق

---

(٢٠) ـ أحمد أمين « زعماء الاصلاح في العصر الحديث » ص ٦ مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٧٩ ط ع .

(٢١) المرجع نفسه .

(٢٢) د . حسين فوزى النجار « رفاعة الطهطاوى » ص ٢٩ (اعلام العرب ـ القاهرة) ويرى د . محمد عمارة في تعليقه على هذه الأرقام أنها تتحدث عن القاهرة فحسب إذ لم يكن هناك احصاء لاسيما بالنسبة لمن تعلموا القراءة في الكُتاب في الريف ـ انظر كتابه « رفاعة الطهطاوى : رائد التنوير في العصر الحديث » ص ٩ حاشية ١ .

(٢٣) ـ المرجع السابق ص ٢٩ .

(٢٤) ـ أحمد أمين « زعماء الاصلاح » ص ٧

(٢٥) ـ د . محمد عمارة : « رفاعة الطهطاوى » ص ١٣ .

لقياس درجات صعودنا فكلما ازدادت الحرية عمقاً ، ازداد ارتفاعنا على طريق النهضة درجة بعد درجة[٢٦]. ويكتب الطهطاوي في كتابه « المرشد الأمين للبنات والبنين » فصلاً بعنوان : « في الحرية العمومية والتسوية بين أهالي الجمعية » ـ أي في الحرية العامة والمساواة بين أبناء المجتمع ـ وهو يُقسّم هذه الحرية خمسة أقسام : طبيعية في المأكل والمشرب ، وسلوكية في إطار الأخلاق ، ودينية تكفل حرية العقيدة ، ومدنية تُنظّم التعامل بين الناس ، وسياسية وهو أن تكفل الدولة للمواطن الحريات السابقة .

فالحرية السياسية لم تكن تعني عنده مشاركة الشعب في الحكم فذاك أمل بعيد المنال ! على أن هذه الحريات تتضمن « المساواة » فهي تنصرف إلى جميع المواطنين على حد سواء ، لم يفرق بين رجل وامرأة ، ومن ثَم يمكن اعتباره أول من دعا إلى حرية المرأة دعوة انتهت إلى ذروتها عند قاسم أمين . كما أنه كان أول مَنْ بشرَّ بالديمقراطية السياسية التي صاغها فيما بعد أحمد لطفي السيد (١٨٧٢ ـ ١٩٦٣) بل كان الطهطاوي بمثابة الصيحة الاولى « نحو الإصلاح الزراعي » بالمعنى الاشتراكي الذي نفهمه اليوم ، عندما كتب فصلا عنوانه « مطلب في تقسيم الأرض بين مالكها وزراعها » : « ينحو فيه باللائمة على مُلّاك الأرض الذين لا يعطون الأهالي إلا بقدر الخدمة والعمل ، وعلى مقدار ما تسمح به نفوسهم في مقابل المشقة ! »[٢٧].

وفي نفس هذه المرحلة ظهر جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩ ـ ١٨٩٧) ليجد التربة المصرية قد أصبحت صالحة للثورة بفضل التنوير الذي أحدثه الطهطاوي بتعاليمه : « لقد جرّب الأفغاني أن يبذر بذوراً في فارس والاستانة ، فلم تنبت ثم جرّبها في مصر فأنبتت . . »[٢٨]. ثماني سنوات قضاها الأفغاني في مصر (من مارس ١٨٧١ حتى أغسطس ١٨٧٩) كانت من خير السنين بركة على مصر وعلى العالم الشرقي ، لأنه كان يدفن في الأرض بذوراً تتهيأ في الخفاء للنماء ، وتستعد للظهور ثم الإزهار فما أتى بعدها من تعشق للحرية وجهاد في سبيلها فهذا أصلها »[٢٩].

والأفغاني ، إلى جانب اهتمامه بفكرة « الحرية » يهتم أيضاً بفكرة صاحبتها منذ بداية النهضة حتى الآن وأعني بها « الأحكام إلى العقل » فيؤلف رسالة في الرد على الدهريين (أو الماديين) يحتكم في كل خطوة من خطوات السير إلى ما ظنَّ أنه حجة عقلية فهو مثلا يحاول البرهنة على أن نظرية التطور تقوم على الصدفة على حين أن نظام الكون نظام مدبر ، ولا يجوز عند العقل أن تلد المصادفات العمياء مثل هذا النظام المحكم ، كما أن نظرية التطور تجعل اللامتناهي ينتج عن المتناهي ، وهو مالا يجوز عند العقل . . . الخ[٣٠].

لكن الأفغاني ، وإنْ يكن قد اضطلع بدوره على الضوء الذي ألقاه رفاعة الطهطاوي من قبله ، فقد ارتفع بفكرة الحرية على المستوى الأول نفسه ، عندما نقل الولاء للحاكم الذي افترضه الطهطاوي ليجعله ولاء للشعب[٣١].

(٢٦) مجتمع جديد أو الكارثة ص ٦٣ .

(٢٧) ـ مجتمع جديد أو الكارثة ص ٦٤ .

(٢٨) ـ أحمد أمين « زعماء الاصلاح » ص ٦٨ .

(٢٩) ـ المرجع السابق .

(٣٠) ـ من زاوية فلسفية ص ١٠ .

(٣١) ـ مجتمع جديد أو الكارثة ص ٦٤ .

وهكـذا اشتدت الإرهـاصات الفكـرية في المـرحلة الأولى حتى تمخضت آخـر الأمر عن ثـورة عـرابي التي كانت أول ثورة رفعت شعـار مصر للمصـريين ، وإنْ كانت قد اكتفت بازالة الحرمان عن المصـري دون أن تشكك في حقوق الفئـات الأخرى الـدخيلة من أتراك وجراكسة ![٣٢] .

المستوى الثاني :-

انتهت ثورة عرابي بدخول المستعمر البريطاني مصر عام ١٨٨٢ لتبدأ المرحلة الثانية في مسار نهضتنا الحديثة ـ وهنـا يظهـر على المسـرح عمالقـة يشـدون الأبصـار والأسـمـاع : الامـام محـمـد عـبـده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥)[٣٣] . يناضل ليحرر حياتنا الدينية مما عَلِقَ بها من خرافة ، ولينجو بعقول الناس من ظلمة الجهل ، غير أن أهم ما عني به هو توضيح العقائد الأساسية في الاسلام توضيحا يُبيِّن استنادها الى منطق العقل فتراه في كتابة « الاسلام والنصرانية » يفصل القول في الأصول التي يقوم عليها الاسلام ، ويجعل الأصـل الأول لهذا الدين هو « النظر العقلي » يقول « أول أساس وضع عليه الاسـلام هو النـظر العقلي ، والنـظر عنده هـو وسيلة الايمان الصحيح ، فقد أقامك منه على سبيل الحجة ، وقاضاك الى العقل ، ومَنْ قاضاك الى حَاكم فقد أذعن الى سلطتـه ، فكيف يمكنـه بـعـد ذلـك أن يثـور عليـه ؟ ! »[٣٤] . أما الاصـل الثـاني لـلاسلام فهـو « تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض ، فقد اتفق أهل المِلّة الاسلامية على أنـه إذا تعارض العقـلُ والنقـل أُخـذ بمـا دلَّ عليـه العقـل ، وبقى في النقـل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بـالعجز عن فهمـه وتفويض الأمـر الى الله في علمه . والطريق الثاني تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل . . »[٣٥] .

وعلى المسرح ظهر من العمالقة قاسم أمين (١٨٦٥ ـ ١٩٠٨) بدعوته الى تحرير النصف المستبعد من الأمة أعني المستعبد مرتين : فهو أولا مستعبد من الرجل ثم هو والرجل مستعبد ان للمستعمر ! كما ظهر مصطفى كامل (١٨٧٤ ـ ١٩٠٨) بزعامته السياسية التي اتجهت نحو تحرير البلاد من المستعمر . وأحمد لطفي السيد (١٨٧٢ ـ ١٩٦٣) وإصراره على أن تُقَيـد الحكومـة سلطانها ، بحيث لا تسيطر الا على ما تدعو الضرورة الى سيطرتها عليه وهي ثلاثة : الجيش ، والشرطة ، والقضاء . وفيما عدا ذلك من المرافق والمنافع فالولاية للأفراد والمجاميع الحرة ! وكان من أبرز مبادىء الحركة اللبرالية التي قادها لـطفي السيد مبـدأ : أن تكـون السيـادة للقـانـون لا للأشخاص وأن يحكم الحـاكم بإرادة الشعب لصـالح الجمهور كله لا لصالح طبقة معينة أو فرد بـذاته ، ثم مبدأ أن تكون مصر للمصريين ، ولكنه هذه المرة أوسع معنى مما كان عليه في شعار الثورة العرابية : لأن معناه هذه المرة أن تستقل مصر عن الأتراك مع استقلالها عن الإنجليز . وكان من مبادئه أيضـا أن حريـة الوطن لا تتحقق إلا إذا تحققت حرية المـواطن ، على أن حـرية المواطن لا تتحقق الا في ظل حرية سياسية يكون معناها أن يشترك كل فرد في حكومة بلاده اشتراكا تاماً كاملاً ، وهذا هو معنى ما نسميه سلطة الأمة ! وهنا نلحظ الوثبة الهائلة التي انتقلنا بها من المعنى الضيق للحرية السياسية كـما فهمها الـطهطاوي الى معنـاها كـما حـدده لـطفي

(٣٢) ـ المرجع نفسه .

(٣٣) ـ تشاء ترتيبات القدر أن يموت الامام محمد عبده في نفس العام الذى يولد فيه زكي نجيب محمود حتى لا تنقطع حلقات التنوير فإذا مات رائد ظهر في أثره رائد جديد !

(٣٤) ـ محمد عبده « الاسلام والنصرانية » ص ٥١ مكتبة محمد صبيح عام ١٩٥٤ .

(٣٥) ـ المرجع السابق ص ٥٢ .

السيد . هذا كله فضلا عما سعى إليه لطفي السيد من تطوير التعليم الذي أراد له أن يكون تنمية للحرية الفكرية بعد أن كان منحصرا في إعداد الموظفين للحكومة ، وكذلك أيد لطفي السيد دعوة قاسم أمين في حرية المرأة . لكنه هنا أيضا قفز بالمعنى المقصود عالياً ، فبعد أن كانت حرية المرأة عند قاسم أمين تعني أن تكشف المرأة عن وجهها برفع الحجاب ، أصبحت عند لطفي السيد تعني حق المرأة في التعليم حقا مساويا لحق الرجل فيه . وتمخضت هذه الإرهاصات الفكرية عن ثورة ١٩١٩ التي انتقلنا بها درجة أعلى !(٣٦) .

المستوى الثالث :

على الرغم من أن زكي نجيب محمود ولد في المرحلة السابقة ١٩٠٥ فان تكوينه العقلي أولا ، ثم إنتاجه الفكري بعد ذلك ، كان ولا يزال ، داخل هذا المستوى الثالث ، فهو في مرحلة التكوين في عشرينات القرن وثلاثيناته ـ يُقبل إقبالا شديداً على متابعة الحياة الثقافية متابعة كادت ألا تترك كتابا أو مقالا مما كان يكتبه أعلام الحركة الفكرية والادبية في مصر لا سيما في الفكرتين الرئيسيتين « فكرة الحرية » من ناحية ، و « فكرة العقل » من ناحية أخرى(٣٧) .

ولقد كانت حياتنا الثقافية في هذين العقدين نشطة ، فيذكر أحمد أمين مثلا في كتابه « حياتي » أنه كانت هناك مدارس الأصدقاء من ذوي الثقافة الانجليزية يكثر فيها الحديث عن شكسبير وديكنز ، وماكولي ، وشو ، وهـ . ج . ويلز . . الخ وجمعية أخرى من أصدقاء من ذوي الثقافة الفرنسية يكثر فيها ذكر جان جاك روسو ، وفولتير ، وراسين وموليير ودوركايم . . الخ . ثم التقت الجمعيتان في تحرير جريدة أسبوعية اسمها « السفور » تدافع عن آراء قاسم أمين في تحرير المرأة وتدعوّ إليها(٣٨) .

غير أن هذه المرحلة تشهد أبعاداً جديداً لفكرتي « الحرية » و « العقل » لم تطرأ للسابقين على خاطر . فها هو عباس العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤) يدعو إلى تحرير الشعر والفن بصفة عامة ، وينتهي الى نظريته الشهيرة التي تذهب إلى « أن الجمال والحرية وجهان لحقيقة واحدة » ، في الوقت نفسه فكرة التحرر تشمل الموسيقى فها هو سيد درويش (١٨٩٣ ـ ١٩٢٣) يعمل على تحرير الموسيقى من صيغتها القديمة التي كانت تستهدف الطرب لتصبح تصويراً أو تعبيراً لما يتردد في صدور الناس بكل فئاتهم . وهذا طلعت حرب (١٨٦٧ ـ ١٩٤٢) يدعو للتحرير الاقتصادي بإنشائه لبنك مصر وشركاته ، وهنا علي عبد الرزاق يحرر مفهوم الحكومة الإسلامي من تقليد الخلافة ويصدر كتابه الشهير « الاسلام وأصول الحكم » عام ١٩٢٥ يعلن في آخر فقراته أن « الدين الإسلامي بريء من تلك الخلافة التي يتعارفها المسلمون . وبريء من كل ما هيأوا حولها من رغبة ورهبة ومن عزة وقوة . ان هذه الخطط السياسية لا شأن للدين بها ، وإنما تركها لنا لنرجع فيها إلى أحكام العقل ، وتجارب الأمم وقواعد السياسة »(٣٩) .

كذلك كان طه حسين فيما كتب داعياً الى الفكرتين معا « الحرية » و « العقل » ، أو قل إنه كان يدعو إلى الحرية الفكرية بالتزام المنهج العقلي الصرف ، حتى في

---

(٣٦) ـ مجتمع جديد أو الكارثة ص ٦٦

(٣٧) ـ قصة عقل ص ١٦ .

(٣٨) ـ أحمد أمين « حياتي » ص ١٧٢ ـ ١٧٣ دار الكتاب العربي بيروت ١٩٧١ ط٢

(٣٩) ـ علي عبد الرزاق « الاسلام وأصول الحكم » ص ١٨٢ . المؤسسة العربية للدراسات ـ نشرة مع وثائق المحاكمة د محمد عمارة .

البحوث التي قد تبدو غير خاضعة لذلك المنهج فها هو يقول « أريد أن أصطنع في الأدب ، هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الاشياء في أول هذا العصر الحديث ، والناس جميعا يعلمون أن القاعدة الاساسية في هذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تاما . »[٤٠] . وهنا أحمد أمين (١٨٨٧ - ١٩٥٤) ولجنة التأليف والترجمة والنشر بما رفعته من مصابيح يرى الناس على أضوائها ثقافة الاقدمين والمحدثين[٤١] .

وأخيراً نصل إلى زكي نجيب محمود الذي يكمل بإنتاجه الغزير وفكره القوي الواضح ، وتحليلاته العقلية لكثير من المفاهيم والأفكار السائدة - هذه الحركة التنويرية الكبرى التي بدأت في القرن الماضي وامتدت حتى يومنا الراهن - وهو نفسه يلخص دعوته في عناصر رئيسية تجمع الأفكار التنويرية السابقة وتزيد عليها يقول - « أنا أدعو بكل قوتي الى أن نزيد من اهتمامنا « بالعلم » حتى ولو جاء ذلك على حساب الجانب الوجداني وأدعو الى الأخذ بأسس الحضارة العصرية وما يتبعها من ثقافة ، ثم أدعو الى البحث عن صيغة تصون لنا هويتنا دون أن يضيع منا العيش في عصرنا .. تلك خطوط واضحة أدرتُ عليها كل ما بذلتُه من جهود .. »[٤٢] . وسوف نرى بعد قليل كيف أنه يلخص في أعماقه مسار النهضة السابقة كلها ، وكيف أنه يقدم مشروعا حضاريا يضم كثرة من الثنائيات - هي التي ظهرت في نهضتنا الثقافية طوال قرن ونصف : ثنائية بين « العقل والوجدان » ، ثنائية بين « المادة والروح » ، « بين السماء والأرض » .. الخ .. والحق أنه هو نفسه يجسد ، بما له من إمكانات في مجالات شتى ، هذه الثنائية يقول : « إنني بمثابة عدة أشخاص في جلد واحد ، فهناك مَنْ تجرفه العاطفة ولا يقوى على إلجامها ، ولكن هناك الى جانبه مَنْ يوجّه إليه اللوم ويحاول أن يشكمه حتى يقيّد فيه الحركة التي تقذف به الى الهاوية ، على أن هذا الشد والجذب في داخل النفس بين عاطفة تشتعل وعقل يزيد اشتعالها لا يمنع أن ينعم الإنسان بلحظات هادئة تتصالح فيها العاطفة والعقل فيسيران معا في اتجاه واحد .. »[٤٣] .

علينا الآن أن نبدأ من البداية لنعرف قصة هذه الثنائيات ومحاولة التصالح التي حاول أن يقوم بها مفكرنا الكبير ناظراً إليها على أنها « قطب الرحى » في نهضتنا الثقافية الحديثة .

ثنائيات كثيرة وجذورها واحدة :

للثنائية الفلسفية صور شتى : منها النظرة الثنائية الى العالم التي تستهدف تفسيره بمنظورين مختلفين : وتلك هي الثنائية الابستمولوجية . ومنها القول بوجود جوهرين متمايزين في عالم الواقع - وتلك هي الثنائية الميتافيزيقية : ثنائية الله والعالم ، المادة والروح ، وما يتفرع عنها من ثنائية بين الجسم والذهن .. الخ . كما أننا نستطيع كذلك أن نقول إن هناك ثنائية ثقافية أو حضارية تتمثل في القول بوجود ثقافتين مختلفتين ، لكل منهما خصائص معينة تتميز بها عن الثقافة الأخرى .

غير أن هذه الصور المختلفة من « الثنائية » ليست منفصلة أو متباعدة على نحو ما تبدو لأول وهلة ، إذ أننا

(٤٠) - « في الشعر الجاهلي » ص ١١ مطبعة دار الكتب المصرية عام ١٩٢٦ ثم بعد ذلك في الأدب الجاهلي ص ٦٩ مجلد ٥ من المؤلفات الكاملة .
(٤١) مجتمع جديد أو الكارثة ص ٦٦ - ٦٧
(٤٢) - قصة عقل ص ٨ .
(٤٣) - المرجع نفسه ص ٦ .

مثلا نستطيع أن نستخلص من النظرة الثنائية الى الكون ـ وهي الثنائية الميتافيزيقية أو الانطولوجية نظرية خاصة في تحليل المعرفة(٤٤) . كما أننا قد نجد أن خصائص الثنائية الثقافية مرتبطة في كل حضارة بنظرة خاصة الى الواقع وبتحليل معين للمعرفة(٤٥) .

وفي استطاعتنا أن نقول إن « زكي نجيب محمود » المفكر والأديب يُجسّد في شخصه وفي إنتاجه الفكري هذه الثنائيات جميعا التي تعبر أدق تعبير عن مشكلاتنا الفكرية والثقافية منذ بداية عصر النهضة العربية في القرن الماضي كما سبق أن ذكرنا وحتى يومنا الراهن . ولم تكن الفلسفة العربية التي اقترحها في « تجديد الفكر العربي » بما فيها من ثنائيات بين السماء والأرض ، أو بين الله والانسان ، أو بين العقل والوجدان . . الخ الخ إلا تلخيصاً للثنائية التي يعيشها مجتمعنا العربي وخبرها مفكرنا الكبير منذ بداية نضجه العقلي . ولعل المشكلات التي تثيرها هذه الثنائية وما تسببه من حيرة وقلق كانت من بين الدوافع التي دفعته الى « الوضعية المنطقية » ، فلم تكن اللحظة النادرة التي تحدث عنها في ربيع عام ١٩٤٦ أو أحس فيها بما يشبه اللمحة الذهنية ، تتوقد لتضيء له الطريق ـ سوى عثور على حل لمشكلة الثنائيات التي وجدها في ثقافة مجتمعة ، بل أحس بها في أعماقه ، ومن ثمَّ فليس غريباً أن يصف هذا الموقف الفلسفي الجديد الذي فرق له بين مجال الوجدان ـ ومجال العقل ـ بهذه العبارات ذات الدلالة الواضحة : « لقد أراد لي توفيق الله ، منذ بدأت حياتي العقلية المنتجة أن أقع على طريق من طرق التفكير الفلسفي ، رأيته كأنما خُلِقت له وخُلِقَ لي ، ثم رأيته وكأنه أنسب ما أقدمه في عالم الفكر لأمتي ، لأنه إذا كان الغموض والخلط بين المعاني أحد الأمراض العقلية التي أصابت أمتي ، فتلك الطريقة من طرق التفكير هي من أنجح وسائل العلاج ، وأما تلك الطريقة فهي أننا إذا كنا في مجال العلم « فلا بد أن يجيء القول الذي نقوله مما يطابق الواقع عند التطبيق . . أما مجالات القول الأخرى فلكل مجال منها معياره الخاص . . »(٤٦) . وعلينا أن ننتبه جيداً الى أمثال هذه العبارات الهامة التي تدل أولا على أنه كان يعاني من مشكلة الثنائية بين مجالي العلم والوجدان ، وأنه كان يعتقد أن الخلط بينهما ، بله الخلط بين المعاني والافكار والمفاهيم مرض يسود ثقافتنا ، وأنه وصل الى الوضعية المنطقية بوصفها حلا منطقيا لما تعانيه هذه الثقافة من اضطراب ومشكلات لا سيما في تفرقة هذه الفلسفة الأساسية بين هذين المجالين الرئيسين من مجالات القول ، ولهذا فاننا كثيراً ما نجده يعبر عنها كما لو كان يعرفها من قبل ! فهذا الموقف الفلسفي الجديد الذي عثر عليه في لحظة نادرة من ربيع ١٩٤٦ كان على حد تعبيره : « كأنما هو ثوب فُصّل على طبيعة تفكيري تفصيلا جعل الرداء على قد المرتدي ، بل اني شعرتُ في اللحظة نفسها بأنه اذا كانت الثقافة العربية بحاجة الى ضوابط تُصلح لها طريق السير ، فتلك الضوابط تكمن ها هنا . . »(٤٧) . ونحن نستشف من هذه العبارات أنه كان يعاني بالفعل مشكلات ثقافية هي تلك الثنائيات التي سوف نتحدث عنها بعد قليل وأن فكره كان يتجه في مجرى معين قبلُ أن يتعرف على الوضعية المنطقية فلما عرفها شعر أنها جاءت ملائمة تماما لمجرى هذا التفكير ! .

(٤٤) ـ تجديد الفكر العربي ص ٢٨١ .
(٤٥) ـ في « الشرق الفنان » عرض لخصائص هذه الثنائية الثقافية وسوف نعود الى هذا الموضوع .
(٤٦) ـ « قيم من التراث » ص ١١٧ ـ ١١٨
(٤٧) ـ قصة عقل ص ٩٢

ثنائية العقل والوجدان سمة أساسية في حضارة الشرق ، وهي كذلك عند مفكرنا ، ولهذا كان زكي نجيب محمود في أعماقه ، وفي حياته ، وفكره ، كأنما هو التجسيد الحي « للشرق الفنان » الذي يجمع بين النظرة الذاتية المباشرة الى الوجود التي تجعله خطرة من خطرات النفس أو نبضة من نبضات القلب . وهي نظرة الروحاني المتصوف والشاعر والفنان . . وبين نظرة العالم الذي يقيم بينه وبين الكائنات حاجزاً من قوانينه ونظرياته[٤٨] . لكن هذا الشق الثاني غير موجود الآن وتلك هي مشكلة الشرق « الأوسط » وتلك هي مشكلة الثنائية في الثقافة العربية التي عاناها مفكرنا منذ مطلع نضجه العقلي ، ولم يستطع أن يوفق بينها فكيف يجتمع العقل والوجدان في تصور نظري عام . . ؟ ! ثم جاءت الوضعية المنطقية لتعطيه تفرقة بين مجالين كان يستشعرهما بداخله ، فكأنما أعطته الإطار النظري الذي كان يبحث عنه ، وانْ كانت استفادته من هذا المذهب لم تتعد الخطوط العريضة التي تُعينه على حل مشكلاته ، ومشكلات أمته الفكرية ، من حيث هو « منهج » دون أن يتقيد بحرفيته كمذهب أو يورط نفسه في مضمون فكري بعينه » : فكنتُ كمنْ يضع في يده ميزانا يزن به الأشياء ، دون أن يملأ يديه بمادة معينة لا بد أن تكون هي وحدها موضع الوزن والتقدير . . »[٤٩] .

وعلى ذلك فان النظرة الثنائية التي لخصها في كتابه « الشرق الفنان » عام ١٩٦٠ ووصفها بأنها كانت بمثابة حجر الزاوية في بناء فكري جديد ظهرت معالمه الكبرى خلال السبعينيات في « تجديد الفكر العربي » و « المعقول واللا معقول في تراثنا الفكري » و « ثقافتنا في مواجهة العصر »[٥٠] أقول لم تكن هذه النظرة « جديدة إلا في وضوح معالمها ، وتحديد خطوطها الرئيسية ، على نحو محدود متميز - ولهذا فقد كان على حق تماما في قوله : إن هذا البناء الفكري الجديد جاء ليكْمل ، لا لينقص ، ما أنجزه خلال الخمسينات من تحديد لمنهج التفكير العلمي[٥١] .

ذلك لأن بذور هذه الثنائية كانت قائمة في أعماق وجوده متغلغلة في تفكيره طوال حياته على نحو متوازن بين العقل والوجدان ، وهو يرجو أن يحدث هذا التوازن في ثقافتنا العربية ، ونحن عندما نقول إنه يجسِّد في شخصه هذه الثنائية المتوازنة والمرجوة لمجتمعنا ، فاننا نقصد المعنى الحرفي لهذه العبارة ، فهو عندما أراد ، مثلا ، أن يكتب سيرته الذاتية لم يجد أمامه مفراً من تصويرها في قالب « ثنائي واضح » فيكتب كتابين منفصلين : « قصة نفس » يحكي أعماق الجانب الذاتي الباطني غير المرئي ، ثم « قصة عقل الذي يروي تطوره العقلي في فترة تزيد على ستين عاما ! وإنك لتلمس هنا وهناك ، داخل كل كتاب من هذين الكتابين ، ضربا واضحا من الثنائية لا سيما ثنائية « العقل والوجدان » « ثنائية العالم والفنان » . . وهو عندما يريد ، مثلا آخر ، أن يتصور نفسه من الداخل في « قصة نفسي » يختار لها شخصيتين رئيسيتين تمثلان هذه الثنائية بوضوح كامل : شخصية الأحدب « رياض عطا » صاحب الوجدان الملتهب ، وشخصية « إبراهيم الخولي » صاحب العقل الواضح والأسلوب العلمي[٥٢] . ويدور حوار أحيانا - ينقلب

---

(٤٨) - « الشرق الفنان » ص ٧ - ٨ .
(٤٩) - مجتمع جديد أو الكارثة ص ٢٤٦ .
(٥٠) - قصة عقل ص ١٧٦ .
(٥١) - المرجع نفسه في الصفحة نفسها .
(٥٢) - قصة نفس ص ٢١٦ .

الى صراع أحيانا أخرى - بين هاتين الشخصيتين بحثا عن الكيفية التي يمكن بواسطتها التوفيق بين « العقل والوجدان » بحيث يكون هناك إنسجام أو توازن بين هذين الجانبين فلا يطغى جانب على جانب - يقول الثاني للأول توضيحا لموقفه : « لستُ أقل منك حرصاً على مشاعر الإنسان وآماله ومثله العليا . هذه المشاعر والآمال والمثل التي زعمت لي في خطابك الأخير أنني سائر بمذهبي نحو هدمها . كل ما هنالك من أمر في هذا الصدد هو أنني أفرق بين لغة العقل ولغة الشعور ، فمنْ لا يريد أن يتحدث عما يقع في حسه مما يتاح للآخرين أن يراجعوه فيه بحواسهم فهو لا يريد أن يتحدث بلغة العقل . وليس في ذلك رفع ولا خفض للغة المشاعر ، بل الأمر أمر تفرقة بين نوعين مختلفين من الكلام . فاذا كان المجال مجال علم فلا يجوز للشعور أن يتسلل الى سياق الحديث بألفاظه الدالة على وجدان ، أما إذا كان المجال مجال أدب وفن فليختر ما يشاء من لفظ ليثير في سامعه المشاعر التي يقصد الى إثارتها فيه . . فلنعط ما للعقل للعقل وما للشعور للشعور . . »[٥٣] .

ولعلك تلمح في هذه الوقفة الفلسفية الأثر الواضح الذي تركته الوضعية المنطقية في طريقة تفكيره : فهناك شروط ينبغي مراعاتها في أية جملة يريد لها صاحبها أن تكون ذات معنى مفهوم عن الطبيعة الخارجية ، أو أي جزء محدد من تلك الطبيعة ، وذلك مجال واحد من مجالات الكلام ألا وهو المجال العلمي . أما ما عداه من ميادين القول كالشعر ، وغيره من ضروب التعبير الفني ، فلها شروط أخرى خاصة بها يعرفها المشتغلون بتلك الميادين[٥٤] . ومن ثم فلا يجوز أن يكون هناك خلط بين فلسفة ودين ، وبين عقل وإيمان ، بين منطق وفن . . الخ . وهذا هو الموقف الذي أراده لأبناء أمته أن يستخلصوه من تراثهم - شكلا لا مضمونا - وهو ألا يجعلوا بين العقل والإيمان تعارضا ، بل أن يجعلوا بينهما تعاونا للوصول الى هدف واحد ، فلكل من الأداتين قسطها من الفهم وتنظيم السلوك[٥٥] . فيكون موقفنا كمن استكثر أن يترك العقل وحده حكماً في الميدان فقالوا : نجعل للايمان قسطاً وللعقل قسطاً . .[٥٦] فهو اذا كان « عقلانيا » متحمسا للعقل على نحو ظاهر فذلك لأن هذا الجانب ناقص في ثقافتنا ، لكن ذلك لا يعني أنه يُهمل ذلك الجانب الآخر أعني جانب الخيال والوجدان يقول : « مَنْ يقرأ لي فيراني متلفعا بمنطق العقل رائحا وغاديا ، قد لا يعلم أن لي خيالا يشتعل لأتفه المؤثرات اشتعالا يكتسح أمامه كل ما يعترض طريقه من قوى النفس الأخرى . . » .[٥٧]

- البدايات الأولى للثنائية الابستمولوجية :

يحدثنا في قصة عقل أنه كان في العشرينات من عمره ، وبعد تخرجه مباشرة ، صاحب لمحة صوفية : « نزع إليها صاحبنا منذ فراغه من دراسته ، وأخذت تعاوده حيناً بعد حين وامتدت معه أعواماً جاوزت أعدادها عشرة »[٥٨] . لكنها لم تنته بعد هذه الأعوام العشرة ، كما قد توحي هذه العبارة ، وإنما أعيد تشكيلها

(٥٣) - قصة نفس ص ١٨٢ .
(٥٤) - قصة عقل ص ١٠٨ وقارن مقدمة الطبعة الثانية من « موقف من الميتافيزيقا »
(٥٥) - تجديد الفكر العربي ص ١٣٦ .
(٥٦) - المرجع نفسه ص ١٧١ .
(٥٧) - عن الحرية أتحدث .
(٥٨) قصة عقل ص ٢٠

لتتحول إلى نظرة الفنان التي تحدّث عنها فيما بعد ووصفها بأنها سمة الشرق الصوفي(٥٩). في هذه الأعوام الأولى نجد أمامنا شاباً يؤمن « بوحدة الوجود » ، ويكتب عنها مقالاً لينشره سلامه موسى في « المجلة الجديدة » ويكون الدافع إلى كتابة المقال « رؤية ذاتية إلى الوجود » سوف يتحدث عنها بعد ذلك « في الشرق الصوفي » ـ فهو يسير وحده بين الحقول في الريف ، ويقف طويلا أمام ماشية أُلقيت أمامها أعواد الذرة لتطعم فتدور في ذهنه صور متلاحقة لألوان من الوجود يعتمد بعضها على بعض ويتحول بعضها إلى بعض ، نبات يتغذى من عناصر الأرض وحيوان يتغذى من النبات ، وإنسان يتغذى من لحم الحيوان تغذية تسري في دمائه وفي أعصابه ، فإذا هو يخرج غذاءه ذاك علماً وفلسفة وشعراً ، وتملؤه هذه الفكرة فيعود ليكتب مقالة عن « وحدة الوجود »(٦٠)! وعندما تدور الأيام متقلبة به بين سبل الفكر ، فإنه يظل مُبقياً في أعماقه على فكرة « وحدة الوجود » التي تعاوده بين الحين والحين ، ولعل أجمل ما كتبه فيها بعد ذلك مقال بعنوان « درس في التصوف » نشر في عدد خاص من الرسالة في ٣ مارس ١٩٤١ ـ وهو عبارة عن حوار بين أستاذ متصوف مؤمن بوحدة الوجود وتلميذه الشاب الذي يظهر في أول الدرس عابساً نافراً مما يقوله الأستاذ ، ولقد لخص هذا المقال في قصة عقل(٦١).

غير أن هذه النظرة الصوفية التي تجلّت في كثير من المقالات ، والتي كانت تعاوده حيناً بعد حين ، وامتدت معه أعواماً طويلة (والواقع أنها مازالت موجودة حتى هذه اللحظة) ! ـ لم تكن قائمة بذاتها ، بل صاحبتها نظرة علمية صارمة ، يقول عن نفسه إنه : « خلال تلك الأعوام نفسها (الأعوام التي سيطرت فيها النظرة الصوفية) كانت تغلب عليه النظرة العلمية الصارمة التي لم تكن تريد له أن يأذن لشيء في الوجود كله أن يفلت من قبضة العلم ، لا يستثني من ذلك القيم الخلقية نفسها وما نسميه بالمثل العليا . . »(٦٢).

وهذه الثنائية الابستمولوجية التي عانى منها في صدر الشباب هي التي لخصها بوضوح شديد في « الشرق الفنان » فيما بعد ورأى أن جانباً منها وهو « النظرة الصوفية » يمثل خاصية أساسية في نظرة الشرق الأقصى إلى العالم ، في حين أن الجانب الآخر وهو « النظرة العلمية » يمثل الخاصية الأساسية للفكر الغربي . أما ثقافتنا العربية فهي تحاول ـ أو ينبغي لها أن تحاول ـ الجمع بينهما يقول : « هما إذن ، نظرتان ينظر الانسان بأي منهما إلى نفسه وإلى العالم ، أو ينظر بكلتيهما : بهذه مرة وبتلك مرة أخرى . ذلك أن الانسان إذ يقف إزاء الحقيقة الخارجية ، فإما أن ينظر إليها خلال ذاته فيشبهها بنفسه تشبيهاً يدمج الطرفين في كائن واحد ، وتلك هي وقفة الفنان أو المتصوف ومن لفّ لفها . وإما أن ينظر إليها ، وكأنه متفرج يتابع ما يجري أمامه على مسرح الحوادث فيصفه وصفاً يصلح لنفسه ولغيره من الناس على حد سواء ، وتلك هي نظرة العالم ومَنْ يجري مجراه في التفكير . وثالث الفروض أن يجمع بين النظرتين ليفرّق بين أمرين ، فإن كان موضوع النظر وجداناً ينبض به قلبه إزاء الكون نظر إليه بالنظرة الأولى ، فكان فناناً أو متصوفاً ، وإنْ كان موضوع النظر ظواهر الأشياء الخارجية نظر إليه بالنظرة الثانية فكان عالماً أو ذا نزعة علمية . . والنظرة الأولى هي طابع الشرق الأقصى

(٥٩) الشرق الفنان ص ١٧
(٦٠) قصة عقل ص ١٨
(٦١) ص ١٩ ـ ٢٠
(٦٢) قصة عقل ص ٢٠

والثانية هي طابع الغرب[٦٣]. وأما تآلف النظرتين فهو مميز تميزت به ثقافة الشرق الأوسط في عصور ازدهارها ، عندما بلغت حضارتها أوجها[٦٤]. "انظر إلى العالم من داخل تكن فناناً ، أو انظر إليه من ظاهره تكن من رجال التجربة والعلم . انظر إليه وجوداً واحداً حياً تكن من أصحاب الخيال البديع المنشىء والخلّاق ، أو انظر إليه كثرة من ظواهر يصحب بعضها بعضاً ، أو يعقب بعضها بعضاً ، تكن من أصحاب النظر العقلي الذي يستدل النتائج ويقيم الحجج والبراهين ، ذلك بطبيعة الحال ، بل ينبغي لك أن أردت لنفسك تكامل الجانبين ، أن تجمع بين النظرتين فتصبح الفنان حيناً ، والعالم حيناً . ولقد اجتمع الطرفان : العقل والوجدان ، في ثقافة الشرق الأوسط ـ وهو في قمة مجده ـ على نحو من التوازن الذي ربما لم يتحقق بالدرجة نفسها في أية ثقافة أخرى . والمشكلة في هذه الثقافة الآن أن كفة الوجدان طاغية ، فليس ثمة توازن وإذا قلنا ثقافة الشرق الأوسط فإنما يعنينا منها الثقافة العربية بصفة خاصة[٦٥]. وهي ثقافة يُجسّدها مفكرنا الكبير على نحو صارخ ، ولهذا فلم تكن مصادفة ، كما يقول هو نفسه : « حين أنشىء المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب أو وجد نفسه عضواً في لجنتين من لجانه : لجنة الفلسفة ولجنة الشعر . كما وقع عليَّ اختيار وزارة الثقافة ـ في الوقت نفسه تقريباً ، عضواً في لجنة تفرغ الفنانين والأدباء ، وعضواً في لجنة المقتنيات الفنية ، ولبثت عضواً في تلك اللجان التي جمعت بين الفلسفة والأدب والفن ما يقرب من عشرة أعوام أو زيد عليها . . »[٦٦] كما أنه ينال التقدير مرتين : مرة جائزة الدولة للفلسفة ، وأخرى جائزة الدولة للأدب[٦٧] . . وفي مقالات الأهرام امتزجتْ الشخصيتان على حد تعبيره ، في هوية واحدة : فالفكر ذو أعماق وأبعاد ، والانفعال الوجداني ذو حرارة ونبض[٦٨]. لكن ذلك كله لا يعني أن تشخيصه للثنائية المميزة للثقافة العربية ـ إنما هو « إسقاط » لا أكثر ولا أقل ! فسوف نتبّين فيها بعد كيف برزت هذه الثنائية واضحة في الحضارة الاسلامية ، وسوف نلتقي بكثير من الأمثلة التي تؤيد هذه القضية ، فثنائية « العقل والوجدان » ـ سمة تميزت بها ثقافتنا في عصور ازدهارها ، فلما مالت هذه الحضارة إلى الانحدار حدث الخلل بين الكفتين فرجحت كفة العاطفة والوجدان على نحو صارخ ، ومهمتنا أن نعيد التوازن إلى ما كان عليه أيام الازدهار بأن نعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله[٦٩] .

ثنائية أنطولوجية :

إذا كانت الفاعلية الفلسفية هي في صميمها حفر تحت أرض الواقع الفكري ، لعلنا نصل إلى الجذور الدفينة التي انبثق عنها هذا الواقع ـ فقد قام

---

(٦٣) الشرق الفنان ص ١٠٩ ـ ١١٠

(٦٤) المقصود بهذه الأحكام العامة أن أئمة الفكر في الهند وفارس والصين . . . الخ ـ كانت تغلب عليهم النظرة الصوفية ، ومن ثم كانت السمة الغالبة في ثقافة الشرق الأقصى ـ على حين أن الاستدلال العقلي كان يغلب على أئمة الفكر في الغرب ابتداء من ثقافة اليونان القديمة . . الخ . لكن لايقصد بذلك بالطبع ، أن كل عابر سبيل في الشرق الأقصى كان صوفيا ، وأنه لم يكن بينهم التاجر الذى يحسب المكسب والخسارة . وقل مثل ذلك في ثقافة الغرب .

(٦٥) قصة عقل ص ١٧٨ ـ ١٧٩ .

(٦٦) قصة عقل ص ١٧٨ ـ ١٧٩ .

(٦٧) المرجع نفسه ص ١٧٤ .

(٦٨) قصة نفس ص ٢٤٢

(٦٩) المرجع السابق ص ٢٤١

فيلسوفنا[٧٠]، بهذا الحفر في الحياة الثقافية المعاصرة ليرتد بها إلى منابتها فتكون هذه المنابت هي ما يمكن أن نسميه بالفلسفة العربية المعاصرة ـ « وتدور عجلة الزمن مع صاحبنا ، وإذا هو أمام قضية عقلية خاصة بالرؤية العامة التي ينظر بها الانسان إلى هذا العالم وطبيعته ، وعلى الرؤية التي يختارها الانسان وينظر إلى العالم على أساسها تتوقف نتائج فرعية لا حصر لعددها ، فماذا تكون تلك الرؤية التي يختارها . . ؟! رأى صاحبنا أن أقرب ما يمدنا بالرؤية الملائمة لنا هو الافتراض الذي يرى أن الروح والعقل ليسا أموراً من مادة ، وأن المادة الخالصة لا هي من روح ولا هي من عقل ، وأن الإنسان قد اجتمع فيه الجانبان الروح والعقل من جهة والجسم من جهة أخرى . . »[٧١] تلك هي الثنائية الابستمولوجية الأساسية عند زكي نجيب محمود ، لكنها سوف تؤدي في الحال إلى ثنائية أنطولوجية يرى أنها كامنة في أعماق ضمائرنا جميعاً ؛ « أحسب أن لو تعمقنا ضمائرنا لوجدنا هناك مبدأ راسخاً عنه إنبعثت ـ وما تزال تنبعث ـ سائر أحكامنا في مختلف الميادين ، وهو مبدأ لو عرضته على الناس في لغة واضحة صريحة ، لما وجدتُ منهم أحداً يحتج أو يعارض وأعني به مبدأ الثنائية التي تشطر الوجود شطرين لا يكونان من رتبة واحدة ، ولا وجه للمساواة بينهما هما الخالق والمخلوق ، الروح والمادة ، العقل والجسم ، المطلق والمتغير ، الأزلي والحادث ، أو قل هما السماء والأرض إنْ جاز هذا التعبير[٧٢].

ومعنى ذلك أن ثنائيتنا الانطولوجية من نوع فريد ، صحيح أنها تشطر الوجود شطرين كما فعلت الثنائية الميتافيزيقية على مر التاريخ ، لكنها تختلف عن المذاهب الثنائية في : « أنها لا تسوي بين الشطرين : بل تجعل للشطر الروحاني الأولوية على الشطر المادي ، فهو الذي أوجده وهو الذي يسيره ، وهو الذي يحدد له الأهداف . . . »[٧٣].

قد يقال : وماذا كانت ثنائية أفلاطون إنْ لم تكن هي بعينها ما نسميه « بالثنائية الفريدة » الخاصة بنا . . . ألم يشطر أفلاطون الوجود إلى وجود معقول ووجود محسوس ، وجعل الثاني معتمداً على الأول إنْ لم يكن مجرد « ظل » له يتصف بالتغير والحدوث والعرضية . . الخ في حين يتسم الأول بالأزلية والروحية ؟ ألم تجعل الأولوية للمطلق المجرد على الأفراد والجزئيات ؟ . ويجيب الدكتور زكي نجيب بقوله : « إذا قيل إنَّ الفلسفة الأفلاطونية ، وما جرى مجراها كانت ضرباً من الثنائية التي تجعل الأولوية للمطلق المجرد على الأفراد والجزئيات ـ قلنا : نعم ! ولكن أفلاطون قد بلغ في ذلك

---

(٧٠) عندما أصدر قسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة الكويت كتابا تذكاريا عن أستاذنا الكبير لبلوغه الثمانين جعل عنوانه « الدكتور زكى نجيب محمود » : فيلسوفا وأديبا ومعلما . مطابع الوطن عام ١٩٨٧ وكتب أحد الزملاء معترضا على صفتين في هذا العنوان هما « الفيلسوف » و « المعلم » والحق أن لكلمة فيلسوف معانى مختلفة ، ونحن نستخدمها هنا بنفس المعنى الذى أطلقت به على مفكرى عصر التنوير : « فقد أطلق على جماعة التنوير في فرنسا كلمة فلاسفة Philosophes وهكذا أصبح فولتير ، وديدرو ، وكوندرسيه ، وهولباخ ونظراؤهم يتسمون بالكلمة الفرنسية فلاسفة Philosophes تميزا لهم من الفلاسفة النسقيين Philosophers أى أصحاب المذهب النسقى System كأفلاطون وأرسطو قديما وكانط وهيجل حديثا ـ قارن مثلا :

The Encyclopedia of Philosophy, Vol. II, P. 519 Macmillan 1967 أما كلمة « معلم » فقد ظن الزميل أنها مقتصرة على أرسطو ، والصحيح أن أرسطو يلقب « بالمعلم الأول » كما يلقب الفارابى « بالمعلم الثانى » . . . الخ ويمكن أن يطلق لقب « معلم » على أى مفكر تنويرى فما بالك برجل كان « معلما » طوال حياته ـ ؟ ! قارن مايقوله أستاذنا عن نفسه . . . « معلم أنا مهنة وفطرة معا ، فلو لم تسر بى ظروف حياتى نحو مهنة التعليم لاخترت بطبيعتى أن أكون معلما ، فلست أحب في هذه الدنيا الطويلة العريضة شيئا أكثر من حبى للمعرفة وشرحها وتوضيحها ونشرها ، وذلك هو التعليم . ـ » قيم من التراث ص ١٦٥ .

(٧١) « رؤية إسلامية » ص ٤٣ ـ ٤٤

(٧٢) « تجديد الفكر العربي » ص ٢٧٤

(٧٣) « تجديد الفكر العربي » ص ٢٧٥

حداً ألغى معه وجود الأفراد الجزئية وجوداً حقيقياً بما في ذلك أفراد الانسان أنفسهم ، فليس للفرد الإنساني الواحد من حقيقة عنده إلا بمقدار ما يشارك في الإنسانية بمعناها المجرد . ولا أظن أن مثل هذا الالغاء لحقائق الأفراد متفق مع عقيدتنا التي تلقى على أفراد الناس تبعات خلقية عما يعملون أفراداً ، لا أنواعاً وجماعات ، فهذا معناه اعترافنا الصريح بالوجود الحقيقي لهؤلاء الأفراد في حياتهم الدنيا ، وفي حياتهم الآخرة على حد سواء . . وإذن فالنظرة الثنائية التي تناسبنا هي نظرة متميزة فريدة تجعل الكائن الإلهي الواحد المطلق في جهة ، وتجعل الأفراد الجزئية في جهة أخرى . . . »[٧٤].

ومعنى ذلك أننا سنجد أنفسنا أمام ثنائية أنطولوجية تتفق مع الثنائية الأبستمولوجية السابقة ، لأنه لو كان هناك ضربان من الوجود : وجود « مطلق » ووجود « حادث » ـ لكان لابد من وجود طريقين للمعرفة : وإني لأتساءل ـ على أساس نظرتنا الثنائية المقترحة ـ لماذا لا يكون للمعرفة نطاقان لكل منهما وسيلة خاصة به ؟! فإذا كان الأمر أمر الحقيقة المطلقة جاءتنا المعرفة عن طريق ، وإذا كان الأمر أمر الطبيعة وكائناتها جاءت المعرفة عن طريق آخر ولا يجوز لأي من النطاقين أن يزاحم في وسائله . ولكم نشبت معارك بين أناس أرادوا تطبيق وسيلة العالم الأول على العالم الثاني ، أو وسيلة العالم الثاني على العالم الأول ، فكانوا يعانون من هذا الخلط شر ما يعاني من تشتت وبلبلة ولبس وغموض . . . »[٧٥].

وسوف يتفرع عن ذلك بطبيعة الحال ثنائية « المنهج » ، بحيث نجعل لدراسة ظواهر الطبيعة ـ أعني العلوم الطبيعية ـ منهجاً خاصاً ذا شروط معينة ، ولما يتصل بالحقيقة المطلقة منهجاً آخر . أما منهج العلوم الطبيعية فيقوم على مشاهدة الحواس وإجراء التجارب وعلى سلامة التطبيق ، فلا يعنينا من الدنيا إلا ظواهرها ، بحيث لا يجوز لأنظارنا عندئذ أن تنفذ إلى ما وراء تلك الظواهر . لأنها بالنسبة للعلوم ليس لها وراء ، فهي الظواهر وحدها . . أما منهج ما وراء الوقائع الصماء من حقائق كالقيم الخلقية مثلا فذلك شيء آخر ، قد لا نلجأ فيه إلى مشاهدة الحواس ، وإلى التجارب العابرة بقدر ما نلجأ فيه إلى إدراك البصيرة أو إلى إملاء الوحي ، أو إلى ما يسري بين الناس من عُرف وتقاليد . . »[٧٦].

ثنائية ثقافية أو حضارية :

إذا كانت الثنائيات السابقة ـ إبستمولوجية أو أنطولوجية ـ تمثل نظرة معرفية إلى العالم ، وفهماً خاصاً لطبيعة الوجود الذي نعيش فيه ، وكانت ، من ثمَّ ، ترتبط بنظرة الإنسان الفرد إلى هذا الوجود ، فإن الثنائية الثقافية أو الحضارية تعكس مشكلة المجتمع العربي الحضارية منذ خروجه من العصور الوسطى وحتى اللحظة الراهنة . ومن هنا تحولت هذه الثنائية إلى مشكلة تؤرق مفكرنا الكبير ـ كما تؤرق كل مفكر تنويري ، على مستوى الوطن العربي كله ـ وهي تتلخص في محاولة الإجابة عن هذا السؤال : « كيف السبيل إلى ثقافة نعيشها اليوم ، بحيث تجتمع فيها

(٧٤) المرجع السابق ص ٢٧٦

(٧٥) تجديد الفكر العربي ص ٢٨٢

(٧٦) تجديد الفكر العربي ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣ ـ لكن يصعب في الواقع أن نقول اننا نأخذ الحقائق المطلقة من العرف والتقاليد اللهم إلا إذا كان المقصود هنا « المبادىء الاخلاقية » الدائمة التي تتجسد في هذه العادات كالوفاء والاخلاص والشجاعة الخ والتي يُعبر عنها كل مجتمع بطريقته الخاصة مع أنها واحدة ودائمة .

ثقافتنا الموروثة مع ثقافة العصر الذي نحياه ، شريطة ألا يأتي هذا الاجتماع بين الثقافتين تجاوزاً بين متنافرين ، بل يأتي تضافراً تنسج فيه خيوط الموروث مع خيوط العصر نسج اللُّحمة والسَّدى ؟[٧٧].

تلك هي المعضلة التي تتحدى المثقف العربي في زماننا ولا يدري حتى هذه الساعة كيف يحلها[٧٨]. ولهذا يسعى مفكرنا إلى الوصول إلى حل يؤدي بمصر خاصة ، وبالوطن العربي عامة ، إلى بعث جديد نواكب به العصر وفكره وحضارته دون أن نفقد هويتنا التاريخية[٧٩] . . ولهذا تراه يصف هذه المشكلة بأنها أم المشكلات في حياتنا الثقافية : « لستُ أتردد لحظة حين أقرر بأن أم المشكلات الثقافية الراهنة هي محاولة الكشف عن صيغة لحياتنا الفكرية والعملية ، تجمع لنا في طيها طرفين ، إذ تحافظ لنا على خصائصنا العربية الأصيلة ، وفي الوقت نفسه تفتح لنا الأبواب على مصاريعها لنستقبل في رحابة صدر أسس الحضارة العصرية كما يحياها اليوم روادها . . »[٨٠]. وهو يطلق عليها أحياناً إسم « مشكلة الأصالة والمعاصرة » ـ وربما كان هو أول مَنْ استخدم هذين المصطلحين ـ ويصف قضية الجمع بين أصالتنا وضرورة معايشتنا لعصرنا بأنها كانت أهم ما تعرض له من اهتمامات بالتفكير والكتابة إذا ما استعرض حياته الفكرية من أولها إلى آخرها . .[٨١]. فهذه القضية التي تشغله ـ قضية الدمج بين الأصالة والمعاصرة ـ هي التي سوف تشكل لنا « المسلم الجديد » الذي يكون مسلماً يؤدي فرائض الدين ويقوم بأركانه ثم « يسعى إلى قوة العلم في أحدث صوره ، يسعى إليه من أبوابه ، ومن نوافذه ، ومن كل ثقب ابرة يوصله إلى تلك القوة . . »[٨٢]. وكانت هذه المشكلة هي السؤال الكبير الذي طرحه أستاذنا في مقدمة كتابه « تجديد الفكر العربي » ـ كيف نوائم بين ذلك الفكر الوافد الذي بغيره يفلت منا عصرنا أو نفلت منه ، وبين تراثنا الذي بغيره تفلت منا عروبتنا أو نفلت منها . . ؟! إنه لمحال أن يكون الطريق إلى هذه المواءمة هو أن نضع المنقول والأصيل في تجاور بحيث نشير بأصابعنا إلى رفوفنا فنقول : هذا شكسبير قائم إلى جوار أبي العلاء ـ فكيف إذن يكون الطريق ؟ كيف السبيل إلى ثقافة موحدة متسعة يعيشها مثقف حي في عصرنا هذا بحيث يندمج فيها المنقول والأصيل في نظرة واحدة[٨٣]؟! وفي استطاعتنا أن نقول إنَّ جهوده لا في « تجديد الفكر العربي » ولا في « المعقول واللامعقول » ـ وحدها بل في كل ما كتبه قبل ذلك وما كتبه بعد ذلك . إنما استهدفت الإجابة عن هذا السؤال الكبير الذي فرض نفسه علينا طوال أمد ليس بقريب[٨٤]، فقد فرضت هذه المشكلة نفسها على مثقفي العالم العربي منذ اللحظة التي شعر فيها هؤلاء بوجود ثقافة ذات طابع عالمي تجتاح الجو الفكري للبلاد العربية ، ويتعين تحديد علاقاتها بالثقافة الموروثة عن الأسلاف[٨٥]. وإنْ شئنا تحديداً أكثر قلنا إنها المشكلة التي أصبحت تمثل قطب الرحى في نهضتنا الحديثة منذ

---

(٧٧) المعقول واللامعقول ص ٧
(٧٨) هموم المثقفين ص ١٣
(٧٩) قصة نفس ص ٢٠٢
(٨٠) ثقافتنا في مواجهة العصر ص ٥٤
(٨١) قصة عقل ص ٢٢٢
(٨٢) عن الحرية أتحدث ص ٨٥
(٨٣) « تجديد الفكر العربي » ص ٦
(٨٤) المرجع نفسه ص ١٠
(٨٥) د . فؤاد زكريا « تجديد الفكر العربي في الميزان » ص ٩٩ من الكتاب التذكاري السالف الذكر مطابع دار الوطن بالكويت عام ١٩٨٧ .

جاءت الحملة الفرنسية على مصر ووصلت شواطىء الاسكندرية عام ١٧٩٨ ـ أي قبيل فاتحة القرن التاسع عشر بسنتين ـ وكان مع الحملة جماعة من العلماء الفرنسيين المتخصصين في ميادين علمية مختلفة ، فكان مما صنعه أولئك العلماء أنْ استدعوا علماء الأزهر الشريف ـ جماعة بعد جماعة ، ليطلعوهم على عجائب العلوم الجديدة ، من ذلك ، مثلاً ، أن يوقفوهم صفاً مشتبكي الأيدي جاراً مع جاره ، ثم يمسون الواقف في أول الصف بسلك مكهرب ، فتسري رعدة الكهرباء في جميعهم ، فأما هم فيأخذهم العجب ، وأما العلماء الفرنسيون فيأخذهم الضحك ! ولقد حدث يوماً أن اغتاظ من تلك الألاعيب الصبيانية أحد الشيوخ فقال لهم ما معناه : هل في علمكم الجديد ما يجعل إنساناً موجوداً هنا وموجوداً في بلاد الغرب في وقت واحد ؟! فأجابوا بقولهم أنْ ليس في علومهم ذلك لأنه محال ، فرد هو قائلا : لكن ذلك ممكن في علومنا الروحانية[٨٦] .

وكأن هذه الحادثة التاريخية قد رسمت بوضوح ناصع حجم المشكلة الثقافية التي نعانيها : حدودها وأبعادها . كما كشفت عن ثلاثة حلول مازال لها أنصارها حتى هذه الساعة : فريق استمر ـ كالشيخ الذي أسلفنا ذكره ـ يرفض ثقافة الغرب مكتفياً بأن يملأ أوعيته من كتب التراث فكان أصيلاً لكنه غير معاصر إذ أنه غض النظر عن العصر بكل ما يضطرب به من قضايا ومشكلات فكرية ، ومع هذه الجماعة تذهب عامة الناس من غير المثقفين ، وفريق آخر ـ وإن كان قلة قليلة ـ لم يجد بأساً في أن نمحو صفحتنا محواً لنملأها بثقافة العصر وحده كما هي معروفة في مصادرها ، بغير تحريف ولا تعديل ، وهكذا كان هذا الفريق معاصراً يعيش قضايا العصر لكنه غير أصيل لا يرتبط بجذوره الثقافية الأولى . بقي فريق ثالث اهتم بتراثه اهتماماً واضحاً ثم راح يطّوع فكر العصر بعض التطويع فاستكان له ولو إلى حين ، وفي رحاب هذا الفريق تقع الكثرة الغالبة من أعلام الأدب والفكر في تاريخنا الحديث : محمد عبده ، ولطفي السيد ، والعقاد ، وطه حسين ، وتوفيق الحكيم وزكي نجيب محمود . . الخ وغيرهم مما يزدان بهم مسار نهضتنا ، كما سبق أن ذكرنا بالتفصيل ـ على اختلاف نزعاتهم وأذواقهم ـ لم يرفضوا العصر ، لكنهم حاولوا أن يصوغوه في قوالب الثقافة العربية الأصيلة ، مع تفاوت بينهم في درجة النجاح ومع هؤلاء القادة يذهب معظم المثقفين[٨٧] .

ولقد ركّز هذا الفريق الثالث في حركته الشاملة التي استهدفت النهوض بالحياة الثقافية العربية لكي تواكب العصر من ناحية وترتبط بهويتنا التاريخية من ناحية أخرى ـ ركّز خلاصة دعوته في فكرتين أساسيتين هما « الحرية » و « التعقيل » ، وهما في الواقع وجهان لحقيقة واحدة أما الحرية فلا تكون إلا من قيد ، والقيد الذي كان قائماً عندئذ ، بل القيد الذي أخذ يزداد صلابة على مر القرون التي سادها الحكم التركي هو قيد الجهل والخرافة في فهم الناس للظواهر والأحداث ، وهو أيضاً قيد النص المنقول الذي يفرض نفسه على الدارسين فرضا بحيث لا يكون أمام هؤلاء الدارسين من منافذ الفكر المستقل إلا أن يعلقوا على النص بشروح ، ثم على الشروح بشروح . . وهلم جراً . وهي نفسها الحالة التي جاءت النهضة الأوربية لتجدها جاثمة على عقول الدارسين ـ فكان التخلص منها والخروج عليها هو نفسه معنى النهضة ولبها .

---

(٨٦) « عن الحرية أتحدث » ص ١٤٢

(٨٧) قارن مثلا : « ثقافتنا في مواجهة العصر » ، ص ١٥ ومابعدها .

وأما « التعقيل » فهو أن نجعل احتكامنا إلى العقل دون النزوة والهوى ـ وإلا وقعنا مرة أخرى عبيداً لسطوة العاطفة والانفعالات ـ وإذا قلنا « العقل » فقد قلنا أحد أمرين ، أو الأمرين معاً ، فإما أن يستند الإنسان في أحكامه إلى شواهد الحس والتجربة ، وذلك إذا كان موضوع البحث ظاهرة خارجية من ظواهر الطبيعة والمجتمع ، أو أن يستند الانسان في أحكامه إلى سلامة الاستدلال في استخراج تلك الأحكام من مقدماتها ، وذلك حين يكون موضوع البحث فكرة نظرية ، وقد يجتمع الطريقان معاً في بحث واحد بعينه ، فنجمع شواهد من تجاربنا أولا ، ثم نكوّن فكرة نظرية نستدل منها إلى ما يسعنا من نتائج ـ وذلك هو سبيل العقل[88] .

على أن الفكرتين ـ فكرة الحرية وفكرة التعقيل ـ مكملتان إحداهما للأخرى ، لأنك إذا تحررت من قيود الجهل والوهم والخرافة ، كنت بمثابة من قطع من الطريق نصفه السلبي ، وبقى عليه أن يقطع النصف الآخر بعمل إيجابي يؤديه ، كالسجين تخرجه من محبسه ، فلا يكون هذا وحده كافياً لرسم الطريق الذي يسلكه بعد ذلك ، وكذلك التحرر من خرافة قد يقع في خرافة أخرى ، ولهذا كان لابد لتكملة الطريق على الوجه الصحيح أن تكون أمام المتحرر بعد تحرره خطة مرسومة يهتدي بها ، وما تلك الخطة الهادية إلا خطة « العقل » في طريق سيره ، ومعنى ذلك أن النهضة الثقافية التي جاءت بالدعوة إلى الحرية والتعقيل قد كفلت أمامنا سواء السبيل بنصفها السلبي والايجابي معاً . . !

ولا شك أن العلوم المختلفة من طبيعة وكيمياء وطب وهندسة وغيرها ، من شأنها أن تكفل « التحرر » من الخرافة ، كما تكفل « تعقيل » السير إلى الهدف الذي تريده ، ومن هنا جاء اهتمام مفكرنا الكبير بالعلم ومناهجه ، والتصدي بكل جهد ممكن لإشاعة التفكير العلمي في كل ما يتعلق بالطبيعة وظواهرها ، ولعل كتبه الأكاديمية كلها ليست سوى لبنات في هذا الصرح ، هكذا كانت أهداف « خرافة الميتافيزيقا » ، و « نحو فلسفة علمية » ، و « المنطق الوضعي » ، بجزئيه ، الذي أعلن خطته في مقدمته بكل وضوح « أنا مؤمن بالعلم ، كافر بهذا اللغو الذي لا يجدي على أصحابه ، ولا على الناس شيئاً ، وعندي أن الأمة تأخذ بنصيب من المدنية يكثر أو يقل بمقدار ما تأخذ بنصيب من العلم ومنهجه . . »[89] .

كان اهتمامه بالعلوم المختلفة نتيجة منطقية لاهتمامه « بالحرية والعقل » معاً ـ وهما الدعامتان الأساسيتان لنهضتنا الحديثة ـ وهو بذلك إنما يكمل الشوط الطويل الذي قطعه المفكرون التنويريون منذ عصر رفاعة الطهطاوي حتى الآن .

إسهامات خاصة :

إذا ما تساءلنا عن الإسهامات الخاصة التي قدمها زكي نجيب محمود في سبيل نهضتنا الثقافية ـ كان الجواب : إنها كثيرة ، لقد أكمل في بعضها الدعوة الى المفاهيم التي كانت تتبلور في مسار النهضة السابق ، ولا سيما فكرتي « الحرية » ، و « العقل » . لكنه ها هنا كان أكثر تحديداً ، ولهذا فاننا نراه لا يكتفي باستخدام هاتين الفكرتين أو الدعوة إليهما ، وانما يأخذ نفسه بتحديد كل لفظ يريد أن يستخدمه ويطلب من الآخرين أن يفعلوا ذلك « فهو يتشدد في الشروط المفروضة على المتكلم الجاد

---

(٨٨) من زاوية فلسفية ص ٦ وأيضا « فلسفة وفن » ص ٣ ـ ٤ وانظر أيضا « قشور ولباب » ص ١٤٤ ـ ١٥٩ .

(٨٩) « المنطق الوضعي » الجزء الأول ـ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥١ .

اذا نطق بعبارة أراد بها انتقال فكرة من رأسه الى رؤوس الآخرين[٩٠] .

واذا كانت الدعوة الى الدقة في تحديد المعاني هي أهم الهموم التي حملها هذا المفكر طوال ما يزيد على نصف قرن ، فقد كان يشعر أن من أوجب واجباته على نفسه أن يتوخى هو مثل هذه الدقة التي يدعو اليها الناس[٩١] .

ولهذا ليس ثمة ما يدهشنا عندما نجده في بداية حديثه عن الحرية يتساءل « ما المقصود بالحرية » ؟ . تلك الكلمة التي ترددت على أقلام الكتاب وألسنة الخطباء والمتحدثين منذ أواخر القرن الماضي . . . ثم يروح يضرب بمبضع التشريح في هذه الفكرة ليستخرج معانيها المختلفة التي أخذت تزداد مع الأيام اتساعاً وعمقاً ، فقد بدأت وهي تتضمن المساواة بين المواطنين « بحيث يكون للمواطنين حق الشورى في أمور بلادهم ، ثم إذا جاء المستعمر البريطاني تحول معنى « الحرية السياسية » ليصبح تحرراً من المستعمر ؛ وظلت هذه القضية هي الشغل الشاغل الى أن عبث بها النفوس فتفجرت ثورة ١٩١٩ ، فأخذ معنى الحرية يتعمق فلم يعد فقط التحرر من المستعمر بل أصبحنا نتحدث عن « حرية الاقتصاد الوطني » ، و « حرية المرأة » ، وحرية الفنان والأديب . . الخ وهكذا أخذ تيار الحريات يتصاعد قوة وتنوعا الى أن جاءت ثورة ١٩٥٢ ، ففتحت أبواباً واسعة لحريات اجتماعية : تحرر الفلاح من تسلط صاحب الأرض ، وتحرر العامل من تحكم صاحب العمل . . الخ[٩٢] .

لكن أحدا ، طوال هذا التاريخ ، لم يضع « هذه الحريات » على مائدة التشريح ، وإنما ترك التحليل العقلي لزكي نجيب محمود المنطقي ، لينظر نظرة فاحصة مدققة في تلك الحريات بكل فروعها ليكشف لنا عن حقيقة لها خطرها ، وهي أن أهدافنا السابقة من تلك الحريات كانت تنحصر في الجانب السلبي وحده بمعنى أن تكون المطالبة القومية مقصورة على « التحرر » من قيود تكبلها في هذا الميدان أو ذاك : كالتحرر من الاحتلال البريطاني ، وتحرر المرأة من طغيان الرجل وتحرر العامل الزراعي من استبداد مالك الأرض ، وتحرر العامل الصناعي من تحكم صاحب رأس المال ، وتحكم كذا من كيت . . وبعبارة أخرى أوشكت كل جهودنا المبذولة طلبا للحرية أن تنحصر في تحطيم الأغلال والقيود ، وهو أمر واجب ومطلوب ، غير أن التحرر ليس سوى جانب واحد فقط من الحرية هو « الجانب السلبي » ـ إنه في حقيقته لا يزيد على أن يفتح باب السجن لينطلق السجين حراً » ، أي أنه لم يعد مغلول الحركة مقيد الخطى . ولكن ماذا بعد ذلك ؟ ماذا « يصنع » ليحيا ؟ .

ها هنا تبدأ الحرية بمعناها الايجابي الذي لا بد فيه من « قدرة » الإنسان على أداء عمل ، ولا قدرة في أي ميدان إلا لمنْ عرف حقيقة ذلك الميدان وما يتعلق به ـ إننا نريد « حرية الذين يعملون »[٩٣] .

وهكذا ربط مفكرنا ربطا وثيقا بين الحرية بمعناها الإيجابي ، وقدرة الانسان على أداء عمل معين « يعرف » كيف يقوم به ، فالجانب الأيجابي من الحرية والمعرفة

---

(٩٠) من مقدمة الطبعة الأولى لكتابه « موقف من الميتافيزيقا » ط ٢ عام ١٩٨٣ دار الشروق .

(٩١) « ثقافتنا في مواجهة العصر » ص ١٩٣

(٩٢) ـ قيم من التراث ص ٢٢١

(٩٣) هذا عنوان مقاله عن الحرية وتحديدها في كتابه « قيم من التراث »

وجهان لعملة واحدة . إنَّ الطفل الذي يظفر بقلم وورقة بعد بكاء عنيد « حر » في أن يخط بالقلم ما يشاء . والفنان « حر » في إقامة بنائه اللوني على اللوحة ، لكن ما أبعد الفرق بين حرية وحرية ! لقد أزيلت الموانع التي كانت تحول دون حصول الطفل على ورقة وقلم ، فلما بلغ مراده كان حرا ، وانطلقت تلك الحرية المجنونة « تشخبط » الخطوط على الورق بلا هدف . وأما الفنان العارف بأسرار فنه ، فقد استطاع بحريته « المقيدة » بقواعد الفن وأصوله أن يُبدع ما قد يضاف الى كنوز الجمال . واذن فالتحرر هو الجانب السلبي من الحرية ، أما الجانب الايجابي فهو يرتبط بالعلم والمعرفة ، ومن هنا كان حق الحرية بمعناها الايجابي المنتج مقصوراً على أولئك الذين يعلمون !

أما الفكرة الثانية ـ « فكرة العقل » ـ فقد وقف مفكرنا عندها طويلا لما لها من أهمية في بناء حياتنا الثقافية : « فاذا كانت الحرية في جانبها السلبي تعني « التحرر » من القيود ، فانها في جانبها الايجابي تعني البناء ، وذلك يحتاج الى خطة مرسومة يهتدى بها مَنْ تحرر من القيود ، وهذه الخطة الهادفة هي التي يرسمها « العقل » . . (٩٤) فما هو هذا العقل ؟ . مهما اختلفت تعريفات الناس للفظة « عقل » فانهم في عصرنا الراهن على الأقل متفقون على إبعاد معنى لا يجوز أبداً أن ينصرف إليه مفكر واحد وهو المعنى الذي يتصور أن ثمة في عالم الكائنات كائناً مستقلا بذاته قائماً برأسه اسمه « عقل » ، كما يشير اسم « هملايا » « مثلا » الى جبل معلوم . بل إن العقل اسم يطلق على فعل من نمط ذي خصائص يمكن تحديدها وتمييزها ، والفعل ضرب من النشاط يعالج به الانسان الأشياء على وجه معين(٩٥) . واذا كان العقل فعلا فاننا نستطيع تحديده على النحو التالي : « العقل حركة انتقالية تبدأ سيرها من شواهد وبينات ومقدمات ، وينتهي عند نتيجة تتولد مما بدأ منه . فليس عقلا ذلك الذي يدرك ما يدركه بلمحة مباشرة أو بلمعة (كما يقولون) لأن أمثال هذه الادراكات المباشرة لها أسماء أخرى ، وطبائع أخرى . أما العقل فادراكه غير مباشر لأنه قدرة استدلالية ، ومعنى ذلك أنه يتضمن قيام طرفين : طرف نبدأ منه ، وطرف آخر هو النتيجة التي تنتهي إليها . .(٩٦) » . والعقل حر في إختيار الطرف الأول الذي يبدأ منه ، ولكنه إذا ما حدد لنفسه نقطة البدء لم تعد له بعد ذلك حرية النتائج ، لأن هذه النتائج تلزم بالضرورة عن نقطة الابتداء(٩٧) .

« على أن للعقل طريقين اثنين ، لا ثالث لهما ، يلتزم منهما هذا الطريق أو ذاك ، بحسب الموضوع الذي يفكر فيه ، أما أحدهما فهو الطريق الذي يجعل نقطة ابتدائه كلمات بعينها ، أما الآخر فهو الطريق الذي يجعل نقطة إبتدائه معطيات تعطاها حواسنا الظاهرة . .(٩٨) . في الحالة الأولى يجد العقل أمامه عبارة مركبة من كلمات أو رموز الرياضة ، فيصب عليها عمله الفكري . وليس أمامه إلا أن يستخرج من تلك العبارة مضامينها التي تكمن في مفهومات رموزها . إن العقل في هذه الحالة لا يتبرع بفكرة من عنده ، بل مهمته أن يفض الأغلفة التي تستر المعاني داخل رموزها ، فكما أنك إذا وضعت في

---

(٩٤) في مفترق الطرق ص ٣٢٠
(٩٥) تجديد الفكر العربي ص ٣٠٩
(٩٦) ـ « عن الحرية أتحدث » ـ ص ٢٠
(٩٧) ـ المرجع نفسه في الصفحة نفسها .
(٩٨) « في مفترق الطرق » ص ٣٢١

طاحونة الغلال قمحاً ، لم يخرج لك إلا دقيق القمح ، واذا وضعت في عصارة الخضر والفاكهة عنبا لم يخرج لك منه إلا عصير العنب ، كذلك الحال في تركيبات اللفظ أو الرمز تكمن فيها معان ثم يأتي التفكير العقلي ليستخرج تلك الكوامن فيأخذ ما يريد ويرفض مالا حاجة لنا به ، والتفكير الرياضي كله هو من هذا القبيل ،(٩٩) وذلك أول الطريقين ، أما الطريق الثاني فهو حين لا يكون ما بين أيدينا إلا مركبات من ألفاظ ورموز ، بل « معطيات » تلقتها حواسنا من مصادرها . وفي هذه الحالة يكون طريق العقل مختلفاً عن طريقه في الحالة الأولى ، ذلك لأن عمله هنا هو محاولة الكشف عن الروابط القائمة بين مجموعة الأشياء التي رأيناها أو سمعناها أو أدركناها بأية حاسة أخرى من حواسنا ، فافرض مثلا أن السماء تمطر ، فكل الذي نراه قطرات ماء ، ثم نبدأ في الكشف عن الصلة بين هذه القطرات وبقية المحسوسات ، كأن نرى العلاقة بينها وبين درجة الحرارة ، وبينها وبين درجة الرطوبة ، وبينها وبين درجة ضغط الهواء ، وبينها وبين اتجاه الريح . . الخ فاذا كشفنا عن تلك الروابط كنا أمام ما يفسر المطر تفسيراً عقلياً(٩٩) . .

العقل اذن فاعلية تبدأ من بداية معينة : تعتصر الرموز اذا كانت البداية فكرة رياضية لتقول إنها تنتج كذا وكذا ، أو تبدأ من وقائع حسية فتربط بينها وبين وقائع أخرى لتستخرج لنا ما نسميه بالقوانين .

ويستحيل على العملية العقلية ـ كائنة ما كانت مادتها ـ أن تتحرك قيد شعرة إلا إذا كانت بين أيدينا « نقطة الابتداء » التي منها نسير ، وقد تكون نقطه الابتداء هذه « وقائع » ، وقد تكون « فروضاً » ـ فان كانت الأولى كانت العملية العقلية من الضرب السائد في علوم الطبيعة ، واذا كانت الثانية كانت من الضرب السائد في علوم الرياضة ، ولا ثالث لهذين الضربين في عمليات الفكر ، فمهما تنوعت موضوعات البحث ، ألفيتها ـ بعد شيء من التحليل ـ إما منتمية الى النوع الذي يبني على الحقائق الواقعة ، وإما منتمية الى النوع الذي يُبني على الفروض(١٠١) .

وهكذا نصل الى ثنائية « المبدأ » أو ثنائية نقطة البداية(١٠٢) : التي قد نبدأ فيها من وقائع الطبيعة ، وهو ما تفعله مجموعة العلوم الطبيعية ، كما ذكرنا ، وقد نبدأ من « فروض » كالرياضة : فتكون مبادىء مختارة ليس فيها إلزام لأحد من غير أصحابها فقد يفرض الرياضي أن المكان مستو ثم يبني النتائج على فرضه هذا ، أو قد يفرض أن المكان كُرّى ثم يستنبط ، أو أن المكان أسطواني ـ وهكذا(١٠٣) .

غير أنه اذا كانت الرياضة هي المثل الكلاسيكي للبداية التي تبدأ من فروض ، أو مبادىء مختارة ، فان الديانات المختلفة مثل آخر للنسقات الفكرية التي تُبنى على « مبادىء » ، فكل منها يضع كتابه أمامه « مبدأ » يسير منه ويستنبط ، بحيث تكون الأحكام الفقهية في

(٩٩) في مفترق الطرق ص ٣٢٢

(١٠٠) المرجع نفسه ص ٣٢٣

(١٠١) ـ في مفترق الطرق ص ٣٢٣

(١٠٢) ـ كلمة « مبدأ » هنا ليست لها أية دلالة أخلاقية لأن المقصود اشتقاقها اللغوى من حيث هى نقطة « ابتداء » .

(١٠٣) ـ تجديد الفكر العربي ص ١٩٣ .

كل دين صوابا بالنسبة الى نص كتابها[١٠٤] . وهنا نلفت النظر الى نقطة هامة وخطيرة : وهي أن المنظومات الفكرية المختلفة ، وإن تكن كل منها مستقلة عن الآخرين في صواب أحكامها أو خطأ تلك الأحكام ، أعني أن كلا منها اذا استشهد بصواب حكم معين فمرجعه هو مبدؤه ، لا مبدأ المنظومة الأخرى ، الا أننا نستطيع المفاضلة بين هذه المنظومات الكثيرة المتجاورة على أساس ما تؤديه كل منها للحياة الانسانية من سعادة أو من تسام أو غير ذلك ، فالأمر هنا شبيه بأن ترى بيوتا متجاورة ، لكل منها أساسه الذي أقيم عليه ، ولكل منها أجزاؤه الداخلية التي بنيت على ذلك الأساس ، فلا يكون بيت منها حجة على بيت آخر ، فقد يهدم أحدهما لضعف أساسه ، بينما يبقى الآخر بقوة أساسه ، لكن استغلال هذه البيوت المتجاورة بعضها عن بعض لا يمنع من المفاضلة بينها من ناحية ما تؤديه في حياة ساكنيها[١٠٥] .

ضربنا مثلين للمبادىء المفروضة نختارها ليبدأ منها العقل سيره ، هما « العلوم الرياضية » ، و « البناءات الدينية » - ونستطيع أن نسوق مثلا ثالثا من الفكر السياسي ، فها هنا كذلك تجد النظرية السياسية تبدأ من « مبدأ » معين تقيم عليها بناءها كله ، خذ مثلا فيلسوفين انجليزيين هما « هوبز » و « لوك » الأول يقيم نظريته السياسية على أساس أن حق الحكم للأقوى ، وهذا ، الأقوى إذا ظفر بالسلطان لم يعد من حق الشعب المحكوم أن يقبله أو أن يعترض عليه . أما الثاني فيقيم نظريته السياسية على أساس أن حق الحكم لمن يختاره الشعب ، وبذلك يكون للشعب حق إقالة الحاكم إذا انحرف عما أرادوه من أجله . من المبدأ الأول ننتهي الى حكم الفرد المستبد ، ومن المبدأ الثاني ننتهي الى حكم الشعب لنفسه . وهكذا نجد أنفسنا أمام منظومتين فكريتين كل منها ترتكز على ركيزة ، وكل منها يحكم على نتائجها بالصواب أو الخطأ بحسب طريقة استنباطها من مبادئها ، فكيف نفاضل بينهما إذا أردنا أن نختار لأنفسنا إحداها دون الأخرى ؟ اننا لا نفاضل بينهما على أساس صواب إحداهما وخطأ الأخرى ، لأن كلا منهما قد تكون صحيحة الأجزاء ما دامت هذه الأجزاء مستنبطة استنباطاً سليماً من المنبع ، بعبارة أخرى قد تكون كلتا المنظومتين صواباً على ما بين تفصيلاتهما من اختلاف بعيد ، لسنا نفاضل بينهما على أساس الصواب والخطأ لأن كلا نهما مبنية على « مبدأ » ، والمبدأ « فرض » والفرض لا يوصف بصواب أو خطأ ، وانما تكون المفاضلة على أساس النفع للانسان في حياته . . وقل مثل ذلك في جميع المذاهب الفلسفية الأخرى[١٠٦] .

---

(١٠٤) - قد يعترض معترض قائلا · كيف يمكن أن تكون الديانات المختلفة أمثلة للنسق الرياضى العقلى ، في حين أن البداية في أى دين بداية وجدانية أو قلبية أو ايمانية - أعني « غير عقلية » ؟! . . لكن صاحب الاعتراض يغفل النقطة الهامة في الموضوع ، فدور العقل هنا يبدأ من « نقطة معنية » - سواء جاءت عن طريق القلب أو الوجدان أو الوحى أو الغريزة - ثم يستخرج منها ما تؤدى إليه من نتائج ، أو يعتصر المقدمات كما نعتصر عنقود العنب - وتلك « علوم الدين » ، لا الدين نفسه - وسوف نعود الى الحديث عنها بعد قليل - وفي إستطاعتك أن تقول الشيء نفسه عن العلوم الرياضية ، فطريقة السير من البداية الى النتائج هو الفاعلية العقلية ، لكن البداية كيف تكون . . ؟ معرفات · « النقطة ما لا طول له ولا عرض » - . . الخ لكن هذه كلمات تحتاج هى نفسها الى تعريف فالجأ الى كلمات جديدة ثم الى كلمات أخرى ثالثة ورابعة وهكذا الى أن وصل الى ما يسمى « باللامعرفات . . Inde f inables » . . إذ يستحيل أن أسير الى مالا نهاية ، وهكذا تكون البداية في الرياضة هى بدورها بداية غير عقلية بمعنى ما . قل مثل ذلك في سائر الاستخدامات لكلمة عقل في حياتنا اليومية أو الاجتماعية أو السياسية . الخ وحتى المعنى اللغوى الذى يلزمنا بأن « أتقيد » في خطوات الانتقال بحيث تؤدى كل خطوة الى الأخرى « فإذا كان العقل هو ذلك النمط من أنماط السلوك الذى يتبدى عندما نحاول رسم الطريق المؤدية الى هدف أردنا بلوغه ، فليس الهدف المختار في ذاته « عقلا » ، لأنه وليد الرغبة وحدها ، وليست النقطة التى أبدأ منها السير على الطريق « عقلا » ، لأنها مبدأ مفروض ، أما العقل بمعناه الدقيق فهو ببساطة شديدة رسم الخطوات الواصلة بين هذا المبدأ المفروض من جهة ، وذلك الهدف المطلوب من جهة أخرى » أزمة التطور الحضارى في الوطن العربي ، ص ٢١ - وانظر أيضا « ثقافتنا في مواجهة العصر » ص ١٩٧ .

(١٠٥) - تجديد الفكر العربي ص ١٩٤

(١٠٦) - « تجديد الفكر العربي » - ص ١٩٦

العقل ، إذن ، فاعلية أو نشاط نسير به من أ الى ب ، وقد تكون « أ » معطيات الحس ، و « ب » هي القوانين أو أدوات الربط بين الظواهر الطبيعية ، وذلك هو طريق العلم الطبيعي ، وقد تكون « أ » بداية مفترضة هي الرموز الرياضية أو هي « النصوص الدينية » أو « النظريات السياسية » ، أو المبادىء النظرية في المذاهب الفلسفية المختلفة .. الخ ويكون أساس المفاضلة بينها هو مدى نفعها لحياة الانسان .

غير أننا إذا نظرنا بهذه الفاعلية « العقلية » الى أمور الحياة والثقافة معاً ، كنا كمْن يسأل عند كل موضوع مطروح : هل الخطوة الفلانية إذا خطوناها بلغنا الأهداف ؟ ! وهذه النظرة تستتبع صفات فرعية كثيرة تنتج عنها كما تنتج الثمرات من شجراتها ، وهذه الصفات تشكل ما نُسميه « بالنظرة العقلية » أو الوقفة العاقلة ـ ويمكن تلخيصها فيما يلي :ـ

١ ـ أولى هذه الصفات ـ وهي نفسها نتائج نابعة من ذلك المبدأ العقلاني أن تتحدد الاشياء بنسبها الصحيحة بعضها من بعض ، فيبدو الكبير كبيراً كما هو والتافه تافها كما هو ، فقد تهتم الدولة المتحضرة بمسألة علمية تريد لها أن تستقر في أذهان الناس ، ولكنها تتغاضى عن توافه السلوك التي ربما اختارها هذا الرجل أو ذاك .

٢ ـ ومن النتائج التي تترتب على الوقفة العاقلة أيضا ايثار الآجل على العاجل إذ كان في العاجل خير قليل قد يعقبه شر كثير ، أو كان في الآجل خير كثير قد يسبقه شيء من ألم التضحية .

٣ ـ ومن أبرز جوانب النظرة العقلية ، وأكثرها أهمية بالنسبة لنا ، أن تُردَّ الظواهر الى أسبابها الطبيعية ، فلا يفسر المرض ، مثلا ، الا بالجراثيم التي أحدثته ، ولا يعلل سقوط المطر إلا بظروف المناخ ، وهكذا . ويترتب على هذا الربط السببي الصحيح أن تلتمس للأشياء أسبابها الطبيعية كذلك . فاذا أردنا غلالا زرعنا لنحصدها ، واذا أردنا قتالا حملنا له السلاح بمران واقتدار[١٠٧] . ومن هنا كان السحر ، مثلاً ، هو الضد المباشر للنظرة العقلية . إنه انه«اللا معقول » ذلك لأن السحر يعلل الأحداث بغير أسبابها الطبيعية ، فاذا كانت علة المطر الطبيعية ، مثلا ، هي مقدار ما يتكثف في الهواء من بخار الماء جعلها الساحر ورقة يكتب عليها أحرفا يختارها أو عبارات يزعم لها القدرة على إنزال المطر ، واذا كانت علة الشفاء من مرض معين هو أن تزال الجراثيم التي تحدثه كانت هذه العلة عند الساحر « عفريتا » سكن الجسد العليل ، والشفاء من المرض انما يكون بطرد هذا العفريت بأقوال تقال ، وبخور يعطر جو المكان ، ويطهره من الكائنات الشيطانية العابثة بأجساد الناس . . وهكذا[١٠٨] .

٤ ـ والنظرة العقلية تنظر الى الواقع كما هو لتحوره الى واقع جديد اذا أرادت ، دون أن تقيم بينها وبين الواقع حائلا تنسجه الأوهام ، ثم سرعان ما تنسى أنه أوهام ، فاذا كان البدائي يخلق لنفسه الخرافة لينظر بمنظارها الى واقع الدنيا ، فإن المتحضر هو الذي يواجه تلك الوقائع كما تبدو لبصره وسمعه .

٥ ـ على أن أبرز ما تتميز به النظرة العقلية الى الكون هو حب الانسان للمعرفة حيث يلمّ بأسرار البيت الذي

(١٠٧) ـ « المعقول واللامعقول في تراثنا الفكرى » ص ٤٣٧

(١٠٨) ـ « ثقافتنا في مواجهة العصر » ص ١٩٨ ـ ١٩٩ وانظر أيضا « أزمة التطور الحضارى » ص ٢١ ـ ٢٢

هو ساكنه ، فالعقلاني في نظرته ذو نهم نحو معرفة الحقائق والطبائع والعِلل ، ولا يصده عن ذلك شيء من التحريم الذي يفرضه البدائيون على أنفسهم .

أيكون غريباً بعد ذلك أن نقول ان « سلطان العقل هو مدار القياس لدرجة الحضارة ؟ فقل لي كم عقلت أمة في تدبير أمورها ، أقل لك كم صعدت في مدارج التحضر . .[(١٠٩)] . فالعقلانية في وجهة النظر هي التي تراها ماثلة في كل حضارة مهما اختلف لونها ، ولا تراها في أي جماعة بدائية مهما تعددت بعد ذلك صفاتها ، فلربما اتجهت النظرة العقلية نحو الأخطار المجردة تنظمها وتنسقها في ترتيب هرمي يضع الأهم منها فوق الأخص ، كما حدث عند اليونان الأقدمين أو ربما إتجهت نحو تحليل ما نزل به الوحي من تشريع ، كما جدث للعرب الأولين ، أو إتجهت نحو ظواهر الطبيعة تستخرج قوانينها النظرية كما حدث لأوربا في عصورها الحديثة ، أو اتجهت نحو تجسيد تلك القوانين العلمية النظرية في أجهزة يديرها الانسان أو تدير نفسها بنفسها كما يحدث لعصرنا القائم[(١١٠)] .

على ضوء هذا الذي أسلفناه نستدير الى عصرنا وحضارته ، إنه ليس بدعا يشذ من القاعدة التي سارت عليها العصور ، فالحضارة فيه ما زالت قائمة على نفس الأساس الذي قامت عليه حضارات السالفين والأساس هو « العقل » . . ونسأل بعد ذلك أين تقف الأمة العربية اليوم من المسيرة الحضارية ؟ . . . « وأجيب بجواب يختلط فيه قليل من الأسى وكثير من الأمل ـ الأسى للهوة اللاعقلية العميقة التي لا تزال تتخبط في ظلالها ، والأمل في جيل جديد أراه على الطريق الى اللاعقليه العلمية وضيائها . .[(١١١)] .

على أننا لا نستطيع أن نغادر هذا الجزء الهام ، مع مافيه من جوانب عقلية قيمة ـ قبل أن نشير الى مسألة قد نختلف فيها مع أستاذنا الكبير وهي « المفاضلة » بين المذاهب الفلسفية على أساس نفعها ، ذلك لأن كلمة « النفع » منذ البداية كلمة غامضة وتثير أسئلة كثيرة : ما هو المذهب « النافع » وبأي معنى ؟ ومتى يكون كذلك ؟ ألا يمكن أن يكون المذهب « غير نافع » الآن ثم يتضح أنه « نافع » بعد عشرات السنين ؟ ! ألم يجد فلاسفة النهضة ، مثلا ، أفكاراً نافعة عند فلاسفة اليونان . ؟ !

ثم ألا يجوز لنا أن ننقد المذاهب الفلسفية من منظور غير المنظور النفعي ؟ ألم يستعرض أرسطو ، مثلا ، في كتابه « الميتافيزيقا » الفلاسفة السابقين عليه من طاليس حتى أفلاطون ناقداً كل فيلسوف على حده من منظور عقلي لا علاقه له بالمنفعة ؟ !

ثم ألا يمكن أن يكون « نقد » فلسفة ما ، أو تقييد مذهب معين لا يعني سوى أن المبدأ الذي يرتكز عليه قد أصبح عاملاً مساعداً ، أو عنصرا مسلسلا في الفلسفة التي تليها ، وهكذا تسير المذاهب الفلسفية يعقب بعضها بعضا في تطور جدلي تندثر قشرتها الخارجية ، ويبقى مبدؤها ليصبح عنصراً مكوناً في مذهب أعلى . ؟[(١١٢)]

ألم يقل هيجل إن « الفلسفة » كل متصل تدفعه ضرورة داخلية ، فكل فلسفة كانت ولا تزال ضرورية ،

(١٠٩) ـ المرجع نفسه ص ١٩٩ ـ و « أزمة التطور الحضارى » ص ٢٢

(١١٠) ـ ثقافتنا في مواجهة العصر ص ١٩٦ ـ وأزمة التطور الحضارى ص ٢١

(١١١) ـ المرجع نفسه ص ٢٠٣

(١١٢) ـ Hegel: Science of Logic vol. II p. 914 Eng. Trans Log W. Johnston- Allen & Unwin 1951.

وبالتالي فليس منها ما اختفى وزال ، وإنما تجدها عناصر إيجابية في كل واحد . . وآخر فلسفة هي نتيجة لجميع الفلسفات السابقة . . »(١١٣) فلا يكـون ، في هذه الحالة ، ثمة « مفاضلة » بين المذاهب الفلسفية التي تشبه الشجرة مع نموها ، ولم يكن في استطاعة أي مذهب أن يرى النور ما لم تتقدمه المذاهب السابقة كلها !

مشكلة الأصالة والمعاصرة :

كانت قضية الجمع بين الأصالة الثقافية التى تضرب بجذورها الى المقومات الأولية التى جعلت من العربى عربيا ، وبين المعاصرة التى تجعله جزءا من زماننا بنشاطه الفكرى لابمجرد وجوده الجسدى ـ هى قطب الرحى و« أم المشكلات » ـ كما سبق أن ذكرنا ـ في حياة مفكرنا الكبير حتى إنه يقول عنها إنها أصبحت القضية التى يصح أن نقول حيالها قولة هاملت في أزمته النفسية : أن أكون أو ألا أكون : ذلك هو السؤال(١١٤) . فإذا كان موضع الإشكال عند أسلافنا هو طريقة اللقاء بين أحكام الشريعة ومنطق العقل ، فقد أصبح موضع الإشكال عندنا اليوم هو طريقة اللقاء بين العلم والانسان(١١٥) . أو بمعنى آخر طريقة اللقاء بين « العقل والوجدان »(١١٦) . والصيغة التى يقترحها مفكرنا الكبير كحل لمشكلة « الأصالة والمعاصرة » هى الصيغة التى تجمع بين « العقل والوجدان » بحيث يكون واضحا لدينا أن مجال العقل يشمل جميع الظواهر الطبيعية والاجتماعية . . الخ التى تحتاج الى تفسير « علمى » بالمعنى الواسع لهذه الكلمة ـ وهو المعنى الذى يسوّى بين البشر أجمعين ويكون هناك إمكان لعرض خطوات السير عليهم خطوة خطوة حتى نصل من نقطة الابتداء الى النتيجة التى تنتهى اليها . أما مجال الوجدان فهو مجال الفن والشعور بصفة عامة وهو مجال يتميز بأنه « ذاتى » خاص بالفرد ، وليس عاما مشتركا بين الناس ، ففى بدائع الفن نجد أن لكل فنان طابعه الفردى الخاص الذى يستمده من حياته الباطنية التى لايشاركه فيها إنسان آخر . وعلى ذلك فإن علينا أن ندرك أنه في مقدمة الاصلاح ، اذا أردنا اصلاحا ، أن نربى الأجيال الجديدة على وقفة أخرى يفرق لنفسه فيها تفرقة واضحة بين ماهو عام فيحيله الى العقل وأدواته ، وما هو خاص فلا بأس عندئذ في الركون الى لغة الشعور(١١٧) . فإذا ما تساءلنا : لماذا انقضت على مصر منذ بدأت نهضتها الحديثة حتى الان مائة وخمسون سنة على الأقل ، ومع ذلك لانستطيع أن ندعى بأنها تشربت من ثقافة العصر الجديد ماكنا نتمنى لها أن تتشربه ؟ ! لماذا أصبح المتعلمون في مصر يعدون بعشرات الملايين ، ومع ذلك فإن نفورهم من رؤية الحياة بنظرة علمية تلتزم منطق العقل لايقل عن نفور أجدادهم الذين غمرتهم موجة الظلام إبان القرون الثلاثة السابقة على بدء النهضة الحديثة . . ؟ . ! إذا طرحنا أسئلة كهذه ، وجدنا لها جوابا واحدا هو : نقص في تربية العقل وإسراف في إشعال الوجدان(١١٨) . كما لو أن شيئا في تركيبنا الثقافى يوسوس لنا دائما بأن العقل وحده لايكفى سندا للانسان في حياته ، وأن ظواهر كثيرة تحدث متحدية العقل أن يفسر حدوثها بمنطق العلم ، فلا يسع العقل إزاءها الا

---

(١١٣) Hegel: The History of Philosophy Vol. I، p. 37 Trans by H.S. Haldane. -

(١١٤) قصة عقل ص ٢٢٢

(١١٥) تجديد الفكر العربي ص ٢٧١

(١١٦) قصة عقل ص ١٨٩

(١١٧) قصة عقل ص ١٢١

(١١٨) المرجع نفسه ص ١٢٢

أن يقف عاجزا ، ومثل هذا الشعور بعجز العقل وقصور العلم ، يتملكنا بدرجة قلَّ أن تجد لها نظيرا في شعوب أخرى وعلى الرغم من يقيني بأهمية الجانب الوجداني في حياتنا فلطالما أحسست بواجبي في الاعلاء من شأن العقل - والعقل يتبعه قيام العلم ومناهجه - حتى لو ذهبت في ذلك الاعلاء الى حد المبالغة ، لأحدث نوعا من التوازن في حياتنا بين عقل ووجدان ، إذ التوازن بينهما مفقود[١١٩] .

إن المشكلة الحقيقية التي نصادفها في حياتنا العملية ليست في قبول صيغة « العقل والوجدان » - وانما في بيان مجاليهما من ناحية ، وما يستتبعه الأخذ بهما في دنيانا الواقعية من ناحية أخرى : سل من شئت هل تحب أن تتابع العصر في عقلانيته وتقنياته ؟ يجبك في استعلاء بأن العقلانية وما يترتب عليها هي جزء من ميراثنا الأصيل ، لكن قل له إنها في عصرنا تستتبع عدة أمور : منها ألا تلقى بزمامك الى العاطفة أيا كان نوعها ، ومنها أن يتولى العمل من يحسن أداءه ، لا من ينتمي الى أصحاب الجاه بأواصر القربى ، ومنها أن يكون الارتكاز كله على الواقع المادي الصارم ، ومنها أن نصطنع في حياتنا نظرة علمانية تجعل محورها هنا على هذه الأرض ، قبل أن يكون هناك في عالم آخر . . قل له هذا ، يأخذه الفزع ، لأنه عندما أعلن أنه من أنصار النظرة العقلية ، لم يكن قد تخيل لنفسه أنها نظرة تلد كل هذا النسل العجيب ، فهو عقلاني بالاسم ، لا بالمضمون والنتائج ، انه يقبل من العصر تقنياته ، لأنه يريد كسائر عباد الله - أن ينعم بالسيارة والطيارة وأجهزة التدفئة والتبريد ، لكن إذا علم أن إدخال هذه الآلات في حياتنا معناه إدخال عادات جديدة ، في تلك الحياة ، ومعناه إحلال قيم جديدة محل قيم قديمة ، أخذه الهلع ، لأنه في عمق نفسه لايريد عن قيمه الموروثة بديلا . وهكذا نقع في أزمة حضارية من طراز نادر لأننا في الحقيقة بمثابة من يحيا ثقافتين متعارضتين في وقت واحد : أحداهما خارج النفس والأخرى مدسوسة في حناياها لا تريم ، فترى حضارة العصر في البيوت والشوارع والأسواق ، بينما تحس حضارة الماضي رابضة خلف الضلوع[١٢٠] . والواقع أن علينا أن نسلم بضرورة اللجوء الى العقل والى العلم الذي هو في حقيقته تجسيد للعقل في رسم السبل الناجحة . ولا يكفي أن نفاخر سائر الدنيا بأننا أصحاب قلوب عامرة بوجدانها لا فرق في ذلك بين أن يكون الموضوع المعروض للمعالجة مما تنفع أولا تنفع فيه القلوب ووجدانها : « ومن ثم كانت دعوتي التي مافتئت أكررها بوجود التفرقة الواضحة بين مجالين مجال لايصلح له الا العقل بكل رصانته وبروده ، ومجال آخر من حق المشاعر أن تشتعل فيه ماشاءت لها حرارتها »[١٢١] علينا أن نبدل ذلك الرأي الشائع فينا الآن والذي يقول إن العقل وعلومه - وهو لب العصر الذي نعيش فيه - عدو للوجدان ومشاعره ، ولما كانت الكثرة الكاثرة منا نصيرة للوجدان فسحقا للعقل ومناهجه[١٢٢] . كلا ليس العقل نقيضا للوجدان وانما لكل مجاله الخاص ، والمشكلة الأساسية عندنا تكمن في خلطنا بين المجالين أو عدم وعينا بالحدود الدقيقة لكل منهما .

واذا كان من الباحثين من يرى أن « زواج » الأصالة والمعاصرة - أو الصيغة المقترحة للجمع بين العقل والوجدان - أمنية مستحيلة التحقيق ، أو هي فكر

(١١٩) قصة عقل ص ١٢٢
(١٢٠) ثقافتنا في مواجهة العصر ص ٢٠٤ - ٢٠٥
(١٢١) قصة عقل ص ١٤٠ - ١٤١
(١٢٢) قصة عقل ص ٢٣١

بالتمنى فحسب ، فان مفكرنا الكبير يعتقد أنها قد تحققت بالفعل في تراثنا القديم ، وأن لها أمثلة كثيرة في فكرنا الحديث أيضا - وبالتالى فهى ممكنة التحقق ، بل لابد من تحققها في فكرنا المعاصر .

لقد أَلِفَ الناس قبل ظهور الاسلام ضربين من الحضارة ومن الثقافة ، اختلفا فيما بينهما الى حد التنافر ، بل الى حد الدخول في حروب مستعرة ، وهاتان الحضارتان هما حضارة الفرس وثقافتهم من جهة ، وحضارة اليونان وثقافتهم من جهة أخرى ، المحور في الحالة الأولى هو « الوجدان » - أو هو « الاملاء » إملاء القلب أو الوحى أو الحدس - يفرض على الانسان طريقة فكره ونمط سلوكه . والمحور في الحالة الثانية هو عقل الانسان يقيم له الحجة على الباطل فيرفضه ، ويسوق له البرهان على الحق فيرتضيه . . وكان الظن هو ألا سبيل الى لقاء بين « شرق » متمثلا في فارس ، و « غرب » متمثلا في اليونان ، ثم جاء الاسلام في أوائل القرن السابع الميلادى ، ومع فتوحاته انهدمت الفواصل بين الثقافتين ، أو قل انها اندمجت في خطوة أولى على طريق المواطن العالمى ، وكان ذلك الدمج الباهر هو الذى أخرج الى العالم تلك الصيغة الحضارية الثقافية الاسلامية الجديدة التى ألفت في مركب واحد : صوفية الفرس وعقلانية اليونان . وهذه الطبيعة الثالثة الجديدة قد جمعت بين إدراك الحدس الصوفى وادراك العقل الاستدلالى بحيث احتملت الحياة الثقافية الاسلامية أن يظهر فيها أعظم المتصوفة وأعظم مناطقة العقل في آن معا(١٢٣) .

ويتساءل مفكرنا الكبير « لماذا استطاعت ثقافة المسلمين أن تنقل في عصر المأمون ، بصفة خاصة ، ما نقلته من فلسفة اليونان وعلومهم الى اللغة العربية ، ولم ينقلها أهل الهند أو أهل الصين الى لغتهم ؟ ! ويجيب : إن العلة لم تكن في لغة تستطيع ولغة أخرى لاتستطيع ، بل العلة هى أن ثقافة تتقبل منطق العقل (الى جانب الوجدان) وتهضمه ، وثقافة أخرى لا تتقبله ولا تهضمه(١٢٤) . كان القرآن الكريم هو كتاب المسلمين (والدين لايلجأ في أية جهة يظهر فيها الى الاستدلال العقلى وانما هو يأتى برسالة موحاة من الله أو غير موحاة مثل أنبياء الشرق الأقصى فيتقبل الناس فحوى هذه الرسالة فإذا بها دين وعقيدة) ، فهو اذن لمحة قلب ، أو نبضة وجدان أو « حدس » بالمصطلح الفلسفى أو هو إدراك مباشر(١٢٥) .

إنه إيمان لايستند الى برهان ولا يراد له أن يستند الى برهان ، لأن الانسان لايريد برهانا على صدق وجدانه ، أو صحة شعور يشعر به مباشرة في طوية نفسه : إذا كنت جائعا وأشعر بالجوع فلست أريد البرهان من أحد على أنى جائع أو على أنى أحب - تلك حالات وجدانية داخلية يقبلها صاحبها قبولا مباشرا ، لا هو يريد لنفسه أن يبرهن على صدقها ، ولا هو متوقع من سواه أن يبرهن له عليها . وهذه الرؤية المباشرة التى لاوسيط فيها لا تقتصر على الدين فحسب ، وانما هى مجال كل ما ينتجه الوجدان من فن وأدب وتصوف . . الخ .

لكن على أساس هذا الدين الجديد قامت علوم عقلية - فإذا كان الدين ليس علما ولا هو يحتوى على علم لأنه في صميمه رسالة أخلاقية - فإن من أعظم مايفخر به الدين الاسلامى هو أنه حثَّ الناس على أن يعملوا

(١٢٣) هموم المثقفين ص ٨٢ - ٨٣

(١٢٤) المرجع نفسه ص ٨٤

(١٢٥) قد لايوافق البعض على ذلك على إعتبار أن التشريع الدينى يُراد منه أن يحكم الانسان في كل زمان ومكان ، وبالتالى فهو يستحيل أن يكون « لمحة قلب » أو « نبضة وجدان » !!

عقولهم ليكتشفوا قوانين الكون ، وبمجرد نزول القرآن لم يكد يمضى ثلاثة أرباع القرن بعد الرسالة حتى ظهرت حركة عقلية جديدة ، ففى المناخ الذى نزلت فيه الرسالة المحمدية كان الايمان مشتعلا في القلوب ، وتلك هى الخطوة الأولى ، عندما تؤخذ الرسالة الجديدة مأخذ التصديق الذى يؤمن فحسب ، ثم تأتى الخطوة الثانية ، وهو أن يصب أصحاب التحليلات العقلية تحليلاتهم على ذلك الذى كان موضع إيمان في الخطوة السابقة.

في القرن الثانى الهجرى ظهرت مجموعة من المفكرين . صممت على أن تفهم القرآن الكريم حق فهمه ، كيف ؟ ! كان من المنطقى أن يبدأوا بدراسة اللغة العربية نفسها لتجتمع لهم أدوات الفهم الصحيح . فلم يريدوا الوقوف من اللغة موقف المتذوق وكفى ، بل أرادوا أن يجعلوها دراسة علمية بأدق مايكون المنهج العلمى . ولم تكن قواعد اللغة قد استخلصت وجمعت حتى ذلك الحين ، فانصرفوا الى استخلاصها وجمعها . وهنا تشعب الباحثون الى شعبتين الأولى مقرها البصرة ، والثانية مقرها الكوفة . ومن ثم فأول مانجده من أنشطة عقلية هى هذه الدراسات اللغوية التى رأيناها في مدرسة « الخليل بن أحمد » وتلميذه سيبويه في البصرة ، والكسائي في مدينة الكوفة ـ وكذلك مابذلته المدرستان في استخراج الأسس التى لابد من الكشف عنها لكى تفهم اللغة العربية على أساس علمي صحيح . ولنلاحظ جيدا أن هذا الجهد يبذل لأول مرة في التاريخ ، فلم يحدث أن تصدى عالم قبل ذلك لاستخراج قواعد اللغة أو عروض الشعر أو الاشتقاق ، فوضع الخليل بن أحمد المعجم الأول عندما جمع المفردات من أفواه الناس لأول مرة ، فما الذى كان يستهدفه بهذا الجهد ؟ ! فهم القرآن فهما سليما . ولنلحظ هذه الوقفه نفسها ، برجل يبحث في اللغة بحثا علميا ليفهم دينه . ولننظر في هذه الوقفة فقط ، ونتخيلها فماذا نجد ؟ ! نجد أمامنا رجلا عالما اذا شئت ، متدينا اذا شئت ، لأن كليهما في « دمج واحد » ، بل انه حين أراد العلم انما أراده من أجل الدين . وهذا الوجود ذو الوجهين المتكاملين هو جمع للنمطين السابقين في نمط واحد[١٢٦] .

تلك هى الصيغة المقترحة لحل ثنائية الثقافة التى نعيشها الآن وفي استطاعتنا أن نضرب أمثلة أخرى كثيرة على وجود هذه الصيغة في ثقافتنا القديمة أعنى الجمع بين « العقل » و « الوجدان » بين ثقافة اليونان وثقافة الفرس في ثقافة جديدة خذ مثلا « علوم الدين » ـ وهى بناء علمي أقيم لخدمة الدين : الفقه مثلا ، نحن أمام نص قرآنى ، ومجموعة أحاديث نبوية وتريد أن تستخرج الأحكام الشرعية ـ وهى ليست ظاهرة كلها لكل انسان ـ وانما الظاهر منها قليل ، والباقى يحتاج الى عقل وعلم يستخلص من الآيات الكريمة ماقد كمن فيها من أحكام شرعية فهى أذن عملية عقلية ـ وعلينا مرة أخرى أن نمعن النظر في « فقيه » يقوم بهذا الدور لنجد أنه إنسان متدين وعالم في آن معا . وليست المسألة هنا مجرد تجاور العنصرين وانما العنصران متشابكان لأن أحدهما جاء ليخدم الآخر ، فإذن هما كيان واحد ، فكأنما نجد النمطين السابقين في نمط واحد[١٢٧] .

خذ مثلا ثالثا « علم الكلام » الذى سمي كذلك لأنه نشاط عقلى ينصب على تحليل « كلام » الله الذى هو القرآن الكريم . فالله « واحد » ، لكن هذه الذات

(١٢٦) هموم المثقفين ص ٨٥ ـ ٩١ ـ وقارن الحوار الذى أجراه الزميل الدكتور صلاح قنصوه مع الدكتور زكى لمجلة المستقبل العربى .
(١٢٧) المرجع نفسه

الواحدة لها صفات كثيرة من علم وإرادة وقدرة ورحمة ـ فهل تعدد الصفات في الذات الواحدة لايعطيها شيئا من التعدد ؟ ! نحن نؤمن « بالواحد » لكننا نحتاج الى عملية عقلية تبين لنا كيف أن تعدد الصفات لا يتناقض مع الواحدية المطلقة . . الخ . لكن انظر مرة ثالثة الى القائمين بهذه العملية العقلية وحاول أن ترى جوهر الرجل منهم ماهو ؟ انه دمج للنمطين في نمط واحد فهو دين وعقل معا . وقل مثل ذلك في الفلاسفة المسلمين : فمن هو الفيلسوف المسلم ؟ هو رجل أراد أن يقرأ نتاج العقل اليونانى بلغة الشريعة ، أو أن يقرأ الشريعة بلغة العقل ، وعنوان كتاب ابن رشد فيه الكفاية : « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » حلل رجلا كهذا نجد أنه أراد أن يدمج العقل اليونانى مع الشريعة الاسلامية في كيان واحد[١٢٨] .

إذا كانت هذه الأمثلة ـ وغيرها كثير ـ تتصدر التاريخ الذى ازدهرت فيه الحضارة الاسلامية ـ أيكون من الصعب أن نوفق من جديد الى الدمج بين « العقل » و « الوجدان » ؟! أيصعب علينا أن نرتبط عن طريق العقل بعصرنا الذى هو جوهر العلم ، ونرتبط بماضينا عن طريق الوجدان الذى هو بطبيعته لايتقدم ؟ ! « فالنص الدينى » يبقى كما هو ، في حين تتقدم علوم الدين أو علوم اللغة لأنها نشاط عقلى ، كما أن كلمة « التقدم » قد تكون بغير معنى في الآداب والفنون « فقد لايستطيع شاعر من شعرائنا اليوم أن يجارى امرىء القيس وقد لا يستطيع أحد من رواة الحكايات في يومنا أن يقترب من الذروة الأدبية التى بلغتها ألف ليلة وليلة ، لا ، إن التقدم لايكون إلا في معرفتنا العلمية (أو العقلية) أما ما هو خاص بالوجدان ، فلا تقدم فيه ، فلا أظن أن الأم العصرية الثكلى تبكى فقيدها على نحو أكمل من بكاء الأمهات بالأمس ، ولا أن يغنى عاشق في عشق حبيبته بأكثر مما غنى قيس في عشق ليلاه . . »[١٢٩] .

وفي ظنى أن هذه الفكرة تحل مشكلة الجماعات الدينية التى تدعونا الى أن نعود الى الماضى بوصفه أزهى عصور الاسلام ـ وذلك يكون ممكنا بالنسبة للمسائل الوجدانية التى لاتتقدم : نقاء القلب ، وإخلاص السريرة وحلاوة الايمان . . كذلك مافى الماضى من فن أو أدب ـ أما العلوم والمعارف بجميع أنواعها فلابد أن تكون هى علوم العصر لأنها مجال « العقل » وهو وحده الذى يتقدم .

فإذا تساءلنا : « من الذى أراه ياترى يجسد لنا بشخصه المتعين ذلك الضرب من اللقاء بين تراثنا ومنتجات عصرنا في دنيا الفكر ؟ ! إن أول من يرد الى خاطرى كلما ألقيت على نفسى هذا السؤال هو : طه حسين ، فالى جانب مؤلفاته ذات القيمة الكبرى ، أرى في شخصه ماهو أهم منها فيما نحن الآن بصدد الحديث فيه ، وأعنى بذلك طريقته في الجمع بين موروثنا وروح عصرنا ، أما موروثنا فلا أظن أحدا يجادل في سعة إلمامه بذلك الموروث إلماما فيه الدقة وفيه الفهم ، وأما روح العصر فظاهر في منهجه وفي رؤيته وفي تصوره . . »[١٣٠] . وأسوق مثالا آخر لرجل جمع في شخصه الحسنيين وهو الشيخ مصطفى عبد الرازق فهو الآخر يلم بالموروث إلماما يجعل ذلك الموروث على أطراف أصابعه ، وهو في الوقت نفسه يحيط بأهم مادار في عقول علماء الغرب في ميدان تخصصه[١٣١] .

---

(١٢٨) المرجع السابق

(١٢٩) ثقافتنا في مواجهة العصر ص ٢٠١

(١٣٠) من الحرية أتحدث ص ١٩٢

(١٣١) ثقافتنا في مواجهة العصر ٢٠٦ ـ ٢٠٧

والحق أننا نستطيع أن نطبق الفكرة نفسها على جميع أعلام نهضتنا الثقافية الحديثة ابتداء من رفاعة الطهطاوى حتى زكى نجيب محمود نفسه ، فكل واحد من هؤلاء المفكرين الأعلام كان أصيلا من حيث إلمامه بالتراث لكن كان أيضا معاصرا عندما وقف على ثقافة العصر ولهذا جاء فكره مركبا من الاثنين معا . اننا لا نريد لثقافتنا أن تفنى في ثقافة غيرنا بحيث نجعل منهم نموذجا لنا نحتذيه ، وانما نريد أن ينحصر تفردنا الثقافى في تلك الجوانب التى تميز الشعوب ، والتى هى في الوقت نفسه ليست مقياس التقدم الحضارى ـ هو جانب العقل ـ وأعنى بها جوانب القصيدة والفن[١٣٢] .

والخلاصة أنه ليس من المحتم أن يكون إما الحياة كلها للعلم ومنهجه الاستقرائى وإما الحياة كلها للانضواء تحت مبادىء مقبولة سلفا ـ فليس من المستحيل أن نحيا في ساحة من قسمين لكل منها منهجه الذى يلائمه : فقسم للعلوم وما يتفرع عنها من صناعات ، ويكون له منهجه القائم على تقصى الوقائع قبل صياغة القوانين ، وقسم آخر لحياة الوجدان والقيم الخلقية والجمالية وفيها يكون السير مهتديا بمبادىء مسبقة[١٣٣] .

وفي استطاعتنا أن نقول ان زكى نجيب محمود نفسه مثل حى متعين لهذه الصيغة التى يقترحها لحل مشكلتنا الثقافية ـ صيغة الدمج بين « العقل » و « الوجدان » ـ ولهذا فإن من الطبيعى أن نسأل الآن : ماهى الاسهامات التى قدمها هذا المفكر في كل مجال من هذين المجالين .

القسم الأول : مجال التحليل العقلى

يمكن إن تقول ان زكى نجيب محمود قدم الكثير لمجال العقل ابتداء من محاولاته لتحديد « مفهوم العقل » نفسه ـ كما سبق أن أشرنا ـ مبينا مجالات استخدامه ، الى محاولته إشاعة النظرة العقلية على نحو ما حددها في النقاط الخمس السابقة . لكن هناك جانبا بالغ الأهمية هو استخدامه للفاعلية العقلية أو النشاط العقلى في تحديد وتحليل كثير من المفاهيم الشائعة والقاء الضوء عليها ، وهى مهمة شاقة في مجتمع اعتاد أن يرسل القول على عواهنه ويستخدم الفكرة الغامضة لمجرد أنها موجودة ، أو لأنها تثير وجدانه ، مع أن الحياة الفكرية بمعنى من أدق معانيها هى تحديد الفواصل بين المعانى المتداخله ، أو المتشابهة : ولك أن تحكم على أمة بدرجتها في مدارج الحياة الفكرية بمقدار ما استطاع أبناؤ ها تحديد المعانى التى يتداولونها . .[١٣٤] . وهذا هو الدور الذى تقوم به : « الفاعلية الفلسفية » فمما توصف به الفاعلية الفلسفية ، أحيانا أنها محاولة لتوضيح المفاهيم التى تقع عند الناس بين الجهل التام والعلم التام ، يعنى أنها مفاهيم يتداولها الناس وهم على بعض العلم بها ، فلاهم يجهلونها كل الجهل ، ولاهم يعلمونها كل العلم فتتناولها الفلسفة بالتحليل والتوضيح لعلها تبلغ من معانيها مبلغ التحديد الدقيق الحاسم ، فهذه المفاهيم التى تقع عند الناس وسطا بين الغموض والوضوح هى أشبه بمدينة تراها على مبعدة فترى بروزا ممتدا في الأفق[١٣٥] .

وهكذا قل في كثير جدا من المفاهيم والأفكار التى نتداولها في مجرى حياتنا الفكرية ، بل في مجرى حياتنا

---

(١٣٢) ثقافتنا في مواجهة العصر ٢٠٦ ـ ٢٠٧

(١٣٣) قيم من التراث ص ١٩

(١٣٤) قيم من التراث ص ١٥٢

(١٣٥) هموم المثقفين ص ٦٦

العملية ، والتى نشعر أن الحياة ، فكرية أو عملية متعذرة ، بدونها ومع ذلك فعلمنا بها لايكاد يتعدى علمنا بأن الأفق البعيد مدينة كبيرة . وها هنا يكون عمل الفلسفة أن تدنونا من تلك المفاهيم لنراها في تفصيلاتها ودقائقها . والعجيب أن يتهمك الناس نتيجة لهذا التحليل بأنك تعقد البسيط وتصعب السهل ، حين جاءهم الفيلسوف بتحليل يفكك لهم أوصال المفاهيم التى يتداولونها فثاروا في وجهه كأنهم كانوا يجدون النعمة في الفهم المبهم ، ويخشون أن يفسد تحليل الفلاسفة عليهم ما كانوا به ينعمون !(١٣٦) .

كانت طريقته أن يمسك بعدسة مكبرة تكشف للقارىء عناصر الفكرة التى هى مدار الحديث ، فذلك وحده كفيل أن يزيل ضباب الغموض الذى يكتنف المفاهيم المحورية التى عليها تدور ثقافتنا(١٣٧) . فالتوضيح معناه تحليل المفهوم الغامض لاستخراج العناصر الداخلة في تكوينه لكى نفهمه ، تماما مثل أى عملية كيميائية فلكى تفهم الماء أو الهواء ، أو قطعة الفحم ، أو ماشئت ، فهيا علميا عليك بتحليلها في المعامل ، وكذلك التحليل العقلى للأفكار الغامضة عليك أن تحللها تحليلا عقليا لكى تكشف عناصرها ومكوناتها التى دخلت في تكوينها(١٣٨) .

واذا أردنا أن نقدم نماذج لهذه الأفكار التى قام أستاذنا الكبير بتحليلها لوجدنا أنها كثيرة كثرة لافتة للنظر ، ولهذا فلا مندوحة لنا عن تقسيمها الى مجموعات ثم نقدم من كل مجموعة أمثلة قليلة .

المجموعة الأولى : أفكار سياسية

(أ) ـ المثقف الثورى : في الستينات ظهر تعبير « المثقف الثورى » وشاع على أقلام الكتاب وكان على مفكرنا الكبير أن يطرح على نفسه هذا السؤال « متى يكون المثقف مثقفا » وكفى ، ومتى يكون مثقفا وثوريا معا ؟ ! ويجيب من خلال منظورين « للاسراء والمعراج » . أما الأول فهو حديث للرسول ﷺ أورده ابن عربى يقول فيه « ما ابتلى أحد من الأنبياء بمثل ما ابتليت به » . مشيرا بذلك الى رجوعه من حالة الرؤية ، « رؤية الحق » الى دنيا الناس ليخاطب فيهم من ضل ليهديه سواء السبيل . والمنظور الثانى : حديث لواحد من الصوفية يقول « صعد محمد النبى العربى الى السموات العلى ، ثم رجع الى الأرض ، قسما بربى لو بلغت هذا المقام لما عدت أبدا . . » ونحن هنا أمام نمطين مختلفين من الوعى : الأول تتميز به حالة النبوة ، والآخر حالة المتصوف الذى يشاهد « الحق » ويتمنى ألا يعود الى الناس ، فإذا عاد كانت عودته غير ذات نفع كبير لأنه سيحصر نفسه في ذاته منتشيا بما قد شاهد(١٣٩) . وها نحن أمام رجلين : رجل يرى الحق فتكفيه الرؤية ، ورجل يرى الحق فلا يستريح له جنب حتى يغير الحياة وفق مارأى ، ولست أرى مايمنع من التوسع في التطبيق بحيث نجعلها تفرقة بين المثقف الذى ينعم بثقافته ثم لا يغير من مجرى الحياة شيئا . والمثقف الذى لاينعم بثقافته الا إذا استخدمها أداة لتغيير الحياة من حوله . وفي هذه الحالة الثانية يكون المثقف مثقفا وثائرا معا . . »(١٤٠) .

---

(١٣٦) المرجع نفسه .

(١٣٧) قصة عقل ص ١٣٣

(١٣٨) من حوار أجراه الزميل د صلاح قنصوه مع مفكرنا لمجلة المستقبل العربى ـ مركز دراسات الوحدة العربية عام ١٩٨٨

(١٣٩) في حياتنا العقلية ص ١٤٢ ـ ١٤٣

(١٤٠) المرجع نفسه ص ١٤٤

لكن ذلك يحتاج الى تحديد أكثر : فصفة « الثورية » حين تضاف الى المثقف أكثر انطباقا على ميدان العلوم الانسانية منها على ميدان العلوم الطبيعة : فلا يجوز أن يقال عن عالم الرياضة الذى درسها وطبقها في بناء الجسور انه مثقف ثورى لأنه طبق ماتعلم . كلا ! فالتفرقة مقصورة على أصحاب الثقافة الانسانية ، لأنها هى التى تشمل القيم ، والقيم هى التى يصيبها التغير حين يقال ان ثورة قامت فغيرت وجه الحياة(١٤١) .

لكن هذا التحديد لايزال غير كاف ، لأن الذى يغير وجه الحياة قد يغيرها الى الوراء لا دافعا بها الى الأمام ، في حين أن الثورية تضاف الى المثقف الذى يدفع بالحياة الى الأمام في مقابل « الرجعية » لمن يريد أن يرد الحياة الى الوراء . غير أن الدقة تحتم علينا أن نفهم معنى « الأمام » و « الوراء » لأنها لا تكون مفهومة الا بالنسبة لهدف معلوم ، وهكذا نستطيع أن نحدد « المثقف الثورى » تحديداً أكثر دقة بقولنا انه من أدرك مُثُلا جديدة للحياة الانسانية ، وحاول تغيير الحياة وفقا لها ، شريطة أن يجىء هذا التغيير في الاتجاه الذى يسير فيه التاريخ بحيث تتسع الرقعة البشرية التى تتمتع بما كان مقصورا على القلة من جوانب القوة والحرية والعلم وسائر أوجه الكمال(١٤٢) .

والطريف أنه يجعل من سقراط النموذج الأول « للمثقف الثوري » لأنه لا يستريح ولا يطمئن ، حتى يحمل الناس على قبول ما ارتسم في ذهنه من وجوب أن يكون زمام الأمور كلها لمبادىء العقل : فلا نزوة ولا رغبة ولا عاطفة أجدى على الانسان من عقله(١٤٣) .

« ومثلنا الثاني للمثقف الثوري هو أفلاطون : ارتسمت في ذهنه صورة عقلية للدولة المثلى كيف تكون بحيث تجيء دولة قائمة على دعامة العدل » وأخذ في محاورة « الجمهورية » يفصل القول في صورة هذه الدولة العادلة .. ولو اكتفى أفلاطون بهذه الصورة لعددناه « مثقفاً » يرى الفكرة ويحللها فيسترخي ويستريح ، لكنه كان مثقفاً ثورياً وهو يلتمس طريق التنفيذ لفكرته التي ارتآها عند تلميذه ديونيسوس الشاب الذي آل اليه الحكم في سراقوصه بجزيرة صقلية .. (١٤٤) » . كذلك كان الغزالي في تاريخ الفكر الاسلامي هو خير الأمثلة التي تُضرب للمفكر الثوري لأنه غيَّر بفكره حياته وحياة الناس من بعده لعدة قرون . . . وفي حياتنا الفكرية الحديثة يقوم « جمال الدين الأفغاني » بدور سقراط : يجادل ويناقش ويخلق التلاميذ والأتباع ويشعل الروح ويوقظ النفوس .. كذلك كان تلميذه « محمد عبده » يدرس ليصلح ويبني وينشيء ويعلم ويربي ولم يكن « مثقفاً » وكفى بل كان « مثقفاً ثورياً » . وقل مثل هذا في قاسم أمين ولطفي السيد ، الأول يكتب ليغيِّر نصف الشعب « المرأة » ، والثاني ليؤصل حياة سياسية على أصول ديمقراطية .

وهكذا يسير بك في تحليله العقلي لمفهوم ظهر في حياتنا الثقافية الى آفاق لم تكن في الحسبان . بل لم يتصور من استخدموا هذا المفهوم أنه يمكن أن ينسل هذا النسل كله !

---

(١٤١) في حياتنا العقلية ص ١٤٥
(١٤٢) المرجع نفسه ص ١٤٦
(١٤٣) في حياتنا العقلية ص ١٥١
(١٤٤) المرجع نفسه ص ١٥٢

(ب) ارادة التغيير

لم يكن زكي نجيب محمود في يوم من الأيام منتمياً الى حزب سياسي معين ، ولكنه كان يتخذ على حد تعبيره « موقفاً سقراطياً » هو أن يكون صاحب رأي مستقل . من حقه إبداء الرأي وتوجيه النقد لكثير من أوضاع مجتمعه ، دون أن يلتزم بأفكار حزب معين أو بموقف « أيديولوجي خاص » . ولقد أمده هذا « الموقف المستقل » بحرية الحركة في نقد وتحليل أي مفهوم يظهر على مسرح حياتنا الثقافية أو السياسية دون أن يجد في هذا التحليل حرجاً ولا غضاضة ولهذا تراه قابعاً في قلمه ممسكاً ببضع التحليل يتلقف كل ما يظهر من أفكار ومفاهيم ليبدأ عمله ! لا يهمه بعد ذلك المصدر الذي أطلق الفكرة ـ رئيس الجمهورية أو جمهور الناس في الشارع ـ فبعد حرب السويس تحدث الرئيس جمال عبد الناصر في إحدى خطبه داعياً الى « إرادة التغيير » التي نحن أحوج ما نكون إليها ، ويتلقفها مفكرنا الكبير ويضعها تحت عدسته المكبرة فاذا بهذا التعبير يتحول الى تحصيل حاصل ! فهما مترادفان ! « إرادة التغيير » كلمتان صيغتا على صورة المضاف والمضاف اليه كما نقول : قراءة الكتب أو « رؤية الشمس » . . وهما معاً تكونان أحد المباديء التي نستهدفها في بناء حياتنا الجديدة ، وهما من ذلك الضرب من المفاهيم التي يكون الناس منها على درجة وسطى بين « الجهل والعلم » ، ومَنْ ذا لا يستخدم كلمة « إرادة » وكلمة « تغيير » في حديثه الجاري وهو على بعض العلم بما تعني هذه الكلمة أو تلك ؟ ! . .(١٤٥) .

وينتهي من تحليله الى أنه لا انفصال بين الارادة والعمل ، حتى ليصبح من اللغو أن نقول عن إنسان انّ له « ارادة » لكنها لا تجد العمل الذي تؤديه ، والا كنت كمن يقول إنه يأكل ولا طعام أو يشرب ولا ماء !

الإرادة هي نفسها العمل الذي يحقق الهدف ويزيل ما قد يحول دون تحقيقه شريطة أن يكون الهدف هو هدفك أنت ، والا كنت آلة مسخّرة في يد صاحب الهدف ، انك في العمل الارادي أنت الآمر والمأمور ، إنك وأنت تعمل العمل الذي تسعى به الى تحقيق أهدافك فأنت عندئذ بجميع سلوكك تجسيد للارادة وتنفيذها . .(١٤٦) .

وهكذا نجد أن قولك « ارادة التغيير » لا يزيد شيئاً عن قولك « الارادة » . لأن هذه لا تكون بغير فعل ، ولا فعل بدون تغيير ، فسواء أكان التغيير الحادث ضئيلاً أم جسيماً فهو تغيير ، لأنك لا تفعل الفعل في خلاء ، بل لتحرك به شيئاً فيتغير مكانه . وباختصار كل ارادة فعل ، وكل فعل حركة وتغيير ! ومن ثم فلا ينبغي أن نتحدث عن « ارادة التغيير » بل عما نريد تغييره ، أو الهدف الذي من أجل تحقيقه تغير ما تغير ، وهو يقترح أن يتجه التغيير الى المعايير والقيم التي تسود حياتنا ويضرب لها مثلاً بالتوحيد بين العام والخاص « فنحن بما ورثناه من تقليد اجتماعي أحرص ما نكون على « الملك الخاص » ، وأشد ما نكون اهمالاً « للملك العام » كما هي الحال في العناية الواجبة بالابن والعناية الواجبة بالمواطن البعيد . والعناية بتنظيف الدار من الداخل

(١٤٥) في حياتنا العقلية ص٦٧
(١٤٦) المرجع نفسه ص ٦٩

والعناية بتنظيف الطريق العام ، بين المال الذي نملكه والمال الذي تملكه الدولة ، بين العيادة الخاصة يديرها الطبيب الذي يستغلها ، والمستشفى العام يديره الطبيب نفسه ـ ولكنه يديره باسم الدولة[١٤٧] . وقل مثل ذلك في معاني « الجاه » و « الصدارة في المجتمع » والزهو بعدم الخضوع للقانون . . الخ[١٤٨] .

(جـ) أخلاق القريـــة

وعندما تحدث الرئيس السادات عن أخلاق القرية[١٤٩] زاعماً أنها الأخلاق المثلى ، وأنه يريد أن يعود بالمجتمع الى مثل هذه « الأخلاق الرفيعة » ـ تصدى مفكرنا الكبير لتحليل الفهم الغريب لأخلاق القرية . وكان مما قاله « إن أخلاق القرية هي الأخلاق التي أفرزتها الحضارة الزراعية الريفية ، وبمقدار ما نريد المحافظة على شيء من هذه الحضارة تكون الحكمة في المحافظة على أخلاقها . غير أن الاتجاه العام الذي يسود عصرنا هو تحويل القرية الى مدينة لا تحويل المدينة الى قرية ، فالأقرب الى التصور أن يتحول الفلاح الى عامل زراعي بكل ما تحمله كلمة عامل الآن من حقوق في الأجور والتأمينات والانتماء النقابي وغير ذلك . لقد جاءت قيم الحضارة الصناعية لتبقى وتسود وليس لنا عن ذلك محيص[١٥٠] .

ثم يستطرد أستاذنا الكبير فيعدد « مساوىء » أخلاق القرية التي يشيد بها السيد رئيس الجمهورية :

١ ـ أبناء القرية في تمسكهم بأخلاق الريف الزراعي يعدون أنفسهم أسرة واحدة أو كالأسرة الواحدة ، ومن هنا كان مصدر صلابتهم ، لكن من هنا أيضاً كان مصدر التخلف الحضاري عندهم ، ذلك لأن الشعور الأسري هو في الأساس مصدر « المحسوبية » . فيكفي صاحب الحكم أن يعلم أن بينه وبين فلان تلك العلاقة الوثيقة ليجعله « محسوباً » عليه مما يلزمه إلزاماً خلقياً أن يسانده ولو بغير حق ، وهي مساندة غالباً ما يجيء ثمنها أن يدين المحسوب لولي نعمته بالولاء . . . وهكذا تظهر النتائج الضارة . !

٢ ـ العلاقة بين أفراد القرية قائمة على ما تقضيه روابط الدم ـ أعني روابط القربى ـ وكثيراً ما يكون ذلك على حساب المصلحة القومية التي تجاوز القرية وأبناءها ، فالحضارة الصناعية أدت الى أن تجمع ألوف العمال في مصنع واحد ، بل ويسكنون عادة في حي واحد ، مما أدى الى علاقات اجتماعية من نوع جديد هي العلاقات التي تتمثل في النقابات وسرعان ما يصبح الهدف المشترك لا خدمة أسرة واحدة ، بل خدمة حرفة صناعية معينة ، وخدمة القائمين بها . وهنا تتغير معاني طائفة كبيرة من الألفاظ الخلقية كالعدل والكرامة والتعاون[١٥١] .

٣ ـ إذا كان في الدعوة الى أخلاق القرية رومانسية تشبع الخيال ، فإن فيها الكثير من جوانب القصور :

(١٤٧) في حياتنا العقلية ص ٧٤

(١٤٨) المرجع نفسه ص ٧٥

(١٤٩) وكذلك اذا تحدث رئيس الجمهورية الحالي عن « الصحوة » كتب مفكرنا الكبير « نريدها صحوة واعية » قارن تحليله لهذه الفكرة في كتابه « عن الحرية أتحدث » ص ٢٩١ وما بعدها

(١٥٠) أفكار ومواقف ص ٢٦٩

(١٥١) المرجع نفسه ص ٢٧١

ليس فيها مثلاً مكان لدقة الزمن باعتبارها فضيلة ، فأدق ما تعرفه أن يقال صبح ، ضحى ، وعصر ، ومغرب ، ولذلك يضيق ابن القرية عندما تطالبه بتوقيت يلتزم الساعة والدقيقة . فاذا عرفنا أن دقة الزمن من الركائز الأساسية في الحضارة الصناعية القائمة ، علمنا أن أخلاق القرية لم تعد تسعف مَنْ أراد المشاركة في حضارة هذا العصر(١٥٢) .

(د) يمين الفكر ويساره

ومن المفاهيم الغامضة التي استخدمت بدلالات سياسية أيضاً « اليمين واليسار » فهما كلمتان تُستعملان على نطاق واسع للتفرقة بين الأفكار والمواقف والأشخاص : فهذه الفكرة من اليمين وتلك من اليسار ، وكذلك هذا الموقف وذلك ، وهذا الرجل وذاك . وكثيراً ما يوصف من وضع في زمرة اليمين بالرجعية واللاعلمية ، لأن اليسار وحده هو التقدمي والعلمي ، وليس الأمر من قلة الشأن بحيث نتركه يمضي بغير تحديد . . .(١٥٣) .

وينتهي من تحليله لهذين المفهومين الى نتيجة : « أراها محتومة حتماً وهي أن ليس هناك فواصل فارقة في ميدان الفلسفة بين يمين ويسار ، وكذلك لستُ أعتقد أنه يطوف لأحد ببال أي يكون في « العلم » يمين ويسار . .(١٥٤) » .

لكن هذه التفرقة تكون واضحة في مجال الاقتصاد والاجتماع والسياسة . . فضلاً عن مضمون الأدب دون الشكل ، ومضمون الفن التشكيلي وشكله معاً عند مَنْ يطالبون الفنان بأن يحمل فنه رسالة في الاقتصاد والاجتماع(١٥٥) .

(هـ) الطاغيـــة :

لست أرى أن أنهي هذا القسم بأفكاره ومفاهيمه السياسية قبل أن أتحدث بسرعة عن تحليل مفكرنا الكبير لمولد الطاغية كيف يكون ؟ ! فهو يراقب عصفوراً جاء يلتهم حبات أرز وضعت في وعاء في الشرفة الخارجية للمنزل ، فما أن حطَّ العصفور على مقربة قريبة من الأرز حتى أخذ يتلفت بحركة سريعة هنا وهنا قبل أن يقدم على التقاط الحب كأنما أراد أن يستوثق من غيبة الرقيب حتى إذا اطمئن بعض الشيء خطا خطوتين في حذر شديد وأصبحت حباتُ الأرز على ملقط منه ، لكنه مع ذلك تريث لحظة وراح من جديد يلتفت يمنة ويسرة فلما لم يجد ما ينذر بالخطر التقط حبة واحدة بلقطة سريعة ثم سكن لحظة وعاد يلتفت فلما لم يجد الا الهدوء والأمان انكب على الأرز يلتهم منه ما يملأ حويصلته وطار(١٥٦) .

وهو هنا يصور لنا كيف يبدأ المعتدي بالحذر والخوف حتى اذا ما أمن مغبة الاعتداء ملأته الشجاعة ، فأقبل على العدوان بكل قدرته وهو مطمئن آمن أو قل إنه كالمطمئن الآمن لا يحول شيء بينه وبين السير في الشوط الى آخر المدى . انَّ سكوت صاحب الحق المنهوب

(١٥٢) أفكار ومواقف ص ٢٧١
(١٥٣) « في حياتنا العقلية » ص ٨٩
(١٥٤) المرجع نفسه ص ٩٤
(١٥٥) المرجع نفسه ص ١٠٠
(١٥٦) أفكار ومواقف ص ١٦٥

سرعان ما يجعل الناهب صاحب حق في الاعتداء :
« والقاعدة التي أريد أن أضعها بين يديك هي أنه حيثما فرطَ إنسان في حقه ظهر لذلك الحق طاغية يستبد به[١٥٧] » .

المجموعة الثانية : مفاهيم دينية

(أ) التطرف الديني ؛

في تحليله لهذا المفهوم مثال واضح لارتباط التحليل عنده بما يظهر في حياتنا الثقافية أولاً بأول من مفاهيم وأفكار ، فهو يستخدم الفاعلية الفلسفية فيما يظهر على سطح هذه الحياة من أفكار أياً كان لونها ، فعندما بدأ الناس يتحدثون عن « التطرف الديني » كتب في الحال « متطرف تحت المجهر » ، يحاول أن يسأل مع الناس عن معنى هذا التعبير وتكون الاجابة عنده على النحو التالي :

ان علينا باديء ذي بدء أن نفرق بين طرفين : « الدين » كما هو قائم في الكتب السماوية من ناحية ، « والمتدين » بذلك الدين من جهة أخرى ، فبينما الكتاب واحد فان المتدينين به كثيرون ، وليس هو من الأمور الشاذة في طبيعة الناس أن يختلفوا في طريقة فهمهم لنص واحد قرأوه . وهذا ما حدث للمسلمين ، فهم متفقون على الكتاب الكريم لكنهم مختلفون في فهمهم لبعض آياته ، ومن هنا نشأت المذاهب المتعددة ، ومن ثم يكون معنى التطرف أن يأخذ المسلم بطريقة معينة في الفهم ، أو بمذهب معين ، ثم يعلن أنه هو وحده الصحيح ، وقد أخطأ الآخرون ، ولو وقفت المسألة عند هذا الحد لهان الأمر ، لكنه ينقلب « متطرفاً » اذا هو أراد أن يحمل الآخرين بالقوة ـ كائنة ما كانت صور القوة على مشاركته فيما يعتقد[١٥٨] .

وينتهي مفكرنا الكبير من تحليله لمفهوم التطرف الى أن هناك أربع خصائص للمتطرف في مجال الدين أو في أي مجال غير الدين هي : ـ

أولاً : سمة أساسية للمتطرف وهي سمة تؤخذ عليه أن يقوم بارهاب الآخرين لارغامهم على قبول ما يدعو اليه هو وزمرته ، وفي ذلك الارهاب يسكن جوهر التطرف ، فليست المسألة أنه يختار لنفسه وجهة نظر يرى الأفكار والمواقف من خلالها ، وإنما المسألة أنه يريد أن يُرغم الآخرين بالقوة على الأخذ بها . فقد كانت وجهة نظر « الخوارج » مثلاً خالياً مما يؤخذ عليهم ، ومع ذلك فقد نفرت منهم الأمة الاسلامية ، لماذا . . ؟ ! « كانت العلة في تطرفهم هي اللجوء الى القسوة العنيفة إرهابا لكل من وقعت عليه أيديهم حتى يوافق على وجهة نظرهم ، واذا لم يفعل قتلوه بأفظع صور القتل وأبشعها ، مع أنهم كانوا لا ينقطعون عن عبادة الله لحظة واحدة ـ ويديمون الصلاة حتى لقد كانوا يعرفون بما كانت تتقرح به جباههم من السجود على حصباء الأرض العارية[١٥٩] .

ثانياً : اذا كان اتخاذ الارهاب وسيلة لارغام الخصوم هو العلامة الحاسمة التي تميز المتطرف عمن سواه ، كان محالاً أن يلجأ اليه إنسان قوي واثق بنفسه وعقيدته وانما

---

(١٥٧) المرجع نفسه ص١٦٨
(١٥٨) « رؤية اسلامية » ـ ص ٢٦٤ .
(١٥٩) ـ رؤية اسلامية ص ٢٦٥ .

يلجأ إليه مَنْ به ضعف في أي صورة من صوره ـ لماذا ؟ ! لأن الإنسان إذا أحس في نفسه ضعفاً تملكه الخوف من أن يطغى عليه أصحاب المواقف الأخرى وكأي خائف آخر ترى المتطرف هلعا جزوعاً يُسرع الى أقرب أداة للفتك بخصمه اذا إستطاع قبل أن تسنح الفرصة أمام ذلك الخصم(١٦٠) .

ثالثاً : لا يتطرف بالمعنى السابق الا مَنْ حمل على كتفيه رأساً فارغاً وخاوياً اللهم إلا أضغاثاً دفع بها الى ذلك الرأس عن فهم أو عن غير فهم . وذلك لسببين :

الأول : أن تكون الأفكار التي شحن بها رأسه غير علمية لأن الفكرة العلمية مقطوع بصوابها ،

الثاني : أن ما يمتلىء به رأس المتطرف، ما دام لا يمت الى العلم بصلة ، لا بد أن يكون فيه الخصائص المضادة للعلم ، ومنها « حرارة الانفعال » وغموض المعنى واحتمال أن تتعدد فيه وجهات النظر(١٦١) .

رابعاً : السمة الأخيرة أنَّ التطرف ، في الواقع ، حالة من حالات التكوين النفسي ، ولا نقول إنه وجهة نظر إلا من باب التساهل ، وانما هو في حقيقته الدفينة « حالة نفسية » ـ تجعل صاحبها على إستعداد لأن يتطرف وكفى ! فليس المهم هو الموضوع الذي يتطرف فيه ، بل المهم في تكوينه هو أن يتطرف للتطرف في حد ذاته ، ومن هنا رأينا أمثلة كثيرة لمتطرفين يقفزون بين يوم وليلة من تطرف في فكرة الى تطرف في الفكرة التي تناقضها ، فتراه اليوم متطرفاً في رؤ ية إسلامية معينة ثم نراه غداً متطرفاً في رؤ ية شيوعية ، أو العكس ، مع أن الاسلام والشيوعية ضدان لا يلتقيان(١٦٢) .

(ب) فلسفة الشهـــادة :

ماذا تعني شهادة : « لا إله إلا الله » التي هي أصل ثابت في حياتنا الدينية والثقافية ؟ ! هي من الشجرة العقلية بمثابة الجذع وجذوره ثم تنبت الغصون وتنمو وتورق فهي شهادة تدل ـ من بين ما تدل عليه ـ على ثلاثة أركان دفعة واحدة تكفي وحدها لاقامة هيكل ثقافي كامل لو كسوناه لحماً لأصبح حياة فكرية تحمل طابعاً يميزها عن كثير مما عداها ، فهي تدل على ذات آلهية مشهورة ، وذات إنسانية شاهدة ، ومجموعة من أفراد الناس تتم الشهادة في حضورهم : ـ

(١) ـ أول ركن تدل عليه الشهادة ، وجود الذات الإلهية ، التي تشهد أن ليس ثمة من آلهة سواها ، ثم نجد لهذه الذات صفات كثيرة تتوحد في نسق واحد ، هي ما نطلق عليه أسماء الله الحسنى ، وهذه المجموعة من الصفات هي لله على نحو مطلق ، وهي كذلك للانسان على نحو نسبي ، أي أن المسلم لا بد أن يعمل على أن يكون في حياته عالماً فريداً قديراً مهيمناً عزيزاً جباراً . . الخ والا كانت شهادته باللفظ دون المعنى .

(٢) ـ أما الركن الثاني الذي تتضمنه الشهادة فهو وجود الذات الانسانية الشاهدة ولا بد من الوقوف المتأمل عند « الذات الانسانية » هذه لنرى متى يتحقق وجودها وكيف ؟ ! إنه مهما يكن من أمر التشابه

(١٦٠) ـ المرجع نفسه ص ٢٦٦

(١٦١) ـ رؤية اسلامية ص ٢٦٨ .

(١٦٢) ـ أفكار ومواقف ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ .

والتجانس بين أفراد البشر فلن يكون الفرد الانساني « ذاتاً » ، الا اذا بقيت له بقية يختلف بها عن جميع مَنْ عداه ، وهي بقية لها كل الأهمية والخطورة لأنها هي التي تحدد هويته ، وهي التي نعدها مسئولة أمام الله والناس وهذا الجانب الفريد من كيان الانسان هو الذي « يشهد » ألا إله إلا الله(١٦٣) » .

(٣) - يبقى الركن الثالث المتضمن في « الشهادة » أعني به وجود الآخرين الذي هو ركن أساسي في حياة هذا الانسان ، ولك أن تقدر الفرق الشاسع بين إنسان يتصرف كما لو لم يكن في الدنيا إنسان سواه ، وآخر يضع في اعتباره عند كل خطوة يخطوها ، وكل فعل يؤديه أن هناك آخرين اعترف بهم ضمناً حين شهد ألا إله إلا الله ، وهكذا تنشأ لنا عن أصل واحد ضروب ثلاثة : الحقيقة الدينية ، والفردية الانسانية ، وروابط المجتمع(١٦٤) .

(حـ) الضمير الديني :

الغاية التي يجب أن نستهدفها من التربية الدينية هي إيجاد ذلك الضرب من الوجدان الديني الذي من شأنه أن يهدي صاحبه كلما جدَّ موقف في الطريق - الى اختيار السلوك الذي يعينه على تكامل شخصيته تكاملاً ينم عن « وحدانية تلك الشخصية » لأن ما يحقق إسلام المسلم هو في المقام الأول ، أن يجسد في شخصه رسالة الاسلام - و « التوحيد » من تلك الرسالة هو في صميم الصميم .

لكن ماذا نعني بكلمة « الضمير » ؟ ! نعني بها ما استخلصناه لأنفسنا مما وعيناه وعشناه : إما من خبراتنا المباشرة أو مما علمنا إياه آباؤ ناومعلمونا « فأضمرناه » في نفوسنا لنحمله معنا أينما توجهنا ، فنكون بمثابة مَنْ يحمل معه دليلاً هادياً يرشده الى سواء السبيل اذا ما أشكل عليه الأمر(١٦٥) .

فما هو المبدأ الذي يستخلصه المسلم من أحدية الله ويضمره في صدره ليكون مرجعه في مسلك حياته ؟ ! كيف نحول عقيدة « التوحيد » بالتربية الى « ضمير » يكون به المسلم مسلماً فيما يدع وفيما يختار ؟ ! هذا المبدأ هو أن يختار الفعل الذي يتسق مع غيره في بناء شخصية موحدة . فالتوحيد الإسلامي هو في أعماقه تناسق في حياة الانسان الأخلاقية ، بمعنى أن تنظم مجموعة القيم الروحية في ترتيب معين يبين أيها أولى من أيها إذا ما تعارضت في موقف معين ، ومن ثم فعقيدة المسلم إذا ما رسخت في صدره ضميراً يهديه الى جادة الطريق ، ضمنت له ألا تتعدد معاييره الأخلاقية ، فمعيار أمام ولي الأمر ومعيار آخر أمام الناس ومعيار ثالث يقيمه حين يخلو لنفسه ! إننا إذا استطعنا تربية هذا « الضمير الديني » عند أبنائنا وبناتنا كان ذلك درعاً تحميهم من أن يذل صغيرهم لكبيرهم أو أن يذل فقيرهم لغنيهم أو أن يذل محكوم لحاكم(١٦٦) .

(٤) مفاهيم متفرقة :

هناك مفاهيم دينية كثيرة تعرض لها مفكرنا بالتحليل والتشريح ، من ذلك مثلاً التفرقة بين « الفكر

(١٦٣) - أفكار ومواقف ص ٢٥٩ .
(١٦٤) - المرجع نفسه ص ٢٦٠ .
(١٦٥) - قيم من التراث ص ١٠٠ - ١٠١
(١٦٦) - المرجع نفسه ص ١٠٣ - ١٠٥ .

الاسلامي » من ناحية ، « وفكر المسلمين » من ناحية أخرى ، فلكي يكون الفكر إسلامياً لا بد أن يكون منصباً على مسائل متصلة بعقيدة الاسلام وشريعته . منها مثل وجود « الله » وصفاته كالواحدية ، والعدل والقدرة والعلم . . الخ كذلك فكرة الإمامة ، خلق القرآن . . الخ الخ . هذا هو الفكر الإسلامي الذي ينصب على موضوعات متعلقة بالعقيدة . إلا أن المسلمين كان منهم علماء ذوو فكر إنساني عام لا يتقيد بصفة ـ تقصره على ديانة دون ديانة أخرى ـ وها هنا نرى للمسلمين فكراً في شتى نواحي العلم والمعرفة مما لا يختص بالعقيدة والشريعة وليس فيه من الاسلامية إلا إسلام صاحبه مثل عالم الرياضة ، وعالم الفلك ، وعالم الكيمياء والبصريات والطبيب والمهندس بل ونستطيع أن نضيف أنواعاً أخرى مثل كُتّاب الرحلات ، ونقد الأدب ، وعلم الحيوان والنبات . . الخ كل ذلك ضروب من العلم والمعرفة قام بها مسلمون حتى أصبحت جزءاً هاماً فيما نسميه بالتراث العربي ـ إلا أنه لا يندرج فيما نسميه بالفكر الإسلامي . .[(١٦٨)] .

ومن المفاهيم الدينية التي عالجها أيضاً « الدين » و « التدين » و « علوم الدين » ، عندما رأى خلطاً في رؤية الناس لها حتى أهل التخصص منهم « فالدين قائم في نصوصه المحددة . . ثم يأتي الطرفان الآخران : مَنْ يؤمنون بذلك الدين وهم مَنْ يصفونهم « بالتدين » ثم علوم الدين التي تقام على النصوص كما سبق أن رأينا . فعلم الدين لا هو « الدين » ولا هو « التدين » إنما هو فاعلية عقلية تقوم على الدين . ولقد لبث الإسلام « ديناً » للمؤمنين « يتدينون » بمبادئه وتعاليمه قبل أن يظهر الفقهاء ليقيموا عليه العلم بمنهج التفكير العلمي . وعندما نزلت الآية الكريمة : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ ـ « كان قد كمل دين الاسلام ودخل الناس أفواجاً ولم يكن قد كُتِبَ بعد سطر واحد في أي علم من علوم الدين ، مما يقطع بأن الدين نفسه شيء ، والمتدينون به شيء ثان ، والعلوم التي تقوم عليه شيء ثالث »[(١٦٩)] .

ولك أن تقرأ مقال « الشيطان الأخرس » لترى كيف كان يتصدى مفكرنا للمفاهيم الدينية الخاطئة بالتحليل والتفنيد فور ظهورها في الصحف اليومية ـ فلو نشر واحد من أئمة الدين في جريدة الأهرام « أن رجال الشريعة قادرون على أن يقولوا كلمتهم في كل شيء » ـ يكون تحليل مفكرنا « لو كان الأمر كما قال القائل لوجب منذ الغد أن تغلق الجامعات جميعاً ومراكز البحث وغيرها مما يريد أن يبلغ شيئاً من الحق لا نبقى إلا على كلية الشريعة لأنها تعلمنا « كل شيء » . . ! »[(١٧٠)] .

المجموعة الثالثة : مفاهيم قومية وأفكار وطنية

(أ) العـروبة

في اعتقادي أن مفكرنا الكبير كان متحمساً لجعل « العروبة » مفهوماً ثقافياً ، وليس فكرة سياسية ، فقد كتب يقول : « ليست عروبة العربي قراراً سياسياً تصدره مؤتمرات القمم أو مؤتمرات السفوح والوديان . . بل هي مركب ثقافي يعيشه في حياته اليومية ولا يستطيع العربي نفسه أن ينسلخ عنه إذا أراد . . وأن يعيده إليه إذا أراد . . لا . . ليست عروبة العربي

(١٦٧) ـ في تحديث الثقافة العربية ص ٤٥٨ وما بعدها .
(١٦٨) ـ المرجع السابق ص ٤٦٦
(١٦٩) ـ قيم من التراث ص ١٥٢
(١٧٠) ـ أفكار ومواقف ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .

قميصاً يلبسه إذا شاء ويخلعه إذا شاء ، بل هي خصائص توشك أن تبلغ منه ما يبلغه لون الجلد والعينين . . »[١٧١] . فما هي هذه الخصائص :

أولا : أولى خصائص العروبة لغتها على أنه لا يكفي في هذا الجانب بأن تكون لغة الكلام والكتابة عربية ، فالأوربي الدارس للغة العربية قد يتكلمها ويكتبها ومع ذلك لا تدرجه في العروبة ابناً من أبنائها . . إذ المهم هنا هو اللفتات العقلية أو الإدراكية العميقة التي تكمن في كيان العربي ، فتميل به إلى اكتساب الصفات المتمثلة في اللغة العربية . فمن خصائص اللغة العربية مثلا أنك إذا عرفت الأصل الثلاثي عرفت كيف تفجر منه شجرة المشتقات على كثرة فروعها ، فإذا عرفت كلمة « كتب » فجرت منها كاتب وكتاب وكتابة ومكتوب . . الخ فكأنها القبيلة أو العشيرة بتعدد أفرادها لكن هؤلاء الأفراد ينتمون إلى رأس واحد . .

ثانيا : ثانية الخصائص ميل العربي إلى القفز السريع من الأفراد الجزئية إلى تجريدها وتعميمها في أنواع وأجناس ، فهو لا يهمه هذا الطائر المُعيّن بل يكفيه أن يعرف الطائر في عمومه مْن حيث هو نوع . . إن العربي في تكوينه العقلي لا يعبأ كثيراً بالأفراد أو المفردات ، وإنما يريد « الخلاصة » العامة المجردة ليسهل حملها معه وهو مسافر في الفلاة على ظهور الابل ! ولقد بلغ ميل الشاعر العربي إلى التجريد حداً جعله إذا تغزّل في إمرأة لا يُقصد إمرأة بعينها ، بل ان غزله منصب على « نوع » المرأة بأسره ، وكذلك إذا وصف جواداً أو بعيراً أو ما شئت[١٧٢] .

ثالثا : وثالثة الخصائص إيمان العربي بأن الحضارة الصحيحة إنما تُدار على محور الأخلاق فليس المهم فيمن هذبته الحضارة أن يكون قوياً بسلاحه ولا قادراً بماله ، بل المهم هو أن يقوم التعامل بين الانسان وربه ، والانسان والانسان على أنماط رسمتها السماء لأهل الأرض . ومن هنا كان جوهر العروبة الاعتقاد بأن الخالق يشاء ويأمر والمخلوق يطيع بغير سؤال !

رابعاً : ليس عند العربي مقابلة بين واقع ومثال ، بل بين « واقع » و « واقع » فكلمة مثال العربية تعني كائناً ماثلاً أمامنا نراه ونلمسه . وأما كلمة « واقع » فهي تعني « الوقوع » الذي هو الهبوط والسقوط ـ ومن هنا كان العربي يقصر نظرته على دنيا الكائنات الفعلية يوازن بين بعضها وبعضها الآخر وهي بأجمعها « واقع » سواء في ذلك ما هو أدنى وما هو أعلى ! .

لكن علينا أن نلاحظ أن تحديد تلك الخصائص لا ينفي أن نحاول تغيير ما نريد تغييره منها ، لقد أردنا فقط أن نقول « ان عروبة العربي هي وجوده الثقافي المتميز ـ فهي لا تمنح بقرار كما قد يتوهم الواهمون ! »[١٧٣] .

(ب) الشخصية المصرية

لا تناقض بين عروبة العربي من جهة ومميزاته الاقليمية من جهة أخرى ، فالمصري مصري وعربي معاً ، كما يكون السوداني سودانياً وعربياً ، والعراقي عراقياً وعربياً في آن . . فليس على هذه الأرض إنسان واحد وحداني الانتماء ، وإنما الأمر في هذا يشبه الدوائر التي تتدرج اتساعاً[١٧٤] . وإذا صح ذلك فما هي أهم الخصائص المميزة للذات المصرية . . ؟!

---

(١٧١) ـ هموم المثقفين ص ١٢٠ ـ وانظر أيضا خصائص أخرى للشخصية العربية « ثقافتنا في مواجهة العصر » ص ٥٤ وما بعدها ـ وأيضا « في مفترق الطرق » ص ٣٦٠ وما بعدها .

(١٧٢) ـ هموم المثقفين ص ١٢٣ ـ ١٢٤ وأيضا « ثقافتنا في مواجهة العصر » ص ٦٤ .

(١٧٣) ـ هموم المثقفين ص ١٢٧ ـ وأيضا « ثقافتنا في مواجهة العصر » ص ٦٥ .

(١٧٤) ـ هموم المثقفين ص ١٢٠ .

أهمها عمق الشعور الديني ، ويتبعه عند المصري اتساع النطاق الذي يتعامل فيه مع « الغيب » ، أما بالايمان الرشيد أحياناً ، وإما بتهاويم الخرافة أحياناً أخرى[١٧٥].

ثم تجيء بعد ذلك خاصة انتمائه الأسري . وهو انتماء لا يقف معه عند حدود « الأسرة النواة » كما يصفها كثير من كُتّاب الغرب اليوم بمعنى الوالدين والأخوة ، بل يوسع المصري من حدود الأسرة التي يشتد بـه الانتماء اليها لتشمل كذلك أبناء العمومة والخؤولة ومَنْ يتصل بهم[١٧٦].

ثم يتميز المصري كذلك بحبه لأرضه ليس فقط من حيث هي أرض يزرعها ، بل من حيث هي كذلك أرض يتصل بها ولادة ونشأة وذوي قربى . . ولقد تفرع عند المصري من عمق إيمانه الديني وقوة انتمائه لأرضه وأصله ، حب يشبه الحب الصوفي للعمل الذي يؤديه ، زراعة كانت أو صناعة ، وأعني بالحب بالصوفي هنا حباً للشيء في ذاته ولذاته لا للأجر الذي يترتب عليه[١٧٧].

ثم يلخص مفكرنا مفتاح الشخصية المصرية في عبارة موجزة هي « المصري صانع عابد » يتعامل مع هذه الدنيا وكائناتها بحواسه وجوارحه ، ويتعامل مع الغيب بقلبه وإيمانه ، هو واقعي في الحالة الأولى صوفي في الحالة الثانية ، هو مادي في أحد جوانبه روحاني الجانب الآخر . وكأن مفكرنا يريد أن يقول أن شخصية المصري مثال حديث للصيغة التي اقترحها حلا لمشكلتنا الثقافية المعاصرة وأعني بها صيغة الجمع بين « العقل والوجدان » ، ولقد ساعده على هذا الجمع بين الجانبين في شخصية واحدة متكاملة أنه نموذج فريد يجمع في صيغة حضارية واحدة خصائص فلاحة الأرض وبداوة الصحراء ومجتمع المدينة[١٧٨].

لكن أين يا تُرى نجد ذلك المصري الذي هو « صانع وعابد » في آن معاً ؟! يجيب « انك تراه فيما صنعت يداه ، تراه في كل مسلة قُدّت من الصخر العتي بأزميل عبقري جبار ، وارتفعت برأسها نحو السماء ، وكأنها كلمة دعاء في صلاة . ! إنك تراه في اخناتون يشهد أن الله واحد وراء كثرة الظواهر على الأرض في السماء ! إنك تراه في راهب الدير الذي يزرع ويعبد الله في حياة واحدة ، انك تراه في المساجد ومآذنها ، التي لا تدري وأنت شاخص ببصرك إليها في روعة بنائها ، أهي صلاة تجسّدت في عمارة أم هي عمارة ذابت في صلاة[١٧٩] . .

(أ) الولاء للوطن

عندما شاهد في التليفزيون جماعة من الشباب تهتف بالفداء بأرواحها ودمائها « ولاء » لهذا أو ذاك ـ شعر أن في هذه الصورة شيئاً يثير القلق ويتطلب التصحيح[١٨٠]. فيكتب على لسان سقراط : « إن الولاء لا يكون لشخص ، وإلا فماذا لو غاب هذا الذي أعلنت له إخلاصك ؟ أتصبح بغير إخلاص لأحد ؟! إن الولاء الصحيح ياأصدقائي لا يكون لشخص بقدر ما يكون لقضية معينة أو لفكرة أو لعقيدة دينية ، أو غير ذلك مما يحيا من أجله الانسان ويشعر ألا حياة له بغيره . . »[١٨١]. ثم يحلل معنى الولاء ليجد أنه في

---

(١٧٥) ـ في مفترق الطرق ص ٣٧٤ .
(١٧٦) ـ المرجع نفسه ص ٣٧٥
(١٧٧) ـ المرجع نفسه في الصفحة نفسها
(١٧٨) ـ في مفترق الطرق ص ٣٧٥
(١٧٩) ـ المرجع نفسه ص ٣٨٦ .
(١٨٠) ـ قيم من التراث ص ٣٨٥
(١٨١) ـ قيم من التراث ص ٣٨٩

حقيقته يتضمن أساس الأخلاق كلها . . أما سر الولاء فهو أن الفرد يشعر عن عمق وجدانه أنه لا يستطيع العيش وحده فريداً في هذا الكون الفسيح ويريد أن يجد « آخر » يتحد معه ليوسع من وجوده ، فإذا وجد هذا « الآخر » تمسك به وأخلص له ، ومن هنا كان الولاء ضرورة حيوية لكل ما من شأنه أن يجعل وجودنا أغزر معنى وأوسع نطاقاً[١٨٢]. « فالولاء يكون لله لأنه مالك يوم الدين ، والولاء يكون للوطن الذي بغيره ينعدم أهم أركان الهوية في هذه الدنيا ، والولاء يكون لأي مجموعة تمثل فكرة لها دوام ، وأنتمي إليها عضواً فيها عاملاً مع غيري على تحقيق هذه الفكرة . . »[١٨٣]. وهكذا تندمج الذات الفردية في ذات أوسع منها وأشمل ليصبح الفرد بهذا الدمج جزءاً من أسرة أو من جماعة أو من أمة أو من الانسانية كلها . . الخ .

لكن ماذا نحن صانعون إذا تعارض ولاء وولاء ، كأن يتعارض في موقف معين ولاء فرد لأسرته وولاؤه لأمته ؟! الجواب : أن نختار الطريق الذي يتيح للفرد تكاملا في شخصيته بدرجة أعلى ، فهل يكون انساناً أكمل إذا هو انتمى إلى أسرة قوية وأمة ضعيفة ، أو إذا انتمى إلى أسرة ضعيفة وأمة قوية ؟! الاجابة تكاد تدل على نفسها وهي أن البديل الثاني أفضل وأكمل وأسمى ، ومن هنا لك أن تسأل نفسك : أيكون الولاء والتضحية بدمائنا وأرواحنا لمصري أم لمصر ؟![١٨٤].

المجموعة الرابعة :

(أ) وضع المرأة

لا نريد أن نسهب طويلا في أمر المفاهيم الاجتماعية بل يكفي أن نقول أنه كان يتلقف ما يظهر في حياتنا الاجتماعية من أفكار وقيم ليقوم بتشريحه بنفس الفاعلية العقلية التي قدمنا لها فيما سبق مجموعة من الأمثلة . ولقد كتب عما أسماه « بالردة في عالم المرأة » ورسم لها صورة في غاية الأهمية ، ذهب فيها إلى أن « أبشع جوانب الردة في حياة المرأة اليوم ليس هو أنها تريد أن تتعلم إلى آخر المدى فيمنعها أحد ، وليس أنها تريد أن تعمل بما تعلمته فيمنعها أحد . . وإنما الجانب البشع من تلك الردة هو أن المرأة اليوم تريد أن تجعل من نفسها وبمحض اختيارها حريماً يتحجب وراء الجدران أو يتستر وراء حجب وبراقع ، وكأنها الفريسة السهلة تخشى أن تتخطفها الصقور ، أما أن تحصن نفسها بقوة الروح ، وبالشعور ، بكرامتها إنسانة واعية مستنيرة ، فذلك زمن أوشك على الذهاب مع ذهاب رائدات الجيل الماضي . ألا ما أبعد الفرق في حياة المرأة المصرية بين الليلة والبارحة ، ففي بارحتها ألقت بحجابها في مياه البحر عند شواطىء الاسكندرية[١٨٥] إيذاناً بدخولها عصر النور ، وأما في ليلتها هذه فباختيارها تطلب من شياطين الظلام أن ينسجوا لها حجاباً يرد عنها ضوء النهار . . »[١٨٦].

(ب) الرأي العام

ولعل من أجمل التحليلات التي قام بها في الميدان الاجتماعي تحليله لفكرة « الرأي العام » الذي وصفه بأنه « الإله الزائف الجديد » وقال عنه انه « ذو وجهين » وهو بوجه منهما لا عيب فيه إذا نزعت عنه شوكة التأليه ، ولكنه بوجهه الآخر الذي يتسلّح فيه بتلك الشوكة

(١٨٢) ـ قيم من التراث ص ٣٨٩ .

(١٨٣) ـ قيم من التراث ص ٣٩٠ .

(١٨٤) ـ المرجع نفسه ص ٣٩٢ .

(١٨٥) الاشارة هنا الى حادثة مشهورة في تاريخ الحركة النسائية المصرية ، ملخصها أن هدى شعراوى عند عودتها من رحلة لها في الخارج ، وكان ذلك عقب ثورة ١٩١٩ ـ ذهب حشد كبير من النساء لاستقبالها في ميناء الاسكندرية ولوحت لهن الزعيمة ، وهى على ظهر السفينة ، ثم ألقت برقعها في البحر قبل نزولها الى الشاطىء

(١٨٦) في مفترق الطرق ص ١٣٩ وما بعدها وانظر في وضع المرأة أيضا « واذا الموءودة سئلت » في الكتاب نفسه ص ٨٥ وما بعدها

الرهيبة ينقلب إلى طاغية يسحق فردية الأفراد سحقاً ليحيلهم إلى أشباح وظلال : « فقد يحدث أن نرى العالم من علمائنا قديراً في علمه وهو في ميدانه ، لكنه ما أن يفرغ واجبه إزاء تخصصه العلمي حتى يُسرع الخطى لينخرط مع الرأي العام فيما هو غارق فيه من تهاويم قد تبلغ أحياناً كثيرة حد الخرافة »(١٨٧).

ويفند مفكرنا « عمومية » الرأي العام بقوله : « إنَّ وجود فرد واحد لا يرى الرأي الذي هو عام ينفي عن الرأي العام عموميته ، وحتى لو كان من حق الرأي العام أن يضغط بقوته العددية في اتخاذ القرارات ، وفي انسحاب النواب الذين ينوبون عنه ـ وهو حق للناس لا شك فيه ـ فليس له الحق نفسه في منع الآراء والأفكار التي لا تعجب جمهوره(١٨٨). إنَّ الذي يربط أفراد الجمهور بعضهم ببعض في تكوين رأي عام ، يغلب أن يكون هو « الانفعال » ، لا « العقل » فالانفعال ينتقل من فرد إلى فرد بالعدوى ، أما الفكرة العقلية فينقلها صاحبها إلى متلقيها بالإقناع ، والإقناع بحكم طبيعته عملية فردية وليست عملية جماعية(١٨٩).

(جـ) العلمانيـة

من المفاهيم التي شاعت في مجتمعنا أيضاً ، وتعرض لها مفكرنا بالتحليل العقلي ، مفهوم « العلمانية » ، وهو يرى أنه ينطق بفتح العين لا كسرها ، وأنه في هذا التحريف في النطق يكمن معظم الخلط ، ولهذا يكتب مقالا عنوانه ، « عين ـ فتحة ـ عا » . ليشد انتباه القارىء إلى أن الكلمة لا تنسب إلى « العلم » بل إلى « العالم » ـ وأنها جاءت بهذا المعنى من اللغات الأوربية بعد أن خرجت أوربا من العصور الوسطى حيث أقام رجال الدين من حياة الرهبان مثلا أعلى ، فالزهد في الدنيا ، لا الإقبال عليها ، هو ما ينبغي للانسان الكامل أن يهتدي به ، وذلك لأن عقيدتهم تسمح لهم بأن يفصلوا بين الأرض والسماء ، بين الدنيا والآخرة ، في الأولى تكون السيادة لقيصر وفي الثانية يكون الأمر لله .

فما لنا نحن بهذا كله وليس في عقيدتنا ما يدعونا إلى إهمال هذا العالم . . ؟! بل العكس هو الصحيح ، فقد أمرنا بأن نحتفل بالدنيا وكأننا نعيش فيها أبداً ، وأن نعمل للآخرة كأننا منتقلون إليها غداً ! » تلك هي العلمانية التي لم تكن تحتاج منا إلا أن نفتح لها العين فإذا هي جزء من حياتنا ، ومقوّم جوهري من مقومات تاريخنا في فترات عزه ومجده ، فمن الذي يحاربه أولئك الذين ركبوا جيادهم ، وحملوا قسيهم ورماحهم ليقاتلوا « العلمانية » حتى يقتلوها . . ؟! »(١٩٠). لكن إذا كانت مقاومة مَنْ يقاوم العلمانية بفتح عينها مصيبة أعظم فيمن يقاومونها بكسر العين ، لأن عينها إذا كسرت كانت الاشارة عندئذ إلى العلم وعلى الحياة التي تقيمها العلوم : « فهل يرضيكم ـ أيها السادة ـ أن نزرع أرضنا بغير علم ، وأن ندير مصانعنا بغير علم ، وأن ننشىء مدارسنا وجامعاتنا بغير العلم ، وأن نعد عدتنا العسكرية بغير العلم ؟! هل يرضيكم أيها السادة أن نمحو أسماء العلماء من تاريخنا فلا يكون فيهم بعد اليوم جابر بن حيان ولا الخوارزمي ولا ابن الهيثم ولا ابن النفيس ؟! وإذا رأيتم في هؤلاء موضع » فخر لنا فلماذا لا تريدون لأحفادهم المعاصرين أن يعيدوا سيرتهم الأولى ؟!(١٩١).

---

(١٨٧) مقال « أهو شرك من نوع جديد ؟ ! » في كتابه « رؤية إسلامية » ص ٣١٥ ـ ٣١٦ .

(١٨٨) المرجع نفسه ص ٣١٠ ـ وقد بلغ الغباء ببعض النقاد حدا جعلهم يتصورون ان الرجل يدعو الى رأى عام « معين » !! وأنه بذلك يتناقض !! وهكذا تكون قد غابت عنهم الفكرة من أساسها وهي ألا يتحول «الرأى العام » الى غول يلتهم حقوق الأفراد في التعبير عن رأيهم ! .

(١٨٩) ـ رؤية إسلامية ص ٣١١ .

(١٩٠) ـ عن الحرية أتحدث ص ١٨٨ .

(١٩١) ـ المرجع نفسه ص ١٨٩ .

ويمكن أن نسوق ، فضلا عن هذه المجموعات التي ذكرناها ، أمثلة تفوق الحصر لأفكار ومفاهيم قام مفكرنا الكبير بوضعها على مائدة التشريح العقلي منها فكرة « التراث »[١٩٢] و « الثقافة »[١٩٣]، والفرق بين « الفرد والمواطن والانسان »[١٩٤]. ومعنى التكنولوجيا[١٩٥]، « والقيم الثلاث : الحق والخير والجمال »[١٩٦] وارتباطها بأوجه الحياة الواعية للانسان وهي « الإدراك والسلوك والوجدان » . وعن معنى « الهوية » في مقاله : « نافخ النار »[١٩٧]. وعن معنى « الفكر وحريته » ، و « وحدة التفكير » ، و « رجل الفكر ومشكلاته »[١٩٨]. و « العقل الحر » ، و « أزمة العقل » ، و « سلطان العقل » ، ومعنى « الروحانية »[١٩٩]. وعن معنى الديمقراطية[٢٠٠] . . الخ لكن تكفينا هذه القطرات من هذا البحر الزاخر لننتقل إلى جانب آخر هو « الوجدان » لنسوق كلمة سريعة عما قدمه لدنيا الأدب .

القسم الثاني : مجال الوجدان

يتمثل الجانب الوجداني عند مفكرنا في الفن بصفة عامة ، والأدب بوجه خاص ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن زكي نجيب محمود هو واحد من أبرع كُتّاب المقالة الأدبية في أدبنا المعاصر ، وهو صاحب رأي خاص في نقد الأدب وكتابة المقال الأدبي وسوف نعرض لرأيه هذا بعد قليل مع نماذج من المقالات الأدبية عنده . لكنا نريد الآن أن نفرق بين الأدب بوصفه ممثلا لجانب « الوجدان » ، والعلم بوصفه معبرا عن « العقل » فأين يختلفان وكيف يلتقيان ؟ !

أولا : الأدب والعلم

كثيرا ما عقد مفكرنا مقارنات مطولة بين الأدب والعلم لكي يفرق بينهما من ناحية ، ولكي يهاجم من ناحية أخرى أصحاب « الأدب العلمي » مبينا أنهم يخلطون بين أمرين لا يجوز الخلط بينهما . ذلك لأننا نجد أنفسنا ، في حالة الأدب والعلم ، أمام ضربين من الكلام يختلف أحدهما عن الآخر أتمَّ الاختلاف ويستحيل أن يتحول اليه « كما يستحيل أن تتطور الأغنام وتصبح أبقارا » ، لا لان الأدب متميز عن العلم بجمال أسلوبه ، مع جواز اتحادهما في مادة القول ، بل لأن الاختلاف أعم من ذلك بكثير بالعبارة العلمية من طراز والعبارة الأدبية من طراز آخر ولن يستطيع جمال الاسلوب أن يعبر ما بينهما من فجوة واسعة سحيقة[٢٠١] .

ونحن هنا انما نعود بطريقة أخرى الى ثنائية « العقل والوجدان » والى ثنائية المجالين المختلفين من مجالات

(١٩٢) ـ بالنسبة لفكرة التراث قارن مثلا « أنجعل التراث كنزا نحن حراسه ؟ ! » في كتابه « تحديث الثقافة العربية » ص ٢٩٦ ومابعدها وأيضا « التراث أول الطريق » عن الحرية أتحدث ص ١٠٣ مابعدها .

(١٩٣) ـ قارن « سؤال عن الثقافة وجوابه » ـ في كتابه « قيم من التراث » ص ٣٢٥ ـ وثقافة الغد في كتابه هموم المثقفين ص ٢٠٠ ومابعدها . « ويوم الثقافة العربية » في كتابه عن الحرية أتحدث ص ٤١٥ وثقافة السكون وثقافة الحركة . في كتابه « في مفترق الطرق » ص ٢٢٠ ومابعدها . وخصوصية الثقافة . واللغة ملتقى الثقافتين في كتابه ، « تحديث الثقافة العربية » . الخ الخ .

(١٩٤) ـ في حياتنا العقلية ص ١٢٨ ومابعدها .

(١٩٥) ـ انظر مقالة « هذه اللقطة المسحورة » في كتابه مجتمع جديد أو الكارثة ص ٤٢١ ومابعدها .

(١٩٦) ـ مقال « قيمة القيم » في كتابه من « زاوية فلسفية » ص ١٢١ ومابعدها .

(١٩٧) ـ انظر مقال « نافخ النار » الاهرام ١٣ اكتوبر ١٩٨٧ .

(١٩٨) ـ قارن هذه المقالات في كتابه « في حياتنا العقلية » .

(١٩٩) قارن هذه المقالات في كتابه « في مفترق الطرق » و « ثقافتنا في مواجهة العصر » .

(٢٠٠) ـ هموم المثقفين ص ١١٦ .

(٢٠١) قشور ولباب ص ١٠٧ مكتبة الانجلو المصرية القاهرة عام ١٩٥٧ .

القول ينبغي علينا أن نفرق بينهما بدقة وعناية فالعلم تعميم والفن تخصيص ، العلم تجميع والأدب تفريد . العلم يلاحظ الاشياء والنظائر ليستخلص منها أوجه الشبه فيصوغها في قانون واحد ينظمها ، والفن يلاحظ جزئية واحدة يقف عندها . العلم يستبعد نفس الخصائص التي يستبقيها الفن ، فالخصائص الفريدة التي تميز فلانا من الناس دون سائر الأفراد هي التي يستبقيها الفنان ليحللها ويصورها ، وهي نفسها التي يستبعدها العالم لأنها ليست مشتركة بين سائر أفراد النوع الإنساني . يقول عالم النبات عن الزهر ما ينطبق على الزهر كله ما دام منتمياً الى فصيلة واحدة . أما الفنان فيقف عند زهرة واحدة في لحظة زمنية واحدة يلقفها من تيار حوادثها الدافق قبل أن تمضي الى غير عودة فيصورها رسما أو أودبا أو ما شاءت له مادته التي يستخدمها وسيلة لاثبات ما يريد أن يثبته(٢٠٢) .

وفي استطاعتنا أن نقول ذلك بصدد كل ما يعالجه الفن بشتى صنوفه ، وعلى أساس هذا المعيار تستطيع أن تقيم « النقد الأدبي » هب أنك بصدد قصيدة نظمها شاعر عن الحب ، فانظر الى أي حد قد تفردت العاطفة التي يعبر عنها بحيث أصبحت كائنا وحدها قائما بذاته ، لا تشاركها لحظة أخرى من لحظات الحب ـ لا أقول عند سائر المحبين ـ بل عند هذا المحب نفسه ، فلا يكفي أن يتحدث عن « الحب » بصفة عامة لتقول انه أجاد ، لأن الحب بصفة عامة من حيث هو عاطفة يشترك فيها أفراد البشر أجمعون بدرجات متفاوتة ـ هو من شأن علم النفس لا من شأن الفنان ، فعالم النفس هو الذي يتحدث عن هذه العاطفة « بصفة عامة » ، أو أنه يتكلم عنها كما تبدو آثارها عند هذا الفرد من الناس ، وهذا وذاك ، في كل زمان ومكان . هذا التعميم في الأحكام يكون علما ولا يكون فناً ولا أدباً . أما الفنان أو الأديب فهو ينظر الى حالاته النفسية في حبه ليلقف منها حالة واحدة ، ثم يبرز هذه الحالة الواحدة العابرة ، وهو بذلك يصور لنا مالا يتكرر في سائر الحالات ، ولا حالاته هو الشخصية دع عنك حالات الآخرين ! ان المحب لا يشعر بعاطفة الحب على لون واحد وبنغمة واحدة ، وأصداء واحدة ، وأثر واحد ، بل نراه ازاء حبيبه الآن بما لم يكنه بالأمس وما لن يكونه غداً ، ومع ذلك فهي كلها مواقف من حبه ، فلا يكفي أن يقول « إني أحب ، أو اني في جحيم أو نعيم من الحب » ليكون أديبا بل يتحتم أن يخصص لنا خيوط العناصر النفسية التي جعلت حبه جحيما أو نعيما . ولو أجاد الملاحظة ، وأجاد الوصف ، لعلم أن شبكة هذه الخيوط محال أن تلتقي على صورة واحدة في لحظتين متباعدتين(٢٠٣) .

الواقع أن مجرى العواطف والمشاعر عند الانسان قريبة مما كان يصف به الفيلسوف اليوناني « هيراقليطس الكون كله ـ تيار متدفق ، كل شيء فيه تتغير حالاته تغيرا دائما دائبا . ويحاول « العالم » أن يتلمس وسط هذه التيارات الدافقة من الحوادث اطرادات تتكرر على غرار واحد ، فان وجد جعله قانونا ثم راح يقيس الأبعاد المكانية والزمانية في ذلك الاطراد لينتهي الى صيغة قانون فيه دقة كمية . . أما الأديب أو الفنان ، فشأن آخر : انه لا يلتمس اطرادا في الحوادث ، بل تستوقفه حادثة واحدة ، أو حالة واحدة فيثبتها على اللوحة رسما أو يثبتها باللفظ أدبا ، أو في أنغام الالحان موسيقى .

وليست كل حالة جزئية في صلاحيتها للفن على حد سواء مع سائر الحالات ، بل ان الفنان الحق ليقع على الجزئيات ذات الدلالة ، أي الجزئيات التي تكون أكثر

(٢٠٢) قشور ولباب ص ١٠٨
(٢٠٣) المرجع السابق ص ١٠٩

إيماء عند القارىء أو الرائي ، فكاتب القصة أو المسرحية ، مثلا ، لا يجيد فنا اذا راح يسرد التفصيلات عن شخصياته سرداً بغير تمييز . بل صحيح الفن هو الاختيار الموفق ، فأي التفصيلات في حياة هذا الشخص الذي أصوره أهدى الى حقيقة شخصه وسر نفسه ، وكنه وجوده ؟ . سل نفسك ما سر الجودة الفنية في هذه الشخصيات الأدبية : هاملت ، الملك لير ، دون كيشوت ـ وغيرهم ؟ تجد أنه اختيار التفصيلات التي يجريها الأديب كلاماً وسلوكاً بحيث يتكون له في النهاية شخص متكامل فريد ، فهو لا يرسم الانسان بصفة عامة وإلا كان عالما ، بل يرسم « هاملت » أو « لير » فردا واحدا ذا طابع متميز يستحيل أن يتكرر له في الوجود مثال يطابقه كل المطابقة(٢٠٤)

سبيل العلم ، اذن ، وسبيل الأدب مختلفان ولن يتطور هذا الى ذاك أبدا ، ولسنا نريد أن نتتبع شتى الفروق التي تباعد بينهما وتباين ، لكنا نريد أن نضيف خاصية هامة أخيره وهي أن الأدب بمقدار ما يكون الكلام فيه وصفا للواقع والحقائق الخارجية بمقدار ما يبعد عن الكمال الفني . انَّ الصور الفوتوغرافية تصور الحقيقة الواقعية تصويراً أميناً ، ولذلك لم تكن فناً بالمعنى الذي نقصده ، انك كثيرا ما تقف أمام صورة رسمها « بيكاسو » أو « ما تيس » فلا تدري ماذا أراد المصور أن يصور ، لأنه لم يرد قط أن يصور شيئا خارجيا عن ذاته ، فهذا الخليط اللّوني قد تردد في خياله كما تردد الأنغام في أذن الموسيقى ، فرسمها على لوحته لتجيء موسيقى للعين في أنغام من ضوء .

انَّ الآلام والأفراح لا تكون الا داخل نفوس أصحابها ، وكذلك يكون الحب وتكون الكراهية ، وكل عاطفة إنسانية أخرى ، فماذا يريد أصحاب الأدب العلمي أن نصنع بالعواطف إذا هممنا بكتابة الأدب ؟

ثانيا : النقد الأدبي

هناك مدارس كثيرة في النقد الأدبي يحسن أن نسوق عنها كلمة لتعرف أين يقف مفكرنا من هذه المدارس(٢٠٥) . فافرض ان أمامنا ديوان شعر أخرجته المطابع وراح النقاد يعالجونه كل على طريقته الخاصة ، فكم زاوية للنظر يمكن أن ننظر منها الى هذا الديوان ؟ .

١ ـ هناك الزاوية التي ينظر منها الناقد الى الديوان المنقود ، نظرة يحاول بها أن ينفذ ببصره خلال الشعر الذي يقرؤه الى « نفس » الشاعر الذي أنشأ الديوان ما طبيعتها ؟ أهي نفس مرحة متفائلة ؟ أم هي مكتئبة متشائمة ؟ أم هي كيت ؟ فالناقد في هذه الوقفة يتخذ الشعر « وسيلة » لغاية يهتم بها ، وليس الشعر هنا غاية في ذاته بل هو عند ناقد من هذا الطراز وسيلة للكشف عن نفسية صاحبه ، وبعبارة أجلى وأوضح ، المهم عند الناقد هنا هو « علم النفس » لا « الشعر » ، ومن أمثلة ذلك وقفة العقاد في كتابه « ابن الرومي من شعره » . . وقد تسمى هذا الاتجاه في نقد الأدب والفن بالاتجاه « النفسي » ويمكن أن نقول ان « فرويد » وهو يقرأ مسرحية « أوديب » لسوفكليس كان ناقدا أدبياً من هذا الطراز .

٢ ـ وهناك زاوية أخرى للنظر الى الديوان المنقود ، وهي شبيهة بالزاوية الأولى في كون الناقد يتخذ من الشعر الذي بين يديه « وسيلة » لغاية تثير اهتمامه في المقام الأول ، وكل الفرق بين الرؤيتين أنه بينما الناقد في الحالة الأولى يبحث من خلال الشعر عن « نفسية »

---

(٢٠٤) قشور ولباب ص ١١٣

(٢٠٥) قارن كتابه « في فلسفة النقد » ص ٢٢٠ ومابعدها وكذلك « قشور ولباب » ص ١١٨ .

الشاعر نرى النقد في الحالة الثانية يبحث خلال الشعر عن « الحالة الاجتماعية » التي كانت تحيط بذلك الشاعر ، فكأنما شعر الشاعر هنا هو بمثابة وثيقة تاريخية لصورة من صور الحياة الاجتماعية ، ويمكن اعتبار كتاب طه حسين عن المتنبي مثلا لهذا الاتجاه الاجتماعي في النقد .

٣ ـ وهناك ، ثالثا ، زاوية أخرى للنظر يبحث الناقد منها لا عن « نفسية » الشاعر ولا عن « الحالة الاجتماعية » التي أحاطت به ، بل يبحث في نفسه هو ـ نفس الناقد ـ عن وقع هذا الشعر فيها ، فماذا ترك في جوانحه من أثر ؟ هل خرج من قراءة الديوان وهو على وعي بالغايات العليا التي استهدفها الكون ؟ هل خرج من قراءته راضيا عن نفسه أو ساخطا عليها ؟ ثم يسطر الناقد وصفا لطوية نفسه ، والأغلب أن يجيء هذا الوصف وكأنه في ذاته « أدب » بني على أدب ويمكن تسمية هذا الاتجاه في النقد « بالاتجاه التأثري » . .[٢٠٦] .

٤ ـ هناك وقفة أخيرة ـ وربما تسبق منطقياً ـ جميع المواقف السابقة ، فقبل أن يقف الناقد من الشعر المنقود وقفة نفسية أو اجتماعية أو تأثرية ، كان عليه أولا يتأكد أن الذي بين يديه « شعر » يستحق المعالجة بهذا الطريقة أو تلك ـ ومن هنا فان الناقد عليه في رأي مفكرنا ـ وتلك هي وجهة نظره في النقد ـ أن يفحص الشعر نفسه أي أن ينصب النقد الأدبي على الأثر الأدبي ذاته أو منحصراً في النص ذاته ، فأمام الناقد ترقيم على صفحات من كتاب ومهمته أن يحلل هذه التشكيلات اللفظية التي انتشرت أمامه على صفحات الكتاب ـ أي النص ولا شيء غير النص ـ فالكلمات المرقومه على الصفحات هي موضوع النقد ، وتحليلها وتشريحها وفحصها من جميع وجوهها هو مهمة الناقد ـ بالأثر الأدبي لا ينبغي أن يعتمد في فهمه على شيء وسواه . « إنني لا أكون ناقدا أدبيا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة اذا ما اتخذتُ الأثر الأدبي نافذة أنظر من خلالها الى شيء سواها ، كأن أنظر الى البيئة والظروف الاجتماعية والسياسية التي هي قائمة وراء الأثر المدروس ، اذ لو فعلت لكانت القطعة الأدبية التي أمامي بمثابة الوثيقة التاريخية لا أكثر ولا أقل ـ ولا أصل من الأثر الأولى نافذة أنظر منها الى دخيلة نفسه ـ أو دخيلة نفس الناقد اذ لو فعلت لكنت أشبه بعالم النفس يحلل لمريضه أحلامه وردود أفعاله وخواطره ومشاعره . . الناقد لا هو عالم اجتماع ولا سياسة ولا عالم نفس ولا طبيعة ـ وانما هو ناقد أدبي غايته دراسة قطعة أدبية يختارها للدراسة »[٢٠٧] . وتلك وجهة نظر في النقد يدافع عنها كثيرون عندما يذهبون الى أنه « لا بد من اتخاذ العمل الفني ذاته محوراً لكل ما يقال في ميدان النقد وأساسا لكل تذوق ، فالاستطراد في الكلام عن شخصية الفنان ، أو وقائع حياته أو ظروف مجتمعه دون أن تربط بين ما تقوله وبين العمل الفني ذاته ـ لا تعدو أن تكون استطرادات ذات قيمة تاريخية أو نفسية أو اجتماعية ، ولكنها ليست نقدا بالمعنى الصحيح . .[٢٠٨] . على أن النقد الأدبي يدخل في مجالات أشد تعقيدا كما تفعل النبوية مثلا » ـ مما يجاوز هذا التحديدات العامة التي وضعها أستاذنا ولذا سنكتفي بهذه الفكرة لننتقل الى أدب المقال .

ثالثا : ـ أدب المقال

قلنا ان زكي نجيب محمود يكاد يكون من أبرع كتاب

(٢٠٦) قشور ولباب ص ١١٩ ـ ١٢٠ مكتبة الانجلو عام ١٩٥٧

(٢٠٧) فلسفة النقد ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ دار الشروق ط ٣ عام ٨٣

(٢٠٨) د . فؤاد زكريا من مقدمته لترجمة كتاب « النقد الفني » تأليف جيروم ستولنيتز ص هـ ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة عام ١٩٨١ ط ٢ .

« المقالة الأدبية » ، في أدبنا المعاصر ، ولقد كان له تصور خاص لهذا اللون من الأدب تأثر فيه بأدباء المقال الإنجليز بصفه خاصة ، لكن إهتمامه بهذا الطراز من الفنون الأدبية جاء مسايراً لاهتمام أدباء عصره بالمقال « فأديبنا قصير النفس ، تكفيه المقالة الواحدة ليفرغ في أنهرها القليلة كل ما يتأجج به صدره من عاطفة وما يخلج به رأسه من فكر : فان غضب أديبنا من نقص يلمحه في بناء الجماعة أو أخلاق الفرد ، فزع الى المقالة يصب فيها ثورة غضبه . وان افتتن أديبنا بجمال الطبيعة الخلاب لجأ الى المقالة يبث فيها ما أحس من عجب وإعجاب . .[٢٠٩] » فالمقام عندنا ملاذ الأديب ، بصفه عامة ، باستثناء قلة قليلة عمدت الى القصة أو المسرحية ـ الخ ولا بأس أن يلجأ الأديب الى المقال اذا سار على قواعد الأدب الصحيح فما هي ؟ .

هناك ثلاثة شروط للمقال الأدبي من حيث الشكل :

١ ـ أول شرط للمقال الأدبي أن يكون له « فورم Form » أي شكل أو صورة معينة يضع فيها الأديب فكرته فهو لا يسرد تحليلاته كما يفعل رجل المنطق ، أعني أن الانتقال لا يكون بحيث تأتي الفكرة الثانية عن طريق الاستدلال من الفكرة الأولى حتى نصل الى النتائج ـ بل الأديب محكوم بتداعي المعاني بحيث لا يكون لها ضابط من نظام ، هي قطعة لا تجري على نسق معلوم فقد تجيء على شكل « حلم » يرى فيه الأديب نفسه مرة في القاهرة وأخرى في أوروبا بل وفي أماكن لا رابط بينها سوى ما يريد أن يثيره في نفس قارئه من وجدان .

٢ ـ الشرط الثاني أن يصدر المقال عن قلق يحسه الأديب مما يحيط به من صور الحياة وأوضاع المجتمع على شرط أن يجيء السخط في نغمة هادئة خفيفة هي أقرب الى الأنين الخافت منها الى العويل والصراخ « فان التمست في مقالة الأديب نقمة على وضع من أوضاع الناس فلم تجدها ، وان افتقدت في مقال الأديب هذا اللون من الفكاهة الحلوة المستساغة فلم تصبه ، فاعلم أن المقالة ليست من الأدب الرفيع ، في كثير ولا قليل ، مهما تكن بارعة الأسلوب رائعة الفكرة »[٢١٠] .

٣ ـ الشرط الثالث أن تعبر المقالة الأدبية عن ضرب من السمر بين الكاتب والقاريء فهو صديق يحادث صديقه عن حادثة شهدها في الترام ، ملاحظة هنا أو هناك مما يقع عليه البصر ـ بحيث لا يكون القاريء أمام « مُعلِّم » يعنفه ، ولا أمام واعظ يخطب فوق منبره يميل صلفاً وتيهاً بورعه وتقواه ، ولا مؤدب يصطنع الوقار حين يصب في أذن سامعه الحكمة صبا ثقيلا . ومن هنا فلا بد أن يشعر القاريء ، وهو يقرأ المقالة الأدبية أنه ضيف إستقبله الكاتب في حديقته ليمتعه بحلو الحديث ولهذا لا بد أن يكون أسلوبها عذبا سلسا دفاقا بلا زخرفة !

أما من حيث المضمون فان كاتب المقالة الأدبية على أصح صورها هو الذي تكفيه ظاهرة ضئيلة مما يعج به العالم من حوله ، فيأخذها نقطة إبتداء ، ثم يسلم نفسه الى أحلام يأخذ بعضها برقاب بعض دون أن يكون له أثر فوري في استدعائها عن عمد وقصد وتدبير . ومن هنا فلا يجوز أن تبحث المقالة الأدبية في موضوع مجرد كأن تبحث فضل النظام الديمقراطي أو معنى الجمال أو قاعدة في علم النفس أو أصول التربية . بل لا بد أن تُعبِّر عن تجربة معينة مست نفس الأديب فأراد أن ينقل الأثر الى نفوس قرائه ـ أما الموضوعات الاقتصادية أو السياسية أو العقلية ، فلها أنواع أخرى من المقالات الخاصة

(٢٠٩) جنة العبيط ص٧ دار الشروق ط ٢ عام ١٩٨٢
(٢١٠) جنة العبيط ص ٩ دار الشرق ط ٢ عام ١٩٨٢

بالدراسة الأكاديمية تقربها من البحوث بقدر ما تبعدها عن « المقال الأدبي » الذي يميل فيه الأديب الحق الى أن يخدع القارىء كي يمعن في القراءة وكأنه هو يسري عن نفسه المكروبة عناد اليوم ، وهو كلما قرأ تسلل الى نفسه ما شاع في سطور المقالة من نكتة خفيفة وسخرية هادئة . وقد يعجب القاريء : كيف يمكن أن يكون في النفوس البشرية مثل هذه اللفات واللمحات ؟ ولكنه لن يلبث حتى يتبيّن أن هذا الذي عجب منه إنما هو جزء من نفسه أو نفوس أصدقائه ، فيضجره أن يكون على هذا النحو السخيف فيكون هذا الضجر منه أول خطوات الاصلاح المنشود[٢١١] .

رابعا : نماذج من أدب المقال

علينا الآن أن نستعرض بعضاً من المقالات الأدبية لنرى كيف كان يطبق الشروط السابقة ويتقيد بها فيما كتب من مقالات أدبية كان يطلق عليها هو نفسه اسم القنابل المتفجرة لأنه أراد لها أن تنسف جزءاً من ألف جزءاً من الاطار الثقافي العتيق الذي كنا وما نزال نعيش فيه يقول : « صورتُ في إطار أدبي ـ في أوائل الخمسينات ما انطبعت به نفسي حينئذ من فوضى القيم في حياتنا ، بحيث انقلبت أعلاها على أسفلها فيعاقب المحسن ويكافأ المسيء ، وربما أكون قد أسرفتُ في القسوة ، لكنها قسوة المواطن يحب وطنه ، ويثيره أن يراه قد تنكب عن جادة الطريق . . [٢١٢] » .

سوف أسوق أمثلة قليلة « للمقالة الأدبية » وإنْ كان علينا أن نضع في ذهننا ملاحظتين : الأولى أن المقالات التي كتبها زكي نجيب محمود وهي تبلغ المئات ليست كلها مقالات أدبية تنطبق عليها الشروط السابقة ، بل فيها المقالات التي تعالج « أفكاراً » أو « مفاهيم اجتماعية » وتقوم بتحليلها تحليلاً عقلياً مستخدمة الفاعلية الفلسفية على نحو ما أشرنا من قبل . والملاحظة الثانية أن المقالة الأدبية يصعب تلخيصها لأن المهم في القطعة الأدبية إنما هو الأثر الذي يخرج به القارىء ، ولهذا لا بد أن يقرأها في مكانها وكما عرضها صاحبها ، لكننا سوف نسوق نماذج قليلة على النحو التالي :

أ ـ بيضة الفيل :

من أمتع المقالات الأدبية التي كتبها أستاذنا الكبير مقالة بعنوان « بيضة الفيل » يسخر فيها من المناقشات « البيزنطية » التي تحتد بين بعض الناس في موضوعات في غاية التفاهة من ناحية ، ثم هي تخلق مشكلات من عدم من ناحية أخرى . يبدأ المقال على النحو التالي : « قال الشيخ : الفيلة تلد ولا تبيض ـ والمشكلة المراد حلها هي هذه : لو كانت الفيلة تبيض فماذا يكون لون بيضها ؟[٢١٣] » . لاحظ أن أول سطر في المقال يقرر حقيقة علمية واقعة هي « أن الفيلة تلد ولا تبيض » لكنا اعتدنا أن نخلق مشكلات من عدم : فافرض أنها تبيض فماذا يكون لون بيضتها ؟ يستمر المقال فيقول : « في الجواب عن هذا السؤال اختلف العلماء : يقول عمارة بن الحارث ابن عمارة تكون بيضاء . واستدل على صحة قوله بدليل من القياس ودليل من اللغة[٢١٤] . أما دليل القياس فهو أن كافة مخلوقات الله التي تبيض بيضها

(٢١١) جنة العبيط ص ١٣
(٢١٢) قصة عقل ص ٦٨
(٢١٣) قصة عقل ص ٦٨
(٢١٤) جنة العبيط ص ٦٧

أبيض ، وليس في طبيعة الفيل ما يدل على أنه لو باض أخذت بيضته لوناً آخر غير البياض . . أما دليل اللغة فهو أن البيضة مشتقة من البياض ، وإذن فالبياض أصل والبيضة فرع منه . . وأخيراً تساءل عمارة : ما حكم الشرع في بيضه الفيل ، أيحل أكلها للمسلمين أم يحرم عليهم ؟ وهنا أجاب بدقته المعهودة أن بيضة الفيل حلال أكلها بشرط ، حرام بشرط . . » على هذا النحو الجميل يصور الأديب مشكلاتنا التافهة التي نخلقها من لا شيء . وهو يخدع القارىء بأن يذكر أسماء العلماء كما لو كانوا من التراث فعلاً ليشعر القارىء أن مناقشاتنا لا تزال هي نفسها مناقشات العصور الوسطى . انظر مثلاً الى المقال يستمر جاداً مع أنه يسخر سخرية مريرة . . « وتصدى معسرة بن المنزر لتنفيذ ما قال عمارة بن الحارث في بيضة الفيل من حيث لونها ، فقال عن دليل القياس الذي ساقه عمارة . . إنه ليس صحيحاً أن كافة الحيوان الذي يبيض لونه أبيض ، فبيض البط فيه خضرة خفيفة ، وبيض الدجاج في بعضه حمرة خفيفة ، ومن الطير ما بيضه أرقط ، ومنه ما بيضه أزرق ، . . أما دليل اللغة فهو استنتاج معكوس ومغلوط في آن معاً . . . الخ » وكان من بين تلاميذ ابن الحارث تلميذ نجيب فتصدى للرد على نقد معسرة فقال انه زل زلة ما كان ينبغي أن يقع في مثلها رجل مثله وهو شيخ المناطقة في زمانه . . » وتستمر المحاورة ـ وهذا هو « الفورم » أي الشكل الذي اتخذه المقال ـ بأسلوب ساخر لاذع عن إهدار القدرات العقلية في مناقشات لا معنى لها لأنها تتناول موضوعات نخترعها من ناحية وهي أتفه من أن تكون موضوعاً لحوار من ناحية أخرى ويختتم المقال بما يريد الكاتب أن يفتح عين القارىء عليه وهو بعدنا من مشكلات العصر فيقول إنه حدثت رجفة عنيفة « وزلزلت الأرض زلزالها ، وقال الشيخ مالها ؟ . فقيل : يا مولانا قنبلة ذرية ، في لمحة تقضي على الأصل والذرية . فعجب الشيخ أن كان في الدنيا علم غير علمه !(٢١٥) » .

ب ـ جنة العبيط :

وفي استطاعتك أن تقول الشيء نفسه عن مقالة « جنة العبيط » التي تعالج فكر العصر الوسيط الفج الذي ما زلنا نعيش فيه فضلاً عن عادته الاجتماعية البالية ويبدأ المقال : « أما العبيط فهو أنا ، وأما جنتي فهي أحلام نسجتها على مر الأعوام عريشة ظليلة ، تهب فيها النسائم عليلة بليلة ، فاذا ما خطوت عنها خطوة الى يمين أو شمال أو أمام أو وراء ، ولفحتني الشمس بوقدتها الكاوية ، عدت الى جنتي أنعم فيها بعزلتي ، كأنما أنا الصقر الهرم تغفو عيناه فيتوهم أن بغاث الطير تخشاه ، ويفتح عينيه ، فاذا بغاث الطير تغرى جناحيه ، ويعود فيغفو لينعم في غفوته بحلاوة غفلته . . الخ » لاحظ السجع الواضح ذا الدلالة .

جـ ـ نفوس فقيرة :

من أمتع المقالات التي تهزك هزاً عنيفاً مقاله عن « النفوس الفقيرة » الذي يبدأ بتصوير الأنواع المختلفة للفقر :

« الفقر صوره شتى . . .

(٢١٥) جنة العبيط ص ٧٢

منها اليباب القفر الذي تلتهب رماله بوقدة الشمس ، حتى لتنقلب حبات الرمل على سطحه جمرات من نار . . .

ومنها الصخر الأجرد الذي صلد عوده وتصلبت أطرافه ، فلا يتفجر جوفه عن قطرة أو نبته . . . .

ومنها السماء لا تجود بالغيث ، تيبس الأرض من تحتها وتتشقق ، ويجف الزرع ويموت وتشخص الأبصار إليها ضارعة ، وتصعد الدعوات إليها مسترحمة ، لكنها كالحة مصفرة الوجه لا تجود . .

ومنها الوردة تذبل وتذوى ، طار عنها الشذى وجف من عرقها الماء . . ومنها الجدول غِيضَ ماؤه ، تعبره ماشياً على قدميك فترن أصداء خطاك بين صخور خلائه وفراغه . . ومنها الجيوب تخلو من المال . . .

لكن لا اليباب القفر الذي تلتهب رماله بوقدة الشمس ، ولا الصخر الأجرد الذي صلد صدره ولا السماء اليابسة ولا الوردة الذابلة ، ولا الجدول غيض ماؤه ولا الجيوب الخالية من المال ، بمستطيعة أن تعبر عن الفقر بأبلغ مما تعبر عنه النفوس الفقيرة .

فقيرة هي تلك النفوس التي يعيش أصحابها فيما نعيش فيه ولا تتأثر ، كأنما تنظر العين ولا ترى ، وتسمع الأذن ولا تعي ، وكأنما قُدَّ القلب من صوان . . صاحب النفس الفقيرة كالمذياع التالف ، فيه المفاتيح والصمامات والأسلاك ، لكن الهواء من حوله يعج بموجات الصوت وهو أبكم لا يلتقط ولا يذيع . . فقيرة هي النفس التي تنظر الى باطنها فتجد خواء ، فتمتد الى خارجها لتقتني ما يسد لها هذا الخواء . فتتصيد أناساً آخرين لتخضعهم لسلطانها . انها علامة لا تخطىء في تمييز أصحاب النفوس الفقيرة من سواهم ، فحيثما وجدت طاغية ـ صغيراً كان أو كبيراً ـ فاعلم أن مصدر طغيانه هو فقر نفسه ، انَّ المكتفي بنفسه لا يطغى . . . . فقيرة هي النفس التي لا تستطيع أن تقف موقف سواها ، لترى ما ترى وتحس ما تحس . . فقيرة هي تلك النفوس التي لا يستطيع أصحابها أن ينظروا من وراء الأشخاص الى حيث ظروفهم ، ولو قد فعلوا لاشتد بهم التسامح واتسع فيهم العفو والمغفرة .

فقيرة هي تلك النفوس التي تبطش بالأشياء والأحياء بطش الصبيان ؛ فقيرة ـ يا أبا العلاء ـ هي تلك النفوس التي لا تخفف الوطء ، لأنها لا تدري أن أديم الأرض هو من هذه الأجساد . .[٢١٦] » .

د ـ الكوميديا الأرضيــة :

وهو في مقال عنوانه « الكوميديا الأرضية » يتخيل أن دانتي « قد بُعث حياً وأنه كتب هذه القصيدة الجديدة التي اتخذ فيها أيضاً من أستاذه القديم « فرجيل » دليلاً وهادياً ، ويصور أستاذنا بسخرية مريرة كيف وجد دانتي في الجحيم كل مَنْ فعل خيراً أو قال صدقاً ـ لأنه أراد أن يصور القيم المقلوبة في مجتمعنا ـ فماذا وجد الشاعر في أول حلقة من حلقات الجحيم « ها هنا وجد عبدة المبادىء الذين أنهكوا قواهم وأضاعوا حيواتهم في سبيل مبادئهم . . ولهذا فقد حق عليهم الحرمان من نعيم الفردوس ! » وماذا وجد في الحلقة الثانية من الجحيم

(٢١٦) « والثورة على الأبواب » ص ٧٥ ـ ٨٢ من طبعة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٥٤ وقد أعاد نشرها في دار الشروق بعنوان « الكوميديا الأرضية » .

« أولئك الذين شغلتهم في الدنيا عقولهم عن إشباع شهوات أجسادهم . . . . » أما في الحلقة الثالثة فقد أعدّ العقاب لمنْ عفّ فلم يلحف في السؤال عن حقه لدى أصحاب السلطان . وفي الحلقة الرابعة جماعة كانت تشغل نفسها بالاصلاح فتفسد على غيرهم نُعاسهم وأحلامهم . أما الحلقة الخامسة فقد خُصِّصت لمن أخذ زمانه بالدقة فلا يؤخر موعداً ولا يؤجل عملاً الى غد . . . وهكذا نجد في كل حلقة من الجحيم « أفاضل الناس » حتى الحلقة العاشرة تجد فيها مَنْ لم يتشفعوا بشفيع أو يتوسطوا بوسيط وعملوا في صمت .

وفي استطاعتك أن تقول إنَّ خصائص المقالة الأدبية بارزة في كثير جداً من المقالات التي كتبها في كتبه المتقدمة : « جنة العبيط » ، و « الثورة على الأبواب » ، و « شروق من الغرب » حيث تغلب النغمة الأدبية ولك أن تقرأ فيها « ظلم » و « خيوط العنكبوت » ، و « عروس المواد » ، و « الكراهية الصامتة » ، و « عند السفح » . . الخ وفي كتبه المتأخرة « رؤية إسلامية » ، « عن الحرية أتحدث » و « تحديث الثقافة العربية » . . مقالات « أستاذ يحلم » ، و « ذبابة تعقبتها » ، و « نافخ النار » . . وغيرها كثير .

خاتمة :

بعد هذه الرحلة الطويلة التي قطعناها في فكر زكي نجيب محمود علينا أن نقف في هذه الخاتمة لنتأمل مجموعة من الملاحظات أهمها ما يأتي : ـ

(١) لقد حاول هذا البحث تأكيد القضية التي أثارها في البداية وهي أننا نخطيء كثيراً عندما نحكم على فكر زكي نجيب محمود من منظور الوضعية المنطقية وحدها ، وأن كل مَنْ يأخذ بهذا المنظور ، فانه يكشف عن خطأ أساسي أو قصور شديد لأنه لم يتتبع التطور الروحي لهذا المفكر أو أنه اكتفى بالتوقف عند مرحلة واحدة من مراحل تطوره .

(٢) ان زكي نجيب محمود مفكر تنويري يقوم بمواصلة المهمة التنويرية التي بدأها رفاعة الطهطاوي وسار فيها أعلام نهضتنا الحديثة . فهو يستكمل الطريق نفسه الذي سار فيه رُوّاد كبار من أمثال محمد عبده ، ولطفي السيد وطه حسين والعقاد وغيرهم من الذين جمعوا بين الثقافة العربية الأصيلة والفكر المعاصر في دمج واحد . ومن هنا قدّم مفكرنا صيغة ثنائية هي « العقل والوجدان » والتفرقة بين هذين المجالين حلاً لمشكلتنا الثقافية ، وقد عرض هذه الصيغة في « الشرق الفنان » وجسدّها هو نفسه بحياته ومؤلفاته .

(٣) في هذه الصيغة الثنائية « العقل والوجدان » حرص على خلق طريقة عقلية جديدة يحلل بها المثقف العربي لنفسه ولمجتمعه ، إذا أراد ، مفاهيمه وأفكاره بأن يفكها الى مكوناتها الأصلية ليلقي عليها الضوء ، فلا نستخدم مفاهيم غامضة يمكن أن تكون عقبة أكثر مما تكون دافعاً للتطور . ثم قدّم لنا نماذج من اهتماماته الأدبية لا سيما « المقال الأدبي » الذي يهدف الى إثارة الوجدان عند القارىء .

فأي منهج نطبقه في الحالات التي يتداخل فيها اللا متناهي مع المتناهي ويتصل به ؟ ![٢١٧] .

---

(٢١٧) د . فؤاد زكريا « تجديد الفكر العربي في الميزان » . الكتاب التذكاري ص ١٠٧

(٤) نستطيع أن نقول أيضاً إن « فكرة الثنائية » ـ لا سيما الانطولوجية ـ غير مستقرة عند مفكرنا الكبير فهو أحياناً يرى أنها ثنائية لا تسوّى بين الشطرين بل تجعل للشطر الروحاني الأولوية على الشطر المادي فهو الذي أوجده ، وهو الذي يُسيّره ويحدد له الأهداف(٢١٨) » ـ وواضح أننا هنا أمام واحدية ؟ ! إذ يمكن أن يُرَّد الشطر المادي الى الروحاني ! ثم يقول في أحيان أخرى » إنها نظرة تجمع بين الثنائية والكثرة ، ثنائية بالنسبة الى الله الخالق والكون المخلوق والكثرة بالنسبة لأفراد الناس الداخلين في حدود هذا الكون المخلوق . .(٢١٩) » ثم هو يميل ـ بصراحة ووضوح ـ في مقالاته الأخيرة في جريدة الأهرام الى الوحدانية « ولك أن تقرأ مجموعة المقالات التي كتبها بعنوان « من إشعاعات التوحيد . .(٢٢٠) » .

(٥) يقترح أستاذنا الكبير صيغة « العقل والوجدان » حلاً لمشكلة « الأصالة والمعاصرة » وإنْ قلنا أنَّ هذه الصيغة هي المفتاح « السحري » لحل مشكلتنا الثقافية فسوف نصطدم بكثرة من المشكلات ، منها مثلاً ان ثنائية « العقل والوجدان » زوجان مختلفان من المقابلات يختلفان أتمَّ الاختلاف من الأصالة والمعاصرة ! فهل نقول إنّ المعاصرة هي العقل والأصالة هي الوجدان ؟ ! في هذه الحالة نكون قد حكمنا على التراث كله بأنه أشبه بالعمل الفني الذي لا نستطيع التعامل معه الا بوجداننا ـ مع أننا كثيراً ما نعود إليه بوصفه يشتمل على نماذج كثيرة من ثنائية « العقل والوجدان » معاً !

ثم ألا نستطيع أن نقول انَّ في المعاصرة عقلاً ووجداناً ، وفي الأصالة عقلاً ووجداناً ؟ ! وفي العقل أصالة ومعاصرة ، وفي الوجدان أصالة ومعاصرة ؟ ! ألا يجعلنا ذلك ننتهي الى أن مشكلة الأصالة والمعاصرة ربما كانت « شبه مشكلة » أو « مشكلة زائفة » ، لأن المثقف العربي الحقيقي هو في الوقت نفسه أصيل ومعاصر معاً ؟ !

(٦) لكن أياً ما كانت الانتقادات التي توجه الى هذه الفلسفة الثنائية ، فسوف يبقى لهذا الرجل أنه حمل مشعل التنوير ما يقرب من ستين عاماً يضيء به العقول والقلوب معاً في مؤلفاته ومحاضراته وأحاديثه ولقاءاته . . وأنه كان مفكراً عربياً مخلصاً في عروبته ووطنيته كما يقول واحد من أشد معارضيه : « كتابات زكي نجيب محمود ترفض الاستعمار والاحتكار والارهاب بالفكر والسياسة ، إنه يريد الآلات المتقدمة والتكنولوجيا الراقية ، ولا يريد أن يستجلب معها إستعماراً ولا احتكاراً ، بل لقد شارك الناس زمناً في الاستماع الى أغنيات الاشتراكية ولم يرفضها ، كما دعا الى حرية إجتماعية والى إنصاف العمال والفلاحين وهو يقدّم بشخصه نموذجاً نادراً للمفكر الحر . .(٢٢١) » .

❊ ❊ ❊

---

(٢١٨) تحديد الفكر العربي ص ٢٧٥

(٢١٩) المرجع نفسه

(٢٢٠) جريدة الأهرام ٢٤/ ١/ ٨٩ وكذلك ٣١/ ١/ ١٩٨٩

(٢٢١) من تقديم الأستاذ ابراهيم فتحي لكتاب « نقد العقل الوضعي : دراسة في الأزمة المنهجية لفكر زكي نجيب محمود » ص ١٧ ـ ١٨ ـ دار الطليعة بيروت ١٩٨٠ .

« مراجـــع البحث »

أولاً : مؤلفات الدكتور زكي نجيب محمود

(١) زكي نجيب محمود « في تحديث الثقافة العربية - دار الشروق .... عام ١٩٨٧

(٢) زكي نجيب محمود « رؤية إسلامية - دار الشروق .... عام ١٩٨٧

(٣) زكي نجيب محمود « عن الحرية أتحدث » - دار الشروق .... عام ١٩٨٦

(٤) زكي نجيب محمود « في مفترق الطرق » - دار الشروق .... عام ١٩٨٥

(٥) زكي نجيب محمود « قيم من التراث » - دار الشروق .... عام ١٩٨٤

(٦) زكي نجيب محمود « قصة نفس » دار الشروف - ط ٢ .... عام ١٩٨٣

(٧) زكي نجيب محمود « قصة عقل -دار الشروق .... عام ١٩٨٣

(٨) زكي نجيب محمود « أفكار ومواقف » - دار الشروق .... عام ١٩٨٣

(٩) زكي نجيب محمود « تجديد الفكر العربي » - دار الشروق .... عام ١٩٨٢

(١٠) زكي نجيب محمود « هذا العصر وثقافته » - دار الشروق .... عام ١٩٨٢

(١١) زكي نجيب محمود « من زاوية فلسفية » - دار الشروق .... عام ١٩٨٢

(١٢) زكي نجيب محمود « مجتمع جديد أو الكارثة » - دار الشروق .... عام ١٩٨٣

(١٣) زكي نجيب محمود « جنة العبيط » - دار الشروق - ط ٢ .... عام ١٩٨٢

(١٤) زكي نجيب محمود « في حياتنا العقلية » - دار الشروق - ط ٢ .... عام ١٩٨١

(١٥) زكي نجيب محمود « هموم المثقفين » - دار الشروق - ط ٢ .... عام ١٩٨١

(١٦) زكي نجيب محمود « المعقول واللا معقول في تراثنا الفكري - دار الشروق - ط ٣ .... عام ١٩٨١

(١٧) زكي نجيب محمود « مع الشـــعراء » - دار الشروق .... عام ١٩٧٨

(١٨) زكي نجيب محمود « أرض الأحـــلام » - دار الهلال بالقاهرة .... عام ١٩٧٧

(١٩) زكي نجيب محمود « ثقافتنا في مواجهة العصر » - دار الشروق .... عام ١٩٧٦

(٢٠) زكي نجيب محمود « الشرق الفنان » - العدد رقم ٢ في سلسلة المكتبة الثقافية - دار القلم - القاهرة .... عام ١٩٦٠

(٢١) زكي نجيب محمود « المنطق الوضعي » - جـ ١ ، جـ ٢ - مكتبة الانجلو .... عام ١٩٥٧

(٢٢) زكي نجيب محمود « نحو فلسفة علمية » - مكتبة الانجلو .... عام ١٩٥٨

(٢٣) زكي نجيب محمود « قشور ولباب » - مكتبة الانجلو .... عام ١٩٥٨

(وقد أعاد طبعه في دار الشروق - الطبعة الثانية) .

(٢٤) زكي نجيب محمود « والثورة على الأبواب » - مكتبة الانجلو .... عام ١٩٥٤

(وقد أعاد طبعه في دار الشروق بعنوان « الكوميديا الأرضية) .

(٢٥) زكي نجيب محمود « شروق من الغرب » - مكتبة الانجلو .... عام ١٩٥١

(ثم أعاد طبعه في دار الشروق) .

(٢٦) زكي نجيب محمود « خرافة الميتافيزيقا » - النهضة المصرية .... عام ١٩٥٣

(وقد أعاد نشره في دار الشروق بعنوان « موقف من الميتافيريقا » ط ٢ .... عام ١٩٨٣

(٢٧) مجموعة مقالات الأهرام - لعام ١٩٨٧ بعنوان « بذور وجذور » .

(٢٨) مجموعة مقالات - الأهرام - لعام ٨٨ - بعنوان « عربي بين ثقافتين » .

ثانياً : مراجع عامــة :

(١) أحمد أمين « زعماء الاصلاح في العصر الحديث » ـ مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٧٩

(٢) أحمد أمين « حياتي » ـ دار الكتاب العربي بيروت عام ١٩٧١

(٣) د. أحمد ماضي « الوضعية المحدثة والتحليل المنطقي » ـ ضمن بحوث الفلسفة في الوطن العربي المعاصر ـ بحوث المؤتمر الأول أصدرها مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت عام ١٩٨٥

(٤) د. حسن فوزي النجار « رفاعة الطهطاوي » ـ سلسلة أعلام العرب ـ عدد ٥٣ ـ القاهرة .

(٥) جورج ستولنيتز « النقد الفني » ـ ترجمة د. فؤاد زكريا ـ الهيئة المصرية ـ القاهرة عام ١٩٨١

(٦) الامام محمد عبده « الاسلام والنصرانية » ـ مكتبة صبيح عام ١٩٥٤

(٧) د. محمد البهي « الفكر الحديث وصلته بالاستعمار الغربي » دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٧٠ .

(٨) د. محمد عمارة « رفاعة الطهطاوي » ـ رائد التنوير الحديث » ـ أعلام عدد ٣ ـ القاهرة ١٩٨٤ .

(٩) محمود أمين العالم « معارك فكرية » ـ دار الهلال ـ ط ٢ ـ ١٩٧٠ .

(١٠) طه حسين « في الشعر الجاهلي » ـ مطبعة دار الكتب المصرية ـ عام ١٩٢٦ وفي طبعته الثانية « في الأدب الجاهلي » ـ ضمن المجلد الخامس من المؤلفات العامة التي نشرت في دار الكتاب اللبناني ـ عام ١٩٧٤ .

(١١) د. عاطف احمد « نقد العقل الوضعي » ـ دراسة في الأزمة المنهجية لفكر زكي نجيب محمود » ـ دار الطليعة ـ بيروت ـ عام ١٩٨٠ .

(١٢) علي عبد الرزاق « الاسلام وأصول الحكم » ـ المؤسسة العربية للدراسات ـ نشرة د. محمد عمارة مع وثائق المحاكمة .

(١٣) د. يحيى هويدي « الفلسفة الوضعية في الميزان » ـ مكتبة النهضة المصرية ـ عام ١٩٧٢ .

(١٤) « أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي ـ بحوث ندوة الكويت في ابريل ـ عام ١٩٧٤ ـ مطابع دار السياسة بالكويت .

(١٥) « الدكتور زكي نجيب محمود » فيلسوفاً وأديباً ومعلماً » ـ الكتاب التذكاري الذي أصدره قسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة الكويت ـ عام ١٩٨٧ ـ مطابع الوطن .

❊ ❊ ❊

مطالعات

فنيّة القصة في كتاب البخلاء والجاحظ

ضياء الصديقي

مقدمة :-

في معرض الحديث عن القصة في الأدب العربي الحديث ، يذهب كثير من الباحثين الى أنها نشأت متأثرة بالقصة الغربية ، منذ بداية القرن العشرين حين نشر محمد حسين هيكل روايته (زينب) وأصدر محمد تيمور مجموعته القصصية الوحيدة (ما تراه العيون) متأثرين بالقصاصين الفرنسيين وانها - أي القصة العربية الحديثة - منبتّة الجذور عما يحمله التراث العربي من قصص وحكايات . وتعصب قسم منهم فأنكر وجود القصة في التراث العربي القديم كأحمد أمين في (فجر الإسلام) والعقاد في (الفصول) وتوفيق الحكيم في (زهرة العمر) الذين يرون أن العرب لم يعرفوا القصة إلا في عصور متأخرة كالعصر العباسي . ومنهم من بحث عن القصة بمواصفاتها الفنية الحديثة ، فوجد أن ما يحمله التراث لا يرقى إلى المستوى الفني للقصة الحديثة لذا أدارَ ظهره للتراث . يقول يحيى حقي : « وحملت الرياح التي تهبّ من أوربا بذرة غربية على المجتمع العربي ، بذرة القصة . . وعلى ضوء المقارنة بين البذرة القادمة وبين ما هو موجود باليد أحسّ الأدباء أن الفرق بين الاثنين كبير فالموجود في اليد لا يخرج عن بعض السير ، وقصص ألف ليلة وليلة ، ومقامات لم تدرس إلا باعتبارها وثائق لغوية غرقت في تحف النحو والبديع ، عناصر ضئيلة من قوام القصة بوصفها لشخصية خيالية ، أو ضبطها في موقف معين لا يخلو من الفكاهة أحياناً كما في مقامات الحريري ، هي فتات فني تنقصه الوحدة »[1] .

غير أن التراث بما يحمله من أخبار ونوادر وسير وحكايات وقصص قصيرة وطويلة ، المترجم منه ككليلة ودمنة والأصيل كالمقامات ، الشعبي منه كالسيرة الهلالية

(١) يحيى حقي ، فجر القصة المصرية ، ص ٢١ .

وألف ليلة وليلة ، والرسمي كالأخبار والحكايات والنوادر ، يمثل مرحلة طفولة ونشأة وتطور هذا الفن .

إن من يعد إلى التراث في عصوره المختلفة يجد أنواعاً كثيرة من القصص بل ويلحظ تطوراً ونضجاً إلى حد ما في فنية هذه القصص ، فمن حكايات بسيطة ونوادر صغيرة متناثرة تلعب فيها الأساطير والخرافات دوراً كبيراً مثل الغول والعنقاء وحكايات الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، إلى أنواع مختلفة من القصص في العصر الإسلامي والأموي والعباسي من قصص دينية هدفها العظة والعبرة ، إلى قصص اجتماعية تصور طبقات المجتمع المختلفة ، إلى قصص عاطفية مستوحاة من سير الشعراء العذريين ، إلى قصص رمزية كقصص الصوفية ، إلى قصص فلسفية ومثلها الحي في قصة ابن طفيل (حي بن يقظان) . بل إن التراث العربي عرف أنواعاً من الأشكال الفنية ، كالقصة ـ الخبر التي تجمع بين التاريخ والفن مع حرص قائلها على تتبع مصدرها وكأنها وقعت فعلاً ، والقصة ـ النادرة والتي تكون أقصر من حيث الحجم وتدور حول مغزى محدد كنقد وضع معين أو السخرية منه أو عظة انسانية ، وأبطالها عادة ما يكونون من الظرفاء أو السكارى أو البخلاء أو المغفلين . وعرف التراث أيضاً قصص الحيوان التي تتصرف فيها أبطالها من الحيوانات وتتحدث كالناس مع احتفاظها بسماتها الحيوانية وكلها تهدف إلى مغزى أخلاقي ، كما عرف التراث المجموعات القصصية التي تندرج تحت موضوع واحد قلما نجد مثيلاً له في المجموعات القصصية الحديثة مثل كتاب البخلاء للجاحظ والفرج بعد الشدة للتنوخي ومصارع العشاق لابن السراج فان لم ترتبط القصص بموضوع واحد أوجدوا لها رباطاً فنياً آخر كما نجد ذلك في ألف ليلة وليلة في قصة الملك شهريار المعروفة الذي يقتل عروساً كل ليلة انتقاماً لامرأته التي خانته حتى تحتال عليه شهرزاد بأن تبدأ كل ليلة قصة لا تتمها الا في اليوم التالي . وعرف التراث السير الشعبية كالسيرة الهلالية وسيرة عنترة . والسيرة قالب فني يجمع بين المجموعة القصصية والرواية ، إذ أن قصص السير الشعبية يجمعها بطل واحد هو بطل السيرة . وهناك قالب قصصي آخر عرفه التراث وهو المقامات التي تقترب في بعض قصصها من فن القصة القصيرة . ولا نود أن نطيل أكثر في تعداد أنواع وأشكال القصة التراثية في هذه المقدمة بقدر ما نريد أن نؤكد أن موضوع القصة في التراث ـ مهما اختلفت مستوياتها الفنية ـ موضوع لا يمكن إنكاره . أضف إلى ذلك أن القصة الغربية في نشأتها وبداياتها تأثرت ـ من بين ما تأثرت به ـ بحكايات وقصص وسير التراث العربي وذلك عن طريق الترجمة في عهد مبكر إلى الإسبانية أولاً ومنها الى اللاتينية ، فقد ترجم كتاب كليلة ودمنة ـ على سبيل المثال ـ إلى الإسبانية في القرن الثالث عشر الميلادي[٢] .

وتذكر الدكتورة سهير القلماوي في بحثها القيم : (أثر العرب والإسلام في الفن القصصي في النهضة الأوربية) أن أهم ما عرفه العرب من هذه الفنون

(٢) انظر يوسف الشاروني ، القصة القصيرة ، ص ٤٧ ، والطاهر أحمد مكي ، القصة القصيرة ص ٤٦ . وقد ذكر الشاروني أن النص الأصلي العربي لكليلة ودمنة ترجم إلى الأسبانية مباشرة منذ عام ١٢٦١ كما أن الجارية تودد من مجموعة ألف ليلة وليلة قد ترجمت إلى الأسبانية والبرتغالية بدءاً من (عام ١٥٢٤) ، وقد بلغ من شعبية هذه الحكاية وذيوعها في الأدب الأسباني أن عمد إلى نقلها إلى خشبة المسرح الكاتب الأسباني (لوجي دي فيجا) تحت عنوان (الجارية تيودور) ، انظر الشاروني ص ٤٧ ـ ٤٩ . بينما يرى الطاهر مكي أن كتاب (كليلة ودمنة) عرف طريقه إلى أوربا عن طريق اللغة الأسبانية عام (١٢٥١) ، وأن أول ما عرف من قصص (ألف ليلة وليلة) قصة (السندباد) التي وصلت أوربا عن طريق ترجمة يونانية عن السريانية التي ترجمتها عن العربية أواخر القرن الحادي عشر ، وهناك ترجمة أخرى إلى الأسبانية عام (١٢٣٥) انظر الطاهر مكي ص ٤٦ ـ ٤٧

القصصية العربية هو فن المقامة الذي انتقل إلى الإسبانية عن طريق الأندلس ويتضح تأثيرها في فن من فنون الأدب القصصي الإسباني يسمى (البيكارسيه) وهي قصص الشطّارة ، والشاطر أو (البيكار) أشبه ما يكون ببطل المقامة . بل إننا نجد في قصص الحب ومغامرات فرسان القرون الوسطى في أوربا ، في بطولتهم ومثاليتهم وأخلاقهم ووفائهم في حبهم والتغلب على الصعوبات التي يواجهونها في سبيل الحب تشابها مع مغامرات عنترة وسيف بن ذي يزن ، والذي « شد من أزر نزعة الفروسية هذه ما عرفته أوربا من ثقافة العرب وآدابهم منذ القرون الوسطى ، فتأثرت في أدبها بما أدركته من مكانة المرأة في الأدب العربي »[٣] .

وتتفق أقاصيص الايطالي (بوكاتشيو) المعروفة باسم الليالي العشر (الديكاميرون) في شكلها الفني مع كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة في أنها قصة تجمع في داخلها مجموعة من القصص . والأمثلة على هذا التأثير كثيرة ليس بما ثبت علمياً من خلال الدراسات المقارنة فحسب بل بشهادة قصاصي أوربا وروائييها ومؤرخيها[٤] .

وفي الحديث عن القصة في التراث لا بد من الإشارة قبل كل شيء إلى القصة في القرآن والتي لا نعدّها من قصص التراث إلا ضمن سياقها التاريخي ، إذ تقف القصة القرآنية كنموذج متفرد في بنائها الفني المتميز الذي يخدم هدفها الأول وهو العبرة والعظة : (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب)[٥] .

أما كتاب البخلاء للجاحظ ـ موضوع الدراسة ـ فهو نموذج متقدم للقصة التراثية سواء في شكله الفني الذي يضم مجموعة من القصص ترتبط بموضوع واحد وهو البخل ، أو في بناء القصص نفسها ومميزاتها الفنية التي تقترب في بعض جوانبها من فنية القصة الحديثة وهذا ما سنعرضه في الصفحات التالية :

الكاتب :[٦]

هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . قمة من القمم الثقافية الشامخة في تراثنا العربي الإسلامي ، وشخصية موسوعية فذة ، وأديب عقلي واقعي ، اهتم بقضايا عصره فكان صورة حقيقية للعصر العباسي بوجوهه المختلفة دينياً ، وسياسياً ، واجتماعياً ، وعلمياً ، وثقافياً ، وأدبياً .

ليس لدينا معلومات عن طفولة الجاحظ سوى أنه نشأ في البصرة ـ مسقط رأسه ـ يتيماً من أسرة فقيرة ليس له غير أمه ، وأنه كان يبيع الخبز والسمك بسيحان ـ أحد نهيرات البصرة ـ كما ورد في معجم الأدباء[٧] . غير أن فقره لم يمنعه من الاختلاف إلى الكتاتيب ليتعلم مبادىء القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن ، وبعض الأشعار ، وشيئاً من النحو والفقه والحساب . وهناك قصة يوردها الجاحظ في كتاب (الحيوان) تشير إلى اختلافه إلى الكتّاب ، وتشير أيضاً إلى الصورة العقلية للجاحظ الصبي يقول :

(٣) محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، ص ٥٠٠ .

(٤) انظر علي شلش ، في عالم القصة ، ص ١٩٥ .

(٥) سورة يوسف ، الآية ١١١ .

(٦) في تعريفنا للجاحظ آثرنا الاشارة إلى بعض ملامح شخصيته وتكوينه وبيئته وعلاقاته ومؤلفاته مما يفيد موضوعنا الأساسي وهو القصة في البخلاء ، وليس الاحاطة الشاملة بالجاحظ الذي كتبت فيه الكثير من المؤلفات .

(٧) المصدر السابق ، ص ٧٤ .

(وأنا ـ حفظك الله تعالى ـ رأيت كلباً مرة في الحي ونحن في الكتّاب ، فعرض له صبي يسمّى مهدياً من أولاد القصابين ، وهو قائم يمحو لوحة فعض وجهه فنقع ثنيّته دون موضع الجفن من عينه اليسرى ، فخرق اللحم الذي دون العظم الى شطر خده ، فرمى به ملقياً على وجهه وجانب شدقه وترك مقلته صحيحة ، وخرج منه من الدم ما ظننت أنه لا يعيش معه ، وبقي الغلام مبهوتاً قائماً لا ينبس ، وأسكته الفزع وبقي طائر القلب ، ثم خيط ذلك الموضع ، ورأيته بعد ذلك بشهر وقد عاد الى الكتاب ، وليس في وجهه من الشتر الا موضع الخيط الذي خيط ، فلم ينبح الى أن برىء ، ولا هرّ ، ولا دعا بماء ، حتى اذا رآه صاح : ردوه ! ولا بال جروا ولا علقا ، ولا أصابه مما يقولون قليل ولا كثير . ولم أجد أحداً من تلك المشايخ ، يشك أنهم لم يروا كلباً قط أكلب ولا أفسد طبعاً منه . فهذا الذي عاينت)[٨] .

هذه الحادثة التي عرضها الجاحظ نقلاً عن صورة تصورها في طفولته تبين قوة ملاحظته ودقة تصويره ، وتشير الى عين لاقطة حساسة وذاكرة واعية حتى لا يفوته شيء مما يجري أمامه ، « وفي قوة تكفل لها البقاء في (خزانة الصور العقلية) ذلك العهد الطويل المختلف »[٩] . وإن قوة الملاحظة ودقة التصوير عنصر سنلمحه في قصص البخلاء فيما سيأتي ذكره .

هذا الصبي اليتيم الفقير الدميم الشكل عوّضه الله بذهن صاف وذكاء حاد وميل نحو التعلم ، فبدأ رحلته في طلب العلم ، وراح يختلف بعد أن شب عوده إلى حلقات المساجد يستمع إلى محاضرات العلماء فيها ، ويتردد على سوق البصرة الثقافي المربد الخصب ، ويجالس علماء البصرة المشهورين من اللغويين والنحويين والفقهاء والمتكلمين ، ويعكف على الكتب في شتى فنون المعرفة يلتهمها التهاماً . نقل ابن النديم في الفهرست عن أبي هفان قوله : « ثلاثة لم أر قط ولا سمعت أحب اليهم من الكتب والعلوم : الجاحظ والفتح بن خاقان وإسماعيل بن إسحق القاضي ، فأما الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنا ما كان ، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين . ويبيت فيها للقراءة والنظر »[١٠] . ومن بين الحلقات التي استهوت الجاحظ ، ووجد في نفسه ميلاً لها هي حلقات المتكلمين بشكل عام وحلقات المعتزلة بشكل خاص التي أثرت فيه تأثيراً مباشراً فاعتنق مذهبها ، إذ وجد فيه ما يرضي نوازعه العقلية . ويقف إبراهيم النظّام ـ من أئمة المعتزلة المشهورين كأكثر الشخصيات التي اتصل بها الجاحظ تأثيراً عليه حتى ليعد مصدراً من مصادر ثقافته ، والجاحظ كثير الإشادة بأستاذه ومكانته ، وبالمعتزلة وأثرهم . يقول في كتاب الحيوان : (لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل : وأقول لولا أصحاب إبراهيم ، وإبراهيم (النظّام) لهلكت العوام من المعتزلة فإني أقول إنه قد أنهج لهم سبلاً وفتق لهم أموراً واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة وشملتهم النعمة)[١١] . ويبدو أن النظام هو الذي غرس في نفسه فكرة الثقافة الموسوعية ـ كما يرى الدكتور شوقي ضيف ـ فإن ما رواه عنه في كتاب الحيوان يدل على أنه كان

(٨) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج ٢ ، ص ١٤

(٩) طه الحاجري ـ الجاحظ ، ص ٩٣

(١٠) ابن النديم ـ الفهرست ، ص ١٦٩

(١١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ج ٤ ، ص ٢٠٦

مستوعباً لكل الثقافات في عصره من فارسية وهندية وعربية وإسلامية . وهداه طول تفكيره في آراء أستاذه الاعتزالية وغيره من المعتزلة إلى أن يعتنق مجموعة من الآراء كونت له فرقة سميت (الجاحظية)[١٢] . وبيئة المتكلمين - والمعتزلة على وجه الخصوص - هي التي طبعت الجاحظ بطابع الجدل والمناظرة التي عرف بها رده على الزنادقة والشعوبيين ، وهي التي صبغت كتاباته بالصبغة الكلامية ، ولونت أدبه باللون العقلي في كل مؤلفاته الجدية منها والهزلية . على أن بيئة المعتزلة جزء من بيئة أكبر كان لها أثرها العميق في تكوين شخصية الجاحظ وثقافته ووعيه ، وهي بيئة البصرة . البصرة التي أكمل فيها الجاحظ ثقافته الموسوعية ومعارفه المتنوعة ، كانت مركز إشعاع حضاري لا تضاهيها مدينة أخرى في ذلك العهد باستثناء الكوفة التي كانت مع البصرة قطبي الثقافة الإسلامية والعربية في تلك الفترة ، والموطن الأول للعلم والفلسفة والأدب ، والمصدر الخصيب للحياة الزاخرة التي حفلت بها بغداد في نهاية القرن الثاني . شهد الجاحظ في البصرة حركة علمية مزدهرة ، ونشاطاً ثقافياً متنوعاً ، وعلماء أعلاماً في تخصصاتهم ، من مجاميع اللغويين والنحويين والاخباريين والشعراء ، إلى الفلاسفة والمتكلمين من كل الفرق الإسلامية وغير الإسلامية ، إلى المتخصصين في العلوم الطبيعية كالفلك والرياضيات والطب والكيمياء ، إلى حلقات الفقهاء والمفسرين ورواة الحديث والوعاظ والقصاصين . ولعل حلقة القصاصين - بنوعيها الرصناء منهم كالحسن البصري ، والظرفاء - من بين الحلقات الثقافية التي استهوت الجاحظ وأثّرت عليه ، فقد زاد هؤلاء القصاص الظرفاء في تجاربه الإنسانية كما تدل على ذلك الاستشهادات المبعثرة في كتبه . أما القصاصون الرصناء فقد أسهموا ولا ريب في تكوينه الديني »[١٣] .

واجتماعياً شهدت البصرة أقواماً مختلفي الأجناس والأعراف والانتماء والولاء دينياً وسياسياً وحضارياً وثقافياً واجتماعياً . عاش فيها العربي الأصيل والمستعرب ، وعاش فيها الموالي من كل جنس ولون : الفارسي والهندي ، والرومي ، والسندي . . . وغيرهم ، ومنهم المسلمون من عرب وغير عرب على اختلاف مذاهبهم : السني والشيعي والخارجي والمعتزلي والقدري والمرجىء والظاهري والباطني ، إضافة الى غير المسلمين من أهل الذمة وأصحاب الديانات الأخرى . وضمت البصرة طبقات اجتماعية مختلفة من المتنفذين أصحاب السلطة والأثرياء كالتجار والملاكين ، ومتوسطي الحال كموظفي الدولة والمعلمين وأئمة المساجد ، ثم طبقة الفقراء والمدقعين . هذه البيئة الثرية الخصبة - التي عاش فيها الجاحظ ما يقرب من أربعين سنة من حياته قبل أن ينتقل إلى بغداد في خلافة المأمون - هي التي شكلت وعي الجاحظ وأثرت بعمق في كل مؤلفاته . وإذا كانت بغداد التي أقام فيها الجاحظ بعد سنوات من خلافة المأمون قد شهدت ولادة معظم مؤلفاته ، فقد ظلت البصرة تزوده بالموضوعات . إن مؤلفاته هي حصيلة ثقافته ومعارفه البصرية[١٤] .

وكتاب (البخلاء) - موضوع الدراسة - صورة من صور المجتمع البصري ، ومن خلاله يشير إلى طبقة الأثرياء والصيارفة فيها . غير أن اثر البصرة على الجاحظ لم يقتصر على استمداد موضوعاته منها ، بل إنها طبعته

(١٢) شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، ص ٥٨٩

(١٣) شارل بللا ، الجاحظ ص ١٦٤ ، وقد عقد بللا في كتابه فصلاً عن القصصاصين والوعاظ ص ١٥٦ - ١٦٤

(١٤) انظر طه الحاجري ، الجاحظ ، ص ٧٨ . وشارل بللا ، الجاحظ ، ص ١٧ .

بطابعها العقلي ، فقد كانت السمة الغالبة على الثقافة البصرية في ذلك العهد هي العقلانية والنظرة الواقعية ، وميل العلماء إلى تحكيم العقل والمنطق في احتجاجاتهم ومؤلفاتهم ، ونزوعهم نحو الجدل العقلي ، حتى صار الجدل سمة من سمات المجتمع البصري . فقد عد النويري في كتابه (نهاية الأرب) تسعة أجناس ، لكل جنس خاصته العقلية أو الخلقية منها أن البصري لا يخلو من جدل[١٥] . ولعل بيئة البصرة الثقافية كانت من أهم العوامل التي ساعدت على ازدهار النثر العربي ومضاهاته للشعر . ذلك أن العصر لم يكن عصر خيال واندفاع ، وإنما كان عصر روية وتفكير عقلي . ومصدر هذا إنما هو الحركة العلمية الواسعة والنشاط المعرفي المتنوع والتيارات الفكرية المتصارعة التي شهدتها البصرة ، مما دعت الناس الى أن يفكروا . وكان النثر هو اللسان الذي يعبر عن هذا كله ، فقد أصبح فناً تؤدى فيه جميع العلوم الشائعة على كثرتها واختلافها[١٦] .

وعن طريق القراءة والمطالعة والاختلاف إلى حلقات العلم المتنوعة استطاع الجاحظ أن يكون ذا ثقافة واسعة تجعل منه دائرة معارف حية ، فقد حمل في عقله جميع معارف عصره في الأدب والدين والعلم والفلسفة . وعاش الجاحظ عصره وزمانه وكان له دور في مجتمعه ، ومن هنا جاء تفرده وامتيازه . وإذا كان عصره قد تميز بحرية الفكر ، فإنه تمكن من تصوير هذه الحرية ، مما جعلها واضحة في علمه وأدبه . لقد مثّل الجاحظ في كتاباته تشعب الحركة الفكرية ، وانطلاق العلوم ، واتساع الآفاق ، والبحث العلمي المؤسس على التجربة والعقل ، فخاض في أبواب شتى وموضوعات متشعبة . كتب في الاجتماع والسياسة والأخلاق والتربية والتعليم والطبيعة والعقائد ، وكتب في اللغة والأدب والبلاغة والنقد ، وكتب عن المجتمع وطبقاته المختلفة من العلماء والأدباء وكتّاب الدواوين والمعلمين والتجار والفقراء والبخلاء والموالي واللصوص والمكدين والنساء والجواري والرقيق ، صوراً متعددة للحياة الاجتماعية والاقتصادية والأدبية رسمها بلغة نثرية أدبية ، في كل مؤلفاته[١٧] .

وإذا كان الجاحظ قد خاض في كل تلك الموضوعات بشخصيته الموسوعية الفذة ، وبعقليته العلمية وبنزعته النقدية المستندة الى التجربة والعقل ، فإنه طبع مؤلفاته ، بطابع الفن والأدب . واستطاع أن يزاوج بين نزعته الأدبية وصفته العلمية مما خلّف شكلاً من أشكال التعبير الأدبي الذي يمتاز برهافة الحس وخصوبة الخيال وقوة الملاحظة ، وقدرة على التغلغل في دقائق الموجودات واستشفاف الحركات النفسية المختلفة ، إضافة إلى عبارات طيعة ، وصور حية نابضة ، وأسلوب لفظي يتسم بالبساطة والدقة والجمال . حتى أصبح أستاذ العصر يروق الكبير والصغير والعالم والجاهل ، إذ كان كل إنسان يجد فيه ما يطلبه من تنوع يبعد عن السأم ،

(١٥) طه الحاجري ، الجاحظ ، ص ٤١ . وقد عقد الحاجري في كتابه (الجاحظ حياته وآثاره) فصلا طويلا فيما تحدث فيه عن العلاقة بين البصرة والكوفة ، ونقاط التقارب والتباعد بين المدينتين ، ليصل إلى أن البصرة تمثل الطابع العقلي ، والكوفة تمثل الطابع الباطني أو السري . . ومن هنا كانت البصرة مهد الاعتزال وبلد المعتزلة ، والكوفة مهد التشيع وبلد الرافضة أنظر مقدمة الكتاب (البصرة وخصائص العقلية البصرية) الصفحات ١٥ ـ ٣٥ . وكذلك أشار المستشرق الفرنسي شارل بللا إلى نفس الحقيقة في كتابه (الجاحظ) ص ٣٥٤ .

(١٦) سيد حامد النساج ، رحلة التراث العربي ، ص ٦١ .

(١٧) ترك الجاحظ مؤلفات كثيرة جدا ، قيل إنها أربت على الثلثمائة والستين كتاباً ، منها على سبيل المثال : البيان والتبيين ، الحيوان ، البخلاء ، النساء ، البلدان ، اللصوص ، رسالة التربيع والتدوير ، رسالة الجد والهزل ، رسالة فصل ما بين العداوة والحسد ، الزرع والنخل ، وغيرها . وقد ذكر الجاحظ بعض مؤلفاته في مقدمة كتاب (الحيوان) ، كما عدّ ياقوت الحموي في (معجم الأدباء) عدداً كبيراً منها .

وتصوير أخلاق العصر وفئات الناس وتبسيط المسائل العلمية والفلسفية في أسلوب واضح ، مما أوجد صلة بين الناس وبين ما مثّله لهم .

فالمعارف الاجتماعية التي اتسع فيها الجاحظ ، أتاحت لنزعته الأدبية أن تتخذ من الحياة الاجتماعية الواقعية موضوعاً لها ، « فأتيح للأدب العربي هذا النوع من الأدب الموضوعي ، الذي لا تطغى عليه الذات طغياناً كبيراً »[18] . ذلك هو الجاحظ الذي يتمثل فيه النموذج الحي للأدب ذي الأسلوب المتميز ، والمنهج الواضح ، والرؤيا الاجتماعية ، والنظرة الموضوعية .

كتـــاب البخـــلاء[19] :

يعد كتاب البخلاء من أمتع كتب الجاحظ التي وصلتنا ، جمع فيه مجموعة كبيرة من أخبار ونوادر البخلاء ، وحلل نفسياتهم تحليلاً دقيقاً في شكل فني يقترب من فن القصة ، بل إنه حافظ على وحدة الموضوع بقدر كبير ، مبتعداً عن ميزة من أهم ميزات كتاباته الأخرى ، وهي ميزة الاستطراد والخروج من الموضوع الرئيس إلى مواضيع مختلفة ، واستطاع أن يجعل (البخل) موضوعاً أدبياً خالصاً ، ومتعة فنية راقية ، ولوناً من ألوان الفكاهة المغلّفة بثوب قصصي ، جاعلاً كل شخصياته وصوره ومواقفه وأحداثه في خدمة الموضوع . وقبل أن نتناول الشكل الفني في قصص البخلاء ، نود أن نشير الى موضوع الكتاب ، وهدف الجاحظ منه ، ومحتوياته .

البخل موضوع من المواضيع الانسانية ، وصفة من الصفات المذمومة التي يتسم بها بعض الناس . وقد تناول موضوع البخل كتّاب عرب قبل الجاحظ وبعده ، كما تناوله الكتّاب الإغريق القدامى ، والكتّاب الغربيون . أما البخل عند الجاحظ فلا ينفصل عن البيئة المادية التي كان يعيش فيها ، ونعني بها البصرة ، المدينة الثرية الغنية مادياً ، والتي انتقلت من منطقة بدوية قاسية تحاذي الصحراء إلى مدينة حضارية تكدست فيها الأموال الوفيرة لموقعها التجاري الهام ، إلى جانب رخص المستوى المعيشي فيها . « وقد أجمل اليعقوبي القول في خطورة البصرة من الناحية التجارية في قوله : والبصرة كانت مدينة الدنيا ومعدن تجارتها وأموالها »[20] . والجاحظ نفسه يضرب مثلاً على رخص الأسعار في البصرة فيقول : (ولو أن رجلاً ابتنى داراً يتممها ويكملها ببغداد أو بالكوفة أو بالأهواز أو في موضع من هذه المواضع ، فبلغت نفقتها مائة ألف درهم ، فإن البصري إذا بنى مثلها بالبصرة لم ينفق خمسين ألفا . لأن الدار إنما يتم بناؤها بالطين والآجر والأجذاع والساج والخشب والحديد والصناع ، وكل هذا يمكن بالبصرة على الشطر مما لا يمكن في غيرها)[21] . هذه البيئة الثرية الرخيصة أوجدت طبقة ثرية مترفة من التجار وكبار الملاكين ، تمتلك المال وتحتكر التجارة ، ومعظمهم كانوا من الموالي شدتهم الحركة التجارية الواسعة في البصرة فشكّلوا الطبقة البصرية البرجوازية كما يسميهم شارل بللا ، ويرى « أن البخل الذي أنشأ عليه الجاحظ كتاب البخلاء كان صفة بارزة

---

(١٨) سيد حامد النساج ، رحلة التراث العربي ص ٦٢ .

(١٩) حقق كتاب البخلاء مرات عديدة ، وطبع طبعات مختلفة . فقد حققه لأول مرة المستشرق الهولندي (فان فلوتن) ونشره عام ١٩٠٠ . كما حققه أحمد العوامري وعلي الجارم عام ١٩٣٨ . ثم حققته لجنة من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق . وحققه طه الحاجري عام ١٩٤٨ وطبعه عدة مرات . وحققه فوزي عطوي ونشره في بيروت عام ١٩٦٩ . إضافة إلى مجموعة من الطبعات المختلفة غير أننا اعتمدنا في هذه الدراسة على كتاب البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ، الطبعة السادسة ، دار المعارف ، القاهرة .

(٢٠) طه الحاجري ، الجاحظ ص ٣٨ .

(٢١) كتاب الأوطان والبلدان ، للجاحظ ، مخطوطة المتحف البريطاني ورقة ١٩٩ نقلاً عن طه الحاجري ، الجاحظ ، ص ٣٩ .

للطبقة البصرية البرجوازية التي أثرت بفضل اقتصادها المفرط »[٢٢] .

إن حركة تجمع رأس المال في هذا العصر ، والثراء الفاحش لهذه الطبقة ، والنقلة المفاجئة في حياة المجتمع المادية كان له دوره في تغيير المفاهيم والقيم والعلاقات الاجتماعية . فبدأت تبرز ظواهر جديدة في العصر العباسي ، منها ما سمّته د. وديعة النجم (الوعي المالي) وهو إحساس الفرد بقيمته بسبب ما يمتلك من مال[٢٣] . وبدأت تختلف المقاييس بالنسبة لسكان الحاضرة وتحل علاقات جديدة مكان العلاقات القبلية ، فلم تعد علاقة الدم والنسب هي التي تقرر كثيراً من معاملات الناس ، بل قد يكون للمال أهمية أكبر . وبخلاء الجاحظ يؤكدون هذه الحقيقة ، يقول أحدهم : (لا يقال لرجل بخيل الا وهو ذو مال)[٢٤] ويقول آخر : (إن المال محروص عليه ، ومطلوب في قعر البحار وفي رؤوس الجبال وفي دغل الغياض ، ومطلوب في الوعورة كما يطلب في السهولة . . .)[٢٥] .

هذه الطبقة الغنية ـ طبقة التجار والأثرياء ـ التي حققت بغناها ذاتها وصورت مثلها ونظرتها الى الحياة ، كانت بطبيعتها أكثر الناس تقديراً للمال ، وأشدهم مغالاة به ، وحُرصاً عليه مع اختلاف أفرادها في هذا . وقد ساعد الجو الفكري المذهبي على التعبير عن هذا الحرص مذهبياً ، ويعرض كتاب البخلاء مفهومهم للمال ، ويكشف عن مذهبهم الاقتصادي القائم على (الجمع والمنع) كما يقول الجاحظ[٢٦] . غير أن مفهوم البخل والحرص الشديد على المال الذي اتصفت به هذه الطبقة يناقض مفهوم الكرم عند العرب ، والعرب معروفون بطبيعتهم السمحة وميلهم الفطري إلى الجود والكرم ، لذا أثار البخل دهشتهم واشمئزازهم وبالتالي حقدهم على البخل والبخلاء . وقد عقد الجاحظ في الكتاب فصلاً عن علم العرب في الطعام مشيراً إلى صفة الكرم التي يتّصف بها العرب ، وكأن الجاحظ أراد بهذا أن يعقد مقارنة بين البخل والكرم ، ناقداً الأول كصفة ذميمة ومادحاً الثاني كصفة حميدة .

لكن هل كان الجاحظ يهدف ـ في البخلاء ـ إلى الردّ على الشعوبية التي كانت تأخذ على العرب إسرافهم وتبذيرهم وأطعمتهم الجافة الخشنة ؟ كما كان موقفه منهم في (البيان والتبيين) ورده على مزاعمهم في أن الخطابة ليست ميزة ينفرد بها العرب دون سواهم ، وأن الفرس أخطب من العرب ، من خلال ما عرضه في الكتاب من صورة واضحة للبلاغة العربية . « إذ خصصه لعرض الثقافة العربية الخالصة في صورها المختلفة من الخطابة والشعر والأمثال ، كي يروا رؤية العين ما في هذه الثقافة من قيم بلاغية وجمالية ، فينتهوا عن مزاعمهم ويثوبوا إلى رشدهم »[٢٧] . لا سيما وأن المعتزلة ومنهم الجاحظ وغيرهم ، كالكاتب السني المحافظ ابن قتيبة وقفوا يدافعون بقوة عن العروبة والإسلام ويردون على الشعوبيين والزنادقة اتهاماتهم الباطلة .

يبدو هذا الهدف مقبولاً في البخلاء بشكل عام فهو ـ على الأقل ـ ينسجم مع مواقفه الأخرى تجاه الشعوبيين

---

(٢٢) شارل بللا ، الجاحظ ، ص٣٤٨ .
(٢٣) وديعة النجم ، الجاحظ والحاضرة العباسية ، ص١٥٥ .
(٢٤) البخلاء ، ص٦٢
(٢٥) المصدر السابق ، ص١٩٠ .
(٢٦) المصدر السابق ، ص٢٩
(٢٧) شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، ص٩٨ .

في بقية مؤلفاته ، بل هو يشير في البخلاء صراحة إلى ما تأخذه الشعوبية على العرب من خشونة العيش . يقول الجاحظ : « والشعوبية والازاد مردية »(٢٨) المبغضون لآل النبي ﷺ وأصحابه ممن فتح الفتوح وقتل المجوس وجاء بالاسلام ، تزيّد في جشوبة عيشهم(*) ، وخشونة ملبسهم ، وتنقص من نعيمهم ورفاغة عيشهم(*) . وهم من أحسن الأمم حالاً مع الغيث ، وأسوئهم حالاً إذا خفت السحاب)(٢٩) . غير أن الرد على الشعوبية ومطاعنهم على العرب لم يكن هو الهدف الرئيسي في البخلاء ، ولا نذهب إلى ما ذهب اليه جميل جبر في أن الذي استدعى الجاحظ لكتابة البخلاء هو حقده الشخصي عليهم من جهة ، وحملته على الشعوبية من جهة أخرى(٣٠) . والذي يدعونا الى ذلك أولاً : أن الجاحظ صوّر لنا البخلاء من كل جنس وصنف ، فمنهم الموالي الشعوبيون كسهل بن هارون ، ومنهم الموالي غير الشعوبيين ، ومنهم العرب الاقحاح كالأصمعي ، ومنهم الفقراء ، ومنهم الأذكياء ومنهم السذج البسطاء ، ومنهم حتى من المعتزلة أنفسهم ، وكل هؤلاء تجمعهم صفة واحدة هي البخل . يعني هذا أنه كان ينتقد البخل كطبيعة من طبائع النفس الإنسانية من جهة ، وكظاهرة أبرزتها ظروف عصره حتى أصبحت مذهباً يدافع البخلاء عنه ويجادلون فيه من جهة أخرى . وثانياً : أراد الجاحظ أن يعطينا صورة من صور المجتمع العباسي بشكل عام ، والمجتمع البصري بشكل خاص ، واصفاً هذه الطبقة وصفاً دقيقاً ، محللاً نفسياتهم ، وكاشفاً عن طبائعهم الداخلية بحسّه الاجتماعي ونزعته الفنية . والجاحظ من أكثر الأدباء اهتماماً بمجتمعه ، فقد صوّره بكل إيجابياته وسلبياته من خلال استعراض طبقاته المختلفة وظواهره المتعددة . ثم إن الجاحظ جمع شخصيات البخلاء وأحاديثهم وحاورهم في بخلهم بسخريته المعهودة ، ضاحكاً معهم ولهم ، فكانت أمثلة للبخل ونماذج للفكاهة . وثالثاً : ما أورده الجاحظ عن طعام العرب وكرمهم جاء في فصل ألحق في نهاية الكتاب تحت عنوان (أطراف من علم العرب في الطعام) بعد أن أكمل الجاحظ سرد حكايات ونوادر وقصص البخلاء من جهة ، ثم ما تحدث به الجاحظ عن طعام العرب وجودهم يؤكد ذمّه لصفة البخل ، ونقده لطبيعة البخلاء ومذهبهم ، وما استشهاده بالرسول الكريم ﷺ من أنه (لم يضع درهماً على درهم ولا لبنة على لبنة ، وملك جزيرة العرب فقبض الصدقات ، وجبيت له الأموال ما بين عذار العراق الى شحر عُمان ، الى أقصى مخاليف اليمن ، ثم توفي وعليه دين ، ودرعه مرهونة)(٣١) الا رد على طبيعتهم في الحرص الشديد وتخزين الأموال .

وأخيراً وإن كنا لا نعدم تلك التلميحات والإشارات ـ في كتاب البخلاء ـ الى موقف الشعوبية في هذا الجانب ، ولكن الجاحظ كان مخلصاً لموضوعه الفني في حكايات وقصص البخلاء أكثر من تركيزه على إبراز هذا الجانب .

(٢٨) الآزادمردية : تسمية فارسية للارستقراطية الايرانية ، تسمية يفتخر بها أنصار الشعوبية ويتحدون بها العرب والتراث العربي . انظر ترجمتها في كتاب البخلاء ـ تحقيق طه الحاجري ، ص ٤٢٦ ـ ٤٢٩ .

(*) جشوبة عيشهم : خشونته .

(*) رفاغة : سعة العيش ورخصه .

(٢٩) البخلاء ، ص ٢٢٨ .

(٣٠) جميل جبر ، الجاحظ ومجتمع عصره ، ص ٣١ .

(٣١) البخلاء ، ص ١٥٧ .

وبعد فقد اعتمد الجاحظ في عرض قصص البخلاء على التحليل النفسي الاجتماعي لنفسية البخلاء ، ملاحظاً سلوكهم وتصرفاتهم في مختلف المواقف ، مركزاً على إبراز اهتماماتهم وعلاقاتهم بالآخرين ، متعرضاً لنظرياتهم في البخل ، ناقلاً حواراتهم ونصائحهم ووصاياهم بكل دقة وتفصيل وواقعية وبأسلوب فني ساخر فكه . إن كتاب البخلاء شكل من أشكال (أدب الطبائع) الذي يعتمد على الملاحظة الدقيقة ، والتحليل النفسي والبعد الاجتماعي ، والجاحظ من أكثر الأدباء اهتماماً بأدب الطبائع ، ويعد شارل بللا ذلك مزية « من مزايا الجاحظ ـ وليست أقلها ـ إدخاله نوعاً جديداً وهو تصوير أخلاق الناس ، والمجتمع الاسلامي في حياته العادية »[٣٢] .

ينبغي ونحن نتحدث عن كتاب الجاحظ أن نشير إلى بعض من تناولوا موضوع البخل والبخلاء في مؤلفاتهم من الكتاب العرب والأوربيين ، وهو ما يعطي بخلاء الجاحظ قيمة حقيقية وتقديراً مقبولاً . فالجاحظ ليس أول من تناول موضوع البخل وليس آخرهم ، فقد أشار هو نفسه في (البخلاء) إلى بعض الأسماء التي تناولت حكايات البخلاء وأخبارهم ، مثل أبو عبد الرحمن الثوري ، وسهل بن هارون ، والأصمعي ، وأبو عبيدة ، وأبي الحسن المدائني[٣٣] ، كما ذكرها ابن النديم في الفهرست أيضاً . غير أنها كانت كتابات إخبارية لا فنية فيها ، وتعرض صوراً من الحياة الماضية دون الحياة الحاضرة ولكنها مع ذلك كانت مما لفت الجاحظ إلى هذا الموضوع ـ كما يرى طه الحاجري ـ ونبه نزعته الفنية إلى اقتحامه والإبداع فيه ، فكان كتاب البخلاء الذي ارتفع فيه عن الأسلوب الاخباري إلى الأسلوب الفني[٣٤] .

على أن الأدب العربي القديم لم يخلُ من موضوع البخل والبخلاء ، فالشعر العربي حافل بما يشير الى نبذ هذه الظاهرة لانتفائها مع ما عرف عن العرب من جود وسخاء ، ووجدت أيضاً في بعض الكتب النثرية مثل المقامات ، وبعض النوادر والأخبار الواردة في ألف ليلة وليلة ، والمؤلفات الجامعة مثل (العقد الفريد) لابن عبد ربه ، و (الامتاع والمؤانسة) لأبي حيان التوحيدي ، و (عيون الأخبار) لابن قتيبة ، و (محاضرات الأدباء) للراغب الأصفهاني ، و (المستطرف) للأبشيهي . غير أن معظم الذين تناولوا موضوع البخل بعد الجاحظ تأثروا بكتاب الجاحظ (البخلاء) وساروا على منواله سواء في موضوعه أو أسلوبه أو طريقة معالجته أو لغته أو حواره أو سخريته . ومن هذه الآثار ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ رسالة لأبي حيان التوحيدي وهو من أشد تلاميذ الجاحظ تأثراً وإعجاباً بأستاذه ـ ساقها مساق السخرية والتندر بأبي العباس أحمد بن ثوابة الكاتب ، والتي تعد صورة من أروع صور الفن التصويري الساخر وتبيّن بوضوح تلمذة أبي حيان للجاحظ وتأثره به في ذلك الاتجاه[٣٥] . وهناك أيضاً الحكاية التي وضعها أبو علي الحاتمي ـ من رجال القرن الرابع ـ على أستاذه علي بن هارون ، وصفها الحصري بأنها طويلة في نحو أربع مجلدات ، التزم في كتابتها وصناعتها نفس المنهج الفني الذي « استطاع الجاحظ أن يجعله منهجاً مقرراً ، وفناً من الفنون الأدبية معتبراً »[٣٦] . وأخيراً فإن الهمذاني في مقاماته قد استفاد

(٣٢) شارل بللا ، الجاحظ ، ص ٣٠٢ .

(٣٣) البخلاء ، الصفحات ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٤٨

(٣٤) البخلاء ، مقدمة الحاجري ، ص ٣٢ .

(٣٥) المصدر السابق ، ص ٤٧

(٣٦) المصدر السابق

من قصص بخلاء الجاحظ ، بل إن في شخصية بطل المقامات ملامح كثيرة من خالد بن يزيد أو (خالويه المكدي) إحدى شخصيات بخلاء الجاحظ ، وبهذا الصدد يقول شارل بللا : إن « المستشرق آدم متز قد لاحظ ذلك عند ما قال : إن طريق الجاحظ يقود إلى الهمذاني مارا بالأحنف الكعبري شاعر المكدين الكبير ، فهو بذلك قد تناول الموضوع الذي أوجده الجاحظ في فصله الذي عقده عن خالويه ، فخلق بذلك نموذج شخصية أضفى عليها الهمذاني شكلاً جديداً »[٣٧] .

على أن تأثير الجاحظ وكتابه البخلاء ظل قوياً ممتداً على الأدباء العرب حتى العصر الحديث ، فطه حسين على سبيل المثال من أكثر الأدباء المحدثين تأثراً بالجاحظ وأسلوبه ، وهو شديد الإشادة بفكر الجاحظ وعقله وأسلوبه وسخريته وطريقته في الحوار والجدل ، « وليس ثمة من ينكر إعجاب طه حسين الكبير بالجاحظ وتقليده إياه في تناوله للموضوعات الاجتماعية والأدبية ، بل إن السخرية المرة الكامنة وراء الكلمات والألفاظ التي يكشف عنها التأمل الدقيق في كتابات طه حسين موردها كتاب البخلاء للجاحظ »[٣٨] . وتوفيق الحكيم نموذج آخر - لا يخفي إعجابه بكتابات الجاحظ وبكتابه البخلاء بشكل خاص ، فهو يرى أن الجاحظ قد أنشأ فناً جديداً بالنثر أقرب الى فن الكاريكاتير بالرسم قبل وجوده في القرن السادس عشر عند رابليه في كتاب (الأحلام المضحكة) وايراسم في كتابه (تمجيد الحماقة) فهو من أسبق الكتّاب الى التصوير الكاريكاتيري[٣٩] . وكتاب البخلاء هو أحد الكتب التي جعلت الحكيم يفكر في كتابه (أشعب أمير الطفيليين) الذي حرص أن يرسم فيه صوراً من الحياة العربية كما أراد الجاحظ ذلك في البخلاء .

أما بالنسبة للكتّاب الغربيين فقد عالجوا موضوع البخل على أساس الوحدة الروائية الطويلة (قصة أو مسرحية) . منها ما ورد في الأدب الاغريقي قبل الميلاد مثل مسرحية (أريستوفان Aristophane) المسماة (بلوتس Ploutos) سنة ٣٨٨ ق.م والتي ظهرت فيها أول شخصية للبخيل في الأدب ، وهي شخصية (كريميل Chremyle) . وهناك شخصية البخيل (أكليون Euclion) بطل مسرحية (قدر الذهب) التي كتبها (بلوت Plaute) حوالي ١٩٥ ق.م ، وغيرها من الأعمال المسرحية اليونانية الكثيرة ، التي حفلت بشخصية البخيل وبظاهرة البخل . ومنها ما ظهر في الأدب الأوربي في العصور الوسطى والحديثة مثل مسرحية (البخيل) لموليير ، حيث يقف بطله (هارباجون) كأشهر بخيل في الأدب الأوربي ، وفي مسرحية (يهودي مالطة) ١٦٣٠ (لكريستوفر مالرو C. Marlow) حيث نجد فيها نموذجاً جديداً للبخيل (بارباس) وكأنه يمهد لأنموذج (شيلوك) لشكسبير في مسرحية (تاجر البندقية) ١٦٩٥ ، وغيرها من المسرحيات الكثيرة . حتى نصل الى القرن التاسع عشر حيث تعرضت القصة التاريخية للبخل في قصة (ايفنهو) سنة ١٨١٨ للكاتب الانجليزي (والتر سكوت) . وفي (الفارس البخيل) ١٨٣٠ للكاتب الروسي بوشكين نجد صورة للبخيل الجشع القاسي الذي لا يعرف إلا جمع الثروة مستبيحاً كل شيء في هذا السبيل . وفي قصة (أوجيني وجراندیه) ١٨٣٣ للكاتب الفرنسي

---

(٣٧) شارل بللا ، الجاحظ ، ص ٧٧ .

(٣٨) سيد حامد النساج ، رحلة التراث العربي ، ص ١٣٢ .

(٣٩) توفيق الحكيم ، فن الأدب ، ص ٣١ .

(بلزاك) يعرض من خلال شخصية الأب (جرانديه) صورة نفسية للبخيل . وهناك إضافة لما ذكرنا عدد كبير من المسرحيات والروايات الإغريقية تناولت موضوع البخل مما لا يسمح لنا المجال هنا بإحصائها[٤٠] .

بقي هناك نقطة أخيرة نود الإشارة اليها قبل تصفح حكايات البخلاء وقصصهم ، نطرحها على شكل تساؤلات وهي : إذا كان الجاحظ يمتاز في كتاباته بشكل عام وفي بخلائه بشكل خاص بميزة الواقعية والموضوعية والتزام الحياد فيما ينقل عن الواقع من أخبار وحكايات وصور ، فهل كان الجاحظ مجرد ناقل حرفي عن الواقع ؟ وهل كانت الشخصيات بأشكالها وتصرفاتها وحوارها ولغتها وأحاديثها صورة طبق الأصل لما هم عليه في الواقع ؟ أم أنه كان يعمل خياله ويكدّ ذهنه فيما ينقل ؟ هذه التساؤلات هي قضية الكاتب الواقعي بين واقعه وفنه ؛ بين واقع يتخذه مادة لموضوعاته وبين فن لا يريد له الإسفاف . أما الجاحظ في بخلائه فقد كان حريصاً على نقل صور من الواقع بكل أمانة وموضوعية ودقة فهو ينقل نوادر وحكايات مستقاة من بيئته البصرية ، ويصرح بكل أمانة ببعض أسماء أبطال قصصه التي لا يرى ضرراً من ذكرها ويخفي بعضها الآخر إكراماً لأصحابها أو خوفاً كما جاء في المقدمة[٤١] . بل ويذهب أبعد من ذلك حين يؤكد أنه ينقل كلام البخلاء كما هو في الواقع إمعاناً بالموضوعية ، يقول (وان وجدتم لحناً أو كلاماً غير معرب ولفظاً معدولاً عن جهته فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يبغض هذا الباب)[٤٢] . ومع ذلك لم ينقل الجاحظ قصصه وشخصياته من الواقع دون انتقاء واختيار وتشذيب ، كان يتدخل فيما ينقل من الواقع ، تدخل الفنان الواقعي الواعي لفنه . لم يخلق الجاحظ شخصيات من خياله كأغلب شخصيات القصص الخيالية ، بل هي شخصيات حقيقية عاش معها وعايشها ، ولم يخلق المواقف التي زج بها شخصياته من خياله ، بل هي أحداث وقعت لهم بالفعل ، ولم يلصق بهم أفكاراً غريبة عليهم ، بل هي أفكارهم ونظرتهم الى الحياة وطريقتهم ومنهجهم فيها . لكن يبقى للجاحظ فضيلة حسن اختيار الشخصيات وحسن اختيار الأحداث والحوار والمواقف وإدخالها بقالب فني قصصي شيق ، دون أن يجردهم من الحياة فتغدو شخصيات خيالية بعيدة عن الواقع ، إنه حرص الكاتب الواقعي على فنه من الاسفاف والابتذال . لم يكتب سهل بن هارون رسالته المذكورة في البخلاء بل كتبها الجاحظ على لسانه لكنها لم تخرج عما يؤمن به سهل بن هارون ، ولم يتحدث الكندي بنفس المنطق الذي نجده في البخلاء ، لكن الجاحظ لم يخرج بعلاقات الكندي مع مستأجريه عما ورد في رسالته وهكذا في بقية القصص والحكايات . ان الشكل الفني الذي صب فيه الجاحظ حكايات بخلائه هو قالب جاحظي ، وكما يقول احمد العوامري وعلى الجارم (الديباجة ديباجته)[٤٣] ، هذا العنصر الفني هو العنصر السائد في الكتاب سواء في انتقاء الأحداث أو في رسم الشخصيات ، أو في إدارة الحوار :

غير أن هذا المنحى الفني الذي اتبعه الجاحظ في وضع الأحاديث وتوليدها قد يثير بعض المتزمتين ، والجاحظ

---

٤٠) في موضوع البخل في الأدب العربي نظر : مع بخلاء الجاحظ لفاروق سعد ، رحلة التراث العربي للدكتور سيد حامد النساج ، الجاحظ لشارل بللا ، الجاحظ والحاضرة العباسية للدكتورة وديعة النجم

٤١) البخلاء . ص ٩

٤٢) المصدر السابق . ص ٤٠

٤٣) البخلاء ـ تحقيق أحمد العوامري وعلي الجارم . ص ٦

نفسه كان يعي ذلك ويدرك أنه قد يتهم بالكذب والتزوير على الواقع لهذا تحدث في مقدمة البخلاء عن التوليد فقال : (ولو أن رجلاً ألزق نادرة بأبي الحارث جمين ، والهيثم بن مطهر ، وبمزبد ، وابن أحمر ، ثم كانت باردة لجرت على أحسن ما يكون ، ولو ولّد نادرة حارة في نفسها مليحة في معناها ، ثم أضافها الى صالح بن حنين ، والى بعض البغضاء لعادت باردة ولصارت فاترة ، فان الفاتر شر من البارد)[٤٤] . وما ذلك الوضع والتوليد إلا نزعة الجاحظ الفنية التي تدفعه إلى استبطان النوازع النفسية المختلفة ، وتصوير الخلجات الذهنية بأسلوب فني جميل ، « ليس بالتقرير العلمي الجاف ولا السرد الواقعي المجرد ، وإنما هو تصوير حي يقرؤه القارىء فلا يكاد يحس أنه يقرأ كلاماً بل يغمره شعور بأنه يشهد صورة من الحياة النابضة ، كما تتمثل في هؤلاء الأشخاص الذين يتكلم الجاحظ بلسانهم ، على ما هو معروف عنهم ، واشتهروا به عند خلطائهم »[٤٥] . ان واقعية الجاحظ تكمن في تلك الصور التي يختارها من الواقع ثم يجعلها تنبض بالحياة من خلال عرضها بأسلوب طبيعي جميل أشبه شيء بهذه الحياة نفسها .

القصة في كتاب البخلاء :

يمكن تقسيم كتاب البخلاء الى ثلاثة أقسام : قسم يحتوي على مجموعة من النوادر والحكايات والقصص عن البخلاء وهو القسم الأكبر من الكتاب ، وقسم ثان يحتوي على مجموعة من الرسائل والنصائح المتبادلة بين البخلاء كرسالة سهل بن هارون على من عاب مذهبه من أهله ورسالة الكندي الى مستأجر بيته ورسالة ابي العاص وردّ ابن التوأم عليه وحديث خالد بن يزيد . أما القسم الثالث فقد أورد الجاحظ فيه أطرافاً من عِلْم العرب في الطعام ، متعرضاً للطعام عند العرب وأنواعه وولائمهم ومناسباتهم وما يتمادحون به في هذا الباب ، مستشهداً بجملة من النصوص مستقاة من القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ وأقوال الصحابة والسلف الصالح ونصوص من الشعر والنثر العربي . والذي يهمنا في دراستنا للشكل الفني في كتاب البخلاء هو القسم الأول ، وهو مجموعة من القصص الواقعية الساخرة تتضح فيها مواصفات كثيرة من فن القصة من خلال التصوير الدقيق للمشاهد والشخصيات والتحليل الفني للشخصيات والحوار المتنوع المحكم ، والهزل والسخرية المنتقاة بعناية ، واللغة البسيطة المفعمة بالحياة المتأثرة بالمجتمع والمستمدة من الحياة ، وتمثل الجاحظ الدقيق لتجارب الآخرين المختلفة ، مع ابتعاده عن مسرح القصة ، إضافة الى عنصر التشويق والمفاجأة وغيرها من العناصر الفنية في قصص البخلاء والتي سنوردها مفصلة بعد أن نحلل بعضاً من قصصه .

في قصة (زبيدة بن حميد) - وهو صيرفي كبير من أثرياء البصرة أشهر البخلاء[٤٦] - يمهد الجاحظ للتعريف بهذا البخيل قبل أن يزجّه في الموقف الرئيسي في القصة ، فيروي لنا بعضاً من سلوكه وتصرفاته إزاء الآخرين ، راسماً بذلك أبعاد هذه الشخصية كي لا يفاجأ القارىء بطريقة تصرفها في الموقف الذي تواجهه . يحدثنا الجاحظ عن (زبيدة) أنه استلف من بقال كان على باب داره درهمين وقيراطاً وبعد ستة أشهر

(٤٤) البخلاء ، ص ٧ . أما الحارث بن جُبين ، والهيثم بن مطهر ، ومزبّد ، فهم من أصحاب النوادر المشهورين أما صالح بن حنين فكان مضحكاً سخيفاً بارد النادرة ، أما ابن النواء فهو أحد زعماء الرافضة . انظر ترجمتهم في البخلاء - تحقيق طه الحاجري - الصفحات ٢٦١ - ٢٦٤

(٤٥) البخلاء ، مقدمة طه الحاجري ، ص ٤٢ .

(٤٦) انظر ترجمة (زبيدة بن حميد) في البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ص ٢٩٨

من نمطنة في رد الدين دفع للبقال ناقصاً (قيراطاً وثلاث حبات شعير) فاغتاظ البقال وذكَّره بأنه غني يملك آلافاً من الدنانير ، ويرد الدين ناقصاً ، بينما هو - (البقال) - الذي يعيش بكدّه وتعبه قد صنع به معروفاً حين سدد عنه في غيبته مبلغاً كان مطلوباً . فقال زبيدة : (يا مجنون أسلفتني في الصيف فقضيتك في الشتاء وثلاث شعيرات شتوية ندية ، أرزن من أربع شعيرات صيفية . وما أشك أن معك فضلاً)[٤٧] . هذا جانب من جوانب الشخصية ، وهو بعد تنطلق منه الشخصية في تعاملها مع الآخرين . ثم يكشف لنا الجاحظ بعداً آخر في تعامل (زبيدة) مع غلمانه ، فهو يضربهم بحجة أنهم يأكلون (الجوارشن) وهو دواء مخصص للهضم . ويستنكر صديق له هذا الضرب المبرح فيسأل رئيس الغلمان عن حقيقة الضرب فيفاجأ به يتلوى من الجوع وأنه لا حاجة به الى ما يهضم .... (ولا يحتاج الى الجوارشن ، ونحن الذين انما نسمع بالشبع سماعاً من أفواه الناس ، ما نصنع بالجوارشن)[٤٨] . وجانب ثالث يكشفه الجاحظ أيضاً في تعامل (زبيدة) مع زواره حين يشتدّ على غلمانه أمامهم بتصفية الماء وتبريده وتزميله . فقال له أحد الزوار : (مر بتزميل الخبز وتكبيره فان الطعم قبل الشراب)[٤٩] . وبهذا الشكل ستكمل الجاحظ تقديم شخصيته المحورية (زبيدة بن حميد) كيف أنه يبخل في الطعام ، ولا يرد الدين الا ناقصاً ومتأخراً ، وكيف يضرب غلمانه بخلاً وظلماً ، حتى يصل الجاحظ إلى الحدث الرئيسي الذي يواجهه (زبيدة) وراح يلاحظه من بعيد : (وسكر زبيدة ليلة ، فكسا صديقاً له قميصا ، فلما صار القميص على النديم خاف البدوات . وعلم أن ذلك من هفوات السكر . فمضى من ساعته إلى منزله ، فجعله برنكاناً لامرأته . فلما أصبح ، سأل عن القميص ، وتفقده . فقيل له إنك قد كسوته فلاناً . فبعث اليه ، ثم أقبل عليه ، فقال : ما علمت أن هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا يجوز ؟ وبعد فاني أكره ألا يكون لي حمد ، وأن يوجه الناس هذا مني على السكر ، فردّه علي حتى أهبه لك صاحياً عن طيب نفس ، فاني أكره أن يذهب شيء من مالي باطلاً . فلما رآه صمم أقبل عليه فقال : يا هناه ، إن الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤاخذون بشيء من ذلك ، فرد القميص عافاك الله . قال له الرجل : اني والله قد خفت هذا بعينه ، فلم أضع جنبي الى الأرض حتى جيّبته لأمرأتي . وقد زدت في الكمين وحذفت المقاديم فان أردت بعد هذا كله أن تأخذه فخذه . فقال نعم آخذه ، لأنه يصلح لأمرأتي كما يصلح لأمرأتك . قال : فانه عند الصباغ . قال : فهاته . قال : ليس أنا أسلمته اليه . فلما علم أنه قد وقع ، قال : بأبي وأمي رسول الله - ﷺ - حيث يقول : جمع الشر كله في بيت ، وأغلق عليه ، فكان مفتاحه السكر)[*][٥٠] .

هذه الحكاية تقترب إلى حد بعيد من القصة وتحمل عناصرها الفنية ، فنحن هنا إزاء حادثة وموقف وحوار ، بل بداية ووسط ونهاية أو ما يسمى في فن القصة بلحظة

---

(٤٧) البخلاء ، ص ٣٥

(٤٨) المصدر السابق ، ص ٣٦

(٤٩) المصدر السابق

(٥٠) المصدر السابق

(*) البدوات : ما يبدو له من الرجوع بعد أن يصحو من السكر

برنكان : نوع من الثياب

يا هناه : يا رجل

جيّبته : جعلت له جيبا . والجيب ما يفتح من أعلى الصدر .

مقاديم القميص : ما يبدو منه أولا .

التنوير ، وأمامنا شخصيتان رئيسيتان تتصارعان . أما الشخصيات الأخرى كالبقال والصديق ورئيس الغلمان فهي شخصيات ثانوية أضفت على الشخصية الرئيسية أبعاداً تخدم الموضوع الرئيسي ، والكاتب لا يزج بنفسه في هذا الصراع بل يرقبه ويصوره من بعيد ويعكس الحوار الدائر بين الشخصيتين أفكار كل شخصية ونوازعها وطموحها ومشاعرها ، ولكل شخصية قدرة على التصرف والتحايل . والجاحظ يبتعد هنا عن كل استطراد أو شرح أو تفصيل أو تعقيب ، كما أنه استغنى عن كثير من الجزئيات والتفصيلات الا ما يخدم الموقف الرئيسي ويكشف الشخصية من الداخل ، دون تدخل من الكاتب لأنه وعد بعدم التدخل سواء بالتعليق أو بالرفض أو بالانحياز . « وإن كنا نلاحظ أنه في النهاية وعندما يئس زبيدة بن حميد الصيرفي نسب ما أسماه بالشر الى السكر . الشر في نظره هو الكرم ، لأن البخل هو الخير الوحيد المأمون عند البخلاء . واذا كان ثمة نقيصة في سلوكه فانما تكمن في إقدامه هذه المرة على إكرام نديمه بإهدائه ذلك القميص »[٥١] . إن تجسيد الموقف الأساسي في هذه القصة لم يأت اعتباطاً فقد مهدت له اللوحات التي سبقت الإشارة إليها .

وفي قصة أخرى بطلاها (أبو مازن وجبل الغمر) يرسم الجاحظ صورة لتصرف البخيل في المواقف المفاجئة ، لذا ينقلنا ـ دون تمهيد ـ إلى الموقف مباشرة . تقول القصة : ـ

(وكان جبل خرج ليلاً من موضع كان فيه ، فخاف الطائف ، ولم يأمن المستقفي . فقال : لو دققت الباب على أبي مازن ، فبت عنده في أدنى بيت أو في دهليزه ، ولم ألزمه من مؤنتي شيئاً ، حتى اذا انصدع عمود الصبح خرجت في أوائل المدلجين . فدقّ عليه الباب دقّ مدلّ ودقّ من يخاف أن يدركه الطائف أو يقفوه المستقفي ، وفي قلبه عز الكفاية والثقة باسقاط المؤنة . فلم يشك أبو مازن أنه دق صاحب هدية ، فنزل سريعاً . فلما فتح الباب وبصر بجبل ، بصر بملك الموت . فلما رآه جبل واجماً لا يحير كلمة ، قال له : إني خفت معرة الطائف وعجلة المستقفي فملت اليك لأبيت عندك . فتساكر أبو مازن ، وأراه أن وجومه إنما كان بسبب السكر . فخلع جوارحه وخبل لسانه ، وقال : سكران والله ، أنا والله سكران . قال له جبل : كن كيف شئت . نحن في أيام الفصل ، لا شتاء ولا صيف ، ولست أحتاج الى سطح فأغمّ عيالك بالحر ، ولست أحتاج إلى لحاف فأكلفك أن تؤثرني بالدثار . وأنا كما ترى ثمل من الشراب ، شبعان من الطعام ، ومن منزل فلان خرجت ، وهو أخصب الناس رحلاً . وانما أريد أن تدعني أغفي في دهليزك إغفاءة واحدة ، ثم أقوم في أوائل المبكرين . قال أبو مازن : وأرخى عينيه وفكيه لسانه ، ثم قال : ـ سكران ، والله ، أنا سكران ، لا والله ما أعقل أين أنا ، والله إنْ أفهم ما تقول .

ثم أغلق الباب في وجهه ، ودخل لا يشك أن عذره قد وضح ، وأنه قد ألطف النظر حتى على هذه الحيلة)[*] .[٥٢] . في هذه القصة شخصيتان وحوار ،

---

(٥١) سيد حامد النساج ، رحلة التراث العربي ، ص٩٨ ـ ٩٩ .

(*) الطائف : هو الذي يطوف بالمدينة ليلا بأمر الحاكم ليتفقد أحوالها .

المستقفي : هو الذي يقفو الأثر للسلب .   دق مدل : أي دق واثق من منزلته عند من يدق عليه   جوارحه أعصابه .

المدلجين : السائرين آخر الليل .   تساكر · تظاهر بالسكر .   إن أفهم ما أفهم

ألطف النظر : أنعم النظر .

(٥٢) البخلاء ، ص ٣٩ .

ووجهتا نظر وبداية ونهاية . وفيها تصوير نفسي لمشاعر شخصيـة (جبـل الغمـر) الـذي يخـاف العسس واللصوص ويبحث عن مأوى يبيت فيه . ثم ردّ الفعل على الشخصية الثانية (أبـو مازن) الـذي تجسـد في اصطناع البلاهة والسذاجة والمبالغة في السكر كحيلة من حيل البخيل للتهـرب من المواقف المحرجة التي يقـع فيها . وقـد اعتمـد الجـاحظ في تصـويـر رد الفعـل وانعكاساته على أبي مـازن على الـرسم الكاريكـاتيري للشخصية : (أرخى عينيه ، وفكيه ، ولسانه) الشكل الخارجي المضحك وهو لون من ألوان الضحك الذي يزخر به كتاب البخلاء .

إضافة الى وحدة الشخصية ووحدة الحدث ، ووحدة الأثر من عناصـر القصة الفنيـة والتي تحققت في هذه القصة ، فان للموقف إطاراً زمانياً حددهما الجاحظ في البداية : (خرج ليلاً من موضع كان فيه) بمعنى وحدة الزمان والمكان التي لها اثر بلا شـك في تحديـد الموقف وربط القصة بالواقع .

قدم الجاحظ أجناساً متنوعة من البخـلاء . وخص بخلاء مرو بعـدد من الحكايـات والقصص عن أهلها وبخلهم الشـديـد الـذي يـراه الجـاحظ طبيعـة جبلوا عليها .

يقـول : (إن البخـل طبـع منهم وفي أعـراقهم وطينهم)[٥٣] . ومن هـذه القصص قصـة (المـروزي والعراقي) التي جاءت بعد مجموعة من الحكايات عن بخل أهل هـذه المدينـة ، مما أعـطى القارىء صـورة واضحة جلية عن بخلاء مرو .

تقـول القصـة :

(ومن أعاجيب أهل مرو ما سمعناه من مشيختنا على وجه الدهر ، وذلك : أن رجلا من أهل مرو كان لا يزال يحج ويتجر ، وينزل على رجل من أهل العراق ، فيكرمه ويكفيه مؤنته . ثم كان كثيرا ما يقول لذلك العـراقي ليت أني قـد رأيتـك بمـرو ، حتى أكـافئـك ، لقـديم إحسانك ، وما تجدّد لي من البر في كل قدمة . فأما ههنا فقد أغناك الله عني . قال : فعرضت لذلك العراقي بعد دهر طويل حاجة في تلك الناحية ، فكان مما هوّن عليه مكـابدة السفـر ووحشة الاغتـراب ، مكـان المـروزي هنالك . فلما قدم مضى نحوه في ثياب سفره وفي عمامته وقلنسـوته وكسـائه ، ليحط رحله عنـده ، كما يصنـع الـرجل بثقتـه وموضـع أنسه . فلما وجـده قـاعـدا في أصحابه ، أكب عليه وعانقه ، فلم يره أثبته ، ولا سأل به سؤال من رآه قط . قال العـراقي في نفسه : لعـل إنكـاره إيـاي لمكـان القنـاع فـرمى بقنـاعـه ، وابتـدأ مساءلته ، فكان له أنكر . فقال : لعله أن يكون إنما أتى من قبل العمامة ، فنزعها ثم انتسب ، وجدد مساءلته ، فوجده أشد ما كان إنكارا . قال : فلعله إنما أتى من قبل القلنسـوة . وعلم المروزي أنـه لم يبق شيء يتعلق بـه المتغافل والمتجاهل ، فقال : لو خـرجت من جلدك لم أعرفك)[٥٤] .

في هذه القصة مقدمة سردية توضح علاقة الرجلين ، وإكرام العراقي لزميله المروزي ، ودعاء الثاني برد جميل الأول لو رآه بمرو . ويقع الحدث ويتقابل الرجلان في مرو ويسقط في يد المروزي فيدّعي الانكار ، وهي حيلة من حيـل البخـلاء الكثيـرة التي أوردهـا الجـاحظ في الكتاب . يستغني الكاتب عن الحـوار مستخدمـاً أداة

---

(٥٣) المصدر السابق ، ص١٨

(٥٤) المصدر السابق ، ص٢٢

أخرى للكشف عن الشخصيتين المتناقضتين : الكريم والبخيل من خلال الدخول إلى مخيلة العراقي وإصراره على تعريف نفسه . ويستخدم الجاحظ هنا عنصر التشويق ، إذ أن القارىء يريد أن يعرف بعد كل حركة يقوم بها العراقي من خلع قناعه ثم عمامته ثم قلنسوته وانعكاس ذلك على المروزي . وعنصر التشويق وإن كان ضئيلا في قصص البخلاء إلا أن الجاحظ يجيد توظيفه حين يستخدمه « فهو يرسم المواقف ويؤخر الحلول حتى يعلق القارىء به »(٥٥). وتقع المفاجأة في النهاية بعد ما أدرك المروزي إصرار زميله العراقي في عبارة واحدة تبيّن كذب ادعاء المروزي الذي كان يدّعيه في بداية القصة : (لو خرجت من جلدك لم أعرفك) .

ويحتل (محمد بن أبي المؤمل) وهو أحد البخلاء البصريين ـ مساحة طيبة من الكتاب ، والجاحظ نفسه يعرفه عن قرب ـ فيما يبدو ـ إذ يحكي عنه مباشرة ، بل هو الشخصية المحاورة لابن أبي المؤمل فيما يرويه من قصص عنه . وقد أراد الجاحظ من قصص هذا البخيل أن يعطي صورة عن بعض البخلاء الذين يدّعون الكرم ويدعون الناس إلى موائدهم رغبة منهم في الثناء والشكر . وكأن الجاحظ أراد أن يقول إن البخيل يدرك في قرارة نفسه أن البخل صفة مذمومة تثير كراهية الناس للبخيل مهما حاول تبرير هذه الصفة وإلباسها لباساً منطقياً مقنعاً ، وسماها تسميات مختلفة : اقتصادا مرة وإصلاحا مرة أخرى . ومحمد بن أبي المؤمل نموذج لهذا النوع من البخلاء فهو يحاول أن يظهر بمظهر الكريم بدعوة الناس إلى مائدته ، غير أن مائدته ما كانت لتشبع ضيوفه . القصة الأولى من قصص هذا البخيل تقوم على الحوار بينه وبين الجاحظ . يسأله الجاحظ بتعجب في أنه يطعم الطعام وينفق عليه المال ويجوّده رغبة منه بالذكر والشكر ، ولكن طعامه لا يكفي عدد الآكلين على مائدته فينقلب المدح ذماً ويطالبه بزيادة الخبز فإن (بتلك الزيادة القليلة ينقلب ذلك اللوم شكراً وذلك الذم مدحاً)(٥٦). ويبرر ابن أبي المؤمل ذلك بأن كثرة الطعام على المائدة تقلل الشهية وتغلقها ، ويرى أن ما يصنعه يدل على سخاء النفس بالمأكول . أما ضيوفه فما بين طيب الخلق كريم يقدّر الدعوة لذاتها بغض النظر عن الطعام المقدم وكميته فلا يذمه ، وأما السيء الخلق فانه لائم ذام في الحالين : كثرة الطعام وقلته . ويواصل الجاحظ أسئلته ، ويواصل البخيل المدعي تبريراته ، حتى إذا شعر أنه حوصر بالاسئلة كشف عن طبعه المتأصل فيه .

(فإن الخبز إذا كثر على الخوان فالفاضل مما يأكلون لا يسلم من التلطيخ والتغمير . والجرذقة الغمرة ، والرقاقة المتلطخة ، لا أقدر أن أنظر إليها ، وأستحي أيضاً من إعادتها . فيذهب ذلك الفضل باطلا ، والله لا يحب الباطل)(٥٧). رغم ذلك يصرّ الجاحظ على أن يجد له سبيلا في تكثير الخبز على المائدة ، فيقترح البخيل طريقة للحل وهي أن يجعل الزيادة من الخبز في طبق قريب من متناول اليد (فلا يحتاج أحد مع قربه منه إلى أن يدعو به ويكون قربه من يده كثرة على مائدته)(٥٨). ولكن حين يحضر وقت الغداء يأمر غلامه أن يحضر من الخبز تمام عدد الرؤوس ، فيرى الجاحظ أن كل المناقشة كانت هباء . وينهي البخيل مناقشته بقوله : (لا أعلم إلا ترك الطعام البتة أهون علينا من هذه

---

(٥٥) محاضرات الموسم الثقافي ، ص ٢٣٠ .

(٥٦) البخلاء ، ص ٩٤ .

(٥٧) المصدر السابق ، ص ٩٥ .

(٥٨) المصدر السابق ، ص ٩٦ .

لخصومة)[٥٩]. هـذه القصة يلعب فيهـا الحوار دوراً كبيراً في الكشف عن الشخصية وتحليل دوافعها العميقة وسلوكها ومشاعرها ، بـل إن الحوار في هـذه القصة - والجاحظ شديد العناية بالحوار - جعل البخيل يكشف عن طبيعته بشكل ساخر حين أعيته الحيلة . والجاحظ يسرد بعد هذه القصة مجموعة من القصص والحكايات عن البخيـل نفسه ومحـاولاته في ستـر ادعـائـه الكـرم بـالحيلة ، كأن يسقي ضيـوفه مـاء أو شرابـاً يقلل من شهيتهم مدّعياً انه يقتل الديدان ويفتح الشهية وغيرها من الحيل .

أمـا القصة الأخيـرة من قصص (ابن أبي المؤمل) حين اشترى شبوطة وهي من أطيب الأسماك وجهّزها لنفسه واستعد لالتهامها ، فدخل عليه الجاحظ ومعـه السـدري وهو أحـد الشعراء المغمـورين زمن الجاحظ فكانت المفاجأة العظيمة على البخيل . . . (فلما رآه رأى الموت الأحمر والطاعون الجارف ، ورأى الحتم المقضي ورأى قاصمة الظهر ، وأيقن بالشر ، وعلم أنه قد ابتلي بالتنين)[٦٠]. فشمّر السدري عن ساعده ونزل تقطيعاً وتمزيقاً والتهاماً في السمكة ، والبخيل ينظر إليه وهو يغلي في داخله حتى إنه لم يتحمل الموقف فمرض أو كما يصفه الجاحظ . (فخبثت نفسه ، فمازال يقيء ويسلح . ثم ركبته الحمّى)[٦١]. هذه القصـة تصلح أن تكـون - لوحدها قصة فنية مستقلة لما فيهـا من وحدة المـوضوع ووحدة الهدف بل إنها بلغت الغاية في التصوير النفسي للبخيل وسلوكه وهو يرى طعامه الـطيب الذي أعـده لنفسـه ينتهم من قبل الآخـرين . اضافـة إلى عنصـر التشويق والتكثيف وتركيز الضوء في تصوير الشخصية من الداخل .

وفي قصة الداردريشي يقدم الجاحظ - قبل أن يحكي لنا قصته مع أخيه - لوحة صغيرة تدل على حرص هذا البخيل وخوفه على ماله من الضياع وذلك حينما سألـه سائل انتهره فلما أنكر جاره عليه انتهاره للسائل قال له : (كل هؤلاء لو قدروا على داري هدموها ، وعلى حياتي لنزعوها . أنا لو طاوعتهم فأعطيتهم كلما سألوني ، كنت قد صرت مثلهم منذ زمان . فكيف تظن بغضي يكون لمن أرادني على هذا)[٦٢]. هذه إذن هي الشخصية التي سيعرض لنا الجاحظ قصته مع أخيه : شخصية البخيل الخائف من الفقر . وبعدها تبدأ القصة بمقدمة وصفية موجزة نتعرف بها على أخ للداردريشي الذي لا يختلف عن أخيه في البخل وهـو شريكـه في تجارتـه . ثم يأتي الحدث الرئيسي الذي أثار حفيـظة الداردريشي عـلى أخيه ، وهو الحدث الذي بنيت القصة عليه . فقد وضع هذا الأخ في يوم جمعة طبقاً من الرطب يقدر بدانقين أمام أصدقائه وهم على بابه فدعاهم إلى الأكل ، فلما حضر الداردريشي لم يسلّم ولم يتكلم حتى دخل الدار مما أثار تعجب أخيـه واستنكار أصحـابه ، وزاد تعجب الأخ وحيرته واستنكار أصحابه أن تكرر التصرف من أخيه لجمعتين متتاليتين حين تكرر وضع طبق الـرطب أمام الأصـدقـاء . فكتب الـداردريشي إلى أخيـه يقـول : (يا أخي كانت الشركة بيني وبينك حين لم يكثر الولد ، ومع الكثرة يقع الاختلاف . ولست آمن أن يخرج ولدي وولـدك إلى مكـروه . وهـاهنـا أمـوال بـاسمي ولـك

(٥٩) المصدر السابق ، ص ٩٧

(٦٠) المصدر السابق ، ص ١٠٠

(٦١) المصدر السابق ، ص ١٠١

(٦٢) المصدر السابق ، ص ١٣٣

شطرها ، وأموال باسمك ولي شطرها . وصامت في منزلي وصامت في منزلك ، لا نعرف فضل بعض ذلك على بعض . وإن طرقنا أمر الله ، ركدت الحرب بين هؤلاء الفتية ، وطال الصخب بين هؤلاء النسوة . فالرأي أن نتقدم اليوم فيما يحسم عنهم هذا السبب)[٦٣]. فاستغرب الأخ لهجة أخيه وهاله الأمر وجمع ولده وأهله واستجوبهم ان كانوا قد أساءوا لأخيه فوجدهم براء مما يدعيه أخوه ، وظل يناشد أخاه أن يخبره بذنبه وأنه على استعداد أن يجعله وكيلا لكل هذه الضياع . فلما طال عليه الأمر وبلغ منه الجهد كشف الداردريشي عن السبب الحقيقي وهو حادثة أطباق الرطب ، ويكشف الجاحظ من خلال حوار الأخوين بخل الداردريشي وحرصه وقلقه من الفقر وضياع الأموال بالتبذير ، ذلك القلق النفسي الذي يسيطر عليه ويملي عليه كل تصرفاته وسلوكه ، فطبق الرطب يحتاج إلى فرش البسط أمام الدار ، ويتبعه الماء البارد وتجمع الناس حوله مما يزيد في طمعهم فيه ، فيتحول الطبق إلى أطباق ، ثم يصير ذلك في سائر أيام الاسبوع ، وينتقل الرطب إلى غداء ، والغداء إلى عشاء ، ثم إلى كساء ، وهكذا تتطور وجوه الصرف حتى يعود البخيل الثري فقيراً . فقال أخوه : جعلت فداك تريد أن لا آكل فضلاً على غير ذلك ؟ وأخرى فلا والله لا كلمتهم أبداً) . قال (إياك أن تخطيء مرتين : مرة في إطماعهم فيك ، ومرة في اكتساب عداوتهم . اخرج من هذا الأمر على حساب ما دخلت فيه . وتسلم تسلم)[٦٤].

هذه قصة يتجلى فيها بوضوح الكثير من عناصر القصة القصيرة ففيها حدث ، وشخصيات تتصارع ، وفيها تحديد للزمان والمكان ، وفيها عنصر التشويق الذي يشد القارىء من بداية القصة حتى تنكشف الأمور ، وفيها يسلط الجاحظ الضوء على الحدث الذي ينمو حتى يصل الذروة حين يطلب الأخ فسخ شراكته مع أخيه مدعياً أسباباً ليست هي السبب الرئيسي ، ثم تتعقد الأمور في حيرة الأخ الذي راح يتأكد من دعاوى أخيه . وأخيراً نصل إلى نهاية القصة أو لحظة التنوير فيكشف الأخ عن السبب الحقيقي مصرّاً على فسخ الشركة . بمعنى آخر كان في القصة بداية ووسط ونهاية ، والحدث فيها مرتبط بحبكة فنية متقنة . إن قصة الداردريشي تغدو ـ مع شيء بسيط من التعديل ـ قصة قصيرة من وحدة الهدف ، ووحدة الانطباع أو الأثر ، والتركيز والتكثيف في السرد والحوار دون حشو أو إطالة حتى أننا لا نجد فيها جملة واحدة لا تخدم الموضوع الأساسي . وبعد ، فهذه نماذج متفرقة منتقاة من قصص البخلاء التي تحقق فيها الكثير من عناصر في القصة ، عرضناها على سبيل المثال لا الحصر ، وهناك قصص أخرى تتشابه في فنيتها مع ما عرضناه من نماذج كقصة أبي سعيد المدائني البخيل الرافض للذل والمهانة ، وقصة أحمد الخاركي البخيل النفّاخ الذي يدّعي ما ليس فيه ، وقصة معاذة العنبرية وما صنعت في أضحية أهديت لها ، وقصة قاسم التمار الفضولي النهم وغيرها . إضافة إلى مجموعة رسائل ونصائح البخلاء التي لا تدخل ضمن نطاق القصة . ولعل الجاحظ كان يعي ذلك فيما وضعه من تسميات ثانوية داخل الكتاب ، فكان يستخدم كلمة (قصة) حين يشعر أن ما يورده هو قصة ، ويقول في المقدمة : (وأما ما سألت من احتجاج الأشحاء ونوادر أحاديث البخلاء ، فأوجدك ذلك في قصصهم ـ ان شاء الله تعالى ـ مفرقاً وفي احتجاجهم مجملا)[٦٥]. بينما يستخدم كلمة (رسالة) كرسالة سهل بن هارون ،

(٦٣) المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

(٦٤) المصدر السابق ، ص ١٣٥ .

(٦٥) المصدر السابق ، ص ٥ .

أو (حديث) كحديث خالد بن يزيد ، حين يكون ما يورده هو مجموعة من النصائح والأقوال . ويطلق عبارة (طرف شتى) على مجموعة من النوادر البسيطة الساخرة لبعض البخلاء . ولم يكتف الجاحظ بهذا بل كان يفسّر بعض ما يرد في قصص وطرف وأحاديث بخلائه بعد الانتهاء من سردها ، ويورده تحت كلمة (تفسير) مثل (تفسير كلام أبي فاتك) الذي ورد في كلامه بعض التسميات التي تطلق على الأكولين ، مثل (النشّال) الذي يتناول من القدر ويأكل قبل النضج ، و (المصّاص) الذي يمص جوف قصبة العظم بعد استخراج مخه مستأثراً به دون أصحابه ، وغيرها من التسميات(٦٦). وقد لا يخصص عنواناً ثانوياً بل يفسر مباشرة بعد انتهاء القصة ما جاء فيها من المصطلحات التي قد لا تكون معروفة حتى للكثيرين من أهل زمانه ، كالتسميات التي تطلق على أنواع المكدين مثل (المخطراني ، والقرسي ، والكاغاني ، والمزيدي وغيرها)(٦٧). وقد جاء هذا التفسير بعد أن روى حديث خالد بن يزيد عن الكدية وجمع المال ، لأن خالد هذا كان مكدياً اتبع أساليب مختلفة لجمع المال فأثرى ، وكان يدعى (خالويه المكدي) . ثم يختم الجاحظ شرحه وتفسيره بتأكيده على أن هناك أنواعاً أخرى من المكدين ، لكنه حرصاً منه على أمانة النقل يشرح ما جاء فقط في حديث خالويه . يقول الجاحظ : (هذا تفسير ما ذكر خالويه فقط . وهم أضعاف ما ذكرنا في العدد . ولم يكن يجوز أن نتكلف شيئاً ليس من الكتاب في شيء)(٦٨).

وبعد فمن خلال ما عرضناه من قصص على سبيل المثال ومالم نعرضه مما يعجّ به كتاب البخلاء سنحاول أن نتبين المميزات الفنية في هذه القصص .

المميزات الفنية

١ - الوصف والتصوير :

لعل أول ما يلفت النظر في قصص البخلاء هو عنصر الوصف والتصوير ، والجاحظ له قدرة على الوصف والتصوير الخارجي للحدث والشخصية أو الداخلي في انعكاس الموقف على الشخصية المحورية في تصرفاتها وتعبيراتها . ولعل عنصر التصوير هو من أكثر العناصر سيادة في الأدب الذي يصور الطبائع ، ذلك أن الوصف والتصوير والحوار « وسائل يستخدمها الكاتب في تحليل شخصية البطل وتصور مزاجه وطبيعته واستجاباته ومظاهر سلوكه . حتى نصل - من ذلك - إلى (العقدة) الأصلية التي تلتف حولها شخصيته في الأعماق السحيقة من (اللاشعور) »(٦٩). وقد أجاد الجاحظ في توظيف هذا العنصر بمستويات مختلفة حسبما يستدعيه الموقف ، فأحياناً يقتصر تقديم الشخصية أو الحدث من خلال الوصف العادي كما في تقديم شخصية قاسم التمّار . . (وكان قاسم شديد الأكل شديد الخبط ، قذر المؤاكلة . وكان أسخى الناس على طعام غيره ، وأبخل الناس على طعام نفسه)(٧٠). وأحياناً يبلغ التصوير حد الرسم الكاريكاتيري للشخصية كما في صورة علي الاسواري على الطعام وهي من الصور التي حرص الجاحظ فيها على تحريك الشخصية تحريكاً مضحكاً نابضاً بالحركة . يقول الجاحظ : (وكان إذا أكل ذهب عقله وجحظت عينه ، وسكر وسدر وانبهر ، وتربّد

(٦٦) انظر البخلاء (تفسير كلام أبي فاتك) الصفحات ٧٦ - ٧٧ - ٧٨ .

(٦٧) انظر البخلاء الصفحات ٥١ - ٥٢ - ٥٣

(٦٨) البخلاء ، ص ٥٣

(٦٩) محاضرات [illegible] ، ص ٢٣٠

(٧٠) البخلاء ، ص ١٩٩

وجهه ، وعصب ولم يسمع ، ولم يبصر ، فلما رأيت ما يعتريه وما يعتري الطعام منه صرت لا آذن له إلا ونحن نأكل التمر والجوز والباقلي . ولم يفجأني قط وأنا آكل تمراً إلا استفّه سفّاً ، وحساه حسواً ، وزاد به زدواً . ولا وجده كنيزاً إلا تناول القطعة كجمجمة الثور ، ثم يأخذ بحضنيها ويقلّها من الأرض . ثم لا يزال ينهشها طولا وعرضا ، ورفعا وخفضا ، حتى يأتي عليها جميعاً)[٧١].

وأحياناً يأتي الحدث في صورة وصفية نابضة بالحياة وكأننا نشاهد الحدث ممثّلا أمامنا في فيلم سينمائي ، كما في حادثة الشيخ الأهوازي الذي كان يأكل طعامه على ظهر السفينة وليس معه غير رجل واحد ـ هو راوي القصة فطلب الشيخ من الراوي أن يصرف عينه عن الطعام لأنه يخاف الحسد . قال الراوي : (فوثبت عليه ، فقبضت على لحيته اليسرى ثم تناولت الدجاجة بيدي اليمنى . فمازلت أضرب بها رأسه حتى تقطعت في يدي . ثم تحول إلى مكاني . فمسح وجهه ولحيته ، ثم أقبل عليّ فقال : (قد أخبرتك أن عينك مالحة وانك ستصيبني بعين)[٧٢].

ويتخذ الجاحظ التصوير أداة لاستشفاف الحركات النفسية للبخيل واستبطان الأحاسيس واستكشاف طبيعة البخيل من خلال مظهره الخارجي وسلوكه وتصرفاته إزاء المواقف المختلفة . والجاحظ « مولع بهذا النوع من البحث والتتبع للحالات النفسية الخفية ، وتبين الحركات الشعورية المختلفة ، وملاحظة الصلة بينها وبين الحركات والسمات الظاهرة ، من كلمة عابرة ، أو إشارة طائرة أو لفتة سريعة معجلة »[٧٣].

ومن الجدير بالذكر أن عنصر الوصف والتصوير الذي أجاد الجاحظ استخدامه في قصص البخلاء كما رأينا ـ بما يتمتع به من دقة الملاحظة وقوة التصوير وخصوبة الخيال الذي يمدّه بالتفاصيل الدقيقة والملاحظات الصغيرة ـ يبقى وصفاً حسياً ، لا يلجأ فيه إلى التشبيهات والاستعارات إلا بالقدر الطبيعي الذي يعينه على توصيل الصورة ، إذ قد تجنح الاستعارات والتشبيهات بالكاتب إلى صورة أخرى غير التي يريد إقرارها في مخيلة الكاتب . ولأن الجاحظ حريص في قصص البخلاء ـ على النقل الواقعي الموضوعي من جهة ولأنه فنان يعي ـ من جهة أخرى ـ أدواته الفنية ، يدرك تماماً أن ذلك الجزء الخفي في المشاعر والأحاسيس والعواطف الإنسانية يصعب نقلها إلى الآخرين عن طريق الكلمات مهما بلغ الأديب من المهارة في وصفها وتصويرها ، لذا نراه يقول في نهاية إحدى قصصه : (وهذا وشبهه إنما يطيب جداً إذا رأيت الحكاية بعينيك ، لأن الكتاب لا يصوّر لك كل شيء ، ولا يأتي لك على كنهه . وعلى حدوده وحقائقه)[٧٤]. إن أسلوب الجاحظ في الوصف والتصوير هو جانب من جوانب ميزة الواقعية الغالبة في أدبه كله .

٢ ـ الشخصيات :

صوّر الجاحظ في كتابه ما يقرب من ستين شخصية من شخصيات البخلاء ، يختلفون في منزلتهم الاجتماعية والثقافية وقدراتهم العقلية وأخلاقهم وسلوكهم واهتماماتهم وتوجيهاتهم ، كالبخيل المثقف والبخيل الساذج والبخيل الثري ، والبخيل الفقير ، والبخيل العالم ، والبخيل الأديب ، والبخيل

(٧١) المصدر السابق ، ص ٧٩ .
(٧٢) البخلاء ، ص ١٤٨ .
(٧٣) البخلاء مقدمة الحاجري ، ص ٥٠ .
(٧٤) المصدر السابق ، ص ٥٨ .

الفضولي ، والبخيل النهم ، والبخيل الشيخ ، والبخيل المرأة ، والبخيل الفتى . . . بعبارة أخرى صوّر الجاحظ البخيل الإنسان .

هذه الشخصيات التي صوّرها الجاحظ في الواقع شخصيات حقيقية عاشت زمن الجاحظ ، منهم شخصيات مشهورة في التاريخ مثل سهل بن هارون الكاتب ، وثمامة بن أشرس المعتزلي ، ومنهم المعروفون في زمنه وبيئته مثل المدائني التاجر ، وخالويه المكدي ، وأبي عيينه المعلم ، ومنهم من المغمورين مثل قاسم التمار الفضولي ، والسدري الشاعر ، وأحمد الخاركي الفتى .

وقد كان الجاحظ شديد الحرص أن يوفر لشخصياته من المعلومات والمعارف والحجج ما يساعدهم على الإقناع ، على أنه يراعي ظروف كل شخصية ، بل ويجعل الشخصية تستند ـ في محاولة لتبرير سلوكها ـ إلى أسباب منطقية توهم الآخرين بمعقوليتها ، مثل رد علي الأسواري حين عيب عليه استلاب اللقمة من يد الأمير . فقال : (لم يكن الأمر كذلك ، وكذب من قال ذلك ولكنا أهوينا أيدينا معاً ، فوقعت يدي في مقدم الشحمة ، ووقعت يده في مؤخر الشحمة ، معاً . والشحم ملتبس بالأمعاء . فلما رفعنا أيدينا معاً ، كنت أسرع حركة وكانت الأمعاء متصلة غير متباينة ، فتحول كل شيء كان في لقمته بتلك الجذبة إلى لقمتي ، لاتصال الجنس بالجنس والجوهر بالجوهر)[٧٥] . ومثل هذه الصور كثيرة في قصص البخلاء ، وهي بلا شك تدل على النزعة الكلامية للجاحظ نفسه . على أن الجاحظ كان يراعي ظروف كل شخصية لأن الشخصيات التي اختارها تحترف عدداً من الحرف والمهن المختلفة ، كالتاجر ، والملاك ، والكاتب ، والمعلم والمكدي واللص ، فكان يورد على ألسنتهم من المصطلحات والتعابير التي تنبىء بمهنهم وثقافتهم وإن لم تشر إلى حرفة بعضهم صراحة .

وقد استخدم الجاحظ في تقديم شخصياته أساليب مختلفة : منها أن يعمد إلى تقديم البخيل بطريقة الوصف قبل أن يسرد قصصه وطرائفه ، كاشفاً عن بعض أبعاد الشخصية مثل قصة أبي سعيد المدائني . . (كان أبو سعيد المدائني إماماً في البخل عندنا في البصرة . وكان من كبار المعنيين ومياسيرهم ، وكان شديد العقل ، شديد العارضة ، حاضر الحجة ، بعيد الرويه)[٧٦] . ومنها أن يمهد للتعريف بالشخصية قبل أن يروي الحدث الرئيسي في القصة بلوحة أو لوحتين يسرد فيها بعض تصرفات الشخصية ، « وكأنما ليوحي ببعض الأبعاد النفسية حتى لا يفاجأ القارىء بما قد لا يتصوره عقله من تصرف هذا البخيل »[٧٧] ، كما صنع في قصة (زبيدة بن حميد) و (الداردريشي) المار ذكرهما . وأحياناً نرى الشخصية داخل الحدث مباشرة دون تعريف أو تمهيد ، ومن خلال الأحداث والحوار نستكشف الأبعاد السلوكية والأخلاقية للشخصية ، مثل قصة (أبي عبدالله المروزي) التي تبدأ بالحدث مباشرة على هذا النحو (دخل أبو عبدالله المروزي على شيخ من أهل خراسان ، وإذا هو قد استصبح في مسرجة خزف ، من هذه الخزفية الخضر ، فقال الشيخ : لا يجيء والله منك صالح أبدا . . .)[٧٨] .

---

٧٥ المصدر السابق ، ص ٦٩

٧٦ المصدر السابق ، ص ١٣٦

٧٧ سيد حامد النساج ، رحلة الشرق العربي ، ص ٩٥

٧٨ البخلاء ، ص ٢٠

أما الشخصية المحورية في معظم قصص البخلاء فانها تأخذ مساحة أكبر ، والجاحظ يسلّط عليها الضوء كله حتى لتختفي الشخصيات الثانوية الأخرى في الظل ، وكأنها اتخذت لتظهر الشخصية الرئيسية ، وتعين على إبراز سلوكها ، وتساعد على تطوير بعض المشاهد وتوجيه الأنظار إلى الشخصية المحورية ، « ولعل الجاحظ كان يدرك بسلامة إحساسه الفني الحدود التي يجب أن تقف عندها أدوار هذه الشخصيات في تصوير الأبطال »[٧٩]. مثل الشخصيات الثانوية في قصة (زبيدة بن حميد) الآنفة الذكر ، وهي الصديق والبقال ورئيس الغلمان الذين استخدمهم الجاحظ ليضفوا على الشخصية الرئيسية أبعاداً تخدم الفكرة الأساسية للقصة ، وحين تحقق ذلك انتهى دورهم واختفوا . أما الجاحظ نفسه وهو مبدع العمل وراوي القصص فقد كان حريصاً على الابتعاد عن مسرح القصة ، مختفياً في الشخصيات التي يصورها وينطقها ، ولا نجد له صورة مفردة في الكتاب إلا في قصص شارك شخصياتها أدوار البطولة فيها ، وحتى في مثل هذه المواقف كان يدرك أنه أداة لاظهار الشخصية الرئيسية وبالتالي كان يفعل بنفسه ما يفعل بالشخصيات الثانوية الأخرى . أما في القصص التي يتخذ فيها دور الراوي ، فكان يترك شخصياته تتحرك وتتصرف وتتصارع وتتحادث بحرية دون أن يتدخل في تحريكها أو يملي عليها حوارها ، أو يحصي عليها سكناتها ، بل كانت الشخصية تتحرك بشكل منطقي ضمن إطار الموقف العام .

غير أن الجاحظ من خلال عرضه للنماذج المختلفة من البخلاء يصل إلى حقيقة إنسانية تنفرد بها شخصية البخيل الانسان مهما اختلفت بيئته وثقافته ومنزلته الاجتماعية ، وهي أن البخيل منغلق على نفسه ينتابه الخوف والقلق ، الخوف من الناس وسوء الظن بهم ، والخوف من الفقر وضياع أمواله ، والخوف من المستقبل وما يخبئه له ، والخوف من الموت جوعاً . فالخراساني يصل به الخوف بالآخرين أن يسيء الظن بأقرب الناس له ، حين رد على زميله ورفيق سفره الذي ألح عليه أن يأكلا في قصعة واحدة أثناء السفر ـ ففي الاجتماع بركة ـ قال له : (ياعبدالله معك رغيف ومعي رغيف ولولا أنك تريد الشر ما كان حرصك على مؤاكلتي . تريد الحديث والمؤانسة ؟ اجعل الطبق واحداً ويكون رغيف كل منا قدّام صاحبه)[٨٠]. والداردريشي الذي مر ذكره يخاف أن يعطي الشحاذين حسنة لئلا تنتهي أمواله ـ وهو الثري ـ فيعود شحاذا مثلهم[٨١]. والحزامي لا يتبخر بقميص جديد مخافة أن يسوّد دخان العود بياض قميصه ، (فإن اتسخ فأتى بالبخور ، لم يرض بالتبخر واستقصاء ما في العود من القتار حتى يدعو بدهن فيمسح به صدره وبطنه وداخل إزاره . ثم يتبخر ليكون أعلق للبخور)[٨٢]. وأحمد بن خلف الذي يتغدى ويتعشى في بيوت أصحابه ولم يدعهم يوماً إلى داره فلما لاموه دعاهم مرة ، وبعد أن أنهوا طعامهم سألهم : (أنا الساعة أيسر وأغنى أو قبل أن تأكلوا طعامي ؟ قالوا : ما نشك أنك حين كنت والطعام ملكك ـ أغنى وأيسر . قال : فأنا الساعة أقرب إلى الفقر ، أم تلك الساعة ؟ قالوا : بل أنت الساعة أقرب إلى الفقر . قال : فمن يلومني على دعوة قوم قربوني من الفقر وباعدوني من

(٧٩) محاضرات الموسم الثقافي ، ص٢٤٣ .

(٨٠) البخلاء ، ص١٩ .

(٨١) المصدر السابق ، ص١٣٣ .

(٨٢) المصدر السابق ، ص ٦٠ .

الغنى ، وكلما دعوتهم أكثر ، كنت من الفقر أقرب ومن الغنى أبعد ؟)[٨٣]. والأمثلة على خوف البخيل وقلقه النفسي كثيرة في الكتاب ، ولعل أغرب موقف للخوف ، خوف سليمان الكثري من الضحك ، فلما عوتب في قلة الضحك وشدة القطوب قال : (إن الذي يمنعني من الضحك أن الإنسان أقرب ما يكون من البذل إذا ضحك وطابت نفسه)[٨٤]. هذه الحقيقة الانسانية في تحليل شخصية البخيل قد وصل إليها معظم الذين كتبوا في تصوير البخلاء وتحليل نفسياتهم من الكتّاب العرب والغربيين . فبخيل موليير على سبيل المثال يخاف على أمواله حتى من أولاده ، متصوراً انهم سيخونونه ويصبحون أعداء له .

وأخيراً ما موقف الجاحظ الانساني من بخلائه ؟ إنه رغم رفضه لمنطقهم وسلوكهم ، وتصويره لسلبياتهم وشدة بخلهم ، إلا أنه لم يبغضهم ، ولم يعطنا ـ كقراء إحساساً ببغضهم والحقد عليهم ، بل على العكس كان الجاحظ حانياً عليهم ، متعاطفاً معهم ، يضحك لهم ويناقشهم ويستمع إلى حججهم ، ويتركهم يعبرون عن ذواتهم وموقفهم من الحياة بحرية كاملة ، وكان يجمع لهم صفات الخير التي يعرفها فيهم لتبرز لنا النفس الإنسانية بجانبيها المضيء والمظلم . لقد كانت شخصيات ظريفة ، استطاع الجاحظ أن « يحببها إلينا لأنه هو نفسه أحبها »[٨٥]. بل إنه كثيراً ما كان يمدح بخيله صراحة رغم ما يستهجنه من حرصه وتقتيره ، كقوله : (كان أبو الهذيل أسلم الناس صدراً ، وأوسعهم خلقاً ، وأسهلهم سهولة)[٨٦]. ويقول عن أبي سعيد المدائني : (كان أبو سعيد هذا ، مع بخله ، أشد الناس نفساً وأحماهم أنفاً)[٨٧]. إن موقف الجاحظ من البخلاء جزء من موقفه من الحياة التي أحبها ، ومن الناس الذين انشغل بقضاياهم في أدبه .

٣ ـ اللغة والحوار :

اهتم الجاحظ بالحوار اهتماماً كبيراً ، واتخذه أداة للكشف عن نفوس شخصياته وتوجهاتهم وتحليل دوافعهم العميقة ، وتصوير أخلاقهم ومشاعرهم وإحساسهم ، وطريقة تفكيرهم . وتأتي بعض القصص حواراً كلها وفيه تكمن قوة النادرة كما في قصة الأصمعي مع جلسائه[٨٨].

ويلعب الحوار دوراً كبيراً في تطوير الأحداث ورسم المواقف واتجاهاتها في بعض القصص . يقول الجاحظ في إحدى قصصه (كان أبو الهذيل أهدى إلى مويس دجاجة . وكانت دجاجته التي أهداها دون ما كان يتخذ لمويس ، ولكنه بكرمه وحسن خلقه أظهر التعجب من سمنها وطيب لحمها)[٨٩]. هذه الحادثة استتبعت موقفاً نفسياً خاصاً من مويس فهو يبدي التعجب من سمن الدجاجة واكتناز لحمها لكنه يخفي في نفسه أنها لم تكن شيئاً ، ثم يأتي الحوار كله ليلعب بهذا الوتر النفسي حتى المشهد الأخير . بل إن الجاحظ أحياناً يتقمص انفعال بطله إذا سكر وتلعثم في حواره أو ادّعى الجنون

(٨٣) المصدر السابق ، ص٤٢ .
(٨٤) المصدر السابق ، ص١٢٣ .
(٨٥) محاضرات الموسم الثقافي ، ص٢٤٢ .
(٨٦) البخلاء ، ص١٣٥ .
(٨٧) المصدر السابق ، ص١٤١
(٨٨) المصدر السابق ، ص٢٠٢
(٨٩) المصدر السابق ، ص١٣٥

فاضطرب في حديثه ، فهو يحكي حالة السكران أو المجنون كما في قصة أبي مازن وجبل الغمر الأنفة الذكر .

والحوار عند الجاحظ شديد الصلة بالحياة والمجتمع ، يراعي فيه ثقافة الشخصية ومنزلتها الاجتماعية ، لذا اختلف مستوى الحوار باختلاف مستوى الشخصية . ولأن الجاحظ كان واقعياً في اختيار نماذجه من الحياة فقد أعطى لكل شخصية حوارها ولغتها كما هو في الواقع ، لذا يترك اللفظ العامي أو الكلام غير المعرب كما هو اعتقاداً منه بأن الإعراب قد لا يتسق مع الموقف أو الشخصية ، أو انه لا يستقيم مع محاولة تصوير الواقع بحذافيره ، ويرى أن التقعر والتعقيد اللغوي قد يبغض هذا الباب ويخرجه عن حده ، ويدفع بالقراء إلى النفور . أما حينما تكون الشخصية من اللغويين والمتكلمين والمتفلسفين يكون حديثه بكلام معرب ، وهو يقرر ذلك في الكتاب ، فيقول : (وإن وجدتم في هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معرب ، ولفظاً معدولا عن جهته فاعلموا إنا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يبغض هذا الباب ويخرجه عن حدّه . إلا أن أحكي كلاماً من كلام متعاقلي البخلاء وأشحاء العلماء كسهل بن هارون ، وأشباهه)[٩٠] . فالأصمعي - مثلا - صوّر الجاحظ لنا حواره تصويراً حيّاً نكاد نشمّ منه رائحة البادية . بينما يستخدم حتى الألفاظ الفارسية في حوار الشيخ المروزي مع زميله العراقي ويترجمه إلى العربية[٩١] .

ويمتاز الجاحظ في حواره بالجدل ، والجدل سمة رئيسية في نثره ، فهو يحاكم عقله دائماً ، وما ذاك إلا أثر من آثار فرقه المعتزلة التي يقف الجاحظ علماً من أعلامها . ان بيئة المعتزلة كان لها أثر كبير في صقل مواهب الجاحظ الفنية في الحوار لما عرف عنهم من قوة المجادلة ، لهذا نجد معظم البخلاء أصحاب منطق وجدل ، يدافعون عن مذهبهم في البخل كما يدافع المتكلمون عن عقيدتهم ، ويجادلون من يعيب عليهم تقتيرهم ، كما يجادل المعتزلة أصحاب الفرق الأخرى . ويتضح الجدل والمنطق من السطور الأولى لمقدمة الكتاب حين يذكر الجاحظ منطق البخلاء . . (ولمَ سمّوا البخل إصلاحاً ، والشح اقتصاداً ولمَ حاموا على المنع ونسبوه إلى الحزم ، ولم نصبوا للمواساة وقرنوها بالتضييع . . . ولم احتجوا - مع شدة عقولهم - لما أجمعت الأمة على تقبيحه)[٩٢] .

ففي رسالة الكندي إلى المستأجر بيته يطالبه فيه بزيادة الإيجار لزيادة عدد الساكنين في الدار ، نجد الفكرة الفلسفية الدقيقة ، والحوار العميق وتوليد المعاني ، وترتيب الأفكار ، واختيار الكلمات بدقة ، والأسلوب المقنع ، والإيمان القوي بنظرية الجدل ودفاع قوي عنها ، بل استطاع الكندي أن يجعل الساكن متهماً ، جانياً ، حقوداً ، لصاً ، محتالاً ، يتوسل بشتى الطرق والوسائل غير الحميدة لاستغلال الدار[٩٣] . هذا المثال من بين أمثله عديدة تؤكد قدرة الجاحظ على التوليد والتخريج وتقديم الأسباب والعلل واستخلاص النتائج ، بل إنه يدل بوضوح على أن الجاحظ عايش البخلاء طويلاً وعرف الدوافع إلى بخلهم وأدرك الأبعاد النفسية لذلك . على أن المسألة « لا تقف عند حد ثقافة الجاحظ ، ومعرفته باللغة والمنطق ، والفلسفة والجدل .

---

(٩٠) المصدر السابق ، ص ٤٠ .
(٩١) المصدر السابق ، ص ٢٢ .
(٩٢) المصدر السابق ، ص ١ - ٢ .
(٩٣) انظر قصة الكندي في البخلاء ص ٨١ - ٩٣ .

إنها أبعد من ذلك . خبرة معمّقة ببواطن النفس البشرية ، وبما يعتمل في داخلها من صراعات . وبأن السلوك الذي يسلكه الانسان ليس إلا بلورة لمحصلة مجموعة من التجارب والخبرات وخاتمة لمطاف طويل ارتضاه لنفسه »[٩٤]. وإذا كان الجاحظ قد استطاع أن يعرض حجج البخلاء ومنطقهم بالجدّ مرة ، وبالسخرية المبطنة مرة أخرى وبالسخرية الصريحة مرة ثالثة ، وبلغة طيِّعة ، وعبارات رشيقة مشوقة في معظم قصصه ، إلا أن بيئته الفكرية طبعته من ناحية أخرى بطابعها حتى ليصعب عليه أحياناً التخلص من تأثيرها في تفكيره وتعبيره ، فانقلب الحوار في بعض قصصه إلى مناظرة كلامية مما قد يسيء إلى صفة الكاتب الفنية ، مثل قصة الحزامي في تفضيل اسم (عبدالله البخيل)[٩٥].

أما لغة الجاحظ في البخلاء فهي لا تنفصل عن لغته في كتاباته الأخرى والتي تتميز بالجزالة والعذوبة في التعبير ، ودقة اختيار الألفاظ ، والابتعاد عن التكلف والتعقيد ، والتصنع في السجع والتزويق اللفظي ، إضافة إلى حسن انتقاء العبارات وجمالها ، والتوازن الدقيق بين العبارات مما يمنحه تعادلا صوتياً ، ويحقق ضروباً من الإيقاع . ويرى الدكتور طه الحاجري أن ذخيرة الجاحظ اللغوية الضخمة أدت إلى الإسهاب وترجيع المعنى ، وقد لا يروق هذا لبعض الناس ، غير أنه يرجعها إلى « طبيعة الجاحظ الفنية المعنيّة بالجمال ومظاهره المختلفة . والجمال اللفظي ـ إن صح أن يكون هناك جمال لفظي بحت ـ من أقوى عناصر الأدب ، وهذه المزاوجة اللفظية ليست إلا مظهراً من مظاهر هذا الجمال اللفظي »[٩٦]. والجاحظ نفسه يؤكد على الاهتمام بانتقاء الكلمة والابتعاد عن المبتذل والوحشي من الألفاظ في نفس الوقت ، وهو وإن لم يتحرج عن إيراد الألفاظ العامية على ألسنة العوام من البخلاء ، والألفاظ الغريبة على ألسنة المتعاقلين من البخلاء كما يسمّيهم ، كجزء من موضوعيته في نقل حديث الآخرين ، إلا أنه يقول في البيان والتبيين : (وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً وساقطاً سوقياً ، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً ، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس ، كما يفهم السوقي رطانة السوقي)[٩٧].

٤ ـ السخرية :

عنصر بارز من عناصر كتابات الجاحظ ومن أكثرها شيوعاً ، فقد كان مطبوعاً على الظرف والفكاهة ، ميّالاً إلى التفاؤ ل ، يبدو عليه السرور وحب الدعابة وخفة الروح ، وكان لطيف المعشر ، حلو الحديث ، مرح النفس ، متهلل الخاطر ، سريع البديهة ، سريع النكتة ، ويمتاز كتاب البخلاء بشكل خاص بالسخرية المبثوثة في كل قصة من قصصه ، وكل صورة من صوره .

والجاحظ في بخلائه يدعو دعوة صريحة إلى الضحك والمزاح والفكاهة ويدافع عنها ، فخصص جزءاً من المقدمة تحدث فيه عن المزاح وعرض لوجوه النظر المختلفة ، وقارن بينه وبين البكاء . وقد حدد فيه فلسفته الخاصة للضحك ، ومواضعه ومدى حاجة الإنسان إليه ، حتى ليصبح ضرورة من ضرورات حياته . يقول الجاحظ : (وللضحك موضع وله

(٩٤) سيد حامد النساج ، رحلة التراث العربي ، ص١١٣ .

(٩٥) البخلاء ، ص٦٢ .

(٩٦) البخلاء ، مقدمة طه الحاجري ، ص ٢٧ .

(٩٧) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٤٤ .

مقدار ، وللمزح موضع وله مقدار ، متى جازهما أحد وقصّر عنهما أحد ، صار الفاضل خطلا والتقصير نقصا . فالناس لم يعيبوا المزح إلا بقدر ، ومتى أريد بالمزح النفع ، وبالضحك الشيء الذي له جعل الضحك صار المزح جدا والضحك وقارا)(٩٨). ويعتمد في دفاعه عن الضحك على القرآن الكريم ، فيورد الآية الكريمة ﴿ **وانه هو أضحك وأبكى . وانه هو أمات وأحيى** ﴾ ويعقب عليها بأن الله وضع (الضحك بحذاء الحياة ووضع البكاء بحذاء الموت ، وأنه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح)(٩٩). ويستمر في دفاعه عن الضحك في أن العرب تسمي أولادها بالضحّاك وببسّام وبطلق وطليق ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته والسلف الصالح قد ضحكوا ومزحوا ، وأن العرب إذا مدحوا قالوا : هو ضحوك السن وبسام العشيات ، وهش إلى الضيف . بل إن الجاحظ يحدد الهدف في الكتاب في ثلاثة أشياء : (تبين حجة طريفة ، أو تعرف حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة . وأنت في ضحك منه ان شئت ، وفي لهو إذا مللت الجد)(١٠٠). إن دعوة الجاحظ في البخلاء إلى الضحك هو جزء من نظرته العامة إلى النادرة والدعابة التي استخدمها في كتاباته الجدية كما استخدمها في كتاباته الهزلية . فهو يرى أن العقل يتعب من الجد ويحتاج إلى الترويح ، وحرصاً منه على ربط القارىء بكتبه عمد إلى الانتقال من الجد إلى الهزل ومن الهزل إلى الجد مما أكسب كتاباته ميزة الاستطراد . يقول الجاحظ في كتاب الحيوان (قد عزمت ـ والله الموفق ـ اني أوشح هذا الكتاب وأفصل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قارىء هذا الكتاب من باب إلى باب ومن شكل إلى شكل فإني رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها ، وما ذلك إلا في طريق الراحة التي إذا طالت أورثت الغفلة)(١٠١). وفي هذا ملمح نفسي ، فهو يخشى على القارىء الملل إذا ما استمر يحدثه في موضوع واحد ، لذا جاء حرصه على التنويع في موضوعاته . إن موضوع التنويع أو مزج الجد بالهزل منهج سار عليه الجاحظ في معظم مؤلفاته حتى ليعده المستشرق الفرنسي شارل بللا (ميزة جاحظية مهمة)(١٠٢). وهو يؤكده في كتابه القيِّم (البيان والتبيين) وفي رسالته الهزلية (التربيع والتدوير) . بل إن نزعة التنويع ترافقه حتى في كتاب البخلاء وهو أكثر مؤلفاته سخرية وإضحاكاً ، فنراه يبدأ الكتاب برسالة طويلة لسهل بن هارون في دفاعه عن نظريته في البخل ، وهو دفاع مليء بالجدية والاستشهادات من النصوص القديمة لكاتب مثقف جاد ، تأخذ ثماني صفحات من الكتاب ، ينتقل بعدها إلى مجموعة من النوادر والطرف لبخلاء خراسان ، ويتبعها بقصص أهل البصرة من المسجديين ثم يأتي بقصة بطلها بخيل واحد هو (زبيدة بن حميد) وهكذا يظل ينتقل من قصة إلى مجموعة من النوادر إلى أحاديث متنوعة إلى تجربة أحد البخلاء في الكدية ، وغيرها من الموضوعات المتنوعة .

على أن السخرية في كتاب الجاحظ لها دلالة أخرى إضافة إلى الإضحاك والإمتاع ، إنها لون من ألوان النقد ، فالجاحظ ناقد بطبعه ، غير أن لين جانبه وحبه

(٩٨) البخلاء ، ص ٧

(٩٩) المصدر السابق ، ص ٦ .

(١٠٠) المصدر السابق ، ص ٥ .

(١٠١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ج ٣ ، ص ٧ .

(١٠٢) شارل بللا ، الجاحظ ، ص ٣٨٤ .

للحياة والناس جعلاه يبتعد عن طريق الجد الصارم في النقد ، فكانت السخرية في يده أداة نقدية مؤثرة فعالة لكل المظاهر السلبية في المجتمع والجوانب المظلمة في النفس الانسانية ، والجاحظ نفسه يعي تأثير هذه الأداة وفعاليتها ، فهو لم يرفض نظرة البخلاء للحياة صراحة ولكن السخرية اللاذعة التي صور فيها منطقهم كانت مرآة عاكسة لعيوبهم وخطأ نظريتهم . غير أن هناك نقطة جديرة بالتنويه ، وهي أن سخرية الجاحظ ومزاحه ودعاباته ، وميله الفطري إلى الضحك ، ليست سخرية مبتذلة هدفها التهريج والضحك على الناس ، بمعنى آخر ليس هدفها الضحك للضحك لذاته ، بل هي سخرية أديب مفكر عقلي ، تمتاز بالموازنة بين الإمتاع والترويح عن النفس والفائدة في نفس الوقت ، إنها سخرية ذكية راقية تنمّي الأذواق وترهف الأحاسيس . ومن هنا كان لا يرضى عن المبالغة في السخرية وخروجها عن حد المعقول ، فرفض السخرية في قصة البخيل الذي يتأدّم بجبنة عنده بالمسح عليها بالخبز ، فلما مات كان ابنه أكثر بخلا منه ، فكان يشير إلى قطعة الجبن من بعيد دون أن يمسح . يقول الجاحظ : (ولا يعجبني هذا الحرف الأخير لأن الإفراط لا غاية له . وإنما نحكي ما كان في الناس ، وما يجوز أن يكون فيهم مثله)[١٠٣] . أما السخرية في كتاب البخلاء فقد حوى كل ما للضحك من وجوه ، ففيه مضحك الشكل ، ومضحك الحركة ، ومضحك الكلمة ، إضافة إلى كون البخل بحد ذاته مدعاة للسخرية ، فهو يدخل في باب مضحك الطباع . « ولو قيد لهنري برجسون أو لهربت سبنسر أو دوجا أو شابيرو ممن درسوا الفكاهة والضحك قراءة كتاب البخلاء ، لوجدنا كتاباتهم عن الضحك والمضحك تزخر باستشهادات منه »[١٠٤] . أما مضحك الشكل فنجده في شكل البخيل وملابسه ووجهه حين يأكل فتجحظ عينيه ويغيب وعيه كصورة علي الأسواري على الأكل ، ويبدو مضحك الشكل في وجه البخيل حين يحل ضيف على مائدته فهو ينظر إلى يدي ضيفه ، فتتحرك عيناه معهما بآلية في صعودهما وهبوطهما من وإلى الخوان . وليس أصناف الأكولين الذين صنفهم أبو فاتك كاللكّام والمصّاص وغيرهما إلا من طائفة مضحكي الأشكال ، وقميص ليلى الناعطية صورة أخرى لمضحك الشكل ، (فإنها مازالت ترقع قميصاً لها وتلبسه حتى صار القميص الرقاع ، وذهب القميص الأول)[١٠٥] . أما مضحك الحركات فيظهر في الصور النابضة بالحياة والحركة التي يرسمها الجاحظ للبخيل في موقف من المواقف كصورة الشيخ الخراساني الذي لم يدع رفيقه للاكل وهما على ظهر السفينة فتعرض للضرب[١٠٦] . وصورة اسماعيل بن غزوان الذي سهر عنده المكي ، ولما غلبه النوم رمى له اسماعيل بمخدة لينام عليها . قال المكي : (فمنعني من النوم إنكاري للموضع ، ويبس فراشي ، وظن إني قد نمت ، فجاء قليلا قليلا حتى سل المخدة من تحت رأسي . فلما رأيته قد مضى بها ضحكت وقلت : قد كنت عن هذا غنيا ، قال : إنما جئت لاسّوى رأسك ، قلت : إني لم أكلمك حتى وليّت بها ، قال كنت لهذا جئت ، فلما صارت المخدة في يدي نسيت ما جئت له)[١٠٧] .

---

(١٠٣) البخلاء ، ص ١٣٢ .

(١٠٤) فاروق سعد ، مع بخلاء الجاحظ ، ص ٩٧ .

(١٠٥) البخلاء ، ص ٣٧ .

(١٠٦) المصدر السابق ، ص ١٤٨

(١٠٧) المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

أما مضحك الكلمات ، فيزخر به احتجاج البخلاء وأحاديثهم ومراسلاتهم ، التي يوردها الجاحظ بجدية مبطنة بسخرية مرة وبسخرية سافرة مرة أخرى مراعياً ظروف المتكلم . وكثيراً ما يحملنا على الاعتقاد بمعقولية دفاعهم وتبريراتهم المضحكة وحججهم الساخرة . فالكاتب سهل بن هارون يستحسن ترقيع الثوب لأن (ترقيع الثوب يجمع مع الإصلاح التواضع ، وخلاف ذلك يجمع مع الإسراف التكبر)[١٠٨]. والثوري ينصح بأكل الباقلي بقشوره ، (فإن الباقلي يقول : من أكلني بقشوري فقد أكلني ، ومن أكلني بغير قشوري فأنا الذي آكله . فما حاجتكم إلى أن تصيروا طعاماً لطعامكم ، وأكلا لما جعل أكلا لكم ؟)[١٠٩]. ونموذج ثالث من العبارات المضحكة ترد على لسان أبي قطبة ـ أحد البخلاء السذج ، يقول (إياكم والفساء في ثيابكم التي تخرجون فيها ، وفي لحفكم التي تنامون فيها ، فإن الفساء يدرّ القمل . . إني والله ما أقول إلا بعلم)[١١٠]. وتبلغ السخرية قمتها حين تجتمع الوجوه الثلاثة للإضحاك ؛ معاً ، كما في قصة (أبو مازن وجبل الغمر) التي استشهدنا بها سابقاً ، حيث يتجلى فيها مضحك الشكل في رعب جبل الغمر ، ومضحك الحركات في تصرفات أبي مازن ، ومضحك الكلمات في الحوار الدائر بينهما . وهذه الصورة نجدها في كل القصص التي تتضمن شخصيات تتصارع وأحداثا تنمو فتتعقد ثم تنحل ، كقصة (زبيدة بن حميد) ، وقصة (العراقي والمروزي) المار ذكرهما ، وقصة الشيخ الخراساني الذي كان يأكل وحده في بستان فلما مر به رجل وسلم عليه دعاه إلى الطعام ، فلما همّ الرجل انتفض الخراساني ليمنعه من مشاركته طعامه[١١١].

٥ ـ الواقعيـة :

يتّسم الجاحظ في كتاباته عموماً بالواقعية التي تتضح في انتقاء موضوعاته ومعالجتها ، وفي تصوير البيئات والطبقات المختلفة ، وفي دقة ألفاظه واختيارها بحيث تلائم ما يصفه أو يصوره ، وفي الابتعاد عن التشبيهات والاستعارات إلا ما جاء عفو الخاطر ، وفي ملاحظاته الدقيقة ، وفي منهجيته الموضوعية ، وفي إيمانه بالتجربة العلمية والتطبيق العقلي مستعيناً بالعقل والحواس والتجربة كما يتضح في كتابه (الحيوان) وفي رفضه كثيرا من خرافات الناس ومعتقداتهم الخاطئة في العديد من رسائله . ولبيئته العلمية والثقافية بشكل عام ، وبيئته المعتزلة بشكل خاص ، أثرها على اتجاهه العقلي وموضوعيته .

وفي كتاب البخلاء تأخذ الواقعية شكلا واضحا من خلال ربط القصص بالواقع المعاشي ، أو ما يسمى في النقد الحديث بالصدق الفني وهو أن « يجري التفاعل بين الأبطال والأحداث كما يجري في منطق الحياة الواقعية ، حتى يشعر القارىء أن الكاتب لا يخادعه ولا يشطّ به ولا يؤخره عن محيط الحياة »[١١٢]. ويتضح هذا الربط في رسم الشخصيات وتصوير الأحداث ، وادارة الحوار ودقة التفاصيل والوصف السردي ، وتحديد الزمان والمكان . فالشخصيات التي يختارها الجاحظ شخصيات معروفة في بيئته ذكر أسماء بعضها وأخفى بعضها الآخر إكراماً أو خوفاً كما يقول في المقدمة[١١٣].

---

(١٠٨) المصدر السابق ، ص١٢ .

(١٠٩) المصدر السابق ، ص١٠٣ .

(١١٠) المصدر السابق ، ص ١١٤ .

(١١١) المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(١١٢) محاضرات الموسم الثقافي ، ص٢٢٢ .

(١١٣) البخلاء ، ص٧ .

ومن الأسماء من سمع عنها وعرف أخبارها فنقلها عمن سمع منه ، ومنها من عايشها واتصل بها فكان يبدي رأيه فيها ، كقوله عن أحد البخلاء : (وأبو عبدالله هذا كان من أطيب الخلق ، وأملحهم بخلا وأشهرهم رياء)[١١٤]. ومن هنا فقد صوّرها بواقعية متناهية لا تخرجها عن حدودها المعقولة ، فكانت الشخصية كما هي في تصرفها ، وسلوكها ، وعلاقاتها ، وحوارها وأحاديثها ، بل كان حريصاً أن تظل حكاياته وقصصه مرتبطة بالحياة فلا تخرج عما هو متعارف عليه بين الناس . لذا رفض بعض الحكايات التي رآها قد خرجت عن حدود المعقول . يقول الجاحظ بعد أن روى حكاية الابن البخيل الذي كان أكثر بخلا من أبيه : (ولا يعجبني هذا الحرف الأخير ، لأن الإفراط لا غاية له . وإنما نحكي ما كان في الناس ، وما يجوز أن يكون فيهم مثله)[١١٥]. وتبدو موضوعية الجاحظ إزاء شخصياته في أنه صوّرهم بجوانبهم المختلفة ، في خيرهم وشرهم ، في جدّهم وهزلهم ، في حبهم وبغضهم ، في وداعتهم وعنفهم ، في طيبتهم وسذاجتهم ، في خبثهم وتخابثهم . إنها شخصيات إنسانية نابضة بالحياة ، مرتبطة بالواقع بكل ما تحمله النفس الانسانية من إيجابيات وسلبيات . وارتباطاً بموضوع الواقعية في البخلاء يأتي تركيز الجاحظ على رسم الصور بكل دقائقها وتفاصيلها ، يصل في بعض القصص إلى حد التعداد التجهيزي ، لدرجة أننا نشعر « وكأننا أمام نص إخراج مسرحي أو سيناريو سينمائي »[١١٦]. مثل صورة الشيخ الخراساني ،.(إذا كان في غداة كل جمعة حمل معه منديلا فيه جرذقتان ، وقطع لحم سكباج مبرد ، وقطع جبن ، وزيتونات ، وصرّة فيها ملح ، وأخرى فيها اشنان ، وأربع بيضات ليس منها بد ، ومعه خلال)[١١٧]. وأحياناً يركز الجاحظ على الحركة فيصفها بكل جزئياتها ، كصورة الاكول على الطعام وحركة يده وعينيه وفمه وتعابير وجهه . مثل صورة علي الأسواري على الطعام[١١٨]. ويدخل في هذا الباب تصوير العادات والتقاليد في عصره ، كتجهيز العروس في قصة مريم الصناع التي زوجت ابنتها (فحلّتها الذهب والفضة وكستها المروي والوشي والقزّ والخزّ وعلّقت المعصفر ، ودقت الطيب ، وعظّمت أمرها في عين الختن ، ورفعت قدرها عند الاحماء)[١١٩]. أو ما كان من بلال بن أبي بردة الذي خاف من الجذام فوصفوا له الاستنقاع بالسمن[١٢٠]، وغيرها من العادات والأعراف والتقاليد . إضافة إلى الإسهاب في وصف الآلات والأدوات المادية ، وتسميات الأطعمة والأشربة وأنواعها في عصره ، كما ورد في حديث أبي فاتك مثلا[١٢١].

أما على صعيد حوار البخلاء وأحاديثهم ، فلكل شخصية ألفاظها وتعابيرها ومنطقها وصيغها المطابقة لما هي عليه في الحياة ، فالمتكلم يتحدث ويناقش بكلام

(١١٤) المصدر السابق ، ص ٢١ .
(١١٥) المصدر السابق ، ص ١٣٢
(١١٦) فاروق سعد ، مع بخلاء الجاحظ ، ص ٤٧ .
(١١٧) البخلاء ، ص ٢٤ .
(١١٨) المصدر السابق ، ص ٧٩ .
(١١٩) المصدر السابق ، ص ٣٠ .
(١٢٠) المصدر السابق ، ص ١٥٠ .
(١٢١) المصدر السابق ، ص ٦٧ .

المتكلمين ، والقاضي ترد على لسانه التعابير الفقهية ، والتاجر يستعمل الألفاظ المتداولة في السوق ، والمكدي يستعمل الألفاظ التي يستعملها المكدون ، واللص يستعمل تعابير اللصوص . . . وهكذا مع بقية الشخصيات . فخالويه المكدي مثلا يتحدث عن تجربته في الكديه فيقول : (سل عني صعاليك الجبل ، وزواقيل الشام ، وزطّ الآجام ، ورؤوس الأكراد ، ومردة الاعراب وفتّاك نهر بط ، ولصوص القفص . . . . كيف بطشي ساعة البطش ، وكيف حيلتي ساعة الحيلة ، وكيف أنا عند الجولة)[١٢٢]. وقد ذهب الجاحظ أكثر من ذلك حين أباح لنفسه رواية اللحن والخطأ في النادرة إذا ورد كذلك في كلام قائلها ، مراعياً وضع المتكلم ومناسبة الكلام ، وفي ذلك يقول في البخلاء : (وإن وجدتم في هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معرب ، ولفظاً معدولاً عن جهته فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك لأن الاعراب يبغض هذا الباب ويخرجه عن حده . إلا أن أحكي كلاماً من كلام متعاقلي البخلاء وأشحاء العلماء)[١٢٣]. والجاحظ يذهب هذا المذهب في كل مؤلفاته إمعاناً منه بالواقعية في نقل الأخبار وسرد الحكايات والنوادر ، وله في ذلك نظرة ، إذ يرى أن تدخّل الكاتب في تغيير الكلام المنقول يبعده عن الواقع من جهة ، ويفقد القارىء المتعة فيه من جهة أخرى . يقول في (البيان والتبيين) : (ومتى سمعت - حفظك الله - بنادرة من كلام الأعراب فايّاك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيّرتها بأن تلحن في إعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديين ، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كثير . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة الطغام ، فإياك وأن تستعمل فيها الاعراب ، أو تتخير لها لفظاً حسناً أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً ، فإن ذلك يفسد الامتاع بها ويخرجها من صورتها ومن الذي أريدت له ، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها)[١٢٤]. وإضافة لذلك فهو لا يتحرج من نقل الكلام الأعجمي بلغته ويترجمه كما في قصة العراقي والمروزي الآنفة الذكر[١٢٥].

وهكذا تطل الواقعية في كل صورة من صور كتاب البخلاء ، وكل شخصية من شخصياته ، ونادرة من نوادرهم ، وحديثاً من أحاديثهم ، وحواراً من حواراتهم ، حتى ليحس القارىء أنه يعرف تلك الشخصيات حق المعرفة ، فقد رآها وعاش معها وسمع حوارها ، بل واشترك معها في نوادرها . إنها نماذج حقيقية تعيش في كل زمان وفي كل مكان .

٦ - الإطار الزماني والمكاني :

إن تحديد الزمان والمكان عنصر من عناصر القصة ، وله دور في ربط القصة بالواقع من جهة ، كما أنه يساعد - من جهة أخرى - على فهم سلوك الشخصية وتصرفاتها ، ويساهم في تفسير الكثير من الأحداث . أما في كتاب البخلاء فينقسم هذا العنصر إلى قسمين : عام وخاص . فالإطار الزماني العام هو العصر الذي عاش فيه الجاحظ . أما الخاص فقد يحدد الجاحظ وقت وقوع الحادثة في بعض القصص ، كأن تدور الحادثة في الليل مثل (المراوزة الذين اشتركوا في شراء

---

(١٢٢) المصدر السابق ، ص ٤٩ - ٥٠ .

(١٢٣) المصدر السابق ، ص ٤٠ .

(١٢٤) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(١٢٥) البخلاء ، ص ٢٢ .

مصباح)(١٢٦). أو قد تقع الحادثة عند الظهر مثلا (الشيخ الخراساني الذي يتغدى في البستان بعد صلاة الجمعة)(١٢٧) أو قد تقع في الغروب مثل (مأدبة بلال بن بردة وقت الافطار في رمضان)(١٢٨). . . . وغيرها من الأوقات . أما الإطار المكاني العام فهو البعد الجغرافي المتمثل بمدينة (البصرة أو بغداد ، أو خراسان ، أو واسط ، أو مرو . . .) . أما الخاص فيشير إليه الجاحظ في بعض القصص مثل (اجتماع المسجديين في مسجد البصرة)(١٢٩)، أو حادثة (الشيخ الأهوازي وهو مسافر في جعفرية ـ مركب نهري)(١٣٠)، وحكاية (زقاق الدبس في مجلس الوالي داود أبي داود)(١٣١)، أو اجتماع (الجاحظ والنظّام وعمر بن نهيوي في ظل حائط)(١٣٢). وغيرها من الأماكن . غير أن الجاحظ لم يعوّل كثيراً على تحديد الإطار الزماني والمكاني الخاص ، لأن الذي كان يعنيه أكثر المواقف وتصرف الشخصيات تجاهها ، هادفاً من كل ذلك إلى توضيح طبيعة شخصية البخيل في مواقف متعددة . ومع ذلك فإن استخدام الجاحظ لإطار الزمان والمكان الخاص ـ على قلته ـ يدل على وعي الجاحظ بقيمة هذا العنصر ، فهو يستخدمه حين يشعر أنه يضيف شيئاً ما للقصة ، ففي قصة (جبل الغمر وأبي مازن) التي مر ذكرها على سبيل المثال ، حيث يطرق (جبل) باب أبي مازن ، وكان الوقت في ساعة متأخرة من الليل ، والأزقة مظلمة ، والعسس يلفّون الطرقات . فتحديد الزمان هنا له دوره في تفسير هلع (جبل الغمر)(١٣٣).

وبعد فهذا هو كتاب البخلاء ، وتلك هي حكاياتهم وقصصهم . كتاب من الكتب التراثية الخالدة الذي لا يزال يعيش بنماذجه الحية وصوره المشرقة ومواقفه الساخرة ، في قالب قصصي شيق ممتع ، ولازال يتمتع بالحياة رغم مرور أكثر من اثنى عشر قرناً على وضعه ، ولازال يمثل مادة غنية لكتاب القصة والمسرح ، ولرسامي الكاريكاتير .

❊❊❊

---

(١٢٦) المصدر السابق ، ص ١٨ .
(١٢٧) المصدر السابق ، ص ٢٥ .
(١٢٨) المصدر السابق ، ص ١٥١ .
(١٢٩) المصدر السابق ، ص ٢٩ .
(١٣٠) المصدر السابق ، ص ٢٠ .
(١٣١) المصدر السابق ، ص ٦٢ .
(١٣٢) المصدر السابق ، ص ٣٨ .
(١٣٣) المصدر السابق ، ص ٣٩ .

المصـــادر والمراجـــع

(١) توفيق الحكيم ، فن الأدب ، مكتبة الآداب ، بدون تاريخ .

(٢) الجاحظ ، البخلاء تحقيق طه الحاجري ، الطبعة السادسة ، دار المعارف ، القاهرة .

(٣) ـــــ ، البخلاء ، تحقيق أحمد العوامري وعلي الجارم ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٩ .

(٤) ـــــ ، البيان والتبيين ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، الطبعة الرابعة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .

(٥) ـــــ ، الحيوان ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، الطبعة الثانية ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر

(٦) جميل جبر ، الجاحظ ومجتمع عصره ، المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٥٨ .

(٧) حسن السندوبي ، أدب الجاحظ ، الطبعة الأولى ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٣١ .

(٨) د. سيد حامد النساج ، رحلة التراث العربي ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٤ .

(٩) شارل بللا ، الجاحظ ، ترجمة د. ابراهيم الكيلاني ، الطبعة الأولى ، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر ، دمشق ١٩٨٥ .

(١٠) شفيق جبري ، الجاحظ ـ معلم العقل والأدب ، ١٩٣٢ .

(١١) د. شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ـ القاهرة .

(١٢) طه الحاجري ، الجاحظ ـ حياته وآثاره ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ـ القاهرة .

(١٣) د. الطاهر أحمد مكي ، القصة القصيرة ـ دراسة ومختارات ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٨ .

(١٤) علي شلش ، في عالم القصة ، الطبعة الأولى ، مطبوعات الشعب ، القاهرة ١٩٧٨

(١٥) فاروق سعد ، مع بخلاء الجاحظ ، الطبعة الرابعة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨٣ .

(١٦) محاضرات الموسم الثقافي (١٩٦٣ ـ ١٩٦٤) الجزء السابع ، مطبعة الوزارة ، دمشق ١٩٦٤ (فن القصة في كتاب البخلاء للجاحظ) ، د. عبدالكريم الأشتر ، ص ٢١٩ ـ ٢٥٢ .

(١٧) محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٣ .

(١٨) ابن النديم ، الفهرست ، دار المعرفة ـ بيروت . بدون تاريخ .

(١٩) د. وديعة طه النجم ، الجاحظ والحاضرة العباسية ، مطبعة الارشاد ، بغداد ١٩٦٥ .

(٢٠) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، طبعة دار المأمون .

(٢١) يحيى حقي ، فجر القصة المصرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٧٥ .

(٢٢) يوسف الشاروني ، القصة القصيرة ـ نظرياً وتطبيقياً ، كتاب الهلال ـ العدد ٣١٦ ، القاهرة ـ ١٩٧٧ .

(تمت بحمـــد الله)

* * *

من الشرق والغرب

الرواية الفرنسية الجديدة وتقنيات التجديد

مصباح احمد الصمد *

أطلقت تسمية «الرواية الجديدة» في فرنسا على موجة من روايات مختلفة . دفقت في منتصف الخمسينات من هذا القرن وأثارت ، ولا تزال ، عاصفة من الدراسات والمقالات والابحاث بين مؤيد ومعارض وناقد . ولقد حاز أحد روادها ، كلود سيمون ، على جائزة نوبل للادب عن عام ١٩٨٥ بينما لم تكد تمر سنة بين ١٩٥٤ و ١٩٧٠ إلا ونال عمل منها أو أكثر جائزة أدبية .

اهتم النقاد كثيرا بهذه الظاهرة منذ نشأتها وأخذوا يتسابقون في تحديد أطرها ووضع برامج ومخططات - وحتى تسميات - لها . لم يجد بعضهم فيها أكثر من «روايات بيضاء» خالية من المعنى ، «روايات فراغ» يؤلفها كتاب قابعون في «صومعة منتصف الليل» ، منقطعون عن العالم وهمومه . (١) ورأى بعض معارضيها الآخرين انها «مدرسة النظر» ، بمعنى ان رواياتها تصـــور ببرودة وجـفـاف بعض الأشـياء والأمـاكـن والتصرفات العادية ، دون أي تدخل عاطفي أو فكري من قبل الكاتب . (٢) وذهب آخرون الى تسميتها «أدب الملل» ، تلك التسمية التي يجعلها جان بلوك ميشال عنوانا لأحد فصول كتابه «المضارع» والذي يخصصه لمهاجمة ذلك التيار الأدبي . (٣) أما المضارع فهو ، برأي الناقد ، «زمن الفعل الذي لا يعبر إلا عن الوجود ، ولكنه خالٍ من أي معنى أو دلالة» . » (٤)

تلك كانت آراء بعض المعارضين . أما مؤيدو «الرواية الحديثة» فيرون فيها «أدب الطليعة» و «مدرسة التغيير» وأحد أبرز تيارات تحديث الرواية بعد ركود طغى عليها منذ أواخر القرن التاسع عشر وبعد

* استاذ مساعد في كلية الآداب والعلوم الانسانية . الجامعة اللبنانية - طرابلس

١ - Ludovic Janvier, Une parole exigeante, p. 23

٢ - Pierre de Bois deffre, La Cafetiére est sur la table, p. 15-18

٣ - Jean-Bloch Michel, Le Présent de l'indicatif.

٤ - نفس المصدر ، ص ٥٤ .

اجتذاب وسائل الاعلام المرئية والمسموعة لنسبة كبيرة من القراء . لقد هلل لها واستبشر بها كثير من النقاد والأدباء من أمثال جان بول سارتر [٥] ورولان بارت [٦] وجان روسيه [٧] وغيرهم في فرنسا ، أو آخرون خارجها ، منهم مورتون بول ليفيت [٨] وجون ستوروك [٩] في اميركا وكلاوس نيتزر [١٠] وكورت ويلهلم [١١] في ألمانيا ، وكثيرون غيرهم في بلدان مختلفة .

ولكن ما هي «الرواية الجديدة» وفيم تكمن حداثتها ؟

١ ـ محاولة تعريف

نقول «محاولة» لأن كتاب هذا التيار لا يشكلون مدرسة أدبية متماسكة ومحددة النظرية والمنهجية والقوانين والأهداف بالرغم من المعرفة الوثيقة والصداقة التي تجمع بين أغلب القائمين عليه . فلقد ابتدأت رواياتها بالظهور عشية انتهاء الحرب العالمية الثانية مع الغشاش (Le' Tricheur) لكلود سيمون . و «الثرثار» للويس رينيه ديلافور سنة ١٩٤٦ ، ثم توالت غزيرة بين ١٩٥٢ و ١٩٦٠ لتتشعب اتجاهاتها بعد ذلك ، حيث أخذ البعض يكتبون مع استمرارهم في ميدان الرواية ، أعمالا مسرحية أو شعرية ، كما فعل كلود سيمون وروبير بينجيه ، وكلود اوليبه وهوبير اكوان ، وأضاف ألان روب غرييه الإخراج السينمائي الى نشاطه الأدبي ، بينما كان جان ريكاردو يؤرخ لهذه الحركة ويكتب في النقد ، في حين اختط ميشال بوتور طريقا آخر متعدد الأوجه وغزير الانتاج .

من جهة اخرى ، فلقد نشأ تيار جديد حول جان ريكاردو ومجلة «تل كل» Telquel دعا نفسه تميزا «الرواية الجديدة الحديثة» (Neo— nouveau roman)

أمام كل هذا التنوع والتمايز يكون من الصعب ، إذا لم نقل من شبه المستحيل ، إعطاء تعريف محدد لهذا التيار الأدبي ، بل أكثر من ذلك ، فإن هؤلاء الكتاب يرفضون جميعا الاعتراف بوجود مدرسة مؤطرة وممنهجة . ولكن ذلك لا يمنع من وجود قواسم مشتركة ومنطلقات متقاربة . يقول ميشال بوتور :

«من وجهة نظر تاريخية ، اصبح لتعبير «الرواية الحديثة» معنى واضح نوعا ما : فهو يدل على مجموعة روائيين اصبحوا فجأة معروفين أكثر حوالي العام ١٩٥٦ . هؤلاء الكتاب ، المختلفون جداً ، كانت بينهم بالتأكيد نقاط مشتركة ، وليس من قبيل الصدفة أبدا أن تكون اعمالهم قد ظهرت من دار نشر واحدة . «ولكن هذا التقارب لم يسمح أبدا بتشكيل مذهب أدبي موحد» . [١٢]

تلك «النقاط المشتركة» التي يتكلم عنها بوتور وغيره من كتاب الرواية الحديثة ، يحددها ألان روب ـ غرييه في إحدى مقالاته [١٣] ، ونلخصها كما يلي :

---

(٥) cf. Madelaine Chapsal, **Les Ecrivains en personne**, Ed. juillard, 1960

(٦) Roland Barthes, **Essais critiques.** Ed. Seuil, 1964

(٧) Jean Rousset, "Trois romans de la mémoire" **cachiers internationaux du symbolisme**, no 9-10, 1962

(٨) Morton Paul Levitt, **From a new point of view**, Ann Arbor University press, 1966

(٩) John Sturrock, **The french New Novel**, Oxford University press, 1968

(١٠) Klaus Netzer, **Der Leser des "Nouveau Roman"**, Frankfurt am Main, Athenaum, 1970

(١١) Kurt Wilhelm, **Der "Nouveau Roman"**, Berlin, E. Schimatt Verlas, 1969

(١٢) M. Butor, Réponses à **Tel Quel**, n° II, 1962

(١٣) A. Robbe-Grillet,"Nouveau Roman, Homme nouveau", **La Revue de Paris**, Sept. 1961.

أ - الرواية الحديثة ليست نظرية ولكنها بحث وتنقيب ، فلم يكتب أحد من إعلامها أي مؤلف نظري الا بعد أن ظهر له عدد من الروايات كشفت كل منها عن نظرة مختلفة الى طريقة رواية الاحداث ونوعيتها والشخصيات والأماكن والأزمنة . جاءت النظرية إذن بعد التجربة ، وعندما ظهرت لم تكن موحدة القوانين .

ب - تابعت الرواية الحديثة التطور المستمر للنوع الروائي ، لم تدع اذن لمحو الماضي أو للتنكر لما قام به رواد كثيرون في عصور مختلفة ، ولكنها أرادت أن تشكل قفزة نوعية في هذا النوع الأدبي تكون حلقة في سلسلة التغيير المتواصل . ونذكر هنا أن جميع كتابها أبدوا إعجابهم وتأثرهم بكبار الروائيين من مختلف الجنسيات والمدارس من فيكتور هوغو الى فلوبير وبلزاك ومرسيل بروست وأندريه جيد وفرانز كافكا ووليم فولكنر وجيمس جويس وغيرهم ، كما عبروا جميعا عن اعجابهم الشديد بألف ليلة وليلة .

ج - لا تهتم الرواية الحديثة سوى بالإنسان ووضعه في العالم بالرغم من تسمية البعض لها «مدرسة الأشياء» أو «مدرسة النظر» ، «الإنسان موجود في كل صفحة وفي كل سطر وكل كلمة وحتى لو وجد فيها كثير من الأشياء المصورة بدقة ، فهناك أولا وقبل كل شيء النظرة التي تراها والفكر الذي يستعيدها والانفعال الذي يعيد تشكيلها» . (١٤)

د - تنشد الرواية الجديدة ذاتية مطلقة : صحيح أن الكاتب لم يعد يدعي أنه «كلي المعرفة» ، بمعنى أنه يعلم كل شيء عن شخصيات القصة وعما يدور حولهم وفي ذاتهم ، وصحيح أن البطل كاد يفقد هويته وحتى اسمه - الذي فقده بالفعل في قصص كثيرة - ولكن الإنسان ما زال هنا ، بحواسه وخياله وفكره ، يتحرك في زمان ومكان محدودين ويروي تجربة محدودة وغامضة في أكثر الأحيان ، ناقلا لنا نظرته وتصرفاته وانطباعاته .

هـ - لا تقدم الرواية الجديدة معاني وتفسيرات جاهزة : يرى هؤلاء الكتاب أن نظرتنا للامور وفهمنا لها ما هما الا جزئيان أو مبتوران ، إذ أن «معاني العالم من حولنا هي جزئية ، مؤقتة وحتى متناقضة ، وهي دائما عرضة للمناقشة والخلاف . فكيف يستطيع العمل الفني ان يدعي اذن تقديم تفسيرات مسبقة ، مهما كان نوعها ؟» (١٥)

و - الأدب هو الالتزام الوحيد الممكن للكاتب : القصة تبدأ عند كتابتها . والرواية تتكلم عن أشخاص ومواضيع ، ولكنها تعرض أيضا مراحل كتابتها . فهي مخاض وولادة مع كل آمالها وآلامها . ومع كل ما يرافق ذلك من تحضير وتجهيز وما يعترضه من مشقات وعوائق .

ز - الرواية ليست «قصة» فقط ، بل هي أيضا خطاب أدبي : ليس المهم فقط ما يروى ، بل كيف يقال ، بأية لغة وبأي اسلوب . الكلمة هي ما ترويه شهرزاد ، ولكنها هي شهرزاد ايضا ، هي المنفذة والفاعلة ، تسرد أحداثا وتنقل خطابا ، وغاية هذا الخطاب أن ينفعل ويفعل ، أن ينطلق من ذات تحد لديها ما تقوله لا ليدخل عقل وقلب قارىء فقط ، بل ليثير لديه ما يقوله بدوره . هكذا تصبح القصة نوعا من التخاطب ، والفراغات المتروكة فيها عمدا هي دعوى مفتوحة للقارىء ، أيا كان مستواه وثقافته ، ليدلي بدلوه ويملأها بطريقته الخاصة .

---

(١٤) نفس المصدر .

(١٥) نفس المصدر .

٢ ـ بين الرواية الجديدة والرواية التقليدية :

قد لا تظهر من هذا العرض المقتضب أبعاد التغيير الذي أحدثه هذا التيار الأدبي في نظرة الكاتب الى الرواية وموضوعها وشخصياتها وفي العلاقة بينه وبين القارىء . ولتبيان ذلك ، علينا أن نلقي أولا نظرة سريعة على الرواية التقليدية وكاتبها .

من المتعارف عليه أن الرواية هي «عمل خيالي نثري ، يعرض لنا أشخاصا نفترضهم حقيقيين ، يجعلهم يعيشون في محيط معين ويعرفنا على نفسياتهم ومغامراتهم ومصيرهم» [١٦] .

يتضح لنا من هذا التعريف الموسوعي للرواية ـ والذي يلتقي حوله أغلب النقاد الأدبيين قبل ظهور «الرواية الجديدة» ـ أن على الكاتب أن يعرف كل شيء عن الشخصيات التي يصورها لنا ، ان يلم بكل ما يدور حولها ، وان يخصها بطباع وسمات مميزة ، وأن يلاحقها في اغلب مراحل وجودها ليتوصل الى تحديد مصيرها . ذلك ما يفترض بالتالي أن القارىء سوف ينسجم مع ما يعرض أمامه ويعرف ما يحدث وأين وكيف ، وسوف يسترسل مع مغامرات الابطال . وهو يتأثر بها ويعجب فيقلد أو ينفر فيتعظ .

إن كل كتاب «الرواية الجديدة» يتفقون على معارضة هذه النظرة السائدة وينظرون بشكل مختلف الى كاتب القصة وقارئها وأبطالها وموضوعاتها ، إذ أن الرواية ، بالنسبة لهم ، هي «التعبير عن مجتمع يتغير ، ويجب أن تصبح عما قريب تعبيرا عن مجتمع يدرك أنه يتغير» [١٧]

أ ـ الكاتب

يتساءل ألان روب غرييه عن الدور الشائع للروائي التقليدي فيقول : «من هو هذا الروائي الكلي المعرفة والشمولي الوجود ، الذي يتواجد في كل مكان وفي نفس الوقت ، والذي يرى مظاهر الأشياء وخلفياتها ، والذي يتتبع في الوقت ذاته تعابير الوجه وكوامن الفكر ، والذي يعرف حاضر وماضي ومستقبل كل مغامرة ؟ [١٨]

وينتقل ، بعد أن ينكر على الكاتب هذه القدرة الخارقة على معرفة الاشخاص والاشياء ، الى تحديد رؤيته للكاتب أو الروائي ، قائلا : «في كتبنا ، هنالك على العكس ، «رجل» يرى ويشعر ويتصور ، رجل محدد المكان والزمان ، توجهه عواطفه ، انسان مثلي ومثلك . والقصة لا تقدم أكثر من تجربته الشخصية ، المحدودة وغير المحققة .

من كاتب خارق إذن ، الى كاتب عادي . وسواء أتكلم الروائي مباشرة أم بواسطة راوٍ ، فالمطلوب منه أن يتواضع من الناحية المعرفية . وهذا التواضع يعني ان يضع جانبا دور العارف بكل شيء أو الموجه للقصة وشخصياتها ، وان يتحول الى ناقل تجربة أو حدث يقدم للقارىء بطريقة شبه سينمائية ، أي بتصوير الحدث نفسه من زوايا مختلفة .

ولكن ذلك لا يعني ان كاتب «الرواية الجديدة» قليل المعرفة أو هزيل الثقافة . بل على العكس ، فجميعهم يمتلكون ثقافة واسعة ويتمتعون باطلاع عميق على نتاج حضارات وشعوب مختلفة . ويجمع

---

(١٦) LeRobert, **Dictionnaire de la langue française,** article: "roman."

(١٧) Michel Butor, **Répertoire II,** p. 80.

(١٨) Alain Robbe-Grillet, **op. cit.**

النقاد ان ميشال بوتور ، مثلا ، هو من أغنى الكتاب الفرنسيين ثقافة ، إن لم يكن اغناهم على الاطلاق [١٩] . كما أن أغلب هؤلاء الكتاب هم أساتذة جامعات وباحثون ومحاضرون مشهورون . وذلك أمر بديهي ، فدعوتهم الى تغيير الرواية وتثويرها تقتضي معرفة معمقة بها وبتاريخها وتطورها وتأثيرها أو تأثرها ببقية الانواع الأدبية وبمجمل الفنون وبتطور المجتمعات . ان غالبية رواياتها تطرح مواضيع حوار الثقافات وتلاقي الحضارات ، وذلك ما لا يستطيع القيام به سوى اشخاص واسعي الأفق والمعرفة .

اما دور هذا الكاتب ، فتحدده ناتالي ساروت بأنه يكمن في «تجريد ما يشاهده من كل الأفكار المسبقة والصور الجاهزة التي تغلفه ، من كل ذلك الواقع الظاهري الذي يمكن لكل الناس ان يروه دون جهد وبان يتوصل أحيانا الى شيء مجهول يبدو له أنه أول من يكتشفه ، وهو يدرك دائما ، عندما يحاول توضيح هذا الجزء من الواقع الذي اكتشفه هو ، أن كل الطرق التي استخدمها سابقوه ، والتي أوجدوها لغاياتهم الخاصة ، لم تعد صالحة بالنسبة له ، فيلقي بها جانبا دونما تردد ويجهد في ايجاد بدائل لها ، تتناسب والغاية التي ينشدها . وليس من المهم كثيرا إذا رأى أنها تخيب آمال القراء او تزعجهم» [٢٠]

ب ـ القارىء

ان تغير دور الكاتب وموقفه من الرواية ومن فعل الكتابة ذاته يقتضي تبدلا في نظرته الى القارىء وتعامله معه . فهو لم يعد يقر باسترسال القارىء مع الرواية ، كما درجت العادة ، بل يطلب منه ان يكون مستكشفا للنص وللأحداث .

«إن سر سعادة الروائيين التقليديين وقرائهم ، كما تقول ناتالي ساروت [٢١] ، أنهم ركزوا مراصدهم في نفس المكان الذي يقف فيه القارىء» . ثم تتابع : «بفضل تلك الوضعية المريحة يوحون لقرائهم بالثقة ، إذ يعطونهم انطباعا بأنهم في منازلهم ، بين اشياء مألوفة . وهكذا يتولد شعور بالتعاطف والتعاون والعرفان بين القراء وذلك الراوي الذي يشبههم والذي يعرف ما يشعرون به . وبما أنه أكثر وعيا وانتباها وخبرة منهم ، فانه يكشف لهم أكثر مما يعرفون عن أنفسهم وعن الأمور والمشاكل المحيطة بهم ، ثم يقودهم ، دون أن يتعبهم كثيراً أو يثبط من عزائمهم ، ودون أن يبطيء مسيرتهم أو يوقفها ، نحو ما يتوقون إليه عند بدئهم بقراءة الرواية : عونا في وحدتهم ، وصفا لأوضاعهم ، كشفا عن خفايا حياة الآخرين نصائح مليئة بالحكمة ، حلولا لمشاكل وخلافات يشكون منها ، إغناء لتجاربهم او انطباعا بأنهم يعيشون حياة مختلفة .» [٢٢]

هذا الدور الفوقي للكاتب يجعل من القارىء برأي الكاتبة وزملائها الاخرين ، مجرد متلق لافكار ومناهج تملى عليه وتستحوذ على تفكيره وعواطفه فتجعله خاملا كسولا «يسترسل» مع رواية تدغدغ مشاعره ويكون أشبه بطفل يمسك بيد والده ليقوده في نزهة جميلة .

اما القارىء الذي ينشده «الروائيون الجدد» فيجب أن يكون مستعدا لمشاركة الكاتب مغامرة الرواية والاستكشاف والمناقشة ، عليه أن يدرك أنه ، مثل الكاتب ، شبيه بشهرزاد التي تجهد في ابتداع كلام

---

(١٩) cf. Jean. Paul Sartre, in, **Les Ecrivains en personne**, Jan Roudaut, **Michel Butor ou le livre future**, Georges Raillard, **Butor**, et Michel Zeraffa, in **La Grande encyclopédie Larousse**, article Butor, Michel.

(٢٠) Nathalie Sarraute, **L'Ere du Soupçon**, p. 141-142.

(٢١) نفس المصدر ص ١٣٣

(٢٢) نفس المصدر ص ١٣٣ ـ ١٣٤

ينقذها من السيف المسلط فوق رأسها . لم يعد الوقت المخصص لقراءة الرواية فترة استرخاء ، ولكنه أصبح وقتا للتفاعل والتنقيب ، ويعود ذلك لكون الرواية معقدة متشابكة ولكونها فقدت ترابطها وتسلسلها ، مما يستدعي جهدا كبيرا لتجميع شتاتها وفك رموزها وملء فراغاتها . وهذا ما يتطلب بدوره غوصا في أعماق اللغة التي كتبت بها ، مع ما يعترض ذلك من مصاعب وعقبات .

يتبادر الى الذهن هنا سؤالان :

١ ـ ألا يعني كل ذلك ان «الرواية الجديدة» تتوجه الى فئة قليلة من القراء ؟

٢ ـ وحتى لو توجهت الى جمهور عريض ، ألا يكون التنقيب والتفاعل اللذان تدعيهما نوعا من العبثية ؟

للإجابة عن السؤال الاول لابد من الاعتراف بأن جمهور القراء في فرنسا لم يكترث في البداية لهذه الروايات ، حتى أن بعضها لم يسجل سوى مبيع ثلاثين نسخة فقط خلال عام كامل . ولكن لم يطل الوقت حتى اقبل عليها القراء بأعداد كبيرة . صحيح أن جمهورها لم يعادل بعد من يقرؤون الروايات التقليدية وأن أسماء كتابها باستثناء كلود سيمون ـ لم تصبح «شعبية» كاسم فرنسوا مورياك مثلا ، ولكنها اخذت خطّاً صار معروفا واكتسبت مؤيدين ومتابعين لنشاطها .

أما السؤال الثاني فجوابه لا يقتصر فقط على الرواية الجديدة وقرائها ، بل يتجاوزها الى كل عمل أدبي وفني ، إذ أن كل كاتب يتوجه بالضرورة الى قارىء ينتظر منه ردة فعل معينة ، من إثارة أو تشويق أو وعظ وتعليم . ولكن ما تغير هنا أن الكاتب اصبح ينتظر من قارئه اكثر من ذلك ، أي أن يكون شريكا له في مغامرة الكتابة والبحث ، وأن يكمل ، إذا امكنه ذلك ، الكتاب الذي يقرؤه . دور القارىء يمتد إذن الى ما بعد فترة المطالعة ، أو يبدأ بالاحرى عندما يضع الرواية جانبا .

نسارع الى القول أن المشاركة لا تعني الموافقة والتأييد . فلقد عنونت ناتالي ساروت كتابها الذي تعرض فيه نظرياتها حول الرواية : «عصر الريبـة» (L' Ere du sourcon) وهي تقول في إحدى صفحاته : «بعد أن كان بطل الرواية يشكل الأرضية المشتركة التي يتفاهم من خلالها الكاتب والقارىء ، أصبح موضع ريبتهما المتبادلة ، أصبح منطقة مدمرة يتجابهان فيها . هذا الموقف الراهن يجسد بشكل رائع كلمة ستندال : «لقد وصلت عبقرية الشك الى العالم» . ولقد دخلنا فعلا عصر الريبة» [٢٣]

ج ـ البطل

نستشف من القول السابق أن بطل الرواية كان أحد مجالات التغيير التى إنطلق منها الروائيون الجدد . والحقيقة أن تعديلا اساسيا قد لحق بمفهوم الشخصيات الروائية .

لقد اعتدنا أن نجد في كل رواية شخصيات محددة الملامح والتصرفات ، تتحرك كل منها بشكل متناسق مع خلفياتها الفكرية والاجتماعية والنفسية . ولطالما درسنا ، ولم نزل ، مزايا تلك الشخصيات وتفاعلها مع بيئتها وعصرها ، وانكب باحثون على التفتيش عن اسمائها الحقيقية وعن واقعها التاريخي والجغرافي ، وتأثرنا بها فعاشت في مخيلتنا اسماء مثل جان فالجان وسيرانو دوبرجواك و «بول وفيرجيني» وغيرهم .

كل ذلك لم يعد موجودا في «الرواية الجديدة» التي ترفض حتى اسم «بطل الرواية» ، لان مجرد التسمية تعني ان الرواية تمركزت وتمحورت حول هذه الشخصية الواضحة ، وهذا ما لم يعد ممكنا ، فعالمنا فقد مركزه منذ أمد بعيد وأصبحنا نعيش في زمن متحرك متغير لا يسمح بتشكيل افكار واضحة ومحددة حتى عن شخصيات البشر . وحتى لو كان ذلك متيسرا ، فالرواية يجب الا تقدمه جاهزا .

(٢٣) نفس المصدر ص ٥٩

لقد فقدت الشخصية الروائية ملامحها ووحدتها واحيانا اسمها . اصبحت «فتات شخصية» صعبة التعريف والتحديد . «فالشخصية الرئيسية هي «أنا» مجهولة أو غامضة ، والشخصيات الثانوية ليست سوى رؤى واحلام وكوابيس وأوهام وانعكاسات أو ملحقات بها» [٢٤] وجميع هذه الشخصيات عرضة لتبدلات غير معللة ، فهي تغير مظهرها وسنها ومهنتها وجنسيتها لدرجة انها تصبح «اطارا فارغا لمحتوى متغير» [٢٥] .

ان رواية الشخص، برأي روب غرييه [٢٦] ، تنتمي الى الماضي، الى فترة تميزت بسيطرة الفرد وتميزه ، بينما عصرنا الحاضر يتميز برقم التسجيل .

هل يعني ذلك ان «الرواية الجديدة» تهمل الناخية النفسية او تلغيها ؟ ان القارىء هو من يقرر ذلك ويجيب عليه من خلال المعطيات والمعالم التي يقدمها له الكاتب .

د ـ الموضوع

كما حدث مع شخصيات الرواية ، فان موضوعها تفتت بدوره . والتفتيت يستتبع التبعثر . فلالتقاط الفكرة ، أو الافكار ، التي يطرحها الكاتب ، علينا لملمة فتاتها من مختلف جوانب وزوايا العمل الروائي . وهذه العملية ليست سهلة بالطبع . ذلك ما يعيدنا الى الجهد المنتظر من القارىء .

ان كثيرا من «الروايات الجديدة» تبدو كتشكيلات لافكار او مواضيع دائمة التغير ، فالفكرة لم تعد تتوسع فيها حسب مسلسل زمني أو استنادا الى سببية نفسية أو وظيفية ، بل تستخرج اجزاؤها تباعا حسب قوانين التشابه والتناقض والتجمع والتبادل .

هذه الروايات لا تقدم اذن معاني جاهزة يتسوقها القارىء بيسر وطمأنينة ، بل تضعه في نوع من متاهة التي يتطلب اجتيازها كثيرا من الجهد والوعي واليقظة ذلك ما يدفع حتى ببعض كبار النقاد عن انكار أي بعد فكري أو «موضوعي» لها : «لم تعد الرواية مبنية على فكرة أو طرح محدد ، حتى ولا على موضوع أو قضية» [٢٧] .

تلك مبالغة دون شك ، فالمواضيع موجودة دائما وبكثرة ، ولكن في الاعماق ، واستخراجها شبيه باستخراج الافكار من الشعر المعاصر ، خاصة السريالي . نشير هنا على عجل أن احدى غايات هؤلاء الكتاب التقريب بين الشعر والرواية وردم المسافات التي تفصل بينهما .

أما نوعية الموضوعات التي تتطرق اليها «الرواية الجديدة» فهي كثيرة ومتنوعة ولكن اغلبها يتناول وضع الانسان المعاصر المرمي في متاهات المدن الحديثة مع كل ما يتفرع عن ذلك من ضغوطات ومتطلبات وردات فعل ، بينما تأخذ الرحلة مكان الصدارة ، الرحلة بكل مظاهرها وبمختلف الاتجاهات : جغرافية وتاريخية وعلمية وفنية وخيالية ، ذلك لأن الرحلة هي الموضوع الأكثر تجسيدا لاهداف الروائيين الجدد : هروب من واقع جامد واستكشاف لآفاق جديدة .

٣ ـ تقنيات التجديد

تتردد كلمة تقنية على السنة هؤلاء الكتاب للدلالة على المنهج او المنظومة (Systeme) أو الآلية (mecanisme) التي يعتمدها كل منهم في بناء رواياته . ويتبين من هذه المفردات ان تجهيز الرواية وسردها يتطلبان بيانات ومخططات وتصاميم تمهيدية تشكل اساس البناء الروائي ومادته .

---

(٢٤) J. Thoraval. N Bothorelet F. Dugast, **Les Nouveaux-romanciera, p. 83**

(٢٥) نفس المصدر ص ٨٧

(٢٦) Alain Robbe-Grillet. "Nouveau roman, homme nouveau". dans **La Revue de Paris**, Sept. 1961.

(٢٧) R M Albérès, **Histoire du roman moderne**, p. 416

قد ينكر بعضهم اللجوء الى هذه التحضيرات ، حيث يقول الان روب ـ غرييه : «قبل الرواية لا يوجد شيء» (٢٨) ، ويشرح ذلك في مكان آخر قائلا : ان دور الفن ليس تجسيد حقيقة او اجابة عن تساؤل معروفة مسبقا ، بل تقديم تساؤلات تظهر خلال كتابة الرواية». (٢٩) ولكن أكثرهم يعترفون بوجود تقنية تبنى عليها اعمالهم ، يتحدث عن ذلك ميشال بوتور في احدى محاضراته فيصرح : «لا استطيع البدء بكتابة رواية إلا بعد ان أكون قد درست تنسيقها خلال اشهر عديدة ، بعد ان اكون قد امتلكت مخططاتها . . . ثم ابدأ استكشافي مزودا بهذه الاجهزة ، بهذه البوصلة ، او بالاحرى بهذه الخارطة المؤقتة» (٣٠)

سنحاول فيما يلي القاء بعض الاضواء على الميادين التي تتناولها تقنيات التجديد .

أ ـ البنى المتحركة

اذا كان من النادر ان تقدم الرواية سردا او قصة متسلسلة ، فانها تظهر دائما كنسيج يحاك بعناية ودقة . فالروائي هو ، حسب قول ميشال بوتور (٣١) ، «ذلك الانسان الذي يدرك ان بنية معينة تتشكل مما يحيط به فيتتبع تلك البنية ويحسنها ويدرسها حتى يصبح بامكان كل انسان ان يقرأها» : لكل رواية بنية اذن ، ولكنها بنية لدنة ، قابلة للتشكل والتعديل ، فالمخططات التي يضعها الكاتب ، على اهميتها ، لا تعني تقييدا له بشكل روائي محدد سلفا أو سجنه ضمن هيكلية مسبقة . التصاميم تحدد الاطار العام الذي يتحرك الكاتب ضمنه بناء على اكتشافات يولدها النص الروائي ويمكن ان تدخل احيانا تعديلات اساسية على ما قام بتحضيره في البداية . لايضاح هذه النقطة نعود لنكمل ما يقوله ميشال بوتور في محاضراته (٣٢) : «أبدأ استكشافي ، وأبدأ مراجعتي ، لان ما تسمح باكتشافه هذه المخططات التي استخدمها والتي لولاها لم اكن لاجرؤ على بدء طريقي ، يجبرني على تطويرها . ذلك ما قد يحدث منذ الصفحة الاولى ، وما قد يستمر حتى آخر تصحيح للمخطوطة» .

هذا ما يراه بوتور الذي يبني روايته «درجات» (Degres) على استعادة احداث عدة اسابيع في مدرسة ثانوية باريسية يرويها على التوالي ثلاثة اشخاص : استاذان وطالب ، وكل بأسلوبه الخاص ونظرته المختلفة الى الامور . اما عند كلود موررياك وناتالي ساروت ، وخاصة عند روب ـ غرييه فمن الصعب جدا ، اذا لم نقل من المستحيل ، ان نجزم بوجود حقيقة واضحة محددة في أي من رواياتهم ، ذلك ان كلا منها تظهر وكأنها لعبة احتمالات او صور واشكال التغير والتبدل ، كتلك التي تظهر في آلة المشكال (Kaleidoscope) . وهم ينطلقون في ذلك من ان للحقيقة وجوها عديدة وانها تظهر في اعماق مختلفة .

ودراسة بنيوية للروايات الجديدة تظهر لنا :

ـ ان البنى التي تعتمد التسلسل الزمني للاحداث تترك مكانها لبنى تنطلق من توزع الاماكن وتعددها ، او من الاطلالة على مكان واحد من زوايا مختلفة .

ـ ان البنى المنطقية والتفسيرية تستبدل ببنى التبدل والتكرار والتبطين .

ـ انه ليس هناك من تنظيم لاحداث الرواية ، فبعض الروايات تظهر كنوع من الألعاب التركيبية التي يطلب الى القارىء ان يجمع اجزاءها المبعثرة ليعطيها الشكل الذي يراه مناسبا .

---

(٢٨) Alain Robbe-Grillet, op. cit.

(٢٩) A. Robbe-Grillet, **pour un nouveau roman,** p. 87

(٣٠) M. Butor. Intervention a Royaumont, in **Essais sur Le roman.** p. 19

(٣١) M. Butor. **Entretiens avec Georges Charbonnier,** p. 43

(٣٢) نفس المحاضرة ص ١٩٠

ـ إن النص المكتوب يصبح أهم من الاحداث المروية .

ـ ان بنية الرواية تتضمن نصوصا غريبة عنها ، مأخوذة اما من كتاب آخرين أو من أعمال أخرى للكاتب نفسه .

وهكذا فإن « الرواية الجديدة » لا تكتفي منا بالوقوف في مكان مرتفع نرى فيه ما يجرى حولنا أو بسلوك درب يفضي بنا إلى مكان يقصده كاتب الرواية التقليدية ، بل تدعونا إلى اكتشاف أحشاء الواقع ، وذلك بوضعنا في طرقات وعرة ، كثيرة التشعبات والمنعطفات لا يمكن لسالكها إلا أن يتأنى ويتمهل ويدرس ما حوله قبل أن يحدد اتجاها أو يتوصل الى محطة .

ب ـ السرد

لقد أشرنا فيما سبق إلى الفرق بين السرد التقليدي وبين الطريقة أو التقنية التي يعتمدها هذا التيار الأدبي في عرض الأحداث ، ورأينا أن مجرد استعمال تعبير « السرد » لا يتوافق مع توجهاته . ولكننا نعتمده هنا ، مع تحفظ أصبح واضحا على ما قد ينحو اليه من تسلسل للأحداث والأزمنة ، لنبين فيما يلي الاتجاهات الكثيرة والتعديلات الأساسية التي أدخلها الروائيون الجدد على هذا المفهوم .

١ ـ السرد المتساوق أو المتوازي : أوضح مثال على هذا الأسلوب هي رواية « ممر الخطاف » حيث ينقلنا ميشال بوتور بسرعة مذهلة ودون مقدمات بين أدوار المبنى الذي تدور فيه الأحداث :

« الطبيب يدق باب منزل الـراهبين . تفتح والدتها .

تنهض جرترود متثاقلة ، تجد باب المطبخ مفتوحا يا لعدم الانتباه . أم أن هناك لصا ؟ تبتسم . تتقدم نحو بقايا العيد .

مدام فيليس تفتح عينيها ، الرابيت المحور تصعد السلم . . »[33]

ان الشخصيات التي تتحرك هنا تسكن على التوالي الأدوار : الأول والخامس والثالث من المبنى . وذلك ما لا يكتشف بسهولة . ولكن الكاتب يتعمد ذلك ليطلعنا ، ليس على شريط للأحداث ، بل على أكثر عدد منها بصورة متزامنة أو متوازية .

٢ ـ السرد المتساتل[34] أو المتلاقي : تعرض الأحداث من وجهة نظر معينة ، ثم تستعاد من وجهة نظر ثانية تلتقي مع الأولى في نقطة ما من الرواية . وهكذا دواليك . وهي بذلك تشبه الأشعة التي تأتي من جهات مختلفة لتلتقي في نقطة واحدة . هذه الطريقة تتجسد عند ميشال بوتورفي « درجات » (Degres) وعند ألان روب ـ غرييه « في المتاهة » (Dans le labyrinthe)

٣ ـ السرد المتقاطع : وهو شبيه بالمتساتل ، الا أنه يختلف عنه في كون نقاط الالتقاء مؤقتة ومتعددة ، أي أن الأحداث تمر فيها لتتابع سيرها . لتوضيح ذلك نعطي مثلا « معركة فرسالا » (La Bataille de Pharsale) لكلود سيمون حيث يُعرض في البداية عدد من المواضيع أو « المحركات » ، ثم تقدم منوعات روائية تمر كل منها بهذه النقاط المحددة ـ معركة ،

---

(٣٣) Michel Butor. Passage de Milan, p. 284-285

(٣٤) يشرح ابن منظور فعل ستل، فيقول . «والستل من قولك : تساتل علينا الناس ، أي خرجوا من موضع واحداً بعد آخر تباعاً متساتلين وتساتل القوم جاء بعضهم في أثر بعض . . » لسان العرب ، جزء ٢٢ ، طبعة دار المعارف بمصر . نعني بالتساتل إذن تتابع احداث تروي كلياً أو جزئياً على ألسنة شخصيات مختلفة ثم يتم التقاء جمعها أو تكملتها

محارب ، آلة ، قيصر ، رحلة ـ فيتولد عن ذلك « منظومة متحركة يعاد تشكيلها باستمرار حول نقاط ثابتة أو مراكز التقاء » .[٣٥]

٤ ـ السرد المتناسخ : حيث تتعدد روايات قصة واحدة بشكل ينسخ بعضها بعضا ويجعلنا نشك بحقيقة ما يجرى ، ونتردد كثيرا قبل اعتماد رواية ما ، حتى إننا ننهي قراءة الكتاب دون أن نتأكد مما حصل بالفعل . هذه التقنية هي التي تعتمدها ناتالي ساروت في روايتها « مارترو (Marterau) التي تعرض لنا أحداثا تروى بأربعة أشكال مختلفة ، ولعل هذا الأسلوب مستوحى من قاعات المحاكم حيث يتقدم كل من المحامين والشهود برواية تختلف عن الأخريات .

٥ ـ السرد المتماوج : يتحدث كلود سيمون عن هذا النمط من السرد فيقول : « ان روايتي التي تحمل عنوان « قصة » (Histoire) يمكن أن تصور بشكل عدة خطوط متعرجة يختلف طول موجتها وتتراكض أحيانا فوق وأحيانا تحت خط متواصل . . . وهي تظهر وتختفي وتتلامس وتتقاطع وتتداخل أو تتباعد . والخط هو في الواقع عبارة عن قوس بشعاع كبير ، عن دائرة تعود الى نقطة انطلاقها (الراوي المستلقي على سريره) بينما تقصر فترات تماوج الخطوط المتعرجة شيئا فشيئا ، وتتداخل ذراها أو تتلاحق بإيقاع يسرع شيئا فشيئا »[٣٦]

٦ ـ السرد اللولبي : ينطلق الكاتب من نقاط محددة ليوسع بحثه الحلزوني عن خلفيات أحداث معينة . وسواء أكانت هذه الخطوط اللولبية ارادية ـ كما يحصل في رواية « استعمال الوقت » (L'Emploi du temps) التي يحاول فيها الراوي استرجاع أحداث سنة من حياته ـ أم تواردية ـ كما هي الحال في « التعديل » (La modification) حيث يتوصل في نهاية رحلته الى نتيجة مغايرة تماما لما كان يتوقعه ـ فانها تنطلق من مراكز متعددة ومتحركة ، وتتداخل وتتشابك لدرجة يصعب فصلها ، ولكنها تعكس مسارا فكريا وبحثيا جديرا بالاهتمام .

٧ ـ السرد التشكيلي : وهو يعتمد على « وضع البطل » في مواجهة العالم الموضوعي وتصوير هذا العالم وهو ينهار أمام عينيه (واعيننا) ليعاد تشكيله بصورة مختلفة وبشكل أفضل[٣٧] هذه التقنية هي التي يعتمدها كلود مورياك في « خرجت المركيزة الساعة الخامسة (La Marquise sortit a cinq heures) حيث يستعرض المارة في احدى ساحات باريس ، مستشرفا ما في أذهانهم وجاعلا أفكارهم « تطفو وتتلاقى وتذوب وتتمزق وتتكون من جديد كالغيوم في السماء »[٣٨] .

٨ ـ السرد المتداخل أو المزجي : هنا تبلغ اللعبة أوجها ويصبح السرد خليطا والقراءة اعادة تركيب . يشبه ميشال بوتور بعض نصوصه بـ « طبق سلطة » وألان روب ـ غرييه بعض رواياته بـ « خلط ورق اللعب » . وكما يتبين من الاستعارتين فان التقنية تكمن هنا في تجهيز نصوص عديدة ثم تفكيكها وتوزيع أجزائها على أقسام وفصول وصفحات الرواية ، ويفترض بالقارىء أن يحدد نهايات الجمل وبداياتها كي يتمكن من اعادة وصل أجزائها وتشكيل نصوصها . ذلك ما يعتمده كلود سيمون في « صلاة الموت » (Le Libera) وكلود مورياك في « العشاء في المدينة » (Le Diner en ville) وروبير بينجيه في

---

(٣٥) Claude Simon, "La Fiction mot à mot," dans **Nouveau Roman, Hier, aujourd'hui, II, pratiques**, p. 94.

(٣٦) نفس المصدر والصفحة .

(٣٧) Claude Mauriac, **Le diner en ville**, p. 69

(٣٨) R-M. Albérès. **Métamorphoses du roman**, p. 419.

« أحد هم » (Quelqu'un) وألان روب ـ غرييه في « الغيرة » (La Jalousie)

ج ـ الزمان والمكان :

نستخلص مما تقدم أن بنية الرواية وطريقة عرضها أو سردها تعكسان التقطع والتفتت والتمازج وهذا ما يمثله في نفس الوقت مفهوم الزمان والمكان اللذين لا يظهر منهما في الرواية سوى نقاط ، سوى لمحات أو معالم متفرقة متباعدة تحاول القراءة ان تعيد اليها التواصل والتوحد .

وبما ان « الرواية الجديدة » تنطلق من اعادة نظر بالمفاهيم الروائية ، فمن الطبيعي ان يتغير فيها مفهوما الزمان والمكان بدورهما ، متأثرين على الأرجح بنظرية اينشتاين النسبية من أن الزمن لا يجري بنفس السرعة في جميع الظروف . « المحيط الذي نعيش فيه لم تعد تنطبق عليه نظرية اقليدس بأن لكل مكان تميزه واستقلاليته عن الأمكنة الأخرى . فكل مكان هو ملتقى لآفاق أماكن أخرى ، هو نقطة ارتكاز لسلسلة من التنقلات الممكنة التي تمر في مناطق محددة أولا . في المدينة التي أسكنها توجد مدن أخرى كثيرة ، من خلال وسائط عديدة : لوحات الاعلانات ، وكتب الجغرافيا ، والأشياء المستوردة منها ، والجرائد التي تتكلم عنها ، والأفلام التي تصورها ، والذكريات التي يحملها البعض منها ، والروايات التي تجعلنا نتجول فيها »[٣٩] ، عدا عن وسائل النقل والاتصال التي تنقلنا اليها بسرعة فائقة .

هذا التداخل في الأمكنة هو بعض ما يحاول الروائيون الجدد التقاطه وتصويره . يكتب ميشال بوتور في نفس المقال : « اذا استطعنا ان نصور هذه الأماكن بديناميتها ، اذا تمكنا من ادخال التنقلات والتداخلات والابعاد والسرعة التي تصل بينها ، فكم يصبح عملنا عظيما وعميقا عند ذلك »[٤٠] .

والشيء نفسه ينطبق على الزمن ، فكم هي اللحظات التي نعيشها صافية ، دون ذكريات أو أحلام أو توقعات أو حتى تخيلات وأوهام ؟ أضف الى ذلك الأزمنة الأخرى التي تجعلنا نعيش فيها ، ولو لفترات قليلة ، كتب التاريخ والروايات والمطبوعات والأفلام ـ تاريخية أم وثائقية أم خيالية ـ والأزياء وغيرها . « نحن لا نعيش انسياب الزمن أو مسيره ، بل نعيشه متقطعا . ان كل قطعة منه تبدو لنا موجهة ، ذات مدة معينة ، ومتوجهة نحو قطع أخرى ، ولكنها تبدو لنا دائما كقطعة ، ترسم فوق نسيج من النسيان أو عدم الانتباه . فلكي نستطيع دراسة الزمن في استمراريته ، أي لكي نستطيع اظهار ثغراته ، من الضروري ان نطبقه على مسافة مكانية ، ان نعتبره مسارا أو مسافة »[٤١] .

لتجسيد هذه النظرة الى الزمان والمكان ، يعتمد هؤلاء الرواة مجموعة تقنيات نوجزها بما يلي :

ـ تقريب ومجاورة وموازاة الأزمنة والأماكن ، وذلك ما يضع القارىء في جو متواقت ومتعدد الأماكن بدل وضعه أمام تسلسل زمني للأحداث ضمن مكان واحد أو أماكن متلاحقة .

ـ عملية الانتقال الفوري من منطقة أو لحظة لأخرى ، أو من الواقع الى الخيال ، تتم دون مقدمات

---

(٣٩) Michel Butor, l'Espace du roman, dans Répertoire II, p. 49.

(٤٠) نفس المصدر ص ٤٨ .

(٤١) M. Butor, Essais sur le roman, p. 119.

ودون استعمال أي من التعابير الطرفية الممهدة لذلك . من النادر جدا أن نجد مثلا . « في ذلك الوقت ، أو « حينذاك » ، أو « قبل ذلك » أو بعده ، أو أية كلمة قد تحدد زمنا أو مكانا بالنسبة لآخر .

ـ إلغاء البداية والنهاية التي قد تسمح بتحديد دقيق لأية فترة أو وصف مكاني .

ـ الإكثار من استعمال المضارع الذي يخلق نوعا من اللازمنية ، ومن الحال والمصدر اللذين يضعان الأحداث خارج اطار الزمن .

ـ جعل الأشخاص يتحركون في أماكن متشابهة يصعب التميز بينها ، وذلك ما يعكس الجو المتاهي لكثير من المدن الحديثة .

لا شك أن القارىء قد لاحظ شيوع المفردات الهندسية فيما سبق وذكرناه ، وذلك ليس صدفة بل هو نابع من صميم توجهات هذا التيار الأدبي . « ان محاولة تطبيق الصور الهندسية على المحيط الذي نعيش فيه يسمح لنا بكشف كل خصائص هذا المحيط ، التي لا نعيرها عادة الاهتمام الكافي .

هكذا نتوصل بمنهجية الى اكتشاف كثافته وتوجهاته وأشكال تأثير مختلف الأماكن على بعضها . . . ثم ان كل انتقال من مكان لآخر يقتضي اعادة تنظيم للبنية الزمنية ، تغيرات في الذكريات أو المشاريع في ما يأخذ مكان الصدارة ، ما يصبح أعمق أو «أهم» .[٤٢]

د ـ التهافت والتوالد

اذا كان الزمن قد فقد وحدته واستمراريته وتحول الى فتات ، واذا كان المكان قد فقد خصوصياته واستقلاليته وأصبح نقطة وصل ـ أو جدار فصل ـ بين أماكن أخرى ، فذلك لأننا نعيش في عالم مفكك يحيط كل بلد فيه نفسه بأسوار منيعة من الاجراءات والتعقيدات التي تمنع الدخول اليه الا بعد صعوبات واستثناءات ، ويجهد كل شعب في نبش أساطيره الخاصة وتكريس أبطاله الوطنيين ، ويكاد الانسان يسلم زمام أموره للآلة تجرى تحته وفوقه ، وتجرى به الى مصير مجهول . في عالمنا هذا ، وفي الغرب منه خصوصا ، طال التفكك أفراد المجتمع الواحد فتقوقع كل منهم ما بين منزله وعمله ، حتى كاد التواصل ينعدم بينهم اذا استثنينا بعض عبارات المجاملة أو التعامل اليومي .

مقابل هذا الجو العام الذي تطرح فيه تساؤلات كثيرة حول الماضي والحاضر والمستقبل ، يلعب الفن عموما ، والأدب خصوصا ، دور التقريب والتواصل ، تلعب الكلمة ـ مقروءة ومسموعة ـ والصورة ـ مرسومة أو متلفزة ـ دورا حاسما في التأثير . هنا يطرح « الروائيون الجدد » تساؤلا أساسيا حول موقع الرواية ودورها ضمن وسائل الاعلام وأدوات الثقافة : هل يمكن لنص متماسك أن يعبر عن هذا الواقع المتهافت ؟ وهل يمكن لرواية متسلسلة أن تستمر في لعب دور مؤثر بين وسائل الاعلام الحديثة بتقنياتها المتطورة وصورها وشعاراتها ويافطاتها ؟

لقد كان للرواية التقليدية ، يجيب هؤلاء ، دور لعبته في فترات طويلة من تاريخ الأدب . ولكنها لم تعد اليوم كافية أو مؤهلة للمنافسة في ميداني تصوير الواقع وتغييره . من هنا جاء تهافت النص كرمز لشكل روائي تجاوزه الزمن أولا ، ولتصوير للواقع المفكك ثانيا ، وللابقاء على دور الرواية كنوع أدبي ثالثا ، ولدعوة القارىء الى المشاركة في بناء نص مستقبلي جديد أخيرا .

(٤٢) نفس المصدر ص ١٢٠ ـ ١٢١

تهافت اذن على طريق التوالد ، ليس تدميرا ، بل بناء . وليس ثورة بل تغييرا مُعَقلناً لا يقتصر فيه الدور على الموهوب والعبقري ، بل يمكن لكل انسان أن يساهم فيه .

ولكن ، كيف يتوالد النص ؟

لقد لمحنا سابقا الى أن الكاتب يستعيد موقفا أو حدثا أو حتى جملة ، ذكرها سابقا ويعيد روايتها أو عرضها بتعديل بعض أجزائها . وقد يلجأ أحيانا الى اعتماد كلمة أو أكثر كنواة للنص ، ثم يقوم بتوليدها ، وذلك بابدال بعض حروفها أو تغيير أماكنها ، مع ما يفتحه ذلك من آفاق أمام النص وتعديله وتطويره . قد يبدو ذلك لعبا على الكلمات للوهلة الأولى ، ولكن بعض هؤلاء الكتاب توصل فعلا ، من خلال هذه التقنية ، الى ايجاد نصوص غنية وعميقة ومفيدة . أما طريقة التوالد الأكثر اعتمادا فهي اللجوء الى نصوص كتاب آخرين ، قدماء ومحدثين ، أجانب أو فرنسيين ، واقتطاع أجزاء منها يدخلها الكاتب ضمن نصه . ذلك ما يجعل القارىء يطلع على أكثر من نص في آن واحد ، وما يحفزه على الرجوع الى الكاتب المأخوذ عنه ، للاطلاع على النص الكامل ، أو لقراءة أعماله أو بعضها . ولكي لا يبدو الأمر وكأنه سرقة أدبية ، فإنهم غالبا ما يقدمون النص المقتطع بطريقة لافتة للنظر ، وذلك بوضعه بين معترضتين أو بطباعته بحرف يختلف عن الحرف المطبعي للرواية .

يتبين لنا اذن أنه ، قبل « الرواية الجديدة » ، كانت السمة الشخصية للابداع هي الغالبة ، عند الكاتب ، وان هذا التيار جعل ميدان الأدب بكامله ، أنواعا وكاتبا وقارئا ، يشارك في بناء الرواية ، ففتح النص أبوابه أمام النصوص الأخرى والاضافات الممكنة ، عن ذلك يقول جان ريكاردو : « ان على الكاتب ان يأخذ بعين الاعتبار العلاقات المعقدة التي يمكن لكل مقطع من النص ان يقيمها مع النصوص الأخرى . وهذا ما يخرجه من عزلته »(٤٣)

هـ - تقنية المصغرات

تعمد « الرواية الجديدة » اذن الى تفكيك النص وتفتيته ، وعرض الأحداث بطرق وأساليب متنوعة ، وهي تهدف من وراء ذلك ، اضافة الى ما ذكرنا ، لتقديم الواقع المعاش بحركيته وغموضه ، ليس كحكاية ، بل كلغز يثير الفضول ويحفزه باتجاه التغيير والتحسين . من هنا نشأ فيها ما نسميه « تقنية المصغرات » (La mise en abyme) التي ترتبط من خلالها بالرواية البوليسية وتجعل منها نوعا من متحف هادف يضم لوحات ونقوشا وكتبا ويعرض أفلاما وثائقية تساهم جميعها بالقاء أضواء على الأحداث والأماكن والأشخاص .

سنتطرق بعد قليل الى علاقة الرواية بالفنون الأخرى ، ولكننا نكتفي هنا بالقاء نظرة سريعة على طبيعة هذه المصغرات ودورها في الرواية .

أما هذه المصغرات فهي : الرواية البوليسية ، الكتب ، الرسم والتصوير ، المنحوتات ، المقطوعات الموسيقية ، الأفلام السينمائية والوثائقية . وأما دورها فهو أن تشكل « نماذج مصغرة ومشابهة » لبعض أو لكل ما تمثله الرواية ، وان تكون عبارة عن معدات الاستكشاف وعن العبارات السحرية التي تسمح بايجاد طريق الخروج من المتاهة .

لقد شرح أغلب الروائيين الجدد طريقة استخدامهم لهذه المصغرات ، ولكن أكثر من ركز عليها هو جان

(٤٣) Jean Ricardou, Problèmes du Nouveau Roman, p 36.

ريكاردو الذي خصص لها فصلا من حوالي ثلاثين صفحة في كتابه « الرواية الجديدة »[٤٤] . وفصلا من عشرين صفحة في « مسائل الرواية الجديدة »[٤٥] .

في خضم أحداث الرواية ، نجد الكاتب يتوقف أمام أحد الأعمال الفنية والأدبية التي ذكرنا ، محللا أو عارضا ، ونجد أن ما يقدمه العمل متساوق أو مواز أو متمم أو مناقض لما في الرواية التي ما نكاد نعود الى مجرياتها حتى تطالعنا مصغرات أخرى تلعب نفس الأدوار ، وهكذا دواليك .

يرى جان ريكاردو في هذه التقنية نوعا من النرجسية ، وفي القصص المعترضة التي تقدم من خلالها مرايا للشخصيات والأحداث ومعالم توجيه للقارىء .

لإيضاح هذه التقنية نعطي مثالا من رواية ميشال بوتور « استخدام الوقت (L'Emploi du temps)»[٤٦] التي يحاول فيها شاب فرنسي ، بصعوبة كبيرة ، أن يسترجع أحداث سنة تدريبية أمضاها في مدينة انكليزية . وتنشأ هذه الصعوبة في الدرجة الأولى عن أن تلك المدينة تبدو له عبارة عن متاهة هائلة تكثر فيها الحرائق التي تلتهم كثيرا من أبنيتها ، بخاصة مراكز التسلية فيها ، بالرغم من أمطارها التي تهطل بصورة شبه مستمرة وتزيد بالتالي من مظهرها المتاهي . ما يساعد هذا الشاب على استعادة الأحداث وتشكيل صورة واضحة عن المدينة :

ـ مجموعة رسومات على زجاج كاتدرائيتها تمثل قصة قابيل وهابيل والتي يقول عنها في نهاية الرواية : « زجاجيات قابيل ، تلك العلامة الكبرى التي نظمت كل حياتي خلال سنتنا هذه » . المصغرة الأولى تجعل المدينة مبنية على جريمة قابيل ، وذلك ما يحيلها جحيما يكون فيه النار والماء عنصري التعذيب الاساسيين .

ـ فيلم وثائقي عن البحر الميت يعرض في احدى دور السينما ويدرج المدينة البريطانية مع سدوم وعمورة ضمن قائمة المدن الملعونة .

ـ مجموعة من ثماني عشرة لوحة « تروي جميعها حكاية تيزيوس (Thesee) معروضة في متحف المدينة » ، وهي توازي بالطبع بين ضياع البطل الاسطوري في متاهة كريت ووضع الشاب الفرنسي الذي يحمل اسم جاك ريفل .

ـ لوحتان اخريان ، منقوشتان بالصدفة على طاولة الغرفة التي استأجرها ، «مركب على شاطيء اوقيانيا وملك مخلوع ، هارب متدثرا بمعطفه ، خلال غابة كثيفة مليئة بذئاب تلمع اعينها»[٤٧] .

ولا يخفى ما للصورة الأولى من دلالة اغترابية وللغابة من دلالة متاهية .

ـ افلام سينمائية عديدة تصور روما والشواطيء اليونانية ومدنا شرقية منها اسطنبول وبعلبك . منارات خلاص تلمع من بعيد .

ـ رواية بوليسية واقعية يطالعها الشاب ثم يتعرف ، بعد سلسلة من المصادفات ، بكاتبها ـ الذي يتعرض لمحاولة اغتيال ـ وبشخصياتها . يتكلم الشاب عن هذه

(٤٤) J. ricardou. le nouveau Roman, PP. 47-74
(٤٥) J. Ricardou. Problemes du Nouveou Roman, PP. 171 — 190
(٤٦) Michel Butor, l'Emploi du temps, p. 295
(٤٧) نفس المصدر ، ص ٥٢

الرواية ذات العنوان اللافت للنظر - «اغتيال بلستون» (اسم المدينة) - فيقول : «لقد وجدت في كاتبها سندا لي ضد هذه المدينة، ساحرا تعود على هذا النوع من المخاطر، واستطاع ان يمدني باصناف قوية من السحر ليساعدني على تحديها، ليساعدني على ان اخرج منتصرا من هذه السنة، من هذه الاقامة التي لم اكن ادرك وقتها كم هي خطرة وسامة، وكم يتطلب التغلب عليها من جهد وصبر»(٤٨).

نكتفي بهذا القدر من المصغرات التي تحويها الرواية - مثلها في ذلك مثل كل «الروايات الجديدة»، لاعتقادنا بانها تعطي فكرة عن الدور الذي تلعبه، مشيرين الى ان التركيز على الرواية البوليسية يعود الى جو الغموض والحيرة الذي يكتنفها والى حفزها القارىء للمشاركة في ايجاد الحل أو تصوره، وذلك ما هو من أساسيات «الرواية الجديدة».

و - قصة الرواية :

الرواية بحث واستكشاف، لقد ذكرنا ذلك مرات عديدة. ولكننا نستعرض هنا كيف تقدم «الرواية الجديدة» قصة ومراحل كتابتها. «الرواية ليست نتيجة البحث، بل هي البحث بذاته، يقول مؤلفو كتاب «الروائيون الجدد»(٤٩)، «الرواية هي مغامرة الرواية، وعلى القارىء أن يشترك بهذه المغامرة». والمثل الذي سبق وقدمناه يبين ذلك. نضيف هنا ان جاك ريفل يروي لنا مراحل وصعوبات الكتابة، ومن خلال ذلك يقص علينا الاحداث التي يتذكرها من سنته الإنكليزية. يقول مثلا في بداية الفصل الثالث :

تموز، ايار

الثلاثاء أول تموز (يوليو)

لذلك أجد نفسي مجبرا على أن أوقف النظام الذي كنت أتبعه منذ شهر في حكايتي، مازجا بانتظام كل أسبوع مع ذكريات نوفمبر ملاحظات عن الأحداث الراهنة، النظام الذي كنت أتبعه مساء ذلك الاثنين الذي ادخلت فيه خلال الصفحات التي تستعيد الخريف البعيد بيانا عن سهرة اليوم السابق، خلال تلك الصفحات التي كنت أحاول فيها، لكني أوصل جهد التوضيح والتنقيب الى غايته، ان أزاوج بقدر ما أستطيع من الأمانة، بين تتابع الأيام القديمة واستعادة أحداث أمسية الأحد، الأول من نيسان، عند آل بايلي، التي ظهرت مجددا خلالها نسخة «اغتيال بلستون» التي كنت قد أعرتها إياها منذ زمن طويل. بعد أن استعدتها من جيمس، تلك النسخة التي كنت اعتقد انني اضعتها لانني نسيت انها لم تعدها لي، تلك النسخة التي حلت مكانها أخرى توجد الآن على زاوية طاولتي اليسرى. .»(٥٠)

ان هذا جزء يسير من تشابك وتداخل الأحداث في ذهن الكاتب الذي يحاول بصعوبة بالغة ان يتلمس طريقه بينها، وان يختار منها عادة ما يراه مناسبا. ولكن «الروائيين الجدد» لا يختارون بل يقدمون تجربتهم كما هي، بكل ابعادها وتعقيداتها، وهكذا، فان الكتاب، بدل ان يقدم رواية لقصة، يجعلنا نعيش قصة الرواية. «فالرواية هي الميدان الظواهري المثالي، هي المكان الذي ندرس فيه بأية طريقة تظهر لنا الحقيقة او يمكن ان تظهر لنا، ولذلك فان الرواية هي مختبر القصة»(٥١).

الحكاية تتشكل اذن امام اعيننا، وينقل عملية الشكل كاتب يتمنع اراديا عن لعب دور الواعظ او

---

(٤٨) نفس المصدر ص ٥٧ .

(٤٩) J. Thoraval, N. Bothorel, F. Dugast, Les Nouveaux romaniers, p. 42

(٥٠) M. Butor, l'Emploi du temps, p. 133

(٥١) M. Butor, Essais sur le roman, p. 9

العالم او الفيلسوف، مكتفيا بالبحث والتنقيب عن حقيقة ما، وداعيا ايانا لمواكبته في تلك العملية. ومع ان بعض النقاد يرون ان «الكاتب لم يعد يكتب روايته بناء على تصميم مسبق، بل ان الرواية هي التي تقود مؤلفها وتملي عليه موضوعها وقصتها»[٥٢] فذلك لا يقلل من اهميتها البحثية والاختبارية.

ز ـ الرواية والضمائر

من أبرز تقنيات التجديد في هذا التيار الادبي، التغيير الذي طاول دور الضمير (بالمعنى اللغوي) في الرواية، فلقد درجت العادة، كما نعلم جميعا، ان يكون البطل الحقيقي للرواية ضمير المفرد الغائب «هو» أو «هي» الذي يمثل بالطبع الشخصية الاساسية في القصة التي تروي، ونادرا ما يستبدل هذا الضمير بالمتكلم المفرد «انا» عندما يتعلق الأمر بسيرة ذاتية أو بمذكرات أو بتقمص الكاتب لشخصية بطله.

ولكن، رغبة في صدم القارىء وحفزه على المشاركة من خلال ادخاله في صلب ما يجري، فلقد تخلوا في الغالب عن ضمير الغائب، وفي المرات النادرة التي ابقوا فيها عليه، جعلوه متحركا مبهما بشكل يجعل القارىء يتردد كثيرا قبل ان يقرر، وأحيانا لا يستطيع التقرير الى أي من الشخصيات يعود هذا الضمير.

بدلا عن ذلك، لجأ ميشال بوتور في «التعديل» (La Modification) الى ضمير المخاطب، بادئا روايته كما يلي:

«لقد وضعت قدمك اليسرى على المزلق النحاسي، وبكتفك الايمن تحاول دون جدوى ان تدفع باب القاطرة المتزلق: تدخل من الفتحة الصغيرة وانت تحتك بجانبها، ثم، حقيبتك المغطاة بجلد حُبيبي قاتم ذي لون قنينة سميكة، حقيبتك الصغيرة كرجل معتاد على الاسفار الطويلة، تنتزعها بمقبضها اللزج، باصابعك التي سخنت ...»[٥٣]

عن ضمير المخاطب هذا، يتحدث كاتب الرواية فيقول: «عندما يكون هنالك شخص تروى له قصته الذاتية، او شيء عن نفسه لا يعلمه او على الاقل لا يعرفه بعد على مستوى الكلام، عندها تروى حكاية بضمير المخاطب، وتكون دائما حكاية «تعليمية» ... وهكذا، ففي كل مرة نريد ان نصور تقدما للوعي، وتشكلا للكلام او لكلام ما، يكون ضمير المخاطب هو الانسب»[٥٤].

نبقى قليلا مع هذا الكاتب لكونه، مع جان ريكاردو، اكثر من توسع في شرح تقنيات «الرواية الجديدة» وننتقل معه الى الضميرين الاخرين:

«الـ» هو «يتركنا في الخارج، والـ «أنا» يوصلنا الى الداخل، ولكنه يكاد يكون داخلا مغلقا مثل الغرفة السوداء التي يظهر فيها المصور سلبياته. هذه الشخصية لا يمكنها ان تخبرنا ما تعرفه عن نفسها»[٥٥].

يعود بنا هذا المقطع الى المتكلم الذي يبدو عاجزا عن تلبية تطلعات هؤلاء الكتاب. ولكن، لكونه ضروريا لحمل تجربة الروائي ومغامرة الكتابة، فانهم يحاولون اخراجه من غرفته السوداء. وذلك بجعله متعددا، مترددا، مشتتا او تائها، ويكون في كل الاحوال «جمعا بصيغة المفرد» بالاذن من ادونيس.

(٥٢) Pierre de Boisdeffre, **Où va le roman?** p. 233
(٥٣) M. Butor, **La Modification.**
(٥٤) M. Butor, **Repertoire,** PP. 66-67
(٥٥) M. Butor, **Essais sur le roman,** p. 122.

لقد سبق واشرنا الى روايات [٥٦] يسرد فيها الاحداث اكثر من شخصية روائية تعرف كل منها عن نفسها بـ « انا » ، مما يوزع نفس الضمير عليها جميعا ويفتحه بالتالي امام احتمالات جديدة ، كما وجدنا ، احيانا اخرى[٥٧] ، ان الاحداث تروى من قبل شخصية واحدة بأشكال متعددة ، مما يجعل من الـ « انا » مترددة وزئبقية ، ومرات اخرى [٥٨] تتشتت وتتعمم لتصبح ضائعة مبهمة ، ولكن قابلة لاحتواء عدد لا متناه من الشخصيات .

هكذا يتعدل دور الضمائر ويتوسع ، اذ ان « لعبة الضمائر لا تسمح فقط بتمييز الشخصيات بعضها عن بعض ، بل هي ايضا الوسيلة الوحيدة المتاحة لنا لكي نميز بدقة مراحل الوعي او الكمون التي تشكل كلا منها ، وان تحدد امكنتهم بين الاخرين وبيننا »[٥٩] .

« الرواية الجديدة » هي اذن حركة اعادة نظر بالرواية التي اعتدنا قراءتها ، اعادة نظر من مختلف الجوانب : الكاتب والموضوع والابطال والتقنيات ، جعلت من عملية الكتابة همها الاول وموضوعها المفضل ، جاهدة بذلك تحرير الرواية من قيود فرضت عليها لأمد طويل : وحدة الزمان والمكان والموضوع . ولما كانت عملية التحرير هذه قد طاولت ، من قبل ، الانواع الادبية والفنية الاخرى ، وخاصة المسرحية والشعر ، فان احد الاهداف الرئيسية كان تقريب هذه الانواع من بعضها وفتح الحدود التي تفصلها عن بعضها .

لقد ارادت ان تثبت ان مفاهيم « الالهام » و « اسرار الابداع » ليست وحدها القادرة على الانتاج الادبي ، وان كل نوع ادبي وفني يحتاج ، لكي يستمر الى تطور مستمر ، وان الادب والفن يجب ان يتجها نحو التلاقي والانتاج المشترك .

٤ ـ الرواية والفن :

« ان كتاب « الرواية الجديدة » هم فنانون قبل كل شيء ، يتأثرون بما يجرى داخلهم ومن حولهم ، وينتبهون لما يتغير في فكر وحياة معاصريهم . وتلاؤما مع هذا التغيير ، يحاولون ايجاد اشكال فنية جديدة ، وآخــذين بالاعــتبــار ما هو موجــود وعــامــلين على تطويره »[٦٠] .

هذا ما يقوله احد اعنف الخصوم الذى نجده مضطرا للتسليم باهمية هذا التيار الفنية والتجديدية . وسنحاول هنا ان نستعرض علاقته ببقية الفنون ـ غير الادبية ـ مفردين للشعر مكانا مستقلا .

أ ـ الرواية والرسم

يدرك هؤلاء الروائيون عمق الروابط بين الرواية والرسم ، او بالاحرى بين الرسم والكتابة بشكل عام . واذا كان كل عمل روائي او شعرى ، او حتى مسرحي ، يحرص ، منذ القدم ، على تكوين صور ذهنية لدى القارىء من خلال استعارة او كناية او مجاز وما الى ذلك من صور شعرية وبيانية . واذا كان كثير من الكتاب قد افسحوا في اعمالهم الروائية او الشعرية

---

(٥٦) «درجات» (Degres) مثلا لميشال بوتور .
(٥٧) «مارترو» (Martereau) لناتالي ساروت .
(٥٨) المتلصص (Le Voyeur) آلان روب ـ غرييه .
(٥٩) M. Butor. Essais sur le roman, p. 123
(٦٠) Jean-Bloch Michel. Le Présent de l'indicatif, p. 43-44

مجالات واسعة لروائع الفن ، واذا كان كثير من الاعمال الادبية قد ارتبط عضويا بلوحات فنية [٦١] ، واذا كان تداخل جميع انواع الفنون قديما قدم الفن ذاته ، فان ما حاول الروائيون الجدد اضافته في هذا الميدان هو التفاعل العضوي بين الرواية والرسم ، بمعنى الاستفادة من تقنيات هذا الفن في طريقة الكتابة .

واول ما يلفت نظرنا بهذا الخصوص ان التعابير التي استعملت عند تفصيل تقنيات السرد تنتمي في غالبيتها الى مفردات الرسم . وهذه العبارات لم ترد بالمصادفة ، وانما بالتقاء الفنين :

« عندما يركز الروائي منصب الرسم او آلة التصوير في نقطة ما من البعد الذي يصوره ، فانه سيواجه كل مشاكل التركيز والتركيب والبعد التي يواجهها الرسام ، وسيكون عليه ، مثل هذا الاخير ، ان يختار واحدة من طرق عديدة ليعبر عن العمق ، واحدى اسهل هذه الطرق هي التنضيد الجلي لعدد من المشاهد الجامدة »[٦٢] .

التقنية اذن هي نفس ما يستعمله الرسام والمصور ، وهي ترافق كاتبا لرواية في جميع مراحل كتابته ، فكثيرا ما تكون اللوحة هي البداية ، اذ ان الان روب ـ غرييه الف رواية « الاسيرة الجميلة » (La belle Captive) من خلال مجموعة من لوحات الفنان ما غريت ، بينما يحدثنا كلود سيمون عن بعض رواياته فيقول في مقدمة « اوريون الاعمى » (Orion Aveugle)[٦٣] : « هكذا ولدت « طريق الفلاندر (La Route des Flandres) و « القصر » (Le palace) و « حكاية » (Histoire) والقصة التي سنقرأها ، ولدت من رغبة وحيدة ، هي ان « أخترع » شيئا من خلال بعض الرسوم التي احبها » .

يشرح ميشال بوتور هذه العملية فيقول : « تحيرني لوحة ما ، اعود اليها ، اريد ان انتزع سر قدرتها . ما الذي يعرفه هذا الرجل او اولئك الرجال ، واجهله انا ؟ ولذلك احاول ان اضع نفسي في مدرستة ، في مدارسهم ، حتى اجد بغيتي ، عندها يتملكني شعور رائع . وكل اكتشاف، كل حل للعز يولد سحرا جديدا، فالروائع فيها دائما ينابيع لا تنضب، ثم انني لا اتوصل لان اوضح لنفسي الاشياء الا عندما اوضحها للآخرين »[٦٤] .

ما ان نتساءل : ولماذا الرسامون بالتحديد ؟ حتى يجيب الكاتب نفسه بكل تواضع : « ان الرسامين يعلمونني كيف ارى واقرأ وأؤلف ، وبالتالي كيف اكتب ، كيف اوزع المعالم على الصفحة . . . اننا نعيش اليوم عصر تنسيق الكتاب »[٦٥] ولقد ذهب ميشال بوتور بتنسيق الكتاب الى درجة انه طبع « السهم المرتد » (Boomerang) بثلاثة الوان : ازرق واحمر واسود ، ووزع الاسطر على الصفحات بشكل مستطيلات ومربعات ، وجعل الهوامش احيانا في اعلى الصفحة ، واحيانا في وسطها ، واحيانا في اسفلها ، مما يدفع بالقارىء الى تأمل شكل الصفحة قبل قراءتها ، ثم الى التوقف عند كلمات كتبت بالأحرف العريضة ، وعند أخرى كتبت بما يشبه خط اليد ، وبعد كل ذلك

---

(٦١) انظر بهذا الخصوص كتاب الدكتور عبدالغفار مكاوي «قصيدة وصورة» (الشعر والتصوير عبر العصور) الصادر عن سلسلة «عالم المعرفة» ، الكويت ، العدد ١١٩ ، نوفمبر / تشرين الثاني ١٩٨٧ .

(٦٢) M. Butor, **Répertoire II**, p. 46

(٦٣) Claude Simon, **Orion aveugle**, p. 12

(٦٤) ميشال بوتور ، نفس المصدر ، ص ٢٩٦ .

(٦٥) نفس المصدر والصفحة .

ندخل في النص وتفاصيله . اليست تلك طريقة تأملنا للوحة وقراءتنا لها ؟ الا نتوقف عند الوانها وخطوطها العريضة قبل الغوص في تفاصيلها الدقيقة ؟

ولكن لوحاتهم الروائية ـ الفنية ليست سهلة القراءة ، نقول ذلك من قبيل التذكير ، فهم لا يقدمون لوحات لنتأملها ونسترسل معها ، بل لنستكشفها ونسبر اغوارها . يقول رينيه ـ ماريل البيريس : « هادمين ، كما فعل سابقاً في ميدان الرسم التكعيبيون وما قبل التجريديين ، كل تناسق اصطلاحي وبصري للوحة ، فان كتاب « الرواية الجديدة » ، الذين هم وريثو ما فوق الانطباعيين الانكليز ، واقارب الخياليين الفكريين للقصة العلمية المحولة الى لغز ، او الجماليين الذين يعيدون اكتشاف الفن الباروكي ، ليس من غاية مشتركة بينهم الا ان يجعلونا نشعر بالتفاوت بين الرؤية والواقع ، بين الذوق العادى والجمالي »[٦٦] .

ان ما يهمنا من هذا الرأى هنا ليس صحة حكمه على هذا التيار بقدر ادراجه للكتاب الذين يمثلونه ضمن مدارس للرسم قام حولها ، وما يزال ، جدل ودراسات عديدة . ذلك الربط بين « الرواية الجديدة » والرسم هو ما عرضناه بصورة مقتضبة وسريعة .

ب ـ الرواية والموسيقى

وللموسيقى ايضا دورها الكبير في تقنيات التجديد . ولا نعني بالموسيقى رنين الكلمة او نغم العبارة او ايقاع الجملة او غنائية بعض المقاطع او النصوص ، فتلك اشياء متلازمة والكتابة . ان ما نعنيه هنا ان التقنيات المستعملة في الكتابة والاداء الموسيقيين ، هي جد مناسبة للرواية :

« يقوم الموسيقي بتأليف قطعته في فضاء ورقته المخططة ، فتمثل الخطوط الافقية جريان الوقت ، بينما تحدد العمودية توزيع العازفين . والروائي ، من جهته ، يمكنه ان يوزع قصصا فردية متنوعة في مجسم مقسم الى طبقات ، مبنى باريسي مثلا ، تكون فيه العلاقات العمودية بين مختلف الاشياء والاحداث مشابهة في تعبيرها للعلاقة بين الناي والكمان »[٦٧] .

واذا كانت آذاننا قد اعتادت سماع الالات الموسيقية تعزف سوية لحنا واحدا ، فان هؤلاء الروائيين يحاولون جعل آذاننا واعيننا تألف اشتراك عناصر قد تبدو متباعدة ، بل متنافرة ، للوهلة الاولى ، في اداء عمل روائي واحد .

هذا التأثر بالموسيقى هو في الواقع عودة الى اصول الفن للنهل من ينابيعها : أليست الموسيقى ، لحنا واغنية ، بالاضافة الى الرقص الذى يصاحبها ، هي أُم الفنون ؟ او ليس الشعر سابقا للرواية والمسرحية في كل تواريخ الادب ؟

« من الناحية الظواهرية ، الموسيقى اقدم من الكلام المترابط ، ولقد استخدمت للتعبير قبله ، كما انها تبقى دائما الاداة التي تجعله ممكنا، حتى ولو كنا نميل الى نسيان هذا الاصل . ان مجرد لفظ كلمة هو غير ممكن دون ادراك وامتلاك لصوت وايقاع ، دون تشكيل ومراقبة لاستمرارية وتميز رنة الصوت. هكذا يبدو الكلام المتراتب حالة خاصة من البنى الموسيقية. فالموسيقى تحفر مجرى النص ، وتهيء وتشكل ذلك المدى الذى يحدث فيه ويتحدد من خلاله شيئا فشيئا »[٦٨] .

---

(٦٦) R-M. Albérès, Métamorphoses du roman, p. 422

(٦٧) M. Butor, Répretoire II, p. 28

(٦٨) نفس المصدر ص ٣٣ ـ ٣٤ .

وهل لذلك علاقة مباشرة بالرواية ؟ يسأل قارىء . نقول ان ما سبق يعطي اكثر من جواب على سؤال كهذا ، ونقدم اضافة توضيحية من ميشال بوتور : « اذا كانت الرواية مختبرا للقصة ، فان الموسيقى هي المورد الذي نستمد منه اسلحة وادوات ادب جديد »[٦٩] .

انطلاقا من مصدرية الموسيقى ، تحاول الرواية اذن تطوير ذاتها . هذا ما جعل بعض الروايات الجديدة تتحول الى برامج اذاعية ، ليس تمثيلا ، بل قراءة مصحوبة بمقطوعات موسيقية تؤلف خصيصا لها ، او يختارها الكاتب بنفسه من روائع الاعمال الموسيقية الكلاسيكية او الحديثة . فرواية « حول مورتين » Autour de Mortin لروبير بينجيه ، مثلا ، اذيعت بالطريقة المذكورة ، على حلقات ، من راديو شتوغارت، كما ان عددا من اعمال ميشال بوتور اذيع من محطات مختلفة . وهذا ايضا ما جعل علاقة وثيقة تنمو بين هؤلاء الكتاب وبين مؤلفين موسيقيين وبين رسامين ومصورين ، علاقة اثمرت في احيان كثيرة ، وما تزال، عددا من روائع الاعمال الفنية التي تشترك فيها الكلمة والصورة واللحن .

« ان الشعرليس ترفا ، والرسم ليس ترفا ، لا ، ان الموسيقي ليست تسلية الكسالى او الهواة ، فالموسيقى ضرورية لحياتنا ، لحياة الجميع ، ونحن بأمس الحاجة اليها اليوم »[٧٠] .

ج ـ « الريشة والكاميرا »[٧١] .

نلاحظ مما سبق ذكره ان هناك تقاربا لافتا للنظر بين تقنيات هذه الرواية وبين السينما ، وبصورة خاصة بين إخراج الفيلم السينمائي كمجموعة مشاهد يتألف كل منها من « لقطات » متلاحقة ، وبين سرد الرواية المتقطع والمتداخل . وهناك تقنية شائعة في المونتاج السينمائي يحاول الروائيون الجدد الافادة منها واستخدامها في كتاباتهم . ما نعنيه هنا هو « تداخل اللقطات » ، أي تركيب صورتين او اكثر فوق بعضها بشكل يجعلنا نرى عدة مشاهد في نفس الوقت ، كأن يعرض الفيلم شخصا يتذكر احداثا معينة ، فيجعلنا نشاهد في وقت واحد الشخص المتذكر والوقائع السالفة .

العلاقة مع السينما هي اذن علاقة اصطياد للدينامية ـ ونسجل هنا التقارب الكبير بين لفظتي سينما (Cinema) وحركية (Cinematique) او حركي (Cinetique) في اللغة الفرنسية ـ مع الاشارة الى التباين الاساسي الذى يصر الروائيون الجدد على وجوده ـ والموجود فعلا ـ بين فني السينما والرواية . فبالرغم من مجالات انتشارها الواسعة (في صالات السينما وعلى شاشات التلفزيون واشرطة الفيديو) ومن تقنياتها الهائلة ، تقدم الاولى حركية سلبية في احيان كثيرة ، اى انها تضع المشاهد في موقف المتلقي من الناحيتين الفكرية والانفعالية ، كما انها تجعله يعيش في وهم الواقع ، واضعة ، من خلال تسارع المشاهد وتلاحقها ، حواجز عديدة بينه وبين فعل النقد او التخيل . وكما رأينا ، فان « الرواية الجديدة » تجهد في جعل القارىء مؤثرا اكثر منه متأثرا ، وفاعلا لا منفعلا .

« ان النجاح الذى حققته السينما يدفع بالبعض الى التساؤل بقلق عن مستقبل الرواية . ولكن تفوق الفيلم

(٦٩) نفس المصدر ص ٣٥ .

(٧٠) نفس المصدر ص ٤١ .

(٧١) نعتمد هذا العنوان كترجمة حرفية لفصل(Plume et caméra) من كتاب جان ريكاردو «قضايا الرواية الجديدة» Jean Ricardou, Problemes du Nouveau Roman, PP. 69-79

ليس مستمرا بالضرورة . فنحن امام « مشاهدة » فيلم او « فك رموز » كتاب . ومن المؤكد ان الجمهور العريض الذى تجتذبه السينما يتالف من اغلبية مشاهدين تبهرهم الصورة ، ومن اقلية نشطة ، شبيهة بتلك التي يستحوذ عليها الادب ، تتقن تحليل الاشارات . ان مستقبل الرواية والسينما يكمن في تحديد نوعياتها ، او بالاحرى في التفتيش المتواصل عن تعريف بهما يكون دائم التغير والتطور »[٧٢] .

نسارع الى القول هنا ان النقد الموجه للسينما لا يهدف باى حال الى التقليل من اهميتها الفنية والتثقيفية ، فذلك ما لا يستطيع احد انكاره ، وذلك على الارجح ما جعل عددا من هؤلاء الروائيين يكتبون للسينما ، وما دفع بألان روب ـ غرييه الى كتابة عدد من رواياته على شكل سيناريوهات تتحدد فيها بدقة متناهية وضعية الشخص وحركاته ، وحتى الزاوية التي يجب ان تسلط عليه الكاميرا منها ، وما حدا به بعد ذلك ان ينصرف بشكل شبه كلي الى الاخراج السينمائي . ان المقصود هنا ان يحاول كل فن الاستفادة من تقنيات واتجاهات الفنون الاخرى ، وان يعمل في نفس الوقت على سد الثغرات التي يصعب عليها تجاوزها .

« عندما أصر على عدم تفضيل السينما او الرواية ، فذلك لانني اربأ بهما عن الاكتفاء بمهمة التصوير وأنني أريد لهما ان تكونا كتابتين خلاقتين ، ان تكون كل منهما جديرة بحمل رسالة الفن »[٧٣] .

تطرح « الرواية الجديدة » نفسها اذن كعملية تفتيش عن تقنيات وإشكال وآفاق روائية جديدة وذلك « بهدف لعب دور ثلاثي بالنسبة لادراكنا للواقع : ان نتعرف اليه ، ونكتشفه ، ونتأقلم معه »[٧٤] والروائي الذي يرفض هذا الدور ، دون ان يدخل بعض البلبلة فيما حوله ، ودون ان يطلب من القارىء . جهدا اضافيا ، ان يعيده الى نفسه ويجعله يعيد النظر بعادات ومواقف اكتسبها منذ امد ، ذلك الروائي قد يصيب نجاحا سهلا وشهرة سريعة ، ولكنه يكون قد فشل في اخراجه من حالة ركود ، او على الاقل في فتح بعض النوافذ التي يطل منها على آفاق جديدة .

يبقى ان هذا التيار ليس اول من انتهج التغيير سبيلا . فلقد حاول الباروكيون والرومانسيون والسرياليون وغيرهم تجديد اطر وتوجهات الفن والادب . ولكن التجديد الحالي طاول ، كما رأينا ، ميادين اشمل وأعمق .

« هذه الاعمال الغريبة . . . تريد ان تبين اننا نعيش في فترة اعادة نظر ، وان الرواية بدورها هي في طور اعادة نظر بذاتها »[٧٥] .

٥ ـ بين الرواية والشعر

ننطلق في هذه المقاربة من مقالين لواحد من اكبر النقاد والسيميائيين الفرنسيين بين الخمسينات والسبعينات من هذا القرن ، وهو رولان بارت (Roland Barthes) والمقالان وردا في كتابه « الدرجة الصفر للكتابة »[٧٦] Le Degre Zero de L.ecriture بعنوان « كتابة الرواية » و « هل من وجود لكتابة شعرية ؟ » .

(٧٢) نفس المصدر ص ٨٨ .

(٧٣) نفس المصدر ص ٧٩ .

(٧٤) Michel Butor, Essais sur le roman, p. 10

(٧٥) Jean-Paul Sartre, in les Ecrivains en personne, p. 63

(٧٦) Roland Barthes, le Degré Zero de l'écriture, Ed. du Seuil, Paris, 1953

يبدأ بارت مقاله الثاني باستعراض الفرق بين النثر والشعر في العصور الكلاسيكية ليخلص الى المعادلة التالية :

« اذا اسميت النثر خطابا أدنى ، اى مركبة الفكرة الاقل كلفة ، واسميت أ ، ب ، ج ، ملحقات خاصة للغة ، غير مفيدة ولكنها زخرفية ، مثل الوزن والقافية ومجموعة الصور ، فان كل مساحة الكلمات تندرج ضمن المعادلة المزدوجة :

الشعر = النثر + (أ + ب + ج)
النثر = الشعر − (أ + ب + ج)

وينتج عن ذلك بالضرورة ان الشعر يختلف دائما عن النثر . ولكن هذا الاختلاف ليس في الجوهر ، بل في الكمية »[٧٧] .

هذا من وجهة النظر التقليدية ، ولكن المعادلة تغيرت فيما بعد ، بل الغيت بكاملها مع تيارات الشعر المعاصر ، وبصورة خاصة مع بودلير (Baudelaite) ورامبو (Rimbaud) حيث « لم يعد الشعر نثرا مزدانا بزخرفات ومبتور الحرية ، بل اصبح صفة قابلة للتجزئة او الوراثة . لم يعد ملحقا ، ولكنه اضحى مادة ، واصبح بالتالي قادرا ان يستغني عن الاشارات ، لانه يحمل جوهره في ذاته ، وهو ليس بحاجة للاعلان عن هويته »[١١]

هذا من ناحية الشكل ، اما المضمون فلقد تغير هو الاخـر في نظر الـشـعـر المـعـاصر . « في الـفـن الكلاسيكي ، كانت الفكرة الجاهزة تلد نصا يعبر عنها » و « يترجمها » . . . في حين ان الكلمات في الشاعرية المعاصرة تنتج نوعا من الاستمرارية الشكلية التي ينبع منها شيئا فشيئا ثقل فكرى او شعورى هو مستحيل بدونها ، العبارة اذن هي الفترة الصعبة لحمل اكثر فكرية تتشكل خلاله الافكار وتنمو بفعل الكلمات . هذه الصدفة الكلامية التي تولد منها ثمرة المعنى الناضجة ، تفترض بالتالي زمنا شعريا ما هو بزمن لصناعة بل لمغامرة ممكنة ، مغامرة التقاء العلامة والقصد »[٧٩]

قبل ان ننتقل الى الغاية التي انطلقنا من اجلها من آراء رولان بارت ، نتوقف لحظة لنشير ان مقاله المذكور ينتهي بانكار قدرة الكلمات المجردة من فكرة وتقنية مسبقة على توليد الافكار ، « فعندما يعيد الكلام الشعرى النظر « بالطبيعة » بشكل عام ، وذلك من خلال نسيجه فقط ، دون الاهتمام بمحتوى الخطاب ، ودون الانطلاق من خلفية فكرية معينة ، عند ذلك لا يعود هنالك من كتابة ولايوجد الا أسلوب يلتفت الشاعر من خلاله ليجابه العالم الموضوعي دون المرور بأية صورة للتاريخ او للعلاقات الاجتماعية »[٨٠] .

هذا الكلام لا يعني بالطبع ان بارت ينادى بالعودة الى الشعر الكلاسيكي فهو من اكثر المتحمسين للتجديد في العصر الحديث ، ومن القائلين ان ذلك الشعر يفترض بكل بساطة ان الطبيعة والمجتمع ينقادان بسهولة للعبارة ويستسلمان لها تصويرا وتعبيرا ، وخاصة اذا كانت موزونة مقفاة .

لا ضير في ان نتوقف برهة اخرى لنقدم مقطعا ، ولو مطولا بعض الشيء من مقاله « كتابة الرواية » ، نصل بعده الى الموضوع الذى نحن بصدده :

---

(١١) نفس المصدر ص ٣٣ .
(٧٨) نفس المصدر ص ٣٤ .
(٧٩) نفس المصدر ص ٣٤ ـ ٣٥ .
(٨٠) نفس المصدر ص ٤٠

« سواء في تجربة الشاعر الصعبة ، وهو يتحمل مسؤولية التصدع الاخطر ، تصدع اللغة الاجتماعية ، او في كذب الروائي المطلوب منا تصديقه ، فان الصدق بحاجة هنا الى علامات كاذبة لكي يستمر ويستهلك . ان الكتابة هي نتاج هذه الازدواجية ومنبعها . وهذه اللغة الخاصة التي يحمل استعمالها الكاتب مهمة ظافرة ولكن مراقبة ، تنطوى على نوع من العبودية الخفية في خطواتها الاولى ، والملازمة لكل مسؤولية : الكتابة ، الحرة في بداياتها ، هي القيد الذى يربط الكاتب بتاريخ هو مقيد بدوره ، لان المجتمع يطبعه بعلامات الفن الواضحة التي تجعلة مرتهنا أمره »[٨١] .

هكذا يتوضح موقف رولان بارت من الكتابتين ، الشعرية والروائية ، بحيث يتحدد لهما دور مشترك في عملية التجديد اللغوية والاجتماعية والتاريخية ، مع احتفاظ كل منهما بخصائصه وتميزه . ولكن مثلما تتنوع النظرة الى النوع الادبي الواحد وتحدث فيه تعديلات وتغييرات داخلية ، كذلك يحصل بين الانواع المختلفة التي تتباعد وتتقارب وتتداخل حسب التيارات والمدارس فلقد عرفنا الشعر المنثور والحر والمرسل ، كما عرفنا النثر الشعرى والمسجع ، ولطالما تكلمنا عن نفحة شاعرية عند روائي ونعتنا نصا او مقطعا بالشاعري ، وكم حاولنا تجميع خيوط قصة من بين ابيات قصيدة او استخرجنا رواية من مجموع قصائد ديوان ، ثم كم من حكايا رواها الشعر صراحة تأريخا او حكمة او رمزا او ملحمة او اسطورة .

ولكن ذلك لم يمنع الشعر من البقاء والرواية من الاستمرار ، لقد تلاقيا وتداخلا مع بعضهما ومع بقية الفنون دون ان يفقد كل منهما هويته .

هذا التلاقي ، دون ذوبان ، ومن خلال تقنيات التجديد ، هو الذى ينادى به ويطبقه عدد من الروائيين الجدد .

ما هو الشعر بنظر هؤلاء ؟

« ينطلق الشعر دائما من حنين الى عالم مقدس مفقود ، والشاعر هو ذلك الانسان الذى يدرك ان اللغة ، ومعها كل الاشياء الانسانية ، هي في خطر . ان الكلمات الشائعة لا تمثل ضمانة ، فاذا ما فقدت معناها بدأ كل شيء يفقد معناه ـ والشاعر يحاول ان يعيده اليها .

« ... الشعر اذن هو قبل كل شيء تلك الضمانة لاستعادة معاني الكلمات ولحفظ الالفاظ ، هو المفتاح السحرى ، وتتفرع عن ذلك فضائل عديدة .

« ... والشعر الذى هو ناقد الحياة المعاصرة ، يقترح علينا تغييرها »[٨٢] لكونه حافظا لتراث اللغة والمجتمع ، متفاعلا مع حاضرهما ومستشرفا لمستقبلهما ، يبدو الشعر عنصرا ضروريا ـ واساسيا ـ في نسيج الرواية ، ولا يعنى بالشعر هنا تقديم مقاطع شعرية او شاعرية ، فذلك غير كاف ، عدا عن كون تلك المقاطع موجودة في اغلب الروايات التقليدية التي اعتاد كتابها ان يطلقوا العنان لخيالهم وشاعريتهم ليجعلوا القارىء يعيش بين الفينة والاخرى في جو من الايقاع والوزن والصورة تتغنى فيه المشاعر وتتراقص الكلمات .

« ولكن ليس فقط من خلال بعض المقاطع تستطيع الرواية ـ ويتوجب عليها ـ ان تكون شعرية (بل من

---

(٨١) نفس المصدر ص ٣٢ .

(٨٢) M. Butor, Repertoire II, PP. 17-19

الاسلوب بشكل عام) ، اى بالتحديد مما يتيح لنا ان نتعرف الى كاتب ، ان نميزه ، من مبدأ الاختيار الذى يعتمده ضمن احتمالات اللغة ، من المفردات ، من القواعد . . . والاسلوب لا يتحدد فقط من طريقة اختيار الكلمات وتنسيقها داخل الجملة ، بل تلك التي تجعل الجمل تتوالى ، والمقاطع والوقائع . على كل مستويات ذلك النسيج الهائل الذى هو الرواية ، يمكن ان يوجد الاسلوب ، اى الشكل ، او بالاحرى اختيار الشكل وتحديده ، النظم ، العروض . هذا ما نسميه في الرواية الحديثة بالتقنية »[٨٣] .

يعيدنا هذا القول الى حيث بدأنا ، الى تقنية الرواية ، ولكن العودة توصلنا الى اكتشاف رائع : ان كل تقنيات السرد التي سبق وتحدثنا عنها هي تقنيات لنظم الرواية ، لبنائها الشعرى واعادة النظر بالبنى والمفاهيم الروائية تهدف الى اغناء موضوعات الشعر ، باكتشافات العلوم الحديثة ، والى تنويع بنائه انطلاقا من الخطوط والاشكال الهندسية ونظرية النسبية ، ثم الى اغناء الرواية بالشعر ينساب فيها وجعلها وسيلة لانقاذ الادب من ثغراته واخراج الروائي من صومعته وايقاظ القارىء من سباته . تطوير من داخل الانواع الادبية يطمح الى تطوير العلاقات الانسانية والاجتماعية .

« ان الرواية الشعرية هي ذلك الشيء الذى يدرك الواقع نفسه من خلاله فينتقد ذاته ويتغير . ولكن هذا الطموح مصحوب بالتواضع ، لان الروائي يعرف ان إلهامه لا يمكن ان يأتي من خارج العالم ، وتلك قناعة دائمة عند الشاعر الاصيل . انه يعرف ان الهامه الحقيقي هو العالم في طور التغير ، وبأنه ليس سوى لحظة ، سوى انسان موجود في موقع مميز تمر من خلاله الاشياء لتتحول ألفاظا وكلمات »[٨٤] .

قد نكون ، في هذا المقال ، اكثرنا من النظريات دون ان نقدم امثلة تدعمها وتخفف من جفافها في نفس الوقت . ولكننا كنا مجبرين على ذلك بحكم عمومية المواضيع المطروحة . اما هنا فسوف نعرض بعض الامثلة ، التي قد تكون مطولة بهدف اعطاء صورة واضحة عن شاعرية النص الروائي - وليس بعض مقاطعه فقط .

نبدأ من « ممر الخطاف »[٨٥] .

« كل ما يبغيه ان يوقف كل شيء (الحديث والمجاملات والنكات والاصوات) ، ان يدفع الحشد كالقطيع ، القاعة بما فيها ، الجدران والاثاث والراقصون ، تبدو كأنها تغيب في مسافة رمادية ، تنطفيء كل الاصوات ، وحدها انجيل تبدو مشمسة في فستانها الزاهي .

دوي الباب المصفوق يدهشه وكانه ليس المسؤول عنه يتكلم جيرار :

« ما اسم ذاك العاشق الوسيم ؟ »

يحمر وجه فيولا خجلا ، ومارتين تضطرب ايضا .

« متعبتان حتى انهما لا تستطيعان الكلام » .

« الفساتين التي تجر على درجات السلم في النور الخافت .

(تعتمد هنا نفس طريقة كتابة الروائي . نتابع في الصفحة ذاتها)

---

(٨٣) نفس المصدر ص ٢٢ .

(٨٤) نفس المصدر ص ٢٦ .

(٨٥) M. Butor, **passage de Milan**, PP. 217-219.

« وصل قارب الشمس الى مستنقع ملتهب حيث كانت طيور كبيرة تغني بكلمات بشرية . كانت وجوهها شبيهة بوجوه البشر ، وكانت لها اذرعة متفرعة عن اجنحتها ومنتهية بايدٍ حقيقية تصفق لتواكب وقع الشعر .

« يجب الانوقظ فيليكس ، ولا الجدود » .

« وتدخل فيولا بخطى حريرية كبيرة ، ممسكة فستانها وكانها تتهيأ للتحية ، وتتمايل وهي تعض على شفتيها لكي لا تنفجر ضاحكة . جيرار ، باتزان مرح ، يرجوها بحركة من يده ان تتوقف . ارتعاش . ثم همس :

- يا الهي ، انه الفواق .

- لقد نال كل منا ما يستحق .

- لا تتكلم بصوت مرتفع .

- هل آتيك بكأس ماء ؟

- رفض يصاحبه اختناق . ضحكة مجنونة .

- «هيا ، نامي ايتها الأميرة ، فسوف تهدئينَ في سريرك» .

«وكان علي أن أفقد مرساتي ، لأنني أصبحت بعيدا عن الجسر ، وأن أسمع حفيف السمك النائم تحت قاربي» .

- « سمع فيليكس صوت باب الراهبات يقفل ، ووقع أقدام الرهبان وهم ينصرفون . ولكنه لم يقرر فتح جفنيه ، أو إخراج يده في البرد ليطفيء المصباح . يداعب الصفحة المطبوعة ، الساخنة بملامسةِ غطاء السرير . يمد قدميه المرتاحتين من تعبهما ، وجلا وسعيدا في نفس الوقت : كم قد تكون الساعة الآن ؟ ولماذا يفتح هاتين العينين المخبأتين جيدا في مغارتين من المخمل المشع ؟ لماذا يحرك راسه عندما يكون مجرد احتكاك العنق بالغطاء (هذه الذقن يجب ان تحلق) تعد على سلطان النوم ؟ وتجاعيد البيجاما . آه . لم انته بعد . لم انته بعد .» .

«كان للضفة الاخرى مظهر صحراء رملية ، ترسو عليها مراكب محملة برجال مقيدين . فك الحراس قيودهم ، اوثقوا اذرعتهم جيدا وراء ظهورهم ثم انزلوهم . كانوا يحاولون التخلص ، ولكن المراكب تركتهم . . .»

لقد اوردنا هذا النص ، رغم طوله كاستشهاد ، لنبين من خلاله امرين :

- الأول اعطاء صورة واضحة بعض الشيء عن شاعرية الرواية باكملها ، وليس مقاطع منها ، فالقصة - أو بالأحرى القصص - التي اقتطفنا أجزاء منها لا تقدم بشكل مباشر ، بل تختبيء وراء شاعرية الكلمة التي تجبرنا على الدوران حولها والتعمق فيها قبل استشفاف الاحداث التي تنم عنها . وهنا لابد من ايراد ملاحظة اساسية : ان ترجمة النص الشعري لا يمكن الا ان تفقده كثيرا من خصائصه اللغوية والبنيوية . فمهما حاول المترجم أن يكون أمينا ، يجد نفسه مضطرا ، بحكم نقله للنص من بيئة لغوية الى أخرى ، أن يتجاوز الكثير من بلاغته ، وخاصة من الناحية البديعية . ونحن نهدف من وراء هذه الملاحظة أن نقول أن شاعرية النص المترجم - سواء ذاك الذي نحن بصدده أو أي نص آخر - لا يمكن أن تظهر كاملة لأنه يفقد كثيرا من جمالياته بتغيير هويته اللغوية .

- والأمر الثاني ينطوي على عودة الى الوراء ، الى تقنيات السرد الروائي التي يظهر النص المذكور بعضا منها . فهو يبدأ بوصف حالة أحد شخوص الرواية الذي يستفيق من حلم جميل ليخرج غاضبا . يدعه يغادر ويعود ليسلط الاضواء على محادثة بين شاب

وفتاتين ما زالوا في الاحتفال الذي ما يلبث ان ينتهي بسماعنا وقع أقدام الخارجين . انتقال بعدها الى حلم يعيشه شخص آخر ينام في طبقة اخرى من المبنى . ثم مواكبة اثنين من المحتفلين الى منزلهما ، فالانتقال مرة أخرى الى حلم يعيشه شخص آخر ، ثم الى تصوير شخصية تتردد بين النوم واليقظة ، نعود بعدها الى الحلم الاول . واذا ما اكملنا وجدنا قفزات كثيرة مشابهة لا يفصل الواحدة منها عن الأخريات سوى مجال سطر يترك فراغا . وهذا النوع من السرد هو ما اسميناه سابقا بالمتوازى .

نعود الى شاعرية الراوي لنلقي ، مع ميشال بوتور ، بعض الأضواء على كيفية التوصل اليها :

«اذا ما توسعنا بمعنى كلمة أسلوب ، وهذا ما يفرض نفسه من خلال تجربة الرواية المعاصرة التي تعم الكلمة وتأخذها على كل المستويات ، فمن السهل ان نبرهن اننا باستخدامنا لبنى قوية بها فيه الكفاية ، شبيهة بما يدخل في نظم الشعر ، وشبيهة بالتصاميم الهندسية والموسيقية ، وبجعلنا العناصر تتناغم بمنهجية مع بعضها البعض حتى تتوصل مجتمعة الى حالة التجلي التي ينتظرها الشاعر من نظمه ، نستطيع أن ندخل بشكل كامل ، حتى ضمن وصف الاشياء العادية أو التافهة ، قدرات الشعر الخارقة» (٨٦)

هل أوصلنا هذا الرأي الى تناقض؟

الم نقل سابقا ان هؤلاء الروائيين لا يقرون المعرفة الشمولية للكاتب ولا الالهام الشعري او الفني ، وان هذا ما جعلهم يلجأون الى التركيز على التقنية وعلى الصناعة ؟ فكيف يحق لاحدهم ، والحال هذه ، ان يتكلم عن «التجلي» وعن «قدرة الشعر الخارقة» ؟

ان امعان التفكير في ما يقوله بوتور يبين ان التناقض غير موجود على الاطلاق ، اذ ان «التجلي» هو نتيجة للكتابة وليس لها . فالكاتب لا يبلغه الا «بمنهجية». تناغم فنونا عديدة وترفدها خلفية ثقافية واسعة تمكنه من «نظم» احداث روايته بعبارات تستخرج من أعماق كنوز اللغة ، ثم هندستها وتوقيعها أنغاما تتجاوب وتتكامل لتؤلف سمفونية الكلمة واللحن والصورة، أما معرفية الأحداث والشخصيات وكوامن النفوس، فلقد حلت مكانها معرفية اللغة وتقنيات الكتابة . يوضح رولان بارت هذه النقطة فيقول :

«الادب هو لغة ، ووجوده هو في اللغة ، واللغة في الاساس ، قبل كل الانواع الادبية ، هي منظومة معان : فهي تنطوي ، قبل ان تصبح ادبا ، على مواد خاصة (الكلمات) ، وعلى عملية تفكير وانتقاء وتصنيف ، وعلى منطق خاص . . . وزيادة على ذلك فان هذه الكلمات البسيطة هي مدلولات بحد ذاتها ، ولها تاريخ ومحيط . أما معانيها فهي لا ترتبط بالشيء الذي تدل عليه بقدر ارتباطها بكلمات أخرى ، قريبة ومختلفة في نفس الوقت ، وفي هذه المنطقة بالتحديد منطقة «ما فوق المعنى» ، أو المعنى الثانوي ، ينشأ الادب ويترعرع» (٨٧).

«منطقة ما فوق المعنى» هذه هي التي يحاول الروائيون الجدد ولوجها ، ولكن ليس فقط من خلال مدلولات الكلمات ، بل من خلال الاسلوب والبنية الروائية ايضا . واذا كان تعبير «ما فوق المعنى» يذكرنا على الفور بالسريالية ، فان ما ذكرناه سابقا يظهر البون الشاسع بين التيارين ، فنحن هنا بعيدون عن التلقائية واللاوعي المتحررين من رقابة العقل وعن النفسانية التي يرخي لها السرياليون العنان . ربما نجد التقاء في

---

(٨٦) M.Butor, **Essais sur le roman,** P. 16

(٨٧) Roland Barthes, **Essais critiques,** p. I64.

دور الحلم في عملية الكتابة ، ولكن الاختلاف واضح حتى في هذه النقطة ، اذ يرى روائيونا ان الحلم جزء من الواقع (٨٨) ، جزء مهم دون شك ، ولكنه ليس اساس الواقع او تجسيده كما يعتقد فرويد والسرياليون من بعده . .

أكثر من كونها فعلا للحلم أو للاوعي في اللغة ، الكتابة هي فعل ينطلق من الواقع ، بشقيه ، اليقظة والحلم ، الوعي واللاوعي ، للتعمق في معرفته ومن ثم لتغييره وتحسينه . وهذه الكتابة هي ، كما رأينا ، الرواية الشعرية ، أو الشاعرية ، بتعبير أدق ، أي التي تعتمد بنى الشعر وأنغامه وروحيته ، حتى ولو لم تكن تروي أحيانا سوى عملية تشكل النص :

«تنبسط الكلمات ، يشتد الخيط الذي يخترقها ، تهتز . . . يصغي الى رنينها ، الذي ينتشر . . وحيدا معها ، ينتصب هو بدوره ، خارج المادة الرخوة والباهتة التي كان منغمسا فيها ، تسحره حركاتها ، يرتبها ويغير أمكنتها لكي تشكل زخارف منقوشة بعناية أكبر . . . يتسع رنينها ، إنه الآن موسيقى ، غناء ، سير موقع ، تتوالد الايقاعات بعضها من بعض ، كلمات كان شيئا يجذبها تأتي من كل حدب وصوب . . . يتبع حركاتها مسحورا ، تصعد ، تهبط ، تنطلق من جديد وتهبط . يوجهها بحذر . أنظر إليها الآن وقد تعودت وخضعت طائعة لايقاع معين . . . تحث الخطى ، تطير . . ينتظر اللحظة التي تصل فيها الى ارتفاع محدد ثم تعود الى الهبوط بملء إرادتها .

«للكلمات الآن بريق أكثر ، تأتي أعداد أخرى منها ، نادرة ، أنيقة ، ألوانها وألقها أوضح ، أنغامها أجمل وأشجى وكأنها معزوفة بآلات عديدة ونادرة . . إنها اللحظة المناسبة للتوقف . عليه ان يرتاح قليلا . لقد بلغ مرحلة جديدة» (٨٩)

يعرض لنا هذا النص احدى لحظات العشق والغزل والمداعبة بين الروائي - الشاعر والكلمات ، وحالة الوجد التي يعيشها وهو يسبح في اعماق اللغة ، ثم النشوة التي يبلغها عندما يشعر أن الكلمات اسلمته زمامها . الشعر كتعبير يصبح هنا تعبيرا عن حالة الكتابة مع ما يكتنفها من قلق وتردد واضطراب ولذة وعطاء .

«يستجمع كل قواه ، يحاول أن يبعد تلك الموجات الشريرة التي تبثها . . وفجأة يظهر في تلك الكلمات ، في تلك الجمل انتفاخ صعب تبينه . . يخفق برفق ، يصمم ، يتفحص صوته . . . ولكن الكلمات ، ما ان يلفظها ، حتى تخف وتصغر وتتطاير مثل فقاعات تنفخ في هواء كثيف . . .

«لقد أضاع كل شيء ، إنه وحيد ، محروم ، لقد جذب خارج ذلك الحصن الذي كان يحتمي به ، خارج ذلك السور القوي التي كانت تشكله اعماله ، كتبه ، مقالاته ، اسلوبه القوي ، المترابط ، المحكم ، جمله المصقولة كمدافع برونزية ، دقيقة الرماية تخيف المهاجمين .

«ولكنه قرر أن يخرج . لقد قبل التحدى وهو يتقدم وحيدا في أرض مكشوفة . . . » (٩٠)

---

(٨٨) « أن الحلم هو حياة ثانية يمكنها بالتأكيد أن تلعب دورا في الأولى ولكنها يجب أن تميز عنها بعناية وبعلامات فارقة ثم إن واحدة من رغباتنا ، من حاجاتنا ، أن نتعرف أكثر إلى العالم وإلى أنفسنا ، وبعض مشاهد الأحلام تتيح لنا ذلك ، حتى ان بعض الاكتشافات العلمية او الشعرية قد تحدث في الحلم »
Michel Butor. Repertoire V,PP. 24-28.

(٨٩) Nathalie Sarraute, Entre la vie et la mort, PP. 66 – 67.

(٩٠) Nathalie Sarraute, les fruits d'or, PP. II2-II3

الشعر يحكي الرواية ، والرواية تكتب بالشعر ، ولكن هذا التفاعل ليس الغاية القصوى ، وهو ان شكل المادة الاساسية لبعض اعمال ناتالي ساروت ، ثم فيليب سولر وجان ـ بيار فاي ، فانه يهدف الى ابعد بكثير من نرجسية الكتابة عند اغلب الروائيين الجدد . ففي (الاستجواب) لروبير بينجيه [٩١] لا يتوصل الشخص المستجوب الى تحقيق ذاته الا بعد اجاباته المطولة على اتهامات توجه اليه ، هكذا لتصبح اللغة وسيلة للخلاص وتجسيدا للوجود . وهي تصبح في الغالب ، كما سبق وذكرنا ، وسيلة اكتشاف للواقع وتأثير فيه الواقع بابعاده الذاتية والاجتماعية والتاريخية والمستقبلية :

«تقول لنفسك : ما الذي حدث منذ مساء ذلك الاربعاء ؟ منذ آخر سفر عادي الى روما ؟ وكيف تغير كل شيء ؟ وكيف وصلت الى هنا ؟

«إن القوى التي كانت تتجمع منذ زمن طويل تفجرت في قرار هذه الرحلة ، ولكن نتائج الانفجار لم تتوقف هنا ،لانك بتنفيذ هذا الحلم الذي داعبته طويلا ، اجبرت نفسك على اكتشاف ان حبك لسيسيل هو جزء من حبك لروما، وإذا كنت ترغب في الإتيان بها إلى باريس فذلك لجعل روما حاضرة كل يوم، ولكنها لو جاءت الى مركز حياتك اليومية تفقد دورها كوسيط ، وتصبح امرأة مثل كل النساء . . .

«ولكن ، ليس ذنب سيسيل اذا كان النور الروماني الذي تعكسه وتنشره ينطفىء عندما تأتي الى باريس ، انه ذنب الاسطورة الرومانية ذاتها التي ما ان تجهد في تجسيدها بصورة قاطعة وبطريقة خجولة ، تكشف تناقضاتها وتدينك . . .

«وداعا ، صرخت لها وهي تركض مرفوعة الرأس ، رائعة ، وشعرها كتاج من اللهب الاسود ، تلهث وتبتسم ، كنت تفكر يومها : لقد اعتقدت انني اضعتها ، ولكنني وجدتها ، لقد مشيت على حافة هاوية ، الآن أعرف كيف احتفظ بها ، أتمسك بها» [٩٢]

الأمثلة كثيرة والمواضيع مختلفة ، والشعر موجود في حنايا الرواية ، ليساهم في تحديثها شكلا ومضمونا ، وذلك ضمن اعادة نظر شاملة بمفهوم الادب ذاته الذي لم يعد يبدو تسلية او ترفا ، بل حاملا لدور اساسي في حاضر المجتمع ومستقبله .

٦ ـ بين «الرواية الجديدة» الفرنسية والرواية اللبنانية المعاصرة

لم تكن تقنيات التجديد في الرواية الفرنسية غائبة عن الرواية العربية التي يربط اكثر النقاد نشوءها ـ وتطورها ـ «بالمثل الذي تضربه الروايات الغربية» ، فهذا الفن «ليس جزءا من تراثنا الادبي» [٩٣] . ولكنه « مقتبس عن الغرب أو ـ على الأقل ـ متأثر به تأثراً شديداً » [٩٤] .

هذا بالنسبة للرواية بصورة عامة ، اما بالنسبة لهذا التيار التجديدي ، فلقد ظهرت في مختلف ارجاء العالم العربي كثير من الاعمال الروائية المتأثرة به او المتماثلة معه . ولكن اللافت للنظر ان ظهور هذه الاعمال كان متزامنا مع الرواية الفرنسية الجديدة أو متأخرا عنها بضع سنين ، فمنذ أواخر الستينات من هذا القرن اصبحنا نقرأ عن «الرواية الجديدة» في المغرب أو مصر

(٩١) Robert Pinget, L'Inquisitoore. Ed. Minuit, Paris, 1962

(٩٢) Michel Butor, La Modification, PP. 277 — 279

(٩٣) الياس خوري تجربة البحث عن أفق، ص ١٠٩ و١١

(٩٤) بطرس حلاق. «نشأة الرواية العربية بين النقد والايديولوجيا»، الفكر العربي، بيروت، السنة الثانية، العدد ١٤، ١٩٨٠، ص ١٢٥ ـ ١٤٠ .

أو لبنان أو العراق أو في الأدب الفلسطيني ، وصارت تطالعنا تسميات «رواية الطليعة» و «الأدباء الشبان» و «جيل الستينات» و «جيل السبعينات» و «تيار الوعي» ، في الروايتين المصرية واللبنانية على التوالي ، وغير ذلك من التسميات والمصطلحات التي تفوح منها رائحة ما اطلق على الروائيين الفرنسيين الجدد أو على من تأثروا بهم من أمثال جيمس جويس وإزرا باوند وغيرهم [٩٥].

من المؤكد ان الرواية العربية الجديدة قد استقت من تقنيات مثيلتها الفرنسية التي تسنى لعدد من الروائيين العرب ان يطلعوا عليها بشكل مباشر وان يتمثلوا بنى التجديد فيها ويطبقوها في رواياتهم . ولقد ظهرت ، من جهة اخرى ، ترجمات لبعض الاعمال ـ النظرية فقط ـ للروائيين الفرنسيين ، اذ ترجم فريدانطونيوس كتاب ميشال بوتور «بحوث في الرواية الجديدة» (Essais Sur Le Roman) وترجم مصطفى ابراهيم مصطفى « نحو رواية جديدة » (Pour Un Nouveau Roman) لألان روب غرييه ، بينما كتب عدد آخر عن بعض أعلام الرواية الفرنسية ، منهم لويس عوض في «دراسات عربية وغربية» ومحمد مندور في «النقد والنقاد المعاصرون» ، كما يستشهد كثير من النقاد بآراء أولئك الروائيين أو بالترجمات عنهم .

من البديهي أننا لن نتمكن هنا من الاحاطة بكل الميادين التي يظهر فيها تأثير الرواية الفرنسية الجديدة على الرواية العربية المعاصرة ، ولكننا سنكتفي بالقاء نظرة مقارنة على تقنيات التجديد التي ظهرت في الرواية اللبنانية المعاصرة على وجه التحديد . ونستعمل مصطلح «المعاصرة» بدل «الجديدة» لأن وجود هذه الأخيرة يقتضي وجود تيار أو مدرسة لم يتضح أي منهما بعدا وعلى الأقل لم تظهر حتى الآن دراسات تحدد الملامح المميزة له .

اذا كان اغلب الكتاب العرب ما زالوا متمسكين بمعرفتهم الشمولية لما يدور في أعماق أبطالهم وما يجري حولهم ، واذا كانوا مستمرين في رسم شخصيات محددة بماض وحاضر ومؤثرات نفسية واجتماعية ، فذلك لا يحجب التصدع الذي اصاب الكاتب وشخصياته على السواء والذي كان من نتائجه ارتجاج في معرفية الكاتب وفي شخصية البطل ، وكان من مسبباته ، عدا عن التأثر بتجديد الغرب ، هزيمة ١٩٦٧ وما تلاها ؛ يضاف اليها ، عند كتاب المشرق العربي خصوصا ، واللبنانيين منهم بوجه أخص ، الحرب اللبنانية [٩٦] ، ويسبقها في وعي الجميع مأساة فلسطين وشعبها .

بدأ التصدع بخدوش خفيفة ظهرت على سطح البناء الصلب ، المتماسك ، لبعض الروايات التي تشكل «طيور ايلول» نموذجا لها . ففي هذه الرواية التي تبدو فيها الكاتبة ممسكة بوضع شخصياتها المعلقة بين الريف والمدينة ، ملمة بتاريخهم وحاضرهم ، ومطلعة على دقائق شعورهم وعلى خفايا نفوسهم ، مسترجعة حكاياتهم وعلاقاتهم من خلال ذكرياتها

(٩٥) بخصوص هذه التسميات انظر العدد الثاني من المجلد الثاني من مجلة فصول (القاهرة، يناير فبراير مارس ١٩٨٢) الذي يحمل عنوان «الرواية وفن القص»، وبصورة خاصة دراسات: سامي خشبة، «جيل الستينات في الرواية المصرية»، ص ١١٧ ـ ١٢٤، محمد بدوي، «مغامرة الشكل عند روائيي الستينات» ص ١٢٥ ـ ١٤٢، سيزا قاسم، المفارقة في القص العربي المعاصر»، ص ١٤٣ ـ ١٥٢، ويحيى عبدالدايم، «تيار الوعي والرواية اللبنانية المعاصرة» ص ١٥٣ ـ ١٧٢ .

(٩٦) يتفق كثير من النقاد العرب على تحديد هذه المسببات، ومنهم على سبيل المثال : الياس خوري، تجربة البحث عن أفق، (الذي يحمل عنوانا اخر هو «مقدمة لدراسة الرواية العربية بعد الهزيمة») مركز الأبحاث الفلسطينية، بيروت ١٩٧٤، والذاكرة المفقودة، ص ٢٥ ـ ٤٢، غالي شكري، سوسيولوجيا النقد العربي الحديث، ص ١٩٣ ـ ٢٠٢، أحمد محمد عطية، البطل الثوري في الرواية العربية الحديثة، ص ٢٠ ـ ٢٩ .

المروية بصيغة المتكلم ، فان الزمام يفلت من يدها بين الفينة والفينة . وسواء حصل ذلك عمدا أم نتج عن عدم قدرة الذاكرة على لملمة نتف الماضي ، فان هذا التراجع ـ وإن بقدر يسير ـ عن المعرفة الكاملة والشاملة عند الكاتب هو أمر لافت للنظر [٩٧] .

قبل أن ننتقل الى مراحل أخرى في معرفية الكاتب ، تجدر الاشارة الى أن وضعية البطل المتأرجح بين مكانين أو عقليتين كانت قد ظهرت منذ اواسط الخمسينات في ثلاثية سهيل ادريس ـ «الحي اللاتيني» ١٩٥٤ ، «الخندق الغميق» ١٩٥٨ ، و «اصابعنا التي تحترق» ١٩٦٢ ـ وفي روايات ليلى بعلبكي وليلى عسيران الصادرة في أوائل الستينات [٩٨] . وضعيات متشابهة ، وطريقة عرض متقاربة لا تتطلب من القارىء كبير جهد لتتبع الأحداث أو لمعرفة ما يريده الروائي . ولكن حتى الحي اللاتيني التي هي اقدمها تنتهي بخدش معرفي ـ يطال القارىء هنا بدل الكاتب ـ عندما ينتقل البطل في اخر كلمات الرواية ، «الآن بدأنا» ، من ضمير المتكلم المفرد الى الجمع تاركا بذلك للقارىء ان يحدد ماهية هذا الجمع ونوعية البداية وغايتها .

بعد بضع سنين ظهرت موجة جديدة من الروايات التي حلت فيها الشروخ مكان الخدوش ، واخذت الكتابة تمثل القلق والتصدع . واللافت للنظر أن هذه الموجة قد طغت بين ١٩٦٨ و ١٩٧٤ وانها تعكس «هذا القلق العام الذي يحاول أن يكشف بنية جديدة للنثر يمكن أن نعطيها صفة عامة هي محاولتها تأسيس أبعاد الحياة اليومية في شكل روائي مفتوح . وفي هذا الشكل تنحل صورة الكاتب ـ المؤلف في التفاصيل أو في الشهادة لها ، ويصبح الشكل الروائي وكأنه مختبر اللغة الجديدة . مختبر يحاول أن يصيغ علامات الزمن المتقطع وان يكتشف شكلا خاصا لا يعكسه في الابداع ولكنه يحاوره . القاسم المشترك الذي يوحد المحاولة الروائية الجديدة هو الوصول الى هذا الشكل الذي يستطيع ان يحاور الازمنة العربية المتداخلة (يتحدث الياس خوري عن الرواية العربية بشكل عام) دون ان يدعي لنفسه القدرة على صياغة آفاقها واحتمالاتها» [٩٩] .

كان أكثر الكتاب تمثيلا لهذه الموجة أملي نصرالله في «شجرة الدفلى» و « الرهينة » وليلى عسيران في «عصافير الفجر» وحنان الشيخ في «انتحار رجل ميت» و «فرس الشيطان» ، وتوفيق يوسف عواد في «طواحين بيروت» ويوسف حبشي الاشقر في «لا تنبت جذور في السماء»

وافتتحت برأينا في «ليل الغرباء» لغادة السمان و «عودة الطائر الى البحر» لحليم بركات [١٠٠] . قد يعترض البعض هنا على تصنيف «ليل الغرباء» كرواية بينما هي ، برأي الكثيرين ، مجموعة قصص . ولكننا نرى ان خيوطا عديدة تجمع بين أجزاء الكتاب وتشكل منها وحدة روائية ، رواية جديدة .

ومنذ أواسط السبعينات ما زالت الموجة الثالثة مستمرة ، موجة تفتتت فيها الشخصيات والنصوص وانتقل السرد من التردد والقلق الى التداعي والابهام والتهافت ، لكانما تقنيات الرواية الفرنسية الجديدة قد وجدت في رعب الحرب اللبنانية وتخبط المثقفين في دوامتها وضياعهم في متاهاتها واحتراقهم في أتونها ،

---

(٩٧) تشير هنا الى ان رواية طيور أيلول قد ظهرت للمرة الاولى سنة ١٩٦٢ كما تذكر عدد من الدراسات التي كتبت عنها.

(٩٨) ليلى بعلبكي، أنا أحيا ١٩٥٨، الآلهة الممسوخة ١٩٦٠، ليلى عسيران. لن نموت غدا ١٩٦٢، الحوار الأخرس ١٩٦٣

(٩٩) الياس خوري، الذاكرة المفقودة، ص ١٩٣ ـ ١٩٤ .

(١٠٠) تجدر الإشارة إلى أن غادة السمان وحليم بركات قد ولدا في سورية ولكنهما عاشا لفترة طويلة في بيروت حيث نشرت أغلب أعمالها.

الارض الخصبة التي تنبت فيها وتنضج . غادة السمان بين «بيروت ٧٥» و «ليلة المليار» ، الياس الديري بين «الفارس القتيل يترجل» و «عودة الذئب الى العرتوق» ، يوسف حبشي الاشقر بين «أربعة أفراس حمر» ، و «المظلة والملك وهاجس الموت» . وحليم بركات في «الرحيل بين القوس والوتر» ، وحنان الشيخ في «حكاية زهرة» ، وفؤاد كنعان «على أنهار بابل» ـ بالرغم من لجوء هذه الرواية الاخيرة الى قرية يبدو ان الحرب لم تصلها ـ ومطاع صفدي في «اصابع القدر» ، وغيرهم ، كل هؤلاء يتماثلون ، وان بنسب متفاوتة ، مع الروائيين الفرنسيين الجدد .

ان المراحل الثلاث التي اشرنا اليها في محاولة تصنيف أولية لروايات فترة تناهز ثلاثين عاما تتجسد بشكل خاص على مستوى البنية والسرد . واذا كنا سنركز هنا على المرحلتين الثانية والثالثة فقط ، فذلك لانهما تعكسان بوضوح ما نحن بصدده من تماثل مع الرواية الفرنسية الجديدة وتأثر بها .

لقد تعرضت بنية الرواية اللبنانية المعاصرة لتغيرات جذرية ، فاختفى فيها ، أو كاد، تسلسل الأحداث الزمني وتواترها واصبح اكثرها يلقي بنا منذ اللحظة الاولى في متاهة الاحداث ودوامتها أو يجول بنا في طبقات متفاوتة العمق من استبطان الشخصيات واستذكارها واستشرافها وكوابيسها . واخذنا ننزلق ونحن نقرأها الى مناطق وفترات أخرى من خلال بنى تكرارية أو تبديلية أو تبطينية . هكذا تلفت نظرنا أملي نصر الله في «تمهيد» الرهينة الى ان كتابتها «ليست سوى قارب من ورق» يصنعه «طفل واقف عند شاطىء البحر» .

«وهي ليست سفينة حلمه ، لذلك يطرحها للموج ، للبحر الكبير ، ليضيّعها في دفق لجته ، او في عيون المتجمهرين على الشاطىء»

«ثم يعود الى الحلم »
«الى التصميم»
«الى البناء الجديد» [١٠١]

بناء تشكيلي اذن ، وهو تشكيلي ايضا عند فؤاد كنعان ، «على انهار بابل» ، حيث يكفي تصفح بدايات فصول الرواية ـ ولن اقول قصصها ـ لنكتشف البنية المكوكية التي تراوح بين استرجاع الماضي ـ «الى ضفـاف المـاضي مضـيت» ـ «أمـليت قلبـي على دفتري» [١٠٢] وتصوير الحاضر من خلال غيوم تخف حينا وتتكاثف أحيانا ، أما «طواحين بيروت» فيحدث عنها ابراهيم السعافين قائلا : «ان من يتأمل الرواية يلاحظ انه قام على تصوير التناقضات والتقابلات التي ترسم الملامح الاساسية للبناء الاجتماعي ، اذ تتحرك الاحداث حركة لولبية ، لا تتجه الى أمام حتى ترتد الى الخلف ، فقد نظن ان هذه الحركة تسعى الى تضييق الهوة التي تفصل بين الشخصيات أو الى ردمها ، فنفاجأ بانها ترتد بشكل حاد لتوسيعها ، من خلال تأزيم المواقف أو تجميدها . » [١٠٣] وتتعقد البنية أكثر عند حليم بركات ويوسف حبشي الاشقر والياس الديري وغادة السمان حيث يشكل تقاطع وتشابك وتداخل الأحداث والأمكنة والأزمنة بنى متاهية توظف فيها كل التقنيات ليس فقط لتصوير الجو المتاهي ، بل لاجبار القارىء على التوقف بين الفينة والفينة ، أو لتقل عدوى القلق والرعب اليه . وحتى الشكل فانه يلعب دورا في ذلك . لنتصفح فقط «كوابيس بيروت»

---

(١٠١) أملي نصرالله، الرهينة، ص٦

(١٠٢) فؤاد كنعان، على أنهار بابل، ص٧٨، ٨١، ٨٤، ٨٨، ٩١، ١٥٣، ١٦٣، ١٨٧ .

(١٠٣) ابراهيم السعافين، «طواحين بيروت بين الرؤية والتشكيل»، مجلة المعرفة دمشق، السنة ٢٦ ، العددان ٣٠٦ ـ ٣٠٧ ، ١٩٨٨ ، ص٥٨

أو «ليلة المليار» . سوف نجد أنفسنا أمام صفحات مقفلة من الزوايا الأربع لا تفصل بين مقاطعها سوى كلمة «كابوس» المتبعة برقم في الرواية الأولى ، أو ثلاث دوائر صغيرة في الثانية . الا يدخلنا ذلك في جو من الرعب المتواصل ، في ليل قلق طويل لا تبدو فيه بارقة من أمل أو قبس من نور ؟ «لم تنته الحدوتة بعد . . ولن تنتهي قبل زمن طويل . . .»[١٠٤] بعد هاتين العبارتين بسطر واحد تتساءل الكاتبة « تمت ؟ »[١٠٥] ولكن الرواية لا تتم ، بل تُفتح من جديد على «مشاريع كوابيس» تعيد القارىء الى جو القلق والرعب . أما «ليلة المليار» فان كثرة حواراتها ترسم على الصفحة المقفلة واقعا مهلهلا ، ممزقا ، مهشما ، يزيد في تصويره النقاط الثلاث التي تتكرر بعد كل عبارة أو جملة ، والتي تلعب دور الفصل ، والوصل ، في الوقت نفسه .

لن نتوسع أكثر في إعطاء الأمثلة ، بل ننتقل إلى السرد . والواقع أن ما ذكرناه عن البنية يلقي بعض الأضواء على تقنيات السرد في الروايات التي نتحدث عنها . والملاحظ، كما سبق وألمحنا، أن أسلوبي السرد الغالبين هما الاسترجاعي، والمتداخل أو المتشابك. والأول هو الذي تتميز به بشكل خاص روايات أملي نصرالله وفؤاد كنعان، واذا أردنا تحديده بشكل ادق لقلنا مع سيزا قاسم بأنه « استرجاع داخلي : وهو الماضي السابق لبداية الرواية، والذي تأخر تقديمه في النص » ، وهو يستحيل في الغالب «مزجيا»[١٠٦] يجتمع فيه زمن الكتابة مع زمن التذكر مع زمن الذكريات (والمزج هنا يختلف، كما نلاحظ، عن تقنية «السرد المزجي» التي سبق وعرفناها في الرواية الفرنسية الجديدة) . أما الثاني، وهو الأكثر شيوعا، فهو الذي ينكسر فيه تسلسل حدث ما بشكل مفاجيء ليبدأ قص حدث آخر ينكسر بدوره، وهكذا تتداخل في الرواية « أصوات متنوعة متفاوتة الزمان والمكان، وتختلط هذه الأصوات بصوت الراوي وتتفاعل معه معطية أبعاداً متناهية، القصة محدودة الزمان والمكان »[١٠٧] ، كما في رواية « الفارس القتيل يترجل » وفي روايات حليم بركات[١٠٨] . وتقنيات السرد المتوازي والمتقاطع ليست غائبة عن هذه الرواية، ففي «بيروت ٧٥» تقدم لنا غادة السمان عرضاً متوازياً لشخصيات روايتها ومشاكلهم وامانيهم وتطور مأساة كل منهم . وتنطلق هذه المتوازيات في الغالب من إشارة الى حالة الطقس تحمل أكثر من مجرد تسجيل وضع مناخي أو تحديد زمني :

أ ـ «الشمس شرسة وملتهبة» (ص٥) ، «لقد أيقظت الشمس جسدها» (ص١٣) .

ب ـ «حين استيقظ أبو مصطفى السماك من نومه كان الظلام دامسا» (ص٢٥)، «كانت هنالك نقطة مضيئة ساكنة في البحر» (ص٣٧) .

ج ـ «انفجر الرعد كصرخة تهديد غامضة» (ص٤٩ ، ٥٤ ، ٥٦، ٥٧، ٦٣، ٦٦، ٦٨) .

د ـ «ساح الحبر واهترأ الورق وجفت حلوق الرجال في «قهوة الليل» وابتلوا بالمطر حتى قاع عظامهم (ص٥٧)، «تمطر تمطر» (ص٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤) .

(١٠٤) غادة السمان، كوابيس بيروت، . ص ٣٣٧.

(١٠٥) بهذا التساؤل نفسه تنتهي رواية ليلة المليار للكاتبة نفسها، كما تنتهي روايتها بيروت ٧٥، بمجموعة من الكوابيس (غير مرقمة).

(١٠٦) سيزا قاسم، بناء الرواية، ص ٤٠ ـ ٤١

(١٠٧) نبيه قنبر، «التنافر والترابط في رواية» عودة الذئب الى العرتوق «لالياس الديري» مجلة الفكر العربي المعاصر، بيروت، العدد ٣٤، ربيع ١٩٨٥، ص ١٠٣ .

(١٠٨) انظر، الياس حوري، الذاكرة المفقودة، ص ١٣٤ ـ ١٤٣ ، خالدة سعيد، حركية الابداع، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ .

وتظهر هذه التقنية أيضا عند حنان الشيخ في « حكاية زهرة » حيث يظهر التوازي على مستوى تبدل الرواة من فصل لآخر »(١٠٩) .

أما السرد المتقاطع، فانه يظهر بصورة خاصة في «عودة الذئب الى العرتوق»، وهو ما يسميه نبيه قنبر بالمبعثر، اذ يقول : «وصعوبة الرواية تكمن في كونها لا تتبع تسلسل الأحداث وترابطها، وإنما تجزئها وتبعثرها تاركة للقاريء مهمة لملمتها وجمعها. وسبب ذلك أن حاضر الرواية لا يشكل إلا جزءا يسيراً من الأزمنة المتعددة المتشابكة التي تحتويها الرواية والتي تظهر مفككة مشتتة»(١١٠).

ان تقنيات السرد هذه تحاول أن تشكل النسيج الفني الذي يعكس بواقعية ضياع الشخصيات في متاهات الحرب والغربة والاستلاب. ونشير هنا إلى أن أيا من هذه الروايات لا تقدم «بطلا» بالمعنى الروائي أو الاجتماعي أو السياسي للكلمة، بل هي تعرض شخصيات ضائعة، حائرة، قلقة، تتعرض لأنواع مختلفة من الضغط والكبت والعنف، ولعل ما تقوله خالدة سعيد عن «عودة الطائر إلى البحر»، ينطبق على أغلب الروايات اللبنانية المعاصرة، وخاصة روايات المرحلة الثالثة: «الأبطال هنا - وكان أفضل لو قالت «الشخصيات» - لا يظهرون إلا من الزاوية التي تضيئها الحرب ولا يقومون بافعال بصورة منفصلة عنها، وليسوا موجودين في الرواية إلا لأنهم تفاصيل في لوحة الحرب كما تمت على الجبهة الداخلية وعلى دروب النزوح المحرقة، أو ميادين المقاومة والمظاهرات. .

«وهكذا . . . الرواية هي قبل كل شيء رواية اضاءة وإعادة نظر، تضيء من الأوضاع والعلاقات ما كان مموها ومقنعا بأعذار وشعارات ومبادىء تهاوت أمام الحرب فبدت الأشياء عارية (الأوضاع العائلية، البنية السياسية، والتركيبية الطائفية)»(١١١)

والضمائر التي تعبر عن هذه الشخصيات تعرضت بدورها للتعددية والابهام، بمعنى أن ضمير المتكلم أو الغائب ينتقل مداورة من شخصية إلى أخرى، فيصبح راوي «حكاية زهرة» متعددا حيث تتكلم زهرة في بعض فصول الرواية، بينما يتحدث في فصول أخرى خالها وزوجها. وعند فؤاد كنعان تنتقل الـ «أنا» من فم لآخر حتى يتحرك بها لسان الكنيسة:

«قبل أن يمر النسيان ويعفو كنيستهم، كنت أنا كنيستهم، وكنت أسمى كنيسة مار قريا قوسى، وتحببا ماركرياكي، كما سماني فؤاد كنعان»(١١٢).

أما في «كوابيس بيروت» فيخيل للقارىء أن مئات الشخصيات - مئات النسوة على الأقل - تعيش هذه الكوابيس الرهيبة، وان عددا آخر مرشح لأن يرى ويروي - ويعيش - كوابيس مماثلة، بل وأشد هولا، وذلك من خلال «المشاريع» المتربصة به بعد أن يعتقد أن الرواية قد «تمت»؟

وقبل إتمام هذه الجولة المقارنة مع «الرواية الجديدة» في فرنسا، نشير إلى تقنية استخدمتها هذه الأخيرة بكثرة، وهي «تقنية المصغرات».

---

(١٠٩) انظر تفصيل ذلك في مجلة فصول، القاهرة، المجلد الثاني، العدد الثاني ١٩٨٢ : يحيى عبدالدايم «تيار الوعي» ص ١٦٥ - ١٧٣

(١١٠) نبيه قنبر، مرجع مذكور سابقا، ص١٠٢.

(١١١) خالدة سعيد، حركية الابداع، . ص ٢٧٠ - ٢٧١.

(١١٢) على انهار بابل، ص ١٢١.

قلما تخلو رواية لبنانية ظهرت بين الستينات واليوم من هذه المصغرات التي تشمل رموزا وأساطير وشخصيات ونصوصا ذاتية أو مأخوذة من كتاب آخرين.

في «الفارس القتيل يترجل» يتداخل نص الكاتب مع نصوص أخرى من بينها العهدان القديم والجديد :

«وضع عواد السلة أمامها.

«ترجَّل الفارس وقدم سيفه مشهورا إلى الأميرة المنبهرة. أخذ عقدا وأهداه إليها : الحبيبة.

«سرت همهمة بين أفراد الحاشية».

«وهي لايا».

«وابتسامتها غمرت الآتي إلى ضجر المدينة من قرميدة معلقة في أعلى الضيعة».

«أتكأ على موعدها في الحال. شعت العينان بالوعد عاد إلى الركن القصي وهدأ كمن اجتاز سباق الألف ميل ركضا. فليكن ليل وليكن نهار. اتخذ الكون ملامحه النهائية».

«فلتكن لايا».

«قامت الدبابير وقطفت الزهرة»[١١٣].

من الصعب أن نتبين في هذا النص الحدود التي تفصل أقوال الكاتب عن غيرها ـ تداخل النصوص والأزمنة ـ ولكن ذلك يصبح أسهل عند آخرين :

«الى ضفاف الماضي مضيت.. مضيت الى قرطبة».

«ها أنا بشرى في زي ولادة..».

«ولادة تتهادى في غلالة أندلسية شفافة، وتروح في القصر وتجيء، وتقول لشاعرها ابن زيدون :

«ان يطل بعدك ليلي فلكم
بت أشكو قصر الليل معك»[١١٤]

وهي تصبح مكشوفة تماما عندما يقدم توفيق يوسف عواد أو غادة السمان ثبتا بالمراجع التي استخدموا نصوصا منها في «طواحين بيروت» و«ليلة المليار»، بعد ان يكون كل منهما قد وضع تلك النصوص بين مزدوجين في سياق الرواية.

ويبلغ تقاطع النصوص وامتزاجها أوجه عند حليم بركات الذي تنطلق كتاباته من خلفية ثقافية واسعة والذي تتداخل في رواياته نصوص ورموز وأساطير تتكامل من خلالها الصورة التي رسمها. ففي رواياته التي هي « دون حدث رئيسي، دون مشكلة خارجية »[١١٥] يستكمل عالم الشخصيات الخارجي والداخلي بمجموعة المصغرات التي يستخدمها. هكذا ترى خالدة سعيد[١١٦] ان «عودة الطائر الى البحر» هي «موشور مثقف نطل من خلاله على عالم حزيران ١٩٦٧. وتبدو الحرب عبر هذا الموشور في صيغ وألوان متعددة : فهي مطهر دانتي يعبرها العربي طريقا الى الخلاص. وهي عودة الهولندي الطائر الى البر في محاولة أخرى، وهي ارتفاع سيزيف بالصخر في محاولة لبلوغ القمة. اما العربي فيبدو عبر هذا الموشور لابسا وجه الكنعاني الذي غدر به أبناء يعقوب وأخرجوه من أرضه، ووجه العريس الذي خلف الضبع عروسه

(١١٣) الياس الديري، الفارس القتيل يترجل، ص ٥٨ ـ ٥٩
(١١٤) على انهار بابل، ص ٨٨
(١١٥) الياس خوري، الذاكرة المفقودة ص ١٤٢.
(١١٦) حركية الابداع، ص ٢٧٣

(فلسطين) في الحكايات الشعبية. تتوالى هذه الصور يرافقها صوت الكاتب المعذب المتسائل الغاضب. ويأتي صوته نهرا يتلاقى بأنهار غاضبة أخرى في العالم. هكذا يهتف مع ديلان طوماس «ولن تكون للموت سيطرة»، أو يردد صوت تي. اس. اليوت بحرقة: «نحن الرجال الجوف»، أو يغني مع الزنوج في أميركا صارخا: «مثل شجرة نمت قرب الماء / لن نقتلع من مكاننا».

تلعب الرموز والاساطير والحكايات الشعبية اذن، اضافة الى النصوص دور مصغرات تعطي للرواية أبعادا مكانية وزمانية وثقافية مختلفة، وتمدها بطاقة تنويع وتحليل وتفسير هائلة. هذا البعد الرمزي والاسطوري والفولكلوري يطالعنا في كثير من عناوين الروايات، من «شجرة الدفلي» الى «طيور أيلول» الى «فرس الشيطان» و«عودة الطائر الى البحر» و«طواحين بيروت» و«على أنهار بابل» وغيرها. أما في داخل الروايات، فمن البديهي أنها أكثر من ذلك بكثير.

وكل هذا وذاك يصاغ بلغة شعرية، أو على وجه الدقة، بلغة الشعر الحديث، نستطيع القول إن الشعر لم يغب يوما عن الرواية العربية وإنه شكل دوما لحمتها أو سداها أو على الاقل بعض غرزات نسيجها. ولكنه في الرواية المعاصرة يشكل وعاء القلق أو يشيد مدارج الاحلام، يلظى في أتون الحرب والرعب والظلم وفي متاهة الغربة والحرمان، أو يعزف - وإن قليلا - لحن الخلاص والتحرر وحنين العودة. الأمثلة أكثر من أن تحصى حتى في الروايات الأقل شاعرية مثل «لا تنبت جذور في السماء» أو «ليلة المليار»:

«بخيبة المستحيل»..

«تنزلق من بين أصابعي كحفنة رمل ملونة عبثا أسرقها عن شطآن الزمن... تنزلق هاربة كالعمر، كالعافية، كالشباب، ككل الاشياء التي أعجز عن شرائها بملاييني... أدور حول قلعتها الحصينة بالصمت واللامبالاة الزاهدة... أفتش عن ثغرة أنفذ منها إلى ذلك البنيان المحكم لأخلخله، فلا أجد إليها سبيلا... ومثاقبي الذهبية لا تجدي مع رخام سكوتها...

«لعله آن الأوان لكسر طلسم سحرها عني... اذا تركتها تستولي على روحي، دمرتني»[١١٧].

عن هذا التغلغل الشعري الى أعماق الرواية المعاصرة يتحدث جبرا ابراهيم جبرا فيقول:[١١٨] «ان العربي اكتشف وقد دخل الآن عصر المدينة بعد ألف سنة من عصر القرية ان حياته بحاجة إلى شكل ابداعي لغوي لعل الشعر قاصر عنه. والموضوع هو موضوع اشكال للتعبير عن طريق اللغة. والرواية نفسها وعاء مذهل بقدرته على احتواء الشعر مضافا اليه الأشكال التعبيرية الأخرى التي تبقى مجذرة بالشعر ولكنها باستعمال النثر في صيغ لم تستعمل في ما مضى تجعل من نفسها اداة ماضية لن يكون لنا غنى عنها في التعبير عن عصرنا من ناحية وعن ذواتنا كقوى فاعلة في هذا العصر من ناحية أخرى».

اذا كان جبرا قد رأى في الصياغة الشعرية للرواية بقوالب نثرية جديدة اختيارا قام به الروائي العربي المعاصر للاسباب والغايات التي ذكرها وجعل بالتالي من هذا الاختيار التفسير الوحيد للاشكال الروائية الجديدة فاننا نرى أن الموضوع أشد تعقيداً وأن أسباب هذا التجديد أكثر تنوعا. ما يخص دراستنا هنا هو

(١١٧) غادة السمان، ليلة المليار، ص ٣١٥-٣١٦.

(١١٨) جريدة اللواء، بيروت، الثلاثاء، ٣١ أيار ١٩٨٨.

العلاقة بالرواية الجديدة في فرنسا. واللافت للنظر ان أغلب الروائيين اللبنانيين الذين ذكرناهم بل قل جميعهم ـ باستثناء حليم بركات ذو الثقافة الانغلو ـ اميركية ـ هم على اطلاع واسع على الثقافة الفرنسية، وان عددا منهم أقام ـ أولا يزال ـ في باريس لفترة أو فترات مختلفة. نذكر ذلك كملاحظة أولية لا تخلو من الدلالة، ونذكر ما يقوله الياس خوري عن الأشكال الروائية الجديدة والذي نراه أكثر شمولية من رأي جبرا :

« الرواية العربية في تجربتها وتجاربها حاولت ان تستعير جميع الاشكال الممكنة والمحتملة. عادت الى الموروث الشعري ومزجته بالحياة، حاولت الرواية التسجيلية شبه المباشرة أو استعارت شكل الرواية الغربية وشيئيتها. ولكنها بقيت وكأنها على أبواب اقتحام مغامرتها، أو كأن مغامرتها الخاصة لا تزال تنتظر انفجارا ما في بنية التعبير، انفجارا داخل المزاوجة بين الموروث الشعري والتأثر بالتجارب الادبية الغربية »[١١٩].

مهما يكن من امر، فهذه كانت محاولة للتعريف بالرواية الجديدة في فرنسا ـ وكما سبق وقلنا ـ بأوجه تأثيرها في الرواية اللبنانية المعاصرة أو تماثلها معها.

يبقى ان نقول ان المحيطين اللذين نشأتا فيهما يتماثلان في تغير كثير من المعطيات الاجتماعية والسياسية والعلمية وفي حلول القلق والضياع مكان وهم الاستقرار والمعرفة الشاملة.

نبلغ هنا نهاية هذا البحث، بل قل بدايته، اذ انه جهد ان يقدم في صفحات قليلة صورة عن تقنيات وتفاعلات فنية يتطلب كل منها بحوثا مطولة ودراسات معمقة. ونختم بقول لجيرار جينات :

« ان انسان اليوم يحس بوقته حالة قلق وبداخليته هوسا وغثيانا، يشعر انه فريسة العبثية والتمزق، فيحاول تثبيت اقدامه بتوجيه تفكيره نحو الأشياء، بتشكيل صور وتصاميم تستعير من الأبعاد الهندسية بعض صلابتها وثباتها. وفي الحقيقة ان هذا البعد ـ الملجأ ـ ما هو الا نسبي ومؤقت، لأن العلم والفلسفة والادب المعاصرين يجهدون في محو ثوابت هذه «الهندسة المريحة» وابدالها بطوبولوجيا متاهية، زمان ـ مكان، مسافات متداخلة، او منحنية، البعد الرابع، وجه غير اقليدسي للكون يشكل مدى دواريا مخيفا يبني فيه بعض الكتاب الجدد متاهاتهم »[١٢٠].

متاهات أدبية تنشد ان تكون مصغرات عن متاهات عالمنا الكثيرة وان تعلمنا كيفية الخروج منها جميعا.

※※※

---

(١١٩) الذاكرة المفقودة، ص١٨٦

(١٢٠) G. Genette. Figures I, PP.IOI-IO2

المصـــادر

بالعربية

- الاشقر ، يوسف حبشي ، لا تنبت جذور في السماء. دار النهار، بيروت ١٩٧١ .
المظلة والملك وهاجس الموت ، دار النهار، بيروت ١٩٨٠ .
- بركات ، حليم ، ستة أيام، بيروت ١٩٦١ .
عودة الطائر الى البحر، دار النهار، بيروت ١٩٦٩ .
الرحيل بين القوس والوتر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩ .
- حلاق، بطرس، «الرواية العربية بين النقد والأيديولوجيا» ، مجلة الفكر العربي، بيروت، السنة الثانية العدد ١٤ ، ١٩٨٠ .
- خوري، الياس، تجربة البحث عن أفق، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت ١٩٧٤ .
الذاكرة المفقودة، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٢ .
- الديري ، الياس، الفارس القتيل يترجل، دار النهار، بيروت ١٩٧٩ .
عودة الذئب الى العرتوق، دار النهار، بيروت، ١٩٨٤ .
- السعافين، ابراهيم، «طواحين بيروت بين الرواية والتشكيل» مجلة المعرفة، السنة الثانية، العدد الرابع عشر، دمشق ١٩٨٠ .
- سعيد ، خالدة، حركة الابداع، دار العودة، بيروت، ١٩٧٩ .
- السمان، غادة، ليل الغرباء، منشورات غادة السمان، بيروت، ١٩٦٦ .
بيروت ٧٥، منشورات غادة السمان، بيروت ١٩٧٥ .
كوابيس بيروت، منشورات غادة السمان، بيروت ١٩٧٦ .
ليلة المليار، منشورات غادة السمان، بيروت ١٩٨٦ .
- شكري، غالي، سوسيولوجيا النقد العربي الحديث، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٣ .
- الشيخ، حنان، حكاية زهرة، بيروت ١٩٨٠ .
- عبدالدايم، يحيى، « تيار الوعي والرواية اللبنانية المعاصرة » ، مجلة فصول، المجلد الثاني، العدد الثاني، يناير، فبراير، مارس، القاهرة، ١٩٨٢ .
- العيد، يمني، في معرفة النص، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٣ .
- عواد، توفيق يوسف، طواحين بيروت، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٤ .
- قاسم، سيزا، بناء الرواية.
- قنبر، نبيه، « التناثر، والترابط » في « عودة الذئب الى العرتوق » للديري ، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد ٣٤، بيروت، ربيع ١٩٨٥ .
- كنعان، فؤاد، على أنهار بابل، دار لحد خاطر، بيروت، ١٩٨٧ .
- مكاوي، عبدالغفور، «قصيدة وصورة»، سلسلة «عالم المعرفة»، العدد ١١٩، نوفمبر /تشرين الثاني، الكويت، ١٩٨٧ .
- نصرالله، أملي، - طيور أيلول، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٦٢ .
- شجرة الدفلى، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٦٨ .
- الرهينة، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٧٤ .

٢ - المراجــع الأجنبيــة :

— Alberes, Rene - Maril, Metamorphoses du roman, Ed. Albin - Michel, Paris, 1967.
— Alberes, Rene-Maril, Histoire du roman moderne Ed. Albin-Michel, Paris, 1970.
— Barthes, Roland, Le degre Zero de l'ecriture, Ed. du Seuil, Paris, 1953.

— Barthes, Roland, Essais critiques, Ed. Seuil. 1964.
— Boideffre, Pierre de, Ou va le roman? Ed. Mondiales, Paris, 1962.
— -----, La cafetiere est sur la table.
— Butor, Michel, Passage de Milan, Ed. Minuit, Paris, 1954.
— -----, L'Emploi du temps, Ed. Minuit, Paris, 1956.
— -----, La modification, Ed. Minuit, Paris, 1957.
— -----, Degres, Ed. Gallimard, Paris, 1960.
— -----, Repertoire I, Ed. Minuit, Paris, 1960.
— -----, Repertoire II, Ed. Minuit, Paris, 1964.
— -----, Essais sur le roman, Ed. Gallimard, Paris, 1964.
— -----, Entretiens avec Georges Charbonnier, Ed. Garnier, Paris, 1967.
— Chapsal, Madelaine, Les Ecrivains en personne, Ed. Juiliard, 1960.
— Genelle, Gerard, Figures I, Ed. Seuil, 1964.
— Janvier, Ludovic, Une parole exigeante.
— Le Robert, Dictionnaire de la langue francaise, article:"Roman".
— Mauriac, Claude, Le diner en ville.
— Michel, Jean-Bloch, Le present de l'indicatif.
— Netzer, Klaus, Der Leser des "Nouveau Roman", Frankfurt am Main, Athenaum, 1970.
— Nouveau Roman: Hier, Aujourd'hui, 2tomes, Ed. 10 / 18, U.E.G. 1972, (ouvrages collectifs).
— Paul Levill, Morton, From a new point of view, Ann Arbor University Press, 1966.
— Ricardeau, Jean, Problemes du Nouveau Roman, Ed. Seuil, Paris, 1967.
— -----, Le Nouveau Roman, Ed. Seuil, Paris, 1978.
— Robbe, Grillet, Alain, Le voyeur, Ed. Minuit, Paris, 1955.
— ----------, "Nouveau Roman, Homme Nouveau" La Renne de Paris, Sept. 1961.
— Robbe-Grillet, Alain, Pour un nouveau roman, Ed. Minuit, Paris, 1963.
— Roudaut Jean, Michel Butor ou le livre futur, Gallimard, Paris, 1964.
— Rousset, Jean, "Trois romans de la memoire", Cahiero internationaux du symbolisme, n°. 9-10-1962.
— Sarraute, Nathalie, Nortereau, Ed. Minuit, Paris. 1953.
— ----------, L'Ere du Soupcon, Ed. Gallimard, Paris, 1955.
— ----------, Les fruits d'or, Gallimard, Paris, 1963.
— ----------, Entre la vie et la mort, Gallimard, Paris, 1968.
— Simon, Claude, Nouveau Roman, Hier, Aujourd'hui, II, Pratiques.
— --------, Orion aveugle, Ed. Skira, Paris, 1970.
— Sturock, John, The French New Novel, Oxford University Press, 1968.
— Thorayal, Bothorel, Dugast, Les Nouveaux Romanciers.
— Wilhelm, Kurt, Der "Nouveau Roman", E. Schimatt Verlas, 1969

صدر حديثاً

أوضاع العالم ١٩٨٧م

تقرير لمعهد المراقبة الدولي عن التقدم نحو مجتمع قابل للبقاء.

تأليف : لستر . براون ـ ساندرا بوستل ـ جود جيكبسون ـ خرستوفر فلافن ـ سينيثا بولوك ـ ادوارد س . وولف ـ وليم يو . شاندلر .

ترجمة : د . عبدالرحمن شاهين ـ د . فوزي سهاونة ـ د . عيسى شاهين ـ د . الياس صليبا ـ د . سمير سهاوي .

عرض وتحليل : أبو المجد حرك

توطئـــة :

ينظر إلى تقارير معهد المراقبة الدولي عن التقدم العالمي نحو مجتمع قابل للبقاء، والمسماة بسلسلة (أوضاع العالم) كأحد أنواع المساعدة العلمية المقدمة إلى مجتمعات العالم، بغرض إعانتها على تفادي المصاعب الخطيرة المحتملة قبل الوصول إليها، ونظرا لأهمية هذه التقارير فقد ترجمت كتب (أوضاع العـالم) ـ بعـد نشرهـا على نطاق واسـع بالـلغـة الإنجليزية ـ إلى عدة لغات أخرى ، وتوجد ترجمات لها الآن باللغات الاسبانية والصينية واليابانية، الى جانب بعض اللغات التي يتكلمها عدد أقل من الناس كالأندونيسية والبولونية والرومانية والتايلاندية، ويقدر مؤلفو هذه السلسلة بأن السوق العالمي للكتاب تطلب ما يزيد على ٢٠٠,٠٠٠ نسخة في العام الماضي وحده.

وبالنسبة للغة العربية فقد شرع في ترجمة هذه السلسلة إليها ابتداء من الكتاب الثالث (أوضاع العالم ١٩٨٦)، الذي قام بترجمته الدكتور فوزي سهاونة رئيس قسم الدراسات السكانية بالجامعة الاردنية، بالتعاون مع لفيف من زملائه، وقد شجع القبول الكبير الذي قوبلت به الترجمة العربية لكتاب (أوضاع العالم ١٩٨٦) على ترجمة الكتاب الرابع (أوضاع العالم ١٩٨٧)، والذي نحن بصدد عرضه الآن . ويفصح الدكتور سهاونة في تقديمه له عن أمله في أن يتمكن من ترجمة هذه التقارير في السنوات القادمة كلما صدرت ليشرك القارىء العربي في فهم أوضاع العالم في فترة حرجة من تاريخ الإنسانية.

ويقع كتاب (أوضاع العالم ١٩٨٧) في ترجمته العربية في حوالي ٤٩٠ صفحة من القطع الكبير، تتضمن أحد عشر فصلا في مختلف الموضوعات الهامة التي عني المؤلفون بالكتابة فيها، والتي تشير في مجملها، وبمداخل مختلفة، إلى مخاطر أنماط معينة

من السلوك الإنساني المعاصر بالنسبة لبقاء الإنسان ذاته على كوكب الارض، وتقترح بعض الحلول الممكنة لمواجهة هذه المخاطر على المدى البعيد.

● ● ●

ففي الفصل الأول: (حدود التغير)، من تأليف كل من لسترر . براون وساندرا بوستل، وترجمة د. عبدالرحمن شاهين، يطالب المؤلفان بإجراء مراجعة قاسية لأفكارنا ولأساليب تعاملنا مع الأرض ونظمها الطبيعية، حيث ينتج عن السعي الحثيث نحو التقدم اختراق حدود الأمان في التعامل مع تلك النظم، وتتهدد بذلك فرص بقاء الانسان ذاته فوق كوكب الأرض.

ويضرب المؤلفان المثل بملاحظة الانخفاض الحاد في مستوى الأوزون الجوي فوق القطب الجنوبي، واحتمالات الخطر الداهم من وراء ذلك، وبارتفاع درجة حرارة الجو نتيجة تزايد نسبة غاز ثاني أكسيد الكربون في الهواء الجوي، والآثار الخطيرة لذلك على مستوى العالم؛ وبتسجيل زيادة سكانية كبيرة في مناطق عديدة بالعالم وما تسببه من ضغط متزايد على موارد الأرض المحدودة.

إن المجتمع القادر على البقاء هو الذي يسد حاجاته دون تقليص إمكانات التقدم للجيل القادم، ولكن الاقتصاد العالمي الذي يتوسع باستمرار تدعمه للأسف نظم طبيعية لم تتوسع، فتتلاشى مثلا مساحات كبيرة من الغابات بسبب التوسع في قطعها، أو بتأثير التلوث في الدول الصناعية، وتتراجع الثروات السمكية والكائنات الحية في العديد من البحيرات والأنهار بسبب الأمطار الحامضية، تلك التي تؤثر أيضا على التربة الزراعية فتحمضها، مع أن التربة المحمضة قد تحتاج الى قرون من الزمن لتستعيد عافيتها.

ومن المآزق التي تواجهها الإنسانية نتيجة ازدياد اعتمادها على الطاقة في إنتاج الغذاء بروز علاقة وطيدة بين أسعار الحبوب وأسعار النفط، وهي علاقة خطيرة لأن احتياجات العالم من الحبوب في تصاعد مستمر، بينما النفط آخذ في النضوب. ويرى المؤلفان أن الممكن الوحيد أمام بلدان العالم الثالث المهددة أكثر بمخاطر هذه الوضعية هو العمل على الحد من الاستهلاك بوقف نمو السكان، مع العمل على إنتاج غذاء أقل اعتمادا على النفط.

إن كثيرا من النتائج الاقتصادية المترتبة على التدهور البيئي نتيجة اختراق الحدود الطبيعية لا يدركها الإنسان إلا بعد حدوثها، وحينئذ تكون تكاليف التكيف مع الأوضاع المستجدة باهظة. فعلى سبيل المثال يقدر الخبراء أن تكاليف التكيف مع تسخين جو الأرض في القطاع الزراعي وحده ستصل الى مئات البلايين من الدولارات للحفاظ على الأمن الغذائي العالمي، هذا غير تكاليف التكيف مع الأوضاع المستجدة الناتجة عن ارتفاع مستوى مياه البحار نتيجة ذوبان أنهار الجليد وقمم الجبال القطبية، ومنها تهديد المناطق الساحلية على مستوى العالم، خصوصا المناطق المكتظة بالسكان في البنجلاديش وأندونيسيا وغيرها، وبعض المدن الكبرى مثل شانجهاي ولندن ونيويورك مثلا.

إن الغابات والأتربة الآخذة في التلاشي، والمناخ المتغير، والتلوث بالأحماض، وإمدادات البترول المتضائلة، وغير ذلك من الإجهادات والضغوط، خاصة إذا ما صحبها صراعات عسكرية، يمكن أن تسوق بعض الأمم أو المناطق في النهاية خلف الحدود الحرجة للاستقرار. وهو أمر يمكن البرهنة على صحته باستقراء عبر الماضي، حيث يثبت تاريخيا أن المجتمعات المتحضرة التي تخطت حدود الاستقرار الطبيعي والاجتماعي في الماضي قد اندثرت حضارتها وانتهت.

ويقرر المؤلفان أن الإحساس بمسؤوليتنا تجاه المستقبل يتطلب وضع أسس علمية وتعاون دولي لمراقبة

نبض نظم دعم حياة الأرض حتى لا نباغت بنتائج خطيرة لممارسات نظنها عادية في حياتنا.

● ● ●

وفي الفصل الثاني : (تحليل الشرك الديموغرافي) من تأليف : لستر. براون، وترجمة د. فوزي سهاونة، يعمد المؤلف إلى تحديد طبيعة المشكلة السكانية، وحجمها، وتأثيراتها الخطيرة على مستقبل العالم الثالث الذي لن يفلح في كبح جماح الزيادة السكانية في المدى القريب.

فحسب نظرية الانتقـال الـديمـوغـرافي لفـرانـك نوتستاين مرت معظم بلدان العالم بالمرحلة الأولى من نمو المجتمعات، التي تكون فيها معدلات المواليد ومعدلات الوفيات عالية، بحيث لا ينمو عدد السكان إلا ببطء شديد، ويلي ذلك دخول المجتمعات في المرحلة الثانية التي تقل فيها معدلات الوفيات نتيجة تحسن ظروف المعيشة والرعاية الصحية، بينما تواصل معدلات المواليد ارتفاعها، فينمو عدد السكان بسرعة كبيرة. وفي المرحلة الثالثة - حيث تقل الرغبة في الإنجاب كما هو الحال الآن في بعض المجتمعات الأوروبية - يحدث نوع من التوازن التقريبي بين معـدلات المـوالـيد ومـعـدلات الـوفيات، وتحقق المجتمعات استقرارا ملحوظا في عدد سكانها.

إن مشكلة الكثير من الدول النامية الآن هي الوقوع في شرك المرحلة الثانية، مع عدم القدرة على الانتقال إلى المرحلة الثالثة، وبذلك يتكرس تقسيم العالم الى مجموعتين متضادتين من الدول، حيث تدفع معدلات النمو السكاني نصف العالم الى مستقبل أفضل، والنصف الآخر نحو تدهور بيئي وانحطاط اقتصادي، وفي هذا النصف الثاني ربما تؤدي العلاقة المتدهورة بين السكان والأنظمة البيئية أو الحياتية المساندة إلى تخفيض مستويات المعيشة، وقد تمنعها من إتمام الانتقال الديموغرافي أبدا، بل قد تعود بها إلى المرحلة الأولى مرة أخرى بارتفاع معدلات الوفيات نتيجة انخفاض مستويات المعيشة.

ويركز المؤلف على ضرورة الوعي بالاتجاهات المتباعدة في الدخل والغذاء، ويلج إلى هذا الموضوع بالمدخل المعتاد لدى كُتّاب الغرب الذين يربطون بشكل مباشر بين انخفاض معدل نمو الاقتصاد العالمي بعد سنة ١٩٧٣م وارتفاع أسعار البترول في تلك السنة ثم الارتفاع الثاني آخر عام ١٩٧٩م.

إن تزامن انخفاض معدل نمو الاقتصاد العالمي مع ظهور أثر العوامل الأخرى على الزراعة، كانجراف التربة، وإزالة الغابات، وغيرها.. أدى إلى انخفاض معدل نمو إنتاج الحبوب، وبالتالي معدل النمو في نصيب الفرد من إنتاج الحبوب على مستوى العالم، ويرى المؤلف أن هذه النتيجة هي التي دفعت العديد من دول العالم الثالث إلى الاستدانة للمحافظة على استقرارها، ولكنها مع الوقت أصبحت غير قادرة حتى على دفع الفوائد المترتبة على ديونها الضخمة.

إن معظم هذه الدول المدينة تتمتع بمعدل نمو سكاني سريع يعمل على تخفيض الدخول فيها، ويزيد من عدم قدرتها على إدارة اقتصادها بشكل جيد.

إن تزايد معدل النمو السكاني مع عدم إجراء المزيد من تقسيم الحيازات الزراعية مثلا، لا يعني إلا المزيد ممن لا أرض لهم في الريف، والمزيد من العاطلين عن العمل، والمهاجرين إلى مدن الأكواخ حول مدن العالم الثالث، والعابرين للحدود السياسية بحثا عن عمل، وكل هؤلاء يكونون مصدرا خطيرا لعدم الاستقرار.

إن النزاع الاجتماعي لابد أن ينشأ من تنافس الأعداد السكانية الكبيرة على المورد الطبيعي المتقلص أو الثابت، وقد يقضي في نهاية الأمر على الانسجام الاجتماعي في المجتمع.

وتثبت الدراسات وجود علاقة أكيدة بين الازدحام والعنف، لما يتسبب فيه الازدحام من إشاعة التوتر الذي تزداد به احتمالات السلوك الشاذ، وتثار من جرائه الفروقات الدينية والقبلية والإثنية والإقليمية.

وفي حقيقة الأمر ليس أمام دول العالم الثالث المزدحمة إلا أن تنجح في وضع سياسات اقتصادية جيدة وبرامج لتنظيم الأسرة، لأن الفشل في ذلك سيعود بها لا محالة إلى المرحلة الأولى من التحول الديموغرافي. ويتنبأ لستر. براون بأن إخفاق الدول النامية في محاولتها لتخفيض معدل المواليد قد يؤدي بها إلى الانحلال عن طريق التدهور الاقتصادي الناتج عن تدهور الظروف الحية، أي كما حدث للحضارات القديمة عندما لم يكن بالإمكان تلبية حاجات السكان.

● ● ●

وفي الفصل الثالث: (تقييم مستقبل التحضر) من تأليف لستر. براون وجود جيكبسون، وترجمة د. فوزي سهاونة، يدين المؤلفان الاتجاه الديموغرافي المهيمن في أواخر القرن العشرين والمتمثل في سكنى المدن (أو التحضر).

فتسارع عملية التحضر في بلدان العالم الثالث، بما ينتج عنه من تركز السلطة السياسية في المدن، قد أدى إلى سياسات تفضيل في الأسعار والخدمات في المناطق الحضرية على حساب المناطق الريفية.

ويزيد معدل نمو المناطق الحضرية في العالم الثالث بما يساوي ثلاثة أضعاف معدل نمو مناطق الحضر في دول العالم الصناعي، مما يربك الإدارة المحلية في نضالها من أجل توفير الخدمات الضرورية، كشبكات المياه والصرف الصحي وغيرها.

إن التنمية الحضرية التي كانت تحدث في الماضي نتيجة النجاح الزراعي، تحدث الآن بشكل مختلف، وتعكس جزئيا فشل الزراعة في الريف، وتكرس الفروق المتزايدة في مستويات المعيشة داخل المدن.

ويقترن التحضر بازدياد كبير في استهلاك الطاقة، وفي حين تعتمد التجمعات الريفية على الموارد المحلية من الغذاء والماء والوقود، فإن المدن لا تستطيع إلا أن تستورد احتياجاتها هذه من خارجها. وفي المناطق الريفية يمكن استيعاب الفضلات محليا، بينما تستهلك المدن طاقة كبيرة في جمع القمامة وتنقية ما تجلبه المجاري، وفي المحصلة يحتاج سكان المناطق الحضرية في العالم الثالث إلى طاقة أكبر مما يحتاجه سكان الريف للوصول الى نفس مستوى المعيشة.

وبسبب النمو الحضري تستهلك مدن افريقيا وآسيا نصف صادرات أمريكا الشمالية من الحبوب بعد أن كانت القارتان في الماضي مصدرتين للغذاء. ومع ذلك يمكن لتلك المدن توفير الكثير من احتياجاتها الغذائية من تنظيم استعمالات الأرض وإعادة استعمال الفضلات وتسويق المنتجات، كما حدث في شنغهاي وهونج كونج وغيرهما.

إن إعادة تدوير ومعالجة المجاري في مزارع مخيطة بالمدن في الدول الصناعية والنامية على السواء يعزز الاكتفاء الذاتي في تلك المدن، وقد حدث هذا بالفعل في الصين وفي الكويت والهند وتايلاند وفيتنام، لإنتاج المحاصيل والخضروات وتربية الأسماك بشكل واسع.

إن إعادة تدوير المواد المغذية إذا تمت من خلال استراتيجية صحية عامة وشاملة يمكن أن تساعد مدن العالم الثالث في تحقيق الاكتفاء الذاتي من الغذاء، مع تخفيض التلوث البيئي في نفس الوقت.

ويتبين الآن بوضوح أن معالجة تلوث المياه وتلوث الهواء في المدن يحتاج إلى الجزء الأكبر من تمويل

الاستثمارات الضرورية للإبقاء عليها، إلى درجة أن اقتصاديات بقاء المدن تتغير الآن وتميل نحو المدن الأصغر .

إن النمو الحضري المكلف هو أحد نتائج التحيز القوي للمناطق الحضرية في مجال الخدمات والرعاية الاجتماعية، وبالتالي هجرة الريفيين لموطنهم لأسباب عديدة، متجهين إلى المدينة، فينخفض الفائض الغذائي المنتج في الريف، ويزداد اعتماد سكان الحضر على الغذاء المستورد، وتضطر الحكومات الى الاستدانة، وتتعرض لضغوط البنك الدولي وصندوق النقد لإلغاء الدعم الغذائي الذي يفيد منه سكان المدن، ولتبني سياسات تسعيرية زراعية تنشط إنتاج الغذاء المحلي، ولكن ما تحتاجه الدول النامية في الواقع للسيطرة على نمو مدن اليوم هو زيادة الاستثمارات في الريف، لتوفير فرص العمل فيه، ولرفع إنتاجيته .

● ● ●

وفي الفصل الرابع : (إعادة تقييم الطاقة النووية) من تأليف خرستوفر فلافن، وترجمة د. عيسى شاهين ، يستعرض المؤلف الآثار المباشرة وغير المباشرة لحادث انفجار مفاعل تشيرنوبل السوفيتي في ٢٦/٤/١٩٨٦م.

لقد قامت الريح ببعثرة ما تتراوح كميته بين ٥٠ و١٠٠ مليون كيري من الإشعاعات الخطيرة طوال ستة أيام استمر خلالها اشتعال النار في المفاعل المنكوب، وتساقطت هذه الإشعاعات على مناطق تبعد أكثر من ٢٠٠٠كم من المفاعل، وتشمل ٢٠ بلدا على الأقل.. ويتنبأ العلماء بحدوث ما بين ١٥,٥٠٠ و١٣٥,٠٠٠ حالة سرطان إضافية، و٣٥,٠٠٠ وفاة إضافية، غير أن الكثيرين من علماء الطب في الولايات المتحدة وأوروبا يتنبأون بأن إصابات السرطان نتيجة الحادث ستفوق كثيرا جميع التقديرات المتفق عليها.

ومن جهة أخرى تكلف الإتحاد السوفيتي مبالغ كبيرة جدا للسيطرة على الآثار المباشرة للحادث، تتراوح ما بين ٣ بلايين و٥ بلايين دولار، هذا غير خسائر البلدان الأخرى.

ومع ذلك كانت الجهود المبذولة بعد الحادث للتقليل من الآثار الضارة بالصحة العامة في الإتحاد السوفيتي وفي شتى الدول الأوروبية دون المستوى المطلوب بكثير، مما هز ثقة الناس بالسلطات الحكومية، وثقة المجتمع بالتقنيات.

بينما جاءت ردود الفعل القوية من الشعوب نفسها، حيث عادت المظاهرات الضخمة المعادية للطاقة والتسلح النوويين تجوب أوروبا كلها، وامتدت المعارضة لتشمل كل الاتجاهات الأيديولوجية، بل شملت المعارضة بعض دول أوروبا الشرقية والإتحاد السوفيتي نفسه.

ومن جهة أخرى برزت الطاقة النووية كمصدر هام للتوتر بين البلدان المتجاورة، ففي أوروبا - التي يوجد بها ٦٠ محطة نووية ضخمة على بعد يقل عن ١٠٠كيلو متر من الحدود الدولية - ظهرت الخلافات بين الدنمارك والسويد، وفرنسا وألمانيا الغربية، وألمانيا والنمسا، والمملكة المتحدة وارلندا .

إن كثيرا من المقترحات المطروحة لحل هذه المنازعات تبدو مثيرة للجدل بسبب الحساسية المرتبطة بالسيادة القومية، ولكن لابد على أي حال من اتفاقيات تأخذ في الاعتبار الآثار التي قد تصيب الدول المجاورة من جراء إنشاء مشروع نووي.

ما يجري حاليا هو إعادة نظر بالفعل في الحلم النووي حتى ان التوقعات القومية والدولية للقدرة الإنتاجية النووية قد هبطت باستمرار خلال الخمس

عشرة سنة الماضية، لأسباب متنوعة حسب ظروف كل بلد، كالتكاليف الباهظة، والمشاكل الفنية، وسوء الإدارة، والمعارضة السياسية.

إن الشيء المفزع حقا هو أن يمتلك العالم حوالي ٤٠٠ محطة نووية مع عدم وجود خطة مقنعة واحدة لمعالجة الفضلات النووية الناتجة، في الوقت الذي يؤكد فيه الجيولوجيون أن تخزين الفضلات تحت الأرض قد يؤدي يوما الى حدوث مشاكل صحية عامة وخطيرة.

ويشير معدل وقوع الحوادث النووية الى احتمال وقوع ثلاث حوادث أخرى بحلول عام ٢٠٠٠، ولا ينظر الى حادثة تشيرنوبل كحد أعلى للخسائر الممكن حدوثها من حادثة نووية، فهناك محطات نووية أضخم بكثير، ومن الممكن أن تكون الظروف الجوية غير مساعدة بأكثر مما كانت عليه عند وقوع حادث تشيرنوبل، وهناك من البلدان ما لا تسمح له إمكاناته بالتعامل مع الحادث بمثل ما استطاع الإتحاد السوفيتي عمله.

ويخلص المؤلف الى القول بأن التخلي عن الطاقة النووية لم يعد خيارا اقتصاديا فحسب، بل يظهر كأفضل طريق عملي يمكننا سلوكه.

● ● ●

وفي الفصل الخامس: (كهربة دول العالم الثالث) من تأليف خرستوفر فلافن، وترجمة د. عيسى شاهين، يعالج المؤلف مسألة كهربة العالم الثالث المثيرة للقلق، لشدة الحاجة التنموية إليها من جهة، ولتكلفتها الباهظة من جهة أخرى بالنسبة للموارد والقدرات المحلية.

وتصل مصاريف كهربة العالم الثالث حاليا إلى ما يقرب من ٥٠ بليون دولار سنويا، يمول معظمها عن طريق الاقتراض الخارجي بالفوائد العالية، ومع ذلك فإن توقعات الزيادة في استهلاك الكهرباء في المستقبل تضاعف من فاتورة مصاريف الكهربة، وتأكد أن أحد العوامل الرئيسية ـ إن لم يكن العامل الرئيسي فعلا ـ في تفاقم أزمة مديونية العالم الثالث سيرجع الى الحاجة الى استثمارات جديدة في مجال الطاقة الكهربائية لمجاراة معدل النمو المتزايد في طلب الكهرباء.

ولمواجهة هذا الطلب أصبح من المحتم ادخال تغييرات أساسية على مستويات أخرى في إجراءات الصيانة، وزيادة الفاعلية، وإنقاص الفاقد في القدرة الكهربية المنقولة.

إن رفع فاعلية الأجهزة الكهربائية بحيث تؤدي نفس الأغراض باستهلاك طاقة أقل هو أحد الأساليب الجديدة التي تستطيع الدول النامية الأخذ بها لمواجهة تزايد الطلب على الكهرباء فيها، إلى جانب وضع نظام تسعيرة للكهرباء يعكس الكلفة الحقيقية لها من أجل توفير الحافز اللازم لترشيد الاستهلاك، أي للاستخدام الفعال للكهرباء.

إن كهربة المناطق الريفية تشكل أحد الاهتمامات الرئيسية التي تشغل دول العالم الثالث حاليا، ولكن لسوء الحظ فإن العديد من برامج كهربة الريف ضعيف الإدارة أو خاطىء أو ضعيف التمويل. وغالبا ما يروّج لكهربة الريف كهدف بحد ذاته، أكثر منه وسيلة لتحقيق أهداف أهم. في حين أن الكهرباء لن تكون أبدا علاجا سحريا لمشاكل الحياة في الريف.

إن الريفيين يستخدمون الكهرباء أساسا في الطبخ، والكهرباء أثمن من أن تستخدم في ذلك، وفي البدائل المحلية كالأخشاب وبقايا المزروعات وروث الحيوانات كفاية لهذا الغرض، كما يمكن إنجاز عمليات ضخ

المياه وطحن الحبوب، والعمليات الميكانيكية الأخرى بطاقة الفضلات العضوية أو الطاقة العضلية للإنسان والحيوان عوضا عن استخدام المحركات الكهربائية. وفي كل الأحوال يجب عدم إعطاء الكهرباء الأولوية المطلقة. لأن كهربة الريف خارج إطار استراتيجية عامة للتنمية مآلها الفشل.

ومن المعضلات التي تواجهها كهربة الريف إيصال الكهرباء إلى المناطق الوعرة والجبلية والمناطق النائية التي يصعب توصيل الشبكة القطرية إليها، مما يوجب اتباع سياسة لا مركزية في كهربة هذه المناطق بالاعتماد على مصادر متجددة للطاقة لا تحتاج الى وقود عضوي، كالمحطات المائية الصغيرة، أو المحطات المعتمدة على مصادر نباتية كالخشب والفضلات الزراعية، أو استخدام قوة الريح أو أشعة الشمس المتوفرة على نطاق واسع في غالبية الدول النامية.

● ● ●

وفي الفصل السادس: (تحقيق إمكانية إعادة استثمار الموارد وتدويرها) من تأليف سينثيا بولوك، وترجمة د. الياس صليبا، نلاحظ التركيز على اثبات الفوائد المتعددة لتدوير المهملات (القمامة).

فاستخراج الألمونيوم من الفضلات بدل إنتاجه من البوكسيت يخفض من استهلاك الطاقة وتلوث الهواء بنسبة ٩٥٪، وأما إعادة تصنيع الورق المستعمل فلا تحفظ لنا الغابات النافعة فحسب، بل وتقلل الى حوالي $\frac{٣}{٤}$ كمية الطاقة الضرورية لإنتاج طن من الورق، كما تخفض كمية المياه المستعملة لإنتاج الورق بحوالي النصف.

إن جرد مكونات نفايات العالم يبين وجود فضلات معدنية أثمن من أفضل الخامات، وفضلات ورقية تعادل ملايين الهكتارات من الغابات، وفضلات بلاستيكية تحتوي على مركبات بتروكيمياوية على درجة كبيرة من النقاء، وإهدار كل هذا هو بمثابة تبديد لمستقبلنا.

ويساهم النمو السكاني وارتفاع مستويات المعيشة وأنماط الاستهلاك العصرية في تكوين فيض القمامة، حتى إن عددا متزايدا من المدن يعاني بشدة من ارتفاع حجم الفضلات، وعدم القدرة على استيعابها والتخلص منها لنقص الإمكانات.

وتعتبر معالجة القمامة الصلبة عن طريق الطمر تحت الأرض أو الحرق أكثر الطرق شيوعا حتى الآن على مستوى العالم، وإن كان لكل من الطريقتين محاذيرها. فالطمر يزيد من احتمالات تلوث المياه الجوفية ويتطلب البحث الدائم المكلف عن أماكن جديدة بدل التي امتلأت، والحرق يتطلب تكلفة عالية لإنشاء المحارق ويتسبب في تدهور نوعية الهواء بمنطقة المحرقة.

وبالرغم من مساعدة التقدم التكنولوجي في الاستفادة من حرق الفضلات الصلبة في الحصول على الطاقة البخارية أو الكهربية، فإن الاعتراضات تتزايد على فكرة الحرق هذه، فإلى جانب الخوف التقليدي من تلوث الهواء تثور المخاوف من المشاكل الكامنة في احتراق قمامة تحتوي على مواد كلورينية (البلاستيك والورق المبيض مثلا)، إذ تتجمع جزيئات هذه المواد بالاحتراق مكونة مجموعة من الفيورنات والأكسينات الثنائية التي تعتبر من أخطر المواد الكيميائية على الصحة العامة، وهذه المخاوف هي التي تجعل من التدوير الحل الأمثل من نواح عديدة، فإلى جانب الفوائد الاقتصادية ينطوي التوسع في تدوير القمامة على فوائد بيئية كبيرة، كخفض الطاقة، وخفض تلوث الهواء، وخفض تلوث المياه، الى جانب خفض نفايات التعدين واستهلاك المياه.

إن تدوير الفضلات هو على العكس مما يتصوره البعض أكثر جدوى من الناحية الاقتصادية من حرقها لتوليد الطاقة، وذلك إذا تم حساب التوفير في الطاقة اللازمة لإنتاج المواد المدورة من خاماتها.

ويتوقف نجاح برامج التدوير على إشراك المستهلكين أنفسهم في العملية، حيث يمكن لهم تصنيف المواد القابلة للتدوير، وفرزها قبل جمعها، والسماح للآخرين بالحصول منها على الأجزاء المفيدة لهم، على أن تقوم الحكومات بتشجيع جامعي النفايات والشركات التي تقوم بتدويرها والاستفادة منها، ويمكن للحكومات تشجيع المواطنين على المشاركة بزيادة عدد مرات الجمع من المنازل، وتشجيع الاتجاه الى التدوير بفرض رسوم مناسبة على جمع النفايات والتخلص منها بالطرق الأخرى ـ كالطمر والحرق ـ بالعمل على خلق طلب مضمون على المنتجات المصنعة من مواد مدورة.

إن القوانين المتشددة الهادفة الى منع تلوث الهواء والماء تجعل التدوير أكثر قبولا، كما يمكن فرض ضرائب على الحاويات التي تستعمل لمرة واحدة للحد من استعمالها، أو منح إعفاءات للمنتجات التي تزيد نسبة مكوناتها المصنوعة من نفايات مدورة على ٥٠٪ .

إن فضلات المنازل تصلح سمادا لتحسين التربة، وتصلح الصحف للتحول الى مواد عازلة في مجال الإسكان، كما تصلح إطارات السيارات في تعبيد الطرق، وهكذا بتنويع الاستخدامات يمكن خلق سوق للنفايات والمواد المدورة، ويؤمّن لنا ذلك فوائد كثيرة في عالم يعاني من نقص الأموال ومحدودية الموارد، ويدفع عشرات البلايين من الدولارات سنويا للتخلص من نفايات سكانه .

● ● ●

وفي الفصل السابع : (المحافظة على الزراعة في العالم) من تأليف لستر . براون ، وترجمة د. فوزي سهاونة ، يحذر المؤلف من حالة الفوضى التي تتسم بها الزراعة في العالم، والتي يمكن التدليل عليها بالاطلاع على الأسباب الخاطئة التي أدت الى حدوث فائض في حبوب الغذاء في أواسط الثمانينات، وهي : زيادة الأرض المحروثة (القابلة للانجراف)، والدعم المفرط للإنتاج، وانخفاض استهلاك الأقاليم الجائعة من الغذاء .

إن زيادة مساحة الأراضي المزروعة بالحبوب قد تسببت في العديد من المناطق في انجراف كميات من التربة أكبر من المتجدد منها، حتى بدأت بلدان هامة كالولايات المتحدة والإتحاد السوفيتي والصين باصدار تشريعات للعودة الى زراعة الأراضي القابلة للانجراف بالأعشاب أو الأشجار بدلا من الحبوب. وعلى ذلك فمن غير المتوقع زيادة منطقة المحاصيل في العالم حتى نهاية القرن الحالي على الأقل، رغم توقعات الزيادة الكبيرة في سكان العالم.

من جهة أخرى أدت إضافة ملايين الهكتارات إلى المساحات المروية في العالم إلى استعمال عال لموارد المياه السطحية والجوفية، ولا يمكن ضمان استمرار هذا التوسع، حيث إن جفاف الآبار، وانخفاض مستوى الماء في طبقات الأرض، والمنافسة المتزايدة على الماء من مصادر غير زراعية كتوليد الكهرباء مثلا، تشير جميعها إلى محدودية الزيادة في مياه الري في المستقبل، ولهذا فإن أرباح الزراعة المروية ستكون معتمدة على الفوائد الناتجة عن الاستعمال الأكثر كفاءة للمياه بدلا من الموارد الجديدة.

ومن الأسباب الخاطئة في إنتاج الحبوب .الزائد الاعتماد الكبير على السماد في زيادة الإنتاج ، حتى

وصل استعمال السماد الى مستوى التشبع في كثير من البلدان الغربية ، وبدأت بعدها فوائد استعمال السماد في التراجع ، أما بلدان العالم الثالث فلا زالت تدعم استعمال السماد للوصول الى اكتفاء ذاتي في الغذاء ، ولتشجيع تبني تقنية جديدة ، ولتنشيط عملية انتاج المحاصيل للتصدير ، ولكن التوسع في استعمال الأسمدة يعمل على زيادة حاجة الزراعة إلى الطاقة المكلفة ، ويقلل من اعتمادها على الأيدي العاملة الرخيصة ، ولا يشجع على استعمال الأسمدة العضوية المتوفرة محليا .

لقد شهدت الزراعة اعتمادا متزايدا على الطاقة منذ بداية القرن ، نتيجة التوسع في استخدام الوقود الحفري لإدارة مضخات الري وتشغيل الجرارات وصناعة الأسمدة ، وغير ذلك من الإستخدامات ، ولكن انخفاض إنتاج البترول ، سيرغم علماء الزراعة في العالم على تصميم طرق لتخفيض استهلاك الطاقة في عالم يحاول زيادة إنتاج الغذاء من أجل تحقيق الأمن الغذائي .

ويعتبر الدين الخارجي المتزايد في العديد من دول العالم الثالث مصدراً من مصادر الخطر على الأمن الغذائي ، فبينما يزداد النقص في الغذاء ستجد بعض الدول نفسها مضطرة لخفض الواردات بسبب المديونية .

ويخلص المؤلف إلى التأكيد على ضرورة الملاحظة في تقدير الإنتاج الغذائي القابل للبقاء ألا يكون ارتفاع الإنتاج في وقت ما على حساب استنفاد قاعدة الموارد التي يعتمد عليها الإنتاج في المستقبل ، وبالتالي لابد من استبعاد الغذاء المنتج على أراض قابلة للانجراف مثلا ، واستبعاد أية أراض مروية بمياه جوفية تزيد كميتها على كمية المياه الواردة إلى البئر .

●●●

وفي الفصل الثامن : (رفع الإنتاجية الزراعية) من تأليف ادوارد س . ولف ، وترجمة د . فوزي سهاونة ، ينطلق المؤلف من تقدير كبير للنتائج الطيبة التي حققها استعمال أنواع محسنة من الحبوب ذات إنتاجية عالية ، مع استخدام الأسمدة والمبيدات الحشرية والمعدات الزراعية ، ولكنه يخلص إلى أن كل ذلك قد لا يكون كافياً لمسايرة الطلب المتزايد على الحبوب في المستقبل، ويرى أن إعادة اكتشاف طرق الزراعة التقليدية من الممكن أن تساهم بشكل أفضل في حل إشكالية الغذاء للأجيال القادمة .

إن إنتاج الحبوب في بعض المناطق المتقدمة زراعياً قد أصبح قريباً جداً من سقف الإنتاج الحيوي لهذه الحبوب، ليبقى مفتاح الزيادة المستقبلية في إنتاج الغذاء في العالم بأيدي فلاحي دول العالم الثالث، أولئك الذين يبلغون حوالي ١,٤ بليون إنسان ، والذين لا يمنعهم عن استخدام أساليب الثورة الخضراء إلا عدم قدرتهم على تحمل تكاليفها .

إن الإفراط في استعمال السماد دون مراعاة الاستخدام الأكفأ له قد لا يكون نافعاً بالقدر الكافي ، أو تقل منفعته ـ كما لوحظ في عدة دول أوروبية ـ عما يكون متوقعا من استخدامه .

أما دول العالم الثالث فتعيش مثقلة بديون خارجية كبيرة تجبرها على الحد من استيراد الأسمدة، مما يستدعي البحث عن بدائل أقل تكلفة مع الاستفادة من الأبحاث الزراعية حول استعمال الطرق الحيوية لزيادة الإنتاجية .

ويرى المؤلف أن استعمال النوعيات الجديدة من الحبوب لا يقدم حلاً نهائياً لمشكلة الغذاء في العالم ، بل يوفر فقط وسيلة لكسب الوقت إلى أن يتمكن العالم من إبطاء معدل النمو السكاني ، لأنه لا يمكن للمحاصيل أن تزيد إلى ما لا نهاية .

إن توفير أنواع من المحاصيل وتكنولوجيات جديدة للمزارعين في البلاد النامية هو أمر ضروري في السنوات المقبلة، ولكن يجب أن يتم ذلك مع تجنب الثمن الاجتماعي والبيئي المصاحب للجيل الأخضر من التكنولوجيات الزراعية.

ويدعو المؤلف إلى إعادة اكتشاف الزراعة التقليدية التي ساعدت المزارعين في المحافظة على خصوبة الأرض لقرون عديدة، كما يدعو إلى الاهتمام بالتقنيات الحيوية الزراعية الحديثة التي تمكن العلماء من التلاعب بجينات النباتات والميكروبات والحيوانات، ومن توفير طرق لتعديل الصفات الوراثية من جيل إلى آخر، غير أن تكاليف هذه التقنيات تعتبر حتى الآن فوق طاقة الكثير من بلدان العالم الثالث، كما أن تزايد تدخل القطاع الخاص في الأبحاث يحمل مخاطر احتكار علمي، ومنافسة شديدة، خصوصا في مجال تحسينات محاصيل رئيسية كالقمح والذرة، حيث يسهل الاتجار بها على نطاق واسع.

● ● ●

وفي الفصل التاسع : (استقرار الدورات الكيماوية) من تأليف ساندرا بوستل ، وترجمة د . فوزي سهاونة ، يلاحظ الاهتمام الكبير بالكشف عن مخاطر تعطيل الدورات الكيماوية نتيجة السلوك اليومي لإنسان العصر ، الذي وصل إلى درجة كافية لتقويض الأنظمة الطبيعية التي تطورت على مر ملايين السنين.

فتقلص الأمن الغذائي نتيجة التغير المناخي، وموت الغابات نتيجة تلوث الهواء بالأمطار الحمضية، والأخطار الصحية الناتجة عن التعرض للملوثات الكيماوية في الطبيعة، هي أخطار يحيط بها جميعاً الكثير من الغموض العلمي ، حتى ان المشكلة المثارة الآن هي مشكلة تغيرات لا يمكن استباق حدوثها في وقت مناسب ، وخصوصاً النتائج المعقدة التي لا يمكن الرجوع فيها .

لقد أثبتت القياسات ارتفاع نسبة غاز ثاني أكسيد الكربون في الجو بشكل مستمر، ويتوقع العلماء وصول نسبة الكربون في الجو إلى ضعف مستواها قبل المرحلة الصناعية حوالي منتصف القرن القادم ، وسترتفع درجة حرارة الجو بسبب ذلك ما بين ١,٥ و٤,٥ درجة مئوية ، متسببة في ارتفاع مستوى المياه في البحار والمحيطات بحوالي المتر .

وإلى جانب الكربون يتلوث الهواء الجوي نتيجة النشاطات العصرية بذرات الكبريت والرصاص والزئبق والكاديوم والنحاس والزنك إلى درجة ثبت ضررها على العديد من الكائنات الحية وعلى صحة البشر .

كما تعمل مجموعة الملوثات من الكلورفلوركربون على تدمير طبقة الأوزون الحامية للحياة في طبقات الجو العليا .

وتؤثر تدفئة جو الأرض بفعل زيادة ثاني أكسيد الكربون تأثيراً كبيراً على الأمن الغذائي ، إذ تعمل على خفض رطوبة التربة في بعض المناطق التي تضم أماكن إنتاج الحبوب الرئيسية في العالم كالتي في أمريكا الشمالية والإتحاد السوفيتي .

كما تواجه الأراضي الزراعية المنخفضة ـ حيث يزرع معظم أرز العالم ـ خطر الغرق نتيجة ارتفاع مستوى مياه البحار، ومنها مناطق مكتظة بالسكان في أقاليم دالات الأنهار الآسيوية الخصبة .

وتشكل التهديدات المتزايدة من التغيرات في كيمياء الجو على الغابات مشكلة أخرى مكلفة في العقود القليلة القادمة، وقد ظهر أن نتيجة الضغوط الكيماوية على الغابات الأوروبية كانت أكثر سوءا من كل

التوقعات ولم يستطع العلماء مطلقا التنبؤ بحجم التلف الذي أصاب الأشجار .

وتمثل التغيرات في التربة أصعب المشاكل، لأنه لا يمكن عكسها في المستقبل القريب ، وبصفة عامة يحدث المزيد من الدمار كلما زاد تراكم الضغوط الكيماوية على مر الزمن ، وفي النهاية يمكن أن تصل الأنظمة الطبيعية إلى نقطة حرجة من الضغط لن تكون قادرة على تحملها بعد ذلك .

وكما هو الحال بالنسبة للأشجار تعمل الملوثات على تهديد صحة الإنسان وتقصير حياته ، حتى إن مكتب التقييم التقني قدر أن خلطة الكبريت الحالية والمواد الأخرى في الهواء قد تسبب ٥٠ ألف حالة وفاة في الولايات المتحدة سنويا .

هذا غير ترسبات المعادن الضارة بالجسم البشري ، والتي يمكن أن تصل عن طريق الأغذية كالأسماك والخضروات المعرضة للتلوث، ويتحقق الضرر بزيادة تركزها في الجسم بمرور الوقت.

ولهذا تبرز الحاجة الملحة إلى وضع استراتيجية لتقليل أضرار الكيماويات على بيئة وصحة الإنسان ، مع ملاحظة أن الإجراءات المطلوبة فورا تحتاج إلى تعاون دولي حقيقي ، لإنقاذ مستقبل الأرض . ويستطيع العديد من المعاهد أو المؤسسات المساعدة في بناء هذا التعاون اللازم ، مثل برنامج البيئة التابع للأمم المتحدة ، واللجنة الاقتصادية لأوروبا التابعة للأمم المتحدة أيضا ، والمجموعة الاقتصادية الأوروبية ، ومنظمة الأرصاد العالمية ، وغيرها.

● ● ●

وفي الفصل العاشر : (التخطيط لاقتصاديات قادرة على الثبات) من تأليف وليم يو . شاندلر وترجمة د . عبدالرحمن شاهين ، يذكّر المؤلف بالأجيال القادمة عند الإجابة عن السؤال : كيف ينتج الشيء ؟ ولمن سيكون ؟ لأن الاقتصاد القادر على الثبات هو الذي يتم مع حفظ الموارد التي لا يمكن استبدالها .

ويرى شاندلر أن أمثل تقسيم للأمم إنما يأتي من مقارنة درجة اعتماد اقتصادها على السوق، والطريقة التي تتبعها في استعمال الموارد، وإذا كانت معظم دول العالم الثالث قد اختارت بعد الاستقلال نمط الرقابة المركزية على الإقتصاد أكثر من تبني اقتصاد الاعتماد على السوق فإنه من الواضح أن العالم يمر الآن بنقطة تحول في الإدارة الاقتصادية، وأبرز مثال على ذلك التحول الصيني المفاجيء نحو آليات السوق، ليس فقط لأن عدداً هائلاً من الناس تأثر من جراء ذلك ، ولكن أيضا بسبب النجاحات الأولى التي حظي بها الإصلاح المثير .

إن إنتاجية الأرض مع إنتاجية الأيدي العاملة هما معياران هامان في الأداء والتنفيذ، ويكشفان دائما عن مزايا أنظمة التعامل مع السوق والاعتماد عليه . كما أن ترتيب الأمم وفق إنتاجية العمالة الزراعية يظهر ميزة فعالة لاقتصاديات السوق، حتى إن استمرار تدني الإنتاجية الملاحظ في الإتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية يجعل من العسير على هذه البلدان أن تكون قادرة على الثبات اقتصاديا .

كما أن عدم كفاية الطاقة (بمعنى الاستعمال غير الكفي لها) يساهم في إضعاف قدرة المجتمع على الثبات، وهو ما يلاحظ في الإتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية، حيث تبين الإحصاءات أنهما سيحتاجان إلى ضعف كمية الطاقة للفرد الواحد كالمتوفرة في الدول الغربية للوصول إلى مستوياتها نفسها في الحياة ومستوى الخدمات .

ويرى المؤلف أن الحكومة عندما تسيطر على الإنتاج الصناعي بشكل مباشر ، تكون الكفاية منخفضة، قبل

أن يستدرك قائلا إن الأسواق وحدها لا تستطيع أن تحفظ الأمم داخل حدود تنمية قادرة على الثبات، أو أن تحل مشاكل الظلم التي تلحق بالإنسان وتقوم بسد حاجاته .

إن الوضع على مستوى العالم يشير إلى توقف الاتجاه نحو رقابة حكومية أكبر على الاقتصاد ، والعديد من الأمم قررت ترك النشاطات الاقتصادية الداخلية تحت تصرف آليات السوق ، وبدأت تجني ثمار هذا التحول، كما هو واضح في الصين وهنغاريا وزمبابوي، أما الأمم التي لم تتحول ، مثل البرازيل والمكسيك ومصر ، فهي متجهة نحو المتاعب .

ويقرر المؤلف أن الإنتاجية الزراعية قد تدنت في كل بلد اتبع سياسة التخطيط المركزي على مدار العشرين سنة الماضية، في حين أنها تستمر في الازدياد في البلدان المعتمدة على السوق، حيث يتمتع سكان هذه البلدان بمتوسط عمر أعلى مع معدل وفيات أقل في الأطفال ، وهي مؤشرات تدل عموما على رفاهية أعظم .

ولكن على الرغم من مزايا الاقتصاد المعتمد على السوق فلا سبيل إلى إنكار ضرورة تدخل الحكومات على مستوى اقتصادي كلي من أجل حفظ توازن النظم الإقتصادية ورقابة التكاليف الخارجية .

● ● ●

وفي الفصل الأخير : (رسم مسار قابل للبقاء) من تأليف ليستر ر . براون وادوارد س . وولف وترجمة د . سمير سماوي ، يقرر المؤلفان أنه لم يعد ممكنا ترك رجال الاقتصاد وحدهم للقيام بمهمة رسم مسار التنمية ، فالاعتبارات الاقتصادية البحتة ، التي لا تأخذ في الاعتبار خطورة الضغوط المتزايدة على أنظمة الدعم الطبيعية ، توشك أن تدفع بمستقبل الحياة فوق كوكب الأرض إلى الهاوية .

إن التحدي العلمي يثبت لنا أن الأرض لا زالت بعد كل هذا التقدم محاطة بجهل يستغرق تبديده وقتا طويلا ، ويحتاج إلى مجهود فكري كبير. والحقيقة ان البحث العلمي لا يزال يعاني من قيود الالتزام الصارم بالتخصص، والتجزئة الجغرافية، وعدم الالتزام ببرامج بعيدة المدى، في حين يمضي العالم في سباق مفروض عليه يحتم العمل على ثلاث جبهات عريضة على الأقل : الالتزام الدولي لإتمام التحول الديموغرافي، والحد من انبعاث الكربون، والقيام بثورة ثانية في مجال الطاقة. ويرى المؤلفان أن هذه الجبهات الثلاث توفر مقياسا يقاس به مدى التقدم العالمي نحو حياة مستقرة.

إن إتمام التحول الديموغرافي في العديد من بلدان العالم الثالث أصبح شرطا لنجاتها من الانهيار البيئي، والتدهور الاقتصادي، وبالتالي التفكك الاجتماعي.

أما مسؤولية إعادة التوازن لدورة الكربون في الطبيعة، فيوزعها الكاتبان على البلدان الصناعية والنامية على السواء، لأنهما معا كانا مسئولين عن اختلالها، حيث تطلق البلدان الصناعية خمسة بلايين طن من ثاني أكسيد الكربون إلى الجو من حرق الوقود، كما أن إزالة الغابات وإحراقها في الدول الاستوائية النامية يطلق ما بين ٠,٦ إلى ٢,٦ بليون طن .

وأولى الخطوات في سبيل تخفيض الكربون المنبعث إلى الجو هي العمل على تخفيض استهلاك الوقود الحفري، بالإضافة إلى إمكانية زيادة فعالية الطاقة في الإقتصاد العالمي، واستعمال مصادر الطاقة المتجددة حيثما أمكن ذلك، إلى جانب الحد من انحسار الغابات والعمل على زراعة الأشجار بشكل واسع لموازنة الضغط الناتج عن إزالة الاحراج .

إن الاستقرار في انبعاث غاز ثاني أكسيد الكربون من الوقود منذ عام ١٩٧٩م بسبب ارتفاع أسعاره هو في

نظر المؤلفين ثورة طاقة أولى . ويطلبان ثورة ثانية للعمل على تخفيض انبعاث ذلك الغاز، وليس فقط استقراره، من أجل درء مخاطر التغير المناخي وتقليل نسبة التحمض، والإقلال من تكاليف التكيف مع المتغيرات .

إن الالتزام بإعادة التوازن لدورة الكربون يستوجب مشاركة جميع البلدان نظرا للمسؤولية المشتركة في الإخلال بتلك الدورة، وأيضا لأن الآثار الناتجة عن ذلك لن تفرق بين دولة وأخرى.

ولكن السؤال الهام الذي يثار مرة بعد مرة هو عن كيفية توزيع المسؤولية تجاه المشاكل العالمية على المجتمع الدولي. ويجيب المؤلفان بأن عددا محدودا من الدول هي التي تحمل مفتاح النجاح في هذا المجال أو ذاك، ويجوز تسميتها (بمراكز القرار).

ففي مجال النمو السكاني تعتبر الصين والهند مركزين للقرار في آسيا، ونيجيريا ومصر في أفريقيا .

وفيما يتعلق بإعادة التوازن لدورة الكربون بالحد من إحراق الوقود فإن القرار هو في يد مجموعة قليلة من البلدان على رأسها الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتي والصين .

وفي وقف انحسار الغابات تكون البرازيل وأندونيسيا وزائير مراكز للقرار المطلوب .

● ● ●

تقييم الكتاب :

إن اشتراك سبعة من المؤلفين في تأليف هذا الكتاب، ثم خمسة من المترجمين في ترجمته، كان كفيلا بالقضاء على تجانس فصوله وأفكاره، غير أن القارىء لا يشعر بانتقالات عنيفة في مطالعته إياه، حتى بدا السياق الى حد كبير وكأنه لمؤلف واحد، وهو ما يعني نجاح المؤلفين في التنسيق فيما بينهم أثناء الكتابة والمترجمين أثناء الترجمة.

وتمتاز الترجمة العربية التي نحن بصددها بأسلوب شيق منساب، يزيد من تشويقه الكم الهائل من المعلومات المتدفقة عبر الصفحات.

والكتاب مزود إلى جانب ذلك بالكثير من الأشكال والجداول التوضيحية، والإرجاعات البيليوجرافية والفهارس التفصيلية، ويبدو جليا حرص مؤلفيه على مخاطبة المثقف العادي والمتخصص على السواء، وإثارة الاهتمام لدى الجميع بالقضايا المطروحة.

أما من حيث الموضوع فيكتسب أهميته من طبيعة القضايا التي يثيرها الكتاب، وتعلقها بمستقبل الحياة فوق كوكب الأرض، والمقترحات المطروحة لتدعيم قدرتنا وقدرة أحفادنا على البقاء .

ولقد التزم المؤلفون بحرص شديد على إثارة قلقنا حول المستقبل من جراء الممارسات اليومية التي تبدو عادية للكثيرين منا ، ويبلغ بهم هذا الحرص مداه، فسادت في الكتاب نزعة من التشاؤم العام بخصوص معظم المسائل المثارة، إبتداء من مشاكل الطاقة، إلى مشاكل النمو السكاني، إلى مخاطر التغير المناخي . . وغيرها، غير أن الصواب في رأينا هو عدم الإدلاء بأحكام قاطعة على هذا النحو فيما يتعلق بالمستقبل.

إن العقل البشري لازال قادرا على صنع المفاجآت، وليس من الحكمة مصادرة المستقبل أمامه، بقطع الطريق على ما يمكن أن يقدمه من اكتشافات وابتكارات لمواجهة تحديات البقاء في القرون القادمة. ومن المعروف تاريخيا أن شهادات علمية في أواخر القرن الماضي كانت تؤكد استحالة انتقال الصوت عبر

الأسلاك، واستحالة تشغيل مصباح كهربائي، وأعلن عالم فيزياء بريطاني سنة ١٨٩٧م أنه لا مستقبل للراديو. وفي العام الأخير من القرن الماضي (١٨٩٩م) طلب تشارلي هـ. دويل مفوض مكتب براءات الاختراع في الولايات المتحدة من الرئيس ماكينلي إلغاء مكتبه لأن كل ما يمكن اختراعه قد اخترع، ومنذ الإدلاء بهذا القول تم اعتماد ما يزيد على ٤ ملايين براءة اختراع في الولايات المتحدة وحدها حسبما ذكر ريتشارد نيكسون في كتابه الأخير (١٩٩٩ ـ نصر بلا حرب).

كما أن توقعات توماس مالتس المتشائمة حول زيادة السكان في القرن العشرين بمعدل أكبر مى الزيادة في الغذاء قد ثبت عدم صحتها حتى الآن.

الحقيقة أن هذه الخلفية التاريخية يعضدها الآن كوننا على عتبات عالم جديد تلعب فيه الإليكترونيات دورا متزايد الفاعلية، وتبشرنا إمكانات الجيل الخامس للحاسبات الإليكترونية بما هو فوق الخيال، إلى جانب الأبحاث المثمرة في مجال زراعة المحيطات والبحار بالنباتات والطحالب الغذائية، وانفتاح أبواب الأمل في مستقبل التقنيات الحيوية الجديدة، إلى آخر ما يمكن أن تكون به الأجيال المقبلة ـ ربما ـ أسعد حظا من الجيل الحالي.

إن أسباب التفاؤل هذه قد لا ترسم لنا حدود الأمان بالنسبة للمستقبل، في ظل مشاكلنا الحالية وسلوكنا مع نظم الأرض الطبيعية، ولكنها مع ذلك كافية لمؤازرة تحفظنا على التشاؤم المفرط الذي لاحظناه في الكتاب، وعلى إصدار أحكام قطعية بالنسبة للمستقبل، دون أن نقصد بذلك مواجهة المشاكل التي أثارها بشيء من اللا مبالاة وعدم الاهتمام.

وبخصوص مشكلة النمو السكاني يقدم الكتاب وجهة نظر وحيدة لا يرى تزايد السكان بها إلا عبئا ضاغطا على الاقتصاد والبيئة، متجاهلا الآراء الأخرى التي ترى أن الثروة البشرية هي طاقة يصح حسبانها من الموارد إذا أمكن إتاحة السبل للإنسان كي ينتج أكثر مما يستهلك

ذلك أن الأصل هو كون الإنسان عنصرا أساسيا من عناصر التنمية، لا تقوم إلا به، ولا يجب أن تكون إلا من أجله. أما الوضع الطارىء الذي يصبح فيه الإنسان معوقا للتنمية فالمفروض أنه وضع شاذ لا يحدث إلا في ظروف سقيمة على المستوى الاقتصادي والسياسي والاجتماعي.

ولا ننفي بذلك أن الزيادة السكانية يمكن أن تشكل عبئا ثقيلا على مسيرة التنمية في بعض المجتمعات، وفي مراحل معينة من مراحل تطورها مما يوجب على الحكومات التعامل معها بالقدر اللازم للحفاظ على ثمار الجهود التنموية ورفع مستوى معيشة السكان. ولكن تعميم هذه الصورة بحيث لا تكون الزيادة السكانية إلا عائقا للتقدم، وبشكل مطلق، لا يعبر في رأينا عن التزام دقيق بمنهج علمي في تناول المشكلة.

أما القضية التي يثيرها الكتاب حول المسؤولية المشتركة للبلدان الصناعية والنامية في تلويث البيئة فقد سبق إثارتها على نطاق واسع، ويجب عدم المساواة المطلقة في تحمل هذه المسؤولية بين الدول الغنية والدول الفقيرة، فأولا حجم المسؤولية نفسه مختلف، اذ أن مساهمة قطع غابات العالم النامي في انبعاث الكربون هي تقريبا نصف مساهمة حرق الوقود في العالم الصناعي، إلى جانب أن الدول الصناعية تملك من الامكانات المادية والعلمية ما تستطيع به القيام بدور أكبر، في حين أن الدول النامية لديها أولويات أخطر بكثير في سعيها لتطوير مجتمعاتها ورفع مستوى

معيشة مواطنيها، وهي بالكاد قد بدأت في تصنيع نفسها. ولقد أبرزت المناقشات الدولية حول ضرورة الحفاظ على البيئة ضرورة توسيع مفهوم البيئة، ليشمل البيئة الإجتماعية إلى جانب البيئة الطبيعية، ومنذ عام ١٩٧٢م رفع شعار (الفقر هو أكبر ملوث للبيئة) .

وفي المرات التي تطرق فيها المؤلفون الى مشكلة مديونية العالم الثالث تم إسناد هذه المديونية الثقيلة إلى سوء الإدارة في البلدان النامية وقلة الموارد وميراث التخلف، أي أسندت المسؤولية إلى البلدان المدينة نفسها، مع إغفال مسؤولية الدول الغنية التي نهبت لقرون ثروات البلدان النامية ومنعتها من تراكم رأسمالها اللازم لانطلاق نهضتها الصناعية، وإغفال الظلم الذي تكرسه القوانين الاقتصادية الحاكمة لعلاقات التبادل التجاري الدولي، حيث تحدد الدول الصناعية الغنية من طرف واحد أسعار المنتجات الأولية التي تستوردها من بلدان العالم الثالث، وتحدد من طرف واحد أيضا أسعار منتجاتها الصناعية التي تستوردها تلك البلدان، وما بين الأسعار هنا وهناك من فارق متزايد لا يمكن تسميته بغير النهب الحقيقي الحديث لبلدان العالم الثالث، وفي النهاية بإغفال الدور الذي لعبته بنوك تلك الدول الغنية حين ألحت على بلدان العالم الثالث في فترة من الفترات لتقترض، ولتزيد من الاقتراض بما يشبه الغواية، حتى أوقعتها في مصيدة الديون بما لا تستطيع معه فكاكا، لتتواصل عمليات النهب عن طريق الفوائد المركبة والأقساط إلى الحد الذي تتدفق فيه الأموال في اتجاه عكسي من البلدان الفقيرة الى البلدان الغنية.

وفي المواضع التي تناول فيها المؤلفون قضية الدعم الذي تقدمه بعض الحكومات الى مواطنيها من خلال أسعار منخفضة للسلع الأساسية، نلاحظ تبني المؤلفين لوجهات نظر المؤسسات المالية الدولية في هذا الموضوع الشائك. والمعروف أن البنك الدولي وصندوق النقد الدولي يضغطان باستمرار على تلك الحكومات لإلغاء الدعم دون النظر إلى مجمل الظروف الاجتماعية والاحتمالات السياسية في البلاد، وفي المرات التي حاولت الحكومات فيها الاستجابة لضغوط صندوق النقد الدولي تفجرت القلاقل السياسية والاضطرابات الاجتماعية، واندلعت المظاهرات وأعمال العنف الشعبية، كما حدث في مصر (يناير ١٩٧٧م)، وفي تونس (يناير ١٩٧٨م)، وفي الدار البيضاء ومدن المغرب عموما (في صيف ١٩٨١م)، وفي تركيا (١٩٧٩م)، وفي السودان (١٩٨٥م)، وفي بيرو (١٩٧٨م)، وفي بنما (١٩٨٥م)، والأرجنتين (١٩٨٥م)، وشيلي (١٩٨٥م)، وجمهورية الدومينكان (ابريل ١٩٨٤م وفبراير ١٩٨٥م) واشتهرت هذه الاضطرابات باسم (اضطرابات صندوق النقد الدولي) .

إن فكر المؤسسات المالية الدولية هو فكر محاسبي لا شأن له بالأوضاع الاجتماعية والسياسية في البلد المدين، أي لا شأن له بحقوق الإنسان في توفير حاجياته الأساسية أو عدم توفرها، ولكن كتاب (أوضاع العالم ١٩٨٧م) يهتم بالإنسان، جيله الحاضر وأجياله المقبلة، والأجدر بمؤلفيه أن يحاولوا اقتراح إجراءات وسياسات تعين على تخطي الأزمة أو تخفف منها بعيدا عن آراء تلك المؤسسات الدولية، على أساس أن الحل ليس في مجرد إلغاء الدعم، بل في علاج الخلل ما بين هيكل الأجور والأسعار والإنتاجية، ولا يصلح معالجة مشكلة الدعم على حساب تفاقم المشكلات الأخرى .

وبتأثير الفكر المحاسبي نرى في موضع آخر شبهة تنكر لحقوق الإنسان الريفي في المجتمعات النامية، حيث يستكثر المؤلف عليه التمتع بمزايا دخول

الكهرباء، كأن حق التمتع بهذه المزايا حكر على أهل المدن، ولقد عبر بعض الكتاب الآخرين في مرات عديدة عن أسفهم لتعود الفلاح على السهر أمام التليفزيون منذ دخول الكهرباء إلى القرية، وأنه يستهلك الكهرباء ليصحو متأخرا، ولتقل إنتاجيته، كأن السهر أمام التليفزيون لا يجوز إلا للمتحضرين من سكان المدن، أو أن التليفزيون ليس في الحقيقة إلا إحدى وسائل التثقيف الذي هو حق للفلاح، وواجب على الدولة، وذو دور في نجاح التنمية ورفع مستوى المعيشة وبث التوعية الصحية والاجتماعية المفيدة .

إن أحد مؤلفي الكتاب ينصح الفلاح باستخدام الخامات المحلية من الأخشاب وروث البهائم والمخلفات الأخرى في الطبخ لأن الكهرباء أثمن من أن يطبخ بها، دون أن يلتفت إلى التحذيرات الأخرى من خطورة التوسع في حرق الأخشاب وخلافها، ومن أثر ذلك على انجراف التربة وعلى زيادة ثاني أكسيد الكربون في الجو. والحل الأمثل في رأينا ليس في منع الفلاح من استخدام الكهرباء، ولكن بتوفير الكهرباء من مصادر محلية متجددة كالماء والرياح وأشعة الشمس .

وفي تقييمنا للكتاب نود أخيرا الإشارة إلى بعض مواضعه التي بدت - على غير الحقيقة - كما لو كانت جزءا من دعاية سياسية، خصوصا في الفصل العاشر الذي كتبه وليم يو. شاندلر معددا مزايا الاقتصاد المعتمد على السوق، مستخدما عبارات جازمة كان من الممكن معالجة الفكرة فيها دون الوقوع في شبهة التحيز، خصوصا وأن الاتجاه نحو اقتصاديات السوق وتدعيم القطاع الخاص الذي أصبح ظاهرة عالمية لا يعبر عن انتماءات أيديولوجية بقدر ما يعبر في الأساس عن الأخذ بدروس التجربة والاستجابة لمتطلباتها .

* * *

بنية العقل العربي
نقد العقل العربي [1]

تأليف : محمد عابد الجابري
عرض وتحليل : محمود الذوادي [2]

أولاً : موضوع بحث الكتاب :

تمثل ظاهرة الثقافة العربية الإسلامية العالمة منذ عصر التدوين حتى عهد ابن خلدون موضوع الكتاب الثاني في سلسلة نقد العقل العربي الذي أصبح محور اهتمام المفكر المغربي الدكتور محمد عابد الجابري . وتشمل كلمة العالمة هنا التراث الثقافي المعرفي المكتوب الذي أنتجته شخصيات ومذاهب ومدارس فكرية عربية إسلامية ذات مكانة مرموقة في عالم المعرفة . ومن ثَمَّ « فبنية العقل العربي » ليس بكتاب وتحليل ونقد لعقل سواد الشعب للأمة العربية الإسلامية ، وانما هو نقد وتحليل لآليات العقل العربي المثقف حتى عصر ابن خلدون . فالكتاب بهذا الاعتبار يمكن وصفه بأنه بحث متعمق ينتسب الى عالم الاجتماع الثقافي بالمعنى المعاصر لهذا المصطلح . وهكذا فهو يختلف على عدة مستويات عن بعض الكتب الأجنبية التي اهتمت بدراسة العقل العربي The Arab mind في الحقبات الأخيرة .

ثانياً : الأنظمة المعرفية للثقافة العربية الإسلامية العالمة :

مما لا شك فيه أن مؤلفات الثقافة العربية الاسلامية العالمة تمثل تراثاً معرفياً ضخماً . وإن مشروع الجابري يمثل في الحقيقة خطوة جادة لعلمنة هذا الزاد المعرفي وجعلنا نقترب أكثر من فهم مُنظم لظاهرة الثقافة العربية الإسلامية العالمية .

فبعروضه وتحليلاته وتعليقاته الضافية على أمهات كُتب وأطروحات هذه الثقافة بين عصر التدوين وعهد صاحب المقدمة توصل المؤلف الى تحديد ثلاثة أنماط من

(١) مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٦ .

(٢) أستاذ الاجتماع بجامعة لورنسيان ، انتاريو ، كندا .

الأنظمة المعرفية التي عرفتها الثقافة العربية الاسلامية العالمة ، وهي النظام البياني (البيان) والنظام المعرفي (العرفان) والنظام البرهاني (البرهان) .

فينتسب إلى النظام المعرفي البياني كل من اللغويين والنحاة وعلماء البلاغة وأصول الفقه والكلام . ويستند هذا النظام المعرفي أساساً الى النص (القرآن والحديث) والإجماع والاجتهاد كسلطات مرجعية في تشييده لتصوره للعالم ومن ثَمَّ خدمة العقيدة الاسلامية وبالأحرى فهمها (ص) (٣٨٤) .

أما العرفان فهو في نظر الكاتب (جملة التيارات الدينية التي يجمعها كونها تعتبر أن المعرفة الحقيقية بالله وأمور الدين هي تلك التي تقوم على تعميق الحياة الروحية واعتماد الحكمة في السلوك ، مما يمنح القدرة على استعمال القوى التي هي من ميدان الإرادة فالعرفان يقوم على تجنيد الإرادة بديلاً عن العقل) ص ٢٥٣)

وأخيراً فإن النظام البرهاني يرى أن اكتساب المعرفة بالكون ككل أو كأجزاء لا يتم إلّا بواسطة قوى الانسان الطبيعية من حس وتجربة ومحاكمة عقلية (ص ٣٨٤) . ويؤكد الدكتور الجابري أن لأرسطو دوراً كبيراً في نشر منهج النظام البرهاني في تراث الثقافة العربية الإسلامية العالمة .

وهكذا يتضح أن عقل هذه الثقافة ليس بالعقل المتجانس ، وإنما يتفرع في الحقيقة الى ثلاثة عقول كما رأينا . ونتجت عن ذلك مصادمات غير هينة بين هذه الأنظمة المعرفية كان أخطرها في رأي صاحب الكتاب تراجع العقل البرهاني أمام العقل البياني الذي عرفه العالم العربي الاسلامي منذ عهد الانحطاط حتى العصر الحديث .

ثالثاً : أمثلة لطبيعة العقل البياني :

إن واحدة من الأطروحات الرئيسية التي شغلت بال العقل البياني هي بالتأكيد ـ في نظر المؤلف ـ **إشكالية اللفظ والمعنى** . فسيبويه ، عالم النحو العربي المعروف ، يُشير بوضوح الى وجود هذه الاشكالية في اللغة العربية الفصحى . فيلاحظ سيبويه أن المتكلم باللسان ـ العربي الفصيح لا يمكن أن يُعبر بهذا الأخير بطريقة صحيحة الاّ اذا أُعطي الاهتمام اللازم للمعنى . أي أن المتحدث بلغة الضاد الفصيحة ينبغي عليه أن يُفكر وهو يتكلم أو يتكلم وهو يُفكر فمنطق المعاني متداخل حتمياً مع اللفظ اللغوي عند سيبويه (ص ٤٨) .

ويسوق الدكتور الجابري بهذا الصدد المناظرة الشهيرة التي جرت في بغداد بين المنطقي أبي بشر متي بن يونس من ناحية وأبي سعيد السيرافي النحوي المعتزلي من ناحية ثانية.والمسألة المطروحة هنا هي في رأي الكاتب مسألة منطقية بحتة ورغم ذلك فإن أبا سعيد السيرافي لجأ الى منطق النحو في القضية المطروحة بين المتناظرْين . فالنحاة على العموم طالما ربطوا بين منطق اللغة ومنطق العقل في تفكيرهم وأبحاثهم . وهكذا تتبين إشكالية اللفظ والمعنى عند العقل كما يراها مؤلف الكتاب .

أما علماء أصول الفقه فإن النص القرآني أو الحديثي يهيمن عندهم على استعمال واستبصار العقل . إن الدلالة والاستدلال عندهم عمليتان مترابطتان : أي أن تصرف العقل في معنى اللفظ محدود الى حدّ كبير . وبعبارة أخرى فإن صاحب الكتاب لا يتردد في القول بأن وظيفة العقل عند علماء أصول الفقه وظيفة ثانوية بالنسبة لمدلول النص . (فالاجتهاد هو إذن عبارة عن استشعار للنص . وإن المعقول هو أيضاً معقول النص) (ص ٥٣) .

تتضح هيمنة القواعد اللغوية أو أبواب الخطاب ، كما كانت تُسمى ، على مؤلفات علماء أصول الفقه . فأبواب الخطاب هذه تشغل ما لا يقل عن ثلث حجم الكتاب . وكمثال على ذلك يُمكن ذكر كتاب « المعتمد في أصول الفقه » لأبي الحسين البصري المتوفي في عام ٤٣٦هـ . علماً أن هذا الكتاب يُعد أهم أربعة كتب في أصول الفقه المعتزلي الممثل الرسمي والمخلص للنظام المعرفي البياني . ومن ثَمّ يخلص الدكتور الجابري الى القول بأن النشاط العقلي في علم أصول الفقه هو نشاط وحيد الاتجاه : الانطلاق من اللفظ الى المعنى كما هو الشأن في علوم النحوْ واللغة والبلاغة : بذلك أصبح ـ في رأي المؤلف ـ الاجتهاد في علم أصول الفقه اجتهاداً في اللغة التي نزل بها الذكر الحكيم وهذا الانشغال بالمسائل اللغوية لدى هؤلاء العلماء تم على حساب اهتمامهم بقضايا مقاصد الشريعة (ص ٦٣) .

يرى المؤلف أن علم الكتاب كجزء من النظام المعرفي البياني لم يتحرر هو الآخر من سطوة إشكالية اللفظ والمعنى ، فقد وضع المتكلمون المسلمون ، والمعتزلة على وجه الخصوص ، حدوداً لا ينبغي تجاوزها في تأويل الخطاب القرآني . إن كتاب المغني في أبواب التوحيد والعدل لأبي الحسن القاضي عبد الجبار يُفصح عن تأثر علم الكلام بإشكالية اللفظ والمعنى الى حد كبير . وهذا مثال آخر يسوقه الدكتور الجابري للتدليل على أن العقل العربي تم إقصاؤه عن الممارسة الفعالة العقلية المستقلة عن الخطاب الشرعي (ص ٧٤) .

إن حال البلاغيين من قضية اللفظ والمعنى تشبه وضعية المتكلمين والنحاة المشار اليها أعلاه ، أي أن علماء البلاغة بقوا سجيني إشكالية اللفظ والمعنى ، ونظرية النظم التي جاء بها عبد القاهر الجرجاني مصداق لذلك . إن هذه النظرية مزدوجة الطبيعة : نظام الخطاب ونظام العقل . لكن علاقة هذين الأخيرين الواحد بالآخر تضاهي علاقة اللفظ بالمعنى ، اذ أن النظم هي تناسق دلالات الألفاظ وتلاقي معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل .

وباختصار ، فإن تكوين العقل البياني يركز اهتمامه أساساً على نظام الخطاب وليس على نظام العقل . وذلك يعني أن البياني لا يعتمد على نظام السببية كما هو الأمر في نظام العقل . ومن نتائج طبيعة العقل البياني ، كما يُشير صاحب الكتاب،الى ظاهرة الاهتمام من جهة ، يتجنب التنافر بين الكلمات في الثقافة العربية الإسلامية العالمة ومن ناحية أخرى ، عرفت هذه الثقافة ظاهرة التنافر بين الأفكار . وما الاعتناء بفن البديع في الخطاب (خاصة في العصر العباسي) الا ملمح من ملامح هيمنة اللفظ على المعنى ، الأمر الذي أدى الى إغفاء عقلي في هذه الثقافة في رأي الدكتور الجابري (١٠٨) .

وبالإضافة إلى إشكالية اللفظ والمعنى التي عرقلت تحرر العقل البياني وصفاء تفكيره العقلاني فإن المؤلف يرى أن « القياس البياني » زاد الطين بلة . إذ أن هذا القياس « لا يعني استخراج نتيجة تلزم ضرورة عن مقدمتين أو أكثر بل يعني إضافة أمر الى أمر آخر بنوع من المساواة . إنه ليس عملية جمع وتأليف بل هو عملية مقايسة ومقاربة . إن القائس لا يصدر حكماً من عنده لا يبتدئه بل يمدد حكم **الأصل إلى الفرع** ، إثباتاً أو نفياً اعتماداً على ما يجده هو من شبه بينهما يبدد القياس » (ص ١٣٨ ـ ١٣٩) .

إن لزوم قياس العقل البياني لزوم غير ضروري ، إذ أن العلة غير مصرح بها بل يلتمسها المستدل من ملامح (إمارات) يعتقد أن الشارع أناط الحكم بها من أدلة في

الشاهد يتخذها مرشداً إلى مطلوبه . ومن ثم يتضح أن اللزوم البياني هو لزوم يقوم على مجرد الجواز وفي أحسن الأحوال على الترجيح . وبالتالي ، فالقياس البياني ليس له قوة منطق اللزوم الضروري التي يستند اليها القياس المنطقي الإغريقي المتمثل في العبارة المنطقية : كل إنسان فانٍ ، سقراط إنسان ، إذن فهو فانٍ .

ويرجع الكاتب طبيعة القياس البياني (التجويزية أو الترجيحية) إلى البيئة الصحراوية التي عاش فيها الإنسان العربي بالجزيرة العربية (فالمبدأ الذي يؤسس وعي سكان هذه البيئة لن يكون السببية ولا الحتمية بل سيكون الجواز : كل شيء جائز . الاطراد قائم فعلاً ، ولكن المتغير المفاجيء الخارق للعادة ممكن في كل لحظة (ص ٢٤٣) .

وبعبارة أخرى ، فإن الرؤية القائمة على الانفصال وعدم الاقتران الضروري بين الظواهر والأشياء هي في نظر الدكتور الجابري رؤية تجعل الجهد العقلي محصوراً في المقارنة بين الأشياء ، بعضها مع بعض ، لا يتعداها . ومن ثَمّ يلخص المؤلف خطأ البيانيين على اختلاف أصنافهم بأنهم (قرأوا النص القرآني بواسطة سلطة مرجعية أخرى هي عالم « الاعرابي » عالمه الطبيعي والفكري الذي تحمله معها اللغة العربية التي جعلوا منها حكماً بدعوى أنها اللغة التي نزل بها القرآن) (ص ٢٤٨) .

رابعاً : طبيعة خاصيات العقل العرفاني

إنّ آليات النظام المعرفي العرفاني تختلف أساساً عن تلك التي رأيناها عند النظام المعرفي البياني . فوسائل كسب المعرفة هنا تتمثل في طرق الإلهام والكشف ، والرياضات والمجاهدات التي يتلقاها ويمارسها العارفون . والعقل العرفاني بالتأكيد متأثر هو بالنظرة الهرمسية عند صاحب الكتاب .

وتحتل إشكالية الظاهر / الباطن فيه مكانة مماثلة للفظ / المعنى في العقل البياني . وهكذا أصبح الزوج : الظاهر / الباطن أداة رئيسية لتأويل الخطاب القرآني . لكن تدخلُّ العامل السياسي في عقلية التأويل هذه لعب دوراً مُهماً خاصة عند الشيعة والمتصوفة .

ويعتقد أهل العرفان أن معرفتهم أفضل من المعرفة البيانية والبرهانية ، إذ أن طريق العرفان هو طريق الأصفياء ، خاصة الأولياء والأئمة .

إن أهم شخصية تمثل النظام المعرفي العرفاني هو في رأي صاحب الكتاب ـ ابن عربي (٥٦٠ ـ ٦٣٨ هـ) : الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر . فهذا الأخير يقول بأن الله جعل في كل شيء من مخلوقاته ظاهراً وباطناً . وأن من يسميهم بأصحاب الإشارات مُعْفَوْن من التقيد بحدود اللغة (اللفظ والمعنى) ، إذ أن فهم القرآن الحق هو فهم بالقلب . المؤمن ينبغي أن يضع نفسه في منزلة الرسول ليسمع مثله القرآن في قلبه ، كما يسمعه الرسول من جبريل . فموقف العارفين هذا موقف خطير جدّاً . إذ أن ذلك يجعل فهم الصحابة أقل من فهم العارف الصوفي أو الشيعي . أما القياس العرفاني فيصفه المؤلف بأنه قياس بدون جامع ، وبدون حدّ أوسط ، وبدون رقابة عقلية . (ص ٣١٥) . فجعل الشيعة مكانة الولاية أفضل من النبوة مصداق لعدم ترابط وتناسق بنية القياس العرفاني فالوليّ عند المتصوف والإمام عند الشيعي لهما السلطة الدينية الكاملة التي لا تنافسها أي سلطة أخرى بخصوص مصداقية المعرفة .

لا يتردد الدكتور الجابري في إصدار نقده اللاذع للموقف العرفاني المشار اليه هنا . فهو في نظره موقف

هروب من عالم الواقع إلى عالم « العقل المستقبل » الذي يلجأ إليه العارف كلما اشتدت وطأة الواقع عليه وعجز عن تجاوز فرديته .

إن النظام العرفاني يلغي الاستبصار بالعقل . « الموقف العرفاني موقف سحري يُلغي العالم ليجعل من « أنا » العارف الحقيقة الوحيدة . إن النظرية العرفانية ذات رؤية سحرية في الصميم . إنها تخلق كل شيء يريده العارف من لا شيء » (ص ٣٧٩) .

خامساً : البرهان في الثقافة العربية الإسلامية العالمة

في محاولة لكسب المعرفة يستعمل العقل البرهاني وسائل مختلفة أساساً عن تلك التي يلجأ إليها كل من النظام المعرفي البياني والعرفاني . فالبرهان يعتمد على قوى الانسان الطبيعية مثل الحس والتجربة واستعمال العقل في اكتساب معرفة الكون ككل أو كأجزاء . ويرى المؤلف أن العقل العربي البرهاني بدأ رحلته مع الفيلسوف العربي الكندي الذي دعا الى وجوب تعلم الفلسفة . وتلاه الفارابي بالتأكيد على أسبقية الفلسفة زمنياً عن الملة (الدين) (ص ٤٢٤) ، وأن ما في الملة مثالات لما في الفلسفة . ويشير المعلم الثاني إلى أن المنطق كفكر فلسفي تنطبق مبادؤه وتعميماته على جميع الناس ، بينما بعض العلوم الأخرى مثل علم النحو يعطي قوانين تخص ألفاظ كل لغة . وفي نظر الدكتور الجابري أن الفارابي كان يتوجه بذلك إلى البيانيين على العموم والنحاة على وجه الخصوص .

إن التأثر بالمنطق لم يفلت منه الإمام أبو حامد الغزالي رغم تصوفه ، فلقد بقي مناصراً له حتى آخر أيامه . ففي كتابه القسطاس المستقيم يحصر الغزالي طرق الاستدلال في القرآن في ثلاثة تؤول كلها إلى القياس الأرسطي . ولم يكتف مؤلف المنقذ من الضلال بالدعوة والتبشير بالمنطق بل ذهب إلى بيان عدم صلاحية الاستدلال بالشاهد على الغائب في العقليات (علم الكلام) اذ أن صلاحية هذا المنهج مقصورة على الفقه حيث لا يطلب اليقين وإنما يكتفي بالظن .

ومع ذلك ، يعيب الدكتور الجابري على الغزالي أن المنطق كمنهج تحول معه « إلى مجرد آلية ذهنية شكلية مثل آلية قياس الغائب على الشاهد » (ص ٤٤٥) .

أما مساهمات ابن سينا في الدفع بالعقل البرهاني إلى الأمام فإنها في نظر المؤلف مساهمات سلبية ، إذ أن فلسفته هي عبارة عن تلفيق بين إلهيات الفارابي وأخرويات الإسماعيلية . وبذلك يدشن كل من الغزالي وابن سينا ما أطلق عليه صاحب الكتاب اسم أزمة الأنظمة المعرفية الثلاثة . إنها أزمة « اختلطت فيها المفاهيم واشتبكت المسائل وتصادمت الرؤى والاستشرافات داخل الثقافة العربية الإسلامية ، مما جعل الحاجة إلى إعادة التأسيس والبَنْيَنَة ضرورة ملحة » (ص ٤٨٢) .

وهي أزمة حادة مست البيان والعرفان والبرهان وأدت الى ما سماه الكاتب « بالتداخل التلفيقي » بين أجزاء النظم المعرفية المذكورة هنا . ومن هنا جاءت أهمية دور مشروع ابن حزم . فمشروع هذا الأخير يصفه صاحب الكتاب بأنه « مشروع فكري فلسفي الأبعاد يطمح الى إعادة تأسيس البيان وإعادة ترتيب العلاقات بينه وبين البرهان مع إقصاء العرفان إقصاءً تاماً » (ص ٥١٤) . وتتلخص معالم هذا المشروع الحزمي في المبادىء التالية :

١ ـ فهم الشريعة اعتمادا على حجة العقل .

٢ ـ العلة هي علاقة طبيعية ضرورية بين الأشياء .

٣ ـ السبب صفة خاصة بالكائنات التي تتمتع بحرية الإرادة.

٤ ـ قياس الفقهاء باطل لأنهم يقيسون على أشياء تختلف في النوع .

ويتأثر ابن حزم في كل ذلك بطبيعيات أرسطو ومفاهيمها ونظرياتها البرهانية في تأسيسه النظام المعرفي البياني على رؤية البرهان . وهذا لا يعني أن ابن حزم لا يترك مجالاً للنص في خدمة الشريعة . إن التمسك بالنص أمر وارد لا جدال فيه . لكن ما ورد فيه نص واضح هو قليل ومحصور . وعليه فإنه يجب استعمال العقل في باقي الأمور غير المحصورة ويمكن القول إذن إن رؤية ابن حزم هي رؤية تؤسس البيان على البرهان تصوراً ومنهجاً .

وجاء ابن رشد بالأندلس لكي يدفع بالمشروع الحزمي إلى الأمام . وتتمثل مساهمة صاحب كتاب « تهافت التهافت » في أنه أصبح شديد الالتزام بنظام السببية . وهو القائل بأن من رفع الأسباب فقد رفع العلم (ص ٥٣٦) . إن التوجه الحزمي الرشدي البرهاني (العقلاني) أثرّ تأثيرا عميقا خاصة على كل من الشاطبي وابن خلدون . فالشاطبي يمثل قصة الفكر العربي الإسلامي في ميدان الفكر الأصولي ، أو علم الشريعة . أما ابن خلدون فقد بلغ بمقدمته أوج الفكر البرهاني في الفكر التاريخي والاجتماعي والسياسي . لكن حركة الفكر البرهاني لم يكتب لها الاستمرار بعد ابن رشد والشاطبي وابن خلدون . « ولكن النقلة التي بشر بها الشاطبي في ميدان علم الشريعة مثلها مثل النقلة التي بشر بها ابن رشد في ميدان الحكمة بدون قابلة ، بدون مستقبل ، تماماً مثل النقلة التي بشر بها ابن خلدون في ميدان ثالث بقي يُنظر إليه داخل الثقافة العربية الإسلامية على أنه يقع خارج شجرة العلوم النقلية منها والعقلية » (ص ٥٤٧) .

سادساً : تعاطف المؤلف مع العقل البرهاني

لقد نجح الدكتور الجابري في هذا الكتاب الضخم (٦٠٠ ص) في معالجة وتحليل تراث الثقافة العربية الإسلامية في صياغة مبسطة سوف تجعل تراث هذه الثقافة في متناول غير المختصين من مثقفي الوطن العربي اليوم وفي المستقبل .

لقد أنجز الكاتب هذا الهدف بأسلوب ومنهج ولغة تتسم كلها بكثير من السهولة والوضوح كما أن المؤلف تقيد بروح التحليل والنقد التي يُشير إليها عنوان الكتاب . فالمؤلف كان أكثر قسوة وأشد نقداً للعقل العرفاني ، وفي المقابل فقد كان أكثر انبهاراً وحماساً وتعاطفاً مع العقل البرهاني . أمّا حدة نقده للعقل البياني فهي تميل إلى الاوصاف بشيء من القسوة . ومن ثَمَّ فولاء الدكتور الجابري هو ولاءٌ وتعاطف بيّنان مع العقل البرهاني المستند الى أسس المنطق الأرسطي على الخصوص . إن مثل هذا الموقف من البرهان يصدق عليه قول المتنبي بعد تصرف :

العقل البرهاني قبل البياني والعرفاني
هو الأول وهُما في المحل الثاني

إن هذا التحمس للبرهان دفع ـ في رأينا ـ بالمؤلف الى نوع من التحيز لصالح العقل البرهاني فهو من جهة يمجد قياس المنطق الأرسطي المتعقل لكونه قياساً تتسم استنتاجاته باليقينية أو لزوم الضرورة كما هو الشأن في العبارة المنطقية المشهورة : كل انسان فانٍ ـ سقراط إنسان اذن فسقراط فان .

ومن جهة ثانية فإن الدكتور الجابري يحقر من مكانة القياس البياني الذي طالما يستعمل علاقة الأصل بالفرع

كمنهجية للتوصل إلى استنتاجات وتشريعات كما هو الأمر في تحريم الفقهاء للنبيذ (فرع) قياساً على الأصل الذي هو الخمر .

سابعاً : العقل البياني أقرب إلى روح العلم الحديث

إن نقد الكاتب للقياس البياني يعود في نظره إلى كون استنتاجاته ليست إلا احتمالية أو ترجيحية في أحسن الحالات ، وبالتالي فهي غير دقيقة ولا يقينية مثل تلك التي يتوصل اليها المنطق الأرسطي . إن المتأمل في مدى التعاطف الذي يكنه صاحب الكتاب إلى القياس الأرسطي لا يسعه إلاّ أن يجد بعض المآخذ في مثل ذلك الموقف . فيقينية استنتاج أنّ سقراطاً فانٍ ثم التوصل اليها بسبب أن المقدمتين : كل إنسان فانٍ ـ وسقراط إنسان تتصفان باليقينية المطلقة بخصوص الفناء النهائي لبني البشر . إن الدكتور الجابري يدعو الى إيجاد قياس شرعي إسلامي يتمتع بنفس درجة اليقينية التي يعرف بها قياس المنطق الأرسطي . نحن نرى أن دعوة مثل هذه هي دعوة غير واقعية وتتعارض مع طبيعة الأشياء . فقياس الفقهاء والمشرعين المسلمين طالما تتناول قضايا اجتماعية وإنسانية لم يرد فيها نص واضح ، لا في القرآن ولا في السنة ، وبالتالي فالمسائل والقضايا الجديدة هي نتيجة حركة تغير وتطور المجتمعات الإنسانية مع مُرور الزمن .

فالقياس البياني المستند إلى نموذج النص / الفرع يمثل منهجية واقعية لمعالجة ما يجدّ من قضايا ومشاكل في صلب المجتمعات الإسلامية المتطورة . نعم إن ما يتوصل اليه الفقهاء عن طريق القياس بخصوص الفرع لا يتصف باليقينية التي يتصف بها الأصل . إنه لضربٌ من اللاواقعية والتبسيط أن ننشد اليقينية المطلقة من استنتاجات قياسية حول قضايا ومسائل إنسانية معقدة لم يبينها الشرع . فالدعوة إلى معرفة يقينية في مثل هذه الأشياء هي دعوة غير واقعية ومناقضة للروح العلمية نفسها . والواقع أن كل ما يرجوه المشرع الذي يلوذ إلى المنهج القياسي هي تشريعات احتمالية أو ترجيحية . ولعل كل التشريعات التي اجتهد فيها البشر بأساليبهم المتعلقة والمتنوعة لا يمكن أن تكون مصداقيتها إلا احتمالية أو ترجيحية بالنسبة لصالحهم . فالقياس هو عملية اجتهاد . والمجتهد يُخطىء ويصيب . إن الدكتور الجابري يضرب عرض الحائط بالقياس الذي يُمكن أن يخطىء . ويطلب قياساً يكون دائماً مُصيباً . إن طلباً مثل هذا يخرجنا من عالم الإنسان . وهو في رأينا موقف غريب للمؤلف الذي عرف عنه التزامه بالواقع الاجتماعي للإنسان . ومن الغريب في هذا المضمار أن صاحب الكتاب لا يُشير ، لا من قريب ولا من بعيد ، إلى تخلي العلم الحديث كُلياً تقريباً عن منطق أرسطو في كسب المعرفة . وإن المنطق التجريبي للعلم طالما يستعمل منهجية تشبه القياس البياني المستعمل لنموذج الأصل / الفرع . فعلى مستوى العلوم الدقيقة ، تستعمل العلوم البيولوجية أو الطبية مثلاً الحيوانات (الأصل) كميدان لتجاربها لبعض المخدرات أو الأدوية والتلقيحات ضد الفيروسات كفيروس مرض الآيدز Aids، نظراً لأن أخلاقيات هذه العلوم تمنع ممارسة مثل هذه التجارب على بني الإنسان . وطالما ينساق العلماء المجربون إلى تعميم نتائج الأصل (الحيوانات) على الفرع (الإنسان) . وهذه التعميمات هي تعميمات احتمالية أو ترجيحية بالنسبة لمدى تأثر الإنسان (النوع) بتلك الأدوية والمخدرات لوجود بعض الاختلافات ـ وإن كانت ضئيلة ـ بين الإنسان والحيوان . أما استعمال منهجية الأصل / النوع في العلوم الإنسانية والاجتماعية الحديثة فهو واقع لا يحتاج إلى إثبات فعلماء الاجتماع والسياسة والاقتصاد الغربيون يعممون كثيراً من نظرياتهم حول التنمية والتحديث إلى مجتمعات العالم

الثالث ، علماً بأن منبت هذه النظريات هو واقع المجتمعات الغربية (الأصل) وليس واقع المجتمعات النامية (الفرع) . ودلت الدراسات في هذا الميدان على أن أكثر ما يمكن أن تتصف به مصداقية العلوم الاجتماعية ونظرياتها هي الاحتمالية أو الترجيحية لا اليقينية بخصوص العلاقة بين الأصل والنوع .

وبشأن هذه النقطة بالذات فالعلوم الاجتماعية والنفسية الغربية تعيش منذ السبعينات تحولاً ايبستيمولجياً بخصوص طبيعة قوانين الظواهر النفسية والاجتماعية . فالحتمية الاجتماعية (السوسيولجية) المتصلبة التي دعا إليها عالم الاجتماع دور كايم Dur-keim وأتباعه ، أو الحتمية السلوكية القاهرة التي قادها عالم النفس سْكِنرْ Skinner أصبحتا مرفوضتين اليوم بين عدد كبير متزايد من علماء الاجتماع والنفس . وبعبارة أخرى ، فإن استنتاجات هذه العلوم أو تكهناتها هي في النهاية ذات طبيعة احتمالية أو ترجيحية لا يقينية،فتعدد العوامل التي تؤثر في الظاهرات النفسية والاجتماعية تجعل من الصعب الحديث عن استنتاجات يقينية على مُستوى الفرع كتلك التي يتوصل اليها المنطق الارسطي بخصوص يقينية فناء سقراط الإنسان . وبكل صراحة ، فإن طلب اليقينية التامة من القياس البياني في كل استنتاجاته هو طلبٌ غير مشروع ، ومن ثم ، غير واقعي وغير علمي . وفي رأينا أن الذي ينبغي أن نعيبه على العقل العربي ليس هو استعماله للقياس البياني وإنما هو توقفه عن الاجتهاد ـ بالقياس وغير القياس ـ في قضاياه ومشاكله بالرجوع إلى تراثه ومبادىء حضارته ، بدل سقوطه في دوامة التقليد والتطفل بين أيدي المهيمنين على مصيره .

ثامناً : حدود العقل البرهاني

من القضايا الأخرى المركزية التي ينتقد فيها المؤلف العقل البياني العربي الإسلامي مسألة وقوع هذا الأخير في سجن النص على حساب استعمال العقل البرهاني .
إن إشكالية النقل والعقل إشكالية مطروحة منذ العهود الأولى لنشأة الثقافة العربية الإسلامية . فموقف علماء المسلمين الأوائل من هذا كان يؤمن بعدم وجود التناقض بين اجتهاد العقل وروح النص . وبهذا الصدد فإن الدكتور الجابري ـ تحت انبهاره بالبرهان ، يكاد يعطي الانطباع بأن التفكير العقلي البرهاني لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهذا ما جعله مفرط التحمس في جعل هذا النوع من التفكير الأول والأخير في كسب معرفة موثوق بها حول ظاهرات الكون المتنوعة وهو موقف يتطلب الوقوف عنده . في رأينا ينبغي الإشارة هنا إلى ملمحين لهذا العقل :

١ ـ إن المعرفة المكتسبة عن طريق البرهان تبقى في النهاية معرفة محدودة المصداقية خاصة فيما يتعلق بالظاهرات الأكثر تعقيداً ، وهذا باعتراف الكاتب نفسه .

٢ ـ إن التفكير العقلي البرهاني في معناه العام الحديث ، لا يمكن له أن يفكر ويتعقل في فراغ . وإنما هو يقوم بعملية التفكير والبرهان في إطار اجتماعي ، ثقافي ، سياسي ، ديني ، أيديولجي . . . ومن ثَمَّ فتحرره المطلق من هذه المؤثرات غير وارد على مستوى الواقع والموضوعية . فمسألة إباحة تعاطي الكحول مثلاً في المجتمعات الغربية لا يمكن إرجاعها إلى برهان عقلاني بحت . فالأدلة الموضوعية على سلبيات إباحة الكحول تفوق بكثير إيجابياتها . ورغم المعرفة بذلك فإن أكثر ما قامت به بعض هذه المجتمعات هو القيام بحملات توعية لتعاطي الكحول باعتدال (كما هو الشأن في فرنسا) ، أو منع تعاطيها عند قيادة السيارة ، كما هو الحال في بعض المقاطعات الكندية اليوم . فالعقل

البرهاني ليس إذن بكامل الحضور بخصوص القضايا التي تتصف بتعقيدات ثقافية وأيديولجية وسياسية واقتصادية . . . وهنا يأتي ـ في رأينا ـ دور النص القرآني والحديثي في البت في المسائل الشائكة مثل إباحة أو منع تعاطي الكحول بالمجتمع ، وهو ما جاء فيه القول الفصل في القرآن بالنسبة للمجتمع الإسلامي الحق . وهذا يعني أن المعرفة في الثقافة العربية الإسلامية العالمة تستند إلى مصدرين : المعرفة البرهانية والمعرفة النصية . إن الواحدة مكملة للأخرى في المنظور الإسلامي .

تاسعاً : مدى شرعية موقف المؤلف من العقول الثلاثة

والسؤال الذي يطرح نفسه هو : ما هي شرعية مثل هذا النقد الذي تردد في صفحات النصف الأول من هذا الكتاب الضخم ؟ إن المنهجية التي استعملها المؤلف لتحديد طبيعة العقل البياني هي من نوع تحليل الخطاب البياني . أي أن صاحب الكتاب درس وحلل المؤلفات العربية الإسلامية البارزة لعلماء النظام المعرفي البياني منذ عصر التدوين حتى عهد ابن خلدون . وبعد القيام بالوصف المنهجي التفصيلي والمنظم لآليات العقل البياني الذي سطا على الثقافة العربية الإسلامية العالمة أصدر المؤلف حكمه المتشدد على هذا العقل .

فالمؤلف يبدو وكأنه كتب الكتاب ليصف العقل العربي ولينتقده في المقام الأول وليس ليحلل ويتفهم الظروف الموضوعية التي أفرزته وشكلت طبيعته . فلا يكاد المرء يجد في القسم الذي خصصه المؤلف في كتابه لمناقشة العقل البياني أي محاولة جادة لفحص هذا العقل في ضوء ما يُسمى اليوم بعلم اجتماع المعرفة Sociology of Knowledge فمركزية إشكالية اللفظ / المعنى في بنية العقل العربي البياني لم تلق اهتماماً من صاحب الكتاب لتبرير شرعية وجودها في هيكل الثقافة العربية الإسلامية العالمة . فاستناد العقل البياني الى النص له ـ في رأينا ـ ما يبرره إذا نظرنا إليه بمنظور علم اجتماع المعرفة . فمما لا شك فيه أن القرآن هو المؤثر الأول على طبيعة الظاهرة الإسلامية العربية بما فيها ثقافتها العالمة . إن أول ما يتميز به القرآن على المستوى البياني هو إعجاز لغته ، وإن هذا الكتاب يعلن في وضح النهار أن فيه إشارات ومعلومات عامة حول كل شيء « . . . ما فرطنا في الكتاب من شيء » . كما أن الاسلام يؤكد أنه خاتم وأكمل الرسالات السماوية . فليس بالعجيب إذن أن تحتل المعرفة بألفاظ ومعاني اللغة التي نزل بها القرآن الصدارة في التكوين الثقافي والتفكير المعرفي عند عدد كبير من المفكرين العرب والمسلمين . وبالتالي فنحن نرى أن اهتمام هؤلاء باللفظ والمعنى ـ وهو أكثر ما يعيبه المؤلف عليهم . هو نتيجة حتمية ـ لا غرابة فيها ـ لهذه الرسالة الدينية الجديدة التي تمثل فيها لغة الوحي السماوي ملمحاً رئيسياً من ملامح إعجازها . وبالتأكيد ، فإن الإعجاز اللغوي القرآني هو سمة يتميز بها الإسلام كدين عن الرسالات السماوية السابقة ، كما تتميز بها الحضارة العربية الإسلامية ـ إلى حد كبير ـ عن الحضارات الإنسانية الأخرى .

وفي هذا الصدد يمكن القول بأن معظم الحضارات الإنسانية عرفت البرهان والعرفان . . فالحضارة العربية الإسلامية تشترك فيهما مع الحضارات الإنسانية الأخرى . إن ما يميز هذه الحضارة إلى حد كبير هو أساساً العقل البياني . فالنظام المعرفي هو إذن حصيلة منتظرة لمثل تلك الخلفية التي يمتزج فيها تأثير العامل اللغوي بآليات التفكير في فهم النص كمرجع رئيسي لجذور طبيعة نشأة الحضارة العربية الإسلامية وتطورها .

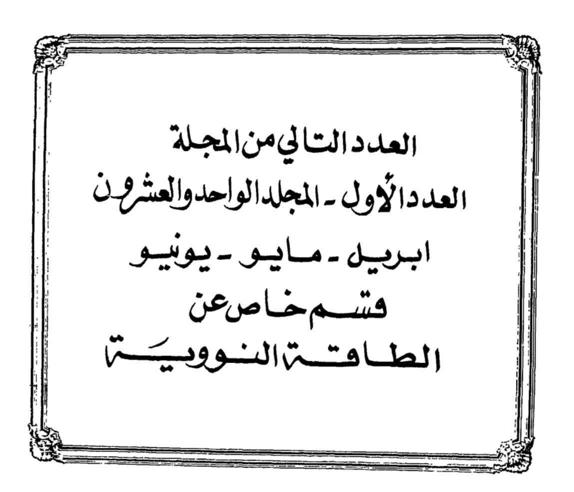
إن سكوت الكاتب على جذور الظروف التي أنتجت

العقل البياني أدى ـ في رأينا ـ بالدكتور الجابري إلى فقدانه تقيّده المعروف بقوانين الحتمية الإجتماعية التي أكدها في مناقشته للتفكير الفلسفي العربي الإسلامي في كتابه « نحن والتراث » ففي هذا الأخير أبرز حتمية اجتماعية ثقافية فسّر بها ونقد بها بصورة أكثر إقناعاً الفرق بين الفكر الفلسفي الإسلامي العربي ، في كل من المشرق والمغرب ، حتى عصر ابن خلدون . أما صمته هنا عن الإفصاح عن حتميات العقول الثلاثة فيعكس في رأينا خللاً منهجياً ويضعف بالتالي قوة الأسس لشرعية نقده .

إن شدة ارتباط العقل العربي الإسلامي بالنص تمثل خصوصية لا جدال فيها حتى عند أصحاب العقل البرهاني مثل ابن خلدون . فصاحب المقدمة لا يتجاهل النص القرآني في تحليلاته الاجتماعية التي حفلت بها فصول هذا الكتاب . فبخصوص ظاهرة الترف وانحلال الحضارات يسوق ابن خلدون الآية المناسبة لتأكيد العلاقة الوثيقة بين البرهان والبيان في الثقافة العربية الإسلامية العالمة « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » .

من المآخذ الأخرى التي تستحق الإشارة إليها هنا نسيان الكاتب مناقشة سبب عدم تأثر كل من العقل البياني (حسب اعتقاد صاحب الكتاب) والعقل العرفاني بدعوة الإسلام الصريحة إلى مدى أهمية الاهتداء بنور العقل بالنسبة للكائن الإنساني . إن تأكيد القرآن على ذلك لا يحتاج إلى بيان . إن عدم تأثر نظامي العرفان والبيان بكل من المنطق الأرسطي العقلاني من جهة ، ودعوة الاسلام إلى التدبر والتفكر والتعقل من جهة ثانية (وهذا حسب مقولة المؤلف) تُشابه إلى حدّ كبير العقل العربي السياسي . فهذا الأخير لم يتأثر بعد فترة الخلافة الراشدة القصيرة ، لا بمبادىء الديمقراطية الغربية حديثاً ، ولا بمبادىء الشورى الإسلامية قديماً وحديثاً . إن صمت المؤلف عن إثارة مكانة العقل في الإسلام (وهو العاشق للعقل والبرهان وآليتهما) لا بد أن تثير بعض التساؤلات ، عند البعض على الأقل . هل يدل ذلك على أن الكاتب لا يؤمن بأن ما يعطيه الإسلام للعقل من حرية غير كاف لإعطاء العقل وظيفته الكاملة في تحقيق عمليات البرهان الناضجة ؟ وفي انتظار الاجابة عن تلك التساؤلات يبقى انبهار الدكتور الجابري بالعقل البرهاني وآلياته ـ قبل أي نظام معرفي آخر ـ حقيقة لا جدال فيها . ولعل شدة هذا الانبهار هي التي جعلته لا يولي اهتماماً كبيراً إلى أسباب ظهور النظام المعرفي البياني والعرفان في الثقافة العربية الإسلامية العالمة . ولعل ذلك الانبهار نفسه هو الذي جعله غير قادر على الحديث عن العقل العربي الاسلامي الذي تواجد فيه البرهان مع النص (أو البيان) ، جنباً إلى جنب ودون أن يضر هذا بمسيرة العلوم باختلاف أنواعها التي عرفتها الثقافة العربية الإسلامية حتى عهد ابن خلدون . فالصراع بين البيان والبرهان ، أو التناقض بينهما ، في الثقافة العربية الإسلامية ليس إذن قضية حتمية كما عرف ذلك تاريخ العلوم الغربية الحديثة منذ عصر النهضة . وخاصية العقل العربي الإسلامي العالم هذه لم يعتن المؤلف بإبرازها وشرح حيثياتها . وهي تستحق ـ في نظرنا ـ اهتماماً أكثر في كتاب يركز على أنظمة المعارف للثقافة العربية الإسلامية .

***


العدد التالي من المجلة
العدد الأول - المجلد الواحد والعشرون
ابريل - مايو - يونيو
قسم خاص عن
الطاقة النووية

ترحب المجلة باسهام المتخصصين فى الموضوعات التالية :

(أ) الطاقة النوويـــة

(ب) الإعلام المعاصـر

(ج) الفكر العربى المعاصر

(د) مـدارس النقـــد الأدبـــى

دائرة الحوار (دعوة لاضافة باب جديد في « عالم الفكر »)

إن الطبيعة الجادة للدراسات والبحوث التي تنشر في « عالم الفكر » تعني ، بحكم التعريف في حالات كثيرة ، أنها لاتمثل فصل الخطاب أو جّماع القول في الموضوع الذي تتناوله . وفي سعي « عالم الفكر » الحثيث لتحقيق المزيد من التواصل مع قرائها ، فإنها تنظر في أمر إضافة باب جديد فيها بعنوان « دائرة الحوار » ، تنشر فيه ما تتلقاه من تعليقات مركزة وجادة ومتعمقة ، وملتزمة بالمنهج العلمي وأدب الحوار في التعليق ، مع ردود كتاب الدراسات الأصلية على هذه التعليقات . وتتطلع « عالم الفكر » إلى أن يصبح هذا الباب منبرا لتبادل ثريّ ومفيد للآراء يمثل إضافة مجدية لما تنشره من دراسات وأبحاث ، وبما يحقق تفاعلا فكريا مطلوبا ومحمودا بين قرائها وكتابها .

و « عالم الفكر » تفتح الباب ، على سبيل التجربة ، لقرائها لرفدها بتعليقاتهم فيها بين ٥٠٠ ـ ١٠٠٠ كلمة ، حول ماينشر فيها . فإذا ما وضحت استجابة القراء والكتّاب للفكرة ، وأدركت الاسهامات حجما معقولا ومستوى لائقا يبرر إضافة مثل هذا الباب ، بشكل غير دوري ، فسوف تبادر إلى ذلك ، شاكرة لقرائها وكتّابها حرصهم على التفاعل البناء معها وفيها بينهم لزيادة عطائها الفكري .

مجلس الادارة

ـة الإمارات	٧	دراهم
ـعودية	٦	ريالات
ـطـر	٤	ريالات
ـحرين	٥٠٠	فلس
ـمن الشمالية	٥٫٥	ريال
ـمن الجنوبية	٤٠٠	فلس
ـراق	٤٠٠	فلس
ـنان	٥٠	ليرة
ـردن	٣٠٠	فلسًا

سوريا	٥	ليرات
القاهرة	٤٠	قرشًا
السودان	٣٠٠	مليمًا
ليبيا	٥٠	قرشًا
مسقط	٥٠٠	بيسة
الجزائر	٦	دنانير
تونس	٦٠٠	مليم
المغرب	٧	دراهم

ـشتراكات:

ـلاد العربية ٥ دنانير
ـلاد الاجنبية ٦ دنانير

ـل قيمة الاشتراك بالدينار الكويتي لحساب وزارة الاعلام بموجب حوالة مصرفية خالصة المصاريف
، بنك الكويت المركزي، وترسل صورة عن الحوالة مع إسم وعنوان المشترك إلى :

ـارة الاعلام ـ الاعلام الخارجي ـ ص.ب ١٩٣ الرمز البريدي 13002 الكويت

مطبعة حكومة الكويت

الثمن
٤٠٠ فلس

